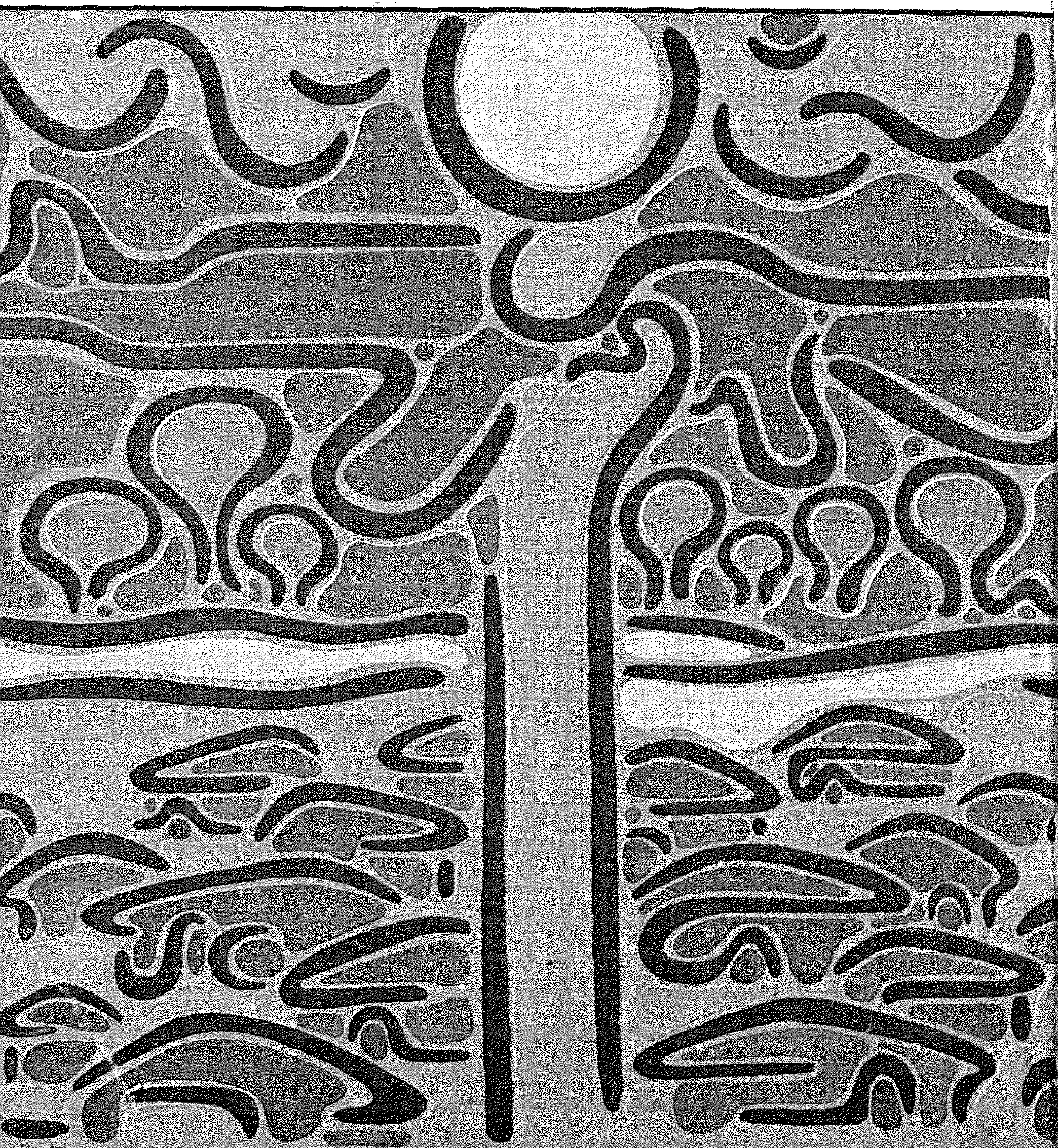
شؤون فلسطينية

١٠٤ تموز (يوليو) ١٩٨٠



شؤون فلسطينية

١٠٤ تموز (يوليو) ١٩٨٠

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

المحتويات

لوحة الغلاف من اختيار الاتحاد العام للفنانين التكشيليين الفلسطينيين ، للفنان حلمي التوني

المدير العام : صبري جريس ❋ رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : فيصل حوراني

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) رأس بيروت ــ لبنان ، ص . ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير والتوزيع ٢٥١٢٦٠ ، برقيا : مرابحاث ، بيروت .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل . ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل . ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل . ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

شفيق الحوت

جماهيرنا بحر وفدائيونا حيتان

كان ذلك في نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٩ ، عندما تلقيت الدعوة للتحدث في ندوة عن « الشرق الأوسط » أمام جمهرة من أساتذة وطلبة جامعة هارفرد في بوسطن . وكان الموضوع المحدد لي يتناول « المفهوم الفلسطيني للسلام » ؛ أي ، بعبارة أخرى ، شرح موقف منظمة التحرير الفلسطينية الرافض لاتفاقيتي كامب ديفيد اللتين كانت وسائل الاعلام الامبريالية قد صورتهما كأضخم إنجاز للسياسة الأميركية في التمهيد لسلام دائم في المنطقة .

وليس الهدف من هذا الحديث تسجيل ما جرى من حوار في تلك الندوة ، على أهمية ذلك ، وإنما التعرض لنقطة واحدة بالذات أثارها أستاذ بولوني الأصل ، جمعته مع بيرجينسكي وحدة النشأة وزمالة المهنة ، وفرقته عنه خلفيته السياسية وتطلعاته المستقبلية .

فبعد أن شهدت الندوة هجمة ضارية من الأسئلة والتعليقات حول عملياتنا الفدائية التي يصرون على تسميتها بـ « الارهاب » ، وقف هذا الأستاذ العميق الفهم لتجارب الشعوب النضالية ، ليشير إلى نقطته مع حرص ذكي على طرحها على شكل سؤال .

وكان آخر من تحدث قبله ، زميل له ، هو الدكتور ستانلي هوفمان ، أحد كبار المتخصصين في شؤون الشرق الأوسط ، وأحد الطامحين الى منصب في الادارة الأميركية ومن خصوم هنري كيسنجر . قال هوفمان متسائلاً ، بعد مقدمة أظهر فيها بعض التعاطف مع مطالب شعب فلسطين :

« ولكن ألا تشعر معنا هنا ، بأن العمليات الحربية التي تقومون بها ، ويذهب ضحية لها عدد من الأبرياء تسـيء إلى نضالكم وتبتعد بكم عن عطف وتأييد الرأي العام لكم ؟ » .

ومما رددت به عليه :

« الحرب ، كل الحرب ، هي في حقيقتها فعل إرهاب . ومشكلتنا كشعب فقير أن وسائلنا بدائية وبسيطة . ومن المؤسف أن يبدو لنا القتال بالسكين ، مثلاً ، كعمل إرهابي بربري ، بينما قصف الناس بالقنابل المتنوعة من طائرات تكاد لا ترى ، يبدو عملاً حربياً ومقبولاً ! » .

وأضفت وأنا أشعر بأنني لم أكسب الحضور إلى جانبي بعد :

« مع ذلك ، فاني أدرك أهمية هذه الملاحظة ، وأعتقد أن علينا أن نكون أكثر دقة في اختيار أهدافنا العسكرية » .

ووقفت قليلاً قبل أن أسأله :

« ما رأيك لو ركزنا عملياتنا الداخلية ضد المستوطنات التي تقام في الأراضي المحتلة مثلاً ؟ » .

ولم أعد أذكر من بادر للرد على هذا السؤال ، ولكني أذكر قول أحد الحضور :

« أعتقد أن المستوطنات أهداف مقبولة ، خصوصاً ان الرأي العام الدولي ، بما في ذلك الولايات المتحدة نفسها ، يدين إقامتها ويعتبرها غير شرعية » .

عند هذا الحد وصل الحوار ، عندما تقدم الأستاذ البولوني ، ليطرح وجهة نظره على شكل سؤال ، فقال :

« أظن أن من الصعب علينا ، ان لم يكن مستحيلاً ، أن نتفق في هذه الندوة أو خارجها على قاموس سياسي مشترك ، لاننا في الحقيقة مختلفون في مواقفنا حول القضايا التي نبحث فيها . وستبقى أنت ومعك كثيرون تصر على وصف نضالكم بأنه عمل ثوري ، وتجد من يصر على أنه عمل إرهابي . أنت تسمي المقاتل الفلسطيني « ثائراً » وفي المقابل نجد من ينعته بـ « الارهابي » . ولن ينحسم الموضوع ، ولن تتوحد التسميات إلا بعد أن يتقرر مصير الصراع الدائر بينكم وبين أعدائكم . وكلنا يشهد اليوم أن عدداً كبيراً ممن وصفوا ذات يوم بالارهابيين ، أصبحوا اليوم يخاطَبون كرؤساء دول وحكومات ، ويتسابق إلى ودهم ورضاهم اولئك الذين كانوا يتهمونهم بالارهاب والبربرية ؛ لذلك فاني لن أخوض في حوار عقيم ، وقناعاتي حول هذا الموضوع محددة وثابتة ولا أطمح لتغيير قناعات غيري ممن يرفضون أخذ العبرة من تجارب الشعوب عبر التاريخ . ولكني قلت ما قلت تمهيداً لسؤال أعتقد أنه ضروري » .

سكت قليلاً ، وكأنه يفكر بانتقاء كلماته ، ثم قال :

« أنا واثق بأن شعب فلسطين ، مثل أي شعب آخر فوق هذا الكوكب ، يعشق حريته وحقه في سيادة نفسه . وبالتالي فهو ضد الاحتلال الاسرائيلي ولا يمكن أن يستسلم له مهما تعرض لأنواع القمع الجماعي والارهاب المنظم الذي تقوم به إسرائيل . فمهما فعلت إسرائيل ، فانها لن تتفوق على من سبقها من قوى النازية والعنصرية وكل الايديولوجيات الاستعمارية . وفي النهاية ، لا بد للشعب من أن ينتصر وان ينتزع حقوقه الوطنية والانسانية ... من هذا المنطلق ومن هذا الفهم أريد أن أطرح سؤالاً محدداً يتعلق بما يعرف بـ « النضال الجماهيري » .

قال مستطرداً :

« مع كل تقديري لظروفكم النضالية ، فاني أشعر أحياناً بأن منظمة التحرير الفلسطينية لم تعط هذا البعد النضالي ما يستحقه من عناية واهتمام . وهو في رأيي بعد لا يقل أهمية عن

النضال المسلح والنضال السياسي وكل أنواع النضالات الأخرى . أكثر من ذلك أنا من المؤمنين بأن النضال الجماهيري هو أب هذه النضالات جميعها » .

واستفاض الرجل بعمق وهو يتحدث عن هذا النضال قبل أن يختتم كلامه بالسؤال عن رأيه فيما قال .

وعلى الرغم من محاولتي الرد على سؤاله ، وتذكيره بما يجري في الضفة والقطاع ، وحتى في المثلث والجليل ، ثم الاشارة الى صعوبة الاتصال بجماهيرنا في الداخل مما يضطرنا أحياناً لركوب البحر ؛ على الرغم من هذا كنت أشعر أننا ـ هو وأنا ـ نعرف في أعماقنا أنه يمكن العمل أكثر من ذلك ، وان الجماهير لم تنزل بعد بثقلها الحقيقي الى ميدان الصراع .

وانتهى الحديث بيننا بتمنيات مشتركة ، لم نقلها باللسان جهراً ، وإنما نقلتها العيون ببريق الأمل والثقة في المستقبل .

كما قلت في البداية ، كان ذلك في نيسان (ابريل) ١٩٧٩ ، ونحن اليوم على مسافة عام من ذلك اليوم ، فأين الفارق ما بين نيسان ١٩٧٩ ومثيله من سنة ١٩٨٠ ؟

باستطاعتي اليوم ، لو التقيت بصديقي الأستاذ البولوني ، أن أكون أكثر ثقة واعتزازاً بشعبنا وبثورتنا . وأظنه سيكون أكثر سعادة واطمئناناً لأن ثورتنا أدخلت هذا البعد النضالي الهام في استراتيجيتها ، ان لم أقل بأن جماهيرنا في الوطن المحتل بادرت من تلقائها ، ودون مزيد من الانتظار لاستكمال شروط التعبئة والتحضير ، لممارسة دورها النضالي ، معتمدة على رصيدها الذاتي وقدراتها الكامنة وبالأسلحة التقليدية المتوفرة ابتداء من العصي والحجارة وما يمكن أن يصنع داخلياً من أسلحة وذخائر . ولكن أهم هذه الأسلحة وأفتكها هو وعي الجماهير دورها النضالي كجماهير واستردادها لزمام المبادرة في التحدي والتصدي لقوى الاحتلال الصهيونية .

ولا شك في أن الاخ فهد القواسمة قد لخص ثورة الجماهير القائمة في الوطن المحتل بجملة جامعة مانعة ، عندما قال : « ان حجارة أطفالنا في فلسطين ترهب العدو أكثر من مدافع الأنظمة الصامتة » . ولعل في ما اعتمدته السلطات الصهيونية من وسائل قمع وارهاب للرد على هذا النضال الجماهيري ما يؤكد مقولة الأخ القواسمة ، ويفضح من جديد حقيقة الدولة العبرية وعقيدتها أمام الرأي العام العالمي ، ويضعها في زاوية خانقة جنباً إلى جنب مع كل مثيلاتها من الكيانات العنصرية الاستعمارية ، والمحكومة تاريخياً بالزوال .

فعندما اندلعت شرارة هذا النضال الجماهيري المتصاعد بضرب هدف داخل مدينة الخليل ، لم يستطع أي مرجع دولي ، رسمي أو غير رسمي ، تسمية ذلك بـ« العمل الارهابي » دون أن يثير السخرية على نفسه ، أو أن يكشف القناع عن وجهه كصهيوني استعماري عنصري . عملية الخليل لم تعط أية فسحة لنفاق سياسي أو لتلاعب على الألفاظ . فالتواجد اليهودي في الخليل ، كما في غيرها من الضفة والقطاع ، قضية لم يستطع العالم الغربي الامبريالي الاقرار بها وتشريعها . من هنا كان الحرج : هذا اذا كان هناك ثمة ما يحرج الامبريالية أو يثير خجلها أمام افلاسها السياسي .

وكما كان الهدف موفقاً ، كذلك كانت الأداة التي نفذت ، بما في ذلك السلاح الذي استعمل . فالمقاتلون هذه المرة لم يأتوا من خارج الأرض المحتلة : لم يركبوا البحر ولم يتسللوا من حدود . هم من داخل السجن الكبير ، وربما من الخليل ذاتها . إذن ، هي عملية ثورة في الداخل ، لم يوردها « ارهابيو منظمة التحرير الفلسطينية » من الخارج كما تركز الدعاية الصهيونية باستمرار ، لتوحي زوراً أن لا مشكلة لاسرائيل في الداخل . حتى السلاح ، وباعتراف العدو وبتصريح رسمي ، مصنوع في الداخل . وهذا يشير بكل الوضوح الى مدى وعمق التصميم الشعبي على منازلة العدو وتصفية احتلاله .

أما ما هو أعظم ويحمل كل الدلائل والمؤشرات الخطيرة ، ان الذين نفذوا العملية قد أفلتوا من قبضة « الجيش الذي لا يقهر » . افلتوا إلى أين ؟ إلى أي كهف أو مغارة ، أو أية بئر مهجورة ، أو أي واد بلا قرار ؟ لا . هذه كلها لا تكفي ولا مأمن لها . فدائيو تلك العملية اختبأوا في ضمائر جماهيرهم . وعندما تتحول الجماهير الى بحر ، يصبح الفدائيون سمك هذا البحر وحيتانه . وهذه هي البداية : بداية النقلة النوعية في التنسيق بين المقاتل الثوري وجماهير شعبه ، وهي بداية الحرب الشعبية التي لا نهاية لها غير النصر .

لقد أسقط في يد « اسرائيل » الدولة ، و« اسرائيل الجيش الذي لا يقهر » وأحست ببداية النهاية فلجأت ، وبأسرع مما توقع أي مراقب ، إلى « إرهابها التقليدي » ، فبعثت الحياة في « ارغونها وشتيرنها » فيما يسمى اليوم بـ « الجيش السري الإسرائيلي » على غرار ما حدث في جيش فرنسا بالجزائر يوم تعاظمت ضربات الثوار .

أفلست « اسرائيل الدولة » بأسرع مما توقع أشد خصومها ، فكشفت القناع ، وارتكبت الجريمة البشعة ، محاولة اغتيال رموز جماهيرنا من رؤساء البلديات . ان سيقان بسام الشكعة وكريم خلف هي الشواهد المشاعل على حقيقة « اسرائيل » دولة وعقيدة وأخلاقاً .

لم تستطع « اسرائيل » طردهم أو سجنهم ، فعمدت إلى محاولة إغتيالهم . ومن لم يكن متوقعاً ذلك من « اسرائيل » فانه لا يفهمها وسيقضي عمره دون أن يفهمها . إن « أمن إسرائيل » ، بالمفهوم الصهيوني ، يعني تصفية كل فلسطيني بالوراثة أو بالإنتماء الثوري . و« وجود اسرائيل » ، بالمفهوم الصهيوني ، يعني شطب « وجود فلسطين » من الخريطة الجغرافية والتاريخية : نقيضان لا يلتقيان . إذا قبلنا نحن بالتعايش فهم لن يقبلوا ، وهم أدرى منا بهذه « الحقيقة » ، لأنها من اختراعهم ومن بقايا الكذبة الكبرى التي تبرر وجود كيانهم .

حقاً لقد بدأت المعركة التي لا نهاية لها إلا بالحسم المصيري .

إنها معركة الجماهير التي دخلت المعركة بكل قواها ، وفي الطليعة قوة الإيمان القادرة على زحزحة الجبال وإدخال البعير الصهيوني في خرم الابرة الفلسطينية .

ولن يرهب شعبنا شيء بعد اختراقه جدار الخوف ، ولن يثني شعبنا وهم أو سراب وقد تجاوز نقطة اللارجوع ، ولن يدخر شعبنا الثمن المطلوب لتحقيق النصر وقد تساوت عنده الشهادة أو النصر .

إنها البداية ، بداية النهاية : نهاية الظلم والإستعمار والعنصرية : نهاية الكيان الصهيوني العنصري .

محمود عباس (أبو مازن)

الحكم الذاتي
مباحثات لمن لا يملك الحق
وتنازلات لمن لا يستحق

الحكم الذاتي الكامل الشامل للفلسطينيين ، والحكم الاداري الذاتي ، والحكم الذاتي للافراد وليس للارض ، دوامة تعيشها المنطقة العربية وتتابعها وتتحدث عنها ، ويؤمل البعض خيراً ، ويرى البعض فيها الفشل ، تنجح يوماً وتحرز تقدماً ملموساً يوماً آخر ، وتتبعثر يوماً ثالثاً وتنتقل اللجان بين هرتسليا والاسكندرية ، وتشغل اسلاك الهاتف بالمباحثات الشفوية ، ويدور الرسل بين المدن والرؤساء والوزراء ، وتتناقض التصريحات وتثور الخلافات والتكذيبات والتصحيحات ، وتقوم الدنيا ولا تقعد ، ثم تقعد ولا تقوم . دوامة عمرها سنة ومشكلة عمرها سنتان ، واغنية الشيطان التي تبدأ ولا تنتهي . اميركا مشغولة بالفلسطينيين وحكمهم الذاتي ، واسرائيل تتحدث عن الفلسطينيين وحكمهم الذاتي الاداري ، ومصر تقول للفلسطينيين حكم ذاتي شامل . والبعيد عن هذه القضية الطويلة الفلسطينيون فقط اصحاب الحق واصحاب المشكلة واصحاب الرأي .

بعيدون لأنهم غير معنيين بهذه القصة ، من بدايتها وحتى نهايتها ؛ بعيدون لأنهم غير مؤمنين بصدق النوايا وبصحة الفحوى ؛ بعيدون لأنهم رفضوا ، منذ زمن بعيد ، مقولة الوصاية والولاية ووضع اليد ، بعد أن شبوا عن الطوق وحملوا السلاح وقالوا في قضيتهم ما قالوا ، ولم يعد لاحد ان يقول بعدهم او يتحدث بعدهم وعنهم وباسمهم .

ولكن ماذا تفعل أطراف المفاوضات ، وما هي آفاق عملها ، وما هي مخططاتها ، وهل يكفي ان نقول ان الامر لا يعنينا حتى ينتهي الأمر ، وهل في النية التوجه نحو نقاط ضعف لا نعرفها او نعرفها ونفعلها ؟ .

قبل ان نجيب على هذه الاسئلة ، لأننا لن نكتفي كالآخرين بأن نقول لا ثم ننام على حرير معتمدين على لا شيء في مقاومة هذه المشاريع ، بل لا بد من الاجابة عليها ، وقبل ذلك علينا ان نشير هنا الى مسلمتين اثنتين في السياسة الاميركية تجاه الشرق الاوسط .

الاولى : أن اميركا تسعى نحو الامن وليس السلام في المنطقة : الامن الذي يضمن لها

مصالحها المتمثلة اساساً في البترول ، ثم في طرد النفوذ السوفياتي من المنطقة ، وكذلك الحرص على حياة دولة اسرائيل باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من أمنها ، وباعتبارها نقطة ارتكازها في محافظتها على مصالحها الحيوية في المنطقة .

الثانية : رفض اي مشروع او حل من شأنه ان يوصل الفلسطينيين الى دولة مستقلة ذات سيادة ، لان مثل هذا المشروع سيكون خطراً مزدوج الأثر في المنطقة ، سواء بالنسبة لاسرائيل ذاتها او بالنسبة لمصالح اميركا الأخرى .

هاتان الركيزتان هما اساس السياسة الاميركية في المنطقة ، ومن خلالهما تسيّر كل امورها وتوجه مباحثاتها ومندوبيها ومبعوثيها ، ولا يمكن لها ان تتنازل عن واحدة منها الا اذا تغيرت المعادلات الدولية وموازين القوى بحيث تجبرها على فعل ذلك .

ولتحقيق هذا فهي تسعى لتشمل المنطقة العربية كلها برعايتها وتضعها رهن سياستها ، وهدفها الاساسي زيادة تمزيق الصف العربي حتى لا يتمكن في اي وقت كان من ان يجيّر امكاناته الهائلة الجبارة في الضغط بشتى اشكاله نحو تحقيق حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية . نقول زيادة تمزيق الصف العربي لانه ، في وضعه الراهن ، ممزق رغم كل تعبيرات القاموس العربي عن التضامن والوحدة والتعاون والتنسيق والتفاهم وغيرها .

من هنا كان دور الدبلوماسية الاميركية تقسيم البلاد العربية الى « مناطق مشاكل » ، كل منها تشمل مجموعة من الدول لها ولمشاكلها طابع خاص يجعلها مع الزمن تتقوقع على نفسها وتنكفىء على ذاتها وتحيط نفسها بسياج وهمي بادعاء أنه حماية لها . وكل « منطقة مشكلة » تتنافر مع الاخرى وتتنافس وتتحارب وضمن كل « منطقة مشكلة » مشاكل فرعية وقضايا ثانوية ونزاعات مصلحية او شخصية ، بحيث يقوم العالم العربي على سطح فاسد من الخلافات المؤدلجة فسيتنفد بذلك كل طاقاته ، ويهدر كل امكاناته ، ويتحول بشكل نهائي عن لب المشكلة واساسها ، وينسى ، في زحمة قضاياه اليومية ، قضيته المزمنة : فلسطين .

وفي البيت الابيض جرى تقسيم البلاد العربية الى مناطق مشاكل على النحو التالي :

١ ـ **القضية الفلسطينية** : ومنطقة المشكلة هي الارض المحتلة والاردن وسورية ولبنان .

٢ ـ **قضية النفط** : ومنطقة المشكلة هي الجزيرة العربية (المملكة السعودية والكويت وقطر والبحرين والامارات) .

٣ ـ **الوجود السوفياتي**: ومنطقة المشكلة هي العراق واليمن الجنوبية وسوريا وليبيا .

٤ ـ **قضية الصحراء** : ومنطقة المشكلة هي الجزائر والمغرب وموريتانيا .

٥ ـ **ومنطقة المشكلة الأخيرة** : هي مصر والسودان والصومال .

وقد بدأ العمل في اميركا على ترسيخ طبيعة خاصة لمناطق المشاكل هذه : بحيث تصبح ، مع الزمن ، مناطق اقليمية لها طابع خاص يفصلها عن المناطق الأخرى ، كما يبعدها بشكل رئيسي عن القضية الام ، وتصبح مجمل اهتماماتها بما لديها وضمن اطارها . وتطمح اميركا

الى أن يصبح هذا الشكل من التقسيم امرا واقعا كالتقسيم الاقليمي الذي فرضه الاستعمار في مطلع هذا القرن . وبالرغم من رفض الشعوب له ومناداتها بمحاربته وشجبه ، فان الممارسات العامة لكل الحكام المتعاقبين على مراكز السلطة في هذه الدول كرسوا تلك الحدود ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من واقعهم وواقع اوطانهم ، بالرغم من حديثهم الذي لا ينقطع عن الوحدة والاتحاد .

هذا جانب من الاستراتيجية الاميركية في المنطقة : والجانب الآخر هو محاولة ضرب وحدة الشعب الفلسطيني وتسريب عناصر اليأس والملل الى نفوس ابنائه ، بحيث يمكن ان يتقبل اي حل يجمّل الاحتلال ويحسّن صورته لديهم ، وهذا يتطلب العمل ضمن خطين اثنين :

الخط الاول : الضغط المستمر الذي تمارسه إسرائيل على الشعب الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال ، ويتمثل هذا الضغط في عناصر مهمة ومتشعبة تصب كلها في خانة اضعاف صموده وزعزعة ايمانه والنيل من معنوياته ، واهم عناصر الضغط فيه هي :

١ ـ بناء المستوطنات : فمنذ الاحتلال الثاني عام ١٩٦٧ ، بدأت القيادة الصهيونية بناء مستوطنات تشكل أحزمة تحيط بالتجمعات السكانية في الضفة الغربية وقطاع غزة بحيث تعزل هذه التجمعات عن بعضها البعض ، وتمنع اي اتصال بين السكان الفلسطينيين في الوقت المناسب ، كذلك فانها تستولي على اخصب الاراضي واجودها : الامر الذي يجعل ابناء الشعب الفلسطيني ، نتيجة مصادرة اراضيهم يرحلون الى خارج الارض طلباً للرزق والحياة . وبمرور الوقت تصبح هذه المستوطنات امراً واقعاً ومقبولاً ، كما وتكون بالتالي اهم عنصر مساومة بيد الحركة الصهيونية للمستقبل . فاذا عرفنا ان الضفة الغربية تحتوي الآن على ثمانين مستوطنة من احجام مختلفة ، وان مدينة القدس العربية وحدها تحتوي على اكثر عن خمسة احياء يهودية كاملة ، وان مجموع الاراضي التي سيطرت عليها حكومة اسرائيل تساوي ٢٨٪ من مجموع مساحة الضفة الغربية ، وأن الضفة الغربية لا تساوي اكثر من ١٩٪ من كل ارض فلسطين ، اذا عرفنا كل هذا نصل الى النتيجة التي تتوخاها الحركة الصهيونية من وراء موجة الاستيطان هذه . وبالرغم من ان مجموع المستوطنين في المستوطنات لا يتجاوز اثني عشر الفاً ، فان هذه المستوطنات معدة سلفاً لاستقبال أية اعداد من المهاجرين الجدد الذين تترقبهم الحركة الصهيونية نتيجة اثارتها لموجات اللاسامية التي تفتعلها بين الفينة والأخرى في البلدان والاقطار التي تعيش فيها جاليات يهودية . ان الهدف الاول ، كما اسلفنا ، من بناء هذه المستوطنات ، بالاضافة الى التهام الارض ، هو ترحيل السكان العرب تطبيقاً لنظرية بيغن باعتبار الحكم الذاتي للافراد وليس للارض . فاذا رحل الافراد تبقى الارض صهيونية وتحل المشكلة تلقائياً .

٢ ـ العمل والعمال : منذ الاحتلال الثاني عام ١٩٦٧ ، اتخذ رحيل الفلسطينيين عن الارض اتجاهين : الاول نحو الضفة الشرقية ومن ثم الى بلدان الخليج والنفط : والثاني نحو *الارض المحتلة عام* ١٩٤٨ بحثاً عن العمل في مصانع العدو ومعامله ومزارعه واداء الاعمال الشاقة التي تعوض الاسرائيليين غياب الشباب سواء في الاحتياط العسكري او بسبب تدني نسبة الهجرة العادية . وقد كان عدد هؤلاء لا يقل عن مئة الف شاب وطفل وفتى يعملون لدى

الاسرائيليين بأسعار زهيدة وبشروط لا انسانية ، وذلك في غياب الرعاية العامة والاهتمام الخارجي بمصير ومستقبل هؤلاء ؛ الامر الذي حقق لاسرائيل هدفين : احدهما اقتلاع الشباب من الارض وابعادهم عنها ومن ثم اهمالها وتركها عرضة للبيع او المصادرة او الاهمال : وثانيهما يأتي في وقت تمتنع فيه اسرائيل عن عرض العمل على هؤلاء مما يجبرهم على مغادرة البلاد نهائياً الى الخارج ، وبالتالي افراغها من اهلها .

٣ ـ ارتفاع الاسعار : لا يقابل ارتفاع الاسعار الجنوني في « اسرائيل » والمناطق المحتلة وانخفاض سعر العملة الاسرائيلية اية زيادة في الاجور او الدخل الخاص بالفلسطينيين ، بحيث يكون الدخل الفردي في تراجع مستمر حتى يصل الى مرحلة يصبح الانسان فيها عاجزاً عن الحصول على ضروريات الحياة ، وبالتالي لا يجد امامه منفذاً آخر ولا خياراً آخر غير الرحيل الى الخارج وقطع صلته بالأرض مضطراً .

٤ ـ الترحيل وهدم البيوت : ان العقوبات الجماعية التي تطبقها القوات الاسرائيلية على الشعب الفلسطيني ، تشمل الترحيل وفرض الغرامات وهدم البيوت ، بحيث تصبح العائلة بلا معيل يعتني بها ويهتم بشؤونها كما تصبح في العراء بسبب العقوبات الجماعية . ان آلاف البيوت التي هدمت وآلاف الاشخاص الذين رحلوا منذ الاحتلال حتى الآن تضع السياسة الاسرائيلية تجاه الارض المحتلة على المحك العملي ، الهدف الاساسي منها اصبح معروفاً ولا حاجة للتكرار .

يضاف الى كل هذا السيطرة الكاملة على مصادر المياه في الضفة والقطاع ، وحرق المزروعات والتضييق على تصديرها ، ومحاربة المزارعين واصحاب المزارع ، والحيلولة دون قيام اي نوع من الصناعة وغير ذلك ؛ فكل هذه الاسباب والابواب تخدمّ الغرض الاسرائيلي في اخلاء الارض من سكانها او املاء الحلول التي تحقق مصلحة اسرائيل عليهم ؛ وذلك بما يضمن لها السيطرة الكاملة على الارض الفلسطينية والاستفادة من الفلسطينيين يداً عاملة رخيصة تؤدي لها الخدمات التي تريدها ، بحيث يصبح الفلسطينيون مع الزمن اقلية مبعثرة في شوارع المدن والمستوطنات والمستعمرات الاسرائيلية ، لا يملكون البيت ولا يملكون الارض ولا يملكون شيئاً .

هذا هو الخط الاول الذي تسير عليه السياسة الاسرائيلية الاميركية في الارض المحتلة ؛ هذه السياسة التي بلغت ذروتها هذه الايام ، كما وصلت الى اقصى مداها الشرس .

والخط الثاني : يتلخص في بذل كل الجهد لمحاولة تنكيس البندقية الفلسطينية وانتزاعها من أيدي المقاتلين ، وتهديم المخيمات على رأس أهلها ، والسعي الحثيث لفك الارتباط بين الشعبين اللبناني والفلسطيني ، ولتسليط القوى الانعزالية لتأخذ جانباً من هذا المخطط بعمليات استنزاف يومية هدفها القضاء المبرم على رمز الكفاح الفلسطيني وتحطيم معنويات الشعب اللبناني من اجل تخليه عن موقفه النضالي البطولي والاسطوري في دعم الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية . لذلك نجد ان الهجمات المستمرة على الجنوب اللبناني لا تنقطع بحيث تبقى كل القوى الوطنية مشغولة ومنشغلة حتى يأتي الوقت المناسب والظرف الدولي المناسب الذي تهيئه اميركا ، لتنقض اسرائيل وحلفاؤها على الفلسطينيين وحلفائهم ، وتنهي « اسطورة » الكفاح الفلسطيني بشكل كامل . ولقد حاولت في عدة مناسبات ومنذ عام ١٩٦٩

وحتى هذا التاريخ القيام بجملة عمليات اكتساح ، ولكنها ، حتى هذه اللحظة ، لم تحقق اياً من اهدافها ، وبالتالي باءت كل جهودها ونشاطاتها بالفشل الذريع .

ان معادلة الكفاح الفلسطيني المرير تمثل قنطرة متينة مبنية على اساسين اثنين : اولهما صمودالشعب الفلسطيني داخل الارض المحتلة : وثانيهما البندقية الفلسطينية في الخارج . هذه القنطرة تنتج نضالاً سياسياً واعلامياً وعسكرياً وجماهيرياً رائعاً . وتثمر باستمرار مزيداً من التأييد لقضية الشعب العادلة ، وتحقق مزيداً من الانتصارات له . كما تنتج مزيداً من العزلة للعدو الصهيوني . ونلاحظ ان هذين الاساسين يعتمد احدهما على الآخر في بناء الجسر او القنطرة ، ولا يستطيع احدهما ان يحقق منفرداً ما يحققانه مجتمعين . ولذلك ، فان ما تسعى اليه السياسة الاميركية هو تحطيم احد طرفي الجسر ليسهل التهام الآخر . وان كانت في الواقع تسعى الى تحطيم الجسر بطرفيه لتتخلص مما تراه « سرطاناً » في منطقة الشرق الاوسط . ولو أعدنا قراءة ما كتبناه مرة أخرى لرأينا ان هذه السياسة تسعى لتحقيق هذا الهدف من جملة الممارسات التي مررنا عليها .

ومباحثات الحكم الذاتي والتسريبات التي تحاول الاطراف ايصالها الى مسامع الجماهير، هي جزء من عمليات تحطيم الجسر، في محاولة منها لدغدغة عواطف ضعاف النفوس في الوصول الى بعض المكاسب الوهمية والتمني بالوصول ايضاً الى ما هو افضل وافضل حتى يتم ، حسبما تقول مصر ، حصول الشعب على كامل حقوقه . وحتى نعرف بالضبط ماذا يجري ضمن كواليس المفاوضات ، نورد هنا ان نقاطاً اربعاً يجري البحث حولها وتطرح الأفكار بشأنها ، وجميع هذه النقاط تشكك بحق الشعب الفلسطيني بالارض الفلسطينية وتعطي اسرائيل الحق ، كل الحق ، في تقرير مصيرها منفردة بحضور الطرف المصري كشاهد زور . وهذه النقاط هي :

١ ـ حق سكان القدس العرب بالانتخابات لما يسمى بالمجلس التشريعي او الاداري ، باعتبار ان موضوع القدس لم يرد في اتفاق كامب ديفيد .

٢ ـ كيف يمكن ان تدار « الارض » ، ومن هو صاحب الحق في ادارتها وملكيتها ؟

٣ ـ كيف يمكن ان تستغل « المياه » ومن هو صاحب الحق في ملكيتها ؟

٤ ـ موضوع الامن في الضفة والقطاع ، وما هو الدور الذي سيعطي لسلطة الحكم الاداري الذاتي فيه ، او بمعنى ادق ما هو الجزء الذي يمكن ان تتخلى عنه السلطة العسكرية الاسرائيلية ؟

ولقد رفضت اسرائيل ، من حيث المبدأ ، الدخول في حوار حول النقطة الرابعة باعتبارها من المقدسات التي لا يجوز المساس بها ، ولا يجوز الحديث عنها . ولكن اياً كانت نقاط البحث والاتفاق والخلاف ، فهذا امر لا يهمنا كثيراً او قليلاً لان من يتحدث عن فلسطين وارض فلسطين لا يملك الحق في ذلك ، ومن يتلقى التنازلات والتسهيلات لا يستحقها . فصاحب الحق في القول الفصل بعيد بعيد عن كل هذا ، وقد عبر عن رفضه واستنكاره وشجبه بكل وسائل التعبير ، ابتداء من القاء الحصا والتسلح بالعصا ، مروراً بالاضراب والتظاهر والاعتصام ، وانتهاء

بالمدفع والرشاش وتقديم التضحيات بشلالات الدم التي لا تنقطع ، ولكن : الى متى يمكن ان يصمد شعبنا امام كل هذه الهجمات التي لا تنتهي ، وامام الضغوط الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وامام القهر القومي والعنصري والعرقي الذي تمارسه الحركة الصهيونية ؟ والى متى يمكن ان يحتمل شعبنا الترحيل الجماعي وهدم البيوت الجماعي والعقوبات الجماعية ؟ والى متى يمكن ان يصبر على التجويع والانتهاك والاذلال ؟ والى متى تبقى الثورة الفلسطينية تتصدى للهجمة الصهيونية الشرسة منفردة في الميدان ؟

لا يكفي ان نكبر ونهلل لصمود شعبنا في الداخل ، ولا يكفي ان نقول كلمة خير في عملية جريئة تقوم بها قوات الثورة الفلسطينية ، ولا يكفي ان نتحدث بالاعجاب عن بطولات شعبنا وانتفاضته الرائعة ، ولا يكفي ان نردد القصص والحكايا عن الشبان الذين تصدوا بالحجارة للضباط الاسرائيليين ، ولا يكفي ان نعرض قضية المبعدين على مجلس الامن وان يقوموا بمظاهرة عند الجسر توطئة لعودتهم الى بلادهم ، ثم لا يعودون .

من قال ان بيانا يصدر هنا ونشرة تصدر هناك وتصريحاً يذاع هنا ومقالة تكتب هناك ، تكفي لتدعم صمود شعبنا وتؤدي الى ثباته وتصديه للمحتل المستعمر ؟ من قال ان توجيه التحيات الحارة والشد على الايدي والتمنيات الطيبة والاقرار بالبطولة كافية ليستمر هذا الشعب في رفضه للتسويات والحلول المطروحة ومقاومته لها ؟ من الذي يستطيع ان يدعي معرفته حقيقة ما يجري داخل الارض المحتلة ، ومن يستطيع ان يزعم انه كلّف خاطره ببحث احوال شعبنا ونتائج الهجمات الشرسة عليه ومعاناته والصعوبات التي تواجهه ؟ من الذي يملك احصاءات عن الهجرة الاجبارية التي تتم سنوياً الى الوطن العربي وخارج الوطن العربي ؟ من الذي يقول انه قدم حلولاً عملية للمشاكل اليومية التي يصادفها شعبنا : كل فرد من شعبنا ؟ من الذي يعرف عدد سكان الضفة عام ١٩٦٧ وعدد سكانها الآن ، ولماذا هذا التناقص الخطر وما هي نتائجه ؟ ومن الذي يعرف عدد سكان قطاع غزة عام ١٩٦٧ وعدد سكانه الآن ، ولماذا هذا التناقص الخطر وما هي نتائجه ؟ من الذي يعرف اين يذهب الشباب واين يعملون واين يهاجرون ، وما هي نتائج تفريغ المنطقة من هذا العنصر الفعال في مقارعة الاحتلال ؟ .

هل حصل شيء من هذا ؟ ربما ! ولكن في حدود اللامبالاة التي هي اصل التفكير ونبع الممارسة : حصل في حدود رفع العتب والتحلل من المسؤولية ، حصل في مجال الادعاء والمفاخرة والمظاهر ، حصل بالاسلوب الذي لا يسمن ولا يغني .. كيف كان ذلك ؟

منذ الاحتلال لم يفكر احد بأهل الاحتلال . لا نقول احتلال عام ١٩٤٨ وانما الاحتلال الثاني الذي وضع في القفص الكبير مليوناً وربعاً آخرين من الشعب الفلسطيني تحت رحمة الصهاينة . واستمرت هذه اللامبالاة عشر سنوات عجاف ، واكتفى الجميع بكلمة لا .. للاحتلال . فاستراحوا واراحوا انفسهم من عناء التفكير وصعوبة البحث ومشاكل المتابعة ، وكأن الأمر لا يعني احداً ولا يخص احداً وليس ضمن مسؤولية أحد . وكأن مصير المليونين من شعبنا لا يهم المئة والثلاثين مليوناً من امتنا ، وليسوا جزءاً من هذه الامة . ولماذا نذهب بعيداً ؟ ألم نسمع ، ولا زلنا نسمع ، ان « عرب الـ ٤٨ » اسرائيليون لحماً ودماً وجنسية ؟ الم يكن امراً مشيناً ان يذكر احد منا احداً منهم ولو بالسوء ؟

عشر سنين .. مرت ، وهؤلاء ليسوا منا ولسنا منهم .. قولاً واحداً وعملاً واحداً وفكراً واحداً .

الى ان خرجت منظمة التحرير بمشروع لدعم صمود شعبنا في الداخل ، مشروع « التوأمة » بين البلديات الفلسطينية والبلديات العربية ، بحيث تتبنى بلدية عربية غنية بلدية فلسطينية محتاجة ـ وكل بلديات فلسطين محتاجة ـ واستمر السعي لهذا المشروع سنة كاملة ، وتطلب التنقل الدائم الدائب بين مختلف الاقطار العربية البترولية منها وغير البترولية ، وكان يرافق التنقل شرح مستفيض لحاجات شعبنا ومعاناته وظروفه القاسية وضغوط الاحتلال وسطوته ومحاولاته تفريغ البلاد من السكان . وكان كل ما يقال بهذا الصدد جديداً جديداً ، حتى ليظن الانسان ان كثيرين من السامعين لا يعرفون ان هناك احتلالاً وان هناك وطناً محتلاً . وكانت الحصيلة : الالتزام بنصف البلديات فقط ، والتي تشكل احدى وثلاثين بلدية . وتجاهل المجالس القروية التي تعد اربعة وستين مجلساً قروياً . ومع ذلك فقد كان الالتزام شيئاً ، والوفاء بالالتزام شيئاً آخر . ومن هنا اختلفت مواقف الدول العربية تجاه هذا الموضوع ، فبعضها التزم ووفى ، وشعبنا يعرف بالتحديد عن الذي التزم ووفى ، ولا حاجة لذكره هنا . وبعضها التزم ولم يف ، وشعبنا يعرف بالتحديد من الذي التزم ولم يف . وبعضها لم يلتزم وبالتالي لم يف ، وشعبنا يعرف ايضاً من الذي لم يلتزم ولم يف . بعض من الدول الفقيرة التزم ووفى ، وبعض من الدول الغنية لم يلتزم ولم يف .. تلك مفارقة ليست عجيبة ، ولكنها مؤلمة .

ووصلت بعض الاموال الى الارض المحتلة ، واحس شعبنا ـ رغم قلتها ، حيث انها لم تتجاوز الستين مليون دولار ـ احس بتضامن امته معه ، وان هذه الامة لم تنسه ولم تهمله ، وانها تدعم صموده وتشد من ازره وتضمد جراحه وتتألم لألمه .

ولكن ماذا تعني ستون مليون دولار بالنسبة لشعب كامل يعد مليونا وربع المليون ، وماذا تعني ستون مليون دولار بالنسبة لدول هي اغنى الدول في العالم ، حيث يبلغ دخلها مئات البلايين من الدولارات ؟ فلا هذا استفاد ولا ذاك أفاد .

وانتقلت منظمة التحرير الى مؤسسات الاحسان الاسلامية والعربية والى الصناديق الكثيرة المبعثرة هنا وهناك وباسماء مختلفة ، علها تحصل على بعض ما يسد الرمق لهذا الشعب المناضل . وكانت الحصيلة دريهمات معدودات لا تكفي شيئاً ولا تفي بشيء . الا ان « الفائدة » الكبرى التي كنا نحصل عليها باستمرار هي البيانات المطولة والخطابات البليغة والتصريحات الطنانة؛ ففي هذا المجال لم يقصر زعيم عربي او اسلامي على الاطلاق . ألا يكفي ان احد المؤتمرارت الاسلامية أقر ، بشكل قاطع وصريح وواضح ، أن القدس هي عاصمة فلسطين ، انه بهذا القرار « الجزئي » انقذ القدس من الاستيطان والضم والترحيل وهدم البيوت والاضطهاد ومنع التجول والتهويد !

وجاء مؤتمر بغداد لينهي ، قبل كل شيء ، مشروع « التوأمة » ويحل الدول العربية والبلديات العربية من التزاماتها تجاه البلديات الفلسطينية ، وليحل محل هذا الالتزام ، التزام حكومي من سبع دول عربية غنية بدفع مئة وخمسين مليون دولار لدعم الصمود في داخل الارض المحتلة ، وقرر وضع مئة منها تحت تصرف لجنة اردنية فلسطينية مشتركة توزعها على مشاريع الضفة والقطاع حسب الاولويات .

ولكن الحكاية نفسها تتكرر ، حكاية الالتزام والوفاء : اذ لا يعني ان من يلتزم امام اثنين

وعشرين رئيساً وملكاً وحاكماً لا بد ان يفي . فالالتزام شيء والوفاء بالالتزام شـيء آخر : الالتزام قرار والوفاء مزاج ، والمزاج عندنا نحن العرب ، اهم من القرار مهما كانت الجهة التي تصدر هذا القرار .

ونحن هنا لا نريد ان نذكر بالاسم من التزم ووفى ومن التزم ولم يف . فشعبنا يعرف جيداً ، وبالتفصيل ، من هذا ومن ذاك . واسماء هؤلاء وهؤلاء مطرزة على مناديل جداتنا وامهاتنا واخواتنا لتكون تاريخاً تعرفه الاجيال القادمة .

ذلك كل ما فعله العرب من اجل العرب ، منذ الاحتلال الثاني وحتى الآن . ترى لو كان مردود صمود شعبنا مقتصراً على ما يتناسب مع دعم العرب له ، فكيف تكون نوعية هذا الصمود ؟ وماذا يكون حجمه ؟ الا ان الشعب الخلاق ، الشعب الذي تعود منذ ثلاثة ارباع القرن على التحدي والنضال والكفاح ، واستوعب المصائب والمصاعب ، لا يوقف صموده على دعم من الآخرين ولن يفعل ذلك ؛ بدليل ان العالم ، كل العالم ، يتحدث عن بطولاته الخارقة وتشبثه بارضه وبحقه وبمقارعته لأعتى استعمار استيطاني ظهر عبر التاريخ ؛ يفعل كل ذلك وحده بامكاناته الذاتية ، بكل ما يكتنزه من عزة وكرامة وطموح .

ربما قال قائل : هذا كلام اقليمي ، وهذه دعوة قطرية تتنافى مع قومية المعركة وقومية المصير . ربما ! ولكن بودي لو يثبت العكس ، بودي لو خيب العرب ظني ، بودي لو تصدى لنا اي حاكم عربي - بالفعل لا بالقول - ليبرهن لنا على ان ما نقوله دعوة اقليمية ضيقة ، وان القضية الفلسطينية هي قضية العرب الاولى وانها التزام ووفاء ،لكل انسان عربي ، بدءاً بحكام العرب وانتهاء باصغر مواطن لديهم .

ربما قال قائل : هذا كلام ذرائعي تبريري ، يبرر كل قصور يحصل وكل تنازل يقع ، ويلقي باللائمة ، كل اللائمة ، على تقصير العرب وامتناعهم عن مد يد العون لاخوانهم . والرد على هذا ان تاريخ القضية الفلسطينية يعرف تماماً ان التنازلات العربية تتم من حساب شعبنا وعلى حسابه.ودائماً وابداً كان الشعب الفلسطيني غائباً مغيباً عن قضيته . ولذلك كانت كل التنازلات من حسابه وعلى حسابه .. الى حين . الى ان انتقل الزمام الى ايدي ابناء هذا الشعب فشدوا عليه بالنواجذ ، وتمسكوا به حتى الرمق الأخير . ولذلك ، فليطمئن من هذه الناحية كل المتشككين والمشككين واصحاب النوايا السيئة وهواة توجيه اصابع الاتهام ، فليطمئنوا الى ان الشعب الذي قارع الاحتلال اربعة عشر عاماً ، بالرغم من هذه الحصيلة الهزيلة من الدعم العربي ، سيقارع هذا الاحتلال الى ما شاء الله ومهما كانت هذه الحصيلة . وما اردنا ان نقوله هنا هو ان نبين خطر هذا الاهمال العربي واثره على عجلة الكفاح الفلسطيني ودوره الايجابي الذي يمكن ان يفرد به في دفع هذه العجلةالى الامام.الا ان قصوره لن يعيد العجلة الى الوراء ولن يقلل من عزيمة شعبنا . وما دمنا نتحدث عن الدعم العربي لصمود الشعب الفلسطيني ، لا يفوتنا ان نذكر ان مؤتمرات الصمود الاربعة لم تأت بجديد اطلاقاً في هذا الصدد ، ولم تضف شيئاً الى ما صدر عن مؤتمري بغداد وتونس ، في الوقت الذي كنا نؤمل منها ان تبعث الى الصمود والتصدي حياة جديدة ، وان تعطيها معاني جديدة ذات مضامين عملية ، وألا تكتفي بالبيانات المطولة والخطابات الفصيحة والشروحات والتنظيرات التي لا تعني بالنهاية شيئاً .

وعود على بدء : الحكم الذاتي ومباحثاته ، بين التعثر والتوقف والتقدم البسيط والتراجع الابسط ، وبين التأجيل والاستئناف ، امور قلنا في مضمونها رأينا ولسنا بحاجة الى المزيد . الا ان الذي لا بد ان نلفت النظر اليه هو محاولات تجزيء المشكلة الى جزئين اثنين : الضفة جزء والقطاع جزء آخر . خصوصاً ان مصر خرجت بنظرية جديدة هي انها خسرت ، من ضمن ما خسرت في حرب ١٩٦٧ ، قطاع غزة ، وترى أن من واجبها ان تبحث مصير هذا القطاع باعتباره مسؤوليتها الادبية . والواقع ان حيثيات القرار المصري ليست بهذا الشكل وانما هناك حيثيات اخرى لا يذكرونها ولكنهم يعلقون عليها آمالاً كبيرة ، وهي ان القطاع الذي كان تاريخياً قريباً من مصر ملتصقاً بها تتشابك مصالحهما معاً ، يعيش معظم اهله في مصر ، يتعلم معظم طلابه فيها ، ومصر هي النافذة الوحيدة له على العالم ، وطبقة الموظفين الصغار والكبار لا زالوا يتقاضون رواتبهم منها . هذه الحيثيات هي التي تجعل مصر تعتقد أن القطاع سيكون اسهل عليها من الضفة ، وبالتالي فهي ترى انها قادرة على اقناع اهله بما تقدمه لهم ، يضاف الى كل هذا ان مطامع اسرائيل في القطاع اقل من مطامعها في الضفة بسبب ضيق رقعـه وكثافة سكانه وندرة موارده ومصادره وقلة مياهه ، ثم عزلته عن العالم العربي ، بحيث يكون دائماً تحت رقابة الامن الاسرائيلي وحراسة الجيش الاسرائيلي ، سواء بقي الجيش فيه ام خرج منه .

هل تكون هذه الاسباب طريقاً لخروج الطرفين من المأزق ؟ الجواب : لا : لان الشعب الفلسطيني في غزة لن يقبل بما يطرحونه ولانه مرتبط مصيرياً مع الضفة ، ولان الضفة والقطاع مرتبطان مصيرياً بالمنظمة ، والكل يرى ان هذا الطريق لا يمكن قبوله ولا يمكن السير فيه .

يضاف الى هذا وذاك الدعاء العربي بالصمود والتصدي والتحدي والرفض ، ولكن : المطلوب مع الدعاء العربي قليل من القطران .

سميح سماره

المؤتمر الرابع لحركة فتح
التقدم في إطار الوحدة

حتى الآن، تراوحت ردود الفعل المحلية والعربية على انعقاد المؤتمر العام الرابع لحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) ، بين الصمت والانطباعات السريعة ذات الطبيعة الصحفية ، في حين ان القوى المضادة ، بدءاً من واشنطن وانتهاءبالكيان الصهيوني ، مرورا بالقوى المرتبطة بهما ،قد سارعت الى درس البرنامج السياسي وما وصلها من وثائق صادرة عن المؤتمر ، واعلنت منها موقفاً يثبّت قانون العداء الاستراتيجي بين فتح ، كقائد للنضال الوطني الفلسطيني وفصيل رئيسي من فصائل حركة التحرر العربية ،وبين القوى الامبرياليةوالصهيونية والمرتبطة .

هل هو الانتظار او التمهل او سوء الفهم او عدم الاكتراث ، ما يفسر هذا الموقف المحلي والعربي ؟ هل هو امر من هذا منع العديد من القوى عن التمعن بالمؤشرات الحقيقية التي خرج بها المؤتمر ؟ هل هو امر من هذا الذي منع البعض عن محاولة درس التوجهات الجديدة للمرحلة القادمة في الساحة الفلسطينية من خلال ارتباطها الموضوعي بالساحات العربية ؟ هل هو امر من هذا ، ام ان الوقت لم يحن بعد لطرح كل هذه التساؤلات ؟ في كل حال ، لنترك هذه المسألة جانباً ، ولنتوقف عند السؤال التالي : ماهي ماهية المفاصل الرئيسية للخط الفكري والسياسي والتنظيمي الناتج عن هذا المؤتمر ؟ ثم ، ما هي المعطيات الجديدة بشأن الخط الاستراتيجي والتكتيكي لحركة فتح في مرحلة مؤتمرها الرابع ؟

اذا كان البعض قد حاول التركيز على الاثارات والمانشيتات الحمراء ، ففصل بين الظواهر واسبابها ، وفصل بين التعارضات وحصيلتها الاجمالية ، فان المتتبعين بجدية لتطورات الساحة الفلسطينية وكذلك العربية ، لا يستطيعون الا التوقف عند ظاهرتين رئيسيتين شكلتا السمتين البارزتين لمؤتمر حركة فتح الرابع :

الظاهرة الأولى : الاضافات البالغة الاهمية التي حققها المؤتمر ، والتي تبرز في أي حال اجراء مقارنة بين نتائجه ونتائج المؤتمر الثالث ، وذلك بعد اخذ مجمل الاختلافات في الظرفين الموضوعي والذاتي للمؤتمرين بعين الاعتبار ؛ اذ جاء الاول اشبه ما يكون بالمحاولة للم شتات

الثورة بعد الكارثة التي نزلت بها على يد النظام الاردني ، في حين ان الثاني قد جاء ليكون نوعاً من المراجعة الشاملة لتسع سنوات من العمل الشاق كان النهوض على شتى الأصعدة سمتها العامة .

واذا كان المؤتمر الثالث ، بسبب ظروف انعقاده اساسا ، لم يستطع ان يكون انعطافا في البنية العامة للحركة ، فاننا نستطيع القول ان المؤتمر الرابع قد وضع الحركة على ابواب هذا الانعطاف ، ان لم تكن قد دخلته فعلاً .

لم يستطع المؤتمر الثالث ان يبلور برنامجا سياسيا يحقق التزاوج العملي بين الخط الاستراتيجي لحركة فتح والحركة الوطنية الفلسطينية بعامة ، وبين الخط السياسي المرحلي المستند الى موازين القوى الحالية ، مما خلق نوعا من الشرخ بين نقطتي التزاوج ، وهو ما عبر عن نفسه بالمفاجأة التي حدثت حين توفرت معطيات جديدة في موازين القوى العامة بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، خلقت ضرورات البحث عن الصياغة السياسية لهذه المعطيات ، وذلك رغم الحيوية الفائقة التي تتمتع بها حركة فتح ، والتي تكفلت في النهاية ، وبسرعة نسبية ، بتشكيل هذه الصياغة التي جاءت على هيئة البرنامج المرحلي الذي اقر في الدورة الثالثة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني .

لم يستطع المؤتمر الثالث ان يقدم اضافات فعلية الى بنية النظام الداخلي لحركة فتح ، بحيث تستوعب التطورات التي نشأت بين مرحلتي النشوء والارتقاء ،وهي تطورات لا تقل ، من حيث قيمتها وبما تحمله من ضرورات الانعكاس على البنية العامة للحركة، عن التطورات اللاحقة بعد عام ١٩٧١ الذي انعقد فيه هذا المؤتمر . وبمعنى آخر فإن المؤتمر الثالث لم يستطع ان يقنّن المناخ الديمقراطي المفتوح الى حدوده القصوى ، والذي يشكل معلماً رئيسياً من معالم حركة فتح ؛ فاستمر هذا المناخ مشرعاً دونما ضوابط تنظيمية محددة وملزمة . فما ان جاء المؤتمر الرابع حتى كانت الحاجة إلى هذه الضوابط تكاد تكون المطلب الرئيسي للحركة من قاعدتها الى قمتها . وقبل كل ذلك وبعده ، فإن المؤتمر الثالث للحركة لم يستطع ان يبلور القانون الرئيسي للبنية الفكرية ، الذي تستمد منه حركة فتح فاعليتها ومبررات وجودها واستمرارها ..هذا القانون الذي يستند على ان حركة فتح تشكل التعبير الارقى في المرحلة الحالية ، مرحلة التحرر الوطني ، عن نقاط التقاطع الموضوعية القائمة بين مجموع فئات وشرائح وطبقات الشعب الفلسطيني ومصلحتها الرئيسية في تحرير الارض الفلسطينية من الاحتلال : هذا القانون الذي يفرض وجود حد ادنى من اللقاء والتعايش بين شتى التيارات الفكرية والسياسية في داخل حركة فتح ، ما دامت تقف جميعاً على أرضية الحق في التحرير والعودة .

يمكن القول اذن ، ان ذلك كله لم يحققه المؤتمر الثالث ، وفي الوقت ذاته يمكن القول الآن ، ودون ان يستند ذلك الى حاجة تعبوية ، ان المؤتمر الرابع لحركة فتح قد حقق كل ذلك ، او انه - وهو الاكثر دقة - قد وضع الحركة في جو الاستعداد والتأهب لتحقيق ذلك ، بعد ان صاغ لها المبررات والمسوغات على هيئة اساس فكري وسياسي وتنظيمي .

الظاهرة الثانية حيوية فتح : دون مغالاة ، يمكن القول ان نظرة سريعة على حركة الاغلبية الساحقة من القوى والاحزاب والتيارات والاطر السياسية في الوطن العربي ، توضح

ان هذه الاغلبية تكاد تتراوح جميعها بين السكون والانزواء واليباس التنظيمي والسياسي والفكري ، وبين التفتت والانقسامات والتشرذم . وبصرف النظر عن الاسباب الموضوعية والذاتية التي ادت وتؤدي الى مثل هذه النتيجة الملموسة ، فان الملفت للنظر ، وهو امر جدير بالاعتبار والدراسة ، ان حركة فتح لا تعاني اياً من هذه الظواهر . فرغم كل التمايزات القائمة ، والتعارضات والاختلافات التي تصل حدود العلن بين مجمل التعبيرات المنسجمة في اطار فتح ، الا ان ذلك لم يظهر ابداً باشكال انقسامية فعلية ، باستثناء تدخلات وتعديات عربية سعت الى تأطير انقسامات باهتة فقدت مبررات استمرارها بمجرد خروج رموزها عن خط الحركة ؛ مما دلل على ان هذه الاستثناءات لم تكن تملك اي اساس موضوعي للانقسام او الاستقلال .

علام يدل ذلك ؟ لا شك في أن قساوة الظروف التي تناضل فتح في اطارها لا مثيل لها على الاطلاق في الساحة العربية على الاقل ؛ فمن المسؤولية الرئيسية التي تتولاها فتح في صد الهجمات الاسرائيلية المتتالية ، الى المسؤولية الرئيسية في شق الثغرات في جدار العدو الامني وخوض الكفاح المسلح ، الى تلقي ضربات الاغتيال التي تستهدف قيادة فتح وكوادرها ، الى المسؤولية الرئيسية في التصدي للقوى العربية المرتبطة بالامبريالية ، الى المسؤولية الرئيسية عن امن الشعب وقوته . ورغم كل هذه المهام البالغة التعقيد والصعوبة ، والتي تستخدمها اطراف اخرى لتبرير تقاعسها ، فان فتح تتقدم وتتحرك في سياق منهجها ، فيأتي المؤتمر الرابع للحركة ليكشف انها مزدحمة بالدوافع الى التقدم والحركة ، وان الشاغل الرئيسي لقيادتها وكوادرها هو البحث عن الطريق الاكثر صوابا ، وذلك بعد تراكم خبرات متنوعة شكلت المسوّغ لاحداث النقلة على شتى المستويات .

وقد يرى البعض ان كل ما سبق ليس اكثر من دفاع يقدمه عضو في الحركة ، لكن الاكيد ان ذلك ليس وارداً في هذه اللحظة بالذات . فما سبق ان قلته ليس الا اشارة تحريضية للمثقفين على درس مثل هذه الظاهرة ؛ ظاهرة الحيوية التي تشتمل حركة فتح ، وذلك في مرحلة يتفق الجميع على تحديد سمتها الرئيسية وهي حالة الانحسار والعجز التي تعيشها حركة التحرر العربية .

اذن ، وانطلاقا من الوثائق الاساسية التي اقرها المؤتمر الاخير للحركة ، لنحاول ان نقف فيما يلي عند الاستنتاجات العامة الاكثر اهمية :

١ ـ جدل الفعل

ان موضوعة التوازن في بنية كل حركة تحرر وطني تكاد تكون بمثابة الهيكل العظمي لهذه البنية ، وهي قانون رئيسي لا بد من ان يحكم نهج أية قوة سياسية تأخذ على عاتقها العمل على تحقيق مهام مرحلة التحرر الوطني ، ويعود ذلك اساساً الى شدة التعقيد التي تحكم هذه المهام .

وفي وضع كوضع حركة فتح ، تشكل هذه الموضوعة احد ابرز قوانينها ؛ فهي تتجلى في كل خطوة او قرار لها على كافة المستويات . وبتراكم الخبرة على مدى خمسة عشر عاماً ، تحول هذا القانون ليلعب دور المفتاح ، خصوصاً ان الابواب المغلقة امام العمل الوطني الفلسطيني تكاد لا تحصى . واذا كان البعض ينظر الى قانون التوازن هذا باستخفاف حيناً وبشك حيناً آخر ، فان

ذلك لا يدل ، في الواقع ، الا على عدم الدقة في استيعاب معطيات الواقع الفلسطيني والعربي والدولي .

ان من عاش ايام المؤتمر الرابع العشرة يلمس بوضوح قدرة كل عضو فيه على تفهم هذا القانون والعمل من خلاله ؛ وهو الامر الذي عكس نفسه في كافة الوثائق والبرامج التي اقرها المؤتمر ، وما يستطيع ، ان يلمسه المراقب ايضاً من خلال البرنامج السياسي الصادر . فمن تاكيد وتثبيت الاهداف الاستراتيجية لحركة فتح ، التي جوهرها بناء المجتمع التقدمي في فلسطين الديمقراطية الى « اعتبار القرارات السارية للمجالس الوطنية الفلسطينية لمنظمة التحرير الفلسطينية جزءاً مكملاً للبرنامج السياسي للحركة » . ومن المسلّمة التي تنص على ان حركة فتح هي محور الثورة الفلسطينية وعمودها الفقري ، الى ضرورة النضال من اجل « التعزيز المستمر للوحدة الوطنية الفلسطينية على كافة المستويات » وبقيادة الحركة ، الى البند الذي يؤكد على ضرورة مشاركة الحركة بثقل اساسي في منظمة التحرير الفلسطينية لضمان فعاليتها . ومن النص على ان « العلاقة مع الجماهير العربية علاقة استراتيجية وذلك من خلال قواها السياسية الوطنية المنظمة » ، الى اقامة العلاقة مع الانظمة العربية « بحيث لا تتعارض مع العلاقة الاستراتيجية مع الجماهير » . ومن التشديد على قانون ان « حركة فتح جزء من حركة التحرر العالمية في النضال المشترك ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية » الى القول بضرورة « تكثيف العمل السياسي في دول اوروبا الغربية واليابان وكندا والاستفادة من تأييد القوى السياسية الديمقراطية والتقدمية في هذه الدول » .

ان خلاصة هذا التوجه الشامل هي قدرته في التعبير عن جدلية معطيات الواقع المعقد ، بحيث يصح القول ان قانون التوازن المشار اليه هو في الواقع قانون الجدل ، اي رؤية الواقع من خلال الجدل القائم بين معطياته .

ان كل التجربة الماضية اكدت انه بدون الاسترشاد بهذا القانون لا يمكن احراز اي نجاح في الساحة الفلسطينية ، بل ان العمل في هذه الساحة يصبح غير ممكن .ليست المسألة في لعبة التوازن التي تظهر على السطح من خلال تفاصيل العمل السياسي ؛ فهذه اللعبة ليست غير الانعكاس السريع لقانون جدل الفعل الذي يحكم الممارسة السياسية لحركة فتح .

٢ ـ التقدم في اطار الوحدة

في حين ان البعض يحرص اشد الحرص على نظرته المسطحة وعلى تقييمه المبسط لجوهر حركة فتح ، فينظر اليها وكانها كتلة ذات لون واحد ، فلا يرى التمايزات والتعارضات القائمة في هذا الجوهر ، يحرص بعض آخر على تفسير كل تغيير او تطور في هذا الجوهر بأنه نتيجة ترتيب معين او تسوية معينة . وكلا النظرتين تتسمان بسذاجة وقصر نظر اذا أحسنّا النية .

ان الاساس في كل ذلك هو في كيفية النظر الى حركة فتح : هل هي منظمة فلسطينية ام هي صلب الحركة الوطنية الفلسطينية .

ان من يعتبرون ان حركة فتح هي التعبير السياسي عن الاغلبية الساحقة لقطاعات الشعب الفلسطيني ، لا بد من أن يؤمنوا أيضاً ان هذه القطاعات غير محكومة بلون واحد ، وان

التمايزات والتعارضات قائمة فعلاً بينها ، رغم الوحدة التي تجمعها في إطار الحركة ، وهذه حقيقة موضوعية .

وليس سراً القول ان المؤتمر الرابع لحركة فتح قد شهد اصواتاً متمايزة علا نقاشها واحتدم ، ولكن على قاعدة الوحدة ، وهي المسلمة التي يؤمن بها الجميع . وفي هذا السياق ، يفرض التقدم نفسه ، فينعكس على كافة المستويات : الفكرية والسياسية والتنظيمية ؛ مما يجعل الباب مشرعاً لانعكاس هذا التقدم على مستوى القيادة ، واذ بالجميع يستنتج ان قاعدة حركة فتح رغم كل هذا الاحتدام ، قاعدة حرة طليقة القرار ، وليس من الممكن ان تكون مجيّرة لطرف ، الا اذا طرح هذا الطرف امامها الاجابات الواضحة على الاسئلة الصعبة . فاذا كانت الدوغما يمكن ان تنفذ الى قواعد اخرى ، فانه من الصعب نفاذها الى قاعدة فتح .

على قاعدة التقدم اذن ، يحدث التطور في البنية العامة للحركة ، فيبرز القانون الشعبي القائل انه « لا يصح الا الصحيح » .

اما بعض الذين يتمتعون بضيق الافق ، فلا يرون قانون هذه الحركة الرئيسي (الصراع في اطار الوحدة) ، فيدفعهم نهمهم المعروف ولا ديمقراطيتهم نحو الهيمنة ، فلن يجدوا امامهم غير الخسارة ، لانهم يخترقون بذلك خطاً احمر غير ممكن الاختراق ؛ اذ حين تتحول فتح الى ذات لون واحد تصبح كل شيء الا ان تكون حركة فتح .

هشام الدجاني

التحولات الاقتصادية والاجتماعية في المناطق المحتلة في ظل الاحتلال الإسرائيلي

ان رصد الآثار الاقتصادية والاجتماعية لاحتلال ما ، عبر فترة زمنية ما ، يبدو عملية بالغة الصعوبة والتعقيد نظراً لتشابك العوامل المؤثرة وصعوبة تحديد أبعادها من جهة ، وحجب الحقائق والتضليل المتعمد الذي تلجأ اليه سلطات الاحتلال عادة من جهة ثانية .

وبالنسبة الى الاحتلال الاسرائيلي بالذات ، الذي يتميز عن باقي أشكال الاحتلال ، بطبيعته الاستيطانية والتوسعية ، تبدو عملية الرصد والدراسة هذه اكثر صعوبة وتعقيداً . ومما يجعلها كذلك أن سلطات الاحتلال الصهيونية لم تعمد ، كأية سلطة احتلالية ، الى نهب واستنزاف خيرات وطاقات الأراضي المحتلة فحسب ، بل عمدت الى الحاق هذه الأراضي المحتلة بسكانها واقتصادياتها بالكيان الصهيوني ، وجعلتها جزءاً متمماً ومجالاً حيوياً .

ولعل الدراسة التي نقدمها هنا تكون حافزاً وتمهيداً لدراسات أوسع وأشمل .

قبل دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية ـ أو لنقل أبرز هذه التحولات والمتغيرات ـ في المناطق المحتلة ، لا بد من التنويه بايجاز عن أهم التطورات والتأثيرات التي **أوجدها الاحتلال الاسرائيلي في القطاعات الاقتصادية الرئيسية الثلاثة ـ الزراعة والصناعة والتجارة ـ في المناطق المحتلة ، والتي تعتبر الأساس الذي قامت عليه هذه التحولات .**

فعلى صعيد **الزراعة** : ـ التي تعتبر القطاع الأساسي والمورد الانتاجي الأول في المناطق ـ أشرنا إلى أن سياسة الاحتلال هنا كانت أكثر ما تكون بعداً ووضوحاً . فقد تعرضت مساحة الأراضي الزراعية خلال سنوات الاحتلال لتقلص كبير نتيجة عدة عوامل : ابرزها **التوسع الاستيطاني الصهيوني** على حساب هذه الأراضي (حيث استولت سلطات الاحتلال ، بمختلف أشكال المصادرة على نحو ١,٥ مليون دونم تشكل ٢٧,٥٪ من المساحة الكلية ، ثلثها من الأراضي الزراعية)[١] . ومنها تدني ريعية الزراعة في بعض المناطق واضطرار المزارعين الى هجر أراضيهم والعمل تحت وطأة الحاجة في مجالات العمل الاسرائيلية . ومنها نقص كميات المياه المستخرجة والقيود التي وضعتها سلطات الاحتلال على

حفر الآبار وضخ المياه ، واستنزاف المستوطنات الاسرائيلية للمياه الجوفية في الضفة ، مما أدى الى نقص مياه الآبار المتبقية أو زيادة نسبة الملوحة فيها ، وهو ما اعترفت به المصادر الاسرائيلية [٢] .

ومن بين الآثار السلبية الأخرى لسياسة الاحتلال في هذا القطاع : تدني **أو تقلص العمالة الزراعية** (من ٤٦,١٪ من مجمل القوة العاملة عام ١٩٦٩ ، في الضفة ، و ٣٣,١٪ في القطاع إلى ٣٣,٤٪ في الضفة و ٢٥,١٪ في القطاع عام ١٩٧٧)[٣] . وتدني نصيب الزراعة في الدخل القومي للمناطق المحتلة (من ٣٥,٥٪ عام ١٩٦٨ إلى ٢١٪ عام ١٩٧٧ في الضفة ، ومن ٢٨,١٪ إلى ٢٢,٩٪ في القطاع خلال الفترة نفسها) .

وعلى صعيد **الصناعة** : استهدف التخطيط الاقتصادي الاسرائيلي ، ضمن اطار سياسة الدمج الاقتصادي ، أن يجعل من المناطق المحتلة ملحقاً صناعياً (Sub- Contracted) للصناعة الاسرائيلية ، وسوقاً إضافية للبضائع الصناعية والخدمات الفنية .

وكما تعرضت الزراعة لاستنزاف العمالة العربية ، تعرضت الصناعة ايضاً لهذا الاستنزاف ، وهو ما انعكس بدوره على حجم الانتاج الصناعي ، ونصيب هذا الانتاج في الدخل القومي (حيث تدنى من ٨٪ عام ١٩٦٨ إلى ٤,٧٪ عام ١٩٧٧)[٤] .

وأدت سلسلة الاجراءات الاقتصادية التي اتخذتها سلطات الاحتلال ، مثل عدم السماح بافتتاح المصارف العربية ، وقصر النشاط المصرفي على المصارف الاسرائيلية التي كانت تتحكم بالقروض والاعتمادات ، وفرض رسوم جمركية عالية على المواد الأولية اللازمة للصناعة ، أدت الى عدم تطور هذا الفرع تطوراً يذكر ، وهو ما اعترفت به المصادر الاسرائيلية أيضاً . تقول نشرة « بنك اسرائيل » : « بالرغم من بعض التطور الذي طرأ على الصناعة (في المناطق المحتلة) لتلبية احتياجات الصناعة الاسرائيلية ، إلا أن نسبة الانتاج الصناعي إلى الانتاج العام ظلت منخفضة »[٥] .

ومن بين الآثار الضارة أيضاً لسياسة الاحتلال في هذا القطاع ، احتكار أسواق المناطق المحتلة وجعلها وقفاً على البضائع الاسرائيلية . وهذا ما حرم الكثير من الصناعات الناشئة التي يمكن أن تتطور من فرص المنافسة أو الاستمرار . وتؤكد الباحثة شيلاريان هذا الأثر فتقول .

« ومن أجل الابقاء على امتيازات اسواق الضفة الغربية وغزة حكراً على صناعات اسرائيل وحدها ، فإنها حدّت وبشكل صارم من السماح باستيراد بضائع مصنعة من بلدان أخرى الى المناطق المحتلة»[٦] .

وعلى صعيد **التجارة** : اعتبرت المناطق المحتلة « سوقاً مكملاً للبضائع والخدمات الاسرائيلية من جهة ، ومصدر عوامل انتاجية للاقتصاد الاسرائيلي ، وخاصة اليد العاملة من جهة أخرى »[٧] . ضمن هذه العلاقة اتخذت سلطات الاحتلال ، في هذا القطاع ، سلسلة من الاجراءات ذات المنعكسات الضارة والمعيقة للتطور ؛ مثل الغاء الحواجز الجمركية بين المناطق واسرائيل ، وبالتالي فرض الرسوم الجمركية على جميع ما تستورده المناطق من العالم الخارجي وفقاً للتعرفة الاسرائيلية . ومثل احتكار المؤسسات الاسرائيلية لعمليات التصدير والاستيراد ؛

وهو ما يعني الاستيلاء على عائدات صادرات المناطق من القطع الأجنبي : مقابل دفع قيمتها بالليرات الاسرائيلية .

وهكذا ، أصبح معظم تجارة المناطق المحتلة يتم مع الكيان الصهيوني أو عن طريقه . وقد أدت سياسة احتكار أسواق المناطق الى أن يرتفع نصيب الكيان الصهيوني في نسبة مجموع مستوردات المناطق من الخارج من ٦٠٪ عام ١٩٦٨ إلى ٨٣٪ عام ١٩٧٥ على سبيل المثال(٧) . ومنذ عام ١٩٧٣ تحولت المناطق المحتلة الى « ثاني أكبر سوق للصادرات الاسرائيلية بعد الولايات المتحدة »(٨) .

التحولات الاجتماعية

بعد هذا ، يمكننا أن ننتقل الى رصد أبرز التحولات الاجتماعية والاجتماعية ـ الاقتصادية والتي يمكن أن تعتبر ، بصورة مباشرة ، أو غير مباشرة ، نتيجة السياسة الاقتصادية التي انتهجتها سلطات الاحتلال في المناطق المحتلة .

ضمن عملية الرصد هذه سوف نتعرض بايجاز للتحولات التي طرأت على **بنية السكان** والقوى الاجتماعية ، وخاصة الطبقة العاملة ، **والأحوال المعيشية** للسكان وللقوى العاملة ، كما سنتعرض لظاهرتي **الهجرة والتعليم** .

١ ـ البنية الاجتماعية

■ لعل من بين التحولات والتطورات الواضحة التي طرأت على البنية الاجتماعية للسكان في المناطق المحتلة **تضاؤل النفوذ السياسي لطبقة « الأعيان » الاقطاعية** . وقد جاء هذا التطور نتيجة جملة عوامل أهمها توفر فرص العمل بأجور معقولة نسبياً في مجالات غير قطاع الزراعة ، مما أدى الى تقلص نفوذ طبقة الأعيان والاقطاعيين في القرى والأرياف . كذلك كان من بين هذه العوامل ـ كما سنرى بعد قليل ـ تنامي دور الطبقة العاملة ، والقوى العاملة والمنتجة بصورة عامة ، والتي باتت تشكل الشريحة الأولى والأكبر في المجتمع .

لقد سعت سلطات الاحتلال العسكرية في البداية الى التعامل مع سكان المناطق من خلال هذه القوى التقليدية مثل رؤساء البلديات والمخاتير الذين عملوا سابقاً في ظل الحكم الأردني . بيد أن « الانقلاب » ، الذي أحدثته سياسة الاحتلال ، ومن ضمنها استخدام العمالة العربية على نطاق واسع ، كان أحد العوامل التي أدت الى نسف أساس سلطة هؤلاء الزعماء والأعيان التقليديين . **ويرى بعض الباحثين أن من بين نتائج هذا «الانقلاب»** ، « أن العمال أصبحوا يكسبون اكثر بكثير من المخاتير مُلاك الأراضي الزراعية»(٩) . كما ظهرت عناصر مهنية ومثقفة جديدة كان لها دورها في المتغيرات الاجتماعية التي طرأت بعد الاحتلال . وفي التحليل النهائي فإن هذا التحول أو الانقلاب ينبغي الا نعيده الى أسباب اقتصادية بحتة ، كما ينبغي ألا نغفل دور العامل السياسي .

ومن نافلة القول ، ان سلطات الاحتلال لم تقصد أو تتعمد احداث هذا « الانقلاب » أو هذا التحول الاجتماعي الذي يمكن أن يعتبر تحولاً ايجابياً داخل البنية الاجتماعية لسكان المناطق . بل إن سلطات الاحتلال أعاقت من خلال القيود التي فرضتها « التحرك الجديد

للسكان نحو خلق قيادة فلسطينية اجتماعية ـ اقتصادية عامة ، أو بناء اقتصاد تحتي ... وانتهج الاسرائيليون ، كشأن الاردنيين قبلهم ، سياسة تعيق ميلاد الزعامة القائدة في الضفة الغربية ... »(١٠) .

ويقول الكاتب شاؤول ميشيل : « ان قدرة الزعامة التقليدية في الضفة الغربية على المحافظة على التوازن بين نفوذ ومصالح اسرائيل والاردن ومنظمة التحرير الفلسطينية ، قد بدأت تتلاشى بعد عام ١٩٧٣ ، بعد أن أخذت المنظمة تحقق مستوى رفيعاً من الاعتراف العربي والدولي بها ... وهذا ما عزز الاعتقاد لدى قطاعات واسعة من السكان في الضفة أن المنظمة ، وليست عمان ، هي التي ستكون خليفة للاسرائيليين »(١١) .

وقد أظهرت الانتخابات البلدية عام ١٩٧٦ مدى النجاح الذي حققته العناصر المثقفة والمسيّسة ، كما أظهرت اخفاق وبداية اندثار الزعامات التقليدية . والنتيجة الأهم هي أن قواعد السيطرة الاجتماعية في المجتمع « باتت ترتكز الآن في أيدي العائلات البسيطة التي تحملت جميع أعباء القرى »(١٢) .

■ اشرنا في بداية هذه الفقرة إلى أن من بين الأسباب الجوهرية للتحول الاجتماعي الذي تحدثنا عنه **تنامي الطبقة العاملة ودورها في المجتمع** . والحق أن الطبقة العاملة الفلسطينية في المناطق المحتلة قد تعرضت ، خلال سنوات الاحتلال ، لتطورات عميقة وهامة على صعيد الحجم والثقل الاجتماعي والتكوين البنيوي .

فعلى صعيد الحجم : يبين لنا الجدول رقم ١ نسبة تنامي حجم القوى العاملة الى مجموع السكان في سن العمل(١٣) في الضفة الغربية .

جدول رقم ١

السنة	مجموع السكان في سن العمل	القوى العاملة	نسبة الثانية الى الاولى
١٩٧٠	٥١٩,٧٠٠	٩١,٧٠٠	١٧.٨
١٩٧٢	٥٤١,٧٠٠	١١٤,٧٠٠	٢١,٢
١٩٧٣	٥٥٢,٠٠٠	١١٩,٠٠٠	٢١,٦
١٩٧٤	٥٧٣,٨٠٠	١٢٦,٥٠٠	٢٢,٧
١٩٧٥	٥٩١,٩٠٠	١٢٣,٦٠٠	٢٠,٨
١٩٧٦	٦٠٢,٥٠٠	١٢٦,١٠٠	٢٠,٩

وإذا كانت هذه الأرقام تؤكد نمو الحجم المطلق للقوى العاملة ، فينبغي الا نتصور أن هذا النمو هو مجرد تراكم كمي . بل ينبغي أن نتصور ـ وهو تصور له مبرراته العملية ـ انه يقود الى تغيير جذري في نسبة القوى الاجتماعية بين السكان لمصلحة الطبقة العاملة على حساب الطبقات الأخرى . فقد تجاوزت نسبة قوى العمل اليدوي ٦٢٪ من مجموع القوى العاملة ، في حين لم تعد تشكل القوى العاملة الأخرى (موظفون، مهن حرة ، الخ ..) أكثر من ٣٨٪(١٤) : وهذا

يعني أن الطبقة العاملة باتت تشكل الطبقة الاجتماعية الأكبر عدداً بين مجموع الطبقات ، وهو ما يشكل في حد ذاته واحداً من التحولات الاجتماعية البارزة في المناطق المحتلة .

وعلى صعيد تكوين الطبقة العاملة نفسها ، فقد طرأت أيضاً متغيرات ذات دلائل هامة ؛ حيث ازداد بصورة ملحوظة عمال البناء والصناعة والمواصلات ، كما يبين الجدول رقم ٢ ، وذلك في مجموع المناطق المحتلة (الضفة والقطاع) .

جدول رقم ٢
عدد العاملين في ابرز القطاعات (في الضفة والقطاع) بالآلاف

السنة	مجموع القوى العاملة	الزراعة	الصناعة	البناء	الخدمات	المواصلات	مرافق عامة
١٩٧٠	٩١.٧	٢٤.٢	١٢.٦	٢١.٧	٢.٦	٣.٨	٢٣.١
١٩٧٢	١١٤.٧	٢٥.٢	١٩.٣	٣٢.٣	٣.٩	٤.٧	٢٥.٦
١٩٧٣	١١٩	٢٢.٧	٢٠.٢	٣٦.٦	٣.٨	٥.٥	٢٥.٣
١٩٧٤	١٢٩,٥	٢٢.٦	٢١.١	٤١,١	٤.١	٥.٦	٢٥.٩
١٩٧٥	١٢٣,٦	١٨.٦	٢١.٥	٤٢.٤	٤.٥	٥.٩	٢٦.٣
١٩٧٦	١٢٦,١	١٨.١	٢٣.٩	٤١	٥.٣	٥.٧	٢٧.٢

اذا كنا قد استعرضنا فيما سبق الجوانب التي يمكن أن تعتبر ذات وجه ايجابي في التحولات الاجتماعية ، خلال المرحلة التي نحن في صددها ، والتي كانت ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، أحدى النتائج غير المقصودة لسياسة سلطات الاحتلال ، فينبغي أن نشير الى الظواهر والمتغيرات السلبية والمدمرة التي نجمت عن الاستخدام الواسع للعمالة العربية في العمل الاسرائيلي .

أول هذه الظواهر أو التحولات السلبية : أنه في مقابل اتساع الآفاق نسبياً أمام العاملين يدوياً ، ضاقت فرص العمل أمام ذوي التعليم والثقافة النظرية ـ الطبقة المتوسطة عادة ـ في ظل الاحتلال . وهذا ما دفع ابناء هذه الطبقة (مدرسون ، محامون ، جامعيون ، الخ ..) الى البحث عن العمل في الخارج (الوطن العربي وأميركا) . وتقدر الباحثة الاجتماعية سارا غراهام ، أن غالبية هؤلاء الذين استقروا في الخارج لن يعودوا بصورة نهائية إلى المناطق المحتلة في الظروف الراهنة . وتقول سارا : « ... وان هذا النمط من الهجرة قد أخلّ بالتركيب الطبقي للمجتمع في الضفة . ولما كانت غالبية المهاجرين من الرجال فقد أخلّت هذه الهجرة بنسب الجنس في المجتمع (عدد الذكور والإناث) مما انعكس على زواج نساء الطبقة المتوسطة »[١٥] .

وثاني هذه الظواهر الاجتماعية السلبية لاستخدام العمالة العربية في اسرائيل : ان هذا الاستخدام قد استهدف العمال الزراعيين في القرى والمناطق الريفية أكثر مما استهدف عمال المدن « نظراً لأن معظم المشروعات الاسرائيلية تحتاج الى عمال نصف مهرة أو غير مهرة »[١٦] . والنتيجة الطبيعية لذلك هي تفكك الأسر الريفية ، وفك ارتباط الفلاح أو المزارع بأرضه ، وتقهقر الزراعة من جهة ، واستمرار البطالة النسبية في المدن ، حيث العمال المهرة والمتعلمون ، الأمر الذي كان يدفعهم نحو الهجرة الخارجية .

وثالث هذه الظواهر ، وهي ظاهرة اقتصادية ـ اجتماعية ذات ابعاد ونتائج خطـرة : ان ما يزيد عن ثلث الزيادة * في الناتج القومي العام (Q.N.p) في المناطق المحتلة، يأتي مباشرة من عائدات أجور العمالة العربية في اسرائيل(١٧) . وهذا ما يجعل اقتصاديات هذه المناطق تعتمد اعتماداً كبيراً على مورد غير مستقر نسبياً ، ومعرض لهزات حادة لأسباب تتعلق بالركود الاقتصادي الاسرائيلي وتراجع مشروعات البناء ، الخ ... وللدلالة على أهمية وخطورة هذه النقطة بالذات ، نسوق الجدول رقم ٣ الذي يبين مقدار تناقص استخدام العمالة العربية في اسرائيل على اثر الركود الاقتصادي فيها والذي بدأ في العام ١٩٧٤ واستمر في الأعوام التالية(١٨) :

جدول رقم ٣
الضفة الغربية

السنة	مجموع عدد العمال (بالآلاف)	مجموعهم في اسرائيل	نسبتهم في اسرائيل
١٩٧٤	١٣٧,٤	٤٢,٤	٣٠,٨٥
١٩٧٥	١٣٢,٥	٤٠,٤	٣٠,٤٩
١٩٧٦	١٢٩,٧	٣٧,١	٢٨,٦٠
١٩٧٧	١٢٧,٤	٣٥,٥	٢٧,٨٦
قطاع غزة وشمال سيناء			
١٩٧٠	٥٨,٧	٥,٩	١٠,٠٥
١٩٧٢	٦٣,٦	١٧,٥	٢٧,٥١
١٩٧٤	٧٢,٩	٢٦,٣	٣٦,٠٧
١٩٧٥	٧٢,٦	٢٥,٩	٣٥,٦٧
١٩٧٦	٧٦,١	٢٧,٨	٣٦,٥٣
١٩٧٧	٧٧,٣	٢٧,٤	٣٥,٤٤

وثمة مظهر سلبي آخر يترافق مع هذه الظاهرة ، وهو ما أشار إليه الباحث فان اركدي ، وبات من الحقائق الاقتصادية المعروفة في المناطق المحتلة ، وهو أن جانباً كبيراً من عائدات هذه العمالة ينفق على استيراد وشراء البضائعوالسلع الاستهلاكية الاسرائيلية(١٩) .

ورابع هذه الظواهر ، ولعله من اخطرها : ان الطلب الاسرائيلي على العمالة العربية ، والذي أوجد تزايداً في حجم الطبقة العاملة العربية ، قد كان على حساب حجم هذه العمالة في

* تورد نشرة بنك اسرائيل (القدس ـ ١٩٧٦ ـ ص ٩) نسبة مشابهة حيث تقدر هذه العائدات بما يتراوح بين ٢٥ ـ ٢٨٪ من مجموع واردات الدخل القومي خلال الفترة ٧٤ ـ ٧٦ .

المناطق المحتلة نفسها ، وبالتالي على حساب اقتصادياتها . فبلغة الارقام المطلقة تناقص عدد العمال العرب في المناطق من /٩٥/ الف عامل عام ١٩٧٤ ، الى /٨٧,٦/ الف عامل عام ١٩٧٨ (٢٠) . وتناقصت العمالة العربية بصورة اكثر حدة في قطاع الزراعة من /٦٠/ الف عامل قبل حزيران ١٩٦٧ ، الى نحو /٤٠/ الف عامل في عام ١٩٧٤ (٢١) .

هذه الظاهرة اتخذت حجماً كبيراً: حيث تشير الاحصاءات الاسرائيلية ـ كما يتبين من الجدول رقم ٣ ـ الى ان قرابة ثلث قوة العمل العربية في المناطق المحتلة تعمل حالياً في الاقتصاد الاسرائيلي مباشرة . فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان هذه الاحصاءات لا تشمل سوى العمال الذين يعملون عن طريق مكاتب التشغيل الرسمية ، ولا تشمل من يعملون فردياً او عن طريق السماسرة او المتعهدين ، لامكن ان نتصور ان حجم هذه العمالة ، العاملة لمصلحة الاقتصاد الاسرائيلي مباشرة او غير مباشرة ، يزيد على نصف مجموع العمالة العربية في المناطق المحتلة .

ويرى بعض الباحثين * بعض الجوانب الايجابية في هذه الظاهرة ، حيث يرون أن الطبقة العمالية الفلسطينية العاملة في اسرائيل ، سوف تضطلع بدور تاريخي في النضال الطبقي والوطني . وهم يرون أن من بين العوامل التي قد تدفع هؤلاء الى القيام بهذا الدور خضوعهم لعاملة تمييزية حادة فيما يتعلق بالأجور وشروط العمل الأخرى . وهذا ما يقودنا الى الحديث عن خامس هذه الظواهر : فسياسة التوسع في استخدام العمالة العربية قامت على استغلال السلطات الاسرائيلية للطاقة العمالية العربية الرخيصة في الأعمال اليدوية والشاقة ، أو مرافق « العمل الأسود » كما يسمونها في الأدبيات الاسرائيلية . وفوق ذلك يأتي الاجحاف والمعاملة التمييزية الصارخة بين العامل العربي والعامل الاسرائيلي ، حيث لا يتجاوز أجر العامل الأول ٤٠٪ من متوسط أجر العامل الثاني (٢٢) . وتعترف المصادر الاسرائيلية نفسها بهذه الحقيقة فتقول : « اعتاد العمال اليهود أن يتلقوا ٨٥ ليرة مقابل جني طن واحد من الشمندر السكري ، بينما يتلقى عمال المناطق المحتلة ما بين ٢٢ ـ ٢٤ ليرة مقابل جني ٣,٥ طن من الشمندر »(٢٣) .

واذا أضفنا الى ذلك الشروط المعيشية القاسية لهؤلاء العمال العاملين في اسرائيل ، مثل اضطرارهم للمبيت «سراً» في اسرائيل بشروط غير انسانية ، وتعرضهم للضغط السياسي ، وحرمانهم من تشكيل الاتحادات أو التنظيمات النقابية التي تحميهم ، ورفض « الهستدروت » قبولهم في عضويته ، أمكننا أن نتصور ابعاد هذه الظاهرة .

ازاء هذه الظروف يجد عمال المناطق المحتلة أنفسهم أمام خيارين : اما قبول العمل في اسرائيل بكل ما فيه من مشقة وضغوط ، أو الهجرة الى خارج المناطق المحتلة لايجاد عمل في احدى البلدان العربية أو الاجنبية . وتدل أرقام الهجرة الخارجية ـ وهو ما سوف نتحدث عنه بعد قليل ـ على نمو الاتجاه الثاني . فقد بلغ عدد عمال الضفة الغربية وحدها الذين هاجروا خلال عام ١٩٧٥ ما يزيد على /١٥/ ألف شخص ، ويقدر عددهم خلال الفترة ٧٥ ـ ٧٧ بنحو /١٠/ آلاف شخص سنوياً (٢٤) .

---

* انظر مقالة شيلا ريان في نشرة : Merip Report No 74, Jun 1979 p. 6-8
وكذلك سمير امين في كتابه : -The Arab Nation, London, 1978, p. 68.

٢ ـ الأحوال المعيشية

كان للتأثيرات الاجتماعية والاقتصادية المختلفة لسياسة سلطات الاحتلال ـ امتصاص العمالة العربية وتشغيلها في اسرائيل والدمج الاقتصادي، الخ ...ـ تأثيرات بارزة على النمط والمستوى المعاشي لسكان المناطق المحتلة . وتقدر المصادر الاسرائيلية أن دخل الفرد السنوي في المناطق المحتلة ارتفع من / ٦٧٠ / ليرة عام ١٩٦٨ الى / ١١٠٠ / ليرة عام ١٩٧٢ ـ على قبيل المثال ـ أي بزيادة ٤٥٪ (وهي زيادة لم تحسب فيها نسب التضخم) . ويعترف الكاتب الاسرائيلي موردخاي نيسان بأن هذه الزيادة تركت اثارها في الطابع المعيشي للسكان ، وخاصة النمط الاستهلاكي ، مثل اقتناء السيارات والآلات الكهربائية والسلع الاستهلاكية (٢٥) .

والأدبيات الاسرائيلية كثيراً ما تدعي أن المناطق المحتلة قد شهدت تطوراً ملحوظاً في المستوى المعيشي منذ عام ١٩٦٧ حتى اليوم ، وأنها بالتالي قد استفادت من « الوجود الاسرائيلي » . ويفند الباحث الاقتصادي الغربي فان اكري هذه المقولة فيقول : « ان المتغيرات البنيوية في اقتصاديات المناطق المحتلة هي متغيرات ضارة على المدى البعيد » . ويضيف : ان الفوائد الآتية تتمثل في ارتفاع الأجور والقوة الشرائية . ومع هذا فهو يتساءل ما اذا كانت هذه الفوائد مجدية ـ حتى على المدى القصير ـ كما تدعي المصادر الاسرائيلية ، ويقول : « في السنوات القليلة الماضية تقلصت حتى فوائد المدى القصير نتيجة للتضخم وتخفيض العملة » (٢٦) .

ومن المعروف أن ارتفاع الأسعار والضرائب في ظل حكومة الليكود ، وكذلك اتخاذها لعدد من الاجراءات الاقتصادية الجديدة ، وارتفاع نسب التضخم بوتائر عالية ، وتطبيق هذه الاجراءات على المناطق المحتلة ، قد أدت الى زيادة الأعباء المعيشية على سكان هذه المناطق ، بسبب التفاوت في دخل الفرد الاسرائيلي والعربي أولاً ، وبسبب حرمان عمال هذه المناطق من علاوة غلاء المعيشة ثانيا . ويكفي أن نذكر أن نسبة ارتفاع بعض الحاجيات الأساسية خلال السنتين الماضيتين مثل الخبز (١٠٠٪) والمرجرين (١١٣٪) والبيض (١٦٥٪) والجبن (١٣٣٪) للدلالة على ما تعانيه جماهير المناطق المحتلة في ظروفها المعيشية .

٣ ـ الهجرة

جاء الاحتلال الاسرائيلي في حزيران عام ١٩٦٧ ليفجر العديد من المشكلات والازمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، فوق كل ما سببه من خسائر بشرية ومادية . وكان في طليعة هذه المشكلات مشكلة الهجرة ، وخاصة هجرة القوى العاملة ، بسبب الظروف المادية العسيرة .

يقدر عدد الذين هاجروا أو هجروا في الأشهر الأربعة الأولى من احتلال **الضفة الغربية** بأكثر من / ٢٠٠ / ألف نسمة ولم تقف هذه الظاهرة عند سنة أو سنوات الاحتلال الأولى ، بل ظلت ظاهرة مستمرة طوال سنوات الاحتلال . ويعطينا الجدول رقم ٤ فكرة عن استمرارية هذه الظاهرة منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٧٨ ، ولنأخذ مثالاً الضفة الغربية (٢٧) .

جدول رقم ٤
(بالآلاف)

السنة	تعداد السكان في بداية العام	تعداد السكان في نهاية العام	الزيادة الطبيعية (الولادات)	الزيادة السنوية (الزيادة الفعلية)
١٩٦٧	٧٩٥,٩	٥٨٥,٧	–	–
١٩٦٨	٥٨٥,٧	٥٨١,٧	١١,٧	٠,٧
١٩٦٩	٥٨١,٧	٥٩٥,٢	١٢,٣	٢,٣
١٩٧٠	٥٩٥,٢	٦٠٣,٩	١٣,٧	١,٥
١٩٧١	٦٠٣,٩	٦١٧,٣	١٥,٩	٢,٢
١٩٧٢	٦١٧,٣	٦٢٩	١٦,٨	١,٩
١٩٧٣	٦٢٩	٦٤٦	١٦,٩	٢,٧
١٩٧٤	٦٤٦,٢	٦٦١,٦	١٨,١	٢,٤
١٩٧٥	٦٦١,٦	٦٦٥,١	١٨,٦	٠,٥
١٩٧٦	٦٦٥,١	٦٧٠.٩	٢٠,٣	٠,٩
١٩٧٧	٦٧٠,٩	٦٨١,٢	١٠,٥	١,٥
١٩٧٨	٦٨١,٢	٦٨٤,٤	٢٠,٢	–

ان قراءة هذه الارقام توحي للوهلة الاولى بوجود زيادة في تعداد سكان الضفة . ولكن لدى مقارنة نسبة الزيادة الطبيعية بالزيادة السنوية نجد ان ظاهرة الهجرة مستمرة ، وان الزيادة السنوية ما هي الا زيادة طفيفة لدى مقارنتها بالزيادة الطبيعية للسكان . كذلك يتضح لنا لدى عقد هذه المقارنة ان الزيادة السنوية للسكان لا تتناسب ، وخاصة في السنوات الاخيرة ، مع الزيادة الطبيعية . **فظاهرة الهجرة اذاً تزداد تفاقما مع استمرار الاحتلال** .

ويطيعنا الجدول رقم ٥ فكرة عن تناقص الايدي العاملة في المناطق المحتلة .

جدول رقم ٥
عدد القوى العاملة بالالاف في المناطق المحتلة *

السنة:	١٩٧٠	١٩٧٣	١٩٧٧
الضفة الغربية:	٩٩,٨	٨٧,٨	٩١,٩
غزة / شمال سيناء:	٥٢,٩	٤٥,٦	٤٩,٩

هذا التناقص الواضح يفسر ببساطة بظاهرة الهجرة **بشقيها** : **الداخلي** (العمل في

* المصدر : Merip Reports, No 74, Middle East Research Information Project, Jan 1979, p. 11.

اسرائيل) والخارجي (العمل في الضفة الشرقية والبلدان العربية الاخرى) .

ويعزو فان اركري هذه الظاهرة بشقيها الى ضعف اقتصاديات المناطق من جهة ، والركود الذي خيم على الاقتصاد الاسرائيلي منذ اواسط السبعينات من جهة اخرى . يقول اركري :

« في السنوات الثلاث الماضية لم تتوسع اقتصاديات المناطق المحتلة بما يسمح باستيعاب فائض العمالة التي خلفها الركود الاقتصادي في اسرائيل . وفي الضفة الغربية حيث بلغت مؤشرات البطالة منذ عام ١٩٧٥ وصاعدا درجات خطيرة ، امكن تجنب ازمة كبيرة بفضل تطور الاقتصاد الاردني وتطلبه لاعداد متزايدة من العمال من الضفة الغربية . كذلك لم تتوقف هجرة سكان الضفة الى اجزاء العالم العربي الاخرة والى الولايات المتحدة ... » [٢٨] .

من الطبيعي ان تتركز ظاهرة الهجرة على الذكور في سن العمل بالدرجة الاولى الذين تدفعهم الضغوط الاقتصادية والسياسية الى الهجرة في محاولة لتحسين ظروف معيشتهم ومعيشة اسرهم . وقد انعكست هذه الظاهرة بصورة سلبية على الزراعة ، كما راينا ، كما انعكست بصورة سلبية ايضا على العمالة بصورة عامة ، وهو ما يؤثر بدوره على كافة فروع الاقتصاد .

ولتوضيح ظاهرة هجرة الشباب في سن العمل ، وخصوصا منذ عام ١٩٧٤ والاعوام التي تليه ، نسوق هذا الجدول (رقم ٦) الذي يبين تناقص مجموع القوة العاملة بالمقارنة بمجموع السكان فوق سن ١٤ ، والنسبة المئوية للمجموعة الثانية الى المجموعة الاولى (في الضفة الغربية) :[٢٩]

جدول رقم ٦
[بالآلاف]

السنة	مجموع السكان فوق سن الـ ١٤	مجموع القوة العاملة	النسبة المئوية للقوة العاملة الى مجموع السكان فوق الـ ١٤
١٩٧٤	٣٥٥,٢	١٣٩	٪٣٩,١
١٩٧٥	٣٦٦,٩	١٣٣,٩	٪٣٦,٥
١٩٧٦	٣٧١	١٣١,٣	٪٣٥,٤
١٩٧٧	٣٧٩,٤	١٢٨,٨	٪٣٣,٩
١٩٧٨	٣٨٩,٨	١٣٢,٩	٪٣٤

٤ ـ اوضاع اللاجئين

ضمن اطار سياسة الدمج الاقتصادي للمناطق المحتلة باسرائيل ، عمدت سلطات الاحتلال الى محاولة انهاء مشكلة اللاجئين عن طريق الغاء المخيمات تدريجيا ، ونقل سكانها الى احياء جديدة لدمجهم في سكان المدن والقرى . ولم تكن الدوافع الاساسية لهذا المخطط

انسانية بالطبع ، بل كانت محاولة للتخلص من المخاطر التي يمكن ان تخلقها هذه التجمعات السكانية الكبيرة حيث تحتدم عوامل التذمر والثورة ، وبالتالي فقد ارادت ان « تصفي » هذه التجمعات ، وخاصة في قطاع غزة ، وتدمجها في باقي السكان ، وتدخلها في عجلة العمل الاسرائيلي .

وقد جرت بالفعل في الكيان الصهيوني عدة دراسات وقدمت عدة مشروعات لتصفية « المخيمات » وحل مشكلة اللاجئين . من ابرز هذه الدراسات والمشروعات :

- **مشروع جماعة رحبوت** : وهو مشروع أعدته جماعة من الاكاديميين في مطلع عام ١٩٦٨ . ويرى المشروع حل مشكلة اللاجئين في تطوير اقتصاديات المناطق المحتلة ، وجذب رؤوس الاموال الخارجية ، وتقديم المغريات للاجئي قطاع غزة للانتقال الى الضفة الغربية .

- **مشروع لجنة برونو** : وهو مشروع اعدته هيئة للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي برئاسة الاكاديمي ميخائيل برونو وقدمته في اذار عام ١٩٦٩ . وهو كسابقه يدعو الى حل مشكلة اللاجئين ضمن اطار سياسة الدمج الاقتصادي ، وافراغ المخيمات تدريجيا عن طريق تقديم الحوافز لسكانها . ويرى واضعو المشروع ان مشروعهم يرمي الى حل مشكلة اللاجئين وزيادة النشاط الاقتصادي والعمالة في المناطق المحتلة .

- **مشروع مؤسسة راند الاميركية** : الذي اعده بعض الباحثين الاسرائيليين لمصلحة المؤسسة المذكورة عام ١٩٧١ . ويرمي المشروع الى ايجاد مجال لاسكان اللاجئين خارج المخيمات بين السكان الاخرين الذين لا يعيشون على المساعدات ، بقصد دمجهم ، وتوفير مجالات العمل لهم .

- **مشروع فايتس** : وهو المشروع الذي اعده مدير دائرة الاستيطان السابق في الوكالة اليهودية وتقدم به عام ١٩٦٩ ، ويرمي الى تعويض اللاجئين وتوطينهم في مناطق ثابتة . كما يقترح نقل /٥٠/ الف لاجيء من قطاع غزة الى منطقة العريش في سيناء

من هذا الاستعراض الموجز لهذه المشروعات نرى ان القاسم المشترك بينها يرتكز الى فكرة ان مخيمات اللاجئين بشكلها الراهن تساعد على بقاء مشكلة اللاجئين ، وان هدف السياسة الاسرائيلية ازاء هذه المشكلة ينبغي ان يرتكز على اخلاء المخيمات عن طريق تقديم الحوافز والمغريات ، فضلا عمن يخلي من سكانها نتيجة ضغط الاجراءات الاقتصادية والقمعية .

وقد شرعت سلطات الاحتلال بتنفيذ هذا المخطط عمليا منذ العام ١٩٧١ حيث باشرت بهدم البيوت وشق الطرق وسط المخيمات القديمة وخاصة في قطاع غزة (مخيمات رفح وجباليا والشاطيء) ، والحاق المخيمات بالبلديات المجاورة . ويذكر بعض المصادر الاسرائيلية ، ان انتقال اللاجئين الى المواقع الجديدة التي خصصت لهم ، يجري منذ العام ١٩٧٤ بمعدل الف الى الف وخمسمائة عائلة سنويا ، وانه حتى العام ١٩٧٦ كان قد تم نقل /٢٥٠٠/ عائلة في قطاع غزة الى الاحياء الجديدة (٣٠) .

(١) *Jerusalem Post*. 6/5 1974.

(٢) *Monthly Discharge of Underground Water in Yehuda and Shomron 1977, 78*, Military Government Department of Water.

ـ انظر أيضا دراسة روز مصلح « اسرائيل ومصادر المياه في الضفة الغربية » شؤون فلسطينية ، أيار ١٩٨٠ ، ص ١٦ وما بعدها .

(٣) *Statistical Abstract of Israel*. 1970 - 78.

(٤) *Administered Territories Statistics Quarterly*, Israel Central Bureau of Statistics, (Jerusalem, 1978). No 3. P. 102.

(٥) Bank of Israel, *The Economy of the Administered Areas 1974 - 75*, **(Jerusalem,** Dec. 1976).

(٦) Sheila Ryan, «Israel Economic Policy in the Occupied Areas» *MERIP Reports*, No 24,. Jan. 1974, P. 10.

(٧) « هارتس » ، ٢٦ / ١٠ / ١٩٧٦ .

(٨) ***Le Monde***. **9/1/1973**

(٩) Anne Sinai and Allen **Pollack** (eds), *The Hashemite Kingdom of Jordan and The West Bank*, (New York: 1977), P. 205.

(١٠) المصدر نفسه . ص ٢٠٤ .

(١١) المصدر نفسه . ص ٢١٩ .

(١٢) المصدر نفسه . ص ٢٠٥ .

(١٣) *S.A.I.*, 1977.

(١٤) المصدر السابق .

(١٥) Sarah Graham Brown «The Structural Impact of Israeli Colonisation»,
MERIP Reports, No 74, Jan. 1979, P. 15.

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(١٧) Brian Van Arkadie, *Benefits and Burdens, A Report on the West Bank and Gaza Strip Economics Since 1967*. (The Carnegie Endowment for International Peace, 1977). Excerpts in *The Journal of Palestine Studies*, Vol VI No 2, 1977, P. 120.

(١٨) *Quarterly Statistics of the Administered Territories* as **quoted** in *MERIP*, OP. Cit. P.10.

(١٩) Van Arkadie, *Op . Cit*, P. 121.

(٢٠) ICBS, *Quarterly Statistics of the Administered Areas, 1978*.

(٢١) *S.A.I* , 1975, P. 58.

(٢٢) Sheila Ryan , «The Political Consequences of Occupation», *MERIP*. No 74. ***Op. cit.,*** P.P. 6 - 8.

(٢٣) « هارتس » ، ٤ / ٨ / ١٩٦٩ .

(٢٤) Ryan (*MERIP* No 74), *Op. Cit*.

(٢٥) Mordechai Nisan, *Israel and The Territories 1967 - 1977*, (Turtledove Publishing: Israel, 1978), P. 130.

(٢٦) Van Arkadie. *Op. Cit*, P. 11.

(٢٧) *S.A.I.*, 1978, P. 765.

(٢٨) Ryan. *Op. Cit*, P. 11.

(٢٩) *S.A.I.*, 1973, P. 710, and A.T.S.Q , *Op. Cit*. P. 35.

(٣٠) « معاريف » ، ١٩٧٦/١١/٢٨ .

حوار مع خالد الحسن

أجراه فيصل حوراني

حول موقف أوروبا الغربية والتوجه الفلسطيني نحوها

هذا الحوار اجرته شؤون فلسطينية مع الاخ خالد الحسن عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في المجلس الوطني الفلسطيني . وقد أجري الحوار بعد الجولة التي قام بها الحسن على رأس وفد من المجلس في عدد من عواصم اوروبا الغربية، وحضر في بدايتها مؤتمراً ضم اعضاء الوفد مع ممثلي « المؤسسة البرلمانية الاوروبية للتعاون العربي الاوروبي » ، وذلك في مدينة ستراسبوغ في فرنسا في الفترة بين ١٧ و٢٠ نيسان ١٩٨٠ . اما بقية الجولة فقد امتدت حتى ٩ أيار ١٩٨٠، حيث انقسم الوفد الى ثلاث مجموعات زارت كلا من باريس وروما وبروكسل وامستردام ولندن ودبلن ولوكسنبورغ وبون . وكان الحسن رئيساً للمجموعة التي زارت باريس وروما .

وفيما يلي وقائع هذا الحوار :

س : عندي رجاء قبل بدء حوارنا . فاقوالك في العادة تثير التباسات وتكون مبعث انتقادات على الساحة الفلسطينية . ورجائي ان تميز منذ البداية بين ارائك التي تعبر عن اجتهاد شخصي ، وتلك التي تعكس وجهة نظر « فتح » او وجهة نظر منظمة التحرير الفلسطينية ، حتى لا يثير هذا الحوار التباسات جديدة . واقترح ان يتركز حديثنا حول موضوعين : المبادرة الاوروبية التي يجري الحديث عنها ، والتحركات الفلسطينية بين يدي هذه المبادرة أو ما يمكن أن نسميه المبادرات الفلسطينية تجاه اوروبا الغربية . واقترح ان نبدأ بالاستماع لوجهة نظرك حول مجمل الموقف الدولي ، لنعرف الدوافع التي تجعلك واحدا من المتحمسين للنشاط في مجال الاتصال ببرلمانات وحكومات اوروبا الغربية ، مما يعني انك بين من يعتقدون بأن هذه الاتصالات ذات جدوى . فما هو تصورك لافاق الوضع الدولي المتصلة بقضية فلسطين والشرق الاوسط : ولموقع اوروبا الغربية في هذا الوضع ؟

ج : اي خطة عمل توضع ، او أي استراتيجية ، في اية قضية ، خصوصاً عندما تصل الى مستوى القضية القومية ، لا يمكن وضعها من منطلق ردود الفعل ، بل يجب وضعهما من منطلق

الفهم الدقيق لطبيعة القضية ، اولا ، ولخصوصياتها ، ثانياً ، ولعلاقاتها بما حولها من حيث ضيق او اتساع دائرة الحلفاء والخصوم واهداف الخصوم في سلوكهم السياسي بالنسبة لها ، ثالثا . واذا لم ندرك هذه الامور كلها نبقى محصورين في اطار تفكير ضيق . وهذا الضيق قد يؤدي الى فشل النضال بشكل نهائي ، كما انتهى الامر بالنسبة لعدد كثير من الثورات .

لا اريد ان اخوض في التفاصيل المعروفة لدى القارىء . واكتفي بالقول بأن اسرائيل لم توجد نتيجة العطف على اليهود بسبب المذابح النازية . وفكرة انشاء دولة يهودية ، مثل فكرة التحالف الغربي مع يهود العالم تجاه الشرق الاوسط ، تعود الى اوائل القرن الثامن عشر . ومعروف من الوثائق التي نشرت والاخرى التي لم تنشر مما يمكن الاطلاع عليها ، ان ايجاد دولة اسرائيل كان في اساسه هدفاً استعمارياً للسيطرة على الشرق الاوسط . ومن هنا يتوجب علينا ان نعرف ان الصراع مع اسرائيل هو ، في حقيقته وفي جوهره ، صراع مع السياسات الدولية التي أوجدت اسرائيل وما زالت ترعى مصالحها . وخصوصاً مع سياسات العالم الغربي المعروف بالعالم الرأسمالي ، والذي قادته في فترة سابقة انكلترا وفرنسا وتقوده الان الولايات المتحدة الاميركية . وهؤلاء عندما انشأوا اسرائيل لم يفعلوا ذلك نكاية بالشعب الفلسطيني بل انشأوها في هذا الموقع بالذات ، أي في فلسطين ، تحقيقاً لرغبتهم في استمرار سيطرتهم على منطقة الشرق الاوسط لحيوية هذه المنطقة بسبب موقعها الجغرافي ولكونها صلة الوصل بين الطرق المائية العالمية .

كذلك ، وخصوصا منذ اوائل القرن العشرين بدأ النفط يظهر في المنطقة . ودخل العلم الحديث الى الآلة العسكرية وتغيرت الاستراتيجيات العسكرية في العالم بعد التعقيدات التي حصلت في وسائل القتال ، فانتقلت من : كيف ينقل الجندي الى ارض المعركة ، الى : كيف ينقل العتاد ، ثم تطورت اكثر مع التقدم العلمي وظهرت الحاجة الى كيفية تأمين ورش الصيانة ومستودعات الوقود وقطع الغيار في ساحات القتال ، وما ترتب على ذلك من نشوء فلسفة القواعد العسكرية ، التي لا تقتصر على وجود الجنود ، بل تشمل الطائرة والدبابة والوقود وقطع الغيار وورش الصيانة ومستلزمات تشغيل هذا كله .

ولكي يتحقق وجود القواعد طبقاً لهذه الفلسفة صار على القيادة الاميركية او العالم الرأسمالي ، او أية دولة في العالم ، ان تضمن صداقة الشعب بحيث يؤمن الشعب بوجود القواعد العسكرية في بلاده . واوروبا الغربية ، مثلا ، تؤمن بوجود القواعد العسكرية الاميركية في بلادها بل تطلبها وتتمسك بها . وفي هذا السياق جرى العمل لاقامة دولة كاسرائيل ، شعبها غريب عن المنطقة وينتمي في أصوله الى الحضارة الاوروبية ويعتمد في وجوده على الدعم الغربي ، لان شعباً كهذا سيرى في وجود مثل هذه القواعد العسكرية شيئاً اساسياً لضمان استمرار وجوده الى المرحلة التي تمكنه فيما بعد من تحقيق مخططاته . ولذلك كانت حماية الاستعمار العالمي لاسرائيل كفكره ثم كوجود وكاستمرار تتطور من خلال تطور سيطرته على المنطقة ، بما هي منطقة تشكل شيئاً اساسيا لاستمرار ممارسة الولايات المتحدة لدورها كقوة أولى في العالم .

ومن هنا فإن النضال لتحرير فلسطين ليس نضالا محلياً ، كنضال الثورات الاخرى ، فنضال الثورة الجزائرية ، مثلاً ، كان موجهاً ضد فرنسا فقط ، والنضال الثوري في فيتنام كان موجهاً ضد عملاء الولايات المتحدة فيها .

س : اظن انك لا تقصد ان العامل الدولي كان غائباً ؟

ج : لم يكن عاملاً اساسياً . وأي حركة في عالمنا الحديث لها بالطبع علاقة بالسياسة الدولية . الفرق ان القضية الفلسطينية ، منذ ابتدأت ، تمس جوهر السياسة الدولية . ومنذ عرف العالم هذه المنطقة وامورها متصلة بجوهر السياسة الدولية . ولم تمر في التاريخ دولة اولى في العالم لم تسيطر على منطقة الشرق الاوسط . وبالتالي فإن طبيعة النضال الفلسطيني تمس مباشرة جوهر الاستراتيجية الدولية ، وبما ان اليد العليا في الاستراتيجية الدولية هي الآن المعسكر الغربي الذي تقوده اميركا ، فالنضال الفلسطيني يمس جوهر الاستراتيجية الاستعمارية في العالم . ومن هذا كله كانت طبيعة النضال الفلسطيني ، شئنا ام ابينا ، طبيعة دولية .

وهناك نقطة ثانية ، فمع ان قضية فلسطين قضية قومية الا ان النفسية الدفاعية هي المسيطرة على الحركة القيادية العربية. والتمزق العربي يكاد يصل الى حد الاقليمية المغلقة ، بالرغم من كل الحديث القومي والقرارات القومية التي تتخذ في مؤتمرات القمة والتي تنفذ بوسائل اقليمية . وهناك ايضاً ما تمثله اسرائيل من طموح خاص بها ، بالاضافة لمطامع الاستعمار ، طموحها الخاص لكي تستطيع ان تعيش باكتفاء ذاتي في تحقيق فلسفة اسرائيل الكبرى وما يمثله هذا من خطر قومي على الأمة العربية . كل هذا يتطلب ان يمارس العرب سياسة موحدة للأمن القومي بينما تجري في الواقع ممارسة سياسات الأمن الاقليمي بسبب الواقع العربي الراهن . وبهذا لم يتمكن الموقف العربي من ان يواجه الوجود الاسرائيلي بالشكل الصحيح . وما حدث كان معكوساً فلولا الحروب الاسرائيلية في السنوات الثلاثين الماضية لما كانت هناك حروب عربية . وكل قواتنا العسكرية العربية تبنى وفق نظرية الدفاع . وانا لا أتهم احداً بأنه لا يريد التحرير . ولكن هذا هو الوضع العربي : النفسية الدفاعية ، الاستسلام للواقع والتفكير الاقليمي ، وهو ما يتناقض مع متطلبات أي عمل يقوم على الأساس القومي لمواجهة خطر من طبيعة الخطر الصهيوني .

وهذا كله لم يحسم قضية فلسطين لصالح الشعب الفلسطيني ولصالح الأمة العربية وتاه الصراع الدولي بين العرب وبين اسرائيل وفي هذا المجال ، وطالما نحن في الموقف الدفاعي ، فإن المنتصر باستمرار هو اسرائيل ، سواء في المجال العسكري او المجال الدولي . ومن هنا فإن الشعب الفلسطيني ، بالرغم من جذوره القومية وتفكيره الوحدوي ، قرر ان يبرز شخصيته على المسرح الدولي كشخصية مستقلة . وكان هذا احد الضرورات القومية لتعديل ميزان النظرة الى الصراع . ففي المجال الدولي لا يفهمون ان الدول العربية العشرين تشكل امة واحدة وانما يرون عشرين أمة ، وهم لا يفهمون بالتالي ان بلداً كابوظبي يريد تحرير فلسطين ، الا انهم يفهمون ان الفلسطينيين يريدون العودة لوطنهم .

ومن هنا كانت خصوصية القضية الفلسطينية اذ لا بد من اعادة الشخصية الفلسطينية الى المسرح الدولي ، كشخصية مناضلة اولاً ومطالبة بحقوقها الوطنية ثانياً . وبالتالي يصبح الصراع في المسرح الدولي بين العدوان الاسرائيلي وبين الحقوق الوطنية الفلسطينية ، وهذا يعيد التوازن لصالح النضال الفلسطيني على المسرح السياسي العالمي .

س : لنبق في مجال تحديد صورة الوضع الدولي . واذا جاز لي ان الخص ما قلته بكلمات اخرى فانت ترى ان تبني الغرب للمشروع الصهيوني ، الذي ادى لانشاء اسرائيل ، قد تم في فترة نهوض الامبريالية وتطور مصالحها الاستعمارية واتساعها ، وان هذا ما يزال قائماً ، مما يعني انه مع توسع المصالح يتوسع دعم الغرب لاسرائيل ، فهل فهمتك بشكل صحيح ؟

ج : صحيح تماماً .

س : ومن تحصيل الحاصل ، أن انتقال مراكز قيادة المعسكر الامبريالي من بلد الى آخر ينقل مركز التأثير في مجمل السياسة الغربية الى هذا البلد ، وكذلك مركز الدعم الرئيسي لاسرائيل ومجابهة حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية بالطبع .

ج : هذا أيضاً صحيح ، ومن هنا ظهرت الطبيعة الدولية للقضية الفلسطينية ، وهي تفرض تنمية الشخصية الفلسطينية النضالية المستقلة . وبالطبع فيما يخص المسرح الغربي ، لا يمكن الا ان تكون في اطار الموقف العربي . واذا فهمنا هذه الاشياء يصبح من البداهة ان تجري حركة فصل سياسي على مسرح العالم الغربي ؛ ففي الفترات السابقة ، وخصوصاً منذ الحرب العالمية الاولى حتى ١٩٦٧ ، كان موقف الرأي العام الاوروبي كله لصالح اسرائيل والسياسة الغربية في فلسطين ولصالح الموقف الاسرائيلي والبقاء الاسرائيلي ، وكل شيء اسمه اسرائيل في فلسطين . ووجود رأي عام كهذا مع الطبيعة الديمقراطية للحكومات الاوروبية التي اسهمت بدورها في خلقه مكن هذه الحكومات من ان تطبق سياساتها الاستعمارية في فلسطين دون ان ترى مواقف مضادة لها من قبل شعوبها . وانا لا اريد ان ننتقل مباشرة للحديث عن الموقف الغربي بعد عام ١٩٧٣ وعن القوى الاقتصادية المتنامية وعلاقة ذلك بما يجب ان يتم في الساحة ،فهذا سنأتي اليه فيما بعد . ما اريد أن اقوله انه تبلور معسكر خصم فيه كل العالم الغربي في وقت يقود فيه هذا العالم السياسة الدولية من خلال قيادة الولايات المتحدة له . والتأثير في هذا العالم الغربي يتم عن طريق الرأي العام وعن طريق المصالح . ولم يصل الموقف العربي الى مستوى التأثير على مصالح العالم الرأسمالي حتى يشده الى الموقف السياسي العربي . سياسة كهذه غير موجودة عندنا كعرب لاننا لم نصل بعد الى مستواها ، ولان ضرب المصالح الاستعمارية او المصالح الرأسمالية في منطقتنا لا يتم بخطف طائرة او تفجير قنبلة تحت سيارة . وضرب المصالح الاستعمارية يحتاج الى موقف عربي سياسي اقتصادي متكامل لمواجهة المتطلبات الاقتصادية الاوروبية في عالمنا وهي بحجم تستطيع معه ان تؤثر على السياسة ، سواء في اوروبا او في غير اوروبا . هذا هو وضعنا عربياً ، ونحن كفلسطينيين لا نملك ان ندفعه الى الممارسة على النحو الذي يسنجم مع اهدافنا ، قد ندفع نحو موقف عربي عام ونضغط على الدول العربية حتى تربط السياسة بالاقتصاد . ولكن ما نستطيع ان نفعله هو ان نقوم بالفعل الفلسطيني الاعلامي والسياسي لايجاد تأثير في الرأي العام في معسكر الخصوم .

س : المقصود مبادرات فلسطينية تعوض غياب او عدم انتظام المبادرات العربية ؟

ج : هذا جانب أساسي في الموضوع ، والجانب الثاني هو تمايز الشخصية الفلسطينية وابرازها على المسرح الدولي لتبديل النظرة الغربية الى الصراع من كونه صراعاً بين عشرين دولة

عربية ودولة اسمها اسرائيل الى نظرة تدرك ان هناك شعباً اضطهد بوجود هذه الدولة وسلبت حقوقه وهو يناضل من اجل استعادتها ، والدول العربية مؤيدة له .

س : في كلامك نقطة بحاجة لايضاح ، انت تتحدث عن العالم الغربي وعن العرب ، وترى في كل منهما وحدة واحدة . اما في الواقع فليس هناك عالم غربي موحد ، ولا عرب موحدون . في الغرب طبقات رأسمالية وحكومات تمثلها، وفيه طبقات وقوى معارضة او معادية للرأسمالية . وبين العرب موالون للغرب وبينهم مؤيدون للتحرر منه . والحديث عن مبادرات اعلامية وسياسية تجاه الغرب ينبغي ان يميز شيئاً واحدا : لمن تتجه هذه المبادرات وبالتالي من اي نوع تكون . وبصورة عامة ، ومن غير رغبة في التبسيط ، يمكن القول ان القوى الغربية التي تضعها مصالحها ضد الاهداف الوطنية للشعب الفلسطيني سيشتد عملها ضدها اكثر كلما عرفت اهدافه بجلاء أشد . فاستقلال الشعب الفلسطيني وتحقيق دولته يتعارض مع مصالحها كلية . وهناك ، أيضاً العرب المشرفون على الثروات النفطية ولهؤلاء مصالحهم التي لا تنسجم مع اهداف الشعب الفلسطيني الوطنية ، ومثلهم عرب آخرون مرتبطون بمصالح الغرب الرأسمالي ، واذا كان السادات ابرز الامثلة في هذا السياق فهو ليس الوحيد ، فهل يجوز ان نتحدث عن غرب باطلاقه وعن عرب باطلاقهم ؟

ج : حديثي كان مقدمة عامة عن طبيعة الموقف الدولي ، ولكي نفهم حقيقة هذا الغرب فهو يتكون من مجموعات عديدة من الدول تقوم على النظام الرأسمالي ، ونظام الرأسمال يقوم على المنفعة الاقتصادية أساساً . ومن هنا ، بغض النظر عن الامور الاجتماعية ، يقع تناقض بينها مع تناقض مصالح دولها . والتناقض الاساسي البارز الآن هو بين دول اوروبا الغربية مجتمعة ومعها اليابان وبين الولايات المتحدة الاميركية .

س : ملاحظتي السابقة لم تكن عن الخلافات داخل المعسكر الرأسمالي الغربي بل الخلافات بين الرأسمالية والقوى المعارضة لها في الغرب نفسه .

ج : هذه نؤجل الحديث عنها حتى نستكمل النقطة التي بدأنا بها حول التناقض ما بين اوروبا والولايات المتحدة ، فاوروبا يقوم اقتصادها على تصدير فائض الانتاج . وهي بالتالي بحاجة ماسة الى الاسواق التي تستهلك انتاجها المتنوع . وطبقاً لاحصاءات ١٩٧٦ تستحوذ اوروبا على ٤٤,٤ بالمائة من اجمالي التصدير العالمي . وهي تعيش وتنمو عبر هذا الفارق بين ما تنتجه وما تصدره ، وتأمين الاسواق مسألة بالغة الأهمية بالنسبة لاقتصادها .

اما طبيعة الاقتصاد في الولايات المتحدة فهي مختلفة ، اذ انها تستهلك ٩٥ بالمائة من انتاجها ، وتصدر ٥ بالمائة منه وغالبيته من السيارات . ومشكلة اميركا الاقتصادية هي كيف تستثمر فائض رأسمالها المتحقق لها من السوق الداخلي . وعندما انتهت الحرب العالمية الثانية كان تراكم رأسمال الولايات المتحدة مذهلاً ، ويدفعها للبحث عن سبل لاستغلاله والا لأصبحت تعاني من تضخم رهيب . ومن هنا بنيت السياسية الامبريالية الاميركية على استثمار فائض رأسمال في الخارج وخصوصاً في الدول الصناعية حيث شاركت اميركا اوروبا في صناعتها . ومن هنا ، ايضاً ، كان الفرق النوعي في البنية الاقتصادية بينهما . وتطورت الامور في المعسكر

الرأسمالي بعد انتقال اوروبا من مرحلة الانهيار الاقتصادي الذي تلا الحرب العالمية الثانية مباشرة الى مرحلة الاكتفاء الذاتي وعودة مشكلة فائض الانتاج الى الظهور . وقد تجددت ، بسبب ذلك ، الحاجة الماسة الى الاسواق ، وهنا بدأ تناقض جديد بين اوروبا واميركا . هذا التناقض تمثل في حاجة اوروبا الى التصدير بدون مشاركة اميركا لها ، حتى تستطيع ان تحقق مشاريعها في التنمية بالشكل المرغوب . وقد ازدادت ارباح اوروبا الغربية بحيث اصبحت قادرة على انشاء مؤسسات انتاجية مستغنية عن المعونة الاميركية وعن معونة الشركات متعددة الجنسية . وهنا اصبح استثمار راسالمال الاميركي في الخارج يتراجع ، وبهذا التراجع بدأت علائم التضخم بالظهور مما اربك الاقتصاد الاميركي وذلك منذ أيام الرئيس كيندي ومما يجعله مرشحاً لمواجهة مزيد من الارباكات في المستقبل . وقد قام كيندي بمحاولة للاصلاح في مجال الصناعة حتى يتمكن من موازنة فروع الاقتصاد الاميركي ، الا انه فشل بسبب سيطرة الاحتكارات ومقاومتها .

والتضخم المالي رافقه ايضا تطور مذهل في التكنولوجيا ، واصبح هناك استثمار من نوع جديد لم نحس به تماماً حتى الآن ، مع انه استعمار المستقبل . هذا الاستعمار القادم يختلف في طبيعته عن الاستعمارات القديمة كلها ، بما فيها الاستعمار الجديد لانه سيقوم على التكنولوجيا المتطورة . واستثمار التكنولوجيا ليس مسرحه العالم الثالث بل مسرحه الدول التي تملك التكنولوجيا . ولذلك عندما خاضت فرنسا بقيادة الجنرال ديغول معركتها ضد اميركا لتحقيق الاستقلال الفرنسي عن اميركا وعن المعسكر الغربي ككل وعن حلف الاطلسي كان محور هذه المعركة هو تطبيق التكنولوجيا الفرنسية في الصناعة الفرنسية ، ولكن ديغول خسر في النهاية ، وعادت التكنولوجيا الاميركية تستعمل في الصناعة الفرنسية .

هذا النوع من الاستعمار الجديد ، الذي هو وليد تطور التكنولوجيا استتبع خلق تناقض جديد في المصالح بين دول العالم الرأسمالي ، واخذ يركز بشكل أقوى تبعية بلدان العالم الرأسمالي في المجال الاقتصادي التكنولوجي للتكنولوجيا الاميركية ، ومن هنا اصبحت التكنولوجيا الالمانية الغربية في موضع المحاصر على المستوى العالمي سواء في الانتاج او التصدير كما كان الانتاج الالماني محاصراً قبل الحربين العالميتين ، وشمل الحصار تكنولوجيا البلدان الأخرى كلها . ولهذا صرنا نجد ، مثلا ، الثلاجة الفرنسية بموتور اميركي ، وصناعة السيارات البريطانية تستخدم التكنولوجيا الاميركية . وعندما نصل الى الموضوع الذري ندرك كم هو مهم موضوع التكنولوجيا المتطورة . فالتناقض الذي نجم عن تطورها هو الذي جعل من بلدان اوروبا الغربية بلداناً شبه تابعة للولايات المتحدة .

وقد بدأت الولايات المتحدة تغير من سياستها الاقتصادية بحيث تعتمد على التصدير وبالتالي تريد ان تصبح منافساً حقيقياً لصناعة حلفائها في اوروبا واليابان . والوسيلة الوحيدة لتحقيق تفوقها في المنافسة هو ان تكون اميركا قادرة على منافسة اوروبا في اسعار سلعها ، مع حاجة اميركا لزيادة الانتاج حتى تتمكن من التصدير .

س : وهل هذا في رأيك هو الذي يفسر ايضاً حاجتها للهيمنة على النفط وعلى فوائض رأس المال النفطية ؟

ج - : بهذا ، وكذلك بتطوير التكنولوجيا تعمل اميركا لتحسين فرصها في المنافسة . تطوير التكنولوجيا صار هدفاً ملحاً، والنفط لم يعد يستخدم للوقود فقط كما كان في الماضي، بل اصبح الآن اساسا لصناعة ٨٢ سلعة رئيسية ، وخصوصاً السماد الذي يعالج مشكلة الغذاء ، التي هي ايضاً مشكلة اساسية في العالم . والغرب ، ويضمنه الولايات المتحدة ، اصبح بحاجة أمس للنفط على نطاق واسع . وقد اصبحت اميركا حذرة في استهلاك نفطها بعد ان جفت بعض آباره في تكساس وهي لا تستطيع ان تقامر بنفطها ، وصار لا بد ان تستهلك نفطاً مستورداً . وقد كانت في العادة تستورد النفط من فنزويلا وبلدان اميركية لاتينية اخرى لتأمين حاجاتها خارج القارة ، والآن ، بالاضافة لمسؤولياتها في الخارج ، صارت بحاجة للنفط المستورد لتلبية متطلبات الصناعة في الداخل ايضاً ، واصبحت تستورد ٤٠ بالمائة من حاجاتها النفطية . وقد احدث هذا خللاً في ميزان المدفوعات الاميركي ، فزادت حدة التضخم المالي ، وزادت التناقضات بينها وبين حلفائها في اوروبا واليابان ، ولذلك لجأت الى اسلوبين : فعملت ، من جهة ، على زيادة أسعار النفط حتى ترغم اوروبا ، التي تستورد ٨٧٪ من حاجاتها للنفط من العالم العربي ، على رفع كلفة انتاج السلع الاوروبية المعدة للتصدير مما يحسن فرصها في المنافسة ، وعملت على تخفيض قيمة الدولار او صمتت عن انخفاضه لتحقيق الغرض ذاته ، بينما ارتفعت قيمة الين الياباني والمارك الالماني الذي هو بطل الصناعة الاوروبية ، من الجهة الاخرى . وهاتان العمليتان جعلتا البضاعة الاميركية ارخص من الاوروبية . وقوة شراء الدولار الآن ، مثلاً ، تعادل قوة شراء الاسترليني مع ان هذا يساوي اكثر من دولارين ، وبامكانك ان تشتري بسعر سيارة المرسيدس الالمانية ثلاث سيارات اميركية عادية او اثنتين دون مستوى الكاديلاك . وبالاجمال تحسنت فرص اميركا في المنافسة لان سلعها صارت متوفرة وسعرها تدنى .

س : انت توافق اذن على ان زيادة اسعار النفط تمت لصالح الامبريالية الاميركية ؟

ج : ان زيادة السعر في المرتين الاولى والثانية جرت بالاتفاق بين الولايات المتحدة وشاه ايران ، ثم اتت حرب تشرين ١٩٧٣ ، وزادت عملية التضخم المالي فصار لا بد على العرب ، ولو من باب الانانية ، وليس من باب السياسة ، واستجابة للحقائق الاقتصادية العالمية ، ان يندفعوا في اتجاه رفع الاسعار كنتيجة للتضخم المالي ولانخفاض القيمة الشرائية للدولار . وهكذا لم يكن لرفعهم للاسعار علاقة بما ذكرت وانما هدفه الابقاء على دخل الدول المنتجة للنفط في نفس المستوى .

س : انت هنا تعزل النفطيين العرب عن تأثيرات الولايات المتحدة في مسألة رفع الاسعار وتحصرها بشاه ايران ، مع ان العملية في رأي الكثيرين واحدة ، وقد تمت اساساً لصالح احكام الهيمنة الاميركية ، وما تزال مستمرة .

ج : في بداية العملية كان هناك تأثير الولايات المتحدة اما المراحل التالية فقد جرت وفق ميكانيكية جديدة في موضوع النفط ، تتصل بالانخفاض المستمر في القوة الشرائية للدولار ، وقد صار على منتجي النفط ان يرفعوا اسعارهم عند كل انخفاض جديد فيها . وهم يرفضون ان يقيموا نظاماً جديداً لبيع النفط يحرره من تأثير الدولار ، كأن يباع بالعملة المحلية او بالذهب او بكل العملات الصعبة وليس الدولار وحده ، ولا يزالون يعتمدون الدولار على اساس انه يمثل ٦٥

بالمائة من حركة التداول النقدي في العالم وليس من السهل ، بالتالي ، ان يتركوه . ومعروف ان الدولار الاميركي اعتمد بعد الحرب العالمية الثانية كتغطية للعملات الأخرى في العالم ، حيث تعهدت الولايات المتحدة ان تغطي كل دولار بنسبة معينة من الذهب تكون جاهزة لدفعه عند الطلب . وبهذا اصبحت هي بمثابة البنك المركزي للعالم الرأسمالي فيما يتصل بموضوع العملة وليس لدى الدول العربية والأخرى ، المصدرة للنفط امكانية التخلي عن ذلك . وما دامت القيمة الشرائية للدولار تهبط فلا بد ان يقابلها رفع في سعر النفط يعادل الهبوط . والآن نجد ان القيمة الشرائية لسعر برميل النفط في هذا العام تعادل القيمة الشرائية لسعره في عام ١٩٧٣ .

هذا كله ، على اية حال ، زاد من حدة التناقض والتنافس بين الصناعة الاميركية وصناعة حلفائها الغربيين في اوروبا واليابان . ولم يقتصر التنافس على مجال الانتاج واكلافه او تسويقه ، بل امتد ليشمل مشاريع الانشاء الضخمة التي تتم في العالم الثالث بشكل عام وفي العالم العربي بشكل خاص .

س : هل ترى ان هذا تناقض يؤدي الى قسم المعسكر الرأسمالي الى بلدان متناحرة او متنافسة كبلدان ، ام ان الأمر في جوهره يعكس جانباً من الازمة العامة للرأسمالية ، للنظام الرأسمالي ككل الذي يسعى لجني الارباح وفرض الهيمنة فيعجز بسبب ذلك وبحكم طبيعته ذاتها ، عن ان يلبي مصالح البلدان النامية مثلما يعجز عن وقف تزايد الاعباء عن كواهل الطبقات المنتجة في بلدانه . اما ما تسميه تناقضات داخل هذا المعسكر فهي موجودة وهي ناجمة عن مستويات التطور المتفاوتة بين بلدانه وبضمنها مستويات تطور التكنولوجيا . وهذا العامل هو بين الاسباب التي تجعلها تسلم بصورة او باخرى بزعامة الولايات المتحدة للمعسكر ككل ، ولا ترقى التناقضات المشار اليها الى حد دفعها للتمرد على هذه الزعامة او الفكاك من هيمنتها في الامور الهامة . ورؤوس الاموال الكبرى ، برغم التبدلات التي طرأت على حركتها لهذا السبب او ذاك ما تزال مختلطة ومتعددة القوميات ، او فوق القوميات ان جاز التعبير .

ج : حركة المال العالمي يشغل الدولار فيها نسبة ٦٥ بالمائة والباقي من العملات الصعبة الأخرى .

س : هذا في العالم الرأسمالي اما العالم الاشتراكي فهو خارج اسر الدولار .

ج : بل في العالم كله ، مثلما هو الحال في العالم الرأسمالي ، لانه حتى العالم الاشتراكي مضطر في تجارته الخارجية لأن يسعر على اساس الدولار .

س : هذه مسألة أخرى ، فالدولار هنا ، او اية عملة ، يصبح وحدة لمعادلة او تقدير السعر ، ولا يكون له نفوذ سياسي ، وسؤالي الذي طرحته ، على ضوء تحليلك لدوافع التناقض بين البلدان الرأسمالية ، سياسي ، فهل تعتقد ان العالم الرأسمالي مقبل من جديد على صراع قوميات بين بلدانه ، ام ان تطوره يتخذ منحى مغايرا يظهر تغييباً للمصالح القومية في ظل الرأسمالية لصالح وحدة مصالحها وهيمنة طرفها الأقوى الذي هو الرأسمال الاميركي .

ج : هناك ، اولا ، ازمة في النظام الرأسمالي ككل ، وهذه الازمة كانت دائماً تلي كل حرب

عالمية ، ولكن هذه المرة مع ظهور الفائض الضخم في الرأسمال الاميركي تأجل ظهور الازمة من ١٠ ـ ١٥ سنة الى ٣٠ سنة . وهناك ، ثانيا ، شيء خاص بالنسبة لاوروبا . ثمة تمايز او انسلاخ بين ثلاث تجمعات في العالم الرأسمالي : واحد اوروبي وآخر اميركي وثالث ياباني . وقد وجد الاوروبيون انهم حتى يستطيعوا مقاومة رأسالمال الاميركي الموجود في صناعتهم والسياسة الاميركية، عليهم ان يقيموا السوق الاوروبية المشتركة فيحققوا توحيد الاقتصاد الاوروبي والموقف الاوروبي بمواجهة الاميركي .

س : هذا التحليل يغفل نقطة وهي ان الهيمنة العسكرية ايضاً هي بيد الولايات المتحدة بحكم التطور التاريخي ، وهي القادرة على تولي الجانب الاكبر في سياسة الدفاع العسكري عن المعسكر الرأسمالي ككل ، ويرتبط بهذا دورها في فتح مجالات الهيمنة له في بلدان العالم الثالث . وقد رأينا انه ، برغم الاختلاف ، فإن رأي الولايات المتحدة هو الذي يتغلب بين يدي اي قرار هام لصالح التحالف الغربي باسره . ولدينا آخر الامثلة : صواريخ بيرشنغ ، اليس هذا صحيحاً ؟

ج : حديثنا يدور عن العلاقات داخل المجموعة الرأسمالية ، لم نتطرق لمشاكل الصراعات العالمية بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي .

س : ولكن حاجات المعسكر الرأسمالي الدفاعي ، مثلها مثل حاجاته الاقتصادية ، تحدد جانبا من اسباب الهيمنة الاميركية ،وبروز الدور الاميركي كدور اول فيه . وجهة النظر الاميركية تفرض نفسها آخر الأمر ، وعلى الآخرين ان يتبعوا : ازمة النفط ورفع الاسعار ، حلف الاطلسي وفشل محاولات ديغول في الاستقلال عنه ، العقوبات ضد ايران . وانا اريد ان اكرر سؤالي السياسي المحدد : هذا الذي نشهدُ من التناقضات ، التي لها اسبابها القائمة فعلاً بين مجموعات رؤوس لأموال ، هل يتيح هامشاً واسعاً للاختلاف في وجهات النظر حول المسائل الاستراتيجية الكبرى ؟ لان تحديد مدى هذا الهامش هو الذي يحدد جدوى التوجه الفلسطيني نحو اوروبا الغربية من عدم جدواه ، كما يحدد طبيعته . ماهو في تصورك سقف هذا التناقض ؟

ج : قبل ان نصل الى كلمة السقف علينا ان ندرك ان الصراع التاريخي بين القوميات الاوروبية لا يزول في فترة وجيزة . فاوروبا ، مثلاً ، تخشى قيام المانيا المسلحة ولذلك قرروا عدم تسليحها حتى لا تتقدم في مجال التكنولوجيا العسكرية الا ضمن اطار التخطيط الاميركي والاوروبي . الصراع الخفي بين القوميات في اوروبا كان احد اسباب تمزق اوروبا ، وبالتالي قدرة الولايات المتحدة على الاستمرار في اعطاء تعليماتها لها منطلقة من ضخامة الالة العسكرية الاميركية . لكن اوروبا الموحدة التي لا يوجد خلل في العلاقات بين بلدانها ، تستطيع ، اذا اتخذت موقفاً موحداً ، ان تواجه النفوذ الاميركي بحيث لا تعود له نفس فعاليته القائمة الآن . اما الآن فأميركا قادرة على أن تعزل المانيا الغربية عن فرنسا ، وان تجعل الموقف البريطاني في السوق الاوروبية مرتبكاً ؛ قادرة على ارباك الوضع الداخلي في ايطاليا لدرجة فقدت معها ايطاليا فعاليتها واستقلالية حركتها في الساحة الدولية . التمزق الاوروبي هو الذي يجعل من الموقف الاميركي قوياً بهذه الدرجة ، وهذا ليس معناه أنه اذا توحدت اوروبا فسيتطور الموقف الاميركي ، الا انها لن تبقى تابعة للموقف الاميركي .

وبهذا نأتي بحديثنا الى الموقف العربي، وانا اقصد الموقف العربي بشكل عام ، ليس فقط من خلال سوقه الخاصة ولكن ايضاً من خلال امتداد تأثيراته عبر مساهماته في تنمية العالم الثالث ، وخصوصاً افريقيا التي تمثل مستودعاً للمواد الخام . هذا العالم العربي قادر ، اذا اتخذ موقفاً اقتصادياً على ضوء استراتيجية سياسية موحدة ، محورها القضية الفلسطينية ، ان يصعد حدة التناقض بين اوروبا واميركا ، وان يخير اوروبا بينه وبين اميركا في الموضوع السياسي . ولهذه القدرة اسبابها العديدة : النفط والجغرافيا السياسية ، وما تركته العلاقات الاستعمارية القديمة من آثار في العالم الثالث ، وكلها عوامل تؤثر على الاقتصاد الاوروبي . ولو كان الموقف العربي موحداً لربط الى جانبه الموقف الافريقي ولوضع اوروبا امام الخيار ...

س : تتمنى موقفاً عربياً موحداً فعلى اي شيء سيتحد ؟

ج : على سياسة اقتصادية تربط الموقف من اوروبا بموقفها من القضية الفلسطينية .

س : تريد قوة عربية اقتصادية موحدة في الضغط على اوروبا ؟

ج : بطبيعة الحال ضاغطة

س : انت هنا تغفل ، ايضاً ، شيئاً هاماً وهو ارتباط معظم مصدري النفط العرب بكل هذه الالية الاقتصادية السياسية الرأسمالية في موضوع النفط . من الانتاج الى التسويق الى استخدام العوائد الفائضة من بيع النفط . كيف يمكن ان نرى وضعاً كهذا معادياً في مجمله لاهداف حركة التحرر الفلسطينية ونضع ال « لو » متمنين ان يصير في خدمتها ؟ انت تعرف كم هو ضيق هامش الاستقلال المتاح لمصدري النفط العرب ، الاستقلال عن كامل هذه الآلية الرأسمالية التي صارت عاملاً هاماً في السياسة الدولية ككل .

ج : انا اعتقد ان هناك هامش استقلال كبيراً . واعتقد ان اساس المشكلة في دول النفط العربية ليس هامش الاستقلال . ولو شئنا ان نتعمق هذه المسألة فلا توجد في المرحلة الراهنة في الحياة العالمية هوامش استقلال لاي دولة من الدول، كبرى او صغرى . مشكلة الموقف العربي هي في طبيعة ارادته ، نفسيته ، هل هي نفسية هجومية او نفسية دفاع .

س تنبثق الارادة من المصالح فاين تتجه مصالح النفطيين ، هذا هو السؤال ؟

ج : تبنى الارادة على البنية الذاتية للمجتمع العربي وهي الآن متدهورة ومنهارة . ربما تخالفني ، لكن ، حتى المصالح ، مصالح النظام نفسه ، توجهها الارادة الذاتية . مثلاً هناك قروض عربية تعطى لاوروبا ، فلماذا لا تقترن بشروط ؟ اعطي مؤخراً قرض مقداره ٥ آلاف مليون دولار لالمانيا الغربية ، وكل هذه الاستثمارات العربية الموجودة في اوروبا في العالم العربي اذا انشيء فيه بنك مركزي ، امكانية لان تصبح العملة العربية عملة صعبة .

س : في اقوالك تضع يدك على السبب . في كل العالم الغربي ، وحتى في الولايات المتحدة ، مع تطور حركة الانتاج ورغبات الهيمنة ومع تطور حاجات المجتمعات الغربية

الاستهلاكية ، وكذلك حركة انتاج الاسلحة ، مع هذا كله حدث تبدل في حركة رأسالمال العالمي وبعد ان كانت فوائضه توجه للاستثمارات خارج البلدان المتقدمة صارت هذه بمعظمها بحاجة الى رؤوس اموال للاستثمار فيها ، وبالاضافة للاسباب الناجمة عن الهيمنة الاميركية على عوائد النفط المسجلة باسماء عربية تعطي الاستثمارات في البلدان المتقدمة ريعا أعلى واكثر ضمانات بكثير من ما تعطيه في البلدان النامية ، والأمثلة التي اوردتها ترد في هذا السياق ، وتؤكد ان رأس المال الموصوف بالعربي ، الناجم عن العوائد النفطية بازقامها المذهلة ، مجند في خدمة النظام الرأسمالي العالمي في الاساس ، وطبيعته وطبيعة مصالح مالكيه تفرض ذلك . فكيف تفترض ان ينجم عن وضع كهذا املاء شروط على الغرب ؟

ج : من هنا يأتي دور النضال الفلسطيني الذي هو في تصاعد مستمر وفي صلب الصراع في الشرق الاوسط ، وما يخلقه هذا النضال من صراعات وتأثيرات مستمرة ستهدد في النهاية الانظمة السياسية، فاما ان تنهار واما ان تعود الى التفكير بشكل ايجابي في هذه المسألة . ولا ننسى ايضاً ان عملية التضخم المالي في اوروبا وما ينجم عنها من ازمات البطالة تجعل اوروبا الغربية بحاجة ماسة جداً الى النفط العربي والى هذا الفائض من رأسمالمال العربي ، حتى تتمكن من الاستمرار في التنمية .

س : ومصدرو النفط العرب يساعدون في حل ازمات البلدان الرأسمالية

ج : يقومون بذلك بفعل ارادي ، والمفروض الا يفعلوا ذلك الا بشروط .

س : لقد رأيت بنفسك كيف ان الاطراف العربية التي اشتركت في الحوار العربي - الاوروبي وافقت رسمياً على طلب دول اوروبا الغربية بعدم ادخال السياسة في هذا الحوار . وهذه الموافقة في حد ذاتها ذات مدلول سياسي مغاير لما تتمناه .

ج : هنا يكمن الخطأ الاساسي . ونحن بحركتنا السياسية الفلسطينية نحاول ان نصحح هذا الخطأ ، ان نعوض النقص ، لأن السياسة العربية في التعامل مع العالم ليست قادرة على الفعل ما دامت لا تربط السياسة بالاقتصاد . وفي مؤتمر قمة تونس الأخير اتخذ قرار يربط السياسة بالاقتصاد الا انه لم ينفذ الى الآن ، ولو تدريجياً . العرب الآن يتكلمون ويحاولون ان يربطوا . ابو ظبي ، مثلاً ، اشترطت في التفاوض على صفقة نفط مع اليابان ان تعترف هذه بمنظمة التحرير الفلسطينية ، لو تمسكت بهذا الشرط حتى النهاية لتحقق الاعتراف .

س : هل تخلوا عن الشرط ؟

ج : الأمر ليس كذلك ، لا تنسى غياب الخبرة ازاء المراوغة السياسية اليابانية . فقد وافق اليابانيون على ان يوجهوا الدعوة للاخ ياسر عرفات ، وبسبب غياب الخبرة لدى الجانب العربي لم تشترط ابو ظبي ان تكون الدعوة من الحكومة اليابانية بالذات . وبعد ابرام العقد وجهت الدعوة من قبل مجموعة من اعضاء البرلمان ولم يكن هذا هو المطلوب . كل ما حدث ان المفاوض العربي نسي ان ينص على الجهة التي ينبغي ان توجه الدعوة وهي الحكومة . عندنا تخلف في الموقف السياسي العام وضعف امام الغير .

س : الجانب الفلسطيني طموح وهو يناضل من اجل تبديل اتجاه الرياح ، وهو نضال لا بد ان يكون طويلاً حتى يمكن الوصول الى نتائج ملائمة . اما الوضع الراهن فهو كما نراه ، وهذا يعيدنا الى السؤال الاصلي . وما دمنا متفقين على ان الموقف الاميركي معاد لاهداف الشعب الفلسطيني ، وانه معاد ليس فقط لأن الولايات المتحدة تراعي اسرائيل بل لأن مصالحها ذاتها تضعها في هذا الموضع ، وانت تتحدث عن التناقض بين اوروبا الغربية والولايات المتحدة وتراهن عليه ، فما هي حدوده في الافق المنظور الملموس ، وليس وفق « لو » التمنيات ؟

ج :انا لا اتحدث ضمن الـ « لو » اطلاقاً ، فعندنا قاعدة موجودة وواقع موجود ، هل الواقع قابل لأن نمارس فيه الفعل ؛ واذا كانت النتائج لا تتحقق فبسبب الواقع العربي ، اما الفعل الفلسطيني فهو قائم ومستمر لغزو الرأي العام الاوروبي ولتحقيق مزيد من التفهم للقضية الفلسطينية . وقد ثبت لنا اننا لم ندخل مؤتمراً دولياً الا اصبح في النهاية معنا ، ليس الى جانبنا كما نريد بالضبط ، ولكن تحولاً ما ضد اسرائيل يحدث لصالحنا . والرأي العام الاوروبي بدأ يتحول ، وهناك ادلة كبيرة . هذا الغزو الفلسطيني عبر الحركة السياسية وما تقترن به من حركة اعلامية هدفه في النهاية احداث تغيير في الرأي العام لصالح الموقف الفلسطيني . وهذا التغيير بدوره سيؤثر على الموقف الحكومي . ولكن متى يمكن ان يكون التأثير المتتابع اعمق ؟ اذا استطعنا ان نقرن الحركة الفلسطينية بتحرك عربي ايضاً . وهنا علينا ان نحدث تغييراً ، ولو بطيئاً ، في الموقف العربي من شكل التعامل مع اوروبا . نحن الآن لا نأمل بأي تغيير في التعامل بين العرب والولايات المتحدة ، بل نأمل في تغيير يتناول التعامل مع اوروبا الغربية واليابان ، ومن هنا يتركز جهدنا على الحركة العربية ازاءها ، ونلحظ ان نجاحات كثيرة ملموسة تتحقق . وقد بدأت الصهيونية تنتقل الى مواقع الدفاع . طبعاً لم نصل الى مستوى تحقيق ايمان اوروبا الكامل بحقوقنا ،ومع ذلك صاروا فيها يتحدثون عن الحقوق الفلسطينية وعن ضرورة ان يحصل الفلسطينيون على حقوق . والمعركة الآن في اوروبا تدور حول تحديد طبيعة هذه الحقوق ، وليس حول وجودها من حيث المبدأ ، كما كان الامر من قبل . ونحن مستمرون في نشاطنا العالمي .

س : حتى نستكمل صورة الوضع الدولي نأتي الآن الى الوجه الآخر ، وهو المعسكر الاشتراكي وحلفاؤه في العالم . والملاحظ ، على الاقل بالنسبة للسنوات الاخيرة ، ان هناك تحولاً ، ابتدأ بطيئاً وهو يشتد الآن ، في موازين القوى العالمية لصالح هذا المعسكر ، مما يجعله قادراً على تنشيط مبادراته ، وآخرُ الامثلة افغانستان ، فكيف ينعكس فهم هذا على مجمل التحرك الفلسطيني ؟

ج : هذا التحول موجود وهو نام ، الا انه ما يزال ينمو ببطء . وبالنسبة لأثره على قضيتنا فانه لا يزال في اطار الفعالية السلبية بسبب الجغرافيا السياسية وليس بسبب نوايا الكتلة الاشتراكية . فالشرق الاوسط يقع ضمن دائرة النفوذ الغربي لان الغرب فيه يقاتل من اجل حياته ذاتها . واقتراب الكتلة الاشتراكية من الشرق الاوسط ليس اقتراباً ذاتياً لانه سيؤدي الى الاصطدام مع الولايات المتحدة ، وليس هذا وارداً في سياسة المعسكر الاشتراكي ، فهو لا يريد ان يقوم بأي شيء يؤدي لحرب عالمية . ولذلك تأخذ حركة الكتلة الاشتراكية الموقف السلبي ، الا اذا تكون موقف عربي قادر على ان يتعامل معها بشكل ايجابي ، وقادر على أن يخوض معركته

السياسية بامكانياته الاقتصادية ، ففي حالة كهذه سيزداد حجم ونوعية موقف المعسكر الاشتراكي الى جانبنا . وطالما بقي الوضع العربي مفككاً وسلبياً واستمر غياب الموقف العربي الموحد عملياً فستبقى قدرة الكتلة الاشتراكية على الفعل محدودة بالرغم من تأييدها لنا .

س : انها محدودة بمحدودية قدرة حلفائها من العرب ، اليس كذلك ؟

ج : صحيح . ونحن كحركة فلسطينية لا نستطيع ان ننتظر التحول العربي الايجابي نحو الكتلة الاشتراكية او ننتظر زيادة قدرتها . ولا نستطيع ان نبقى صامتين ازاء احتكار الاعلام الصهيوني للرأي العام الغربي . وعلينا ان نتحرك ، ونحن متفقون مع المعسكر الاشتراكي على ضرورة هذه الحركة .

س : هذا جانب من الصورة ، والفلسطينيون غير مطالبين بأن يبقوا جامدين الى ان تحدث التحولات الكبرى ، وما من احد منهم يعترض على التحرك حين يكون هدفه كسب مزيد من التأييد لدى الرأي العام . ولكن ليس جائزاً ايضاً ان يجعلهم الواقع القائم يبحثون عن صيغ للتجانس معه كما هو ، بكلمات اخرى : حين لا تتوفر على الجانب الغربي معطيات تسمح بتسوية تتضمن حقوق الحد الادنى الفلسطينية فلا يجوز بسبب ذلك ان تتم الحركة مع تنازلات الى ما هو أقل ، فهل توافقني على ذلك ؟

ج : كلامك صحيح ، لو صح اننا نطالب اوروبا الغربية بتسوية ./الا اننا لا نطالبها بتسوية ، ونحن نقول بصراحة لكل من نلتقيهم ان على المستوى العلني او المستوى غير العلني : اننا نعرف ان هامش الاستقلالية الاوروبية عن السياسة الاميركية يكاد يكون معدوماً . ونعرف ايضاً ان هناك سياسة دولية غربية تقودها الولايات المتحدة واطرافها متحالفة وبلدان اوروبا اعضاء في هذا التحالف الغربي . وقد وصل الأمر حداً لم يدع العلاقة علاقة حلفاء بل تبعية ، والولايات المتحدة ، عندما تريد ، تصدر الاوامر لحلفائها الاوروبيين او تنفرد في المواقف من غير ان تخبرهم . نحن ندرك هذا كله ، ولذا فان حركتنا السياسية لا تستهدف الحكومات وحدها وانما تستهدف الرأي العام اساساً ، لأنه هو القادر عندما يتغير على ان يغير مواقف الحكومات . ونحن نحقق التقدم في هذا المجال . وهذه الجمعية البرلمانية التي اشتركنا مع ممثليها في مؤتمر ستراسبورغ ، مثلاً ، انشئت قبل خمس سنوات وكان فيها انذاك خمسة برلمانيين : بريطانيان وفرنسيان والماني غربي واحد . اما الآن فانها تضم ما يزيد على ٣٥٠ عضواً ينتسبون لبرلمانات دول أوروبا الغربية التسع . وهذا يعني أن ٣٥٠ صوتاً برلمانياً تؤيدنا ، ومع مواصلة الاتصال ورفع مستوى الفعالية سيزيد هذا العدد ، وستتحول المناقشات داخل البرلمانات لصالحنا ، كما هو الحال فعلاً في ايطاليا ، وكذلك ، تقريباً ، في هولندا ، التي اتخذ برلمانها قراراً يحث الحكومة على تكثيف الاتصال والتعاون مع م.ت.ف .

س : يذكرني هذا بشيء طريف ، ففي سنة ١٩٧٣ عندما فكر العرب بقطع النفط قطعوه فقط عن هولندا ، استضعفوها فقطعوا عنها النفط ، هل تذكر ذلك ؟

ج : يستغل الصهيونيون هذه الواقعة الآن في تحريضهم ضدنا .

اتوقع اذن ان تزيد قوة مؤيدينا في البرلمانات وفي الاعلام وستجد الحكومات نفسها في

وضع تضطر معه لتغيير سياستها . وطبعاً لن تتغير المواقف بمقدار ١٨٠ درجة او دفعة واحدة ، الأمر يجري بالتدريج ، وعلى تحركنا ان يستمر ، وفي غضون ذلك علينا أن ندرك ان الموقع الاميركي ، الذي بلغ اعلى مراتبه بعد الحرب العالمية الثانية ، لم يعد الآن كذلك ، وهو ينخفض ذاتياً ومن خلال نمو فاعلية الدول الاشتراكية في السياسة الدولية . وعلينا بالتالي ان نواكب حركة التغيير في موازين القوى ، ليس كمراقبين من بعيد بل كفاعلين بحيث نستفيد منها لصالحنا ، علينا ان نكون نشيطين داخلها حتى يحدث التغيير الملائم لنا . وفي النهاية ، ماذا يهمني ان تصير الاشتراكية اقوى او الرأسمالية اضعف اذا لم يجير ذلك لمصلحتي كقضية . علينا ان نتعامل مع حركة التغيير . امورنا مع المعسكر الاشتراكي محلولة ، وفعلنا داخله اقل بكثير ، بالتالي من فعلنا داخل المعسكر الرأسمالي لانه ليس لدينا مشكلة مع الاول منهما .

س : اريد هنا ان اتدخل بملاحظة : ان المعسكر الاشتراكي يقوم من جانبه لتوسيع التمايز بين اوروبا الغربية والولايات المتحدة ، ويفعل من أجل ذلك الكثير ..

ج : هذا صحيح

س : اردت من هذه الملاحظة ان اقول ان الفعالية الفلسطينية تجاه اوروبا الغربية يمكن ان تتم بالتوازي مع فعالية المعسكر الاشتراكي وبالاستفادة منها ، وهذا يعني ان توثق م.ت.ف. علاقاتها به في هذا المجال ايضاً ، وان توثق بالتالي علاقاتها بالقوى الحليفة له داخل البلدان الرأسمالية ، لا ان يتم التحرك بمعزل عنها ، فهل توافقني على هذا ؟ ومن الامور التي تتضمنها انتقادات المبادرات الفلسطينية نحو اوروبا الغربية انها تترك احياناً الانطباع وكأنكم تهملون هذه القوى سواء تلك منها التي في اوروبا او المعسكر الاشتراكي ، بالرغم من انها الحليف الثابت ، اليس لهذا الانطباع ما يبرره ؟

ج : ما رأيك في أن النقد كان يوجه لنا ، خلال جولتنا الاخيرة ، باننا نتجاوز الحدود في علاقاتنا مع الاحزاب الشيوعية ، وهو نقد وجهته الاحزاب الاوروبية الأخرى ، وهم يقولون ايضاً اننا نتوجه في علاقاتنا الى الاحزاب الشيوعية والاشتراكية ونهمل الاحزاب اليمينية . اريد ان اقول : اننا لم نترك القوى الحليفة أو نهملها الأمر بالعكس ، فقد كان دخولنا لاوروبا الغربية اساساً عن طريق هذه القوى .

س : الا ترى ان هذا هو الوضع الطبيعي ، على اي حال ؟

ج : صحيح ، ونحن لا نهمل هذا اطلاقاً .

س : اقول ان انطباعاً كهذا قد وجد . ومن الجائز انكم تركزون على شيء فسيتفرق الذهن ، ويأتي الاعلام فيزيد من التركيز ، فتنجم الشكوك ..

ج : عقدنا لقاءات تنسيقية عديدة مع الاحزاب الشيوعية في أوروبا الغربية قبل واثناء اللقاءات مع الآخرين ، وهم الذين رغبوا في ان لا ننشر شيئاً عن لقاءاتنا معهم . نحن ندرك ان المعسكر الغربي باجماله معسكر اعداء ، اما دوائر الاصدقاء داخله فنحن ننسق معها ، وفي اطار هذا التنسيق وعبره يتم الفرز بين الاعداء والاصدقاء .

س : لو انتقلنا الى الموضوع الآخر ، هذا الحديث الدائر عن شيء اسمه المبادرة الاوروبية ، فما هي هذه المبادرة ، بالملموس

ج : انا ، شخصياً ، لا ارى حتى الآن مبادرات اوروبية ، ولذلك ركزت في كلمتي الأخيرة في مؤتمر ستراسبورغ ، وبشكل واضح تماماً ، على ما أحس به من ان الحديث عن المبادرة ليس جدياً ، وقلت : حين يصير الكلام جدياً ومخلصاً فاننا سنعمل من جانبنا كذا وكذا . وقد استثار قولي هذا الوفد الفرنسي باعتبار ان الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان هو اساس ما يوصف بالمبادرة ، واعتبر الفرنسيون قولي بمثابة تشكيك . وانا الآن اكرر القول بانني لا ارى مبادرة اوروبية ، ومثل هذه المبادرة قد لا تتم الا اذا غيرت الولايات المتحدة من موقفها . وحقيقة المبادرة الاوروبية ، حين تكون هناك مبادرة ، تكمن في ان تتمكن اوروبا من تغيير الموقف الاميركي، ولن تكون هناك مبادرة اوروبية مستقلة .

س : هل تعني انه لا يوجد شيء ملموس ؟

ج : حتى سنة على الأقل لن يتبلور شيء عملي .

س : لماذا سنة ؟

ج : الانتخابات ، موقف اميركا متصلب والمعركة الانتخابية جارية فيها ، واوروبا لا تستطيع ان تتحدث معها في تغيير موقفها . بعد الانتخابات يمكن ان يبدأ الحديث بينهما في تغيير الموقف . وحقيقة المبادرة ونوعيتها مرتبطة بمدى قدرة اوروبا على تغيير الموقف الاميركي . لماذا ؟ لانه حتى لو اتخذت اوروبا مبادرة مستقلة فقدرتها على التنفيذ غير متاحة . تبقى القيمة المعنوية ، وهذه لن تكون في كل الاحوال كبيرة الا اذا ساعدت مواقفنا على احداث المزيد من التغيير في مواقف الرأي العام الاوروبي .

س : في اطار المواقف داخل المجموعة الاوروبية الغربية ما هي التأثيرات الموجودة بين مواقف دولها المتعددة، بين فرنسا وبريطانيا مثلا ؟

ج : يعكس الموقف الفرنسي محصلة المواقف . وانا ارى ان بريطانيا مكلفة بمحاولة التأثير على الموقف الاميركي بينما تقوم المانيا بدور المساعد لبريطانيا ، لأنها ايضاً ذات قدرة على التأثير في الموقف الاميركي . الا ان رد الفعل الاميركي الذي عرفناه بشكل رسمي تمثل باصدار الأوامر لاوروبا بأنه لا مبادرة الا في اطار كامب ديفيد وامتداداً له .

س : هل عرفتم هذا رسمياً من الاوروبيين ؟

ج : نعم من الاوروبيين ، وعندما سئلنا عن رأينا في هذا قلنا انه من الافضل لكم الا تتحدثوا عن مبادرة من هذا النوع وان لا تقدموها .

س : هل يمكننا القول ان الحديث عن مبادرة اوروبية هو مجرد حديث يعبر عن توجهات لم تتبلور في افكار محددة ؟

ج : بالضبط ، والمسألة غير مبلورة لدى الاوروبيين انفسهم

س : اذا كانت كذلك فلماذا يطعم البعض انفسهم جوزاً فارغاً ؟

ج : نحن لم نطعم انفسنا شيئاً ، الخطأ يكمن في طريقة الفهم لدى بعض الناس : يأخذون الأمور بالمطلق ، واذا عرض أحد اقتراحاً ، إذا تحدث عن دولة فلسطينية مثلاً ، ظنوا أن الدولة صارت في الجيب وأنها ستقوم غداً ، واذا قال أحد : ليس هناك دولة توهموا أن الأمر انتهى وحل اليأس ، وان لا فائدة . المشكلة في أسلوب التفكير كما ترى، علينا أن نتعامل مع كل مرحلة في سياق موقعها من الاستراتيجية العامة . أنا أتعامل مع معطيات كل مرحلة في إطار تأثيرها على تحقيق الهدف النهائي ، وليس مع هذا الهدف وحده . عندنا من يبدأون دائماً من الآخر : وصلنا إلى الهدف يعني انتصرنا فان لم نصل إليه فكأننا في الصفر .

س : هل تعتقد ان مسألة الاعتراف بمنظمة التحرير ، على الأقل ، مبتوته في سياق الافكار التي يجري تداولها في اوروبا الغربية ، ام ان دولها هي الأخرى غير باتة وتسعى ، مثل الولايات المتحدة ، للبحث عن بدائل تسير وراء حل من ظهر المنظمة .

ج : نحن نتصل بهذه الدول وموقفهم واقعي اكثر من اميركا في هذه المسألة . وعدم اعترافهم رسمياً بالمنظمة لا يعكس عدم رغبتهم في الاعتراف ، بل هو نتيجة للضغط الاميركي عليهم ، وهذا واضح بالنسبة لنا تماماً . والاميركان يبررون موقفهم بأنهم اخطأوا الا ان لديهم قراراً من الكونغرس بان لا يتصلوا بـ م.ت.ف. الا اذا اعترفت باسرائيل . ولذلك لاحظنا ان الكل يسألنا في جولتنا : لماذا لا ينشيء حكومة موقتة . وقد قال البعض : الا ترون ان الحكومة الموقتة تسهل عملية الاعتراف بكم . وانت تعرف اننا في المرحلة الحالية لا نفكر بانشاء حكومة لان ظروف انشائها غير متوفرة . ونحن نحس ان اوروبا مرتبكة ازاء مسألة الاعتراف بالمنظمة نتيجة الضغط الاميركي والسيطرة الاميركية .

س : نعود للنقطة التي اثرتها انفاً : ما هي حدود تأثير العلاقات العربية مع اوروبا الغربية ، والضغوط العربية ان وجدت ، على مواقف دولها ؟

ج : انه تأثير ضعيف جداً . وقرارات القمة العربية بهذا الصدد لا يجري تطبيقها ، كما ان قرارات المجالس الوطنية الفلسطينية لا تؤخذ بعين الاعتبار .

س : هل ترى ان ضعف التأثير والضغط العربيين بغير تفسير ، وبكلمات اخرى هل تعتقد ان هذا يحدث عفواً وان الذين تندبونهم لممارسة الضغط على اوروبا الغربية لا يقومون به لدوافع ذاتية ، ام ان هذا هو ابن الوضع الذي تحدثنا عنه والذي يجعل دول النفط جزءاً من التركيبة الرأسمالية العالمية ؟

ج : من طبيعتي ان لا اضع اللوم على الآخرين وانما اضعه على انفسنا . نحن مقصرون في هذا الموضوع . ويجب ان يكون لنا نشاطنا العربي وان يكون اوسع ، وان يتم علناً وليس سراً . يجب ان ننتهي من الحديث في الغرف المغلقة حول الموقف العربي ازاء اوروبا . وعلينا ان نضع مطالب علنية ، وان نضغط من أجل ربط الموقف الاقتصادي العربي بالموقف السياسي . لقد تقرر هذا في قمة تونس الا انه لم ينفذ ، وهنا علينا واجبات كثيرة .

س : ماذا لو تحدث العرب عن الضغوط ومنعتهم طبيعتهم من ممارساتها ؟ ان امام

الغرب تجربة السادات . فقد تحدث عن الربط واشترط ، وحتى توعد ، ثم انتهى الى ما انتهى اليه . فأية قيمة ستبقى لتلويحات جديدة حين يعرف الغرب ان مصالحه تتعزز برغم كل شيء ؟

ج : ليس العرب كلهم السادات . السادات شخص وليس شعباً .

س : السادات يمثل نظاماً ومصالح طبقات وفئات طويلة عريضة وامثالها موجودة في بلدان أخرى ، اليس كذلك ؟

ج : انا ، شخصياً ، لا ارى ان السادات يمثل مصالح طبقة عريضة ، انه يمثل مصالح طبقة طفيلية تلتف حوله في المجال الاقتصادي ، وهو عدو حتى للبرجوازية المصرية المنتجة .

س : معظم الدول العربية التي تتحدث عن الحاجة لضغوطها على الغرب يسود فيها تكوين مماثل . فأين هي البرجوازيات المنتجة في الدول العربية المندوبة للضغط ؟

ج : لدي سؤال من نوع آخر . السعودية ، مثلاً ، اوقفت صفقة نفطية مع شركة ايطالية لأن اتهامات ظهرت لشخصيات سعودية بأنها قبضت رشوة على الصفقة ، اوقفت الصفقة مما اضطر ايطاليا لان تشتري نفطا بضعف السعر . ثم جرى تحقيق اظهر براءة المتهمين ، المهم انها استطاعت ان توقف الصفقة ، اذن امكانية الضغط متوفرة ، وامكانية وقف النفط متوفرة .

س : ولكنه لم يتوقف للضغط من أجل مطالب الشعب الفلسطيني ؟

ج : المهم ان الامكانية موجودة .

س : ألا ترى ان الدافع غير موجود ، او معدوم ؟

ج : اذا كان الدافع معدوماً فبسبب انعدام النفسية الهجومية وليس بسبب المصالح . أنا لست مع الذين يقولون ان النفط يولد تبعية للغرب وما أراه هو العكس، فمن شأنه أن يدعم الاستقلالية . لأن المشتري بحاجة للمصدر أكثر من حاجة المصدر له . نحن بحاجة لنفسية هجومية يدرك أصحابها قوتهم . وهنا استشهد بما قاله عمار اوزيغان : ان مشكلة العصفور أمام الحية انه ينسى ان له جناحين . النفط بالنسبة للعرب هو جناحا العصفور . لنتذكر أن لنا جناحين فلن نشل أمام رهبة الحية .

س : يتذكر هذا امثالنا من العرب اما عرب النفط فلهم مصالح من نوع آخر ؟

ج : حديثي عن العرب ، وليس عن حالنا نحن وحدنا ، بالنسبة لنا لدينا النفسية الهجومية ولذلك ترانا نتحرك ونحن في تقدم مستمر، قد يكون نسبياً وبطيئاً لكنه تقدم ، وعلى الآخرين أن يقتنعوا بما اقتنعنا به ، من واجبنا ان نقنعهم .

س : ليست المسألة مسألة اقناع واقتناع ، بل دراسة مصالح فلبعض العرب مصالح لا تسير في الاتجاه الذي تسير فيه مصالح الشعب الفلسطيني الوطنية . الا ترى ذلك ؟

ج : هنا ايضاً ، انا لا ارى ان مصالح هؤلاء الناس تتناقض مع اتجاه مصالحنا . انا

ارى ان الدوافع متصلة بالفكر وبالفهم اكثر من اتصالها بالتطور المجتمعي الداخلي وتوزع القوى فيه ، خصوصاً في مسألة النفط بالذات . وانا اخاف على العالم العربي عندما تصير فيه صناعة نفطية واسعة ويصير بحاجة لتسويقها فيقع ضمن احتكارات التسويق العالمية ، عندها تصبح المسألة مخيفة اكثر بكثير لانها تدخل حلبة صراعات الاحتكارات . واما بالنسبة للنفط الخام فالعرب هم الذين يحتكرونه . وليس مطلوباً منهم ان يقطعوه عن الاسواق الغربية كما أنه ما من احد يستطيع الامتناع عن شرائه ما دام الجميع بحاجة ماسة له . والمطلوب ان يرسموا سياسة انتاجهم وتنويع مبيعاتهم بما يتفق مع متطلباتهم السياسية . وهذا سهل ، الا انه يحتاج الى تنظيم والى نفسية هجومية .

س : عندنا تجربة ايران . وواضح ان مطلبها منذ قيام الثورة على نظام الشاه هو تصحيح علاقاتها مع الغرب على اساس اخذ مصالحها الوطنية في ثروتها النفطية بعين الاعتبار ، اي على الاساس الذي افهم انك تطالب النفطيين العرب باستخدامه . وانت ترى موقفهم العملي من مسألة كهذه ، لا يؤيدون ايران وهم مستعدون للعمل ضدها بالرغم من ان مطلبها مفيد لهم وأنها لا تدعو لبتر العلاقات مع الغرب بل لتصحيحها فكيف تفسر هذا ؟

ج : اذا استثنينا العلاقات الايرانية ـ العراقية فالمواقف العربية الاخرى كانت داعمة لايران وان تم هذا على استحياء ، في الازمات الاساسية كانوا الى جانب ايران وان لم يعلن ذلك . المشكلة هي في غياب جماعية الموقف ، يستطيع الغرب ان يضرب ايران مستغنيا عن بترولها مكرراً ما حدث مع مصدق . عملية النفط يجب ان تخاض جماعياً ، وهذا ممكن .

س : لماذا لم تتفق قمة تونس على قرار بشأن النفط ؟

ج : صدر قرار عام عن الاقتصاد على اعتبار ان النفط جزء من الاقتصاد ، ولم يتم شيء ، بعد ، في مجال تطبيقه . وهذه مشكلتنا كعرب ، اننا لا ندرك قوتنا الذاتية .

س : لماذا لم تتمسك م.ت.ف حتى النهاية بضرورة صدور قرار بشأن النفط عن قمة تونس ؟ مع انها كانت مصرة على استخدام سلاح النفط في العلاقة العربية مع الغرب .

ج : قالت المنظمة في مؤتمر القمة كلاماً واضحاً بهذا الخصوص

س : هل اضطرت المنظمة ان تدخل في تسوية مع مصدري النفط بحيث تسحب مطلبها مقابل شيء ما .

ج : لم يحدث شيء كهذا . الذي حدث انه كان هناك تيار عربي عام يرى انه ما دام النفط جزءاً من الاقتصاد فليكن القرار عن الاقتصاد .

س : وبهذا غيب التركيز على موضوع النفط بالذات

ج : صحيح . لكن عندما نتحدث عن الاقتصاد العربي فأي شيء هو غير النفط ، وفائض رؤوس الاموال كله من النفط .

س : من كل ما قلته يفهم ان الحديث عن مبادرة اوروبية غربية فيه كثير من

المبالغة . كما يفهم أن مبادراتكم نحوها هي مجرد حركة في اتجاه طويل ، حركة هدفها احداث تأثيرات متتابعة . بينما يثار الأمر على الساحة الفلسطينية وكأن هناك مشروعاً محدداً ، ويحتدم الجدل بشأنه بين المؤيدين والمعترضين . وهذا يرجعني الى سؤال يدور ، مرتبط بملاحظتي في بداية هذا الحديث : هل تناقش هذه التحركات في قيادة م.ت.ف أو ان القيام بها يرد في اطار المبادرات والاجتهادات الفردية ، او انها نوقشت في اطار حركة فتح ؟

ج : لنتحدث قبل هذا عن طبيعة ما جرى في جولتنا الاخيرة وردود الفعل بشأنها ، حتى نلاحظ كيف أن بعض ردود الفعل لم تكن موضوعية ، بل جاءت عاطفية . كان مقرراً ان ينعقد مؤتمر ستراسبورغ ، الذي حضرناه ، في الشهر الاول او الشهر الثاني من هذا العام ، ثم تأجل الى نيسان لأننا تمسكنا بأن ينعقد في مقر البرلمان الاوروبي ، وقد اقتضى الأمر هذا الوقت حتى تمكنت « المؤسسة البرلمانية الاوروبية للتعاون العربي ـ الاوروبي » من اخذ الموافقة . المؤتمر اذن مقرر منذ مدة طويلة ، وقد وافقت اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف. على الاشتراك فيه ، كما وافق ايضاً الاخ خالد الفاهوم رئيس المجلس الوطني الفلسطيني . ثم ان التقاءنا باعضاء الجمعية يرد في سياق النشاطات العادية لعمل المجلس الوطني .

وجدول أعمال المؤتمر كان مقرراً مسبقاً ، وفيه بند هو : ماذا يريد الفلسطينيون من اوروبا . وقد تصادف ان سبقت زيارة الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان لعدد من الدول العربية موعد المؤتمر بقليل ، واثارت الزيارة حديثاً عن مبادرة اوروبية ، بحيث صرنا نسأل عنها في كل مكان نذهب اليه . وكان الاعلام الصهيوني ناشطاً قبل بداية جولتنا . اما مطالبنا من اوروبا فهي معروفة : الاعتراف بـ م.ت.ف ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني وتأييد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واقامة دولته المستقلة ، وتقديم مساعدات اوروبية له اقتصادية وثقافية . وهي كما ترى مطالب عامة كان النقاش سيقتصر عليها لو لم تأت زيارة ديستان وما اثارته من الضجيج الاعلامي ، الصديق او المعادي ، الذي اقترن بها . المجلس البرلماني الاوروبي ومثله المجلس الوزاري قررا مناقشة موضوع الشرق الاوسط . وصرنا اذن في ظرف تطفي فيه قضية فلسطين على المناقشات . ولم يكن جائزاً بالطبع ان نضيع الفرصة لتحقيق مكاسب سياسية ولاحداث التأثير على القرارات الاوروبية .

س : لا يختلف احد معك في هذا ، بل لا يختلف احد معك في ضرورة التحرك النشط في كافة الميادين ، سؤالي من طبيعة اخرى . ولعلنا جميعاً نلاحظ ان اي تحرك سياسي فلسطيني يستتبع في العادة التباسات ، ويثير بعد حدوثه خلافات تؤثر على طبيعة المكاسب المتحققة من ورائه ، وتضعف موقف الذي يقوم بالتحرك وتهز الهيبة الفلسطينية باجمالها ، وهذا يتكرر في كل مرة تقريبا بالنسبة لمؤتمركم هذا ، مثلاً ، فهو مقرر منذ بضعة شهور قبل انعقاده ، ومطلوب من الوفد الفلسطيني فيه ان يجيب على سؤال كبير ، فمن هي الجبهة الفلسطينية التي ناقشت الموضوع ملياً ، ووضعت حدود الاجابة المتفق عليها بحيث لا تنجم التباسات ؟

ج : ما من جهة ناقشت الأمر بالتفصيل وردود الفعل جاءت بعد ان قمنا بالجولة

س : هنا المشكلة ، ومن هنا تأتي الالتباسات وتتعدد وجهات النظر حول حدث بعد وقوعه وليس قبله ، لماذا لم يناقش الأمر في اللجنة التنفيذية للمنظمة او في مجلسها المركزي بحيث تتمثل كل الفصائل والقوى المنضوية تحت لواء م.ت.ف ، وحيث يمكن اذا وقع خلاف ، ان يتم الحوار بشأنه بحيث ينتهي الى وضع تصور مشترك او الى جعل حدود الخلاف واضحة ؟

ج : يرجع هذا لطبيعة الوضع الذاتي على الساحة الفلسطينية .

س : هل يعني هذا انك توافقني على ان الذين لم يشتركوا في النقاش والذين قرأوا اخبار جولتكم كما اوردتها وسائل الاعلام فاعترضوا وكان رد فعلهم عاطفياً ، كما تقول ، أو عنيفاً .. ان هؤلاء عندهم حق لأن الصورة لم تكن واضحة امامهم ولم يعرفوا ما الذي حصل بالفعل ؟ وهناك ، غير جولتكم ، مثال هام آخر يتصل بالحوار مع الاردن وقد حدثت التباسات مماثلة فلما نوقشت المسألة في الهيئات القيادية للمنظمة بمشاركة الجميع زالت الالتباسات بينما اتضحت الخلافات وحدودها مرة اخرى : لماذا لم تناقش جولتكم في الهيئات القيادية .

ج : انا لست عضواً في اللجنة التنفيذية .

س : انت مع ذلك في المركز القيادي .

ج : اللجنة التنفيذية وافقت على حضورنا المؤتمر الا انها لم تناقش التفاصيل . وما تثيره مشكلة قائمة لا بد من حلها .

س : الحل الديمقراطي ، يجتمع الفرقاء المعنيون ويتشاورون ...

ج : تبرز مهمات سريعة لا تتيح سرعتها وقتاً للتشاور مسبقاً .

س : جولتكم كانت مقررة قبل اشهر من ابتدائها ، ومع ذلك لم يحمل وفدكم تصوراً مشتركا يتحرك في اطاره ، اليس كذلك ؟

ج : نحن كوفد اجتمعنا وقررنا خطة عملنا فكانت لنا خطة متفق عليها في الوفد .

س : من هي الفصائل التي تمثلت في الوفد ؟

ج : فضلاً عن المنظمات الشعبية التي مثلتها الاخت عصام عبد الهادي رئيسة الاتحاد النسائي كان معنا ممثل عن الصاعقة . وعندما فوتحت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بالمشاركة في الوفد قالوا : لا نؤمن بالحوار ، ورفضوا ، وكذلك الجبهة الديمقراطية ، وهكذا اسهمت فتح والصاعقة في الوفد . وهناك ، كما تعلم ، خط في الساحة الفلسطينية لا يؤمن بالحركة الا في اطار المعسكر الاشتراكي ، وهو يعرض وجهة نظره باستمرار في المجلس المركزي ، ويرى ان الحوار مع الغرب سيكون بغير نتيجة لانه معسكر اعداء . هذا الخط يقوده الشيوعيون الفلسطينيون وتقف معه الجبهتان الديمقراطية والشعبية في بعض الاحيان ولا تقفان معه احياناً اخرى .

وازاء رفضهم اخذنا من ذكرت وكذلك اعضاء مجلس وطني من الارض المحتلة . وبهذا لم يكن الوفد وفد فتح وحدها .

س : الذين اعترضوا من الشيوعيين وغير الشيوعيين فعلوا ذلك لاسباب مبدئية وعملية ، وربما كانت في اذهانهم تجربة السادات ، فقد ابتدأ قبل سنوات بالحديث عن كسب تأييد الغرب وانتهى الى ما انتهى اليه. والمعترضون يثيرون اشكالات حول التوجه نحو الغرب . وفي اعتراضهم نقطة لها وجاهتها الكبيرة ، فهم يرون ان هامش استقلال اوروبا الغربية في القرار عن الولايات المتحدة ضئيل ، ويرون ، ايضاً ، في حديث المبادرات الاوروبية محاولات غربية لصالح مجمل التحالف الغربي تهدف لتليين مفاصل م.ت.ف ان جاز التعبير . ولا نستطيع ان نهمل وجاهة هذه النقطة وانت تؤمن بضآلة هامش الاستقلال هذا ...

ج : مثل السادات لا يمكن ، ولا يجوز ، ان ينسحب بشكل مطلق على اي شخص وهو بالتأكيد لا ينسحب على القيادة الفلسطينية ، لان التليين المطلوب من قبل اوروبا والغرب بمجمله ، وهذا صحيح ، ينطلق من ان الغرب يبحث عن الحلول الوسط وعقله يقوم على هذا . والحلول الوسط عنده تعني تنازلات متبادلة حتى الوصول الى نقطة التقاء ، والحل الوسط بالطبع يتم لصالح من يملك التفوق في ميزان القوى ، وحين نرفض هذا المنطق ، والرفض ارادة قائمة ونحن نملك الارادة وحرية الارادة ، فلاننا نثق بانفسنا . وقد اثبتت الارادة الفلسطينية صلابتها وعدم استعدادها لتقديم تنازلات.والامر، على الساحة الفلسطينية، يحتاج الى الثقة. وهناك نقطة اخرى ، فانت تعرف ان اتخاذ القرارات هو من اصعب الأمور فلسطينياً . ولا يكفي ان تتخذ قراراً في المجلس الوطني . ولديك مثل تعرفه ، فعندما طرح موضوع الدولةالفلسطينية، طرح على الرأي العام الفلسطيني للمناقشة على مدى اشهر ممتدة . لا تستطيع القيادة ، اي قيادة ، ان تحتكر القرار . نحن بحاجة الى القناعة الشعبية اولاً ، ثم المجلس الوطني ، ثم القيادة ، وما من عاقل يعتقد انه قادر ، وحده ، ببساطة على اتخاذ قرار فلسطيني ، ولذلك ووفق على الدولة الفلسطينية ووافق المجلس الوطني على أن تسهم القيادة في أي مؤتمر دولي وفي اي بحث لا يؤدي الى صلح مع اسرائيل او اعتراف بها . هذا قرار اساسي يتيح مرونة الحركة دون ان يمس بالمبادىء . والطرف الذي يرفض اي حركة خارج اطار المعسكر الاشتراكي يرى ان فكرته وحدها هي الصحيحة . وهذا يعكس تبعية للفكرة المسبقة. ومن المؤسف ان معظم الصراعات التي شهدتها الساحة العربية القومية نجمت عن الضعف الذاتي للفكر ، وبنيت على الشكوك والاتهامات المتبادلة ، وتولد عن هذا احساس مزمن بالمخاوف المتبادلة يغطى في العادة بالصياغات ذات الكلمات الثورية جداً . عندنا هذه المشكلة : مشكلة الخوف والشك ، وهذا يضع قيداً على الحركة ، قيداً على المناورة السياسية مثلما انه قيد على حرية التفكير . وهو خطأ يعرقل في النهاية العملية النضالية . واعتقد أن الساحة الفلسطينية تحتاج الى توفر عامل الثقة بالذات . عندما نكون في الخارج نلمس ما معنى قوة الثورة الفلسطينية وما معنى انشغال العالم بالقضية الفلسطينية . وهو ما يجب ان يعطينا الثقةبذاتنا.ثم لماذا نظن اننا اذا حاورنا اوروبا الغربية فستدفعنا الى التنازل ؟ اليس هذا الظن وليد عدم الثقة بالذات . لا يجوز ان نشك بقدرتنا كشعب وبذاتنا او وطنيتنا فنخاف ان يغلبنا الغرب في الحوار ويلييننا ويحملنا على تقديم التنازلات . لماذا لا تكون العملية معكوسة ، او على الأقل متوازنة ، فكما أن لديهم رغبة صلبة في

تلييننا فان عندنا تصميماً على أن لا نلين . وقد بينت الوقائع مدى صلابة الشعب الفلسطيني وصلابة قيادته . والالتباسات تنجم عن عقدة الخوف .

وبعد هذا ، انا ، شخصياً ، لا اطالب ، ولا استطيع ان اطالب ، بان لا تكون هناك خلافات على الساحة الفلسطينية ، لان هذا مستحيل ، فالأنسان الواحد قد يختلف مع نفسه في بعض الاحيان . ولا مانع في أن يكون هناك نقد وكشف للخطأ ، ما اطالب به هو رفع مستوى اسلوب الخلاف حتى لا يتحول النقد إلى اتهامات تخرجنا عن الموضوع وتحول الأمر الى مهاترة .

س : كيف نطبق ذلك في حالة الخلاف الذي تبع جولتكم ؟

ج : سأقول لك امثلة ، في جولتنا واجهنا الاسئلة حول تعديل الميثاق الوطني الفلسطيني والاعتراف بحق اسرائيل في الوجود وكنا نجيب دائماً : الميثاق لن يعدل ونحن غير ملزمين بالاعتراف باسرائيل ونوضح اسبابنا لذلك . وجاءت وكالة انباء الشرق الاوسط (المصرية) فنقلت ان الوفد الفلسطيني تحدث عن حق اسرائيل في الوجود .والتقطت بعض المصادر الفلسطينية ما نقلته الوكالة المعادية للتشويش علينا ، وبنت موقفها على ضوئه . فهل يجوز لهذه المصادر ان تعتمد على ما نقلته وكالة انباء تقف في موقف الخصم !؟

س : الا تعتقد بأنه لو كانت خطة جولة الوفد مناقشة ومعتمدة من الجميع لما وقع احد في الالتباس ؟

ح في كل الاحوال لا يجوز الاستناد الى تشويشات الخصوم ، ما دام من المعروف ان قرارات المجلس الوطني تحكم تحركنا ، وهذه ترفض الاعتراف . لا يجوز ان ننفعل بسرعة او ان لا تكون لنا ثقة ببعضنا .

س : بعد كل ذلك هل ترى انه ، في ظل موازين القوى المنظورة ، يمكن ان تقوم دولة فلسطينية مستقلة بغير اعتراف باسرائيل ؟

ج : اذا توفر موقف عربي صحيح فهذا ممكن ، اما ضمن المعطيات الحالية فهو غير ممكن ولا بد من متابعة النضال لاحداث مزيد من التغيير .

س : الا تظن انه ، ضمن المعطيات الحالية ، لا يمكن ان تقوم دولة فلسطينية مستقلة حتى مع الاعتراف ؟

ج : لا اوافقك ، فمع الاعتراف يمكن ان تقوم ، لأن المشكلة تضغط كثيراً على الغرب .

نهى تادرس

مبدأ كارتر او سياسة التدخّل العسكري الأميركي في الخليج العربي

تغيرات استراتيجية

أعلن مسؤول في وزارة الدفاع الأميركية في منتصف نيسان ١٩٨٠ وقبل حوالي عشرة أيام من المحاولة الاميركية الفاشلة لإنقاذ الرهائن في إيران ، ان الولايات المتحدة ستخفض عدد قطعها البحرية في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهادىء ، لتكثف وجودها العسكري في المحيط الهندي . وقد صرح غراهام كليتور ، وهو نائب وزير الدفاع ، أمام لجنة الدفاع في الكونغرس « إن الوجود البحري الأميركي في المحيط الهندي سيبقى على أعلى مستوياته في المستقبل المنظور ، وسوف يتم ذلك بإعادة توزيع القوات ، وتخفيض مستوى الأساطيل الأخرى في مناطق أخرى من البحار »(١) .

وكان هذا التصريح يعتبر إنذاراً أميركياً موجهاً إلى الثورة الإيرانية ومنطقة الخليج من جهة وإلى حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين من جهة أخرى حول إمكانية تحويل جزء من العتاد الأميركي البحري والجوي والأرضي العامل في اطار الناتو إلى العمل في إطار الدفاع عن المصالح الغربية في منطقة الخليج ، مما قد يسبب خللا في استعدادات الحلف الأطلسي العسكرية ، ولذلك طالبت الولايات المتحدة ، في نفس الوقت ، حلفاءها الأوروبيين بتقوية إمكانيات الناتو العسكرية(٢) .

وقد وافق الرئيس كارتر في شهر نيسان على خطة استراتيجية جديدة لا تلزم الولايات المتحدة بارسال قواتها المتواجدة في المحيط الهادىء إلى اوروبا في حال حدوث هجوم سوفياتي عليها ، إلا عند اللزوم . وبهذا القرار تخلى كارتر عن السياسة الاميركية المتبعة منذ عشرات السنين تجاه أوروبا ، و المعروفة « باستراتيجية الارجوحة » (Swing Strategy)

وصرح أحد المسؤولين في البنتاغون ان هذا التغيير يعني « ان لدينا الآن مرونة أكبر ، فقد نحافظ على قواتنا في المحيط الهادىء ونرسلها إلى المحيط الهندي أو إلى أوروبا ، حسب الظروف» . وعلم ان إدارة كارتر ستبلغ الحلفاء رسمياً بهذا القرار في تموز عندما يعرض كل أعضاء الحلف

الأطلسي قائمة بالقوات العسكرية المخصصة للحلف وللعمل في أوروبا[٣] .

ومن الواضح ان الولايات المتحدة تبحث في إعادة ترتيب تواجدها العسكري واستراتيجيتها العسكرية في منطقة الشرق الأوسط والخليج ، خاصة منذ نجاح الثورة الإيرانية ، وهذه الترتيبات تؤثر على استراتيجيتها الشاملة . وقد صرح بريجنسكي في أواخر عام ١٩٧٩ ، في مقابلة مع مجلة أميركية ، بقوله : « اليوم هناك ثلاثة مناطق أمنية مركزية ومرتبطة ببعضها ، وهي أوروبا الغربية ، والشرق الأقصى والشرق الأوسط . إن استقلال وأمن كل من هذه المناطق لهما أهمية مباشرة لكل من المنطقتين الأخريين ، وإن أمن كل منهما ذو أهمية حيوية بالنسبة للولايات المتحدة . ولهذا الوضع معنى استراتيجي وسياسي ، فإنه يعني إنه " تصبح من الأصعب ، يوما بعد يوم ، تجزئة المسائل الأمنية وحصرها في منطقة جغرافية معينة »[٤] .

وعلى اثر هذا التصريح طرح عليه السؤال التالي : « هل يعني ذلك ضرورة توسيع الناتو لمواجهة أخطار غير أوروبية ؟ » فأجاب : « إن وضعت السؤال بهذه الحدة فالجواب لا بد أن يكون لا ، لأن الناتو أسس للحفاظ على أمن المنطقة الأطلسية . ولكن إذا اعترفنا بأن أمن هذه المنطقة مرتبط بأمن مناطق مركزية أخرى ، فلا بد أن تتأثر سياسة واستراتيجية الناتو على المدى الطويل[٥] .

ومن الجدير بالذكر ان معظم الخطط الحربية الأميركية في السبعينات كانت تركز على احتمالات حدوث نزاعات في أوروبا ، بينما لم تعط الصراعات في العالم الثالث نفس القدر من الأهمية . وكانت جميع الفئات في المؤسسة الحاكمة الأميركية موافقة على هذا التركيز ، لأنه لم يوح بأمكانية حدوث تدخلات عسكرية اميركية في العالم الثالث على نمط الحرب الفيتنامية من جهة ، ولكنه كان يسمح باستمرار درجة معينة من الانفاق العسكري[٦] .

ومثلما حدث في الخمسينات ، حين رفض بعض الاستراتيجيين نظرية أيزنهاور التي ارتكزت على مبدأ «الانتقام الشامل » في مواجهة السوفيات لأنها تجاهلت المناطق الأخرى من العالم ، بدأ بعض الاستراتيجيين في السبعينات يرفضون تركيز المخططات الحربية الأميركية على الحروب بين أوروبا الغربية والشرقية ويطالبون باهتمام أكبر بمناطق العالم الثالث ، وذلك لأنه أصبح واضحاً بالنسبة لهم ان إقتصاد الولايات المتحدة أصبح يعتمد أكثر فأكثر على المواد الأولية والأسواق في العالم الثالث[٧] .

ومن الجدير بالذكر ان الجنرال ماكسويل تايلور الذي عارض في الخمسينات منطلقات نظرية «الإنتقام الشامل » لأنها لا تستطيع المحافظة على الأمن في عدة مناطق من العالم ، وطالب بانشاء قوات تدخل سريعة في ذلك الوقت ، هو من اوائل الذين دعوا في أوائل السبعينات ، مرة أخرى ، إلى الإهتمام بالعنف المتزايد في العالم الثالث على أساس إن الوضع في هذه المناطق قابل للتفجير أكثر منه في أوروبا ، وقد عبر بالتالي في عام ١٩٧٤ عن نفس الرأي الذي كان يشيد به في الخمسينات « في العالم المضطرب ... سنتطلب قوات متحركة مستعدة لصد أو ، في بعض الأحيان ، لقمع بعض النزاعات قبل ان تتحول إلى نزاعات أكبر »[٨] .

وتجد فكرة قوات التدخل السريع جذورها في المشاريع التي طورت في فترة حكم كنيدي

وماكنمارا ، مثل مشروع طائرات النقل العملاقة (C 5 A) والحاملات الخاصة بحوامات الإنزال التي بدأت تظهر في الستينات إثر التدخل الأميركي في فيتنام[٩] .

ويعتبر مبدأ خوض « حرب ونصف حرب » احد مبادىء الاستراتيجية العسكرية الأميركية منذ الحرب العالمية الثانية ، ويعتمد هذا المبدأ على احتمال خوض الولايات المتحدة حرباً « حقيقية » في أوروبا ضد قوات حلف وارسو ، وخوض حرب محدودة في نفس الوقت في مناطق أخرى (نصف حرب) . ولمواجهة إمكانية خوض حرب ونصف حرب ، تتطلب الولايات المتحدة تجهيز قوات عسكرية أخرى غير قوات الحلف الأطلسي[١٠] .

وكانت الولايات المتحدة بعد الحرب الفيتنامية ، قد تبنت « مبدأ نيكسون » الذي كان يعني الإعتماد على حلفاء محليين للحفاظ على المصالح الأميركية ، وتفادت بذلك إمكانية التورط بحرب محدودة على نمط الحرب الفيتنامية .

وبينما لم تتخل الولايات المتحدة في الوقت الحاضر عن ضرورة الإعتماد على حلفاء محليين ، بدأت تزيد في الوقت نفسه من استعداداتها العسكرية لخوض حروب محدودة . ومما قاله هارولد براون في كانون الثاني ١٩٧٩ « إن الولايات المتحدة أصبحت ، وبشكل غير قابل للتغير ، متورطة في المسائل العالمية . إن إقتصادنا يعتمد على استيراد مصادر الطاقة والمواد الأولية ، و ٩٪ من دخلنا القومي ناتج عن مبيعاتنا لسلع وخدمات أميركية في الخارج » . ولذلك يجب على الولايات المتحدة الأهتمام من الناحية الإستراتيجية بالمناطق البعيدة مثل « بحر اليابان ومضائق ملقا والخليج الفارسي ومضيق الدردنيل وبحر البلطيق وبحر البارنتس » ، ويجب أن نكون على استعداد « للتحرك سريعاً وبثقة »[١١] .

وقد بدأت إدارة كارتر منذ شهر آب ١٩٧٧ البحث في مشروع انشاء قوات تدخل سريعة ، واعتبرت مذكرة المراجعة الرئاسية رقم ١٠ قوات التدخل جزءاً اساسيا من مبدأ الحرب ونصف حرب[١٢].وجاءت ثورة ايران لتسرع في عملية تجهيز هذه القوات التي تعتمد على قوات مشكلة من البحرية والجيش والقوات الجوية .

الخليج هدف عسكري

وقد بدأت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٤ في وضع خطط من أجل التدخل العسكري المباشر في منطقة الخليج العربي على أثرأزمة الطاقة في عام ١٩٧٣ . وكان أول من لمح إلى إمكانية التدخل العسكري الأميركي في الخليج هنري كيسنجر وزير الخارجية في إدارتي نيكسون وفورد ، وذلك في كانون الأول عام ١٩٧٤ . وبعده أفصح وزير الدفاع في ذلك الحين جيمس شليسنجر ، في منتصف كانون الثاني ١٩٧٥ ، عن نفس النية قائلاً : « انه من الممكن أن تقوم القوات المسلحة الأميركية بعمليات عسكرية في منطقة الخليج إذا إقتضى الأمر ذلك » ـ ثم أعلن الرئيس فورد ، في أواخر كانون الثاني ، أنه في حال تعرض الولايات المتحدة إلى الإختناق فستقوم بالدفاع عن نفسها »[١٣] . وقام مكتب الأبحاث في الكونغرس في منتصف عام ١٩٧٥ بدراسة إمكانيات السيطرة على آبار النفط في منطقة الخليج وذلك في تقرير عنوانه « آبار النفط كأهداف عسكرية : دراسة تمهيدية »[١٤] .

ولكن لم تبد هذه التهديدات جدية في ذلك الحين إذ كان نظام الشاه يقوم بدوره بصفته الشريك المحلي للولايات المتحدة في المحافظة على أمن منطقة الخليج .

هذا ما أشار اليه تقرير جاكسون حول العلاقة الخاصة بين إيران والولايات المتحدة الذي صدر عن لجنة مجلس الشيوخ المختصة بالطاقة والثروات الطبيعية . « وقد اشير في هذا التقرير الى أنه في حالة قيام إيران بالتدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة في منطقة الخليج ، فلا بد أن تعلم الولايات المتحدة ، مسبقاً ، أن هذا هو الدور الذي تتمنى إيران من أجله ، ولا يمكن توجيه أي اتهام لها لأنها تؤدي واجبها »(١٥) .

وكانت إيران قد اثبتت قدرتها ونيتها للقيام بهذا الدور بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٥ في مواجهة ثوار ظفار . وتوضح أرقام مبيعات الأسلحة الأميركية لإيران في السبعينات ، كيف كانت « تتمنى » ايران من أجل لعب هذا الدور .

ففي عام ١٩٥٠ كانت مبيعات الأسلحة الأميركية إلى إيران تقدر بحوالي ١٠ ملايين دولار فقط ، ولكنها وصلت في عام ١٩٧٠ إلى ما فوق ١٠٠ مليون دولار ، ثم إلى ٥٢٢ مليون دولار في عام ١٩٧٣ ، ثم إلى ٣.٩١ بليون دولار في عام ١٩٧٤ ، وإلى ٢٠٦ بليون دولار عام ١٩٧٥ ، وانخفضت إلى ١٠٢ بليون دولار في عام ١٩٧٦ ، وكانت إيران قد أوصت على اسلحة اميركية ، ثمنها ١٢ بليون دولار قبل سقوط الشاه . وقد توصلت إيران في عام ١٩٧٥ إلى مرتبة أكبر مشتر للأسلحة من الولايات المتحدة(١٦) .

واستمرت إدارة كارتر بمعاملة إيران على نفس الأسس العملية لمبدأ نيكسون . وقد صرح كارتر في اواخر عام ١٩٧٨ حين كانت معالم الثورة الإيرانية واضحة « إن صداقتنا وتحالفنا مع إيران هما من الركائز الأساسية التي تستند عليها كل سياستنا الخارجية »(١٧) .

ولكن في نفس الوقت الذي استمرت فيه إدارة كارتر بدعم الحلفاء المحليين ، بدأت بالتخطيط من أجل انشاء قوة تدخل سريعة للقيام بحروب محدودة في العالم الثالث .

وجاءت الثورة الإيرانية وامكانية تهديدها لمصادر النفط الغربية لتسرع في التخطيط والتجهيز الأميركي للقيام بتدخلات عسكرية من خلال التواجد العسكري في منطقة الخليج ، وقد صدرت مرة أخرى دراسة عن مكتب أبحاث الكونغرس ، في شهر نيسان ١٩٧٩ ، حول إمكانية الإستيلاء على منابع النفط في منطقة الخليج . وقام باحثان بهذه الدراسة (أحدهما الجنرال كولينز وهو ضابط جيش متقاعد والآخر كلايد مارك وهو باحث مختص بالشرق الأوسط في مكتبة الكونغرس) . وذلك بناء على طلب من البيت الأبيض ومجلس الأمن القومي وبعض السفارات والقوات المسلحة الأميركية(١٨) .

ومن الجدير بالذكر ان التقرير ابدى بعض الشكوك حول إمكانيات قوة التدخل الأميركية التي كانت وزارة الدفاع تقوم بتشكيلها ، وبين التقرير ان عدد ونوعية القوات المؤهلة للانضمام إلى قوة التدخل السريع قد يمكنها من أن تهزم القوات العسكرية لدول الخليج ولكنه لا يمكنها من السيطرة على حقول النفط التي قد تدمر خلال عملية التدخل . فنجاح العملية يتوقف على إحتمالين : الأول حدوث تخريب ضئيل لمنابع النفط الرئيسية.ثانياً : غياب أي تدخل سوفياتي .

واستنتج التقرير « إنه حيث لا يمكن التأكد من هذين العاملين فان عملية استخدام القوات الاميركية للاستيلاء على حقول نفط الأوبيك ـ ستكون عملية مجازفة كبيرة بباهظة التكاليف »[١٩] .

ولكن ، بغض النظر عن هذا التحذير ، استمرت بعض الفئات في الإدارة الاميركية وخارجها في الضغط من أجل الاستمرار في التهيؤ للقيام بتدخلات عسكرية .

القرار بالتدخل

وقد جاء القرار النهائي بضرورة الإستعداد للتدخل العسكري ولتصعيد التواجد الأميركي العسكري ، خصوصاً في منطقة الخليج ، في ٢١ و ٢٢ حزيران ١٩٧٩ ، وذلك خلال إجتماعات لجنة مراجعة السياسة الخارجية التي تضم مسؤولين في ادارة كارتر على المستوى الوزاري . وكانت هذه الإجتماعات تمهد بشكل واضح لنشوء مبدا جديد يحدد منطلقات السياسة الأميركية في الفترة القادمة . وقد عبر عن ذلك احد المحللين في هذه الفترة بقوله : « يحوم حول اجتماعات البيت الأبيض شبح مبدا كارتر الذي ينتظر تعريفاً واطاراً جديداً للعمل »[٢٠] .

وكانت لجنة المراجعة السياسية الخاصة بالرئيس قد حثت كبار الموظفين والمسؤولين منذ أوائل حزيران على الإجتماع والبحث عن استراتيجية جديدة ، لا بد لها « ان تتفادى تطرف حرب فيتنام حيث أردنا أن نقوم نحن بكل شيء وأخطاء مرحلة ما بعد فيتنام حيث لم نقم نحن بأي عمل » . وقال أحد المسؤولين : « نحن لا نتكلم عن قواعد ثابتة وتحالفات رسمية » في منطقة الخليج ، بينما أضاف مسؤول آخر : « ولكن يجب علينا أن نحمي «مصالحنا الحيوية» في منطقة تعتبر أكثر حيوية بالنسبة لنا من فيتنام »[٢١]

وبينما بقيت بعض النقاط الأساسية التي نوقشت ، في الإجتماعين سرية ، وتنفيذها غير فوري ، فان الإقترحات الرئيسية كانت :

أ ـ الاسراع في تجهيز قوات التدخل السريع وأن يكون مركزها الولايات المتحدة .

ب ـ انشاء قيادة عسكرية جديدة خاصة بمنطقة الشرق الاوسط ، وكان من المرجح أن لا تكون تحت إمرة القائد العام للقيادة الشرق أوسطية وحدات خاصة ، وان يكون لديه صلاحيات لسحب قوات ووحدات خاصة بقيادات اخرى عند الحاجة . وكانت مسؤولية قيادة العمليات الخاصة بالشرق الأوسط قبل ذلك ، على عاتق القيادة الأميركية الخاصة بأوروبا .

جـ ـ الحفاظ على تواجد بحري دائم في منطقة بحر العرب وشمال غرب المحيط الهندي ، يستطيع أن يلبي طلبات بالتدخل السريع ، ولكنه يجب أن يبقى على « بعد غير مرئي » لكي لا يثير « حساسيات » شعوب المنطقة . (وكانت نتائج استفتاء عام أجري في عدة سفارات أميركية في الخارج في آذار ١٩٧٩ ، قد بينت ان كثيراً من سفراء الولايات المتحدة في المنطقة ابدوا معارضتهم لوجود قواعد أميركية دائمة وتحالفات رسمية . وكان فانس قد أشار إلى هذا

الإستنتاج للدفاع عن رأيه بضرورة زيادة العمل الديبلوماسي بدلاً من العمل العسكري) .

د ـ توسيع التسهيلات البحرية والتكنات في دييغو غارسيا في المحيط الهندي ، وهي قاعدة هامة يسعى البنتاغون لتطويرها كقاعدة مركزية لعمله .

هـ ـ القيام بتدريبات واستشارات عسكرية مشتركة مع بعض جيوش المنطقة . واول ما تم في هذا السياق محاولة قامت بها بعثة للتخطيط والقيادة يقودها الجنرال لورانس وتعمل في السعودية منذ عدة اشهر(٢٢) .

كان واضحاً ، إذن ، منذ أواخر حزيران ١٩٧٩ ان هناك إجماعاً داخل الإدارة الأميركية حول تقوية التواجد العسكري الأميركي في منطقتي الخليج والمحيط الهندي ، أو ما وصفه بعض المسؤولين بأنه « تحسين في موقع الولايات المتحدة الإستراتيجي في المنطقة » . كما كان واضحاً ان الذين يدعون إلى هذا المنطق هم ، هارولد براون ، وزير الدفاع وزبيغنيو بريجنسكي مستشار الأمن القومي ، وشليسنجر وزير الطاقة (الذي استقال فيما بعد) والجنـرال دافيـد جونسر رئيس أركان الحرب الموحد ، بينما كانت وزارة الخارجية في ذلك الحين متخوفة من تصعيد الموقع العسكري الأميركي لأنه قد يؤدي إلى معارضة شديدة من قبل دول المنطقة(٢٣) .

وكانت قد طرحت في شهر آذار فكرة انشاء اسطول خامس خاص بمنطقة المحيط الهندي ، ولكن صرف النظر عن هذه الإمكانية فيما بعد ، وكان من المتوقع منذ شهر حزيران أن تنضم إلى السفن الحربية الثلاث الموجودة في منطقة الخليج مدمرة أو مدمرتان ، وأن يرتفع عدد القطع الحربية المتواجدة في المحيط الهندي ، وان تقوم طائرات من سلاح الجو الأميركي بزيارات روتينية إلى عدد من الدول العربية ، وأن تجري بعض الإتصالات على المستوى الرفيع مع عمان وبعض إمارات الخليج الأخرى ، وأن تركز الولايات المتحدة على بيع أسلحة لهذه المناطق . هذا في نفس الوقت الذي كان فيه المسؤولون في الولايات المتحدة يدرسون عرضاً من الرئيس أنور السادات تقدم مصر بموجبه « تسهيلات » للطيران والبحرية الأميركيين(٢٤).

وكان التغير الرئيسي الذي يواجه واشنطن في ذلك الحين ناتج عن تخوفها من الإعتماد على قوى إقليمية محلية للحفاظ على مصالحها في المنطقة مثلما كان الحال في إيران ،مما أدى بها الى البحث عن مخططات عسكرية تلعب فيها القوات الأميركية الدور «الاساسي» .وقد عبر بريجنسكي عن هذا الموقف قائلاً : « نحن في مركز الزعامة وعلينا أن نتحمل أعباء هذا الدور »(٢٥) .

وجاء خطاب كارتر عن حال الإتحاد في كانون الثاني ١٩٨٠ ليرسخ المنطق العام للمبدأ الجديد . وهذا المبدأ يقتضي ، أولاً : استمرار الهيمنة الاميركية على العالم حيث قال : « انني مصر على أن تبقى الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم ».كما يقتضي ثانياً : اعتبار منطقة الخليج منطقة خاضعة لسيطرة اميركية كاملة «ليكون موقفنا واضحاً تماماً : أي محاولة خارجية للسيطرة على منطقة الخليج ستعتبر هجوماً على المصالح الحيوية للولايات المتحدة وستصد باستخدام كل الأساليب الضرورية ، وهذا يشمل القوة العسكرية »(٢٦) .

خطوات عملية

وانسجاماً مع قرارها بالاستعداد للتدخل ، افتتحت إدارة كارتر في أوائل آذار ١٩٨٠ قاعدة ماكديل الجوية في ولاية فلوريدا لكي تصبح مقراً للقيادة العامة لقوة التدخل السريع ، وتولى الجنرال بول كيلي رئاسة اركانها ، وفي وسعه تنظيم نحو ١١٠ ألف جندي ستنفق عليهم الولايات المتحدة حوالي ١٠ مليارات من الدولارات في السنوات الخمس القادمة . وستكون الفرقتان المجولقتان ٨٢ و ١٠١ وكتيبتان من « القوات الخاصة » و ٢ فرق بحرية العمود الفقري للقوة الجديدة . المشكلة من ١١٠,٠٠٠ رجل بالاضافة إلى ٥٠ ألف من قوات انزال البحرية . ويعتقد بعض الخبراء ان هذه القوة تحتاج إلى اسبوعين لنقل ٢٥ الف جندي مع معداتهم إلى منطقة الخليج . وقد اعترف البنتاغون بأنه في الظروف الحالية يقتضي الأمر ستة أشهر لنقل مئة ألف جندي ومئات الدبابات إلى مسافة تبعد ١٠ آلاف كيلومتر عن الولايات المتحدة[٢٧] .

وقد طورت قوات التدخل السريع عدة خطط لمواجهة إحتمالات عديدة ، وذكرت مجلة القوات الجوية المسلحة الاميركية ان كل المعلومات والخطط العسكرية المتعلقة بالإحتمالات المختلفة مخزنة في جهاز الكتروني ضخم[٢٨] .

واثباتاً لنيته بعرض العضلات امر الرئيس كارتر منذ منتصف شباط ١٩٨٠ قوات هجومية بر / مائية ، تشمل قوات الانزال البحرية ، بالقيام بمحاولات إنزال في بحر العرب في شهر آذار ١٩٨٠ ، وذلك لإظهار إمكانية الولايات المتحدة ، لانزال قواتها في المنطقة ، وتشمل هذه القوة ، المكونة من ١٨٠٠ رجل ، مشاة ومدفعية وقوات مدرعة ووحدات مضادة للدبابات ومهندسين وحوامات وقوات مساندة .

وكانت قوات التدخل هذه أول قوات ارضية اميركية تستعد للذهاب إلى المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية ، كما كان المطلوب من هذه القوة أن تصبح جزءاً من قوات الطوارىء المكونة من الحاملتين « نيميتز » و « كورال سي » مع بواخرها المرافقة والمتواجدة في بحر العرب وجنوب إيران[٢٩] .

وقد وصل حجم القوات الأميركية في المحيط الهندي في أواخر نيسان إلى ١٨ قطعة بحرية محاربة في اطار قوتين للطوارىء المشكلة من « نيميتز » و « كورال سي » ، اللتين تحملان حوالي ٢٠٠ طائرة مقاتلة ، هذا بالإضافة إلى عدة غواصات (عددها غير معروف) كما ترافق هذه القوة ٨ بواخر للمساندة ، وقد انضمت إليها قوات الإنزال المكونة من ١٨٠٠ عنصر في شهر آذار وترابط قوات الإنزال هذه على ٤ سفن برمائية مجهزة بطائرات هليكوبتر مقاتلة ودبابات (أم ـ ٦٠)[٣٠] .

وكان عدد القطع الحربية الأميركية المتواجدة ، في مضيق هرمز والمحيط الهندي في منتصف العام الماضي لا يتعدى ١١ قطعة ، بعدما إقترح الخبراء العسكريون في ذلك الحين زيادة القطع البحرية الحربية المتواجدة في القواعد الأميركية في البحرين من ٣ قطع إلى خمس قطع وزيادة عدد الزيارات التي تقوم بها قوات الطوارىء الأميركية إلى المنطقة ، وتشمل عادة كل

بعثة من هذا النوع ما بين خمس وثمان قطع حربية[٣١] .

وتواجدت القوة العسكرية الأميركية المشكلة من ثلاث قطع حربية (مدمرتين وباخرة برماء) في منطقة البحرين منذ الحرب العالمية الثانية ، ولكن الولايات المتحدة لم تول منطقة الخليج دوراً خاصاً في استراتيجيتها العسكرية إلا في عام ١٩٦٨ ، حيث كانت تركز قبل ذلك على علاقاتها مع إيران والسعودية بينما كانت بريطانيا هي التي تقوم بدور الحفاظ على الأمن[٣٢]

وبين عامي ١٩٧١ و ١٩٧٣ اتخذت الولايات المتحدة بعض القرارات العملية التي عبرت عن تغير ملحوظ في سياستها الخليجية . فحصلت على عقد إيجار طويل المدى مع البحرين ، يسمح لها باستخدام القاعدة العسكرية البحرية ، التي كانت تستخدمها بريطانيا سابقاً كمقر قيادي عام لقوات الشرق الأوسط (MIDEASTFOR) . وكانت السياسة الأميركية الجديدة تتطلب أدنى حد من التواجد العسكري المباشر في الخليج . وكان التركيز منصباً على التواجد فقط في إيران والسعودية[٣٣] .

وأدخلت منطقة الخليج في جوهر الصراع العربي الاسرائيلي بعد الحرب الإسرائيلية ـ العربية في تشرين الأول ١٩٧٣ ، وقد أدت الحرب إلى إعلان البحرين نيتها بالغاء عقد الإيجار مع الولايات المتحدة . ولكنها تراجعت عنه في منتصف عام ١٩٧٤ . ومنذ حرب ١٩٧٣ ، قامت الولايات المتحدة بإرسال قوات بحرية عسكرية إلى منطقة الخليج بمعدل مرتين أو ثلاث في العام الواحد ، (وكانت هذه القوات تشمل عادة حاملة طائرات)[٣٤] .

القواعد والتسهيلات الأميركية في منطقتي الخليج والشرق الأوسط

وكانت الولايات المتحدة بموجب اتفاق اميركي بريطاني موقع في العام ١٩٦٦ قد بدأت تستخدم قاعدة دييغو غارسيا في المحيط الهندي للمواصلات والتزود بالوقود . وقد هيأت القاعدة ووسعتها منذ عام ١٩٧٢ ، وطورت البحرية الأميركية منذ بعض الوقت إمكانيات هذه القاعدة لتوفير رصيف لرسو حاملة طائرات ومطار طول مدرجه ٣٦٠٠ متر ، لاستقبال طائرات النقل الضخمة والمقاتلات النفاثة (وقد صرحت مصادر البحرية الأميركية في أوائل كانون الثاني ١٩٨٠) بأن ١٢ قطعة حربية ستبحر من الولايات المتحدة ، وإن بعضها سيتجه إلى المحيط الهندي وبينها حاملة الطائرات لونغ بيتش المزودة بصواريخ موجهة) وتنوي الولايات المتحدة الإستمرار في توسيع قاعدة دييغو غارسيا وستكلفها هذه العملية حوالي ١٤٠ مليون دولار[٣٥] .

هذا ، وقد وافقت عمان وكينيا والصومال على إعطاء القوات العسكرية الأميركية حق استخدام التسهيلات العسكرية في قواعدها ، أي امكانية تخزين الوقود والعتاد العسكري والنزول في هذه القواعد ، وذلك مقابل مساعدات عسكرية أميركية لهذه الدول . وعبر أحد المعاونين في ادارة كارتر عن الإتفاق المبرم بين هذه الدول والولايات المتحدة بقوله « انه يمثل منعطفاً هاماً متناقضاً مع التدهور السابق لموقعنا الاستراتيجي في هذه المنطقة وتختلف

سياسة الولايات المتحدة في استخدامها لهذه القواعد ، عن السياسة التي اتبعتها الولايات المتحدة في أوروبا الغربية وفي المحيط الهادىء في الخمسينات والستينات ، والتي كانت تتطلب بناء قواعد أميركية جديدة . وتكتفي الولايات المتحدة في الوقت الحاضر بالحصول على حق استخدام القواعد الموجودة ، مثل قاعدة ميناء بربرا في الصومال ، وميناء مسقط في عمان ، وميناء مومبازا في كينيا . وستكلف عملية إصلاح هذه القواعد الولايات المتحدة عدة ملايين من الدولارات(٣٦) .

وبالإضافة إلى القواعد والتسهيلات البحرية التي حصلت عليها ، تخطط الولايات المتحدة من أجل بناء ١٥ أو ١٦ باخرة عملاقة ، تستخدم كقواعد عائمة . وستكلف عملية بناء كل من هذه القواعد ٢٨٠ مليون دولار ، وستحمل كل منها اسلحة وذخيرة قيمتها ٥٠٠ مليون دولار . ومن المخطط لها أن تنتشر في البحار في مناطق مجاورة لمناطق النزاع . كما تتطلب خطة إدارة كارتر العسكرية بناء ٥٠ طائرة نقل عملاقة من طراز (C.X) تكلف كل منها ١٨٠ مليون دولار . ومن المتوقع أن تكون القواعد العائمة المعروفة أيضاً « بالبواخر البحرية المتمركزة » (Maritime Prepositioned Ships) جاهزة للعمل في منتصف الثمانينات(٣٧) .

هذا بالنسبة للقواعد البحرية ، اما بالنسبة للقواعد الجوية ، فلدى الولايات المتحدة حق وامكانيات استخدام المطارات الحربية المتواجدة في مصر ، واسرائيل والمغرب وقاعدة الظهران الجوية في السعودية وقاعدة جيبوتي المطلة على خليج عدن ، التي تسيطر عليها فرنسا ، وقاعدة مصيرة في بحر العرب(٣٨) .

وبموجب البنود السرية لإتفاقيات كامب دايفيد المبرمة في آذار ١٩٧٩ ، المتعلقة بتنفيذ هذه الإتفاقيات من جانب الولايات المتحدة ، تعمل الولايات المتحدة على تعزيز تواجدها العسكري في منطقة الشرق الاوسط . وقد بدأت بالفعل في بناء قاعدتين جويتين عسكريتين لاسرائيل في صحراء النقب .

ويقوم في الوقت الحاضر حوالي ١٠٠٠ خبير اميركي بعملية بناء المطارين في صحراء النقب في منطقتي رامون وعوفدا . وتعتبر مهمة انجاز البناء قبل ٢٥ نيسان ١٩٨٢ مهمة حيوية بالنسبة للولايات المتحدة لانها تعتبرها حلقة اساسية لنجاح اتفاقيتي كامب ديفيد . حيث ان اسرائيل وافقت على ارجاع اخر قطعة من سيناء إلى مصر في عام ١٩٨٢ فقط عند اتمام بناء القاعدتين .

ويحتوي هذا الجزء من صحراء سيناء على قاعدتين جويتين وهما عيتم وعتسيون «(٣٩)

وبينما تقتضي شروط كمب ديفيد أن تبقى قاعدتا عيتم وعتسيون منزوعتي السلاح حتى عام ١٩٨٥ ، فان بعض المسؤولين الأميركيين اقترحوا أن تعطي مصر الولايات المتحدة حق بناء قاعدة عسكرية خاصة بها في هذه المناطق ، ولكن في اسوأ الأحوال (بالنسبة للولايات المتحدة) ستستخدم القوات الأميركية القاعدتين الموجودتين في سيناء وهما من أفضل القواعد في العالم ، وقد بنيتا على نفس نمط قواعد الحلف الأطلسي في أوروبا ، وقد اقترح السادات على الولايات المتحدة إمكانية استخدام هذه القواعد .

ويخشى الأميركيون العاملون في بناء المطارين في اسرائيل من أن أي تأخير في انجاز البناء

قد يؤدي إلى فشل إتفاقية كامب ديفيد ورفض اسرائيل الإنسحاب من سيناء ، خصوصاً لانها لا تميل للتخلي عن قاعدتي عيتم وعتسيون . وقد عبر أحد المسؤولين الغربيين عن الإحتمالات الممكنة بعد اتمام عملية بناء القواعد في صحراء النقب قائلاً « انني اخشى التنبؤ حول ماذا سيحدث ، فقد تقرر اسرائيل الإستيلاء على القواعد الأربعة كلها : القديمة في سيناء والجديدة في النقب . وماذا يمكن أن يفعله أي شخص أمام هذا الإحتمال ؟ »[٤٠] .

وقد شكل البنتاغون مع وزارة الدفاع الإسرائيلية قيادة مشتركة يترأسها جنرالات من القوات الحربية الأميركية والإسرائيلية ، وستكون هذه القواعد ملكاً لاسرائيل ، بينما تقوم الولايات المتحدة ببنائها ، وقد كلفتها عملية البناء حوالي ٨٠٠ مليون دولار ، هذا بالإضافة للمساعدات المالية التي وعدت بها الولايات المتحدة اسرائيل ، وقدرها ٢,٢ بليون دولار كمساهمة لانجاح « صفقة السلام » . وتستخدم الولايات المتحدة لبناء القاعدتين في النقب اسلوباً تقنياً سريعاً (Fast Track) ، وهو نفس الاسلوب الذي استخدمته ، لبناء قواعدها النووية في الستينات[٤٠] . ويبدو ان عملية بناء القاعدتين قد أدت إلى بروز منافسة بين الأميركيين والاسرائيليين ، وقد عبر عن ذلك أحد الاميركيين بقوله : « ليس هناك شك في أن هذه قواعد اسرائيلية ، ولكن هناك نقاش حول من الذي يدير المسرحية . الأميركيون أم الاسرائيليون ؟» وفي رأي الاميركيين قد يحتد النقاش عندما تبدأ اسرائيل في عملية تركيب الأجهزة السرية واللوجستية الضرورية للقيام بعمليات عسكرية انطلاقاً من هذه القواعد[٤١] .

أما بالنسبة لمصر فتستخدم الولايات المتحدة بالفعل التسهيلات العسكرية التي قدمها لها السادات ، وقد ارسلت إلى مصر وبشكل سري في كانون الاول ١٩٧٩ طائرات AWACS ، وعندما اكتشف الأمر ، صرحت الولايات المتحدة بأن هذه الطائرات ارسلت لتساعد في تمرين الجيش المصري . ومنذ ذلك الحين ارسلت الولايات المتحدة هذه الطائرات مرتين إلى مصر وثلاث مرات إلى منطقة المحيط الهندي لتقوم بتمرينات بالتنسيق مع الاسطول الأميركي .

وكانت توجد في شهر آذار طائرتا AWACS في مصر ، تساهم في تدعيم قدرة الطائرات الحربية . وقد ارسلت الولايات المتحدة في تلك الفترة هذه الطائرات من قواعد في مصر إلى منطقة الخليج[٤٢] . وهناك بعض المعلومات تشير إلى ان هذه البعثات العسكرية تنطلق من مطار موجود قرب مدينة قنا الجنوبية . وكان وزير الدفاع براون قد أكد في الفترة نفسها أن قوة من المارينز ستصل إلى المحيط الهندي في ٢٤ أذار ١٩٨٠ وإن سبع سفن تموين ستنضم في حزيران المقبل إلى الاسطول الأميركي فيها . وأضاف إن وحدات من الفرقة ٨٢ يمكن أن تنزل في المنطقة في بضعة ساعات ، وقد تتبعها بعد أيام قوة معززة بالرادارات الطائرة AWACS وأخرى بحرية مزودة بسفن انزال[٤٣] .

وقبيل ذلك صرح هودينغ كارتر الناطق باسم وزارة الخارجية الأميركية ، في اوائل كانون الثاني ١٩٨٠ ، بأن واشنطن صرفت النظر عن عرض مصر واسرائيل إقامة قواعد أميركية في هذين البلدين ، والسبب المذكور هو ان « إقامة قواعد أميركية في مصر واسرائيل أمر غير مفيد حالياً »[٤٤] . وقد أكدت بعض المصادر ، وأولها مصدر اسرائيلي ، ان العملية العسكرية الفاشلة في إيران في ١٩٨٠/٤/٢٥ إنطلقت من المطار العسكري في القاهرة المعروف بمطار « غرب القاهرة » وأنها بعد ذلك حصلت على أمدادات من الوقود من البحرين[٤٥] .

« الخطر السوفياتي »
أو « المصالح الحيوية »

تستخدم الولايات المتحدة حجة « الخطر السوفياتي » على المنطقة لتحريض دول المنطقة ضد الإتحاد السوفياتي ، وكتبرير لزيادة قوتها العسكرية فيها . هذا ما كانت توحي به إقتراحات كارتر في خطابه عندما تحدث عن بناء « إطار تعاون أمني في المنطقة » مع دولها لمواجهة الإتحاد السوفياتي(٤٦) . وهذا أيضاً ما يردده باستمرار مستشار الأمن القومي بريجنسكي، فقد صرح بأن الولايات المتحدة مستعدة « لإيجاد إطار تعاون أمني في المنطقة بوسائل مختلفة »(٤٧) . كما تحدث أكثر من مرة عن خطورة التوسع السوفياتي حيث « اننا نواجه توسعاً سوفياتياً ملموساً نحو الجنوب ، وهذا الأمر يشكل خطراً واضحاً على الخليج وهو منطقة حيوية جداً ، ومن هنا يظهر البعد الإستراتيجي لهذه المشكلة »(٤٨) .

هذا , في نفس الوقت الذي تبين فيه بعض الدراسات الجدية في الولايات المتحدة أن الإتحاد السوفياتي لن يقدم على أي عمليات عدوانية على المنطقة(٤٩)

ومن الجدير بالإهتمام ان هارولد براون وزير الدفاع في تصريحه عن ميزانية عام ١٩٨١ في كانون الثاني ١٩٨٠ عبر عن نظرة تختلف عما يحاول بريجنسكي الإيحاء به باستمرار. فقد أوضح براون ان الخطر الحقيقي ليس خطر التوسع السوفياتي ، بل الخطر الناتج عن تزايد « العنف » في بلدان العالم الثالث « إن الشجب والتهديد باستخدام العنف واستخدام القوة من المشاكل المنتشرة في العالم » ولهذه المشاكل عدة اسباب بينها الفشل في « تلبية حاجات هذه الشعوب الاساسيه وفي تضييق الهوة الموجودة بين الثروة والجوع » . وفي رأي براون ان الاتحاد السوفياتي يستغل هذه الهوة ، ولكنه يبقى « جزءاً فقط من المشكلة »(٥٠) .

ويشكل اعتراف براون بأن الخطر الحقيقي الذي يواجه أمن الولايات المتحدة هو العنف المتزايد في العالم الثالث ، منطلقاً هاماً في الفكر العسكري الأميركي السائد . فبينما تركز معظم التقارير السنوية الحديثة للبنتاغون على الخطر السوفياتي وتطالب بجهود لتغيير ميزان القوى في اوروبا الغربية لصالح المعسكر الغربي ، يكرس تقرير براون معظم جهده على الخطر الناتج عن العنف في العالم الثالث ، الذي قد يؤدي إلى « فوضى إقتصادية دولية » والتي قد تساوي « الخطر العسكري السوفياتي » . وهو يقول « إن انقطاعاً في إمدادات النفط الاجنبي على مدى واسع سيؤدي إلى مضاعفات مدمرة للولايات المتحدة تساوي فقدانها لمعركة عسكرية أو حتى لحرب »(٥١)

وقد استخدم مسؤولون عديدون في الإدارة الأميركية منذ عهد كيسنجر وفورد مصطلح « المصالح الحيوية » الأميركية في منطقة الخليج ، للتعبير عن المنطق الذي يدعو إلى استخدام القوة العسكرية . ومن الجدير بالذكر ان كيسنجر نفسه قد استخدم هذا المصطلح أربع مرات في فقرة واحدة . وقد قال كيسنجر : « إن الحصول على النفط هو مصلحة حيوية بالنسبة لنا وللأنظمة الديمقراطية الصناعية . وبالطبع فإن أي محاولة لقطعه عنا ، أو أي استخدام سياسي له ، سيهددان مصالحنا الحيوية . والتنبؤ بالطرق التي يمكننا استعمالها للحفاظ على المصالح الحيوية هو عمل غير مسؤول ، ولكن ليس هناك شك في انه يمثل مصلحة حيوية »(٥٢)

خلاصة

ومن الواضح ان المنطق الذي يسير سياسة « التدخل الجديد » ، التي تنوي واشنطن اتباعها ، هو منطق « الدفاع عن المصالح الحيوية » الذي يشكل النفط الخليجي جزءاً هاماً منها[٥٣] .

وتتوقف مقدرة واشنطن في اتباع سياسة التدخل الجديد على عدة عوامل أهمها فعالية قوات التدخل التي تقوم بتجهيزها ، وعلى القواعد والتسهيلات والتحالفات التي تستطيع الإعتماد عليها في مناطق الشرق الأوسط والخيج وجنوب أوروبا (حوض البحر الأبيض المتوسط) .

ومن الصعب التنبؤ حول قيام أو عدم قيام واشنطن بالهجوم على منطقة الخليج ، لأن منطق تعزيز القوة العسكرية والتهديد باستخدامها هو جزء من استراتيجية الولايات المتحدة ، التي استخدمت عملية عرض قوتها العسكرية للتوصل إلى أهداف سياسية ٢١٥ مرة بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٧٥ ، أي بدون التورط بحروب[٥٤] . وقد عبر عن هذا المنطق الجنرال جورج براون الرئيس السابق للجنة اركان الحرب الموحدة في عام ١٩٧٨ حين قال : « منذ الحرب العالمية الثانية ، تشير الخبرة إلى ان استخدام القوات العسكرية في الوقت المناسب لعرض العضلات كان كافياً لتفادي الصراع المعلن »[٥٥] .

كما يصعب التنبؤ ايضاً ،لأن الولايات المتحدة تقوم بعدة محاولات سياسية وعسكرية في وقت واحد ، وبسبب تعدد الخيارات أمامها واعتمادها على عدة تحالفات رسمية وغير رسمية وذات أشكال مختلفة في نفس الوقت ، مما يسمح لها بالتقلب من خيار لآخر حسب المتغيرات في الوضع المحلي والعالمي . ومن المرجح أن تستخدم القوة العسكرية عندما تفشل في كل محاولاتها الأخرى[٥٦] .

هذا في نفس الوقت الذي قد أصبحت فيه منطقة الخليج منطقة قابلة للتفجير ، بسبب كثافة التواجد المسلح فيها بشكل عام كنتيجة لسياسة مبيعات الأسلحة الغربية المكثفة في هذه المنطقة . فحسب الميزان العسكري لعام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ تتواجد في هذه المنطقة ٦٦ وحدة عسكرية ، أي بزيادة ٦٠٪ في الأعوام العشرة الأخيرة .

كما إزداد عدد الدبابات ليصل إلى ١٥٨٥٠ دبابة ، وذلك يعبر عن زيادة نسبتها ٦٦٪ في نفس الفترة ، وإزداد ايضاً عدد الطائرات المختلفة حتى اصبح ٣,٠٦٦ أي بزيادة ٦١,١٪[٥٧] .

وهذا العتاد العسكري في منطقة الخليج ، الموزع على دول المنطقة ، مثل إيران والسعودية والعراق والجمهورية العربية اليمنية ، قد يستخدم لتلبية عدة احتمالات . فقد يستخدم في حروب محلية بين قوة وأخرى ، أو للدفاع عن المصالح الأميركية والغربية ، أو بالعكس لمهاجمتها ، وقد اثبتت الثورة الإيرانية أن الأسلحة المكثفة في أيدي « الحلفاء » قد تتحول في فترة تاريخية معينة إلى اسلحة قد تستخدم ضد الولايات المتحدة نفسها .

ومن الواضح ، إن خطط الغزو الأميركية ستطبق عملياً ، خصوصاً اذا تحولت القوى

الصديقة للولايات المتحدة إلى قوى معادية ، أو إذا فشلت القوى « الصديقة » في انجاز المهام المطلوبة ، أي الحفاظ على المصالح الاميركية أو في حال وقوع الأسلحة المتواجدة في المنطقة في أيدي قوى ثورية .

ويمكننا اعتبار العملية العسكرية الفاشلة لإنقاذ الرهائن في إيران أول محاولة عملية من قبل الولايات المتحدة لاثبات استعدادها وإعلان نيتها القيام بتدخلات عسكرية في المنطقة ، بعد فترة امتنعت فيها عن القيام بأي تدخل عسكري مباشر ، هذا مع الأخذ بعين الإعتبار أن الإدارة الأميركية استطاعت أن تبرر العملية الفاشلة على اساس انها عملية « انقاذ انساني » ، مما يجعلها مختلفة نوعياً عن التدخلات العسكرية التي تهدد الولايات المتحدة بالقيام بها منذ عدة سنوات بهدف « الاستيلاء على منابع النفط » أو لصد عدوان سوفياتي على المنطقة »

وقد فسر البعض فشل هذه العملية على أنه برهان على عدم قدرة الولايات المتحدة على استخدام قوتها العسكرية بشكل مجدٍ ، بينما فسرها البعض الآخر على أنه حلقة أولى من سلسلة عمليات عسكرية أميركية ستقوم بها الولايات المتحدة في داخل إيران وخارجها ، وقد وصفها احد الموالين لمنطق استخدام القوة العسكرية وذلك على اساس ملاحظة قائد اسرائيلي ، بأنها ليست إلا « اشعاراً أولياً» بزيارات متتالية(٥٨) . ويمكن اعتبار هذه العملية كمحاولة جدية لاثبات استعداد الولايات المتحدة للمجازفة بالارواح ، مما يعني اعترافها بالتخلص من « عقدة فيتنام » .

كما تحدى كارتر من خلال هذه العملية تشريع« صلاحيات الحرب » المقر في عام ١٩٧٣ والذي يطالب الرئيس باستشارة السلطات الأخرى قبل القيام بحروب في الخارج(٥٩) . وهذا يعني تحطيم إحدى الحواجز التشريعية الأخيرة أمام قدرة الجيش الأميركي بالتدخل في الخارج ، هذا بعد أن كان كارتر قد أعلن سابقاً عن تخلصه من العوائق الأخرى التي كانت تحد من حرية عمل المخابرات المركزية الأميركية ، كما أعلن ضرورة العودة إلى الخدمة العسكرية الإجبارية .

ويعتبر تصريح هارولد براون بعد العملية الفاشلة دليلاً على شعور الإدارة الأميركية بضرورة اثبات استعدادها للتدخل أمام العالم ، فقد صرح براون « بأن الغارة الفاشلة على إيران تعد دليلاً على النيات الأكيدة للولايات المتحدة » . وأهمية هذا الشعور باثبات « النية » بالتدخل تصبح أكثر وضوحاً إذا اخذنا بعين الإعتبار معرفة القادة الأميركيين بأن العملية تعتبر مجازفة ، مما يعني إن هدفها لم يكن فقط انقاذ الرهائن بل أيضا اثبات استعدادها للتدخل . وقد عبر كارتر عن ذلك في تصريحه في ٢٥/٤/١٩٨٠ حين قال : « إن مجموعة الإنقاذ كانت على علم وانني كنت على علم بأن العملية كانت بكل تأكيد عملية صعبة وخطرة »(٦٠) .

أما السناتور فرانك تشورس الذي انتقد كارتر بسبب العملية ولاتخاذه قراره بدون استشارة مجلس الشيوخ فقد ذكر : « إنه كان من الممكن إقناع كارتر [في حال استشارة مجلس الشيوخ] بعدم القيام بهذه العملية بسبب المجازفة الكبرى الخاصة بعملية من هذا النوع ، وبسبب المضاعفات المتوقعة في حال فشل هذه العملية »(٦١) .

وجاءت استقالة سايروس فانس وزير الخارجية من منصبه في ٢٨/٤/١٩٨٠ لتوضح ان العملية العسكرية لم تكن حادثاً استثنائياً ، بل انها تعبر عن المنطق العام الذي يسير السياسة الخارجية في الوقت الحاضر ولعدة شهور قادمة ــ ويعرف البعض هذا المنطق « بمبدأ كارتر » والبعض الآخر بشكل أدق « بمبدأ كارتر الخليجي » ، بينما يسميه الآخرون « مبدأ براون » .

ويعتبر بعض المؤرخين في الولايات المتحدة ، ان المنطلقات الأساسية لهذا المبدأ ليست جديدة بالنسبة للولايات المتحدة ، فالجو السائد في الأوساط السياسية في الأشهر الأخيرة يشبه الجو السائد في الولايات المتحدة في السنوات التي سبقت الحرب الفيتنامية ، وان الفرق الوحيد هو ان الولايات المتحدة لم تبق مثل ما كانت في أوائل الستينات أي متفوقة في المجال النووي ومزدهرة إقتصادياً ، مما يجعل محاولة تطبيق نفس الاستراتيجية في الوقت الحاضر أمراً خطيراً بالنسبة لها[٦٢] .

ومن الواضح ان المبدأ الجديد لم يتخذ بعد شكله النهائي ، فمن الصعب الإعتماد على أقوال وتهديدات الادارة الاميركية ، المتناقضة في بعض الأحيان ، لتحديد الشكل النهائي لهذا المبدأ ، ولكن من الأكيد أن هناك منطلقات نظرية اساسية قد بدأت تحدد جوهر المبدأ الجديد .

وقد كتب محرر مجلة « الدراسات الاستراتيجية » وهو أحد الخبراء العسكريين حول الشرق الأوسط والمساندين لاسرائيل ، « إن مبدأ الرئيس الخاص بالخليج الفارسي هو أكثر من لعبة انتخابية . فالدفاع عن الدول التي تمد الغرب بالنفط هي مسألة أمنية ضرورية » ولكنه أشار في نفس الوقت إلى عدم اتخاذ هذا المبدأ شكله النهائي بسبب عدة تساؤلات لم يجد المخططون أجوبة واضحة لها وهي : « عن من ندافع ؟ » ، « عن ماذا ندافع ؟ » « متى ندافع ؟ » و « كيف ندافع ؟ »[٦٣] .

ولكن الشيء الأكيد هو أن الولايات المتحدة تستمر في تعزيز وجودها العسكري وفي التهديد بامكانية استخدام القوة العسكرية مما دفع احد الأخصائيين بالسياسة العسكرية الأميركية إلى القول « إذا ارسلت القوات الأميركية إلى الشرق الأوسط أو أي منطقة مكثفة بالسلاح ، فقد نجد أنفسنا في مستنقع ، ستبدو الحرب الفيتنامية ، بالقياس معه مجرد نقطة وحل »[٦٤] .

---

(١) « واشنطن تعيد تشكيل استراتيجيتها : خفض أساطيل المتوسط والهادىء لتعزيز التواجد في المحيط الهندي » . « السفير » . ١٨ نيسان ١٩٨٠

(٢) «Allies Told U. S May Have to Divert NATO Forces to the Middle East». *The Times*, 15 April, 1980.

(٣) «U. S Drops Swing Strategy for troops». *International Herald Tribune*, 26 May, 1980.

(٤) «After Iran: Next Turn for U. S. Foreign Policy». (Interview With Zbigniew Brzezinski); *U.S News and World Report*, December 31-January 7, 1980.

(٥) *Ibia.*

(٦) Michael T. Klare, «The Brown Doctrine: Have R. D. F. will Travel», *The Nation*, March 8, 1980, pp. 273-266.

(٧) *Ibid.*

(٨) Maxwell Taylor «The Hard Road to World Order: The Legitimate Claims of National Security» *Foreign Affairs*, April, 1974, pp. 577-594.

(٩) Joe Stork, «U. S. Targets Persian Gulf for Intervention», *M.'E. R. I. P Reports*, No 58, February 1980, pp. 3-4.

(١٠) «A Move for Military Might. U. S: From Cold War to Half Wars», *The Middle East*, August, 1979. pp. 30-32.

(١١) Harold Brown, *Department of Defense Annual Report, Fiscal Year 1980*, (The Defense Department: Washington, 1979), pp. 30-31 as quoted in Michael T. Klare, «LInquietude Des Puissants: Un arsenal très Elaboré», *Le Monde Diplomatique*, Juillet, 1979.

(١٢) Stork. *Op. Cit.*

(١٣) Collins John and Clyde Mark, *Petroleum Imports from the Persian Gulf: Use of U. S Armed Forces to Ensure Supplies*, Issue Brief no IB 7 9046, (Congressional Research Service: The Library of Congress 26-4-79 and up dated 18-9-79).

(١٤) *Oil Fields as Military Objectives: a Feasibility Study»* (The Congressional Research Service: Library of Congress, August, 21, 1975).

(١٥) *Access to Oil - The United States Relationship with Saudi Arabia and Iran* (Staff Study, Senate Committe on Energy and Natural Resources, December 1977) p. 84.

(١٦) Richard Falk. «Iran and American Geopolitics in the Gulf». *Race and Class*, Summer 1979, p. 46.

(١٧) «Carter gives Praise to Shah», *International Herald Tribune*, 1 November, 1978.

(١٨) Collins. *Op. Cit.*

(١٩) «Risks in Gulf Intervention Would be High, U. S. Told», *International Herald Tribune*, 16 July 1979

(٢١) المصدر نفسه .

(٢٢) المصدر نفسه .

(٢٣) «Top Carter Aides Propose Increasing Forces in Gulf», *International Herald Tribune*, 29 June 1979.

(٢٤) « واشنطن : صانعو السياسة الخارجية وافقوا على زيادة الوجود العسكري في المحيط الهندي والشرق الأوسط » . النهار ، ٢ تموز ١٩٧٩ .

(٢٥) «U.S Moves to Streng then Positon in Mideast Region», *International Herald Tribune*, 4 August, 1979.

(٢٦) «Text of the President's State of the Union». *The New York Times*, January 24, 1980.

(٢٧) « افتتاح مقر القيادة في فلوريدا : قوة التدخل الأميركية أعد تنظيمها ولكنها قد لا تصبح عاملة قبل ١٩٨٥ » . النهار ، ٢ آذار ١٩٨٠

(٢٨)١٠٠-ب Michael. T. Klare «R.D.F. to the Rescue », *Seven Days*, April 1980 pp. 15 - 16.

(٢٩) Richard Halloran «U.S will send Assault Troops to Arabian sea», *New York Times*, 13 February 1980.

(٣٠) Jurek Martin - «The Tougher Line from Washington», *The Financial Times*, 21 April, 1980.

(٣١) David Buchan. «U.S Charts the Troubled Waters of a new Role in The Gulf, *The Financial Times*, 5 July 1979.

(٣٢) (David E. Long, «U.S Policy Toward the Pesian Gulf», *Current History, February 1979.*

(٣٣) *Ibid*.

(٣٤) *Ibid*

(٣٥) أميركا تطور قاعدة دييغو غارسيا وتحرك ١٢ قطعة بحرية إلى المنطقة » . النهار » ، ١٠ كانون الثاني ، ١٩٨٠ .

(٣٦) Richard Burt, «Indian Ocean

Lands Reported to agree to U.S use of Bases.», *New York Times*, 12 February 1980.

William Hansen, «The Rapid Deployment Force: America's Big Stick.»*Issues*, April 1980. (٢٧)

James Canan, «A.U.S. Scenario for Fighting a Mideast War», *Business Week*, February 25, 1980 . (٢٨)

«Israel Desert Airfields-Compliments of U.S» *U.S News and World Report*, May 26, 1980 pp. 49 - 50 · (٢٩)

(٤٠) المصدر نفسه.

(٤١) المصدر نفسه.

«U.S. Sent Patrol aircraft from Egypt to Gulf Area», *International Herald Tribune*, March 11, 1980. (٤٢

(٤٣) « براون : نستطيع في اسبوعين ارسال الفرقة ٨٢ إلى الخليج » ، النهار ، ٥ آذار ١٩٨٠ .

(٤٤) « واشنطن تصرف النظر عن إقامة قواعد في مصر واسرائيل » ، النهار ، ١٠ كانـون الأول ، ١٩٨٠ .

«Cairo Airfield Thought to be Mission Base», *The Times.*, 26, April 1980. (٤٥)

«Text of The President....» *Op. Cit.* (٤٦)

(٤٧) « واشنطن تقترح على دول المنطقة إقامة حلف ضد السوفيات يشمل ليبيا والعراق وآخـرين » ، النهار ، ١٦ كانون الثاني ١٩٨٠ .

(٤٨) « بريجنسكي : يجب عدم الاستهانة بقوتنا . براون : لم نسقط الوسائل الأخرى » ، النهار ، ٢٨ نيسان ١٩٨٠ .

«U.S Foreign Policy in the 1980's,» *Monthly Review*, April, 1980 · (٤٩)

As quoted in Klare, «The Brown Doctrine...» *Op. Cit.* (٥٠)

Ibid (٥١)

«We Must not Submit to Blackmail»,(Interview with Henry Kissinger), *U.S News and World Report*, April 16, 1979. (٥٢)

Richard Falk. « The Prospcts of Intervention: Exporting Counterrevolution», *The Nation*, June 9, 1979. (٥٣)

Barry M. Blechman and Stephen S. Kaplan «U.S Military Forces as a Political Instrument» *Political Science Quarterly*, Summer 1979. p 195. (٥٤)

George S. Brown *United States Military Postures for fiscal year 1979* (The Defense Department. Washington.. 1978) p. 17. (٥٥)

James Petras, «U.S Foreign Policy: The Revival of Interventionism», *Monthly Review*, February 1980. (٥٦)

Perlmutter Amos. «An Interventionist Force in the Mideast», *Wall Street Journal* ,17 March 1980, (٥٧)

William Satire «Iran: On Leaving a Calling card», *International Herald Tribune, 29 April, 1980.* (٥٨)

«The War Powers Act»,*News week*, May 5, 1980. (٥٩)

«The Carter Text»*International Herald Tribune*, April 26-27, 1980. (٦٠)

«Congressmen Decry Lack of Cousultation», *International Herald Tribune*, April 26-27, 1980. (٦١)

Walter La Feber, «The Politics of Deja Va », *The Nation*, March 15, 1980. (٦٢)

Perlmutter. *Op. Cit.* (٦٣)

Klare, «The Brown Doctrine», *Op. Cit.* (٦٤)

د. خيرية قاسمية

نشاطات صندوق استكشاف فلسطين ١٨٦٥ - ١٩١٥

مقدّمة

لفلسطين أهمية فريدة في العالم ، بالاضافة الى مكانتها الدينية وموقعها الهام كجسر بين اسيا وافريقيا ، تلاقت على ارضها حضارات عديدة تركت اثارها في بقايا قائمة او مدفونة تحت الارض ، وتناثرت بعض اخبارها في وثائق مكتوبة من كتب العهد القديم ، وأخبار الرحالة والكتّاب والحجّاج سجّلوا ملاحظاتهم الوصفية ومذكّراتهم . ورغم ان هذه الكتابات كانت تفتقر الى روح النقد ووسائل البحث العلمي ، الّا انها القت ضوءا على احوال البلاد الجغرافية وطبائع سكانها والمواقع الاثرية فيها . وحتى مطلع القرن التاسع عشر ، لم يحدث أي تقدم في الكشف عن الوثائق المتعلّقة بتاريخ فلسطين ، او تفسير النقوش والكتابات ، او فهم الخط العام لتطور الحضارات ، او دراسة الحقائق العلمية الجغرافية ، او التنقيب داخل التلال المتراكمة التي تكمن تحتها المدن والقرى القديمة (١) .

ومنذ بداية العشرينات اصبحت فلسطين حقلا لاهتمام خاص من الدول الاوروبية ، حيث تدفقت اليها الارساليات الاجنبية ، وفتحت فيها المدارس ، وانشئت المطابع ، وبدأ التعرّف على احوال فلسطين الجغرافية وطبوغرافيتها وجمع المعلومات عن اماكنها المقدسة وآثارها . ذلك لأنها احتلت مكانا بارزا في المنافسات الدولية بسبب موقعها الجغرافي ، والتقت عندها مصالح معظم الدول الاوروبية المتداخلة ، وكان الاهتمام الديني جانبا فقط من التطلّعات السياسية والتجارية للدول الاوروبية في شرقي المتوسط ، وبدت فلسطين كما كانت دوما ، صلة الوصل بين اوروبا وثروات الهند والشرق الاقصى ، وأصبحت القدس مركزا لنشاطات القناصل الاوروبيين تماما كما كانت الآستانة مركزا لنشاط السفراء (٢) .

بدايات الاستكشاف في فلسطين

كان الانجليز اسبق من غيرهم في مجال التعرّف على فلسطين ، لأن بريطانيا كان لا يمكنها ان تسمح لأية دولة أخرى بتهديد الطريق الرئيسية للمواصلات بين بلادها وبين ممتلكاتها

الآسيوية ، فكان لها مصلحة تقليدية في الاهتمام بفلسطين ، وتشكلت في لندن عام ١٨٠٤ ، اثر فشل الحملة النابليونية على مصر وفلسطين رابطة فلسطين Palestine Association لجمع ونشر المعلومات عن جغرافية الاراضي المقدسة وسكانها ومناخها وتاريخها ،لكنها لم تقـم الا بنشر ترجمة كتاب سيتزن Seetzen يصف فيه المنطقة المجاورة لبحيرة طبريا ونهر الاردن والبحر الميت ، فالوقت لم يكن مناسباً لعمليات الاستكشاف نظراً لخطورة الوضع(٣) . وفي عام ١٨٣٠ تشكلت الجمعية الجغرافية الملكية Royal Grographical Society فكان ان حلّت الجمعية الاولى وقدمت اوراقها واموالها الى الجمعية الجديدة لاستخدامها للاستكشاف الجغرافي ، ولم تعمل الجمعية الجديدة الكثير فيما يتعلق بالاستكشاف في فلسطين لأن اهتماماتها كانت عالمية .

وشهدت الفترة بين ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ تزايد الاهتمام البريطاني بفلسطين بعد ان وقفت بريطانيا بوضوح لمقاومة دولة محمد علي ، واتخذت دور حامية اليهود في الدولة العثمانية وفي فلسطين بالذات . وكان ذلك وراء انشاء اول قنصلية لها في القدس عام ١٩٣٨ ، وبداية المشاريع البريطانية التي تجمع على ان الاستيطان اليهودي ضروري لتحكم بريطانيا في الشرق (٤)

وفي عام ١٨٣٨ قام القس الاميركي ادوارد روبنسون Robinson بدفع عملية « التعرف على فلسطين » الى مرحلة عملية ، وكان قد عينّ استاذا لادب التوراة في كلية الاتحاد اللاهوتية في نيويورك Union Theological Seminary . وكي يتعرف بنفسه على « أرض التوراة » ، بدأ زيارته لفلسطين عام ١٨٣٨ واتجه من القاهرة بطريق سيناء حتى وصل بير السبع متتبّعاً اشارات التوراة ، (ورافقه في هذه الرحلة دكتور ايلي سميث)(٥) وقد نشر بعد عودته عام ١٨٤١ كتاباً بعنوان « ابحاث توراتية في فلسطين » Biblical Research in Palestine ضمنّه كل المعلومات التي جمعها واستنتاجاته ، فكان احسن عمل علمي نشر حتى الآن ، مع أن مسائل الآثار أو التاريخ الطبيعي أو عادات اهل البلاد لم تثر اهتمامه . ومنحته الجمعية الملكية الجغرافية الميدالية الملكية الذهبية مكافأة له على هذا المجهود . قام عام ١٨٥٢ برحلة أخرى الى فلسطين مضيفاً مادة جديدة وخاصة فيما يتعلّق بالطبوغرافية التوراتية ، ودوّن نتائج اكتشافاته في كتاب آخر عنوانه « ابحاث توراتية جديدة » Later Biblical Researches وكان يأمل في ان يؤلف كتاباً آخر يعالج بشكل منظم جغرافية الأراضي المقدسة الطبيعية والتاريخية ، لكنه توفي عام ١٨٦٠ قبل ان يتم له ذلك(٦) .

وقدم الى فلسطين منذ الاربعينات عدد آخر من المكتشفين والرحالة وكثير منهم من الضباط والمهندسين وجّهوا اهتمامهم الى جغرافية البلاد ، ففي عام ١٨٤١ قام الملازم (ليفتنانت) سيموندس R.E.Symonds من سلاح الهندسة الملكية البريطانية Royal Engineers بمسح المنطقة الممتدة من يافا ـ القدس ـ البحر الميت . وفي عام ١٨٤٧ قام الملازم مولينكس Molyneux (من الاسطول البريطاني) بركوب قارب عبر الاردن من بحيرة طبريا حتى البحر الميت لمسح المنطقة (توفي بلفحة شمس) . وفي عام ١٨٤٨ قام الملازم لنش Lynch (من الاسطول الاميركي) بتتبع خطاه برحلة مسح فيها نهر الاردن والبحر الميت (قاس عمق البحر الميت بواسطة الارتداد الصوتي) وفي عام ١٨٥١ ـ ١٨٥٢ قام الملازم فان دي فيلد Van de Velde (من الاسطول الهولندي) بزيارة فلسطين ، ونشر خريطة ١٨٥٨ كانت اهم عمل في فن

رسم الخرائط (الكارتوغرافية) جرى حتى الآن ، وأرفق بها مجلّدا يحوي ملاحظات هامة (٧) .

جاء فلسطين طبوغرافي فرنسي هو (جورين) V. Guérin عكف بمفرده على صنع خريطة لفلسطين انتهت عام ١٨٦١ ومعها دراسة وصفية في سبعة مجلدات ضخمة تتضمن ملاحظاته . وكان من زوار فلسطين ايضا ستانلي (الذي اصبح مطران وستمنستر) ودوّن نتائج رحلته الاولى في مؤلّف اسمه « سيناء وفلسطين » Sinai and Palestine عام ١٨٥٦ . وفي رحلته الثانية الى الاراضي المقدسة عام ١٨٦٢ ، رافقه ولي عهد الملكة فيكتوريا (اصبح ادوارد السابع) ، وهي اول زيارة يقوم بها أحد أفراد العائلة المالكة البريطانية منذ الحروب الصليبية .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر بدأ خط آخر في ميدان الاستكشاف بالاضافة الى الاستكشاف السطحي ، هو التنقيب على الاثار . ففي عام ١٨٥٠ قام (دي سولسي) F. de Saulcy برحلة الى الاراضي المقدسة واعتقد انه عثر على موقع سدوم ، كما لفتت نظره المقابر الصغيرة المحفورة في الصخر شمال القدس والمعروفة باسم قبور الملوك وحصل على تصريح من السلطات العثمانية باجراء التنقيب وعمل حتى ١٨٦٣ حيث وجد عددا من التوابيت الحجرية عليها نقوش (نقلها الى فرنسا)(٨) .

وفي عام ١٨٥٦ قام وليام سميث بجمع قاموس للكتاب المقدس Dictionary of the Bible ضمنه كل المعلومات التي امكن الحصول عليها ليضعها في خدمة دارسي التوراة . كما ان جورج جروف Grove (وكان سكرتير شركة Crystal Palace) جمع المقالات المتعلقة بفلسطين .ساعد ستانلي باعداد كتابه :سيناء وفلسطين .وقد رأى جروف كسلفه روبنسون أنه لابد من زيارة الاراضي المقدسة للتعرف بنفسه على الاماكن التي وردت في المقالات ، واصطحب معه مهندسا معماريا هو فيرجسون Fergussen ، الذي كان مهتما بطبوغرافية القدس (وخاصة كنيسة القيامة وموقع الهيكل) .

وخلال فترة تزايد الاهتمام بالأراضي المقدسة ، تبرعت البارونة بورديت كوتس Burdett-Coutts عام ١٨٦٤ بمبلغ / ٥٠٠/ جنيه استرليني لتزويد القدس بالمياه (٩) . وكانت اول خطوة لتحقيق ذلك ، وضع مخطط للقدس والمنطقة المجاورة ، قدمتها الى المدير العام لهيئة المساحة العسكرية البريطانية Ordnance Survey ووقع الاختيار على ضابط من سلاح الهندسة الملكية Royal Engineers هو النقيب تشارلس ويلسون . ورافقه في مهمته فريق من سلاح الهندسة الملكية للقيام بالمسح (ايار ١٨٦٤ ـ ايار ١٨٦٥) وتم رسم مخطط تفصيلي للقدس (بمقياس $\frac{١}{٢٥٠٠}$) مع مخططات تفصيلية لقبة الصخرة وكنيسة القيامة وسواها من الاماكن الهامة في المدينة ، كما مسحت المنطقة المجاورة للقدس (بمقياس رسم $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ وقامت دائرة المساحة البريطانية بنشر المخططات والتقارير والصور مع الملاحظات الدقيقة التي احتوت على معلومات هامة . وكان لعمل الكابتن ويلسون قيمة كبيرة للمهتمين بتاريخ القدس والحجر الاساسي الذي بني عليه كشف فلسطين العلمي . وكانت مع الاعمال السابقة هي الحوافز الخارجية لتشكيل صندوق استكشاف فلسطين كما يقول مؤسسو الصندوق .

انشاء جمعية صندوق استكشاف فلسطين ١٨٦٥

شعر بعض المهتمين بموضوع فلسطين بعد نجاح هذه العملية ، ان الوقت قد حان للقيام بعمل اكثر تنظيما بخطوات محددة لانشاء جمعية للاستكشاف العلمي لفلسطين . وأيّد ستانلي مطران وستمنستر جهود (جورج جروف) . وفي ١٢ أيـار ١٨٦٥ عقد اجتماع في قاعة القدس Jerusalem Chamber في وستمنستر برئاسة رئيس اساقفة يورك (وليام تومسون) ، حضره المهتمون بأغراض الجمعية المقترحة وجميعهم من كبار رجال الدين أو اعضاء البرلمان او الـدوقات او اللوردات[١٠] ، واتخـذ القرار بتشكيل رابطة باسم « صندوق استكشاف فلسطين » Palestine Exploration Fund بغرض الكشف عن آثار فلسطين وجغرافيتها وجيولوجيتها وتاريخها الطبيعي . وقد عينّ (جروف) Grove سكرتيرا فخريا للجنة الصندوق ، وعهد الى لجنة فرعية فيها رئيس اساقفة يورك ومطران وستمنستر ، بمهمة وضع بيان يوضع اهداف الجمعية ويدعو الجمهور الى المساهمة المادية لانجاز هذه الاهداف . وفي ٢٢ حزيران ١٨٦٥ عقد اجتماع عام في وستمنستر في Willis's Room برئاسة رئيس اساقفة يورك ، تم فيه تشكيل الجمعية رسميا . وتقدّم رئيس الاساقفة بثلاثة مبادىء محددة يقوم عليها عمل الجمعية وهي : **اولاً** : كل عمل تقوم به الجمعية يجب ان يكون على اسس علمية . **ثانياً** : ان تمتنع الجمعية كهيئة عن الدخول في اي جدل . **ثالثاً** : ان لا تبدأ كجمعية دينية ولا تمارس عملها على هذا الاساس[١١] .

وفيما يتعلق بالهدف الاول ، فكان غرضه ـ من وجهة نظر مؤسسي الصندوق ـ التأكيد على ان تقبل نتائج التحريات والاستكشاف من العالم كما تقبل الحقائق الناتجة من مختبر للعلوم الطبيعية [١٢] . اما الهدف الثاني ، فغرضه ان تقدم الجمعية الحقائق المكتشفة نفسها دون اية استنتاجات[١٣] . اما الهدف الثالث ، فهو ـ كما يقول مؤسس الصندوق ـ لضمان استقلال الجمعية بمنعها من الارتباط بأية عقيدة أو هيئة دينية أو كنسية . والجمعية تطلب اسهام جميع الاشخاص المهتمين بتاريخ بلد يتصل اتصالاً وثيقاً بالديانات الثلاثة ، وللمساعدة على فهم التوراة بشكل أفضل على ان لا تعالج مسألة العقائد الدينية في منشورات الجمعية .

وفي الاجتماع الاول تحدث البعض عن الاعمال المرتقبة فأشار (ليارد) A. Layard (وكان قد انتهى حديثا من حفريات نينوي) عما يمكن ان تلقيه الحفريات في « تلال » الارض المقدسة ، من أضواء على تاريخ وفنون « الامة اليهودية » . كما اشار مارشيسون R. Murchison رئيس الجمعية الملكية الجغرافية الى ضرورة العمل على مسح جغرافي جيولوجي لفلسطين تمهيدا للكشف العلمي للبلاد .

ووضعت اللجنة الفرعية بيانا تمهيديا [١٤] ، اوضحت فيه بتفصيل أهداف الجمعية ، فأكدت اولاً على اهمية البلد الذي يحوي وثائق العقيدة الدينية ، والحاجة الملحّة الى توضيح اشارات وحوادث التوراة لتصبح في مادتها كتابا جديدا بعد ان ظلّت غامضة في كثير من نواحيها ، وضرورة الكشف عن وجه هذا البلد ومناخه ومنتوجاته وعاداته وملابسه وانماط حياته (والتي تختلف في نواحيه المادية عن العالم الغربي) ، وانه بدون المعرفة الدقيقة تظل الوثائق الدينية غامضة . ويمكن الحصول على ذلك بخريطة دقيقة للبلاد والتعرف على الطبوغرافية والكشف عن بقايا الآثار المدفونة ، اي العمل بشكل منظم لما ظل مهملا في السابق او تم بطريقة

مبعثرة وجهود شخصية متفرقة . « ولو بذل في ميدان استكشاف فلسطين نفس الحماس والجهد والمعرفة التي بذلت في قرطاجة وسيرينا ، وهي اماكن ليس لها ارتباطات مقدسة ، فان النتيجة ستكون كسبا لمعرفة هذه البلاد وتعاقب ساكنتها » .

وأشار البيان الى ان الفرصة قد حانت لمثل هذا البحث العلمي بعد الزيارة التي قام بها امير ويلز الى جامع الخليل « وكسر الحاجز الذي اعاق لقرون دخول المسيحيين الى اكثر اماكن فلسطين قداسة » ، وان ما تم عمله باشراف ويلسون يدل على ما يمكن تحقيقه بالمرونة واللباقة ودون اثارة معارضة السكان والسلطات . ويقترح البيان جمع الاموال لتوظيف اشخاص اكفاء للقيام بالمهام التالية :

الآثار : وتقدم القدس حقلاً خصباً في هذا المجال ، اذ أن ما هو قائم فوق سطح الارض سوف يعرض بدقة بعد انتهاء عملية المسح التي يقوم بها ويلسون ، الا ان ما هو تحت سطح الارض لم يكتشف بعد . وستقدم الاعماق التي تقوم عليها المدينة مادة هامة ومفيدة لعالم الآثار وعالم النقود . وكذلك فان البلاد الواقعة وراء المدينة المقدسة مليئة بالمواقع التي لا تقل أهمية بوفرتها وحاجتها للكشف .

العادات والتقاليد : هناك حاجة ملحة لعمل كتاب عن الاراضي المقدسة شبيه بكتاب « لين » عن مصر الحديثة ، يصف بطريقة منظمة ومفصلة عادات السكان وتقاليدهم وطقوسهم ولغتهم ، لتوضيح جملة العادات القديمة التي يتميز بها سكان فلسطين قبل ان تختفي امام موجة العادات الغربية المتزايدة . « وتزول بذلك المعاني الدقيقة لكثير من الاشياء المتطابقة مع التوراة » . ومع انه قد وردت في كتب الرحالة اشارات لذلك الا انها ليست دقيقة ولا منظمة .

الطبوغرافيا :اذ لا يوجد سوى خريطة واحدة لخط الساحل الفلسطيني (خريطة الاميريالية التي تمت مؤخرا) والمطلوب مسح المناطق بدقة مماثلة لما تم عمله ، تحدد فيها المواقع الصغيرة ، ومستويات الاماكن بصورة دقيقة (قامت الجمعية الجغرافية الملكية حتى الآن بتحديد ارتفاع منطقة القدس وارتفاع البحر الميت) ، وكذلك معرفة مسارات الطرق القديمة ومدى مطابقتها للطرق الحديثة ، نظرا لما لها من اهمية بالغة في دراسة التاريخ وفهم الاسس الحديثة التي رسمت عليها حدود الولايات وخط الحدود بين القبائل وتوزيع القرى .

الجيولوجيا : وهذه مسألة مجهولة تماما . فوادي الاردن وحوض البحر الميت ، هما اكثر المناطق الجيولوجية اهمية على سطح الارض ، بالاضافة الى اهمية تفسير حوادث التوراة بمعرفة التغيرات البركانية التي حدثت حول هذه المنطقة خلال العصور التاريخية .

فروع العلوم الطبيعية : علم النبات والحيوان والظواهر الجوية وهي فروع غير معروفة بدقة . بينما اظهرت تحريات العلماء مؤخرا انه يمكن للبحوث العلمية ان تقدم نتائج قيمة . ويتساءل البيان « لماذا يكرس علماء الطبيعة جهدهم وقدراتهم لدراسة غابات اميركا الجنوبية وانهار افريقية ، ولا يكرسونه لدراسة زنابق وأرز وثعالب وغربان الاراضي المقدسة ؟ »

وتؤكد اللجنة في بيانها أن هذا لا يعني اطلاقا ان القضايا المشار اليها لم يجر بحثها أو

الكشف عنها ، ولكن الملاحظ ان اعمال الرحالة والعلماء السابقين ، مع تقدير قيمة ما أنجزوه ، كانت مبعثرة وجزئية ، والنتائج التي توصلوا اليها كانت تتناقض مع بعضها في كثير من الاحيان . لذا ، تقترح اللجنة ارسال بعثة من اشخاص اكفاء بجميع فروع البحث يتمتعون بتفويض كامل من حيث المال والوقت وكل التسهيلات الممكنة ، لوضع تقرير شامل عن فلسطين يقبله الجميع كوثيقة معتمدة ، وسيجري استبقاء كابتن ويلسون في فلسطين عدة اشهر اخرى بعد انجازه عملية مسح القدس ودراسة مستوى البحر المتوسط والبحر الميت ، كما سيجري العمل على توظيف اكفاء آخرين للقيام بالمهام الاخرى .

ادارة جمعية صندوق استكشاف فلسطين

اعلن في الاجتماع الاول عن موافقة الملكة على ان تكون راعية للجمعية (تبرعت بمائة وخمسين جنيها [١٥]) ، وساهمت جامعة اكسفورد (٥٠٠) ، وكمبردج (٢٥٠) ، والرابطة البريطانية (١٥٠) ، ولجنة تحسين سوريا Syria Improvement Committee (٢٥٠) ، والمحفل الماسوني الاكبر (١٥٠) ، وعدد كبير من الافراد (خلال سنوات ثلاثة جمع نحو ٨٠٠٠ استرليني بعضها اكتتاب وكثير منها تبرعات وبلغ مجموع الواردات حتى ١٩١٥ ، ١٣٨٦٥٠ جنيها ، والنفقات ١٣٨٦٥٠ جنيها [١٦] . وكان مؤسسو الجمعية يأملون بانجاز الاهداف خلال سنوات ، ولم يدركوا ضخامة المهمة التي اضطلعوا بها ، لذا أخذت الجمعية فيما بعد تعتمد على الاكتتاب السنوي وليس على التبرعات . كما سعت لضم اعضاء جدد وتوسيع التعريف بأعمال الجمعية . وكانت قائمة المكتتبين تتغير باستمرار ، وكثير منهم كان يرسل المعونة اثناء سير عمليات الاستكشاف فقط . وبلغ عدد اعضاء الجمعية لدى تأسيسها ، ٤٥ عضوا من المهتمين بالكشف عن فلسطين . واصبح عام ١٩١٥ (١٠٥) اعضاء (لم يبق من الاعضاء المؤسسين سوى موريسون ، امين الصندوق) . وتولىّ رئاسة الجمعية عند تأسيسها ، رئيس اساقفة يورك الذي ظل يحتفظ بهذا المنصب حتى وفاته عام ١٨٩٠ ، حيث خلف في هذا المنصب رؤساء اساقفة كنتربري . ومنذ عام ١٨٧٥ ، تقرر تعيين لجنة تنفيذية صغيرة لمدة سنة تجري اعادة تعيينها في الاجتماع السنوي ، وتعقد اجتماعين في الشهر . وكان اول رئيس للجنة التنفيذية هو رئيس اساقفة يورك .

وكانت الجمعية في عام ١٨٦٦ تشغل غرفة في الجمعية الآسوية الملكية Royal Asiatic Society . ثم شغلت ابنية مختلفة حتى تبرع موريسون عام ١٩١٠ بمقر دائم في 2, Hinde Str. Manchester Square كان يحوي الكتب والادوات والخرائط ونماذج وعينات من الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي ، ومجموعات من الآثار الفلسطينية تشكل متحفا فلسطينياً صغيرا ، كان مفتوحاً للمساهمين وللجمهور .

واتسع نطاق الجمعية فأصبح لها ٤٦ فرعا في مختلف انحاء بريطانيا ، لتوسيع الاهتمام بعمل صندوق الاستكشاف وتنظيم لقاءات وترتيب المحاضرات وجمع التبرعات ، كما امتدت الفروع الى بلاد الدومنيون البريطاني والولايات المتحدة الأميركية وفلسطين [١٧] . وخلال السنوات الاولى لنشاط الجمعية ، كانت الرسائل والتقارير تطبع وترسل الى المتبرعين المهتمين بمجريات العمل . وفي عام ١٨٦٩ تقرر طبع الرسائل والتقارير والبحوث في مجلة دورية Quarterly Statement وارسالها مجانا ، واصبحت ناطقة باسم الصندوق ومعترفاً بها في

ميدان البحث الفلسطيني بما تحويه من موضوعات تتعلق بالاراضي المقدسة (١٨) .

عمليات صندوق الاستكشاف

أ ـ الاستطلاع الاولي في فلسطين ١٨٦٥ ـ ١٨٦٦: (١٩)

طلبت لجنة صندوق الاستكشاف من الكابتن ويلسون الشروع بالعمل الذي اقترحته في بيانها التمهيدي ، بالقيام بمسح اولي يمكّن اللجنة من اختيار الاماكن المناسبة لاعمال الاستكشاف في المستقبل ، وكذلك الحصول على معلومات محددة تلقي ضوءا على الموضوعات التي أشير اليها في البيان التمهيدي .

رافق ويلسون الملازم (لفتانت) اندرسون Anderson ، وفريق من سلاح الهندسة الملكية،ونزلت البعثة بيروت في ٢٢ تشرين الثاني ١٨٦٥ ، ثم اتجهت شرقا عبر جبال لبنان وبعلبك ودمشق ، حيث قامت برسم الخرائط وأخذ صور الآثار الهامة ، وسمحت السلطات العثمانية لويلسون بعمل مخطط دقيق لجامع بني امية (كان قد عمل مثيلا له للحرم الشريف) وتقدمت البعثة الى بانياس قرب منابع الاردن حيث بدأت عملية مسح فلسطين في كانون الثاني ١٨٦٦ بالتعرف على المواقع والآثار الهامة وتسجيل الملاحظات الفلكية والظواهر الجوية والطبوغرافية . وتعذّر تحري شاطىء بحيرة طبريا الشرقي بسبب الاوضاع المضطربة بين القبائل ، كما رفض قائمقام طبريا منح البعثة الحماية المناسبة . وتقدمت البعثة عبر تلال الناصرة للتعرف على سهل مرج ابن عامر (يزرعيل) ثم اتجهت نحو نابلس (وقدم القائمقام العثماني حراسة مسلحة أثناء قيام اندرسون ببعض الحفريات في آثار كنيسة بيزنطية في جبل جرزيم) ، وأنهت البعثة عملها في القدس في نيسان ١٨٦٦ .

وقد عرض رئيس اساقفة يورك نتائج عملية المسح التي قام بها ويلسون في بيان عن تقدم العمل Statement of Progress سجّل فيه اهم المعلومات التي امكن للمكتشفين الحصول عليها :

الطبوغرافية : اخذت ملاحظات دقيقة عن التوقيت وخطوط العرض في ٤٩ موقعا بين بيروت والخليل ، وحدد خط السمت من بانياس حتى القدس ، وعلى اساس ذلك تم عمل مجموعة من الخرائط بمقياس رسم (بوصة للميل الواحد) للجزء الاساسي من البلاد بما فيها بحيرة طبريا والجداول المنحدرة الى شاطئها الغربي .

الآثار: تم عمل خمسين مخططا مع رسوم تفصيلية للكنائس والكنس والمساجد والمعابد والقبور ، « وقدمت السلطات التركية في الاستانة وسوريا والقدس كل مساعدة ممكنة ، كما أبدى العرب موقفا وديا » (٢٠) .

أوضحت اللجنة في تقريرها الاسباب التي تدفع القيام بمسح كامل ودقيق لفلسطين ، والبحث العلمي في الآثار « الوثيقة الصلة بالتاريخ التوراتي » . وأشار التقرير الى أنه ما يزال الكثير لانجازه في طبوغرافية المنطقة بين القدس والاردن ، وخاصة شبكة الوديان المنحدرة نحو أريحا التي«عبرتها تحركات شعب اسرائيل»، لذا فوادي الاردن وحوض البحر الميت يحتاجان

الى توضيح يشبه ما قدمته الخريطة الطبوغرافية الحالية بشأن وسط فلسطين ، وكذلك فان المنطقة الواقعة شرقي الاردن تحتاج الى قدر مشابه من الملاحظة العلمية ، ويمكن عندها اعتبار عملية مسح فلسطين قد تمت .

ومع تقدير اللجنة أهمية الابحاث الطبوغرافية والاثرية ، الآ انه لم يكن في نيتها اهمال التحريات العلمية التي وضعها البيان التمهيدي ، لذا ، وبعد الاخذ بعين الاعتبار عملية الاستطلاع الاولى التي قام بها ويلسون ، تقترح اللجنة توجيه جهودها نحو الاهداف التالية :

١ ـ مسح فلسطين الغربية بمقياس رسم يكفي لتوضيح الصفات الجغرافية والطبوغرافية والمدن والقرى « والتلال » (أي : مواقع المدن المدفونة) والبقايا الاثرية .

٢ ـ مسح مشابه للمنطقة شرقي الاردن .

٣ ـ القيام بتحريات في القدس لدراسة تاريخ المدينة القديمة الكامنة الآن تحت تراكم القرون .

٤ ـ الكشف والتنقيب في التلال والروابي المبعثرة بأعداد كبيرة في انحاء البلاد ، حيث تحوي كل منها تاريخ مدينة مدفونة .

٥ ـ التحري في فلسطين عن الجيولوجيا والتاريخ الطبيعي والظواهر الجوية بأسلوب دقيق وعلمي .

ب ـ الاستكشافات في القدس ١٨٦٧ ـ ١٨٧٠ :

أجلت لجنة الصندوق عملية المسح الدقيق للبلاد ، ووجهت بعثتها الثانية نحو المدينة المقدسة « نظرا لأن عددا كبيرا من المتبرعين للصندوق كانوا يعنون بصفة خاصة بأمور مرتبطة بالقدس (٢١) » . وكانت التوجيهات التي اعطيت الى البعثة ، هي ضرورة التوصل الى جواب لبعض المسائل المثيرة للجدل وأهمها (٢٢) :

١ ـ تحديد موقع هيكل اليهود (الذي بناه سليمان وهدمه تيتوس) .

٢ ـ تحديد سنة انشاء قبة الصخرة المشرفة (التي تسمى خطأ مسجد عمر) .

٣ ـ تحديد موقع كنيسة القيامة (هل تقوم على موقع الكنيسة التي انشأها الامبراطور قسطنطين في القرن الرابع) .

٤ ـ تتبع جدران القدس الثلاثة التي وصفها المؤرخ اليهودي يوسيفوس .

٥ ـ تحديد ابواب المدينة القديمة المشار اليها في التوراة وفي كتابات يوسيفوس .

٦ ـ تحديد اماكن اخرى هامة مواقعها الحقيقية غير مؤكدة كمدينة داود وقبرهيرود ، وكانت النظريات المختلفة بشأن هذه القضايا مبنية على آراء المؤلفين الشخصية وعلى اشارات طبوغرافية مبعثرة في التوراة ، وفي وصف يوسيفوس والكتّاب المسيحيين الاوائل ، والحجاج المسيحيين . واعتمدوا على الروايات وكثير منها خاطىء ، ولا بد للتعرف على الحقيقة ـ كما تقول

التعليمات التي وجهتها لجنة الصندوق ـ من معرفة ما هو موجود في باطن الارض وكشف بقايا الابنية القديمة ، ولو امكن اعادة تركيب مخطط البناء كما كان قبل تهديم تيتوس .

وتقدمت لجنة الصندوق عام ١٨٦٧ بطلب الى وزارة الحربية للاستفادة من خدمات الملازم (لفتينانت) تشارلس وارين Warren وهو ضابط في سلاح الهندسة الملكية ، وبمساعي السفير البريطاني في الآستانة بعثت الحكومة العثمانية الى السلطات العثمانية في القدس لتقديم التسهيلات المناسبة الى الاستكشاف . ووصل وارين على رأس فريق من سلاح الهندسة الملكية الى فلسطين في شباط عام ١٨٦٧ واستمر العمل حتى عام ١٨٧٠ .

ونظرا لأن بعض القضايا الهامة التي حددت في مهام البعثة كانت في اماكن قريبة من الحرم الشريف (٢٣) ، كان من الصعب على البعثة القيام بتحرياتها في هذه المنطقة . وتقرر بدء العمليات بتفحص الجدران الخارجية . واثبتت التحريات الاولى ان الجدران الخارجية اضخم من منظرها الخارجي لاختفائها وراء بعض الابنية وتراكمات الاتربة . ووجد أن الطريقة الوحيدة للوصول الى الاساس هي حفر الانفاق والممرات تحت الارض كما يجري في المناجم (٢٤) وللتغلب على اعتراضات السلطات المحلية للاستكشاف قرب منطقة الحرم ، احتال وارين بحفر الانفاق على مسافة بعيدة خارج الجدران ، ثم دفع الممرات تحت الارض نحو الجدار . وقد تمّ فحص الجدار من عدة نقاط وتبين أنه اكثر ارتفاعا مما كان متوقعا ، خاصة عند الزاوية الشمالية الشرقية . كما حفر عدداً من الانفاق على طول وادي Tyropoeon ملاصقا لقوس « روبنسون » ، الذي هو بداية طريق معبد ضخم يمتد من الحائط الغربي لمنطقة الحرم الشريف ملاصقا لزاويته الجنوبية . واكتشف وارين قناة محفورة في قعر الوادي (بعمق ١٢ قدما وعرض ٤ أقدام) كانت تستخدم لجلب المياه الى المدينة السفلى . وقام بفحص البركة المعروفة ببركة سلوان (ويعتبرها موقع مدينة داود) .

ولم يستطع وارين القيام باستكشاف على طول جدار الحرم الداخلي كما فعل في الجدار الخارجي . لكنه اجرى فحصا دقيقا لقبة الصخرة ، ولكثير من الخزانات المحفورة في الصخر لخزن المياه ضمن منطقة الحرم ، كما قام بالعمل في اجزاء أخرى من القدس مضيفا الى المعلومات التي حصل عليها ويلسون فيما يتعلق بالجدران والابواب واقنية جر المياه الى المدينة .

ونشر وارين بعد عودته مجلدا بعنوان « احياء القدس » Recovery of Jerusalem قدم فيه خلاصة لاستكشافاته . وبعد سنوات نشر مؤلفا آخر عنوانه « القدس الدفينة » Underground Jerusalem واهم الكتب التي عالجت حفريات وارين ، هو مجلد القدس في المجموعة المسماة : مذكرات عملية مسح فلسطين الغربية Memoirs of the Survey of Western Palestine الذي نشرته لجنة الصندوق عام ١٨٨٤ ، وارفق بأطلس فيه ٥٠ لوحة ضخمة هي نسخة طبق الاصل لمخططات رسمها وارين . وتفيد دراسة هذا المجلد في فهم تاريخ القدس القديمة ومعرفة التغيرات التي حدثت في المدينة منذ العصور القديمة .

ورأت اللجنة ان كشوف وارين لم تحل النقاط مثار الجدل (٢٥) ، لأنه ليس من المعقول حلّ مشاكل طبوغرافية القدس المعقدة بسبر عدد من الاماكن المتفرقة داخل المدينة وحولها ، الا

انها ـ في نظر اللجنة ـ قد اظهرت مدى الكنوز التي ما تزال مختبئة داخل المدينة وحولها ، بانتظار قدوم بعثة اخرى [٢٦] .

وخلال السنوات التي عمل فيها وارين في القدس ، قام بالتعرف على انحاء اخرى من فلسطين . فقام برحلة الى غزة وعسقلان ومدن كثيرة على ساحل فلسطين الجنوبي ، مسح فيها ٨٠٠ ميل مربع ، كما سافر الى وادي الاردن وشرقي الاردن ولبنان وجمع معلومات هامة من الآثار القديمة للمدن والمعابد ، وأقرت اللجنة ان نتائج بعثته تشكل قاعدة اساسية لدراسة القدس القديمة « وان جميع المهتمين بتاريخ التوراة يدينون بالامتنان للطريقة الدقيقة التي قام بها وارين في استكشافه [٢٧] » .

جـ ـ بعثة الى صحراء سيناء ١٨٦٩ ـ ١٨٧٣ :[٢٨]

بعد انتهاء مهمة وارين ، توقف صندوق الاستكشاف لمدة ٢٠ عاماً تقريباً عن القيام بعمليات تنقيب على مقياس واسع ، وتوجهت اهتماماته الى مهام اخرى .

ونفذت العملية التالية (التي لم يموّلها الصندوق وان كانت من ضمن اهدافه) في المنطقة الصحراوية التي تفصل جنوب فلسطين عن مصر « لمعرفة الطريق الذي سلكه النبي موسى مع بني اسرائيل عند هجرتهم من مصر الى فلسطين وتلقى الشريعة عند جبل موسى » . وقد تقدم بتلر P. Butler رئيس كلية (ألكوم) Ulcome في (كنت) باقتراح لجمع مال يخصص للقيام بعملية مسح سيناء لتحديد نقاط الخلاف التي تتعلق بتاريخ التوراة [٢٩] . وعيّن لامانة صندوق مسح سيناء ميرشيسون R. Murchison رئيس الجمعية الملكية الجغرافية ، وهنري جيمس مدير عام المساحة العسكرية Ordnance Survey. واختير الكابتن ويلسون للقيام بالمهمة الفعلية (بعد عودته من فلسطين) يساعده الكابتن بالمر E. Palmer وهولاند F.W. Holland (السكرتير الفخري لصندوق الاستكشاف) ، وكان بالمر عالما في المشرقيات وفي الطبيعة ، كما استعين بفريق ضباط من سلاح الهندسة الملكية من ساوثامبتون .

وبدأت العملية من السويس في تشرين الاول عام ١٨٦٨ وانتهت في نيسان التالي ، وتمّ مسح دقيق (بمقياس بوصة واحدة للميل الواحد) للمنطقة التي يفترض ان بني اسرائيل قد اجتازوها بعد عبور البحر الاحمر الى المنطقة التي تلقى فيها موسى الشريعة (نحو ٤٠٠ ميل مربع) . وتوصل ويلسون ورفاقه الى ان جبل موسى وليس صربال ، هو المذكور في التوراة . ونشرت دائرة المساحة العسكرية عملية المسح كاملة ، كما قدمت الى صندوق استكشاف فلسطين خلاصة عن العمل بعنوان استكشافات في شبه جزيرة سيناء Explorations in the Peninsula of Sinai ضمنت في مجلد احياء القدس The Recovery of Jerusalem الذي نشر عام ١٨٧٠ اقتصر عمل فريق ويلسون على المنطقة المحيطة لجبل سيناء ولم تشمل تحرياته المنطقة التي تقع الى الشمال الشرقي والتي سار خلالها موسى مع بني اسرائيل بعد تلقي الشريعة (وهي المعروفة بصحراء التيه) .

وقد رأت لجنة الصندوق نظرا لأهمية هذه الصحراء « لدارسي تاريخ التوراة » ارسال بعثة برئاسة بالمر Palmer احد مساعدي ويلسون ، « خاصة وان معرفته بالعربية تؤهله للقيام بالمهمة ، لأن الطريق الذي سيسلكه ، يقع داخل صحراء مجهولة يقطنها بدو رحّل لا ينظرون بودّ

الى الرحالة الاوروبيين» (٣٠). وقد اتجه الفريق من السويس عبر طريق وادي « الغرندل » حتى وصل جبل سيناء ، ثم توقف ثانية عند « نخل » على طريق الحج من السويس الى العقبة . وبعد اجتياز عدة اودية مهجورة وصل وادي « قادس » - ربما تكون قادش برنيا المذكورة في التوراة بأنها بداية سنوات التيه - والى شمال الوادي يقع النقب ، أي جنوب الاراضي المقدسة « والتي أقام بها ابراهيم واسحق مؤقتا » ، ومنها يمر طريق شور Shur ، « وقد يكون الطريق الذي سلكه يعقوب واتباعه » . وقد وجد بالمر في هذه المنطقة عددا من القلاع والكنائس وبقايا خزانات وأقنية ري ، وتفحص عددا من آثار المدن على الطريق الى بير السبع في جنوب فلسطين ومنها الخلصة Khalasa. وذهب في رحلة الى عربة وجبل حور وزار آثار البتراء ثم عاد الى القدس بطريق ديبان Diban (في مؤاب) فأريحا .

وفي القدس اجرى دراسة لتاريخ الحرم الشريف كما يراه المؤرخون العرب (٣١) . وقد نشرت تقارير بالمر عن كشوفه في صحراء التيه في دورية الصندوق عام ١٨٧٠ . كما نشرت بشكل موسع في مجلدين عام ١٨٧١ عنوانهما صحراء الخروج The Desert of the Exodus. وفي نظر اللجنة ، اظهرت المعلومات التي جمعها الحاجة الى مسح هذه المنطقة بطريقة اوسع ، إلا ان الظروف حالت دون القيام بذلك حتى ١٩١٣ (٣٢)

د - مسح « فلسطين الغربية » ١٨٧١ - ١٨٧٧ :

قررت لجنة الصندوق بعد عملية (وارين) في القدس ، القيام بمسح دقيق لفلسطين الغربية (اي : المنطقة الممتدة من البحر المتوسط غربا الى نهر الاردن شرقا) تكون منطلقا لاعمال اخرى من اعمال اللجنة ، وتوجهت بنداء خاص الى الجمهور في حزيران (٣٣) عام ١٨٧١ ، اوضحت فيه الاهداف المرتقبة والاسلوب المقترح للعمل . فعملية مسح فلسطين كما يوضح النداء تبدو الهدف الرئيسي في الوقت الراهن ، نظرا لأن الخرائط المتوفرة لفلسطين ليست دقيقة او كاملة وتحوي كثيرا من الاخطاء (عدا تلك التي وضعها لنش Lynch وفان دي فيلد Van de Velde وويلسون واندرسن ووارين ، والمسح الذي قامت به الاميرالية للخط الساحلي) ، كما ان كثيرا من مواقع التوراة ومواقع الاودية والجبال لم تحدد بعد ولم تثبت خطوط العرض والطول . واستحث النداء اسهام « كل من يرى في التوراة الكتاب المقدس الجدير بالدراسة » ، لأن هدف الخطة الاساسي هو اتاحة الفهم الصحيح للكتاب المقدس وكشف مدى صحته وامانته . وقد اشار النداء الى ان عملية مسح فلسطين تقسم الى قسمين : شرقي الاردن وغربيه ، وستتولى جمعية اميركية مستقلة الجانب الشرقي بينما تتولى اللجنة الانكليزية (اي : الصندوق) المنطقة الغربية تحت إمرة ضباط من سلاح الهندسة الملكية ، ويقدر ان يستغرق العمل عدة سنوات على ان يبقى المساهمون بالصندوق على اطّلاع بسير العمل من خلال الدورية .

اما القضايا التي سيتوجه اليها عمل الفريق فهي : وضع خريطة بمقياس رسم « بوصة واحدة لكل ميل » - وضع مخططات بمقياس اكبر للمدن الاثرية والمواقع الهامة - عمل رسوم ومخططات اكثر تفصيلا للمباني والقبور - اجراء حفريات في الاماكن الهامة - جمع اسماء المواقع القديمة و« الخرائب » والقرى - التقاط الصور - جمع العينات الجيولوجية والآثار -

جمع العينات الحيوانية والنباتية ـ عمل رسومات مجسمة وتصوير الاشياء والكتابات الاثرية والنقوش ، الى غير ذلك .

وبعد جمع المال اللازم (٣٤) ، تقدمت لجنة الصندوق بطلب لوزارة الحربية للاستعانة بخدمات ضباط من سلاح الهندسة الملكية يتولى مسؤولية البعثة ، ووقع الاختيار على النقيب (كابتن) ستوارت R. W. Stewart مع بعض المساعدين. ونزل فريق العمل (٣٥) يافا في تشرين الثاني عام ١٨٧١ ، وبدأ باختيار نقاط ملائمة تشكل اساس المسح الطبوغرافي ، وبعد اصابة ستوارت بالحمى عاد الى انكلترا واستدعي دريك T. Drake من دمشق (وكان قد رافق بالمر في بعثة صحراء سيناء) للانضمام الى فريق المسح بصفته خبيرا بالعربية ومترجما وعالما في الآثار والطبيعة . وظل مسؤولا عن عملية المسح حتى تموز عام ١٨٧٢ الى ان جاء الملازم (لفتنانت) كلود كوندر C. Conder من سلاح الهندسة ليرئس البعثة . وجرت دراسة دقيقة لكل ما له قيمة اثرية وثبتت مواقع التلال التي تغطي مدنا قديمة ، وملئت التفاصيل الطبوغرافية ، وجرى التأكد من الاسماء المحلية الحديثة ، وارسلت تقارير كاملة نشرت في دورية الصندوق لاطلاع المتبرعين على سير العمل قبل نشر المذكرات عند انتهاء عملية المسح (٣٦) .

وبسبب نقص التمويل استغرق العمل فترة اطول مما كان متوقعا ، وحتى نهاية عام ١٨٧٢ ، كان قد تم مسح ١٢٥٠ ميلا مربعا شمل مساحة بين الساحل وخط شمال جنوب من الناصرة حتى القدس . وفي خريف عام ١٨٧٣ تحرك الباحثون الى وادي الاردن لبدء العمل . وبسبب اصابة كوندر ودريك بالحمى قرب أريحا ، توقف العمل حتى شباط عام ١٨٧٤ حيث استؤنف على طول وادي الاردن وحتى بحيرة طبريا . وفي أيار قدم كوندر تقريرا عن العمل في الاجتماع السنوي للجمعية . واثناء غيابه توفي دريك في القدس وحلّ مكانه الملازم (لفتنانت) كيتشنر H.H. Kitchener كمسؤول ثان في قيادة فريق المسح (وكان ضابطا صغيرا في سلاح الهندسة ـ التلغراف الميداني) (٣٧) . وحتى حزيران عام ١٨٧٥ كان قد تم مسح ٤٤٠ ميلا مربعا .

وتقدمت عمليات المسح الى الشمال ، حيث جرت مشادة عنيفة بين افراد البعثة وجماعة من اهالي صفد اسفرت عن اصابة كوندر وكيتشنر (٣٨) ورفع تقرير الى وزارة الخارجية عن طريق القنصل العام في بيروت (كما رفع تقرير تفصيلي الى سلاح الهندسة الملكية) . وتقرر وقف العمل الى ان تتم محاكمة المتهمين ومعاقبتهم . وعقدت المحاكمة في عكا حضرها كوندر وكتشنر كشاهدين ، وسجن المتسببون بالحادث وفرض على اهل صفد ١٥٠ جنيها (٣٩) . وخلال الاجراءات المتعلقة بالحادث ، عكف فريق العمل على اعداد المواد في قاعة ألبرت الملكية ، وتولى ويلسون وجروف تحرير المذكرات ، كما ساعد اندرسون في تحرير الخريطة التي تقرر نشرها في ٢٦ لوحة بمقياس رسم « بوصة للميل الواحد » ، مع نسخة ثانية بمقياس اصغر للرحالة ودارسي التوراة .

وبما أن قسماً كبيراً من الجليل وقسماً صغيراً من الجنوب لم يتم مسحهما بعد (أي : نحو ١٢٠٠ ميل مربع) أعطيت ادارة العملية الى كتشنر (لانهماك كوندر بعملية الاعداد للنشر) ، ووصل الفريق الى صفد في نيسان عام ١٨٧٧ (٤٠) . واندفعت عملية المسح في الجليل بسرعة (في فترة اشتد فيها القلق بسبب الحرب الروسية العثمانية) . وفي ١٠ تموز كان قد تم

مسح ۱۰۰۰ ميل مربع ووضعت المخططات ووصفت القرى والمواقع الاثرية وطبيعة البلاد . ثم ذهب كتشنر مع بعثة صفر الى الجنوب وتمّ مسح ٣٤٠ ميلاً من الصحراء حول بئر السبع وانتهى العمل في ايلول عام ۱۸۷۷ (٤١) .

وفي كانون الثاني عام ۱۸۷۸ ، انضم كتشنر الى كوندر لمتابعة اعداد وكتابة المذكرات ولوحات الخريطة (٤٢) . وقد ترك كوندر العمل في الصندوق في ايار ، واستمر كتشنر في عمله في المتحف حتى ايلول ، حيث كلفته وزارة الخارجية بالاشراف على مسح قبرص (٤٣) (وكان السلطان العثماني قد تنازل عنها في مؤتمر برلين) .

واستغرقت عملية مسح فلسطين الغربية نحو ست سنوات . وبعد الانتهاء من الخريطة ، قامت ادارة المساحة العسكرية Ordnance Survey في ساوثامبتون بتصويرها ونشرت عام ۱۸۸۰ . وبين اعوام ۱۸۸۰ ـ ١٨٨٤ ، نشرت لجنة الصندوق العمل كلاماً تحت عنوان : Survey of Western Palestine شمل سبعة مجلدات :

المذكرات : وهي في ثلاثة مجلدات ، تحوي الرسوم والمخططات والملاحظات والمعلومات التي قام بها ضباط عملية المسح وفيها وصف جغرافي وطبوغرافي للوحات الخريطة وتقرير تفصيلي عن الآثار القديمة وملاحظات عن السكان . **قوائم الاسماء** : وتحوي اكثر من ۱۰۰۰۰ إسم جمعت خلال عملية المسح ونقلت بحروف انكليزية وترجمت . **اوراق خاصة** : وهي اعادة نشر البحوث والاوراق التي ظهرت تباعا في الدورية . **مجلد القدس** : ويعطي تقريرا وافيا عن حفريات وارين ، مع وصف لحفريات وبحوث اخرى قام بها ويلسون وكوندر وجانو (٤٤) Gannean وتشك (٤٥) Schich وسواهما . **الحياة النباتية والحيوانية** : كتبها تريسترام C. Tristram .

وبعد انتهاء عملية المسح ، كتب كوندر تقريرا اكثر تبسيطا لاطلاع الجمهور في مجلد عنوانه : Tent Work in Palestine وفيه شرح للعمل الذي انجز والاساليب التي اتبعت . واعدت طبعة اخرى من الخريطة على مقياس اصغر (٣ بوصة لكل ٨ اميال مربعة) انتهت عام ١٨٨٤ على اربعة اشكال :

فلسطين الغربية : وعليها الاسماء العربية الحديثة .

فلسطين الغربية : وعليها اسماء العهد القديم التي امكن التحقق منها .

فلسطين الغربية : وعليها اسماء العهد الجديد (الانجيل) .

فلسطين الغربية : تبين مصادر المياه وتوزيعها .

واهم النتائج التي اسفر عنها العمل في نظر اللجنة (٤٦) هي **اولاً** : تحديد عدد كبير من الاماكن المذكورة في التوراة لم تكن مواقعها معروفة سابقا (٦٢٢ اسم توراتي في غربي الاردن كان قد تحدد منها ٢٦٢ قبل عام ۱۸۷۰) وتأمل التعرف على عدد اكبر بواسطة(۱۰۰۰۰ إسم حديث حددت مواقعها الخريطة) . **ثانياً** : وصف المظاهر الطبيعية للبلاد لاول مرة بشكل تفصيلي يمكن دارسي التوراة من متابعة احداث ما يقرأون . **ثالثاً** : التعرف على طبيعة البلد

وينابيعها ونباتاتها وحيواناتها وخصوصيتها وعلى تاريخها القديم ، من الآثار المتراكمة التي تعلم مواقع المدن القديمة ، ويمكن الادعاء كما تقول اللجنة « بأن مسح فلسطين الغربية هو عمل ليس له قيمة كبرى في الوقت الحاضر ، بل انه قاعدة علمية لكل كشوف الاراضي المقدسة في المستقبل »(٤٧) .

وخلال عملية المسح ، استطاعت لجنة الصندوق ان تستعين (وبموافقة وزارة الخارجية الفرنسية) بجهود كليرمونت جانو C. Ganneau عالم الساميات والاثري المعروف لتحرّي آثار القدس وفلسطين الجنوبية (كان قد سبق له وهو موظف في القنصلية الفرنسية في القدس ان قام بكشف وتفسير حجر مؤاب) (٤٨) ، كما اكتشف اللوحة اليونانية في القدس (وكانت اصلا في المعبد اليهودي) ، وأجرى كشوفا هامة في القدس أواخر عام ١٨٧٣ ، وزار أريحا وعسقلان وغزة واماكن أخرى في فلسطين الجنوبية ، وجمع قدرا من المعلومات ، وقام زميله المهندس المعماري ليكوم Lecomte باجراء عدد كبير من الرسوم الجميلة للاماكن والابنية ، ونشرت رسائل جانو في دورية الصندوق عام ١٨٧٤ ، ثم نشرت بعد ذلك بشكل موسع في مجلدين عنوانهما : بحث اثري في فلسطين Archaeological Research in Palestine كملحق لمذكرات « مسح فلسطين الغربية » ، وفي المجلدين كثير من الرسوم التوضيحية وقدر كبير من المعلومات عن آثار القدس .

هـ ـ مسح فلسطين الشرقية ١٨٨٠ ـ ١٨٨٢ :

وجهت لجنة الصندوق انظارها الى مسح المنطقة الواقعة شرقي الاردن (فلسطين الشرقية) وكان قد تم الاتفاق على ان تتولى عملية المسح جمعية فلسطين الاميركية American Palestine Society الا انه لظروف عديدة لم تتمكن الجمعية من القيام بذلك ، فقررت لجنة الصندوق عام ١٨٨٠ ارسال فريق عمل مهدت له بنشر بيان يصف نتائج عملية المسح السابقة ويشرح العمليات المقترحة في شرقي الاردن ويطلب جمع المال لمواجهة النفقات وكانت المناطق المزمع مسحها بحسب ما جاء في البيان (٤٩) :

١ ـ منطقة باشان Bashan: وهي منطقة نجدية تمتد من المنحدرات الجنوبية لجبل الشيخ (حرمون) الى جلعاد في الجنوب وتشمل منطقة الجولان وحوران واللجاة .

٢ ـ ارض جلعاد وتمتد جنوبيا حتى نهر ارنون (الموجب) .

٣ ـ مؤاب : واهم مدنها ديبان Diban (حيث وجد حجر مؤاب) .

وكان يتوقع ان يتم مسح شرقي الاردن بسرعة نظرا (٥٠) ، لأن الوضع الجغرافي اكثر ملاءمة . وكلّف الملازم (لفتنانت) كوندر بتوليّ البعثة مع ضباط من سلاح الهندسة الملكية بموافقة وزارة الحربية . ونزل كوندر بيروت في آذار عام ١٨٨١ ، وقام بزيارة بعلبك والتعرف على موقع قادس في منطقة وادي العاصي . ومن حمص عبر الى طرابلس وتتبع الساحل حتى بيروت ، حيث انضم الى فريق المسح بعد وصول ادوات العمل . ووصلت البعثة الى القدس في ٧ أيار ، الا أن الاوضاع القلقة في المنطقة إثر الحرب الروسية التركية ، أخّرت القيام بالترتيبات الكافية لحماية فريق العمل مع الشيخ « قبلان العدوان » . وبدا له ان فرصة العمل قد تكون

افضل في الجزء الجنوبي من « فلسطين الشرقية » . وقد بدأت عمليات المسح في مؤاب ، وابدى كوندر اهتماما خاصا بالآثار الحجرية المتوفرة باعداد كبيرة في شرقي الاردن والبحر الميت ، قام بتصويرها وكتب تقريرا عنها (وهي من نوعين : دولمن Dolmens والمنهر Menhirs)[٥١] ـ وبعد ان قام قائمقام السلط بمنع الفريق من متابعة عملية المسح ، اضطر كوندر ورفاقه الى العودة الى القدس (وكان قد تم مسح ٥٠٠ ميل وجمع قدر كبير من المعلومات) . وفشلت المحاولات التي بذلت في الآستانة لاستصدار ترخيص جديد . وخلال فترة الانتظار شغل كوندر في القدس باعداد المواد التي جمعها للنشر . كما رافق الاميران ألبرت فيكتور وأمير ويلز جورج خلال زيارتهم الاراضي المقدسة ، وقام الاميران بزيارة الحرم الابراهيمي في الخليل ، وباذن خاص من السلطات العثمانية زار الفريق الملكي مغارة المقبلة [٥٢] .

وقد قطع كوندر صلاته بصندوق الاستكشاف بعد قيام ثورة عرابي واعداد الحملة الانكليزية على مصر ، واختير للخدمة في دائرة الاستخبارات Intelligence Department نظرا إلى خبرته بالعربية ومعرفته بأهالي الشرق العربي [٥٣] .

وقد تم نشر المعلومات التي جمعت خلال عملية مسح هذا الجزء من « فلسطين الشرقية » في عام ١٨٨٣ في مجلد عنوانه « مسح فلسطين الشرقية » The Survey of Eastern Palestine يشبه في طبيعته مذكرات المسح السابق . ونشر الكابتن كوندر في العام نفسه ، نسخة اكثر تبسيطا في كتاب ألفه بعنوان Heth and Moab وفيه وصف مسهب لكشوفاته في موقع قادس على نهر العاصي ، وكذلك وصف الآثار الحجرية لعصور ما قبل التاريخ في شرقي الاردن .

ورغم فشل استئناف عملية « مسح فلسطين الشرقية » ، استطاعت اللجنة ان تستخدم خبرات دكتور شوماخر Schumacher الالماني بصفته مهندسا موظفا لدى سكة حديد حيفا ـ دمشق ، فكلّف بعمل خريطة لحوران والجولان تشمل ٣٤٠ ميلا مربعا ، نشرت مع تقارير شوماخر عام ١٨٨٦ في مجلدين عنوانهما : عبر الاردن Across the Jordan ومسح الجولان The Survey of the Joulan وقام شوماخر بعملية مسح تالية (٧٠٠ ميل مربع) في منطقة عجلون الشمالية نشرت مع تقارير عام ١٨٨٩ في مجلد اسمه Abila, Pella and Northern Ajloun [٥٤] ، تشمل مخططات للمعابد والباسِيلكيا والاكربول والكهوف الخ ، يرافقها وصف كامل .

وفي عام ١٨٩٠، نشرت لجنة الصندوق طبعة جديدة لخريطة فلسطين بمقياس رسم $\frac{3}{8}$ بوصة للميل الواحد) تتضمن جميع المعلومات الـتي تحويها عمليات المسح الاخرى . وتمتد الخريطة من بعلبك في الشمال الى قادش برنيا في الجنوب . وقد نشرت في طبعتين : الاولى ، تحوي الاسماء الحديثة فقط . والثانية ، اسماء العهد القديم والجديد مع الاسماء المذكورة في الابوكريفا Apocryph . (١٤ سفرا تلحق بالعهد القديم) ، والمؤرخ اليهودي يوسيفوس والهدف من نشر الخريطة ان توضع بمتناول زائري الارض المقدسة ودارسي التوراة [٥٥]

و ـ البعثة الجيولوجية ومسح عربة ١٨٨٣ ـ ١٨٨٤ [٥٦] :

كان من الاهداف الاساسية التي حددها البيان التمهيدي للجنة الصندوق ، هو التحري

الجيولوجي لفلسطين وخاصة وادي الاردن وحوض البحر الميت (ولم يكن يعرف عنها الا القليل) . وتقرر في تموز عام ١٨٨٣ ، ارسال بعثة لهذا الغرض ، وامكن الاستفادة من خبرات الاستاذ ادوارد هل E. Hull (مدير المسح الجيولوجي لايرلندة) ، وبتصريح خاص عهد الى (الكابتن) كتشنر Kitchener (وكان يعمل مع القوات البريطانية في مصر والسودان) (٥٧) بمرافقة « هل » للعمل على مسح وادي عربة ، المنخفض الممتد من الطرف الجنوبي للبحر الميت ، الى اقصى الطرف الشمالي لخليج العقبة ، لربط عملية المسح الحالي بالعمليات التي تمت سابقا في فلسطين .

غادر « هل » لندن مع فريق العمل في تشرين الاول عام ١٨٨٣ ، وقابل كتشنر في مصر . وفي السويس تمت الاعدادات لعبور الصحراء الى العقبة (٥٨) ، فاتبعوا طريق صرابيط الجمل ، فوادي « نصب » لتفحص الاحجار الكلسية ذات المستحاثات لتحديد عصرها الجيولوجي ، ثم عبروا المناطق الغرانيتيـة في شبه جزيرة سيناء ، ودرسوا التشكل البركاني لسبل موسى والجبال المجاورة التي تتميز عن الحجارة الكلسية والرملية في تلال الشمال . ووصلوا وادي عربة في نهاية تشرين الثاني ، وبدأت عمليات المسح باتجاه البحر الميت ، ومن هناك تحول المكتشفون غربا الى بئر السبع وتل ابو حريري حيث عاد كتشنر الى الاسماعيلية عبر الصحراء (٥٩) ، بينما تابع « هل » ورفاقه الطريق الى غزة فيافا فالقدس . وتوجهت البعثة بعد ذلك نحو وادي الاردن والبحر الميت وهي منطقة لها اهمية جيولوجية خاصة .

وقد عرض « هل » نتائج عملية مسح المنطقة بين جبال سيناء ووادي عربة التي يحدها غربا نجد « التيه » وشرقا جبال آدوم ومؤاب . واعدت البعثة خريطة بمقياس رسم $\frac{٣}{٨}$ البوصة للميل (نفس مقياس الخريطة المصغّرة) ، كما احدثت بعض التصحيحات للخط الساحلي لخليج العقبة وحدود البحر الميت ، وأجرت عملية استطلاع جيولوجي عبر مناطق سيناء والعقبة ووادي عربة وعرض « هل » وصفا كاملا لنتائج بعثته في مؤلف عنوانه : Mount Seir Sinai and Western Palestine نشر عام ١٨٨٥ ، أرفقه بخريطة جيولوجية تشمل المنطقة شرقي مصر (صحراء سيناء وفلسطين) ، كما نشر في عام ١٨٨٦ مجلدا أكثر تفصيلا حول الموضوع نفسه بعنوان : .The Geology of Palestine and Arabia Petroea

وترى لجنة الصندوق ان هذين الكتابين يستحقان دراسة عميقة من الراغبين في فهم التاريخ الجيولوجي للاراضي المقدسة ومعرفة التغيرات التي مرت منذ عصور ما قبل التاريخ . واكثر هذه التغيرات حداثة ، له ارتباط هام بتاريخ التوراة (مثلا : عبور بني اسرائيل البحر الاحمر وموقع سدوم وسواه) .

ز ـ الحفريات في تل حسي (لاكيش) ١٨٩٠ ـ ١٨٩٢ :

شغلت لجنة الصندوق بصورة عامة بعمليات المسح التي تهتم بالصفات الجغرافية والطبوغرافية للبلاد . وبعد ذلك ، قررت اللجنة تولي مهمة كشف باطن الارض ، خاصة وقد لفتت عمليات المسح الانتباه الى التلال المبعثرة في انحاء البلاد والتي هي اكوام تغطي وتعلّم مواقع القرى والمدن القديمة ، ولكن بتعاقب العصور ، لم يبقَ من اثرها شيء ظاهر وسوّت الرياح والامطار جوانب التل (٦٠)

وكان من الضروري قبل بدء العمل الحصول على ترخيص من السلطات العثمانية وفقا للقانون العثماني الذي يحظر عمليات التنقيب الاثرية قبل الحصول على الاذن الرسمي (٦١) وتقدمت وزارة الخارجية البريطانية عام ١٨٨٨ بطلب الاذن من السلطات العثمانية ، واختير للتنقيب موقع هوتل حسي (١١ ميلا شمال شرق غزة) ، وهو موقع المدينة القديمة لاكيش Lachish. وتولى العملية دكتور بتري F. Petrie (خبير الآثار المصرية) ، وساعدته خبرته السابقة في التنقيب الاثري وتحديد الفترات التاريخية بدراسة قطع الفخار في عمله في موقع تل حسي (٦٢) . وقد ارجع تاريخ الموقع الى القرن السابع عشر قبل الميلاد (حيث بدأت الفتوحات المصرية في آسيا ووجد شعب فلسطين ضرورة بناء الاماكن المحصنة) ، وحدد تواريخ الفترات المختلفة لسكنى الموقع حتى عهد نبوخذ نصر . ونشرت نتائج كشوفه في مجلد تحت عنوان « تل الحسي » (لاكيش) عام ١٨٩١ ، وفيه وصف كامل لسير العمل واساليبه في تصنيف الفخار واستخدامه كمفتاح لتوضيح تاريخ الموقع .

وبعد عودة « بتري » الى مصر ، تولى العمل دكتور بلس Bliss (ابن رئيس الجامعة الاميركية في بيروت وله معرفة دقيقة بالعربية وخبرة في التنقيب الاثري وسبق له العمل مع بتري في مصر) ، وحتى كانون عام ١٨٩٢ ، تمّ الكشف عن ثمان مدن متعاقبة مدفونة تحت الاطلال (على عمق ٦٠ قدما) وجرى قياس جدران وابنية كل مدينة بدقة تامة ، كما وضعت مخططاتها وحددت مواقعها الصحيحة في الترتيب التاريخي . واكد « بلس » استنتاجات بتري ، ان لاكيش كانت حصنا للكنعانيين قبل غزو الاسرائيليين فلسطين ، وانها هجرت قبل غزو الرومان . كما استدل من الآثار على العلاقة بين لاكيش وتل العمارنة . وعرض وصفا كاملا (٦٣) لعمله في تل حسي في كتابه « اكمة من عدة مدن » A mound of many Cities نشرته الجمعية في عام ١٨٩٤ ، وهو موضح بالمخططات والرسوم وصور الادوات المكتشفة ، وكانت تل حسي اولى التلال التي كشفت عنها الحفريات بصورة صحيحة واظهرت النتائج اهمية الحفريات من هذه النوع (٦٤) .

حـ ـ الاستكشافات في القدس ١٨٩٤ ـ ١٨٩٧ :

بعد انهاء العمل في تل الحسي ، توجه الصندوق مرة اخرى نحو القدس لمتابعة العمل الذي بدأ به « وارين » (٦٥) . وقد قررت اللجنة اجراء فحص دقيق لبقايا الجدار الخارجي في الجهة الجنوبية من المدينة (وهو جدار وصفه يوسيفوس اثناء حصار تيتوس) . وخوّل التصريح العثماني عام ١٨٩٤ الاذن بالتنقيب في المنطقة الممتدة من غرب سلوان وحتى قدرون شرقا (٦٦) . *وتولى عمليات التنقيب « بلس » يساعده ديكي A. Dickie (استاذ الآثار في* جامعة مانشستر) للقيام بعمل المخططات والرسوم . وقد جرت عمليات التنقيب بواسطة الخنادق والممرات بطريقة مماثلة لطريقة وارين (وان لم تكن بالعمق نفسه ـ ٤٢ قدماً) نظراً لأن جزءاً من الجدار كان مدفوناً تحت الارض . وقد تتبع بلس الجدار الجنوبي للقدس من جبل صهيون حتى وادي قدرون (باتجاه الزاوية الجنوبية الشرقية لمنطقة الحرم) . وحدد مواقع ابوابه كما تعرّف على بعض ابراجه وهو جزء من نظام معقد للتحصينات ذات قيمة اثرية كبيرة .

وقد استمرت عمليات بلس حتى حزيران عام ١٨٩٧ ، حيث انتهت مدة الاذن العثماني (وكما اشترط نص القانون اعيد ملء الخنادق والممرات) ، ونشرت اللجنة وصفا كاملا

لعمليات الحفر في مجلد بعنوان « حفريات القدس ١٨٩٤ ـ ١٨٩٧ » Excavation at Jerusalem 1894 - 1897 موضح بالرسوم والمخططات التي وضعها ديكي Dickie. وفي عام ١٨٩٤ ، توجه بلس ببعثة الى شرقي الاردن تفحص خلالها بعض كنائس مأدبا وابنية اخرى هامة في ديبان وكرك (٦٧) .

ط ـ الحفريات في تل الصافي ، تل زكريا ،
تل الجديدة، تل ساندهانه ١٨٩٨ ـ ١٩٠٠ :

رأت اللجنة متابعة الكشف عن التلال المنتشرة في الساحل الفلسطيني (لتحديد الاماكن المذكورة في تاريخ العهد القديم) ، واهمها تل الصافي (جنوب الرملة) ، الذي يفترض انه موقع مدينة « جات » Gath (المدينة الكنعانية التي ورد ذكرها في التوراة في اخبار الحرب بين الاسرائيليين والفلسطينيين ، كما كانت موقعا هاما في حروب صلاح الدين والصليبيين) . وقد تولى بلس عملية الحفريات يساعده العالم ماكاليستر Macalister. ونظراً لأنه طلب الاذن ، كان لا بد ان يرفق بمخطط مساحته ١٠ كم٢ . فقد اضيف الى المنطقة المقترحة لاجراء التنقيب فيها ثلاث تلال اخرى هي : تل زكريا وتل الجديدة وتل ساندهانة (وهي اماكن هامة في الماضي رغم ان اسماءها غير معروفة) . وقد شرع بالعمل في تشرين اول عام ١٨٩٨ في تل زكريا اولا (في منتصف الطريق بين القدس وعسقلان) . وفي أيار عام ١٨٩٩ انتقل التنقيب الى تل الصافي . وفي تشرين الثاني عام ١٨٩٩ الى تل الجديدة (قرب بيت جبرين) . وفي حزيران عام ١٩٠٠ انتقل مخيم التنقيب الى ساندهانة آخر اربع تلال يشملها الاذن العثماني (ويظن انها موقع مدينة مرش Marissa القديمة) .

وامكن خلال عمليات التنقيب باسلوب حفر الخنادق ، تتبع جدران المواقع وخطوط التحصينات وبقايا الأبنية ، وجرى وضع المخططات ودراسة الآثار والفخار ، بحيث امكن تحديد الفترات التاريخية للموقع وللسكان الذين شغلوه . وبانتهاء فترة الاذن الممنوح في خريف عام ١٩٠٠ ، اغلقت الخنادق والممرات نهائيا وملئت ، وكان بلس وماكاليستر يرسلان بتقارير كاملة عن عمليات التنقيب بين حين وآخر (٦٨)

وبعد انتهاء العمل نشر مجلد عنوانه « حفريات في فلسطين » خلال سنوات ١٨٩٩ ـ ١٩٠٠ Excavation in Palestine during the years 1899 - 1900 موضح بالمخططات والرسوم التي اعدّها ماكاليستر Macalister ، كما اعد دراسة وصفية للفخار والآثار الاخرى . واعد العالم Wunch فصلاً عن مجموعة النقوش اليونانية في ساندهانة .

ي ـ حفريات تل جزاري Jezari
(جزر) ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥ ، ١٩٠٧ ـ ١٩٠٩ :

تقدمت لجنة الصندوق عام ١٩٠١ ، بطلب اذن جديد من السلطات العثمانية لمتابعة العمل بموقع جديد هو تل جزاري (جنوب الرملة عند محطة السكة بين يافا والقدس) وهو احد المواقع القديمة التي امكن تحديدها بدقة . واقدم ذكر للموقع ورد في رسائل تل العمارنة ، وكانت جزر مدينة كنعانية مشهورة قاومت غزو الاسرائيليين واكتسبت اهمية خلال حروب صلاح الدين ضد الصليبيين ، وقد تولى عمليات الحفر فيها (ماكاليستر) في حزيران عام ١٩٠٢ ، بحفر

الخنادق داخل الاطلال ، وتبين من نتائج الحفريات ، توالي فترات متعاقبة من السكنى تعود الى عصر سكان الكهوف والادوات الحجرية . وقد كشف بقايا حصن كنعاني ونفق ضخم يؤدي الى نبع تحت الارض (تقول الروايات التقليدية ان لهذا صلة بقصة طوفان نوح) .

واستغرق التنقيب عن هذا الموقع خمس سنوات في موسمين (٦٩) ، ونشر ماكاليستر نتائج التنقيب في كتاب عنوانه : « اضواء جانبية على التوراة من تلة جزر » Bible Side Lights from the Mound of-Gezer اوضح فيه ما ألقته كشوف « جزر » من اضواء على تاريخ التوراة .

وبانتهاء المرحلة الثانية من عملية التنقيب عام ١٩٠٨ ، كان ماكاليستر قد اضاف قدرا كبيرا من المعلومات الى سجل علم الآثار الفلسطينية . فعمل ٦٠٠٠ مخطط ، ورسم نحو ٥٠٠ صورة ، وأعدّ تقريرا كاملا ضمنه ملاحظات اكتشافه في ثلاثة مجلدات نشرت عام ١٩١٢ تحت عنوان « حفريات جزر » Excavation of Gezer in 1902 - 5 and 1907 - 9. والمجلد الثالث يحوي الوسائل التوضيحية ، وهو من اضخم الاعمال التي نشرت حول تاريخ تل اثري ، ولم تكن « جزر » سوى واحدة من عدة تلال .

ك ـ الحفريات في عين شمس (بيت شمس) ١٩١١ ـ ١٩١٢ :

طلبت اللجنة من ماكاليستر كتابة تقرير عن مواقع تلال اخرى تصلح لمتابعة التنقيب ، واختيرت عين شمس (التي يعتقد انها موقع بيت شمس المذكورة في العهد القديم) ، وتقع قرب محطة دير أبان على خط سكة الحديد بين يافا والقدس جنوب وادي الصّرار ، أحد الطرق الرئيسية بين السهل الساحلي والقدس ، وقد اشير الى المدينة في قائمة البلاد التي فتحها رمسيس الثاني باسم شماشانا Shamashana ، وكانت مدينة كنعانية مشهورة قبل تاريخ الغزو « الاسرائيلي » . ووقع الاختيار على العالم ماكنزي D. Mackenzi (٧٠) لتولي عملية الحفريات نظراً لخبرته في الآثار اليونانية وحفريات كنوسوس في كريت ، ورافقه نيوتن F. G. Newton لعمل المخططات والرسوم . وقبل وصول التصريح العثماني قام ماكنزي ونيوتن برحلة الى مؤاب وآدوم بهدف تفحص آثار احجار ما قبل التاريخ Dolmens Megalithic ، كما عمل قياساً لخزنة بتراء ومخططات دقيقة لها ولمدينة ديبان (حيث وجد حجر مؤاب ١٨٦٨)

وبدأ التنقيب في عين شمس في نيسان عام ١٩١١ ، وتتبع ماكنزي الجدار الذي يحيط بالمدينة القديمة ، ووجد بقايا معبد وثني ودير بيزنطي ونفق لتزويد المدينة بالمياه وقبور محفورة في الصخر ، كما عثر في الطبقات الدنيا على آثار سكنى تعود الى عصور ما قبل التاريخ ، وادوات مختلفة (فخار واختام واسلحة وحلي) من نماذج مصرية او تشبه ما وجد في جزر بحر إيجة. وتمكن ماكنزي من خلال دراسة هذه النماذج تحديد الفترات التاريخية المتتالية . وانتهت عمليات الحفر في شهر كانون الاول عام ١٩١٢ ، واعيدت الارض الى حالتها الطبيعية . ونشرت تقارير ماكنزي في المجلدات السنوية التي نشرها الصندوق في اعوام ١٩١١ و١٩١٢ و١٩١٣ موضحة بالصور ، ويحوي المجلد الاول وصفا للآثار الحجرية في شرقي الاردن وخزنة بتراء (٧١)

ل ـ مسح فلسطين الجنوبية ١٩١٣ ـ ١٩١٤ :

كانت اللجنة قد اتمت بين عامي ١٨٧١ ـ ١٨٧٧ مسح « فلسطين الغربية » ، وهي المنطقة الممتدة بين المتوسط ونهر الاردن . ومن صور وبانياس في الشمال ، الى خط يسير من غزة جنوبيا عبر بئر السبع الى المنطقة المعروفة بالنقب ، أي المنطقة التي تقع بين بئر السبع وخط الحدود المصرية من رفح والمتوسط الى رأس خليج العقبة . وكما تقول اللجنة « هي منطقة يشار إليها في كتب العهد القديم في اخبار الآباء الأوائل ابراهيم واسحق ويعقوب ، واخبار تجول بني اسرائيل في الصحراء ، بعد ان تركوا مصر قبل وصولهم ارض كنعان » . وقد تم الحصول على قدر لا بأس به من المعلومات عن هذه المنطقة في عمليات الاستطلاع السابقة التي قام بهابالمر « هل » و« كتشنر » . إلا انها ، كما تقول اللجنة : « لم تعط ذلك القدر الدقيق من المعلومات التي يتطلبها صندوق الاستكشاف وحانت الفرصة التي تطلعت اليها اللجنة عام ١٩١٣ (٧٢) » .

وفي ذلك العام عهدت وزارة الحربية الى الكابتن نيوكومب S.F. Newcombe والفتاننت (الملازم) جريج Greig ، القيام بعملية المسح في منطقة النقب والمناطق الجنوبية من فلسطين الى الحدود المصرية لمتابعة العملية التي بدأها كوندر وكتشنر . وقد وقع الاختيار على نيوكومب ، نظرا لأنه سبق له مسح شبه جزيرة سيناء من جهة قناة السويس الى الحدود المصرية العثمانية (الفلسطينية) (٧٣) ، وكان يعرف الصحراء بدقة وهو على صلة وثيقة بقبائل المنطقة . وألحق بفريق نيوكومب عالمان بالآثار هما :(وولي) C. L.Woolley ، ولورنسT. E. Lawrence (٧٤) كانا يعملان حينذاك بالكشف عن مدينة كركميش الحثية « جرابلس » شمال سورية على الفرات في بعثة اثرية للمتحف البريطاني .

وقسم عمل البعثة الى موضوعين . الاول : المسح ، الذي يتولاه ضباط من سلاح الهندسة الملكية . والثاني : العمل الاثري ، ويتولاه وولي ولورنس ، وكلاهما باشراف نيوكومب .

بدأت العمليات من غزة في كانون الاول ، وكان لا بد من ربط عملية المسح هذه بعمليات المسح الثلاثة السابقة : اي عملية كوندر في الشمال ، وكتشنر في الشرق ، ولجنة الحدود المصرية العثمانية في الغرب . أي ان المنطقة التي يقترح مسحها ، تشمل نحو ٤٥٠٠ ميل مربع ، تحيطها من الجهات الثلاثة ، عمليات المسح السابقة . وقد توزع العاملون بالمسح الى خمس فرق ، وانتهى العمل في أيار ١٩١٤ ، باستثناء جزء صغير قرب رأس خليج العقبة (رفضت السلطات العثمانية السماح بدخولها ولم يكن لهذا الرفض تأثير كبير ، اذ كان كتشنر قد وضع خريطة لهذه المنطقة خلال بعثة عام ١٨٨٣) ، وتمت بذلك عملية المسح خلال وقت قصير بالرغم من الصعوبات التي واجهتها وكبر المساحة وصعوبة النقل والتموين (٧٥) .

وقد وصل وولي ولورنس غزة في مطلع عام ١٩١٤ ، وقدم لهما وكيل القنصل البريطاني في غزة كنزفيتش Knesevitch المساعدة المطلوبة (٧٦) ، ثم اتجها الى بئر السبع ، حيث تم الاتفاق مع نيوكومب على اسلوب العمل في البعثة. ومن بئر السبع اتبعا طريق « شور » القديم (الذي يقال ان ابراهيم ويعقوب اتبعاه في طريقهما الى مصر) ، ووضعا مخططاً للآثار القديمة وبقايا

المدن البيزنطية خلصه ، والرحيبة ، والعوجة ، وعبده ، وما تحويه من البيوت والكنائس والأديرة والقلاع . وبعد ذلك تقدم العالمان الى سهول القصيمة عبر الحدود المصرية (وهي التي يفترض انها قادش برنيا ونظرا لأنها عقدة مواصلات تؤدي الى مصر والخليل ووادي عربة وايلات ، وبسبب توفر المياه فيها ، وامتداد التربة الصالحة ، فقد جزما بأنها كانت مركز بني اسرائيل خلال تجولهم ٤٠ عاما) .

وقد افترق العالمان عند القصيمة . فاتجه وولي شمالا الى عبده والكرنب ، بينما اتجه لورنس الى وادي لوسان والكنتلة ، ثم الى خليج العقبة ، وبعد ذلك اتجه شمالا الى عربة وجبل الحور فالخط الحجازي عند معان . وقد نشرت نتائج تحرياتهما في المجلد السنوي الذي اصدره الصندوق عام ١٩١٤_١٩١٥[٧٧]، وهو موضح بالرسوم والمخططات والصور ، ونشره هوغارث D.G. Hogarth [٧٨] في الفترة التي توجه فيها وولي [٧٩] ولورنس الى مصر ليقوما بدورهما في مسرح العمليات الشرقية في الحرب العالمية الاولى . الّا انّ الخريطة التي اعدت بعد انتهاء نيوكومب من عملية المسح ، لم تنشر وتوزع بناء على طلب وزارة الحربية . وانتهت بذلك عملية مسح فلسطين قبل ان تتوقف عملية استكشاف فلسطين خلال فترة الحرب [٨٠] .

رأي في صندوق استكشاف فلسطين

لا شك في ان الاشراف البريطاني على عملية استكشاف فلسطين ، كان احد اهداف السياسة الخارجية البريطانية منذ ان بدأت بريطانيا تبدي اهتماما خاصا بالشرق العربي بسبب تجارتها مع الهند . وزاد هذا الاهتمام بعد ان هددت قوى اوروبية اخرى هذا الطريق (احلام روسيا القيصرية ، حملة نابليون ، قوة محمد علي) . ومنذ اواخر ثلاثينات القرن التاسع عشر ، كان احد الاتجاهات التي لجأت اليها الدبلوماسية البريطانية للسيطرة على الشرق العربي يمر عبر فلسطين . ونوقشت على نطاق واسع في الصحافة وفي الاوساط الحاكمة ، قضية تحويل سورية وجزء من فلسطين الى منطقة للنفوذ البريطاني او مستعمرة بريطانية . ولعب صندوق استكشاف فلسطين الذي اسس عام ١٨٦٥ ، دورا كبيرا في تأكيد هذا الاتجاه ، ومع انه انطلق من فكرة دينية بهدف دراسة كل ما يتعلق بالاراضي المقدسة ، الّا ان حقول نشاطاته وما قام به من عمليات التنقيب والمسح ووضع الخرائط ، قد تعدّت المسائل الدينية العلمية ، ولا يمكن ان نعزوها فقط الى دوافع أثرية دينية . فمعظم الذين قاموا بالبعثات والاستكشافات وتولوا عمليات الحفر والمسح ووضع الخرائط ، كانوا من وزارة الحربية البريطانية ومن سلاح الهندسة الملكية بالذات . ومعظم هؤلاء بالرغم من اهتمامهم العميق بالآثار وتعلقهم بتاريخ التوراة وحسهم العميق بجمال الأراضي المقدسة ، كانوا يشيرون الى معلومات تدور حولهم ، ويشاركون في سير الاحداث لخدمة اغراض السياسة البريطانية الخارجية (كوندر ، بالمر ، كتشنر ، وولي ، لورنس ، الخ) . ويقر احد متتبعي عمل كتشنر في فلسطين : « ان كتشنر وهو يقرأ الماضي كان يرسم دروسا للحاضر والمستقبل [٨١] . وان مشاهدته آثار العظمة القديمة دفعته الى التطلع نحو عظمة بلاده وشعبه . وان « رؤيته شعباً قد اعماه تخلفه الحضاري عن رؤية تدنّي مستوى معيشته ، قد أشعره بقيمة العمل الذي سيؤديه ، برفع امثال هؤلاء وملايين معهم نحو مستوى ارفع من الحياة » . ويتساءل الكاتب : هل كان كتشنر وهو يتطلع الى سهل « يزرعيل » ، ويرى مشهد معركة « ارمجدون » ، يتوقع بأن « ارمجدون » جديدة اصبحت

وشيكة الوقوع (٨٢) . وكتب كتشنر نفسه رسالة من القدس يتحدث فيها عن آثار طرق رومانية في منطقة نابلس : « لو أن فلسطين اعيد فتحها للحضارة ، فهذه الطرق ستشكل اساس الخطوط الرئيسية للمواصلات عبر البلاد (٨٣) .

وفي حديثه عن جمال منطقة بحيرة طبريا التي تبدو اليوم خرائب يقول : « ان المستقبل المشرق يبدو على وشك ان يشرق على تلك الارض »(٨٤) .

وازداد نشاط الضباط الانكليز لحساب صندوق استكشاف فلسطين في العمل على كشف ومسح جنوب فلسطين ، بعد ان برزت مشكلة الحدود الشرقية لمصر ، والدفاع عن القناة عام ١٩٠٦ ، واعيد النظر في الاستراتيجية التي تنجم عن كون مصر لم تعد جزيرة محمية ، بل يمكن ان تخترق في ظروف معينة بقوة معادية . وبتخطيط كتشنر (وكان المعتمد البريطاني في مصر) ، قامت بعثة « نيوكومب و وولي ولورنس » بمسح في صحراء سيناء فدّلت الى حد كبير الفكرة السائدة بأن نقص المياه ومصاعب النقل تمنع أي هجوم خطير من فلسطين ، كما ان المعلومات التي قدمتها عن الصفات الطبيعية ووصف الاماكن ومواقع المياه مع الصور التوضيحية والمخططات ، كانت ذات قيمة كبرى اثر نشوب الحرب حين توجهت الانظار كلها الى شمال سيناء . ويمكن القول ان هيئة الاركان البريطانية كانت تملك عند نشوب الحرب خرائط عن فلسطين اكثر بكثير مما يملكه الترك .

وكان العطف البريطاني نحو اليهود ومشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين تحت الحماية البريطانية ، جزءا من سياسة بريطانية الشرقية ، منذ ان صمم بالمرستون على ان يحول بين محمد علي وبين ان يكون حاكم سوريا ومصر معاً(٨٥) ، واكدت نشاطات صندوق استكشاف فلسطين هذه الصلة العملية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فاجتماعات لجنة الصندوق غالبا ما كانت تشير الى فكرة « عودة اليهود » ، كما ان اعماله شجعت بطريقة غير مباشرة عملية الاستيطان اليهودي بتقديم صورة مفصلة عن فلسطين(٨٦) . وكان (لورنس اوليفانت) L. Oliphant (الصحفي البريطاني وعضو البرلمان الذي قام برحلات الى الشرق في سبعينات القرن التاسع عشر بعد مؤتمر برلين) احد المساهمين في بحوث وتقارير دورية الصندوق ، وضع مشروعا لحل المسألة الشرقية بتنمية موارد الامبراطورية العثمانية ، بدعوة اليهود في اوروبا الى الاستيطان في الجانب الشرقي للاردن في النهاية العلوية للبحر الميت (ارض جلعاد) . وفي دعوته التي بناها على عوامل دينية وعاطفية ، تكمن امور سياسية واستراتيجية نظرا للدور الذي يمكن ان تلعبه بريطانيا في سياسة الشرق عن طريق اليهود في هذه المنطقة الحساسة بالنسبة الى المصالح البريطانية(٨٧) .

ويكتب مؤرخ نشاط كتشنر في صندوق الاستكشاف(٨٨) ، بأن كتشنر قد رأى في فلسطين ، الارض التي تخص الشعب اليهودي ، ولمس التطلع العاطفي لهذا الشعب نحو امجاده القديمة ، ورأى في فلسطين استمرار الحياة اليهودية من يوشع وحتى حاخامي القدس وطبريا ، ووجد ان رجال الشعب اليهودي العظام منذ القرون الاولى بعد تحطيم الهيكل وحتى العصور المتأخرة ، لا يجدون راحتهم الاّ في الارض التي يدعونها ارضهم . ورأى كتشنر ان تغيّرا آت نحو فلسطين ، فهل فكر كتشنر أنه بعد « ارمجدون » يمكن لليهود او جزء منهم على الاقل ان يعودوا الى بلادهم القديمة ، من يدري ؟ .

وفي عام ١٨٩٢ نشرت لجنة الصندوق في كتاب بعنوان « المدينة والبلاد » The City and the Land (سلسلة من المحاضرات بعثت في صيف ١٨٩٢)[٨٩] كان ابرزها محاضرتان احداهما القاها ولتر بيسانت Beasant السكرتير الفخري للصندوق ، وكان قد شغل منصب السكرتير الفعلي مدة خمسة وعشرين عاما ، والثانية القاها كلود كوندر وكانت بعنوان مستقبل فلسطين .

وفي حديث بيسانت عن عمل الجمعية قال : « كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد هيرودوس ، كنا نستعيد بلاد داود ونرد الى الخارطة اسماء المدن التي دمرها القائد العظيم يوشع . لقد اعدنا الى القدس مكانتها ومجدها وفخامتها ، لقد اعدنا البلاد (فلسطين) الى العالم بالخارطة وبالاسماء والاماكن المذكورة في التوراة . » عندما وضعت الاسماء في اماكنها اصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش في زحفها » .

وتحدث كلود كوندر في كلمته « مستقبل فلسطين » عن الهجرة اليهودية الى فلسطين وخاصة مدينة القدس فقال : « ان عدد اليهود في مدينة القدس عام ١٩٧٢ ، لم يكن يتجاوز بضع مئات ، اما الآن (١٨٩٢) فقد بلغ عددهم اربعين الفا ، واصبحوا يسيطرون على التجارة في المدينة ، ولم يعد اليهود اقلية مضطهدة وجبانة ، وانما يبدو انهم سادة المدينة » . اعتقد بأنني استطيع القول دون تبجح انه كان لي (ولآخرين غيري) دور ما في هذه الحركة . ففي اول كتاب نشرته بعنوان (مخيمات في فلسطين) ، حاربت الفكرة القائلة ان فلسطين لم تعد قطرا يصلح للسكنى وأدى ذلك الى عرض محرر صحيفة « ذي جويش كرونيكل » على ان اكتب مجموعة من المقالات عن الاستعمار اليهودي في فلسطين . ويبدو ان هذه المقالات لفتت انتباه لورنس اوليفانت وقدمت له سلسلة من الاقتراحات يبدو انه قبلها كأساس ، ولكنه استعاض عن اقتراحي اقامة مستعمرة في الجليل ، باقتراح من عنده هو لاقامة مقاطعة يهودية في جبال جلعاد (البلقاء وعجلون) ... والآراء التي كانت عندما كتبتها قبل اثني عشر عاما تبدو من شأن المستقبل البعيد اصبحت حقائق بفعل الاشخاص الذين يهمهم الامر اكثر من غيرهم ... (ويقصد اليهود) والسكة الحديدية التي اقترحتها عام ١٨٧٨ (من قناة السويس الى دمشق) قد بدأ العمل فيها . والمستعمرات التي اوصيت باقامتها وبزراعة الكرمة والزيتون والحبوب والقطن والفواكه فيها ، قد اخذت تظهر الى حيز الوجود في فلسطين . ويبدو اننا سنرى سكة حديدية في فلسطين في العام القادم ، الامر الذي من شأنه ان يزيد من عدد السكان وينشط التجارة ... هذا الخط سيزيد من احتمال نشوب معركة كبيرة في مجدو ـ ميدان القتال القديم ـ في حالة نشوب حرب لأن السيطرة على خط السكة الحديدية الوحيد في البلاد ستكون الهدف الحتمي الوحيد لأي مخطط استراتيجي ...«أن الخط الحديدي ستتبعه شبكة من الطرق البرية تكون بمثابة روافد له ، وسيفتح جبال جلعاد امام زارعي الكرمة والحبوب (والمقصود هنا اليهود) . اما السكان القلائل من البدو العرب فسينسحبون الى الجنوب والشرق ، وستنمو القرى الصغيرة المتفرقة لتعود مدنا مزدهرة كما كنا نعرف انها كانت بين العهدين المسيحي والاسلامي » .

وعن المستقبل الذي يتصوره لفلسطين قال كوندر : « ان الذي نتوقع ان نراه في فلسطين ـ اذا كان مستقبلها سليما ـ هو زيادة تدرجية في عدد السكان المزارعين ، وانتشار (المستوطنات) المزدهرة . ولن يحول وجود الاتراك دون هذا التقدم وان كان من الممكن ان يحد

من سرعته . وكلما ازداد رأس المال الاوروبي والمستعمرون الاوروبيون في البلاد ، ازداد دخولها في دائرة الدول التي تنبثق من جسم الترك (الامبراطورية العثمانية) . وان اية محاولة عنيفة للتدخل في تطور بلد يستطيع اعالة شعب كبير مزدهر تطورا سليما ، ستؤدي حتما الى حدوث » مشكلة فلسطينية « هائلة ينبغي حلها في كركميش ومجدو (٩٠) . وفي الوقت نفسه ، لا تعتمد عودة اليهود على اي عرق سواهم ، وقد بدأوا يعودون وينوون العودة بأعداد اكبر ، لأن معارضة الحكومات لا يمكن ان تعيق مثل هذه الحركة ، وانما قد تنظمها على نحو يكون فيه صلاحها ... ان نتيجة اي مشروع مهما يكن صغيرا في مظهره لا يمكن حسابها حتى تظهر جلية للعيان . لقد بدأ صندوق استكشاف فلسطين عمله ، وهدفه الوحيد القاء ضوء اجدّ وادق على التوراة ، ومع ذلك فقد اصبح أداة رئيسية لمساعدة اولئك الذين سيكونون سكان البلاد في المستقبل في الحصول على الحقائق الثابتة عن طاقات وامكانيات البلاد . وهكذا قدّم خدمة جليّ بالعمل السلمي المخلص لتحقيق الازدهار وازالة الفقر من البلاد « .

ويقول نورمان بنتويتش في معرض حديثه عن التغلغل الاوروبي في الشرق والاهتمام البريطاني بفلسطين لحماية طريق الهند ، كيف ان فكرة فتح فلسطين للشعب اليهودي قد طرحت بين عامي ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ ، وانها اتخذت شكلاً جغرافياً وعلمياً ، وان صندوق استكشاف فلسطين الذي اسس عام ١٨٦٥ ، قد تولاه ضباط سلاح الهندسة في الجيش البريطاني للقيام بنشاط مزدوج كان مثالاً لهذا التكامل بين المصالح التوراتية والسياسية(٩١) .

---

(١) *Macalister R. A. S.*, A Century of Excavation in Palestine, London 1925, pp. 13 ff.

وكان المؤلف مديرا للحفريات في صندوق الاستكشاف ، ثم استاذا لعلم الاثار السلتية في دبلن .

(٢) *Stravrou, Th. G.*, Russian Interests in the Levant 1843-1848, Middle East Journal, vol. 17. 1963, p. 91.

(٣) *Watson, C. M.*, Fifty Years Works in the Holy Land, A record and a summary 1865-1915, the Committee of the Palestine Exploration Fund, London 1915.

وكان المؤلف رئيس اللجنة التنفيذية لصندوق استكشاف فلسطين عام ١٩١٥ .

(٤) خيرية قاسمية ، » قضية الحدود بين مصر وفلسطين ١٨٤٠ ـ ١٩١٧ وأثرها في جذور الصراع العربي الصهيوني « . بحث مقدم الى المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٨/١٢/٢٧ ـ ١٩٧٩/١/٣ .

(٥) كان ايلي سميث بحكم اقامته الطويلة في سورية كرجل ارساليات اميركي ومعرفته بظروف السكان وخبرته باللغة العربية خير مرشد في هذه الرحلة .

(٦) Macalister, p. 26.

(٧) Macalister, p. 26.

(٨) Macalister, p. 26.

(٩) Watson, p. 15.

(١٠) كان قد نشر اعلان في التيمس ١٩٦٥/٥/٨ بالدعوة لهذا الاجتماع .

انظر : محمد وادي المراش ، بريطانيا : **صندوق الاستكشافات الفلسطينية** ، شؤون فلسطينية عدد ٩ ، ١١ أيار ١٩٧٢ ، ص ١٣٨ نقلاً عن التيمس ١٨٦٥/٥/٨ .

(١١) Watson, p. 18.

(١٢) *Ibid.*, p. 19.

ويقول المؤلف ان قيام ضباط سلاح الهندسة الملكية بقدر كبير من العمل مع مشاركة عدد آخر من المكتشفين العلماء قد اكد التمسك بهذا المبدأ

الاساسي .

(١٣) Loc. cit.

يقول المؤلف انه بمرور الزمن تبينت صعوبة استبعاد عنصر الرأي الشخصي في مطبوعات الجمعية ورغب المتبرعون في التعرف على آراء الاشخاص المبنية على نتائج كشوفاتهم ، وان هذه الآراء والمقالات التي كانت تظهر في الدورية Quarterly Statement والتي بدأ يصدرها الصندوق منذ ١٨٦٩ ، قد اثارت اهتماما كبيرا وأضافت الكثير الى قيمة الاستكشافات ، الا انها نشرت كآراء خاصة بكتابها .

(١٤) Watson, pp. 22-28.

(١٥) تعاقب ملوك انجلترا بعد الملكة فكتوريا على رعاية الجمعية . وقد خلفها ادوار السابع الذي كان يعرف الاراضي المقدسة شخصيا منذ ان كان امير ويلز وسافر عبر سيناء وفلسطين ١٨٦١ . ثم اصبح جورج الخامس، راعيا عام ١٩١٠ وكان قد زار الاراضي المقدسة ١٨٨٢ مع شقيقه الامير البرت فيكتور ، امير ويلز .

(١٦) تدل ميزانية الصندوق على أن تكاليف النشر هي اكثر من حصيلة المبيعات ، ذلك ان قسما كبيراً من منشورات اللجنة كان يقدم مجانا .

(١٧) في عام ١٩١٠ عينّ ماسترمان E. W. G. Masterman سكرتيرا عاما فخريا للّجنة في فلسطين وكان مسؤولا عن البعثة الطبية لجمعية يهود لندن ، وقد اجرى عدة جولات ودراسات مع عالم الآثار ماكاليستر Macalister عن سكان فلسطين في العصر الحديث نشرت في دورية الصندوق .

(١٨) وجدت جمعيات أجنبية اخرى مماثلة بنشاطها لصندوق استكشاف فلسطين ، إلا ان هذه الجمعيات لم تنشر سوى القليل بالقياس الى ما نشره الصندوق ، كما أنها عنيت بأمور تقع على سطح الارض ويمكن الوصول اليها بدون عمليات الجو . ففي عام ١٩٧٨ بدأت الجمعية الالمانية Deutsche Palastina-Verein بنشر مجلة تحوي مواد متفرقة لها علاقة بفلسطين ، وكذلك كانت الجمعية التونسية Ecole Biblique والتي يديرها اساتذة من علماء الدومينكان تنشر منذ مدة مجلتها الدورية Le Revue Biblique وتحوي موضوعات من النقد التوراتي والتاريخ الكهنوتي والآثار الفلسطينية . وكذلك فقد ادى اهتمام روسيا الديني والفكري المتزايد في البلاد المقدسة الى انشاء جمعية فلسطين الامبراطورية الارثوذكسية عام ١٨٨١ Imperial Orthodox Palestine Society اهدافها : زيادة المعرفة بالاراضي المقدسة ومساعدة للارثوذكس العرب ، واخذت بنشر مجموعات من الاعمال العلمية باسم مجموعة فلسطين الارثوذكسية Sbornik فيها مصادر اولية للاراضي المقدسة واماكنها الدينية خلال فترة الحكم البيزنطي والاسلامي .

(١٩) Watson, pp. 31-40.

(٢٠) Watson, p. 38.

(٢١) Macalister, p. 31.

يرى المؤلف ان التوجه المبكر للكشف عن المدينة المقدسة هو خطأ اساسي ، اذ كان يجب التوجه الى مواقع اقل اهمية في البلاد والعمل فيها بدقة لمعرفة صفاتها العامة وتاريخ الآثار فيها ، ذلك لأن عملية التنقيب تحدث تخريبا في بعض الاحيان . والاجدى أن يتدرب المنقبون على اسلوب التنقيب في مواقع اقل اهمية .

(٢٢) *Ibid*. p. 32.

يرى المؤلف ان هذه التعليمات قد اعطيت بطريقة خاطئة ، اذ يفترض فيها ان تقدم الحفريات المقترحة حلا نهائيا لنقاط الجدل المتعلقة بالاماكن المقدسة ، والخطأ الاساسي لا يكمن فقط بضخامة التوقعات ، بل بوضع برنامج محدد سلفا ، لأن المنقّب الحقيقي يتوجه الى موقعه المختار ، بهدف واحد هو أن يجد ما يحويه هذا الموقع ، لا أن يبحث عمّا يجب ان يحتويه هذا الموقع .

(٢٣) Macalister, p. 35.

ويدّعي المؤلف ان الجميع يقرّ بأن الحرم الشريف يشغل موقع معبد سليمان .

(٢٤) *Ibid*,

يرى المؤلف ان هذا الاسلوب كان مكلفا وبطيئا وخطرا ، كما انه لا يمس الاّ جزءا صغيرا من التراب ، فلا يمكن من دراسة الترتيب التاريخي . وهذا الاسلوب لا يكون ناجحا الاّ اذا كشف البناء كله وعملت شبكة كاملة من الانفاق .

(٢٥) اثبت وارين ان الهيكل لا يمكن ان يكون في الجانب الجنوبي الغربي لمنطقة الحرم كما كان فيرجسون Fergusson يقول ، بل يجب ان يكون عند الموقع الذي تشغله قبة الصخرة الآن ، واما الجانب الجنوبي من منطقة الحرم فيبدو ان هيرود قد اضافه .

(٢٦) Macalister, p. 38.

(٢٧) Watson, p. 52.

The Desert of the Exodus.

(٢٨) وتسميها لجنة الصندوق صحراء الخروج

(٢٩) Watson, p. 54.

(٣٠) *Ibid*. p. 58.

لم يستعن بالمر بالخدم او التراجمة ، وكان حراسه اصحاب الجمال التي يستأجرها ، وكان يستبدلهم اثناء تنقله من منطقة الى اخرى بين القبائل البدوية لتجنب المتاعب .

(٣١) Quarterly Statement, 1871, p. 107.

(٣٢) Watson, pp. 62-64.

عاد بالمر ثانية الى الصحراء في ظروف مختلفة وذلك عام ١٨٨٢ ، اثناء الاعداد لارسال الحملة البريطانية الى مصر . وقد اعتبر مسألة هامة ضمان تأييد القبائل البدوية أو سكوتها وعدم تعرضها للقوات البريطانية بشكل يهدد امن القنال .ونظراً الى معرفة بالمر بأمور هذه القبائل ، كلّفته الحكومة البريطانية بالاتصال بشيوخ القبائل لاجراء الترتيبات الضرورية لأمن القنال » وهو عمل غير عادي لاستاذ جامعي « . وقد وجد بالمر ضرورة الاتصال بالقبائل على الجانب الفلسطيني ، فاتجه بحرا من بور سعيد الى يافا ثم غزة ، واجرى اتصالاته مع اصدقاء قدامى من قبائل ترابين والتياهة ، وعبر الصحراء نحو السويس لمقابلة شيوخ آخرين ، ثم قدم تقريرا الى الاميرال وليام هويت Hewitt قائد الحملة وطمأنه بنجاح مهمته وانه لا يوجد ما يخشاه من العرب بشأن القناة . وبعد احتلال القوات البريطانية للسويس ، عينّ مسؤولا عن الترجمة ومعه جهاز كبير ، وتقرر ان يقوم ببعثة اخرى الى الصحراء ومعه ضابطان بريطانيان ، وبعد مغادرته آبار موسى (٨ آب ١٨٨٢) هاجمته بعض القبائل العربية عند وادي سدر فقتل الثلاثة . ويتساءل Watson هل كان ذلك بغرض النهب ام بتوجيه من الحزب الثوري ؟ لا يدري ، الا انه يضيف بأن العقوبة التي تلت الحادث » لن ينساها بدو صحراء سيناء « وان الخسارة التي لحقت بالصندوق بالغة ، لانه كان ملمّا بالعربية وبعادات وطبائع السكان العرب .

(٣٣) Watson, pp. 65-70.

(٣٤) قدر النداء تكاليف البعثة بما فيها نشر تقارير الضباط ووضع الخرائط وسواها ، بما لا يقل عن ١٥ الف جنيه . ولدى الصندوق اكتتابات سنوية ٢٠٠٠ جنيه ، وكان لا بد من جمع مبلغ ٧٠٠٠ جنيه موزعة على اربع سنوات .

(٣٥) كان فريق العمل يتألف من ٥ اوروبيين و٦ من المواطنين(خدم ومساعدين) وجندي للحراسة من قبل السلطات المحلية . ومع الفريق ٨ خيول و٦ جمال و٧ بغال .

(٣٦) Quarterly Statement, 1972, 1873, 1874, 1875, Letters and Reports of the Survey of Palestine (Condor and Drake).

(٣٧) Diaches, S., Lord Kitchner and his work in Palestine, London 1915, pp. 15 .

والكتاب هو نص محاضرة القاها المؤلف في جمعية jew's College Union Society خلال الحرب العالمية الاولى وكان كتشنر وزير الحربية . يذكر المؤلف ان سبب التحاق كتشنر بالعمل هو » ميوله العلمية وتلهفه للقيام بعمل يتيح له استخدام خبرته كمهندس ، الا ان السبب الاكثر عمقا هو حبه للتوراة وارض التوراة مما دفعه الى التعرف على الارض المقدسة ومسحها والتنقيب في كل زاوية منها ، وربما ايضا لرؤية امكانياتها المستقبلية وهو اغراء لم يستطع كتشنر ان يقاومه « .

(٣٨) في تقرير كتبه كوندر (واكمله كتشنر) بعث به من جبل الكرمل في ١٥ تموز عام ١٨٧٥ ، انه بعد الاعتداء وصل ضابط وعدد من الجنود ومعهم وكيل القنصل البريطاني ، وعندها اختفت الاسلحة والمهاجمون ، ويقرّ كوندر بخدمات المستشفى اليهودي في صفد لفريق المسح .

Quarterly Statement, 1875, pp. 195-196.

(٣٩) رفض كتشنر المبلغ فزيدت الغرامة الى ٢٧٠ جنيها تبرع بها الى صندوق الاستكشاف . انظر المراش ، صندوق الاستكشاف ، ص ١٩٩ نقلا عن كتاب :

The City and the Land P. E. F. London, 1892.

(٤٠) في تقرير بعث به كتشنر بعد عودته من فلسطين نشرته Quartery Statement, 1877 pp. 70-72 يصف دخوله صفد في ١١ نيسان ، حيث خرج القائمقام والقاضي ووكيل القنصل البريطاني

وعدد من الاتباع على مسافة مسيرة ساعة ونصف ، ودخل بموكب الى السرايا وبعد تناوله القهوة حضر كل الحاضرين في المجلس حفل اقامة مخيمه قرب صفد . ويعلق مؤلف كتاب Lord Kitchener and his Work in Palestine, p 33 بقوله : « نرى هنا كتشنر الفاتح » .

(٤١) Ibid., pp. 50-55.

في تقرير كتبه كتشنر من مخيمه في القدس في ١٢ تشرين اول ، عام ١٨٧٧ ، يعلم فيه انتهاء خريطة فلسطين من « دان الى بير السبع » ، ويصف عمله في الصحراء بين غزة وبير السبع ، ويعرف الاسماء الحديثة بالاماكن التوراتية ، ثم يصف رحلة العودة من بير السبع الى القدس واصطدامه بعدد من الفلاحين .

(٤٢) كان كتشنر قد احضر معه ٥٠ صورة من فلسطين اختار منها ١٢ صورة لها علاقة بالتوراة نشرها في مجلد واحد مع وصف لها بقلمه ، وعنوان المجلد :

Lieutenant Kitchener's Guinea Book of Biblical Photographs. See, Quarterly Statement, 1878, p. 134.

(٤٣) عبرت اللجنة التنفيذية للصندوق في اجتماعها السنوي ١١ حزيران عام ١٨٧٨ عن تقديرها لعمل كتشنر في وقت كانت البلاد مهددة بالقلاقل ولم توجد اية مقاومة للاهالي ، الاّ حين هوجم كتشنر بالحجارة في شوارع نابلس لمنعه من تنفيذ اقتراحه باصلاح بير يعقوب .

Diaches, S., p. 69, and Quarterly Statement, 1878, p. 108.

(٤٤) Quarterly Statements, Letters and Reports, 1874, pp. 3, 7, 80, 89, 98, 104, 135, 147, 158, 167, 261, 269, 275.

(٤٥) Quarterly Statement, 1879, p. 187.

(٤٦) كلفت عملية المسح ١٧ ألف جنيه تقريبا بزيادة ٢٠٠٠ جنيه عن التقدير الاولي واسترد معظم النفقات من بيع الكتب والخرائط .

(٤٧) Watson, p. 179.

(٤٨) Quarterly Statement, Letter to the Times on Moabite Stone, 1870, p. 175.

(٤٩) Watson, pp. 81-82.

(٥٠) قدرت تكاليف البعثة بنحو ٣٠٠٠ جنيه سنويا .

(٥١) الدولن هو حجر كبير مسطح فوق عدد من الحجارة المنصوبة ، والمنهر هو نصب حجري عمودي Quarterly Statement, 1881, pp. 158, 275 ،وقد اظهرت الكشوف التالية ان هناك عددا كبيرا من هذه الحجارة موجودة في الغرب ، الاّ انها كانت مغطاة بأكوام الاطلال كما في تل جزاري وبيت شمس .

(٥٢) Report on the Visit of their Royal Highnesses Prices Albert Victor and George of Wales to the Hebron Haram on 5th April, 1882. Quarterly Statement, 1882, p. 197.

(٥٣) Watson, p. 86.

ويدعي المؤلف ان الحملة الانجليزية ارسلت الى مصر لاعادة الأمن بعد قيام ثورة عسكرية فيها .

(٥٤) Pella هو المكان الذي تراجع اليه مسيحيو القدس قبل حصار مدينتهم على يد تيتوس .

(٥٥) ابدت اللجنة بعد ذلك رغبتها في اصدار خريطة نافرة بالجص ، تظهر الصفات الطبيعية للبلاد بطريقة اكثر وضوحاً . وتولى القيام بها ارمسترونج (الذي عمل بالمسح مع كوندر . ثم اصبح سكرتيراً مساعداً للجنة الصندوق) بعد سبع سنوات بالمقياس نفسه (٣/٨ البوصة للميل وبالمساحة نفسها من بعلبك حتى بير السبع (ابعادها ٧ اقدام و ٦ بوصات طولا و٤ اقدام عرضا ووضعت في متحف اللجنة . كما عرضت صور منقولة عنها للبيع وخاصة للمكتبات الجامعية والمؤسسات العامة . وفي عام ١٩٠٢ عملت خريطة بحجم اصغر لاستخدامها بالمدارس (مقياس بوصة لكل ١/٤ ميل ابعادها ٣ اقدام و ٦ بوصات طولا و ٢ قدم و ٦ بوصات عرضاً) ، وكانت ذات قيمة للاساتذة ودارسي التوراة .

(٥٦) Watson, pp. 91-98.

(٥٧) كان كتشنر يتنقل بين مهمات في الخارج (قبرص ومصر والسودان) ويعود ثانية الى اعمال الصندوق .

(٥٨) كتب كيتشنر الى لجنة صندوق الاستكشاف في ١٣/١/١٨٨٤ بعد ان تمت عملية المسح رسالة من العباسية نشرت في Quarterly Statement,

1887, pp 136-7 يقول فيها انه مر بكثير من القبائل العربية واستقبل بوصفه موظفا مصريا باسم : عبد الله بيه اذ انه كان يتقن العربية كأهل البلاد .

(٥٩) Letters on the Survey, Quarterly Statement, 1884, pp. 136-202. ويقول مؤلف كتاب Lord Kitchner المذكور سابقا ص ٢٧ « ان كتشنر مسح خلال شهرين شبه جزيرة سيناء والبلاد الواقعة جنوب البحر الميت وصعد جبل سيناء وجبل حور . وقد لا يوجد شخص سواه يعرف منطقة الحدود المصرية الفلسطينية كما يعرفها » .

(٦٠) Macalister, p. 40.

(٦١) يقضي الاذن بوصف المكان المقترح للتنقيب فيه بدقة مع تقديم مخطط لمسافة ١٠ كم (٤ اميال مربعة) يحضر التنقيب خارجها . ويصدر التصريح من متحف الآثار في الآستانة الذي انشىء عام ١٨٥٠ .

(٦٢) Quarterly Statement, 1892, p. 114. Note on the Results at Tell El-Hesy.

(٦٣) Quarterly Statement, 1891, 1892, 1893, Reports of the excavation at Tell Hesy.

(٦٤) حين انتهت مدة التصريح العثماني كان ثلث التل قد تم التنقيب فيه حتى الصخر .

(٦٥) في الفترة بين عملية وارين وعملية الاستكشاف الاخيرة كانت لجنة الصندوق تنتهز كل فرصة لتنشر في دوريتها Quarterly Statement اي كشف يقوم به احد العلماء في القدس . وكان اهم تلك الكشوف ما قام به العالم الفرنسي جانو C. Ganneau ونشرت نتائج كشوفه في المجلد الاول من Archaeological Research وعالم آخر سويسري هو دكتور تشك C. Schick عمل في القدس بين ١٨٤٦ ـ ١٩٠١ كمهندس معماري ووكيل جمعية يهود لندن Jews Society London ومدير مدرسة الصناعة للشباب اليهودي . وكان مهتماً بالآثار وتاريخ مدينة القدس . وقدّم الى ويلسون عام ١٩٦٤ مساعدات قيمة اثناء عملية المسح نظرا لمعرفته بالامور المحلية وبالعربية وعلاقته بالسكان . وكان يراقب بشكل خاص مستويات الصخور التي بنيت عليها المدينة ويتابع كل عمليات تهديم البيوت القديمة او حفر اساس البيوت الحديثة . ويعمل مخططات لكل ما يكشف تحت الارض . وقد نشر في دورية الصندوق نحو ٢٠٠ تقرير وبحث جميعها موضح بالمخططات والرسوم عن آثار القدس (منها المستويات الصخرية في القدس ، الجدران القديمة ، الابنية المجاورة لقبة الصخرة ، ابنية منطقة الحرم ـ الخ) .

(٦٦) كانت شروط الاذن تقضي بحظر الحفريات في المناطق المجاورة للاماكن المقدسة او المنشآت العسكرية ، وتوجب نقل الموجودات الى متحف الآستانة ، على ان يكون لعالم التنقيب كل الحقوق العلمية في النقل والتوضيح والنشر . ويرافقه ممثل للحكومة لنقل حصيلة التنقيب بعد انتهاء الملاحظات العلمية . Macalister, p. 54

(٦٧) Quarterly Statement, 1895, p. 203, Narrative of an Expedition to Moab and Gilead.

(٦٨) Quarterly Statement.
Tell Zakaria, 1899, pp. 10, 89, 170,
Tell es-Safi, 1899, pp. 188, 317, 1900, p. 16.
Tell ej-Judiedeh, 1900, pp. 87, 199.
Tell Sand Hannah, 1900, p. 319.

(٦٩) Quarterly Statement, Macalister's Reports, Excavation of Gezer, 1902, 1903, 1904, 1905, 1907, 1908.

(٧٠) كان ماكاليستر قد عين استاذا للآثار السلتية في دبلن .

(٧١) بانتهاء عملية التنقيب في بيت شمس ، انتهت عمليات التنقيب في فلسطين في الفترة التي سبقت الحرب الاولى . واستحال الاستمرار بعمليات التنقيب خلال الحرب . Macalister, p. 10 وقد ظل صندوق الاستكشاف حتى نهاية القرن التاسع عشر هو الهيئة الاجنبية الوحيدة التي تعمل في ميدان التنقيب عن الآثار .

ومنذ اواخر القرن ، دخلت دول اخرى في تنافس ودي مع لجنة الصندوق ، فقام العالم الالماني النمسوي سيلين E. Sellin عام ١٩٠٢ ، بطلب اذن للحفر في تل تنك Taanak ، وهو موضع مدينة Taanach . ونتيجة لزيارة الامبراطور الالماني لفلسطين عام ١٨٩٨ ، ارتبط اسم العالمين الالمانيين Watzinger و Kohl بهذه الزيارة . اذ قاما مع العالم الالماني ثيرش Thersch بالكشف عن مواقع

الكنس القديمة في الجليل (وكانت هذه الكنس قد لفتت انظار كيتشنر خلال عملية مسح فلسطين الغربية) . وتولى شوماخر برعاية الامبراطور الالماني ، التنقيب في موقع تل المتسلّم (مجدو) لمصلحة Deutsche Paiästina-Orient- Verein وبالتعاون مع Gesellschaft كما اختارت اميركا منطقة جبال السامرة حقلا لعملياتها ، واشرف على العمل الدكتور ليون P. G. Lyon ، ودكتور ريسنر G. Reis-ner باسم جامعة هارفارد .

(٧٢) كان كتشنر قد اصبح المعتمد البريطاني في مصر منذ عام ١٩١١ ، وكان مع بعض الدوائر العسكرية في بريطانيا قد وجه الأنظار نحو مشكلة الدفاع عن القناة ضد اي هجوم من الشرق ، بعد تغير الاوضاع في الدولة العثمانية اثر هزيمتها في البلقان واحتمال بحثها عن مجال جديد في مناطق جنوب سوريا والحدود المصرية . وعمل كيتشنر على الدعوة لدى الدوائر الرسمية ، الى فكرة ، انه في حال تجزؤ الدولة العثمانية يجب ان يبذل جهد لفصل سوريا الجنوبية شمالا الى حدود يافا وعكا لتشكل كيانا منفصلا تحت النفوذ البريطاني .

Kedourie, E., England and the Middle East, London 1956, p. 134.

(٧٣) وكان ذلك اثر ازمة الحدود المصرية الفلسطينية بين السلطات في مصر والدولة العثمانية عام ١٩٠٦ .

خيرية قاسمية : قضية الحدود بين مصر وفلسطين ، البحث المشار اليه سابقاً .

(٧٤) لعب ثلاثتهما دورا هاما في مسرح العمليات الشرقية خلال الحرب العالمية الاولى .

(٧٥) Watson, p. 150.

يقول المؤلف ان القبائل البدوية وخاصة العزازمة لم تبد معارضة كبيرة.

(٧٦) لعب كنزفيتش دورا هاما في تشجيع عملية شراء الاراضي لمصلحة الاستيطان الصهيوني في مناطق فلسطين الجنوبية .

خيرية قاسمية : قضية الحدود بين فلسطين ومصر ، البحث المشار إليه سابقا .

وقد اسهم كنزفيتش في نشاطات صندوق الاستكشاف في تقرير عن كشف تابوت حجري في غزة .

Quarterly Statement, A Sarcophagus at Gaza, 1910, p. 294.

(٧٧) كان نيوكومب ولورنس يزودان مجلة الصندوق بتقاريرهمااثناء عملية المسح في الصحراء .

Quarterly Statement, Newcombe Reports, 1914, p. 114, 1915, p. 130 Lawrence Desert Surveys, 1915, pp. 61-2, 121, 130.

(٧٨) كان عالماً في الآثار ومستشرقاً ، وأحد رجال المكتب العربي الذي تأسس في القاهرة عام ١٩١٦ للاشراف على تسيير السياسة البريطانية في الشرق العربي ، وكان هو غارت من متنفذي هذه السياسة خلال الحرب حول العلاقة مع الشريف الحسين .

(٧٩) ارتبط اسم وولي عام ١٩١٥ بشبكة التجسس الصهيونية التي تأسست في فلسطين (في مستوطنة زخرون يعقوب قرب عتليت) لحساب القوات البريطانية ، وقد اسر وولي حين فجرت السفينة التي كان على ظهرها ، اثناء محاولته اخذ معلومات من افراد الشبكة على الشاطىء الفلسطيني .

Engle, A., The Nili Spies, London, 1959.

(٨٠) لم يتوقف اصدار دورية الصندوق خلال الحرب ، وكانت تنشر مواداً سبق واعدت قبل الحرب ، وقد عاد صندوق الاستكشافات الى نشاطاته في فلسطين بعد انتهاء الحرب ، وأخذ يعمل بالتعاون مع المدرسة البريطانية للآثار في القدس British School of Archaeology . وحتى الوقت الحاضر ، ما زال صندوق الاستكشاف قائما في مقره القديم الذي اهداه اليه « موريسون » ، (وكان قد عمل في الصندوق مدة ٥٦ عاما) ، ولا تزال مجلته تصدر بالعنوان نفسه ، وان اصبحت نصف سنوية ، وتحوي في صفحتها التعريف نفسه « صندوق استكشاف فلسطين : جمعية لدراسة الآثار والطبوغرافية والجيولوجيا والجغرافيا الطبيعية والعادات والتقاليد في البلاد المقدسة دراسة دقيقة ومنظمة لتوضيح التوراة . راعية الصندوق : الملكة اليزابت الثانية . الرئيس : رئيس اساقفة كنتربري نائب الرئيس : رئيس اساقفة يورك » .

(٨١) Daiches, S., p. 59.

(٨٢) Ibid., p. 86.

(٨٣) Ibid, p. 61. Also Quarterly Statement, 1878, p. 63.

(٨٤) Daiches, S., p. 71.

(٨٥) اقترح السياسي الانجليزي الدوق شافتسبري

في رسالة الى بالمرستون في ٢٥ ايلول عام ١٨٤٠ « لو تمعنا في مسألة عودة اليهود في ضوء بعث فلسطين او تحويلها الى مستعمرة ، لرأينا ان ذلك هو ارخص واسلم طريق لتأمين كل ما هو ضروري لهذه المنطقة القليلة السكان » .

N. Sokolow, The History of Zionism, Londón, 1914, vol. 11, p. 230

(٨٦) من الامثلة تقارير كوندر التالية في مجلة الصندوق : The Present Condition in Palestine (reprinted from the Jewish Chronicle, 1879, pp. 6-8 The Colonization of Palestine, 1880, p. 116.

(٨٧) Oliphant, L., The Land of Gilead, Edinburgh, 1880.

(٨٨) Diachesn S., pp. 87-88.

(٨٩) المراش ، ص ٢٠٠

(٩٠) اشارة الى المعارك الشهيرة التي وقعت عبر التاريخ في هذين الموقعين .

(٩١) Bentwich, N., Israel and her Neighbours, London, 1955, p. 48.

العقيد الركن حسن أبو لبده

الحرب الثورية ودورها في قلب التوازن لمصلحة قوى الثورة

مقدمة

يبقى صحيحاً وعلى مر التاريخ القول « الحرب امتداد للسياسة بطريقة عنيفة » ، فمنذ القدم لم تنشأ قط حرب لا تحمل طابعاً سياسياً ، ولا يمكن للحرب ان تنفصل عن السياسة اطلاقاً . فحين تتطور السياسة الى مرحلة معينة ، بحيث لا يمكن لها ان تواصل تطورها بالوسائل العادية ، تندلع الحرب كي تزيل العقبات التي تعترض طريق السياسة .

والحرب الثورية هي حرب الجماهير ، ولا يمكن شنها بدون تعبئة الجماهير والاعتماد عليها وزجها في الصراع على شكل قوى مسلحة ثورية . انه بالتفاعل بين محارب العصابات وشعبه ، يتحصل الاساس الثوري الذي يشكل ، فيما بعد ، خصائص الحركة الثورية ويعطيها مجالها القومي . وهي بالضرورة عمل هجومي ، يستلزم الدفاع والتراجع ايضاً . فاللجوء الى الدفاع من أجل هجوم جديد ، والتراجع من أجل التقدم ، والالتفاف من الجوانب لبلوغ الجهة المقصودة ، كل هذه ظواهر محتومة في مجرى تطور الكثير من الاشياء ، فما بالك بالعمليات العسكرية .

ويبدو ان الحركات الثورية في الماضي البعيد ، أخذت ، في معظم الأحيان ، شكل تمردات دامية مبنية على الهوى أكثر من انبنائها على المحاكمة العقلية . والعصيان الوحيد الذي تمت قيادته منذ البداية بتقنية ثورية جيدة ، هو عصيان سبارتاكوس .

وفي عهد الفروسية ، في القرون الوسطى ، كان المتحاربون يتقنون استراتيجية الدفاع بالانهاك ، التي تعتبر احدى المكونات المألوفة للحرب الثورية . ثم كانت الفكرة السياسية في حرب الاستقلال الاميركية المتمثلة في الحرية ، حيث ادير العصيان بتقنية الحرب الثورية . فالمتمردون كانوا يناوشون القوات النظامية باستمرار ويزعجونها(١) .

ولقد استفاد نابليون ، في حروبه ، من جميع النتائج الاستراتيجية الناجمة عن قدرة القوات الفرنسية على التبعثر والتجمع ؛ فصار يوزع قواته على شكل شبكة واسعة ، مهمتها

اعماء الخصم وتطويقه ، أو يلتف حوله ليقف على خطوط مواصلاته ويجبره على القتال على جبهات معكوسة . وجاءت تلك المناورة الخاصة بالاستراتيجية النابوليونية ، التي لم يستطع أحد تنفيذها منذ ذلك الوقت ، من الامكانات التي قدمتها ـ دون شك ـ العادات الثورية .

وتبدأ الحركات الثورية الشيوعية أو الوطنية عادة ، بخلق الكوادر الدعاوية ، ثم تنشأ التنظيمات المحلية ، ومن ثم تبدأ العمليات الارهابية المحدودة ، لتنطلق بعدها الى اعداد القوى الثورية اللازمة لحرب العصابات وكسب السكان الى جانبها . وقد نتجت فاعلية الاسلوب الثوري طوال التجارب المتعاقبة ، من توجه جهد الغزاة وقوات القمع ـ بصورة عامة ـ الى العمليات العسكرية ، التي لم يكن لها سوى أثر جزئي . أما الايديولوجية الثورية ، المحرك الحاسم للثورة ، فلم يجر الصراع ضدها بايديولوجية تحمل قيمة مماثلة لقيمتها ، الأمر الذي لم يجعل الحرب الثورية ثنائية الطرفين أبدأ ، ويدا هذا الأمر في النهاية حاسماً(٢) .

وعلينا أن نلاحظ ان هناك ، طبقاً للمصطلحات الجارية ، نوعين من حرب العصابات الثورية : الاول ، النضال الثوري المكمل لجيوش نظامية كبيرة ؛ والثاني ، هو الجماعة الثورية المسلحة التي تنخرط في النضال ضد السلطة أو المحتل ، معتمدة على نفسها ، مطورة نضالها الى حرب ثورية شاملة : بهدف الاستيلاء على السلطة وتحرير الشعب والوطن . وهو ما يعنينا في هذا المجال .

الطليعة الثورية

ينبغي القول ـ دون تجاوز الحقائق الموضوعية ـ أنه لا ثورة من دون طليعة ثورية ، وان هذه الطليعة ليست ، بالضرورة ، الحزب الماركسي ـ اللينيني ، وان اولئك الذين يريدون صنع الثورة ، لهم الحق في ان يشكلوا لأنفسهم طليعة مستقلة(٣) .

ان ماهية النضال الثوري المسلح ، هي في أن جماعة صغيرة من الرجال ، هي الطليعة المسلحة للقوات الشعبية العظيمة التي تدعمها ، تمضي الى ما وراء الغرض التكتيكي الآني ، وتنطلق بطريقة حاسمة نحو تحقيق المثل الأعلى ، بهدف اقامة مجتمع جديد ، وتحطيم القوالب الجامدة ، لتتوج في النهاية انجازاتها ، بتحقيق العدالة الاجتماعية ، أو الفوز بالتحرر الوطني الذي ناضلت طويلا من أجله .

ففي البداية ، تنبثق جماعة من الاشخاص المتجانسين بقدر أو بآخر ، ولديهم بعض الأسلحة ، وقد آلوا على أنفسهم ـ بشكل خاص ـ ان يختبئوا في أشد الاماكن وعورة ومناعة ، حيث لا اتصال الا قليلا مع الفلاحين . وبالتالي تبدأ هذه المجموعة بتسديد ضربات نوعية مميزة ، تعمل على أبراز وجودها وتعزيزه . ومن ثم ينضم الى النواة قلة من الفلاحين المعدمين ، وبعض الشبيبة الواعية من الطبقات الأخرى . وبذلك تمتلك جرأة أعظم وتبدأ في العمل ضمن الأماكن المأهولة ، عاملة على توطيد صلاتها بسكان المنطقة . ومن هذه النواة سوف ينبثق رجال ونساء تحكمهم تربية سياسية وعسكرية واحدة صلدة ، وتأتي مهماتهم التاريخية للاضطلاع بها بصبر ثوري : ادارة وتطوير الحرب الثورية .

وهنا نتوقف لنقول : ينبغي على رجال الطليعة ، ان يتميزوا بناحيتين اساسيتين : الأولى ،

امتلاك الحس السياسي الثوري ؛ والثانية ، ان يتوفر لهم الاعداد والتحضير الفني ـ الثوري الضروري . فالرجال الارقى تدريباً ، والاكثر خبرة واستعداداً للعطاء والذين ينذرون انفسهم للحرب الثورية ، هم نواة الثورة الاصيلة . انهم بالتأكيد الرجال المحاربون ، وليسوا البيروقراطيين والانتهازيين التابعين في البناء التنظيمي الحزبي ولا فرسان النقاش في الصالونات ، ولا مدبجي القرارات التي تظل حبراً على ورق(٤) .

يجب ملاحظة ، ان الاستراتيجية الثورية هي استراتيجية اقناع ، وعلى النواة الثورية ان تلجأ الى استخدام الحرب الثورية ، التي تعتبر بجوهرها استراتيجية النوازع العنيفة المرتكزة الى المحاكمة العقلية ، والتي لا تحتاج الى رجال خارقين ؛ بل الى رجال قادرين على نكران الذات ، والتضحية بكل شيء وربما بالحياة ؛ قادرين على الصمود والعناد ، وتحمل الجوع لأسابيع . ويبقى المقياس الاساسي لنجاح أية نظرية ثورية ، في ان يطبقها معتنقوها ويترجموها في الواقع .

في هذا المجال ، يجدر بنا ان نلقي الضوء على الدور الحي والفعال للقيادة التاريخية للحركة الثورية . فليس من نافلة القول ان نشير الى الأهمية الحاسمة لشخصية ماو التي قل نظيرها ، كفلاح ، ومثقف ، واستراتيجي ، وفيلسوف ، وأخلاقي ، في قيادة الحرب الثورية الصينية نحو النهاية الظافرة . وهنا ، لا يسعني الا الاكتفاء بهذا المثال الحي لامثلة عديدة مشابهة ورائدة ، في فيتنام ، وكوبا ، والجزائر الخ ...

ان نكران الذات وضرب المثل في التضحية والفداء ، واشتراك القادة مع المقاتلين في تحمل التقشف على مختلف الصعد ، وفي العمل الدؤوب والتدريب ، من شأنه ان يخلق بالضرورة وينمي روح الكفاح الصلب في مجرى عملية تحقيق الهدف المشترك ، وعلى القائد ان يتميز بالشجاعة ، ودماثة الخلق ، وسرعة البديهة ، وهدوء الاعصاب ، والديناميكية الواعية المبادرة ، كي ينال ثقة رجاله الذين يتخذون من خصائص شخصيته نموذجاً حياً يقتدى في اقصى وادق الظروف خطورة ومسؤولية .

لقد ثبت بالتجربة ، ان كفاح الشعب المسلح هو الاكثر حسماً ، في تشكيل كوادر ثورية ، من تجربة سياسية لا علاقة لها بحرب العصابات الثورية . ومن السخف الاستمرار في الحديث عن التناقض بين الملاكات السياسية والملاكات العسكرية ، وبين القيادة السياسية والقيادة العسكرية . اذ ليس باستطاعة السياسات المحضة ، التي تتوجه الى البقاء هكذا ، ان تخدم الكفاح المسلح للشعب . اما العسكريون الخلص فانهم يخدمون هذا الكفاح . فهم من خلال ممارسة حرب العصابات ومعايشتها ، يصبحون ايضاً سياسيين . فالكفاح المسلح الثوري ذو جوهر سياسي دائماً(٥) .

وفي الاتحاد السوفياتي ، ابان الحرب العالمية الثانية ، كان الحزب الشيوعي ، من أكبر مسؤوليه الى أصغرهم ، يشرف على حرب العصابات . وكان كل شيء يأتي من الحزب : القادة والعقيدة والعون المادي . ان الحماس الثوري والجرأة والشجاعة في القتال والمهارة والعناد الذي تحلى به المقاتلون الثوريون ، كانت كلها مستقاة من الحزب ومن الايحاء الروحي للايديولوجية الشيوعية ، وقد أشارت احدى مذكرات القيادة العليا الألمانية الى ما يلي : « ... لهذا الغرض ، اجتاز الخطوط اعضاء من الحزب ، ورجال متحمسون موثوق بهم ، وضباط

محترفون ، تلقوا تدريباً خاصاً خلال فصل الشتاء ، ومن لم يجتز الحدود نزل بالمظلات خلف خطوطنا . وكانت مهمتهم تحويل الأنصار الى اداة قتال حقيقية ، ولقد تحققت هذه المهمة بكل نجاح »(٦) .

أما بالنسبة لانطلاقة الثورة الجزائرية ، فقد رسمت اللجنة الثورية للوحدة والعمل ، منذ البداية ، خطاً سياسياً واضحاً جداً ، استهدف في الوقت ذاته الاعتماد على التقاليد الاسلامية . ومارست ارهاباً شديداً ، كمم بسرعة شديدة أفواه الشعب أمام السلطات الفرنسية . وتجنبت اللجنة بذكاء حاد كل مجابهة مباشرة مع القطعات الفرنسية . وتم اللجوء الى الانقضاض المفاجيء ، والكمائن ، والاغتيالات على مختلف أنواعها .

وغني عن البيان ، أنه سوف يتعرض كل من التنظيم والمقدرة على القتال ، والبطولة والروح المعنوية التي تتمتع بها العصابات ، الى اختبار بالنيران عند حصار العدو . بيد ان الحصار ليس بالمعضلة الخطرة بالنسبة لجماعة من العصابات عارفة بالارض وملتحمة برئيسها من الناحية العقائدية والعاطفية .

ويجب التنبيه هنا ، الى الاخطاء الكبيرة التي قد ترتكبها القيادة الثورية على كل المستويات ، في أسلوب العمل والتخطيط وطريقة القيادة ، وأهمها النظرة الذاتية للامور ، واللاموضوعية ، والبيروقراطية ، وروح أصدار الأوامر ، والعقلية الضيقة ، والعجرفة ، وتقديم المؤسسات على الأفعال . وقد تعمد حركات ثورية ناشئة لا يزيد عدد أفرادها عن عشرات الرجال ، حتى قبل أن تبدأ العمل ، الى اعداد نظام داخلي أكثر تعقيداً وأبهاماً من النظام الداخلي في وزارة : نظام مليء بالوصايا والمهام ، كما لو ان جدية الحركة الثورية تقاس بعدد تقسيماتها ، وأشكالها التنظيمية التي تستبق المحتوى المطلوب تنظيمه(٧) .

ثم ان هناك المصابين بمرض جنون العظمة ، الذين يركضون وراء مركز أو رئاسة . وهناك آخرون ينغمسون في الركض وراء الطعام الجيد والثياب الفاخرة ساعين لتحويل الممتلكات العامة لمصلحتهم الخاصة ، منتهكين صلاحياتهم ومراكزهم لينغمسوا في المبادلات التجارية لكي يصبحوا اغنياء، وهم يفكرون بمصالحهم الخاصة أكثر مما يفكرون في المصلحة العامة . وليس هناك ، بالنسبة لهم ، أية قيمة للسجايا الثورية والرأي العام . وهناك حقيقة اكيدة أيضاً ، أنه يبقى خارج التنظيم الثوري، العديد من الناس الموهوبين والاكفاء، يتعين الاستعانة بهم او تنظيمهم.

والجدير بالملاحظة ، انه لا ينبغي للذين يتصدون للعمل الثوري أن يأملوا في كسب النصر متجاوزين الحدود التي تحددها الظروف الموضوعية ، ولكن من الممكن ، بل من الضروري ان يسعوا بنشاطهم الواعي الى كسب النصر في نطاق تلك الحدود عينها . فالافكار وما شاكلها شيء ذاتي ، أما الممارسة العملية فهي التي تنقل الذاتي الى الموضوعي . وان جميع الأفكار المستندة الى الحقائق الموضوعية والمتفقة معها هي أفكار صحيحة . كما ان الممارسة العملية المسترشدة بالأفكار الصحيحة هي أعمال سليمة . وعلينا ان نطور مثل هذه الافكار العملية ، حتى نطور مثل هذا الدور الفعال الواعي . ويجب ان نكرس الكثير من الوقت لاقامة الأدلة المحسوسة على الأعمال ، والقليل من الوقت للحديث عن النظريات الفارغة .

اذا كانت الكوادر موحدة يصبح ممكناً عمل أي شيء . لذا يجب ان تكون الكوادر والقادة محبوبين من قبل الشعب ، وان يكسبوا ثقته واعجابه ، وان تكون صلتهم قوية به ، يتعلمون من الشعب ويعلمونه . وعقاب النظرة الفوقية الى العناصر وعامة الشعب على أنهم مجموعة من الدهماء ، هو أنهـا تؤدي بالحركة الثورية الى عزل القيادة عن الجماهير .

ان طاقة القادة على العمل الأمين والشجاع ، ومعرفتهم العسكرية ، وتمتعهم بذكاء وقاد ، وقدرتهم على التكيف بسرعة مع الظروف المتغيرة ، واخلاصهم ؛ كلها شروط لا غنى عنها لوضع الخطط وانجاز المهمات . أما مرونتهم في التقدير السليم للموقف على ضوء الاحوال الموضوعية ، وانجاز التدابير الملائمة في الوقت المناسب فانها تصل بهم الى براعة التصرف ، في الحصول على انتصارات مناسبة ومستمرة .

العصيان المسلح

يلجأ المضطهدون في عصرنا الى استخدام القناع الديمقراطي ، ويستخدمون أساليب الرشوة والتدجين والدس لتفتيت وحدة المضطهدين ، وتضليل وعيهم بالظلم والقهر . ولكن تطور النزاع يجعلهم يخلعون القناع بحس سهولة ويتجاهلون الشرعية ويستخدمون القوة العسكرية لسحق الجماهير ، التي لا يمكن ان ترد على العنف الا بالعنف ، فليس العنف حقاً موروثاً لمن يستغل الآخرين : اذ يستطيع ضحايا الاستغلال بل ومن واجبهم ان يستخدموا العنف في اللحظة المناسبة(٨) .

ويمكن تحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية ، بواسطة تمرد الجماهير الثوري . وعلى الطليعة الثورية ان تستفيد من هذه الحركات الجماهيرية بتشكيل جماعات من الانصار تشن الحرب الاهلية فوراً اذا سمح الوضع بذلك . وينطبق هذا بصورة خاصة على البلدان التي تتسم بتيار ثوري قومي قوي .

يأخذ العصيان شكلا ثورياً ، عندما يستند الى ايديولوجية قادرة على استقطـاب الجماهير ، وانتزاع تعاطف عناصر عديدة من معسكر الخصم ، وبين صفوف المحايدين . والحقيقة ان اعتماد إيديولوجية ديناميكية ، يعطي العصيان امكانات كبيرة مرموقة ويسمح بزرع بذور العصيان في المناطق المختلفة . ويستطيع العصيان ، بفضل الارهاب ، ايقاف سيل المعلومات المستقاة من السكان ، أي تخفيف مستوى الأمن الذي كان الغزاة يتمتعون به . ويسمح اعتماد الايديولوجية الديناميكية ايضاً بربط علاقات وثيقة داخل البلدان المحايدة ، والحصول على مساعدة معنوية ومادية من البلدان المتعاطفة مع الايديولوجية التي ينادي بها العصيان : الأمر الذي يسمح بخلق نوع من التنظيم المسلح المدعوم بالايديولوجية المختارة(٩) .

ونظراً لاستحالة تحريك الحركة الثورية الا بنظرية ثورية ، فانه يجب تركيز الجهود على المنظمة السياسية العسكرية . وحتى لا تتجمد السياسة الثورية ، يجب ابعادها عن السياسة المجردة . وحتى يتم وضعها في مسيرتها الصحيحة ، يجب توظيفها في اطار سياسي ــ عسكري في الوقت نفسه ، تجاوزاً لكل الصراعات الكلامية القائمة ، وتدعيماً للديناميكية الثورية .

ينبغي أن يستقر في الذهن ، أن هناك حداً أدنى لا يمكن بدونه ارساء القاعدة الاولى للعصابات أو تدعيمها ؛ اذ يجب ان تكون الجماهير قد ادركت بوضوح حماقة الابقاء على النضال من أجل الأهداف الاجتماعية والوطنية ضمن اطار المساجلة المدنية ، فعندما تقوم قوى التسلط بفرض نفسها بالقوة ، يعتبر أن السلام قد انتهك مسبقاً ، وفي هذه الحالة يعبر السخط الشعبي عن نفسه في اشكال أكثر حيوية ، ويتبلور موقف المقاومة اخيراً في انفجار نضالي .

والوعي السياسي شرط لازم وأساسي كيما يفهم المقاتلون أن تنفيذ المهمة وتقديم الروح رخيصة خلال ذلك ، هو تنفيذ طوعي لخدمة هدف مشترك . وان المناقشة واستطلاع الآراء لا يستهدفان سوى دفع تنفيذ المهام الى الأمام .

وحرب العصابات ليست مغامرة جميلة ، ولا هي غاية في حد ذاتها ؛ انها ليست الا اسلوباً للوصول الى غاية ، وهي التحرير واستيلاء الشعب المغلوب على السلطة السياسية . فالعصابات الثورية ، سرية ، تولد وتتطور تحت الأرض ، والمناضلون انفسهم يحملون اسماء مستعارة في المرحلة الأولى ، واذا ما قررت العصابات الظهور ، فسيكون ذلك في الزمان والمكان اللذين تختارهما القيادة . والعصابات الثورية في عملها وفي تنظيمها العسكري مستقلة عن السكان ، وليس من واجبها تحمل مسؤولية الدفاع المباشر عنهم . فحماية السكان ترتكز على التدمير التدريجي للآلة العسكرية التي يملكها العدو ، ويصبح السكان في مأمن تام ، عندما تصبح القوى المعادية عاجزة عن القتال[١٠] .

يقول لورنس : « الجيوش شبيهة بالنباتات الثابتة التي ضربت جذورها بقوة في الارض والتي تتغذى عبر سيقان طويلة تمتد من أسفلها حتى ذروتها . ان بوسعنا [العصابات] ان نكون غازاً ، وروحاً تتحرك حيثما تريد ، ولم نكن نقدم أي شيء مادي للمذبحة ، نظراً لأننا لا نحتاج لأي شيء مادي »[١١]. فالجيوش في حاجة ماسة الى قواعد امداد ومناطق ادارية لتأمين احتياجاتها الضخمة ، عبر طرق مواصلات جد طويلة ، يمكن قطعها في أكثر من مكان وباستمرار ، مما يؤدي الى ارباكها وتشتيت قواها .

والعصابات سلاح الطرف الاضعف ، وتأتي فاعليتها من ان خصمها لا يملك ابداً القوى الكافية للسيطرة على الأرض كلها . وتكمن قوة العصابات في قدرتها على تمييع القتال واجبار الخصم على بعثرة جهوده . فالعصابات تستمد قوتها وخاصة قدرتها على البقاء من صفتها البدائية البسيطة : انها حرب ازعاج لا تحتاج الى قوة كبيرة ، وتستمد فاعليتها من حركتها وندرة احتياجاتها . والخطأ القاتل لقادة العصابات يكمن في البحث عن تحقيق المهابة الشكلية للقوات النظامية . فالمهمة الأولى للعصابات ان تبقى موجودة ومختفية ، وأن تقوم بانسحابات استراتيجية عند اللزوم أكثر من ان تثبت أمام الخصم ، فثباتها أمام الخصم المتفوق يعني الانتحار .

ورغم ان القوات الجوية في الوقت الحاضر ، خلقت استحالة وجود قاعدة حصينة كلياً ، وزادت من امكانيات اكتشافها زيادة كبيرة ، فانه يلزم العمل دوماً على ايجاد مواقع بديلة ، وان يتم تدريب الرجال على نقل مراكزهم بسرعة ، واختيار الأماكن العالية التي تسيطر على منطقة واسعة نهاراً ويتعذر الاقتراب منها ليلا .

وشرط المحافظة على أفضل العلاقات الودية مع السكان المحليين ، لا غنى عنه للعصابات الثورية ، فهي تعتمد على مساعداتهم في انجاح عملياتها ، فبامكانهم خيانتها اذا أرادوا وعليها ان تختار نقاط تجمع مخفية يلجأ اليها الرجال في حالات الطوارىء ، كما ان عليها انشاء مخابىء للسلاح والذخيرة والطعام والماء والادوات الطبية . وعلى الذين يقودون زمر المقاتلين ان يدرسوا الأهداف المحتملة وان يستكشفوا الطرق المؤدية اليها ، ومناطق التجمع البديلة التي قد يستفيدون منها فيما بعد . ويجب على كل فرد ان يدرس المنطقة دراسة وافية ، وان يتعرف على أسلحة العدو التي يستخدمها ، فقد تكون مصدر امداد للمقاتلين (١٢) .

غالباً ما لا ينتقي الجيش ساحة معركة ، بينما يملك الانصار دوماً اختيار المكان والزمان لضرباتهم . ويحتل الجيش دائماً جبهة متصلة ، بينما يعمل الانصار بنظام منتشر . لذا فحاجتهم الى تنسيق مع الجوار أقل بكثير من حاجة الجيش . ويزداد صدق هذا القول لسبب آخر ، هو ان تعرض عصابة من الانصار للفشل يجعلها تتحمل وحدها نتائجه ، ولا تؤثر هذه النتائج بالضرورة على بقية العصابات ، بينما نجد العكس في الجيش النظامي . وتتمتع العصابات باستقلال ذاتي واسع . فهي تتمون ذاتياً ، ولا تحتاج الى بزات أو أسلحة ثقيلة أو وسائط نقل ، وليس لقطعاتها وحدات احتياطية ومعسكرات ثابتة : انها قوات خفيفة بلا مؤخرات وبلا مشاكل ادارية تقريباً . فقوة العصابات المروعة لا تعتمد بلا شك على قوتها العددية أو أسلحتها الثقيلة ، ولكنها تعتمد اساساً على الهجمات المفاجئة والكمائن والسرعة في الاختفاء (١٣) .

علينا ان نتذكر دوماً ، ان غزو الأرض واحتلالها ليسا مهمة من مهمات عناصر العصابات ، والواقع انهم لا يقاتلون اساساً للتشبث بالارض ، فمهمتهم الرئيسية هي تشتيت العدو وانهاكه بالهجمات المفاجئة واعمال التخريب الواسعة والانسحاب بسرعة بعد تنفيذ ضرباتهم .

تلجأ العصابات في منطقة ما الى مشاغلة أكبر عدد ممكن من قوات العدو لأسباب تتعلق بأمنه . وللوصول الى هذه النتيجة ، على رجال العصابات ان يقوموا بسلسلة متواصلة من الهجمات الصغيرة ضد العدو على أعرض جبهة ممكنة . ولكن ليس من المناسب ان تقاتل جماعة العصابات في مواجهة قوة معادية ضخمة جداً ، أو عندما لا تكون القوة المعادية ضخمة ، ولكنها قريبة جداً من قوات العدو الاخرى : فالعصابات الثورية هي الجانب الاضعف ، ويجب ان يكون هدفها المحافظة على النفس حتى تستمر في استنزاف العدو وتشتيت قواه ، والتدرج في تنمية قواها المادية والمعنوية وكسب الشعب الى جانبها . وهذا يدعوها الى تبني المبدأ الصحيح واللائم لها وهو « أضرب واهرب » ، وما يتطلب تنفيذه من مواصفات بدنية ونفسية راقية لمحارب العصابات .

يقول غيفارا : « محارب العصابات فرد يشارك شعبه التوق الى التحرير ، وانه حينما تستنفد الوسائل السلمية ، يبدأ القتال جاعلا من نفسه طليعة مسلحة للشعب المناضل . وعليه ، يجب ان تجتمع له الصرامة التي يولدها فيه كبح النفس ، الى جانب ما تمليه صعوبة ظروف الحرب من قلة مبالاة بجسده ، فهو مطالب بأن يكون ناسكاً . وهو محتاج الى بنية حديدية تمكنه من مقاومة كل الشدائد دون ان يسقط من الاعياء ، فهو يغدو بفضل تكيفه الطبيعي جزءاً

من نفس الأرض التي يحارب عليها . وأفضل سن لمحارب العصابات تتراوح بين ٢٥ و ٣٥ سنة ، فهي مرحلة تتخذ حياة أغلب الأفراد فيها شكلها المحدد ، وأي امرىء ينطلق في هذا السن ، هاجراً بيته وأطفاله وعاله جميعاً ، لا بد ان يكون قد فكر جيداً في مسؤوليته ووصل الى قرار ثابت بأن لا يتراجع قيد خطوة . على ان هناك حالات فوق العادة لاطفال قد بلغوا أعلى المراتب في جيشنا الثوري بوصفهم من المحاربين ، الا ان ذلك ليس بالحال الاعتيادي : ففي مقابل كل واحد من الذين ابدوا صفات نضالية عظيمة ، هناك عشرات اضطررنا الى اعادتهم لبيوتهم وكثيراً ما شكلوا عبئاً خطيراً على جماعة العصابات »(١٤) .

ومحارب العصابات مقاتل ليلي ، فيجب أن يكون ماكراً ، وقادراً على السير الى مكان الهجوم عبر السهول والجبال دون ان يلحظه أحد ، ويجب ان ينقض على العدو فجأة ، مستفيداً من عامل المفاجأة ، يهب كالاعصار مكتسحاً كل شيء ثم يختفي بسرعة .

وتعمد قوات القمع عادة الى مهاجمة مناطق العصابات وتطويقها وتمشيطها لاجبار العصابات على الدخول معها في معركة تقليدية ضد قوات متفوقة ، لمنعها من فوائد الحرب السرية وقبل ان تضرب الادارة الثورية بجذورها داخل صفوف الجماهير . ولا تستطيع العصابات ان ترد على ذلك الا بالمبادأة وشن الهجمات التعرضية الدائبة . على مدن العدو وطرق مواصلاته ، بشكل يجبره على بعثرة قواه لحماية اهدافه الحيوية ويحرمه التفوق اللازم للهجوم . وعلى العصابات ايضاً ، عند تنفيذ عملية ما ، ان تحشد لها قوة ضاربة تفوق الحاجة ليكون انتصارها مؤكداً .

ويقدم نظام انفيت ــ مينه الآتي ، كأحدث تكتيك ذكي حول حرب العصابات :

١ ــ التظاهر بمهاجمة نقطة ، والانقضاض على نقطة أخرى بغية منع العدو من الاحتراس .

٢ ــ الظهور طوراً والاختفاء طوراً اخر، بشكل يجعل العدو يجهل مكاننا الحقيقي ويتعذر عليه مهاجمتنا

٣ ــ تحاشي نقاط العدو القوية ، ومهاجمة نقاطه الضعيفة .

٤ ــ اختيار الوقت المناسب للتقدم أو للتراجع . ان علينا ألا نقاتل بتهور أو عناد ، وان لا نعدو مسافة كبيرة أو نبقى في مكاننا فترة طويلة من الزمن .

٥ ــ اجراء الهجوم والابادة والانسحاب بسرعة ومرونة بشكل يمنع العدو من العمل ، أو جلب القوات لتطويقنا .

٦ ــ عدم الاشتباك في المعركة الا اذا كان النجاح مؤكداً(١٥) .

ومن الامور التي لا غنى عنها لمحاربي العصابات ، المعرفة الجيدة بالمنطقة المحيطة بهم وبالمداخل والمخارج وبامكانيات المناورة السريعة ، وبأماكن الاختفاء الصالحة ، وعليهم بالبديهة ان يعولوا على تدعيم الشعب لهم . فمن المستحيل القضاء على العصابات اذا كان الاهالي يقدمون لها كل عون ومساعدة . وحتى عندما تتفوق حركية العصابات على حركية خصومهم ، فانها لا

تستطيع العيش بدون السكان المحليين ، لأن هؤلاء يقدمون للعصابات جهازاً كاملا لاستطلاع العدو ، تستفيد منه بدرجة كبيرة .

والعدو المحصن ليس بالفريسة السهلة عند محاربي العصابات ، انما يفضل ان يكون العدو متحركاً وعصبياً ، على غير دراية بالأرض ، فهو مذعور من كل شيء وليس أمامه تحصينات طبيعية تعينه على الدفاع . ان تصفية شاحنة من ناقلات جند العدو ، بالاضافة الى ما تسببه للعدو ، فيها من الدعاية السياسية العميقة التي تستثير السكان وتجعلهم ينضمون للعصابات ، أكثر من مئتي خطاب ثوري بليغ .

كان عنصر المفاجأة ، الى أمد قريب ، حكراً على العصابات ، ولكن الطيران أعاد التوازن في هذا المضمار ، وتستطيع القوات المضادة للعصابات استخدام الطيران لاجبار العصابات على الوقوف موقف الدفاع . وذلك بالاضافة الى وحدات كوماندوس المطاردة المجهزة والمسلحة بشكل يتلاءم مع مهامها ، والمستعدة للقتال والمعيشة فترة طويلة من الزمن بوسائلها الخاصة ، وما لها من تأثير وفاعلية قوية ضد العصابات ، مما يزيد في صعوبة أدائها لمهامها(١٦) . ولكن يبقى ما تتمتع به العصابات من حسم وتضحية وسرعة في الحركة والاختفاء ، واعتمادها على دعم ومساندة السكان يجعلها الأقدر على مفاجأة العدو والايقاع به .

وتحتوي مصنفات الجيش الألماني عدداً كبيراً من التقارير عن حرب الانصار السوفيات ابان الحرب العالمية الثانية . وعند قراءة هذه التقارير نحس باليأس تزداد حدته بين الالمان . ويمكن فهم سبب ذلك بسرعة ؛ فالانصار السوفيات كانوا يضربون في كل مكان ، والقوات التي كانت تزج ضدهم لم تكن قادرة على تجميدهم في أي مكان من الأمكنة ، والاشتباك معهم بصورة جدية .

ونقرأ فيما كتبه الجنرال السوفياتي بونو مارنكو مبلغ الخسائر التي أوقعها الانصار بجيش هتلر النازي ، حيث يقول : « طبقاً للمعلومات الواردة ، وخلال سنتين من سنوات حرب الأنصار على مؤخرات الألمان ، قضي على أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جندي منهم ٣٠ جنرالا ، وأخرج عن الخط الحديدي ٣٠٠٠ قطار ، كما دمر ٣٢٦٣ جسراً من جسور الطرق والسكك الحديدية و ١١٩١ دبابة وعربة مدرعة ، و ٤٧٦ طائرة ، و ٣٨٧ مدفعاً ، و ٦١٨ عربة أركان ، و ٤٠٢٧ عربة نقل ، و ٨٩٥ مستودعاً ومخزناً »(١٧) . ورغم ان حرب الانصار تلك لم تكن العامل الحاسم في الحرب ، فانها بالتأكيد ، كانت انجازاً رائداً وملهماً لكل من انحازوا لقضايا الشعوب وتبنوا الحرب الثورية طريقاً للخلاص .

فعالية الحرب الثورية

من خلال الرؤية الموضوعية ، ، يجب ان نؤكد ان النضال من أجل تزاوج النظرية الثورية مع التطبيق ، هو نضال الحد الأعلى من الفعالية . فالفعالية لا تتعارض مع النظرية ، بل تتعارض مع النظرية المنفصلة عن التطبيق الثوري . إن الحاجة الى الفعالية الثورية ، باتت تضرب الأبواب بشدة ، غير ان هذه الحاجة اذا لم تتزاوج مع العقل ، فانها لن تنجب أية ثمرة(١٨) .

والخصوصية الأساسية للعصابات الثورية ، هي الحركية ، فهي التي تسمح للعصابات بأن تبتعد في دقائق قليلة عن مسرح معين ، بل عن منطقة بأسرها اذا غدا ذلك ضرورياً . وهي التي تمكنها من تغيير الجهة وتجنب أي نوع من الحصار ، ومن ثم ان تركن للفرار من التطويق الذي هو الوسيلة الوحيدة بيد العدو لارغام جماعة العصابات على اشتباك حاسم قد لا يكون مرغوباً فيه . والحركية هي التي تمكن العصابات ، فضلا عن ذلك ، من أن تقلب المعركة الى حصار مضاد . وسواء كانت العصابات مبعثرة أو مجمعة ، فان عليها ان تضع مخطط عمل يأخذ جميع الاحتمالات بعين الاعتبار ، ويحدد السلوك الواجب اتباعه ، وعلى كل وحدة موزعة ان تكون مستعدة للتجمع بسرعة ، كما ان على كل وحدة مجمعة ان تكون قادرة على التبعثر عند الضرورة ، ولا يمكن الحفاظ على المبادأة القتالية للعصابات بشكل دائم الا اذا احسنت استخدام التبعثر والتجمع في اللحظات المناسبة .

والثورة لا تتبع خطأ مستقيماً الى الأمام ، بل تتعرض لمد وجزر ، وتنتقل من ذرى الانتصارات الى وهدات الهزائم . ومن خلال هذا الطريق الطويل ، تتمرس القوى الثورية وتتعلم كيف تقدر قوتها وقوة عدوها ، ثم كيف تعدل سياستها وتكتيكاتها وأساليبها ، لتندفع بعد ذلك بزخم جديد .

والدفاع الذي يمكن للعصابات الثورية ان تتبناه ، هو ذلك النوع من الدفاع المرن والفعال المبني على الطلعات التعرضية والاغارات المستمرة في مواجهة العدو المتوقف ، والتراجع الارادي والهجمات المعاكسة المحلية ضد العدو المتقدم ، والمطاردة الحثيثة ، والكمائن المتواترة وعمليات الاعاقة والازعاج في ملاحقة العدو المنسحب . يقول هوشي منه : « يجب ان تعملوا بمهارة فائقة ، بسرعة ، بسرية ، وان تكون لديكم القدرة على تفريق قواكم او تجميعها حسب ما تقتضي الظروف . ويجب عليكم ان تفيدوا من التجارب في كل ساعة وفي كل يوم ، ويجب ان تكونوا يقظين ضد الخونة والجواسيس ، ويجب ان تكونوا موحدين بصورة مطلقة »(١٩) .

أما فيما يتعلق بقوى القمع ، فان القطعات الاسرائيلية الخاصة وكافة القطعات المبنية على غرارها تتلقى تربية ايديولوجية ونفسية خاصة ترفع مستوى الحقد والعنف والروح العدوانية لدى افرادها . والحقيقة ان سفك الدماء غدا جزءاً من طباعهم ، وتغلبت روح المقاتل عندهم على روح الانسان . ولتجنب نقاط العدو القوية ، وقلبها الى نقاط ضعف ، لا بد لجماعة العصابات من استخدام السرعة ، كما ينبغي اجراء كافة اعمال الانقضاض والانسحاب والرمي بسرعة بالغة . وعلى كل مقاتل ثوري ان يصل الى تحطيم معنويات العدو منذ لحظة الاشتباك الاولى بفضل قدرته القتالية وشجاعته النادرة . وعلى كوارد ومقاتلي العصابات ان يصمموا على تدمير العدو تدميراً كاملا وقتله وانتزاع سلاحه . فانه اذا ما تعذر على العدو أخذ زمام المبادرة وقعت قواته في السلبية وأصبحت تحت رحمتهم .

والغريب أن العدو المتفوق على جماعة العصابات بالتقنية والتسليح والعدد ، يهرب أمام هجماتها السريعة الحاسمة ، ولا يتجرأ على التقدم الا تحت حماية طيرانه ومدفعيته ، ويرجع ذلك ــ اضافة الى ايمان المقاتلين الثوريين القلبي وقناعتهم الفكرية بقضيتهم الثورية ــ الى ان جنود العدو لا يتمتعون بروح قتال عالية ، ولا يثقون بقواتهم أو رؤسائهم تمام الثقة ، وقد لا يتساندون بل يزدري بعضهم بعضاً . فعندما لا يكون هناك قضية واضحة وعادلة يحارب

الجيش في سبيلها ، يصبح استخدام الحرب ضد الثورة ، وسيلة عقيمة ، وغير ملائمة ؛ أنها أشبه بمن يأكل الحساء بالكسين[٢٠] .

على المقاتل الثوري ان يكون في تنقل دائم ، حاملاً معه حاجاته الضرورية حتى يتمكن من الاختفاء عدة ايام والانقضاض على العدو فجأة . فبقاء المقاتل الثوري في موقع واحد يجعله عرضة لاكتشاف العدو الذي قد يضعه في موقف حرج جداً . وعلى مقاتلي العصابات ان يكونوا غازاً لا يراهم العدو ، وعيوناً حادة وآذاناً مرهفة ترى وتسمع كل حركاته .

والقول الصيني المأثور : أعرف نفسك واعرف عدوك ، فان فعلت كنت قادراً على خوض مئة معركة دون كارثة واحدة » ، قول له قيمة كبيرة . ومع أن جميع السكان تقريباً في منطقة العصابات او التي تقوم فيها بغاراتها هم عناصر استخبارات لها ، فان من دواعي الحكمة ان يكون هناك اشخاص معينون توكل اليهم هذه المهمة[٢١] .

ويعمد العدو الى مهاجمة العصابات عندما يعلم بأن التطويق وهجمات كوماندوس المطاردة غير كافية لابادتهم ابادة كاملة . وهو يستهدف من ذلك أخراجهم من مواقعهم واجبارهم على ترك مسارح عملياتهم الحالية . ولما كانت جميع اعمال العصابات ، كأختيار الاهداف والمفاجأة والهجوم الصاعق ، والتبعثر المفاجيء ، والانسحاب السريع ، تعتمد على المعلومات . فإن العصابات التي تترك مكان عملها الاصلي الذي تعرفه جيداً ، ويعرفها فيه السكان معرفة وثيقة ، تضطر الى تحديد عملياتها ، والوقوف بسلبية فترة من الزمن حتى تتمكن من تأسيس استخبارات جديدة .

يجب ان تكون وحدة العصابات عارفة بالتضاريس في منطقة عملياتها معرفة تامة ، ويجب ان تفكر ملياً بالوسائل التي تمكنها من الظهور في مكان لا يتوقعها فيه العدو ، سالكة طرقاً سرية خفية ، مثل الاودية والغابات والممرات الضيقة المتعرجة ، حتى تستطيع الاقتراب كثيراً من العدو والانقضاض عليه متتبعة مبدأ « هزيم الرعد لا يترك وقتاً ليغطي المرء اذنيه » ، ثم تتلاشى دون ان تترك أثراً[٢٢] .

وعلى مقاتل الحرب الثورية الاكتفاء بالدفاع السلبي انتظاراً لهجوم العدو . يقول ماو :
« اذا تقدم العدو انسحبنا أمامه ، وان توقف بدأنا ازعاجه ، وان وجد نفسه متعباً هاجمناه ، وان تراجع طاردناه ... أما فيما يتعلق بالمكان الذي يجب ان ننسحب اليه ، فانه ليس من المناسب ان نسير مسافات طويلة على الطرق الرئيسية حتى يتتبعنا العدو حتى النهاية . واذا ما ظهر العدو امامنا ، يجب ان نلتف في دائرة حول مؤخرته ، واذا كان العدو على الجبال يجب ان ننحدر الى الأودية ، وعندما نأتي في انسحابنا الى تقاطع طرق ، يمكننا ان نخلف بعض الحاجات عن قصد في الفرع من الطريق الذي لم نختره ، أو نرسل ثلة صغيرة من رجالنا على هذا الطريق »[٢٣] .

يجب اقتناص كل فرصة متاحة لمهاجمة مراكز قيادات العدو وأسر وقتل ضباطه وقادته . فبمهاجمة المراكز القيادية يتم ضرب مراكز تفكير وتخطيط العدو ، ومن المحتمل ان يؤدي هجوم مخطط تخطيطاً محكماً الى شل قيادة العدو في لحظة حاسمة . وعند تحقيق النجاح في الهجوم لا بد لجماعة العصابات من العمل بسرعة من جمع الأسرى والتقاط الغنائم ، ثم تدمير ما لا يمكن الافادة منه ، واخلاء القتلى والجرحى من رجالها واعطاء اشارة الانسحاب . وعلى الوحدة الا

تنسحب كلها مجمعة ، بل تنقسم الى عدة مفارز تسلك كل واحدة منها سبيلا مستقلا ، بشكل يؤمن حمايتها من رمايات المدفعية والطيران ، ويضمن سرعة الانسحاب ، بحيث يكون هذا الانسحاب منظماً ولا يأخذ شكل الفرار .

وتكمن فعالية الحرب الثورية التي تستخدم الحركية الدائمة ، والانقضاض المدمر ثم التلاشي بلا أثر ، في ارباك العدو وتحديد تحركاته وحرمانه من المبادأة ، مع اصابته بالاحباط والتجمد . وفي تقرير صحفي لمراسل حربي الماني هو كيرت كلاين شونفلد ، تحت عنوان « غابات الموت » ، نرى مدى اليأس والاحباط والبطء الذي أصاب القطعات الالمانية ، حيث يقول : « ... ثم كان الليل البهيم ، ومع نزوله حلت ساعات البطالة والانتظار الطويلة ، لأنه كان علينا أن لا نفكر بمتابعة الطريق في هذه الظروف ... ولم نستطع الوصول الى هدفنا قبل الليلة التالية ! لأنه كان علينا ان نجتاز ايضاً جسرين آخرين مدمرين وسداً . وفي الطريق انفجرت احدى سياراتنا حين مرت فوق لغم ، فأصيب رجل آخر ، واضطررنا الى التخلي عن سيارة أخرى من القافلة . الا اننا وصلنا في النهاية الى القرية التي نقصدها !! »(٢٤) .

أما دور المرأة في الحرب الثورية ، فانه غني عن البيان التأكيد على حيويته وفاعليته بل وضرورته . والواقع أنه مهما تكن وحشية الضغط ودقة التفتيش المعادي ، فلا شك في ان المرأة سوف تعامل بأسلوب أقل خشونة من الرجل ، ثم أنها قديرة على توصيل رسالتها أو حملها الى الوجهة المطلوبة . فالمرأة هي الأقدر على الوصل بين القوات المتباعدة ، وحمل الرسائل الى أقصى الخطوط بل الى أقصى انحاء البلاد . والمرأة ايضاً قادرة على القيام بأشق الاعمال وتحمل كافة التضحيات ، والنضال مع الرجل جنباً الى جنب . كما انها — خلافاً للاعتقاد الشائع — لا تتسبب في مصادمات ذات طابع جنسي بين المحاربين .

تطور الحرب الثورية

بما ان القوى الرجعية ضخمة وقوية ، وان القوى الثورية لا تنمو إلا بالتدريج ، فقد تطلب ذلك ان تكون الحرب الثورية طويلة الأمد استراتيجياً ، وسريعة متحـركة تكتيكيـاً . فالاستراتيجية والسرية في الحملات والمعارك هما وجهان لشيء واحد ، وهما مبدآن متساويان في الأهمية في الحرب الثورية الطويلة الأمد . والمستوى التكتيكي في الحرب الثورية هو مستوى الطرق والاساليب ، والارهاب وسيلة من وسائل الضغط الثوري ، يمكن تطبيقه على السكان الاصدقاء لمنعهم من تقديم المعلومات الى الخصم . وتحدد مطاردة الخونة بصورة عامة بداية الحرب الثورية . ويمكن توجيه الارهاب ايضاً الى اجهزة الخصم ، والى السكان في بلاد العدو ويستهدف الضغط في هذه الحالة ، إكراه الخصم على مضاعفة تدابير الحماية ، الأمر الذي يؤدي الى بعثرة قواه . بالاضافة الى ذلك ، فإن هذا العمل يؤدي الى تثبيت مهابة الثورة بالنسبة للسكان الاصدقاء . وهذا يعني أنه يعتبر وسيلة من وسائل الدعاية

يقول ماو : « عندما يتوقف العدو نناوشه ، ونزيد مضايقتنا باطلاق الرصاص في كل مكان ، لجعله مضطرباً في الليل والنهار . وهكذا نمارس تأثيراً كبيراً على كل من عقله وجسده ، وننتظر الوقت الذي تصبح فيه روح افراده المعنوية مضطربة ، واجسامهم مرهقة ، وعندئذ تستطيع قواتنا اذا ما اندفعت كلها مرة واحدة ان تبيده ابادة تامة »(٢٥) .

وتنحصر رغبة العدو في انه يريد الضرب والانتصار بسرعة . واذا طالت الحرب فسوف يمنى جيشه بخسائر فادحة وينهزم . وهذا يفسر السبب في تخطيط استراتيجية حرب المقاومة الطويلة الأمد . فمن أجل تطوير القوات الثورية وزيادة عددها وجمع المزيد من الخبرة الفنية ، يتم اللجوء لتكتيك حرب العصابات ، فتهاجم عدة أمكنة في وقت واحد حتى يجيء رد فعل العدو مضطرباً ومشتتاً ، وتروع قواته ويعوق بعضها بعضاً ، لانهاكها ، الى ان يأتي اليوم الذي تشن فيه القوى الثورية هجوماً عاماً كاسحاً تطهر البلاد منه

عندما يهاجم العدو ، ينبغي ان ترتب القوات الثورية أوضاعها بحيث تضع طليعته في كمين دائما . أنه من اهم الامور من الناحية النفسية ، ان يكون مصير افراد الطليعة المعادية هو الموت دون مهرب . وهذه النتيجة تزيد الشعور بالخطر بين جيش العدو ، حتى تحل لحظة يأبى فيها أي فرد ان يكون من الطليعة ، وهنا يقع العدو في السلبية(٢٦) .

والقدرة القتالية لوحدة العصابات لا تحددها الفنون العسكرية فقط ، بل تعتمد فوق كل شيء على الوعي والتأثير السياسيين، وتحريك الجماهير الشعبية الواسعة وانضوائها تحت لواء القيادة الثورية . ومن هنا يجب أن تكرس كل طاقتها ونقائها الثوري لتشجيع الشعب على الاقتداء بأعمالها وحفزه على محاربة العدو بفاعلية وان توجه عملياته القتالية .

يقول هوشي منه : « ان التحرر الوطني هو هدف عام لكل شعبنا . ويجب على كل فيتنامي ان يشارك فيه . فمن لديه المال عليه ان يقدم المال ، ومن لديه القوة عليه ان يقدم القوة ، ومن لديه الموهبة عليه ان يقدم الموهبة . انني أعد بتقديم كل قدراتي المتواضعة وأتبعكم ، وإني على استعداد للتضحية بكل شيء »(٢٧) . فالاستراتيجية الحسنة الفاعلة في دفع العدو الى حتفه ، تكمن قطعاً في تعبئة جماهير الشعب .

ومن مبادىء الحرب الثورية الهامة ، أنه لا ينبغي الاشتباك في أية معركة أو موقعة ، أو مناوشة ما لم يكن كسبها مضموناً . وان الأمل في نمو العصابات الثورية وتطورها في تبني أشكال القتال المختلفة حتى تصل الى الحرب التقليدية ، له من الاهمية ما للأمل في هزيمة العدو في كل المعارك والاشتباكات والمناوشات . وتبدأ العصابات المستقلة عملها بحرب العصابات ولكنها مضطرة أن عاجلا أو آجلا لأن تقاتل كقوة نظامية لتحقيق أهدافها ، وبالتالي عليها ان تتدرج في بناء جيشها الثوري حتى يصبح قادراً على اتباع استراتيجية الجيش النظامي .

ومع أهمية الحرب النفسية ، فانه ليس لها من أثر ما لم تكن جزءاً من الحرب الفعلية . فاذا تهاون الضغط العسكري لحظة ، فان الضغط السياسي على العدو يفقد رأساً نقطة الارتكاز ويهوي في الفراغ . يقول غيفارا : « وقد كان ضباط باتيستا يقبلون الحوار لأن الجنود كانوا يموتون كل يوم ، ولأنهم يرون حياتهم مهددة »(٢٨) .

ونتيجة لديناميكية الحركة الثورية الجزائرية ، أصبح لجبهة التحرير الوطني موالون فعالون في فرنسا ، وتمزقت الوحدة الوطنية ازاء الحرب الجزائرية ، ولم تتشكل بعد ذلك ابداً . وبجانب ذلك طورت جبهة التحرير عملها عبر البلاد المجاورة : في تونس والمغرب . وقد سمحت لها معونة الحكومتين المستقلتين ، وبفضل الاسلحة التي تسلمتها الجبهة من تشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفياتي بأن تتشكل نواة جيش نظامي ، هو جيش التحرير الوطني الجزائري(٢٩) .

وتدل تجارب الحروب الثورية على ان الدعاية السياسية التي لا ترافقها عمليات حربية فعالة لا تثير لدى جنود الخصم سوى ابتسامة السخرية . على حين ان طول مدة الحرب الثورية وعنفها ونشاط الثوار وشجاعة القوات الثورية ، تعطي الدعاية الثورية قيمة أكبر من قيمتها الحقيقية . لقد تزايدت قوات ماو الحمراء بسرعة مطردة ، في حين كانت قوات تشانغ كاي ـ تشيك تتناقص في المقابل ، وكان ذلك بفضل تفاني وتضحيات الثوار ، وديناميكية الحركة الثورية الصينية . أضف الى ذلك ما اتسمت به الماوية من طابع أخلاقي خاص جداً ، وشكل من المثالية الثورية التي بعثها ماو في حركته الثورية(٣٠) .

ومما لا شك فيه ، أن تعاطف السكان وثقتهم في الحركة الثورية ، والانضمام اليها والالتفاف حولها وحمايتها ، تتزايد باطراد نتيجة انضباطها ونقائها الثوري واحترامها الأهالي واستهداف مصلحتهم ، بالمقارنة بما يلقونه من سوء معاملة العدو وعجرفته ونهبه لهم.

وتهدف الحركة الثورية ، أساساً ، الى انهاك العدو وتنمية قواها وتطوير قواتها الثورية ، تلك القوات التي تبدأ ضعيفة على المستوى العددي والفني والتكتيكي ، وقوية على المستوى المعنوي فحسب ، حتى تصل الى تحقيق التفوق على العدو ودحره ، عن طريق اطالة أمد الحرب .

القواعد وتوسيع بقعة الزيت

لا يملك العدو العدد الكافي من الرجال حتى يحرس كل الشوارع والبيوت والقرى . لذلك على كل القوى الثورية ان تجد الوسائل المناسبة لمساعدة العصابات في كفاحها من أجل اجتثاث الخونة وقوات العدو . وأهم دور للعصابات الثورية هو تشتيت قوات العدو على أرض شاسعة ، وتجميد تحركها عن طريق اشغالها بالحركة المستمرة ، وبالتالي وضع العدو امام الخيار الصعب ؛ فاما ان تكون قواته مشتتة في كل مكان لا تملك قوة ضاربة مركزة ، وأما ان يركز على جبهة واحدة فيترك جميع اجزاء البلاد الأخرى حرة من سيطرته .

وعلى القوات الثورية ، قبل وصول العدو الى مكان معين ، ان تعمل كل ما تستطيع لاستثارة الجماهير الشعبية ، واستنهاض ارادتها في المقاومة ، وشحنها بالتصميم الذي لا يقهر حتى النهاية ، دون قبول المساومة او الاستسلام . فعندما تمنح الجماهير تأييدها للحركة الثورية ، تصبح درعاً للثورة ، وقاعدة خلفية صلبة وخط تموين أميناً للثوار ، ووسيلة مراسلات سريعة وفعالة وحقلاً خصباً لاستنبات المقاتلين .

أما تورط العصابات في مهام حماية المدنيين والدفاع عنهم ، فانه يجمدها ويفقدها دورها كطليعة للشعب المناضل كله ، ويفقدها النظرة الشاملة في العمل . فترك مبادرة الهجوم بيد العدو ، والاكتفاء بالدفاع السلبي ، يؤديان بالحركة الثورية الى استحالة حماية المدنيين والى تعريض قواها للاستنزاف . بينما يؤدي اللجوء لمهاجمة العدو ، ووضعه في حالة دفاع مستمر ، الى استنزاف قواه هو ومنعه من توسيع نطاق عملياته وانتزاع المبادأة منه ، وهي الطريقة المثلى في حماية السكان (٣١) .

يقول غيفارا : « ما دام معلوماً ان العدو سوف يقاتل لصون سلطته السياسية وجب النظر

في ازالة جيش القمع » (٣٢) . ومن هنا تبدو لنا اهمية تفتيت قوات العدو ، كجزء من أساليب الحرب الطويلة الأمد . وبناء على ذلك يجب استغلال كل الفرص المناسبة لخلق أكثر من نواة داخل ترتيب قوات العدو .

كان استسلام الايطاليين في ٨ أيلول ١٩٤٣ تاريخاً حاسماً لمستقبل تيتو . فمعظم الوحدات الفاشية تبعثر فوراً ، أو استسلم لعصابات تيتو وتخلى لهم عن أسلحته ومتاعه . ولقد أعطت الدعاية الهائلة لتيتو التي قام بها خلال عامين كل ثمارها . فمن ناحية تمكن ٢٠٠,٠٠٠ رجل من التطوع تحت امرته واستلام السلاح فوراً ، ومن ناحية أخرى تحررت كل الاجزاء اليوغسلافية التي احتلها الايطاليون وهي كرواتيا ونصف ساحل دالماسيا دون ان يضطر للقتال . وهكذا تضخم جيش تيتو الأحمر خلال شتاء عام ٤٣ ـ ٤٤ حتى أصبح يضم ٥٠ فرقة مقاتلة (٣٣) .

ومن الامور الصحيحة في الحرب الثورية ، زيادة الرقعة التي تنشط فيها جماعات العصابات ، ولكن من الصحيح ايضاً انه ينبغي تجنب الزيادة المفرطة في هذه الرقعة . والمبدأ الصحيح دائماً ، هو الاحتفاظ بقاعدة منيعة للعمليات والدأب على تعزيزها طوال فترة الحرب ، مع نشر العصابات المساعدة في طول البلاد وعرضها ، وخصوصاً داخل المدن الهامة . وبالتنسيق الخلاق بين هذه القوى الثورية ، يجد الجيش المعادي نفسه مشتتاً وغير قادر على الحسم ، وبالتالي يتجمد ويقع في السلبية القاتلة .

والمهمة الرئيسية في توطيد القواعد هي تعبئة جماهير الشعب وتنظيمها وتدريب قوات العصابات الثورية والقوات المسلحة المحلية . فتوطيد القواعد ضروري من أجل المثابرة على حرب طويلة الأمد ، ومن أجل توسيع القواعد في الوقت نفسه . فالمبدأ الصحيح هو التوسيع على أساس التوطيد (٣٤) .

والنضال الثوري لا يؤدي الى نتيجة حاسمة اذا لم يقم على أساس تحالف مسلح جيد التنظيم وراسخ البنيان بين العمال والفلاحين وينضوي تحته الطلاب والشباب المثالي . وكلما ازداد العمل بين الجماهير لجعل كل فلاح متحمساً لحرب التحرير الثورية ، ازدادت جماعات العصابات . واخيراً يصير انتقاء مكان أمين كقاعدة ، وتبدأ فيه حياة ثورية مستقرة نوعاً ، ثم يأتي الوقت الذي يصبح فيه قطر دائرة عمل العصابات غير متسع بالنسبة التي تزايد فيها تعدادها ، فينبثق عنها قاعدة جديدة في مكان آخر ، وتتزايد بقعة الزيت . اما القاعدة الاصلية فتستمر في نموها ، ولا تتوقف عن اصدار التشريعات الثورية وانشاء المدارس . واما القادة فيزداد ما يتعلمونه باستمرار خلال تطور الحرب الثورية مع تنامي قدراتهم المطرد على القيادة .

والجدير بالذكر ان مناطق العصابات تختلف عن القواعد فالاولى مناطق نشاط للعصابات لا يزال للعدو وجود قوي فيها ؛ اما الثانية فهي مناطق وجود وسيطرة للقوات الثورية . وتتحول المناطق الى قواعد بعد أن تمر بمراحل ضرورية من حرب العصابات ؛ أي بعد فناء عدد كبير من القوات المعادية ، والحاق الهزيمة بها ، واثارة حماس الجماهير .

عندما تتزايد قوى الثورة ونفوذها ، وتتعقد اجهزتها ، تزيد حاجتها الى ادوات من العالم الخارجي . ومن أجل مواجهة هذه الاحتياجات بالشكل السليم ، يلزم ان تنهض خطوط تموين

منظمة بهذه المهمة على أتم وجه . فاذا ما وجد التنظيم المناسب ، واذا ما أقام جيش الثورة صلات ممتازة مع الفلاحين ، أصبح من المضمون وجود تموين فعال ودائم . أما الصناعات الحربية في قطاع جيش الثورة فلا تنشأ الا بعد تطور طويل ، كما انها تعتمد على سيطرة الثوار على منطقة ملائمة من الناحية الجغرافية (٣٥) .

ويوسع العصابات خلق المناطق المحررة مع تجاوز بعض المتطلبات الخاصة بالسعة او لوضع الاقتصادي ، اذا وقعت هذه المناطق على حدود دولة صديقة مستعدة للقيام بدور العمق الاستراتيجي والبشري والاقتصادي للمناطق المحررة .

وبالرغم من أهمية هذه المناطق المحررة وفوائدها ، فان البدء بتشكيلها قبل نضج الظروف اللازمة لذلك ، أو في مناطق لا تتلاءم مع متطلباتها ، يعرض الحركة الثورية لاخطار وتضحيات كبيرة . ولقد عاقت هذه المناطق المحررة في يوغسلافيا عمل العصابات الثورية في عدد كبير من الحالات . وكان مجرد وجودها يعني الخروج عن قاعدة هامة من قواعد المفاجأة التي تشكل أساس حرب العصابات ، كما انها كانت بالنسبة للعدو دعوة للهجوم . وقد تفقد العصابات عامل المبادأة ، وتقلل من قدرتها على الحركة والتملص . ومع ذلك يمكن التخلص من هذه السلبية ، باليقظة ومتابعة تحركات العدو والتبني المستمر للسياسة الهجومية ، وشن حرب عصابات واسعة النطاق في كل مناطق العدو المناسبة .

لقد اعتقد الاميركيون أن الاعتماد على القوة النارية الساحقة لوحداتهم والدعم الجوي المكثف والقابلية للحركة السريعة التي يتيحها الاستخدام الكبير للحوامات ، سيسمح لهم بالحصول على انتصار سهل ضد فيتنام . فكانت المعارك التي اضطروا لخوضها ضد الفيتناميين قاسية جداً وغير حاسمة . وفي النهاية ذاب العدو الاميركي في الاحراج . وادى استخدامهم الواسع للحوامات الى اقامة سلسلة من القواعد المحمية ، حيث كانت تمتص اعداداً هائلة من الافراد وتثبتهم في مواقعهم . في حين كان الفيتناميون ، معتمدين على شعبهم المناضل ، يعززون قواتهم باستمرار (٣٦) .

ويمكن القول بكثير من الثقة ، ان تثبيت العدو وتجميده امران محتومان ، اذا ما شن الثوار حرباً تقليدية ترافقها حرب عصابات واسعة النطاق ، خصوصاً اذا لم يكن العدو متفوقاً بشكل ملحوظ . ومن المؤكد ان قوات تشانغ كاي ـ تشيك في الصين والفرنسيين في الهند الصينية حاولوا تغطية مجمل اجزاء البلاد بقواتهم ، وان هذا الانتشار حرمهم من كل امكانيات القيام بهجوم كبير فعال ، وبالتالي انتقلت المبادأة الى ايدي القوات الثورية .

وفي الجزائر ، شرع الثوريون الجزائريون ، بعد ان نجحوا في الظهور بشكل بارز على مسرح الاحداث ، بتوسيع بقعة الزيت التي شكلها مناخ انعدام الأمن . ولقد كانوا يملكون إحساساً صائباً جداً بالاستراتيجية الملائمة لثورتهم . فكان قطبا الاضطراب هما قلعتا البر (الاوراس ومنطقة القبائل) الاكثر مناسبة للحرب الثورية . وفي النهاية وجدت جبهة التحرير الجزائرية نفسها قوية بصورة كافية لاشعال الحرب الثورية في كل البلاد ؛ مما مكنها من تحقيق النجاح .

ان قلب ميزان القوى لصالح قوى الثورة لا يتم عن طريق السلبية : فهو صراع يومي وسباق دائم مع عدو يعمل ما في وسعه للحفاظ على ميزان القوى بوضعه الراهن والملائم له .

وفي الحرب الثورية ، سوف تكون هناك مناطق للعدو غير مؤاتية لحرب العصابات ، ويجب مع ذلك ان تبدأ مجموعات صغيرة في اقتحامها ، فتهاجم الطرق وتدمر الكباري وتثبت الالغام وتشيع الفوضى فيها ، كحرب عصابات مساعدة . ثم ان التدمير يزداد في عموم المناطق الملائمة لحرب العصابات وتتوجه العصابات من منطقة الى اخرى حيث تشتبك مع جيش العدو في جبهات محددة . ويتم سقوط العدو عندما تتحول الانتصارات الجزئية تدريجياً الى انتصارات نهائية .

الحرب الثورية هي حرب الشعب . وليس للمظاهر العسكرية لهذه الحروب الا مدى محدود ، وخصوصاً ان تقنيات العصابات الثورية أصبحت الآن متقنة جداً . والحرب الثورية هي حرب النفس الطويل ، ولا يمكن الحصول على الحسم فيها الا عبر نفاذ الصبر ، والطرف الذي يصمد اطول وقت ممكن ، هو الذي يقاتل تحت راية أكثر الدوافع حيوية ؛ أي تحت راية شعارات سياسية تتلاحم معها جماهير الشعب . ويرتبط النصر حتماً بالقيمة النسبية للافكار السياسية القائمة . وفي النهاية ليست القوة المادية هي التي تنتصر وانما بالتأكيد القوى المعنوية .

لقد شهدت الحرب الفيتنامية مواجهة بين مفهومين ، المفهوم الاميركي المادي أساساً والمفهوم الفيتنامي المستند الى الانسان . وكانت قوة النيران الاميركية الهائلة – خصوصاً الجوية – اكثر من مخيبة لآمال الاميركيين . فالحرب الصناعية كانت عاجزة امام الصناعة العسكرية اليدوية للثوريين الفيتناميين . ولقد زاد التأييد لحكومة فيتنام الثورية وارتفعت سمعتها وهيبتها ، لأنها صممت على شن حرب المقاومة ، ولأنها حكومة موحدة كلياً تشارك الشعب ويلاته ، ولأنها تنتمي الى الشعب وتعمل لصالحه (٣٧) .

ومن المبادىء الراسخة التي يجب استمرار التذكير بها ، أنه اذا ما واجهت العصابات الثورية عدواً قوياً مصمماً ، كان عليها ان تخطط لحرب طويلة الأمد . ويستفيد الثوار عادة من طول مدة الحرب ؛ فالصراع الطويل المدى يضعف العدو ويعطي العصابات الزمن اللازم لقلب ضعفهم الى تفوق . ومن البديهي ان يساعد وجود القواعد الثورية المحررة هذا التحول التدريجي في ميزان القوى .

ومن مسلمات الحرب الثورية ، ان تعاقب المراحل ذات الأهداف المحددة في اطار الاستراتيجية الشاملة للحرب الثورية ، هو جوهر مخطط العمل الثوري . فغالباً ما تكون هناك مرحلة اعداد نفسي ، ومرحلة اعداد مادي تعقبهما مرحلة استثمار نفسي – سياسي ، فتؤدي جميعاً إما الى مرحلة مفاوضات ، مع المحتل الاجنبي لأرض الوطن ، أو استيلاء الثورة على السلطة السياسية ، بعد اسقاط السلطة العميلة من خلال الانتصار الكامل في الحرب الأهلية .

في الجزائر ، افتتحت مرحلة جديدة في بداية العام ١٩٥٧ ، حيث فهمت جبهة التحرير

الوطني الجزائرية الاهمية الدولية لموقفها ، كما فهمت نقاط ضعف السياسة الفرنسية في باريس . وفي الوقت نفسه تابعت عملها السياسي والعسكري على كل صفحة الجزائر . واستخدمت الجزائر العاصمة ميدانا لاطلاق الضجيج بمضاعفة اعمال الارهاب ، مع أخذ كيان سياسي على المسرح الدولي يعطيها أكثر فأكثر هيبة الحكومة ، وممارسة عمل سياسي نشيط في فرنسا يستهدف احداث انقسام في الرأي العام الفرنسي إزاء الحرب الجزائرية (٣٨) .

وجدير بالملاحظة ان أسس الحرب الثورية تتلخص في العمليات السريعة المتحركة لجيش الثورة ، التي تقوم بمهمة ابادة العدو ، والحرب الموقعية في القواعد الثورية الحصينة التي تؤدي الى انهاك العدو ، وحرب العصابات الثورية التي تقوم بدور الانهاك والابادة معاً . فعندما تصل الحرب الثورية الى مرحلة الهجوم وتطويق القواعد المعادية وايقاع الهزيمة بالتعزيزات ، وعندما تصل الى العمل الجماهيري والحماس المستعر في الرقعة القومية بأسرها ، عندها يمكن الوصول نهائيا الى الغرض المنشود من الحرب الثورية في فرض ارادة الثورة .

وفي كوبا ، عندما نضجت الثورة الكوبية ، كانت سنتياغو كلها مع كاسترو ، ويخفي كل السكان رجاله . وأتاحت له كمائنه تسليحاً ذا أهمية ، خلال بضعة أيام ، استولى على النصف الغربي من البلاد كلها وسار باتجاه هافانا . وبتاريخ ٢١ كانون الاول دخل بصورة مهيبة الى هافانا واصبحت البلاد كلها تحت سيطرته (٣٩) .

ومنذ العام ١٩٤٨ ، خضعت لحركة ماو الثورية كل الصين الشمالية ، وامتص ماو تدريجيا قوات تشانغ كاي ــ تشيك وعتاد المعونة الاميركية . وتضخم جيشه الأحمر ، وتفوق حتى في العدد على الجيش الصيني الأبيض .

وفي الأول من تشرين الأول ١٩٤٩ ، استطاع ماو ، بعد ان تمكن من اخضاع كل الصين تقريباً لسلطته ، من اعلان قيام الجمهورية الشعبية الصينية (٤٠) ويعزى هذا الانتصار لثلاثة عوامل رئيسية :

الاول : فاعلية تكتيك العصابات الذي أعده ونفذه ماو ورفاقه .

الثاني : عجز ادارة الكومنتانغ وفسادها ، والفوضى الكبرى في الوضع الاقتصادي الصيني .

الثالث : القوة المعنوية للحركة الثورية الصينية وفاعلية الجيش الأحمر الصيني .

وأخيراً ، ان النصر في الحرب الثورية ، يجب ان ينطلق من أسس لا بد من توافرها ، حتى تستطيع القوى المعنوية للحركة الثورية قهر القوى المادية للعدو وفرض الارادة عليه .

فالثورة ، أولا ، يجب ان تنطلق من نظرية ثورية واضحة ومقنعة تستطيع ان تكتل قوى الشعب خلف شعاراتها . ثم ، طليعة ثورية متجانسة تتبنى الحرب الثورية طريقاً وحيداً للنضال . وأخيراً ، مخطط عملي مرحلي يبنى على الواقع الحي ولا يتجاوزه ، في اطار استراتيجية ثورية شاملة .

وبعد كل ما تقدم ، لا يسعني الا أن أضيف ، ما يجب ألا يغرب عن البال ، وهو ان

التجسيد الحي للثورة يتم عبر نماذجها البشرية التي تتصدى للنضال الثوري الشاق . فبقدر ما يكون الثوار ، قيادة وقواعد ، نموذجا مجسداً للنقاء الثوري والفعالية النضالية ، ومضرب المثل في التضحية ونكران الذات ، بقدر ما يعكس ذلك ، التحاماً شعبيا بالثورة ، وتياراً بشرياً جارفاً لا يغلب ، سيؤدي بالنتيجة الى الانتصار .

---

(١) الجنرال بوفر ، « الحرب الثورية » ، ترجمة الهيثم الايوبي واكرم ديري ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٢ ، ص ١٠٩ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٣) يجى دوبريه ، « ثورة في الثورة » ، ترجمة الياس سحاب، بيروت ، منشورات دار الآداب ، ١٩٦٩ ، ص ١٢١ .

(٤) كارلوس ماريغللـه ، منظمة التحرير الفلسطينية – مركز التخطيط – المكتبة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٩، ص ٨٢ .

(٥) دوبرية، مصدر سبق ذكره ، ص ١١١ .

(٦) الجنرال ج . اوبري ديكنسون واوتوهيلبرون ، « حرب العصابات السوفييتية » ، تعريب اكرم ديري والمقدم الهيثم الايوبي ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، فرع مصر ، ١٩٦٨ ، ص ٥٧ .

(٧) دوبريه ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٤ .

(٨) ابو همام ، « المقاومة عسكريا » ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٣٩ .

(٩) الجنرال بوفر ، مصدر سبق ذكره ،ص ٣٥ .

(١٠) دوبريه ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٨ .

(١١) الجنرال بوفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٥ .

(١٢) منظمة التحرير الفلسطينية – مركز التخطيط ، « مبادىء اساسية في حرب العصابات » ، سلسلة ترجمات رقم ٤ ، بيروت نيسان ، ١٩٧٠ ، ص ٥ .

(١٣) الجنرال ج . اوبري ديكنسون واوتوهيلبرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٧ .

(١٤) تشي غيفارا ، « حرب العصابات » ، ترجمة ناهض منير الريس ، منشورات دار الآداب ،بيروت، ص ٤١ .

(١٥) اوتوهيلبرون، « حرب الانصار » ، ترجمة المقدم الهيثم الايوبي ، دار الطليعة، بيروت شباط (فبراير) ١٩٧١ ، ص ٩٨ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

(١٧) الجنرال ج . اوبري ديكنسون واوتوهيلبرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٩ .

(١٨) دوبريه ، مصدر سبق ذكره ،ص ١٦ .

(١٩) هوشي منه ، « مختارات حرب التحرير الفيتنامية » ، ترجمة منير شفيق ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٣٦ .

(٢٠) الجنرال بوفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٦ .

(٢١) غيفارا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٥ .

(٢٢) ماوتسي تونغ ، « حرب العصابات – تعبويتها الاساسية وعملياتها » ، ترجمة ناجي علوش ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٥٢ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٢٤) الجنرال ج. اوبري ديكنسون واوتوهيلبرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥١ .

(٢٥) ماوتسي تونغ ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦ .

(٢٦) غيفارا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦١ .

(٢٧) هوشي منه ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧٤ .

(٢٨) دوبريه ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٠٦ .

(٢٩) الجنرال بوفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩٥ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ٢٥٥ .

(٣١) دوبريه ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٢ .

(٣٢) ابو همام ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤١ .

(٣٣) الجنرال بوفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٤١ .

(٣٤) ماوتسي تونغ ، « ست مقالات عسكرية » ، دار النشر باللغات الاجنبية ، بكين ، ١٩٦٨ ، ص ١٨٦ .

(٣٥) غيفارا ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨٩ .

(٣٦) الجنرال بوفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٦٩ .

(٣٧) هوشي منه ، مصدر سبق ذكر ، ص ٢٧١ .

(٣٨) الجنرال بوفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٩٤ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٢٣٠ .

(٤٠) المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ .

د. حسني محمود حسين

الشعر واليقظة العربية قبيل الانتداب البريطاني

مدخل لدراسة شعر المقاومة الفلسطينية

تمهيد

في اعقاب هزيمة ١٩٦٧ التي حاقت بالامة ، تلاشت الجدران المانعة للصوت التي غيبت وراءها الاقلية العربية في فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ ، لئلا يصل الى إسماع امتهم شيء من همسهم او حتى صراخهم . وكذلك انهارت الاسوار التي توهمت الدولة الصهيونية أنها رفعتها حول ما قدرت انه قبر الشخصية الفلسطينية ، بعد ما يقرب من عشرين عاما قدر ان تكون موتا بطيئا لها . واذا بهذه الشخصية ، على عكس كل ما خطط ضدها ، تبدو في حال من الوعي العميق ، وقد انتصبت قامتها وعلا صوتها ؛ ومن فلسطين المحتلة جاء الصدى ، واكتشفت الامة نهرا كبيرا من الشعر يتدفق من تحت مرقدها ، ظل ابناؤها الشعراء المأسورون لسنوات طوال يشقون مجراه دون ان تدري هي عنه شيئا ، الا القليل كان قد تسرب منه في بطء خلال جدران الصمت واسوار العزلة .

كان هؤلاء الابناء قد اقاموا صرحا من الشعر لم تكن الامة تعرف ماهيته ؛ اذ لم يكن ما عرفته منه اكثر من اصوات دقات قليلة في الصرح . وعندما تلاشت الجدران جاء الصوت ، وتدفق النهر ، وظهر الصرح ؛ فرأت الأمة من شأن ذلك كله عجبا ، ونظر معظم النقاد والادباء الى هذا الشعر ، فجعلوا منه ، لفرحتهم به بقرة الهندوس ، فوق كل خطأ ، واعلى من كل نقد ، حتى لقد احس اصحاب الشعر نفسه بالضيق من هذا « الحب القاسي » . وبالدرجة نفسها من الاقبال العاطفي ، الذي تزاحم فيه الكثيرون على هذا الشعر ، ادبر آخرون عنه واداروا ظهورهم له ، بدون تقدير لظروف اصحابه وحياة اهله ، حتى لقد سلبوه جوهر خصائصه ، واصل وجوده : المقاومة . وظل هذا الشعر ، في الغالب ، تتحكم فيه بيننا قسوة العاطفيين .

ومصطلح « شعر المقاومة » حديث نسبيا ، فقد اطلقته الحرب العالمية الثانية ، او بالاحرى ،كان بعض مذاقاتها . طغى طوفان هتلر على اوروبا فجمع الناس المهزومين على كراهة النازية ، ووحد هدفهم في مقاومتها والخلاص من ويلاتها . ولم تكن الشعوب المقهورة اقل حضارة أو وعيا من القوم المنتصرين ؛ فمجتمعاتهم تنعم باستقرار حضاري وديموقراطي، وقد

تجذرت اصوله في تربة الحياة ، واضحت عريقة في نفوس الناس وتراثهم . ولما لم يكن في مخطط النازيين المحتلين طرد هذه الشعوب من اوطانها ، وهم لم يحاولوا ذلك ، فان الاحتلال بطبيعته لم يلامس اكثر من سطح حياتها ، وان خضخضها عاطفيا في اعماقها . وكان طبيعيا ان يهب الوطنيون في البلاد المحتلة لقيادة شعوبهم ضد المحتل ودعاياته ، وضد المتعاونين معه . وقد اخذ الشعراء الوطنيون في هذه الشعوب من ادوار الريادة ما اضفى على شعرهم ، وعلى « الكلمة » بوجه عام ، امجادا ستبقى الانسانية تفخر بها في سجل الخلود . وهكذا فان مفهوم شعر المقاومة في اوروبا يرتبط بظروف الحرب واحتلال النازيين والعمل السري في مقاومته ؛ فهو رفض لهذا الاحتلال ، وتعبئة لقوى شعوب شعرائه لدحره وانقاذ الاوطان من خزيه وويلاته . وقد وجد هؤلاء الشعراء انفسهم ضمن تنظيمات سرية ساهموا ولا شك في خلقها ، فعاشوا بين مواطنيهم روح المقاومة ، واكتوت ارواحهم بنارها ، وتحرقوا في أتونها ، فكان شعرهم ، يؤصله تراث ونهضة عريقان : اصالة فن ، وعمق اثر ، وصدق تجربة ، بحيث ادى دورا حاسما في المقاومة الوطنية ، ثم سجل في النهاية انتصاره مع انتصارها . وبلغ اثره بانتصاره ، وبجمعه اوروبا ، بل العالم ، على كراهة النازية ، حداً جعل مفهومه الخاص ، بحكم ظروفه ، يطغي على تفكير الكثيرين ، فيريدونه ، بخصوصيته ، ان ينسحب على كل ظرف وكل زمان . وقد ينضوي مفهوم هذا المصطلح فيما نسميه عندنا احيانا الشعر الوطني واحيانا اخرى الشعر السياسي او القومي ، مع بعض الفروق ضيقا أو اتساعا ، بحسب مقتضيات الحال ؛ اذ يتجلى كثير من عناصره وفحواه في شعر هذه الفترة او تلك من حياة الامة العربية الحديثة بخاصة ، وان لم يطلق عليه المصطلح نفسه بمفهومه الاوروبي المحدد ، الذي انتهى بلا شك ، بسحق الاحتلال الهتلري وغياب النازية .

ونحن نفهم المعنى المجرد والمطلق للمقاومة ، او ما يمكن ان يسمى على غرار تعريفات الأقدمين ، المعنى اللغوي للمقاومة . فادب المقاومة ، او شعر المقاومة ، هو ادب او شعر يقاوم شيئا ما ، او انه كل ادب حقيقي او شعر حقيقي يستشرف المستقبل في محاولة لتجاوز الواقع او رفضه او تغييره . ويرى بعضهم « ان كل ادب او شعر يتخذ من اسطورة « البعث » خامة فنية ورؤية فكرية يندرج تحت ادب المقاومة ، وان الادب كأدب هو في ذاته نشاط انساني يقاوم عوامل الضعف والخور التي قد تلم بالنفس البشرية في لحظات الانكسار » (١) .

والمقاومة ، في معناها المطلق ، ليست مقصورة على شكل محدد من اشكال العمل الوطني ، ولو كان الكفاح المسلح ؛ اذ تتعدد اساليبها بتعدد طبيعة ملاكات العمل الوطني ، ويتسع مدلولها ويتراخى بين الصمت في حينه وبين لهجة السلاح عندما يأخذ السلاح دوره ، عرورا بكل الوسائل التي يمكن ان يعتمدها المقاوم لاضعاف خصمه والتخلص منه ، بالقلم ، بالريشة ، بالازميل ، بالصوت ، بالعيون ، بالغناء ، بالرقص ، بالصخب والعنف وحتى بالهدوء والصمت ؛ فهو يتمدد على اوسع مساحة من امكانات التصرف الانساني الرافض لواقع ما ، من اقصى جوانب السلبية الى اقصى جوانب الايجابية . والفنان ، دائما ، ولأنه « جهاز الامان » في الأمة ، ولأنه شاهد العصر والضمير فيها ، هو المرهص بولادة روح المقاومة وبزوغ نبتها . والذي يهمنا ان نشير اليه حقيقة ، هو المفهوم الاصطلاحي للمقاومة وما وراءه من خلفية سياسية واجتماعية . ويمكننا ان نتلمس روح المقاومة العربية في شعر الحماسة والبطولة ،

قياسا على معطيات الظروف التي كان يغنى فيها ، اثناء الحروب الصليبية قبل ان يرقد الشعر العربي في فترة سبات طويلة ، ليصحو بعدها على نبض الحضارة الحديثة ، تبعث الدفء في أوصاله ، فيجد نفسه في ظلام العثمانيين وتحت كابوسهم الثقيل ويتململ الشعراء والناس نيام ، يؤازرون حركة الاصلاح والنهضة الفكرية التي دعا اليها الرواد في الشرق العربي . وما كاد العرب يرفعون عن صدر حياتهم الكابوس العثماني حتى اخذ مكانه كابوس الاستعمار الاوروبي في ظروف الحرب العالمية الاولى . وقد وسم شعر هذه الفترة المبكرة بسمة الشمول والدعوة الى اليقظة والتنبه والوعي ، ووجد نفسه امام مقاومة الطغيان والظلم من قبل الحكام المفروضين في ظلال السيطرة الاجنبية ، وامام مقاومة عوامل التخلف التي يدعوهم الوعي الجديد الى نبذها والتعلق بركب الحضارة الحديثة ، وامام محاولات سحق الشخصية العربية وقتل لغتها القومية وانتقاص قيمتها ، فراح يدعو ويبشر منذ وقت مبكر بدعوة القومية وآمال الوحدة . ونستطيع ان نتلمس ملامح المقاومة ، مهما كانت هزيلة احيانا ، في شعر هذه الفترات الوطني والقومي والسياسي ، وان نجردها عما خالطها ، في الغالب ، من عناصر اخرى قد لا تتصل بمفهوم المقاومة عن قرب .

وعلى الباحث في شعر المقاومة العربية بعامة ، والفلسطينية بخاصة ، ألا يتسرع ويخدعه مفهوم المقاومة ، كما بيناه في الشعر الاوروبي ، والمحدد بظروفه المعينة ، فينساق في تطبيقه على شعرنا ببساطة وحسن نية ، او بخبث وسوء نية ، اذ يجب ان نأخذ في الاعتبار ظروف حياتنا وقضايانا التي نقاوم من اجلها ، بدون ان نتناقض مع ذلك المفهوم الذي ينطبق على بعض مراحل حياتنا وظروفها . ونحن لا نوافق على تضييق مفهوم المقاومة الى حد التعامي عن ظروفها وظروف شاعرها والانسان من حوله . فالمجتمع العربي ، في عمومه ، مجتمع زراعي متخلف ومحجور عليه ، حكمته وما زالت تتحكم في كثير من اجزائه فئات اقطاعية توالي الاستعمار ، وتضخم التناقضات في بنيته البشرية احكاما لخنقه واخضاعه باستمرار لقوى التخلف والاستعباد في الداخل والخارج ، ثم هو مجتمع يفتقر الى القيادات الفكرية والروحية الغنية التي يلغى باستمرار دورها في محاولة انتشاله من ظلم الحياة وظلامها . ومع مواطن العقم العديدة المصاب بها هذا المجتمع ، فان عليه ان « يستوعب عدة مراحل حضارية في فترة قصيرة زمنيا ، وهو تحت ضغط ظروف مصيرية لا يستطيع الانتظار ، بل ، هو على العكس ، مدعو بالحاح الى تجاوز هذه المراحل وتخطيها » (٣) . ومن هنا كانت تناقضات المثقفين العرب وتمزقاتهم ، وهم يرون مجتمعاتهم ميادين صراع بين قيم الاقطاعية والبرجوازية الى جانب الاستبداد الداخلي والتسلط الاجنبي من نحو ، وبين القيم الحقيقية التي ترنو اليها الأمة في التحرر والاشتراكية والوحدة من نحو آخر ، بدون ان يستطيعوا فعل ما يقدرون عليه في خدمة أمتهم وتحقيق آمالها ، فيعيشوا حالة الانفصام الحاد بينهم ، كذوي كلمة ، وبين بعض ذوي السلطان الذين يغلون ايديهم ويخنقون اصواتهم ليقتلوا فيهم الفكر ، ويئدوا الكلم ثم يروحون بنفوذهم السياسي ، وبقوة اجهزتهم الاعلامية يعكسون الحقائق ، فيحملون الادب والفن واصحابهما مسؤولية تأخر الأمة الذي يكرسونه هم باخلاص وتفان ، وفشلها الذي يزرعونه بأيديهم وان فرضوا عليها حصاد سنبلة .

هذه الظروف ، مع ما يمكن ان يكون هناك سواها ، مما خضع ويخضع لها المواطن العربي ، كما خضع لها معه ابن فلسطين في منافيه ومناطق تشرده العربية منذ نكبة عام

١٩٤٨ ، لا يمكن الا ان تؤثر على تحديد مفهومنا للمقاومة لديه . واذا اضفنا ما ابتلي به العربي في فلسطين بشكل خاص من اطماع الحركة الصهيونية ومخططاتها وما ترتب عليها قبل النكبة وبعدها ، على مدى ستين سنة ونيف ، فاننا نجد انفسنا امام قضية فريدة ذات وضع متميز لا بد من فهمها واستيعاب ظروفها وتطوراتها ، ليكون تحديدنا لمفهوم المقاومة دقيقا وشاملا ، وتقديرنا لدور الشعر فيها واضحا ومنصفا . فقضية فلسطين اكبر من مجرد احتلال او غزو أجنبي إستعماري . انها قضية إستعمار استيطاني قام على طرد سكان البلاد الاصليين بالقوة واحلال مجموعات اخرى من الناس محلهم ، جيء بهم من اوطان عديدة ، ليضعوا ايديهم عنوة وقهرا بمساعدة قوى العالم الامبريالية والصهيونية وبتخطيطهما . وهي بذلك تمثل ذروة المد الاستعماري وطوفان مطامعه واخطاره . ثم ان القضية تطورت على مدى عشرات السنين تخطيطا وتنفيذا لمخططات سخرت لها قوى فردية وعالمية على اوسع نطاق واعلى مستوى ، وهي ما تزال وستبقى فترة لا يعلمها الا الله حتى يصل نهر المأساة فيها الى محيط من العدل تغرق فيه آثام الانسانية الطاغية المتجبرة . فبدءا من مؤتمرات الصهيونية التحضيرية ومرورا بتصريح بلفور ، ثم بالانتداب البريطاني على فلسطين ، وما هيأه هذا الانتداب من ظروف وضع فيها البلاد واحاط بها السكان تمهيدا لانشاء الدولة الصهيونية ، ثم بما قدمته الحركة الصهيونية وقوى العالم الاخرى التي ساعدت على وقوع الكارثة ، وانتهاء باعلان قيام الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ ، وما تعلق بذلك من سياسات الدول ومواقفها ، وما ترتب عليه من تشريد مئات الآلاف من عرب البلاد الى المنافي العديدة في اصقاع الارض وبخاصة في البلدان العربية ليعيشوا مع اشقائهم ظروفا ذات طبيعة خاصة منحرفة ترهق الفكر ، وترضرض النفس ، يتشوقون واياهم الى يوم التحرير ، وكذلك ما ترتب عليه من بقاء عشرات الوف اخرى من العرب في ارضهم ليعيشوا اقلية مضطهدة تحت حكم عدو شرس اخذ على عاتقه التخطيط لمحق شخصيتهم ومحو انتمائهم القومي بكل اساليب البطش والطغيان .

اذا تبصرنا هذه الظروف ، ولا بد ان نفعل ، حتى نكون اقرب الى الصدق ، فاننا بتقدير ما ، نخرج بمفهوم للمقاومة العربية الفلسطينية يتطور ومقتضيات القضية في تطوراتها ومراحلها المتتابعة والمتنوعة . والمقاومة هنا ، وفي كل حالاتها ، تقوم على محور رفض سلبيات الامر الواقع ، والايمان التام بلا معقولية استمرار هذا الواقع وبوجوب تغييره . وتعددت مظاهرها وتشكلت في صور شتى ابتداء من المقاطعة والاضراب الى الثورة وحمل السلاح . وقام الشعر في كل الحالات بدور ايجابي فعال طويل المدى ، لم يقتصر على اعلان رفضه الامر الواقع فقط ، فشارك في تنبيه الرأي العام ، وفي البناء النفسي للفرد العربي الفلسطيني ، فغرس في نفسه قوة الاصرار وارادة التحدي ، واشعل جذوة الحماسة لتحقيق الآمال ، وخلق روح المقاومة الفكرية والغضب على الاستعمار والصهيونية وعملائهما من الرجعية وما تمثله من تخلف ، واتخذ دعوة الوحدة والقومية سبيلا الى تحرير الارض والانسان من كل الاعداء . وهكذا فان الشعراء العرب الفلسطينيين قد فهموا المقاومة ضد كل سلبيات الحياة والانظمة والمعوقات التي تمنع الشعب او تحد من ارادته في تحقيق آماله ، فلم يقتصر شعرهم على مقاومة الوجود الاستعماري والاحتلال الصهيوني وحسب ، بل تناول ايضا مظاهر الحياة الاجتماعية والفكرية ، فتعمق الحياة العربية وندد بكل مظاهر السلبية مقدرا ، منذ وقت مبكر ، ان المعركة مع الاعداء وحتى مع النفس العربية ، معركة حضارية اولا واخيرا ، وانها اعمق من مجرد

الرفض ورد الفعل الآلي ، فاتسم ببعض ملامح ثورية ، اذ دعا الى التسلح بالعلم والى تغيير الواقع احيانا ، وتحسينه واصلاحه احيانا اخرى .

وشعر المقاومة هذا ليس نبتا شيطانيا نبت ونما وزكا في فراغ ، وانما هو شعر عربي تمتد جذوره في هذه الارض العربية فشعراؤه يعترفون بتأثرهم بالشعر العربي بعامة ، وبالشعر في فلسطين بخاصة ، سواء وعوا بعض جوانب هذا التأثر ام لم يعوها ؛ فهم امتداد ثقافي ناضر للشعراء السابقين عليهم في فلسطين ، وكما ان مآل قضيتهم اليوم مرتبط ببداياتها وبكيفية تطورها ، فان هذا الشعر هو ثمار التراكم الثقافي لديهم ولدى اجيالهم ، وهو مرتبط ببدايات هذه الثقافة وفي جذورها لدى الاجيال التي سبقتهم ، وفي كيفية تطورها ايضا . ومن هنا فانه من الاجدى ان نلج ابهاء هذا الشعر من على عتباته الطبيعية مدخلا اساسيا لدراسته وتقويمه وتقدير دوره وواقعه . وهكذا ، فاننا نرى ان جذور هذا الشعر وخلفياته يمكن ان تمتد الى مطالع هذا القرن ، حيث كانت مرحلة تحول حياتية تتحدد وتتبلور وترهص بالاحداث . وامتدت هذه المرحلة وتطورت بكل مظاهرها الحياتية . وكان الشعر من ابرز ملامح هذه المظاهر ومن اهم معالمها .

الشعر واليقظة العربية في فلسطين قبيل الاحتلال البريطاني

كانت البلاد العربية ، وفلسطين جزء منها ، قسما مهما من اقسام الامبراطورية العثمانية ، وظلت فلسطين دائما تشكل الجزء الجنوبي من بلاد الشام ، فكانت تحت حكم العثمانيين تتداخل بصور مختلفة ضمن تقسيماتها الادارية كجزء ملتحم بهذه البقعة الجغرافية ، الا ما كان من استقلال متصرفية القدس ، فقد ظلت ترتبط بوزارة الداخلية في عاصمة السلطنة مباشرة ، وذلك لمكانة القدس الدينية والتاريخية .

ولم تعرف التقسيمات التي تعهدها اجيالنا الحديثة الا مع نكبة هذه المنطقة بالاستعمار الاوروبي الحديث الذي خلقها ظلما وعدوانا ، وراح يرسخ هذا التمزيق ويبرز حدوده ويثبتها طوال حقبة الزمن التي اعقبت الحرب العالمية الاولى . ففلسطين ، بحدودها التي اصطنعها الانتداب البريطاني لم تكن الا معلما من معالم الصورة العامة لبلاد الشام ، او ملمحا من ملامح وجهها . وانه لمن اسوأ الامور واشدها مرارة على النفس ان نضطر دائما في دراستنا الادبية الحديثة ان نفرد هذه الاقطار بدراسات مستقلة خاصة بكل قطر ومتمشية مع تقسيمات الاستعمار وحدوده السياسية التي حددها بها ، مع ان الانتاج الادبي في كل منها كان جزءا من مجموع الانتاج الادبي العام فيها ، وتحت الظروف العامة المتشابهة للبلد الواحد مع الفوارق الجزئية الطبيعية بين المراكز والاطراف . فاذا ما القينا نظرة على احوال هذه البلاد تحت الحكم العثماني ، فاننا نجدها متشابهة على العموم في النواحي الادارية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفكرية والتعليمية ، الا في حالات خاصة اختص بها لبنان تحت ظروف معينة في فترة من الزمن . تلك احوال حكمها ، على العموم ، الجمود والتخلف والتقهقر : اذ كان الجهل يخيم على جمهور الناس ويتحكم في مجرى الحياة العامة ويوجه تياراتها . » وقد ظلت فلسطين طوال القرن التاسع عشر خالية من اي ضرب من ضروب التعليم الحكومي الحديث الذي يعين على ايجاد نهضة ادبية آنئذ . فقد كانت المدارس إما « كتاتيب وقفية » دينية قديمة لم تنل أي حظ من الاصلاح ، مهمتها تعليم شيء من القراءة والكتابة والتجويد، وإما مدارس

رسمية ابتدائية قليلة العدد ، لغة التعليم فيها التركية وليست العربية . وبذلك لم يقم فيها اي تعليم ثانوي او عال ، اذ لم يوجد فيها اية مدرسة اعدادية (ثانوية متوسطة) قط حتى سنة ١٨٨٩ ، ولم تنشأ فيها اية مدرسة ثانوية كاملة الا قرب زوال الحكم التركي سنة ١٩١٢ » (٣) وفي هذا دليل على ضيق انتشار التعليم ونوعه ومستواه .

ويمكننا ان نكون لانفسنا ملامح لصورة هذا التعليم وواقعه اذا عرفنا ، بالاضافة الى نوعية مدارسه ، ضعف المعلمين القائمين على هذه المدارس وتدني مستوياتهم الثقافية ، فهم ابناؤها ، وضعف الاشراف الحكومي عليها (٤) . ثم اذا عرفنا ان لغة التعليم فيها لم تكن اللغة العربية ، وانما اللغة التركية التي كانت تفرض لغة للتعليم على ابناء المسلمين ، اذ لم يكن يسمح بالتدريس باللغة العربية الا في مدارس الطوائف المسيحية وفي المدارس الاجنبية ، بالاضافة الى لغات هذه الطوائف والجهات الاجنبية التي تتبعها هذه المدارس ، وكانت كثيرة نسبيا في فلسطين بسبب ما للاراضي المقدسة من مكانة وتقدير لدى الدول الاجنبية . ولهذا فليس غريبا ان نرى التعليم العربي الحديث والنهضة الادبية الحديثة يقومان على ايدي ابناء هذه البلاد المسيحيين قبل ابنائها المسلمين ، الذين انحصرت فرص التعليم امامهم تقريبا في المدارس الوقفية المتخلفة ، وفي المدارس الرسمية التي كانت تعلم باللغة التركية . وامام الامكانات المحدودة التي فرضتها سياسة الحكومة التركية لم يتح للرعيل الاول من ادباء هذه البلاد الذين نشأوا في ظل الامبراطورية ان يصيبوا قسطا كبيرا من التعليم ، فظلوا يدورون في دائرة علوم النحو والفقه قراءة وتأليفا ، شرحا واختصارا دونما ابتكار أو اصالة ، مثلهم في ذلك مثل اندادهم في البلاد العربية الاخرى ، ما عدا مصر ولبنان الى حد ما . وهكذا تجمدت الوان الحياة الثقافية الى حد كبير على بعض الموروث من العلوم اللغوية والشرعية ، فكانت تعقد لها الحلقات الصغيرة والمجالس في مساجد المدن الكبرى ، وبخاصة في المسجد الاقصى في بيت المقدس ، وفي جامع الجزار في عكا .

وتكتمل صورة الحياة الثقافية المتقهقرة في فلسطين اذا اخذنا بعين الاعتبار ضعف صلتها الثقافية بالعالم الخارجي : فقد كانت « طوال القرن الماضي منقطعة او كالمنقطعة »(٥) . بخلاف لبنان ومصر : اذ لم تكن تتاح الفرصة الا لقلة من ذوي الثراء يوجهون ابناءهم في طلب العلم واستكمال الدراسة الى بيروت او طرابلس الشام حيث المدارس السلطانية (الثانوية) ، او الى الآستانة حيث المدارس الثانوية والعالية المختلفة ، او الى مصر للمجاورة في الازهر الشريف بخاصة . وقليلون جدا كانوا يؤمون بعض دور العلم في اوروبا ، وبخاصة في فرنسا . ومن الجدير بالذكر انه لم يكن لهؤلاء اثر كبير في حياة بلادهم الثقافية او نهضتها العامة ، الا أنهم لم يكونوا يعودون للحياة او للعمل فيها ، لاحساسهم بانها تضيق عن امكاناتهم وثقافتهم ، فسرعان ما كان من يعودون منهم الى بلادهم يحسون بالغربة وبالاختناق الثقافي والاجتماعي في بيئاتهم المتخلفة الى حد الجمود ، فيهجرونها الى بلد آخر داخل الامبراطورية او خارجها ليجدوا المناخ الثقافي واجواء الحياة الأكثر مناسبة ، يساعدهم على ذلك كون الاقطار الداخلية مفتوحة الحدود ضمن امبراطورية واحدة وتخضع لحكم مركزي موحد . اما اولئك الذين كانوا يعودون الى مدنهم وبلادهم حتى في مطالع القرن العشرين ، فقد كانوا « بحكم طبيعة ثقافتهم وتحصيلهم العلمي بقية من قديم وليسوا بداية لجديد ، حفظوا اطرافا من التراث التليد ، ولكنهم لم

يشاركوا في صنع تراث جديد ... ان القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين لم يضما جذور النهضة الادبية والفكرية الحديثة في الداخل ، وان كانا قد القيا ببذور اثمرت في الخارج » [٦] .
وهكذا لم يكن في مقدور فلسطين ان تنفردبحياة ثقافية متكاملة ومستقلة ، شأنها شأن كل جزء بالنسبة الى الكل الذي ينتمي اليه ، فلا عجب اذن ان تخلو في ظل العثمانيين لهذه الاسباب مجتمعة ، من العوامل التي تبعث النهضات الفكرية والادبية في الامم .

بالاضافة الى هذه العناصر التي تألفت منها صورة الحياة الثقافية في فلسطين ، عرفت البلاد بعض العناصر الاخرى منذ بدايات القرن العشرين ، فظهرت الصحافة الوطنية ؛ اذ انشئت بعض الصحف في القدس وحيفا ويافا وعكا وبيت لحم وسواها من المدن . وأسست كذلك بعض الاندية والجمعيات والحلقات الادبية منذ اواخر القرن التاسع عشر ، ثم نمت نموا لافتا للنظر في النصف الاول من القرن العشرين ، كما كان للاحداث السياسية التي كانت تعتمل داخل الامبراطورية تأثير كبير في حياتها ، وتركت بصماتها واضحة على الحياة الثقافية بخاصة ، وكان من اهم هذه الاحداث اعلان الدستور عام ١٩٠٨ حيث كان قمة لاحداث تمخضت عنها الحياة داخل بلاد السلطنة في الحقبة الاخيرة من حياتها . وكان لهذا الحدث ، مع ما تلاه من تطورات ، أثر كبير في سير الحركة القومية العربية ونشاطاتها واتجاهاتها ، وقد شارك فيها العديدون من ابناء فلسطين ، فكانت لهم ادوار بارزة في تلك الحركة انشاء وتنظيما وتوجيها . والدعوة العربية « لم تكن قبل الدستور العثماني منظمة او ذات هدف معين ، بل كانت عاطفة قومية تظهر من حين الى آخر في الادب العربي بمظهر التذكير بالماضي والاهابة بابناء الشرق العربي الى التقدم في سبيل العلى . فلما دخل العرب العهد الدستوري واصبحوا يرون بجلاء ما لهم وما عليهم ، اخذتهم الغيرة القومية فبدأوا يلهجون بها ، وشعروا ان العنصر السائد في السلطنة يقاومها ، فازدادوا تعلقا بها ، ولم يلبثوا ان نظموا الجمعيات والهيئات السياسية ، فانتشرت بينهم دعوة قومية ترمي الى استقلال الاقطار العربية استقلالا اداريا » [٧] . ويمكننا ان نحس بوضوح اضطراب النفسية العربية في فترة العهد الدستوري وما تلاه (ما بين ١٩٠٨ ، ١٩١٤) من خلال نفثاتها الشعرية المعبرة عن خوالجها ، والمطالبة بتحقيق امانيها . فهذا الشيخ يوسف النبهاني * [٨] ، وهو من اشهر شعراء العصر كما وصفه الامير شكيب ارسلان [٩] ، يصور بعد ايابه من اسطنبول ، الهوان والزراية التي يلقاها العربي في عاصمة الخلافة الاسلامية ، فيقول في قصيدة له يمدح فيها ابا الهدى الصيادي في ايام السلطان عبد الحميد :

ويممت دار الملك احسب أنها	الى اليوم لم تبرح الى المجد سلما
فالفيت فيها امة عربية	يرى الترك منها ـ امة الزنج ـ اكرما
وما نقموا منا بني العرب خلة	سوى ان «خير الخلق» لم يك اعجما
بني الترك اني ما تكلمت هاجيا	ولكن قلبي من جفاكم تكلما [١٠]

* ولد في بلدة اجزم بلواء حيفا سنة ١٨٤٩، وسافر الى مصر سنة ١٨٦٦ م وقضى في الازهر ست سنوات، ثم عاد الى عكا ودرس فيها وفي مسقط رأسه. وقصد الآستانة سنة ١٨٧٦ وعمل محررا في «الجوائب»، ثم عاد الى الشام سنة ١٢٩٦ هـ . جاور في المدينة مدة ، ثم عاد الى بلده حيث مات سنة ١٩٣٢ . له كتب ومؤلفات دينية كثيرة، ومعظمها في مدح النبي والأولياء الصالحين .

ونحن ندرك دلالة المرارة الممضة التي يغص بها الشاعر من خلال هذا التعلق ببني الترك بسبب الرابط الديني الذي يربط بين العنصرين العربي والتركي ، وهو الاسلام . فهي مرارة لها دلائل على المشاعر العربية قبل اعلان الدستور بسنوات ، برغم ان الشاعر ينظم قصيدته في مدح احدى الشخصيات العربية البارزة في بلاط الخليفة السلطان .

وفي وصف احوال العرب والتنبيه على اوضاعهم السيئة في هذه الفترة المبكرة ، ومما له دلالة قوية على اليقظة التي تحلى بها الشاعر العربي في فلسطين ، ما يندب به اسعاف النشاشيبي * (١١) حالهم في قصيدة من اربعة وعشرين بيتا ، تعج بالغيرة ، وتفيض بالاسى والحزن على قومه بسبب ما آلت اليه احوالهم من درجات التقهقر والانحطاط . والشاعر صادق في لوعته وفي تمنيه ان يقيل الله قومه من عثرة حياتهم . يقول مستهلا قصيدته في بساطة ودون عمق في الاحساس ، فجاءت نظما مسطحا ومباشرا ، غمره بنظرة سوداوية طافحة بالدموع :

العرب مات شعورهم   فاندبه دهرك باكيا
ولي فولي بعده   انسي وساء مآليا
قد كنت اطمع ان ارى   وطني بهيجا زاهيا
فوجدته من كل علم   او علاء خاليا
فرثيته وندبته   وسكبت دمعي غاليا
فسعادتي يا ابن الكرام   وبغيتي ومراميا
ان تصبح العرب الاذ   لة سادة ومواليا

وبسبب الواقع المتردي الذي انحدرت اليه الحياة العربية في ايام الاتراك ، انبرى الكثيرون من شعراء فلسطين يشاركون شباب العرب ورجالهم في دفع الظلم التركي عن البلاد ، ولقوا في سبيل ذلك كثيرا من العنت وصنوف البطش والاستبداد ، فنفي الكثيرون منهم الى اقاصي الاناضول وزج بهم في اعماق السجون ، ونظموا في تجاربهم النضالية هذه كثيرا من الشعر . وقد جمع عيسى اسكندر المعلوف كثيرا منه في بحث نشره في حلقات تحت عنوان « المشاهير والسجون » ومن ذلك ما قاله محمد افندي صالح الصمادي الحسني النابلسي** (١٢). وكان قد سجن في الاناضول متحديا اعداء امته :

* ولد في القدس بين سنتي ١٨٨٢ و ١٨٩٠ ودرس في كتاتيبها ثم في المدرسة البطريركية في بيروت حيث تلقى العلم على عبد الله البستاني ومحيي الدين الخياط ومصطفى الغلاييني. وشغفته العربية ، وكأن البستاني اورثه حبه الأدب القديم وبغضه اساليب المحدثين . عمل في تحرير بعض المجلات في القدس كما عمل معلماً في الكلية الصلاحية بالقدس، وصار المفتش الاول للغة العربية في فلسطين سنة ١٩٢٩ . تميز اسلوبه بالقوة حتى نعت بأديب العربية. يعتبر ناثرا اقوى منه شاعرا. توفي بالقاهرة سنة ١٩٤٧.

** ولد في نابلس سنة ١٨٨٢ ودرس فيها وفي بيروت وفي جامعة الآستانة. شارك في الحركة العربية منذ بداية اليقظة، وانضم الى «المنتدى العربي»، وهرب من الجيش التركي عام ١٩١٦، وانضم الى جيش الامير فيصل. ثم عمل سكرتيرا لوزارة العدل في دمشق وفي محاكم عمان فيما بعد . واشترك في تأسيس جمعية ام القرى السياسية سنة ١٩٢٣ ، وشارك في معارضة المعاهدة الاردنية ـ البريطانية . اصدر جريدة «صدى العرب» في ١٣/ ١٠/ ١٩٢٧. اغتيل في شتاء ١٩٣٣ . ليس له ديوان مطبوع ، وشعره موزع في الصحف، وله شعر قومي رائع نظمه في سجنه في الاناضول .

مـا راعني انني اغـدو صـريـع اذى | وسط السجـون ومصلوبـا عـلى النصب
لم يلهني عن بني قـومي وعـن وطني | وعـد الطـغـاة وبـذل المـال والـرتب
ان يقبض الحـر او يبقـى فـان لـه | ذكـرا يخلـد في الاسفـار والكتـب

وله من قصيدة اخرى :

قـد اوجس الاتـراك منـا خيفـة | فـاستحسنـوا اطفـاء كـل منـار
فـزججت في قعـر السجـون ومـا دروا | ان المحـابس جنـة الاحـرار
ان كـان ذنبـي ان اعلـم امتـي | فـاستكثـروا مـن هـذه الاوزار
ان يصلـب الاعـداء جسمـا فـانيـا | فـالـروح تـأوي مسكـن الابـرار
تبقـى البـلاد اذا تـعـهـد امـرهـا | عـدل ، ولا تبقـى مـع الاشـرار (١٣)

وهذه التضحية وهذا التفاني اللذان يعبر عنهما الشاعر في سبيل امته ووطنه ، انعكسا في تجربته الشعرية صدق عاطفة وحرارة حياة تحسهما في بعض تعبيراته البيانية الجميلة ؛ كما في البيت الاول في مطلع قصيدته الاولى ، وكما في قوله « فاستحسنوا اطفاء كل منار » و« ان المحابس جنة الاحرار » . وقد قادت الشاعر المستنير شجاعته وجرأته النبيلة الى تخوم التفاؤل بحتمية خلاص الشعوب من الحكام الاشرار يوما ما . ومن هنا اغتنى نبع التفاني والنضال القومي في نفسه . ولم يقتصر هذا النضال على الشعراء الشباب وحسب ، وانما نرى الشيوخ منهم ايضا يبارون الشباب في كفاحهم القومي وكشف مظالم الاتراك أمام امتهم . فهذا الشيخ سعيد الكرمي يحكم الاتراك عليه بالاعدام خلال الحرب العالمية الاولى ، ثم يبدل به السجن المؤبد لشيخوخته (١٤) . وهذا الشيخ سليمان التاجي الفاروقي يقول فيه عيسى المعلوف « ولمعري فلسطين الشيخ سليمان التاجي الفاروقي اشعار رائعة قبل نفيه وبعد نفيه الى بر الاناضول » (١٥) .

وللشيخ الفاروقي *(١٦) الملقب ببدوي فلسطين ، شعر سياسي قوي ينبه على حقوق العرب ، ويلتمس من السلطان محمد رشاد النظر في هذه الحقوق وعدم غمطها ، وينتقد عدم ادخال احد من العرب في الوزارة . ومن امثلة ذلك قصيدة له تزيد على السبعين بيتا ، يعدد فيها مناقب العرب وفضلهم على الدولة العثمانية ، ليقول بعد هذا :

بضـع وعشـرون مليـونـا لـهم لـغـة | تمـوت مـا بينهم يـاشـد مـا غلبـوا
سيـاسـة العنف لا تجـدي وان نفعت | فـالحيل ان شـد يومـا سـوف ينقضب
والـعـرب اكـرم شعـب انـت تحكمـه | ولـن تضيـع في ايـامـك الـعـرب

ويشير فيها الى خيبة آمال العرب في الدستور الذي لم يكن غاية في ذاته ويقول :

كنـا نـعلـل بـالـدستـور انفسنـا | بفـارغ الصبـر ذاك اليـوم نـرتقـب

---

* ولد في الرملة سنة ١٨٨٢ وفقد بصره في التاسعة . حفظ القرآن قبل السنة العاشرة . درس في الازهر تسع سنوات ، واعجب به الشيخ محمد عبده وقربه منه . التحق بمدارس الآستانة واتقن التركية والفرنسية والانجليزية . ولقب (معري فلسطين) . اصدر (الجامعة الاسلامية) عام ١٩٣٢ ، ثم عطلتها السلطات . استقر بعد النكبة في اريحا . ثم اصدر في عمان (الجامعة الاسلامية) عام ١٩٤٩ . توفي عام ١٩٥٨ . فمتاز شعره بالقوة والجزالة وليس له شعر مجموع .

حتى اذا جاء لم يحدث لنا حدثا ... ولا استجيب لنا في مطلب طلب *

ويتضح لنا في هذه القصيدة ان الشاعر ، برغم افتخاره بأمته وامجادها وإبائها ، ومطالبته باحياء لغتها ، ما يزال يدور في الفلك العثماني ، ويقع ضمن تأثير العلاقة التقليدية بين الشاعر العربي والحاكم في الازمان الماضية . فيتقرب منه ويقرب اليه قومه طالبا رعاية ملايينهم كرعايا من غير الدرجة الثانية . ولا غرو في ذلك ، فالقصيدة قيلت كما يبدو في فترة اقتصار العرب على المطالبة بالحكم اللامركزي مع بقاء التبعية للخليفة وللسلطنة . ولكن الشاعر يعنف في قصيدة أخرى يستفز فيها النواب العرب ، ويدعوهم الى النهوض بامتهم واحتضان حقوقها في الحياة العزيزة واعادة امجادها السالفة بزلزلة المجتمع العثماني المتحجر وتقويض اركانه الراسية في تراب التخلف والفساد والتمييز العنصري والطبقي والطائفي ، وقد نشرت في جريدة « المفيد » بلسان الامة العربية تخاطب ابناءها ، وبتوقيع « بدوي فلسطين » ، ومطلعها :

بيمن نواصيكم عقدت الأمانيا ... ورجيت ان اعلو لكم من علانيا

ومنها :

بني انهضوا واحيوا حياة عزيزة ... حياة تعيد المجد للعرب ثانيا

وبعد ان يحدثنا عن امجاد العرب ، يلتفت مرة ثانية الى النواب ، فيقول :

الا نهضة شرقية عربية ... تزلزل اقواما وتوهي رواسيا
وتقضي على كل امتياز واثره ... ويصبح كل الناس فيها سواسيا
يقولون أن العرب مات رجالها ... يقولون ان الجو اصبح خاليا
يرون سقوط العرب ضربة لازب ... وامرا اراد الله لا شك ماضيا
ابغيا علينا وافتئاتا واثره ... ويرجون منا بعد هذا تغاضيا
الا ليت شعري هل ارى العرب امة ... يساند بعض بعضها لا تجافيا
اذا صاح في وادي الكنانة صائح ... يبيت له الربع الشآمي داويا
وان انَّ في الصقع اليماني مثقل ... اهاب له القطر الحجازي باكيا

---

* حاولنا ان نختار من ابيات هذه القصيدة مما نشر منها في اكثر من مرجع، لعدم وجود ديوان مجموع للشاعر. انظر من هذه المراجع :

- انيس المقدسي « العوامل الفعالة في الادب الحديث » ص ٧٤ .

ويشير المؤلف في هامش الصفحة الى ان ما نشره الفاروقي (اعلاه) هو من بعض (كذا) ما تكرم به علينا صديقنا الاستاذ ابراهيم طوقان الاديب الفلسطيني المعروف .

- امجد الطرابلسي - شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام (معهد الدراسات العالية ١٩٥٦/ ١٩٥٧) ص ٣٦

ويقول المؤلف في هامش صفحة ٣٩ : عثرنا على هذه القصيدة في قصاصة من جريدة «ابا بيل» الدمشقية التي كانت تصدر إذ ذاك والعدد الذي نشرت فيه القصيدة من الاعداد الصادرة في اوائل عام ١٩١٠ على ابعد تقدير .

- محاضرات الموسم الثقافي الثاني في الكويت ، ١٢٧٥/ ١٩٥٦ ، دار المعارف بمصر ، المحاضرة الثانية لامجد الطرابلسي ، ص ١٤٩ .

- يعقوب العودات (البدوي الملثم)، مجله «الاديب»، جزء ٥ ، السنة ٢٥ ، أيار (مايو)، ١٩٦٦، ص ٢٦ . يقول العودات في صفحة ٢٥ «ان للشاعر قصائد نارية قل ان تجد لها صنوا في شعرنا السياسي المعاصر ... وقد فقدت في فلسطين » .

الا رجلا ذا مرة فيلعكم ويرأب صدعا فيكم بات واهيا
يقوم فلا يرتد او يبلغ المنى ويقضي ولكن يبعث السيف قاضيا (١٧)

ويبدو ان القصيدة تيلت في الفترة اللاحقة لعام ١٩١٢ التي راجت فيها الدعوة لاستقلال العرب ، وتأسست في سبيل ذلك بعض النوادي والجمعيات العربية السرية والعلنية لتنظيم تلك الدعوة والعمل على تحقيقها بعد ان تمادى الاتحاديون في نزعتهم الطورانية ، وتجبروا في اضطهاد العنصر العربي . فالامة في مثل هذه الفترة ، القلقة من حياتها ، تروح تبحث بين ابنائها عن البطل المنذور للقيام بدور القيادة الى عهد النهضة الذي تستشرفه على آفاق آمالها .

وجدير بالملاحظة هذه الروح القومية الشاملة التي ينادي بها الشاعر ويعليها من خلال صوت الامة العربية لتجميع اطرافها واقطارها في وحدة الألم والأمل والمصير على صعيد قومي . وهذا النفس القومي هو الجديد حقا في هذه الفترة ، فقد اجتمعت شعوب هذه الاقطار مع غيرها من الشعوب الاسلامية في الامبراطورية على شعور الجامعة الاسلامية والوحدة الدينية ، خصوصاً امام الاطماع الاوروبية والتسلط الاستعماري . ولكن هذا الجامع الديني الذي كان الخليفة يقيد به رعيته من شعوب المسلمين بدأ يضعف ويتراخى ، وتتفكك خيوطه في النفوس مع ازدياد مظالم السلطة التي تصبها على الرعايا تحت خيمة هذا الجامع وفي ظله . وهذه المظالم التي كان الشعراء يتسترون عليها نفاقاوخوفا تحت هذا الظل وباسم الدين ، بدأت تتكشف وتبرز آثارها وردودها في نفوس العرب مع اطراد نمو الوعي القومي لديهم ، وبازدياد الاضطهاد القومي من الجانب الآخر . ولم يعد الجامع الديني عذرا كافيا للتستر على ما لحق بالسلطنة من خلل وما يستشري فيها من جور وفساد ، فأخذ الاحساس بالكيان العربي ينمو ويزدهر. وكان اسعاف النشاشيبي من اوائل الذين استجاب احساسهم لما رجوه من منح الدستور ، فقال قصيدته (ذكرى فتاة مكدونيا) ، وهي قصيدة في الحرية ، ومطلعها :

اخطري اليوم في الربوع اختيالا لا تخافي من العدو اغتيالا
لا تخافي من كيده لا تخافي ان كيد العدو ولى وزالا

فقد كان الخوف والقلق والكيد والاغتيال يملأ نفوس الناس ، فيقول :

قد ابدناه بالسيوف المواضي وتركناه عبرة ومثالا
وازلنا في الملك كل فساد وشفينا ما كان داء عضالا
وحمينا حماك من كل باغ رام منا ومنك ما لن ينالا

وفيها ينظر الى مكدونيا نظرة العطف لوقوعها في الظروف نفسها التي وقع فيها وطنه الصغير . وهو يدرك اهمية الظروف الواحدة : تلك الرابطة القومية ، فيدعو الى التخلص من آثار عبد الحميد . ولانه يدرك كيف كان الدين يتخذ اداة تفرقة وتضليل ، راح يحذر الناس من ذلك ويفضح تبرير محاربة البلقان باسم الدين ، يقول :

ايها الشرق طال نومك فانهض للمعالي وصافح الاقبالا
اترك الدين في المعابد يبكي واحتفل بالفتاة شرق احتفالا *
تخذوه يا شرق الظلم سبلا واضلوا وحرفوا الاقوالا (١٨)

* هكذا في الاصل .

فهذا الشعر ، وان كان اسعاف ينظمه بعد سقوط السلطان عبد الحميد ، الا اننا لا نستطيع أن نسقط دلالته الواضحة على تقلص شعور الرابطة الدينية وانكماشه بين العرب وسدة الخلافة .

وقد رافق الوعي على ضعف السلطنة ووهن اركانها ، واليقظة العربية والشعور بكيانها تنبه مبكر على خطط الاستعمار الاوروبي ، ويقظة على اهدافه واطماعه ، (وكان اسعاف ايضا من اوائل الذين احسوا بالخطر المحدق بفلسطين وتنبأوا به ، فهو يقول قصيدة فلسطين والاستعمار الاجنبي في ستة وعشرين بيتا ، تناول فيها الاستعمار الاجنبي وحذر من امواله ومن نتائج الوقوع في حبائله ، ومنها :

يا فتاة الحي جودي بالدماء ... بدل الدمع اذا رمت البكاء
فلقد ولت (فلسطين) ولم ... يبق يا اخت العلى غير ذماء
نكبت اقدامها سبل الهدى ... فشرتها للعدى شر شراء
سوف تشكين وتبكين دما ... يوم لا يجدي ولا يغني البكاء
فدعوا شحناءكم يا هؤلاء ... وانبذوا البغضاء نبذا والعداء
ان الاستعمار قد جاز المدى ... دون ان يعدوه عن سير عداء
ان هذا الداء قد امسى عياء ... فتلافوه سريعا بالدواء
انها اوطانكم فاستيقظوا ... لا تبيعوها لقوم دخلاء
فاعلموا يا قوم ان لم تعلموا ... ان عقباكم هلاك وفناء
اذكروا ان غركم مالهم ... عزة النفس دوما والاباء (١٩)

وسواء كان هذا الاستعمار الذي يحذر اسعاف من خطره هو محاولات الدول الغربية شراء بعض الاراضي في فلسطين لاقامة المؤسسات الدينية وسواها ، ام انه خطر الاستعمار الصهيوني الاستيطاني الذي كان قد ظهرت بوادره ودس يده مبكرا في ارض فلسطين ومنذ ايام السلطنة العثمانية ، وهو ما نرجحه . ام انه كلاهما ، فان هذه القصيدة برغم ما هي عليه من تقريرية ومباشرة ، بيان في الناس جاء مبكرا ليصب الماء البارد على وجوه الغافلين ، وليذكرهم بعزة النفس وبالإباء ويعقبى الهلاك والفناء ان هم لم يدعوا شحناءهم ، وينبذوا بغضاءهم وعدواتهم .

وفي هذه الفترة التي بدأت فيها النفس العربية تتململ تحت كلكل الطورانية وتتفتح زهور كيانها في كهف الدولة العلية الرطبة ، بدأت اطماع الاستعمار الغربي تدهم الشرق ، وتطل عليه برأسها وتذر قرنها ، فزحفت عليه من شمالي افريقيا تريد انتهاش بعض اجزاء الامبراطورية ، وكانت حرب طرابلس بين تركيا وايطاليا سنة ١٩١١ تمثل حربا استعمارية قومية بين الشرق والغرب . ولا شك ان بعض الشعراء العرب من ذوي الاتجاه الديني نظروا اليها من وجهة نظر دينية واعتبروها حربا صليبية من دولة مسيحية تغزو اراضي المسلمين . ولكننا نرى شاعرا مسيحيا من شعرائنا في فلسطين يقول ف هذه الحرب ، ناعيا على شعوب الغرب اطماعها وخروجها عن الدين المسيحي بسبب وحشيتها وجشعها ؛ يقول اسكندر الخوري البيتجالي :* (٢٠)

* ولد في بيت جالا بجوار بيت لحم عام ١٨٩٠ ، ودرس في المدارس الطائفية في بلده وفي الناصرة وبيت لحم ، وانهى

ان في الغرب شعوبا لم تزل هي نصرانية ، لكنها
تشبه الذئب وترعى الغنما
تمسك الانجيل في كف وفي
تعبد الكسب وتهوى الدرهما
صنم الغاية قد اعماهم
كفها الآخر شدت صنما
عن هدى عيسى وما قد علما (٢١)

فالأقرب الى الصواب ان نعتبر حافز الشاعر على هذا الاتجاه هو الاحساس القومي او بدء وجود هذا الاحساس وظهوره ، فهو ، النصراني يرى ان دولة نصرانية تغزو ارضا عربية ظلما وعدوانا ، فيتهجم عليها هذا التهجم المرير من خلال احساسه بالكيان العربي الصاعد . واذا كان سهلا علينا ان نوجه شعر هذا الشاعر المسيحي هذا التوجيه ، فان لدينا نموذجا شعريا لشاعر مسلم كان يعتبر من كبار المتفقهين في الدين في فلسطين ، وهو شيخ معمم تعلم في الازهر وتعرف على كبار شيوخه في ايامه ، حتى ان محمد عبده كان يحبه ويقربه اليه ، ولا يمكن توجيه هذا الشعر للشيخ سليمان التاجي الفاروقي ، وهو ايضا في الحرب الطرابلسية تلك ، والخلافة العثمانية ما تزال قائمة ، الا على اساس الشعور بالكيان العربي والعزة العربية ، او بالدلائل العامة للقومية العربية ، حتى اننا لنقف في هذا الشعر على عصبية عربية جاهلية تتحكم به ، وتطغي على عقله وقلبه ، فيقول مستثيراً نخوة العرب ضد الغزاة ، ومحرضا على عدم الصلح معهم :

انسام الخسف والعرب الالى
هم سياج الملك ما هزوا الشفارا
وسيوف ويحها لو جردت
اطلعت من حندس الشك النهارا
ليس بين الملك واستعلائه
غير ان تُنضى فيفتر افترارا
ان دون الصلح لو ابصرتم
فتنا تغشى واحداثا كبارا
لا تسيغوها ولا ترضوا بها
خطة تكسوكم الدهر شنارا (٢٢)

وكما كان الشاعر العربي في فلسطين واعيا على الحركات السياسية في الداخل وفي الخارج ، فانه كان يقظا ايضا على ما تبيته وتخطط له الصهيونية العالمية من اطماع وجشع في ارض فلسطين وسواها من البلاد العربية . فهاهو ذا الشيخ الفاروقي صريح كل الصراحة في تخميس يحذر به العرب وينبههم على هذه الاطماع ، وذلك بمناسبة انعقاد احد المؤتمرات الصهيونية في مدينة (بال) بسويسرا عام ١٩١٢ . وهو بصدق حدسه يجعلنا نشك في ان هذا الشعر انما قيل في فترة لاحقة كان انكشاف الاطماع الصهيونية فيها اكثر افتضاحا وعلانية ومن قصيدته قوله :

ايها الشعب نهضة وبدارا
ايها الشعب اوسعوك احتقارا
هب يا شعب واصلهم منك نارا
هب وانفض من مقلتيك الغبارا

دراسته في الكلية البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت سنة ١٩٠٦. وفيها درس العربية على الشيخ عبد الله البستاني، ثم درس القانون في معهد الحقوق بالقدس. وتقلب في عدة وظائف حكومية. ونشر في الصحف كثيرا من المقالات والقصص ، واصدر دواوين عديدة وكتبا مؤلفة ومترجمة . نظم كثيرا من الموضوعات الاجتماعية. ويشيع في نظمه الاسلوب القصصي والحوار .

وار القوم نهضة عربية

قم قياما يا شعب لا تتوانى لا تهن لا تهن كفاك هوانا
ان هذا السكوت اصل بلانا ان هذا الونى وذاك الكيانا

هاج تلك المطامع الوحشية

غرهم صبرنا عليهم زمانا حاولوا سلبنا البلاد امتهانا
فاذا لم نمت ولم نتفانى واذا لم نقم لهم برهانا

سلبوا والله تلك البقية

نمت يا شعب واستطبت المناما ورضيت الحياة ذلا وذاما
رحم الله في التراب عظاما عشن ما عشن وارتحلن كراما

اتراها هانت على الذرية ؟

يا فلسطين طال هذا المطال ويح قومي اليس فيهم رجال ؟
طال ظلما اعداؤنا واستطالوا ورأونا نغضي الجفون فصالوا

واستهانوا بنا وبالوطنية

يا فلسطين عقك الابناء يا فلسطين ذم فيك البقاء
اترى الارض اعقمت والسماء ام لماذا لا تنبت العظماء ؟

رب رحماك بالبلاد الشقية (٢٣)

هذه النماذج من الشعر تدل بوضوح على التيار الجديد الذي بدأ يشغل جزءا كبيرا من بال الشعراء العرب في فلسطين اثناء الفترة الاخيرة من حكم الاتراك وقبيل الاحتلال البريطاني لبلادهم ، فبعد ان كانت موضوعات اشعارهم السابقة على نمط موضوعات الشعر في عصور التخلف والانحطاط المتأخرة ، مدائح نبوية وفي ذوي الحكم والسلطان ، ومباسطات اخوانية وفي المناسبات الاجتماعية ، فرضت الحياة نفسها عليهم واصبحوا اقوى صلة باحداثها وتياراتها ، فجاء شعرهم في هذه الفترة يمتاز عن شعرهم السابق بسلامة الالفاظ وجزالتها ، وبلاغة التعبير واشراقه ، واحكام نسجه وتماسكه . ويبدو ذلك اوضح ما يكون فيما مثلنا به من شعر الصمادي والفاروقي ، اذ جاءت نماذج شعرهما واضحة العبارة متينة البناء ، يمتزج فيها العقل بالعاطفة الصادقة وقد استقام اسلوبها مع البيان العربي الرصين . وتفسير ذلك في رأينا ان موضوع الوطنية والحرية كان منفذا لخروج الشاعر على نمط الشعر البالي والتقليد البارد ، اذ ان الشاعر في هذا الموضوع الحياتي يخضع ، ان طوعا وان كرها ، لضغط الواقع ولتأثير محسوس يستثير عواطفه ويعمق احساسه ويضعه في موقف التجربة النفسية والانفعال الوجداني الذي يحرر ذاته من قيود التقليد ، وفنه من أوضار التبعية . ونحن لا ندعي ان الشعر في هذه الفترة كان جميعه في مستوى ما مثلنا به من الناحية الفنية ، او انه هجر موضوعاته القديمة وعاج على موضوع الوطنية والحرية ليستأثر به ، فذلك ما لن نقوله ولن يكون ، ولكن ما نريد ان نقوله ان هذه الفترة باحداثها المتلاحقة والمتغيرة ، وبتأثيراتها العميقة ، قد دقت للناس أجراس الخطر وفتحت عيونهم على واقعهم السيء وعلى سكين المطامع الاجنبية النازل فوق رقبة الوطن ، ووضعتهم امام مسؤولياتهم فتصدى الشعراء لتحمل دور المعلمين الهداة ، فكان شعرهم خير منبه ، واقوى صوت يحذر الناس ويوقظهم ، ويفضح امامهم المؤامرات الشريرة على وطنهم الجميل . وبذلك غدا معلما من معالم الوعي العربي في فلسطين ، ومظهرا من مظاهر يقظة أهلها . وتعقدت قضية

هذا الوطن الجميل ، ومرت بمراحل عديدة ظل الشعر خلالها ، وما يزال ، يقوم بدوره في ظروف قاسية ومتغيرة ، فيتحمل ، بشرف ، عبء المسؤولية الوطنية والانسانية ، ويقاوم ببسالة ، اعداء الوطن في الداخل وفي الخارج ، والاخطار التي احاطوه بها دأبا على خنقه واماتته . وبهذا الدور الذي اداه الشعر الفلسطيني ، وما يزال ، يعد ابرز ملامح الاحساس بالوحدة القومية ، وانقى مظاهر اليقظة العربية .

(١) غالي شكري ، « **ادب المقاومة** » ، القاهرة، دار المعارف ، سلسلة الدراسات الادبية رقم ٥٢ ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٧ .

(٢) د . عبد المحسن طه بدر ، « **الاداب** » ، بيروت ، عدد ١ كانون الثاني ١٩٦٨ ، ص ١٥ .

(٣) انظر : ساطع الحصري ، « **حولية الثقافة العربية** » ، السنة الثانية ، ص ٦ ـ ٨ ؛ د . ناصر الدين الاسد ، « **الشعر الحديث في فلسطين والاردن** » ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٠/١٩٦١ ، ص ١٠ ـ ١١ ؛ « **الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن** » ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٧ ، ص ٢٤ ؛ « **محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي الحديث في فلسطين** » ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٧٠ ، ص ١٠ .

(٤) محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك ، « **ولاية بيروت ـ ١ ـ القسم الجنوبي** » ، بيروت ١٣٣٥ هـ مطبعة الاقبال ، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

(٥) د . ناصر الدين الاسد ، « **الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن** » ، ص ٢٧ .

(٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

(٧) انيس المقدسي ، « **العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث** » ، الحلقة الاولى، منشورات كلية العلوم والاداب ، الجامعة الاميركية في بيروت ، سلسلة العلوم الشرقية : الحلقة ١٥ ، مجلة المقتطف ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ١٠٨ .

(٨) انظر ترجمته في : « **الاعلام للزركلي** » ، ٩ (ط ٢) ص ٢٨٩ . الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص ١٢ . مجلة الاديب ـ ١١ تشرين الثاني ، (نوفمبر) ١٩٦٥ ـ بيروت ص ١٢ .

(٩) انظر مقدمة كتاب « **النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي** » ، تأليف محمد احمد الغمراوي ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٩٢٩ ، ١٣٤٧ ، ص أ .

(١٠) عن مجلة « **الاديب** » ، جزء ١١ ، السنة ٢٤ (تشرين الثاني ـ ١٩٦٥) ، من مقالة للبدوي الملثم حول الشاعر ، ص ١٢ .

(١١) أنظر : الاعلام للزركلي ، ٦ ، ص ٢٥٥ . الشعر الحديث في فلسطين والاردن ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(١٢) انظر مجلة **الاديب** ، العدد ٥ ، ١٩٦٥ ، ص ٢٢ .
١٢ شعبان ١٢٣٨ هـ ، ص ٢٠٠ .

(١٣) مجلة « **الهلال** » ، جزء ٨ أيار (مايو) ، ١٩٢٨ م .

(١٤) **المصدر نفسه** ، ص ٧٠١ ـ ٧٠٣ .

(١٥) **المصدر نفسه** ، ص ٧٠١ ـ ٧٠٣ .

(١٦) انظر مجلة « **الاديب** » ، ٥ أيار (مايو) ، ١٩٦٦ ، ص ٢٥ .

(١٧) انظر انيس المقدسي « **العوامل الفعالة في الادب الحديث** » والبدوي الملثم « **الاديب** » الجزء الخامس ، السنة الخامسة والعشرون ، ايار (مايو) ١٩٦٦ .

(١٨) انظر د . عبد الرحمن ياغي ، « **حياة الادب الفلسطيني الحديث** » ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ، عن مجلة النفائس العصرية ، جزء ١ ، تشرين الثاني ١٩٠٩ ، المجلد الاول ، ص ٥٠ ـ ٥٢

(١٩) **المصدر نفسه** ، ص ١٦٧ . عن مجلة « **النفائس العصرية** » ، الجزء ١٢ ، تشرين الاول ١٩١٠ ، المجلد الثاني ، ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧ .

(٢٠) انظر : كتاب الشعر الحديث في فلسطين والاردن ، ص ٥٠ ، مجلة « **الاديب** » ، ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٠ ، ص ٣٥ . حياة الادب الفلسطيني الحديث ، ص ١٨٩ .

(٢١) انظر أمجد الطرابلسي ، « **شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام** » ، ص ٤٨ .

(٢٢) **المصدر نفسه** ، ص ٤٧ .

(٢٣) انظر مجلة « **الاديب** » ، السنة الخامسة ٢٥ أيار (مايو ، ١٩٦٦ ص ٢٦ من مقالة للبدوي الملثم حول الشاعر .

المؤتمر الرابع لحركة فتح
٢٢ أيار - ١ حزيران ١٩٨٠

الذين يزعمون انهم ، بشكل أو بآخر ، كانوا على معرفة بما يمكن أن يتمخض عنه المؤتمر العام لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ، الذي انعقد بين الثاني والعشرين من الشهر الماضي ومطلع الشهر الحالي ، هم إما واهمون أو مُدَّعون يحاولون خداع أنفسهم قبل خداع الآخرين . وهذا القول ، بكل أبعاده ، ينطبق ، ليس على الذين هم خارج « فتح » ، وإنما على الذين هم داخلها ، بل وعلى أعضاء المؤتمر أنفسهم أيضاً . وحتى على الذين، قد يكونون ، في أعلى الهرم منهم ، فهم لم يصلوا ، بتوقعاتهم ، إلى ما تمخض عنه هذا المؤتمر العتيد ، حقاً ، والذي يعبر ، بكل الأبعاد ، عن أرقى أشكال الوعي والمسؤولية ، وإن كان في بعض الأحيان القليلة ، كما سنوضح فيما بعد ، قد وقع في الذهن أنه ربما تجاوز ، حدود العملية - ولا أقول اللعبة - الديمقراطية ، وصولاً إلى حدود التسيب والانفلاش . على أن هذا الذي بدا إنما كان مرتبطاً ، أو متعلقاً بالخوف على المؤتمر ، أكثر مما كان حقيقة واقعية فرضت هذا التصور أو ذاك الانطباع .

وكي لا يكون الكلام ضبابياً وعائماً ، أسارع إلى القول : إن معظم الانطباعات والتصورات التي استطعت استقراءها قبل المؤتمر ، بما فيها انطباعاتي الخاصة ، كانت تشير إلى أنه لن يتجاوز ، في امتداده ، أيامه الثلاثة في أحسن التقديرات ، وأيامه الخمسة في أسوئها ؛ وقد فرضت هذه الانطباعات ، أو التصورات نفسها انطلاقاً من الاعتقاد بتقلص الخلاف السياسي بين أعضاء الحركة الواحدة ، إلى أقل مدى ممكن ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية انطلاقاً من القول الذي شاع ، طويلاً وكثيراً ، في حركة « فتح » والذي يتلخص بأن اللجنة المركزية للحركة لن تأتي إلى المؤتمر إلا بعد أن تكون قد رتبت أوضاعها ، واتفقت فيما بينها على التفاصيل الصغيرة قبل الخطوط العريضة ، فهي بهذا تفوت الفرصة على كل توسع يمكن أن ينشأ في حدود العملية الديمقراطية ، وان هذه العملية تصبح ، بهذا المفهوم ومن هذا المنطلق ، هي اللعبة الديمقراطية التي ، بشكل أو بآخر ، ترسم اللجنة المركزية حدودها وأبعادها .

لقد عزز هذا التصور ذلك الرأي الذي شاع داخل حركة « فتح » ، والذي كان يعتقد أن المؤتمر هو ، بشكل أو بآخر ، لعبة اللجنة المركزية التي تطرحها لامتصاص تراكمات السنوات الماضية التسع ، التي فصلت بين مؤتمري « فتح » الثالث والرابع ، والتي كانت، بكل الأشكال ، كما سنرى فيما بعد ، سبب الأسباب في ما يمكن تسميته مفاجأة حركة « فتح » متمثلة في مؤتمرها العام الرابع العتيد .

وإذا كان هذا الرأي ، الذي يرى في المؤتمر لعبة هدفها امتصاص التراكمات ، معتقد معظم أعضاء حركة « فتح » ، فانه قد ساد كافة التنظيمات الفلسطينية واللبنانية ، وكذلك الأحزاب والقوى الوطنية الأخرى .

ما الذي جرى إذن ؟ هل كان في الأمر سوء تقدير بالغ الفداحة إلى هذه الدرجة ، مما يمكن معه القول أن ثمة

خللاً لا يمكن غفرانه قد حدث ، وأدى إلى مثل هذا الحجم من سوء التقدير ، على صعيد الصف الأول والثاني في حركة « فتح » ، من جهة ، وعلى صعيد القيادات الفلسطينية الأخرى والأحزاب اللبنانية ، من جهة أخرى ؟ . قد يكون الأمر كذلك لو أن المسألة تتعلق بتقديرات ايجابية سقطت ، بسبب سوء التقدير ، في هوة السلبية الفاحشة . أما وان التقييمات كانت في أحسن أحوالها سلبية ، على هذا النحو أو ذاك ، ثم ما لبث الأمر أن تمخض عن كل هذه الايجابيات ، التي تمخض عنها مؤتمر « فتح » الرابع العتيد ، فان هذا لا يقود إلى السقوط في خطر المبالغة ، وإنما هو ، على نحو ما ، إغفال تقدير مكامن القوة ، والقدرة التي تمتلكها حركة الشعب الفلسطيني ، ممثلة في حركة « فتح » ، على النماء والعطاء والتطور الطبيعي الذي غاب عن الرؤية الحسية وعن التتبع الذهني ، بسبب غياب مؤتمرات « فتح » وتراخي انعقادها .

هل كانت هذه الاطلالة ضرورية ، وكافية ، قبل الحديث عن انجازات المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » ؟

أسارع إلى القول ان مثل هذه الاطلالة كانت أكثر من ضرورية ، ولكنها غير كافية . وإنه ، لمن الضروري جداً ، أن يبادر العديد ممن يمتلكون المعلومات ، أولاً ، والتحليل ، ثانياً ، إلى الادلاء بدلوهم . فهذا مؤتمر حركة « فتح » الرابع ، يعبر عن حجم « فتح » الذي نما وتعاظم ، ويمثل تراكم الخبرات وتنامي الوعي السياسي والنضالي لدى أعضاء هذه الحركة الأم ، مما يضع أمام البعض مسؤوليات جادة في مجال التقييم والدرس والتحليل ، من أجل وضع هذا كله في تناول كل المناضلين والأحرار ، ليس في منطقتنا العربية فحسب ، وإنما في العالم أجمع .

في الساعات الأولى لمؤتمر حركة « فتح » ، برزت مشكلة يمكن وصفها بأنها كانت عاصفة ، سببت هياجاً وتوتراً شديدين ، بحق ، داخل المؤتمر . هذه المشكلة هي أن أكثر من مائة وخمسين عضواً من أعضاء حركة « فتح » القدامى ، والذين كان ينبغي ، طبقاً لكل المقاييس ، أن يكونوا أعضاء طبيعيين في المؤتمر ، لم ترد أسماؤهم كأعضاء طبيعيين ، وانما وردت على لائحة تنتظر التصديق عليها ، من أعضاء أتى بهم النظام الداخلي ، كان بعضهم ، وربما الكثير منهم ، من حيث القدم أو المرتبة التنظيمية السابقة ، أقل أحقية وتأهيلاً .

وفي تقديري ان تخلف النظام الداخلي ، الذي حكم المؤتمر ، وقصوره عن استيعاب المستجدات والتطورات في الحركة ، على صعيد نموها الذاتي من جهة ، وعلى صعيد نموها وتغلغلها داخل الساحة الفلسطينية ، وداخل منظمة التحرير الفلسطينية على وجه الخصوص ، من جهة أخرى : كل هذا قد خلق مثل هذا الوضع الشاذ والغريب .

وفي تقديري أيضاً ، انه كان ينبغي على اللجنة التحضيرية للمؤتمر أن تتنبه إلى مثل هذا الأمر ، ثم كان على الذين أشرفوا على آخر الترتيبات للمؤتمر أن لا يغفلوا هذه المسألة الهامة . ومن ثم كان عليهم ألاّ يقفوا عاجزين أمام جمود النصوص .

لقد كان الأولى ، والأصح ، أن يتم تلافي هذه المسألة الجوهرية ، وأن يجري حلها على قاعدة ترى أن النصوص وضعت لخدمة الانسان ، ولم يوضع الانسان لخدمتها : وأن النصوص ينبغي تطويرها لتوصل إلى ما يخدم الحق والعدالة ، وأنه لا ينبغي تسخير الحق والعدالة لخدمتها . أما القول بأن الخروج على النصوص يخلق سابقة يمكن القياس عليها ، فهو قول نردّ عليه بأن القياس ينبغي أن يكون قائماً لدى كل مسألة بمثل هذا الحجم من العدالة والأحقية . وقد كان يجب على الذين أجروا ترتيبات المؤتمر النهائية أن يتجاوزوا في هذه المسألة ، فالنظام الداخلي ، بعد تسع سنوات ، هو بالتأكيد نظام بحاجة إلى تغيير شامل ، وإلى تطوير يتلاءم والمرحلة الراهنة ، مع اطلالة على المستقبل تلبي حاجات المدى المنظور منه .

على كل حال، ما حدث قد حدث ، وواجه المؤتمر أزمته بشجاعة ، وأعاد الأمور إلى نصابها ، بعد أزمة استمرت يوماً واحداً ، بدأ المؤتمر بعدها ، وعلى الفور ، أعماله ، وكان في مقدمة تلك الأعمال التقرير السياسي الذي تقدمت به اللجنة المركزية بلسان أمين سرها ، ورئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، الأخ فاروق القدومي .

وقد كان التقرير السياسي نقطة جديدة توقف عندها وأمامها المؤتمر . وما إن انتهى الأخ أبو اللطف من تلاوة تقريره – تقرير اللجنة المركزية – حتى كان حوالي تسعين عضواً، من أعضاء المؤتمر، قد تقدموا بأسمائهم طالبين الكلام لمناقشة التقرير السياسي .

وهنا ، أود أن أشير إلى أن المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » قد ناقش بمسؤولية عالية تقرير اللجنة المركزية السياسي ، وان الجو الذي جرى فيه النقاش كان جواً ديمقراطياً عكس نفسه بشكل واسع على كافة أعضاء المؤتمر .

وأريد أن أسجل ، هنا ، أن النقد الذي ووجه به التقرير السياسي قد كشف ، أمام قادة حركة « فتح » ، بشكل خاص ، وأمام أعضاء الحركة ، بشكل عام ، عن حقيقة لم يكن يعرفها سوى القليلين ، وهي أن تراكماً ، في الوعي السياسي « القاعدي » قد نما في غياب مؤتمرات الحركة ، وان هذا الوعي قد عُبِّر عنه ، بشكل صارخ ومبدع وخلاق ، أثناء المؤتمر الرابع .

فالنقاشات التي جرت في المؤتمر ، كانت خلاقة وواعية ومسؤولة ، وحريصة على مستقبل الحركة ، وعلى استمرارها ونموها بشكل رائع . وباستثناء بعض التخطيات لبعض القواعد الأصولية ، وهي تخطيات قليلة ومسموح بها، كاستثناءات ، فانه يمكن القول بأن ثلاثة أيام من النقاش الدائر حول المسألة السياسية في المؤتمر كانت تعبر عن طليعية الأفكار التي حفل بها النقاش ، وعن مدى ما يتمتع به أعضاء الحركة من تنام في الوعي السياسي .

وإن جاز لي التعبير ، بانطباعي المتواضع ، عن هذه الأيام الثلاثة الأولى، من الأيام العتيدة للمؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » ، فانني لن أتردد في القول ان مؤتمر « فتح » هو مأثرة تعكس الوجه الأكثر اشراقاً في وطننا العربي . تعكس تعطش الانسان العربي المضطهد المقهور من كل الأنظمة ، ونزعته إلى الحرية والديمقراطية .

إن ما ظهر من ممارسة مسؤولة للديمقراطية، في المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » يفضح ، بالدليل الملموس ، مزاعم الذين يتصرفون على أساس أن الانسان العربي ليس أهلاً للحرية ، ويؤكد أن الذين يصادرون حرية المواطنين هم أعداء لهم . وانني لأتوقع تنامي حجم حركة « فتح » ، وأتوقع صلابة متزايدة في النضال ، واصراراً عنيداً ، أكثر من أي وقت مضى ، على مواصلة التصدي للعدوين : الامبريالي والصهيوني ، ولحلفائهما وعملائهما من الرجعيين في منطقتنا . ففي مناخ الحرية يتنفس النضال ، وفي جو الديمقراطية تنمو الارادة وتتصلب ، ويتفجر رحم الأرض بالعطاء الأعظم الذي يقود إلى النصر .

وفي اليومين ، الرابع والخامس ، لمؤتمر حركة « فتح » تمت مناقشة التقارير الأخرى : التقرير العسكري وتقرير الأرض المحتلة ، والتقرير المالي . وجرت خلال مناقشة هذه التقارير مداخلات ، جادة ومسؤولة ، عكست حرص كل عضو من أعضاء المؤتمر على التصدي بمسؤولية للايجابيات والسلبيات ، وعلى طرح كافة المشكلات السلبية بروح بناءة ، بغرض الوصول إلى تصحيح المسار ، ولوضع الأمور في نصابها .

وإذا كان هناك من نقطة لا بدّ من اثارتها ، في هذا السياق ، فهي أن توجه المؤتمر ، لدى مناقشة التقرير المالي ، قد انصبّ بشكل أساسي على تحقيق الاعتماد ، من الناحية الماليةِ ، علىَ الجماهير : الفلسطينية في الدرجة الأولى ، والعربية في الدرجة الثانية ، لأن هذا ، كما ورد في الحيثيات ، يؤكد استقلال الارادة الفلسطينية ، ويحرر القرار الفلسطيني من أي قيد قد يقع عليه ، من هذا النظام أو ذاك .

أما بالنسبة للتقرير العسكري وتقرير الأرض المحتلة ، فان المؤتمر كان مطلق التوجه فيما يتعلق بتطوير العمل العسكري ضد الاحتلال ، وضد الامبريالية وعملائهما في المنطقة العربية . كما كان مطلق التوجه أيضاً فيما يتعلق بزيادة دعم المناضلين الصامدين داخل الوطن المحتل ، وتطوير العلاقة بين الداخل والخارج بما يخدم أهداف النضال الوطني الفلسطيني في مواجهة الاحتلال الصهيوني ، الاستيطاني العنصري .

وقد توقف المؤتمر ، بعد ذلك ، ليشكل لجانه التي بلغت ثماني لجان هي ، السياسية ، والتنظيمية ، والمالية ، والعسكرية ، والاعلامية ، والأمنية ، ولجنتا الأرض المحتلة والشؤون الإجتماعية .

سأختصر الحديث، هنا ، عن النتائج التي توصلت إليها اللجان ، والتي أقرها المؤتمر ، مختاراً ثلاث لجان هي : اللجنة السياسية ، واللجنة التنظيمية ، واللجنة الاعلامية ، فأتكلم عن نتائجها ، وذلك :

أولاً لأن المؤتمر قد أقر توصيات هذه اللجان بعد تعديلها .

وثانياً لأن جميع اللجان الأخرى ، باستثناء الشؤون الاجتماعية ، تعتبر توصياتها ، ومقررات المؤتمر بالنسبة لها ، توصيات ومقررات سرية لا يجوز نشرها .

وفيما يتعلق بالتقرير الذي قدمته اللجنة السياسية ، فان هذا التقرير الذي أصبح ، فيما بعد ، البرنامج السياسي ، سوف استثني منه مقدمته ، التي سوف يتم نشرها عقب اجتماع اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ، وذلك لاعتبارات صياغية فحسب .

البرنامج السياسي

يعد صدور هذا البرنامج (تجد نصه كاملاً في « وفا » ١ / ٨ / ١٩٨٠) ، عن المؤتمر الرابع ، أهم انجازاته : لأنه يحدد الأطر الكاملة لسياسات « فتح » ، وممارساتها على الأصعدة كافة .

وفيما يتصل بالساحة الفلسطينية ، يؤكد البرنامج مواصلته العمل لتعزيز الوحدة الفلسطينية ، على المستويات كافة : داخل الوطن المحتل وخارجه . كما يؤكد دور الحركة القيادي ، على هذه الساحة ، في إطار منظمة التحرير الفلسطينية . ويبرز البرنامج ضرورة استقلال القرار الفلسطيني ، وأهميته : كما يدعو للعمل على تطوير قدرة فصائل الثورة الفلسطينية على الالتزام بالقرار الفلسطيني المستقل . ويحث البرنامج الحركة على المشاركة بثقل أساسي في منظمة التحرير ، معتبراً قرارات المجالس الوطنية الفلسطينية جزءاً مكملاً لبرنامج « فتح » السياسي .

والبرنامج يقيّم ، بتقدير رفيع ، الانتفاضة الشعبية داخل الأرض المحتلة ، وصمود الجماهير في مواجهة مؤامرة الحكم الذاتي . وينص على ضرورة تصعيد الكفاح المسلح داخل الأرض المحتلة ، وعبر خطوط المواجهة مع العدو الصهيوني . كما أنه يدعو إلى مضاعفة الاهتمام بتنظيم الشعب الفلسطيني ، ودعم صموده ، على كافة الأصعدة ، وتطوير مؤسساته الوطنية ، والعمل ، بشكل خاص ، على تعزيز الصلات مع الجماهير الفلسطينية في الأرض المحتلة ، منذ عام ١٩٤٨ ، لمساعدتها على التصدي لمخططات تمزيق وحدتها الوطنية ، وطمس شخصيتها العربية .

أما على الساحة العربية ، فان البرنامج يميز بين مستويين للعمل فيها :

أ ـ **مستوى الجماهير** ، حيث العلاقة معها استراتيجية ، فقد شدد البرنامج على أهمية العلاقة مع الحركة الوطنية ، والقومية اللبنانية ، وحث على تطويرها لتصبح مثالاً للعلاقة مع الجماهير على امتداد الوطن العربي . كما شدد على أهمية الساحة الاردنية ، مبرزاً ضرورة اعادتها قاعدة ارتكازية من قواعد النضال ضد العدو الصهيوني . كما أكد ، أيضاً ، على أهمية تعزيز النضال مع الشعب المصري ، ممثلاً بقواه الوطنية والتقدمية ، لأجل اسقاط مؤامرة كامب ديفيد .

ب ـ **مستوى الأنظمة العربية** : صاغ البرنامج ، هنا ، الأسس التي تحكم علاقة الحركة بالأنظمة ، فأوجب أن تكون هذه العلاقة محكومة باستقلالية القرار الفلسطيني ، وبمبادىء الحركة وأهدافها ، بحيث لا تتعارض هذه العلاقة مع العلاقة الاستراتيجية بالجماهير . وأكد البرنامج المبدأ الذي تعتمده حركة « فتح » لتحديد الموقف الفلسطيني ، من كل نظام ، على أساس موقف هذا النظام من قضية الشعب الفلسطيني ، وثورته المسلحة . ويبرز البرنامج في هذا السياق ضرورة التصدي لأية محاولة لمنع الثورة الفلسطينية من العمل بحرية بين صفوف الشعب الفلسطيني في أماكن تواجده . ويدعو إلى العمل لتجنيد طاقات الأمة العربية ، البشرية والمادية ، خصوصاً ، الثروة النفطية . أما عن جبهة الصمود والتصدي فالبرنامج يحث على العمل لتطويرها ، لتصبح أداة

فعل رئيسية ، على قاعدة دعم منظمة التحرير ، ومواصلة الصراع مع العدو ، ومواجهة الحلول التصفوية كافة ، واسقاطها .

أما عن الساحة الدولية ، فقد انطلق البرنامج من اعتبار حركة « فتح » جزءاً من حركة التحرر العالمي المناضلة ، ضد الامبريالية ، والصهيونية ، والعنصرية وعملائها . ومن هذا المنطلق تتحدد التحالفات والممارسات ، على الساحة الدولية ، بما يتفق مع مبادىء الحركة ، ومع الميثاق الوطني الفلسطيني .

فالبرنامج يؤكد أهمية العمل ، من خلال منظمة التحرير ، لتطوير قرارات مختلف المنظمات الدولية ، خصوصاً ، قرارات الأمم المتحدة : ولاحكام عزلة العدو الصهيوني والاميركي في هذه المنظمات . كما أنه يدعو أيضاً للعمل من أجل الحفاظ على موقف أغلبية أعضاء الأمم المتحدة الرافض لاتفاقات كامب ديفيد .

ويحدد البرنامج معسكر الأصدقاء ، بالدول الاشتراكية ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، وحركات التحرر في العالم ، والقوى السياسية التقدمية والديمقراطية في البلدان الغربية .

ويدعو البرنامج إلى تعزيز العلاقات مع الثورة الايرانية التي أطاحت بأعتى قلاع الامبريالية في المنطقة ، كما يدعو لتدعيم العلاقة مع الشعوب والدول الاسلامية والافريقية ، وبقية دول عدم الانحياز ، من أجل تطوير مواقفها في دعم القضية الفلسطينية .

أما معسكر الاعداء ، فالبرنامج يبرز بوضوح أن الولايات المتحدة الاميركية تقف على رأس أعداء الشعب الفلسطيني ، والأمة العربية ، وتهدد أمن شعوب المنطقة ، وثرواتها ، مثلما تهدد السلام العالمي . ويحث على العمل لتعزيز الجبهة العالمية المعادية للسياسة الأميركية ، كما يحث على خوض المعارك ضد هذه السياسة لاسقاطها ، وضرب المصالح الأميركية في المنطقة .

أما بالنسبة لدول اوروبا الغربية ، وكذلك لليابان وكندا ، فان البرنامج يؤكد على أهمية تكثيف العمل السياسي فيها ، وذلك للاستفادة من تأييد القوى السياسية الديمقراطية والتقدمية فيها ، من أجل تقليص دعم هذه الدول للكيان الصهيوني ، ومن ثم ايقافه ، ومن أجل حملها على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني . ويسجل البرنامج أن العديد من دول اوروبا الغربية ما زالت تتبع سياسة منسجمة مع سياسة الولايات المتحدة ، ومخططاتها في المنطقة ؛ كما أن اليابان ليست بعيدة عن هذه السياسة . ويدعو البرنامج إلى تكثيف الجهود لمقاومة أي مشروع ، أو أية مبادرة ، تقدم عليها هذه الدول ، وتتعارض مع حقوق الشعب الفلسطيني الوطنية ، لاسقاطها .

أما البرنامج التنظيمي ، الذي صار اسمه النظام الأساسي لحركة التحرير الوطني الفلسطيني : « فتح » ، فيتضمن ما يلي :

١ ـ المقدمة .
٢ ـ الباب الأول : المبادىء والأهداف والأسلوب .
٣ ـ الباب الثاني : القواعد والأسس التنظيمية ـ الالتزام ـ الانضباط ـ المركزية الديمقراطية .
٤ ـ الباب الثالث : العضوية : أنواعها ـ شروطها ـ اكتسابها ـ حقوقها ـ واجباتها ـ استمرارها .
٥ ـ الباب الرابع : المنظمات القيادية في الحركة ـ القسم الأول .
المؤتمر العام ـ المجلس الثوري ـ اللجنة المركزية .
٦ ـ الباب الخامس : المنظمات القيادية في الحركة . القسم الثاني : مؤتمر الاقليم ـ لجنة الاقليم ـ مؤتمر المنطقة ـ لجنة المنطقة .
٧ ـ الباب السادس : منظمات القاعدة : الخلية ـ الحلقة ـ الجناح ـ الشعبة ـ المنطقة .
٨ ـ الباب السابع : العقوبات .
٩ ـ الباب الثامن : أحكام عامة .

وهذا البرنامج التنظيمي ـ النظام الأساسي ـ لن يجري نشره إلا بعد أن تجتمع اللجنة المركزية ، المنتخبة

من المؤتمر ، لتتخذ قراراتها بصدد النشر والتوزيع .

غير أن ثمة ملاحظات أساسية وهامة ينبغي إيرادها ، خصوصاً ، بعد تلك الأزمة ، وقد تحدثنا عنها في البداية ، التي عاشها مؤتمر « فتح » ، حوالي اليوم الواحد ، والتي ، بسبب عجز النظام الداخلي القديم عن مسايرة تطور الحركة ، ونموها ، واتساع نشاطها ، شكلت مأزقاً عاصفاً اقتضى الخروج منه الكثير من الجهد والاجتهاد ، والتوتر

أولاً ـ وضع النظام الأساسي قواعد محددة لاختيار أعضاء المؤتمر العام تتناسب ونمو الحركة ، من حيث التنظيم والأجهزة ، وعلى صعيد القوات العسكرية (المقاتلين) .

ـ وحدد بدقة اختيار المراتب التي يحق لها الوصول إلى المؤتمر العام ، من هؤلاء ، مما يضمن عدم تكرار المأزق الذي حدث أثناء بداية المؤتمر العام الرابع ، بالنسبة لعدد كبير من الأعضاء .

ـ وقد تناول النظام الأساسي بالتحديد الدقيق صلاحيات المؤتمر العام ، باعتباره أعلى سلطة في الحركة ، والتي تتمثل فيما يلي

أ ـ مناقشة تقارير اللجنة المركزية ، وقراراتها وأعمالها ، ومحاسبتها : وكذلك مناقشة أعمال الأجهزة والمؤسسات الحركية .

ب ـ اقرار النظام الأساسي .

جـ ـ اقرار اللوائح والأنظمة الحركية

د ـ انتخاب أعضاء اللجنة ''ركزية

هـ ـ طرح الثقة ببعض ، أو كل.أعضاء اللجنة المركزية

و ـ انتخاب العدد المطلوب للمجلس الثوري

ثانياً ـ وقد حدد النظام الأساسي صلاحيات المجلس الثوري وسلطاته ، التي هي سلطات مراقبة مباشرة على كافة شؤون الحركة، وبهذا يصبح دور هذا المجلس دوراً فاعلاً وليس دوراً استشارياً شكلياً .

ولكي يضمن النظام الأساسي للمجلس الثوري هذا الدور نصّ على دوره كأعلى سلطة في الحركة ، في حال انعقاده بين دورتي المؤتمر ، أي أن المؤتمر خوّل المجلس الثوري سلطاته كاملة .

ولكي تترجم هذه الصلاحيات ، بشكل عملي ، نص النظام الأساسي على أن يختار المجلس من بين أعضائه أمانة سر متفرغة ، هي عبارة عن أمين سر ، ونائب له ، ومقرر

ثالثاً ـ وقد كرس النظام الأساسي مبدأ الانتخاب في كافة مراتب الحركة ، وأهمها ، انتخاب المجلس الثوري ، حيث أنه في ظل النظام الجديد أصبح عدد الذين ينتخبون في المجلس الثوري يتراوح بين ٥٠ و٥٢ بالمئة من مجموع أعضائه ، بينما كانت هذه النسبة لا تتجاوز ٢٢ بالمئة في ظل النظام القديم

رابعاً ـ وقد عمد النظام الأساسي إلى زيادة عدد أعضاء اللجنة المركزية ، مؤكداً التوجه نحو جماعية القيادة ، وإلى تقسيم أعضاء اللجنة المركزية إلى مجموعات عمل متخصصة ، بهدف تطوير العمل النضالي ، بما يتلاءم والمرحلة القادمة ، سياسياً وتنظيمياً ، ولمنع الازدواجية في العمل

يبقى البرنامج الاعلامي ، الذي أقره المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » ، والذي تقرر خلاله تشكيل مجلس مركزي حركي للثقافة والاعلام ، يقوم على مبدأ تقسيم العمل ، نوعياً واختصاصاً ، ويتولى الاشراف على كافة النشاطات الاعلامية والثقافية ، في الحركة ، على صعيد المركز والاقاليم

وبعد ، فانني أعتقد أن هذا التقرير الذي وضعته في فترة ضيّقة زمنياً ، لن يعطي المؤتمر العام الرابع لحركة

التحرير الوطني الفلسطيني : « فتح » ، حقه من التقييم الموضوعي والعلمي

ولعلني استعرضت عدداً من الملاحظات والانطباعات والأفكار أكثر مما تفرغت لدرس المقدمات والنتائج ، وما بينهما .

فالمؤتمر كان ، فوق هذا كله ، صفعة قوية وجهتها حركة « فتح » للاعداء المحليين ، وللمتربعين من الرجعيين العتاة في منطقتنا ، ثم ، وفي الأساس ، صفعة أشد للامبريالية العالمية بقيادة الولايات المتحدة الأميركية .

وليس صدفة أن تكون التعليقات الأولى التي خرجت من واشنطن وتل أبيب ، على هذا المؤتمر ، تعليقات محمومة .

فبينما صوّر العملاء والمتربصون ، لأسيادهم في واشنطن وتل أبيب ، ان الثورة الفلسطينية ، وعمودها الفقري : حركة فتح ـ حركة الشعب الفلسطيني ـ ، توشك على التمزق والتشرذم ، خرجت « فتح » من مؤتمرها واحدة موحدة ، أصلب ما تكون وأقوى ما تكون ، لتشق طريقها في درب الكفاح المسلح مع كافة فصائل الثورة الفلسطينية ، جنباً إلى جنب ، وكتفاً إلى كتف ، مواصلة مسيرتها العظيمة على طريق الانتصار .

زياد عبد الفتاح

مراجعات

سميح سمارة ، العمل الشيوعي في فلسطين
الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية
بيروت ، دار الفارابي ١٩٧٩

مراجعة سهيل عامر

لما كانت الساحة الفلسطينية تعيش اليوم مرحلة هي في غاية التشابك والتعقيد والمصيرية ، فمن الصعب فهم هذا الحاضر بكل ملامحه وإبعاده ، بكل نجاحاته وانتكاساته ما لم نرجع الى التاريخ لنسلط الأضواء على تجاربه ولنستخلص منه الدروس علها تساهم بشكل افضل في تـ..يد أسباب الانتكاسات وتوضيح أبعاد النجاحات وتصبح بالتالي جهداً يساهم في دفع حركة التحرر الوطني الفلسطينية والعربية الى الأمام .

والمحاولة التي بذلها الباحث التقدمي الفلسطيني سميح سمارة في كتابه الصادر عن دار الفارابي والحامل عنوان « العمل الشيوعي في فلسطين . الطبقة والشعب في مواجهة الكولونيالية » هي بمثابة اسهام جدي في هذا الاطار وفي هذه المعركة .

ان الكتابة عن الحركة الشيوعية في فلسطين تكتنفها مخاطر شتى ، وتتطلب من صاحبها التسلح بالرؤية الموضوعية المتأنية والمنحازة لمصلحة القضية والشعب . وعدم التسرع في استخلاص الاستنتاجات السياسية التي قد تترك في الحصيلة العامة انعكاساتها السلبية التي لا يتوخاها هذا الباحث أو ذاك . كما تتطلب منه الشجاعة والجهد والسعي الدائب للوصول الى الحقيقة . فالكتابة في هذا الموضوع هي بحد ذاتها مخاطرة ، كون تاريخ هذه الحركة يتميز بخصائص وتعقيدات كثيرة ما زالت تعيشها الساحة الفلسطينية حتى الآن . والمراجع حول تاريخ هذه الحركة ، عدا كونها قليلة جداً ، فإن معظمها موجود في حوزة ايد معادية غير أمينة « انكليزية وصهيونية » هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ما زال يدور حول تاريخ الحركة الشيوعية الفلسطينية نقاط اختلاف كثيرة ، فهناك مداخل متنوعة ومختلفة لعدد من الباحثين يحاول تناول تاريخ هذه الحركة كل من زاويته وفي ضوء مصلحته .

فهناك من انطلق من ان الحركة الشيوعية في فلسطين تكونت في اطار الاستراتيجية العامة للمشروع الصهيوني ، ولم تستطع بعد ذلك خرق الجدار الصهيوني الذي طوق تحركاتها وجعلها هامشية وغير مؤثرة في الجماهير اليهودية . وهناك من رأى فيها امتداداً للحركة الاشتراكية العمالية اليهودية وللجناح اليساري في حزب بوعالي تسيون وقيمها على اساس ذلك بوصفها الحركة الأكثر جذرية في التعبير عن مطامح العمال اليهود والعرب ، كما فعل مثلاً ماير فلنر وماهر الشريف . في حين حاول آخرون ان يسودوا تاريخ هذه الحركة وتعمدوا ان يضخموا سلبياتها معتبرين اياها كياناً غريباً على الساحة وهؤلاء الاخيرون هم منظرو الفكر القومي الشوفيني من عرب وصهيونيين ومستشرقين غربيين برجوازيين .

وثمة باحثون يشكلون تيارا لم يستكمل كافة معالمه بعد ، يبدأون من حيث ابتدأ فلنر والشريف وامثالهما ، محاولين تناول تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين بموضوعية ، بحيث تتجنب تقييماتهم لها عنصري الدعاية التبريرية او التشهير المعادي . ومن هؤلاء الاستاذ سمارة

فكتابه الذي يقع في ٣٦٧ صفحة والذي يحوي سبعة فصول ، يتناول تاريخ الحركة الشيوعية في فلسطين ، التي هي جزء لا يتجزأ من تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية . لقد قام المؤلف بجهد كبير واعتمد على عدد ضخم من الوثائق والوقائع محللاً في بحثه ، نشأة الخلايا الشيوعية الفلسطينية وتطورها وفترات صعودها وانتكاساتها .

في الفصل الأول يتناول الكتاب المرحلة التاريخية التي بدأ فيها تشكل الوعي القومي عند العرب واطره التنظيمية . ويتوقف بايجاز شديد معالجاً الأرضية الاقتصادية والفكرية للبرجوازيات العربية في المشرق العربي . وينتقل بعدها الى الساحة الفلسطينية ليستعرض دور البرجوازية الفلسطينية . فكلامه عن البرجوازية الفلسطينية في الثلث الأول من هذا القرن ودورها القيادي يتكرر أكثر من مرة (ص ٣١ - ٣٢) .

ان استعمال مفهوم البرجوازية الكومبرادورية برأينا هو تعبير أدق في المعنى الاقتصادي لهذه الكلمة . ذلك لأن « البرجوازية » التي يتكلم عنها الأستاذ سمارة لم تصل في تلك الفترة ولا حتى بعدها الى مرحلة تكامل كافة معالمها كالبرجوازية التي نشأت في ظل التشكيلات الاقتصادية - الاجتماعية، حيث لعلاقات الانتاج الرأسمالية العنصر الحاسم في التشكيلة . فـ « البرجوازية » الفلسطينية كانت في طور التكوين ، ودورها منذ بداية نشوئها ، في ظل المعادلة الاقتصادية - السياسية العالمية ، وفي ظل وصول الرأسمالية الاحتكارية الى مرحلة الامبريالية ، كان دوراً تبعياً ؛ اذ انها شكلت مع الاقطاع تحالفاً طبقياً قاد - لسوء الحظ - الحركة الوطنية الفلسطينية حتى اواخر النصف الأول من الثلاثينات . هذا من جانب ، ومن جانب آخر ان بداية تكونها جاءت مع بداية تركيز وتثبيت المشروع الصهيوني الاستيطاني على الساحة الفلسطينية مما وضعها في موقع المدافع عن النفس والبقاء امام الخطر الذي بدأ يهددها .

كما يتناول أيضاً في الفصل الاول مع شيء من الاسهاب ، موقف الحركة الوطنية الفلسطينية في بداية العشرينات من الانتداب البريطاني ومن المشروع الصهيوني ، مستهدفاً من وراء ذلك وضعنا في الجو التاريخي للأحداث التي رافقت نشوء الحركة الشيوعية في فلسطين .

جذور الحركة الشيوعية في فلسطين النشوء والمواجهة

هذا هو عنوان الفصل الثاني الذي يعالج فيه المؤلف مخاطر المشروع الامبريالي الصهيوني فيقول : « اذا كان مشروع السيطرة الامبريالية على المنطقة العربية قد فرض ضرورة تحطيم اسس النهوض القومي لهذه المنطقة واعاقة النمو الطبيعي لتشكيلاتها الاجتماعية ، فإن هذا المشروع قد اضاف الى هذه المهمات ، مهمة اخرى خاصة بفلسطين ، تقوم على ضرورة إلغاء الكيان القومي بهذا الجزء من المنطقة العربية ،وفي ضوء ذلك ، لا يكون المطلوب اعاقة النمو الطبيعي للتشكيل الاجتماعي الفلسطيني كما حدث في سائر الأقطار العربية ، بل تدمير التشكيل نفسه » (ص ٤٣) .

اذن ، فالمشروع الصهيوني الذي جاء على اساس الشعار التالي « أرض بلا شعب لشعب بلا وطن » ، يستهدف استيطان الارض الفلسطينية بمساعدة الدول الامبريالية لخلق دولة تكون بمثابة الأداة الضاربة المدافعة عن مصالحها . ولكي يكون حجر عثرة اساسي في قلب العالم العربي الطامح الى الوحدة والتقدم الاجتماعي . في ظل هذا الواقع ، نشأت كافة الأحزاب السياسية في فلسطين ، التي كان لكل منها برنامجه السياسي الخاص به . فالأحزاب الصهيونية كانت تعمل من اجل ترجمة قرارات المنظمة الصهيونية العالمية ووعد بلفور الى حيز الواقع العملي . والاحزاب التقليدية القومية العربية كانت تجابه مشروع برامج الاحزاب الصهيونية ليس حباً أو التزاماً بمطامح ومصالح الجماهير العريضة العربية - اليهودية . بل انطلاقاً من حرصها على مصالحها هي بالذات . لذا ، كانت في صراعها ضد المشروع الصهيوني تستهدف ضرب المزاحم الاساسي على املاكها وسوقها، وكانت تتبع منذ البداية سياسة مهادنة الامبريالية الانكليزية طالبة منها المساندة والدعم . ولقد تمكنت في الواقع من تأطير الجماهير الفلسطينية العريضة حول برامجها عقدين من الزمن فهي بحكم الحفاظ على مصالحها ، وبحكم تخلفها الفكري والسياسي ، احدثت ثغرات ومداخل عديدة تمكنت بواسطتها الاحزاب الصهيونية بمساندة الانتداب "بريط من الزيادة التدريجية لرقعة نفوذها ع والاقتصاد الفلسطيني بشكل عام . و مساعداً للأحزاب الصهيونيه هو غير

التقدمية الثورية المنظمة الفلسطينية . ففي ظل هذا الواقع المعقد وفي ظل الهجرة اليهودية المكثفة الى فلسطين كانت الولادة الاولى للحركة الشيوعية في فلسطين . فكما يقول الاستاذ سمارة : « لم تنشأ الحركة الشيوعية في فلسطين نتيجة انشقاق عن حزب اشتراكي ، وذلك انسجاماً مع الانشقاق الذي شهدته الحركة الشيوعية العالمية بعد التدهور الذي أصاب « الأممية الثانية » ، وبعد نجاح ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ كما هي حال الاحزاب الشيوعية في فرنسا وفي ايطاليا مثلاً . ولم تنشأ هذه الحركة نتيجة تجمع عدد من الاحزاب الشيوعية في الولايات المتحدة وبريطانيا والصين . كما لم تنشأ عن تطور شرائح معينة في صفوف الحركة الوطنية الفلسطينية يؤدي بها الى الاستقلال فالإنفصال . كذلك من غير الممكن مقارنتها مع الحركات الشيوعية التي ظهرت في اطار مشاريع كولونيالية مشابهة كما في الجزائر وجنوب افريقيا . ففي فلسطين لم يقف المشروع الكولونيالي عند حدود استغلال موارد البلاد وقواها العاملة . ولا عند محاولة تغيير الانتماء القومي للسكان الاصليين ، بل تعدى ذلك الى تفريغ الارض من سكانها لاقامة كيان بديل ، له دور رئيسي في عملية السيطرة العامة على المنطقة (ص ٤٤) .

ويتوقف المؤلف قليلاً عند هذه النقطة محللاً خصائص تكون الحركة الشيوعية في فلسطين ومشيراً الى « أن نشأة الحركة الوطنية في فلسطين لم تأت عبر تطور حدث في اطار الحركة القومية العربية كي تكون ولادتها طبيعية مع شروط الصراع ، بل جاءت عبر تطور حدث في اطار التجمع اليهودي ، نقل بعض الشرائح فيه من موضوعة « الوطن القومي اليهودي » الى موضوعة « الصهيونية البروليتارية » التي تأسست على ارضية المشروع الكولونيالي نفسه . ان اليسار الصهيوني الذي جاء كنتيجة لهذا التطور لم يهدف الى حل المسألة اليهودية حلاً « قومياً » فقط ، بل اضاف اليه حله « الاشتراكي » دون ان يضع في حسابه أي دور للجماهير العربية ، مما جعله في موقع التناقض المباشر مع مصالح هذه الجماهير » (ص ٤٤ ـ ٤٥) .

ويتناول الكاتب مسألة نشوء الحركة العمالية اليهودية والمستجدات والتغيرات التي طرأت على اليسار الصهيوني في اوائل القرن العشرين ، اذ يقترب من حقيقة الامور عندما يخلص الى استنتاجه حول التمايز بين الحركة الاشتراكية اليهودية وبين اليسار الصهيوني « ان يسار الحركة الصهيونية أو الصهيونية العمالية لم ينشأ من المجموعات الاشتراكية التي ادى بها تطورها الذاتي الى تأكيد تناقضها مع الحل الصهيوني . بل ان هذا اليسار قد نشأ من هذا التناقض ، الذي عكس نفسه داخل الحركة الصهيونية فخلق تياراً اشتراكياً وآخر صهيونياً تمايزا على ارضية واحدة هي الحل الصهيوني (ص ٤٦) .

في الواقع ان ما يسمى بيسار الحركة الصهيونية نشأ من داخل الفكرة الصهيونية . فالصهيونية منذ نشأتها وضعت نفسها في موقع النقيض للاشتراكية . فقد صدر عن المنظمة الصهيونية في روسيا القيصرية قبل ثورة اكتوبر بيان جاء فيه : « الاشتراكية هي الدمار والانحلال والعداوة ، والصهيونية هي السلام . ان الاشتراكية وضعت الصهيونية على مفترق طرق... فالاشتراكية والصهيونية لا يعتبران قطبان متنافران وحسب ، بل عنصران كل منهما ينفي الاخر تماماً »* . فالمضمون الاساسي للصهيونية يتمثل في عدائها للاشتراكية العلمية كايديولوجية وممارسة .

بيد انها عندما رأت في اوائل هذا القرن ان القسم الأكبر من البروليتاريا اليهودية بدأ ينخرط ويساهم بنشاط في الاحزاب الاشتراكية وبالذات في روسيا وبولونيا وفرنسا وسواهم ، قامت بتغيير تكتيكها فاعتمدت اسلوب « البلوراليزم » التعددية التنظيمية والسياسية واستحدثت بعض الاحزاب العمالية الصهيونية متسترة بعبارات اشتراكية . وكان أهم الاحزاب الذي تمكن من استقطاب قسم من العمال اليهود هو حزب « بوعالي تسيون » (عمال صهيون) الذي تأسس في مدينة مينسك عام ١٩٠٥ ، وتمكن عبر اتصاله بكافة التجمعات اليهودية الاساسية في اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ان يحمل صفة دولية اذ ضم تحت لوائه العديد من التنظيمات العمالية الصهيونية في العالم وكان يشترط على الراغب في الانضمام اليه دفع « الشاكل » والتقيد بالبرنامج الداخلي للمنظمة الصهيونية العالمية

اما المجموعات العمالية اليهودية الاشتراكية الاخرى ، فكانت تتخبط بين الحل الاشتراكي

* راجع يفسييف، « الفاشية تحت النجمة الزرقاء » . موسكو ١٩١٧ ـ ص ١٢٦ بالروسية

الجذري والحل الصهيوني . فالحزب الاشتراكي العمالي اليهودي وحزب « البوند » اللذان نشطا في روسيا القيصرية ، كانا في تأكيدهما على وجود « شعب يهودي » وعلى ضرورة احياء « الثقافة اليهودية » والحفاظ على « استقلاليتها » ، يلتقيان مع بعض طروحات الصهاينة . ولقد تم قبيل العشرينات من هذا القرن تقارب فكري بين الجناح الانتهازي اليميني من حزب « البوند » مثلاً وبين اليسار الصهيوني وحتى خط الحركة الصهيونية بشكل عام . ففكر هؤلاء جميعاً كان يقوم على ارضية القومية البرجوازية اليهودية . على عكس البروليتاريا اليهودية الثورية التي تبنت منهجاً متمايزاً فانضمت الى الاحزاب الاشتراكية ـ الديمقراطية، كل منها في بلدها . وساهمت بنشاط بحكم موقعها الطبقي وانتمائها الى تلك الاحزاب التي مثلت وتمثل مصالحها فعلاً لا قولاً ، في نشر الفكر الاشتراكي العلمي وبالتالي في بناء الاشتراكية . فهذه البروليتاريا الاممية وجدت نفسها منذ البداية على نقيض مع الصهيونية بيمينها ويسارها .

في اواخر الفصل الثاني يسلط الاستاذ سمارة الاضواء ، اعتماداً على مصادر عبرية ، على عملية الفرز والتمايز التي جرت داخل اليسار الصهيوني في فلسطين والتي ادت في بداية العشرينات الى تشكيل فصيل تقدمي منه اطلق على نفسه اسم « حزب العمال الاشتراكي » . ولقد لعب احد رموزه القيادية ما يرسون دوراً هاماً في دفع الحزب خطوات جدية إلى الامام . فهذا الحزب في مجمل طروحاته وممارساته كان اقرب الى الاشتراكية الطوباوية منه الى الاشتراكية العلمية . بيد ان الشيء الواضح في طروحات الحزب الجديدة ، هو الوقوف « بحياء » في البداية وفيما بعد بشيء من الوضوح ضد الايديولوجية الصهيونية الا ان هذا الحزب ـ على حد قول الاستاذ سمارة ـ كان يعتقد بأن الهجرة اليهودية الى فلسطين « تتعارض مع مصالح العمال والفلاحين ، بل على العكس ، فهي تتوافق مع مصالحهم » (ص ٦١)

فتركيز الحزب على الهجرة اليهودية الى فلسطين يكون قد غيب عن الساحة عنصراً اساسياً هاماً وخطيراً لعب دوراً اكبر في الثغرات الديمقراطية والسياسية التي ادت فيما بعد الى خلق القاعدة البشرية للمشروع الصهيوني

بعدها يتناول المؤلف الجو العام الذي جرت فيه المواجهة العربية الأولى مع المهاجرين الصهاينة ، ويبين دور الجماهير العريضة العربية المناهضة للمشروع الصهيوني . كما يبدأ بتسليط الأضواء على الدور الممالىء لبريطانيا الذي لعبه الوجهاء العرب . ويوجه نقده اللاذع الى مجمل ممارساتهم وادعاءاتهم ، فيقول بأن العادة عند « الافندية » العرب تدفعهم في أية أزمة يمرون فيها ، أو أية انتفاضات جماهيرية تعيشها جماهيرهم ، إلى إلصاق التهم جزافاً وتوجيه كافة الشتائم الى الشيوعيين بحجة انهم ينشرون رسالة البولشفية المعادية لتقاليدنا واعرافنا الدينية والأجتماعية .

في معرض تقييمه لدور حزب العمال الاشتراكي ، يحاول المؤلف في الفصل الثالث ان يستشف التغيرات التي طرأت عليه . ففي بداية العشرينات وتحديداً بين ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ ، جرى في الحزب صراع عميق بين تيارين : الاول كان لا يخرج عن اطار الخط اليساري من حزب « البوعالي تسيون » والثاني كان يدعو باخلاص لتبني الفكر الماركسي اللينيني حيال كافة القضايا ولقد ظهر الاختلاف والتمايز داخل الحزب من جهة وبين العناصر المحسوبة على الجناح اليساري من « البوعالي تسيون » في صدد الانضمام الى الاممية الثالثة من جهة اخرى ، وتحديداً بعد اعلان الاخيرة موقفها بشكل واضح من الحزبين ومن المشروع الصهيوني في فلسطين . فقد جاء في قرار صدر عن المؤتمر الثالث للجنة التنفيذية للأممية الشيوعية بعنوان « الحركة العمالية اليهودية » : « ان شيوعيي « بوعالي تسيون » توجهوا بطلب انتساب الى الأممية الشيوعية ، وكان جواب اللجنة التنفيذية ان اشترطت على الاتحاد العالمي للعمال اليهود (بوعالي تسيون) القيام بحل نفسه وذلك في مؤتمر يدعو لعقده من اجل تلك الغاية في مدة لا تزيد على خمسة أشهر . ويتوجب على الاتحاد حل نفسه في مدة لا تزيد على شهرين من انتهاء ذلك المؤتمر والتوجه الى اعضائه بالانتساب الى الفروع المختلفة للأممية الشيوعية . أما شروط الانتساب الأخرى فهي : المصادقة الفورية على اطروحات المؤتمرين الثاني والثالث للأممية الشيوعية ، وقطع العلاقة بالميول والنظريات الصهيونية بشكل نهائي . وعلى الرفاق اليهود ان يعلنوا أيضاً انهم يعارضون النشاط الكولونيالي (الاستيطاني) اليهودي في فلسطين الذي يساعد على المحافظة على مصالح الامبريالية

البريطانية . (ص ٨٥) .

ومن الأهمية بمكان التنويه بالقرار التاريخي الذي صدر عن المؤتمر الثاني للكومنترن الذي أضيف الى الموضوعات اللينينية المتعلقة بالمسألة القومية ومسألة المستعمرات ، حيث جاء في البند الحادي عشر منه ما يلي :

« من الضروري الفضح الدائب أمام الجماهير الكادحة في جميع البلدان ، وخاصة المتخلفة ، لعملية الخداع المنظم الذي تمارسه الدول الامبريالية بمساعدة الطبقات السائدة في البلدان المضطهدة ، التي تتظاهر بالدعوة لاقامة دول مستقلة سياسياً ، فيما تقيم في الواقع دولاً تابعة لها كلياً من جميع النواحي الاقتصادية والمالية والعسكرية . والمثال صارخ على الخداع الذي يمارس على طبقة الكادحين في البلدان المضطهدة ، الذي يتمثل بالجهود المشتركة لامبريالية دول الوفاق وبرجوازية هذا البلد أو ذاك . وهنا نستطيع ان نشير الى مشروع الصهاينة في فلسطين . ان الصهيونية وبحجة اقامة دولة يهودية في هذا البلد ، الذي يشكل اليهود فيه قلة ضئيلة ، قد قدمت السكان الاصليين من الكادحين العرب ، قربانا للاستغلال الانكليزي*

وبهذا يكون الكومنترن قد أعلن عن موقفه الواضح من المشروع الصهيوني . ويكون قد وضع حزب العمال الاشتراكي والجناح اليساري من « بوعالي تسيون » امام خيارين اثنين لا ثالث لهما . إما تبني المشروع الصهيوني على صعيد النظرية والممارسة ، أو الوقوف ضده جملة وتفصيلاً . الامر الذي يقتضي الاتجاه بالضرورة الى الالتصاق بالواقع الفلسطيني والالتقاء مع حركة التحرر الوطني الفلسطينية والمشاركة معها في ممارسة كافة انواع النضال ضد المشروع الامبريالي ـ الصهيوني .

بيد ان الفترة اللاحقة لم تحسم الامور لمصلحة الخيار الثاني : إذ احدثت توصيات وقرارات الكومنترن بشأن المشروع الصهيوني وضغوطات التيار المهيمن السائد داخل «البوعالي تسيون» الذي تبنى كلياً المشروع الصهيوني ، بلبلة فكرية وسياسية بين الحزبين . ولم يتمكن عدد من قادة حزب العمال الاشتراكي التخلص من شعار « الصهيونية الاشتراكية » الا بعد الانضمام الى الكومنترن عام ١٩٢٤ .

وبإعلان الحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٢٣ ، الذي جاء كامتداد للخط اليساري لحزب العمال الاشتراكي ، يكون الحزب الشيوعي قد بدأ يخطو خطوات ملموسة باتجاه الفكر الماركسي - اللينيني حيال المشروع الصهيوني وحيال المسألة القومية بشكل عام . بيد ان هذا الفكر ، وهذا الخط بشكل عام ، لم يستطيعا الوصول الى مرحلة التبلور السياسي والتنظيمي . فقد شهدت مجمل طروحاته وممارساته في العشرينات وبعدها عدداً من الشوائب التي حالت دون وصوله الى الجماهير العريضة العربية واليهودية . ولعل احد اهم الاسباب التي حالت دون ذلك في العشرينات بالتحديد ، هو انحصار نشاطه داخل الأقلية اليهودية وبعده عن العمال والفلاحين العرب ، مما حدا بالكومنترن التأكيد على ضرور وأهمية تعريب الحزب .

الحزب الشيوعي الفلسطيني ومسألة التعريب

في الفصل الرابع الذي حمل عنوان ب. ك. ب بين النهوض والمطاردة ، يركز الاستاذ سمارة على اهمية تعريب الحزب من القمة الى القاعدة، ويستعرض موقف الكومنترن من هذه القضية ، وهو موقف يتلخص بأربعة خطوط يجب على الحزب اقتحامها كي يتمكن من ترجمة هدف التعريب الى الواقع العملي :

الأول : خلق قناة اتصال بينه وبين الجماهير الفلاحية والبدوية انطلاقاً من عداء الطرفين المشترك لشراء واستيطان الأراضي .

الثاني : الدفاع عن مصالح العمال العرب وحقهم بالتصدي لمبدأ « احتلال العمل » الصهيوني والنضال من اجل نقابة عمالية أممية .

الثالث : العمل على اختراق الأحزاب الصهيونية والمؤسسات التابعة لها كالهستدروت ومحاولة ضربها من داخلها وضم العناصر المتقدمة فيها الى الحزب .

الرابع : المساهمة في بناء حركة شيوعية في المشرق العربي تسمح للحزب بأن يعتبر نفسه جزءاً من حركة التحرر العربية (ص ١٠٧)

---

* راجع التقرير التحضيري المختزل للمؤتمر الثاني للاممية الشيوعية موسكو ١٩٢١ ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤ . بالروسية .

وبناء على ذلك كان على الحزب ان يناضل على صعيد بنائه الذاتي للتخلص من التأثيرات الصهيونية . لكنه سرعان ما اكتشف ان النضال على هذا الصعيد ليس سوى نتيجة الترابط الجدلي بين ذلك وبين المحاور الأربعة السابقة . وعلى اساس ذلك ـ والكلام للاستاذ سمارة ـ خاض معركة فاصلة مع القوى الصهيونية . ورغم الشك في كون هذه المعركة قد ادت الى نتائج هامة على مستوى هذا الهدف ، الا انها افادت في ابراز ضلال وهبوط موضوعية « الصهيونية البروليتارية » هبوطاً كاملاً وذلك حين عمدت القوى الصهيونية الى طرد الحزب من مؤسساتها فأنهت بذلك أية محاولة توفيقية بينهما موضوعياً .

هناك هاجس اساسي يدور في ذهن الباحث الفلسطيني سمارة منذ بداية كتابه وحتى آخره ، حول طبيعة كافة المؤسسات اليهودية التي جاءت في اطار المشروع الكولونيالي الصهيوني . لذا نراه ضد النظرة اليها كمؤسسات برجوازية أو عمالية في ظل مجتمع متكامل المعالم كما هو الامر في اي بلد رأسمالي كفرنسا أو بريطانيا أو بلجيكا . فهذه المؤسسات تم تركيبها على أرض هي أصل لقومية وشعب آخر .

ومن هنا يخلص المؤلف الى الاستنتاج التالي : « ان مصدر الخطأ هو اعتبار الحزب التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين يتمتع بنفس السمات والمميزات التي يتمتع بها أي مجتمع آخر ، وان تشكيله الطبقي والسياسي مماثل لأي تشكيل آخر » (ص ١١٢) .

غير أنه يتناول فيما بعد التحولات الفكرية والممارسة التي طرأت على حياة الحزب ، ويحاول حسم القضية في ذهنه اثناء تناوله تقرب الحزب من الجماهير العربية واليهودية ، واثناء اتجاه قيادته لمد الجسور مع الرفاق العرب وارسالهم في دورات حزبية الى معهد كادحي الشرق في موسكو ، واعطائهم فيما بعد مراكز قيادية في الجهاز التنظيمي والاعلامي للحزب . ويولي هنا الاستاذ سمارة أهمية خاصة لمجلة « حيفا » ولرئيس تحريرها « ايليا زكا » في تعريف خط الحزب للجماهير العربية من خلال نشره الافكار الاشتراكية ومن خلال تركيزه على طبقية الصراع ضد الامبريالية والصهيونية ومن خلال تشجيعه المهاجرين اليهود للعودة الى اوطانهم الاصلية .

ولعل احد الاسباب التي دفعت بخط الحزب :قدما صوب الجماهير العربية ، اقالة ممثليه من الهستدروت . وحول هذا الموضوع يقول المؤلف : « ان الضربة [من الهستدروت ـ س.ع] قد وضعت الحزب امام الطريق المسدود من حيث دوره في التجمع اليهودي ومنذ تلك اللحظة اصبح على الحزب ان يعرف بوضوح تكتيكه أو خطه القديم الذي يجعله يضع قدماً في ارض التجمع اليهودي ، اي في أرض المشروع الصهيوني ، والقدم الاخرى في ارض الجماهير العربية . ان هذا التكتيك لم يعد مجدياً وبات على الحزب ان يحزم موقفه بوضوح كامل من مسألة انتسابه الى قضية الجماهير العربية التي تحتل الموقع المركزي في الصراع الدائر » (ص ١٣٥) .

انتفاضة آب ، الحزب والانزلاق

هذا هو عنوان الفصل الخامس ، حيث يتناول الكاتب طابع الانتفاضة . لقد دخل في صلب هذا الحدث التاريخي بدون ان يتوقف عند اسبابها ومضمونها والقوى القائدة والمحركة لها ، ويستعرض موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من هذا الحدث الهام الذي زلزل المشروع الصهيوني . كما يُستنتج من تحليل المؤلف ان الحزب كان غائباً عن مجريات الاحداث . فالانتفاضة ساهمت في تبلور اتجاهين كانا يعيشان داخل الحزب . الاول ، الذي كان يدعو للتعاون والتحالف مع الحركة القومية العربية وكان هذا الاتجاه يلاقي التأييد المطلق من الكومنترن والاتجاه الثاني ، الذي اطلق على نفسه اسم « مجلس العمال اليهود » الذي بقي أسيرا للطروحات الأولى للحزب في بداية العشرينات .

وظهر نقاش حاد داخل الحزب في معرض تقييم أحد اهم الانتفاضات التي عاشها الشعب العربي الفلسطيني في تلك الفترة . فمنهم من وصفها بانها « مذبحة » ، وهذا هو تقييم لجنة حيفا الحزبية المتأثرة بخط « مجلس العمال اليهود » . اما اللجنة المركزية فقد وصفتها بانها مذبحة + حركة تحرر للجماهير العربية (ص ١٦٩ ـ ١٧٠) .

في الواقع ان هذه الانتفاضة احدثت فعلاً بلبلة داخل الحزب ، تركت ذيولها وانعكاساتها على صفحات مجلات الامية الشيوعية في اعوام ١٩٢٩ . ١٩٣٠ ، ١٩٣١ . وبالتحديد مجلة المراسلات الاممية التي كانت تصدر بالفرنسية والانكليزية

والالمانية والاسبانية والروسية . ودار نقاش طويل في الاعداد ٨ و٩ و١٠ من مجلة « الشرق الثوري » عام ١٩٣٠، هذه المجلة التي كانت تغطي نشاط حركات التحرر الوطني والاحزاب الشيوعية في الشرق .

ولقد ادانت اللجنة التنفيذية للأممية الشيوعية موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني من انتفاضة آب وبالذات لجنة حيفا الحزبية ، التي بقيت على مواقفها السابقة . وكان هذا الحدث مناسبة لان يجدد الكومنترن دعوته الى الحزب للعمل بالفعل لا بالكلام باتجاه تعريب الحزب .

ولعل تركيز الكومنترن على مسألة التعريب ، ينم عن رؤية واضحة وصحيحة لضرورة وأهمية القيادة العربية الشيوعية للحزب التي تتمكن في حال طرحها لبرنامج سياسي سليم من تأطير الجماهير العريضة في المدينة والريف حولها . وكانت اللجنة التنفيذية لا ترى في طروحات وممارسات الشيوعيين اليهود الاداة القيادية الملائمة للوصول الى الجماهير العربية واليهودية ، لا سيما وبعض القادة لم يتخل بشكل نهائي حتى بداية الثلاثينات عن التأثر بـ (الصهيونية الاشتراكية) . من هنا كان التركيز على التعريب . فالقيادة الشيوعية اليهودية كانت عاجزة بحكم رؤيتها الوحيدة الجانب الى طبيعة الصراع فلقد كانت ترى في الانتداب البريطاني العدو الاساسي والاوحد . بخلاف القيادة التقليدية القومية العربية التي كانت تتبع سياسة المهادنة مع الامبريالية الانكليزية والتي كانت لا ترى من الصراع الدائر الا العدو الصهيوني .

في الفصل السادس الذي يحمل عنوان الانقسام الوطني والتعريب ، يتوقف المؤلف عند التغير الذي طرأ على ميزان القوى بين الدول الامبريالية ودخول الولايات المتحدة كعنصر فاعل ومقرر في السياسة العامة لهذه الدول ، والذي لم يؤد فقط الى الالغاء الاوتوماتيكي لموضوع الحركة الوطنية ، لكنه أضاف أيضاً إلى قوة الحركة الصهيونية ثقلاً مقرراً مما جعلها تقترب من هدفها المستحيل بشكل ملموس

في بداية هذا الفصل يتناول الكاتب ايضا التغيرات التي طرأت على ميزان القوى على الساحة الفلسطينية ، وعلى عملية الفرز الطبقية والسياسية التي جرت في هيكلية قيادة حركة التحرر الوطني الفلسطيني وفيها يتوقف قليلاً عند مضمون حركة عز الدين القسام الذي تمكن من اعطاء النضال الطبقي والوطني والقومي شكلاً جديداً تجسد في تأطير جماهير واسعة من الفلاحين حول حركته . ولقد شكل في قيادته تحدياً جدياً للقيادة التقليدية القومية ، المعادية للجماهير الفلسطينية العربية كمعادتها للصهيونية ، والتي كانت لا تفرق بين كلمة يهودي وصهيوني ، اضافة الى اتصاف سياستها دائماً حيال الامبريالية الانكليزية ليس فقط بالمساومة والمهادنة ، بل حتى بالتعاون احياناً .

إن نضال حركة التحرر الوطني الفلسطيني الذي أخذ بعداً قومياً وطبقياً ملموساً ، قد ترك تأثيره أيضاً في خط الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الامر الذي حدا بالكومنترن أن يحث قيادة الحزب على التعريب وعلى ضرورة تركيز النشاط السياسي في الريف الفلاحي الفلسطيني وتصفية ما تبقى من عناصر متأثرة بما يسمى بـ « الصهيونية الاشتراكية » . كل هذه المعطيات ساهمت في التأثير في قيادة الحزب وفي تسريع عقد المؤتمر السابع الذي خرج بقرارات هامة ، تعتبر بالفعل تاريخية ونقطة مضيئة جدا ، كونها حددت بموضوعية الموقف من الصهيونية كايديولوجية وممارسة . « فحركة التحرر الوطني العربية والمشروع الصهيوني لا يمكن ان يلتقيا على ارض واحدة، فكل منهما ينفي الآخر تماماً» (ص ١٩٨) .

اما بشأن المسألة الزراعية فيعلن المؤتمر برؤية علمية صحيحة أن « حل المسألة الزراعية في فلسطين والأقطار العربية الأخرى لا يمكن تحقيقه الا بطريقة واحدة ، هي الثورة الزراعية بقيادة البروليتاريا التي تؤدي الى اسقاط السيطرة الامبريالية » (ص ١٩٨ ـ ١٩٩) . لذا ، فعلى الحزب توجيه القوى الفلاحية الحية الى خط النضال الحاسم ضد الامبريالية بما يتضمن ذلك من اسقاط هيمنة البرجوازية

ان هذا الموقف الى جانب تقييمه ونقده الذاتي لمجمل ممارسات القيادة السابقة أوصل على حد قول الاستاذ سمارة الى عملية تشبه انتاج حزب جديد اثار غيظ اعدائه من شوفينيين صهاينة وعرب وانكليز ، فشنت الاحزاب العمالية الصهيونية هجوماً واسعاً على الحزب ، وبالذات اثناء المعارك الانتخابية النقابية وسواها . فعلى الرغم من ان هذا الموقف الجديد انعكس على وضعه الانتخابي بين السكان

اليهود ، الا انه بدا اكثر قرباً والتصاقاً من حقيقة الاوضاع ومن طموحات الجماهير العريضة العربية ومن المهمات العامة المطروحة امام النضال الوحدوي العربي العام .

هذا التحول قرب خط الحزب من الحزبين الشيوعيين الشقيقين في كل من مصر وسوريا ـ لبنان حول القضايا المختلفة بما فيها القضية القومية .

وانعكس هذا بشكل جلي في الكونفرانس المشترك للحزب الشيوعي الفلسطيني والحزب الشيوعي السوري ـ اللبناني في عام ١٩٣١ ، اذ اصدر المؤتمر قراراً حمل عنوان (واجبات الشيوعيين في الحركة القومية العربية) جاء فيه « ان جوهر القضية القومية العربية يتحدد في اطار ان الامبرياليين الانكليز والفرنسيين والايطاليين والاسبان قد خرقوا الجسد الحي للشعوب العربية . هذا التمزيق الذي حرمها من مقومات التقدم الاقتصادي والسياسي المستقل ، وحوّل الأقطار العربية الى ملحقات زراعية ومنتجة للمواد الخام ، بما يتضمن ذلك من تشويه واعاقة لنمو القوى المنتجة ولمجمل التطور في هذه الأقطار ... ان الامبرياليين يعتمدون على الزمر الملكية والرجعية ، وعلى ملاك الأرض والشيوخ الاقطاعيين وشبه الاقطاعيين ، وعلى البوجوازيين والكمبورادور وعلى الفئة العليا من رجال الدين ... لذا ، فان النضال من أجل الاستقلال الوطني والوحدة القومية للشعوب العربية يتقاطع بالضرورة مع النضال من أجل ثورة فلاحية ضد المغتصبين الامبرياليين وعملائهم (الصهيونيين في فلسطين) وفي الوقت نفسه ضد ملاكي الاراضي الاقطاعيين » (ص ٢٠٩) .

هذه المواقف كانت بمثابة محطة جديدة انطلق منها الحزب الشيوعي الفلسطيني لتمتين صلاته بالاحزاب الوطنية والقومية في فلسطين وخارجها .

ففي تشرين الاول ١٩٣٥ اشار البيان الذي صدر عن الحزب الشيوعي الفلسطيني بعنوان « من اجل تحالف كل العرب واصدقائهم ضد الامبريالية » الى ضرورة توسيع الرقعة الطبقية من اجل التصدي للمؤامرة الامبريالية : « على كل عربي أكان تاجراً ، حرفياً ، صاحب دكان ، مصرفياً ، صاحب مصنع ، مهنياً ، أو من الصناعيين يعاني من نتائج السياسية الامبريالية والبريطانية ، ان يعمل على تدعيم وحدة المجتمع لاننا لا نستطيع النضال من اجل الوطن بينما نقاتل بعضنا بعضاً باستمرار » (ص ٢١٣) .

غير ان هذا التقرب من الحركة الوطنية الفلسطينية والعربية الذي أكسب الحزب تأييد الجماهير العربية افرز تياراً مرتداً داخل صفوفه كان يدعو الى تمحور وتركز النشاط السياسي داخل التجمع اليهودي . وهذا ما حصل بعد خمود ثورة ١٩٣٦ . ويعزو الاستاذ سمارة هذه التقلبات والتحولات الى انه منذ البداية [بداية نشوء الحزب] كان واضحاً ان الشيوعي الذي ينتسب بحكم عوامل خارجة عن ارادته الى التجمع اليهودي الكولونيالي يقف امام اختيارين حاسمين : فاما الهجرة عن فلسطين او اعلان الانتساب الكامل الى قضية الجماهير العربية ، واذا كان الاختيار الاول ممكنا ، فلا شك ان عقبة مهمة تقف امام الاختيار الثاني بحيث يصعب جعله اختياراً جماعياً . فحالة العداء القائمة في المجتمع تجاه المشروع الكولونيالي ومادته البشرية تشكل حاجزاً موضوعياً ثانياً امام انخراط الشيوعيين اليهود في الاطار الاجتماعي الذي ناضلوا من خلاله ، ولو من منطلقات معادية لمشروعه ومستقبله السياسي (ص ٢١٥) .

امام هذا التردد وعدم الحسم في التوجه نحو الجماهير العربية وامام اجتياح المشروع الكولونيالي للساحة الفلسطينية ، وبالذات امام التغيرات الديموغرافية وكافة المستجدات التي كانت تعيشها الساحة الفلسطينية ، امام كل هذا ، وجدت عناصر من الحزب الحل بتأسيس تنظيم خاص للشيوعيين اليهود . وكان الانقسام في عام ١٩٣٧ ، حيث تم انتخاب حانوخ بساسا اميناً عاماً للحزب .

عصبة التحرر الوطني في فلسطين
حيثيات الرضوخ والنشوء والنهاية

في الفصل الاخير يستعرض المؤلف بداية تبلور ثلاثة تيارات داخل الحزب الشيوعي الفلسطيني

الاول : الحزب الشيوعي الفلسطيني ، الذي كانت رموزه القيادية ممثلة في كل من ميكونيس ، فلنر ، فيلنسكا وسواهم وكلهم من الشيوعيين اليهود .

الثاني : حمل اسم عصبة التحرر الوطني في فلسطين، الذي لم يضم في صفوفه سوى العرب، واهم قياداته أميل توما ، بولس فرح ، موسى الدجاني ، أميل حبيبي ، فؤاد نصار ، توفيق طوبي .

الثالث : حمل اسم الاتحاد التربوي الشيوعي ومن ثم الحزب الشيوعي العربي ، وأهم رموزه سيمحا تساباراي ، واليعازار بريمنجير ، وهذا التيار لم يخف تعاطفه مع المشروع الصهيوني ، واعلن علانية عن ضرورة انشاء وطن قومي للشعب اليهودي .

في معرض تقييمه للأسباب التي ادت الى نشوء عصبة التحرر الوطني في فلسطين ، يشير المؤلف الى « ان السمة الرئيسية لكيفية نشوء عصبة التحرر الوطني ، لم تأت من داخل بنية القيادة التاريخية للحركة الشيوعية في فلسطين وان كانت على صلة اساسية بها ... ان ذلك يعكس في حد ذاته حالة التطور السياسي والاجتماعي التي وصل اليها المجتمع العربي في تلك الفترة ، كما يعكس حجم تطور القوى المنتجة وتزايد دور الطبقة العاملة العربية » (ص ٢٤٦) .

اما بشأن المستقبل السياسي لجماهير اليهود ، فقد تناوله برنامج عصبة التحرر الوطني : « انه النضال الديموقراطي ضد الامبريالية في فلسطين من اجل التحرر ـ وهنا تتقدم العصبة بالحل الديموقراطي الوحيد عندما تنادي بجلاء القوات الاجنبية وبانشاء دولة فلسطينية مستقلة حرة ديموقراطية ، تستطيع ان تضمن الحقوق المدنية والديموقراطية لمواطنيها على السواء . وتعترف العصبة لدى تقديمها هذا الحل بالحاجة الى حماية حقوق اليهود الموجودين حالياً في فلسطين ، وتعترف كذلك بان هذه الحقوق لا يمكن حمايتها الا في دولة فلسطينية حرة مستقلة (ص ٢٥٤) .

وفي بيان آخر ، دعت فيه العصبة الجماهير الفلسطينية الى اليقظة والحذر من مخاطر الصهيونية التي تستهدف انشاء دولة يهودية في فلسطين ، إذ يؤكد البيان « ان دولة كهذه لن تكون الا قاعدة للاستعمار الانكلو ـ اميركي الذي يستعد في الوقت الحاضر للقضاء على نضال الأقطار العربية ، ولكي يفرض عليها مخططات رجعية كمشروع سوريا الكبرى ومشروع الكتلة الشرقية ، بهدف التشجيع على الحرب ضد الديموقراطية الجديدة والاتحاد السوفياتي » (ص ٢٥٥) .

من خلال تركيز العصبة على التصدي للمشروع الامبريالي الصهيوني الهادف الى اقامة دولة يهودية ومن خلال طموحها الى تعميق الوحدة العمالية ـ الفلاحية ، ومن خلال تأكيدها على ترابط النضال الوطني والقومي والاممي ، اذ انها اولت اهمية كبرى لتعميق الصلات بالحركة الثورية العالمية ومع احد اهم فصائلها الحركة الشيوعية ، من خلال كل هذا ، نتلمس قرب خطها السياسي من الجماهير العربية ، والتفاف هذه الجماهير حول برنامجها ، والذي ساهم في ازدياد هذا الالتفاف هو توجهها نحو تمتين علاقاتها وصلاتها بالحزب الشيوعي اللبناني الشقيق وبالحركة الديموقراطية للتحرر الوطني في مصر (حدتو) .

غير ان ميزان القوى الذي استجد على الصعيدين العالمي والعربي بعد الحرب العالمية الثانية ، وزيادة شراسة المؤامرة الامبريالية ـ الاميركية ـ الانكليزية ـ الصهيونية ـ الرجعية المحلية ، وتمكن الاحزاب الصهيونية من السيطرة على المفاصل الاساسية في الحياة الاقتصادية والسياسية للسكان اليهود ، وعلى الرغم من التمايز الذي حصل بين موقف العصبة وموقف « الحزب الشيوعي الفلسطيني » حول وضع فلسطين وخارجها ، وفي ظروف ضعف الحركة التقدمية الوطنية الفلسطينية والعربية ، جميع هذه العوامل الموضوعية حالت دون وصول عصبة التحرر الوطني الى اهدافها المنشودة . في نهاية الكتاب ، وبعد ان يعكس الاستاذ سمارة ، كل مشاعره وبحزن عميق ازاء فشل العصبة في التصدي لمؤامرة احتلال بلاده ، يخلص الى القول « اذا كان نجاح المؤامرة واعلان قيام الدولة الصهيونية قد ادى الى تدمير وتمزيق التشكيل الاقتصادي ـ الاجتماعي لفلسطين ، واذا كان قد ادى الى تمزيق وتشتيت الحركة الشيوعية في فلسطين ، بحيث لم يعد الامر مقتصراً على انقسام معين في صفوف هذه الحركة ، الا ان الهدف المركزي والاستراتيجي القائم على الدعوة والنضال من اجل اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ، ظل واستمر قاسماً مشتركاً بين مجموع الاطر الشيوعية الفلسطينية المستقلة التي ظهرت بعد الكارثة ، ورغم انشغال كل حزب من الاحزاب الثلاثة (الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، الحزب الشيوعي الاردني ، الحزب الشيوعي الفلسطيني في قطاع غزة) بقضاياه الراهنة التي تقتضي التركيز عليها، الا ان هذا الانشغال كان مرتبطا ارتباطا وثيقا في الهدف المركزي المشار اليه » (ص ٣٠٤) .

هذا التقديم ، هو دون شك ابعد من ان يكون متكاملاً . فلقد تناولنا اهم النقاط التي اثارها الكاتب ، وما يهمنا في نهاية هذا التقديم هو التأكيد على الاستنتاجات التالية :

اولا : كان الهدف من وراء هذا البحث هو تقييم نشاط الحزب الشيوعي الفلسطيني من كافة جوانبه ، علّ هذا يساهم في الكشف عن مسببات الانتكاسات وتسليط الاضواء على الجوانب المضيئة في تاريخه ، لتوظيف هذه التجربة في المعركة الآتية . ان بحث الاستاذ سمارة هو اضافة جديدة اوضحت الرؤية حول قضايا كثيرة كانت مجهولة لدى الكثير من الباحثين والقراء .

ثانياً : لم يتمكن الحزب الشيوعي الفلسطيني منذ نشوئه وحتى اوائل الثلاثينات من استيعاب القوانين العامة للصراع الاجتماعي والوطني والقومي في ضوء الفكر المادي الجدلي ، فجاء تفكيره اقرب الى الاشتراكية الطوباوية منه الى الاشتراكية العلمية لذا ، لم يستطع ان يعي خصوصيات الساحة الفلسطينية والعربية . وقد فهم الشعارات المركزية التي طرحتها مؤتمرات الاممية الشيوعية بشكل ميكانيكي مما اوقعه في مجموعة من الانحرافات « العمالية » و« القومية » .

وبتركيزه على مسألة اقامة « ديكتاتورية البروليتاريا » و« حكومة للعمال والفلاحين » يكون قد غيب عن ساحة الصراع عملاً اساسياً ، وهو المشاركة الفعالة والمؤثرة من اجل التحرر القومي والوطني هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فقد شهد خطه السياسي انحرافا قوميا كان يظهر بين هذه الفترة التاريخية او تلك . فتارة كان يغلب على هذه الفترة التركيز على العمل داخل التجمع اليهودي ، وتارة اخرى وكردة فعل على التيار الاول ، كان يتم التركيز على العمل داخل السكان العرب . والتياران ولفترة طويلة كانا موجودين في حزب واحد .

ثالثا : بعد تخلص الحزب من التأثيرات « البوعالي تسونيه » وبعد انضمامه الى الكومنترن في عام ١٩٢٤ ، كان يطمح الى ان يؤطر البروليتاريا اليهودية الموجودة داخل التجمع الكولونيالي ، حول خطه السياسي ناظراً اليها كطبقة متكاملة المعالم ، مغيباً عن الواقع الاطار العام الذي كان يحيط بها وتحديداً المشروع الصهيوني ، وغائباً عن الجماهير العمالية - الفلاحية العربية . من هنا كان نشاطه يتمحور داخل الاقلية اليهودية ،ومن هنا ايضاً تركيزه حتى المؤتمر السابع عام ١٩٣٠ على ان يستلم الشيوعيون اليهود المفاصل الاساسية للحياة الحزبية - مما جعله يتأرجح بين انتمائه الى التجمع اليهودي وانتمائه الى السكان العرب . الامر الذي ادى في النتيجة الى الانقسام عام ١٩٤٣ .

رابعا : في البرنامج السياسي لعصبة التحرر الوطني في فلسطين تستشف فهماً صحيحاً لخصوصيات الساحة الفلسطينية ، وتقرباً والتصاقاً واضحاً بالجماهير العربية التي بدأت تفقد الثقة بالقيادة القومية التقليدية . كما أننا نرى في برنامج العصبة تجسيداً لمجمل الطروحات الصحيحة التي طلع بها المؤتمر السابع للحزب الشيوعي الفلسطيني عام ١٩٣٠ .

خامسا : ان هذا البحث الذي اعتمد على مراجع ضخمة جدا من مصادر مختلفة ، اوقع صاحبه بعدد من الاخطاء والمغالطات نذكر منها : ان اسم اول امين عام للحزب الشيوعي الفلسطيني هو وولف اورباخ وليس حاييم اورباخ . رغم انه لدى الحديث عن بيوغرافيا زعماء الحركة الشيوعية الفلسطينية ، تنبغي الاشارة الى المصدر وبأية لغة . واذا كان الكاتب قد اقتبسها من بحث عربي ، فعليه انطلاقا من الامانة العلمية ان يذكر من اين . ففي صفحة ١٧٥ يقول ان ليشينسكي واورباخ سقطا، فهما في الحقيقة لم يسقطا بل تابعا نشاطهما الصحفي والسياسي في قسم الدعاية والاعلام التابع لجامعة كادحي الشرق واستمرت كتاباتهما في اواخر النصف الاول من الثلاثينات على صفحات مجلة الشرق الثوري التي كانت تصدر في روسيا . وفي صفحة ٣١٦ يشير المؤلف الى ان المؤتمر الاول للعمال العرب انعقد في عام ١٩٢٠ . والحقيقة ان المؤتمر انعقد في حيفا عام ١٩٣٠ ... والخ .

واخيرا فنحن قد نختلف ونتفق مع المؤلف حول نقاط كثيرة، وهذا من بديهيات النقاش الديموقراطي، انما على العموم ، يجيء هذا الكتاب مع الكتب القليلة الجادة في هذا العام ، إذ يتضمن مادة وثائقية غنية جدا ، وبذا يضيف الى المكتبة العربية السياسية عملا هاما يساعد كل المناضلين الفلسطينيين والعرب في التعرف على حقبة تاريخية كانت مجهولة للكثير من قرائنا وباحثينا .

مراجعة اخرى لكتاب عيسى الشعيبي « الكيانية الفلسطينية ـ الوعي الذاتي والتطور المؤسساتي ١٩٤٧ ـ ١٩٧٧ »

مراجعة مؤنس الرزاز

لا شك في أن كتاب عيسى الشعيبي قد نجح في التطرق الى مسألة بالغة الحساسية والتعقيد ، طارحاً بين السطور (التأريخية) كثيراً من التساؤلات دون أن ينجح نجاحاً مماثلاً في الرد عليها .. ولعل هذه الغاية لم تكن ضمن مخططه اصلاً .

ولقد سبق لسمير أيوب أن قدم موجزاً عن هذا الكتاب في «شؤون فلسطينية»* فأجاد في العرض ووفره عليّ، واضطرني الى الولوج في مناقشة المحتوى دون مقدمات

يطرح الكتاب بين سطوره وخلفها مجموعة من الاسئلة . ولا شك في ان افكارا وخواطر كثيرة تراود ذهن القارىء وهو يطالعه . ولعل اهم التساؤلات التي تطرح نفسها على القارىء تتلخص في الاسئلة التالية :

١ ـ ما هي العلاقة بين هزيمة الحركة القومية العربية ، برموزها المعروفة في حرب حزيران ، وبين الوعي الكياني لدى الشعب الفلسطيني ؟

٢ ـ ما هو الفارق بين الوعي الذاتي للشخصية الفلسطينية كوجود وهوية وبين الحركة التي تمثل هذه الشخصية ؟

٣ ـ حين طرح رموز الحركة القومية ـ ولا أقول حركة التحرر العربي ـ مثل عبد الناصر ، ورموز من خارجها ، مثل عبد الكريم قاسم ، مشاريع من مثل فوج التحرير الفلسطيني والاتحاد القومي : هل كانت هذه المشاريع جادة وبعيدة عن الرغبة في الوصاية والاحتواء والهيمنة ؟ أم جاءت هياكل تخرج من المتاحف للعرض في الاعياد والمناسبات ؟ أم انها كانت فاعلة حقاً كما يرى سمير ايوب بقوله ـ ناقداً الشعيبي ـ أن محاولة الكاتب تفسير « البطء الشديد في نمو حركة « فتح » وفي عزلتها التامة عن الشعب الفلسطيني ، بكونها كانت تسبح ضد التيار عندما بشرت (!) بافكارها حول الكيان الفلسطيني . نحن نرى أن هذا التفسير مجاف للحقيقة فـ « فتح » في تلك الفترة (أواخر الخمسينات واوائل الستينات) بطرحها الكياني كانت تسبح في صلب التيار الرسمي العربي والجماهيري ، فالظروف كانت مواتية : لأن اروقة الجامعة العربية كانت تعج بالفكرة الكيانية التي اطلقها عبد الناصر ضمن التوجه القومي له ، والتي دعا لمثلها عبد الكريم قاسم في العراق وحزب البعث العربي في سوريا وحركة القوميين العرب في تزامن ملفت للانتباه »

وسنكتفي هنا بسؤال سمير أيوب عما كان عليه مصير المؤسسات الكيانية التي دعا اليها هؤلاء ، وبالتالي : هل كانت هذه المؤسسات بعيدة عن الورق والحبر ، اي في الواقع ، حية وجدية ومستقلة ؟ الجواب الذي يدلي به الشعيبي في كتابه حاسم ، وهو النفي القاطع . واذا كانت الظروف مواتية ، كما يقول ايوب ، واذا كانت الفكرة الكيانية ناضجة فعلاً ، فلماذا يلجأ الفلسطيني الى عبد الناصر ويعرض عن

* انظر : « شؤون فلسطينية » ، العدد ١٠٢ ، أيار (مايو) ١٩٨٠ ، ص ١٣٨ .

« فتح » وهي التي تمثل مؤسسة نضالية فلسطينية ؟ أيكمن السبب في « توهج عبد الناصر » وعلاقة « فتح » « بحركة الاخوان المسلمين » كما يزعم ايوب ؟

ألا يناقض هذا التعليل الجزء الاول منه الذي اشرنا اليه قبل قليل ؟

إذا كان ايوب في الشق الثاني من ملاحظته الثانية قد اصاب الحقيقة ، فهو قد جانبها في الشق الاول من الملاحظة نفسها .

واذا انتقلنا من حيز التساؤلات السلبية الى حيز النقاش ، فان أول ما يخطر على بال القارىء حين يبدأ في مطالعة هذا الكتاب الجاد هو التساؤل التالي :

- ما هي الكيانية الفلسطينية ، وما هو الوعي الذاتي لها ؟ اذ أن الشعيبي يحذر ، منذ البداية ، من أنه « ليس لمفهوم [الكيان الفلسطيني] معنى متفق عليه بين سائر المتعاطين به » . ويحاول الشعيبي أن يعطي بعض التعاريف له مباشرة او مداورة عبر صفحات الكتاب كلها . ولا شك في انه اضطر الى ذلك لأن مفهوم الكيان الفلسطيني « لم يحمل المضمون ذاته في مختلف المراحل التي مرت بها القضية الفلسطينية ، منذ أن بدأ شعاراً مبهماً في اواخر الخمسينات وتحول الى تعبير سياسي اكثر وضوحاً في اواسط الستينات وانتهى موازياً لتعبيرات الاستقلال الوطني في السبعينات » ، كما قال الشعيبي في مطلع كتابه .

ملاحظات واستنتاجات

الملاحظة الاولى : لا أعتقد أن الكيان كوجود ووعيه هما شيء واحد : اذ أن الشعور « بالفلسطنة » - كما ردد الشعيبي أكثر من مرة - كان موجوداً منذ زمن بعيد . لكن وعي هذه « الفلسطنة » وضرورة اقامة كيان خاص بها وحركة تمثلها وترفع البندقية وتطرح الكفاح المسلح من اجل نقل هذه الهوية من حيز الكمون الى حيز الفعل ، اي من حيز الوجود بالقوة الى حيز الوجود بالفعل : هذا الوعي هو الذي انبثق بشكل ساطع بعد هزيمة التيار القومي في حزيران ، تلك الهزيمة التي وفرت للفلسطينيين ظروفاً موضوعية ملائمة ليميزوا أنفسهم ، لا بواسطة الاقليمية الضيقة ، بل باسم الخصوصية المشروعة . وهذا ما مر عليه الشعيبي مروراً عابراً للأسف . فعلاقة التوازن بين القطري ، او بكلمة اخرى الخصوصية القطرية ، وبين العروبة والقومية العربية ، هي علاقة معقدة ودقيقة جداً في آن

فالتيار القومي كان يغالي احياناً ، فيعتبر أن الحديث عن خصوصية سورية او خصوصية عراقية مثلاً ضمن الرؤية القومية الشاملة ، انما هو من قبيل تغييب العروبة والقومية . واذا كان هذا المنطق قابلاً للنقاش واختلاف وجهات النظر ، فان الخصوصية الفلسطينية كانت ضرورة باللغة الاهمية . الا أن لجوء الفلسطينيين الى العروبة والانخراط في مؤسساتها وفصائلها و« عمق الاتجاهات العروبية التي شدت الفلسطينيين بعد التشريد مباشرة الى اشقائهم في حركة التحرر الوطني العربية » جعل نشوء حركة فلسطينية مستقلة مقاتلة امراً اشبه بالمستحيل .

انطلاقاً من هذه الحقيقة فان اجتهاد الشعيبي حول « فتح » وانها كانت ضد التيار في طروحاتها الكيانية ، في وقت كان فيه الحديث عن الوحدة العربية قد بلغ ذورته ، وارجاعه البطء الشديد في نمو الحركة الى هذا السبب ، هو اجتهاد صائب ودقيق .

الملاحظة الثانية : هي أن الشعيبي أرجع أسباب عدم نشوء مجابهة شعبية فلسطينية تعارض الضم الى الاردن الى علل عديدة ، أغفل منها عاملاً اساسياً هو ايمان القوميين العرب الفلسطينيين بضرورة الوحدة العربية بأي ثمن . وموقف كمال ناصر ، في حينه ، وكذلك موقف عبد الله الريماوي ، خير دليل على ذلك . وبالتالي فان ارجاع هذا الضم الى انصراف الاهتمام الفلسطيني الى العمل على وقف التقدم الاسرائيلي ، اكثر منه على مستقبل الاوضاع القانونية للفلسطينيين ، كما يقول الشعيبي في الصفحة ٣٤ ، او لأن الفلسطينيين في ذلك الوقت لم يجابهوا خطوات الضم الاردنية بسبب عدم تجذر الوعي الكياني لديهم ، ولنقص في التجربة السياسية ؛ كل هذه الاسباب تبقى ناقصة اذا لم تقترن بالنزوع العروبي نحو الوحدة

الملاحظة الثالثة : تتلخص في أن فشل وحدة مصر وسوريا وروح الاحباط والخيبة التي انتشرت في صفوف الجماهير العربية عموماً والفلسطينيين خصوصاً - وهم الذين كانوا يراهنون على عبد الناصر والحركة القومية العربية - سجلت منعطفاً اساسياً في ارتداد الوعي الفلسطيني على ذاته ، حيث أن صدمة الانفصال ، بما نتج عنها من يأس ، حملت المناضلين الفلسطينيين الموزعين في كافة الفصائل

والتيارات القومية ، على البحث عن طريق آخر .

ثم جاءت هزيمة حزيران لتقضي نهائياً على مقولة الذوبان الفلسطيني الكامل في العروبة واغفال الخصوصية الفلسطينية . وكان على الشعيبي ، الذي لم تفته هذه الملاحظة ، أن يعمقها اكثر ، وأن يتوقف عندها بدل ان يمر بها مروراً عابراً.

الملاحظة الرابعة : ويستنتج القارىء العادي من هذا الكتاب الغني بالمعلومات ، أن الانظمة العربية الاقليمية لم تكن تتذكر القومية العربية والوحدة إلا حين يختص الامر بالمسألة الفلسطينية . فقد جاء في قرارات مؤتمر اريحا ما يلي : « لا يمكن للبلاد العربية أن تقاوم الاخطار التي تجابهها فلسطين الا بالوحدة القومية الشاملة . ويجب البدء بتوحيد فلسطين مع شرق الاردن مقدمة لوحدة عربية حقيقية » (!) وقد رصد الشعيبي هذه المسألة دون تعمق كاف ؛ ففي الصفحة ٢٥ ، وفي الصفحة ١٢١ ، نقرأ شرح حازم نسيبة ، وزير الخارجية الاردني عام ١٩٦٥ ، حين يرفض اياً من مطالب منظمة التحرير، مبرراً ذلك بضرورة « الانصهار البشري والقومي » (لاحظ كلمة القومي) . ولا يتذكر وصفي التل الوحدة العربية الا حين يهاجم الدعوة الى دولة فلسطينية كان يتم الترويج لها في الضفة الغربية . فنراه يؤكد في البيان الذي القاه امام مجلس النواب الاردني ، بعد ثلاثة اشهر من احداث ايلول ، على رفض الاردن لمشروع الدولة الفلسطينية ، لأنه ضربة لمعنى الوحدة المقدسة (ص ١٦٥) . ويأتي التلهوني ليدلي بدلوه ويبين حرصه على وحدة فلسطين والاردن (!؟) ، فيعتبر في مؤتمر قمة الجزائر أن الامة العربية بأسرها مسؤولة عن تمثيل الشعب الفلسطيني . ونحن لا نعترض هنا على المضمون ، وانما على المصدر والغاية .

الملاحظة الخامسة : ان السؤال البالغ الاهمية الذي طرحه الفلسطينيون في حركة القوميين العرب هو مفتاح اساسي لهذه المسألة ، وهو : ما هو الدور الخاص بالفلسطينيين في نطاق التزامهم بالعمل القومي الشامل ؟

ويذكر الشعيبي أن هذا السؤال طرح نفسه بحدة بعد قيام دولة الوحدة بين مصر وسوريا

إن أهمية الدور الذي لعبه فشل الوحدة بين مصر وسوريا ، ثم هزيمة الحركة القومية العربية بقيادة عبد الناصر في العام ١٩٦٧ ، يشكلان محطتين تاريخيتين اساسيتين في فهم تحول الوعي الكياني الفلسطيني من مجرد ارهاصات تتراكم الى ماهية وكيف واضحين ان رصد هذه الظاهرة لم يغب عن صفحات كتاب الشعيبي الذي وصفها قائلاً : « وقد جاء تخلي الفلسطينيين عن حركتهم الوطنية الخاصة ، ومؤسساتهم السياسية ، متزامناً مع الصعود العارم الذي شهدته الحركة القومية » (ص ٤٣) ليشير بعد ذلك الى الشعار الذي ساد تلك المرحلة : « الوحدة طريق العودة » . لكن الشعيبي لا يذهب الى آخر المطاف ليقول ان تراجع الحركة القومية العربية عبر الانفصال ، ثم عبر هزيمة حزيران ، ادى بطريقة او بأخرى الى انبعاث الشعور « بالفلسطنة » ووعي الخصوصية والهوية الفلسطينية وترسيخ فكرة الكيان . فاذا كان الفلسطينيون قد انصرفوا عن هويتهم ليغرقوا في المد العروبي ، فان انحسار هذا المد قد أنضج الظروف الموضوعية للارتداد نحو الذات .

وهنا نلاحظ مسألة غامضة جاءت عبر قول الشعيبي : ان الشعور بالكيانية الفلسطينية قد خفت في تلك الفترة (١٩٦٧ ــ ١٩٧٠)، ولكن الحقائق تدلنا على أن رفع شعار « الدولة الفلسطينية الديموقراطية » واللغط والجدل والنقاش الحاد الذي تعرض له ، دليل على ان هذا الوعي بالكيانية غير المغلقة لم يخب ولم يتقهقر . بل ان طرح شعار : « تحرير فلسطين من النهر الى البحر » في تلك الفترة نفسها ، التي اعتبر الشعيبي ان الحس الكياني قد ضمر فيها ، انما هو دليل آخر على عدم تقلص وتقهقر الوعي الكياني . فالشعار الاول واضح . والشعار الثاني بلغ درجة تحديد حدود وموقع هذه الدولة : « من النهر الى البحر » .

والدليل على خطورة و أهمية طرح الدولة الديموقراطية كحل في تلك الفترة التي اطلق عليها الشعيبي اسم « غيبة الوعي الكياني » ، هو ذلك الجدل الذي اثاره هذا الشعار بين فصائل المقاومة نفسها . فها هي جبهة التحرير العربية تنتقد هذا الشعار عام ١٩٦٩ ، قائلة في كتاب بعنوان « الطريق القومي لتحرير فلسطين» الصادر عن دار الطليعة في نيسان ١٩٧٠ : «... كلما تقدمت الجهود الرامية الى تصفية القضية الفلسطينية على طريق تنفيذ قرار مجلس الامن ، ارتفع الحديث بين اوساط رجعية واستعمارية عن ضرورة تطبيق شعار الدولة

الفلسطينية الديمقراطية، مستغلة بذلك الشعار الذي طرحته بعض منظمات المقاومة الفلسطينية لتحاول الايحاء بالتشابه بين الشعارين ». وبعد ان يفرق الكتاب بين مجموعة رجعية عميلة تطرح هذا الشعار لتصفية القضية الفلسطينية وبين «مجموعة تضم بعض منظمات المقاومة وعدداً من الكتاب والمفكرين »، وبعد أن يصف المجموعة الاولى بانها عميلة سأذجة وذات نية حسنة ولكنها تطرح شعاراً لا يستفيد منه الا العدو والرجعية للمحافظة على التجزئة تخلص المناقشة الى القول بأنها انما استهدفت مشروع الدولة الفلسطينية وهي لم تزل بحاجة الى توضيح الجانب الاخر من الموضوع: كيف يجب ان نفهم مستقبل فلسطين ما بعد التحرير، وكيف يجب أن ننظر اليه، من ضمن تصور علمي عميق ، وثوري واضح ؟

هذا الموقف هو اجتهاد لأحد فصائل المقاومة يعارض فيه مشروعاً كيانياً محدداً جغرافياً « من النهر الى البحر » ومحدداً العلاقات بالتعايش بين جميع الطوائف دون نزعات شوفينية او طائفية متعصبة تحت مظلة العلمانية والديموقراطية . فكيف يرى الشعيبي اذن ضموراً بل غياباً للوعي الكياني في تلك المرحلة (١٩٦٧ - ١٩٨٠) ، بل كيف يشير الى شعار الجبهة الديموقراطية « كل السلطة للمقاومة » ويبقى مصراً على غياب الوعي الكياني ؟

نقطة اخرى نأخذها على الشعيبي . فهو في الصفحة ١٢٧ يرى أن منظمة التحرير الفلسطينية « وجدت نفسها في تصادم حتمي ، لم تسع اليه وجهدت لتجنبه ، مع الحكم الاردني ، لسبب اساسي هو ان اي بعث للفلسطينيين في الاردن ، لن يتم الا على حساب الكيان الاردني ذاته » .

يتحدث الشعيبي هنا وكأنه يشير الى بديهية ومسلمة لا تقبل النقاش . قد نتفق معه لو قال ان بعث الكيان الفلسطيني لن يتم الا على حساب النظام الاردني وليس الكيان الاردني .

وهنا نجد أن من حق القارىء أن يتساءل: هل أن وجود الثورة الفلسطينية على الارض اللبنانية يتم على حساب الكيان اللبناني ؟ فاذا كان الجواب ايجابياً ، هل يعني ذلك ان الحركة الوطنية اللبنانية المقاتلة مع المقاومة تهدف الى قيام كيان فلسطيني على حسابها ؟ ومن جهة اخرى ترد مقررات المجلس الوطني الفلسطيني التي اشار اليها الشعيبي في الصفحة ١٦٠ ، على « مسلمته » هذه ، حيث يقول ان مقررات الدورة التاسعة للمجلس في القاهرة اقرت سياسة تنادي باقامة « الجبهة الوطنية الاردنية » التي ستعمل من اجل « اقامة حكم وطني ديموقراطي » ، كما تحدثت المقررات عن « تدعيم وحدة الضفتين » وعن « أن تدعيم هذه الوحدة لا يتم عن طريق ممارسات السلطة الاردنية التي تغذي النزعات الاقليمية والانفصالية ، بل على اسس وطنية ديموقراطية تعزز التلاحم بين ابناء الشعب وتوحيد جهودهم من اجل التحرير » .

اذن ، فالمشكلة ليست مشكلة كيان بل مشكلة نظام . كما أن البيان الختامي للمؤتمر الشعبي الفلسطيني الذي اشار اليه الشعيبي في الصفحة ١٦٢ ، يتحدث عن « ان المهمات الراهنة للجماهير الفلسطينية والاردنية في الضفتين تتحدد على اساس اعادة تصحيح وحدة الضفتين ... في اطار حكم وطني ديموقراطي يوفر قاعدة آمنة رئيسية للثورة ... وحصول الجماهير الفلسطينية والاردنية على كامل حرياتها الديموقراطية والاجتماعية والاقتصادية ، وحق الجماهير الاردنية في الانخراط في الكفاح المسلح للشعب الفلسطيني من اجل استعادة حقوقه » .

كما يشير الشعيبي ، في الصفحة ١٦٤ ، الى تبني المجلس الوطني الفلسطيني ، رسمياً ، الدعوة الى التكافؤ (لا على حساب الكيان الاردني ذاته) بين الكيانين الاردني والفلسطيني .

اذن كيف يستنتج الشعيبي أن الكيان الفلسطيني لا يتم الا على حساب الكيان الاردني ذاته ؟ ثم كيف يفسر لنا قوله ، في الصفحة ١٣٢ ، « أن التنظيمات الفلسطينية ذات التراث الكياني ، مثل حركة « فتح »، غيبت في المرحلة اللاحقة على حرب حزيران ، وعيها بالكيان الذاتي الخاص ، الذي كانت قد دعت له منذ تأسيسها وطوال الفترة السابقة على تلك الحرب ... » ؟

ثم يرجع الشعيبي هذه الظاهرة - غير الدقيقة كما اشرنا سابقاً - الى التمسك بحل صحيح لمعادلة العروبة و« الفلسطينية ». فالفلسطينيون لم يلجأوا الى العروبة هذه المرة ، لكنهم - حسب قول الشعيبي - لم يرتدوا الى «الاقليمية الكيانية » .

فهل يرى الشعيبي أن الارتداد الى « الاقليمية الكيانية » هو تعبير ناضج عن الوعي الكياني ؟ وهل

يجد الشعيبي خطأ في التمسك الذي يصفه بأنه صحيح لمعادلة « العروبة والفلسطينية » ؟ لا نظن ذلك . ولعل الشعيبي هنا قد اتخذ موقفاً صحيحاً ، الا أنه لم يوفق في التعبير عنه .

وحول هذه المسألة يرد الانتقاد الذي يوجهه فصيل قومي مثل جبهة التحرير العربية إلى « الفلسطنة » ويقول هذا الفصيل في كتاب « **الطريق القومي لتحرير فلسطين** » · الصفحة ٣٩ ، ان ثمة عقلية داخل المقاومة تروج لشعار « الفلسطينيون يحررون انفسهم بل ويحررون العرب أيضاً » ، ويرى أن هذه العقلية السائدة كانت وراء الشعار الذي طرح بعد ١٩٤٨ « العرب يحررون فلسطين » . ويتابع الكتاب نقده لعقلية « الفلسطنة » ويعتبرها مضادة لعروبة الثورة .

فماذا يقصد الشعيبي بغياب الوعي الكياني الفلسطيني في تلك المرحلة ؟ واذا كان هذا الوعي غائباً فعلاً ، فما هي الظاهرة التي كانت جبهة التحرير العربية تنتقدها ؟ لا اعتقد أن الشعيبي يعني بالوعي الكياني الردة الاقليمية المغلقة.

والملاحظة الاخيرة التي اود أن اشير اليها ، هي ان تأكيد سمير ايوب ، في معرض ملاحظاته على الكتاب ، على ان الخلل في كفاية المصادر اللازمة لتتبع الوعي محتوى واتجاهاً وعمقاً يزداد وضوحاً لأن الشعيبي لم يعالج الادب الفلسطيني نثراً وشعراً أو الفن الفلسطيني . فاذا كانت ملاحظة ايوب هذه صائبة تماماً فانها في الوقت نفسه تحتاج الى دراسة توازي حجم الكتاب نفسه مما يثقل على الشعيبي الذي بذل جهداً ريادياً عبر هذا الكتاب .

كما أن ملاحظة ايوب حول « المنهج » في تفسير التاريخ وفهمه ونقده لمنهج الشعيبي تشكل نقطة هامة واساسية : فالتاريخ ليس مجموعة احداث وروايات لا ناظم قانونيا جدليا لها .

إن كتاب الشعيبي ، رغم كل ملاحظاتنا ، يبقى خطوة متقدمة في درب لم تطرقه الا القلة النادرة

شهريات

المقاومة الفلسطينية عسكرياً

النشاط الفدائي ومقاومة الاحتلال في الداخل والتحركات العسكرية الاسرائيلية والانعزالية في الجنوب .

ظل النشاط الفدائي في داخل الارض المحتلة والنشاط العسكري في الجنوب اللبناني ، على حالهما وفي اطارهما التقليدي ، دون ان تطرأ عليهما احداث دراماتيكية جديدة .

١ - النشاطات والتحركات العسكرية في جنوبي لبنان

ففي ٩/٥/١٩٨٠ ، شهدت مدينة النبطية والقرى المحيطة بها قصفا مدفعيا متبادلا بين القوات المشتركة ، المتمركزة في قلعة ارنون والنبطية ، وقوات الشريط الحدودي . وسقطت عدة قذائف في الاحياء السكنية من مدينة النبطية ، مما نجم عنه الحاق الضرر ببعض الابنية العائدة للسكان المدنيين كما تعرضت بلدتا مرجعيون والقليعة لقصف مضاد ، حيث سقطت فيهما بعض القذائف ، فألحقت اضرارا بعدد من البيوت . وفي المساء حلقت في سماء المنطقة طائرات مقاتلة اسرائيلية واخترقت جدار الصوت . وتلا ذلك قصف مدفعي اسرائيلي استهدف قلعة ارنون ، والنبطية وجوارها . كما حلقت بعد ذلك طائرات هليوكبتر اسرائيلية في سماء المنطقة والقت قنابل مضيئة (« **النهار** » ، ١٠/٥/١٩٨٠) ومساء ١٣/٥/١٩٨٠ تصدت مدفعية القوات المشتركة (الساعة ٢٢.٤٥) لطائرات هليوكبتر اسرائيلية حاولت الاقتراب من الشاطىء ، مقابل منطقة الاوزاعي ، واجبرتها على التراجع . وعلى الفور استنفرت القوات المشتركة بين الرملة البيضاء وخلدة ومنعت السيارات من سلوك الطريق الساحلي لفترة من الوقت . وفي الوقت نفسه ظهرت زوارق حربية اسرائيلية مقابل الرشيدية ورأس العين ، جنوبي صور وحاولت طائرة هليوكبتر اسرائيلية الاقتراب من مدينة صيدا ، لكن مدفعية القوات المشتركة صدتها (« **السفير** » ، ١٤/٥/١٩٨٠). اما في المنطقة الشرقية ، فقد تعرضت مدينة النبطية وجوارها لقصف مدفعي ثقيل مصدره مواقع الميليشيات في الشريط الحدودي ، واستمر القصف حتى ساعة متقدمة من الليل . ومن الساعة الثانية والعشرين من الليلة ذاتها بدأ تحليق طائرات الهليوكبتر على فترات متقطعة فوق المناطق الممتدة من النبطية شرقا حتى الدامور قرب بيروت وصور في الطرف الجنوبي . واستمر ذلك حتى الساعة ٢٣.١٥ ، وقد رافقها ظهور زوارق اسرائيلية مسلحة في الساعة ٢٢,٥٥ مقابل الصرفند والعاقبية (**المصدر نفسه**) .

وفي تل - ابيب افادت التقارير العسكرية ان وزارة الدفاع الاسرائيلية اعتمدت ، على ما يبدو ، اسلوبا جديدا في الرد على العمليات الفدائية التي تنطلق من الجنوب اللبناني منذ عملية مسكاف عام ، وذلك بالقيام بسلسلة عمليات ونشاطات عسكرية في العمق اللبناني ضد قواعد الفدائيين لمنعهم من مواصلة استعداداتهم ووضعهم في مركز الدفاع . وكان الجيش الاسرائيلي قد اوقف عملياته العسكرية في العمق ضد القواعد الفلسطينية ، لفترة قبل عملية مسكاف عام ، لكنه نفذ بعدها ثلاث عمليات رئيسية ،

كان آخرها تلك التي تم تنفيذها مساء ١٤/٥/١٩٨٠ (و.إ.إ . ١٤ ١٥/٥/١٩٨٠) وفي ليلة ١٥/٥/١٩٨٠ ، قصفت الزوارق الحربية الاسرائيلية احياء صور السكنية ومخيماتها وضواحيها بالصواريخ الموجهة ، مما ادى الى سقوط سبعة جرحى والحاق خسائر كبيرة بالممتلكات ورافق الاعتداء على صور قصف مدفعي مركز . على النبطية وجوارها (« السفير » ١٦/٥/١٩٨٠) . وكانت الطائرات الاسرائيلية قد قامت ، طوال يوم ١٥/٥/١٩٨٠، بطلعات استكشافية كثيفة فوق بيروت والشمال والجنوب . جوبهت خلالها بنيران المدفعية المضادة للطائرات ، في حين اقتربت الزوارق الحربية الاسرائيلية عند فجر اليوم نفسه من شواطىء الشمال ، واطلقت بعض القذائف باتجاه مخيم نهر البارد الا انه لم يبلغ عن وقوع اية خسائر (المصدر نفسه)

وفي صور قامت البحرية الاسرائيلية بمحاولات عدة للاقتراب من الشاطىء الممتد من الرشيدية حتى ابو الاسود ، حيث تبادلت معها القوات المشتركة نيران المدفعية والرشاشات ، بينما كانت طائرات الهليوكبتر الاسرائيلية تحلق على علو منخفض وتطلق ، من وقت لآخر ، قنابل مضيئة لانارة مسرح العمليات . وفي وقت لاحق قصفت الزوارق مخيم البص ، فوقعت نتيجة لذلك بعض الخسائر المادية ، وجرح سبعة اشخاص نقلوا على اثرها الى مستشفى الهلال الاحمر في صور (المصدر نفسه) . وفي تل ابيب أعلن ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي ان قواته قامت بتنفيذ عدة عمليات ضد الفدائيين في جنوب لبنان الليلة الماضية ، ولم يدل باية تفصيلات (و.إ.إ . ١٦ و١٧/٥/١٩٨٠) . الا ان مراسل الاذاعة الاسرائيلية افاد ان القوات الاسرائيلية عملت في عدة محاور . وكان الهدف هو الحاق خسائر بقواعد الفدائيين لشل نشاطاتهم واستعداداتهم العسكرية والتنظيمية . كما كان القصد من هذه العمليات ازعاج معسكرات التدريب الفلسطينية وقواعد التموين ، وذلك لاشغال الفدائيين واربأكهم مما يؤدي الى وقف نشاطاتهم ضد اسرائيل (المصدر نفسه) . واضاف المراسل قائلا ان الفدائيين قصفوا ، في ليلة ١٦/٥/١٩٨٠ بمدافع الهاون ، القليعة ومرجعيون من مواقعهم في قلعة الشقيف ، وبعد ذلك وسعوا قصفهم المدفعي ، ووجهوا نيران مدافعهم الثقيلة ، في ارنون والغيشية والريحان والنبطية ، الى مواقع قوات الشريط الحدودي وقد ردت الميليشيات على النار بالمثل ، ولم يبلغ عن وقوع اصابات في صفوف قوات سعد حداد لكن القصف الحق اضرارا جسيمة بالممتلكات وكانت مدفعية سعد حداد قد ردت بقصف النبطية وجوارها ، وقد اشتد القصف في المساء ودام عدة ساعات (المصدر نفسه) . وفي ليلة ١٦/٥/١٩٨٠ ، صعدت اسرائيل عملياتها في الجنوب اللبناني ، وتابعت مدفعيتها قصف النبطية وجوارها وصور وجوارها ، فيما كانت الزوارق تجوب الشاطىء اللبناني من صور حتى الدامور وتطلق نيرانها على الطريق الساحلي وفي هذه الاثناء كانت طائرات الهليوكبتر الاسرائيلية تحلق فوق مناطق عدة في الجنوب ، وتلقي قنابل مضيئة لتسهيل عملية القصف المدفعي الاسرائيلي .

وقد ردت مدفعية القوات المشتركة بقصف مرجعيون والقليعة . وبعد الساعة الثانية والعشرين ، ظهرت زوارق اسرائيلية مسلحة في عرض البحر قبالة رأس العين والرشيدية تبعها قصف للمنطقة الساحلية في صور . وفي حوالي الساعة الثالثة والعشرين ابحرت الزوارق في اتجاه صيدا فاطلقت في اتجاهها نيران الاسلحة المضادة ، وراحت هذه الزوارق تطلق نيران اسلحتها الرشاشة على الطريق الساحلية الممتدة من صيدا حتى السعديات ، فاصابت سيارتين مدنيتين جرح ركابهما الخمسة ، وكانت اصابة احدهم خطرة كما شوهدت قبالة صور بارجة اسرائيلية متوقفة في عرض البحر ، فيما كانت طائرات الهليوكبتر الاسرائيلية تحلق فوق السكسكية والعاقبية (« النهار » ، ١٧/٥/١٩٨٠) . وفي بيروت ، قال مصدر فلسطيني رفيع المستوى ان التحركات الاسرائيلية هي محاولة ارباك خلف الخطوط لجعل المقاومة تتحول الى موقع دفاعي (المصدر نفسه) . وفي القدس اعلن التلفزيون الاسرائيلي ان القوات الفلسطينية المتمركزة في قلعة الشقيف قصفت بمئات القذائف بلدتي مرجعيون والقليعة ، وان مدفعية الميليشيات ردت على القصف بالمثل ، وساندتها في ذلك المدفعية الاسرائيلية (المصدر نفسه) .

وعلى صعيد آخر ، قامت القوات الاسرائيلية بنصب كمين لشاحنة على الطريق العام بين صيدا

والنبطية قرب دير الزهراني ، حيث اتضح ان مجموعة اسرائيلية انزلت على هذا الطريق قرب مفترق بلدة بفروة ، وكان سبق ذلك قصف مدفعي على النبطية وجوارها . واقدمت المجموعة الاسرائيلية على حرق شاحنة عمومية كانت تنقل الاسمنت بعدما انزلت سائقها وقتلته وسط الطريق العام . وقالت مصادر القوات المشتركة ،فيما بعد، ان قواتها اشتبكت مع القوة الاسرائيلية ، وان المعركة استمرت ساعة تركت بعدها القوة المعادية بعض الذخائر والضمادات وجهازا لاسلكيا . وبعد انسحاب القوة الاسرائيلية نقلت مجموعة من منظمة « الصاعقة » الجهاز الذي عثرت عليه في مكان الانزال الى مركزها في صيدا ، وفي التاسعة والربع دوى انفجار قوي في المدينة ، تبين على اثره ان جهاز اللاسلكي كان ملغوما وانه انفجر عندما حاول فدائيو الصاعقة تفكيكه ، مما ادى الى استشهاد عدد منهم واصابة آخرين بجروح (المصدر نفسه) . وحول الحادثة ادلى ناطق بلسان منظمة « الصاعقة » ببيان ذكر فيه انه في فجر يوم ١٦/٥/١٩٨٠ تصدت وحداتنا المقاتلة وقوات الميليشيا في منطقة الجنوب اللبناني للقوات الاسرائيلية التي كانت تقوم بعملية غزو للمنطقة بين دير الزهراني وبلدة بفروة . وقد اشتبكت وحداتنا مع الوحدة الاسرائيلية واوقعت فيها عددا من الاصابات شوهد العدو وهو يخليها من ارض المعركة . وقد تولت قوات الصاعقة ملاحقة العدو حتى اجبرته على الفرار . في حين غنمت قواتنا بعض الاسلحة وغيرها من المعدات. وفيما كانت الغنائم تنقل الى مقر مكتب اعلام الصاعقة في صيدا انفجر احد اجهزة الارسال الاسرائيلية الذي كان ملغما ، فادى الى تدمير المكتب واصابة عدد من الرفاق الموجودين استشهد ٣ منهم وجرح ٣ اخرون ، (المصدر نفسه) . كما ادلى مصدر مسؤول في حركة « امل » بتصريح قال فيه ان قوات العدو الاسرائيلي بدأت ، منذ البارحة ، قصف مدن شتى في الجنوب ، وقد فشلت حتى الان كل محاولاتها لانزال عسكري ، وان قوات حركة « امل » تشتبك مع القوات المهاجمة في كل المواقع المستهدفة للتسلل . وناشد بيان « امل » ضمير العالم والامم المتحدة ادانة الاعتداءات المتكررة ، وطالب باتخاذ مواقف رادعة ، مؤكدا ان « امل » متمسكة بكل شبر من الجنوب وبكل حبة تراب . فأرض الجنوب ليست مستباحة وهي ارض الشهادة وطريق الله (المصدر نفسه) وفي اسرائيل صرح ناطق عسكري اسرائيلي بأن القوات الاسرائيلية هاجمت مواقع فلسطينية في لبنان ليلة الخميس / الجمعة للمرة الثانية خلال تسعة ايام ، واكد انه يمكن توقع عمليات اخرى (المصدر نفسه) . وفي الجنوب قال القادمون الى « الجدار الطيب » ان شاحنات كثيرة معبأة بالذخائر شوهدت وهي تتحرك على الطريق الساحلية باتجاه مواقع الفدائيين ، ويفهم من ذلك ان الفدائيين بدأوا تعزيز مواقعهم بالمدافع والذخائر ، للرد على العمليات الاسرائيلية التي نفذت في العمق . وقد استعدت قوات حداد تحسبا لاحتمال تجدد القصف المدفعي (و.إ.إ. ، ١٨ و١٩/٥/١٩٨٠) وفيما يعتبر الفلسطينيون ان جزءاً رئيسيا من الحرب الدائرة يتسم بالمواجهة المكشوفة ، حينا ، وبالعمليات العسكرية الخاطفة في العمق احيانا أخرى ، لاشغال والهاء الفدائيين ، واصل الاسرائيليون اعتداءاتهم لليوم الثالث على التوالي بكافة انواع الاسلحة البحرية والبرية والجوية ، من بيروت الى صور ، وقد ادى ذلك الى التخوف من ان يكون هذا تمهيدا لعملية اسرائيلية كبيرة في الجنوب او اي مكان آخر .

على حين واصلت القوات الاسرائيلية قصفها المدفعي لمدن صيدا وصور والنبطية ، حيث ادى هذا القصف الى استشهاد ٤ وجرح ٩ آخرين والحاق الضرر بـ ٢٧ منزلا بالاضافة الى تدمير عدد من السيارات المدنية . وقد تركز القصف على مدينة النبطية و٧ قرى في جوارها . كما سقطت في مدينة صور ٣٥ قذيفة استهدفت مدخلها والطريق العام ومنطقتي المرفأ والآثار . وادى القصف الى مقتل شاب وجرح آخر . اما في صيدا ، فقد سقطت ٤ قذائف جرحت ٥ أشخاص واصابت ٨ منازل باضرار (« السفير » ، ١٨/٥/١٩٨٠) وفي المساء ظهرت زوارق حربية اسرائيلية قبالة الرملة البيضاء وخلدة في بيروت ، ففتحت القوات المشتركة نيرانها باتجاهها مما ادى الى ابتعادها . وفي الساعة ٢٠.٤٠ ، قصفت الزوارق الاسرائيلية بمدافعها وصواريخها منطقة وادي علمان ، عند مدخل مدينة صيدا ، فردت القوات المشتركة على نيرانها بالمثل ، وقد سقطت بعض القذائف الاسرائيلية في المنطقة الصناعية (المصدر نفسه) .

وقد خيم هدوء حذر ، في الجنوب طوال الفترة الممتدة من ١٩/٥ حتى ٢٢/٥ ، عكّرته طلعات

طيران الاستطلاع الاسرائيلي الذي واصل استطلاعه لمناطق بيروت والجبل والشمال والبقاع والجنوب في طلعات جوية شبه متواصلة . كذلك نشاط الزوارق الحربية الاسرائيلية قبالة الشاطىء اللبناني في المياه الاقليمية والدولية . وقد حذرت الاوساط اللبنانية والفلسطينية من احتمال قيام العدو باستئناف حرب الاستنزاف التي بدأها ضد الفدائيين في الجنوب ، ومن ان يؤدي ذلك الى قيامه بتنفيذ عملية عسكرية واسعة النطاق هناك (« السفير » ، ١٩٨٠/٥/١٩)

وفي ١٩٨٠/٥/٢٢ ، جددت اسرائيل قصفها لمنطقة النبطية وجوارها ، وقد نجم عن القصف الحاق اضرار في ١٠ منازل في كفر رمان والدوير ، بالاضافة الى اتلاف المزروعات في القعقعية (المصدر نفسه ، ١٩٨٠/٥/٢٢) ، وكانت منطقة صور قد شهدت خلال ليلة امس الاول ، تحركات كثيفة للزوارق الحربية الاسرائيلية ولطائرات الهليوكبتر التي اطلقت قنابل مضيئة فوق المنطقة . وقد استمر ظهور الزوارق المسلحة قبالة الساحل كما حلقت في اليوم التالي الطائرات النفاثة فوق المنطقة . (المصدر نفسه)

وفي ساعات بعد ظهر ١٩٨٠/٥/٢٣ قصفت الميليشيات الحدودية مدينة صيدا بقذيفتين ادتا الى مقتل ٧ اشخاص واصابة ١٥ آخرين بجروح . وجاء القصف بعد انذار وجهته الميليشيات صباحا الى اهالي المدينة احتجاجا على ما سمته « بالمضايقات التي يتعرض لها سكان الشريط الحدودي على حواجز القاسمية وابو الاسود والرميلة » (« النهار » ، ١٩٨٠/٥/٢٤) . وفي الساعة الثانية من فجر ١٩٨٠/٥/٢٤ ، اطلقت الزوارق الاسرائيلية النار على تلال الصرفند ، فردت عليها القوات المشتركة النار بالمثل ولم يبلغ عن وقوع اصابات (المصدر نفسه)

ومن جهة اخرى ، افادت المصادر الاسرائيلية أن الفدائيين بدأوا اتخاذ عدد من الاجراءات الدفاعية والوقائية نتيجة للعمليات التي يشنها الجيش الاسرائيلي ضدهم . واضافت هذه المصادر القول ان الفدائيين كرسوا معظم نشاطهم للاغراض الدفاعية . فالجيش الاسرائيلي يقوم ، من وقت لآخر ، بعمليات مفاجئة في العمق وفي اماكن غير متوقعة من اجل ارغامهم على تكريس جهودهم للدفاع بدلا من الهجوم ، ومن أجل ارباكهم وبلبلة حياتهم الروتينية اليومية ، وبالتالي تقييد تحركاتهم وخطوط مواصلاتهم وزيادة جهودهم في اقامة شبكات دفاعية جوية محلية . وتأتي هذه الخطوات على حساب نشاطهم الحربي ضد اسرائيل » (و.إ.إ. ، ٢٥ و١٩٨٠/٥/٢٦) . وفي ١٩٨٠/٥/٢٧ ، قصفت المدفعية الاسرائيلية بعد الظهر بلدة القعقعية في قضاء النبطية . وقد استمر القصف مدة ٤٥ دقيقة ، ولم ترد اية انباء عن وقوع اصابات او اضرار (« السفير » ، ١٩٨٠/٥/٢٨) .

وقد صرح ناطق عسكري باسم القيادة العامة المركزية للقوات المشتركة بما يلي : « عند الساعة الحادية عشرة والنصف مساء ١٩٨٠/٦/٤ قامت زوارق العدو الصهيوني بالرماية على مقهى قرب مرفأ صيدا مما ادى الى جرح عدد من المدنيين . وقد تعاملت كمائننا مع الزوارق المعادية ، واستمر الاشتباك حتى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل » . واضاف الناطق يقول انه نتيجة للقصف استشهد واحد واصيب ثلاثة آخرون بجراح . وكانت قد شوهدت قبل ذلك بقليل زوارق حربية معادية قبالة شاطىء صور (المصدر نفسه ، ١٩٨٠/٦/٥) .

وقد واصلت مدفعية الميليشيات قصف القطاع الاوسط في ١٩٨٠/٦/٣ من مواقعها في حرج بركات وسهل الدردارة وتلال دبين ، وادى القصف الى استشهاد احد المواطنين واصابة آخرين ، لم يعرف عددهم بجراح ، كما لحقت ببعض المنازل والمزروعات بعض الاضرار (المصدر نفسه) كما قصفت مدفعية الميليشيات منطقة النبطية فسقطت القذائف في المدينة وفي كفرتبنيت وقلعة الشقيف ، وادى القصف الى استشهاد مواطن وجرح عدد آخر ووقوع اضرار مادية في منازل عدة . ورافق القصف طلعات جوية شملت صور والعرقوب وصيدا والنبطية وبيروت (المصدر نفسه) . وابتداء من الساعة ٢٣,٣٠ من مساء ١٩٨٠/٥/٤ ، سمع اطلاق نار غزير في مدينة صيدا ، رافقه انفجار قذائف صاروخية في اتجاه البحر ، حيث شوهدت زوارق اسرائيلية على مسافة قريبة (« النهار » ، ١٩٨٠/٦/٥) .

وعلى صعيد آخر ، اعلن الجيش الاسرائيلي ان

الهجوم الذي شن على ميناء صيدا مساء ٥/٦/١٩٨٠ ، باعتبار أنه يستخدم من قبل جماعات الفدائيين ، قد حقق اغراضه ، وكان الهدف مهاجمة مواقع الفدائيين داخل الميناء . ووفقاً للمصادر الاسرائيلية ، حققت القوة المهاجمة جميع أهدافها . ووصفت المراجع العسكرية هذه العملية بأنها ناجحة جدا . وشدد الناطق باسم الجيش الاسرائيلي على ان هذه العملية هي عملية وقائية تهدف الى اجهاض استعدادات الفدائيين لتنفيذ عمليات داخل اسرائيل (و.إ.إ. ، ٥ و٦/٦/١٩٨٠) . علماً بأن الجيش الاسرائيلي يعمل منذ مدة في عمق جنوبي لبنان بهدف ايقاع مزيد من الاصابات في صفوف الفدائيين وتأمين الهدوء على الحدود عن طريق اشغال الفدائيين بمشاكلهم ، مما يضطرهم الى بذل جهود اكبر للدفاع عن انفسهم ويقلص من قدرتهم الهجومية . فالفدائيون ينشرون حراساتهم على طول الساحل ويبنون الاستحكامات ويعززون وسائل دفاعهم الجوي . اما الجيش الاسرائيلي فانه لا يتوقف عن الضغط عليهم وهو مستمر في تنفيذ سياسة الدفاع بواسطة الهجوم (المصدر نفسه) .

٢ ـ نشاط رجال المقاومة داخل الارض المحتلة

ظهر تطور جديد في الصراع الدائر بين الفدائيين والجيش الاسرائيلي . فقد اعلن ، لاول مرة منذ سنوات ، عن قيام الفدائيين بعملية ضد مواقع اسرائيلية انطلاقا من الاردن . وقد اعتبرت الاوساط الاسرائيلية الحادث من اخطر الحوادث التي تقع على هذه الجبهة منذ عام ١٩٧٠ ، عندما اخرج الاردن قوات الفدائيين الفلسطينيين من اراضيه . وتعليقا على الحادث اعلنت اسرائيل ان قواتها اجتازت الحدود الاردنية لمطاردة الفدائيين ، الذين تسللوا الى منطقة قريبة من احدى المستوطنات شمالي ايلات . وصرح ناطق باسم الجيش الاسرائيلي ان فدائيين فلسطينيين عبروا الحدود من الاردن بالقرب من مستوطنة نيئوت هاكيكار جنوبي البحر الميت في صحراء النقب ، وان دورية اسرائيلية اكتشفت امرهم وطاردتهم الى ما وراء الحدود وقتلت اثنين منهم وانها ربما اصابت ثالثا ورابعا ، وان أية اصابات لم تقع بين الاسرائيليين . واشار الناطق الى ان الفدائيين كانوا يحملون بنادق هجومية وقنابل يدوية ومعدات طبية . ولم يحدد هدف الفدائيين وما اذا كان القيام بعملية في مستوطنة نيئوت هاكيكار (« النهار » ، ٨/٦/١٩٨٠). وفي دمشق ، اعلن ناطق عسكري باسم القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية ان مجموعة من الفدائيين تحركت ظهرا نحو هدفها المحدد قرب مستوطنة نيئوت هاكيكار جنوبي البحر الميت ، ونصبت مكمنا لقافلة من السيارات العسكرية الاسرائيلية ، في اثناء مرورها على الطريق الى مدينة ايلات . وقد فاجأ الفدائيون القافلة بنيران رشاشاتهم وقذائفهم الصاروخية وقنابلهم اليدوية ، مما ادى الى قتل وجرح عدد من جنود العدو وتدمير واعطاب عدد من آلياته . واوضح الناطق ان العدو عزز قواته بقوات نجدة تساندها قوة مظليين محمولة بطائرات هليوكبتر ، فتصدى لها ثوارنا ودارت معركة عنيفة استخدمت فيها كل انواع الاسلحة ، واستمرت اكثر من ثلاث ساعات تكبد فيها العدو مزيدا من الخسائر في الارواح والمعدات ، وان شهيدين من قوات الثورة الفلسطينية سقطا بعدما نفذت ذخيرتهما ، في حين تمكن باقي افراد المجموعة من الانسحاب بسلام والعودة الى قاعدتهم حاملين معهم اثنين من الجرحى اصيبا في المعركة (المصدر نفسه) . وفي تل ـ ابيب اعلن رئيس الاركان الاسرائيلي ، تعليقاً على الحادثة ، ان الجيش الاسرائيلي احبط محاولات تسلل عدة من الاردن قام بها الفدائيون ، وحذر من ان هذه العمليات ستزداد في المستقبل . كما ذكر ان قوات الحدود الاسرائيلية تصدت في الآونة الاخيرة لخمس محاولات على الاقل قام بها الفدائيون الفلسطينيون عبر الاراضي الاردنية . وقال انه يتوقع المزيد من هذه المحاولات (المصدر نفسه) .

وعلى صعيد آخر ، ذكرت صحيفة « هآرتس » ان عدداً من الفدائيين الذين ينتمون لحركة « فتح » تم اعتقالهم في قطاع غزة ، وخلال التحقيق معهم تبين انهم تلقوا تدريبهم في مكتب « فتح » في القاهرة ، بقصد توسيع العمليات الفدائية في قطاع غزة . واضافت الصحيفة قائلة إن حركة « فتح » تسعى الى ادخال عدد من قادتها للقطاع بهدف اعادة تنظيم الخلايا السرية والاشراف على العمليات الفدائية ونقل السلاح الى القطاع (و.إ.إ. ، ١١ و١٢/٥/١٩٨٠) .

على حين اصدرت المحكمة العسكرية في غزة احكاما بحق عدد من المنتمين الى حركة « فتح »

بتهمة القيام باعمال معادية ، والانتساب الى الحركة ، واعداد مواد ناسفة لوضعها في الاماكن العامة بقصد الحاق الاذى بالاسرائيليين ، كما وجهت اليهم تهمة وضع عبوة ناسفة في أحد الاماكن العامة وتهم اخرى (المصدر نفسه) . وفي تل - ابيب ، ذكرت صحيفة « هآرتس » ان مكتب « فتح » في القاهرة يعمل بطريقة مكشوفة ، كما تحدثت « الجيروز اليم بوست » ، استنادا الى مصادر اسرائيلية مأذونة ، عن نشاط فدائي ينطلق من القاهرة ، وذكرت، من جهة اخرى ، ان الهجمات الفدائية في الضفة الغربية المحتلة واسرائيل قد تضاعفت عما كانت عليه في العام الماضي ، فيما توقفت العمليات الفدائية ضد الاهداف الاسرائيلية في الخارج (« النهار » ، ١٩٨٠/٥/١٢) . وفي غزة ، صرح الحاكم العسكري للقطاع بأن اجهزة الامن قضت على ٦ خلايا فدائية هناك خلال النصف الثاني من السنة الماضية (و.إ.إ. ، ١٣ و١٩٨٠/٥/١٤) .

وفي شمال فلسطين استشهد ليلة ١٩٨٠/٥/١٤ في حوالى الساعة الحادية والعشرين ثلاثة فدائيين حاولوا ، وفق المصادر الاسرائيلية ، التسلل الى كيبوتس حانيتا من اجل احتجاز رهائن ، فتحرك الجيش الاسرائيلي بصورة فورية لدى تلقيه انذارا بوجود متسللين قرب المستوطنة . وبعد مقتل الفدائيين الثلاثة عثر في حيازتهم على ثلاث بنادق من طراز كلاشينكوف ومواد ناسفة ومناشير ، كما عثر مع احدهم على علم فلسطين الذي ربما كان الفدائيون يزمعون رفعه فوق احد المنازل في المستوطنة ، في حال نجاح عمليتهم . وجدير بالذكر ان كيبوتس حانيتا يعتبر اكثر الكيبوتسات استعدادا وتنظيما من الناحيتين الامنية والعسكرية (و.إ.إ. ، ١٤ و١٩٨٠/٥/١٥) . وبعد انتهاء الاشتباك قامت قوات الجيش بحملة تمشيط للمنطقة للتأكد من عدم وجود عدد آخر من الفدائيين . وقد افاد مصدر عسكري اسرائيلي ان المجموعة تسللت الى داخل اسرائيل من مواقع الوحدة الهولندية التابعة للقوات الدولية . وتجيء العملية في ذكرى ١٥ أيار (مايو) (المصدر نفسه) .

وفي تل - ابيب ، حكمت المحكمة المركزية بالسجن المؤبد على ثلاثة مواطنين عرب بتهمة تنفيذ تسع عمليات ادت الى مقتل ٦ اشخاص وجرح ١٣٠ آخرين . كما حكمت على رابعة من اعضاء الخلية بالسجن عشرين سنة (المصدر نفسه) .

وفي دمشق ، اعلنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، في بيان اصدرته ، مسؤوليتها عن عملية حانيتا ، وذكرت ان مجموعة انتحارية تابعة لها ، تحمل اسم الشهيد « محمود ياسين »، اقتحمت في الثامنة والدقيقة الخمسين مساء ، مهاجع الضباط والجنود الاسرائيليين في مستعمرة حانيتا في الجليل ، مستخدمة الرشاشات والقنابل اليدوية والاحزمة الناسفة ، وان المعركة استمرت حتى الساعة الواحدة صباحا ، واستشهد فيها ثلاثة من ابطالها . واضاف البيان ان تنفيذ العملية صادف يوم ١٥ أيار ، وانها جاءت ردا على عمليات الصهاينة في الصرفند والسكسكية والسعديات (« النهار » ، ١٩٨٠/٥/١٥) .

وفي وقت لاحق ، اوردت الاذاعة الاسرائيلية ، في نشرتها العبرية ، مزيدا من التفاصيل ، في الرواية الاسرائيلية ، عن عملية حانيتا . فقد ذكرت انه في التاسعة مساء تلقى كيبوتس حانيتا انذارا عن معركة مواجهة مع فدائيين . وعلى الفور حددت دورية عسكرية مكان الفدائيين ، رغم صعوبة المنطقة وتعقيداتها من الناحية الجغرافية ، وان الجيش اتم القضاء على المتسللين بعد فترة قصيرة . وليس مستبعدا ان المجموعة الفدائية كانت تحاول الوصول الى مستوطنة حانيتا لانها طوقت على مسافة قريبة منها ، وان الفدائيين كانوا ينوون احتجاز رهائن ورفع علم فلسطين فوق المنزل الذي كانوا ينوون اعتقال الرهائن فيه (المصدر نفسه ، ١٩٨٠/٥/١٦) .

ومن جهة اخرى ، اوردت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ايضا مزيداً من المعلومات عن العملية ، بلسان السيد بسام ابو شريف ، الناطق باسمها . ومما قاله ان العملية نفذت في حانيتا صباح الخامس عشر من ايار ، وهو ذكرى اغتصاب فلسطين ، وردا على اعلان الكيان الصهيوني ان القدس عاصمة لدولته العنصرية ، وردا على استسلام السادات واستعداده لاستئناف ما يسمى بمفاوضات الحكم الذاتي ، ودعما للانتفاضة الشعبية داخل الوطن المحتل ، التي لا تزال مستمرة في تصديها الباسل لقرارات العدو الصهيوني الاستيطانية واجراءاته القمعية الارهابية ، التي تستهدف تمرير مؤامرة الحكم الذاتي ، وفي اطار تصعيد الكفاح المسلح ،

ولافهام العدو الصهيوني ان الثورة الفلسطينية ستستمر في القتال لتحرير التراب الفلسطيني ، وان الجليل العربي هو جزء لا يتجـزأ من فلسطين (المصدر نفسه) .

وفي القدس المحتلة ، ذكر مراسل رويتر ان سيارة عسكرية اسرائيلية تعرضت لهجوم بالقنابل قرب بيت لحم ، مما ادى لاصابة احد ركابها . واعترفت الاذاعة الاسرائيلية بأن قنبلة مولوتوف القيت على السيارة وتسببت في اصابة احد الجنود . وقد علم ان الشرطة تمكنت من السيطرة على الموقف ، وان قوات الجيش احاطت بالمنطقة وبدأت التحقيق في الحادث (« السفير » ، ١٨/٥/١٩٨٠) .

كما ذكرت الاذاعة ايضا ان كابل الضغط العالي الذي يزود مستعمرة كريات اربع بالكهرباء اصيب باضرار نتيجة لعملية فلسطينية لم يعرف منفذوها (المصدر نفسه) .

وفي يـوم ٢٧/٥/١٩٨٠ ، القت قوات الامن الاسرائيلية في نابلس القبض على ثلاثة شبان حاولوا القاء قنبلة على دورية لقوات الامن بالقرب من رفيديا ، ولم يبلغ عن وقوع اصابات (ر.إ.إ. ، ٢٧ و٢٨/٥/١٩٨٠) .

وعلى صعيد آخر ، اصدرت محكمة عسكرية في غزة حكمها على احد المواطنين بالسجن لمدة ٨ سنوات ، بعد ان ادانته بتهمة الانتماء الى منظمة معادية وحيازة مواد ناسفة . وكان المواطن قد اصيب بجراح اثناء وضعه قنبلة من انتاج محلي في شهر تشرين الاول الماضي . كما حكمت المحكمة ذاتها على مواطن عربي آخر من اهالي رفح بالسجن مدة عام ، لمساعدته الاول في وضع تلك القنبلة (ر.إ.إ. ، ٣ و٤/٥/١٩٨٠) .

المقدم الطيار حسين عويضة

محاولة اغتيال رؤساء البلديات وتشكيل ميليشيات خاصة لحماية المستوطنات

يبدو ان سلطات الاحتلال الاسرائيلي فقدت كل امكانية لإحكام سيطرتها على المناطق المحتلة، وضرب قدرة الشعب الفلسطيني على التصدي لمؤامرات الحكم العسكري المتلاحقة ضد القيادات والشخصيات الوطنية، باتباع اساليب القمع والاضطهاد، التي لم تتوصل اليها حتى اكثر الانظمة فاشية المعروفة عبر التاريخ. وجاءت عملية الخليل، يوم ٢/٥/١٩٨٠، لتؤكد مرة أخرى قدرة الشعب الفلسطيني، رغم كل ظروف الاحتلال، على توجيه الضربات المؤلمة لواقع الوجود العسكري والاستيطاني في الاراضي المحتلة. لذلك لم تجد تلك السلطات بداً من ابتداع اساليب جديدة، مثل سياسة «اليد القوية» و«العقاب الجماعي»، واخيراً تشجيع الجماعات الاستيطانية، بطريقة أو بأخرى، على الانتقام من العرب، واغتيال الرموز الوطنية، في محاولة لوقف الانتفاضة الشعبية المتواصلة منذ شهور عديدة.

ومهما حاولت السلطات الاسرائيلية تبرئة نفسها من فعلة محاولة الاغتيال، فإن الوقائع العملية المتلاحقة والمتمثلة باتباع سياسة اليد القوية، ورعاية الميليشيات المسلحة الخاصة، والتصريحات التي اطلقها المسؤولون الاسرائيليون عقب عملية الخليل، والتطورات التي رافقتها، تثبت مدى تورط تلك السلطات في التآمر على حياة الشخصيات الوطنية، بتهمة انتمائهم للجنة التوجيه الوطني التي تقود النضال اليومي داخل الاراضي المحتلة.

سياسة «اليد القوية»

«اضربوا كل انسان تصادفونه خارج بيته على جميع انحاء جسمه، ما عدا الرأس. لا ترحموا، حطموا عظامهم. لا تفسروا أي أمر. اضربوهم أولاً وبعد أن تنتهوا، اشرحوا لهم لماذا ضربتموهم» («يديعوت احرونوت»، ٢٠/٥/١٩٨٠)؛ هذه مقاطع من شهادات بعض الجنود الاسرائيليين حول الأوامر التي قالوا انهم تلقوها من ضابط كبير بالحاكمية العسكرية في الضفة الغربية، عند وصولهم الى احدى القرى العربية، لقمع الاضطرابات، والمحافظة على تنفيذ قرار منع التجول في اطار سياسة اليد القوية، التي قرر الحكم العسكري اتباعها في الاراضي المحتلة. واضاف عضو الكنيست افنيري، الذي قدم هذه المعلومات، ان الجنود الذين تقدموا بهذه الشهادات «لا يحملون أية خلفية سياسية محددة. لكنهم تأثروا انسانياً واخلاقيا بما يحدث هذه الايام، في الضفة الغربية» (المصدر نفسه).

وحقيقة الامر، ان رفض السكان لوجود الاحتلال، والتطورات المتلاحقة في الاراضي المحتلة، دعت كبار المسؤولين في وزارة الدفاع، والقيادات المسؤولة عن الأمن في المناطق، للاجتماع الى عيزر وايزمن، وزير الدفاع المستقيل وبحث في الاجتماع الاوضاع الامنية في المناطق، وتقرر اتباع سياسة اليد القوية. ووفق ما صرح به وزير

الدفاع نفسه . فإن هذه السياسة ستتبع في « أعقاب الاحداث والفوضى الاخيرة ، التي تقف وراءها لجنة التوجيه الوطني » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٥/٢) . ولم يستبعد المجتمعون أن تتخذ خطوات ضد رؤساء البلديات ، الذين تتهمهم السلطات « بالوقوف وراء الاحداث المتطرفة الجديدة » .

وتنفيذا لهذه السياسة المعلنة ، تم ابعاد رئيسي بلديتي الخليل وحلحول ، وقاضي الشرع في الخليل . وتنفيذا لهذه السياسة كذلك ، بدأت سلطات الاحتلال باتخاذ اجراءات مختلفة شديدة ضد المواطنين العرب ؛ فقد استمر حظر التجول مفروضاً على مدينة الخليل اكثر من ثلاثة اسابيع ، قامت خلالها دوريات الجيش والمستوطنين المسلحين بالتجول فيها ، والاعتداء على املاك العرب ، وتخريب ما يمكن تخريبه . وعاشت المدينة حالة حصار كامل ، حيث قطعت المياه والكهرباء وخطوط الهاتف والاتصالات ، ونفقت مئات من الاغنام والابقار . واثناء تجول المستوطنين في المدينة « حطموا حانوتاً لصرف النقود ، وحاولوا نقل الخزنة الحديدية ؛ لكن جنود الجيش حضروا على صراخ الاهالي الذين شاهدوا ذلك » (« عل همشمار » ، ١٩٨٠/٥/١٥) . وروى احد الفتيان ، بعدما استطاع الخروج من الخليل ، ان الغذاء الذي تجلبه بعض الشاحنات الى المدينة ، يوزع في ساعات رفع حظر التجول ، وانه لا يصل الى كل السكان « وان لا غذاء في منزل والديه سوى الخبز ، وهذا يكفي لوجبات الفطور فقط » (المصدر نفسه) . ووصف الفتى تصرفات المستوطنين الاسرائيليين الذين يتجولون في شوارع الخليل بحرية ، فقال « ان هؤلاء ما أن يشاهدوا اياً كان يخرج الى الشارع لاحضار المياه ، أو اية حاجة أخرى ، حتى يتجمعوا حوله ويضربوه . وهذا ما حدث لعمته التي كانت في حديقة المنزل » (المصدر نفسه) . وأضاف : ان المستوطنين يتجولون بالسلاح ، ويحطمون الحوانيت .

وتنفيذا لسياسة « اليد القوية » كذلك ، اتبعت سلطات الاحتلال اسلوب الابعاد الداخلي لعائلة اي فتى يقذف سيارات المستوطنين الصهاينة بالحجارة . وهذا ما حصل مع عائلة الشوملي من بيت ساحور ، وعائلة كعبة من مخيم بلاطة القريب من نابلس ، حيث ابعدت العائلتان الى مخيمات مهجورة بالقرب من اريحا . وتراجعت السلطات بعد ذلك ، خوفاً من تفاعل القضية ، واثارتها على مستوى وسائل الاعلام الاجنبية ، وامام المنظمات الدولية .

ومن الاجراءات التي اتخذت كذلك في اطار سياسة « اليد القوية » ، وقف توزيع صحيفتين عربيتين تصدران في القدس هما « الشعب » و« الفجر » . وقد اتخذ القرار من قبل مناحيم بيغن ، رئيس الوزراء ، وهو اول قرار يتخذه بعد تسلمه مهام وزارة الدفاع . ويرى ضابط الاركان في قيادة الحكم العسكري ، ان استمرار توزيع الصحف في المنطقة من المحتمل « أن يلحق الضرر بالمحافظة على الأمن في الضفة الغربية ، وتطبيق النظام العام » («هآرتس» ، ١٩٨٠/٦/٢) . وقد رد رئيسا تحرير الصحيفتين على ذلك القرار بشدة ؛ فقال اكرم هنية ، رئيس تحرير صحيفة « الشعب » ، ان هذا الامر « استمرار لسياسة « اليد القوية » التي قررت الادارة العسكرية اعتمادها . وقد كنا نتوقع محاولة اسكات كافة الاصوات الوطنية المعارضة لاتفاقية كامب ديفيد ، ومشروع الحكم الذاتي » (و. إ. إ. ، العدد ٢٠٧٠ ، ١و٦/٢/ ١٩٨٠ ، ص ٦) . وزعمت الادارة العسكرية ان الصحيفتين ، تجاهلتا كافة التحذيرات بالتوقف عن التحريض . كما ادعت ، ان منظمة التحرير الفلسطينية هي التي « تمول اصدارهما ، وانها بمثابة اليد النشيطة للجنة التوجيه الوطني » (المصدر نفسه) .

وكان اسلوب تحطيم الاضراب التجاري الذي اعلن في كافة أنحاء مدن الضفة الغربية ، بعد محاولة اغتيال الزعماء الثلاثة ، من أقسى الاجراءات المطبقة في اطار سياسة « اليد القوية » . ففي يوم ١٩٨٠/٦/٣ ، اتخذت الشرطة الاسرائيلية اجراءات شديدة ضد تجار القدس الشرقية ، ورغم ذلك لم تتمكن من فتح « اكثر من ٣٠٪ فقط من [حوانيتها] ، اعتماداً على الاوامر الصادرة عن قائد المنطقة ، ولم تعثر الشرطة على معظم التجار في منازلهم » (و.إ.إ. ، العدد ٢٠٧٢ ، ٣و٦/٤/ ١٩٨٠ ، ص ٣) . وقررت قيادة الشرطة ، بعد ذلك ، ان تفتح الحوانيت بالقوة ، وقد تم « جلب التجار في منتصف الليل الى مركز الشرطة القائم في اللعب الروسي ، ودونت اسماؤهم ، وابلغوا وجوب اطاعة الأوامر » (المصدر نفسه) . وقال مراسل

اذاعة اسرائيل ، انه عند الساعة الخامسة فجر يوم ١٩٨٠/٦/٤ ، احضر جميع تجار المدينة الى نادي مركز الشرطة، وشرح لهم نائب المفوض حسن ، ان عليهم مساعدة الشرطة كي لا تضطر لاغلاق حوانيتهم لشهور عدة . وعلق احد التجار العرب على هذا بقوله : « لم أشاهد في اي مكان بالعالم اسلوباً كهذا . وما نفذ ليس حسناً على الاطلاق . كيف يحضروننا في منتصف الليل ، ونحن نائمون مع اولادنا وزوجاتنا ؟ لماذا يطرقون ابواب منازلنا في الليل ويخيفوننا ؟ هل نحن لصوص ؟ وماذا لو اغلقنا حوانيتنا ؟ نحن نريد اغلاقها ، وعندما يفتح الآخرون حوانيتهم نفتحها نحن ايضاً ، وانا لا اريد لحانوتي أن يحرق » (المصدر نفسه) .

ومع ذلك لم تنجح شرطة العدو في انهاء الاضراب التجاري . ولجأت ، في الليلة اللاحقة ، لجمع اكثر من ٢٠٠ تاجر من مدينة القدس في ساحة قيادة الشرطة ، وتسلموا هناك اوامر موقعة من قائد المنطقة الوسطى اللواء موشي ليفي ، تأمرهم بفتح محلاتهم . « وبعد أن قضوا الليلة كلها في قيادة الشرطة ، نقلوا عند الصباح الى متاجرهم لفتحها » (المصدر نفسه ، العدد ٢٠٧٤ ، ٥و١٩٨٠/٦/٦ ، ص ٤) .

الميليشيات الخاصة وأمن المستوطنات

ترجع فكرة الميليشيات الى رئيس الاركان الحالي رفائيل ايتان ، حيث بدأ العمل فيها عند تسلمه منصبه . وتندرج الفكرة في اطار الدفاع الاقليمي عن المستوطنات ، وبذلك تعتبر كل مستوطنة « مستوطنة مواجهة » . وبناء على تعليمات رئيس الاركان ، فإن كل المسرحين من الجيش ، ممن يقيمون في مستوطنات الضفة الغربية ، يجب أن ينتظموا في اطار الدفاع الاقليمي .

وبعد التطورات الاخيرة ، واثناء زيارته مستوطنة كريات اربع ، وقف اريئيل شارون ، وزير الزراعة الاسرائيلي ، مخاطبا سكان المستوطنة ومدافعا عن مواقف وزير الدفاع ، قائلا : « ليست هذه هي المشكلة اليوم . ويجب عدم القاء التهم على هذا الانسان أو ذاك . فالمشكلة هي الارهاب ، وعلى اسرائيل أن ترد بالاسلوب المناسب قبل أن يتدهور الوضع اكثر . ان هناك مئة طريقة مختلفة للعمل ، واسرائيل تملك تجربة في ذلك » («معاريف» ، ١٩٨٠/٥/٧) . واعرب شارون عن اعتقاده بأن تدمير البيوت في الخليل ، وطرد الزعماء الثلاثة من جبل الخليل « كانت خطوات صحيحة ، وان الحكومة ستتخذ خطوات أخرى » (المصدر نفسه) . وكانت أولى الخطوات التي بشر بها شارون ، هي عقد مؤتمر طارىء في مستوطنة آلون شافوت الواقعة في غوش عتسيون ، ضم ٢٠٠ شخص يمثلون مختلف مستوطنات الضفة الغربية . وقرر المؤتمر اقامة لجنة أمنية « بهدف خلق قاعدة امنية مستقلة عن الحكم العسكري » («هآرتس» ، ١٩٨٠/٥/٩ . وأصدر المجتمعون بيانا وزع على مستوطنات الضفة الغربية ، طالبوا فيه المستوطنين بالابلاغ عن كل اعمال التمرد ، والتحريض ورشق الحجارة ، أو أي عمل يتعلق بالأمن . وهاجم المجتمعون في بيانهم لجنة التوجيه الوطني في الاراضي المحتلة ، لأنها مكونة من « ممثلين لمنظمات التخريب وجبهة الرفض » ، وطلبوا من السلطات « طرد كل اعضاء لجنة التوجيه الوطني ، وكل من له علاقة مع م . ت . ف . وطرد ومعاقبة منظمي الاضطرابات والمحرضين ، ومنع تحويل نقود منظمة التحرير الى الضفة الغربية » . كما طلبوا « إغلاق الصحف التي تعمل في خدمة منظمة التحرير ، وتوسيع صلاحيات الجنود ورجال الشرطة لتسهيل عملهم في الضفة الغربية ، والغاء الاوامر التي تمنع دخول رجال الأمن الى مؤسسات التعليم أثناء المظاهرات » (المصدر نفسه) .

وكشفت مصادر صحافية اسرائيلية ، عن أن لجان أمن المستوطنات ستتسق عملها مع لجنة امنية مركزية ، وهذه بدورها مع رئاسة الاركان في الجيش الاسرائيلي « وستتلقى كل مستوطنة السلاح ، بما فيه اسلحة متوسطة تشمل مدافع هاون ، ورشاشات ثقيلة » (المصدر نفسه ، ١٩٨٠/٥/١٦) .

المستوطنون « يلعبون بالنار »

وجاء اكتشاف مخزن الاسلحة ، على سطح المدرسة الدينية في القدس ، ليكشف اتجاها جديداً لدى المستوطنين الصهاينة . وكان ذلك المخزن يحتوي على ١٢٠ كلغ من المواد المتفجرة ، اضافة الى ١٦ قنبلة يدوية . واعتقل ضابطان في الجيش أحدهما برتبة رائد والاخر برتبة مساعد . وقد نفى المعتقلون أي علاقة تربطهم بجماعة غوش ايمونيم ، إلا أن

النائب يوسي ساريد طالب قوات الامن بفحص المستوى الذي وصلت اليه « القاعدة المسلحة التابعة لغوش ايمونيم ، من ناحية القوى البشرية ، ووسائل القتال ، وخطط التنفيذ [وطالبها] بتفكيك هذه القاعدة ، والعمل لالغائها بكل الوسائل » (« عل همشمار » ، ١٢/٥/١٩٨٠) . ورأى ساريد ان كشف مخزن الاسلحة في المدرسة الدينية ، يثبت ان الدولة كلها « تجلس على برميل من البارود » ، وان متطرفي غوش ايمونيم « يلعبون بالنار » . كما قال ان الدلائل تشير الى أن الخارجين على القانون يستعدون لحرب خاصة ضد العرب ، « وضد اليهود ايضا ، اذا تطلب الامر ذلك » (**المصدر نفسه**) . وطلبت حركة السلام الآن من رئيس الحكومة ووزير الدفاع ، احباط محاولات التنظيمات العسكرية الخاصة « لأن ارهاب المخربين ، والعنف ، وتنظيمات المستوطنين الخاصة وسياسات الطرد ، ومنع التجول ، والعقاب في كل اتجاه ، وتسليح هؤلاء وهؤلاء ، تثبت ان سياسة « اليد القوية » لم تعط فوائدها على المدى الطويل ، وأن مصلحة اسرائيل الامنية والاخلاقية هي في الانسحاب من المناطق المأهولة بالسكان العرب ، لقاء اتفاق السلام » (**المصدر نفسه**) .

وكشف النائب ابراهام كاتس عوز (المعراخ) في لقاء مع اعضاء الكيبوتسيم ، عن النوايا المبيتة وراء اخفاء المتفجرات على سطح المدرسة الدينية ، بأنها كانت ستستخدم « ضد احد المراكز الاسلامية » . وأضاف عوز « ان تزويد اعضاء غوش ايمونيم بالسلاح ، وتأييد شارون لجيوش الحاخام كاهانا ، ويورات ، وليفنغر ، وغوش ايمونيم ، كل هذا يطرح التساؤل عما يعدّ وزير الزراعة من وراء تسليح جماعات عسكرية صغيرة .... واذا لم ترد الحكومة بقوة ، ستضطر هيئات شعبية رئيسية في الدولة الى تنظيم الرد المطلوب في مواجهة مثل هذه الجيوش الخاصة » (« دافار » ، ٢٦/٥/١٩٨٠) .

وعلق احدهم على تصرفات حكومة الليكود ، وتسليحها للجماعات الاستيطانية وإثارة موجات الانتقام المتبادل ، في الوقت الذي تتحدث فيه عن المفاوضات والسلام ، وقال : ان هذه الحكومة حطمت كل قاعدة للحياة المشتركة . وان الاستيطان في قلب المناطق العربية الكثيفة بالسكان ، وانشاء ميليشيات خاصة لجماعة غوش ايمونيم ، التي تظن انه مسموح لها بكل شيء : تحطيم الزجاج ، وتدمير السيارات، ان هذه الاعتداءات هي ، في نظر العرب ، شهادات على ان حكومتنا تنظر بعين الرضى الى هذه الميليشيات ، أو أنها تخشى من اتخاذ اجراءات ضدها » (« موشي كول » ، « دافار » ، ٢٥/٥/١٩٨٠) . ويتساءل المعلق : في ظل هذا الوضع من سيشارك في مفاوضات الحكم الذاتي الذي تتحدث عنه حكومة بيغن ؟ ويضيف : هل يعقل اننا ، حتى الان ، لم نكتشف المسؤولين عن اخفاء السلاح على سطح المدرسة الدينية ؟ وهل يوجد انسان عاقل يصدق انه يمكن رفع صناديق السلاح على سطح المدرسة دون شركاء في العمل بين طلاب المدرسة ؟ وهل السلطة عاجزة عن كشف القائمين بهذا العمل الخطير ؟ ، ثم يتساءل أخيراً : هل نستطيع ان نضع « قوة من الجيش الى جانب كل بيت عربي في الضفة الغربية وقطاع غزة ؟ هل نستطيع الاستمرار في اتباع سياسة « اليد القوية » ، واليد الطولى في كل مكان وضد أي كان ؟ يجب أن نتعلم من تاريخ الشعوب الأخرى في الحالات المشابهة » (**المصدر نفسه**) .

محاولة اغتيال رؤساء البلديات

وعلى خلفية هذه الاستعدادات من قبل المستوطنين الصهاينة ، وبتأييد واضح من كبار المسؤولين في الحكومة والجيش الاسرائيلي ، وقعت محاولة اغتيال بسام الشكعة ، وكريم خلف ، وابراهيم الطويل ، رؤساء بلديات نابلس ورام الله والبيرة . وبينما اصيب الاولان اصابتين خطرتين ، نجا الثالث في آخر لحظة . ورغم محاولة سلطات الاحتلال إثارة الشكوك والبلبلة بين السكان العرب ، حول الهوية الحقيقية لمنفذي الحادث الاجرامي ، فان معظم الاوساط الاسرائيلية أجمعت على أن العمل هو من النوع المحكم جداً ، وأن خبراء عسكريين هم الذين نفذوه ، وان المواد المستخدمة هي من صنع الجيش الاسرائيلي ، إضافة الى أن المتطرفين الصهاينة أنفسهم ، لم يترددوا في الاعراب عن مدى اغتباطهم لتنفيذ هذا العمل ، وسرورهم لوقوعه .

ردود فعل السكان العرب

بعد وقت قصير من وقوع الانفجار في سيارة كريم خلف ، رئيس بلدية رام الله ، وصلت اعداد كبيرة من سكان المدينة الى المستشفى الذي نقل اليه ، ونظمت فوراً مظاهرة للاحتجاج . كما أضربت

المدينة ، واغلقت المحال التجارية ، وسمعت اصوات طلقات نارية في انحاء المدينة ، وبعد وقت قصير « سمع صوت سيارة اسعاف تقترب من المستشفى . وتبين ان ثلاثة شبان اصيبوا بجراح من جراء اطلاق النار عليهم من قبل قوات الأمن . واجتمع اعضاء بلديتي رام الله والبيرة وقرروا الاضراب لمدة ثلاثة أيام » (.هآرتس. ، ١٩٨٠/٦/٣) .

وفي نابلس ، جرى اضراب تجاري شامل ، وجرت مظاهرات صاخبة احتجاجاً على محاولة اغتيال بسام الشكعة وزميليه . وخلال التظاهرة « اطلقت قوات الامن النار لتفريق المتظاهرين ، وتوترت الاجواء » (**المصدر نفسه**) . وكشف الدكتور حاتم ابو غزالة ، عضو مجلس بلدية نابلس ، عن مدى تواطؤ سلطات الاحتلال مع منفذي عملية الاغتيال ، وذكر انه حضر الى بيت بسام الشكعة عند وقوع الانفجار في تمام الساعة الثامنة صباحاً ، وأن « رجال الشرطة والحكم العسكري وصلوا الى المكان الساعة ٨,٣٠ فقط » (**المصدر نفسه**). أما الشكعة نفسه ، فقد كانت روحه المعنوية عالية جداً ، وظهر ذلك من خلال الكلمات التي قالها لمحاميه فيليتسيا لانغر التي زارته في المستشفى بعد الظهر : « ان لي رأساً وقلباً ، وان نضالي عادل . من اجل ماذا احتاج الى رجليّ ؟ سوف اعتاد الحياة بدون رجلين » (**المصدر نفسه**) .

وعقد مجلس بلدية غزة ، المعين تعييناً ، اجتماعاً ناقش فيه تطورات الوضع في المناطق المحتلة ، على ضوء محاولة الاغتيال . وقرر اعضاء المجلس الاستقالة الجماعية احتجاجاً على ذلك . وجاء في بيان الاستقالة الذي سلم الى الحاكم العسكري لقطاع غزة : « منذ ان اتبعت الحكومة سياسة « اليد القوية » ، تزايدت مظاهر الاعتداءات ضد سكان الضفة الغربية ورؤساء البلديات . وقد شجعت هذه السياسة العناصر المتطرفة ، كأعضاء غوش ايمونيم وأمثالهم ، على الاستمرار في هجومهم على السكان العرب وان الاحداث التي حصلت أثارتنا ، وهي لا تقرب السلام . وامام الوضع الناتج ، ليس أمامنا اي امكانية للاستمرار في مهامنا ، واننا نتقدم باستقالتنا الجماعية » (« **عل همشمار** » ، ١٩٨٠/٦/٣٠) .

كما أن بلدية بيت لحم تقدمت باستقالة جماعية ايضاً . الا أن البلدتين ، عادتا فتراجعتا عن استقالتيهما بناء على قرار جماعي اتخذه رؤساء البلدية في الضفة الغربية ، وبعد مشاورات جرت بينهم لتفويت الفرصة على سلطات الاحتلال ، وحرمانها من استغلال هذه المناسبة ، وتعيين ضباط عسكريين لادارة شؤون البلديات. وهذا ما أوضحه رشاد الشوا ، رئيس بلدية غزة ، حين قال : « لقد ناشدتنا وفود من اخواننا رؤساء واعضاء مجالس البلديات في الضفة الغربية ، وطلبوا منا العدول عن الاستقالة لمصلحة المواطنين ، كي لا يترك المجال مفتوحاً أمام السلطات الاسرائيلية لتعيين ضباط اسرائيليين يتولون شؤوننا ، أو تعيين لجان يقوم عليها اشخاص غير صالحين لتولي ادارة البلديات ؛ الامر الذي كان سيلحق اضراراً كبيرة جداً بالمواطنين » (و.إ.إ. ، العدد ٢٠٧٦ ، ٨ و١٩٨٠/٦/٩ ، ص ٩) . ومن جهة أخرى ، عقد اجتماعٌ في رام الله يوم ١٩٨٠/٦/٢ حضره وجهاء وشخصيات من قرى المنطقة جرى الحديث فيه « عن تشكيل لجنة تتولى مراقبة الوضع . واقترح أن يشارك في اللجنة المعينة ممثلون عن جميع البلديات ومختلف المنظمات ، ولم يعرف بعد ما إذا كانت اللجنة المعنية قد تشكلت فعلا ، وكيف ستكون علاقتها بلجنة الارشاد الوطني » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٧١ ، ٢ و١٩٨٠/٦/٣، ص ٣)

ردود فعل الاوساط الاسرائيلية

وأثارت هذه التطورات بالمقابل ، ردود فعل مختلفة داخل الاوساط الاسرائيلية المعنية بشؤون المناطق . فالمستوطنون المتطرفون اعربوا عن رضاهم واعجابهم « باليهود الجيدين » الذين نفذوا هذا العمل . بينما نظر آخرون الى الموضوع من ناحية مدى الخطورة التي سيعكسها الموقف الناتج على العلاقات بين اليهود والعرب ، وآثار كل ذلك على اسرائيل .

وفي هذا الاطار ، وعندما سئل : على من تقع مسؤولية اعمال العنف الاخيرة،أجاب المدير العام لحركة كاخ ، يوسي دايان ، لمراسل السي . بي . س : « ليست لدي معلومات عن ذلك ، لكنني استطيع ان اقول الحقائق فقط . فاليوم هو الذكرى الثلاثون لمقتل ستة يهود في الخليل بأيدي العرب . وقلنا ، نحن ، ان أياً كان يجب ان ينتقم لهذا . انني لا أعرف من فعل هذا ، لكنه بالتأكيد من عمل اناس متخصصين قاموا بعمل متقن » (« **عل همشمار** » ، ١٩٨٠/٦/٣) ووصف الحاخام

مئير كهانا الذين نفذوا العملية بأنهم يهود جيدون وموهوبون ، انتقموا لليهود الذين سقطوا قبل شهر . واضاف : « كان هذا الاسبوع عيدا بالنسبة لي ، ويوماً جيدا لابناء شعب اسرائيل . ولا يمكن الوصول الى السلام الا اذا فصل بين الشعبين العربي واليهودي . وما دام الشعبان يعيشان مع بعضهما البعض ، فلن يكون هناك أمل بالسلام ، اذ يجب ان يكون اليهود هم سكان [ارض - صهيون] وان يكون العرب في دولهم ... فاليهود ملزمون بالسكن في الخليل ونابلس ، والعرب في بيوتهم في دمشق وعمان » (ر.إ.إ. ، العدد ٢٠٧٥ ، ٦ و٧/٦/١٩٨٠ ، ص ٧) .

ومن جهة أخرى ، انتقد البروفسور شيفح فايس ، المحاضر في العلوم السياسية ، وعضو المجلس البلدي لمدينة حيفا ، الاعمال المخزية التي تقترفها السلطات الاسرائيلية ، ووصفها بأنها غير ضرورية « لأننا بذلك نفقد كل الاساس الاخلاقي لوجودنا كشعب ، وكل الاساس العام لادعاءاتنا في اوساط الامم الاخرى ، عندما يجري التعرض لنا . ونفقد تقريباً كل الاساس العام لوجودنا هنا ... وهذا مجرد عمل انتقامي خطر ، يوسع مجال الصدام والاحتكاك » (المصدر نفسه ، العدد ٢٠٦٦ ، ٢٧ و٢٨/٥/١٩٨٠ ، ص ١٣) .

وشبه المستشرق البروفسور يهوشواع بورات الوضع في اعقاب عملية محاولة اغتيال الشخصيات العربية ، بأنه يماثل الى حد بعيد الوضع الذي كان قائماً قبل حرب عام ١٩٤٨ ؛ أي الصراع بين السكان العرب واليهود. وهذا من شأنه، حسب رأي البروفسور بورات ، أن يسلب اسرائيل ما تبقى لديها من ادعاءات بأنها « دولة يسود فيها القانون ، وتصرفاتها انسانية ، وتعمل ضد الارهاب وضد المنظمات الارهابية . ان هذه الاعمال ، تضعنا في مستوى الارهابيين ومنظمات الارهاب » (المصدر نفسه ، العدد ٢٠٧٢ ، ٣ و٤/٦/١٩٨٠ ، ص ١١) . وحول محاولة السلطات الاسرائيلية ، اتهام بعض اطراف المنظمات الفلسطينية بعلاقاتها بمحاولة الاغتيال ، لإبعاد الشبهات عنها ، كذب بورات هذه الادعاءات ، ورأى « انه عندما تريد احدى المنظمات الفدائية قتل شخص غير وطني وخائن ، من وجهة نظرها ، فإنها أولاً تشن ضده حملة اعلامية وتحذره عبر الاثير ، وبعد ذلك تنفذ عملية القتل أو الاغتيال . كما أنها تأخذ على عاتقها مسؤولية القتل لردع الآخرين ، مثلما حصل بالنسبة لجنحو ، والخزنذار ؛ اذ أن الكل كان متأكدا في حينه ، من ان م . ت . ف . هي التي نفذت هذه الاعمال ، وقد اعلنت مسؤوليتها بالفعل . أما هذه المرة فلم يتهم أحد بالخيانة ، ولم يهاجم أحد أو يتهم بالخيانة . وانا بنفسي أقول ان يهودا متطرفين هم الذين نفذوا هذه العملية » (المصدر نفسه) .

آراء شخصيات اسرائيلية بارزة

وعلى ضوء تدهور الاوضاع في الضفة الغربية ، اجرت صحيفة « معاريف » مقابلات مع عدد من كبار الشخصيات الاسرائيلية ، تحملوا مسؤوليات امنية سابقة ، لسؤالهم عن أفضل الوسائل التي كان يمكن ان يتبعوها لو أنهم يشغلون الآن منصب وزير الدفاع .

فرأى موشي ارنس ، رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست ، ان عرب الضفة الغربية ينظرون الى السلطة الاسرائيلية على أنها سلطة مؤقتة « وعلينا ان نثبت العكس ، بواسطة تعزيز تفسير الحكم الذاتي الاداري كاستمرار للسلطة الاسرائيلية في كل مناطق الضفة الغربية . وبأعمال العقاب ، والاستمرار بالاستيطان وعلى نطاق واسع » (معاريف، ٩/٥/١٩٨٠) . ودعا أرنس الى اخراج كل « هؤلاء الذين يتلقون توجيهات منظمة التحرير ، والمعروفين [بتبعيتهم لها] في المناطق ... ويجب عدم ترك اي شك في قلب كل عربي ، حول ان السلطة الاسرائيلية ستتبدل ، أو أن دولة فلسطينية ستقوم في الضفة الغربية ... ومثلما كانت حوادث ١٩٢٩ في الخليل جزءاً من معركة شاملة على أرض - اسرائيل ، تشكل اعمال الخليل اليوم جزءاً من المعركة على الضفة الغربية ، وهي معركة على أرض - اسرائيل . لذلك يجب ضمان السلطة اليهودية في الضفة الغربية الى الابد » (المصدر نفسه) .

أما حاييم بار - ليف ، أحد رؤساء الاركان السابقين ، فرأى انه لو كان وزيرا للدفاع ، لأوقف اعمال بناء المستوطنات في المواقع التي تكون اهدافاً سهلة للاعمال المعادية « وكنت اركز المستوطنات في وادي الاردن . وعلينا أن نتمسك بتلك الاشياء الحيوية لنا ، والتي يمكن الدفاع عنها بسهولة

وتطويرها » (المصدر نفسه) .

ويضيف بار ـ ليف ، انه لو كان وزيرا للدفاع ، لأوقف الاعمال التي تؤدي الى الاحتكاك بين اليهود والعرب ، مثل الاسكان في بيوت الخليل ، واسكان بيت هاداسا ، الخ .. ولو أن الحكومة اخلت نساء هاداسا مثلما قال رئيس الوزراء ووزير الدفاع منذ البداية ، وكذلك الامتناع عن بناء مستوطنات هناك « لما حدثت هذه المصيبة ... وكنت ادافع الى الحد الممكن عن الاشياء القائمة والثابتة ، وهذا رأس الحكمة » (المصدر نفسه) .

ويتلخص رأي موشي دايان ، بوجوب معاقبة الكبار بدلاً من اولادهم راشقي الحجارة على سيارات الاسرائيليين ، لان هؤلاء يتمتعون بتأييد آبائهم وتشجيعهم . وهو يؤيد كذلك ، « عقوبات من انواع مختلفة ، مثل فرض حظر التجول ، وتدمير البيوت ، والتهجير ، الخ .. » (المصدر نفسه) . ويدعو دايان الى تطبيق الحكم الذاتي من جانب واحد ، حسب اتفاقيات كامب ديفيد « والغاء الحكم العسكري من المدن العربية » ، بشرط ان يتحمل رؤساء البلديات مسؤولية حفظ الأمن والهدوء ، وعدم تحويل مدنهم الى « قواعد للتخريب ضد اسرائيل » .

واعاد شمعون بيرس ، زعيم حزب العمل المعارض ، الى الاذهان ، الافكار الاساسية التي ينادي بها حزبه لحل مسألة الضفة الغربية ، ضمن اطار الحل الاقليمي الوسط مع الاردن ، من خلال ما يسميه بـ « بالتعايش المشترك » . وهو يرى وجوب بناء المستوطنات « حسب نظرة شاملة لمستقبل الضفة الغربية ، وحسب اعتبارات امنية فقط . ويجب ازالة الاعتبارات التاريخية في الضفة الغربية . وعليه ، يجب عدم الاستيطان داخل الخليل . ولقد اتخذت الحكومة قرارا بشأن بيت هاداسا ولم تنفذه . ويجب عدم الخضوع للجماعات المتطرفة » (المصدر نفسه) .

وعالج اسحاق رابين ، رئيس الاركان السابق ، الموضوع ، من خلال عجز الحكومة مسبقاً عن معالجة الامور بشكل صحيح . « فمنذ البداية كان يجب وقف نشاط لجنة التوجيه الوطني ، لأنها تؤيد م . ت . ف . كما يجب منع نشاط المتطرفين الاسرائيليين من جماعات مئير كهانا » . ودعا رابين كذلك ، الى ازالة الوهم لدى السكان العرب للتأكيد على ان الحكم الذاتي لن « يقود الى دولة فلسطينية » . وانتقد سياسة غرس المستوطنات في المناطق المأهولة بالعرب « لأن الاحتكاك العربي ـ اليهودي سيزداد ، والتوتر سيتضاعف . وبناء على ذلك ، وحيث ان الحكومة ترسم السياسات ، يجب ان توضح كل مفاهيمها بخصوص الوضع في المناطق . ونظراً لأنني أؤيد سياسات مختلفة ـ لا حكم ذاتيا ولا استيطان في اماكن مأهولة ـ يبدو لي ، انه يجب ان يكون الأمن متمشياً مع السياسات التي كانت متبعة من قبل الحكومات السابقة » (المصدر نفسه) .

النشاط الاستيطاني

على قاعدة استمرار الوجود الاستيطاني الاسرائيلي ، وضمان تقويته وتعزيزه في الاراضي العربية المحتلة ، حتى في حال قيام الحكم الذاتي ، كما تقول الاوساط الاسرائيلية الحاكمة ، شهدت الاراضي العربية المحتلة نشاطاً استيطانياً متزايداً في الفترة الاخيرة يهدف بالأساس الى إقامة حاجز من المستوطنات بين قطاع غزة وسيناء من جهة ، واغلاق ممر اريحا ـ القدس من جهة أخرى ، تأكيداً على رفض مشروع آلون ، من جانب حكومة مناحيم بيغن .

وفي هذا الاطار ، تقوم شعبة الاستيطان التابعة للمنظمة الصهيونية ، حاليا ، ببناء مستوطنة جديدة في منطقة اريحا ، تدعى فيرد يريحو (وردة اريحا) . ويخطط لأن تكون سوقاً قروية في اطار حركة الاتحاد الزراعي . ويعتمد اقتصادها على الصناعة الخفيفة والسياحة، وربما على الزراعة أيضاً . وذكر ان هذه المستوطنة هي من أصل ست مستوطنات يخطط لبنائها في المنطقة . ووفقاً للمشروع نفسه « ستقام مستوطنات : بيت هعرفاه جنوب ـ شرق اريحا ، والموغ ـ ب ، ونعيمة ـ ج شرقي اريحا ، ونعيمة أشمال ـ شرق اريحا ، ونعيمة ـ ب شمال غرب أريحا » (و.إ.إ . ، العدد ٢٠٥٩ ، ١٨ و ١٩/٥/١٩٨٠ ، ص ٨) . وبذلك تصبح اريحا محاصرة من جميع الجهات بالمستوطنات الاسرائيلية . وهذا يضع نهاية لمشروع آلون الذي يقوم على اساس الابقاء على ممر في منطقة أريحا خال من المستوطنات اليهودية ، يربط الاردن بالضفة الغربية .

وتقع مستوطنة فيرد يريحو المذكورة فوق تلة مشرفة على مخيم اللاجئين المهجور بالقرب من اريحا ، وتبلغ مساحتها حوالي ٥٠٠٠ دونم . ورغم ان الحكومة صادقت لثلاث مستوطنات ، فإن مراسل الاذاعة الاسرائيلية يقول ان الاستعدادات قائمة للعمل « لتنفيذ كل المشروع القاضي ببناء ست مستوطنات ... ورغم عدم توفر الميزانيات لإقامتها دفعة واحدة ، فإن مشروع اغلاق اريحا من جميع الاتجاهات قد بدأ تنفيذه . واليوم بدأ بناء أقرب مستوطنة يهودية الى اريحا » (المصدر نفسه) .

وفي منطقة القدس ، اقامت جماعة غوش ايمونيم مستوطنة بالقرب من جبعون شمالي ـ غربي القدس ، سميت جبعات حاداشا « واقيمت المستوطنة الجديدة على اراض تبلغ مساحتها ٨٠ دونماً يملكها يهود منذ سنة ١٩٤٠ » («هآرتس» ، ١٢/٥/١٩٨٠) . وسوف يقيم في المستوطنة اشخاص علمانيون في غالبيتهم ، وستعتمد في اقتصادها على الصناعات الخفيفة بصورة اساسية .

ونشر قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية اعلانا عن عزمه « اقامة ٢٩ نقطة استيطانية جديدة في الضفة الغربية حتى شهر تشرين الاول (اكتوبر) من عام ١٩٨٣ » (و.إ.إ. ، العدد ٢٠٥٧ ، ١٥ و١٦/٥/١٩٨٠ ، ص ١١) . وأشار رئيس قسم الاستيطان الى ان كل نقطة استيطان ستضم ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ عائلة .

ويبدو أن المرحلة الأولى من خطط الاستيطان التي وضعتها حكومة الليكود ستنتهي قريباً ، فقد اعلن مناحيم بيغن ، رئيس الوزراء الاسرائيلي ، ان اسرائيل ستقيم ١٠ مستوطنات جديدة في الضفة الغربية ، وبذلك تكون قد انهت المرحلة الأولى لمشاريع الاستيطان في المنطقة . وستبنى هذه المستوطنات في عدة مناطق داخل الضفة الغربية . وأوضح اريئيل شارون ، وزير الزراعة ، في هذه المناسبة ، انه منذ تسلمه مسؤولية الاستيطان في شهر تموز (يوليو) ١٩٧٧ ، وضع خططاً « لإقامة ٨٥ مستوطنة متنوعة بدءا بالمدن وانتهاء بالمستوطنات الزراعية . وعندما شكل الليكود الحكومة عام ١٩٧٧ ، كان في هذه المناطق ٢٥ مستوطنة تقريباً . بينما يوجد اليوم حوالي ٧٥ مستوطنة . وطرحت خطة إقامة ٨٥ مستوطنة : لذلك فإن ما تبقى من الخطة هي المستوطنات العشر التي تحدث عنها رئيس الحكومة مؤخراً » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٧٨ ، ١٠ و١١/٦/١٩٨٠ ، ص ١٧) .

وعلى ضوء اخلاء قطاع يميت في سيناء ، وفق اتفاقيات كامب ديفيد ، بدىء بإقامة مزرعة ناحال وهي قطين ـ د في قطاع غزة ، وتشكل هذه المستوطنة جزءاً من مشروع يستهدف اقامة سلسلة مستوطنات يهودية تفصل بين سيناء وقطاع غزة . وحسب المشاريع المعدة لهذه المنطقة ، ستقام تسع مستوطنات جديدة « خصصت لتطويق منطقة خان يونس من جميع الاتجاهات ، وتشكيل فاصل بين مشارف رفح وقطاع غزة ... اما معظم الاراضي المخصصة للمستوطنات ، فهي أراض تابعة للدولة ، ولكن يوجد في المنطقة قطعة ارض مساحتها حوالي ١٢,٠٠٠ دونم ما زال وضعها غير واضح » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢٠٦٢ ، ٢٢ و٢٣/٥/١٩٨٠ ، ص ٣) . ويبدو أن الحديث عن تطبيق مشروع الادارة الذاتية في قطاع غزة ، ربما كان السبب وراء تنفيذ هذه المشاريع .

محمد عبد الرحمن

١ - استقالة وايزمن اسبابها وتبعاتها

شهدت حكومة بيغن منذ تشكيلها هزات عدة نجم عنها انسحاب عدد من اعضائها . وكانت كتلة الحركة الديمقراطية للتغيير اول من دشن عملية الانسحاب حين انقسمت على نفسها وانسحب فريق « شينوي » برئاسة روبنشتاين من الحكومة . وفي ايلول ١٩٧٨ استقال منير عميت (الحركة الديمقراطية) من وزارة المواصلات . وتبعه بعد مدة بسيطة يغئال هوروفيتس (لعام) فاستقال من وزارة التجارة والصناعة احتجاجاً على اتفاقية كامب ديفيد . وتلاه في كانون الثاني ١٩٧٩ موشي دايان الذي استقال من وزارة الخارجية .

حدثت هذه الاستقالات في صفوف بعض الاجنحة المتحالفة مع الليكود ، ولم يتأتَّ عنها سوى إحداث خضات للحكومة الائتلافية ، وانعكست خطورتها الأساسية في تمزق وتشرذم الاحزاب التي ينتمي اليها المستقيلون ، فقد انقسمت الحركة الديمقراطية للتغيير على نفسها ، وحدث نفس الشيء بالنسبة لكتلة لعام . وعلى الرغم من « الخدوش » البسيطة التي الحقتها هذه الاستقالات بالحكومة الائتلافية ، فانها حملت بين طياتها عوامل ضعف لبعض الكتل المشاركة في الائتلاف مما عزز من هيمنة الليكود في قيادة الحكومة . الى ان جاءت استقالة عيزر وايزمن من وزارة الدفاع ،من وسط الليكود ومن حركة حيروت بالذات الامر الذي حمل معه الى جانب الضربة المؤلة لحكومة الائتلاف احتمال خطر انشقاق داخل الحزب الحاكم، في وقت هو احوج ما يكون فيه الى تجميع قواه لمواجهة التجمع العمالي في المعركة الانتخابية ، في العام القادم . ومع ان هذا الخطر ما زال عائماً: فإن واقع تفجر الخلاف بين الشخصين المركزيين لحركة حيروت، والذي اتسم بمنافسة شديدة بينهما حول قيادة الحكم، لم يسبق لها مثيل في تاريخ الصراع على الحكم في اسرائيل ، من ناحية تبادل التهم والتشنيعات الشخصية ، هو اقرب ما يكون الى واقع تفجر الخلاف بين ركني حزب العمل ، عشية الانتخابات السابقة ، الذي كان من بين الاسباب التي ساعدت على خسارته المعركة الانتخابية .

قبل استعراض مراحل الاستقالة وتبعاتها على الخريطة ، يجدر تسجيل ملاحظتين :

١ - غياب التحديد الواضح لنقاط الخلاف حول الموضوعات السياسية الاساسية ، على الرغم من كثرة الحديث عنها، لدرجة بلغت حدَّ الاسفاف . ومرد ذلك الى التقارب في وجهات نظر الطرفين حول الموضوعات الاساسية ، خصوصاً تلك المتعلقة بالصراع العربي - الصهيوني ، الامر الذي يجعل الخلاف يتمحور حول معالجة هذه القضايا وادارة المباحثات حولها ، دون تحديد جوهر الخلاف من القضية مثار البحث . ويتم عدم التحديد هذا بحرص شديد . وهذا ما يبدو جلياً واضحاً في استقالة وايزمن .

٢ - ان اضفاء صفة الاعتدال او « الحمائمية » على وايزمن مسألة نسبية تتعلق بموضوع واحد فقط هو : رعاية وتطوير العلاقة مع مصر ، والاستمرار في التفاوض معها حول تطبيق معاهدة كامب ديفيد . أما بالنسبة لسياسته تجاه المناطق المحتلة فلا يختلف في « صقريته » عن مجموع صقور الليكود . فقد كان هو المسؤول الاول عن انتهاج سياسة « اليد القوية » ضد سكان المناطق المحتلة ، والمتمثلة في هدم البيوت ونفي العائلات من مخيماتها الى مخيمات أخرى

داخل الضفة الغربية ، وابعاد رئيسي بلديتي الخليل وحلحول وقاضي الخليل الى لبنان ، وتهديد رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة بـ « التصفية الجسدية » ، قبيل جريمة الاعتداء عليه وعلى رئيس بلدية رام الله ، كريم خلف .

عشية الاستقالة

لم تأت استقالة وايزمن مفاجأة لاحد ، فقد درج خلال فترة طويلة على التهديد بها . ففي اواسط اذار الماضي أماط اللثام امام المقربين منه عن اعتزامه تقديم استقالته ، بعد استكمال بناء بيت له في قيساريا ، وحدد شهر أيار تاريخاً للقيام بذلك ، وقد فاته تحديد اليوم ، لكنه أشار الى انه يعتزم اعداد كتاب دون ان يخفي استياءه من ادارة بيغن للحكم ، وارجع سبب بقائه في منصبه الى رغبته في استكمال بعض الشؤون الامنية . وقد شكك بعض المعلقين الاسرائيليين في تنفيذ وايزمن لتهديداته متسائلين عما اذا كان يحدد مواعيد وفق « الطريقة المصرية » ، مشيرين بذلك الى اسلوب السادات المعتمد على التهديد بتحديد تواريخ معينة للمفاوضات . ولم يبد بيغن اكتراثا في ذلك الحين بتهديدات وزير دفاعه مشيراً الى ان وزيراً كان قد استقال ، ويعني به دايان، دون ان يترك اثراً على حكومته (يوسف حريف ، « معاريف » ٨ /٣/٨٠). وفي اواسط نيسان، وفي غمرة الحديث عن اشتداد وطأة المنافسة بين بيغن ووايزمن ، اعرب الأخير ، في مقابلة تلفزيونية ، عن استعداده لتسلم حقيبة وزارة الدفاع في حكومة يرأسها شمعون بيرس ، وعن موافقته على تقديم موعد انتخابات الكنيست . وكان هذا التصريح بمثابة ضربة مزدوجة مؤلمة لبيغن ، خصوصاً وانه صدر في ضوء اللقاءات بين شمعون بيرس وقادة الحزب الوطني الديني (يشارك في الائتلاف الحكومي) التي اسفرت ، على حد ادعاء « هعولام هزيه » .(١٩/٣/٨٠) ، عن « اتفاق سري » بين الطرفين بشأن تقديم موعد الانتخابات .

ترك هذا التصريح أثراً عميقاً في نفس بيغن الذي اشتكى وتذمر منه اثناء زيارته لواشنطن فصرح : « انني اسمع اليوم من اصدقاء ، واقرأ غداة اليوم التالي في صحف واشنطن ان عيزر على استعداد لاستبدالي ، وانه مستعد لشغل حقيبة وزارة الدفاع في حكومة بيرس ، وانه يرغب في تقديم موعد الانتخابات . هل من المريح في شيء قراءة امر كهذا صادر عن وزير خارجيتك عندما تكون موجوداً في بلد آخر !؟ » (انظر : شلومو نكديمون، « يديعوت احرونوت » ، ٢٥/٤/٨٠) . ويبدو ان تأثر بيغن كان من الشدة ، لدرجة أنه افضى الى المقربين منه بأنه يفكر بتقديم استقالة حكومته ليعيد تشكيلها دون وزير دفاعه .

وبمقدار ما اغضب التصريح المذكور رئيس الحكومة، فقد اثلج صدر زعيم المعارضة شمعون بيرس الذي اخذ يمتدح وايزمن ومواقفه ، ويرحب به ، ولكن دون ان يتعهد له بشيء محدد خشية ان يجلب له مشاكل مع بعض عناصر حزبه ، ومع حزب مبام ، شريك العمل في التجمع العمالي . وقد ابدت اوساط حزب مبام الى جانب عدد من اعضاء حزب العمل تخوفاً من احتمال تسلم وايزمن وانصاره مناصب وزارية ، في حال نجاح التجمع ، على حسابهم . وعبر المعلق ابشلوم جينات عن هذا التخوف فحبذ ترحيب بيرس بوايزمن ، شرط ألا يتعدى هذا الترحيب جانب التكتيك ، الذي يستهدف تسريع اغراق سفينة الليكود عن طريق ضمان سلامة من يترك السفينة الغارقة . وركز على خطورة تبعات التحالف مع الناجين من الغرق على حكومة التجمع ، اعتقاداً منه ان قيام حكومة ائتلافية واسعة من شأنه ، ليس فقط تفجير التناقضات داخل الحكومة ، وانما أيضا تغييب لونها . ذلك ان « عجز حزب العمل عن اظهار لون قد الحق به ، في السابق وهو في السلطة ، ضرراً لا يقدر . ويمكن تحميل « ظاهرة تحييد » حزب العمل المسؤولية عن بروز وتنامي غوش ايمونيم . ان شرط التحييد السياسي من الداخل كان بمثابة بيت كبير ومستنبت لرعاية عصابة رفض قومية على شاكلة غوش ايمونيم » (« عل همشمار » ، ٢٤/٤/١٩٨٠) .

مع اقتراب الموعد الذي حدده وايزمن لاستقالته ، وتفاقم خلافه مع بيغن ، ووسط تبادل التهم : برزت داخل الحكومة قضيه أثارت سخطه ، تمثلت في مشروع وزير المالية يغئال هوروفيتس الخاص باجراء تخفيضات في ميزانيات الوزارات المختلفة ومنها وزارة الدفاع . وبدا ان الاكثرية تقف الى جانب هوروفيتس ، الا ان وايزمن اعلن انه لن يخضع لقرار الطاقم الوزاري ، واشيع انه سيستقيل في حال اجراء تخفيضات على اجهزة الأمن ، في الوقت الذي كان فيه من الصعب على الحكومة عدم اقرار المشروع ،

خشية سقوطها بسبب فشلها في المجال الاقتصادي (« دافار » ، ٢٢/٥/٨٠) . ومن الجدير بالذكر ان مشادة كلامية كانت قد حدثت خلال جلسة الحكومة ، في الثامن عشر من ايار ، بين وايزمن وهوروفيتس على اثر عرض الأخير لمشروعه ومطالبته بتخفيض ميزانية وزارة الدفاع ، مع ابداء ملاحظة بإن الوزارة « مبذرة » ، فرد عليه وايزمن بقوله : «انك أنت المبذر الاكبر... لقد عذبت الشعب بالسياط ، وتعذبه الان بالعقارب . انك تتحدث عن حرائق اقتصادية في الوقت الذي تشعل فيه حرائق اجتمـاعيـة بسبـب النقص في المـعـرفـة » (« هآرتس » ، ٩/٥/٨٠) . وفي غضون ذلك ، وفي غمرة الحديث عن الصراع الجديد ، اصدرت « محكمة العدل العليا » أمراً احترازياً ضد وزير الدفاع ، بناء على طلب قدمته عقيلات كل من فهد القواسمة ومحمد ملحم ورجب التميمي ، تطلب فيه من الوزير تقديم اسباب ابعاد الثلاثة خلال ٤٥ يوماً . ولم يول وايزمن اهتماماً بالرد عليها ، فقد كان مشغولاً برد آخر .

تقديم الاستقالة

في السادس والعشرين من أيار بعث وايزمن بمذكرة استقالته الى بيغن ، ذكر فيها ان سبب الاستقالة يعود الى الخلافات « الآخذة بالاتساع والعمق » بينهما ، حول عدد من الموضوعات . ولكنه تحاشى توضيح الخلافات مكتفياً بالاشارة اليها ، ثم وجه انتقادات شديدة ضد بيغن . اكد وايزمن: « ان الكثير من الامور اصبحت موضوع خلاف بيننا ، كما وان تحفظاتي قد ازدادت من سياسة الحكومة في موضوع السلام ، ومن خطتها الاقتصادية وطريقها الاجتماعي ، وطريقة ادائها لعملها . وقد أحسست انه اخذ يتبلور في باطني ادراك بأن طريقنا لم يعد واحـداً ، وانني لن استطيـع الاستمـرار في حكومتك » . اما الخلاف الوحيد الذي اوضحه ، وهو السبب المباشر للاستقالة ، فهو اعتزام الحكومة تقليص ميزانية وزارة الدفاع . فقد اوضح في مذكرة الاستقالة انه يرفض مقترحات الطاقم الوزاري لان « الجيش الاسرائيلي لا يمكن ان يدار وفقاً لمتغيرات مؤشر الاسعار الشهري ، ووفقاً للتغييرات في مزاج اعضاء الطاقم الوزاري للشؤون الاقتصادية . ان معالجة ميزانية الدفاع تعكس جيداً طريقة اداء الحكومة لمهامها في جميع المجالات » . اما موضوع الخلاف حول السلام مع مصر ، فقد اشار اليه متهماً الحكومة بعدم السير في طريق السلام ، دون ان يحدد معالم الطريق : « كذلك فيما يتعلق بالسلام مع مصر لم اكن متفقاً مع سياسة الحكومة ، فالطريق نحو تقوية السلام وترسيخه مفتوحة وواسعة حقاً ، لكن ليس هناك من يسير فيها . وبدلاً من خطو خطوات محسوبة وحاسمة نحو السلام الشامل والوطيد ظللنا نراوح مكاننا » . ثم يوجه بعد ذلك اصبع الاتهام الى بيغن ، ويحمل حكومته مسؤولية فشل تحقيق السلام مع مصر ، فقد انهى المذكرة بقوله : « لقد عرف شعب اسرائيل ، في سني استقلاله ، الكثير من حالات الصعود والانحدار ، لكنه لم يكن في اي وقت ، كما يبدو ، كئيباً وخنوعاً كما هو الحال في السنوات الأخيرة . ولم تتدهور معنوياته بسبب الصعوبات والضيق ، بل بسبب الزعامة التي زرعت خيبة الامل ، ومن يزرع خيبة الامل يحصد اليأس . كان للشعب في اسرائيل ايام من السعادة والآمال في فترة من ولايتك ، كانت ايام السلام الذي وقعنا عليه تقترب ، وقد آمن هذا الشعب بالسلام ، كما آمن بالحكومة ، وليس الشعب هو من لم يعد يؤمن بالسلام . وكان ممكنا بوجود زعامة حقيقية ، فعلاً ، نشر رياح اخرى ، واطلاق القوى العظيمة الكامنة فينا بدءاً من خيرة الشباب الذين يخدمـون في الجيش ، الى آلاف المواطنين الجيدين والمخلصين المشبعين بحب الوطن والصهيونية الحقيقية ، وحب الانسان. كانت امامك سيدي رئيس الحكومة فرصة نـادرة ، لكنـك فـوتـهـا » (« و.إ.إ. » ، ٢٦/٥/٨٠) .

جاء رد بيغن سريعاً ، قبل استقالة وزير دفاعه . ودافع عن سياسة حكومته تجاه موضوع السلام مع مصر ، وعن نفسه بتوجيه انتقادات شخصية لاذعة ضد وايزمن . بالنسبة لموضوع السلام ركز بيغن على أن حجر العثرة امام السلام – وليس بوسع وايزمن مخالفة ذلك – يتمثل في «المقترحات المصرية بصدد: القدس ، ومسألة الأمن ، وجوهر الحكم الذاتي ، التي تتعارض بشكل مطلق مع اتفاقيتي كامب ديفيد ، وتهدد أمن ومستقبل دولة اسرائيل ، هي التي عرقلت حتى الآن المفاوضات التي اوقفها المصريون مرتين ... » اما بالنسبة لتسديد سهام النقد الشخصي فقد افاض في هذا المجال بمخاطبة وايزمن : « شخصيتك غير مسؤولة لدرجـة غير معقولة ، فمن خلال حبك للظهور لدى دول اجنبية

معينة ، أوحيت كأنك الوحيد الذي يجري وراء السلام في حكومة مشكلة ممن يسعون لافشاله ... ». وانهى رده بقوله : « اتيحت لك الفرصة . ربما كنت من بين الذين منحوك اياها بجعلك تشغل منصب وزير الدفاع ، الهام في حكومة اسرائيل ، وفي فترة بالغة الاهمية . لكنك بسبب قصر نظرك وطيشك ... حاولت ابعادي عن منصبي علناً ، وعن طريق التلفزيون ، اثناء وجودي في الولايات المتحدة ، في مهمة قومية هامة... وحصدت في مسعاك هذا فشلاً ذريعاً. لقد اعطيتك يا سيدي وزير الدفاع فرصة نادرة ، لكنك اضعتها بسبب طموحاتك التي تتجاوز حدود المعقول » . (« ر.إ.إ. » ، ١٩٨٠/٥/٢٧ و« على همشمار » ، ٨٠/٥/٢٧) .

وفي التاسع والعشرين من أيار عقدت ادارة حركة حيروت اجتماعاً في تل - ابيب تدارست فيه الوضع الحكومي . واستقالة عيزر وايزمن الذي لم يحضر الاجتماع . وقد شن رئيس الحكومة حملة شعواء ضد وزير دفاعه المستقيل استخدم فيها تعابير الدناءة والكذب ، وربط تصريحات وايزمن بالتصريحات المصرية ، قائلاً : « يتهم كل من وزير الدفاع المستقيل ووزير الخارجية المصرية اسرائيل بافشال التوصل الى اتفاق في موضوع الحكم الذاتي ... سيكون صعباً جداً ان نغفر ، هذه المرة ، لوايزمن خطأه . لقد سبق أن غفرنا له ، وغفرت له شخصياً اخطاءه الكثيرة في الماضي » . ثم تطرق الى توجه وايزمن نحو حزب العمل ، واستعداده لشغل منصب وزير الدفاع في حكومة يتزعمها بيرس ، على الرغم من كونه في الليكود ، فاتهمه بالسعي للحصول على منصب ، قائلاً عن تكتيك بيرس المتمثل بالترحيب بوايزمن ، دون التعهد بالمنصب : « ان بيرس ذكي وخبيث ، فقد قبل فوراً عرض وايزمن ، معلناً انه سيدرس الموضوع ، اذا انسحب هذا من الحكومة ، لكنه سرعان ما واجه الصعوبات داخل حزبه ، لأن الكثيرين هناك ينتظرون تسلم هذا المنصب ، فدفعه ذلك الى القول ، مؤخراً ، انه لا يستطيع التعهد لوايزمن بتسليمه منصب وزير الدفاع لأن وايزمن من الليكود » (« ر.إ.إ. » ، ٨٠/٥/٣٠) .

لم يرد وايزمن على خطاب بيغن وترك مهمة الرّد للفريق الذي اخذ يلتف حوله من وسط الليكود . وكان رد هؤلاء قاسياً : اذ اكدوا على ان « الخطاب أثار الخوف والاشمئزاز إن مثل هذا «البيغن» لم يأخذ ولن يأخذ الحكم، كما وانه لا يملك غطاء جماهيريا ... انه خطاب ادعاء ، ولم يبق امامه سوى تشكيل محكمة واعداد حبل المشنقة » (« معاريف » ، ٨٠/٦/١٠) . وأشاع أعضاء هذا الفريق ، الآخذ بالتبلور ، ان اعداداً كبيرة داخل حركة حيروت ، من بينهم وزراء ، على اعتقاد بأن الوقت قد حان لذهاب بيغن وتسليم قيادة الحركة الى عيزر وايزمن .

وفي غضون ذلك لم يخف وايزمن سعيه لتسلم رئاسة الحكومة . فقد عاد ودعا بيغن الى تقديم استقالته لأنه « لم يول محادثات الحكم الذاتي مع مصر الجدية اللازمة ، مفوتاً بذلك فرصة تاريخية » ، موضحاً ان من شأن الاستقالة « الحفاظ على المكانة المحترمة لهذا الرجل في التاريخ ، وهي المكانة التي فقدها خلال المماطلة في محادثات الحكم الذاتي » . واكد انه لا يرغب في انشاء حزب سياسي جديد ، وأعرب عن اعتقاده بأن شخصيات سياسية عديدة ستنضم اليه في معارضة بيغن قبيل الانتخابات المقبلة . (« ر.إ.إ. » ، ٨٠/٦/١١) .

أثر الاستقالة على الائتلاف الحكومي

كان الشغل الشاغل لبيغن وكذلك لاطراف كتل الائتلاف الحكومي شغل منصب وزير الدفاع . فقد احدثت الترشيحات العديدة لهذا المنصب « زوبعة » بين اطراف الائتلاف كادت تودي به : ففي اعقاب الاستقالة رشح بيغن يتسحاق شمير وزير الخارجية لشغل منصب وزير الدفاع ، ورشح يتسحاق موداعي (الاحرار) ، وزير الطاقة ، لشغل منصب وزير الخارجية . ولم يرق هذا الترشيح لاوساط من الائتلاف ، فقد عارضت الكتلة الديمقراطية ترشيح موداعي وزيراً للخارجية ، وهددت بالانسحاب من الحكومة في حال تثبيت الترشيح ، في حين ألم السخط بأرئيل شارون لعدم ترشيحه لمنصب وزير الدفاع ، وهدد هو الآخر بالاستقالة ، في الوقت الذي اتخذ فيه حزب المفدال موقفاً متحفظاً من الترشيح . وقد تمسك حزب الاحرار ، شريك حيروت في الليكود ، بشدة بترشيح موداعي وزيراً للخارجية . واعلن موداعي انه لن يسحب ترشيحه للمنصب الجديد حتى ولو ادى ذلك الى استقالة الحكومة ، محتجاً بأن « الموضوع ليس شخصياً ، بل هو موضوع حزب الاحرار الذي هُضم حقه منذ تشكيل الحكومة » (« ر.إ.إ. » ، ٨٠/٥/٢١) .

وازاء اصرار اطراف الائتلاف كلٌ على موقفه ،

وحيال التخوف من احتمال سقوط حكومته . ومن اجل ربح مزيد من الوقت اعلن بيغن انه لن يحدث تغييرات في المناصب الحكومية . وانه سيشغل بنفسه . مؤقتاً . منصب وزير الدفاع . وبذلك ازال بسرعة آثار . الزوبعة . التي هبت على حكومته .

ردود الفعل على الاستقالة

في الوقت الذي لم تخف فيه اوساط المعارضة اغتباطها بالاستقالة ، على امل ان تؤدي الى تقديم موعد الانتخابات ، فتجري في ظل ازمة الليكود ، استقبلت الاوساط الائتلافية القرار بشيء من التحفظ وابداء الاسف . وكانت الكتلة الديمقراطية برئاسة يغئال يادين اشدها في الاعلان عن الاسف تخوفاً منها من اشتداد وطأة هيمنة تيار الصقور ، ويبدو ذلك من تعليق يادين القائل ان . حقيبة الدفاع هي بيد حزب حيروت . ولا اعرف في هذا الحزب رجلاً قد يعين وزيراً للدفاع اقل . حمائمية . من وايزمن . (•عل همشمار . ، ٢٦/٥/٨٠) .

عكست الصحف الاسرائيلية في افتتاحياتها موقف التيارات المختلفة من الاستقالة ، فقد عالجتها (. دافار . ، ٢٧/٥/٨٠) بابرازها الفقرات الاساسية الواردة في كتاب الاستقالة وتبنيها لها . ووقفت عند ثلاث مسائل : الجيش الاسرائيلي لا يدار وفق لائحة الاسعار الشهرية ، والطريق الى السلام مفتوحة ، ومن يزرع الكآبة يحصد اليأس . ومع ان الصحيفة اكدت على وجود نقاط خلاف بينها وبين وايزمن ، الا انها ذكرت بانه من الصعب عدم تبني الموضوعات التي طرحها . وأعربت . عل همشمار . ، ٢٦/٥/٨٠) في افتتاحية لها عن اعتقادها بان السبب الحقيقي وراء الاستقالة ابعد ما يكون عن الخلاف حول ميزانية وزارة الدفاع ، وإنما يكمن في عدم موافقة وايزمن على النهج الذي تسير عليه الحكومة في سياستها الخارجية . التي تقود شعب اسرائيل . ، حسب رأيها ، . الى طريق مسدود ، وتعرقل خطوات السلام الى درجة المخاطرة . . ورأت الصحيفة في استقالة وايزمن تعزيزاً للتوجه «الصقري» داخل الحكومة . فعندما استقال دايان حل محله يتسحاق شمير المعروف بمواقفه . الصقرية . ، وحملت استقالة سيمحا ارليخ من منصب وزير المالية ، معها صقراً آخر على شكل وزير المالية الجديد يغئال هورفيتس . والآن يذهب ايضاً وزير الدفاع ... الذي ابدى اعتدالاً سياسياً بالمقارنة مع زملائه ... ويحتمل ان يشغل رئيس الحكومة منصبه ...» وخلصت من ذلك الى أن الاستقالة تعجل بنهاية الحكومة. اما «معاريف» (٢٩/٥/٨٠) فقد ركزت في افتتاحيتها على الضبابية التي تتسم بها تصريحات وايزمن . وطالبته باخراج آرائه من اسر الغموض والضبابية وتوضيح . الخطوات التي كان على الحكومة خطوها في الطريق الى السلام، ولم تخطها ...» . وقالت إن ما ذكره حول ضرورة الاسراع في عملية السلام . بقي غامضا كغموض الصيغة التي استخدمها في رسالة استقالته . . وخلصت الى القول : . اذا ما كان وايزمن يعتزم الاستمرار في النشاط السياسي ... وضمان مكانة تقربه من تحقيق طموحاته ، فإنه يحسن صنعاً اذا لم يكتف بابراز التناقضات الشخصية بينه وبين رئيس الحكومة . بل يعمل ايضاً على ايجاد صيغة واضحة للفوارق الجوهرية بين الطريق التي يطالب بسلوكها . وبين طريق الحكومة التي استقال منها . . اما صحيفة . هارتس . (٢٦/٥/٨٠) فقد عالجت الاستقالة مشيرة الى ان وايزمن كان يقف على راس التيار الدافع لعملية السلام مع مصر . ورأت أنه بافتقاد الحكومة له ، بعد ان فقدت موشي دايان ، أصيب هذا التيار بضربة موجعة ، واصبح التيار المناقض له السيد بدون منازع . وخلصت الى القول : ان . الحكومة بالشكل الذي تأخذه الآن تختلف ، في الجوهر ، عن تلك التي حظيت مرة بثقة الكنيست . ان السيد بيغن الذي ارتكب خطأ كبيراً في افتراضه ان السلام مع مصر يضمن لنا سيطرة دائمة في الضفة الغربية وفي غزة يعرض الآن مسار السلام للخطر . ويجب على الاحزاب وقادتها الذين لا يضربون على وتر غوش ايمونيم التساؤل كم من الوقت سيدعون التعصب الشوفيني الديني يجر الدولة نحو طريق مسدود

أما تعليق الاوساط الوطنية في المناطق المحتلة على الاستقالة ، فقد تركز ، وفق ما ذكره مراسل اذاعة اسرائيل ، على دحض . حمائمية . وايزمن الذي شكل . الستارة الاخيرة التي تغطت خلفها سياسة بيغن ... ان وايزمن كان من بين اولئك الذين بلوروا سياسة اليد الحازمة وسياسة الطرد ... اذا كان وايزمن حمامة . أليس من السخرية ان تستقيل الحمامة لانها تطالب بمزيد من تخصيص الاموال للحرب ؟ . أما رئيس بلديتي بيت لحم وغزة فقد أسفا للاستقالة لانها حسب رأي الياس فريج : . خسارة كبيرة للتفاهم اليهودي العربي . . ووفق

رأي رشاد الشوا ، تحمل بين طياتها « تأثيرات سيئة على المفاوضات مع مصر » و.إ.إ. « ٢٥/٥/٨٠) . ومن الجدير بالذكر ان بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس اتهم وايزمن اثناء تلقيه العلاج في الاردن بأنه « هددني شخصياً بالتصفية الجسدية اذا استمريت في التعاون مع رؤساء البلديات الآخرين لمواجهة مشروع الحكم الذاتي » (« النهار » ٧/٦/٨٠)

وجهات نظر المعلقين الاسرائيليين في الاستقالة :

شغلت استقالة وايزمن عدداً من المعلقين الاسرائيليين على اختلاف مشاربهم واهوائهم ، وقد عالج هؤلاء الاستقالة ، الحدث ، من زوايا مختلفة ، تقدم بمجملها صورة أوضح لاسبابها وتبعاتها على الخريطة السياسية الاسرائيلية . فقد رأى فيها حجاي ايشد (« دافار » ٢٧/٥/٨٠) ان البيت الذي بناه بيغن قد تهدم مع استقالة وايزمن من جوانبه الثلاثة ، بعد ان افتقد ثلاثة من مهندسيه الاساسيين : دايان كوزير للخارجية ، وسيمحا أرلخ كوزير للمالية ، ووايزمن كوزير للدفاع . وذكر ان الثلاثة هؤلاء كانوا متناقضين ، فوزير المالية اراد إحداث « ليبرالية » في الاقتصاد على حساب ميزانية الجيش ، الامر الذي لم يرض وزير الدفاع، ووزير الخارجية ، موشيه دايان ، وجد نفسه عقب اتفاقية كامب ديفد في تناقض مع سياسته المعتمدة على الحفاظ على « الوضع الراهن » ، اي لا حرب ولا سلم . ووصل الى القول ان صاحب البيت بيغن يقف الآن على الانقاض ، ويحتاج الى برهة زمنية لاعادة البناء الى ما بعد الانتهاء من الانتخابات الاميركية . وذكر ان الرئيس الاميركي معني بمنح هذه البرهة الزمنية ، كما وأن « الرئيس السادات ادرك بحسّه التجاري المتطور ان بوسعه جني ارباح كبيرة من هذا التأجيل : اذ بوسعه تلقي مبالغ كبيرة من الاميركيين مقابل موافقته على تأجيل التاريخ المحدد ... وبوسعه أيضاً جني ارباح اخرى : اذ سيحاول تأسيس وتحصين مكانته كحليف استراتيجي وحيد للولايات المتحدة في الشرق الاوسط » . وازاء ذلك يعتقد حجاي ان بيغن يراهن في ترميم بيته على انتصار ريغان مرشح الحزب الجمهوري ، لبدء صفحة جديدة مع الادارة الاميركية . كما ويراهن ايضاً على تفاقم الصراع الداخلي في حزب العمل بين جناحي بيرس ورابين في المؤتمر الذي سيعقده في تشرين الثاني القادم . واعتبر المعلق العسكري زئيف شيف (« هآرتس » ٢٦/٥/٨٠) ان مسألة ميزانية الدفاع لم تكن سوى ذريعة لقرار الاستقالة، واعاد سببها لكون صاحبها « تعب من الحكومة ومن زملائه الوزراء . ومن شركائه في الطريق السياسي . ويبدو لي ، من مسار السلام كما يجري » . ورجح ان يدفع واقع غياب وايزمن نحو مزيد من التطرف ، اعتقادا منه بأنه صاحب مفاهيم معتدلة.. « صحيح ان كل شيء نسبي ، ولكن اولئك الذين اشتكوا من «صقرية» وايزمن، ولا سيما تجاه المناطق، سيكتشفون ، الان ، انه قام بدور رادع لمنع مواقف اكثر تعنتاً . ومن المرجح ان يتغير وجه الحكومة مع ذهاب وايزمن ، انها تتحرك ثانية نحو اليمين ، ونحو مواقف اكثر تعنتاً » . اما فيما يتعلق بتبعات « شغل » رئيس الحكومة لوزارة الدفاع فقد تكهن شيف بانها ستحفر بصماتها في مجالات عدة ، من بينها العلاقة مع المؤسسة العسكرية والسلطات المدنية . واعرب عن اعتقاده بعلو شأن نائب وزير الدفاع مردخاي تسيبوري ورئيس هيئة الاركان رفائيل ايتان . ومن ثَمّ علو شأن المؤسسة العسكرية في اتخاذ القرارات ، وسيلحظ ذلك بشكل خاص في المناطق المحتلة « سواء بالنسبة للمستوطنات ام بالنسبة لوسائل الرد ضد اولئك العرب الذين يخلّون بالنظام ، اي ، ضد العرب، سكان المناطق : فمنذ مدة والجيش الاسرائيلي يطالب بانتهاج مواقف اشد تجاه المخلين بالنظام، والوسائل التي اتخذت هي نتيجة حل وسط ساهم فيه وايزمن بدور هام » . وبالنسبة لموضوع الحكم الذاتي ، والعلاقة مع مصر يرى شيف ان الاقتراح الداعي الى تطبيق الحكم الذاتي ، في القطاع أولاً ، قد اصيب بضربة مميتة : الامر الذي يؤثر بدوره على العلاقة مع مصر « ففي ذهابه تفقد الحكومة ، وجهاز الأمن بالذات ، افضل موفد ، كان لديها ، عند الرئيس السادات . ويكفي ان نذكر هنا ايفاده من قبل بيغن الى السادات للبحث في موضوع اسعار الوقود ... » . وفيما يتعلق بالعلاقة مع الاميركيين اكد شيف ان الاميركيين وجدوا في وايزمن افضل من شغل منصب وزارة الدفاع في تاريخ اسرائيل ، ففي عهده « كان للاميركيين باب مفتوح لم يسبق لهم ان حظوا بمثله أبداً . وليس من المستغرب اطلاقاً ان يكون وزير الدفاع الاميركي ، هارولد براون ، هو الذي بذل جهوداً لمنعه من تقديم استقالته» . اما المعلق السياسي أ . شفيتسر (« هآرتس » ٢٨/٥/٨٠) فقد اعاد الاستقالة

الى الخلاف في وجهات النظر السياسية بين الشخصيتين المركزيتين في الحكومة . وخاصة إلى اتجاه كل منهما للاستفادة من زيارة السادات للقدس . ففي الوقت الذي اعتبر فيه بيغن الحدث بمثابة « ثغرة لتحقيق افكاره بخصوص ضم جميع ارض اسرائيل الغربية الى اسرائيل بواسطة صفقة تبادلية مع مصر ، رأى وايزمن في زيارة السادات فرصة لتثبيت قيام اسرائيل في المنطقة عن طريق الاعتراف العربي . ولم يكن من المستطاع ايجاد حل وسط بين وجهتي النظر . وكان لا بد للتعايش الواهي بين رئيس حيروت وبين الرجل الثاني في الحركة ان يصل الى نهايته ».

واختلف زميله عوزي بنزيمان معه في هذا التقييم . (« هآرتس » ، ٢٨/٥/٨٠) فركز على ضبابية وغموض مواقف الوزير المستقيل ، ولاحظ ان السمة الطاغية على مواقفه اثناء وجوده في الحكومة هي غموض هذه المواقف وتناقضها « فمن ناحية ، ناضل ضد اقامة مستوطنات جديدة ، ومن ناحية اخرى ، اقترح وخطط اقامة مستوطنات مدنية في الضفة الغربية والقطاع . وفي بعض المناسبات ، طرح نفسه كمن يتحفظ على مواقف البعثة الاسرائيلية للحكم الذاتي . ولكنه في المقابل عارض وجهة النظر المصرية فيما يتعلق بالترتيبات الأمنية في يهودا والسامرة وغزة . لقد تحدث عن عدم الضرورة الامنية للمستوطنات في الضفة الغربية ، ومع ذلك فقد أشاد باهميتها على الصعيد القومي الصهيوني ».

في مقابل هذه التحليلات العامة اتسمت تحليلات الفريق العمالي بالتنبؤ بالسقوط السريع لحكومة بيغن . فقد رأى حاييم شور (« على همشمار » ، ٢٦/٥/٨٠) في الاستقالة مساً بهيبة الحكومة : اذ « لا شك » ، حسب رأيه ، بأن الحكومة آخذة بالتآكل وان « مكانتها بين صفوف الشعب وصلت الى الدرك الاسفل . واذا كان هنالك من انقذ ، بشكل ما ، مكانة الحكومة الحالية فهو عيزر وايزمن » . بينما استخلص ي . رونكين (« على همشمار » ، ٢٧/٥/٨٠) ، بعد تأكيده ان الاستقالة تعود الى التناقض بين المرونة والتعنت ، بين ركني الحكومة ، ان استقالة وايزمن « الرجل الذي احبه الكثيرون ، حتى ولو اختلفوا معه ومع تصريحاته ، تنهي مرحلة في تاريخ هذه الحكومة وتقرب نهايتها ، كما تقرب ساعة الانتخابات للكنيست الجديدة واقامة حكومة جديدة ... » . وخلافاً لزميله شكك أريه بلجي (« على همشمار » ، ٢٧/٥/٨٠) ، في أن تكون الاستقالة قد قصرت عمر الحكومة : « يتنبأون بقصر أيام الحكومة ، الا انها ، ليس لم تسقط فحسب، بل تتحول ، باستمرار ، اكثر « صقرية » ... » .

كتلخيص لما سبق يمكن القول : إن استقالة وايزمن كشفت عن حدة المنافسة بين زعيم الليكود مناحيم بيغن ، وبين عيزر وايزمن ، الرجل الثاني في الحزب الذي يسعى لوراثة زعامته . وتعيد هذه المنافسة ، من حيث خطورتها على وحدة الحزب وتبعاتها على خريطة القوى السياسية الاسرائيلية ، الى الاذهان خطورة المنافسة بين شمعون بيرس ويتسحاق رابين عشية هزيمة التجمع العمالي . ومهما يكن من أمر ، فإن وايزمن ، في حال انضمامه لحكومة بقيادة التجمع العمالي ، فيما اذا نجح التجمع في الانتخابات ، سيجد نفسه في وضع شبيه بوضع دايان في حكومة الليكود ، وسيلعب دوراً شبيهاً ، وربما يكون مصيره شبيهاً ايضاً بمصير زميله .

عبد الحفيظ محارب

٢ـ مفاوضات الحكم الذاتي والمبادرة الاوروبية

تصدرت ازمة الحكم الذاتي ، والمبادرة الاوروبية بشأن قضية الشرق الاوسط ، الوضع السياسي في اسرائيل ، خصوصاً بعد قرار الرئيس السادات تعليق المفاوضات بسبب وجهات النظر المتباعدة بين الاطراف المتفاوضة .

فمنذ سنة ونيف لم تحرز مفاوضات الحكم الذاتي اي تقدم او اي انجاز جوهري . ويمكن القول ، بحذر ، ان اهم ما ابرزته هذه المفاوضات هو نقاط الخلاف ، بين الطرفين الأساسيين ، المصري والاسرائيلي ، والتي تتلخص بالتالي :

الموقف الاسرائيلي

أ ـ يرى الاسرائيليون : أن مدينة القدس يجب ان تبقى موحدة ، وعاصمة لاسرائيل الى الابد .

ب ـ وأن من حق اسرائيل الاستيطان في جميع ما يسمى بارض اسرائيل .

ج ـ وأن مسؤولية الأمن الخارجي والداخلي من اختصاص اسرائيل .

د ـ وأن الحكم الذاتي ، يعني إعطاء صلاحيات بمستوى صلاحيات المجالس البلدية والمحلية : وتشكيل مجلس اداري مكون من ١٢ إلى ١٤ عضواً ، دون صلاحيات تشريعية . (معاريف ، ، ١٢/٥/١٩٨٠).

الموقف المصري

اما الموقف المصري فانه يطرح بالمقابل طروحات تتعارض مع طروحات الجانب الاسرائيلي ، يرى المصريون :

أ ـ أن مدينة القدس يجب ان تبقى مفتوحة للمفاوضات ، فهي جزء من الضفة الغربية ، وان اجراءات الضم التي اتخذتها اسرائيل لاغية وملغية .

ب ـ وانه من الضروري وقف الاستيطان في الضفة والقطاع ، واعتبار المستوطنات القائمة غير شرعية .

ج ـ وأن الامن الداخلي من مسؤولية الحكم الذاتي .

د ـ وأن الحكم الذاتي يجب ان يكون كاملاً ، له صلاحيات تشريعية ، غير منقوصة ، واعتبار السنوات الخمس الاولى فترة انتقالية .

هـ ـ تشكيل مجلس اداري مكون من ٨٠ إلى ١٠٠ عضواً مع صلاحيات تشريعية . (المصدر نفسه) .

وفي الجولة الاخيرة من المفاوضات التي عقدت في هرتسليا على مستوى الوفود الثلاثة ، الاسرائيلي ، والمصري والاميركي ، طرحت هذه النقاط بحدة ، وكاد موضوع الامن بالذات ان ينسف المفاوضات . « فبعد ٢٤ ساعة فقط من انتهاء هذه الجولة ، اتخذ السادات قراراً بتعليق المفاوضات ، الامر الذي خلق توقفاً دراماتيكياً في مسيرتها ، خصوصاً قبل فترة وجيزة من حلول الموعد المقرر لانتهائها في ٢٦ /٥/ ١٩٨٠ » (« معاريف » ، ١٢/٥/١٩٨٠) .

وعلى الرغم من البيان الذي صدر في اعقاب جولة المفاوضات في هرتسليا ، والذي نص « على ضرورة مواصلة المفاوضات بشكل مكثف ونشط ، وتشكيل لجنة فرعية للتفاوض حول موضوع الامن ، واحراز اتفاق قبل الموعد النهائي ، جاء قرار السادات مفاجأة غير متوقعة » (« عل همشمار » ١٢/ ٥/ ١٩٨٠) .

فقرار التعليق هذا يشبه الى حد كبير ، خطوة مصر في تعليق مفاوضات السلام ، وسحب الوفد المصري برئاسة وزير الخارجية ابراهيم كامل من القدس ، في كانون الثاني ١٩٧٨ . اما قرار التعليق الجديد ، فقد جاء ، هذه المرة ، في اليوم الذي يفترض أن تجتمع فيه الوفود الثلاثة في فندق « ميناهاوس » بالقاهرة ، الامر الذي حمل اسرائيل والولايات المتحدة على الغاء الاستعدادات لسفر الوفود الى القاهرة .

دوافع القرار مصرياً

لقرار تعليق مفاوضات الحكم الذاتي اسباب عديدة منها ما هو معلن وما هو طي الكتمان ، اما دوافع الرئيس السادات ، كما اوردتها وسائل الاعلام الاسرائيلية ، فهي :

اولاً : تذمر السادات من التقدم الضئيل ، والذي لا يكاد يكون محسوساً حتى الآن ، طوال فترة المفاوضات .

ثانياً : رغبة السادات في الرد على التصلب الذي ابدته اسرائيل ، خلال جولات المفاوضات وبخاصة على اعلان رئيس الحكومة بيغن ، الذي جاء فيه : «ان الامن الداخلي والخارجي في مناطق الحكم الذاتي يجب ان يكون بيد اسرائيل وتحت مسؤوليتها » (« معاريف » ١٢/٥/١٩٨٠) .

دوافع القرار اسرائيلياً واميركياً

من خلال المشاورات الداخلية في اسرائيل ، والاتصالات مع واشنطن ، للوقوف على الدوافع الحقيقية لقرار السادات ، بتعليق مفاوضات الحكم الذاتي ، تبين التالي :

١ ـ « تسعى مصر من وراء هذا القرار الى تجنيد ضغط على اسرائيل ، من جانب الادارة الاميركية ، بهدف تغيير موقفها في المفاوضات .

٢ ـ « كان تقدير القاهرة أنه من غير المتوقع احراز انجازات جوهرية في مفاوضات الحكم الذاتي حتى تاريخ ٢٦/٥/١٩٨٠ . لذا كان السادات مضطراً لخلق ازمة قبل هذا الموعد ، من أجل أن يبرر ، بعد ذلك ، تجديد هذه المفاوضات ، بعد هذا التاريخ ، في ظروف جديدة ومختلفة تماماً .

٣ ـ « رغبة السادات في الحؤول دون تواجد الوفد الاسرائيلي في القاهرة ، اثناء القائه خطابه ، يوم ١٤

ايار ، فهو مهتم بابعاد الوفد الاسرائيلي الذي قد يسرق منه الاضواء .

٤ ـ « رغبة السادات في اتباع طريقة المماطلة ، الى ما بعد موعد انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة . وذلك لافتراضه ، أن الرئيس الاميركي المنتخب يستطيع ممارسة ضغوط كبيرة على اسرائيل ، فترضى بتحقيق الحكم الذاتي كاملاً » . (المصدر نفسه) .

وهذه التبريرات والدوافع أوردتها مصادر اسرائيلية ، ايضاحاً للحقيقة ، وهي التالية : « انه خلال المفاوضات في هرتسليا لم يظهر ان المصريين يتعجلون استكمال المفاوضات في تاريخها المحدد » (المصدر نفسه) .

وأياً كانت الدوافع والاتجاهات ، فإنه من الصعب ان نجد اتجاهاً ، لدى السلطات المصرية ، للتملص من اطار اتفاقيتي كمب ديفيد ، والبحث عن حلول بديلة ، مثل العودة الى مؤتمر جنيف ، أو مجلس الدول الاوروبية . ومع هذا ، فإن جهات سياسية في القدس تعتقد : « انه اذا كان قد قدر للمفاوضات ان تنفجر ، فمن الافضل ان تكون مصر هي الجهة المفجرة ، والسبب في وقف المفاوضات : ومن الافضل ان تكون « نقطة التفجير » موضوع الامن ، خصوصاً انه ذو قيمة من الدرجة الاولى بالنسبة لاسرائيل » (« عل همشمار » ٢٠/٥/١٩٨٠) .

لذا ، فان التجارب ، خصوصاً من خلال مفاوضات الحكم الذاتي ، علمت الجميع ان المختلفين ، على غرار الخلاف بين اميركا ومصر واسرائيل ، ليسوا مختلفين كثيراً : اذ ان اختلافاتهم هي نتيجة طبيعية يتوقعها كل منهم : ولكن ليس من شأنها حمل أي منهم على الخروج من السياسة الاساسية .

ثبات الموقف الاسرائيلي

وعلى الرغم من الصيغ الغامضة التي كانت تصدر في اعقاب كل جولة مفاوضات ، بقي الموقف الاسرائيلي ـ منذ اول جولة في بئر السبع وحتى آخر جولة في هرتسليا ـ واضحاً وثابتاً ، تقريباً ، باستثناء بعض التكتيكات التي لا تمس جوهر الموقف .

وهذا الموقف ، اضافة الى نقاط الخلاف التي أشرنا اليها ، يتمثل ايضاً ، في ان اسرائيل تريد تطبيق حكم ذاتيّ للسكان وليس للارض ، كما تريد السيطرة على مصادر المياه ، وعلى الامن ، وترفض ان تكون للحكم الذاتي صلاحيات تشريعية ، وتتمسك بتطبيقه على النمط الذي تريده . على هذا الاساس كان وقف المفاوضات ، وتعليقها من جانب مصر ، مصدر ازعاج لاسرائيل .

أما الرأي الذي اخذ يتبلور في القدس فهو : « ليس لاسرائيل مصلحة في المماطلة بالمفاوضات ، فالعكس هو الصحيح ، ان إسرائيل معنية بأن تبحث في اسرع وقت ممكن ، إن كان ذلك ممكناً ، ردم الهوة بين الموقفين . وكلما طرحت مواضيع الخلاف بحدة ووضوح ، على مائدة المفاوضات ، أمكن لنا أن نقرر ، ما اذا كان بالامكان التوصل الى صيغة لردم الهوة وتقريب وجهات النظر ، ام ان هناك حاجة لعقد مؤتمر آخر في كمب ديفيد ، بحضور الرئيس كارتر » (« معاريف » ، ١٢/٥/١٩٨٠) . وبهذا الصدد يعتقد عدد كبير من الاسرائيليين والمصريين « أن مؤتمر كمب ديفيد ـ « ب » فقط ، قد يحول دون حدوث ازمة من شأنها أن تعصف باتفاقيتي كمب ديفيد الاولى » (المصدر نفسه) . وهنا يبقى السؤال ، هل الادارة الاميركية مؤهلة لهذا في الوقت الحاضر ، اي قبل شهور معدودة من انتخابات الرئاسة الاميركية ؟ .

وأياً كان استعداد الولايات المتحدة ، « فإن اسرائيل تشترط ، لاستئناف مفاوضات الحكم الذاتي ، تحديداً مسبقاً لاهداف هذه المفاوضات من جانب الولايات المتحدة » (ر . إ . إ ، ٥ ـ ٦/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٧٤ ، ص ١١) وهذا يعني العودة من جديد لمراجعة كل ما بحث وكل ما تم التوصل اليه بعد اكثر من سنة من بدء المفاوضات .

ردود الفعل الاسرائيلية على قرار التعليق

بعد قرار السادات بتعليق المفاوضات ، صدرت تصريحات وردود فعل اسرائيلية عديدة ، توضح موقف اسرائيل ، ليس من الحكم الذاتي فحسب ، بل من اتفاقيتي كمب ديفيد ككل . ففي مذكرة بعث بها مناحيم بيغن الى السادات ، حول قرار التعليق ، جاء : « انني احمِّل مصر مسؤولية وقف المفاوضات ، واتوقع أن تبادر الى تجديدها » (« هآرتس » ، ٢٠/٥/١٩٨٠) . وأشار بيغن الى ان المصريين قد بدلوا مواقفهم اربع مرات ، خلال ثمانية ايام ، بالنسبة لاستمرار المفاوضات . ومن ناحية أخرى « أوصى رئيس الوفد الاسرائيلي المفاوض ، دكتور بورغ ، اعضاء الحكومة بعدم الانفعال من قرار السادات ، حيث ان هذا القرار

ليس نهاية المطاف » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٥/١٢٠) . واضاف بورغ بان الادارة الاميركية ومؤسساتها المختلفة تبذل في الايام الاخيرة جهداً كبيراً للايحاء بان شيئاً ما سيحدث في هذا المجال .

وبعد مشاورات اجراها رئيس الحكومة بيغن مع وزير الخارجية شامير ووزير الداخلية بورغ ، « اكد على رغبة اسرائيل في انجاز الحكم الذاتي وتطبيقه ، وتنفيذ إتفاقيتي كمب ديفيد ، اضافة الى تمسكه بالسلام » (هآرتس » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) . الا ان بيغن عاد وتراجع عن هذا الكلام مهدداً « بان اسرائيل لن تنفذ المرحلة الاخيرة ، بالنسبة للانسحاب من سيناء ، بعد سنتين ، قبل ان يتم التوصل الى اتفاق حول اقامة قوة رقابة دولية تضمن تجريد شبه جزيرة سيناء من السلاح » (يديعوت احرونوت » ، ١٩٨٠/٦/١) . وقد خلق هذا التصريح الذي ألقاه بيغن امام لجنة الخارجية والأمن ، في الكنيست ، ازمة في العلاقات المصرية ـ الاسرائيلية ، سوّيت بعد ايضاحات قدمها السفير الاسرائيلي في مصر ، الياهو بن اليسار ، الى الرئيس السادات الذي اعتبر الموضوع منتهياً .

وكانت هناك مواقف غير رسمية صادرة عن المعارضة في اسرائيل ، حيث ابدت هذه المصادر وجهات نظر متعددة ومختلفة بالنسبة للحكم الذاتي ، وبالنسبة لمشكلة الشرق الاوسط ككل . فقد قال شمعون بيرس ، امين عام حزب العمل ، وصاحب الحظ الأوفر في تولي رئاسة الحكومة القادمة : « انه لا يؤمن باحتمال تحقيق الحكم الذاتي ، وبناء عليه يجب العودة الى الخيار الاردني من اجل الوصول الى الاتفاق ... ليست هناك ضمانة بان نصل الى اتفاق مع الاردن ، ولكن هناك احتمال كبير في ان ندخل في مفاوضات معها » (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) .

وخلال حديثه عن التسوية ، اقترح بيرس « ان تكون الضفة الغربية منطقة مجردة من السلاح ، في حالة الاتفاق مع الاردن . ومن الأفضل ان نصل الى تسوية جزئية مع الملك حسين ، وان نقدم تنازلات اقليمية له » بدلاً من ان نتركه يعمل وفقاً لشروط منظمة التحرير الفلسطينية » (المصدر نفسه) .

من جهة اخرى ، لخص موشي دايان ، وزير الخارجية السابق ، الوضع في الضفة الغربية وقطاع غزة بالمثل الاسباني القائل : « عندما تنبت الاشواك في الربيع يمكن سحقها بقدم حافية . أما اذا تركتها حتى الصيف فان قطيعاً من الفيلة لا يستطيع المرور عبرها » .

وقال : « ان استعدادنا لمنح سكان الضفة الغربية وقطاع غزة حكماً ذاتياً ، زاد من اصرارهم على المطالبة باكثر من هذا » (« يديعوت احرونوت » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) . ثم عاد دايان وطالب بفرض الحكم الذاتي من جانب واحد ، وقال : « اذا رغب سكان الضفة بادارة وتصريف شؤونهم بانفسهم ، بناء على اسس الحكم الذاتي المقترح ، فإننا نرحب بهم ، وإذا رفضوا ، ينبغي علينا تعيين ادارة ذاتية من ضباط الجيش الاسرائيلي لتدير شؤونهم: اي ينبغي علينا فرض الحكم الذاتي من جانب واحد » (المصدر نفسه) . ثم اعترض دايان على طريقة الحكومة ، في اجراء المفاوضات ، من الناحية التقنية ، وقال : « لا أعتقد ان الطريقة الحالية ، التي تسير بها الحكومة ، ستؤدي الى خلق حكم ذاتي » . وطالب دايان بتقليص اللجنة الوزارية المفاوضة واتباع طريقة كيسنجر في التفاوض . اما الحقيقة الجوهرية التي تحول دون تحقيق الحكم الذاتي ـ كما يرى دايان ـ فهي : « اننا نتفاوض مع المصريين وليس مع اصحاب الشأن ، الأردنيين والفلسطينيين ، الذين يرفضون الاشتراك : فالسادات لا يملك تفويضاً من هذه الجهات ، وإن أي اتفاق قد نصل اليه لا يمكن ان يلزم الاردنيين ولا الفلسطينيين » (يديعوت احرونوت » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) .

اما رئيس الحكومة السابق ، يتسحاق رابين ، فقد رفض انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ ، وإقامة دولة فلسطينية وذلك بسبب المخاطر الامنية ، خصوصاً أن الضفة الغربية يمكن ان تكون « خشبة قفز » لهجوم مدرع في اتجاه مراكز التجمعات السكانية الحيوية لاسرائيل : حتى ان تجريد الضفة من السلاح ، ووضعها تحت سيطرة عربية ، امر خطير جداً ، والحل الانسب هو : « حكم ذاتي له صلاحيات اوسع على رقعة صغيرة ، على اساس مشروع آلون ، أي نظام وصاية اسرائيلي ـ اردني على الضفة الغربية لفترة خمس سنوات ، على اساس اتفاقيتي كمب ديفيد » (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) .

ويبدو ان حزب العمل الذي يستعد لاستعادة السلطة في اسرائيل لا يدخر جهداً في سبيل افشال الحكم الذاتي ، بالطريقة التي تعتمدها الحكومة

الحالية . فقد قال البروفسور رعنان فايتس (من حزب العمل والذي يشغل رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية) : « ان السياسة التي تتجاهل المشكلة الفلسطينية : مثل سياسة الحكم الذاتي والاستيطان . هي التي ستؤدي بالذات الى قيام دولة فلسطينية . في ظل اسوأ ظروف تمر على إسرائيل » . وأضاف : « انا مع حق تقرير المصير للفلسطينيين . وكلما اسرعنا في فهم هذا الموضوع . أمكننا ان نبلور سياسة تقود الى اتفاق سلام » (على همشمار » . ٢٠/٥/١٩٨٠) .

من ناحية اخرى دعا بيرس الى القيام بمبادرة جديدة ذات ثلاثة جوانب :

١ ـ تنفيذ الحكم الذاتي في قطاع غزة .

٢ ـ دعوة الملك حسين للتفاوض بشأن مستقبل الضفة الغربية .

٣ ـ تحقيق الاستيطان في الضفة من اجل الامن والسلام .

وقال بيرس : « ان تنفيذ سياسة كهذه يمكن ان تعيد المبادرة الى اسرائيل . وان تثير اصداء طيبة لدى الدول العربية الاخرى . خصوصاً الاردن والسعودية . وان رفض الملك حسين اجراء مفاوضات مع اسرائيل . ليس هو نهاية المطاف . فالملك سيرد بالايجاب على دعوة جديدة . لانه يسير في اتجاه اقامة ائتلاف فلسطيني يؤدي الى تقرير المصير في اطار اردني ـ فلسطيني » (دافار » . ٥/٥/١٩٨٠) .

الاتصالات مع الاردن

في مجال مفاوضات الحكم الذاتي . كشف مناحيم بيغن . في مقابلة صحفية نشرت في الولايات المتحدة : « ان الحكومة الاسرائيلية اجرت محادثات مع الملك حسين . بشأن التسوية في الضفة الغربية . وان هذه المحادثات والاتصالات لم تسفر عن اي اتفاق » . واضاف : « ان هذه الاتصالات بدأتها حكومة « المعراخ » واستأنفها وزير الخارجية موشي دايان في حكومة الليكود » (« و . إ . إ . » ، ٤ ، ٥/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٧٣ ص ١٦) . وكانت اسرائيل قد عرضت على الملك حسين في هذه الاتصالات السرية . « مواصلة سيطرتها على القدس . والاحتفاظ بقوات اسرائيلية في نقاط استراتيجية في الضفة . مقابل سيطرة الاردن على بعض المناطق . بما في ذلك غور الاردن وحرية الوصول الى ميناء حيفا » (المصدر نفسه) . وقد رفض الاردن هذا العرض مطالباً بالسيطرة الكاملة على الضفة الغربية والقدس الشرقية . واضاف بيغن : « ان هذه الاتصالات اوقفت . عندما تبين ان الملك حسين غير مستعد لأي حل وسط » (المصدر نفسه) .

من جهة اخرى ، وجه بيرس ورابين نقداً شديداً لرئيس الحكومة . بسبب كشفه عن هذه الاتصالات . الامر الذي قد يحول دون قيام حكام عرب آخرين باجراء اتصالات مشابهة . وقال بيرس : « ان للمفاوضات مع الملك حسين . بشأن تسوية اقليمية . اساساً اكثر صلابة من المفاوضات مع العرب الاخرين . حول مشروع الحكم الذاتي . أو أية تسوية اخرى » (« و . إ . إ . » ، ٥ ، ٦/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٧٤ ص ١٢) اما رئيس الحكومة مناحيم بيغن فقد تحدث عن اتصالاته ولقاءاته بالملك حسين قائلاً : « انها لم تكن اكثر من سر مكشوف . وان حسين رفض في جميع المناسبات الاقتراح المعروف « بالتسوية الاقليمية » . وان مكان هذه التسوية كان احد الكواب السيارة وليس الارض » !

موقف مصر والولايات المتحدة من الحكم الذاتي

لقد سبق واشرنا في فقرة سابقة من هذا التقرير الى ان الخلاف بين ثالوث كمب ديفيد ليس كبيراً . فهو نتيجة طبيعية يتوقعها كل منهم . وليس من شأنها حمل اي منهم على الخروج من السياسة الاساسية . فقد افادت مصادر مصرية في القاهرة « بأن مصر مستعدة لتجديد المفاوضات . والاستمرار فيها حتى نيسان ١٩٨١ . شريطة ان تحصل على ضمانات من الولايات المتحدة . بشأن سياسة اسرائيلية تجاه القدس والمستوطنات » (« هآرتس » ، ٢٨/٥/١٩٨٠) .

اضافة الى كل هذا . ذكرت « هآرتس » (١ ـ ٦ ـ ١٩٨٠) « ان الرئيس السادات ينتظر مبادرة اميركية لتجديد المفاوضات . حول الحكم الذاتي . ويشاركه في هذا الانتظار . رئيس تحرير مجلة « اكتوبر » انيس منصور . الذي توقع تجدد المفاوضات في الايام القليلة المقبلة .

من جهة اخرى علق السكرتير الاول في السفارة المصرية . في اسرائيل . على قرار السادات . بتعليق المفاوضات قائلاً : « هذا تراجع مؤقت فقط . ولا اعتبر هذا القرار فشلاً لمسيرة السلام . كما ان قرار الحكومة الاسرائيلية الاخير بشأن القدس . لم يكن السبب الوحيد المباشر في تعليق المفاوضات . فقد سبقت هذا القرار سلسلة طويلة من التصريحات

والاحداث والتطورات ، في اسرائيل ، لم تساعد في خلق جو مريح لاستمرارها ، وان القرار الخاص بالقدس كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير » (« دافار » ، ١٩٨٠/٥/٢٢)

وبرزت المصلحة الاميركية والاسرائيلية ، بشكل واضح ، في تجدد واستمرار مفاوضات الحكم الذاتي ، لكونها تشكل الغطاء الذي يخفي ، عن انظار العالم والدول العربية ، اخطار هذه السياسة وعيوبها : كما ان هذه المصلحة ازدادت بعد نية الدول الاوروبية تقديم مبادرة خاصة بها ، من شأنها تقويض اتفاقيتي كمب ديفيد ، ولهذا السبب « تشترط الولايات المتحدة لتجديد المفاوضات ، تعهد اسرائيل بعدم تغيير الوضع الحالي لمدينة القدس ، فإن وافقت اسرائيل على هذه الصيغة الاميركية ، فإن المفاوضات قد تتجدد خلال اسبوع » (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٦/١) . ومن اجل الخروج من هذه الازمة ، وتبرير تجديد المفاوضات ذكرت شبكة التلفزيون الاميركية ، (ان - بي - سي) ، نقلاً عن كبار الموظفين في الادارة الاميركية ، قولهم « انه من غير الممكن انهاء مفاوضات الحكم الذاتي قبل الخريف القادم ، اي بتأخير اربعة شهور على اقل تعديل ، بعد الموعد المحدد لها » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٥/١٢) .

بعد ذلك اقترح السفير الاميركي ، في اسرائيل ، على الدكتور بورغ ، رئيس الوفد الاسرائيلي المفاوض ، استئناف المفاوضات في واشنطن على مستوى رؤساء الوفود دون طرح شروط مسبقة . لكن اسرائيل ابدت استعدادها الدائم لتجديد المفاوضات شريطة ان يتم تحديد المسائل التي سيتطرق الحديث اليها قبل بدء المفاوضات (« و . إ . إ . » ، ١٩٨٠/٦/٥ ، ٢٠٧٤ ، ص ١١) .

ففي مذكرة بعث بها الرئيس كارتر الى رئيس الحكومة مناحم بيغن ، محاولاً التلويح بمبادرات بديلة لاتفاقيتي كمب ديفيد ، - الامر الذي ترفضه اسرائيل - قال : « اذا لم تقم اطراف مفاوضات الحكم الذاتي ببذل جهد لتذليل الصعاب ، فان المبادرة السياسية في المنطقة قد تنتقل الى الامم المتحدة والى الدول الاوروبية ... فالسادات لا يطرح شروطاً جديدة ، بل يطالب بتحسين الجو العام والثقة المتبادلة » (« دافار » ، ١٩٨٠/٥/١٩) .

وبعد اتصالات ومشاورات جرت بين اطراف كمب ديفيد ، اعلن البيت الابيض ، ان مصر واسرائيل وافقتا على ايفاد مسؤولين كبار الى واشنطن ، من اجل الاعداد لاستئناف محادثات الحكم الذاتي ، وان موعد اجتماع هؤلاء المندوبين مع السفير سول لينوفيتس سيعلن في المستقبل القريب ، وسيمثل اسرائيل يوسف بورغ ، ومصر كمال حسن علي . (« و . إ . إ . » ، ١١ ، ١٩٨٠/٦/١٢ ، ٢٠٧٩ ، ص ٧) .

المبادرة الاوروبية

على ضوء فشل مفاوضات الحكم الذاتي - على الاقل حتى الآن - وعدم ايجاد حل عادل يرضي الفلسطينيين اقدمت الدول الاوروبية ، المتمثلة بالسوق الاوروبية المشتركة ، على طرح مشاريع وافكار لدفع قضية الشرق الاوسط نحو الحل الذي يضمن لاوروبا مصالحها في هذه المنطقة ، وخصوصاً مصالحها النفطية .

فقد طلب وزراء خارجية كل من فرنسا والمانيا الغربية وبريطانيا من وزير الخارجية الاميركية ماسكي « فرض ضغوط على اسرائيل ، بهدف دفع مفاوضات الحكم الذاتي الى الامام ، وهددوا بأنه اذا لم يحدث تقدم ، فإن هذه الدول ستقدم ، قريباً ، اقتراحاً لتغيير قرار مجلس الامن (٢٤٢) ، بصيغة مقبولة لدى العرب » (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٥/٢٠) . حيال هذا الموقف اعلن الرئيس الاميركي انه قلق من التدخل الاوروبي في مفاوضات الحكم الذاتي ، وانه سيستعمل حق الفيتو في الامم المتحدة ، بهدف الحؤول دون الاخلال بمسيرة كمب ديفيد ، حتى لو غضب الاوروبيون ، « فإننا لن نسمح بأي نشاط في الامم المتحدة من شأنه الاخلال بالصيغة الحالية للقرار ٢٤٢ » (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٦/١) . وفي هذا الصدد أشار بورغ ، رئيس الوفد الاسرائيلي المفاوض ، إلى المبادرة الاوروبية بقوله : « انها احد الاخطار التي تهددنا في حالة انهيار مفاوضات الحكم الذاتي ... وعلى ضوء هذه المبادرة الاوروبية فمن الحكمة الاستمرار في طريق المفاوضات مع مصر والولايات المتحدة » (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٥/٣٠) .

ولم تكن اسرائيل المتخوف الوحيد ، من المبادرة الاوروبية ، فقد رفضتها مصر ، واشترطت ان تكون مكملة لاتفاقيتي كمب ديفيد ؛ فقد اعلن وزير الخارجية المصرية بطرس غالي : « ان مبادرة اوروبية تتعارض واتفاقيتي كمب ديفيد ، يمكن ان تشكل خطراً على مسيرة التقارب بين مصر والدول العربية

المعتدلة » ، واضاف » بإن هذه المبادرة يمكن ان تزيد من الخلاف بين اميركا واوروبا ، لذا فإن الوقت غير مناسب لادخال تغييرات على القرار ٢٤٢ » . وأنحى باللائمة على اسرائيل لانها لم تنجح في خلق الجو المناسب لاشراك الفلسطينيين في المفاوضات (« هآرتس » ، ١/٦/١٩٨٠) .

من جهة اخرى ، تقوم عواصم دول السوق الاوروبية المشتركة باجراء مشاورات مع واشنطن حول مبادرتها لحل قضية الشرق الاوسط ، « هذه المشاورات تستمد ضرورتها من كون بعض السياسيين الاميركيين ، اشاروا الى احتمال استعمال حق الفيتو ضد اي مشروع اوروبي من شأنه تغيير القرار ٢٤٢ ، او الحلول مكان مبادرة السلام بين مصر واسرائيل » . (« هآرتس » ، ٢٠/٥/١٩٨٠) . غير ان بعض الاوسط تعتقد ، بان دول السوق تدرس الآن ، امكانية بلورة مبادرة بهذا الشأن ، رغم معارضة الولايات المتحدة والرئيس كارتر . فقد قال بعض المراقبين السياسيين عن تحذير كارتر للدول الاوروبية : « اننا نشك في جدوى هذا التحذير » (« هآرتس » ، ٢/٦/١٩٨٠) . ونوه المراقبون بموقف معظم الدول الاوروبية من الولايات المتحدة ، حين دعت الى مقاطعة دورة الالعاب الاولمبية في موسكو .

وترافقت الجهود الاميركية والاسرائيلية لمنع مثل هذه المبادرة ، من جانب الدول الاوروبية ، فقد دعا رئيس الحكومة مناحيم بيغن الدول الاوروبية وبرلماناتها وشعوبها ، الى « العمل للحيلولة ، دون اعتراف الدول الاوروبية بمنظمة التحرير الفلسطينية ، كشريك في المفاوضات ، وبحق العرب في [الضفة الغربية] وقطاع غزة ، في تقرير المصير ، الذي يعني اقامة دولة فلسطينية تشكل خطراً على وجود اسرائيل » (« هآرتس » ، ٢/٦/١٩٨٠) .

واضاف بيغن : « ليس من حق الدول الاوروبية الاعتراف بالمنظمة ، وبالتحديد ، ليس من حق المانيا التي قتلت ستة ملايين يهودي ، ان تقول لنا ، اعترفوا بمنظمة التحرير الفلسطينية التي تسعى لتدمير اسرائيل » (المصدر نفسه) ومن جهته ، اعرب وزير الدفاع السابق ، عيزر وايزمن ، عن معارضته للمبادرة الاوروبية ، فهو يعتقد « ان باستطاعة اسرائيل ومصر ، التوصل الى اتفاق ، بواسطة المفاوضات المباشرة ، وعندها لن تكون هناك حاجة للمبادرة » (« ر . إ . إ » ، ١٠ ، ٢/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٧٠ ص ١١) .

وكانت اسرائيل قد اوفدت وزير خارجيتها اسحاق شامير للقيام بجولة في عواصم بعض الدول الاوروبية لاقناعها بالعدول عن هذه المبادرة . وفي ختام هذه الجولة قال شامير : « هناك خلافات في الرأي ، وسوء تفاهم ؛ ويجب مواصلة الحوار والاقناع ، وقد حظينا بالتأييد ، بشكل او بآخر » . (« ر . إ . إ » ، ٩ ، ١٠/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٧٧ ، ص ٨) .

موقف بعض الدول الاوروبية

قبل انعقاد المؤتمر ، أعلنت بعض الدول الاوروبية مواقفها من المبادرة واحتمالات ادخال تعديل على القرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الامن . فقد قال وزير خارجية هولندا : « أشك ، من حيث التوقيت ، والواقع العملي ، في جدوى خطوة اوروبية لتغيير قرار مجلس الامن ٢٤٢ » (هآرتس ، ٢/٦/١٩٨٠) .

اما موقف الدانمارك من تغيير القرار ، فقد عبر عنه وزير خارجيتها ، كيالد اولسون بقوله : « لقد بحثنا هذا الموضوع في الاسبوع الماضي في مؤتمر القمة للسوق في لكسمبورغ ، وقررنا ان يقدم وزراء خارجية السوق اقتراحاً بهذا الشأن في مؤتمر البندقية ، وبالضرورة يمكن ايجاد ربط بين القرار ٢٤٢ ومطالب دول السوق » (معاريف ، ١٢/د/١٩٨٠) .

واضاف وزير الخارجية ، إن بلاده لن تتدخل في قضية من يمثل الفلسطينيين ، إذ أنه من الصعب الآن ايجاد تنظيم يمكنه ان يمثل الفلسطينيين مثل م . ت . ف ، وليست هناك جدوى من استمرار البحث في ماضي هذه المنظمة (المصدر نفسه) .

اما الموقف الفرنسي فقد تجسد في سعي الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان للحصول على مساعدة البابا لتوجيه نداء يدعو الى رفض القانون الذي اقره الكنيست بالقراءة الاولى حول وضع القدس (« هآرتس » ، ١/٦/١٩٨٠) . وذلك تمهيداً لاتخاذ قرارات تتجاوز اتفاقيتي كمب ديفيد في مؤتمر البندقية . ففي اليوم الاول لمؤتمر البندقية « تسربت شائعات تتحدث عن ضغط فرنسي للاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للفلسطينيين ، بل ان فرنسا اعلنت انها تنوي الاعتراف بالمنظمة ، دون موافقة بقية الدول » (« ر . إ . إ » ، ١٢ ، ١٢/٦/١٩٨٠ ، ٢٠٨٠ ، ص ٣) .

ثم صدر عن القمة بيان ختامي اثار ردود فعل واسعة في اسرائيل سنتناولها في العدد القادم .

مكرم يونس

Palestine Affairs

No. 104, July 1980

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

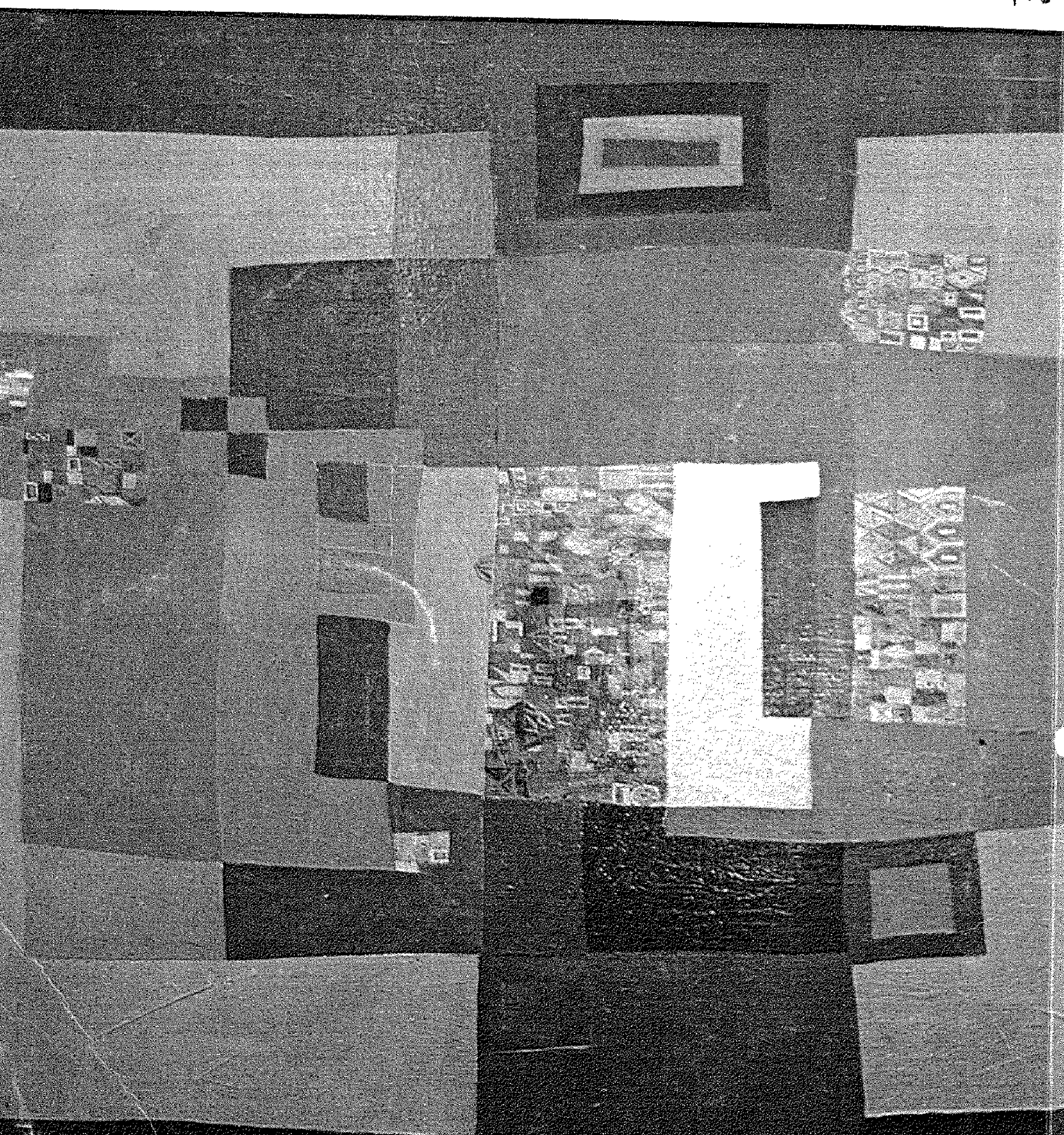
Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

الثـمـن :
٥ ل.ل. في لبـنان
٦ ل.س. في سوريـا
٦٥٠ فلسًا في الكويت والعِراق
١٠ دراهِم في دولة الإمارات العربيّة
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربيّة
٧٥٠ درهمًا في ج.ع.ل
٧٥٠ درهمًا في المغـرب

شؤون فلسطينية

آب (اغسطس) ١٩٨٠

١٠٥



شؤون فلسطينية

١٠٥ — آب (اغسطس) ١٩٨٠

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

المحتويات

لوحة الغلاف من اختيار الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين ، للفنانة ليلى الشوا

المدير العام : صبري جريس * رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : فيصل حوراني

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) رأس بيروت ـ لبنان ، ص . ب . ١٦٩١ ، تلفون التحرير والتوزيع : ٢٥١٢٦٠ ، برقيا : مرابحاث ، بيروت .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل . ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل . ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل . ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل . ل . في جميع الدول غير العربية .

زياد عبد الفتاح

الديمقراطية.. والخوف من الديمقراطية

مطلوب أن يكتب الكثيرون عن مؤتمر فتح الرابع الذي انعقد اواخر الشهر قبل الماضي ؛ فالمؤتمر فيه الكثير من الزخم والعديد من الدروس ، وفيه قراءات جديدة للواقع الفلسطيني والعربي والدولي ، ثم فيه ، ما هو أخطر من هذا وذاك ، إذ انه يمثل قفزة نوعية على طريق تكريس الديمقراطية التي اصبح الحديث عنها ، في الوطن العربي ، يدور ويتم همساً أو في غرف مغلقة ، كما أن المطالبة بها اصبحت محفوفة بالمخاطر ، وهي ، كما لا يخفى ، ضرورة ملحة في كل حال .

لذا لا بدّ ان تتعدد الرؤى وان تتوالى التحليلات والمناقشات والطروحات حول ما تمخّض عنه ذلك المؤتمر العتيد ، بغية ابراز الدروس المستفادة ، كي يفيد منها من يفيد ، في زمن وصل فيه العديد من الاحزاب والقوى السياسية العربية الى مآزقها ، وذلك حين انكفأت على تملق الفرد ، ومارست شللها القيادية الارهاب الفكري على القاعدة ، وعاث انتهازيوها فساداً في كافة مراتبها التنظيمية فدعوا ومارسوا وضغطوا من اجل تقديس الفرد ، وطرح كل ما يتعلق بالقيادة الجماعية جانباً ، وشنوا على الديمقراطية حرباً لا هوادة فيها ، قادت مع معطيات أخرى الى الهزائم المتتالية .

ولا اعتقد انني مقدم ، بقدر أو بآخر ، على الاستعانة بالنظرية ، لتحليل هذه الاحزاب والحركات والقوى السياسية العربية ،ورصد الظواهر التي لازمتها ، والامراض التي افرزتها . فذلك ، ليس هدف هذا المقال الذي نريد له ان يقتصر على معالجة قضية الديمقراطية داخل مؤتمر حركة فتح ؛ فالديمقراطية هي مطلبنا الأول ، اذ هي مطلب الانسان العربي الاكثر الحاحاً ، وحاجته اليها ، توازي حاجته الى خبزه اليومي ، فبدون الديمقراطية لن تكون كرامة ، ولن يتحقق ، مهما طال المدى ، أي نصر .

هل الديمقراطية في صلب حركة فتح ، وهل كانت ممارستها في مؤتمر الحركة الأخير ، افرازاً طبيعياً لهذه الحركة الوطنية الواسعة التي تضم كل من كان هدفه تحرير فلسطين وتحرير الانسان العربي ؟

لا أظن أن الاجابة عن هذا السؤال ، بوضوح ودقة ، أمر سهل دون الخوض في تحليلات ودقائق وتفاصيل يضيق المجال ، هنا ، عن ذكرها : لكنني استطيع القول ان الديمقراطية قد تكرست داخل مؤتمر فتح ، وانه من المتوقع ان تتكرس ايضاً في واقع الحركة بفضل تنامي الوعي السياسي ، على الصعيد القاعدي في الحركة ، والذي « حبلت » به تسع سنوات فصلت ما بين مؤتمر ومؤتمر ، فكان هذا التنامي ، على صعيد المقاتل الرابض خلف بندقيته في اقصى الجنوب ، وكل المناطق الأخرى ، وعلى الصعيد العضو في التنظيم مفاجأة غير محسوبة وغير متوقعة

من هنا ، يمكن القول ، ولا تثريب في ذلك ، إن البعض لم يرق له هذا التنامي في الوعي الذي أدى الى ممارسة شاملة وواعية للديمقراطية ، مع ما تستتبعه هذه الممارسة من حرية للنقد تقود الى ردع المخالفات التنظيمية ومنع التجاوزات والقضاء على النفاق والانتهازية .

لن نناقش هذا البعض ، طويلاً وإنما سوف نعطي وقتاً أطول لأولئك الذين وقع في روعهم ، بوعي أو بغير وعي ، ان ممارسة الديمقراطية سوف تؤدي الى تعريض الوحدة الوطنية للخطر ، وان حرية القول والنقد تقود الى فرز للتيارات والاتجاهات المتعددة ، الامر الذي يؤدي ، غالباً ، الى شق الحركة الواحدة .

ولقد رفع هؤلاء ، خصوصاً من وعي الامر منهم ، سيف الخوف على الوحدة الوطنية في مواجهة شعلة الديمقراطية . ووصل الامر ببعضهم الى حد نعي الحركة والتبشير بنهايتها ، الأمر الذي انعكس قلقاً كاد يؤثر ، بشكل او بآخر ، على ذلك الجو الصحي الديمقراطي الذي ساد اعمال المؤتمر منذ البداية : وكاد يؤدي بالتالي الى تعطيل الممارسة الديمقراطية ، لولا تسلح القاعدة بذلك الوعي المتنامي الذي تحدثنا عنه ، والذي عبّر عن نفسه بشكل رائع طوال المناقشات التي دارت اثناء أيام المؤتمر العشرة .

هل انعكست خلجات الخوف السائد ، أو بتعبير أدق التخويف السائد من الديمقراطية في الوطن العربي ، بحيث ان الكثير من المخلصين خالجهم ذلك الخوف ، لوقت ما ، من الممارسة الديمقراطية . واعتقدوا بما روجه اعداء « الديمقراطية للجماهير » ، من ان الديمقراطية تؤدي الى تقسيم الصفوف والى اضعاف الوحدة الوطنية ؟

انه تساؤل مشروع ، وهو تساؤل في موقعه ايضاً : فنحن نعيش هذا الواقع العربي ، ونحمل بعض أمراضه ؛ فالارهاب الفكري الذي يسود فيه ينعكس ، في جزء منه ، على واقعنا ايضاً . وانه ، في احسن الاحوال ، يمكن القول ان التخويف السائد نقل الينا القليل او الكثير من الخوف ، الذي يمكن للبعض ان يقع في كمينه ، وفي الوقت نفسه يمكن للبعض الآخر أن يستثمره ، ويلوح به ، ليحقق ، من خلاله ، اهدافاً يسعى الى تحقيقها .

ولذلك يمكن القول ان بداية المؤتمر كانت ارتباكاً ، أو تعثراً لم يطل ، حيث ان الاغلبية الساحقة فيه حسمت امرها ، واختارت الممارسة الديمقراطية طريقاً لها ، فسقط التخويف ، وتراجع الخوف ، ومضت الامور الى نهايتها ، لتجعل من المؤتمر مفخرة واعتزازاً خاصاً يقدمه الشعب الفلسطيني لهذه المنطقة من العالم التي تسود فيها العديد من الديكتاتوريات ، ويتحكم

فـــي بعض أقطارها ، مزاج الحاكم الفرد ، محور كل شيء .

وإن كان لا بدّ من قراءة للنتائج ، حيث لا بدّ من تقييم الممارسة الديمقراطية التي نتحدث عنها ، فاننا نشير ، تحديداً ، الى النقاط التالية :

١ ـ امكن ، دون شك ، ومن خلال الجو الديمقراطي الذي ساد اعمال مؤتمر حركة فتح صيانة وحدة الحركة وتعزيز وتمتين أواصرها . الأمر الذي يدفع الى الاستنتاج ، دونما تردد ، بأن طريق الوحدة الوطنية انما يمر عبر الديمقراطية وعبر الحوار الديمقراطي ، وبدون ذلك فليس ثمة وحدة .

٢ ـ اسقط المؤتمر الادعاءات والذرائع التي لوح بها اعداء الديمقراطية في الوطن العربي ، طويلاً وكثيراً . والتي تمركز مضمونها في زعم واحد مفاده أن الديمقراطية تقسم الشعب وتمزقه شيعاً واحزاباً وتيارات .

ولم يسقط المؤتمر هذا الزعم فحسب وإنما أثبت صحة العكس ؛ إذ بالديمقراطية تجمع التيارات والاتجاهات ، ومن خلالها يتعايش الكل في واحد ، وتمضي المسيرة الى غايتها. فالديكتاتورية وحدها تقسم وتفرق ، وفي ظلها يتربى المنافقون ، وعلى هامشها يتعيَّش الانتهازيون ويرتزق المرتزقون ، وتحتدم الصراعات الفكرية والسياسية ، وتترعرع النزعات الاقليمية والقبلية .

٣ ـ استطاع المؤتمر ، بالممارسة الديمقراطية ايضاً ، ان يخرج متفقاً على برنامج سياسي وتنظيمي متقدم . مثّل القاسم المشترك لطموحات ووعي الاغلبية الساحقة ؛ ومن نافل القول أنه بدون الممارسة الديمقراطية ما كان لمثل هذين البرنامجين ، تحديداً ، والبرامج الأخرى ، عموماً ، ان تخرج الى دائرة الضوء .

وكي نخرج من العموميات الى قليل من التفصيل نقول : إن البرامج التي تحققت من خلال الحوار الديمقراطي ، خصوصاً البرنامج السياسي ، قد اربكت الخطط الاميركية التي وضعت على اساس النصائح والاوهام التي قدمها اعوان الولايات المتحدة الاميركية في المنطقة ؛ للادارة الاميركية ، والتي اشارت كلها الى أن تدجين الثورة الفلسطينية يسير في طريقه المرسوم ، وأن ليس عليهم إلا الانتظار ليقطفوا الثمار . ولقد أجاب مؤتمر فتح على هذا فبدد الأوهام التي وقعت في أذهان حكام واشنطن ، وكانت مفاجأة لهم لم يتمالكوا انفسهم أمامها ، فخرجت التصريحات وردود الفعل الاميركية ، بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من انتهاء اعمال المؤتمر ، لتعبر عن خيبة الأمل والغضب ، وأشياء أخرى نقرأها بين السطور وخلفها .

٤ ـ ألقـت الديمقراطية على المؤتمرين مسؤولية كاملة تجاه كل الامور والقضايا والقرارات والبرامج التي جرى الاتفاق عليها . ويمكن تسمية هذه المسؤولية بالمسؤولية التضامنية ، التي يكون فيها الفرد مسؤولا عن الكل ، والكل مسؤولا عن الكل . ولم يكن الوصول الى مثل هذه المسؤولية التضامنية ممكناً في غياب الممارسة الديمقراطية ، فبدونها يلقي الواحد بمسؤوليته على الآخر ، والآخر على الآخرين ، وتصبح حماية المقررات والبرامج مسؤولية اختيارية . وهذا ما قصدناه ، قبل قليل ، بقولنا : ان الديكتاتورية او التفرد في

المسؤولية ، تؤديان ، بالتأكيد ، الى تصدع الوحدة الوطنية ، والى احتدام الصراعات الفكرية والسياسية وغيرها .

٥ ـ ان هذه التجربة الديمقراطية الرائدة ، التي كشفت حركة فتح عن ممارستها لها ، ضمن أرقى الأشكال والقوانين ، كان لها أكثر من وقع : فهي ، على صعيد أنظمة الحكم الفردية المتسلطة ، تثير السخط والكراهية والحقد ، وقد تثير ما هو أكثر من ذلك ، المحاربة العلنية أو السرية من قبل مثل هذه الأنظمة . ان الذين يسجنون مواطنيهم في الغرف السرية المظلمة وفي الأقبية الرطبة ، ولا يسمحون بفتح نوافذ سجونهم على الهواء الطلق والشمس والخضرة اليانعة ، على الحرية . هؤلاء يعتبرون « روضة » الديمقراطية عدوى خبيثة ، يدفعون كل ما يملكون لاستئصال شأفتها ، وترتعد فرائضهم خيفة شيوعها في أقطارهم .

وهي على صعيد الجماهير المحرومة من شمس الحرية تثير الرعاية والاعجاب : فالشعوب المضطهدة المقهورة المغلوبة على أمرها تدرك اهميتها وضرورتها ، وليس من شك في ان اعجاب الجماهير ورعايتها ، أهم كثيراً من غضب الانظمة ، ذلك ان الجماهير هي مصدر قوة الثورة دائماً ، وهي محركها ووقود لهيبها . إضافة الى أن طموح الثورة الفلسطينية ، يتلخص اساساً في احداث التغيير الذي يقود ، دون شك ، الى تعزيز المسيرة ، والى امتداد الثورة في العمق العربي . الأمر الذي يقرب مسافة النصر ومسافة التحرر والتحرير .

بقيت نقطة أود الاشارة اليها قبل ان اختتم مقالي عن الديمقراطية .. والخوف من الديمقراطية . ففي بداية هذا المقال طالبت بأن يكتب الكثيرون عن المؤتمر العام الرابع لحركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح ، لعلمي واعتقادي بأن في هذا المؤتمر من الزخم والدروس ما يلفت الانتباه ويستحق عناء البحث والدراسة والتحليل .

والآن وبعد ان حاولت التطرق الى مسألة من اهم المسائل وأخطرها في وطننا العربي ، ألا وهي مسألة الديمقراطية .. والخوف منها . فانني أدعو بالحاح أكبر الى الكتابة . لكن ليس من منطلق التحيز الاعمى والعداء البغيض .

وقولي عائد إلى انني قرأت « فُتاتاً » كتب عن مؤتمر فتح ، هنا وهناك ، أرى انه ينطلق من الاحقاد اكثر مما ينطلق من محاولة المعالجة العلمية . ففيه تشويه متعمد احياناً ، وفيه معلومات مضللة احياناً أخرى .

لا اريد الاطالة ، ولا المزيد من التعنيف وانما اقول إن مؤتمر فتح مفخرة فلسطينية تستحق ان نتناولها بالبحث ، بكل ما تعنيه هذه الكلمة : خصوصاً في هذا الزمن العربي الغارق في القمع والارهاب الفكري والجسدي ، تمارسه الديكتاتوريات على أوسع الجماهير .

وليس من مصلحة أحد ، سوى أولئك الذين هم على غير اتفاق مع الديمقراطية ، النيل من هذه المفخرة .

عـزمي عوّاد

دلالات الانتفاضة الجماهيرية في الأرض المحتلة

شمولية الانتفاضة

الانتفاضة الجماهيرية الأخيرة في الأرض الفلسطينية المحتلة لها دلالات هامة . فقد امتدت عدة شهور ، وتميزت بسعة المشاركة الجماهيرية فيها ، وشمولها كل الأرض المحتلة ، وانتشار ظاهرة العنف في المقاومة الجماهيرية للاحتلال ، وبروز أمثلة من البسالة والبطولة أفقدت المحتلين أعصابهم ودفعت بهم الى استخدام أساليب ارهابية جديدة غاية في الوحشية ، لم تقتصر على أساليبهم القمعية المألوفة مثل نسف البيوت وابعاد القادة الوطنيين وزج المئات في السجون وفرض منع التجول والحصار الاقتصادي ومجابهة المظاهرات برصاص الرشاشات ، بل وصلت الى حد محاولة اغتيال القادة الوطنيين كما جرى بالنسبة للمناضلين بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ، وكريم خلف رئيس بلدية رام الله ، وغيرهما من رؤساء البلديات والشخصيات الوطنية .

وتتأكد تلك الدلالات عندما نلقي نظرة على سلسلة الانتفاضات الجماهيرية السابقة التي تفجرت منذ حرب تشرين ١٩٧٣ ، ولم تتمكن من ايقافها كل الوسائل القمعية التي لجأ اليها المحتلون الصهاينة ، ومن أبرزها الانتفاضة التي أعقبت مؤتمر القمة العربي في الجزائر في تشرين الثاني ١٩٧٣ ، الذي اعترف بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، والانتفاضة التي جرت بعد مؤتمر الرباط الذي أقر بالاجماع حق الشعب الفلسطيني في اقامة دولته المستقلة على الأرض الفلسطينية التي تتحرر من الاحتلال ، وموافقة الجمعية العامة للأمم المتحدة ، في دورتها التي انعقدت في تشرين الثاني ١٩٧٤ ، على قبولها كعضو مراقب في الامم المتحدة ، واصدار القرار رقم ٣٢٣٦ الذي يؤكد حق الشعب الفلسطيني في تقرير المصير والاستقلال الوطني ، والانتفاضة التي اندلعت في ربيع ١٩٧٦ على أبواب انتخابات المجالس البلدية ضد مشروع الادارة المدنية الذي كان يعمل المحتلون لتمريره من خلال تلك الانتخابات . وفي غمرة تلك الانتفاضة أحرزت القوائم الوطنية ، التي شكلتها الجبهة الوطنية ، نجاحا كاسحا : لأنها كانت تتبنى برنامج رفض مشروعي الادارة المدنية والمملكة المتحدة وسواهما من المشاريع التصفوية للقضية الفلسطينية ، وكل أشكال القيادة البديلة ، وتتمسك بهدف الدولة الفلسطينية المستقلة والالتفاف حول منظمة التحرير كممثل شرعي

وحيد للشعب الفلسطيني وقائد لنضاله الوطني ، وأضحت المجالس البلدية الجديدة ، في أغلبيتها ، مواقع هامة للنضال الوطني ، تقوم بدور نشيط في تعبئة الجماهير ضد الاحتلال ومخططاته الاستيطانية وضد مؤامرة كمب ديفيد ومشروع الحكم الذاتي .

ودلالة ذلك كله أن عاملا رئيسيا في تفجير الانتفاضات الجماهيرية في الأرض المحتلة وتواصلها وجو النهوض الوطني الذي شمل اتساع نطاق المقاومة المسلحة والصمود في وجه وسائل القمع والارهاب الصهيوني ، هو الامساك ببرنامج وطني محدد واضح يتسم بالواقعية الثورية : برنامج العودة وتقرير المصير وبناء الدولة الفلسطينية المستقلة على التراب الوطني الذي أقرته المجالس الوطنية في دوراتها الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة ، والالتفاف حول قيادة وطنية امينة على هذا البرنامج ، مخلصة له ، ممثلة في منظمة التحرير . وقد اثر ذلك في اتساع التأييد للقضية الفلسطينية ومنظمة التحرير على النطاقين العربي والعالمي .

ان الهوية الفلسطينية المستقلة في الأرض المحتلة أضحت عميقة الجذور ، وتغلغلت في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية ، بحيث أثارت مخاوف المحتلين الصهاينة . وقد كتبت جريدة « الجيروزاليم بوست » ، في معرض تعليقها على مؤتمر الجمعيات الخيرية والاجتماعية ، الذي انعقد في القدس في صيف العام الماضي وتحول الى مؤتمر سياسي أعلن تأييد منظمة التحرير وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس ، أن الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة تجتاحهم موجة طاغية من الحماس للتأكيد على هويتهم الفلسطينية : فكل اجتماع أو مؤتمر ، مهما كان اختصاصه اجتماعيا أو خيريا أو ثقافيا ، يتحول الى مؤتمر سياسي مؤيد للدولة الفلسطينية ومنظمة التحرير ، وصارت كل مجالات النشاط تقترن بالاسم الفلسطيني ، مثل الفولكلور الفلسطيني والبازار الفلسطيني والعرس الفلسطيني ، وأصبح العلم الفلسطيني يرتفع في أرجاء الأرض الفلسطينية ويركز حتى على مخافر الشرطة الاسرائيلية ، امعانا في تحدي المحتلين وتأكيدا للاستقلال الوطني الفلسطيني .

وفي الانتفاضة الأخيرة ، التي تأججت في نيسان وأيار ، مع اقتراب يوم السادس والعشرين من أيار الماضي ، الذي كان قد حدده أطراف كمب ديفيد ، كارتر وبيغن والسادات ، موعداً لتنفيذ مؤامرة الحكم الذاتي ، كان شعار الدولة الفلسطينية وتأييد منظمة التحرير شعارا رئيسيا تردده جموع المتظاهرين في شوارع المدن والقرى والمخيمات ، وتتضمنه المذكرات والبيانات والتصريحات الصادرة عن الهيئات والمنظمات والمؤسسات الوطنية ، ويردده بسام الشكعة وكريم خلف وهما يستقبلان وفود الزوار والصحافيين الذين اموا المستشفيين اللذين يرقدان فيهما بعد اصابتهما نتيجة المحاولة الصهيونية الاجرامية لاغتيالهما ، ويؤكده المناضلون المبعدون الثلاثة خلال جولاتهم في أوروبا وامريكا .

ان شعار الدولة الفلسطينية المستقلة ، بقيادة منظمة التحرير ، قد أضحى ، بالنسبة لجماهيرنا في الأرض المحتلة ، صوت النفير الذي يعبئها في المعركة الضارية التي تخوضها ضد الاحتلال ومشاريعه الاستيطانية واجراءاته القمعية ، وضد مؤامرة كمب ديفيد ومشروع الحكم الذاتي وكل الصيغ والأشكال التآمرية الأخرى على شعبنا الفلسطيني وقضيته الوطنية .

ومن هنا ، فان دعم الانتفاضة الجماهيرية في الأرض المحتلة يستدعي من منظمة التحرير

التمسك بشعار الدولة الفلسطينية المستقلة ، والتصدي لكل المؤامرات عليها ، والحذر من التصور الخاطىء بأن طمس شعار الدولة الفلسطينية المستقلة ، أو عدم الاهتمام بابرازه ، يساعد على تصليب الموقف الفلسطيني في مواجهة التآمر الذي اشتدت أخطاره بعد مؤامرة كمب ديفيد

كما أن عمق تغلغل الهوية الوطنية الفلسطينية المستقلة بين جماهير الأرض المحتلة ، يشكل قاعدة صلبة للموقف الفلسطيني الوطني المستقل ، وبالاستناد اليه تتمكن منظمة التحرير من صيانة القرار الفلسطيني المستقل ، والوقوف في وجه كل محاولات التدخل والوصاية والتبعية لأي نظام عربي أيا كان ومهما كانت طبيعته

والحقيقة الأخرى التي لها دلالتها ، بالنسبة للنهوض الوطني في الأرض المحتلة ، هي أن مؤامرة كمب ديفيد ـ وهي أخطر مؤامرة تعرضت لها قضية شعبنا الوطنية بسبب خيانة السادات وانتقاله بمصر ، وهي أكبر دولة عربية مواجهة للعدوان والاحتلال ، الى المعسكر الأمبريالي الصهيوني المعادي لشعبنا ولحركة التحرر الوطني العربي وانخراطه مع بيغن وكارتر في مؤامرة تصفية القضية الفلسطينية من خلال مشروع الحكم الذاتي ـ كانت نقطة انعطاف في مجرى النهوض الوطني وكانت حافزاً لتشديد النضال وصعود تيار المقاومة خلال العامين الماضيين وانخراط أوساط واسعة في ميدان النضال ، وازدياد تلاحم القوى الوطنية ، رغم ادراك جماهيرنا خطورة مؤامرة كمب ديفيد وجو التخاذل المسيطر في المنطقة العربية ، ورغم شراسة الهجمة الاستيطانية وتصاعد القمع والتنكيل الصهيوني وتدهور الظروف المعيشية وزيادة الأسعار وتدهور قيمة الليرة ومختلف أساليب النهب الاقتصادي التي يمارسها المحتلون ، وسد فرص العمل أمام المثقفين والخريجين ، وازدياد البطالة في صفوف العمال ؛ مما يدفع أعداداً غير قليلة للهجرة خارج الأراضي المحتلة . بل ان هذه العوامل كانت حوافز أخرى لتأجيج نار المقاومة .

لقد تحولت الضفة الغربية ، من أقصاها الى أقصاها ، من جنين شمالا حتى الظاهرية جنوبا ، الى مسرح للاشتباكات العنيفة بين جحافل قوات الاحتلال التي احتشدت في الضفة الغربية بعد سحب قسم كبير منها من جبهة سيناء ، اثر المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، وبين الجماهير التي راحت تقاوم المحتلين في شوارع المدن والقرى والمخيمات وفي الجامعات والمعاهد العلمية ، وتقيم المتاريس في وجه قوات المحتلين وتواجه رصاصهم ودباباتهم بالحجارة والعصي والقضبان . وارتفع ، الى جانب ذلك ، مستوى الكفاح المسلح وفعاليته كما جرى في عملية الخليل البطولية ضد جماعات المستوطنين وجماعة غوش ايمونيم ، والعمليات الأخرى التي تتسم بالدقة والجرأة .

ودلالة ذلك أن تكالب التآمر على قضية الشعب الفلسطيني الوطنية وايغال المحتلين الصهاينة في القمع والنهب الاقتصادي ومصادرة الأراضي وتهويدها ، كل ذلك يذكي تيار المقاومة ويزيده قوة واتساعا ، وهذا من شأنه أن يشد أزر المقاومة الفلسطينية وجماهيرها في لبنان ، حيث تواجه امتداد مؤامرة كمب ديفيد ممثلاً في عمليات الابادة والأرض المحروقة التي تمارسها القوات الاسرائيلية من خلال غاراتها الوحشية المتواصلة ، وتحالفها مع القوى الانعزالية التي ما زالت ماضية في التآمر والتعبئة الحاقدة ضد الشعب الفلسطيني ، بالاضافة لنشاط المكتب الثاني اللبناني وأجهزة المخابرات الأمبريالية والرجعية لنشر حالة الفوضى والتخريب في المناطق الوطنية اللبنانية واثارة العداء للوجود الفلسطيني ؛ ومن شأنه أيضا أن يزيد في صمودها واستعدادها لمقاومة التآمر

واضعاف التفاف الجماهير اللبنانية الوطنية حول المقاومة الفلسطينية ، ويشكل حافزا للجماهير العربية لتقوم بدورها في مواجهة التآمر الأميريالي الصهيوني الرجعي .

لجنة التوجيه الوطني والوحدة الوطنية .

وفي غمرة مواجهة مؤامرة كمب ديفيد والهجمة الاستيطانية الصهيونية وأعمال التخريب التي تمارسها جماعات المستوطنين ، تعززت الوحدة الوطنية بين صفوف الشعب الفلسطيني ، وليس صدفة أن لجنة التوجيه الوطني ، التي تمثل مختلف المنظمات الجماهيرية والنقابات العمالية ومجالس الطلبة والصحافيين الوطنيين والمجالس البلدية ، قد انبثقت ابان موجة المؤتمرات الشعبية التي اجتاحت مدن الضفة الغربية وقطاع غزة غداة ابرام اتفاقية كمب ديفيد ، وأخذت على عاتقها مهمة متابعة النضال ضد مؤامرة الحكم الذاتي ، وأضحت ، خلال العامين الماضيين ، القيادة الوطنية المعترف بها في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وفرضت علنيتها على المحتلين رغم كل محاولاتهم لحظر نشاطها . وهي تضطلع بدور رئيسي في تعبئة الجماهير التي تستجيب لنداءاتها وبياناتها بالاضراب أو التظاهر ، وتلتزم بتوجيهاتها ازاء أية قضية سياسية . وبفضل موقفها الحازم في ملاحقة تحركات أطراف كمب ديفيد ونشاطاتهم لتمرير الحكم الذاتي ، ودعوتها لمقاطعة رسل الأمبريالية الأميركية، تمكنت من محاصرة دعاة الاستسلام والتردد والمهادنة مع الاحتلال والمساومة مع مشروع الحكم الذاتي ، وأحاطتهم بجو من العزلة .

وتستند لجنة التوجيه الوطني الى الهيئات الوطنية والمنظمات الجماهيرية ، وفي مقدمتها المجالس البلدية التي تلعب دورا بارزا في اطار اللجنة وفي قيادة النضال الجماهيري ، وكذلك نقابات العمال والنقابات المهنية ومجالس الطلبة والهيئات النسائية والصحف والشخصيات الوطنية من رجال الدين والتجار .

وليس صدفة تجدد نشاط الجبهة الوطنية ، في جو هذا النهوض الذي حركته اتفاقية كمب ديفيد ، فقد أعلنت استئناف نشاطها ، في بيانها الذي صدر في أواخر أيار من العام الماضي ، ونشرت في تشرين الأول الماضي برنامجها النضالي المستند الى برنامج الوحدة الوطنية الذي أقره المجلس الوطني في دورته الخامسة عشرة ، مع تركيز على بعض القضايا الأساسية ، مثل تعرية موقف الأمبريالية الأميركية ورفض الحوار معها ومقاطعة ممثليها ، وكذلك تنظيم العلاقة مع قيادة منظمة التحرير باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني في الداخل والخارج وقائد نضاله الوطني وحصر التعامل مع الجبهة الوطنية بوصفها امتدادا لمنظمة التحرير في الداخل ، لقطع الطريق على دعاة الاستسلام الذين يتسترون بصلاتهم مع منظمة التحرير في الخارج ، وتصحيح العلاقة بين المنظمة والحكم في الأردن ؛ لان هذا الحكم يسعى للاستفادة من الظروف الراهنة في تعزيز نفوذه في الأرض المحتلة على حساب منظمة التحرير من خلال المساعدات التي تقدمها اللجنة الفلسطينية ـ الاردنية المشتركة .

ان السمة البارزة للنضال الوطني في الأرض المحتلة هي الاستناد الى وحدة وطنية متينة وطابع التنظيم الدقيق ؛ وقد تجلى ذلك ابان الانتفاضة التي اثارها قرار المحتلين بطرد المناضل بسام الشكعة رئيس بلدية نابلس ، في تشرين الثاني الماضي ، حين تلاحمت الضفة الغربية وقطاع غزة ، الأمر الذي فاجأ المحتلين وأرغمهم على التراجع عن قرارهم . ودلالة ذلك أن الوحدة الوطنية في الأرض

المحتلة ، ممثلة في الجبهة الوطنية الفلسطينية ولجنة التوجيه الوطني وباقي المنظمات والمؤسسات والهيئات الوطنية الأخرى ، هي الصخرة التي تحطمت عليها كل مؤامرات المحتلين لاخضاع شعبنا وهي التي سدت الطريق أمام مؤامرة مشروع الحكم الذاتي الاداري . وهذا يتطلب أولا دعم هذه الهيئات والمؤسسات والمنظمات الوطنية ، وفي مقدمتها الجبهة الوطنية ولجنة التوجيه الوطني ، والتخلي عن كل تحفظ وحساسية ازاءها ؛ فنار المعركة الملتهبة في أرضنا المحتلة قد أذابت الحساسيات والتحفظات بين القوى الوطنية هناك ، وصهرتها جميعها في بوتقة واحدة لتذود عن أرض الوطن غائلة الاستيطان والتهويد ، وتحمي تراث شعبنا وثقافته ومقدساته ، وتعبىء صفوف كل الشعب لكنس الغزاة الصهاينة وانتزاع حقوق شعبنا الوطنية ، وفي مقدمتها حق العودة وتقرير المصير وبناء الدولة الفلسطينية المستقلة .

ضرورات تعزيز الوحدة الوطنية

وهذا يتطلب ايضاً العمل لتعزيز الوحدة بين القوى الوطنية الفلسطينية في الداخل والخارج في اطار منظمة التحرير ، بحيث تتمثل في اللجنة التنفيذية للمنظمة باعتبارها قيادتها اليومية . وتبرز في هذا المجال حقيقة ان مشاركة الشيوعيين في اللجنة التنفيذية من شأنها ان تعزز الموقف الفلسطيني المستقل في وجه أية ضغوطات تحاول الانتقاص منه ، فضلاً عن دورها في تعزيز الوحدة الوطنية ؛ فالدور الذي يلعبه الشيوعيون في مجرى النضال الوطني الفلسطيني معروف ، وخصوصاً في الارض المحتلة ، سواء في الجبهة الوطنية او في لجنة التوجيه الوطني او في النقابات المهنية والعمالية ومجالس الطلبة والمجالس البلدية وباقي المؤسسات والهيئات الوطنية الأخرى .

ان تيار النهوض الوطني ، مستندا الى الوحدة الوطنية وتأكيد الشخصية الفلسطينية المستقلة ، قد امتد ليشمل الجماهير الفلسطينية في الجليل والمثلث والنقب . فالائتلاف الوطني ، المتمثل في الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة واللجنة القطرية للدفاع عن الأرض ولجان الطلبة العرب ولجنة المبادرة الدرزية ولجنة رؤساء مجالس البلدية والمحلية ، يضم مختلف القوى الوطنية العربية ، بالاضافة لعدد من القوى الديمقراطية اليهودية . ويلعب الحزب الشيوعي الاسرائيلي (راكح) دورا رئيسيا فيها . وأضحت هذه الهيئات ، ذات الطابع الجبهوي ، تمارس نضالاً متناميا في التصدي لغطرسة الصهاينة وحماية الأراضي والحقوق المعيشية والوطنية للجماهير الفلسطينية ، وتؤكد موقفها الحازم المتمثل في رفض مؤامرة كمب ديفيد ومشروع الحكم الذاتي .

وقد أثارت مخاوف الصهاينة الغضبة العارمة التي اجتاحت المدن والقرى في الجليل والمثلث ، استنكارا لجريمة محاولة اغتيال بسام الشكعة وكريم خلف وابراهيم الطويل ، والمواقف الجريئة التي أظهرها المناضل توفيق زياد رئيس بلدية الناصرة واللجنة القطرية للدفاع عن الأرض ولجان الطلبة العرب .

ان نهوض الجماهير الفلسطينية في الجليل والمثلث والنقب ، واعلانها الصريح الحازم انها جزء لايتجزأ من الشعب الفلسطيني ، في المسيرات والمهرجانات والبيانات وفي الكنيست الاسرائيلي نفسه ، على لسان توفيق طوبي وتوفيق زياد ، وتأييدها لمنظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، وبرنامجها في العودة وتقرير المصير وبناء الدولة الفلسطينية المستقلة ، انما يشكل رافدا نضاليا جديدا يصب في المجرى الواسع الكبير للثورة الفلسطينية . وفي مقابل تعاظم المقاومة

لجماهيرنا في الأرض المحتلة ، التي حركتها مؤامرة كمب ديفيد ، سيطرت على الحياة السياسية الاسرائيلية الاجنحة الصهيونية الأشد عدوانية والاكثر غلوا في أطماعها التوسعية ونهجها الارهابي ، ويقف على رأس السلطة الثلاثي بيغن - شارون - شامير ، وتاريخ هؤلاء الثلاثة حافل بالجرائم الدموية ضد الشعب الفلسطيني ، وهم دعاة اسرائيل الكبرى . فبيغن ، رئيس الوزراء ووزير الدفاع بالوكالة بعد استقالة وايزمن هو زعيم عصابة الارغون الارهابية أيام الاحتلال البريطاني لفلسطين وبطل مجزرة دير ياسين ؛ وشامير ، وزير الخارجية ، زعيم منظمة شتيرن العصابة الارهابية الثانية ؛ وشارون بطل حملة القمع الوحشية ضد الجماهير في غزة في سنتي ٧٠ - ٧١ . وهذا الثالوث من زعماء الارهاب الصهيوني يتبنى برنامجا توسعيا سافرا مغرقا في عنصريته ورجعيته ، يعتبر الضفة الغربية وقطاع غزة « أرضا محررة » ، وأن لا حق للشعب الفلسطيني فيها ، بل ان حق اليهود فيها مقدس يستند الى التوراة ، ويسعى بسرعة محمومة لتهويدها وزرع المستوطنات فيها ، ويواجه كل مظهر لمقاومة هذه المخططات العدوانية بالارهاب الدموي .

لقد أوجد هذا النهج العدواني الارهابي التربة الصالحة لنمو واستشراء أشد النزعات غلوا وتطرفا وسفالة في الحياة السياسية الاسرائيلية وترعرع عصابات المستوطنين الارهابين القتلة ، أمثال عصابة غوش ايمونيم وعصابة مئير كاهانا وحركة كاتس وجيش شارون السري . وقد انطلقت هذه العصابات السائبة على امتداد الضفة الغربية وقطاع غزة ، تعبث فيهما ، وتزرع المستوطنات الصهيونية بعد اغتصاب الأرض من اصحابها ، وتهاجم القرى والمدن والمخيمات ، وتعمل فيها يد النهب والسلب ، وتحطم المتاجر والسيارات ، وترتكب جرائم القتل والاغتيال .

لقد أصبحت هذه العصابات الفاشية ذراعا ارهابية اضافية لحكومة بيغن ، تطبق سياسة « القبضة الحديدية » التي تعلن عنها . فهذه العصابات هي التي تشترك مع القوات الاسرائيلية في اغراق المظاهرات التي جرت في حلحول ورام الله وجامعة بير زيت بالدماء . وباتت تكشف عن نواياها في تنفيذ مخطط تشريد جماعي للشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة وطرد زهاء ٧٠٠ ألف أو ٨٠٠ الف مواطن فلسطيني من الضفة الغربية وقطاع غزة . بينما تطلق التهديدات ضد التقدميين من اليهود المناهضين لنشاطاتها

إن مؤامرة كمب ديفيد هي من أهم العوامل التي أدت إلى انفلات النزعات الصهيونية الوحشية من عقالها . فخيانة السادات أغرت الصهيونيين وشجعتهم على التمادي في تنفيذ مخططاتهم التوسعية العدوانية . وأهم من ذلك ، فان الدعم غير المحدود ، سياسياً وعسكريا واقتصاديا ، من الولايات المتحدة لاسرائيل ، هو العامل الاساسي لاستشراء النزعات العدوانية الفاشية لدى الصهيونيين . ويكفي للتدليل على الدعم الأميركي لحكومة بيغن أن المساعدة الأميركية لاسرائيل في هذا العام تبلغ ٢٣٠٠ مليون دولار ، وتشكل ٤٣٪ من قيمة المساعدات الأميركية الخارجية كلها .

ان صعود عصابة بيغن الارهابية للسلطة في اسرائيل وعربدتها في المنطقة العربية وحرب الابادة والتشريد والتنكيل التي تشنها على الشعب الفلسطيني في الأرض المحتلة ، وفي الجنوب اللبناني ، هي جزء لا يتجزأ من سياسة العربدة العدوانية التي تمارسها الامبريالية الأميركية في المنطقة ، تنفيذا لمبدأ كارتر الذي أعلنه في نهاية العام الماضي ، معتبرا منطقة الخليج ضمن المصالح

الحيوية الاميركية ، وما ترتب على ذلك من حشد الأساطيل وبناء القواعد العسكرية الجديدة في المنطقة .

لقد تعمقت تبعية اسرائيل للامبريالية الاميركية التي باتت تسيطر على الحياة السياسية الاسرائيلية والأجنحة والتكتلات الصهيونية فيها . وإذا كانت قد دعمت تكتل الليكود بزعامة بيغن ، ودفعت به إلى الحكم منذ سنة ١٩٧٧ ، فهي تبقي على نفوذها على التكتل الصهيوني المعارض المسمى بالمعراخ بقيادة حزب العمل الاسرائيلي ، وتحتفظ به كورقة في يدها تطرحها في الوقت المناسب وتدفع به للسلطة حين تتأكد من فشل حكومة بيغن في تنفيذ مخططاتها . وهي منذ الآن تسعى لتزيين وجه حزب العمل الاسرائيلي .

ولكن ذلك لا يمكن ان يخدع الشعب الفلسطيني ، الذي يعرف حزب العمل الاسرائيلي على حقيقته ، مهما جرت المحاولات لتجميل وجهه الصهيوني القبيح ، ورغم طلاء الاشتراكية الزائف الذي يتستر به الآن ، بحكم توليه السلطة في اسرائيل وقيادة الحركة الصهيونية منذ سنة ٤٨ حتى سنة ١٩٧٧ ، فهو المسؤول الأول والرئيسي عن كل الجرائم التي لحقت بشعبنا الفلسطيني من تشريد وتقتيل وتنكيل ، وهو الذي أثار أربعة حروب عدوانية ضد العرب . وبرنامجه بالنسبة للقضية الفلسطينية كما أعلنه مجدداً زعيمه بيرس ، لا يختلف في جوهره عن برنامج بيغن ، لأنه يرفض قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم ، ويصر على استمرار مرابطة قوات الاحتلال الاسرائيلي على طول نهر الأردن ، الذي يعتبره الحد الأمني لاسرائيل ، والاحتفاظ بالمستوطنات الصهيونية التي اقيمت في الأرض التي احتلت بعد عام ١٩٦٧ ، ولكنه يسمح فقط بعودة الادارة الأردنية الى عدد من المناطق في الضفة الغربية .

ان النضال البطولي الذي تخوضه جماهيرنا الفلسطينية في الأرض المحتلة . أكد ، أمام العالم كله ، حقيقة الثورة الفلسطينية كثورة شعب بأسره وعزز القضية الفلسطينية على النطاق العالمي وأكسبها مزيداً من التأييد والتعاطف ، باعتبارها قضية شعب يناضل في سبيل تحرره واستقلاله الوطني وعودته إلى دياره . وفي المقابل زاد في تعرية المحتلين الصهاينة وعزلتهم ، الأمر الذي يضاعف من عزيمة الشعب الفلسطيني وثقته بحتمية انتصار قضيته العادلة .

من هنا يتضح ان التصدي لمؤامرة كمب ديفيد ومشروع الحكم الذاتي وحماية الشعب الفلسطيني من الهجمة الارهابية الهستيرية التي تشنها عصابات بيغن ، لا يقتصر فقط على عزل نظام السادات وفضح خيانته ، بل يتطلب في الدرجة الأولى مواجهة الامبريالية الاميركية وتعبئة كل الطاقات النضالية ضدها في المنطقة ، وكشف زيف مواقف الأنظمة الرجعية واليمينية التي تعلن معارضتها لكمب ديفيد ، ولكنها تبقي على علاقاتها مع الولايات المتحدة ، بل وتسمح بتدفق البترول اليها وتكديس بلايين الأرصدة من الدولارات في بنوكها .

ان الوسيلة لردع الولايات المتحدة ومواجهة مخططاتها العدوانية ، وفي مقدمتها مؤامرة كمب ديفيد ، ليست في السعي للحوار معها والعمل على اقناعها بعدالة الموقف العربي وتعليق الأوهام على المبادرات الأوروبية التي لا تخرج عن اطار السياسة الأميركية ، بل باتخاذ موقف حازم ازاءها وازاء مصالحها في المنطقة ، وذلك يستدعي تعبئة طاقات الشعوب العربية وقواها الوطنية والتقدمية ، وتنشيط جبهة الصمود والتصدي ، وتعزيز التحالف مع البلاد الاشتراكية ، وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، ومع كل قوى التقدم والحرية والسلام في العالم .

د . أحمد صدقي الدجاني

مسيرة الشعب الفلسطيني وآفاق الصراع العربي الإسرائيلي في الثمانينات

ماذا نرى في آفاق الصراع العربي الاسرائيلي خلال ثمانينات القرن العشرين ؟

كيف ستكون مسيرة الشعب الفلسطيني وسط أمته العربية وهو يناضل من اجل تحرير وطنه في هذا العقد من السنين ؟ اي شوط ستقطعه هذه المسيرة ؟ ما هي التحديات التي ستواجهها ، وما هي القضايا التي ينبغي التصدي لمعالجتها ؟

ان تعاملنا مع بعد الزمان في هذا البحث يذكرنا بأن شعب فلسطين يدخل ، مع الثمانينات ، القرن الثاني في مواجهته للغزوة الصهيونية التي استهدفت وطنه ، حيث بدت تباشيرها واضحة مع الموجة الاولى للتهجير الصهيوني عام ١٨٨٢ . كما نذكر ان اكثر من ستة عقود مضت على صدور تصريح بلفور عام ١٩١٧ ، واكثر من ثلاثة عقود مضت على قيام دولة اسرائيل بقرار دولي . ونشير الى اننا نعيش العقد الثاني في المرحلة الراهنة من النضال الفلسطيني الذي تقوده منظمة التحرير الفلسطينية ، والى ان منطقتنا العربية دخلت قرنا هجريا جديدا هو القرن الخامس عشر .

نستشعر الحاجة ونحن في صدد البحث في رؤية مستقبلية ان نطرح بايجاز فهمنا لحديث المستقبل ومنهجنا في الدراسة المستقبلية . ان حديث المستقبل يلبي حاجة انسانية في استشراف آفاق الغد واستشفاف كنه ما سيأتي . وكما أن الذي يعرف من أين ، يعرف الى أين ، فان الذي يتشوف غده يدرك بوعي أعمق أين يقف اليوم . وواضح أن حديث المستقبل وثيق الصلة بحديث الحاضر والماضي . وهو ليس مجرد تنبؤ يقوم على الرجم بالغيب ، ولكنه محاولة علمية تتكامل فيها الدراسات لمعرفة جوانب صورة الحاضر ، وتلاحظ فيها سنن الكون ومجرى الحركة التاريخية من خلال دراسة الماضي ، وترسم على ضوء ذلك كله صورة المستقبل .

ان البحث في آفاق الصراع العربي الاسرائيلي على مدى عقد قادم من السنين يقتضي أن ننظر الى الأحداث الجارية بنظرة شاملة ، تأخذ بعين الاعتبار مختلف أبعاد الصراع وتحيط

بشتى جوانبه . فهي ترى الابعاد الدولية والقومية والمحلية ، وما يخص العدو منها وما يخصنا نحن ، والجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والفكرية . كما أن هذا البحث ينطلق من ادراك أن توقع ما سيجري مرتبط بتطلع الانسان الى الاسهام في صنع المستقبل ، فالفرد الانساني قادر على أن يكون فاعلا في الاحداث . وهو وان لم يكن بامكانه الوقوف في وجه حركة التاريخ ، الا أن بامكانه التأثير على تيار الاحداث المتدفق وتحويله لصالحه . وهكذا فان هذا الحديث المستقبلي يوظف المعرفة للفعل والتأثير . ويحاول تحديد ما ينبغي أن يكون دون أن يغفل عن توقع ما سيكون . والغاية أن تتوافق من خلال الفكر والارادة والقدرة صورة الآمال مع صورة التوقعات (١) .

نبدأ بحديث الحاضر والماضي فننظر كيف كانت مسيرة الشعب الفلسطيني في اطار الثورة الفلسطينية خلال السبعينات التي ودعناها ، وننظر أين تقف منظمة التحرير الفلسطينية التي تقود هذه الثورة اليوم وهي تستقبل الثمانينات .

لقد حفل العقد الماضي بأحداث هامة اتصلت بالصراع العربي الاسرائيلي مباشرة أو بصورة غير مباشرة . وجرت على شتى الصعد المحلية والقومية والدولية .

بدأت السبعينات بأحداث ايلول الاسود عام ١٩٧٠ في الاردن ، وغاب عن المسرح السياسي العربي ، في ذلك الشهر ، جمال عبد الناصر ، أبرز زعامة عربية في المنطقة . وبلغت تلك الاحداث ذروتها عام ١٩٧١ ونتج عنها انتقال مركز قيادة منظمة التحرير الفلسطينية الى لبنان . ونشبت حرب رمضان في تشرين الاول ١٩٧٣ بين مصر وسوريا والمنظمة من جهة) وبين اسرائيل من جهة أخرى ، وهي الحرب الرابعة في الصراع العربي الاسرائيلي ، وكان من حصادها ظهور قضية الطاقة في العالم الغربي . وتم في اعقابها انعقاد مؤتمر جنيف وابرام اتفاقيتي فصل القوات بين مصر واسرائيل اولا ثم بين سوريا واسرائيل . كما تم ابرام اتفاقية فصل القوات الثانية بين مصر واسرائيل في ايلول ١٩٧٥ . وتفجرت في النصف الاول من ذلك العام الحرب اللبنانية ، وكان التوتر قد ظهر في لبنان بوضوح منذ عام ١٩٧٣ . وتمت في تشرين الثاني من عام ١٩٧٧ زيارة رئيس جمهورية مصر أنور السادات الى القدس حيث تحدث في الكنيست الاسرائيلي . وقامت اسرائيل بهجومها على جنوب لبنان في آذار ١٩٧٨ فجرت حرب الايام الثمانية . وجاء ابرام اتفاقيات كامب دافيد بين الولايات المتحدة واسرائيل ومصر في ايلول ١٩٧٨ . وانعقد مؤتمر القمة العربي التاسع في بغداد لمواجهة هذه الاتفاقيات في تشرين الثاني ١٩٧٨ .وتم ابرام المعاهدة الاسرائيلية المصرية في آذار ١٩٧٩ بعد فترة قصيرة من انتصار الثورة الاسلامية في ايران وسقوط نظام الشاه في مطلع ذلك العام . وشهدت السبعينات أحداثا اخرى هامة في عالمنا ، نشير من بينها الى تصفية الاستعمار البرتغالي في افريقيا والخروج الاميركي من الهند الصينية وبروز الأمة الافغانية .

بين الانفراج والانفراد

جرت أحداث منطقتنا في السبعينات وسط مناخ دولي كان له دوره في انضاجها ، وحملت هذه الاحداث في تضاعيفها تغيرات هامة تتعلق بالصراع العربي الاسرائيلي . وقد أثرت بدورها على هذا المناخ الدولي الذي بدا ، في مطلع السبعينات محكومابسياسة الانفراج وأصبح في

نهايتها محكوما بأزمة حادة تعاني منها سياسة الانفراج .

كانت ملامح المرحلة الجديدة في التوازن الدولي التي عرفت باسم الانفراج قد بدت في اعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ ، حين اجتمع كوسيغن وجونسون في جلاسبور ، وما أسرع ما بانت بوضوح اكثر في اجتماع موسكو عام ١٩٧٢ بين بريجنيف ونيسكون ، واجتماع فلاد يسفوستك عام ١٩٧٤ بين بريجنيف وفورد ، وأخذت صورة اجتماعات دورية بين ممثلي الدولتين وأثمرت اتفاقيات في عدد من المجالات . وقد جاءت هذه المرحلة في اعقاب مراحل ثلاث عبرها التوازن الدولي منذ الحرب العالمية الثانية ، كتطور منطقي يعبر عن الاستجابة لتحدي الخطر النووي الذي اشتد مع تقدم صنع الاسلحة النووية ، ولمتغيرات اخرى في الصورة الدولية . وهكذا انتقل هذا التوازن من سياسة حافة الحرب الى سياسة الردع الشامل الى سياسة التعايش السلمي الى سياسة الانفراج (٢) .

اختلف تطبيق سياسة الانفراج عند الدولتين الكبيرتين من منطقة الى اخرى بحسب مواقع هذه المناطق منهما وطبيعة مصالحهما فيها . وقد اتسمت منطقة الوطن العربي بحساسية خاصة في هذه السياسة لما تتميز به من أهمية تنامت بقوة في السبعينيات ، ولأنها من المناطق التي لم تتحدد فيها بوضوح الخطوط الفاصلة بين مصالح الدولتين . وانعكست هذه الحساسية على طريقة معالجة كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة قضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي عموماً ، وعلى طريقة تعاونهما في هذه المعالجة . ولقد شرح هارولد ساوندرز في مؤتمر حول الشرق الاوسط انعقد بسانت لويس خريف عام ١٩٧٩ مكان الصراع في العلاقة بين الدولتين حين عرض للمصالح الاميركية في المنطقة ، ووضع المصلحة المتعلقة بالاتحاد السوفياتي كأول هذه المصالح فقال : « مع اننا ادركنا ، منذ أمد طويل ، أهمية حرمان الاتحاد السوفياتي من أن يكون له نفوذ ساحق في الشرق الاوسط ، الا أننا عرفنا ايضا في حدة أزمتين بأن لنا اهتماما خاصا بتحاشي المجابهة مع السوفيات في الشرق الاوسط في هذا العصر النووي . ان الاتحاد السوفياتي يرى ، لأسباب تتعلق بالنفوذ والنفط والقرب الجغرافي والروابط العرقية والثقافية بين عناصر من سكانه وشعوب الشرق الاوسط ، بأن له مصالح في تلك المنطقة . كما اننا نهتم بأن نساعد شعوب المنطقة في الحفاظ على استقلالها حيال أية سيطرة اجنبية . ولكن خلافا لما عليه الحال في اوروبا حيث الخطوط بين السوفيات وبيننا مرسومة جغرافيا وبالسوابق ، نجد أن هذه الخطوط ليست محددة بوضوح في الشرق الاوسط ومن الممكن سواء بالصدفة أو بالتصعيد أن ينتهي الحال بالدولتين العظميين الى المجابهة . وان الرسائل المتبادلة بين موسكو وواشنطن خلال حدة الازمتين في حربي ٦٧ و٧٣ جعلت ذلك الخطر في منتهى الوضوح . ولهذا فاننا ندرك التحدي بشكل أكثر حدة من أي وقت مضى من أجل تجنب المجابهة .. »(٣) .

لقد مثلت حرب حزيران عام ١٩٦٧ نوعا من المواجهة بين الدولتين الكبيرتين وكذلك مثلت حرب رمضان عام ١٩٧٣ مع أنها جاءت بعد اخراج الخبراء السوفيات من مصر عام ١٩٧٢ . ومن هنا توزعت السياسة الاميركية في تحركها تجاه تسوية الصراع العربي الاسرائيلي بين ما يتطلبه دفع خطر المواجهة من تفاهم مع الاتحاد السوفياتي بشأن التسوية وبين ما تتطلبه منافسة الاتحاد السوفياتي في المنطقة وابعاده من انفراد في التحرك . وهكذا برز اتجاهان في السياسة

الاميركية حول المشاركة السوفياتية في تحقيق التسوية ، يرى احدهما ضرورة التوصل الى اتفاق مع السوفيات حول المبادى والاجراءات ، ويرى الآخر الانفراد وابعاد السوفيات والمضي في تحقيق التسوية من دونهم .

عبرت سياسة كيسنجر في النصف الاول من السبعينات عن هذا التوزع ووصلت الى تبني الاتجاه الآخر . فقد تم الاتفاق في اعقاب حرب ٧٣ مع الاتحاد السوفياتي على إطار مؤتمر جنيف برئاسة الدولتين كاطار للتوصل إلى تسوية الصراع العربي الاسرائيلي . ولكن كيسنجر سعى عمليا الى ابعاد الاتحاد السوفياتي عما أسماه « عملية السلام » . ومع أنه حريص على التباحث بين حين وآخر ، مع وزير الخارجية السوفياتي اندريه غروميكو لتغطية سعيه ، الا أن السوفيات لم يروا في هذا التباحث اكثر من كونه نوعا من التشاور ولا يوصل الى المشاركة المطلوبة . وهكذا هاجمت البيانات السوفياتية مفاوضات الخطوة خطوة التي تولتها الولايات المتحدة بمفردها ، وامتنعت موسكو عن ارسال مبعوث لحضور التوقيع الرسمي في جنيف على الوثائق الخاصة بالاتفاق الاسرائيلي المصري الذي أبرمه كيسنجر عام ١٩٧٥ (٤) .

اتجهت الولايات المتحدة الى التفاهم من جديد مع الاتحاد السوفياتي حول التسوية ، في منتصف سنة ١٩٧٧ ، بعد تولي الرئيس كارتر زمام أمور الادارة الاميركية . وكان كارتر قد طرح حال توليه ، تصوره للوصول الى حل سلمي للصراع العربي الاسرائيلي وحدده في ثلاثة بنود رئيسية هي : « انسحاب اسرائيل من اراض محتلة ، مع اجراء تعديلات طفيفة على حدود ١٩٦٧ ، واقامة سلام كامل يشمل اقامة علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية بين اسرائيل وجيرانها العرب، وانشاء وطن للشعب الفلسطيني » . وقد اعتمد مشروع كارتر هذا على تقرير معهد بروكينز واستفاد في بنده الاول من مشروع روجرز لعام ١٩٦٩ . كما تعدى في بنده الثاني ما جاء في القرار ٢٤٢ الذي تحدث عن انهاء حالة الحرب، وأشار في بنده الثالث الى تقرير مصير الفلسطينيين . وحين نبحث عن دوافع الولايات المتحدة لهذا التوجه نحو التفاهم مع الاتحاد السوفياتي نلاحظ انه ينسجم مع متطلبات سياسة الانفراج التي شهدت عام ١٩٧٥ توقيع اتفاقية هلسنكي للأمن الاوروبي . كما نلاحظ أنه جاء بعد أن جوبهت محاولات الولايات المتحدة اشراك جميع العرب في مفاوضات بصعوبات فائقة . وهكذا اتفقت الحكومتان الاميركية والسوفياتية على احياء فكرة التقارب المشترك . واوصل اتفاقهما الى اعلان البيان السوفياتي الاميركي المشترك في ١ تشرين الاول ١٩٧٧ الذي وقعه كل من سيروس فانس واندريه غروميكو باسم دولتيهما باعتبارهما رئيسي مؤتمر السلام حول الشرق الاوسط (٥) .

لقد تضمن هذا البيان عدداً من المبادىء والاجراءات . فتحدث عن ضرورة التوصل في اسرع وقت الى تسوية عادلة ودائمة وشاملة (تتناول كل المواضيع وكل الاطراف) . وتعالج المسائل الاساسية في المشكلة بانسحاب اسرائيل من اراض احتلت في حرب ١٩٦٧ ، وحل المسألة الفلسطينية بما في ذلك ضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، وانهاء حالة الحرب واقامة علاقات سلمية عادية رسمية على اسس الاعتراف المتبادل بمبادى السيادة وسلامة الاراضي والاستقلال السياسي . وحدد البيان أن الطريق الوحيد لبلوغ ذلك هو التفاوض في اطار مؤتمر جنيف للسلام على ان تشترك في اعماله « كل اطراف الصراع بمن في ذلك ممثلو الشعب الفلسطيني » .

كمنت أهمية هذا البيان في توقيت اعلانه وفي صدوره عن الدولتين الكبيرتين من خلال عملية تفاوض ، وفي حديثه عن ضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومشاركة جميع الاطراف في التفاوض بما في ذلك ممثلو الشعب الفلسطيني . وكانت الولايات المتحدة تتحدث قبله عن « المصالح المشروعة للفلسطينيين » وتتجنب الحديث عن مشـاركة ممثـلي الشعب الفلسطيني . وقد رأى الكثيرون في توقيع الولايات المتحدة على البيان اتجاها محمودا للاعتراف بالحقائق القائمة ومباشرة مفاوضات مثمرة . فيما رأت اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية غير ذلك ، واعتبرت توقيع البيان انحرافا في السياسة الاميركية التي جنحت الى الانفراد . وهكذا أثارت الصهيونية العالمية ضجيجا قويا وشنت حملة شديدة على البيان وهاجمت فكرة اشراك السوفيات في التسوية . الامر الذي دفع الادارة الاميركية الى التخلي عن البيان بعد أيام قليلة من اعلانه .

سارت الولايات المتحدة في طريق الانفراد وعملت على فرض تسوية خاصة بها . واتفقت مع اسرائيل على ورقة عمل اغضبت عددا من الاطراف العربية واكدت قناعتهم بانحيازها لاسرائيل . وحين فشلت في احضار جميع الفرقاء الى طاولة المفاوضات شجعت زيارة رئيس جمهورية مصر الى اسرائيل وتولت رعاية الخط الذي رسمته هذه الزيارة ، وهكذا اسقطت احتمال تحقيق مفاوضات شاملة واحتمال قيام الاتحاد السوفياتي بدوره في المفاوضات .

أوصلت هذه السياسة الاميركية الى ابرام اتفاقيات كامب دافيد بين مصر واسرائيل والولايات المتحدة ، ومن ثم الى توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل . وأدت هذه السياسة ،على صعيد المنطقة ، الى زيادة التوتر فيها والى تورط الولايات المتحدة في تبني المنهج الاسرائيلي في تسوية الصراع العربي الاسرائيلي . كما أدت على صعيد العلاقات بين الدولتين الى الاسهام في صنع أزمة في الانفراج الذي قام بينهما. وأصبحت واحدة من القضايا الهامة التي زادت من حدة هذه الازمة، ولم يخف الاتحاد السوفياتي هذه الحقيقة في شرحه لحال الانفراج وللواقع القائم بعد دخوله افغانستان .

لقد كشفت السبعينات عن حقيقة تأثر الصراع العربي الاسرائيلي بالعلاقات بين الدولتين الكبيرتين . وبدا واضحا أن هناك خلافا قويا حول كيفية تسوية هذا الصراع ، بعد أن اتجهت السياسة الاميركية الى الانفراد في معالجته،وما زال هذا الخلاف يفعل فعله في أحداث المنطقة

كيف ستكون العلاقات بين الدولتين خلال الثمانينات ؟ هل تنتهي أزمة الانفراج أم تشتد ؟ كيف سيكون تعامل كل من الدولتين مع الصراع العربي الاسرائيلي في كل من الحالتين ؟

مواقف المجموعات الدولية

سنحاول الاجابة عن هذه الاسئلة في حديث المستقبل . ونتابع الآن التعرف بايجاز على جوانب اخرى في الصورة الدولية كما بدت خلال السبعينات ، وعلى الخصوص موقف كل من اوروبا الغربية ومجموعة عدم الانحياز من الصراع العربي الاسرائيلي .

لقد اشتد اهتمام اوروبا الغربية بالصراع بعد حرب رمضان حيث بدا واضحاً تأثر أمن اوروبا الغربية بأمن الوطن العربـي وارتباط اقتصاد اوروبا الغربية بالنفط العربي . وهكذا

اصدرت دول المجموعة الاوروبية بيان ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٣ حول موقفها من الصراع ، وبنت هذا الموقف على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ مع اضافة محددة هي أخذ الحقوق المشروعة للفلسطينيين في الحسبان من اجل بلوغ سلام دائم وعادل . وتوجهت هذه الدول لمباشرة حوار مع الدول العربية ، وباشرت هذا الحوار وسارت فيه سيرا وئيدا ولم تستطع أن تقوم بالدور الذي كان متوقعا قيامها به في التعامل مع الصراع بسبب ضغوط ارتباطاتها بالولايات المتحدة الاميركية ، وبسبب تباين الاتجاهات داخلها . وقد أوصل الحوار الى موقف اوروبي غربي يؤكد المبادىء التي تضمنها القرار ٢٤٢ مع التسليم بتلبية الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في التعبير عن هويته الوطنية والعيش في وطن . ووصل في بيان البندقية الاخير الذي صدر في حزيران ١٩٨٠ الى النص الصريح عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره . وتضمن الموقف الاوروبي ادانة للاستيطان الاسرائيلي في الاراضي العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، ورفضا لأية تغييرات اسرائيلية في وضع القدس .

شهدت السبعينات تطورا في الموقف الاوروبي . ولكن هذا التطور لم يتجسد في اجراءات عملية . وبقي عاجزا عن تلبية المطلب العربي باعتراف دول المجموعة الاوروبية بمنظمة التحرير الفلسطينية ، ولم تطرح على مدى العقد الماضي أية صيغة يكون للدول التسع فيها مكان ودور لحل الصراع ، ويصدق هذا على صيغة جنيف التي تمسك بها البيان السوفياتي الاميركي . وقد فرضت سياسة الانفراد الاميركية على المجموعة الاوروبية أن توقف تحركها البطيء وتنتظر وتترقب على مدى عامين جمدت خلالهما الحوار العربي الاوروبي . حتى انتهى التاريخ المحدد للفراغ من مفاوضات الحكم الذاتي يوم ٢٦ ايار الماضي فباشرت دول المجموعة تحركها من جديد وأصدرت بيان البندقية .

يجدر ان نشير ايضا الى ان بعض دول اوروبا الغربية خارج اطار المجموعة الاوروبية قد طورت موقفها من الصراع . ونشير من بين هذه الدول الى النمسا التي حاول مستشارها أن يقوم بدور فعال في تطوير موقف الاشتراكية الدولية (٦) .

كان موقف دول عدم الانحياز بمجموعاتها الافريقية والآسيوية والاسلامية متجاوبا مع الحقوق الوطنية لشعب فلسطين ومؤيدا لوجهة النظر العربية في تسوية الصراع . وقد رحبت هذه الدول بعضوية منظمة التحرير في المجموعة وقاطعت غالبيتها اسرائيل . وتحركت في الامم المتحدة وفي المنظمات الدولية عموما ضمن هذا الموقف . واتخذت في مؤتمراتها المتعاقبة وآخرها مؤتمر هافانا عام ١٩٧٩ قرارات واضحة بشأن الصراع وكيفية التحرك لتسويته .

شهدت السبعينات ايضا تطورا ايجابيا في موقف دول المجموعة الاشتراكية من قضية الصراع العربي الاسرائيلي . واعترفت هذه الدول بمنظمة التحرير الفلسطينية ودعت الى انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة وتلبية الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني . وجاءت مواقفها في المنظمات الدولية تعبيرا عن هذا الموقف .

كذلك بقيت الصين على موقفها المؤيد للحق الفلسطيني . وكانت من أول الدول التي اقامت علاقات بمنظمة التحرير الفلسطينية . أما اليابان فكان التطور الذي حدث في موقفها ضئيلا . وبقي هذا الموقف تابعا للموقف الاوروبي واسيرا للضغوط الاميركية . وقد حدث تطور محدود في

مواقف دول اميركا اللاتينية . وقد تحسن موقف الهند المؤيد للحق الفلسطيني بعد عودة حزب المؤتمر بقيادة انديرا غاندي الى الحكم في العام الماضي .

تطورات على الجانب الاسرائيلي

ننتقل الى البعد الاسرائيلي في الصراع ونوجز حصيلة ما شهدته السبعينات على هذا الصعيد .

لقد جاءت حرب رمضان لتكون تجربة جديدة على التجمع الاسرائيلي بما تضمنته من جديد على صعيد اتخاذ القرار وعلى المبادرة في الهجوم وعلى صعيد مجريات المعركة . ومع ذلك بقي توجه التجمع الاسرائيلي في محصلته على ما هو عليه بعد الحرب . وبقي الهدف الصهيوني كما هو . وأزدادت نزعات التطرف في اوساط الاسرائيليين حتى اوصلت تجمع ليكود الى الحكم عام ١٩٧٧ وأبرزت جماعة جوش ايمونيم كجماعة مؤثرة في سياسة التوسع الاسرائيلية . وشهد التجمع في الوقت نفسه بروز جماعات تنادي بوقف التوسع مقابل السلام ، ولكن تأثير هذه الجماعات على الحكم في اسرائيل بقي ضئيلا للغاية . وعمل الحكم الاسرائيلي ، من خلال اعتماده التطرف والتشدد ، على فرض التسوية التي يريدها والتي تحفظ له السيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة . واعتمد في محاولته النجاح في هذه السياسة على ربط الموقف الاميركي بموقفه وركز على دفع الولايات المتحدة للانفراد في التحرك لبلوغ التسوية مبعدا الاتحاد السوفياتي . كما ركز على عزل مصر واخراجها من الصراع العربي الاسرائيلي . ونشط في عملية الاستيطان في الضفة الغربية وفي تغيير معالم القدس . كما لجأ الى المغالاة في سياسة القمع التي ينتهجها ضد الشعب الفلسطيني في الوطن المحتل . وتابع محاولاته لتهجير مزيد من يهود الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل . واستمر في موقفه المنكر لوجود شعب فلسطين وسعيه للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية . واستهدف لبنان مصعدا عملياته في الجنوب اللبناني .

لعل من اهم ما يمكن تسجيله على البعد الاسرائيلي في الصراع كما وصل في نهاية السبعينـات ما يلـي:

* نجحت اسرائيل في التوصل الى ابرام معاهدة سلام مع مصر عام ١٩٧٩ .
* عانت اسرائيل من عزلة دولية ازدادت شدة منذ مجيء حكومة ليكود وبفعل مواقف هذه الحكومة اثناء المفاوضات المصرية الاميركية الاسرائيلية حول الحكم الذاتي للفلسطينيين في الضفة والقطاع .
* حدث خلال السبعينات اختلال في التطابق بين مواقف الحكومة الاسرائيلية وبين مواقف التجمعات اليهودية في اوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية . وبدأت بعض اوساط هذه التجمعات في محاولات للتأثير على المواقف الاسرائيلية بما ينسجم مع مصالحها في الدول التي تعيش فيها .
* بدأت الخلافات داخل التجمع الاسرائيلي تأخذ شكلا اكثر حدة مع تزايد النزوع الى التطرف وبروز قوى تنادي بالسلام .
* بدأت العلاقات الاميركية الاسرائيلية بعد اتفاقيات كامب دافيد ، على الخصوص ، مرحلة جديدة برزت فيها تعارضات نابعة من اختلاف الاساليب بين طرفي العلاقة ومن مستلزمات

المصالح الاميركية في المنطقة والعلاقات الاميركية العربية (٧) .

الصراع العربي - العربي

نأتي الى البعد العربي في الصراع ونوجز حصيلة ما شهدته السبعينات على هذا الصعيد .

كانت السبعينات حافلة بالاحداث المتصلة بالصراع . بدأت بمعاناة احداث ايلول ، وتتالت هذه المعاناة مع اشتداد الصراع داخل الوطن العربي بين عرب وعرب . وقد تعددت بذور التوتر والانفجار في الوطن العربي ، وقامت عدة حروب عربية عربية . بعد حرب رمضان على الخصوص . وكانت حرب رمضان قد اظهرت امكانيات الموقف العربي الواحد الكبيرة في حالة حشدها وتوظيفها في الصراع . ولكن السنوات التي تلت ابرزت عجز الكيانات العربية عن توحيد اراداتها وصياغة الارادة العربية المشتركة .

وشهدت السبعينات حدوث**تحولات هامة** في البلاد العربية على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي ، كانت سببا في حدوث جيشان في الاوضاع الداخلية لكل قطر ، وأسهمت في الصراع العربي العربي . وافتقد العمل العربي الموحد وجود الزعامة العربية الواحدة أو وجود المؤسسة التي تحل محلها . وتنامت الثروات في البلاد النفطية بعد ارتفاع اسعار النفط منذ ١٩٧٣ .

استطاعت الدول العربية ان تصوغ موقفا موحدا من الصراع لم يبلغ حد الاجماع في حرب ١٩٧٣ ، ولكن سرعان ما أنتثرت حبات عقد هذا الموقف . واعترفت الدول العربية عام ١٩٧٤ بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا لشعب فلسطين . وانشغلت منذ عام ١٩٧٥ بالازمة اللبنانية ، التي ما ان خفت حدتها حتى جاءت زيارة رئيس جمهورية مصر الى القدس المحتلة في تشرين الثاني ١٩٧٧ . وهكذا انشغلت الدول العربية بالتصدي لهذا الانفراد ومعالجة ما نجم عنه من آثار . وقد استطاعت ، في اعقاب توقيع مصر لاتفاق كامب داقيد مع اسرائيل والولايات المتحدة أن تصوغ موقفا عربيا موحدا في مؤتمر القمة التاسع ببغداد في تشرين الثاني ١٩٧٨ اكدت فيه التزامها بقرارات الامم المتحدة في تسوية الصراع العربي الاسرائيلي وجمدت عضوية مصر في الجامعة العربية ونقلت مقر هذه الجامعة الى تونس

يمكننا أن نلاحظ ايضا ، فيما يخص هذا البعد في الصراع ، أن المنطقة العربية شهدت حركة احياء روحي ، بدت تباشيرها منذ نكسة حزيران ١٩٦٧ وتنامت في السبعينات وبلغت مداها بعد نجاح الثورة الاسلامية في ايران عام ١٩٧٩ . وقد عبرت هذه الحركة عن موقف حضاري يرفض الاستغراب والتحديث على الطريقة الغربية ، وحكمت بفشله . كما مثلت تطورا في المفهوم القومي الذي ساد خلال العقدين السابقين اضاف اليه بعد الأخوة الروحية ضمن دائرة الحضارة العربية الاسلامية . وقد هيأ هذا التطور فرصة سانحة لاقامة علاقات صحيحة بين منطقة الوطن العربي وبين جاراتها التي تمثل عمق هذا الوطن ، ونلاحظ ان ايران وتركيا تشهدان الظاهرة نفسها . كذلك نلاحظ أنّ العداء الموجه الى الولايات المتحدة في المنطقة يتزايد مع وجود نزعة قوية لاستعادة **الهوية الثقافية** ، ترجع بالمنطقة الى اصولها ، وتقرن بين

الاصالة والتجديد . ونلاحظ ان اطراف منطقة الوطن العربي أصبحت مراكز لبؤر توتر شديد في الصراع الدولي وعلى الخصوص في القرن الافريقي وبحر العرب القريب من افغانستان الامر الذي جعل بحر العرب والمحيط الهندي ساحة مواجهة في هذا الصراع (٨) .

كيف تفاعلت م . ت . ف . مع الاحداث ؟

نصل بعد استحضار ابعاد الصراع كما بدت في السبعينات الى الاجابة عن السؤال الذي طرحناه ، حول مسيرة الشعب الفلسطيني في اطار ثورته خلال العقد الماضي ، وحول موقف منظمة التحرير الفلسطينية اليوم وهي تستقبل الثمانينات .

لقد تفاعلت منظمة التحرير مع الاحداث التي عاشتها المنظمة فأثرت فيها الى حد ليس بالقليل ، وتأثرت بها الى حد ليس بالقليل . وشقت طريقها وسط هذه الاحداث، وتابعت النضال في داخل الوطن المحتل وخارجه، وحققت نتائج هامة . وتوزع جهد المنظمة بين توجيه الضربات للعدو الصهيوني على الصعيدين العسكري والسياسي وتحقيق تقدم على طريق التحرير وبين حماية نفسها من الضربات التي توجه اليها . وقد خرجت من المعارك المتصلة التي خاضتها أشد قوة وصلابة .

يمكننا أن نشير هنا بايجاز الى أهم ما نراه في تحرك المنظمة خلال السبعينات ، ونميز بين ثلاث مراحل عبرها هذا التحرك :

* بدأت السبعينات بأزمة ايلول في الاردن ، وعانت الثورة منها ما عانت . ولكنها ما لبثت أن خرجت من هذه المعاناة وتابعت نضالها . ونجحت المنظمة في مطلع السبعينات في **استكمال هدف أساسي لها وهو تلاحم شعبها الفلسطيني بها** ، فأصبحت الممثل الحقيقي الوحيد لهذا الشعب . واستقرت مؤسساتها على أرض صلبة من الشوري والديمقراطية ، وتحقق في هذه المؤسسات حد أدنى من الوحدة الوطنية بين فصائل المقاومة . وهكذا اختتمت المنظمة مرحلة أولى هامة في نضالها .

* كذلك نجحت المنظمة عام ١٩٧٤ في **استكمال هدف أساسي آخر لها وهو اعتراف الدول العربية بها ممثلا شرعيا لشعب فلسطين** . وقد اتخذ هذا الاعتراف صفة العضوية الكاملة في جامعة الدول العربية عام ١٩٧٧ . وكان ذلك تعبيرا عن استكمال تأييد امتها العربية لها . وهكذا اختتمت المنظمة مرحلة اخرى هامة في نضالها .

* وغذت منظمة التحرير السير في اعقاب حرب ١٩٧٣ **للحصول على اعتراف العالم بها وبالحقوق الوطنية الثابتة لشعب فلسطين** . وكانت بعض الفصائل قد وجهت جزءا من نشاطها لعمليات في الساحة الدولية ضد اهداف صهيونية لفتت الانظار الى المشكلة . كما وجهت المنظمة جزءا من نشاطها السياسي للنفاذ في بعض مجالات الساحة الدولية . **وهكذا دخلت المنظمة المرحلة الثالثة الحاسمة في نضالها ، التي تصل بها الى حصولها على الشرعية الدولية ومن ثم بلوغ أهدافها .**

اعطت المنظمة اهتماما للكفاح المسلح ضد العدو الصهيوني داخل فلسطين المحتلة . وقد اتخذ هذا الكفاح المسلح صورة عمليات عسكرية تقوم بها المقاومة الشعبية في الداخل ، وصورة عمليات عسكرية توجه الى الداخل من قواعد الثورة في الخارج ، ونلاحظ أن المقاومة

المسلحة حققت تصاعدا يلفت النظر وتطويرا في اساليبها في قطاع غزة والضفة الغربية في اوائل السبعينات ، الامر الذي دفع العدو الى مضاعفة جهوده للقضاء عليها . واستمرت هذه المقاومة على الرغم من ذلك ضمن حد معين في القطاع وفي الضفة الغربية وسط ظروف بالغة الصعوبة وعلى الرغم من كل وسائل القمع الاسرائيلي . وما زالت مستمرة تقدم صورا من بطولات شعب فلسطين .

كذلك تتابعت عمليات المقاومة الموجهة من خارج فلسطين وتنوعت وقامت بدورها مع عمليات الداخل خلال حرب رمضان . وطرحت في بعض الاحيان نماذج متطورة تجلت فيها بطولات شعب فلسطين .

بقي معدل عمليات الكفاح المسلح خلال السبعينات محافظا على مستوى معين لا يتجاوزه . ولم يصل هذا المعدل الى حد يغير من طابع المواجهة مع العدو . وكانت جل الجبهات العربية مغلقة امام هذه العمليات . كما لم تستطع المقاومةالمسلحة بناء قواعد ثابتة لها في الداخل . وبقيت هناك نسبة من العمليات يجري كشفها قبل ان تنفذ . ونمت قوة المنظمة على الصعيد العسكري نموا لا بأس به . واستوعبت بعض الاسلحة المتطورة ، ولكن هذا التطور والنمو بقي محدودا . وعانت قوة المنظمة العسكرية من بعض اوضاع جيش التحرير ومن تعدد الفصائل .

وخاضت المنظمة معارك دفاعية في مواجهة محاولات العدو تصفية وجودها في لبنان . وكانت اشد هذه المعارك ضراوة ما سمي**بحرب الايام الثمانية في اذار** ١٩٧٨ . وقد خرجت المنظمة من هذه المعارك اكثر قوة .

واجبرت المنظمة على دخول معارك مع اطراف عربية خلال وجودها في لبنان منذ عام ١٩٦٩ . فكان هناك اشتباك عام ١٩٧٣ . ثم جاءت الازمة اللبنانية التي استمرت سنتين بين عامي ١٩٧٥ و ١٩٧٧ . وقد اثرت هذه المعارك على الكفاح المسلح داخل الوطن المحتل تأثيرا سلبيا .

اهتمت المنظمة خلال هذا العقد **بتصعيد نضالها السياسي داخل فلسطين المحتلة وخارجها** .وبذلت في هذا النضال جهودا كبيرة ، ونجحت المنظمة من خلاله في تحقيق نتائج هامة .

فعلى صعيد الوطن المحتل استمرت المقاومة الشعبية للاحتلال . وتجلت في الانتخابات البلدية حيث فاز مرشحو المنظمة . وخاضت قيادات الداخل معارك سياسية متصلة كان لها دور لفت انظار العالم . وبلغ النضال السياسي احدى ذراه في انتفاضة يوم الارض في الجليل عام ١٩٧٦ . واتجهت قيادات فلسطينيي المناطق المحتلة عام ١٩٤٨ الى الالتحام بمنظمة التحرير . واصبحت **المنظمة بحق الممثل الوحيد لشعب فلسطين** . ودللت مجموعة اختبارات على صدق هذه المقولة . وكان من آخر هذه الاختبارات محاولات اشراك فلسطينيي الضفة والقطاع في مفاوضات الحكم الذاتي ضمن اطار كامب دافيد ، وقد فشلت هذه المحاولات فشلا ذريعا .

وعلى صعيد شعب فلسطين في اماكن تجمعه المختلفة ، نجحت المنظمة في التواصل مع

ابناء فلسطين وفي حشد جانب من طاقاتهم تتناسب مع الظروف المحيطة بهم . ونظمت قطاعات منهم على الصعيد المهني . وبقيت قطاعات اخرى تفتقر الى التنظيم الشعبي . وبنت عددا من المؤسسات الخاصة بهم . وتولت رعاية بعض نشاطاتهم في بعض اماكن التجمع . واصبحت على الصعيد المعنوي المسؤول عن كل فلسطيني ، وعلى الصعيد المادي مسؤولة عن قطاع منهم، وتجاوزت اهتماماتها الجانبين العسكري والسياسي الى الجوانب الاقتصادية والثقافية والتربوية والاجتماعية والصحية .

واستقر بناء المنظمة الدستوري على اساس راسخ من خلال الممارسة في ظل المؤسسات الدستورية ، وانتظمت العلاقة بين المجلس الوطني والمجلس المركزي واللجنة التنفيذية والدوائر والجيش والفصائل . كما تحددت صيغة العلاقات بين الفصائل على ارض المنظمة . وتبلورت الى حد ليس بالقليل طريقة صنع القرار . وقدمت هذه الممارسة بمجملها تجربة ديمقراطية ثورية تستحق التقدير .

كان من أهم ما فعلته المنظمة ، خلال السبعينات ، هو طرحها برنامجاً سياسياً حددت فيه اهدافها وطرحت افكارا واضحة لكيفية تحركها على طريق بلوغ هذه الاهداف . وقد طرحت المنظمة عام ١٩٦٩ صيغة الدولة الديمقراطية في فلسطين التي يعيش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون مواطنين متساوين ، كحل عادل للصراع . وفي عام ١٩٧٤ طرحت فكرة السلطة الوطنية على أي جزء من فلسطين يتحرر ، ضمن برنامج النقاط العشر . ثم طرحت عام ١٩٧٧ فكرة قيام دولة فلسطينية على أي جزء من فلسطين ينسحب منه العدو . وحددت الحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني : حقه في العودة وفي تقرير المصير وفي اقامة الدولة المستقلة ذات السيادة . وقد ابرز خطاب رئيس المنظمة في الامم المتحدة هذه الافكار فتحدث عن الحكم الفلسطيني بدولة فلسطين الديمقراطية . ورحب أن يعيش اليهود الموجودون على أرض فلسطين مع العرب بسلام بعد ان ينبذوا العدوان . وطرحت فكرة اقامة حكومة فلسطينية في المنفى عدة مرات خلال السبعينات ، ولكن المنظمة لم تستجب لها مقدرة ان الشروط اللازمة لإقامتها لم تستكمل بعد .

قاوم الكيان الصهيوني فكرة الدولة الديمقراطية في فلسطين مقاومة شديدة واعتبرها تستهدف تقويض دولة اسرائيل . تماما كما قاوم فكرة اقامة دولة فلسطينية على جزء من فلسطين واعتبرها تهديدا لامن اسرائيل والنقيض لدولة اسرائيل . ولكن طرح المنظمة للفكرة الاولى ثم للفكرة الثانية لاقى تجاوبا في قطاعات من الرأي العام العالمي وفي دول كثيرة . ومهد لاقامة علاقات بين المنظمة وبين هذه القطاعات والدول . وقد رحبت غالبية الدول العربية بافكار المنظمة ، ولكن بعض هذه الدول تحفظ على هذه الافكار . ولم يقبل بفكرة اقامة دولة فلسطينية على جزء من فلسطين ، حتى انعقد مؤتمر بغداد واتخذ قرارا بهذا الشأن ضمن تصوره للحل العادل الشامل ، فزال التحفظ على الصعيد الرسمي (٩) .

اوصلت السبعينات الى طرح مجموعة اسئلة تتعلق بالبرنامج الوطني للمنظمة، وعلى الخصوص بهدف المرحلة الراهنة وصلته بالهدف النهائي . خصوصا بعد ان ادى ابرام اتفاق كامب دافيد وما اقترن به من ممارسات صهيونية في الوطن المحتل الى نزوع للتشـــدد في بعض

اوساط الساحة الفلسطينية والساحة العربية عموما ، والى احساس بعدم جدوى « الواقعية العملية » ، وضرورة الوصول الى الهدف النهائي . وقد تجلى ذلك بوضوح في مؤتمر حركةفتح، كبرى التنظيمات الفلسطينية، الاخير .

من هذه الاسئلة المطروحة :

ماذا يجب ان يتضمن برنامجنا الوطني ونحن على ابواب الثمانينات ؟

هل يمكن ميزان القوى الراهن من تحقيق هدف اقامة دولة فلسطين الديمقراطية من خلال تسوية سياسية ؟

هل نقبل باقامة دولة على جزء من التراب الفلسطيني إن تمكن ميزان القوى الراهن من فرض اندحاب اسرائيل من هذا الجزء ؟

هل تكون اقامة هذه الدولة خطوة على طريق بلوغ الهدف النهائي ام عقبة في طريق بلوغه ؟

ما هي الشروط التي يمكن بها ان نقبل اقامة دولة فلسطين على جزء من التراب ؟

ما هو موقفنا من النشاط السياسي إن كان ميزان القوى الراهن لا يصل بنا الى الحد الادنى الذي نتطلع اليه ؟ هل نحد منه ونوجه طاقاتنا للعمل العسكري ؟ هل نجعل الهدف منه التمهيد للحسم العسكري ؟

كيف نصعد عملنا العسكري داخل الوطن المحتل ؟ وكيف نعد للحرب العربية الاسرائيلية القادمة ؟

تحركت المنظمة بنشاط على **الصعيد العربي** ، واهتمت بعلاقاتها العربية مستشعرة بعمق حقيقة كونها جزءا من الدائرة العربية . وتميزت هذه العلاقات **بالتداخل النابع من وجود ارتباط عضوي** بين الجسم الفلسطيني والدول العربية ، من خلال ثقل الوجود الفلسطيني في بعض هذه الدول المجاورة لفلسطين وفي الجزيرة العربية ، ووجود ارتباط عضوي بين فصائل الثورة والمؤسسات الحاكمة في هذه الدول . الامر الذي جعل صورة **هذه العلاقات تبدو غاية في التعقيد والتشوش احيانا** . ويمكننا ان نستخلص الخطوط الرئيسية التي ترسم هذه الصورة ان امعنا النظر فيها .

* حرصت المنظمة على الحفاظ على **دائرة خاصة بها تعبر فيها عن استقلالها** . وقاتلت قيادة المنظمة حفاظا على هذه الدائرة التي بدت صغيرة على العموم وكانت تتسع وتضيق احيانا بحسب الظروف . وجاء هذا الحرص تعبيرا عن تمسكها بسياسة استقلال القرار الفلسطيني .
* تمسكت المنظمة جهد المستطاع بسياستها القائلة بعدم التدخل في الامور الداخلية للدول العربية ، وهي سياسة تنسجم مع سياسة استقلال القرار الفلسطيني . وكانت تعمد الى التدخل كرد على التدخل في ما تعتبره تدخلا في ساحتها الفلسطينية ومساسا بدائرة استقلالها .
* حاولت المنظمة جهدها ان توفق بين ارتباطاتها الرسمية مع الدول العربية وصفتها كمنظمة رسمية تتعامل مع هذه الدول ، وبين علاقاتها الشعبية وتفاعلاتها مع قوى التغيير في هذه الدول وصفتها كمنظمة ثورية تقود ثورة شعبية هي قبلة انظار الثوار العرب .

ولم تكن المحاولة سهلة ابدا في **عملية الجمع بين ما اصطلح على تسميته بالعمل العربي الموحد والعمل العربي الثوري** . ومع ان المحاولة نجحت الى حد ما الا **انها سببت**

سوء فهم في الدول العربية وفي اوساط المنظمة على السواء . ولم تبذل الجهود اللازمة لازالة سوء الفهم هذا بشرح طبيعة العلاقات على ضوء طبيعة تكوين اطرافها (١٠)

* تحركت قيادة المنظمة بين مختلف اطراف الدائرة العربية واقامت علاقات ثنائية معها وشاركت في تحالفاتها المختلفة والمتعارضة احيانا ، ودخلت كوسيط في النزاعات التي تقوم بين بعض هذه الاطراف . وقد حكمها في تحركها هذا ادراك بأهمية المبادرة والفعل ، واستشعار لدورها المعنوي كثورة ، ووعي بحدة تأثرها بالاحداث العربية المحيطة ، واحساس بقيمة عمقها ، وحرص على عدم وقوعها اسيرة أية صيغة تفقدها استقلال القرار الفلسطيني .

حين ننظر في حصيلة علاقات المنظمة على الصعيد العربي خلال السبعينات نرى ان قيادة المنظمة نجحت في احتلال مكان هام من الصورة العربية .ونجحت ، حسب وجهة نظر بعض المراقبين ، في الخروج من مآزق صعبة حصرت فيها ، فاستمرت بفعالية تؤثر في الدائرة العربية . ونلاحظ ان علاقاتها سارت وتوترت مع عدد من الدول العربية واحدة بعد الاخرى ، ولكنها لم تصل فقط الى طريق مسدود ، بل عادت وانفرجت ثم تحسنت من جديد. ونلاحظ ان علاقات خاصة ربطتها بدول عربية بعينها بحكم الجغرافيا احيانا، وبحكم الظروف السياسية المحيطة احيانا اخرى . ويلاحظ بعض المراقبين ان قيادة المنظمة لم تكن طوبائية في نظرتها الى العلاقات العربية فتعاملت معها بواقعية عملية « براجماتية » .وهذا في رأيهم ما ساعدها على البقاء والاستمرار . كما يلاحظ البعض انها لم تحرص على بناء الموقف العربي الواحد لان « الاختلاف في الساحة العربية رحمة وليس نقمة » فيما يختص بالنضال من اجل تحرير فلسطين في رأي هؤلاء . وقد وجد تيار قوي في قيادة المنظمة يرى غير ذلك ، ويعتقد ان بناء الموقف العربي الواحد يقوي المنظمة ويمكنها من القيام بدور هام في قيادته ويمنع الانفراد الذي تسعى اليه اسرائيل في تسوية الصراع . وايا كان الحال فان السبعينات اوصلت الى طرح مجموعة اسئلة تخص علاقات المنطقة العربية . ولا بد من اجابات واضحة على هذه الاسئلة:

ما هو مستقبل وجود المنظمة في لبنان ، وكيف تنظم العلاقة الفلسطينية اللبنانية وتقنن ؟

ما هي الصيغة الامثل للعلاقة الفلسطينية الاردنية من اجل بلوغ هدف التحرير ؟

كيف تعزز العلاقة الفلسطينية السورية ، وكيف يتحقق الانسجام بينها وبين كل من العلاقتين السابقتين ؟

بتعبير آخر : ما هي خريطة العلاقات العربية في ما اصطلح على تسميته بسورية الكبرى ؟

كيف نعمل من اجل بناء الجبهة الشمالية الشرقية ؟ وما هو الدور الذي يمكن للعراق القيام به في النضال من اجل التحرير ؟ وكيف تعزز العلاقة الفلسطينية العراقية ؟

كيف نعمل من اجل بناء جبهة الدول النفطية في الجزيرة العربية ؟ وما هو الدور الذي يمكن لهذه الجبهة ان تقوم به في النضال من اجل التحرير ؟

ما هي رؤية المنظمة لدور العمل العربي الموحد في النضال من اجل التحرير على الصعيد العسكري وعلى صعيد العلاقات الدولية ؟

كيف نعمل فلسطينيا وعربيا لمواجهة اتفاق كامب دافيد في مصر واعادة مصر الى المجموعة العربية ؟

م ت ف.على الصعيد الدولي

كثفت المنظمة نشاطها بعد حرب رمضان عام ١٩٧٣ على الصعيد الدولي ، مدركة طبيعة المرحلة التي دخل فيها النضال الفلسطيني ، ومستشعرة اهمية البعد الدولي في حل الصراعات ، وواعية المكانة التي تحتلها الثورة الفلسطينية في عالمنا كواحدة من اكبر حركات التحرير المعاصرة ، وكأولى هذه الحركات بعد انتصار فييتنام ورمز للثورة العالمية . وتحركت المنظمة على عدة صعد في النطاق الدولي ، فاقامت صلات مع التنظيمات الشعبية والاحزاب في عدد من الدول ، ومع المنظمات الشعبية الدولية ، ومع الدول على صعيد ثنائي ، ومع المجموعات الدولية ، ودخلت في المنظمات الدولية المختلفة .

اصبحت المنظمة عضوا مراقبا في منظمة الامم المتحدة عام ١٩٧٤ . وبدأت تشارك بهذه الصفة في مختلف نشاطات المنظمة الدولية والمنظمات المتفرعة عنها . واذا كان قرار دخول المنظمة في الامم المتحدة قد تم بموافقة اغلبية الساحة الفلسطينية ، ووجد عند ذاك من يهاجم هذه الخطوة ، فقد اكدت التجربة العملية مدى سلامتها واصبحت القناعة بها شاملة . وبعد ان اصبحت المنظمة عضوا مراقبا في اليونسكو ومنظمة العمل الدولية والمنظمة الصحية وغيرها، تطلعت لكي تصبح عضوا في صندوق النقد الدولي .

انطلقت المنظمة من هذه الخطوة الى اقامة علاقات ثنائية مع العديد من الدول وافتتحت مكاتب لها فيها . وقد اعطت اهتماما لدول العالم الثالث في دوائره الاسلامية والافريقية والآسيوية وعدم الانحياز ، واصبحت عضوا كامل العضوية في المؤتمر الاسلامي ومؤتمر عدم الانحياز وعضوا مراقبا في مؤتمر الوحدة الافريقية .

وقد شهدت نهاية السبعينات افتتاح مكتب للمنظمة في ايران احتل مبنى السفارة الاسرائيلية التي جرى اغلاقها بعد انتصار الثورة الاسلامية هناك ، وافتتاح مكتب للمنظمة في تركيا تبعته زيارة رسمية لرئيس اللجنة التنفيذية الى انقرة . وهكذا تم طرد اسرائيل من العمق العربي في الشرق – نعني ايران – وبقي ان تطرد من العمق العربي في الشمال – نعني تركيا – وفي الجنوب – نعني اثيوبيا – ليتحقق مزيد من امن الوطن العربي ونستكمل عزلها وشلها عن العدوان .

واعطت المنظمة اهتماما لعلاقاتها بدول المنظومة الاشتراكية التي يقودها الاتحاد السوفياتي ، وحرصت على تقوية اواصر الصداقة مع هذه الدول . وافتتح مكتب للمنظمة في موسكو اخذ وضعا رسميا واستقبل رئيس المنظمة عدة مرات رسميا والتقى بامين عام الحزب وكبار القادة . وحدث مثل ذلك في دول اوروبا الشرقية . وقد اعلن الاتحاد السوفياتي تأييده للحقوق المشروعة لشعب فلسطين ودعا الى تطبيق سريع لقراري ٢٤٢ و٣٣٨ الصادرين عن مجلس الامن .

وتابعت المنظمة تعزيز علاقاتها مع الصين التي كانت اول دولة خارجية تعترف بالمنظمة كجزء من موقف متكامل يعترف بالحق الفلسطيني .

وبذلت المنظمة جهدها للنفاذ الى اوروبا الغربية ، خلال السبعينات . وقد بعثت بمجموعة

مسؤولين اعلاميين تحركوا من خلال مكاتب اعلام جامعة الدول العربية . وتحركت على صعيد التنظيمات الشعبية والحزبية وعلى صعيد العلاقات الثنائية الرسمية وعلى صعيد الحوار العربي الاوروبي الحكومي والبرلماني . واتخذت موقفا ايجابيا من فكرة الحوار العربي الاوروبي وعملت من خلاله على ايجاد حقائق جديدة تصل بالدول الاوروبية الى تطوير موقفها والاعتراف بالحق الفلسطيني وبالمنظمة . وقد وصلت دول المجموعة الاوروبية التسع الى الاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في بيان البندقية حزيران ١٩٨٠ كما سبق ان ذكرنا . وكانت النمسا من بين الدول الاوروبية الاخرى قد اتخذت موقفا متقدما واعترفت بالمنظمة رسميا، ومثلها كانت اسبانيا . وقد نجحت المنظمة بالتعاون مع الدول العربية في تطوير مواقف الدول الاوروبية من الحقوق الفلسطينية خلال العقد الماضي . ولكن هذه المواقف بقيت تحاول الموازنة بين هذه الحقوق وبين ما تسميه « امن اسرائيل » . كما بقيت تتأثر الى حد كبير بالموقف الاميركي ، ولم يقدر لها ان تتجسد في اجراءات عملية بعد ، ولا ان تصوغ بمجموعها دورا اوروبيا واضحاً في العمل لبلوغ التسوية العادلة .

وجابهت المنظمة على مدى السبعينات سياسة الولايات المتحدة الاميركية تجاه الصراع مجابهة شديدة ، وحاولت في النصف الثاني من العقد النفاذ الى قطاعات في الشعب الاميركي للتأثير على السياسة الرسمية الاميركية . وكانت الادارة الاميركية قد اسهمت بوضوح في تدبير ازمة ايلول في الاردن عام ١٩٧٠ ، ثم في تدبير ازمة لبنان ربيع عام ١٩٧٣ ، وتولت الاجهزة الامريكية القيام بدور بالغ الخطورة في حرب السنتين تنفيذا للسياسة التي رسمها هنري كيسنجر والتي اتجهت الى فرض التسوية على مراحل والى ابعاد منظمة التحرير الفلسطينية والى رفض فكرة اقامة دولة فلسطينية . وقد عمد كيسنجر الى تقييد الحكومة الاميركية بالاتفاقيات السرية التي ابرمها مع اسرائيل والحقها باتفاقية سيناء عام ١٩٧٥ بين مصر واسرائيل . وحين تولت ادارة الرئيس كارتر في مطلع عام ١٩٧٧ تحدثت عن وطن للفلسطينيين ثم عن الحقوق المشروعة للفلسطينيين في البيان السوفياتي الاميركي بعد ان كانت السياسة الاميركية تتحدث عن المصالح المشروعة للفلسطينيين .

ولكن هذه الادارة اعتمدت سياسة متذبذبة تقوم على التقدم والتراجع . فكان ان اشارت الى حق تقرير المصير ، ثم تراجعت الى المشاركة في حق تقرير المصير ، ثم الى المشاركة في صنع مستقبلهم ، وتراجعت عن البيان وابرمت اتفاقيات كامب دافيد التي جسدت هذا التراجع . واتجهت في صيف عام ١٩٧٧ الى تعديل قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ شريطة اعتراف المنظمة بالنص الخاص بضمان امن جميع دول المنطقة . ثم اتجهت في مطلع عام ١٩٧٨ الى سياسة الاجهاز على المنظمة التي عبر عنها بريجنسكي « مستشار الامن القومي » « وداعاً لمنظمة التحرير » . ثم لم تلبث، مع فشل هذه السياسة، ان اعادت النظر فيها ، وبدأت تفكر بموقف آخر . وقد بدت هذه السياسة مناقضة لشعار حقوق الانسان الذي رفعته ادارة الرئيس كارتر وسبب تذبذبها عدم ثقة اكثر الدول العربية بها وفقدان احترامهم لها .

تصدت المنظمة لهذه السياسة بعناد شديد ووظفت علاقاتها العربية والدولية لمقاومتها ونجحت في الصمود امامها . ورفضت الاستجابة للشرط الاميركي لمباشرة الحوار معها . وقامت في الوقت نفسه بجهود تلفت النظر للنفاذ في بعض اوساط الشعب الاميركي . ووضعت نصب

اعينها ان تصبح قضية فلسطين واحدة من القضايا التي تؤثر على ضميره وعلى مصالحه . ونجحت في اقامة صلات محدودة مع بعض رجال الكونغرس ، ثم مع بعض قيادات السود ، ورجالات الحركة المعادية للحرب ، وقامت مؤخرا بتنظيم الجالية الفلسطينية في الولايات المتحدة والتواصل مع الجالية العربية هناك .

لقد اوصلت السبعينات الى طرح مجموعة اسئلة تتعلق بعلاقات المنظمة الدولية وبالسياسات الدولية في المنطقة .

هل طرأ تغير على مكان اسرائيل في الاستراتيجية الاميركية تجاه منطقة الوطن العربي بعد اتفاق كامب دافيد ؟

هل ستغير الولايات المتحدة موقفها من منظمة التحرير الفلسطينية ؟ وهل ستعترف بالحقوق الوطنية لشعب فلسطين ؟

هل يتم التوصل الى اتفاق بشأن منطقة الوطن العربي بين الدولتين العظميين ؟

كيف يمكن ان يطور الاتحاد السوفياتي موقفه من الحقوق الوطنية لشعب فلسطين ؟

كيف نوجه العلاقة السوفياتية ـ العربية والسوفياتية ـ الفلسطينية لفرض انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة ؟

كيف يمكن ان نوجه اوروبا الغربية للقيام بدور فعال في فرض انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة ؟

كيف نعمل لطرد اسرائيل من المنظمة الدولية ، ولفرض العقوبات عليها ، ولتمكين الامم المتحدة على تنفيذ قراراتها ؟

جهود م . ت . ف . في الاوساط اليهودية

لا يكمل هذا الحديث عن جهود المنظمة على شتى الصعد الا بتطرقنا الى الصعيد الاسرائيلي اليهودي .

لم تهمل المنظمة في تحركها خلال السبعينات هذا الصعيد ، واعطته شيئا من اهتماماتها . وكان ذلك امرا جديدا في النضال الفلسطيني والعربي عامة . وقد تفاعل في الوصول اليه عاملان : اولهما هو ازدياد معرفة الثورة الفلسطينية بواقع اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧ نتيجة تقدم الدراسات الفلسطينية في هذا الميدان ونتيجة التفاعل المباشر في ساحة الصراع داخل الاراضي المحتلة . والعامل الآخر هو الثقة بالنفس التي اورثتها الثورة الفلسطينية للفلسطيني والعربي عامة ، والتي ابرزت منطق الفعل والتأثير . وهكذا اصبح النضال الفلسطيني يتتبع دقائق ما يجري داخل الكيان الاسرائيلي ويحاول التأثير عليه ، وكان النضال قبل ذلك يتعامل مع هذا الكيان من خلال نظرة عمومية غير دقيقة لا تثمر الا احكاما عامة . ولكن يمكن القول في الوقت نفسه ان المنظمة لم تعط هذا التحرك الاهتمام اللازم كله ، وتقيدت حركتها فيه برواسب المرحلة السابقة وبضغوط اسرى العموميات في الساحة العربية وبعدم الوضوح الكامل فيه .

تعرفت المنظمة على حركات الرفض الاسرائيلية التي ظهرت اواخر الستينات كـ« ماتسبن » ، واحتكت بفلسطينيي الاراضي المحتلة عام ١٩٤٨ لأول مرة - وهم جزء من الشعب الفلسطيني انقطع التواصل معه بين عامي ١٩٤٨ و١٩٦٧ - واوصلها ذلك الاحتكاك الى التعرف على حزب راكاح الشيوعي الاسرائيلي ، الذي يضم عددا هاما من هؤلاء الفلسطينيين ، ثم الى التفاعل معه . كما تعرفت المنظمة على مواقف افراد اسرائيليين يرفضون التوسع الصهيوني ، ومواقف آخرين يقلقهم الارهاب الصهيوني الموجه لعرب فلسطين ، ودرست المنظمة بعناية برامج الاحزاب الاسرائيلية وحددت مواقع كل منها .

كذلك التقت المنظمة ،خلال تحركها على الساحة الدولية بعناصر يهودية تقدمية ترفض الصهيونية كليا او جزئيا ، وتدعو الى وقف التوسع الصهيوني ووقف الارهاب الصهيوني الموجه لعرب فلسطين . ودرست المنظمة دراسة اولية طبيعة تكوّن التجمعات اليهودية في الولايات المتحدة واوروبا الغربية واوروبا الشرقية ، والعوامل التي تؤثر في توجهاتها ، واقامت علاقات مع العناصر التقدمية فيها .

وانطلقت المنظمة من تفريقها بين الصهيونية واليهودية الى اتخاذ موقف ينادي بالحوار مع القوى التقدمية اليهودية والتعاون معها في مواجهة الاطماع الصهيونية . كما اتخذت موقفا واضحا يؤيد بقوة حجة اليهود في العيش على قدم المساواة في اوطانهم مع مواطنيهم بما في ذلك يهود الوطن العربي(١١) . ورحب خطاب فلسطين في الامم المتحدة عام ١٩٧٤ بأن يعيش اليهود في فلسطين مع شعب فلسطين بسلام بعد ان ينبذوا العنصرية الصهيونية . ثم قرر المجلس الوطني الفلسطيني عام ١٩٧٧ التوجه للحوار مع القوى التقدمية اليهودية . وقامت منظمة التحرير باللقاء مع حزب راكاح باعتباره ينكر الصهيونية . وشهدت السبعينات دخول افراد اسرائيليين في تنظيمات الثورة ومشاركتهم في بعض العمليات . كما شهدت توجه عدد من القيادات الاسرائيلية المعارضة للحوار مع المنظمة . وقد جابهت الاحزاب الصهيونية هذا التوجه بشدة تلفت النظر . كما قاومت هذا التوجه في المجتمعات اليهودية في العالم .

وعلى الرغم من ان تحرك المنظمة على هذا الصعيد اوصل الى نتائج اولية هامة ، وبدت فيه القوى الاسرائيلية الصهيونية في موقع الدفاع والعزلة وهي ترفض الاعتراف بوجود منظمة التحرير ، فان حركة المنظمة في هذا المجال لم تأخذ مداها وقيدتها فكرة رفض الحوار مع اليهود التي سادت في مرحلة النضال السابقة فظهرت آنذاك كموقف دفاعي امام الهجمة الصهيونية ، وضغوط اسرى العموميات في الساحة العربية الذين بقوا يعيشون في ظل تلك المرحلة ولم ينتقلوا الى المرحلة الجديدة في فهم الغزوة الصهيونية والتعامل معها . واساء الى هذه الحركة احيانا عدم الوضوح والاقدام على خطوات لم يتم بحثها بشكل كاف ، الامر الذي ترك مجالا للتخوف والتحسب .

كانت اهم النتائج التي حققها هذا التحرك هو اسهامه في تفجير انتفاضات داخل الكيان الاسرائيلي في الاتجاه المعادي للصهيونية ، واسهامه في الاخلال في التطابق بين الحركة الصهيونية وتجمعات اليهود في عالمنا . ومن المؤشرات التي تلفت النظر ان عددا متزايدا من داخل اسرائيل وخارجها بدأ يرفض الصهيونية ، وان عددا آخر منهم ، ممن لا يزال يعتنق

الصهيونية ، يحاول ان يطرح لها مفهوما جديدا يزاوج بين اعتقاده انها حركة احياء يهودية وبين رفضه لممارساتها العنصرية .

لقد اوصلت السبعينات الى طرح مجموعة اسئلة تتعلق بتحرك المنظمة على صعيد يهود العالم واليهود الاسرائيليين :

كيف تصعد المنظمة مقاومتها المسلحة للاستيطان الصهيوني الذي اجمع العالم على ادانته ؟

كيف تحاصر المنظمة غلاة الصهيونية الاسرائيلية وغير الاسرائيلية ؟

كيف تغذي المنظمة الاتجاهات اليهودية المعادية للاستيطان والحرب والقمع ؟

كيف تتحرك المنظمة في اتجاه اليهود العرب ومن بينهم يهود فلسطين العرب ؟

كيف تتحرك المنظمة في اتجاه دعاة الصهيونية الجديدة الذين يحاولون طرح مفهوم جديد للصهيونية برفض التوسع والممارسات العنصرية ؟

كيف تتحرك المنظمة في اتجاه دعاة الصهيونية الجديدة الذين يحاولون طرح مفهوم جديد للصهيونية برفض التوسع والممارسات العنصرية ؟

كيف تتحرك المنظمة بين تجمعات يهود الولايات المتحدة واوروبا الغربية واوروبا الشرقية ؟

كيف تنظم المنظمة الحوار مع القوى التقدمية اليهودية ؟

* * * * * *

ان نظرة على حصيلة جهود المنظمة في السبعينات تبين انها اوصلت الى نتائج هامة جدا على صعيد بناء الكيان الفلسطيني وممارسة الكفاح المسلح واقامة شبكة واسعة من العلاقات على الصعيدين العربي والدولي ، وقد اجلنا الاستشهاد بما قاله الاستاذ يوسف تشايتس احد ابرز خبراء العدو في الشؤون العربية حول المنظمة في مجلة « آفاق اسرائيلية » لنختم به هذا الحديث .

« حين نتحدث عن منظمة التحرير الفلسطينية لا نحكي عن قوة عددية ، فمن ناحية مدنية هناك شعب عدده ثلاثة ملايين نسمة او اكثر يضم مخيمات لاجئين وبورجوازيين واصحاب مهن حرة ونسبة كبيرة من ذوي الكفاءات العالية . وهناك من ناحية عسكرية عديد من المنظمات اكبرها واقواها « فتح » تضم آلافا من الرجال المسلحين .

تتمتع المنظمة بمكانة مرموقة في الدول العربية . فهي تحظى بالتأييد الشعبي . وليس هناك ممثل للشعب الفلسطيني سواها ، وليس ثمة شك على الصعيد الدبلوماسي في ان منظمة التحرير افضل حالا من اسرائيل . فعدد الدول التي اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية يزيد عن عدد الدول التي تعترف باسرائيل . وللمنظمة ممثلون في الدول الغربية والشرقية .

تعتبر منظمة التحرير نفسها اكثر المؤسسات ديموقراطية في العالم العربي . وانصافا للحقيقة يمكن القول انه لا توجد هناك دولة عربية واحدة توجد فيها اجراءات ديموقراطية الى ذلك الحد[١٢] » .

ذلك هو حديث الحاضر والماضي عن مسيرة الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير الفلسطينية في خضم الصراع العربي الصهيوني على مدى السبعينات .

ومن خلاله تعرفنا على مختلف جوانب صورة الحاضر وحللناها ، ورسمنا مجرى الاحداث كما تتالت فيما اصبح ماضيا ، وطرحنا اسئلة محددة تتضمن الاجابة عليها رؤانا المستقبلية لهذه المسيرة في الثمانينات . وذلك هو حديث المستقبل الذي سنتناوله في مقال آخر .

---

(١) يراجع حول الدراسة المستقبلية ، من بين كتب اخرى :

قسطنطين زريق ، « نحن والمستقبل » بيروت ، دار العلم للملايين الطبعة الاولى ، ١٩٧٧ : احمد صدقي الدجاني ، « ماذا بعد حرب رمضان » ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٤ .

(٢) فصلنا شرح هذه المراحل في كتابنا : « ماذا بعد حرب رمضان » ، مصدر سبق ذكره ؛ واشرنا الى كتاب جمال حمدان « استراتيجية الاستعمار والتحرير » ، كتاب الهلال .

(٣) مجلة « النهار العربي والدولي » باريس ، ١٩٧٩/١١/٨ .

(٤) هناك مجموعة كتب نشرت حول سياسة كيسنجر وتطبيقاتها في منطقة الوطن العربي ، نشير من بينها ، الى كتاب امين هويدي ، « كيسنجر وادارة الصراع الدولي » ، بيروت ، دار الطليعة ، الطبعة الاولى، ١٩٧٩ .

(٥) يراجع من بين دراسات عدة :

جورج لنكوفسكي ، « قوس الازمات » ، مجلة « فورين افيرز » ، ربيع ١٩٧٩ ، ترجمة مركز التخطيط، بيروت ؛ جون س . كامبل ، « اعباء السيطرة » ، المصدر نفسه ، صيف ١٩٧٩ ، ترجمة مركز التخطيط .

(٦) شرحنا تطور الحوار العربي الاوروبي والجانب السياسي منه بشيء من التفصيل في كتابينا : « الحوار العربي الاوروبي وجهة نظر عربية ووثائق » ، القاهرة ، الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٩٧٦ ؛ « منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي ـ الاوروبي ووثائق » ، بيروت ، م . ت . ف ، مركز الابحاث ، ١٩٧٩ .

(٧) فصلنا شرح آثار حرب رمضان على التجمع الاسرائيلي والاتجاهات الاسرائيلية بعد الحرب في كتابنا « ماذا بعد حرب رمضان » ، مصدر سبق ذكره .

يراجع بشأن بروز غوش ايمونيم و« السلام الآن » ، بحث يائيل يشاع ، « المجموعات المؤثرة في السياسة الخارجية في اسرائيل » ، المقدم لمؤتمر IPSA ١٩٧٩ .

(٨) شرحنا العلاقات العربية العربية في كتابنا « العرب وتحديات المستقبل » ، القاهرة ، الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٩٧٦ ، وفيه مقال « الصراع بين عرب وعرب » .

(٩) هناك مجموعة مقالات تعرض لتحرك المنظمة على الصعيد الفلسطيني في سلسلة اعداد مجلة « شؤون فلسطينية » . وتتضمن هذه الاعداد ثبتا بالعمليات الفدائية .

(١٠) تراجع « شؤون فلسطينية » ، للتوسع في التحرك الفلسطيني على الصعيدين العربي والدولي ، وكذلك مجلة « دراسات فلسطينية » التي تصدر بالانجليزية عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

(١١) سعت المنظمة مع عدد من الدول العربية لاصدار اعلانات من هذه الدول تؤكد حق المواطنين اليهود الذين هاجروا منها في العودة . كما سعت لرفع اية اجراءات استثنائية طبقت عليهم بسبب الصراع ، ونجحت في ذلك الى حد كبير .

(١٢) مجلة « آفاق اسرائيلية» (*Israel Horizons*) ، مقابلة مع البروفسور تشايتس ، كانون اول ١٩٧٩ .

العميد سعد صايل

عمل الثورة الفلسطينية العسكري وآفاق تطوره

مقابلة أجراها: المقدم الطيار حسين عويضة وفيصل حوراني

تولى العميد سعد صايل « ابو الوليد » منذ التحاقه بالقوات العسكرية للثورة الفلسطينية في أيلول ١٩٧٠ مسؤوليات عسكرية بارزة . فقد قاد لواء اليرموك . ثم عين مديراً لفرقة العمليات المركزية المشتركة في لبنان . وتولى امانة سر القيادة العامة لقوات الثورة . وانتخب العميد صايل في حزيران ١٩٨٠ من قبل المؤتمر العام الرابع لحركة « فتح » لعضوية اللجنة المركزية للحركة ولعضوية القيادة العامة لقوات العاصفة .

وقبل التحاقه بقوات الثورة الفلسطينية كان العميد صايل ضابطاً في الجيش الاردني . انتسب اليه عام ١٩٥١ . بعد انهائه لدراسته الثانوية في نابلس . ودرس في معاهد عسكرية في لاردن وعدد آخر من البلاد العربية . ثم شهد دورات تخصص في بريطانيا والولايات المتحدة . وفي الاخيرة أتم دراسته في كلية الاركان العسكرية . وتسلم في هذا الجيش مسؤوليات عسكرية عدة . وكان قائد هندسة فرقة مشاة ثم قائد لواء مشاة . وهو المركز الذي تركه عندما التحق بقوات الثورة .

وفيما يلي وقائع هذه المقابلة التي اجرتها « شؤون فلسطينية » مع العميد سعد صايل في اواخر حزيران ١٩٨٠ :

س : الاخ العميد ، أنت اول عسكري محترف يصل الى عضوية اللجنة المركزية لحركة فتح . فهل تعتبر هذا تقديراً شخصياً لكفاءاتك ودورك في الثورة . فقط . ام انه تعبير عن حالة موضوعية ؟

ج : يحتار المرء في الاجابة على سؤال كهذا . لكني اعتقد ان الثورة الفلسطينية ، التي تعتمد استراتيجية الكفاح المسلح ، معنية تماماً بالالتفات الى القدرات العسكرية كافة ، خصوصاً أن الكفاح المسلح ، الذي اعتقد بأنه الاستراتيجية الصحيحة ، كان الرد الحازم على كل المحاولات التي تمت لحل القضية الفلسطينية حلولاً سلمية ، والتي لم تعط اية نتيجة . وهذا ما حمل الشعب الفلسطيني على الاقتناع بضرورة اعتماد استراتيجية جديدة ، بحيث يعتمد فيها اولاً على نفسه ويشكل الطليعة للامة العربية . واعتقد انه من هنا جاء اهتمام الثورة

الفلسطينية بالكفاءات والقدرات العسكرية . وهي لم تهتم فقط بجمع الكفاءات العسكرية بل اهتمت أيضاً بتنميتها داخل الثورة من مختلف الوجوه .

س : في قيادة الثورة كثيرون مارسوا الكفاح المسلح ، وسؤالنا موجه اليك بوصفك اول ضابط اكاديمي يصل الى هذا المركز ؟

ج : هناك كوادر اكاديمية عسكرية كثيرة في الثورة .

س : عندما ابتدأت الثورة كان من الممكن لأي انسان ان يحمل السلاح ، وكان هذا يتم في احيان كثيرة بغير دراسة او تأهيل عسكريين ، وفي مقدور الانسان ان يترقى في سلم المسؤوليات والكوادر طبقاً لنشاطه واندفاعه وحماسه الوطني ، وقد تبدلت الصورة الآن لصالح الدراسة والتأهيل الى جانب الحماس الوطني ، فهل ترى في انتخابك لعضوية اللجنة المركزية لفتح تعبيراً عن هذا التطور ؟

ج : اريد ان اوضح شيئاً حول هذا الموضوع: ان افضل المقاتلين يتدرب من خلال القتال . لكن ، يبقى شيء وهو أنه لا بد من صقل مفاهيم هذا المقاتل وتهيئته باستمرار لقدرات وطاقات اكبر . لذلك لا بد ان يمر المقاتل بادوار تأهيلية ومنها الدراسة العسكرية الاكاديمية ليحصل على ثقافة عسكرية . وفي الحقيقة وجدنا كثيراً من اخواننا المقاتلين غير مؤهلين عسكرياً في حين أن لديهم تجربة قتالية عملية وكانت لهذه التجربة أهمية كبيرة عند تأهيلهم ، وصار من السهل الحاقهم بالاكاديميات العسكرية . والكثيرون منهم يفيدون الاكاديميات مقدمين الخبرات التي اكتسبوها بالممارسة العملية . والمدارس العسكرية تقدر في العادة التجارب والخبرات وتضيف حصيلتها الى دروسها ، فالدروس ليست كلها نظرية ، وهي تعتمد باستمرار على التجارب والخبرات . والآن فقط اصبح لدينا كادر عسكري مؤهل .

س : كيف تطورت التجربة من البداية التي اعتمدت على الاندفاع والحماس الى التأهيل المنظم ؟

ج : بداية ، اعتمدت الثورة على الدوافع الموجودة لدى المقاتل ، على حماسه الوطني ورغبته في العطاء والتضحية . وهذه صفات يعد توفرها في المقاتل امراً أساسياً لانه يخوض معركة معقدة وشرسة مع عدو قوي لا تجوز الاستهانة بقدراته . ومثل هذا المقاتل استطاع اكتساب خبرات جيدة في ميدان القتال . ثم اخذنا في انشاء معاهد متواضعة داخل الثورة الفلسطينية ، هدفها صقل خبرات المقاتلين وتوحيد مفاهيمهم العسكرية وتزويدهم ببعض المعارف العسكرية النظرية المطروحة في العالم . وبعدها وجدنا من الضروري ان يطلع مقاتلونا على ما يستجد من معارف عسكرية وان يطوروا ثقافتهم وقدراتهم ، فارسلنا مقاتلينا الى المعاهد العسكرية في دول صديقة كثيرة وفرت لهم مدارك اكثر في الفهم العسكري ، ومكنتهم من أن يطلعوا على نظريات عسكرية اخرى غير التي يعرفونها من خلال تجاربهم في الثورة . وكل ذلك ساهم في صقل المقاتل ووضعه في الطريق الصحيح حتى يتقن استخدام الاسلوب الذي نعتمده وهو اسلوب حرب العصابات . وكما تعلمون فإن المدارس السائدة في العالم هي المدارس الشرقية والغربية ، ويستطيع مقاتلنا الاطلاع على نظريات النوعين ، ويتمكن بالتالي من

استخلاص الاسلوب الملائم لوضعنا ولطبيعة قتالنا مع العدو . وفي اعتقادي ان المقاتل الفلسطيني استطاع فعلاً أن يصل الى مرتبة من الفهم العسكري لا بأس بها اذا ما قيست مع المؤهلات العامة .

س : هل يمكننا القول بأن كل المقاتلين مؤهلون ، وبأن عندكم القدرة على تأهيل الجميع ؟

ج : يتم تأهيل المقاتل داخل الثورة من خلال معاهدها . والبعض يحصلون على التأهيل في المعاهد العسكرية للدول الصديقة ، وبعد عودتهم منها نعيدهم لمعاهدنا حتى يصقلوا المفاهيم التي حصلوها بما يتلاءم مع وضع الثورة الفلسطينية ومتطلباته . واستطيع ان أقول : ان ٨٠ بالمائة من الكوادر العسكرية للثورة ، من مقاتلين وضباط ، قد أهلوا عسكريا او اعيد تأهيلهم بعد الخبرات التي اكتسبوها في القتال .

س : يقودنا هذا الى نقطة اخرى ، ونحن نذكر ان « فتح » كانت عند انطلاقها تعترض على اقامة جيش نظامي محترف وتعتبر ذلك عملية لا لزوم لها ، فأين تقفون الآن بين المقاتل الشعبي المؤهل في قوات الثورة والجندي المحترف في الجيش ؟

ج : اتمنى ان نكون في « فتح » ، وفي الثورة الفلسطينية بشكل عام ، قادرين على الوصول الى مرحلة الجيش النظامي . واعتقد ان الحرب النظامية هي في الحقيقة افضل انواع الحروب للوصول الى المواقف الحاسمة السريعة . أما أننا نقوم بحرب عصابات فلهذا اسباب كثيرة ، بعض هذه الاسباب نابع من التفاوت الكبير في القوى بيننا وبين العدو . وأمام معطيات هذا الواقع نحن مضطرون لاختيار اسلوب حرب العصابات ، لأنه يوفر عدداً من المزايا في مواجهة تفوق العدو . وليس امامنا الا هذا الاسلوب على اساس أن حرب العصابات المستندة الى نفس طويل تمكننا من انهاك العدو واستنزافه ، وكل هذا لصالحنا . ولكن في النهاية لا بد من ان نتوصل الى تأسيس جيش نظامي . ولا يمكن ان تستمر حرب العصابات الى الابد . واذا عدنا الى التاريخ العسكري للثورات فسنجد انها ، جميعها ، انتهت الى تأسيس جيش نظامي كان وحده القادر على تحقيق الحسم . في فيتنام ، بالنسبة للثورة الفيتنامية ، الجيش النظامي هو الذي حسم الموقف في نهاية المطاف . وحين اتحدث عن جيش نظامي للثورة فليس غائباً عن بالي العقدة الفلسطينية تجاه جيوش الانظمة ، والتي تسببت في شيوع افكار تجعل عملية انشاء جيش عملية ممقوتة وتدفع الى التهيب منها ، وهي افكار خاطئة في منطلقها ، فنحن بازاء الحديث عن انشاء الجيش الوطني الذي ينبثق عن الثورة ويأتي في سياق تطور عملها العسكري كتتويج له . ومن طبيعة حروب العصابات الثورية ان تبدأ صغيرة ثم تتصاعد الى ان تصل الى نقطة الحسم التي لا بد منها ، والجيش النظامي ، بما هو جيش الثورة ، هو الذي يحسم في النهاية . والجيش النظامي المنبثق عن الثورة هو بالضرورة جيش وطني وهذه نقطة ينبغي لها ان لا تغيب عن البال . وأعتقد أن المفاهيم الخاطئة بهذا الصدد قد صححت ، وأصبح من المطلوب الآن الاتجاه نحو تشكيل جيش شعبي وطني ، واتمنى ان نتمكن من تحقيق ذلك بسرعة ، وان نصل الى مرحلة كهذه ، لأن وصولنا اليها يعني اننا قريبون جداً من نقطة الحسم .

س : اذا اخذنا المزايا المتوفرة للمقاتل الفلسطيني بالقياس للجهد وللتضحيات

المطلوبة منه وبالقياس للمزايا المتوفرة للجندي في الجيوش . وبالقياس ايضاً للمزايا المتوفرة للكثير من المقاتلين في الثورة ، فسنلاحظ ان المقاتل الفلسطيني قلما يحظى بامتيازات ، أو انه يحظى بأقل مما يحظى به الاخرون في الثورة . وهذا يعني أن الدافع للتطوع في صفوف مقاتلي الثورة لا توفره امتيازات تمنح للمقاتل ، بل هو دافع الالتزام الطوعي بتحقيق الاهداف الوطنية . وهذا يختلف كلية عما هو سائد في الجيوش النظامية المحترفة . واذا اضفنا لهذا ان تشكيل جيش يفترض وجود ارض تكون للثورة سيادة عليها حتى تحمله ، فهل تعتقد ان ظروف تشكيل الجيش متوفرة ؟

ج : ليست متوفرة الآن . وتشكيل الجيش الشعبي النظامي لا بد ان يمر بعدة مراحل . ومن الممكن ان تصل آخر المراحل بعد تحرير جزء من ارض فلسطين ، حيث ستتوفر كل الشروط اللازمة لانشاء الجيش . وأنا اقول : ان دافع المقاتل الفلسطيني للالتحاق بالثورة هو دافع طوعي نابع من الالتزام الوطني ، وهو مختلف ، بدرجة او بأخرى ، عن دوافع الجنود في اي جيش آخر . والدافع الوطني عند المقاتل الفلسطيني قوي جداً ، وهو يشكل عاملاً اساسياً لنشاطه وعطائه . ثم ان المقاتل الفلسطيني يمتاز بمستوى ثقافي معين ، وهذا أيضاً شيء هام ، وهو شيء تهتم به الجيوش النظامية الحديثة ، حيث اصبح من غير المرغوب فيه في هذه الجيوش ، مثلاً ، اطاعة الاوامر بشكل اعمى . وقد بدأوا فيها يفكرون بأن من واجب الجندي ان يشارك في القرار ، لا ان يقوم بالتنفيذ آلياً فحسب . والمراجع العسكرية في العالم تتحدث عن ذلك باسهاب الان بحيث يتاح للجندي جو يختلف عن الاجواء السائدة الآن . اما عندنا فهذا متحقق منذ البداية على نحو او آخر ، وهو ثمرة الالتزام الطوعي المنبثق عن قوة الدافع الوطني والثقافة العامة والتأهيل الواعي للمقاتلين .

س : كيف وفقتم في التجربة الفلسطينية بين مقتضيات الالتزام الطوعي ومقتضيات الضبط العسكري ؟

ج : في رأيي أن توفر المستوى الثقافي الملائم ، الى جانب قوة الدافع الوطني ، قد سهل ذلك الى حد كبير ، بل إنه هو الاساس . ولا اعتقد بأن هناك عمليات قام بها اي تنظيم دون ان يشارك المقاتل في التخطيط لها ، ودون ان يقتنع بها قبل القيام بها . ولنأخذ ، مثلاً ، العمليات الجريئة التي نفذت في الارض المحتلة ، فلم يحدث قط ان اي مجموعة أرغمت على القيام بالعملية ارغاماً . بل تم الأمر بالعكس تماماً . وبمقدور الانسان ان يقول : ان فكرة العملية كانت في كثير جداً من الحالات تأتي من المقاتلين انفسهم ، فيقترح مقاتل فكرة عملية ، ويأتي آخر متطوعاً ليؤكد أنه يستطيع الاسهام فيها لسبب او لآخر ، كأن يكون ممن يعرفون المكان المقصود والطرق الموصلة اليه ، وعلى ضوء هذا وذاك يبدأ التخطيط والاعداد للعملية بمشاركة الجميع . ونحن نعتز بذلك ، فالمقاتل الفلسطيني مبادر سواء في مجال التفكير او التخطيط او التنفيذ ، وهذا كلام لا اقوله مباهيا او متبجحاً بل انه يعكس الحقيقة الملموسة .

س : اتيح لك ان تمارس النوعين من العمل العسكري : النظامي والفدائي ، فما الذي ترى انه يميز عمل الثورة الفلسطينية عن عمل الجيش النظامي ؟

ج : يتمثل الفرق في امور نسبية ملموسة ، دعوني اوضحها لكم : في الثورة يشعر الانسان

بالمشاركة، ويجد ان القضية قضيته. وفيها يسود شعور راسخ بالاخاء والمحبة ، كما تسود روح الجماعة بصورة تختلف عما هو موجود في الجيوش المحترفة ، لانها ، في الثورة ، تقوم على اساس اللقاء الطوعي في ميدان قضيةٌ واحدة يلتزم بها الجميع . وهذه الناحية بالذات هي سبب من اسباب اندفاع المقاتلين الثوريين طوعاً الى العطاء والتضحية . وهناك ايضاً المستوى الثقافي ، ومقاتلو الثورة يتمتعون بمستوى ثقافي جيد ومفاهيمهم الوطنية واضحة وقوية . ولهذا تأثيره على أدائهم في القتال . وليس عندنا المقاتل العسكري الصرف ، عندنا المناضل الوطني الذي يقوم بانجاز المهمات العسكرية والمهمات السياسية في الوقت نفسه ، مما يفتح المجال والآفاق الكبيرة لتطوير انسانية الانسان في الثورة وكفاءاته . ويجري عمل الثورة بحيث يعزز الروابط بين المقاتل وبين قضيته وثورته ، في حين لا يجري الأمر على هذا النحو في معظم جيوش الانظمة ، ولا يجري على هذا النحو من الشمول في أي منها مما يؤدي الى اضعاف روح الاقدام وروح التضحية وروح المبادرة . وفي الثورة تجري الحياة اليومية العادية وتجري الاعدادات العسكرية والعمليات بحيث تعزز الرابطة الوطنية بين المقاتل وقيادته وبينه وبين قضيته ، ولذلك تجد هذا المقاتل على استعداد لان يضحي ، اكثر بكثير من غيره ، لأنه يرى نفسه شريكا في كل شيء .

س : احساس المقاتل بأنه شريك ، او بأنه ند للقائد هل يخلق مشاكل من ناحية الانضباط ؟

ج : هذا ممكن لو كان المقاتل عندنا غير مؤهل تأهيلاً كافياً للمشاركة ، الا أن مشاكل من هذا النوع لا تحدث عندنا ، واذا وجدت فهي قليلة ، لاننا مهتمون جداً برفع سوية التأهيل سواء على المستوى الثقافي او العسكري او السياسي ، ومع هذا التأهيل تزول المشاكل ، وحين تتحدث مع المقاتل ، مهما كانت صفتك التنظيمية في الثورة ، تجد امامك انساناً نداً، يفهم القضية ويعرف الخطأ والصواب ، فتكون مرتاحاً في التعامل معه وفي مشاركته . والذين لهم مراتب تنظيمية متقدمة في الثورة مروا بالتجربة نفسها التي مر بها المقاتل ، وهم لهذا يتقبلون أي انتقاد أو أية افكار بشكل يختلف عن ما لو كنا في جيش محترف .

س : كثير من القادة والكوادر العسكريين تدرجوا من صفوف المقاتلين قبل ان يكون التأهيل العسكري الاكاديمي متاحاً ، والآن يأتي ضباط متخرجون من اكاديميات عسكرية ، فهل تختلف استجابات المقاتلين ازاء هذين النوعين ؟

ج : يجتاز خريجو المعاهد والاكاديميات العسكرية مرحلة تأهيلية داخل الثورة الفلسطينية ايضاً قبل تسلمهم مراكز قيادية ويشاركون المقاتلين ، الذين سبقوهم ، في جميع نشاطاتهم . وهذا النوع من التأهيل يزيل الفوارق ويجعل المقاتل مستعداً للاستجابة في الحالتين . ونحن في قيادة الثورة معنيون جداً بتأكيد هذه النقطة وبتعميم روح المشاركة وتوحيد المفاهيم . ويمكن ان تلاحظوا مظهراً بارزاً وهو ان نسبة الشهداء من بين الكوادر المسؤولة تفوق مثيلتها في اي مكان في العالم ، وحين يتبجح العدو الصهيوني بأن ضباط جيشه يتقدمون الجنود في العمليات ، فإنه يتجاهل حقيقة ما يجري على الساحة الفلسطينية ، حيث يتم الأمر يومياً بوصفه امراً طبيعياً للغاية . والمقاتل عندنا حين يرى كيف ان مسؤوله يضحي امامه باستمرار

يتفهم اكثر ويتقبل قيادته بصورة افضل . وهذه ، ايضاً ، نقطة مهمة لتطوير عمل الثورة .

س : هل يتعارض التأهيل والاختصاص والاحتراف بالنسبة للمقاتل مع العمل الثوري الذي يتطلب مبادرات واسعة ومتنوعة ؟

ج : بالعكس ، فالتخصص في مختلف المجالات العسكرية مطلوب ، وقتالنا مع العدو يمتد على ساحات واسعة ، كما ان لنا علاقات واسعة مع جهات صديقة عديدة نقدم لها عوننا وهم بحاجة لاختصاصيين . وهناك في عمل الثورة امور قتالية يقتضي اتقانها الاختصاص ، والمختصون موجودون ونحن نعتز بهم . ولعلي لا ابالغ اذا قلت انه ربما كنا الثورة الوحيدة التي تملك وفرة في الاختصاصات نظراً لتعدد الكفاءات في صفوف الشعب الفلسطيني . ثم ان لنا علاقات واسعة في العالم ، حتى ان علاقات الثورة الفلسطينية العالمية تكاد تفوق في تنوعها وتعددها علاقات العديد من الدول الاوروبية ، فكيف اذا قيس الأمر بعلاقات دول العالم الثالث ؟ وعلاقاتنا العالمية ليست سياسية او دبلوماسية فحسب ، ولكنها تشمل مجالات واسعة . واذا كانت سعة علاقاتنا توفر لنا مزايا سياسية فإنها ايضاً توفر فرصاً كبيرة للتأهيل العسكري حيث تتوزع كوادرنا في المعاهد العسكرية للعديد من الدول الصديقة .

س : هذا التنوع في مصادر التأهيل العسكري هل يثير اي نوع من المشاكل ؟

ج : بالعكس ، ايضاً ، ما دمنا نعيد تأهيل القادمين من الخارج ، مع ما يوفره التعدد من مزايا وفرة المعارف العسكرية والخبرات التي يمكن ، في نهاية المطاف ، استخدامها طبقاً للظروف الملموسة .

س : هل تركز الثورة الفلسطينية على الاحتراف مع ما يتطلبه من جهود وتكاليف كبيرة ؟

ج : تسعى الثورة بشكل عام لايصال الكوادر الى أعلى المستويات المرضية في كافة المجالات . ولعل هناك من يستغرب أن ترسل الثورة ضباطاً الى معاهد القادة والاركان ، اما نحن فإننا معنيون بفتح كافة الافاق امام ضباطنا . وقد وجهنا ضباطنا نحو الدراسات العسكرية العليا ، ونحن الآن بصدد الحصول على مقاعد في معاهد تهتم بقضايا الدفاع الوطني ، حيث تدرس الاستراتيجيات العليا ، كما اننا معنيون بأن يصل المقاتل والكادر فعلاً الى المستويات المرضية التي تحقق افضل النتائج . وما من تأهيل يمكن تصوره الا ونحن معنيون بفتح الابواب للوصول اليه .

س : الملاحظ أن قوات الثورة الفلسطينية تقوم بنوعين من الأعمال القتالية : نوع قتالي دفاعي شبيه بقتال قوات الدفاع النظامية ، تقوم به ازاء الهجمات الاسرائيلية المتلاحقة ، والنوع الآخر المتمثل في العمليات ذات الطبيعة الخاصة التي تتم داخل الارض المحتلة ، فهل يؤهل المقاتل الفلسطيني للنوعين من العمليات ؟

ج : يدرب المقاتل الفلسطيني على كل ما يسمى بصفحات الحرب ، سواء في الدفاع او الهجوم او العمليات الأخرى . ذلك اننا مضطرون لأن نأخذ موقف الدفاع في بعض الحالات ، كما هو الحال في لبنان مثلاً ، حيث تعرض شعبنا لمؤامرة كبيرة وفرض على الثورة ان تخوض

حرباً دفاعية لحماية المخيمات والمواقع الفلسطينية . ولو لم تكن الثورة مؤهلة للقيام بدور دفاعي ومقاتلها مؤهلاً ، لما تمكنت من النجاح في مهمتها في الدفاع عن الوجود الفلسطيني وحماية المخيمات . والمقاتل الفلسطيني يتدرب على كل صفحات القتال في كل مراحل الحرب ، سواء الدفاعية او الهجومية ، وهذا امر ضروري . وهنا أريد ان اقول : ان الدفاع لا يعني شيئاً سلبياً ، فهو مرحلة قد يحتاجها أي جيش في العالم قبل ان يقوم بدور التعرض ، حتى الجيش الاسرائيلي بطبيعته العدوانية السافرة وبعقيدته العسكرية المبنية على نوع من الوهم والخيال فضلاً عن الضجيج الاعلامي ، يسمي نفسه جيش الدفاع الاسرائيلي ، في حين ان مضمونه عدواني ، وعقيدته العسكرية تؤمن بعدم القيام بمرحلة الدفاع . لذلك يحاولون في اسرائيل نقل المعركة إلى اراضي الغير وعدم خوضها على « ارضهم » ، ويتحدثون عما يسمى بالحزام الاخضر او المنطقة الخضراء . هذا الجيش فرض عليه ، وخصوصاً بعد ١٩٦٧ و١٩٧٣، ان يقوم بدور الدفاع . ولو انه لم يتدرب على الدفاع لما استطاع القيام بهذا الدور . قضية التدريب ، اذن ، لا بد ان تشمل مراحل القتال بكامل انواعها من دفاع وتعرض وهجوم .

س : فرض على مقاتلي الثورة الفلسطينية ان يقوموا بمهمات الدفاع عن الحدود وهذا ليس من طبيعة مهمات مقاتلي حرب العصابات . كيف تفسر هذا الأمر المدهش وهو قدرتهم على الصمود في اداء هذه المهمة الشاقة في اوقات عجزت عن ادائها حتى الجيوش النظامية المعدة لهذه الغاية ؟

ج : بعد كل الذي جرى في لبنان ، والذي جرى للجيش اللبناني ، وجدنا انفسنا فعلاً ، أمام مسؤولية كبيرة وهي الدفاع عن لبنان امام الغزو الصهيوني ، ومررنا بتجارب قاسية ومريرة في هذا المجال . ثم كانت قمة تجاربنا في حرب الأيام الثمانية في آذار عام ١٩٧٨ ، ففي ذلك الوقت تعرض الجنوب اللبناني لغزو اسرائيلي ، وقدرت القوات التي حشدها الجيش الاسرائيلي بفرقتين . وكانت هذه بالنسبة للثورة الفلسطينية تجربة اقسى واشد حتى من معركة الكرامة في غور الاردن عام ١٩٦٨ ، خصوصاً ان قواتنا لم تكن مؤهلة التأهيل الكافي للدفاع ضد هذا الغزو ، ولم تكن اسلحتنا متكاملة . ومع ذلك تمكنا من استخدام اسلوب الدفاع المتحرك لأنه الأسلوب الملائم لامكانيات وطريقة تركيز قواتنا . وفي مواجهة الغزو وفي قسم من الجنوب طلبنا من بعض وحداتنا الدفاع حتى آخر رجل،وفي قسم آخر منه طلبنا أن تكون مجموعاتنا مجزأة بحيث تضم الواحدة اربعة او خمسة مقاتلين . وكان على هذه المجموعات ، صغيرة العدد ، أن تظل في حركة دائمة وان تبقى في المناطق التي يدخلها العدو . وقد قامت المجموعات المختلفة ، بالفعل ، بدورها خير قيام . وفي معركة مارون الراس ، على سبيل المثال ، بقي مقاتلو المجموعة الى ان نفدت منهم آخر طلقة ، مؤدين واجبهم على نحو ارغم العدو نفسه على الاعتراف ببسالتهم . وفي النقاط التي تتحكم بطرق المواصلات بقيت مجموعاتنا ايضاً مؤدية واجبها . اما في صور فقد اتبعنا اسلوب الدفاع النظامي المعروف لدى اي جيش ، لاننا صممنا على أن نحول بين قوات الغزو وبين احتلال هذه المدينة ، محبطين هدفها البين . ولذلك حشدنا قسماً كبيراً من قواتنا على مشارف صور ولم نمكن العدو من دخول المدينة . وعندما سئل رئيس الاركان الاسرائيلي : « لماذا لم تجتح صور ؟ » أجاب :«لا اريد ان اضع يدي في عش الدبابير». وقد حاولنا ، في الحقيقة ، أن نمزج في الجنوب اللبناني بين اسلوبي الدفاع الكلاسيكي المحض

والدفاع المتحرك ، وفقاً لما املته علينا هنا او هناك الظروف الملموسة . وقد أوصلنا هذا في اعتقادي الى نتائج جيدة جداً ومكننا من ايقاع خسائر كبيرة في صفوف العدو .

س : ما هو تفسيركم في قيادة العمليات لهذه المقدرة على المواجهة ، الناجحة ، بالرغم من قلة الخبرة وقلة الامكانيات على الجانب الفلسطيني ، خصوصاً عند مقارنتها مع خبرة الجيش الاسرائيلي وامكانياته ؟

ج : يعود جزء من نجاحنا الى طبيعة التأهيل الذي يمكن المقاتل من خوض الحرب النظامية او حرب العصابات . وهناك قبل أي شيء وبعده رسوخ الدافع الوطني وايمان المقاتل الفلسطيني ومستوى وعيه وقدرته على المبادرة مع استعداده للتضحية . ومن الناحية المادية الصرفة لا يمكن حتى اجراء مقارنة بين القوى الفلسطينية والقوى الغازية ، اذ ماذا نوفر للمقاتل الفلسطيني ، بمواجهة ما هو متوفر للجندي الاسرائيلي : السلاح الفردي والذخيرة ، والعدد القليل من مدافع الميدان اللازمة للاسناد ، في حين يوفر الجيش الاسرائيلي لجنوده ما هو معروف من امكانيات كبيرة . وانا اقول ان ايمان المقاتل الفلسطيني هو الاساس ، وهو العامل السائد الذي يوفر النجاح للثورة الفلسطينية . وقد اتيح لي ، شخصياً ، ان استمع من خلال اجهزة الترصد اللاسلكية الى حالات التمرد على الأوامر في الجيش الاسرائيلي خلال حرب الايام الثمانية هذه ، كانت الاوامر تعطى للوحدات الاسرائيلية بالتقدم فيرفض قادة الوحدات ان يتقدموا بها . وقد اتيح للمقاتل الفلسطيني أن يقيم قدرة العدو تقييماً صحيحاً ، وقد لمس ما هو متوفر له من امكانيات الا انه لم يتهيب ازاءها ولم يخش مواجهتها ، اقدر قوة العدو ولكنني لا اخاف المواجهة معه ، هذه هي القاعدة التي برزت ، خصوصاً منذ حرب الايام الثمانية وتحققت على ارض الواقع . ايمان مقاتلنا واصراره على المواجهة كانا طاغيين ، وهذا ما ميزه عن الجندي في جيش العدوان

س : هل صحيح ان دور الميليشيات الشعبية تضاءل في حرب المواجهة على الحدود ، بسبب طبيعة هذه الحرب ؟

ج : في الحقيقة : لا . وفي حرب الجنوب تردف الميليشيا القوات العسكرية حتى في الصدامات المباشرة مع العدو . ونحن نعتمد على الميليشيا اعتماداً رئيسياً ، ولولا قيام الميليشيا بدورها لما امكن التوصل الى النتائج التي تحققت . على سبيل المثال ، في قضية حماية الطرق الخلفية ، خطوط مواصلات قواتنا وامدادها ، قامت الميليشيا بدور باهر ، ناهيك بالخدمات المتعددة الأخرى التي أدتها . وانني اعتز بوحدات الخدمات العاملة في الثورة ، والتي تمكنت دائماً من نقل التموين للوحدات في اصعب اوقات القتال . لقد قام العدو بعملية متكاملة في الجنوب ، شاركت فيها قوات برية وبحرية وجوية ، وحشد لها امكانيات كبيرة ، وظلت مع ذلك خدماتنا تصل الى المقاتلين ، ولم تنقطع حتى عن الوحدات التي تجزأت وانتشرت في مناطق واسعة وطلب منها دوام التحرك ، وبضمنها المعنويات التي بقيت في مناطق دخلها العدو ، فهذه ايضاً وصلتها الخدمات ولهذا في اعتقادي أهمية كبيرة اذ لو عدنا الى تاريخ الصراع العسكري العربي ـ الاسرائيلي ، فسنجد ان من بين اسباب هبوط المستويات لدى المقاتل العربي عدم وصول الخدمات اليه اثناء القتال . عندنا تم تدارك هذا النقص ، وفي حرب الايام الثمانية ، التي تحدثت عنها ، كانت الخدمات في مستوى جيد ، واحياناً ، في مستوى ممتاز . وقد قامت

الميليشيا بواجبين : بالربط بين القوات العسكرية المنتشرة وبحماية المناطق الخلفية من خطوط مواصلات ومؤسسات ومستودعات ،الخ .. . وقد لعب هذا دوراً ايجابياً ذا اثر كبير في المعركة .

س : يفهم من كلامك ان الثورة لا تستغني عن اي منهما وان عمل الميليشيا ضروري لاكمال عمل القوات ؟

ج : صحيح . ان ميزة الثورة انها تعتمد اسلوب حرب الشعب في قتالها ، وكل من ينتمي للثورة له دور فيها ، والكل يشارك ويعمل .

س : يستخدم العدو الاسرائيلي تفوقه الهائل ويمارس القصف بالمدفعية بعيدة المدى وبالطيران ، فما هو مدى تأثير القصف على مجمل الوضع في مواجهته ؟

ج : يجب ان نفهم ، اولاً ، لماذا يلجأ العدو لهذه السياسية . انه حريص على جنوده ، وهو عندما يقوم بحملة ضد هدف لا يدفع جنديه الى هذا الهدف ، الا بعد أن يتأكد من اسكات دفاعاته معتمداً على تفوقه في اسلحة المدفعية والجو وكثافة النيران . وممارسة القصف هي ، لهذا ، سياسة ثابتة عنده . ونحن نعرف هذه السياسة جيداً ويعرفها مقاتلونا كافة . لهذا فإن لنا ايضاً سياسة نتبعها مضادة لهذه ، من أجل ابطال تأثير القصف الاسرائيلي . وما نفعله لم يعد سراً والعدو يعرفه ، وهو الانتشار . وقد وجدنا من الضروري عدم توفير أي هدف للعدو حتى يناله ، فالعدو يسعى للظفر بالهدف الدسم ليصب عليه كل ثقله ويوجه نيرانه نحوه بسهولة . وقد برز اثر الانتشار في حرب الجنوب على جميع المستويات : المقاتلين والاسلحة المساندة ، حيث جرى ربما لاول مرة ، استخدام الاسناد المدفعي لقوات الثورة ، وكان اسناداً مبنياً على اساس حرب العصابات ، أي على اساس عدم تثبيت المدفعية في مكان واحد ، فصارت مواقعها متنقلة باستمرار ، حتى لا يتمكن منها العدو . وبهذا فوتنا عليه الفرصة ولم نمكنه من استثمار تفوق امكانياته المادية وزخم قوة نيرانه .

س : هذا بالنسبة للقصف الذي يستهدف القوات ، فماذا بالنسبة للقصف الذي يستهدف المدنيين ؟

ج : امكانيات التحكم في هذا النوع من القصف قليلة ، لأن الاهداف المدنية ثابتة بطبيعتها ولهذا يستهدفها العدو باستمرار ، اعتقاداً منه ان قصفه يؤثر على المعنويات فيشكل عامل ضغط على الثورة ، ومع اننا نحاول أن نفعل شيئاً بتوفير ما يمكن من الحماية للتجمعات المدنية وبتحذير السكان من التجمع في اوقات الخطر ، فإن الاساس يبقى وعي المواطنين ، وعي اللبنانيين والفلسطينيين ، وهو الذي يمكننا من احباط اهداف العدو .

س : يلاحظ في الاشهر الاخيرة ان اسرائيل اخذت تطور تكتيكها ، وأنها تمارس في الجنوب نوعاً من حرب العصابات لاشغال قوات الثورة ...

ج : في تقديري ان اسرائيل ، بعد قيامها بحرب الايام الثمانية في الجنوب وبعد النتائج التي توصلت لها والخسائر التي تكبدتها ، اخذت تغير اساليبها . وقد بدأ الاسرائيليون ، فعلاً ، يشنون عمليات محدودة وصغيرة مما يتصل بطبيعة حرب العصابات . والسبب الاول لهذا هو نتائج حرب ١٩٧٨ كما قلت . اما السبب الثاني فهو اننا ارغمنا اسرائيل على اتباع

اسلوب جديد . ولعلهم في اسرائيل يتصورون ان هذا الاسلوب سوف يحقق نتائج افضل ، بالنسبة لهم ، مما تحققه الحملات العسكرية الكبيرة في العادة ، في كل الاحوال ، استعداداتنا للمواجهة جيدة . مع ذلك هناك مشكلة الطريق الرئيسي ، طريق بيروت ـ صيدا ، ولا استطيع ان اتبجح بالقول باننا قادرون على حماية هذا الطريق حماية تامة ، واذا كانت اسرائيل ، بكل ما لديها من قوات وامكانيات اخرى ووحدات مشكلة خصيصا لمقاومة العمل الفدائي ، تعجز عن حماية طريق كطريق حيفا ـ عكا ، فما الذي يستطيع ان يوفر الحماية الكاملة لطريق بيروت ـ صيدا ؟ ولذلك اقول : ان الصراع مفتوح بيننا وبين العدو ، ويمكن للعدو ان يقوم بعمل صغير هنا وآخر هناك ، الا ان هذا لن يحمل للقوات المعتدية النتيجة التي تتوخاها . وهم ، بما يفعلونه ، يستهدفون النيل من السكان المدنيين ، وقد يكون لهم بعض التأثير في هذا المجال ، اما على المقاتلين فليس لهم أي تأثير ، لأن المقاتل مؤهل لمواجهة عمليات كهذه وهو مدرب ، في حين ان المدني غير مؤهل . والعمل ضد المدنيين عمل جبان ، لان أي حامل سلاح يستطيع ان يستهدف أية مجموعة مدنية . ان الاسرائيليين ممعنون في استهداف التجمعات المدنية ، بهدف الضغط المستمر على الثورة الفلسطينية وايجاد فجوات ما بين الشعب اللبناني والثورة ، وهو ما لم ينجحوا في تحقيقه امام وعي الشعب اللبناني وحسه القومي والوطني الذي فوت عليهم الفرصة . واريد هنا ان اقول : إن اسرائيل استطاعت ان تلحق خسائر مادية وبشرية بالمدنيين ، وتقوم الثورة الفلسطينية بتعويض الخسائر المادية الا ان امكانياتها لا تسمح بتقديم تعويض كافٍ امام الخسائر المتزايدة ، ولا بد من اهتمام عربي بهذا الموضوع ، حتى يغطي النقص وتسهم الامة العربية في صمود الشعب في جنوب لبنان . والكل يعرف ان المستهدف في الجنوب ليس الثورة الفلسطينية وحدها بل الارض اللبنانية ، ويعرف المطامع التوسعية غير الخافية لاسرائيل في الجنوب .

س : تستخدم اسرائيل وسائل متطورة ، فما الذي عملته الثورة لمواجهة هذه الوسائل ، وما هي اعداداتها لمقاومة العمليات الاسرائيلية ؟

ج : تطوير الاسلحة مجال مفتوح امام الجميع ، حتى الاسلحة النووية لم تعد سرا من اسرار الآلهة . ومجال البحث مفتوح هو الآخر . ونحن نسعى باستمرار لامتلاك الاسلحة المتطورة ، سواء مما يوفره لنا الاصدقاء او مما نبتكره بأنفسنا . ولدينا في الثورة ما نعتز به ، حيث يوجد مركز للبحث والتطوير تشرف عليه اللجنة العلمية ، التي وفرت اسلحة كثيرة واموراً اخرى هامة من خلال دراساتها المتواصلة . وندرس ، بالطبع ، تأثيرات الاسلحة المتطورة التي يملكها العدو ، ونعمل بكل الوسائل حتى نصل الى افضل الاساليب للتقليل من تأثيراتها .

س : ننتقل ، اذا سمحت ، الى النوع الآخر من المهمات القتالية ، الى القتال داخل الأرض المحتلة . والملاحظ ان تطور اساليب هذا القتال يتم ببطء ، أو بأبطأ من تطور اساليب النوع الآخر فكيف تفسر ذلك ؟

ج : تتصف عملياتنا في الارض المحتلة بالبطء فعلاً ، وكذلك تطورها ، والسبب ، وعلي أن أعترف بهذا ، هو ان العدو مسيطر سيطرة تكاد تكون تامة على الحدود ، وهو واحد من الاسباب ولعله الرئيسي من بينها . واذا ما استعرضنا بداية العمل داخل الارض المحتلة فسنجد أنه بدأ بالعبوة وباللغم متجنباً عمليات المواجهة ، ثم تطور الأمر الى ضرب قوافل العدو ومواجهة دورياته

وجهاً لوجه ، وان كانت هذه المواجهة ما تزال تتم على نطاق ضيق . ومن هذا انتقلنا الى مرحلة اكثر تقدماً ووصلنا الى العمليات الجريئة ، وصار بمقدورنا حشد مجموعات كبيرة تصل الى ٢٠ ، توصلنا في بعض العمليات الى مستوى الفصيل ، عمليات جريئة مثل عمليات سافوي ودلال مغربي والخليل ، وقد مثلت هذه العمليات نقلة نوعية في العمل العسكري داخل الارض المحتلة .

وفي الحقيقة ، ومن واقع رؤيتنا للعمل العسكري ولمستقبله داخل الارض المحتلة ، نؤمن بأن هذا العمل سيتصاعد اكثر فأكثر وينتقل من درجة الى درجة ، وأتوقع ان يصل الى مستوى كبير في المستقبل يكون مفاجأة للمراقبين .

س : لم تحقق الثورة الفلسطينية نجاحاً كبيراً ، بعد ، في مجال اقامة قواعد في الداخل تؤمن نفسها بنفسها ، ولا شك في أن هذا يؤثر على نوع وحجوم العمليات ، فكيف تفسر الأمر ؟

ج : العامل الذي أثر في هذا الموضوع ان تنظيماتنا داخل الارض المحتلة كانت تقليدية ، فإذا ما ألقي القبض على خلية من الخلايا فقد كان اثر هذا ينسحب على التنظيم من القاعدة الى القمة . وكانت هذه نقطة ضعف اكتشفناها منذ مدة ، ولذلك تغيرت سياستنا في تنظيم خلايانا العسكرية ومجموعاتنا المقاتلة في الداخل ، واتبعنا اسلوباً جديداً توخينا فيه حجب الخطر عن الخلايا الاخرى اذا وقعت خلية في قبضة العدو . وهذه هي السياسة المتبعة الآن ، ولعلكم تلاحظون كيف يجد العدو صعوبات كبيرة في كشف تنظيماتنا . ونحن نسعى ، أيضاً ، لايجاد القواعد التي تؤمن مستلزماتها بنفسها ، وكان هذا ملموساً في عملية الخليل . وأستطيع أن أقول : ان مجموعاتنا الآن قادرة على ايجاد القاعدة الأمينة وحمايتها . ونأمل أن تتضح الصورة في المستقبل بشكل أفضل .

س : منتقدو الثورة الفلسطينية يأخذون عليها أن عملياتها في الداخل تستهدف المدنيين ، ومع تباين الدوافع التي تحرك الانتقاد ، يظل صحيحاً ان عددا من العمليات استهدف مدنيين . كما يظل صحيحاً ، ايضا ، أن هذا يخلق اشكالات سياسية للثورة في علاقاتها العالمية ويعطي مادة للدعاية المضادة ، فما هو رأيكم في هذا الموضوع ؟

ج : أنا لي رأي خاص ألخصه كما يلي :

أولاً : لا يستطيع أي مراقب عسكري او سياسي منصف ان يميز ، في كثير من الحالات ، بين ما هو عسكري وما هو مدني في اسرائيل ، والفرق واهن جداً بينهما ، خصوصاً اذا عرفنا ان اسرائيل تتفرد من هذه الناحية بوضع يكاد لا يكون له مثيل في العالم . وهذه حقيقة لا بد من أن تكون واضحة وحاضرة في الأذهان عند تقييم عملياتنا .

ثانياً : خلافاً للدعايات المضادة المضخمة التي تستهدف الاساءة لسمعة الثورة فنحن حريصون على عدم المساس بالابرياء من المدنيين ، ولي الشرف أن أقول أن تعليمات أي عملية من عمليات الثورة الفلسطينية تتضمن بنوداً صريحة بتجنب ايذاء الشيوخ والنساء والأطفال . وقد صار معروفاً الآن ان الذين قتلوا من هؤلاء في بعض العمليات انما قتلوا برصاص الجيش

الاسرائيلي بالذات خلال تصديه للثوار الفلسطينيين ، وان هذا الجيش يظهر استهانة « غريبة » بأرواح مدنييه بينما تتمسك اسرائيل بعناد وتعنت برفض أي مطلب من مطالب الثورة ، بما فيها المطالب التي يعترف العالم كله بشرعيتها . قد نقع نحن احياناً في بعض الاخطاء ، وهذا ناجم عن طبيعة الوضع ذاته ، ونحن نركز باستمرار على ان تكون اختياراتنا اكثر دقة . لكن يجب ان يكون مفهوماً انه حتى لو بلغنا غاية الدقة فإن اسرائيل لن توقف دعايتها المضادة وضجيجها الاعلامي .

ثالثاً : نحن ازاء وضع يقوم فيه العدو بأجهزته ومؤسساته الرسمية بضرب مدنيينا جهاراً نهاراً مع سبق الاصرار والتخطيط ، وهو يقوم بذلك في نطاق حملة واسعة تستهدف الابادة وتتوفر لها امكانيات ضخمة ، فهل يمكن ان نظل مكتوفي الأيدي ازاء اجرام كهذا ؟ إنه سؤال هام ، أليس كذلك ؟

س : في اسرائيل يمكن التمييز بين نوعين من المدنيين : نوع لا يختلف عن الجيش وهو يشمل المدنيين الذين يقومون بأعمال شبه عسكرية كما يشمل المستوطنين الذين يغتصبون الارض ويقيمون مستوطناتهم عليها ، ونوع آخر لا يتدخل مباشرة في أعمال كهذه ولا يجادل احد في مشروعية الاعمال التي تتوخى تحذير المغتصبين ، بينما يمكن تجنب الآخرين .

ج : اننا نفعل ما في وسعنا لتجنب الابرياء ان وجدوا ، ومقاتلونا يعرفون هذا جيداً . ومع ذلك ففي ضجيج الحرب وطبقاً لطبيعتها لا يمكن تجنب المدنيين تجنباً كلياً حتى حين يكونون أبرياء . وما من حرب قامت ولم يتضرر مدنيون من جرائها . وانا اتحدث عما لا يمكن تداركه من قبلنا في اثناء العمليات ضد العدو . أما استهداف المدنيين الابرياء بالذات فأنا اعتقد أنه خطأ ، نجهد كي لا نقع فيه ، وأتوقع أن يكون الامر ملموساً على نحو افضل في المستقبل امام العالم كله .

س : هل تعتقد ان النتائج التي تحققها المقاومة المسلحة في الارض المحتلة تتوازى مع الامكانيات المتوفرة ومع الاستعداد الهائل للتضحية لدى المناضلين الفلسطينيين ؟

ج : قلت آنفاً أن الكثيرين سيفاجأون بالنقلة النوعية التي سنحققها في عملياتنا العسكرية ، وأتوقع ان تتم هذه النقلة في وقت قريب ، مع عدم التقليل من الصعوبات التي نواجهها ، وهي نقلة ستشمل تبدلاً في نوعية الاهداف وفي اسلوب العمليات . وفي هذا سنتوج الخبرات والتضحيات التي تراكمت عبر السنين الماضية ومع اقراري ببطء تطور عملياتنا في هذه السنوات فقد كان لا بد من ان تسير الامور سيراً متدرجاً طبيعياً ، من مرحلة الى مرحلة أرقى .

س : يقودنا هذا الى سؤال أعم . فالجو الشعبي في الوطن المحتل يظهر منتهى الاستعداد للعطاء ، كما يظهر روحاً وطنية عالية ، وقد واجه الناس جنود الاحتلال بالحجارة ، وهذا يعني أنه لو توفرت في ايديهم اسلحة اكثر فعالية فإن الجو مهيأ ، محلياً ، للثورة المسلحة الشاملة . هل تعتقد بأن صمت الجهات العربية وسلبية بعضها هما السبب الذي يحول دون ثورة شاملة مسلحة في الارض المحتلة ؟

ج : يشكل هذا السبب الرئيسي ، او العامل الاستراتيجي ، وليس مجرد عامل من العوامل فحسب . فاغلاق الحدود العربية ، واستكانتها هما الاساس ، ولو تم فتح هذه الحدود وتحركت الجبهات لوصلنا الى ما يتمناه كل وطني عربي ، ولانتقلت الثورة سريعاً الى مراحل متقدمة في عملياتها العسكرية . وانا حين أتحدث عن الصعوبات التي تواجهنا لا اقصرها على الصعوبات التي يخلقها العدو الاسرائيلي ، وهذا ما اريد ان يكون واضحاً : اننا نواجه صعوبات غير اسرائيلية ومنها اغلاق الحدود العربية في وجه مقاتلينا . واذا ما حل هذا الموضوع وصار هناك تكامل بين كل الدول العربية ، فسنوفر عاملاً استراتيجياً لانتصار الثورة ، خصوصاً ان جبهة الصمود والتصدي التي نشترك فيها مفتوحة لكل الدول العربية الراغبة . اما في الوضع الراهن لجبهة الصمود والتصدي ، وحتى لو وصل لأمثل حالاته ، فانها لا تشرف على اكثر من ١٠ بالمائة من الحدود ، فضلاً عن أن ما تشرف عليه هو الجانب من الحدود الذي لا يتصل بالكثافة السكانية العربية في وطننا المحتل . وهذا يفرض ان تنضم دول عربية اخرى لهذه الجبهة ، وخصوصاً الاردن لان انضمامه يفتح آفاقاً كبيرة .

س : هل هناك أساس للأمل بانضمام الاردن الى جبهة الصمود والتصدي وتبنيه لأهدافها ؟

ج : تسير الأمور بالنسبة للاردن سيراً بطيئاً للغاية، وأتمنى أن ينضم للجبهة لأن انضمامه سيعطي قوة للمواجهة العربية . ولكني لا أستطيع أن أقول ان هذا سيتحقق ، او انه سيتحقق في وقت قريب ، خصوصاً أن هناك ما يثير المخاوف من انضمام الاردن الى صف كامب ديفيد ، وهي مخاوف لها ما يبررها بالرغم من أن المسؤولين الاردنيين يوالون تقديم التطمينات والتصريحات . ولعل من المفيد أن أذكر في هذا الصدد بأن تعنت اسرائيل وما تقوم به يقدم ، من تلقاء نفسه ، البراهين المقنعة حول اهداف اسرائيل وماهية الحركة الصهيونية وما تبيته للأمة العربية بأسرها . ولا يمكن مواجهة هذا كله الا بالمجابهة . وقد اختارت الثورة الفلسطينية اداة الكفاح المسلح وبمقدور الآخرين ان يقتنعوا بأنها الأكثر نجاعة وبأنها الوحيدة القادرة على مواجهة التعنت الاسرائيلي . ومن المفروض ازاء التعنت الاسرائيلي المعلن ان يصل العرب الى هذه القناعة ، ولعل في هذا وحده التعويض عن الخسارة التي نجمت عن اخراج مصر في الوقت الراهن من ميدان المجابهة . ولعلي لا أبالغ اذا قلت : ان تطور سقف النضال في الارض المحتلة مرهون ، الى درجة كبيرة ، بالموقف الاردني ، مثلما هو مرهون بموقف الشعب العربي الذي يطالب بتصعيد المجابهة فيصطدم بسلبية الجبهة الاردنية .

س : نحن نرى كيف ان الشعب الفلسطيني يبذل تضحيات هائلة ، ويخوض نضالات عنيفة ، بينما تظل النتائج النهائية محكومة بسقف الوضع العربي ، فكيف يمكن ان تنفتح الابواب ؟

ج : فتحها واجب رئيسي من واجبات الثورة الفلسطينية نحن نعتبر أنفسنا طليعة من طلائع الامة العربية ، ولسنا بالتالي معزولين عنها ، ولعل بعض الناس استغربوا ان تلعب الثورة دوراً في قضية الوفاق العربي ، وتنتقل وفودها من بلد لآخر لاجراء مصالحات وللتوفيق بين وجهات النظر المختلفة . اننا نقوم بهذا ليس هواية لعمليات الوساطة ، بل لأننا نؤمن بأن ايجاد نوع من

التكامل العربي هو شرط رئيسي من شروط توجيه امكانيات الأمة العربية ضد العدو . ونحن معنيون جدا بايجاد التكامل في الوطن العربي ككل ، خصوصاً اننا نشعر الآن بالخسارة الكبيرة نتيجة اخراج مصر من حلقة الصراع . ولديكم على سبيل المثال العلاقة السورية ـ العراقية نحن معنيون بايجاد حالة من التوافق بين سوريا والعراق . وكذلك بين سوريا والاردن ، وفي الحالات الاخرى المماثلة ، وكل ذلك على قاعدة توفير ارضية افضل لمجابهة العدو الاسرائيلي . ونرى أن هذا واجب من واجباتنا الرئيسية في الثورة ، لأن الثورة لا تستطيع أن تعيش الا في مناخ عربي جيد ، همه مواجهة العدو الاسرائيلي ، وتقع على عاتقها مسؤوليات كبيرة لايجاد هذا المناخ .

س : ألست ترى ان ما حصل في مصر على يد نظام السادات يشكل انذاراً بما يمكن ان يحصل في بلدان عربية اخرى ؟

ج : علينا أن لا ندع الحذر دون أن يقعدنا عن النضال . ولا شك في أن ما حصل في مصر هو خسارة فادحة ، وليس انذاراً فحسب . الا أننا لا نهمل امكانيات وقدرات الشعب المصري ، ولا أعتقد انه راض عما جرى ، وهو بالتالي ليس راضياً عن القطيعة التي يفرضها النظام عليه ازاء اشقائه . وهناك بشائر كثيرة في المعارضة المصرية التي برزت مؤخرا وأعتقد ان الشعب المصري سيعود عاجلاً الى مركزه الطبيعي في الأمة العربية . وعلينا في كل الأحوال أن نعمل عملاً دؤوباً لايجاد حالة من الوفاق والتكامل العربي لمواجهة العدو الصهيوني .

س : هل ترى ان واقع مسيرة العلاقات الفلسطينية مع الاردن يخدم هذا الغرض ؟ .

ج : محادثاتنا مع الاردن تسير سيراً بطيئاً . والملاحظ أن الأردن يرغب في التنسيق معنا في الساحة الدولية ولكنه يحجم عن التنسيق في الساحة الداخلية في الاردن . وهناك امور نتمنى أن يتم تنفيذها من قبل الاردن ، وخصوصاً تلك منها التي اتفق عليها ولم تنفذ بعد . ومنها ، مثلا ، زيادة حجم قوة جيش التحرير الفلسطيني في الاردن . وبالإجمال تسير الأمور ، كما قلت ، سيراً بطيئاً ، وربما كنا بحاجة الى تكثيف الاتصالات مع الاردن ليس فقط من قبل الثورة الفلسطينية بل ، ايضاً ، من قبل جهات عربية اخرى . واكرر القول بأنني اعتقد بأن التعنت الاسرائيلي الظاهر يساعد على فتح الاعين .

س : موضوع الوحدة الوطنية الفلسطينية وتطوراته،كيف ينعكس على العمل العسكري للثورة ؟

ج : في اعتقادي ان عمل الدورة القادمة للمجلس الوطني الفلسطيني سوف ينصب على هذا الموضوع ، خصوصاً ان دورات المجلس السابقة أكدت على ضرورته . واعتقد اننا سنصل في الدورة القادمة الى موقف اكثر تقدماً باتجاه الوحدة الوطنية . والوحدة العسكرية هي التي تبلور نتائج تعزيز الوحدة الوطنية . وقد أمكن حتى الآن ايجاد بعض الاطر الموحدة في الساحة الفلسطينية ، وخصوصاً في المجال العسكري وهي تتجه نحو التوحيد . عندنا ، مثلاً ، المجلس العسكري الاعلى الذي يشكل اطار قيادة عسكرية عليا وتتمثل فيه التنظيمات الفلسطينية كافة وهناك ، ايضا ، القيادة المشتركة ، وهي قيادة يومية للعمل العسكري المشترك ، وفي هذه القيادة

يشترك اخواننا من الحركة الوطنية ، والجبهة القومية اللبنانيتين ، وهناك اطر اخرى تشكل نواة لتكامل الوحدة العسكرية . وكثير من الاجهزة ، وخصوصاً الادارية ، جاهزة لتتوحد ، واعتقد جازماً ان دورة المجلس الوطني القادمة ، ستبلور هذا الموضوع ، وتفتح الطريق امام وحدة عسكرية اندماجية . وأنا اتمنى ان يحدث هذا ، لان غياب الوحدة الوطنية يضيع جهوداً كثيرة مبعثرة ، خصوصاً في المجال العسكري ، واذا ما تم توحيد الجهود فسنصل الى مستوى افضل بكثير .

س : هل تعتقد بأن القناعة بخطأ تعدد جهات القرار والتنفيذ متوفرة لدى الجميع بالمستوى ذاته ؟

ج : أعتقد أن القناعة موجودة لدى الجميع ، وأتمنى أن نكون قد وصلنا الى مرحلة النضوج التام ، وأؤكد ان هناك احساساً لدى جميع الفصائل بأنه لا بد من الوصول الى الوحدة الوطنية .

س : كيف يمكن حل المشاكل السياسية ، والمالية والتنظيمية ، والغاء الحديث عن التخوف من هيمنة المنظمة الكبرى ، وكذلك الغاء تأثيرات الساحات الخارجية على الساحة الفلسطينية ؟

ج : بالنسبة للموقف السياسي يشكل البرنامج السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي طرح في دورة المجلس الوطني الاخيرة اساساً لوحدته ، ولا أتصور ان هناك خلافاً بشأنه . وهذا امر مريح . وبالنسبة للأمور المالية فإن مؤتمر القمة العربية الاخير الذي عقد في بغداد ، قد قدم تسهيلات كبيرة جداً ، بحيث يمكن ان تتمول الفصائل كافة من الصندوق القومي الفلسطيني صندوق منظمة التحرير الفلسطينية . وربما كانت هناك تخوفات من مسألة الهيمنة وربما كانت بعض الفصائل تخشى من هيمنة « فتح » ، ولكني اتصور بأن الفصائل مقتنعة بأن « فتح » لا تمثل فقط الطليعة ، بل القطاع الاكبر من الشعب الفلسطيني ، وفيها فلسطينيون كانت لهم خلفيات سياسية متعددة ، من حزبيين وغير حزبيين . وليس في « فتح » او في قيادتها من يفكر بموضوع الهيمنة في الساحة الفلسطينية ، والتجارب التي خضناها جنباً الى جنب مع الفصائل الاخرى اثبتت ان « فتح » لا تسعى الى الهيمنة . ربما تريد « فتح » بسبب حجمها ان تكون لها الحصة الاكبر ، والفصائل الأخرى توافق على هذا . وتقوم « فتح » بمسؤوليات كبيرة جداً ، وهي التي تتحمل العبء الاكبر من المسؤوليات الكبيرة ، سواء في القتال او الانفاق او الجهود السياسية ، وهذا ملموس ومعروف . ونحن حريصون في « فتح » على اشاعة الطمأنينة في كل الساحة الفلسطينية ، وموضوع الهيمنة غير وارد .

س : نلاحظ أنه بالاضافة الى النفوذ السياسي والاقتصادي فإن الوجود العسكري للولايات المتحدة يزداد في الشرق الاوسط ، فما هو تصورك لتأثير ذلك على عمل الثورة الفلسطينية ؟

ج : الموقف الاميركي يتبلور ويتضح لنا اكثر فأكثر ، خصوصاً مع تزايد التواجد العسكري في منطقة الخليج . وفي اعتقادي ان دول الخليج تخطىء كثيراً في قضية اعطاء التسهيلات للقوات الاميركية . وكيف يكون المرء معنياً بأمن الخليج ثم يدعو القوات الاميركية الى الدخول والتواجد في المنطقة ! ؟

وان تواجد القوات الاميركية سيغري قوات كبرى اخرى على التواجد وتزداد فرص الصراع ، وربما تصل المنطقة الى الصراع العسكري المكشوف وتستباح كلية . وكما هو معروف فإن هناك علاقات صداقة تربط دولا في الشرق الاوسط بدولة كالاتحاد السوفياتي ، ولا يمكن ان يسمح الاتحاد السوفياتي لأميركا باستباحة المنطقة ، وهذا بالتالي يفسح المجال امام صراعات عسكرية كبيرة ، ولا اعتقد بأن الوصول الى هذا الموقف هو في صالح اي دولة من دول المنطقة ، وهو ليس في صالح القضية الفلسطينية . كثيراً ما تسمع تصريحات لمسؤولين في دول الخليج يؤكدون فيها حرصهم على أمنه . وباعتقادي ان الأمن ليس مطلوبا من طرف واحد ، ومن يحرص على أمن الخليج لا يقدم الدعوات ولا يعطي الشرعية للتواجد الاميركي . هناك دول قدمت التسهيلات علنا كالصومال وعمان ، وهناك اخرى فيها تواجد أميركي غير معلن ، وعداؤها موجه ضد الثورة الايرانية ، ولست أفهم لماذا يعادون ايران وعلى أي اساس ، بينما كان من المفروض الاستفادة من التغيير الاستراتيجي ، الهائل المتمثل بانتصار الثورة الايرانية ، لتعويض الخسارة الناجمة عن اخراج مصر من الصراع .

س : كيف يؤثر انتصار الثورة الايرانية على الجانب العسكري لخريطة الصراع ؟

ج : كانت الولايات المتحدة الاميركية تعتمد على قوتين في المنطقة : قوة اسرائيل وقوة ايران وقد انيطت بهما حماية المصالح الحيوية الاميركية في المنطقة . ومن يطلع على التسليح والامكانيات العسكرية التي كانت موجودة في ايران ، في عهد الشاه ، يلمس هذه الحقيقة . من هنا أدخل انتصار الثورة الايرانية تغييرا استراتيجيا ، فتغيرت موازين القوى بالنسبة لاميركا في المنطقة ، ومن هنا يدور الصراع لشد ايران الى الوراء ، والمشاكل التي تجتاح ايران تجري تغذيتها ، في اطار هذا الصراع . واعتقد بأنه لا بد من ايجاد مناخ افضل بين ايران والمنطقة العربية ، ولا بد من الوصول الى الاستقرار داخل ايران لتكون قوية ، لان قوتها هي لصالح حركات التحرر في المنطقة ، وخصوصاً العربية منها . وأنا استغرب أن تواجه قوى عربية الثورة الايرانية بهذا العداء ، وأعتقد أن هناك صراعاً حول موضوع : اين تقف ايران ، ونحن نريد ايران القوية التي تقف الى جانب حركات التحرر العربية ، ونحن نقوم بدور لايجاد حالة من حسن الجوار بين ايران والدول العربية . الاستجابة العربية ما زالت بطيئة ، وهناك بعض الامور العالقة ، ولكننا نسير في هذا الاتجاه .

اما علاقاتنا العسكرية مع ايران فهي ، مثل كل مجالات العلاقات الاخرى ، آخذة بالنمو ، وستشهد تطورات كبيرة في القريب العاجل .

س : بتلخيص ، ما هي اسس العقيدة القتالية لقوات الثورة الفلسطينية ؟

ج : عقيدتنا واضحة ، وهي مبنية على التحرير : اساس العقيدة هو تحرير التراب الفلسطيني ونظريتنا تقوم على ضرورة تحرير الارض .

صبري جريس

نهجان في العداء الإسرائيلي للعرب

قراءة في يوميات موشي شاريت ١٩٥٣ - ١٩٥٧

موشي شاريت (الذي عرف ايضاً باسم موسى شرتوك) (١٨٩٤ ـ ١٩٦٥) ، رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية (١٩٣٣ ـ ١٩٤٨) ، أول وزير خارجية في اسرائيل (أيار ١٩٤٨ ـ حزيران ١٩٥٦) وثاني رئيس لحكومتها (كانون الثاني ١٩٥٤ ـ تشرين الثاني ١٩٥٥) ، هو واحد من الزعماء الصهيونيين البارزين ، الذين لعبوا دوراً مهماً في انشاء الكيان الصهيوني في فلسطين ، ومن ثم اسرائيل ، بقيادته النشاط السياسي الصهيوني خلال ثلاث وعشرين سنة متتالية (١٩٣٣ ـ ١٩٥٦) .

وشاريت ، اضافة الى صفته السياسية ، هو أيضاً مؤلف ... و« فقيه » ، كان قد استنبط عدة مفردات وتعابير عبرية جديدة . وقد صدرت له ، سنة ١٩٥٨ ، عن دار النشر الهستدروتية (عام عوفيد) ، في تل ـ أبيب ، الطبعة الأولى من أول كتبه السياسية ، « بشاعار هأوموت » (على بوابة الأمم) ، وهو عبارة عن تسجيل وعرض للنشاط السياسي الصهيوني خلال السنوات ١٩٤٦ ـ ١٩٤٩ التي ركز الصهيونيون جهودهم ، خلالها ، على اقامة الدولة اليهودية وتثبيت أسسها . وبعد وفاة شاريت ، راحت دار النشر المذكورة ، بالاشتراك مع المكتبة الصهيونية ، تصدر سلسلة مذكراته السياسية ، « يومان مديني » ، وهي أيضاً عرض وتسجيل للسياسة الخارجية الصهيونية . والمجلد الاول من هذه السلسلة ، الذي صدر سنة ١٩٦٨ ، يضم مذكرات سنة ١٩٣٦ ، اولى سنوات الثورة العربية الكبرى في فلسطين . ثم تبعته ثلاثة مجلدات أخرى ، يضم كل مجلدٍ منها مذكرات سنةٍ من السنوات التالية : ١٩٣٧ و ١٩٣٨ و ١٩٣٩ (ويفترض ان تستكمل هذه السلسلة ، مستقبلاً) .

أما آخر « انتاج » شاريت ، الذي رأى النور ، فهو يومياته الشخصية* وهي موضوع

* موشي شاريت ، يومان ايشي ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧ (يوميات شخصية ، ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧) ، تل ـ ابيب سفريات معاريف ، ١٩٧٨ ، ٨ أجزاء ، ٢٥١٢ ص (بالعبرية) .

هذه القراءة . ويوميات شاريت هذه ، على الرغم من وصفها بالـ « شخصية » ، هي أساساً سياسية . وكان ابنه ، يعقوب ، من عمل على نشرها ، بعد مرور اكثر من عشرين سنة على انتهاء والده من كتابتها ، وبعد ان توفي معظم « ابطالها » . واليوميات ، عموماً ، عبارة عن تسجيل شبه يومي ، مع بعض الفجوات ، من حين الى آخر ، لنشاط صاحبها ومواقفه وافكاره وآرائه وسياسته ، بصفته وزيراً للخارجية ، ورئيساً للحكومة لفترة ما أيضاً : كما أنها تعرض مواقف الآخرين ، من اسرائيليين وغيرهم ، ممن كانت لهم علاقة بالمسائل التي شغلت بال الزعامة الاسرائيلية ، أو المشاكل التي واجهتها اسرائيل خلال تلك الفترة . ومن هذه الناحية ، تقدم اليوميات مادة اولية وثائقية دسمة ، تلقي الاضواء على فترة تعتبر من الفترات الغامضة في تاريخ اسرائيل ، وتتعرض لقضايا ومشاكل ومغامرات تعتبر اكثر غموضاً .

فترة تحول

لا تكتسب يوميات شاريت اهميتها من شخصية كاتبها ، وحسن اطلاعه ، بحكم مناصبه على الأقل ، على الأمور التي يتحدث عنها ، فحسب ، وانما لأنها ، أيضاً ، تتناول فترة انتقالية ، تحولت السياسة الاسرائيلية ، خلالها ، من وضع اتصف بـ « الميوعة » وانعدام « وضوح الرؤية » ، وفقدان « الثقة بالنفس » ، كان قد سيطر عليها في مطلع الخمسينات ، الى حالة تبلور معها العداء للعرب وتمأسس ، في منتصف ذلك العقد ، على الشكل الذي لا يزال ملازماً لها حتى الآن . وأهمية اليوميات كامنة في القائها الاضواء على العوامل المختلفة التي أدت الى ذلك التحول .

وهذا التغيير في الموقف الاسرائيلي لم يتم صدفة ، وإنما نجم عن عدد من العوامل ، كما أن أكثر من طرف قد شارك فيه ، وجاء على ارضية الاوضاع الدولية والمحلية التي سادت آنذاك ، والتي وصلت معها السياسة الاسرائيلية الى مفترق طرق . فعلى الصعيد الخارجي ، بعامّة ، وبالنسبة لوضع اسرائيل في المنطقة ، بخاصّة ، كانت السياسة الصهيونية قد طورت ، في حينه ، نظرية مفادها ان العرب لن يقبلوا بالوجود الصهيوني في المنطقة ما لم تنشأ دولة يهودية مستقلة ذات سيادة ، لا قدرة لهم على اقتلاعها . غير انه لم تمر إلّا أربع سنوات أو خمس على قيام اسرائيل حتى اتضح بطلان تلك النظرية ، اذ ان العرب لم يرفضوا الاعتراف بها فحسب ، بل راحوا ، كما اعتقد بعض الاسرائيليين على الاقل ، يعدون العدة لجولة ثانية ضدها . وساهم في تقوية هذا الشعور عمليات الهجوم والتسلل ، المنظمة او العشوائية ، التي كانت تتم عبر خطوط الهدنة ، من هذه الدولة العربية او تلك ، الى داخل الاراضي المحتلة ، بهدف القيام بما يمكن تسميته نشاطاً فدائياً ، وان كان محدوداً وغير واضح المعالم ، او لتنفيذ عمليات سلب وقتل « خاصة » . وكثيراً ما كان هذا النشاط يجر عمليات اسرائيلية انتقامية ضد الدول العربية المجاورة ، تطورت ، في اكثر من حالة ، الى صدامات عسكرية ، خصوصاً ، على الحدود المصرية والسورية . وهذا الشعور الاسرائيلي بالخوف من جولة عربية ثانية ، صحيحاً كان او وهمياً ، تزامن أيضاً مع بروز الشعور بالعزلة استراتيجياً ، إثر اتجاه الغرب بزعامة الولايات المتحدة الناشطة ، إلى اقامة الأحلاف العسكرية ، الموجهة ضد السوفيات ، في المنطقة ، من خلال الاعتماد أساساً على العرب ، وتجاهل اسرائيل ، ما لم تسع هذه الى تسوية خلافاتها مع العرب ، وحملهم على القبول بها والموافقة على التعاون معها : وهو ما اعتبرته

الزعامة الاسرائيلية ، وبحق ، شبه مستحيل او ، على الاقل ، سابقاً لأوانه وبعيد المنال ، ازاء الرفض العربي لها ؛ مما ساهم في تقوية الازمة التي واجهتها .

أما على الصعيد الداخلي ، فان الوضع لم يكن أيضاً أكثر اشراقاً : اذ ظهر ان « الصبي لا ينمو كما توقع والداه » . ففي ذلك الوقت ، بدا واضحاً للجميع ان اسرائيل لا تتطور كما توقع مؤسسوها ، وأن ازمات مستفحلة ، ليس من السهل حلها ، تواجهها على اكثر من صعيد ؛ وكانت الأزمة الاقتصادية أولاها وقدنجمت، الى حدما، عن المقاطعة العربية للكيان الصهيوني ، والتي وصلت حدتها ، في مطلع الخمسينات ، الى حد تقنين المواد الغذائية . وعلى الرغم من ان اسرائيل اجتازت بسلام تلك الفترة الحرجة اقتصادياً ، سرعان ما اتضح لقادتها ان الازمة الاقتصادية ستلازمها لوقت طويل ، على ما يفترضه ذلك من ضرورة الاعتماد الدائم على مساعدات الآخرين وتبرعاتهم . كذلك ظهرت ، خلال تلك الفترة أزمة حادة من « الثقة بالنفس » ، صهيونياً ، ناجمة - ان صح التعبير - عن انخفاض مستوى اداء الدولة اليهودية، عموماً ، إثر اضطرارها ، خلال سنواتها الاولى ، الى استيعاب اعداد كبيرة نسبياً من المهاجرين اليهود الشرقيين ، من ذوي المستوى الثقافي والحضاري المتدني ، الذين اصبحوا بمثابة عالة على اسرائيل ، وبحاجة الى مساعدات اجتماعية مختلفة منها ، بدلاً من ان يساهموا في تقويتها وجعلها دولة عصرية ، وهو ما لم يأخذه آباء الصهيونية ومعلموها بالحسبان . وعلى هذه الارضية ، برز أيضاً التناحر الحاد بين الاحزاب والفئات السياسية المختلفة حول الاستراتيجية العامة ، او الخطوات العملية ، التي ينبغي على اسرائيل اتباعها ، عالمياً وشرق اوسطياً وداخلياً ، لضمان وجودها وتحقيق اهدافها . ولم يكن الحسم سهلاً .

ويقال ان المشاكل ، وخصوصاً الصغيرة منها ، التي نجمت عن تلك الازمات ، و« القرف » الذي ولدته لدى دافيد بن - غوريون ، وهو الذي اعتاد التصدي لـ « كبار الأمور » ومواجهة التحديات الصعبة ، خلال الفترة التي سبقت قيام اسرائيل ، جعلته يصاب بـ « الملل » (انظر ص ١٣٨ من اليوميات)، فيقرر ، في اواخر سنة ١٩٥٣ ، الاستقالة من منصبه كرئيس لحكومة اسرائيل والاعتكاف لفترة ما في كيبوتس سديه بوكر في النقب (وكان هذا هو حافز شاريت للبداية بكتابة يومياته ، إثر احساسه بأنه سيكون رئيس حكومة اسرائيل المقبل) . ومع استقالة بن - غوريون ، وحلول شاريت مكانه (إضافة الى احتفاظه بمنصبه الاصلي كوزير للخارجية) ، تبدأ فترة جديدة في السياسة الاسرائيلية ، امتازت بصراع مستمر ، خفي تارة وعلني طوراً ، بين الرجلين وانصارهما ، وانتهت بعودة بن - غوريون الى الحكومة الاسرائيلية (كوزير للدفاع ، اوائل سنة ١٩٥٥ ، وكرئيس للحكومة ، إضافة الى ذلك ، منذ اواخر تلك السنة) ، ثم اخراج شاريت منها ، في صيف ١٩٥٦ . وجاءت هذه التغييرات في المناصب الحكومية بمثابة تمهيد للطريق امام العدوان الثلاثي ، الاسرائيلي - الفرنسي - البريطاني ، على مصر في خريف تلك السنة ، الذي اعتبر انتصاراً للخط المعادي للعرب داخل المؤسسة الاسرائيلية الحاكمة ؛ والذي غرس أيضاً بذور الحروب العربية - الاسرائيلية التي تلته (وهذه هي الفترة التي يتناول شاريت أحداثها باسهاب في يومياته) .

تياران في السياسة الاسرائيلية

لعل ابرز ما يلفت النظر في السياسة الاسرائيلية ، خلال هذه الفترة ، كما يقدمها

شاريت ، هو وجود تيارين – اتجاهين مختلفين داخلها ، يتصارعان فيما بينهما، وكل منهما يحاول أخذ زمام الأمور بيديه . ويشتد هذا الصراع بين التيارين ، من حين الى آخر ، ويصل الى درجة يخيل معها احياناً للقارىء وكأن السياسة الاسرائيلية ، بكافة المشاكل التي تواجهها، تبت من خلال ردود الفعل المتوقعة من قبل مؤيدي هذا التيار او ذاك ، او تحسّب بعضهم مما قد يقوله ، او يستنتجه ، مناوئوه ، دون اي اعتبار للظروف الموضوعية التي قد تحتم تصرفاً آخر .

ويتزعم موشي شاريت واحداً من هذين التيارين – الاتجاهين ، اما الثاني فيقوده دافيد بن – غوريون . ولكل من الرجلين انصاره والمعجبون به ، داخل حزبهما المشترك ، الحاكم آنذاك ، وهو مباي (حزب عمال ارض – اسرائيل ، ومنذ سنة ١٩٦٨ : حزب العمل الاسرائيلي) ، وفي الاحزاب الاسرائيلية الأخرى . ويمكن ، باختصار ، وصف التيار الذي تزعمه شاريت بأنه « عاقل » و « معتدل » إن قوبل بتيار بن – غوريون ، المتشـــدد و « العدائي »؛ والاثنان ينطلقان ، بالطبع ، من فهم كل منهما المختلف للمصلحة الصهيونية ، واسلوب معالجة المشاكل التي تواجه اسرائيل . وكانت هذه المفاهيم ووجهات النظر المختلفة لدى كل من بن – غوريون وشاريت قد تبلورت خلال نحو أربعين سنة من التعاون – التنافس فيما بينهما ، وهي حقبة وصلا خلالها الى وضع كان بن – غوريون يعتبر فيه الرجل الاول في الحزب (ثم الدولة) وشاريت الرجل الثاني (التفاصيل في الصفحات ١٥٤ و ١٥٩ و ٨٧٧ و ١٤٥٥ من اليوميات) .

ومفاهيم بن – غوريون وشاريت المختلفة هذه ، وان كانت متنافرة ، تتقاطع ، واحياناً تتطابق مع بعضها البعض ، وفق نظرة كل منهما ، في كل حالة وحالة . فشاريت ، مثلاً ، وكما يبدو نتيجة لنشاطه في مجال العلاقات الخارجية ، يهتم بالرأي العام العالمي تجاه اسرائيل ، ويخشاه ولذلك يعتقد ان سياسة اسرائيل ينبغي ان تعتمد على قوتها الذاتية من ناحية ، وعلى الحرص على عدم اثارة الحساسية تجاهها من ناحية أخرى (ص ٤٠١) ، ويرى « تناقضاً صارخاً بين تعلقنا الموضوعي المطلق بمساعدة العالم لنا وعطفه علينا ، وبين .. انغلاقنا على ذاتنا وانعدام احساسنا التام بردود فعل الرأي العام العالمي على اعمالنا » (ص ٥٠) . أما بن – غوريون فيعتقد أن أمن اسرائيل مسألة مصيرية ، مرتبط ، أولاً ، بالقدرات الاسرائيلية نفسها ، وليس بعطف الأمم المتحدة او الدول الكبرى عليها (ص ٩٢٠) ، ويرى تبعاً لذلك ، على سبيل المثال ، ان اسرائيل قامت سنة ١٩٤٨ نتيجة لجرأة الصهيونيين واستعدادهم للمخاطرة ، وليس استكمالاً لقرار الأمم المتحدة ، لسنة ١٩٤٧ القاضي بتقسيم فلسطين واقامة دولتين فيها ، عربية ويهودية (ص ٨٧٤) .

والخلاف نفسه ينطبق أيضاً على الموقف « الاستراتيجي » لكل من الرجلين تجاه العرب . فبن – غوريون يحذر في جلسات الحكومة ، اكثر من مرة ، (انظر ، مثلاً ، ص ٥٤ و ٣٢٩) من استعدادات العرب العسكرية واتجاههم لتسليح أنفسهم ، ويرى في ذلك نية مبيتة للقيام بجولة ثانية ضد اسرائيل ، قد تفرض عليها العمل على احباطها مبكراً بشن حرب وقائية ضدهم ، بينما يعتقد شاريت ان الحافز لتلك الاستعدادات قد يكون دفاعياً بحتاً ، وناجم عن خوف العرب من هجوم اسرائيلي ضدهم . ولا يسجل شاريت شيئاً يذكر عن نظرة بن – غوريون لمستقبل علاقات اسرائيل مع العرب او كيفية تسوية الخلافات معهم ، ولكنه يبدي بوضوح رأيه هو بأن اسرائيل

« تستطيع فرض السلام على العرب بواسطة انتصار ساحق في حرب شاملة فقط ، اي بواسطة احتلال دمشق والقاهرة وعمان . ولكن ، حتى عندئذٍ ، لن يكون هذا سلاماً بل استسلاماً ، مؤقتاً ، تنفجر بعده انتفاضة غاضبة قد تمحونا من على اراضي اسرائيل » (ص ٨٧٤) . ثم انه مهما احتلت اسرائيل من اراض عربية ، تبقى هنالك دائماً حدود ، يقف وراءها عرب كارهون لها (ص ١٠٦٠) ، على استعداد لاستئناف القتال ضدها ، عاجلاً أم آجلاً . ولذلك ليس على اسرائيل الا القبول بالوضع الراهن والسعي الى عقد سلام مع العرب (ص ٨٧٣) ، من خلال استعداد لتقديم بعض التنازلات لهم .

أما الناحية العملية ، في اختلاف وجهات النظر بين الرجلين ، فتظهر على أشد ما يكون وضوحاً في منطلق كل منهما تجاه العمليات الانتقامية ، التي أكثرت اسرائيل من شنها آنذاك ضد الدول العربية المجاورة . فقارئ اليوميات يلمس بوضوح ان همّ شاريت انحصر أساساً ، خلال هذه الفترة ، في منع تلك العمليات او تقييدها او الحد من شموليتها واضرارها ، مستخدماً كافة المبررات التي يجدها ، لاعتقاده انه بذلك يمنع التدهور نحو حرب عربية ـ اسرائيلية جديدة . وفي مساعيه هذه ، اصطدم اكثر من مرة مع قيادة الجيش الاسرائيلي وبن ـ غوريون وعدد من الوزراء . ولكن شاريت ، على الرغم من موقفه هذا ، رفض ، من ناحية ثانية ، الموافقة على اقتراح يقضي بالامتناع ، مبدئياً ، عن اللجوء الى الاعمال الانتقامية كوسيلة (ص ٤٥٥) ، لأن « هنالك ضرورة للرد من حين الى آخر (ص ٤٥٨) على » تحرش « العرب . ثم « ان الاعمال الانتقامية الشديدة ، التي نفذت من حين الى آخر ، هي التي وضعت الحواجز امام موجات الاعتداءات التي كانت تطغى على مناطق الحدود وتصل بأمن الدولة الى حد الانهيار » (ص ٥٩٥) . ونراه ايضاً يسر ليومياته ، بعد الهجوم الاسرائيلي على نحالين في الضفة الغربية ، في آذار ١٩٥٤ ، والذي كان شاريت قد أقره قبل تنفيذه ، ان تلك العملية « خففت التوتر في البلد ، وقضت على الشعور بالضيق ورفعت المعنويات ... » (ص ٤٢٢) . ويضيف ، في مناسبة أخرى ، انه يعتبر الدكتور حاييم وايزمن ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، ومن ثم اول رئيس لاسرائيل ، واسلوبه في العمل السياسي ، الذي وصفه بعض الصهيونيين بأنه مغال في الاعتدال ، او « مستسلم » ، هو الذي ادى الى انشقاق الصهيونيين الاصلاحيين (آباء حزب حيروت ، الشريك الاكبر في ليكود حالياً) عن المنظمة الصهيونية العالمية ، في حينه . و « وباء الانشقاق هذا قد يتجدد في الدولة ، اذا حاولنا التساهل [مع العرب] اكثر مما ينبغي » (ص ١٠٢٥) . ولكن ، في مقابل ذلك ، يتضح ان المهم بالنسبة لبن ـ غوريون هو « الأمن » ، ومفهومه للأمن واسع للغاية ، يصل حتى الى ضرورة المطالبة باتباع اسلوب الانتخابات المنطقية في اسرائيل ، لكي يتم ، بناء على ذلك ، تشكيل حكومات مستقرة تستطيع المحافظة على الأمن . وانطلاقاً من مفهومه هذا ، لا يتردد بن ـ غوريون كثيراً في الموافقة على القيام بعمليات انتقامية ، او المطالبة بتنفيذها (ص ٨٠٠ و ٨١٦) ، وان كان يعتقد انه لا ينبغي ، بالضرورة ، الرد على كل حادث يقع على الحدود (ص ٧٤٢) .

وكان الصراع ، حول تنفيذ العمليات الانتقامية الاسرائيلية ضد الدول العربية ، وكل ما يتعلق بتلك العمليات من حيث التوقيت او المدى او اختيار الاهداف ، يثير ، آنذاك ، داخل المؤسسة الحاكمة الاسرائيلية ، بشقيها المدني والعسكري ، نزاعات و « نرفزات » عديدة نظراً لانعكاساتها الواسعة على اوضاع اسرائيل ، خارجياً وداخلياً .

مع استقالة بن - غوريون ، وانتقاله للسكن في كيبوتس سديه بوكر في النقب ، ومن ثم تعيين شاريت خلفاً له رئيساً لحكومة اسرائيل ، في اواخر ١٩٥٣ واوائل ١٩٥٤ ، يبدو ، لأول وهلة ، ان الغلبة كانت للاتجاه « المعتدل » الذي يمثله الأخير في السياسة الاسرائيلية ، على ما قد يحمله ذلك من تغييرات متوقعة قد تطرأ عليها . غير ان الواقع كان عكس ذلك . فبن - غوريون ترك وراءه في السلطة ، قبل « اعتزاله » الحكم « حصاني طروادة » ، كان اولهما بنحاس لافون ، نائب وزير الدفاع ، الذي عُين وزيراً للدفاع ، مكان بن - غوريون ، وكان ثانيهما موشي دايان الذي عُين رئيساً للاركان .

ولم يكن شاريت راضياً عن هذه التعيينات ، خصوصاً بالنسبة لدايان ، لان ذلك يعني « تسييس » الجيش ، بينما « ستصبح القدرة البالغة لرئيس الاركان الجديد على تدبير المكائد مصدراً خصباً للتعقيدات » (ص ٢٩) . ثم ان « دايان ليس رجل جيش ولا انضباط . انه مقاتل - متطوع جريء ، خلال الحرب ، وسياسي - مغامر لامع في وقت السلم . ولا يدرك ، كما أنه غير مهتم بادارة جهاز عسكري » (ص ٢٠٢) . اما بنحاس لافون فان « مزاياه قد تشكل خطراً ... وهو يمر في مسار من التطرف ، بالنسبة [لموقفه] من الشؤون الخارجية والداخلية » (ص ١٥٧) وقد ابدى شاريت مخاوفه من التعيينات المقترحة ، وتوقع حدوث المشاكل مع ذلك الثنائي ، ومع كل منهما على حدة ، ولكنه لم يستطع اتخاذ اي اجراء مضاد ، خصوصاً بعد ان اوضح بن - غوريون ان تركه الحكومة مرهون بتعيين دايان (رغم انه كان اول رئيس اركان لا تتم الموافقة على تعيينه بالاجماع من قبل الحكومة) . بل ان التعيين تم في اليوم نفسه الذي اعلنت فيه ، رسمياً ، استقالة بن - غوريون (ص ٢٠٥ و ٢١٥) .

ولم يمر وقت طويل حتى اتضح ان مخاوف شاريت كانت في محلها . فلافون ، مع تعيينه وزيراً للدفاع ، بدا كأنه لا يفضل الا طريق المغامرات العسكرية . فنراه يُقدّم ، في هذا الصدد ، المشروع تلو الآخر للحكومة . ومن بين هذه « المشاريع » ، مثلاً ، القيام بعملية عسكرية لفك الحصار البحري الذي فرضه المصريون ، من شرم الشيخ ، على ميناء ايلات (العقبة) ، على الرغم من ان اسرائيل لم تكن تملك آنذاك القوة العسكرية الضرورية للقيام بمثل هذه العملية . ومنها اقتراح آخر ، يقضي بمهاجمة السوريين في طبريا ، بسبب اطلاقهم النار على زوارق الصيد الاسرائيلية في البحيرة . ومن بينها أيضاً العمل على ضم المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود بين سوريا واسرائيل . أما اقتراحه الرابع فكان استغلال الاوضاع الانقلابية المتغيرة في سوريا ، ومن ثم امكانية دخول الجيش العراقي اليها ، لاحتلال جزء منها وضمه الى اسرائيل . وكان الخامس احتلال قطاع غزة ، الخ (ص ٣٣١ ، ٣٧٦ ، و ٣٧٧) . والأهم من ذلك هو ان هذه الاقتراحات انطلقت من نظريات « غريبة » طورّها لافون ، وراح ينشرها بين كبار مسؤولي وزارة الدفاع الاسرائيلية وقادة الجيش ، ومفادها « ان حكومة الولايات المتحدة ضدنا [لأنها كانت تسعى آنذاك الى عقد حلف دفاعي مع العرب ، موجه ضد السوفييت ، متجاهلةً اسرائيل] ، وهي اليوم العدو ، ومنها ينبع الخطر . وينبغي رفض مشروع كلاب [التوطين اللاجئين] كلياً وبصورة مطلقة ؛ والاهم من ذلك هو ان نظام الهدنة [بين اسرائيل والدول العربية] ليس الا مؤامرة لابادة اسرائيل ، ولا ينبغي تحمله بأي شكل من الأشكال » (ص

١٠١) . ثم انه « ليس الدول العربية ، بل دول الغرب [بأسرها] هي العدو ، والطريق الوحيد لردعهم عن تنفيذ مؤامراتهم هو النشاط المباشر [ضد العرب ؟] الذي يفرض الهلع عليهم [اي على دول الغرب] » (ص ٦٨٥) .

وانطلاقاً من مثل هذه المواقف ، لم يكن مستغرباً ان يجد لافون نفسه متورطاً ، وكما يبدو دون معرفته ، في حادثة غريبة ، كانت نتيجتها المباشرة اقصاء ه عن وزارة الدفاع (وقد أثار لافون هذه الحادثة ثانية ، في مطلع الستينات ، فانفجرت على نطاق واسع ـ وعرفت آنذاك باسم « فضيحة لافون » وتسببت في اقصاء لافون عن منصبه كأمين سر الهستدروت ، بعدان هزت أسس النظام المبائي الحاكم في اسرائيل ، وأسرعت في استقالة بن ـ غوريون من الحكم نهائياً) . وخلاصة هذه « الفضيحة » هي ان الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية اصدرت ، في منتصف تموز ١٩٥٤، وكما يظهر تحت تأثير « نظريات » لافون ، تعليمات الى مجموعة من عملائها ، في مصر ، معظمهم من اليهود ، بوجوب « البدء بالعمل الفوري لمنع او تأجيل الاتفاقية البريطانية ـ المصرية [بشأن جلاء بريطانيا عن قناة السويس ، وذلك بواسطة نسف وتفجير] الاهداف التالية : اولاً ، مؤسسات ثقافية واعلامية : ثانياً ، مؤسسات اقتصادية : ثالثاً ، سيارات ممثلين بريطانيين وبريطانيين آخرين : [والقيام بأي] عمل آخر قد يؤدي الى تدهور العلاقات الدبلوماسية » (ص ٦٥٩.) . والغاية من هذه الأعمال ، كما أوضحها رئيس شعبة الاستخبارات العقيد بنيامين جيبلي ، الذي أرسل التعليمات ، هي « هز ثقة الغرب [بالحكومة المصرية] بواسطة التسبب بانعدام الأمن العام ، وبأعمال تؤدي الى اعتقالات ومظاهرات وردود فعل انتقامية ... [لمنع] تقديم مساعدات اقتصادية وسلاح لمصر » (ص ٧٠١) .

وكانت مجموعة العملاء تلك عند حسن ظن منظميها بها ، اذ ما ان استلمت التعليمات المذكورة ، حتى راحت تعد العدة لوضع القنابل والمتفجرات في بعض الاماكن العامة في القاهرة والاسكندرية . وقد نجحت في تنفيذ بعض العمليات . غير انه لم يمر سوى وقت قصير حتى اكتشفتها السلطات المصرية ، واعتقلت كل افرادها ، عدا رئيسهم الذي استطاع الهرب : وحكمت على اثنين منهم بالاعدام ، ونفذت الحكم فيهما رغم المحاولات العديدة التي بذلتها اسرائيل لانقاذهما ، وعلى الباقين بالسجن لفترات طويلة (وقد افرج السادات عن آخرهم بعد زيارته للقدس) .

وفي مواجهة هذه الورطة ، تصرفت الحكومة الاسرائيلية بأشكال مختلفة . فتجاه الرأي العام ، داخل اسرائيل وخارجها ، اوعزت بشن حملة على مصر متهمة إياها بـ « اضطهاد » مواطنيها اليهود والعمل على الايقاع بهم ، دون ان يرتكبوا ذنباً ، بينما كانت في الوقت نفسه توسط مختلف الشخصيات والدوائر الاجنبية لدى عبد الناصر ، مقترحة اطلاق سراح المعتقلين ضمن صفقة تفاهم شبه تام بين مصر واسرائيل . أما المعارضة الاسرائيلية ، بزعامة بيغن ، فقد أوحي لها بأن خطأ ما قد وقع اثناء تنفيذ « عملية مهمة » تتعلق بـ « أمن الدولة »، يجدر بمعارضة مسؤولة وعاقلة ان تمتنع عن استغلاله ، حفاظاً على المصالح العليا للدولة : وهذا ما تم فعلاً . وفيما يتعلق بالاجراء ات الفعلية ، قام شاريت بتشكيل لجنة للتحقيق في الحادث ، لم تستطع ان تقرر « من أصدر الأمر » . وإزاء هذه النتيجة ، حولت القضية الى هيئة استقصاء مشكلة من خمسة من كبار وزراء مباي ، الحزب الحاكم .

وأمام هذه الهيئة الوزارية الحزبية ـ المباشية ، المشكلة من كبار « أهل البيت » ، وحيث مصلحة الحزب واستمراره في الحكم فوق اي اعتبار آخر ، تسود الصراحة وتظهر الصورة اكثر وضوحاً ، وتكشف عن عدد من الفضائح الأخرى . واول انطباع يتولد لدى هذه الهيئة ـ اللجنة هو ان لافون « خرّب » وزارة الدفاع ، وذلك بأن خلق ، نتيجة لتآمره وغطرسته ودسه ، وضعاً في الوزارة لم يستطع معه كبار المسؤولين فيها الاستمرار في التعاون مع بعضهم البعض (ص ٦٤٢) ، مما أدى ، في نهاية الأمر ، الى عزل لافون وانقلاب مؤيديه السابقين ضده (ص ٦٣٧ و ٦٣٩) . ونتيجة لذلك ، تقوضت أطر المسؤوليات والصلاحيات داخل الوزارة ، وبدا كأن كل شخص يتصرف على هواه ، ويتجاوز المسؤولين عنه . فقد افاد احدهم ، مثلاً ، ان لافون قام بتزييف امر العمليات المتعلق بالهجوم الاسرائيلي على قرية قبية في الضفة الغربية ، في اواخر ١٩٥٣ ، وذلك بأن حصل على موافقة رئيس الحكومة ووزير الدفاع على تنفيذ عملية انتقامية « عادية » ، ثم اضاف الى تعليمات التنفيذ ، الموجهة للقوة المهاجمة ، بنداً يخولها القيام أيضاً « بالقتل والتدمير » . وقد أدى ذلك الى مقتل بضع عشرات من اهالي قبية ، الذين نسف الجيش الاسرائيلي بيوتهم عليهم ، بعد ان منعهم من الخروج منها . وشهد آخر ان لافون اقترح أيضاً القيام ، في الاردن ، بعمليات مشابهة لتلك التي نفذت في مصر ، للايقاع بين الاردنيين والاميركيين (ص ٥٦٢) . أما دايان فقد اشتكى من ان الجيش نفذ احدى العمليات الانتقامية ، التي أسفرت عن مقتل أربعة اردنيين ، دون علمه ، وهو رئيس الاركان ، موضحاً ان كبار ضباط شعبة العمليات يسيطرون على رئيس الشعبة ، العميد يوسف افيدار ، ويفعلون ما يريدون (ص ٥٢٦) . وظهر حتى ان حرس الحدود كذلك يقوم بعمليات انتقامية « على حسابه » (ص ٤٩٦) .

وازاء هذا الوضع ، أقصي جيبلي عن منصبه ، وأوعز الى لافون بتقديم استقالته ، وعاد بن ـ غوريون الى مكانه في الحكومة ، وزيراً للدفاع ، في شباط ١٩٥٥ . أما « حصان طروادة » الآخر ، موشي دايان ، « المهيأ حقاً لخدمة الله والشيطان معاً » (ص ٦٥٤) ، فقد كان له شأن آخر ، بعد ان تقرر الابقاء عليه رئيساً للاركان ؛ وذلك على الرغم من تحذير ايسر هرئيل ، رئيس المخابرات العامة (الشين بيت) لشاريت من ان دايان يقوم بالدعاية ضده ، ويطالب بتغيير القيادة في الحزب والهستدروت والحكومة ، وانه قد يعقد حلفاً مع بن ـ غوريون ضد شاريت (ص ٦٣٢ و ٧٠٥ و ٧٩٥) .

دولة مارونية في لبنان

و « الحلف » بين بن ـ غوريون ودايان (وغيرهما) ، الذي يحذر منه هرئيل ، كان قد بدأ يتبلور ، عملياً ، خلال الفترة التي كان « العجوز » بن ـ غوريون فيها خارج الحكم ، وذلك خلال « المشاورات » التي اعتاد الزعماء الاسرائيليون اجراءها معه ، حتى وهو « مواطن عادي » . ويتضح من هذه المشاورات ان روح المغامرة لم تكن مسيطرة على لافون وحده ، بل إنها كانت تطغى ، احياناً ، على بن ـ غوريون نفسه . وفي هذا الصدد ، يبرز بشكل ملفت للنظر اقتراح بن ـ غوريون العمل على اقامة دولة مارونية في لبنان .

ففي اواخر شباط ١٩٥٤ ، اي مع بداية فترة « التأمل » و « اعادة النظر » التي قرر

بن ـ غوريون قضاءها في سديه بوكر ، لفت نظره عدم الاستقرار السائد في بعض الدول العربية (الصراع بين محمد نجيب وعبد الناصر في مصر ، والانقلابات العسكرية المتتالية في سوريا) ، وراح يفكر في كيفية استغلالها لتحقيق بعض المآرب التوسعية الاسرائيلية . غير أنه توصل ، على الرغم من عدم الاستقرار في تلك الدول ، الى نتيجة مفادها ان لبنان بالذات هو « الحلقة الاضعف في سلسلة الجامعة » العربية . ولذلك بعث برسالة ـ مذكرة الى شاريت ، مقترحاً ان تبادر حكومة اسرائيل الى العمل على تأسيس دولة مسيحية في لبنان ، والتي لن تقام « دون مبادرتنا ومساعدتنا الجادة » : ولهذا ينبغي « تجنيد كل مستعربينا لذلك . وان كان المال مطلوباً ، فلا حاجة لتوفير الدولارات » (ص ٢٣٩٧ ـ ٢٣٩٨) . ويفترض في هذه الدولة ، مع تأسيسها ، ان تعقد حلفاً مع اسرائيل . وقد قام شاريت بمناقشة محتويات هذه المذكرة اكثر من مرة ، بعد استلامها . ورد أخيراً على بن ـ غوريون بقوله انه « حسب معلوماته ، لا توجد اليوم في لبنان حركة تسعى لتحويل البلد الى دولة مسيحية ، تكون السلطة المقررة فيها للطائفة المارونية » . ولهذا فان الظروف غير مواتية لذلك . ولو كان الواقع مختلفاً ، الى حد ما ، فلا مانع لدى شاريت من المحاولة ، بل انه « يوافق قطعاً [على سبيل المثال] على تقديم مساعدة فعالة لكل [بادرة] غليان لدى الطائفة المارونية ، بهدف تقوية نفسها وانعزالها ، حتى اذا كان ذلك الغليان يجري دون امكانية لتحقيق اهدافه » . ولذلك فان « تحويل لبنان الى دولة مسيحية يبدو اليوم غير ممكن » ، وان كان شاريت « لا يسقط من الحسبان امكانية تحقيق ذلك في اعقاب طوفان من الاضطرابات قد يطغى على الشرق الاوسط ، فيحفز الهمم ، ويلقي بالأطر القائمة في أتون يصهرها ويصنع منها صيغاً أخرى » (ص ٢٣٩٨ ـ ٢٤٠٠) .

غير أن بن ـ غوريون عاد وأثار الموضوع ثانية ، بعد نحو شهرين من استلام الرد المذكور ، خلال اجتماع للتشاور وتبادل الآراء عُقد ، بمبادرة من شاريت ، بين كبار المسؤولين في كل من وزارة الخارجية والجيش . وفي هذا الاجتماع انضم دايان الى بن ـ غوريون ، في طلبه التدخل في لبنان ، موضحاً ان « كل ما هو مطلوب ، حسب رأيه ، هو ايجاد ضابط ، ولو كان برتبة رائد [أهو سعد حداد ؟] ، واستمالته أو شراؤه بالمال ، لكي يوافق على اعلان نفسه منقذاً للسكان الموارنة . وعندئذٍ يدخل الجيش الاسرائيلي الى لبنان ، ويحتل المساحة التي يستطيع احتلالها ويقيم سلطة مسيحية متحالفة مع اسرائيل . وستضم المساحة الواقعة جنوبي الليطاني بصورة نهائية الى اسرائيل ، والكل سيمر بسلام » . ولكن « هذه المرة ـ يقول شاريت ـ دخلت في نقاش واسع معه بهذا الشأن ، وحاولت ان اوضح ان الموارنة ليسوا الا عكازاً من القصب المحطم ، منقسمون على أنفسهم ، ولا توجد بينهم جهة يمكن ان تتجرأ على المخاطرة ، وتستطيع ان تكون بالنسبة لنا سنداً وحليفاً حقيقياً » (ص ٩٩٦) .

ولكن على الرغم من هذا الموقف الواضح ، قام شاريت ، فيما بعد ، بطرح هذه الاقتراحات على كبار مساعديه (وخصوصاً مدير عام الخارجية جدعون رفائيل) وعلى بعض المستعربين (الياهو ساسون وزلمان ديفون ، وبنحاس الياف) ، فتقرر انشاء « وحدة للبحث والاستقصاء [والقيام] باعمال حذرة بهدف تشجيع الدوائر المارونية التي لا تحني رأسها للضغط الاسلامي ، وهي على استعداد للتفتيش عن سند لها لدينا » (ص ١٠٢٤) . واتفق الجميع أيضاً على ضرورة « اقامة علاقات ورعايتها ... والحقيقة هي أننا نقيم اليوم علاقات مع

مجموعة معينة ، وحاولنا سبر غور كثيرين غيرهم . ولكن على الرغم من ذلك من المفيد المثابرة اكثر على محاولات اقامة العلاقات - وخصوصاً محاولة جسّ نبض الجيش - ونرى ماذا ستكون النتائج » (ص ١٠٦٥) .

ويبدو ان تحفظ شاريت تجاه اقتراحات التدخل في لبنان ومساعدة مسيحييه ، ناجم عن وجهة نظر خاصة به ، مفادها انه لا ينبغي على اسرائيل الاعتماد على الاقليات في تعاملها مع العالم العربي ، على المدى البعيد ، لانه « ليس معهم بل مع الأكثرية سنضطر الى عقد السلام يوماً ما ؛ ولانهم اقليات بالذات لا ينبغي الاعتماد عليهم ، اذ ان ملاءمة انفسهم [مع الظروف المستجدة] بصورة متقلبة هي أساس موقفهم ، وطريقهم التقليدي للدفاع عن أنفسهم » (ص ٣٣٤) .

البحث عن موقع ... واستراتيجية

مهما كان الحجم الذي احتلته « فضيحة لافون » او مشاريع اقامة الدولة المارونية ، فمن الواضح ان هذه الاحداث لا يمكن اعتبارها اكثر من فصول ، رئيسية او ثانوية ، في مسلسل الصراعات الداخلية الاسرائيلية الدائرة ضمن محاولات التفتيش عن موقع لاسرائيل ، على الخريطة السياسية العالمية ، او عن استراتيجية تنتهجها تؤمّن لها احتلال ذلك الموقع والبقاء فيه .

ريبدو ان المشكلة الرئيسية التي واجهتها اسرائيل آنذاك كانت العزلة السياسية المفروضة عليها ، على الصعيدين الشرق الاوسطي والعالمي من جهة ، و« تحرش » العرب بها وسط عدم اكتراث عالمي مطبق من جهة أخرى . ويصف شاريت المشاكل التي يواجهها ، مع حكومته ، نتيجة لهذا الوضع - في برقية بعث بها ، في اواخر آذار ١٩٥٤ ، الى آبا ايبن ، سفير اسرائيل في واشنطن ، طالباً منه العمل على تدخل الولايات المتحدة - بقوله : « يسود البلاد شعور بالاحباط ... [والمعارضة] تحاول حصاد ثمار اليأس والجنون . ولكن ليس هذا هو المزعج . ففي قطاعات الحزب [مباي] ذهول وعدم ثقة داخلية فيما يتعلق بصحة طريقي [السياسية] . وبين الضباط تذمر مكبوت . وأخشى ان يكون هناك أيضاً انعدام ثقة متزايدة ، ولا ينقص الهمس ... والعقلاء يدركون ان نظام الحكم القائم [يتبع طريقة] ضبط النفس والتروي ، وسياسة متوازنة بين التهديد بالقوة واستنفار التأييد الدولي . ولكن سمعة الأمم المتحدة في الحضيض ، والولايات المتحدة مدانة كمعادية [لاسرائيل] ، وبريطانيا مشكوك بأمرها ، بسبب تآمرها . والكثيرون لا يستطيعون ان يروا مخرجاً من هذه الضائقة ، والاستهتار يتفاقم . وفي هذه الحالة ، من الضروري ان تترافق الجهود لكبح امكانية انفجار عظيم المخاطر باجراء ات شديدة وتظاهرية من الضغط السياسي . كما ان اعتبارات السياسة الخارجية تلزم بتوجيه ضغوط على الدول الكبرى وحثها على التدخل الحازم لدى الطرف الآخر [العرب] لحملهم على وضع الحواجز امام الاعتداء ات » (ص ٤١٧) : وبعد مرور اسبوعين على هذه البرقية يوضح شاريت امام اللجنة السياسية لحزب مباي ، ان ضائقة اسرائيل ناجمة ، حسب رأيه عن « اهتزاز نظام الهدنة [بين اسرائيل والدول العربية] ، تشديد العداء العربي ، اتساع تعلق الغرب بالعرب ، والتحول في السياسة السوفياتية نحو تأييد العرب ضد الغرب وضدنا » (ص ٤٦٣) . وبعد مرور نحو سنة على هذا التحليل ، اي في اوائل ١٩٥٥ نرى شاريت لا يزال

يتحدث عن « السلم البعيد ، الذي ربما لن يحظى به الا الجيل القادم » ، وعن « الاسباب المبررة لكره العرب لنا ، وعدم قدرة الولايات المتحدة على فرض السلام على العرب » (ص ٧١٣) . بل انه يضيف ، في مناسبة أخرى ، خلال حديث صحفي لم يكن من المفروض ان ينشر ، انه قد « حكم على اسرائيل بالموت البطيء » (ص ٨٥٤) .

في مثل هذه الاوضاع السياسية ، وعلى أرضيتها ، تصل الى اسرائيل تقارير تفيد أن دول الغرب ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، تتجه الى اقامة حلف مع دول المنطقة ، « للدفاع » عنها ضد السوفيات . وفي الوقت نفسه ، تبدأ الاتصالات الاميركية ، في هذا الشأن ، مع الباكستان وتركيا لاقامة نواة لذلك الحلف (الذي انضمت اليه العراق فيما بعد ، وعرف باسم حلف بغداد) . وتحاول اسرائيل ، ازاء هذا الوضع الجديد الآخذ في التبلور ، جس النبض لمعرفة ما اذا كان لها مكان في الحلف الجديد . ولكن سرعان ما يجيئها الرد بان الاميركيين غير مهتمين بها كثيراً (ص ٥٢٩) ، لأنهم يريدون جذب العرب اليهم ، وهؤلاء يرفضون التعاون مع اسرائيل . بل ان الجنرال ترودو ، رئيس الاستخبارات العسكرية الاميركية ، اعرب ، خلال لقاءاته مع زعماء اسرائيل ، اثناء زيارة استطلاعية قام بها في أيار ١٩٥٤ ، عن شكوكه في ان « تقاتل اسرائيل الى جانب الغرب » ، مضيفاً : « وعلى كل حال ، لا ينبغي تسليح اسرائيل لحرب عالمية ، لانه لا يمكن ارسال الجيش الاسرائيلي الى شمال منطقة [الشرق الاوسط] ، بسبب معارضة العرب ، بينما ليست هنالك فائدة من الدفاع عن [اسرائيل وحدها] ، لانه اذا وصلت المعركة الى هذا الجزء الداخلي من المنطقة ، فانها ستكون ، في كل الاحوال ، خاسرة . وسيقوم [الغرب] بتسليح فرقتين في العراق ، وبعد ذلك سيأتي دور الدول العربية الأخرى » (ص ٤٩٨) .

وفي مواجهة حلف بغداد ، يقترح أيبن من واشنطن ، العمل على عقد حلف دفاعي مع الولايات المتحدة ، ويسعى حثيثاً للقيام بذلك (ص ٧٢٦ و ٧٩٤ و ١١٨٠) : الا ان شاريت يبدي تحفظات عديدة تجاه الفكرة . وأسبابه في ذلك كثيرة ، « فاتفاق دفاع [اميركي - اسرائيلي] لوحده قد يصبح حالياً بمثابة ورقة التين التي تغطي عورة التسليح [الاميركي] الاحادي الجانب للدول العربية . وعلينا الحذر جيداً من هذا الخطر » (ص ١١٨٠) . ثم « إننا مستعدون حقاً ان نلتزم بعدم تغيير الحدود بالقوة ، ولكننا ... لا نستطيع الالتزام بالامتناع عن استعمال العنف » تجاه العرب في كل الحالات (ص ٧٢٦) . واخيراً وصل شاريت الى قناعة مفادها ان حلفاً دفاعياً اسرائيلياً - اميركياً ، في تلك الظروف ، ليس الا « وهماً مطبقاً » ، ولذلك «ينبغي توجيه كل الاهتمام ، الآن ، الى المطالبة بتقويتنا ضد خطر الاعتداء العربي ، وليس بارتمائنا الدائم على اعناق الدول الغربية طالبين منها إشراكنا في خطط الدفاع الاقليمية ، بينما تصم آذانها عن السماع » (ص ٧٩٤) . وعليه ، من المستحسن طلب السلاح العيني من اميركا ، بدلاً من الضمانات الامنية (ص ٨٥٧) .

وبينما كان شاريت منهمكاً في التفكير بما ينبغي عمله لمواجهة حلف بغداد ، جاءته رسالة شفهية من دالاس ، وزير الخارجية الاميركي ، في اوائل آذار ١٩٥٥ ، اي بعد الهجوم الاسرائيلي الواسع على غزة ، الذي وقع بعد عودة بن - غوريون الى الحكومة بفترة قصيرة ، يطلب منه فيها ضبط النفس و « عدم تخريب مشاريع الدفاع الاميركية عن منطقة الشرق

الاوسط ، الضرورية لدعم الجبهة ضد الشيوعية ، والحيوية [لاسرائيل] أيضاً » (ص ٨٣٦) . وفي رده ، لم يفوت شاريت الفرصة في استغلال الهجوم على غزة لابتزاز الاميركيين ، بقوله انه يشعر بالأسف « اذا كانت النتيجة التي سيتوصل اليها [دالاس نتيجة لذلك الهجوم] ستؤدي الى خلق دائرة مفرغة : لقد كان القصد [من الهجوم]تخفيف شعور الدولة [اسرائيل] بالعزلة : ولكن ان اصبح ذلك عذراً لسلب الضمانات منا ، بعد ان نفذ صبرنا نتيجة التحرش غير المنقطع بنا ، فلن يؤدي ذلك إلا الى تقوية العزلة ، وبعث الشعور بأنه ليس أمامنا الا الاتكال على قدرتنا المحدودة » (ص ٨٣٧) .

وقد استمرت الاتصالات ، في هذا الشأن ، بين الاسرائيليين من جهة والاميركيين والبريطانيين من جهة أخرى ، الى ان حصلت اسرائيل على وعود بأنه لن يُصار الى توسيع حلف بغداد مستقبلاً ، بضم دول أخرى اليه ، دون اعطائها شيئاً ما (ص ٨٨٢). غير ان الدرس المهم ، الذي تعلمه الاسرائيليون نتيجة لتلك الاتصالات ، هو النصائح التي نقلت اليهم ، على لساني دالاس وإيدن ، رئيس الحكومة البريطانية ، وهي انه اذا ارادت اسرائيل الانضمام الى الاحلاف الدفاعية الغربية ، عليها اولاً السعي الى تفاهم مع العرب (ص ٩٢٩) .

وتنبغي الاشارة ، على صعيد آخر ، الى ان اسرائيل ، في محاولة لتخفيف العزلة المفروضة عليها ، حاولت ايضاً ، خلال هذه الفترة ، اقامة علاقات مع الصين . ففي مطلع ١٩٥٤ ، عرضت الصين على اسرائيل ، بواسطة سفيرها في بورما دافيد هكوهين ، اقامة علاقات تجارية معها ، مستوضحة عن نوعية البضائع التي يمكنها شراؤها منها (ص ٣٢٨) . وقامت اسرائيل في الحال بابلاغ واشنطن بهذا العرض ، في محاولة لتجنب غضبها ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تتخذ اية خطوة في هذا الاتجاه (ص ٥١٥) . وفي مرحلة لاحقة ، اوضحت الصين أيضاً انه لا مانع لديها من اقامة علاقات دبلوماسية مع اسرائيل ، إضافةً الى العلاقات التجارية المقترحة ، فيما لو بادرت الأخيرة الى ذلك (ص ٨٥١) . وقد اتخذت اسرائيل قراراً باقامة تلك العلاقات ، وابلغت الصين به ، الا ان تنفيذه تأجل (ص ٨٥١ و ٩٥٨ و ٩٧٠) .

وفي اطار محاولات المحافظة على العلاقات الاسرائيلية مع المعسكر الاشتراكي ، يلفت النظر أيضاً ذلك التفسير « الطريف » الذي اقترح شاريت ، على السفير الاسرائيلي في موسكو ، تقديمه للسوفيات بشأن سعي اسرائيل للانضمام الى الاحلاف الغربية في المنطقة ، وهو ان هذا الاتجاه لا ينبغي ان يفسر كخطوة معادية للسوفيات ، بل سعياً الى المحافظة على أمن اسرائيل ، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنها بواسطتها الحصول على سلاح من الغرب (ص ٨٥١) .

مشروع جونستون ، توطين اللاجئين وتهجير اليهود

لم يكتف الاميركيون بتقديم النصح الى اسرائيل بضرورة العمل للوصول الى تفاهم مع العرب ، بل حاولوا ، هم أنفسهم ايضاً ، العمل في هذا المضمار ، وذلك كما يبدو في محاولة لتنسيق وجهات النظر ، او خلق مصالح مشتركة بين الطرفين ، علّ ذلك يساهم في تخفيف حدة العداء بينهما ويسهل على الاميركيين اقامة احلافهم في المنطقة ، ومن ثم السيطرة عليها . وقد اختار الاميركيون لمساعيهم تلك موضوع المياه ، فقدموا مشروعاً ، عرف باسم مشروع جونستون ، لتوزيع مياه الاردن واليرموك والليطاني بين اسرائيل ولبنان وسوريا والاردن ، على

أمل ان يؤدي توزيع هذه المياه بين مختلف الاطراف ، بصورة صحيحة وفعالة ، الى تنشيط الزراعة فيها ، و من ثم خلق امكانات جديدة لتوطين اللاجئين الفلسطينيين على الاراضي المستصلحة ، و تصفية القضية الفلسطينية التي كانت قد تحولت ، آنذاك ، الى مجرد مشكلة لاجئين .

وفي اواخر سنة ١٩٥٣ ، وصل اريك جونستون الى اسرائيل ، في أولى زياراته لها ، مقدماً مشروعه ، الذي يعتقد شاريت ان وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة ووزارة الخارجية الاميركية هما اللتان وضعتاه (ص ٦٥) . وكانت اسرائيل ، في ذلك الوقت ، في خضم تنفيذ عمليات تحويل مجرى نهر الاردن ـ تحت ستار تعميقه ـ الى النقب : ولذلك نظر الاسرائيليون بعين الريبة الى جونستون ومشروعه ، ووضعوا عراقيل عدة في طريقه . فقد عارض الاسرائيليون ، مثلاً ، اقتراح تحويل بحيرة طبريا الى مستودع مياه اقليمي ، خشية ان يصبح ذلك مبرراً لتدخل اميركي دائم في شؤونهم ، ثم وافقوا على هذا الاقتراح شرط ان لا يمس ذلك بسيادة اسرائيل على البحيرة او يصبح عذراً لمطالبتها بتعديل الحدود ، وعلى ان يقدم الاميركيون والعرب تعهداً في هذا الشأن (ص ٦٩٠ ، ٧٩٢) كما طعن الاسرائيليون في صلاحيات المراقب الدائم على توزيع المياه ، الذي كان من المفترض ان يكون اميركاً « محايداً » ، وعارضوا ايضاً اقتراح اقامة سلطة مياه مستقلة ، تستطيع ان تفرض رأيها الخاص على الاطراف المعنية (ص ٦٩٤ و ٦٩٧) . كذلك لم تعر اسرائيل اهتماماً كبيراً لمطالبتها بالمرونة ، بالنسبة لتوزيع كميات المياه ، حتى وان كانت المياه التي « ستتنازل » عنها ستخصص لتوطين اللاجئين الفلسطينيين .

وقد استمرت المفاوضات بين جونستون من ناحية واسرائيل والدول العربية من ناحية أخرى ، حول تنفيذ ذلك المشروع نحو سنتين ، الا أنها باءت بالفشل في نهاية المطاف . وتم ذلك بعد ان اعلن العرب ، اخيراً ، رفضهم « المبدئي » للمشروع ومعارضتهم أية تسوية مع اسرائيل ، التي ثابرت ، من جهتها ، على متابعة تنفيذ برامجها الخاصة . وكان ان حولت مياه الاردن الى النقب ، في مطلع الستينات .

وفي الوقت نفسه ، حاولت اسرائيل ، على طريقتها ، العمل على « التفاهم » مع العرب ، وذلك بالسعي الى تصفية قضية اللاجئين ، التي اعتبرتها عائقاً على طريق السلم مع الدول العربية . وتكشف اليوميات ان الزعامة الاسرائيلية كانت منهمكة ، خلال هذه الفترة ، في دراسة سبل توطين اللاجئين ، وذلك بمحاولة الاتصال بزعمائهم او ذوي النفوذ لديهم ، وحملهم على القبول بالتعويضات عن املاكهم التي استولت عليها من جهة (ص ٥٠٦ و ٥٥١ و ٥٨٠ و ٨٥١ و ٩٧٤ و ١١١٤ و ١١٧٤ و ١٢٩٠ و ١٢١٠) ، واستطلاع امكانات توطينهم في بلدان مختلفة من العالم ، منها البرازيل والارجنتين ودول شمال افريقيا وليبيا ، وحتى الضفة الغربية من جهة ثانية (ص ٦٢٠ و ٩٧٤ و ١٠٠٩ و ١٠٧٩ و ١٢١٠) ويبدو ان هذه المشاريع لم تمن بنجاح يذكر .

ومحاولات تصفية قضية اللاجئين بواسطة دفع التعويضات لهم ، او توطينهم ، او العمل على « مقايضة » املاكهم في اسرائيل باملاك اليهود في الدول العربية ، لم تقتصر على لاجئي

حرب ١٩٤٨ فحسب . بل تعدتهم ايضاً الى الأقلية العربية التي بقيت في اسرائيل بعد إنشائها . ويظهر بوضوح ، من المشاورات التي كان مختلف المسؤولين الاسرائيليين يجرونها حول شؤون العرب في اسرائيل، من حين الى آخر . أنهم يتوجسون خيفة من تلك الاقلية ، وقد حاولوا العمل بطرق مختلفة للتخفيف من خطرها على الدولة اليهودية . وقد بدأ الاسرائيليون محاولاتهم تلك بالعمل على تهجير اولئك العرب ، المسيحيين منهم الى اميركا الجنوبية ، والمسلمين الى الدول العربية ، خصوصاً ليبيا ودول شمال افريقيا ، مقترحين البدء بسكان قرى الجش والطيره وقلنسوة (ص ٤٨١) . غير أنهم باؤوا بالفشل . وسرعان ما وصلوا الى قناعة انه لا امكانية للتخلص من اولئك العرب ، لا بواسطة دمجهم في المجتمع اليهودي ولا بتهجيرهم ، لان الطريقتين لن تؤثرا الا على اعداد قليلة منهم (ص ٥٠٦) . ولذلك اتجهوا الى العمل لتخفيف « الاضرار » الناجمة عن وجود اولئك العرب ، وذلك بواسطة تشديد الاجراء ات الامنية (الحكم العسكري) تجاههم ، وجعلها أكثر فعالية من ناحية . وتهويد مناطقهم ، اي باسكان أكثرية يهودية فيها ، على اراض تصادر عامة من العرب ، من ناحية أخرى . ويلاحظ ان اجراء ات التهويد تركزت ، في البداية ، على مدينة الناصرة ، كبرى المدن العربية في اسرائيل ، اذ تقرر مصادرة جزء من الاراضي التابعة للمدينة ، والتي تشكل احتياطاً لتوسعها في المستقبل ، لاقامة مدينة يهودية عليها (وقد تم تنفيذ هذا المشروع ، باقامة بلدة الناصرة العليا ، في اواخر الخمسينات واوائل الستينات . ويلاحظ ايضاً ان سعي المسؤولين الاسرائيليين الى المس بـ « مكانة » الناصرة يتطرق الى ادق التفاصيل . ففي الوقت الذي يبدي اولئك ، مثلاً ، اهتمامهم بشؤون الموارنة في لبنان ، ويفكرون بـ « مساعدتهم » على اقامة دولة لهم ، نراهم يسعون حثيثاً الى انتخاب رئيس بلدية مسلم للناصرة ، « لتخفيف الطابع المسيحي للمدينة » (ص ٤٣٢) . أما مخطط تهويد الناصرة فقد توسع ، مع مرور الوقت ، واصبح يعرف بمشروع تهويد الجليل ، الذي لا تزال السلطات الاسرائيلية تعمل حتى اليوم على تنفيذه

اما محاولات « مقايضة » السكان العرب في اسرائيل واراضيهم مع اليهود في الدول العربية واملاكهم ، وان لم تتم رسمياً ، فقد نجحت عملياً ، الى حد ما . ففي السنوات ١٩٥٣ ـ ١٩٥٥ ، استقدمت اسرائيل اليها ما يزيد على ثلاثمئة ألف يهودي من دول المغرب العربي ، بينهم معظم يهود تونس والجزائر ، وجزء لا بأس به من يهود مراكش . وتم ذلك بالتعاون مع المنظمات اليهودية العالمية ، العاملة في دول المغرب آنذاك ، وعلى رأسها الأليانس الفرنسية والجوينت الاميركية ، ومن خلال سكوت السلطات الفرنسية ، المسيطرة حينذاك على دول المغرب . ويبدو ان تلك السلطات لم تضع قيوداً تذكر على النشاط الاسرائيلي في هذا الصدد ، لدرجة يتضح معها ان اسرائيل لم تستطع تهجير كل يهود المغرب اليها لسبب بسيط ، هو عدم قدرتها على استيعابهم (ص ١٤٨٨) . وكانت الهجرة من مراكش قد انقطعت بعد حصول البلد على استقلاله ، حيث توقفت السلطات الجديدة ، عن منح جوازات السفر لليهود وحظرت عليهم الهجرة الى اسرائيل ، بعد ان أمرت بتصفية جهاز الهجرة الذي نشط هناك في ظل الحكم الفرنسي (ص ١٣٨٢ ، ١٤١٣ ، ١٤٢٧) .

شد الحبل مع عبد الناصر

أياً كانت القضايا الاستراتيجية الكبيرة ، او تلك الجانبية التي تشعبت عنها ، والتي

شغلت بال الزعامة الاسرائيلية خلال هذه الفترة . فمن الواضح ان المشاكل العملية ، التي كانت بمثابة خبزها اليومي ، نجمت أساساً عن العلاقات المتوترة مع العرب ، وما كانت تجره من صدامات على الحدود مع هذه الدولة العربية او تلك من جهة، ثم ما كان يتبعها من محاولات لتخفيف حدة التوتر والسعي الى التفاهم من جهة أخرى . وفي هذا المجال شغلت مصر حيزاً ملموساً في نشاطات الاسرائيليين ومشاوراتهم وتفكيرهم ومناوراتهم .

ففي بداية الفترة التي نتحدث عنها ، اواخر ١٩٥٣ واوائل ١٩٥٤ ، عاد الاهتمام الاسرائيلي لينصب على مصر وسياستها وعلى ما يدور فيها ، بدرجة قوية التركيز ، شبيهة بتلك التي سادت خلال حرب ١٩٤٨ . ويبدو ان هذا التحول يعود لعاملين رئيسيين : اولهما ، ازدياد الحديث عن امكانية وصول بريطانيا ومصر الى اتفاق بشأن جلاء قوات الاولى عن منطقة قناة السويس ، على ما قد يمنحه ذلك من حرية عمل لمصر نتيجة لانسحاب القوات الاجنبية من اراضيها ؛ وثانيهما ، سعي الغرب الى التقرب من مصر وخطب ودها ، عله ينجح في تحويلها قاعدة لاحلافه العسكرية في المنطقة . وكان الموقف الاسرائيلي ، في حقيقته ، معارضاً انسحاب بريطانيا من منطقة القناة ، الا ان الاسرائيليين لم يستطيعوا الاعلان عن ذلك (ص ٣٦٠) . ولهذا اقترح بعضهم التحرش بمصر ، بمحاولة تمرير سفينة اسرائيلية في قناة السويس ، مثلاً ، او اختطاف سفينة مصرية في عرض البحر واحضارها الى اسرائيل ، او نسف أخرى عند أحد مداخل القناة لسدها (ص ٣٦٩ و ٤٣٥) ، علّ ذلك يساهم في الغاء الانسحاب البريطاني ، او تأخيره على الأقل . ولكن قبل ان تبحث هذه الاقتراحات ، وقع صدام على الحدود المصرية - الاسرائيلية ، ادى الى مقتل جندي اسرائيلي ، مما دفع مدير الخارجية رفائيل الى التقدم باقتراحات لحل مسألة النزاعات على الحدود . وسرعان ما ارسلت هذه الاقتراحات الى مصر ، بواسطة سفارات الطرفين في كل من واشنطن وباريس (واطلع المسؤولون الفرنسيون عليها عن طريق الخطأ) . وتم هذا على الرغم من معارضة لافون الذي اقترح ، بدلاً من ذلك ، أن تضغط اسرائيل على الجيش المصري ، كي يضغط بدوره على الفدائيين في قطاع غزة ويمنعهم من عبور الحدود الى اسرائيل ، (ص ٤٤٦ و ٤٥٩ و ٤٦٢) . وعلى الرغم من معارضة دايان أيضاً الذي اعلن ان الوضع على الحدود مع سوريا والاردن مقبول ، و« أن المصريين فقط هم الذين يتواقحون ، ولذلك ينبغي العمل ضدهم » (ص ٤٧٧) . وقد ردت مصر بالايجاب على المقترحات الاسرائيلية ، معلنة موافقتها على اجتماع بين القادة العسكريين على الحدود ، لبحث طرق تخفيف الصدامات المستمرة بين الطرفين ، او الحد منها . ولكن قبل ان يعقد هذا الاجتماع ، أعلن عن القاء القبض على افراد الشبكة الاسرائيلية في مصر ، مما دفع شاريت الى التفكير بالتوجه لعبد الناصر نفسه (ص ٥٨٦) ، في محاولة للتفاهم معه .

ولم يتردد شاريت كثيراً في تنفيذ خطته . ففي مطلع كانون الثاني ١٩٥٥ ، أرسل الى موريس اورباخ ، النائب البريطاني العمالي ، طالباً منه الحضور الى باريس ، والحصول على تعليمات هناك ، ومن ثم السفر للقاهرة لمقابلة عبد الناصر والتباحث معه (ص ٦١٧ و ٦٢٤ و ٦٢٧). وقام اورباخ بتنفيذ ماطلب منه فوراً . وفي الوقت نفسه ، اوعز شاريت الى زلمان ديفون ، احد المستعربين الاسرائيليين ، بتجديد اتصالاته مع « صديق مصري » قديم ، في محاولة للوصول الى عبد الناصر ، وحمله على الرأفة بأفراد الشبكة الاسرائيلية ، ولكن هذا

الاتصال لم يسفر عن التزام محدد من قبل عبد الناصر في هذا الصدد (ص ٦٣٣ و ٦٤٠) ويموازاة هذين الخطين ، وفي الوقت نفسه أيضاً ، حصل شاريت على موافقة بن ـ غوريون على ايفاد يغئال يادين لمقابلة عبد الناصر ، وذلك بواسطة ألن دالاس ، رئيس وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية (ص ٦٧٧) . وقد فوض شاريت يادين ابلاغ عبد الناصر ان اسرائيل على استعداد لمنح مصر، في سبيل التفاهم معها ، ممراً برياً في النقب ، يصلها بالاردن ،وكذلك المساهمة في توطين لاجئي قطاع غزة (ص ٦٨٣) . ولكن قبل أن يتمكن يادين من التحرك ، صدرت قرارات المحكمة المصرية بشأن اعضاء شبكة التجسس والتخريب الاسرائيلية ، والتي تضمنت حكمين بالاعدام ، فأوعز الى يادين بايقاف تنفيذ ما كلف به (ص ٦٩٢) . وكان قد مر نحو شهر على بداية محاولات الاتصال ، فعاد اورباخ ، في اوائل شباط ١٩٥٥ من مهمته في مصر ليقدم تقريراً مفاده ان الرأي السائد هناك هو « ان شاريت لا يسيطر على الأمور » في اسرائيل (ص ٧١٢) .

وفي اليوم التالي لعودة اورباخ ، جدد الاميركيون اقتراحهم بشأن الاستمرار في العمل للاتصال بعبد الناصر ، غير ان شاريت أجاب بالسلب . ولكن لم تمر الا عشرة أيام حتى غير رأيه ووافق على ذلك ، مشترطاً ان يقوم عبد الناصر اولاً باطلاق السفينة الاسرائيلية « بات غاليم » ، التي كانت السلطات المصرية قد احتجزتها اثناء محاولتها المرور في قناة السويس ، وكذلك اعتبار المحكوم عليهم من اعضاء الشبكة الاسرائيلية معتقلين سياسيين . غير انه ما ان ابلغ الاميركيون بذلك ، حتى شن الجيش الاسرائيلي ، في اواخر شباط ١٩٥٥ ، بعد عودة بن ـ غوريون وزيراً للدفاع بعدة أيام ، هجوماً واسعاً على قطاع غزة ، أسفر عن مقتل ثمانية اسرائيليين وخمسة وثلاثين مصرياً . وخشي شاريت من ان يرفض المصريون ، نتيجة لذلك ، اي اتصال مع اسرائيل قد يقترح عليهم ، ولكنه فوجيء بأن موقفهم عكس ذلك ، بعد ان ابلغه تكواع ، رئيس وفد اسرائيل في لجنة الهدنة المصرية ـ الاسرائيلية ، ان زميله المصري في اللجنة ، صلاح جوهر ، ابلغه انه لا مانع لدى مصر من استئناف الاتصال مع اسرائيل ؛ فابلغ الاميركيون بذلك (ص ٧١٦ و ٧٩٢ و ٨٢٧ ـ ٨٢٨ و ٨٤٠ ـ ٨٤١ و ٨٥٦) .

ولكن ، مرة أخرى ، عاد مسلسل العنف ومحاولات الاتصال يتكرر . فقبل ان يعاد الاتصال ، وقع هجوم فدائي على عرس في مستوطنة اسرائيلية قريبة من قطاع غزة ، أسفر عن مقتل اسرائيلية وجرح عديدين غيرها ، وأثار توتراً ملحوظاً في اسرائيل . وإزاء ذلك ، اقترح بعض الاسرائيليين احتلال قطاع غزة وتهجير سكانه ، او جزء منهم الى جبال الخليل في الضفة الغربية ، للتخلص من الهجمات الفدائية التي تنطلق من القطاع (ص ٨٦٣ و ٨٦٥) . ولكن شاريت رفض الأخذ بهذا الرأي ، خشية ان يدفع ذلك العمل بريطانيا الى التصرف بموجب التصريح الثلاثي فتقدم ، مثلاً ، على احتلال النقب ، او أن يمس بإمكانات عقد معاهدة دفاعية مع الولايات المتحدة (ص ٨٦٧ و ٨٧٢) . ولذلك عاد واوعز الى ديفون بدعوة صديقه المصري الى قبرص ، لتسليمه رسالة لعبد الناصر ؛ بينما طلبت الولايات المتحدة من كل من مصر واسرائيل ضبط النفس . غير ان المصريين استمروا في مهاجمة السيارات العسكرية الاسرائيلية على حدود قطاع غزة . ولاحظ شاريت ان الموقف المصري راح يتصلب ، منذ الهجوم الاسرائيلي على غزة ، ووصلته معلومات ان المصريين وصلوا الى تقييم مفاده ان اسرائيل تسعى للحرب ،

وأن القوى التي تؤيد هذا الاتجاه هناك هي المسيطرة . ونتيجة لذلك ، كما يبدو ، لم يصل اي جواب من عبد الناصر (ص ٨٦٦ ـ ٨٦٧ و ٨٩٢ و ٨٩٥ و ٩٠٢ ـ ٩٠٤) .

وبذلك اختتمت المرحلة الاولى من المحاولات الاسرائيلية للاتصال بعبد الناصر .

دايان : التوتر مفيد لاسرائيل

يبدو ان التقييم المصري للموقف الاسرائيلي الساعي الى الحرب ، او غير القادر على السلم على الأقل ، لم يكن خالياً من الصحة . واذا لم يكن هنالك مبرر واضح للشك في نوايا شاريت الكامنة وراء مساعيه للاتصال مع عبد الناصر ومحاولة التفاهم معه ، وان جاء ذلك وفق مفاهيم شاريت الخاصة به ، فمن المشكوك فيه أنه كان بامكانه تحقيق شيء ملموس فعلاً ، نظراً للمعارضة التي كان يواجهها من دوائر اسرائيلية مختلفة ، غير عديمة التأثير .

وعلى رأس هذه الدوائر المناوئة يقف ، دون شك ، رئيس الاركان موشي دايان . فالمشاكل التي ابتدأت مع تعيين دايان ، « الذي يعتبر نفسه رجل دولة » (ص ٩١٩) تفاقمت مع مرور الوقت ، واتضح انه يسعى ، بأي ثمن تقريباً ، للحرب . كما ازداد « تأثيره السيء » على الجيش ، خصوصاً بعد ان قرر بن ـ غوريون السماح له بالتدخل في الشؤون السياسية لقاء تصميمه على فرض القيود عليه بالنسبة للشؤون العسكرية بالذات (ص ٩٤٨) . ويبدو ان دايان كان قد طوّر ، حتى ذلك الوقت ، نظريات ، ووصل الى مفاهيم ، لا تتفق أبداً مع وجهات نظر شاريت . وينقل عن دايان قوله ، في اجتماع له مع بعض السفراء الاسرائيليين : « اننا لا نحتاج الى اتفاقية دفاعية مع الولايات المتحدة . بل على العكس من ذلك ، ان مثل هذه الاتفاقية ستضرنا . ففي اي حال ، لا خطر من تفوق الدول العربية علينا ، خلال الـ ٨ ـ ١٠ سنوات القادمة . وحتى اذا حصلوا على مساعدات عسكرية من الغرب ، فسنكون نحن المسيطرين ، لانه ليس هناك مجال لأن يقارنوا انفسهم بنا ، من حيث القدرة على استيعاب الاسلحة الجديدة . والاتفاقية الدفاعية ستكبل أيدينا فقط وتسلب منا حريتنا في العمل ، وهذا ما سنحتاجه في السنوات المقبلة . فالاعمال الانتقامية ، التي لا نستطيع القيام بها ، اذا كنا مرتبطين باتفاقية دفاعية ، هي اكسير حياتنا . فهي تلزم ، اولاً ، الدول العربية بأتخاذ اجراءات شديدة للمحافظة على الأمن في الحدود ... وثانياً ، وهذا هو المهم ، انها تساعدنا على ابقاء التوتر قائماً بين السكان وفي الجيش . وبدون ذلك لن يكون لدينا شعب مقاتل ، وبدون نظام شعب مقاتل سننتهي . ان ابناء الموشافيم ، الذين اتجهوا صوب النقب [للاستيطان فيه « وتعميره » ، بناء على نداءات السلطات الاسرائيلية] سيهجرون مواقعهم ويعودون من حيث أتوا اذا تركنا اعمال القتل [العربية] تمر دون عقوبات انتقامية . ولأننا تحولنا الى دولة محمية تسعى الى تصحيح اوضاعها الامنية المتدهورة بالطرق الدبلوماسية ، لدى الدول الاجنبية ، سادت بين السكان حالة نفسية لا تسهل نمو حركة طلائعية . ومن المحظور علينا القول ان الولايات المتحدة وبريطانيا لا تتآمران لانتزاع النقب منا . فلكي يتجه الشباب نحو النقب [للاستيطان فيه] ، علينا التحذير من الخطر الذي يتهدد [تلك المنطقة] » (ص ١٠٢١)

وعلاوة على هذه الآراء ، التي كان دايان يبثها ، ويعمل انطلاقاً منها ، استمر كذلك في مطالبته العلنية اكثر من مرة ، بتغيير القيادة ، ومن ضمنها شاريت ، في الحزب والهستدروت

والحكومة ، والتي اضافة الى كونها « هرمة » ، أساساً ، أصبحت أيضاً « انهزامية » (ص ١٠٣٧) .

وفي الدائرة التي تضم دايان ، يتواجد ايضاً بن ـ غوريون ، وان كانت مواقف الاثنين غير متطابقة تماماً . وكان بن ـ غوريون ، مع عودته الى الحكومة ، قد وصل الى قناعة مفادها ان عبد الناصر هو « ألدّ أعداء اسرائيل » (ص ٩٥٨) ، ولذلك راح يهاجمه علناً . وفي الوقت نفسه اوضح لشاريت ، وهذه المرة في رسالة خطية ، انه يعد نفسه لتسلم رئاسة الحكومة الجديدة التي ستشكل بعد الانتخابات العامة (والتي جرت في خريف ١٩٥٥) او انه سينضم فقط الى حكومة تتبع سياسة القوّة (ص ٩٢٨ ـ ٩٢٩ و ١١٠٥) ، معبراً بذلك عن عدم رضاه وانعدام ثقته بحكومة شاريت وسياستها . وقد ازدادت العلاقات بين الرجلين تأزما ، مع مرور الوقت ، خصوصاً بعد ان رفض شاريت اقتراحاً لبن ـ غوريون ، قدمه بـ « تحريض » من دايان (ص ٩٦٨) ، يقضي بنقل الاهتمام بشؤون الهدنة مع العرب الى مجال صلاحيات وزارة الدفاع . واعتبر شاريت ان مثل هذا العمل سيؤدي الى سيطرة الجيش على الشؤون الخارجية ، وهو ما عارضه ـ ودائماً ـ بشدة . وبرر شاريت رفضه القبول بهذا الاقتراح ، متسائلاً : « لماذا عليَّ اعادة مسألة حساسة ومعقدة ، على هذا الشكل ، الى ايدي « البلطجية » في الاركان العامة ؟ ألكي تسود الفوضى في كل شيء ، ويحتفلوا هم اثناء ذلك ، امام مرؤوسيهم ، بانتصارهم على وزير الخارجية « الجبان » ؟ وعندما سيبتدئون بالعبث ثانية ، سأكون أنا الملزم مع زملائي [في وزارة الخارجية] بتبرير نزواتهم ، ومحاولة الحد ، شيئاً ما ، من الاضرار التي سيسببونها لعلاقات الدولة الخارجية » (ص ١١٠٦) .

وبموازاة هذه الخلافات ، عادت ايضاً حرارة التوتر الى الارتفاع ، على حدود قطاع غزة ، في صيف ١٩٥٥ . ففي اواخر أيار ، وقع اشتباك بالمدفعية هناك ، بين المصريين والاسرائيليين ، أسفر عن مقتل جنديين اسرائيليين : فقرر شاريت محاولة اعادة الاتصال بعبد الناصر ، وأبلغ الاميركيون بذلك ، فبادروا بدورهم الى الاتصال « مع جماعتهم » في القاهرة ، ثم اوفدوا عيرا هيرشمان مبعوثاً لهم الى هناك (ص ١٠٣١ و ١٠٤٧ و ١٠٥٠ و ١٠٦٧) . ولوحظ ، في الوقت نفسه ايضاً ، ان الراغبين في التوسط بين مصر واسرائيل قد كثروا . فبعد هيرشمان ، جاء عضو الكونغرس الاميركي الزنجي ، آدم كلايتون باول ، عارضاً خدماته ، ثم تبعه زعيم منظمة الكويكرز الاميركية ، جاكسون ، الذي كان قد اجرى « محادثات » في هذا الصدد مع كل من محمود فوزي وآبا ايبن وألن دالاس . وخلال محاولات التوسط هذه ، اقترح زعيم الكويكرز جاكسون ان تتنازل اسرائيل عن ايلات (العقبة) لصالح مصر ، الا ان شاريت رفض هذا الاقتراح ، موضحاً انه لا يرى فائدة من التنازل عن وحدة اسرائيل الاقليمية لصالح وحدة العرب الاقليمية ، وان اسرائيل لا تستطيع التنازل عن نافذة لها على البحر الاحمر : وطلب بدوره من عبد الناصر العمل على ايقاف النشاط الفدائي (ص ١١٢١ ـ ١١٢٢ و ١١٣٦) . واستمرت محاولات التوسط هذه نحو خمسة أشهر ، وانتهت في منتصف تشرين الاول ١٩٥٥ ، بعد ان جاء رد على لسان عبد الناصر مفاده انه ، حتى الهجوم على غزة ، في ٢٨ شباط من السنة نفسها ، كان يصدّق اقوال الاميركيين والبريطانيين ان اسرائيل تسعى الى السلم . ولكنه غير رأيه منذ ذلك التاريخ (ص ١٢١٠) .

وبذلك اختتمت المحاولة الثانية للوصول الى تفاهم بين مصر واسرائيل ، دون ان تسفر عن نتيجة تذكر . ويبدو ان أسباب ذلك تتعلق ، هذه المرة ، بانعدام ثقة كل من الطرفين بعضهما بالبعض الآخر : ففي الوقت الذي كان فيه عبد الناصر يعتقد ان شاريت لا يسيطر على ما يدور في اسرائيل ، كان الاسرائيليون يعتقدون ، بدورهم ، ان عبد الناصر لا يسيطر على قطاع غزة ، او ، على الاقل ، لا يعلم ماذا يدور هناك (ص ١٠٥٦) .

ومع فشل هذه المحاولات ، وبموازاتها ، وصلت الى اسرائيل معلومات تفيد ان مصر تحاول ارسال الفدائيين اليها عن طريق الاردن ، وألقي القبض على عدد منهم . ولمواجهة هذا التصعيد الجديد ، قرر الاسرائيليون بدورهم التصعيد ايضاً ، وذلك بدخول الجيش الاسرائيلي الى المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود بين البلدين . وبالفعل ، دخل الجيش الاسرائيلي ، في اواخر ايلول ١٩٥٥ ، منطقة العوجة (ص ١١٥٧ ـ ١١٥٨) ، بينما راح عبد الناصر يهدد بارسال المزيد من الفدائيين الى اسرائيل .

فتيل صفقة الاسلحة التشيكية

لم يمر الا نحو اسبوع على دخول الجيش الاسرائيلي الى منطقة العوجة ، حتى أعلن عن صفقة عقدتها مصر مع تشيكوسلوفاكيا (والاتحاد السوفياتي) لشراء كميات ضخمة من الاسلحة المتطورة ، ووصلت ، في الوقت نفسه ، انباء عن اقتراح اميركي لتزويد مصر بالسلاح ، لمنعها من الارتباط بالكتلة الشرقية . وقد فسّر الاسرائيليون ذلك على انه تنافس بين الدولتين الكبيرتين على تزويد مصر بالاسلحة ، مما زاد من شعورهم بالعزلة واحساسهم بالضائقة .

غير ان تأثير صفقة الاسلحة التشيكية على اسرائيل لم يقف عند هذا الحد ، اذ أثارت لديها مخاوف كبيرة ، واشعلت الضوء الاحمر لدى اكثر من جهة ، خصوصاً ، بعد ان بدا أنها قد تساعد مصر ، بتقويتها عسكرياً ، على كسر استراتيجية سياسة القوة التي انتهجتها اسرائيل واطمأنت اليها ، مما دفعها الى التفتيش عن سبل جديدة لمواجهة هذا التحدي المستجد ، تحت سيطرة « الحمىً » التي اصابت معظم قادتها ، ان لم يكن كلهم . ويمكن القول ان هذه الصفقة ، وشعور الاسرائيليين بأنه لا بد من العمل على مواجهة نتائجها ، كانت بمثابة الفتيل الذي اشعل نار الاعتداء الاسرائيلي ـ الفرنسي ـ البريطاني على مصر ، في خريف ١٩٥٦ .

وكانت اولى الاجراء ات التي فكر الاسرائيليون باتخاذها ذلك الذي تضمنته مذكرة تقدم بها مدير المخابرات العامة هرئيل ، الذي اقترح العمل على احتلال قطاع غزة بالسرعة الممكنة (ص ١١٨٦ ـ ١١٨٧) ، لانه « مهما كان الشكل الذي ستتطور فيه الأمور ـ على المدى القصير ـ لا يمكن منع الحرب بيننا وبين مصر ، ومن المستحسن ان تقع في أحسن الظروف الملائمة لنا » (ص ١٢٠٠) . وعلى عكس المرات السابقة ، التي قدم فيها هذا الاقتراح حيث لم يكن يُبحث بجدية ، او بما فيه الكفاية ، دُرس هذه المرة بعمق ، وتم استطلاع آراء مختلف المعنيين . وفي هذا الصدد يلفت النظر الموقف الصهيوني تجاه السكان العرب في القطاع ، الذي لم يتغير حتى اليوم ، وهو السيطرة على الارض ومحاولة التخلص من السكان او، على الاقل ،

التملص من عبء المسؤولية تجاههم . ويصف شاريت ، باسلوبه وطريقته الخاصة به ، ما ينبغي على اسرائيل عمله اذا احتلت القطاع بقوله : « لقد فكرت دائماً بأنه اذا جاء يوم واضطررنا الى احتلال القطاع ، فسنتوجه بالنداء الى اللاجئين للبقاء في اماكنهم ، وألا يتركوها او يهربوا [حتى لا ينضموا الى اللاجئين الآخرين ، وتزداد المشكلة تأزماً] ، بل البقاء هادئين وتحمل عبء الحكم الاسرائيلي حتى يأتي الفرج . وسنعلن ان ذلك لا يعتبر ضماً للقطاع [حتى لا يزداد عدد السكان العرب في اسرائيل ، فيؤثر ذلك على طابعها اليهودي] ، بل إننا نفرض حمايتنا عليه ، ونطلب من الامم المتحدة الاستمرار في الاهتمام باللاجئين [حتى لا تتحمل اسرائيل اعباء جديدة] ونؤمن الهدوء والأمن . ومن الممكن أيضاً ان نبني سياجاً [حول القطاع] ونحوّله بذلك ، مع سكانه العرب ، الى منطقة مغلقة » (ص ١١٨٧) . اما بن - غوريون فقد نوه ان ما يهمه هو نزع السلاح من أيدي الاهالي . واثناء هذه المشاورات أيضاً ، قام شاريت بـ « عرض » الفكرة على السفير الاميركي في اسرائيل ، « الذي شعر بالضيق ، ففتح فاه واقفله مرة بعد أخرى ، ثم انتقل الى موضوع آخر » (ص ١٢٠٣ - ١٢٠٤) .

ولكن ، لسبب ما ، لم يؤخذ في نهاية الأمر بهذا الاقتراح ، وحل محله آخر يدعو اصحابه بموجبه الى شن حرب وقائية شاملة ضد مصر . وكان اول من قدم هذا الاقتراح آبا ايبن السفير الاسرائيلي في واشنطن وكبار العاملين في السفارة ، الذين ارسلوا برقية الى شاريت ، في منتصف تشرين الاول ١٩٥٥ ، اوضحوا فيها « أنهم وصلوا الى نتيجة مفادها انه لا يمكن الاعتماد على [امكانية] الحصول على سلاح او ضمانات [اميركية] ، بموازاة السلاح السوفياتي الذي ستحصل عليه مصر ، بل ينبغي الاستعداد للمبادرة الى حرب وقائية من جهتنا تكسر العمود الفقري للجيش المصري ، قبل ان يقوى ويشتد ساعده ، وبواسطة ذلك يتم القضاء على عبد الناصر وعصابته » (ص ١٢٠٧) . ثم انضم هرتيل ايضاً الى اصحاب هذا الرأي . غير انه اتضح ، عندما تطرق البحث الى الناحية العملية ، ان اسرائيل غير مستعدة لحرب الصحراء ، وانه ليس من السهل على الجيش الاسرائيلي القتال في سيناء ، لنقص في المعدات الضرورية لذلك (ص ١٢٣٣) ؛ مما اوجب البحث بالحاح عن مصادر تسليح جديدة ، بينما تركزت الجهود على فرنسا ، للحصول على الاسلحة منها .

وفيما كانت اسرائيل منهمكة في العمل على تسليح نفسها ، بما في ذلك جمع التبرعات من السكان لتمويل شراء الاسلحة الجديدة ، اعلن عن اجتماع لوزراء الخارجية الاربع الكبار ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا وفرنسا ، في جنيف ، فتقرر ان يسعى شاريت الى الاجتماع بهم ، لشرح اوضاع اسرائيل لهم . وفي طريقه الى جنيف ، مر شاريت بباريس ، حيث قابل رئيس الحكومة الفرنسية ، وقدم له طلبات اسرائيل من الاسلحة ، فاستجاب لها « ببساطة وفورية » اذهلت شاريت ، الذي علم في اليوم التالي ، خلال لقائه مع وزير الخارجية الفرنسي ، ان تلك الطلبات اصبحت في طريقها الى التنفيذ (ص ١٢٤٩ و ١٢٥١) . ولكن عدا عن ذلك ، لم تسفر اللقاءات مع وزراء الخارجية الثلاثة الآخرين عن نتيجة تذكر . فخلال الاجتماع مع ماكميلان البريطاني ، « احتج » شاريت على موقف بريطانيا تجاه اسرائيل ، مضيفاً « أن الاتحاد السوفياتي ينبغي ان ينفض يديه من الشرق الاوسط ، والا فستصبح مسألة الهدنة العالمية عديمة الجدوى : كما ان مصر ملزمة بالابتعاد عن معونة الاتحاد

السوفياتي ، والا فينبغي ان تخسر كل مساعدة من الغرب ، وتترك لشأنها » (ص ١٢٥١ ـ ١٢٥٢) . ولكن جواب ماكميلان كان « متلعثماً وعديم الجدوى وسلبياً ...وانتهت المقابلة عملياً ... دون اية نتيجة » (ص ١٢٥٢) . كذلك لم يكن موقف دالاس الاميركي مختلفاً ، اذ أوضح لشاريت « ان المهم هو التسوية مع العرب ، مما يوجب تنازلات » من جانب اسرائيل . كما ان « مسألة الاتفاقية الدفاعية [بين اسرائيل والولايات المتحدة] غير عملية حالياً ... ومن المستحسن حقاً الحديث عنها اقل ما يمكن » . والولايات المتحدة ايضاً « ليست على استعداد ابداً لتزويد [اسرائيل] بالسلاح ، لموازنة الصفقة » التشيكية (ص ١٢٥٣) . اما مولوتوف السوفياتي فقد وجه اللوم لاسرائيل التي تهدد بحرب وقائية ، بعد ان حصلت على كميات كبيرة من الاسلحة ، ولها اصدقاء كثيرون ، ملمحاً لشاريت ان الاتحاد السوفياتي لا ينوي تغيير سياسته في الشرق الاوسط ، لان حلف بغداد « ألزمنا بالدخول » الى المنطقة (ص ١٢٧٣) .

وبينما كان شاريت يعقد لقاء اته مع وزراء الخارجية الكبار ، تصاعد التوتر بشكل ملحوظ على الحدود المصرية ـ الاسرائيلية . ففي ٢٦ تشرين الاول ١٩٥٥ ، شن المصريون هجوماً على منطقة العوجة ، التي كان الاسرائيليون قد دخلوا اليها قبل ذلك بمدة قصيرة ، فرد هؤلاء ، بدورهم ، بعد يومين ، بشن هجوم على المركز المصري في الكونتيله ، اسفر عن وقوع عدد من القتلى من الطرفين ، وأسر بعض المصريين . وعاد الاسرائيليون ، بعد ذلك ببضعة أيام ، وشنوا هجوماً جديداً على العوجة ، في محاولة لطرد المصريين منها ، أدى الى مقتل عدد كبير من الجنود .

وفيما كانت هذه الاشتباكات دائرة ، عاد شاريت من اوروبا الى اسرائيل ، ثم توجه الى الولايات المتحدة ، في مهمة لجمع التبرعات . واثناء وجوده هناك اتصل به ألن دالاس ، في اوائل كانون الاول ١٩٥٥ ، مقترحاً تفويض الاميركيين العمل على لقاء بين بن ـ غوريون وعبد الناصر . ووافق شاريت ، وقام ، كما يبدو ، بالاتفاق مع بن ـ غوريون ، باستطلاع رأي بعض الوزراء الاسرائيليين ، دون اطلاعهم على كافة التفاصيل ، بشأن ما يمكن لاسرائيل ان تقدمه من تنازلات لمصر ، في سبيل الصلح او التفاهم بين الطرفين ؛ فاوضح احدهم ، برزيلاي ، انه يوافق على عودة ٧٥ ألف لاجىء فلسطيني الى اسرائيل ، بينما اقترح آخر ، شابيرا ، تقديم بعض التنازلات الاقليمية . ونقلت هذه المعلومات الى المبعوث الاميركي اندرسون ، الذي نقلها بدوره الى عبد الناصر (ص ١٣٠٥ و ١٣١٤ و ١٣٧٠) . وأجاب عبد الناصر انه على استعداد للقاء بن ـ غوريون رغم « عجرفته » (ص ١٣١٦) ، ثم وصلت الى اسرائيل ، في ٢٤ كانون الثاني ١٩٥٦ ، شروطه للقاء؛ ؛ ومنها : ايقاف اطلاق النار بين الطرفين ؛ تعديل الحدود بين اسرائيل ومصر لصالح الاخيرة ، واعتراف اسرائيل بحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة الى ديارهم ، والتعويض على من لا يريد ذلك منهم (ص ١٣٧٧) . ومقابل ذلك ، امتنع الاسرائيليون عن تقديم شروط محددة من قبلهم (او أن شاريت ، لسبب ما ، لم يشأ تدوينها في يومياته) ، وفضلوا بدلاً من ذلك التركيز على مجرد عقد اللقاء اولاً . وقد استمر المبعوث الاميركي في محاولاته لعقد ذلك اللقاء ، نحو شهرين آخرين ، تنقل خلالهما بين الولايات المتحدة ومصر واسرائيل عدة مرات ؛ الى أنْ مُني بالفشل أخيراً ، لاسباب لا يوضحها شاريت . وعندئذ فقط تم اطلاع الحكومة الاسرائيلية على « المغامرة » بكامل تفاصيلها (ص ١٣٣٩ و ١٣٤٤ و ١٣٦٤ و ١٣٧٠) .

وكانت هذه المحاولة الثالثة للوصول الى تفاهم بين مصر واسرائيل ، والتي انتهت في منتصف آذار ١٩٥٦ ، هي الأخيرة .

تنحية شاريت

على الرغم من المحاولات الاميركية لعقد لقاء بين عبد الناصر وبن ـ غوريون ، لم تخف حدة التوتر على الحدود الاسرائيلية ـ العربية ؛ بل إنها ، على العكس من ذلك ، ازدادت . ففي اوائل تشرين الثاني ١٩٥٥ ، نسف بيتان في احدى الكيبوتسات على الحدود الاردنية . وفي الحادي عشر من الشهر التالي شنّ الجيش الاسرائيلي هجوماً واسعاً على المواقع السورية ، شرقي بحيرة طبريا ، اسفر عن وقوع عشرات القتلى . ونفذت هذه العملية بتحريض من دايان ، وذلك ـ على حد تعبير شاريت ـ بعد ان « قام بن ـ غوريون وزير الدفاع بالتشاور مع بن ـ غوريون وزير الخارجية [اثناء وجود شاريت في الولايات المتحدة] وحصل على مصادقة بن ـ غوريون رئيس الحكومة » للقيام بذلك الهجوم (ص ١٣١٠) . وفي الاول من كانون الثاني ١٩٥٦ ، وقع صدام آخر على حدود غزة والعوجة .

ومع فشل المفاوضات مع عبد الناصر راحت حرارة حمى الحرب في اسرائيل ترتفع ، وعاد دايان الى الحديث عن ضرورة شن حرب وقائية ضد مصر ، معلناً ان الحكومة الاسرائيلية ، القائمة آنذاك ، لا تنوي اشعال الحرب ، ولذلك ينبغي افتعال الحوادث لتوريطها (ص ١٣١٢ و١٣١٩ و ١٣٤٢) . ويبدو ان دايان لم يتردد في افتعال مثل تلك الحوادث ، او تضخيمها على الاقل ، لكي يحقق ما يصبو اليه . ففي اوائل نيسان ١٩٥٦ ، مثلاً ، وبعد صدام على الحدود المصرية ـ الاسرائيلية ، أدى الى مقتل جنديين اسرائيليين ، أوعز دايان للجيش الاسرائيلي بقصف غزة ودير البلح وعبسان ، وهذه المرة حتى دون علم بن ـ غوريون نفسه ، الذي أمر بايقاف القصف ، حالما وصل النبأ الى مسامعه (ص ١٣٨٨ ـ ١٣٩٠) . ولكن بن ـ غوريون ، من جهته ، راح يؤكد ايضاً ان عبد الناصر يسعى للحرب ، بينما اعتقد شاريت ان بن ـ غوريون يريد عملياً التنافس مع عبد الناصر في الاهمية (ص ١٣١٥ و ١٣٢٦) ، وان قادة الجيش الاسرائيلي هم الذين يسعون عملياً للحرب ، بعد ان ثملوا من جراء تأييد الفرنسيين لهم ، الذين كانوا يخططون آنذاك لاسقاط حكومة عبد الناصر ، بسبب تأييدها للثوار الجزائريين (ص ١٣٥٤ و ١٣٧١) . وفي ١٩ شباط ١٩٥٦ ، عقدت اللجنة الوزارية لشؤون الدفاع اجتماعاً لبحث الاستعدادات العسكرية للحرب ، وفي الثالث من نيسان بحث الموضوع برمته في الحكومة بكامل هيئتها (ص ١٣٦٢ و ١٣٨٥) .

وبموازاة هذه التطورات ، لاحظ شاريت ان مركزه راح يتضعضع تدريجياً ، اذ بدأت بعض الدوائر الحكومية ، وخصوصاً وزارة الدفاع ، تحجب المعلومات عن وزارة الخارجية ؛ ثم استصدر بن ـ غوريون قراراً من الحكومة بتحويل الاشراف على شؤون الهدنة من وزارة الخارجية الى وزارة الدفاع ، رغم معارضة شاريت الشديدة . وساءت العلاقات بين الرجلين ، اكثر مما كانت عليه سابقاً ، واستمر بن ـ غوريون في تصعيده ضد شاريت ، الى ان اعلن ، في اول حزيران ١٩٥٦ ، انه سيستقيل من الحكومة ، الا اذا استقال شاريت . وكان شاريت قد تردد أساساً ، في الانضمام كوزير خارجية الى الحكومة التي شكلها بن ـ غوريون في اواخر ١٩٥٥ ؛ الا ان الأخير اقنعه بذلك . وفي اواخر حزيران ١٩٥٦ ، اعلنت استقالة شاريت ،

واختيرت غولده مئير لتكون خلفاً له ، وزيرة للخارجية ، وذلك رغم علمها ، على حد قول شاريت ، « ان هذه المهمة اكبر منها » (ص ١٤٤٤) ، وان جهة أخرى ستقرر في الشؤون الخارجية . وكان هذا بالضبط ما يريده بن - غوريون من وزير خارجيته ، اي ان لا يعارضه ولا يتدخل كثيراً في اعتباراته وقراراته ، وهو يستعد لشن الحرب ضد مصر ، التي وقعت في خريف ١٩٥٦ - ولذلك لم يكن بد من ابعاد شاريت ، وهو الوحيد الذي كان باستطاعته افشال مشاريع بن - غوريون ، كما فعل اكثر من مرة ، ان لم تكن « مقنعة » .

ويصف شاريت « اسباب اقالته بقوله : « لا شك ان « اعتدالي » (الاقواس في الاصل) المشهور هو الذي أوقعني » (ص ١٤٤٠) .

وتجدر الاشارة الى ان شاريت لم يكلف بأي منصب رسمي ، بعد استقالته - اقالته من وزارة الخارجية سنة ١٩٥٦ ، وحتى وفاته سنة ١٩٦٥ .

عبد الحفيظ محارب

نشأة التنظيمات الصهيونية المسلحة

في العام ١٩٢٠* أقيمت منظمة الـ « هجناه » كبرى المنظمات الصهيونية المسلحة . وفي العام ١٩٣٧ تمخضت التناقضات الداخلية عن ولادة المنظمة الثانية ، منظمة « اتسل » ، وفي العام ١٩٤٠ خرجت ، من جوف الاخيرة ، منظمة ثالثة تحمل اسم « ليحيي » . وقد نشأت هذه التنظيمات وترعرعت تحت ظلال الاحتلال البريطاني لفلسطين ، ومكنت اليشوف اليهودي من اقامة الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ ، وشكلت بعد ذلك اللجنة الاساسية للجيش الاسرائيلي . وسنقف في هذا الفصل عند نشأتها وأصولها بالمقدار الذي يخدم اطلالتنا على علاقاتها ، فيما بينها ، موضوع الدراسة الاساسي .

تعود اصول ولادة منظمة « الهجناه » الى عاملين اساسين ، الاول داخلي ، يتمثل في تطور اليشوف اليهودي في فلسطين واقامة منظمة الحرس اليهودي (هشيومير) ، والآخر خارجي يتمثل في اندلاع الحرب العالمية الاولى ، واستغلال الجناح « النشط » في الحركة الصهيونية واقع الحرب ، لتشكيل وحدات عسكرية يهودية .

الحرس اليهودي (هشومير)

شكل الحرس اليهودي اللجنة الاساسية للهجناه وامـدهـا ، خلال المرحلة الأولى من تشكيلها ، بالعناصر المدرّبة على استخدام السلاح . وكان الحرس اليهودي قد اقيم قبيل الحرب العالمية فقط ؛ اذ كانت مهمة حراسة المستوطنات اليهودية ، خلال الجزء الاخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تقتصر على عناصر غير يهودية من الشركس بالأساس ، ومن العرب . ومع بداية الهجرة الثانية وما جلبته من افكار صهيونية مثل « عبرنة » العمل والحراسة اخذ اليشوف اليهودي يشهد نشاطا حثيثاً لاقامة حراسة عبرية مبنية على « الطهارة اليهودية » . ولم يكن تحقيق ذلك بالأمر السهل ، خصوصا ، وان اليهود لم يعتادوا القيام بمثل هذه الاعمال . بيد ان شعار احتلال العمل والحراسة ، وما ينطوي عليه من معان صهيونية دفع

* فصل من كتاب هجناه، اتسل ، ليحي ـ العلاقات بين التنظيمات الصهيونية ١٩٣٧ ـ ١٩٤٨ ، الذي سيصدر عن مركز الابحاث .

اليشوف اليهودي للبدء في « عبرنة » الحراسة . وساعد ، في ذلك ، قيام تنظيم في عام ١٩٠٧ يدعى « بارجيورا »[١] وضع على رأس اهتماماته احتلال العمل والحراسة ، واقامة مستوطنات زراعية ، بهدف تحقيق شعار : « بالدم والنار سقطت يهودا ، وبالدم والنار تقوم » ومن أبرز قادته يتسحاق بن - تسفي الرئيس الثاني للكيان الاسرائيلي .

واجه تنظيم « بار جيورا » ، في مرحلة التبشير بأفكاره ، معارضة من قبل المزارعين اليهود الذين يشكلون الشريحة البرجوازية الريفية ، بسبب تمسكهم بالحراسة الرخيصة انطلاقاً من مصالحهم الذاتية ، وعدم اقتناعهم بنجاعة وقدرة اليهود على القيام بمهام الحراسة ؛ الأمر الذي دفع التنظيم للجوء الى اساليب الضغط ، وحتى الى الحيل لحمله المستوطنين على الأخذ بمبدأ « عبرنة » الحراسة . ومن بين تلك الاساليب اقدام عناصر من التنظيم على السرقة للتدليل على « اهمال » الحارس الاجنبي في مهامه ، كما حدث في مستوطنة السجرة[٢] ، مما أجبر مستوطنيها على تعيين اول حارس يهودي ، واعتبر هذا التعيين بمثابة تحول في مسار التوجه الامني لليشوف اليهودي في فلسطين .

وعلى الرغم من نظرة الازدراء وعدم الثقة التي واجهتها هذه الخطوة ، بين أوساط يهودية كبيرة ، فقد استمر دعاة « عبرنة » الحراسة في نشاطهم والدعوة لفكرتهم التي اخذت مع مرور الزمن ، الى جانب اكتسابها هالة من « القدسية » الصهيونية ، تشق طريقها الى عدد من المستوطنات ، وخاصة مستوطنات المنطقة الشمالية من فلسطين التي شرعت باقتفاء اثر مستوطنة السجرة ، مما وسع من دائرة الحراسة العبرية ، وشجع المسؤولين عنها على اقامة « هستدروت هشومير » (نقابة الحارس) في اجتماع عام عقد في مستوطنة مسحه عام ١٩٠٩[٣] . وبذلك تم ترسيخ فكرة الحراسة اليهودية ، وأخذت اسماء قادة الحراسة تتقدم وسط اليشوف وكان على رأس هؤلاء يسرائيل شوحط .

ومن الجدير بالذكر ، ان المظهر العام للحارس اليهودي لم يكن يختلف في شيء تقريبا ، عن مظهر السكان العرب ، فقد درج الحراس اليهود ، في تلك الفترة ، على ارتداء الزي العربي مع الكوفية والعقال .

الى جانب توسع الحراسة تدريجياً ، حدث تطور آخر في مهامها، اذ لم يعد الحراس مكلفين بحراسة المستوطنات القائمة فقط ، بل كان عليهم حماية النقاط الاستيطانية الجديدة أيضاً ، حيث درج هؤلاء على مرافقة المستوطنين اثناء « غرسهم » واقعاً جديداً في فلسطين .

عقب ترسيخ اقدامها ، في الاستيطان اليهودي ، واجهت منظمة هشومير بعض الصعوبات من جانب عدد كبير من المستوطنات اليهودية ، ومن جانب السلطات التركية في اواخر عهدها في فلسطين . فقد أخذت الخلافات تتفاقم بينها وبين عدد من مستوطنات المنطقتين : الجنوبية والوسطى، ومن بينها مستوطنتا : رحوبوت والخضيرة . وتعود أسباب الخلافات الى التباين في المصالح والمنطلقات السياسية بين الطرفين . فقد احس المزارعون ، ولم يرضوا ، بعبء تكاليف الحراسة العبرية التي تضاهي ضعفي تكاليف الحراسة « الرخيصة » ؛ كما أن البعض منهم رأى في الحرس اليهودي جسما ذا طموحات اجتماعية وسياسية تتلاءم مع منطلقات الحزبين العماليين : « بو عالي تسيون » و « هبوعيل هتسعير » ، ولا تتلاءم مع

منطلقاتهم ، فضلا عن ادعاء البعض من المزارعين بأن مبدأ « عبرنة » الحراسة ، بحد ذاته ، ينطوي على اساءة للعلاقات بين العرب واليهود . وفي المقابل ، كان الحراس ينظرون الى أنفسهم كأبناء لـ « الطبقة العاملة » ، ويعتبرون المزارعين « ملاكاً مستغلين »(٤) . وكان من نتيجة ذلك ان تعمقت الخلافات بين الطرفين ، مما حدا بالمستوطنات الجنوبية من فلسطين ومن ثم الوسطى للاستغناء عن خدمات الحراس ، واقامة حراسة ذاتية . وبقي نشاط منظمة هشومير قائما في المنطقة الشمالية من فلسطين .

أما الصعوبات التي واجهها جهاز الحراسة مع السلطات التركية فكانت أقل اثراً من تلك التي واجهها مع المزارعين اليهود . فقد تأثرت الحراسة العبرية ، عند اندلاع الحرب العالمية الأولى ، بعض الشيء بنفي السلطات التركية عدداً من زعمائها ، وتأثرت اكثر في عام ١٩١٧ حين وضعت السلطات التركية ، بمساعدة المخابرات الالمانية ، يدها على شبكة تجسس يهودية تحمل اسم « نيلي » ، تعمل لحساب المخابرات البريطانية ، حيث أخذت الشكوك تحوم حول جهاز الحراسة اليهودي(٥) . بيد ان ذلك لم يدم طويلاً لسقوط فلسطين في العام نفسه بأيدي القوات البريطانية .

وإن كانت منظمة هشومير قد نجت من بطش السلطات التركية ، بسبب عدم تيقّن الاتراك من تورطها في شبكة التجسس ، غير أنها لم تفلت من تبعات التجسس وعواقبه الوخيمة التي كانت من بين عوامل تقصير أمد حياتها ، وحلها . فقد اتضح بعد سقوط فلسطين تحت الاحتلال البريطاني أنّ عدداً من قيادة هشومير كان متورطاً بالفعل في شبكة التجسس ، ويقوم بدور حلقة الوصل بينها وبين اللجنة السياسية لليشوف اليهودي . وأنّ من بين مهامه ايضاً نقل مبالغ مالية الى اللجنة . كما تبين ان دفعات مالية ، معينة ، لم تصل الى اللجنة ، إنما بقيت في جيوب عدد من المسؤولين عن هشومير ، الأمر الذي دفع اللجنة للمطالبة باعادة الاموال اليها . ولم يكن ذلك بالمستطاع ، لادعاء زعامة هشومير بأن الاموال قد صرفت على عائلات الحراس الذين طاردتهم السلطات التركية . ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، فقد دار جدل طويل ومضن بين الطرفين ، أساء كثيراً الى سمعة وصورة هشومير بين صفوف اليشوف ، وأدى الى قطع الاتصالات لفترة بين عدد من التكتلات السياسية العمالية ومن بينها حزب « بو عالي تسيون » وبين هشومير(٦) .

ومع ذلك فقد ساهمت منظمة هشومير ، في هذه الفترة ، في اقامة « الفيلق العبري » في فلسطين بمده بعناصر مدربة من بين صفوفها . بيد أنها ، ازاء المرحلة الجديدة وما تتطلبه من مهام مختلفة ومغايرة ، قامت بحل نفسها في حزيران ١٩٢٠ مخليةً مكانها لمنظمة أوسع وأشمل وذات مهام أكبر هي منظمة الهجناه .

الكتائب العبرية

الى جانب التطور الداخلي لليشوف اليهودي في فلسطين الذي افرز منظمة « هشومير » ، هنالك تطور خارجي ساعد ، هو الآخر ، على ادخال الروح العسكرية ، وسط الجاليات اليهودية ، لتصب في المشروع الصهيوني ، ونعني به اندلاع الحرب العالمية الاولى . فمع اندلاع

الحرب بين دول المحور ودول الوفاق ، انعكس انقسام الشعوب الاوروبية ، مع هذا الفريق او ذاك ، على الجاليات اليهودية بشكل عام ، حيث حاولت كل جالية مسايرة الموقف السائد في كل بلد تتواجد فيه ، او التزام جانب الحياد . ولم تشذ الجالية اليهودية في فلسطين عن هذه القاعدة ، فقد وقفت في بداية الحرب الى جانب تركيا ، وعبرت عن تأييدها باهداء طائرة للحكومة العثمانية تحمل اسم « يسرائيل »[٧] .

بيد ان تأييد هذا الجانب ، او ذاك ، لم يرتق عند الاطراف الصهيونية الى مرتبة الدعوة لتجنيد اليهود وانخراطهم في صفوف الجيوش المتصارعة ، وانما بقي ضمن اطار لاعراب عن التعاطف ، في الوقت الذي لم تتوصل فيه الحركة الصهيونية الى موقف موحد وواضح تجاه الحرب . فقد كان اعضاء الادارة الصهيونية الموجودون في المانيا على اعتقاد بانتصار المانيا ، بينما اعتقد اعضاء الادارة المتواجدون في بريطانيا بانتصار بريطانيا ، اما زعماء الحركة الصهيونية في روسيا فقد دعوا الى التزام جانب الحياد . وكان الحل الوسط ، وقد ارتأته الحركة الصهيونية في مؤتمرها المنعقد في كوبنهاجن عام ١٩١٥ ، يقضي بعدم التزام الحركة بقرار مع هذا الجانب او ذاك . وقد ذهبت محاولات زئيف جبوتنسكي - الذي قدم الى المؤتمر بصفته الشخصية ، دون ان يكون عضوا في اللجنة التنفيذية - الرامية الى حمل المؤتمرين على الوقوف الى جانب بريطانيا ادراج الرياح[٨] . كما لاقت فكرته الداعية الى اقامة فرقة يهودية تعمل الى جانب القوات البريطانية معارضة شديدة . ومع ذلك ، اخذت الفكرة تشق طريقها ببطء وصعوبة الى ان اسفرت ، في نهاية الحرب العالمية الاولى ، ليس فقط عن قيام فرقة يهودية واحدة ، وانما عن قيام اربع فرق كانت من بين عوامل انشاء الهجناه وتعزيزها . وهذه الفرق هي :

أ - **كتيبة سائقي البغال الصهيونية** : خلال العام الاول من الحرب العالمية ، أقدمت الحكومة التركية، بدافع تخوفها من خطر الاجانب المقيمين فوق الاراضي الخاضعة لها، على أبعاد هؤلاء أو تجنيسهم . وكان لهذه الخطوة اثرها على الجالية اليهودية في فلسطين ، اذ تم في هذه الفترة ابعاد قرابة احد عشر الفاً من يهود فلسطين (معظمهم ينتمون الى الجنسية الروسية) الى الاسكندرية في مصر . حيث أقاموا في مخيمات أُعدّت لهم ، وعاشوا حياة بطالة ، واعتاشوا على الصداقات والمخصصات دون توفر عمل يعتاشون منه[٩] . وقد تمخض هذا الواقع الاجتماعي الصعب عن فكرة التطوع في صفوف الجيش البريطاني ، وقيض لهذه الفكرة ان تتحقق وتأخذ ابعاداً سياسية تصب بالاساس في خدمة المشروع الصهيوني اكثر من ان تصب في الجهود الحربية البريطانية او تخليص اليهود من حالة البطالة والتسكع . ويعود الفضل في ذلك الى وجود شخصيتين يهوديتين : زئيف جبوتنسكي الذي صادف وجوده في مصر في الوقت الذي تم فيه ابعاد مجموعة اليهود الى الاسكندرية ، كمراسل لصحيفة روسية لتغطية الاحداث في الشرق الاوسط ، ويوسف ترومبلدور - ضابط روسي سابق فقد احدى يديه اثناء الخدمة في الجيش القيصري - الذي أبعد الى مصر مع مجموعة المبعدين . وتركت هاتان الشخصيتان بصمات عميقة ، ليس فقط في مجال الجانب العسكري الصهيوني ، وانما ايضا في ميدان التطور السياسي لليشوف اليهودي في فلسطين . فبعد ان تلقفا فكرة التطوع واخذا يروجان لها ، شكل جبوتنسكي وترومبلدور وفدا يمثل يهود مخيم الاسكندرية برئاسة القطاوي باشا ، احدى الشخصيات اليهودية المرموقة في مصر لمقابلة قائد القوات البريطانية فيها لطرح

الفكرة أمامه . ولم يقبل القائد البريطاني الفكرة في بداية الامر ، بحجة تعارض عمل المواطنين الاجانب مع القانون البريطاني ، بيد انه عرض على الوفد ، وتحت الحاحه ، فكرة تشكيل فرقة من اليهود برئاسة ضباط بريطانيين مهمتها نقل الاعتدة العسكرية بواسطة البغال للعمل ضد القوات التركية . ولم يستسغ الوفد هذا العرض نظراً لما اعتبره من اهانة(١٠) في المهمة الملقاة على كاهل الكتيبة والمقتصرة على نقل الاسلحة بواسطة البغال دون العمل في الفروع المختلفة من الجيش ، الا انه لم يجد بدأ من قبولها على الرغم من تحفظ جبوتنسكي .

وفي الاول من نيسان ١٩١٥ أقسم المتطوعون في كتيبة سائقي البغال اليهودية - التي تحول اسمها فيما بعد الى كتيبة سائقي البغال الصهيونية Zion Mule Corps - (بقيت صفة البغال عالقة بالكتيبة على الرغم من محاولات جبوتنسكي ازالتها) ، يمين الولاء للجيش البريطاني بحضور كبير حاخامي مصر . وبذلك تم للمرة الاولى قيام كتيبة عسكرية يهودية تتشكل من : حوالي ٥٠٠ رجل(١١) و ٧٠٠ بغل ، و ٢٠ حصاناً للضباط البريطانيين المسؤولين عن الكتيبة التي تعتبر من الانوية الاساسية لتطور العسكرية اليهودية والتنظيمات الصهيونية المسلحة .

بعد نصف شهر من قسم يمين الولاء جرى نقل كتيبة سائقي البغال المكونة من اربع سرايا ، بقيادة الضابط البريطاني « جون هنري باترسون » ، المتعاطف مع الصهيونية ، ومساعدة اليهودي يوسف ترومبلدور الى الجبهة في شبه جزيرة جاليبولي ، في مضيق الدردنيل ، لمساعدة القوات البريطانية في حربها ضد القوات العثمانية . وبمجرد وصولها واجهت اول فشل لها حين عادت احدى السفن ، الناقلة لها ، بمن عليها الى الاسكندرية ، وتبعتها بعد ذلك سفينة اخرى مع أفرادها اليهود الذين فرّوا بعد تركهم البغال بتصرف الوحدات الاسترالية ، وواجه الفارون في الاسكندرية احكاماً بالسجن ، ومن ثم طردوا جميعاً من الخدمة العسكرية لرفضهم العودة الى الجبهة في جاليبولي(١٢) .

وهكذا وجدت الكتيبة نفسها ، خلال الايام الاولى من وصولها ، فاقدة حوالي نصف افرادها دون قتال . وبعد مضي شهرين على تواجدها في الجبهة اخذت الكتيبة تعاني من تناقص في عدد افرادها حيث لقي ستة مصرعهم وأصيب عشرات منهم بجراح ، فضلاً عن حالات المرض التي ألمت بعدد منهم ، الأمر الذي دفع باترسون وترومبلدور للتوجه الى مصر لتجنيد اعداد من اليهود ، هناك ، في محاولة لانقاذ الكتيبة وابقائها على قيد الحياة ، وأسفرت جهودها ، بعد عناء ، عن تجنيد ١٥٠ عنصراً عاد بهم ترومبلدور الى جاليبولي ، ليجد نفسه ، بعد مضي حوالي نصف عام ، يقود اقل من مئة جندي ، يسببون مشاكل كثيرة ، فلم يلبث ان عاد بهم ، في الاول من كانون الثاني ١٩١٦ ، الى الاسكندرية ، وهم في حالة يأس واحباط واعياء(١٣) . وبوصول هؤلاء الى مصر توجه كل واحد منهم الى بيته غير راغب الاستمرار في الخدمة . وبذلك لفظت كتيبة البغال الصهيونية انفاسها الأخيرة قبل صدور القرار الرسمي بحلها في أيار ١٩١٦ . وقد توجه حوالي ١٢٠ من افرادها السابقين ، الى لندن ، ليجدوا أنفسهم ، بعد مدة ، مرشحين لدخول كتيبة يهودية اخرى .

ب - الفيلق العبري : كما كان لزئيف جبوتنسكي فضل في اقامة كتيبة سائقي البغال

التي واجهت فشلاً ذريعاً ، كان لجهوده فضل اساسي في تشكيل « الفيلق العبري » ، ففي اعقاب حفل تشكيل كتيبة سائقي البغال ، غادر جبوتنسكي مصر ، في نيسان ١٩١٥ ، وتوجه الى ايطاليا ، حاملاً امتعاضه من النتيجة التي أسفرت عنها الجهود المبذولة في مصر ، والتقى هناك ببنحاس روتنبرغ (يهودي روسي درس الهندسة الكهربائية في ايطاليا ، ومع تطور النشاط الصهيوني في فلسطين شغل مناصب عدة أهمها رئاسة « اللجنة القومية ») . وتدارسا موضوع اقامة وحدات عسكرية يهودية تعمل الى جانب القوات البريطانية ، بهدف تسريع اقامة الدولة اليهودية في فلسطين . واتفق الاثنان على القيام بنشاط ، بهذا الخصوص ، في ايطاليا وفرنسا وبريطانيا باعتبارها اكبر الدول الاستعمارية ، في القارة الاوروبية ، ذات المطامع الاستعمارية في العالم العربي ، في محاولة منها ايجاد قاسم مشترك بين المطامع الاستعمارية والمشروع الصهيوني في المشرق العربي ، وخصا الامبراطورية البريطانية[١٤] بالاهتمام .

وقد توجه جبوتنسكي الى باريس ، غير أنه لم يجد اذناً صاغية هناك ، فتوجه الى لندن ، واجتمع بعدد من المسؤولين البريطانيين طارحاً عليهم فكرته . ولم يستسغ البريطانيون في بداية الأمر فكرة « استقلالية » الوحدات اليهودية ، في اطار الجيش البريطاني ، غير ان معارضة اشد وأقوى وقفت في وجه جبوتنسكي من جانب زعماء الحركة الصهيونية في بريطانيا مثل : شلنوف وسوكولوف ، وكذلك آحاد هعام الذي كان يقوم في ذلك الحين بزيارة لبريطانيا ، ولم يجد جبوتنسكي من يقف الى جانبه سوى مجموعة صغيرة غير مؤثرة[١٥] .

ومع ذلك ، فقد استمر في دعوته ، وتشجع بوصول قرابة ١٢٠ جندياً من بقايا كتيبة سائقي البغال الى لندن في شتاء ١٩١٦ ، وانضمامهم الى احدى الفرق البريطانية ، وقد التحق جبوتنسكي معهم في الجيش البريطاني كجندي . ولم يقبل طلب زميله يوسف ترومبلدور الذي لحق به الى لندن ، بحجة ان القانون البريطاني يحظر على المواطنين الاجانب العمل كضباط في الجيش النظامي البريطاني ، فتوجه الى موطنه روسيا القيصرية ليجرب حظه في الدعوة لاقامة جيش يهودي هناك يأتي به عبر آسيا لاحتلال فلسطين . وفي غضون ذلك واصل جبوتنسكي الترويج لفكرته مستعيناً ببعض الصحف البريطانية المؤيدة له . وفي ٢٣ آب ١٩١٧ تُوِّجت جهوده بالنجاح حين صدر أمر رسمي باقامة « الفيلق اليهودي »[١٦] ، وعُينَ الكولونيل باترسون قائداً له ، وهو قائد كتيبة البغال الصهيونية المنحلة نفسه . وبذلك توقفت معارضة بعض زعماء الحركة الصهيونية بخصوص فكرة اقامة الكتيبة . غير ان معارضة اخرى ظهرت بين اوساط اليهود غير الصهيونيين الذين تخوفوا من ان يؤدي تنفيذ وعد بلفور الى زعزعة وضعهم ومكانتهم في بريطانيا ، مما حدا بهم الى توجيه طلب لوزير الحربية البريطانية ، بدافع القلق على مصالحهم ، لحلّ الكتيبة اليهودية التي تعني بالنسبة لهم تنشيط العمل على تحقيق وعد بلفور . وازاء هذه المعارضة وجد الوزير البريطاني نفسه مضطراً لتغيير الاسم ، في محاولة منه لتبديد مخاوف يهود بريطانيا ، وفي الوقت نفسه ، ارضاء الصهيونيين ، والتوفيق بين مصالح الطرفين ، فصار الاسم : « الفيلق العبري »[١٧] . وقد أرسل الفيلق بعد ذلك الى مصر ، وبقي فيها مدة ، ليدخل بعدها فلسطين دون قتال ، بعد سقوطها .

جـ - **الفيلق الـ ٣٩ لرماة الملك** : بناء على الاتفاق بينه وبين جبوتنسكي توجه المهندس بنحاس روتنبرغ الى الولايات المتحدة الاميركية للدعوة الى تشكيل وحدات يهودية تعمل الى جانب

القوات البريطانية . وواجه هناك ما واجهه جبوتنسكي في بريطانيا ، حيث وقف قادة الحركة الصهيونية في اميركا ضد الفكرة ، كما تصدى لها كل من بن - غوريون وبن - تسفي ، المبعدين الى الولايات المتحدة ، اعتقاداً منهما ان من شأن مثل هذا العمل ، اثارة سخط وغضب السلطة العثمانية ودفعها لتضييق الخناق على الجالية اليهودية في فلسطين والفتك بها ، ودعيا بدلاً عن ذلك ، الى اقتصار النشاط الصهيوني على العمل السياسي وتنظيم شؤون الهجرة والاستيطان(١٨) .

بيد ان هذا الواقع ما لبث ان انقلب رأساً على عقب ، فبعد دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانب دول الوفاق في نيسان ١٩١٧ ، ورجحان احتمال انتصار دول الوفاق ، نشط صهيونيو اميركا في الدعوة لاقامة كتائب يهودية . وتراجع كل من بن - غوريون وبن - تسفي عن تحفظاتهما السابقة ، وتجندا مع آلاف المتطوعين اليهود في « الفيلق الـ ٣٩ لرماة الملك »(١٩) الذي ظهر الى الوجود عقب مفاوضات جرت في كانون الثاني ١٩١٨ . وانضم اليه ايضا عدد من يهود كندا واميركا اللاتينية . وبعد فترة تدريبات قصيرة ، أرسل الفيلق الى مصر ، ولم يساهم افراده في معارك احتلال فلسطين ، باستثناء نفر بسيط منهم ؛ ولم تدخل القوات الرئيسية ، للفيلق ، فلسطين الا عقب اعلان الهدنة .

د - **الفيلق الـ ٤٠ لرماة الملك** : عقب سقوط معظم الاراضي الفلسطينية في ايدي قوات الغزو البريطانية واثر ما حظيت به هذه القوات من استقبال حار من جانب الجالية اليهودية في فلسطين ، ظهرت مبادرة لاقامة وحدة يهودية خاصة بيهود فلسطين . وخلافاً للمبادرات السابقة ، لم يكن صاحب المبادرة يهودياً ، بل ضابطا بريطانيا يدعى « هيل » ، استدعى اليه عددا من الشخصيات اليهودية من بينها : الياهو جولب ودوف هوز طارحاً عليها فكرة اقامة وحدة يهودية خاصة بيهود فلسطين(٢٠) . وربما يتبادر الى الاذهان ، للوهلة الاولى ، ان اخراج المبادرة الى حيز التنفيذ كان أمراً سهلاً . وفي الحقيقة ، لم تكن المسألة بهذه السهولة ، فقد واجهت المبادرة الصعوبات نفسها التي واجهتها الدعوات السابقة في كل من بريطانيا والولايات المتحدة ، ولكن بحدة اقل ؛ فالطرف المنتصر اصبح واضحاً ، الامر الذي مكّن الدعاة ، ومن بينهم جبوتنسكي من انجاح حملة التطوع ، وتجنيد حوالى ١١٠٠ متطوع من ابناء اليشوف اليهودي في فلسطين ، وتنظيمهم في فيلق خاص يحمل اسم « الفيلق الـ ٤٠ لرماة الملك » . وقد تم نقل افراده الى مصر لتلقي التدريبات ، ولم يساهم هو الآخر ، اسوة بالكتائب العبرية السابقة ، في معارك احتلال المنطقة الشمالية من فلسطين .

وهكذا ، أسفرت جهود التيار « النشط » في الحركة الصهيونية ، مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، عن خلق كتائب يهودية تعمل تحت امرة الامبراطورية البريطانية ، اعظم دولة استعمارية في ذلك الحين ، واصبح فوق الثرى الفلسطيني ، الى جانب اكثر من خمسين الفاً من المستوطنين اليهود ، حوالى خمسة آلاف جندي يهودي يتوزعون على ثلاث فرق وفق النسب التالية :(٢١) . مجموعة لندن ٨٪ ، والمجموعة الفلسطينية ٣٠٪ ، والمجموعة الاميركية ٣٤٪ . اما النسبة الباقية فقد احتلها متطوعون من كندا واميركا اللاتينية والجنود اليهود الذين عادوا من الأسر التركي او فروا من الجيش العثماني . وقد أنيطت بهذه القوات مهام الاسهام في الحفاظ على الأمن في فلسطين بعد ان غادرتها معظم القوات البريطانية للقضاء على الثورة

المصرية عام ١٩١٩ .

كان التيار « النشط » في الحركة الصهيونية بقيادة جبوتنسكي يأمل ، من مراهنته على انتصار بريطانيا ، ووقوف الحركة الصهيونية ومن ورائها الجاليات اليهودية الى جانبها ، في خلق قوة عسكرية يهودية مدربة تساهم في احتلال فلسطين والبقاء فيها كجيش عبري تابع للييشوف اليهودي في فلسطين ، لتحقيق المشروع الصهيوني المتمثل في اقامة دولة يهودية (في فلسطين وشرق الاردن) دفعة واحدة بالتحالف مع بريطانيا ، اعتقاداً منه ، ولايمانه الراسخ ، بوحدة المصالح بين الاستعمار البريطاني والمشروع الصهيوني .

ومع ذلك فإن تجربة الكتائب العبرية لم تكن على مستوى احلام التيار « النشط » في الحركة الصهيونية ، فهذه الكتائب لم تدخل معركة واحدة ، ولم تساهم في احتلال فلسطين ، كما ان قيامها لم يخل من الافتعال والارتجال ، الامر الذي عجل في حلها . فبعد فترة قصيرة من مكوث افرادها في فلسطين ، اخذ الملل واليأس يدبان في قلوب المتطوعين اليهود البريطانيين والاميركيين ، وكان ، من بين اسباب ذلك ، عدم استحواذ الفكرة الصهيونية بشكل كبير على افئدتهم في ذلك الحين ، كما ان توقهم للعودة الى عائلاتهم واوطانهم حمل الكثيرين منهم على انهاء خدمتهم العسكرية بغية العودة الى اهاليهم باستثناء النذر اليسير الذي حاول البقاء في فلسطين[٢٢] .

ومما يلفت النظر ، الشكوى التي كانت تتردد على السنة اكثرية الجنود ، ومن بينهم جبوتنسكي ، ضد المعاملة السيئة ونظرة الازدراء اللتين واجهتهما مجموعة الفرق اليهودية من قبل البريطانيين ، اذ يندر ان يقرأ المرء مذكرات هؤلاء دون ملاحظة تطرقهم الى « اللاسامية » وتذمرهم من نظرة الازدراء والاستخفاف التي واجهوها من قبل زملائهم البريطانين[٢٣] .

بقيت هذه القوات قائمة رسميا الى ان حلت بشكل نهائي في حزيران ١٩٢١ ، حيث لم يبق ، حتى ذلك التاريخ ، سوى بضعة عشرات من الجنود ، بعد ان تركها المتطوعون ، بطرق شتى ولأسباب مختلفة ، وفي اوقات متتالية ، تحت ظلال اجواء من المرارة واليأس .

وعلى الرغم من ذلك فإن واقع قيام الكتائب اليهودية ، بغض النظر عن الانجازات العملية المضحكة ، كان الى جانب كونه تجربة تستهدف اكساب العناصر اليهودية الشابة الخبرة العسكرية ، وبث الروح العسكرية بين صفوفها ، للاسراع في تحقيق المشروع الصهيوني عاملاً مساعداً في اقامة منظمة الهجناه ومدها بعناصر مدربة .

قيام منظمة الهجناه

كان من نتائج سقوط فلسطين على يد القوات البريطانية ، المصاحب بحصول الحركة الصهيونية على وعد من وزير الخارجية البريطانية باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، دخول الصراع العربي الصهيوني مرحلة جديدة خطرة ، استدعت ، من الطرفين ، شحذ كافة اسلحة النضال بما فيها الكفاح المسلح . فقد أخذ الصراع بالتفاقم ، وتفجر بعد مضي ، حوالي عامين على الاحتلال ، عندما تبينت للعرب ، بشكل واضح ، خطورة النوايا الحقيقية لبريطانيا ،

ورغبتها في استبدال الاحتلال بانتداب دون منح الاستقلال للشعب الفلسطيني ، مما حدا بالعرب الى خوض النضال لانتزاع الاستقلال والتصدي لعدوين : الاستعمار البريطاني المتمثل في القوات البريطانية المحتلة ، والحركة الصهيونية المتمثلة في التجمع الاستيطاني اليهودي الآخذ بالنمو .

في ذلك الوقت ، كانت قوة اليشوف ، على الصعيد العسكري ، تتمثل في منظمة هشومير التي قامت بدور حراسة المستوطنات اليهودية في اواخر العهد التركي ، الى جانب نفوذ اليشوف على مجموعة فرق المتطوعين اليهود في الجيش البريطاني ، ودعم القوات البريطانية له .

ومع تنامي النضال الوطني الفلسطيني ، وارتقائه الى مرتبة الكفاح المسلح ، عام ١٩٢٠ ، خاض الثوار الفلسطينيون معارك ضد القوات الغازية في الجليل ، وفي عدد من المستوطنات اليهودية من بينها مستوطنة « تل حاي » التي وقف ، على رأس المدافعين عنها ، يوسف ترومبلدور زميل جبوتنسكي في الدعوة لاقامة الوحدات العبرية في الجيش البريطاني .

بعد فشل ترومبلدور في الالتحاق بالفيلق العبري في لندن ، توجه الى روسيا عشية الغليان الثوري هناك ، واخذ ينشط لاقامة جيش يهودي ، يغزو به فلسطين . وفي هذا الاطار ، قدم ترومبلدور الى مؤتمر صهيونيي روسيا ، المنعقد في عام ١٩١٧ ، خطة تدعو الى اقامة حركة جماهيرية طلائعية ليهود روسيا ، تكون ، في الوقت نفسه ، بمثابة « جيش يهودي يضم عشرات الآلاف من الجنود ، يجتاز جبال القفقاس ، ويأتي الى ارض اسرائيل من الشرق » .(٢٤) .

وقد وجدت فكرته آذانا صاغية بين صفوف صهيونيي روسيا ، حيث بدأ الكثيرون يحلمون بالانضمام الى جيش ترومبلدور الذي يحتاج الى تصريح رسمي من السلطات لاقامته . وجرت مع حكومة كيرنسكي البرجوازية مفاوضات للتصريح بخلق الجيش ، وتقديم التسهيلات له ، الا ان ثورة البلاشفة ، التي تفجرت في السابع من تشرين الثاني بزعامة لينين ، وضعت حداً للمفاوضات وللخطة وللأمل بتحقيقها(٢٥). ولم يكن أمام ترومبلدور سوى المجيء الى فلسطين ليجرب حظه في تنظيم الشؤون العسكرية ، بين صفوف التجمع الاستيطاني اليهودي . وتوجه ، بعد فترة من وصوله الى فلسطين ، على رأس مجموعة من المقاتلين اليهود الى مستوطنة تل حاي في الجليل ، لاقامة قلعة محصنة هناك وتعزيز الدفاع عن المستوطنات اليهودية المتناثرة في المنطقة امام خط احتمال تفجر الغضب الشعبي الفلسطيني الذي اخذ يدب بين صفوف السكان ضد القوات الغازية البريطانية والفرنسية ، وضد الوافدين معها على شكل مستوطنين ، حيث اخذت تنمو وتتبلور بؤر للمقاومة في مناطق مختلفة من الجليل ، وتقوم بشن هجماتها ضد القوات الغازية .

وقد قُيِّض ليوسف ترومبلدور ان يدخل للمرة الاولى ـ عقب نشاطه في الوحدات العبرية ، ووقوفه اثناء الحرب في الجبهة الخلفية ـ حرباً ساخنة مع الفلسطينيين ، سكان البلاد الاصليين . ففي الاول من اذار ١٩٢٠ هاجمت مجموعة من الثوار الفلسطينيين واحتلت عددا من المستوطنات الشمالية ، ومن بينها مستوطنة تل حاي التي يقودها ترومبلدور . وتمكن الفلسطينيون بعد تعذر نجدة البريطانيين للمستوطنة ، من اقتحامها وقتل سبعة من مقاتليها ومن بينهم يوسف ترومبلدور ، واصابة عدد آخر بجراح(٢٦) . ولا شك بأن هذا التاريخ يعتبر

فاتحة الكفاح المسلح الفلسطيني ضد المشروع الصهيوني .

لم تقتصر الثورة الفلسطينية على منطقة الجليل فقط ، بل امتدت الى القدس . فبعد ان كانت المدينة تشهد مسيرات احتجاجية ضد المشروع الصهيوني ، منذ بداية العام ، اخذت هذه المسيرات تتحول الى تظاهرات صاخبة والى اشتباكات مع المستوطنين اليهود ، كالاشتباك الذي حدث في الرابع من نيسان ١٩٢٠ ، وأسفر عن اصابة اكثر من مئتي مستوطن بجراح ، ومصرع ثمانية منهم(٢٧) . وكان جبوتنسكي وروتنبرغ قد أقاما في القدس ، عشية هذه الاشتباكات ، منظمة « هجناه » (دفاع) محلية ، استقطبت بين صفوفها ما بين ٣٠٠ ـ ٤٠٠ مستوطن . وقد أنحت سلطات الاحتلال البريطانية باللائمة ، في احداث القدس ، على عناصر عربية ويهودية ، وقدمت عرباً ويهوداً الى المحاكم ومن بينهم جبوتنسكي الذي صدر عليه الحكم بالسجن لمدة ١٥ عاماً ، والطرد من فلسطين ، وخفف هذا الحكم ، بعد مدة بسيطة ، الى السجن فترة عام واحد(٢٨) .

في هذه الفترة ، اخذت فكرة اقامة تنظيم عسكري شعبي ، تناط به مهام الدفاع عن المستوطنات اليهودية لحين قدوم القوات البريطانية ، في حال الخطر ، تطرح نفسها بالحاح في الوسط العمالي ، خصوصاً وان منظمة هشومير لم تثبت نفسها في التصدي لحالة النهوض الوطني الفلسطيني ، كما وان بقايا الكتائب العبرية لم تكن بمستوى الآمال المعلقة عليها . ولم يكن ، ايضا ، بمقدور المسؤولين عن اليشوف اليهودي تحريكها كما يشاؤون ، بحكم خضوعها للسلطات البريطانية . وعلى الرغم من اشتراك عدد من عناصرها في التصدي للعرب ، الا ان ذلك لم يرض اولئك الذين اخذت تختمر في نفوسهم فكرة اقامة تنظيم عسكري توكل اليه مهام حماية المشروع الصهيوني في فلسطين .

كان على حزب « احدوت هعفوداه » ، صاحب الفكرة ، قبل الاعلان عن ولادة التنظيم العسكري الجديد ، ترتيب الامر مع منظمة هشومير ، لتحل نفسها ، وتشكل العمود الفقري للتنظيم المزمع اقامته . وبالفعل ، عقدت اللجنة الموسعة لمنظمة هشومير في ١٨/٥/١٩٢٠ اجتماعاً في مستوطنة « تل عدس » تمخض عن القرارات التالية(٢٩) :

(١) حل منظمة هشومير .

(٢) يشكل اعضاء هشومير ، كمجموعة ، النواة لتأسيس نقابة الهجناه (هستدروت هجناه) .

(٣) تعتبر نقابة الهجناه جزءاً من حزب احدوت هعفوداه .

إثر صدور هذه القرارات عقد حزب احدوت هعفوداه مؤتمراً في طبريا بتاريخ ١٣ ـ ١٥/٦/١٩٢٠ ، تدارس فيه موضوع اقامة منظمة الهجناه ، وأقر قيامها . ونص قرار تأسيسها على التالي(٣٠) : « ادراكاً منه للأهمية والمسؤولية التاريخية ، يقبل [حزب] احدوت هعفوداه . المبادرة الملقاة عليه من قبل نقابة « هشومير » ، للاعتناء بتنظيم شؤون الدفاع ، وتنظيم مساهمة العمال في مشروع الدفاع ، وضمان المحتوى الوطني والاجتماعي لدفاع شعبي

في البلاد ، بواسطة تنظيم مجموعة عمال مخلصين ، تسهر على شؤون الدفاع ، وخلق الكتائب في الشرطة .

« ويدرك المؤتمر ضرورة تنظيم الهجناه التي ستسعى لضم اي شخص ملائم يخضع لها ، لاعمال الدفاع ، بالشكل الذي تصبح فيه ملكاً للعاملين فيها .

« ويُضْمن نفوذ احدوت هعفوداه على النقابة عن طريق الاشتراك الفاعل لاعضائها وفق قراراته ، ويلزم المؤتمر جميع اعضاء احدوت هعفوداه بالاستجابة بانضباطية تامة للجنة « الهجناه » في كل طلب للدفاع » .

وهكذا تم نقل شؤون الأمن من يد منظمة هشومير الى منظمة الهجناه .

يلاحظ ، هنا ، ان تأسيس الهجناه لم يأت نتيجة قرار للادارة الصهيونية المحتلة لجميع التكتلات والتيارات السياسية الصهيونية ، وانما أتى نتيجة قرار اتخذه حزب ينتمي الى الادارة الصهيونية . وكان لهذا الواقع اثر كبير في مسار التطور المستقبلي للهجناه ، فضلاً عن تبعاته على العلاقات بين التيارات المختلفة في اليشوف اليهودي في فلسطين .

كان اول امتحان واجهته منظمة الهجناه ، بعد تأسيسها ، الانتفاضة الوطنية للشعب الفلسطيني في حزيران ١٩٢١ ، خصوصاً في منطقة يافا وضواحيها . وكانت نتيجته ، بشكل عام ، « مخيبة » لآمال اليشوف اليهودي ؛ ففي يافا فشلت الهجناه في مواجهة حالة النهوض الوطني الفلسطيني التي انعكست في تظاهرات واشتباكات مع سلطات الانتداب والتجمع اليهودي الاستيطاني ، وكذلك عجزت في « بيتح تكفا » ، ام المستوطنات اليهودية ، عن صد الثوار الفلسطينيين الذين تمكنوا من ضرب طوق على المستوطنة واقتحام بعض اجزائها ، ولم يجلوا عنها الا بعد وصول الفرقة الهندية العاملة في الجيش البريطاني ، مدعومة بطائرة عسكرية اخذت تقصف الثوار العرب[٣١] . وإن كانت بيتح تكفا قد نجت ، بفعل المساندة الفورية التي وصلتها من قوات الاحتلال ، فإن مستوطنتي « كفار سابا » و « كفار حلال » القريبتين منها قد سقطتا في أيدي الثوار الفلسطينيين قبل وصول النجدات البريطانية . وقد جرى حرق المستوطنتين بعد مغادرة المستوطنين ورجال الهجناه لهما[٣٢] . وفي ١٩٢١/١١/٢ دخلت الهجناه تجربة اخرى مع عرب القدس حين تطورت التظاهرات الاحتجاجية ، ضد وعد بلفور ، الى اشتباكات بين العرب واليهود في المدينة . ويمكن القول ان الاختبار الذي مرت به الهجناه ، بعد مضي عام على قيامها ، كان ، بشكل عام ، مخيّباً لآمال أوساط عدّة من اليشوف ، مما أدى الى « انخفاض مكانتها » في الوسط اليهودي[٣٣] . وقد كتب للهجناه ان تواجه اختباراً آخر وذلك عقب فترة طويلة من استتباب الأمن والهدوء في فلسطين ، بفضل سياسة القمع البريطانية ، وعوامل اخرى ، استمرت حتى ١٩٢١ حين اندلعت من جديد الانتفاضة الفلسطينية .

تطور الهجناه وتنظيمها

خضعت الهجناه ، خلال سنيّ العشرينات ، الى نقابة العمال العبريين (الهستدروت) بعد تأسيسها في كانون الاول عام ١٩٢٠ . وقامت الهستدروت بدور الاشراف عليها وتعيين

لجنتها المركزية . وقد اتسمت الفترة الاولى من التأسيس بعدم متانة العلاقة بين مركز الهجناه (اللجنة المركزية) وبين قيادة الفروع واللجان في المدن والمستوطنات ، اذ جرى انتخاب الاخيرة بواسطة المؤسسات العامة المحلية ، وكانت هذه اللجان تتحمل المسؤولية تجاه الجمهور الذي انتخبها وليس تجاه مركز الهجناه[٣٤] .

وعام ١٩٢٤ صدر دستور الهجناه الذي عرفها بأنها « منظمة عسكرية سرية » تستهدف الحفاظ على اليشوف بواسطة المليشيا الشعبية ونص الدستور على أن أبوابها « مفتوحة لكل عبري وعبرية يبلغان من العمر سبعة عشر عاماً وما فوق »[٣٥] . كما أقر طرق ادارة الفروع بحيث يقف على رأس كل فرع « لجنة الفرع » المكونة من سبعة اعضاء يقوم المركز بتعيين خمسة منهم ، ويُضمّ العضوان الاخران بموافقة المركز ، الذي يجري انتخابه مع مساعديه من بين اعضاء « لجنة الفرع »[٣٦] .

قد يتبادر الى الأذهان تساؤل حول كيفية تطبيق مبدأ الشمولية الذي حرص عليه الدستور ، بفتح أبواب المنظمة لكل عبري وعبرية ، بغض النظر عن الانتماءات والميول الحزبية ، في الوقت الذي تخضع فيه المنظمة لاشراف الهستدروت الممثلة لمصالح شريحة معينة في اليشوف اليهودي . والحقيقة ان منظمة الهجناه سعت الى تحقيق مبدأ الشمولية ، الذي لم يكن من السهل ، دائماً ، تطبيقه . فقد انتهك اكثر من مرة وفي اوقات مختلفة نظرا للبون الشاسع في المنطلقات السياسية والفكرية للتيارات السياسية اليهودية في فلسطين ، والواقع ان منظمة الهجناه هي الابن الشرعي للحركة العمالية اليهودية . ففي العشرينات ، كانت فروع الهجناه وخصوصاً في المستوطنات الزراعية تعتمد أساساً على الاوساط العمالية . وكانت تثار قضية « الهجناه المشتركة »[٣٧] في حال دق ناقوس الخطر فقط .

وقد مر مبدأ « الشمولية » في تجربة اصعب مع مطلع الثلاثينات حين اقيمت « المنظمة ب » واخذت العلاقات بين التيارات السياسية المختلفة تسير نحو مزيد من التعقيد . وازاء ذلك ، وجد المسؤولون عن الهجناه انفسهم مضطرين ، حيال ضرورة الحفاظ على مبدأ الشمولية وخشية حدوث انشقاق او ولادة تنظيمات عسكرية منافسة ، الى احداث تغيير في طريقة قيادة منظمة الهجناه لتعزيز مبدأ الشمولية . فقد جرى نقل صلاحية الاشراف على الهجناه الى الاداوة الصهيونية كممثلة لجميع التيارات الصهيونية ، بمشاركة الهستدروت واوساط « المدنيين »* ، وألحق هذا الاجراء باجراء آخر ينص على توزيع القيادة « مناصفة » بين الهستدروت و « المدنيين » . وشهدت منظمة الهجناه ، في هذه الفترة ، تغييرات في جهازها ؛ فقد تم للمرة الاولى تشكيل « قيادة قطرية » تسيطر على عشرين فرعا ، نشطت في مجال امتلاك الاسلحة وتخزينها وتدريب الأفراد . ومع اندلاع الثورة الفلسطينية ، عام ١٩٣٦ ، توطدت العلاقة بشكل كبير بين الهجناه وسلطات الانتداب البريطانية ، احساساً من الطرفين بالخطر المشترك المحدق بمصالحهما المشتركة . ففي صيف عام ١٩٣٧ أقامت منظمة الهجناه « سرايا الميدان » التي انيطت بها مهام مهاجمة الثوار العرب ، وبعد ذلك بعام اقام الضابط البريطاني اورد تشارلز وينجت « سرايا النار » المعروفة ايضا باسم « سرايا الكتيبة الخاصة » لصالح

* كنية تطلق على شريحة المزارعين والتجار وابناء الطبقة الوسطى . ولحقت هذه الكنية بعدد من احزاب اليمين وعلى رأسها : الصهيونيون العامون ، والمزراحي .

منظمة الهجناه ، بغرض مهاجمة الثوار الفلسطينيين ليلاً ، وأسفر تماثل المصالح في هذه الفترة عن اشراك البريطانيين قوات الهجناه في الجهود الحربية البريطانية ضد الفلسطينيين ، بيد ان الاخطر من ذلك تمثل في سماح سلطات الانتداب لمنظمة الهجناه باقامة سلاح الحراسة ، وشرطة المستوطنات العبرية التي غدت قوة « شرعية » تابعة للهجناه ، وقد تعززت بسرعة وبلغ عدد افرادها ، عام ١٩٣٩ ، حوالى عشرين ألف رجل يتوزعون على عشر كتائب(٣٨) .

موقف « اليمين » و « اليسار » من الهجناه

ألقى تفرد حزب احدوت هعفوداه ، في اقامة الهجناه وسيطرته عليها ، تبعات جمة على مسار تطور المنظمة وحدد موقف التيارات المختلفة ، في اليشوف ، تجاهها ، خلال سني العشرينات . فقد اتخذت الادارة الصهيونية موقفا متحفظاً منها ، خصوصاً ، عقب رفضها طلب سلطات الانتداب البريطاني ، عند استتباب الأمن والهدوء اثر ثورة ١٩٢١ ، تسليم الاسلحة مقابل تعهد السلطات بالاهتمام بقضايا امن اليشوف اليهودي ؛ ازاء طلب سلطات الانتداب المرفوض من قبل المنظمة الوليدة وحرصا من الادارة الصهيونية على تمتين العلاقات مع السلطات ، اوقفت دعمها المالي للمنظمة(٣٩) . ثم تلاشى التحفظ وزال مع مرور الوقت حين انيطت بالادارة الصهيونية في مطلع الثلاثينات مهمة الاشراف على الهجناه .

لم يكن موقف شريحة البرجوازية الريفية الممثلة في مزارعي المستوطنات ، وكذلك الاوساط اليمينية ، بعيداً عن موقف الادارة الصهيونية ، وان اختلف ، نوعاً ما ، في الدوافع . فقد اعتبرها المستوطنون المزارعون امتداداً لمنظمة هشومير ذات الميول اليسارية ، ومن هنا جاءت معارضتهم لها خشية تجدد الاصطدامات معها ، وتعزز قوى « اليسار » من خلالها ، وتذرع البعض منهم ، كتبرير للمعارضة ، بوجود نظام امن بريطاني أفضل من نظام الأمن التركي ، وأعاد البعض الآخر الى الاذهان ما جلبته شبكة التجسس « نيلي » من تبعات « سيئة » على اليشوف اليهودي(٤٠) .

كما واجهت منظمة الهجناه تحفظات من قبل فئة من التيار العمالي منضوية تحت لواء حزب « هبوعيل هتسعير » . وعلى الرغم من واقع كون هذه الفئة تقف الى « يمين » حزب « بو عالي تسيون» الذي اصبح يعرف بعد اتحاده مع فئات عمالية في عام ١٩١٩ بـ « احدوت هعفوداه » ، غير أنها كانت تميل الى الفلسفة « السلامية » المتعارضة مع استخدام العنف للحصول على الهدف السياسي ، وازداد تحفظها بسبب المنافسة بينها وبين « احدوت هعفوداه » حول النفوذ في الوسط العمالي ، اذ رأت في الهجناه قوة دعم لخصمها(٤١) .

وتصدت لقيام الهجناه وعارضتها شريحة من المثقفين اليهود انضوت تحت لواء حركة « بريت شالوم » ، اعتقاداً منها بأن قيام منظمة عسكرية يهودية يسيء الى العلاقات المستقبلية بين اليشوف اليهودي والعرب .

وسط هذه المواقف التي لم يكتب لها ان تعيش طويلا ، برز موقف يلتقي مع المواقف السابقة في المعارضة او التحفظ ، ويختلف عنها من حيث الدوافع والبديل ، وكان له أثر كبير في التطور السياسي والعسكري لليشوف اليهودي ؛ هو موقف زئيف جبوتنسكي صاحب فكرة

الكتائب اليهودية العاملة في صفوف القوات البريطانية .

عمل جبوتنسكي كل ما في وسعه لاستمرار بقاء الكتائب العبرية . وبعد حلها ، اصبح همه الاساسي اقامة وحدات عبرية عسكرية معترف بها من قبل سلطات الانتداب ، على غرار الكتائب السابقة ، اعتقادا منه ان بوسع هذه الكتائب وحدها تسريع عملية اقامة الدولة اليهودية في فلسطين وشرق الاردن . ومن هنا جاء موقفه سلبياً تجاه اقامة تنظيمات « دفاعية » سرية ، او شبه سرية ، تعتمد على المليشيا الشعبية ، دون الاسلوب العسكري الانضباطي ، لسببين اساسيين :

١ ـ حتمية التعارض بين السلطة الشرعية والمنظمات السرية ، او شبه السرية ، مما يعرقل مسار المشروع الصهيوني .

٢ ـ تدني القدرات القتالية للميليشيات الشعبية مقابل ارتفاع قدرات الجيش النظامي[٤٢] .

لم يترك جبوتنسكي فرصة الا واغتنمها لبث دعوته بخصوص الجيش العبري . ومن أشهر مقالاته حول ذلك مقال يحمل عنوان « الجدار الحديدي » ويعني بـ الجيش العبري الذي سيضمن ، حسب اعتقاده ، تحقيق المشروع الصهيوني في فلسطين وشرق الاردن ويكون بمقدوره « منع العرب من عرقلة سير بنائنا » [٤٣] .

في الوقت الذي اعتبر فيه جبوتنسكي قيام جيش عبري معترف به شرطا لا بد منه لتحقيق المشروع الصهيوني ، ووضع الهجرة والاستيطان في المرتبة الثانية من الاهمية ، رأى منظّرو الهجناه ، وعلى رأسهم ، الياهو جولب في الهجرة والاستيطان الشرط الاساسي الاول لتحقيق المشروع ، ولبست القوة لحماية هذا الشرط ، ولا يعني توفرها واحتلال مناطق فلسطينية مأهولة بالسكان العرب تحويل هذه المناطق الى مناطق يهودية .

« ... لا نتصور نحن مسار تحقيق الصهيونية واستخدام الهجناه في هذا المجال هكذا ... اننا نتصور الشكل المستقبلي للمسار الصهيوني كما كان عليه في الماضي ، ولكن بحجم اكبر : عن طريق الهجرة والاستيطان الواسعين ، وتحويل مناطق في البلاد الى مناطق يهودية .. ولكن يمكن ان نتساءل : اذا كان الأمر كذلك فلم الهجناه ؟ إنها ضرورية من اجل « تمكين » هذا المسار ، وكي يكون بوسعنا الصمود بوجه اولئك الذين يريدون منعه ... »[٤٤] .

لقد تمحور الخلاف ، بين التيارين ، حول سلّم الافضليات في النضال من اجل تحقيق المشروع الصهيوني ؛ فبينما نجد التيار العمالي يركز على الجانب العملي بطرحه فكرة الهجرة والاستيطان على رأس هذا المسلم مدعومة بقوة عسكرية على شكل منظمة عسكرية، يمكن للعلاقات البريطانية الصهيونية ، مع الاخذ بعين الحسبان الاعتبارات السياسية في المنطقة ، تحمل قيامها دون انتظار تصريح رسمي يعترف بوجودها ، نرى ان التيار التصحيحي بزعامة جبوتنسكي يشدد على العامل السياسي ، بطرحه ضرورة الحصول على اعتراف بريطاني بالقوة اليهودية ـ وهذه القوة حسب رأيه ، يجب ان تكون على شكل جيش نظامي ـ اعتقاداً منه بعدم توفر اسباب انجاح تحقيق الدولة اليهودية في غياب هذا الاعتراف .

من الواضح ان تحقيق جبوتنسكي وانصاره كان مرهوناً بتوفر عوامل عدة ، من اهمها : الارتقاء بالعلاقات الاستعمارية البريطانية الصهيونية الى اعلى مراتب التحالف المصلحي المصيري ، وكبت العوامل السياسية الاخرى الماثلة امامه . ولم يكن ذلك سهلاً ، اذ لم يشهد اليشوف اليهودي في تطوره السياسي توفر مثل هذه العوامل الا في فترة قصيرة استمرت ثلاثة اعوام ، هي فترة الثورة الفلسطينية في عام ١٩٣٦ ، حين اقيم سلاح حراسة المستوطنات ، وبدا وقتـها ، وكـأن حـلم جبـوتنسكي بدأ يتحقق . ومع ذلك ، فقد بقي جبوتنسكي مؤمنا به ، داعيا اليه ، طوال حياته؛ وهذا يدل قبل كل شيء على مدى الشوط الذي قطعه في ايمانه بوحدة وتماثل المصالح بين المشروع الصهيوني والاستعمار البريطاني .

وبانتظار اليوم الذي تعلن فيه بريطانيا موافقتها على اقامة الجيش العبري ، وفي محاولة منه لاعداد حركته لذلك التاريخ ، نشط جبوتنسكي ، في العمل ، لكسب التنظيمات اليهودية الرياضية ، بين صفوف الجاليات اليهودية في العالم ، واكسابها الروح العسكرية ، فأقام منظمة شبيبة شبه عسكرية اطلق عليها في بداية الامر اسم «بريت هشومير» (منظمة هشومير) تيمنا بمنظمة « هشومير » اولى المنظمات العسكرية اليهودية في فلسطين ، ثم ما لبث ان اضطر لتغيير الاسم . بسبب احتجاج يسرائيل شوحط (٤٥) ، فأصبح « بريت ترومبلدور » تمينا بزميله تروملبدور . ثم اخذت تعرف بعد ذلك باسم « بيطار » كاختصار للكلمتين العبريتين .

ترعرعت حركة « بيطار » ، منذ تأسيسها ، على الروح العسكرية ، اذ رأت فيها الاساس الصالح للاسراع في تحقيق المشروع الصهيوني ، وتحولت مع الزمن الى خصم لدود لحركات الشبيبة الخاضعة للحركة العمالية والتي كانت تركز ، في نشاطها الرامي الى احتلال فلسطين ، على الاستيطان بالاساس ، ثم غدت في الثلاثينات والاربعينات الرافد الاساسي الذي يمدّ « اتسل » ، المنظمة المنافسة للهجناه، بعناصر المتطوعين من الشباب .

وتوج جبوتنسكي نشاطه هذا باقامة اطار سياسي ، عام ١٩٢٥ ، على شكل حزب يحمل اسم « بريث هتسيونيم هرفيزستيونيم » * ، بهدف « تصحيح » المسار الصهيوني . من اهداف العمل لتحقيق المشروع الصهيوني على ضفتي نهر الاردن باقامة دولة يهودية باكثرية يهودية .

درج التيار التصحيحي في الحركة الصهيونية بزعامة جبوتنسكي ، في نقده للهجناه ، على توجيه سهامه ضد ما اسماه بالروح « السلامية » التي يزعم ان عناصر الهجناه تترعرع عليها . وقد دارت نقاشات طويلة ، بين الجانبين ، حول هذا الموضوع ، تحولت معها ، فيما بعد ، نقاط الخلاف الى تهم . فقد اعتبر التصحيحيون الروح « السلامية » تهمة ، اعترفت بها الهجناه كفضيله ، مع الصاق تهمة الروح العسكرية بالتيار التصحيحي الذي افتخر بدوره بها معتبراً اياها بمثابة فضيلة .

وقد يتبادر للمرء ، من كثرة النقاشات حول هذا الموضوع ، وكأن الهجناه تعتنق فعلا الفلسفة « السلامية » . ومن نافل القول ، ان ذلك غير صحيح على الاطلاق ؛ فموقف الهجناه

---

* اي اتحاد الصهيونيين التصحيحيين أو الحزب التصحيحي .

الذي يبدو وكأنه يميل الى « الاعتدال » ، بالنسبة لموقف التصحيحيين ، لم يتأت عن الايمان بفلسفة « سلامية » بالمفهوم العلمي لهذا الاصطلاح ، بل نجم عن وعي قادة الحركة العمالية لمعادلة القوى والاعتبارات السياسية ، وعن واقع البون في الطرح لتحقيق المشروع الصهيوني بين التيارين ، بحيث تغدو معهما الهجناه ، في موقفها ، وكأنها اقرب الى المسالمة منها الى العدوان . وهنالك دلائل عملية كثيرة وبعضها نظري تشير الى التناقض الصارخ بين الواقع وهذا الادعاء . والحقيقة ان الهجناه لم تصل في تثقيف افرادها ، على صعيد كراهية العدو والانتقام والقتل وسفك الدماء ، الى المدى الذي وصلت إليه الحركة التصحيحية . بيد ان ذلك لا يعني عدم وجود ثقافة او ميول كهذه . ففي صحيفة عل همشمار (١٩٢٧) الناطقة باسم الهجناه نجد مقالا ينضح بالروح العدوانية اللاانسانية ، فقد جاء فيه « في الوقت الذي تتعرض فيه بيوت اسرائيل للنهب ، يروي دم العبري ارض وطننا . علينا ان ننسى اية مشاعر انسانية ، ويجب علينا اطلاق النار بهدف القتل ، وليس بهدف الترويع . يجب ان نذبح ونبيد دونما رحمة او احاسيس انسانية . نعم ، بدون احاسيس انسانية . حينذاك نكون نحن رجال الهجناه جنوداً ، ويجب ألّا نتفلسف . مقابل رأس كل عبري مئة من الرؤوس العربية ، حتى ولو كانت هذه رؤس عرب لم يشتركوا في اعمال الشغب . بهذه الطريقة فقط ، يمكن لنا ان نبرهن للمشاغبين كم هو عزيز الدم العبري » (٤٦) .

واذا اخذنا بعين الاعتبار ان احدى المهام المنوطة بالهجناه ، خلال العشرينات ، كانت « محاربة الاتجاهات السلامية »،(٤٧) لبعض التيارات في اليشوف اليهودي مثل « بريت شالوم » ، ندرك حقيقة الروح « السلامية » لمنظمة الهجناه ، التي شكلت نقطة خلاف اساسية مع الحركة التصحيحية .

الانشقاق « اليساري » الفاشل

اعتمدت الهجناه في تشكيلها ، ان على صعيد القيادة أو على صعيد الافراد ، على مجموعتين اساسيتين هما : (١) منظمة هشومير (٢) الكتائب العبرية . وكان من نتيجة اختلاف مشارب واهواء كل منهما ، فضلا عن التشرذم القائم في كل مجموعة ، ان برزت ، مع مرور الزمن ، مدرستان متعارضتان داخل الهجناه ، دعت الاول الى اكساب العناصر وعياً صهيونياً اكثر يسارية مع التشديد على اختيار العناصر لجهة البذل والمعرفة المهنية ، وانتخاب القيادة من بين صفوفها ، مع التمتع باكبر قدر من الاستقلالية عن نقابة العمال العامة (الهستدروت) . وتمحور حول هذه المدرسة رجال منظمة هشومير بزعامة يسرائيل شوحط . والثانية دعت الى توسيع اطار الهجناه، واضفاء الطابع الشعبي على المنظمة، واكسابها القيم الصهيونية المستمدة من الحركة العمالية ، مع خضوعها وانصياعها لسلطة الهستدروت ، واستقطبت هذه المدرسة عناصر الكتائب العبرية المنحلّة بزعامة الياهو جولب . ومع اتساع شقة الخلافات بين وجهات نظر الفريقين ، عقدت جلسة مشتركة في حزيران ١٩٢١ ضمت مندوبين عن « لجنة الهجناه » واللجنة التنفيذية للهستدروت ، تمخضت عن انتصار وجهة نظر فريق الياهو جولب ورفاقه (٤٨) . ولم يثر هذا الانتصار دهشة احد ، خصوصا ، وان الفريق الآخر كان يدعو الى الحد من تبعية الهجناه للهستدروت واحدوت هعفوداه ، في وقت كانت فيه المنظمة في امس الحاجة لرعايتهما ، وسط تحفظ او معارضة التكتلات السياسية الاخرى لقيامها . غير

ان عناصر منظمة هشومير لم تيأس واستمرت في نشاطها الرامي الى تسيير الهجناه وفق منظورها ، وساعدتها في ذلك قوة الروابط الشخصية والاجتماعية بين افرادها التي استمرت ، حتى عقب حل المنظمة ، فضلا عن الانسجام الفكري والايديولوجي فيما بينهم ، وعدم تمكنهم من الاندماج بشكل جيد في المنظمة الجديدة الخاضعة لخط سياسي عام يتعارض ، في بعض اجزائه ، مع افكارهم المستمدة من مبادىء « بارجيورا » .

وقد اخذت عناصر هشومير تجنح اكثر فاكثر نحو الانغلاق على الذات ، والتمحور حول زعامة يسرائيل شوحط ، لتجد الهجناه نفسها ، بعد مضي مدة بسيطة على تأسيسها ، تضم في جوفها تنظيما سرياً آخذاً بالتبلور . وفي عام ١٩٢٢ ، وصلت العلاقات بين فريقي الهجناه الى درجة لم يعد معها التعايش بينهما ممكناً ، فأقدم فريق شوحط على الانسحاب من الهجناه دون قطع العلاقات معها (٤٩) . وكان لهذا الانشقاق آثار على تطور الهجناه ، من بينها ابعاد بعض القادة الذين كان لهم ضلع في الصراع مع مجموعة هشومير وعلى رأسهم الياهو جولب ، الذي لم يعد اليها الا عند اندلاع الثورة الفلسطينية عام ١٩٢٩ ، في محاولة من حزب احدوت هعفوداه استيعاب الخلاف بين الفريقين واعادة جماعة هشومير الى المنظمة الام . ولم يكن هذا سهلاً ، ذلك ان الصراع يدور ، في جوهره ، وبشكل خفي ، بين حزب احدوت هعفوداه وبين منظمة هشومير المنحلة التي وجدت ، في انتصارها على الحزب في معركة المنافسة حول « كتيبة العمل » ، ما يؤهلها للاستمرار في الصمود في وجه احدوت هعفوداه ومنافستها . وكانت « كتيبة العمل » قد أسست عشية مصرع يوسف ترومبلدور ، وبموته افتقرت الى قائد تتمحور حوله ، الأمر الذي جعلها موضع صراع خفي بين زعماء التيارات العمالية ، منذ اليوم الاول لولادتها ؛ ولم يلبث هذا الصراع ان اصبح علنياً بين احدوت هعفوداه وبين هشومير ، تمكنت فيه الاخيرة من بسط نفوذها على معظم افرادها ، وساعدها في ذلك اعتناق اكثرية اعضاء الكتيبة ، على الصعيد الايديولوجي ، الاشتراكية الصهيونية وفق فهم منظمة هشومير لها . ولم يتأت عن المساعي الحثيثة التي قام بها حزب احدوت هعفوداه والهجناه لاعادة جماعة شوحط الى الحظيرة شيء يذكر .

ثم كان لتطور المجموعة والخلافات التي عصفت بافرادها الدور الاساسي في وضع حد للانشقاق والعودة الى حظيرة الهجناه .. في اعقاب الانسحاب ، اطلقت المجموعة المنشقة على نفسها اسم « هكيبوتس » (الكيبوتس) وفي بعض الاحيان اسم « هشومير » . غير ان خصومها لم يعترفوا بهذا الاسم او ذاك بل اطلقوا عليها كنية « عصابة شوحط » .(٥٠) بسبب التفاف اعضائها حول زعامة يسرائيل شوحط ، الرئيس السابق لمنظمة هشومير .

اعتبر « الكيبوتس » نفسه ، الى جانب كونه منظمة عسكرية سرية ، مؤسسة سياسية تهتدي بهدي الاشتراكية الصهيونية والصراع الطبقيّ ، خلافا للهجناه التي كانت تحتضن الشرائح المختلفة من اليشوف وتخضع لمؤسسات تابعة للحركة الصهيونية . ومع ذلك لم يعتبر نفسه نقيضاً بل مكملاً لها ، وسعى لامتلاك الاسلحة وتخزينها والتصدي للعرب الفلسطينيين ؛ ففي ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣ قام احد عناصر التنظيم، يرحمائيل لوكتشر، باغتيال «فوزي بك »قائد شرطة يافا، بموافقة « يوسف هخت » قائد منظمة الهجناه (٥١) . وتعتبر هذه العملية الاولى والاخيرة التي نفذها التنظيم في فترة قيامه . كما نشط في مجال التدريب والهجرة

متخذا من مستوطنة جلعادي قاعدة لنشاطاته المختلفة .

لم يغب عن بال المسؤولين عن « الكيبوتس » اهمية اقامة علاقات مع الدول الاجنبية ، فاتصلوا بعدد من الدول الاوروبية والاتحاد السوفياتي بالذات . ففي تلك الفترة اخذ يبرز في « الكيبوتس » ، لكونه يشكل حالة « يسارية » (ومن المفهوم الصهيوني) بالنسبة للهجناه ، اتجاه يساري يمثله كل من لوكتشر وشوحط ، راهن على تمتين العلاقة مع الاتحاد السوفياتي وتسخيرها لخدمة المشروع الصهيوني . بيد ان ذلك كان من بين العوامل الرئيسية التي عجلت في تقصير امد حياة « الكيبوتس » . فإضافة الى رفض معظم اعضاء التنظيم لهذا التوجه وتحفظ البعض تجاهه، انقسم اصحابه، على انفسهم، الى فريقين، دعي الاول بـ «اليمين» وقاده شوحط ، اراد من العلاقة مع السوفييت خدمة المشروع الصهيوني ، والثاني تزعمه لوكتشر ودعي بـ « اليسار » ، وهو لا يختلف عن الاول في الهدف ، غير انه كان يعتبر نفسه اقرب الى الاتحاد السوفياتي واستيعاب الفكرة الشيوعية . وما لبث الصراع بين الفريقين ان وصل الى اشده ، خصوصاً ، بعد ان سافر لوكتشر الى الاتحاد السوفياتي واجتمع مع عدد من المسؤولين هناك ، وعاد الى فلسطين ليعلن عن كفره ، مع عدد من زملائه ، بالمشروع الصهيوني واعتناقه الفكرة الشيوعية وانضمامه الى الحزب الشيوعي الفلسطيني (٥٢) .

نتيجة لاحتدام الصراع ، عقب الانقلاب الفكري لدى مجموعة لوكتشر ، انشق « الكيبوتس » و« كتيبة العمل » على نفسيهما ، واخذ الانشقاق مظهره الرسمي في السابع عشر من كانون الاول / (ديسمبر) ١٩٢٦، حيث انضوى حوالى ٣٠٠ عنصر تحت لواء الجناح « اليميني » ما لبثوا ان انضموا بعد مدة الى « هكيبوتس هموحاد » ومن ثم الى الهجناه ، بينما انضوى تحت لواء الجناح « اليساري » قرابة مئتي عنصر . تفرق معظمهم بعد مدة ، وعاد قسم منهم الى الاتحاد السوفياتي للاسهام في اقامة كومونة في شبه جزيرة القرم (٥٣) .

وهكذا لفظ الكيبوتس انفاسه الاخيرة بفضل الخلافات الفكرية التي عصفت به ، ولم يقيض له البقاء للاستمرار في منافسة الهجناه . ومع ذلك يمكن القول ان منظمة « الكيبوتس » ، او « هشومير » ، شكلت في العشرينات اول محاولة انشقاقية داخل الهجناه عن طريق « النافذة اليسارية » ، ومهدت الطريق امام محاولة انشقاقية اخرى اخطر بكثير في الثلاثينات من « النافذة اليمينية » .

الانشقاق « اليميني » و« الهجناه ب »

ربيع عام ١٩٣١ انشق رئيس فرع منظمة الهجناه في القدس المدعو « ابراهام تهومي » (اسمه الحركي جدعون) عن المنظمة ، واقام منظمة جديدة عرفت باسماء عديدة من بينها : « الهجناه الموازية » و« المنظمة العسكرية القومية » والهجناه اليمينية « غير ان الاسم ، الاكثر شيوعاً ، الذي الصق بها هو : « الهجناه ب » او « المنظمة ب » .

وقبل التطرق الى اسباب ظاهرة الانشقاق « اليمينية » ، هذه ، يجدر بنا الوقوف على العوامل المساعدة لبروزها ، ومن اهم هذه العوامل :

١ ـ الانتفاضة الفلسطينية عام ١٩٢٩ : لقد اظهر النهوض الوطني للشعب الفلسطيني ، الذي تبلور في ثورة ١٩٢٩ واحداثها ، وما تأتى عن ذلك من اشتباكات بين الثوار الفلسطينيين والمستوطنين اليهود ، عوامل ضعف في جهاز الهجناه ، وافتقار فروعها ووحداتها الى تنظيم قوي متماسك وضباط مهنيين ، كما اظهر مدى النقص في الاسلحة والاعتدة العسكرية . ولم تدفع المستوطنات او التجمعات اليهودية النائية ، مثل التجمع اليهودي في الخليل وفي صفد ثمن ذلك وحدها ، بل دفعته ايضاً بعض المستوطنات القريبة من التجمع اليهودي في فلسطين مثل مستوطنة « مشمار هعيمل » التي اضطر مستوطنوها الى تركها بعد سقوطها بأيدي الثوار الفلسطينيين ، ومستوطنة « خولدا » التي سقطت ، هي الاخرى ، نتيجة هجوم عنيف كان من الشدة لدرجة أن هجرها مستوطنوها بالرغم من وصول قوات بريطانية اليها(٥٤) .

٢ ـ تصاعد نفوذ الحركة التصحيحية : في اواخر العشرينات وبداية الثلاثينات تصاعد نفوذ ونمو الحركة التصحيحية ، وانعكس ذلك في نتائج انتخابات الكونغرس الصهيوني السابع عشر الذي انعقد في براغ عام ١٩٣٠ ، فقد حظي التصحيحيون بـ ٥٢ مقعداً (٢١٪ من مقاعد الكونغرس) مقابل ٢١ مقعداً في الكونغرس السادس عشر عام ١٩٢٩ . كما وانعكس ايضاً في نتائج انتخابات « اسيفات هنفحريم » (جمعية المنتخبين) لليشوف اليهودي في فلسطين ، حيث نالت القائمة « التصحيحية » ١٦ مقعداً من مجموع ٧١ مقعداً(٥٥) ، واحتلت بذلك المكانية الثانية في اليشوف اليهودي .

٣ ـ تردي العلاقة بين الهستدروت وقائد الهجناه : سبق قيام حركة تهومي الانشقاقية ، وغذاها ، واقع تفرّد قائد الهجناه يوسف هخث بالقيادة ، ومحاولاته تقليص سيطرة ونفوذ اللجنة التنفيذية ، التابعة للهستدروت ، على المنظمة التي يقودها . وكان هخث ، مدعوماً بمجموعة قيادية ملتفة حوله ، قد قطع شوطاً بعيداً في تفرده بالقيادة ، اثر تفاقم الخلاف بين جناحي جولب وشوحط ، لدرجة لم تكن معها الهستدروت قادرة ، بعد ان اخذت تعيد النظر في علاقاتها مع الهجناه اثر الانتفاضة الفلسطينية في العام ١٩٢٩ ، على فرض سيطرتها المطلقة على المنظمة بسهولة . ومما زاد الطين بلة اندلاع جدل طويل وعقيم بين قائد الهجناه وقيادة الهستدروت حول موضوع العلاقة بينهما استغرق حوالى عامين(٥٦) ، زد على ذلك ، كشف « تجاوزات » لقائد الهجناه من بينها امور من الصعب ان تخطر على بال احد كالذي حدث لاحد الشبان اليهود عند اعتقال الهجناه له ، عام ١٩٣١ ، بتهمة تسليم معلومات للمخابرات البريطانية حول ما يدور في المنظمة . فقد قدّمه هخث الى المحاكمة ، وبعد ان اعترف ، صدر الحكم عليه باعدام نفسه بنفسه عن طريق الانتحار ، وتعهد المتهم بذلك ، ونفذ بالفعل تعهده ، وانتحر(٥٧) .

نتيجة هذه « التجاوزات » ، اضافة الى خلافاته مع قيادة الهستدروت ، قُدّم قائد الهجناه يوسف هخث امام محكمة هستدروتية ، كان من بين اعضائها الياهو جولب ، حكمت عليه بالابعاد عن منظمة الهجناه لمدة عام ، ولكنه خرج من المنظمة دون ان يعود اليها ثانية . كما ابعد معه عدد من زملائه وعناصر مؤيدة للهستدروت(٥٨) . في محاولة من قادة الحركة العمالية ارضاء الفريقين ، الامر الذي حط من مكانة الهجناه في نظر اليشوف وسهل على فريق تهومي اعلان الانشقاق .

ولم تكن العوامل ، آنفة الذكر ، وعلى الرغم من كونها رئيسية ، سوى مجرد عوامل مساعدة ، لم يكن بوسعها احداث الانشقاق لولا توفر اسباب أخرى عند تهومي وفريقه ، دفعتهم للانشقاق .

تعود هذه الاسباب الى جنوح تهومي ، اكثر فاكثر ، نحو عسكرة الهجناه وتجييشها ، ومنحها مزيداً من الاستقلالية عن الهستدروت ، واكساب عناصرها الثقافة « القومية » ، وقد دخل في جدل طويل حول هذه الموضوعات مع الفريق الموالي للهستدروت والحركة العمالية . وكان ميله نحو تجييش الهجناه الموضوع الاخطر الذي حظي بنقاشات وحوارات حادة . فقد قال ، في مجال تطرقه الى اضفاء مزيد من الصبغة العسكرية على الهجناه ، انه « بدل الانضباط الناجم عن الفهم والبذل والزمالة ، هنالك ضرورة لانضباط يعتمد ايضاً على الرتب والقوانين العسكرية »[٥٩] . وكان تهومي قد اجتمع ، عند نهاية العشرينات ، بجبوتنسكي طارحاً عليه تشكيل منظمة عسكرية جديدة الى جانب منظمة الهجناه ، بحجة ان المنظمة جيدة فقط في اعمال الدفاع المحلية ، دون الاعمال الهجومية . وان الوقت قد حان « لتأسيس منظمة عسكرية حقيقية ، مع ضباط من الدرجة الاولى ومع خطط هجومية »[٦٠] . وقد رفض جبوتنسكي عرض تهومي ، بسبب موقفه المعارض لاي تنظيم عسكري غير شرعي ، ومع ذلك فقد بقيت هذه الافكار تختمر في صدر تهومي الذي يملك تأثيراً قوياً على عناصر فرعه في القدس والبالغ عددهم قرابة الف شخص ، الى ان استقطب الى جانبه معظم افراد القيادة وعدداً كبيراً من العناصر ، الامر الذي ادخله في صراع مع مركز الهجناه والهستدروت من جهة ، ومع العناصر المخلصة للهستدروت في فرع القدس من جهة اخرى . وبذلك انقسم فرع القدس على نفسه الى قسمين : قسم تزعمه تهومي ضم اكثرية القيادة والعناصر ، وآخر بقي في ايدي « المخلصين » للهستدروت . وتبادل الطرفان التهم : ففي حين ركز الفريق الاول الحملة ضد ما اسماه بالايديولوجية « السلامية » للهستدروت ، وضد بنية الهجناه المعتمدة على الميليشيا ، وتحزب الهجناه الى الحركة العمالية بدل ان تكون منظمة عامة وللييشوف كله ، ركز الفريق الآخر ضد ما اسماه بالميول الارهابية لمجموعة تهومي ، والروح العسكرية ، ومحاولة اخضاع الهجناه للتصحيحيين ، وحرصت الحملة على انكار الادعاء القائل بان المنظمة تخص فريقاً دون آخر[٦١] .

مع تفجر الخلاف وتبادل التهم ، اخذ الفريقان يتنافسان للسيطرة على مستودعات الاسلحة[٦٢] . وعند هذا الحد من التفجر ، وجدت مجموعة القيادة التي يرئسها تهومي نفسها امام خيارين : إما دخول معركة حاسمة مع مركز الهجناه او الانسحاب من المنظمة بشكل رسمي ، ففضلت الخيار الثاني ، وارسل تهومي وزملاؤه ، في ربيع ١٩٣١ ، مذكرة « استقالة » الى ادارة « اللجنة القومية » يعلنون فيها « ... عن قرارنا بترك العمل داخل المنظمة » موضحين انهم اتخذوا هذه الخطوة بعد ان تيقن لهم « .... عدم توفر اية امكانية للعمل داخل المنظمة ، وليس بوسعنا تحمل مسؤولية اعمال ادارة المنظمة » مع امتداحهم لفكرة المنظمة والاخلاص لها[٦٣] !

عقب استقالة تهومي وزملائه من العمل في الهجناه ، اقام مع مجموعة قيادته منظمة « الهجناه ب » من عناصر فرع القدس المؤيدة له . وقد اصيب تهومي ، بعد فترة قصيرة من

استقالته التي تحولت بسرعة الى عملية انشقاق ، باول خيبة أمل ناجمة عن ضآلة عدد العناصر التي التحقت به ، اذ لم يتجاوز عدد الذين انضموا اليه مئة عنصر ، ما لبث البعض منهم ان انسحب بحكم انتمائه لحزب مباي ، في الوقت الذي كان يقف فيه الى جانبه اثناء صراعه مع مركز الهجناه المئات من عناصر فرع القدس(٦٤). ومما زاد خطورة خيبة امله المشكلة المالية التي واجهت المسؤولين عن التنظيم الوليد ، خصوصاً ، أن معظمهم من ابناء الشريحة العمالية . كما ان زعيمهم كان مقاول بناء ، فكانوا لا يملكون شيئاً يقدمونه لمنظمتهم .

الا ان خيبة الامل الكبرى نجمت عن غياب اي دعم جماهيري لحركته . فقد راهن تهومي على تلقي المساعدة والدعم من الأوساط « المدنية » * ، لكنه لم يجد عند هذه الاوساط سوى النصائح (٦٥) . ويعود السبب في تخليها عنه لتطور العلاقة بينها وبين الحركة العمالية ، وتوصل الطرفين الى اتفاق حول مبدأ « المناصفة » في ادارة الهجناه وتوجيهها. ففي اعقاب انشقاق تهومي ، وكنتيجة له ، ولاحتدام المعركة داخل اليشوف اليهودي بين اليمين واليسار ، وضغوطات الاوساط « المدنية » غير التابعة للهستدروت ، اقدمت اللجنة التنفيذية للهستدروت على اتخاذ خطوة يتم بموجبها اشراك الوكالة اليهودية « واللجنة القومية » في الاشراف على منظمة الهجناه ، وكذلك اشراك الاوساط المدنية « مناصفة » مع الهستدروت في قيادة الهجناه. وبناء على ذلك تم في صيف ذلك العام تشكيل قيادة من ستة افراد ، ثلاثة عن الهستدروت ، هم : الياهو جولب ودوف هوز ومئير روتنبرغ ، وثلاثة عن الاوساط « المدنية » هم : دوف جيفن ويسسخار سيكثوف ، سعاديا شوشاني(٦٦) .

ومن الجدير بالملاحظة ، ان انشقاق تهومي وجماعته عن الهجناه كان له دور كبير في توصل الطرفين الى هذا الاتفاق . اذ استغل « المدنيون » في صراعهم مع الحركة العمالية ، حول النفوذ على منظمة الهجناه ، « المنظمة ب » المنشقة عنها ، كورقة ضغط للحصول على مزيد من المكاسب(٦٧) ، في الوقت الذي شكلت فيه المنظمة المنشقة ضوءاً احمر » بالنسبة للحركة العمالية ، دفعها لتسريع تحقيق مبدأ « المناصفة » واضفاء صفة الشمولية على الهجناه ، في محاولة منها لعدم اعطاء تبرير لظهور منظمة اخرى ، وتوفير امكانية استيعاب افراد التنظيمات ، في حال وجودها ، باعتبارها منظمة لمجموع اليشوف .

وهكذا وجد تهومي نفسه ، نتيجة استخدام الاطراف لحركته كساحة مناورات في صراعاتها ، صفر اليدين . وفي الواقع ، شكلت « الهجناه ب » ، منذ تأسيسها وحتى ايامها الاخيرة ، بالنسبة للاطراف المختلفة ، ساحة مناورات ، للتيارات الرئيسية المتصارعة داخل اليشوف اليهودي ، حيث درج كل طرف على استخدامها لاغراضه الخاصة ، ولم يكن هذا الواقع لغير صالح تهومي دائما ، فقد ادرك مع مرور الوقت عناصر اللعبة وتباين مرامي كل منها ، وعرف كيف يستخدم ذلك لمصلحته واطالة حياة منظمته . بعد خذلان « المدنيين » له ، توجه تهومي ، في صيف ١٩٣١ ، الى بازل لحضور المؤتمر الصهيوني السابع عشر ، ليجرب حظه عند قادة الصهيونيين العامين في الخارج ، ولكنه اخفق في مهمته ، فالصهيونيون العامون

* الصهيونيون العامون والمزراحي والشرائح البرجوازية .

لم يعيروه انتباها وذلك لتوصلهم مع الهجناه الى اتفاق « المناصفة » في القيادة ، كما ان جبوتنسكي*لم يبد هو الاخر حماسا لخطط تهومي ، ولم يقدم له أي عون(٦٨) .

بيد ان ذلك لم يثن تهومي عن الاستمرار في جهوده للابقاء على منظمته على قيد الحياة ، فقد اخذ عند عودته الى فلسطين ينشط داخل اليشوف اليهودي لتجنيد الاعضاء ، وخاصة بين اوساط الشرائح اليمينية والدينية وبين صفوف طلبة الجامعات . وتمكن من تجنيد اعداد من بين صفوف حركة بيطار وعدد آخر من الطلبة ، من بينهم طالبان جامعيان ، دافيد رزائيل وابراهام شتيرن ، لعبا فيما بعد دورا بارزاً في تطور التنظيمات الصهيونية العسكرية . وبدخول عناصر بيطار الى المنظمة الجديدة ، لم ينتشل تهومي منظمته من الموت السريع فحسب ، بل اخذ ينافس منظمة الهجناه في استقطاب اعضاء بيطار ، وسحب العديد منهم من المنظمة(٦٩) . فبعد مضي اقل من عام اقام تهومي فرعاً لمنظمة « الهجناه ب » في تل - ابيب ، تلته فروع اخرى في حيفا وصفد وفي عدد من التجمعات اليهودية ، مع قيادة قطرية ، ووجد نفسه حينذاك يقود تنظيماً قطرياً منافساً للهجناه يضم حوالى ٣٠٠ عنصر . وحرص التنظيم ، بعد تثبيت اقدامه ، على اصدار جريدة داخلية تحمل اسم « همتساده » لتثقيف الافراد بالروح الجديدة التي لم يتمكن من بثها بين صفوف المنظمة الام ، وكان من بين كتّابها ابراهام شتيرن الذي شغل ايضاً منصب سكرتير قائد « الهجناه ب »(٧٠) .

مع وقوف التنظيم على قدميه ، وقبل ان يصبح ذا وزن كبير ، جرت في ربيع عام ١٩٣٣ اولى مفاوضات جادة للوحدة بين المنظمتين العسكريتين وسط حماس الاطراف المختلفة ومعارضة فئات منها ، لها . ويعود سبب الحماس إلى المرامي المختلفة لكل فريق ، فقد اعتقدت التيارات والتكتلات الواقفة وراء « الهجناه ب » والتي اعتبرتها كورقة ضغط في صراعها مع الحركة العمالية ، ان المنظمة قد اصبحت من القوة لدرجة يمكنها معها تعزيز مراكزها ونفوذها في منظمة الهجناه في حال التفاوض حول الوحدة ، بينما ارادت قيادة الهجناه ومن ورائها الهستدروت والوكالة اليهودية ، من المفاوضات ، اعادة وحدة المنظمة قبل استفحال خطر« المنظمة ب ». ومما شجع الطرفان على التفاوض ، قيام اللورد البريطاني « ملشت » ، خلال زيارته لفلسطين ، بطرح فكرة التفاوض وبذله الجهود في هذا المجال . فقد مهد لمفاوضات الوحدة بسلسلة من الاجتماعات بين قادة المنظمتين ، والتكتلات السياسية الواقفة وراءهما . ولم يجد تهومي وجولب عناء كبيراً في مفاوضاتهما ، اذ توصلا بسرعة الى اتفاق الوحدة الذي عرف بـ « اتفاق ملشت » بفضل جهود اللورد البريطاني الصهيوني الذكي ، واستعداده لدعم المنظمة الموحدة حالياً ، والترويج لها في بريطانيا(٧١) .

وعلى الرغم من جهد اللورد ، وتوفر عوامل كثيرة للوحدة ، لم يكتب للاتفاق العيش طويلا، فقد تعثر، في بداية الامر، بسبب رفض قيادة الهجناه عودة تهومي الى المراكز القيادية، ومع ان هذه الفترة ازيلت ، بعد مدة بسيطة ، بتراجع القيادة عن موقفها ، فقد اثيرت قضية اخرى حول شغل المراكز القيادية ، وعلى الرغم من ايجاد حل لها ، وموافقة رؤساء الفروع على

---

* كانت سلطات الانتداب قد نفته من فلسطين عام ١٩٢٩ ، وحظرت عليه دخولها ، ولم يدخلها حتى وفاته في عام ١٩٤٠ .

الاتفاق باكثرية الاصوات ، وتأهب عناصر الطرفين للتصدي للعب في موسم النبي موسى ، ظهرت ، بعد مدة ، عثرة جديدة ، تمثلت في اشتباك جرى بين منظمة بيطار وعناصر مؤيدة للهستدروت ، اثناء قيام شبيبة بيطار بمسيرة في شارع تل-ابيب الرئيسي ، اسفر عن اصابة ٢٤ من شبيبة بيطار بجراح .(٧٢) وكشف الاشتباك عن مدى تردي العلاقات بين الحركة التصحيحية والحركة العمالية وتنامي روح الكراهية بينهما .

وقد حاولت الهستدروت استيعاب غضب وسخط الحركة التصحيحية ، باعلانها عن الأسف للحادث ، بيد انه لم يكن بوسع هذه المحاولة محو آثار ما اعتبرته الحركة التصحيحية« المذبحة الحمراء » (٧٣) . وبذلك تحطم « اتفاق ملشت » على صخرة العداء والكراهية . وتردي العلاقات ، بين الحركتين العمالية والتصحيحية .

وإن كانت « المذبحة الحمراء » قد ابقت على حياة « المنظمة ب » لفترة ، فقد كان لحادثة اخرى اخطر منها بكثير ، وهي حادثة اغتيال ارلوزوروف ، الفضل في بلورة نموها .

اغتيال ارلوزوروف

في السادس من حزيران ١٩٣٣ . وبينما كان حاييم ارلوزوروف ، رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ، واحد الوجوه البارزة في حزب مباي ، يتنزه مع امرأته على شاطيء البحر في تل-ابيب ، تقدم نحوهما شخصان ، سأل احدهما عن الوقت واستل الثاني مسدسه واطلق النار نحو الـوزوروف فارداه قتيلاً ، ثم لاذ الاثنان بالفرار .

اعتقلت سلطات الانتداب ثلاثة اشخاص هم ابراهام ستفسكي وتسفي روزنفلت والدكتور ابا اصيمئير ، ووجهت اليهم تهمة الاغتيال .

ومن الجدير بالذكر ان الثلاثة ينتمون الى منظمة « بريت هبريونيم » (عصبة الاشداء) التي تأسست في صيف ١٩٣٢(٧٤) نتيجة تبلور مجموعة « الحد الاقصى » داخل الحركة التصحيحية بزعامة الدكتور ابا اصيمئير من مواليد روسيا ، والشاعر اوري تسفي جرينبيرج ، والكاتب ي . يفين وعدد آخر من المثقفين . ونشطت هذه الجماعة في استقطاب العناصر الاكثر تطرفا في الحركة التصحيحية ، واقامة خلايا لها في اماكن متعددة من فلسطين . وكانت تدعو صراحة الى اقامة دولة اليهود والتصدي ، بالحديد والنار ، لمن يقف في وجه هذا الهدف . وكان اهم نشاطاتها أن تصدت لمنع الاحصاء السكاني العام في فلسطين عام ١٩٣١ خشية ظهور اليهود كاقلية في فلسطين ، كما نشطت في تهريب اليهود والاسلحة الى فلسطين ، من خلال تنمية علاقات طيبة مع مهربي المخدرات في دمشق « توصلنا معهم الى اتفاق . ساعدناهم بنقل الحشيش حتى الحدود المصرية ، ومقابل ذلك ، ساعدونا في تهريب أناس واسلحة عن طريق الحدود السورية » (٧٥) .

وعلى الصعيد الداخلي خاضت « عصبة الاشداء » حرباً شرسة ضد الهستدروت وتوجهاتها « اليسارية » في الوقت الذي اعتبرتها الحركة العمالية بمثابة عصبة « فاشية » متطرفة .

تعرض ارلوزوروف ، قبل اغتياله ، لحملة شعواء على صفحات جريدة « حزيت هعام »

(جبهة الشعب) ، الناطقة باسم « عصبة الاشداء » .[٧٦] وقد توجهت اصابع الاتهام ، عقب الاغتيال ضد العصبة ، والقت سلطات الانتداب ، كما ذكرنا ، القبض على ثلاثة من افرادها ، اخضعتهم الى تحقيقات ومحاكمات استمرت سنة كاملة ، برأت خلالها المحكمة ساحة ابا اصيمئير ، رئيس عصبة الاشداء ، من تهمة تدبير العملية وافرجت عنه ، وبعد ذلك افرجت عن آخر لعدم توفر الادلة القاطعة وعدم توفر شهود عيان آخرين الى جانب امرأة ارلوزوروف التي تعرفت على ستفسكي وروزنفلت واتهمتها بقتل زوجها[٧٧] .

ومع تبرئة ساحة هؤلاء المتهمين ، بقيت قضية اغتيال الدكتور ارلوزوروف بمثابة « لغز » لم يحل بشكل نهائي حتى الآن . بيد ان الاهم من ذلك ، تبعات عملية الاغتيال على ليشوف اليهودي والقوى المتصارعة داخله . فقد اتهمت الحركة العمالية الحركة التصحيحية بالوقوف وراء الاغتيال ، وردت الاخيرة التهمة ، باتهامها الحركة العمالية باستغلال العملية وابتداع « فرية دم » لاحراز مكاسب حزبية .

ومن الجدير بالذكر ان الحركة التصحيحية حاولت ، في بداية الامر ، بغرض ابعاد الشبهة عن انصارها . وبشكل متسرع ، الصاق التهمة بـ « الشيوعيين » ، حينما اشاعت ان المتهم ستفسكي شيوعي مدسوس بين صفوف الحركة[٧٨] ، ثم ما لبثت ان تراجعت ودافعت عنه ، لتلقفها بعد مدة « اكتشافا » آخر ، القته في وجه الحركة العمالية . ففي اثناء وجود المتهم ستفسكي في السجن بتهمة ارتكابه جريمة قتل لا علاقة لها باغتيال ارلوزوروف . وقد اعترف المتهم العربي امام المحققين بمسؤولية اغتيال رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية الا انه عاد وانكر ان تكون له اي علاقة بالموضوع ، وارجع سبب ادعائه القتل الى قيام ستفسكي بعرض مبلغ مالي عليه ، اثناء لقائهما في السجن ، مقابل نسب التهمة اليه [٧٩] . ولم يعر المحققون الموضوع اهتماماً ، وكفوا عن التحقيق مع الشخص العربي ، غير ان اوساط الحركة التصحيحية لم تلق مسؤولية الاغتيال على « العربي » فقط ، بل اعتبرت القضية برمتها مؤامرة دبرتها الهجناه مع سلطات الانتداب لتشويه سمعتها ، بينما رأت الحركة العمالية ، في الاغتيال ، دخول الحركة التصحيحية طوراً جديداً من الارهاب موجه ضدها . وانقسم اليشوف اليهودي ، في فلسطين بين وجهتي النظر ، ودارت نقاشات ساخنة حول الموضوع عكست الانقسام العميق بين صفوف اليهود ، ليس في فلسطين وحدها ، وانما في اوساط الجاليات اليهودية في العالم .

ومما يلفت النظر ، الصراع الدائر بين كتب التاريخ الصهيونية عند تطرقها الى القضية وملابساتها . فقد صدرت ، حتى الآن ، كتب عديدة حول الموضوع ، يُحمّل قسم منها ، ولا سيما الصادر عن الحركة العمالية او المتعاطفين معها ، الحركة التصحيحية مسؤولية الاغتيال ، بينما يبرىء القسم الآخر ، ولا سيما الصادر عن الحركة التصحيحية وانصارها ، المتهمين الثمانية ، ويلقيها على كاهل العرب !

لم تكن حادثة اغتيال ارلو زوروف اول حادثة اغتيال من نوعها في اليشوف اليهودي في فلسطين ، فقد سبقتها حادثة شبيهة من حيث غرضها ، وبقيت « لغزاً » لمدة طويلة ، حاولت خلالها الاوساط الصهيونية توجيه اصابع الاتهام ضد العرب ، الى ان اميط اللثام عنها في كتب

التاريخ . ففي ١٩٢٤/٦/٣٠ ، اطلق احد اعضاء منظمة الهجناه النار على الدكتور يسرائيل يعقوب دهان اثناء خروجه من كنيس يهودي في القدس وارداه قتيلاً ، بناء على تعليمات صادرة عن مركز الهجناه بتصفية « الخائن » . وتتمثل « خيانة » دهان وهو شاعر وصحفي مرموق ، من زعماء التيار الديني في اليشوف ومن مواليد هولندا ، بمحاولته اقامة جبهة يهودية عربية ضد المشروع الصهيوني في فلسطين ، اعتقاداً منه بالضرر الذي تجلبه الصهيونية على اليهود انفسهم(٨٠) .

وتأتى ، عن مقتل ارلو زوروف ، تسميم العلاقة بين التيارين الاساسيين في اليشوف اليهودي ، وليس من المبالغة في شيء ، اذا قلنا ان هذا الموضوع كان من بين العوامل الرئيسية ، التي ظلت كامنة في النفوس ، طوال اكثر من عقد من الزمن ، والتي أوصلت العلاقات الى حالة الكراهية والعداء . ففي اعقاب العملية ، جرت بين الحين والآخر ، اعتداءات ضد عناصر ومناصري الحركة التصحيحية في اماكن عدة من التجمعات اليهودية داخل فلسطين وخارجها على يد انصار الحركة العمالية . وابدى رئيس الحركة التصحيحية زئيف جبوتنسكي اهتماماً بها ، وكتب مقالات عدة حولها ، طلب في احداها من انصاره عدم الرد عليها ، وابقاء اسلوب العنف « حكراً » على الحركة العمالية ، او كما قال مخاطباً انصاره : « من مصلحتنا ابقاء عادة ضرب اليهود الآخرين حكراً على المعسكر الاحمر ـ هذا هو الاحتكار الذي يمكن لنا ابقاؤه بنفس مطمئنة بيد الهستدروت . اما سائر احتكاراتهم فاننا سنأخذها منهم . وقبل كل شيء احتكار العمل في ارض اسرائيل ، وسنجعل من احتكاراتهم للقبضة ، ملكاً وحيداً لهم »(٨١) . وفي مقال آخر نشره بعد حوالى عام على مقتل ارلوزوروف ، شن جبوتنسكي حملة ضد الاقتتال بين اليهود ، معتبراً اياه منافياً للحضارة ، وركز على امكانية التعايش بين الآراء المختلفة ، ليؤكد جواز تبادل التهم وحتى التشنيعات بين المتخاصمين ، وليحظر ، حسب اعتقاده ، القيام بعمل واحد وحيد : « لا يمكن حدوث اعمال عنف بين اليهود . ولا يجوز ضرب اليهود او هدم مبانيهم »(٨٢) .

ومن الجدير بالذكر ، ان العمال المؤيدين للحركة التصحيحية واجهوا ، منذ مطلع الثلاثينات ، مضايقات جمة على يد مكاتب العمل التابعة للهستدروت ، ففي كثير من الاحيان جرى فصل اعداد منهم ، فضلا عن تعرض البعض للاهانات والضرب من جانب العمال المنتمين لحزب مباي . ولعل في قيام الهستدروت بهدم بيت(٨٣) بناه عمال من الحركة التصحيحية ما يشير الى مدى الكراهية التي كانت تعتمل في صدور الفريقين ، والتي كانت من بين الاسباب التي دفعت جبوتنسكي ، عام ١٩٣٥ ، الى اقامة هستدروت عمالية تابعة لحزبه تحمل اسم «الهستدروت الصهيونية الجديدة » ، والخروج ، بعد ذلك ، من اطار ادارة الحركة الصهيونية العالمية ، التي لم تعد الحركة التصحيحية اليها الا عام ١٩٤٥ . وقد تصدى بن ـ غوريون كزعيم للحركة العمالية لحملات جبوتنسكي ، وشن هو الآخر حملة عنيفة ضد التيار التصحيحي ، طالباً من العمال اليهود الدفاع عن انفسهم و «ألا يقفوا امام سفك الدماء واعمال القتل ، كما نشاهد اليوم في المانيا » ، ومطلقاً على جبوتنسكي كنية « فلاديمير هتلر »(٨٤) .

كان تأثير عملية الاغتيال على تطور « المنظمة ب » ، خلال الاسابيع الاولى ، بسيطاً ، ففي تلك الفترة لم تكن عملية استقطاب العناصر للمنظمتين العسكريتين ، حادة ؛ اذ كان يوجد في كلا

المنظمتين عناصر من التيارات اليمينية والحركة التصحيحية . ولا شك بأن هذا الواقع كان من بين الاسباب التي دفعت قيادة الهجناه الى منع عناصرها من تداول القضية التي احدثت انقساماً رئيسياً في اليشوف اليهودي ، كما كان من بين الاسباب التي دفعت جبوتنسكي الى ابداء تحفظه تجاه مشروع تهومي الداعي الى تشكيل « لجنة مشرفة » على منظمته تتشكل من مجموعة احزاب الفريق اليميني . فقد اغتنم تهومي فرصة انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر في براغ ـ وقعت عملية الاغتيال اثناء انعقاد المؤتمر ـ لكسب دعم اكبر عدد من التيارات الصهيونية الى جانب « المنظمة ب » . ووجد هذه المرة آذاناً صاغية من قبل قادة الصهيونيين العامين والمزراحي ، وكذلك من الحركة التصحيحية ، حيث ابدى الجميع باستثناء جبوتنسكي حماساً لفكرته بخصوص لجنة الاشراف . وقد تراجع جبوتنسكي عن موقفه المتحفظ تحت اصرار تهومي وضغوطات الكتلة « المدنية » ، فتم لتهومي ما اراد ، حيث شكلت « اللجنة المشرفة» من زعامة مجموعة التيارات اليمينية، وضمت كلاً من جبوتنسكي والحاخام. م. برلين وي. سويرسكي ، وم . جوسمان(٨٥) . وكان لتشكيل هذه اللجنة تأثير كبير على تطور « المنظمة ب » التي اصبح يؤيدها الآن ليس قادة المعارضة التصحيحية فقط ، وانما ، ايضاً ، قادة احزاب يشتركون في الوكالة اليهودية وادارة « اللجنة القومية » مثل برلين وسويرسكي .

لا شك أن موافقة الجناح « المدني » على خطوة اقامة « اللجنة المشرفة » ، وحماسه لها ، يثيران بعض الاستغراب ، خصوصاً ، وان هذا الجناح كان قد اتفق ، قبل فترة ، مع التيار العمالي على مبدأ « المناصفة » في قيادة الهجناه وتوجيهها . ولكن يمكن لهذا الاستغراب ان يزول اذا اخذنا بالحسبان مدى سعة ساحة المناورة التي شكلتها « المنظمة ب » ؛ فقد رأى « المدنيون » ، في دعم تهومي واقامة « اللجنة المشرفة » ، ضغطاً على الهستدروت لاحراز مزيد من النفوذ داخل الهجناه في حال التفاوض لحل « المنظمة ب » . ولم يكتف هؤلاء بالمكاسب التي توصلوا اليها عن طريق مبدأ « المناصفة » ، لانهم اخذوا يعتبرون هذا المبدأ ، مع تنامي قوتهم ، بمثابة تحايل من قبل حزب مباي لاضفاء الصفة الشمولية على الهجناه ؛ اذ أنه اشترط سريان مفعول مبدأ المناصفة على المؤسسات اليشوفية فقط: الهستدروت وبلدية تل ـ ابيب واتحاد المزارعين ، وليس على الاحزاب . ولم يروا ان يوسع بلدية تل ـ ابيب واتحاد المزارعين تمثيلهم بالنجاعة نفسها التي يمثل بها الهستدروت حزب مباي(٨٦) .

وإن كانت « المنظمة ب » قد تعززت بفضل قيام «اللجنة المشرفة » التي يعود الفضل في قيامها الى رغبة تهومي في تثبيت منظمته ، والى تكتيك الجناح « المدني » ومراميه ، فإن تبعات الاغتيال ، ولا سيما اثناء محاكمة المتهمين ، كان لها الفضل الكبير ليس في تعزيز « المنظمة ب » ودعمها بعناصر جديدة على حساب منظمة الهجناه فحسب ، بل ايضاً في دفع الحركة التصحيحية ، وعلى رأسها جبوتنسكي ، الى اظهار مزيد من الاهتمام بها ، مما كان له اثر خطير على تطورها المستقبلي .

لقد نجم عن تفاعلات وملابسات قضية الاغتيال حالة فرز حادة ، لم تكن في مصلحة الهجناه على الاطلاق ، اذ اخذت عناصر « بيطار » المنضوية تحت لوائها تنسحب منها ، وتلتحق بـ « المنظمة ب » المنافسة لها . وبذلك بدأت « المنظمة ب » تشهد نمواً سريعاً استمر بالتصاعد حتى اندلاع الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ، لتجد نفسها تضم حوالى ألفي

عنصر[٨٧] ، وتواجه موضوعات سياسية ينظر اليها كل طرف من الاطراف المكونة لها من خلال منظاره الخاص ، وكان من بينها موضوع الـ « هفلجاه » .

الـ «هفلجاه» او « ضبط النفس »

الـ « هفلجاه » ، ككلمة ، هي المرادف لـ « ضبط النفس » ، وكاصطلاح سياسي ، هي المفهوم العام للسياسة التي قيدت بها الوكالة اليهودية منظمة الهجناه اثناء مواجهتها السكان العرب في فلسطين . فقد ارتأت الوكالة اليهودية ، خلال الفترة الأولى من اندلاع الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ، بناء لاعتبارات كثيرة ، ضرورة تقيد المنظمة بالدفاع فقط دون القيام بأية عمليات هجومية او انتقامية . وفي بداية تبلور الـ « هفلجاه » تمسكت الوكالة اليهودية بحرفية تعليمات الدفاع السلبي لدرجة ان النقاش كان يدور ، بين الحين والآخر ، في عدد من التجمعات اليهودية حول السؤال التالي : هل يحق لعناصر الهجناه تجاوز السياج او الموقع ، لنصب كمين امام مهاجمين محتملين ، يمكن ان يشنوا هجمة على المستوطنة ؟[٨٨]

ومع ذلك ، لم تتقيد قوات الهجناه دائماً بسياسة « الهفلجاه » ، اذ كانت تقوم ، بين الفينة والاخرى ، بالاصطدام مع الثوار الفلسطينيين خارج نطاق المستوطنات . ومع مرور الوقت ، ونمو قوة الهجناه وتعزيز عرى العلاقات مع القوات البريطانية لم تعد الهجناه تحرص على تطبيق سياسة « ضبط النفس » تجاه العرب . وقد حدث هذا التطور في اواخر الثلاثينات ، وكُرِّس ، كسياسة رسمية ، في البند الثالث من التعليمات الصادرة عن القيادة القطرية لمنظمة الهجناه في ١٩٣٩/٧/٢ الذي جاء فيه « .... من الواجب مهاجمة العصابات اثناء تحركها ومواجهتها قبل اقترابها من المستوطنات ، ويجب ، الى جانب الدفاع عن المواقع داخل المستوطنات ، مطاردة المهاجمين للقضاء عليهم وغلق طرق انسحابهم . واذا ما انسحبت العصابة اثناء مطاردتها الى قرية عربية ، يسمح للمطاردين بالعمل داخل القرية ايضاً »[٨٩] .

مع تطور اساليب المواجهة لمنظمة الهجناه ، تطور ايضاً مفهوم « الهفلجاه » . والحقيقة ان قادة الحركة العمالية الذين ابتدعوا هذا المفهوم ، وعلى رأسهم بن ـ غوريون مهندس « الهفلجاه » ، لم يتخلوا عنه عندما تجاوزوه ، ادراكاً منهم ان اصطلاح « ضبط النفس » يضفي على مواقفهم السياسية مسحة من الاعتدال ، بل ابتدعوا له معاني جديدة لا علاقة لها بالدفاع السلبي مثل « طهارة السلاح » تمييزاً لنشاط الهجناه ضد العرب عن نشاط منظمتي اتسل وليحي الذين نعتوه بـ « الارهاب » مع ان النشاطين لم يكونا مختلفين ، من حيث الجوهر ، وان اختلفا في الطرق والوسائل والتوقيت والتركيز على الاعتبارات السياسية .

اخذت الخلافات تدب وتعصف بـ « المنظمة ب » عقب تبلور « الهفلجاه » ، كمفهوم سياسي ، وتبني الهجناه له ، وساعد في ذلك عدم التناسق والتجانس ، بين عناصر المنظمة ، والاطراف الموجهة لها في « اللجنة المشرفة » . فقد استقطبت « المنظمة ب » بين صفوفها ، خلال فترة نموها ، اعداداً كبيرة من انصار الحركة التصحيحية وحركة بيطار ، وتضاعفت اعداد المؤيدين للاحزاب اليمينية والدينية بفعل زيادة انصار الحركة التصحيحية في المنظمة ، الامر الذي كان له تأثير كبير على تطور بنيتها . ففي العام الاخير لقيامها وجدت المنظمة نفسها تتشكل من قاعدة معظم عناصرها من انصار الحركة التصحيحية في الوقت الذي تتشكل فيه

معظم القيادة من الاحزاب الاخرى . وعند ظهور مفهوم « ضبط النفس » وعقب اندلاع الثورة الفلسطينية بفترة قصيرة ، اخذ الخلاف يدب في صفوف المنظمة حول الموقف من هذا المفهوم ، حيث وقفت معظم عناصر القيادة الى جانب « الهفلجاه » بينما اتخذت معظم عناصر القاعدة موقفاً مناوئاً وطالبت بكسر سياسة « ضبط النفس »(٩٠) .

لم تنج « اللجنة المشرفة » من الخلافات حول هذا الموضوع ، فقد ظهرت ، اثناء النقاشات ، مواقف مختلفة ، لا تعود الى التباين في مواقف القوى المهيمنة على اللجنة بقدر ما تعود الى الاجتهادات الشخصية المتباينة بين اعضائها ، وبذلك انقسمت اللجنة على نفسها ، وبرز في داخلها ثلاث وجهات نظر أساسية(٩١) : تدعو الاولى الى الوقوف بحزم في وجه سياسة « الهفلجاه » والتصدي لها ، للحيلولة دون تدخل سلطات الانتداب البريطانية في كثير من الشؤون الداخلية لليشوف اليهودي والظهور بمظهر « المحايد الواقف بين قوتين معتديتين » . وتطالب الثانية بتبني سياسة « الهفلجاه » باعتبارها « ..... اقوى سلاح عرفناه في حربنا السياسية .... » وتقف الثالثة ، بين بين .

نتيجةً لعدم توصُّل الاطراف المهيمنة على « المنظمة ب » الى اتفاق حول سياسة « الهفلجاه » انتهجت المنظمة الاسلوب الدارج لدى منظمة الهفلجاه » نفسه ، الا انها كهيئة غير خاضعة لسلطة الوكالة اليهودية رأت نفسها حرة في القيام ، بين الحين والآخر ، بعمليات مبادرة تتعارض وسياسة « ضبط النفس » ، ولم تكن هذه العمليات نابعة عن سياسة واضحة محددة . وقد وجدت « المنظمة ب » وزعامتها نفسها عرضة لحملة من الانتقادات بسبب عدم بتها في موضوع « الهفلجاه » . من بينها حملة جرت صيف ١٩٣٦ قادها عيري جبوتنسكي ، ابن زئيف جبوتنسكي ، عقب تعيينه رئيسا لحركة بيطار ، وصف فيها ابراهام تهومي بـ « زعيم الهفلجاه »(٩٢) ؛ وحملة اخرى تزعمها عدد كبير من اعضاء « الهستدروت الصهيونية الجديدة » في مؤتمرها المنعقد في فيينا ، اواخر عام ١٩٣٦ ، حيث هاجم عدد كبير من الحضور « المنظمة ب » وزعامتها ، متهمينها بانتهاج سياسة « ضبط النفس » ، ولم يكن هنالك من يدافع عنها سوى جبوتنسكي الأب(٩٣) .

وهكذا لم تؤدّ الهفلجاه الى اضعاف مكانة « المنظمة ب » فحسب ، وانما عكست ظلالاً ثقيلة ، ايضاً ، على العلاقة بين التنظيمات العسكرية الصهيونية وحتى على العلاقة بين عناصر التنظيم الواحد ، وكانت من بين اسباب انشقاق « المنظمة ب » .

انشقاق « المنظمة ب »

فضلاً عن الخلافات الناجمة عن تباين مواقف الاطراف المختلفة تجاه سياسة « ضبط النفس » ، كانت ، هنالك ، مجموعة من العوامل ساعدت على انشقاق « المنظمة ب » ، ومن ثم على وضع حد لحياتها في تاريخ اليشوف اليهودي ، من اهمها :

أولاً : تركيبة المنظمة ، سواء على صعيد العناصر ومجموعة القيادة أم على صعيد اللجنة المشرفة ، واختلاف أهواء ومرامي كل مجموعة من المجموعات التي تؤلفها ، الامر الذي خلق تناقضات حرص كل طرف ، بشكل او بآخر ، على كبتها ، ولكن ، ومع تزايد حدة هذه

التناقضات ، عقب انسحاب الجناح التصحيحي من الحركة الصهيونية ، ودخول اليشوف اليهودي في مرحلة جديدة من المواجهة مع العرب باندلاع الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ ، غدت الاطراف عاجزة عن كبت تناقضاتها . زد على ذلك ان البعض منها خصوصاً الكتلة « المدنية » ، واجه ظروفاً حرجة تمثلت باشتراكه في قيادة الهجناه مع الوكالة اليهودية بحكم اتفاقهما على مبدأ « المناصفة » . في الوقت الذي كان يساهم فيه بشكل فعال في قيادة « المنظمة ب » عن طريق « اللجنة المشرفة » .

ثانياً : التناقض بين مجموعة القيادة بزعامة تهومي وبين الجناح التصحيحي . وعلى الرغم من ان هذا التناقض كان قائما ، وأنّ تهومي كان قد تمكن من تخفيف حدته باتقان لعبة التوازن بين الكتلة « المدنية » الاقرب الى قلبه والداعمة له ، وبين فريق التصحيحيين ، الا أنه اخذ بالاستقلال عقب تعيين عيري جبوتنسكي عام ١٩٣٦ ، رئيساً لحركة « بيطار » في فلسطين . فقد كان جبوتنسكي الابن يشكل حالة « متطرفة » ، لتأثره بمجموعة « الحد الاقصى » في الحركة التصحيحية ، وينظر سلباً نحو تهومي ؛ وقد هاجم زعامته « للمنظمة ب » ليس بسبب مواقفه السياسية التي اعتبرها شبيهة بمواقف التيار العمالي فقط ، بل ايضاً لانه كان خارج الاطار التصحيحي(٩٤) . وقد اكتسبت حملة جبوتنسكي الابن مزيداً من الخطورة على ترويجها بين فروع حركة « بيطار » دون ملل اوكلل ، وبذلك اخذت العلاقات بين « بيطار » و« المنظمة ب » تسير من سيء الى اسوأ ، وتخلق حالة فرز بين عناصر المنظمة .

ثالثاً : التفكك والانحلال : ومما زاد الطين بلة دخول المنظمة ، بفعل تفاقم الصراعات بين اجنحتها المختلفة ، طوراً من التفكك ، كان من ابرز معالمه انتهاك العناصر للروح العسكرية الانضباطية التي يحرص عليها تهومي كثيراً والتي كانت من بين اسباب « استقالته » من منظمة الهجناه. ومما يشهد على حالة التفكك ، الحادث الذي وقع في ١٩٣٧/٣/٢٢ والمتمثل في قيام عنصرين من منظمة تهومي بالقاء قنبلة على مقهى عربي ، في قرية « يازور » العربية ، اسفر انفجارها عن اصابة اربعة اشخاص بجراح . وكان هذا الحادث الذي وقع في فترة هدوء ، حسب شهادة تهومي ، «بمثابة عمل يفتقر الى الجدوى والمسؤولية ، فهو عمل احمق غير مبرر »(٩٥) . وقد تمكن تهومي من معاقبة العنصرين الا انه وقف عاجزاً عن اتخاذ قرار ضد مرسليهم الذين اخذوا يفاخرون بالعملية جهاراً .

وسط هذه الاجواء المشحونة بالتوتر ، بين الاجنحة المختلفة ، كانت مفاوضات الوحدة بين المسؤولين عن المنظمتين العسكريتين ، تشق طريقها بقوة هذه المرة . على الرغم من مواجهتها نفس المشاكل التي برزت خلال المفاوضات حول « اتفاق ملشث » ، عام ١٩٣٣ اضافة إلى مشاكل جديدة ناجمة عن تطور المنظمتين وانعكاس الثورة الفلسطينية عليهما .

ومن الملاحظ ان كافة التيارات والقوى الواقفة وراء المنظمتين ، التقت عقب اندلاع الثورة الفلسطينية حول قاسم مشترك هو الوحدة ، بيد انها كانت تختلف ، من حيث الدافع والهدف ؛ فقد ارادت الحركة العمالية من الوحدة القضاء على « خطر » وجود منظمة ثانية بهدف تعزيز المنظمة التي تسيطر عليها ومن ثم احكام سيطرتها على اليشوف اليهودي ، بينما اندفعت الكتلة « المدنية » نحو الوحدة ، بفعل تخوفها من خطر تنامي نفوذ الحركة التصحيحية داخل « المنظمة ب » ، ورغبتها في وضع حد لوضعها « غير الطبيعي » المتمثل في مساهمتها بقيادة كلا

المنظمتين . اما مجموعة القيادة بزعامة تهومي فقد اندفعت نحو الوحدة ليس بسبب تخوفها من خطر تنامي نفوذ الحركة التصحيحية فحسب ، وانما ، ايضاً ، رغبة منها في تزويد عناصر المنظمة باسلحة افضل وتوفير اسباب التدريب العسكري لافرادها ، وكذلك بهدف احتلال مكانة مرموقة في المنظمة الموحدة .

وهنالك عامل آخر ساعد على التوجه الوحدوي للطرفين (تهومي و« المدنيين ») يتمثل في رغبتهما بتوفير فرص انضمام اعضاء « المنظمة ب » الى سلاح الحراسة « نوطروت » التابع للهجناه والمسموح به رسمياً من قبل سلطات الانتداب(٩٦) .

اما الجناح التصحيحي فقد كان همه الاساسي في توجهه الوحدوي فرض نفسه كفريق مساو للفريق الآخر ، وبالتالي ، احراز مكاسب سياسية وحزبية .

وقد بدأ الحديث يدور حول الوحدة عقب اندلاع الثورة الفلسطينية ، فحدد بن-غوريون زعيم الحركة العمالية شروطها بامرين اثنين(٩٧) :

١ ـ ضرورة قيام وحدة حقيقية و« ليس شرعية الانفصال تحت غطاء الاتحاد » .

٢ ـ خضوع المنظمة الموحدة بشكل مطلق للوكالة اليهودية .

ومن الجدير بالذكر ان قادة الوكالة اليهودية ، وعلى رأسهم بن ـ غوريون ، وقفوا ضد مساهمة عناصر « المنظمة ب » في سلاح الحراسة المصرح به رسمياً ، قبل حدوث الوحدة الاندماجية ، وهيمنة الوكالة اليهودية على المنظمة الموحدة ، ويبرر هذا الموقف بقوله : « ... لدينا اليوم امكانية محدودة من الدفاع الشرعي . ولن نفسدها بادخال عناصر غير مسؤولة ، قد ترتكب مجازر في بيت اسرائيل »(٩٨) . وكان ينعت المنظمة بـ « العصابة » وافرادها بـ « المتمردين » .

اما زعيم الحركة التصحيحية جبوتنسكي ، فقد ركز في احاديثه ، حول الوحدة ، على ضرورة الجلوس حول « مائدة مستديرة » مع الهستدروتيين الصهيونيين بدون اية شروط مسبقة . ولم يكن من السهل التوفيق بين التيارين الرئيسيين ، خصوصاً ، وان « المنظمة ب » لم تكن سوى مظهر لجوهر الخلافات العميقة بينهما . ومن هنا برزت اهمية دور تهومي والجناح « المدني » في تقليص شقة الخلافات وردم الهوة بين الموقفين . وفي محاولة منه لتحقيق ذلك اجرى تهومي مفاوضات مع بن ـ غوريون لم تسفر عن شيء ، ثم توجه الى باريس للاجتماع بجبوتنسكي للتداول في موضوع الوحدة . وهناك ، اعاد جبوتنسكي على مسامعه شرطه بهذا الشأن « الشرط الاساسي لذلك هو شعب واحد ويشوف واحد ... عن طريق المائدة المستديرة بين المعسكرين الراغبين في الوحدة »(٩٩) . وقد اعتبر تهومي ذلك بمثابة برنامج حزبي ليس بوسع منظمته طرحه كشرط للوحدة .

ومع ذلك ، وحيال تمسك جبوتنسكي بموقفه ، واصراره عليه ، وافق تهومي على عقد اتفاق « سري » معه ، في باريس في ١٩٣٦/٢/٥ ، نظم العلاقة بين الحركة التصحيحية وحركة « بيطار » وبين « المنظمة ب » ، واكد على ان تهومي يقود المنظمة بناء على تعيين زعيم الحركة

التصحيحية ويديرها وفق روح تعليماته . وفيما يتعلق بمشروع الوحدة فقد نص الاتفاق على التالي :

أ ـ نحن نقف الى جانب منظمة موحدة .

ب ـ الشرط الضروري لذلك : شعب صهيوني موحد ويشوف موحد .

جـ ـ لذا ، يتوجب ، قبل كل شيء ، جلوس جميع الفرقاء الراغبين في الوحدة حول المائدة المستديرة »(١٠٠) .

اعتبر جبوتنسكي نتائج الاتفاق انتصاراً له ، بيد ان الامور لم تجر وفق تصوره ، إذ أن اول عمل أقدم عليه تهومي ، بعد خروجه من المفاوضات الثنائية ، كان ارساله برقية الى رؤساء فروع منظمته ، دعاهم فيها الى ابعاد التصحيحيين فوراً عن اي اتصال بالمستودعات(١٠١) دون ان يطلع هؤلاء على الاتفاق . ولعل في ذلك ما يشير الى مدى الضغط الذي مارسه عليه جبوتنسكي لحمله على قبول الاتفاق ، وكذلك الى عدم رضاه عنه في اعماق قلبه . ويبدو ان تهومي قد وافق على الاتفاق تكتيكياً بغرض كسب الوقت لصالحه ، خشية ان يقوم التصحيحيون بانشقاق في التنظيم في الوقت المريح لهم . وقد بقي تهومي ، حتى بعد وصوله الى فلسطين متستراً على الاتفاق ، اضافة الى انه بذل المزيد من الجهد لتعزيز نفوذ مجموعته داخل المنظمة ، وحرص في الوقت نفسه ، على عدم الدخول في مفاوضات وحدوية جادة مع الحركة العمالية . خشية ان تكون هذه على دراية بحقيقة تفكك منظمته فتحصل على مكاسب في المنظمة الموحدة على ضوء وضعه المهتز .

بعد مضي ايام معدودة على اتفاق جبوتنسكي ـ تهومي ، اجتمع جبوتنسكي في لندن اواخر كانون الاول ، مع الياهو جولب الذي قدم خصيصاً لاجراء مفاوضات حول وحدة المنظمتين(١٠٢) . ولم تسفر المفاوضات عن شيء لتمسك الطرفين بمواقفهما ، ورغبة جبوتنسكي في الحصول على مزيد من المكاسب السياسية والحزبية ، خصوصاً ، وانه كان على اعتقاد بأن « المنظمة ب » اصبحت في جيبه عقب الاتفاق السري مع تهومي .

ازاء فشل الاتصالات الوحدوية السابقة ، وفي محاولة جديدة جادة ، تحركت الكتلة « المدنية » ومجموعة تهومي وكذلك زعماء من الحركة التصحيحية ، ودخلت في مفاوضات مع الوكالة اليهودية وقيادة الهجناه ، احرزت بعض النجاح . فقد اصدرت « المنظمة ب » كنتيجة لهذه المفاوضات ، قراراً داخلياً اواخر كانون الثاني ١٩٣٧ حول الوحدة ، اهم شروطه(١٠٣) :

١ ـ تسبق عملية الاندماج الكامل فترة انتقال مدتها تسعة شهور ، تبقى خلالها وحدات المنظمة في وضعها القائم ، وتخضع للقيادة العامة للتنظيم الموحد .

٢ ـ تبقى مستودعات المنظمة خلال الفترة الانتقالية على ما هي عليه ، وتخضع للقيادة الموحدة عند الاندماج الكامل .

بعد ذلك ، قطعت مفاوضات الوحدة شوطاً كبيراً ، واشترك فيها الى جانب القوى التي تتشكل منها « المنظمة ب» : الكولونيل باترسون(١٠٤) ، القائد السابق لكتيبة البغال الصهيونية الذي كان يزور فلسطين كضيف (على المنظمة المذكورة) ، وقد فرض رئيس الوكالة اليهودية دافيد بن ـ غوريون ظلاله على المفاوضات باشتراطه الدمج الكلي والخضوع المطلق للمنظمة

الموحدة للوكالة اليهودية . وفي الوقت الذي عارض فيه الجناح التصحيحي قضية اخضاع المنظمة للوكالة اليهودية ، قبل ايجاد حلول للعلاقة بين الحركة التصحيحية والحركة العمالية ، وافقت الكتلة « المدنية » وتهومي على مبدأ الخضوع والدمج بدون تحفظ . بيد ان هذه المعارضة لم تكن من الشدة بدرجة معارضة جبوتنسكي الذي كان يقوم ، في ذلك الحين ، بزيارة لجنوب افريقيا ، حيث اخذ يبعث من هناك برسائل الى الكتلة « المدنية » يحذر فيها من مغبة نتائج الوحدة على « المنظمة ب » . ولم تخفف توصيات الضابط البريطاني « الضيف » باترسون ، من حدة معارضته ، فأرسل الى تهومي ، بعد تيقنه من جدية التوجه الوحدوي لدى الكتلة « المدنية » ، مذكراً اياه بالاتفاق السري بينهما ، طالباً منه الحفاظ على « المنظمة ب » ، على الرغم من العراقيل ، واعداً بتقديم العون والدعم له « سأبذل قصارى جهدي كيلا تجوعوا ، ولن تجوعوا اذا لم اذق انا طعم الجوع . ولكن حتى في حال الفقر اذا بقينا فقراء ، فإنني على يقين من انك لن تتخلى عن الشيء الذي خلقته »(١٠٥) وعلى الرغم من ذلك ، لم تتراجع قيادة المنظمة عن توجهها الوحدوي . ففي ٢٦/٤/١٩٣٧ ، وعقب رسالة جبوتنسكي بحوالى اسبوعين ، تمخضت المفاوضات عن اتفاق بين قيادة المنظمتين العسكريتين بشأن دمجهما ، وقعه عن منظمة الهجناه الياهو جولب ، وعن « المنظمة ب » ابراهام تهومي ، نص على التالي(١٠٦) :

«١ ـ يندمج التنظيمان ، ويتعهدان بالخضوع لسلطة الوكالة اليهودية واللجنة القومية .

٢ ـ تقام، بموافقة ادارة الوكالة اليهودية ، المؤسسات التالية :

أ ـ مركز يتشكل من ١٦ عضواً و ١٠ مساعدين ، يمثل نصف اعضائه الهستدروت ويمثل النصف الآخر الاوساط الأخرى .

ب ـ قيادة تتشكل من ستة عناصر . ثلاثة عن كل طرف .

جـ ـ مركزان ، واحد عن كل طرف .

د ـ لجنة استئناف برئاسة بنحاس روتنبرغ وتضم اثنين عن كل طرف .

٣ ـ يحق للمنظمة « ب » ، طوال فترة الشهور التسعة ، الحفاظ على وحداتها كما هي عليه ، والاحتفاظ بمستودعاتها ، كما هي عليه ، في الوقت الحاضر ، مع خضوع جميع الأعضاء دون استثناء وفي الحال ، للقيادة الموحدة .

٤ ـ يحظر على التنظيمين السابقين ، عند الاندماج ، القيام باي عمل خاص في ميادين المالية والممتلكات والتنظيم وما شابه .

٥ ـ تعين ادارة الوكالة اليهودية شخصاً للاشراف على المالية وادارة الحسابات والاقتصاد .

٦ ـ يتم بالاتفاق التبادلي ترتيب اوضاع اللجان للمنظمتين ، وفق تشكيلة المركز » .

قبل التوقيع على الاتفاق ، واثناء اعداد الطرفين لصيغته ، احتدم النقاش بين مجموعة القيادة برئاسة تهومي وبين انصار الحركة التصحيحية وبيطار داخل « المنظمة ب » . فركزت

مجموعة القيادة في حملتها على امرين اساسيين اعتبرتهما لصالح « المنظمة ب » في حال الوحدة ، هما : السلاح والتدريب ، مدعية انه سيكون بامكان المنظمة الحصول على كميات اكبر من الاسلحة ، وبامكان الاعضاء اجتياز دورات عسكرية بشكل افضل من السابق ، بينما ركز انصار الحركة التصحيحية على التبعات السياسية الكامنة في الوحدة و« ضرورة استمرار المنظمة العسكرية القومية دون ارتباط » مع المطالبة ببرنامج سياسي كأساس للوحدة(١٠٧) . وكان موضوع الـ « هفلجاه » مثار خلاف شديد بينهما ، هذا فضلاً عن الشكوك الثقيلة التي كانت قائمةً بين الفريقين ، والتي غذتها علاقات تهومي مع الوكالة اليهودية ، وكذلك حادث سطو(١٠٨) تمّ على مستودع للاسلحة تابع للمنظمة « ب » ، نفذته جماعة من بقايا منظمة « عصبة الاشداء » دون ان يعرف احد ، من الطرفين ، هوية المسؤولين عن السطو الا بعد الانشقاق ، مما حدا بكل طرف الى اتهام الطرف الآخر بالعملية . وكان ذلك بمثابة تأجيج نار الخلافات بين جناحي المنظمة .

وقد استبعد انصار الحركة التصحيحية في المنظمة صدور اتفاق الوحدة باصدار بيان في ١٩٣٧/٤/٢٢ يدين الاتفاق باعتباره خنوعاً من جانب لآخر ، وقد جاء فيه « يوجد اليوم في البلاد منظمتان : الاولى يسارية خاضعة لسلطة اليسار ، انضم اليها لأسفنا الشديد قسم من رجالنا ، والثانية « المنظمة العسكرية القومية في ارض اسرائيل التي تواصل مهامها النضالية من اجل شرف الأمة وحياة الامة في انبعاثها . اننا نؤمن برسالة الحركة وقدرتها على بعث الاستقلال الكامل في الحدود التاريخية للدولة العبرية .... »(١٠٩) .

وهكذا ، حدث الانشقاق في « المنظمة ب » قبل التوقيع على اتفاق الوحدة بثلاثة ايام . وقبل ذلك بفترة قصيرة ، كانت حالة من التوتر تسيطر على العناصر ، حيث شهدت المنظمة حوادث عدة مصحوبة بالتهديد بالسلاح ، مما دفع باترسون ، الضابط السابق لكتيبة البغال الصهيونية ، الى التوجه برسالة الى جبوتنسكي يطلب فيها منه « اسداء النصيحة لرجالك للحفاظ على برودة الاعصاب والهدوء ، وعدم القيام بشيء من شأنه الحاق الضرر بالقضية اليهودية وبقضيتك »(١١٠) . وكان من نتائج مناشدة جبوتنسكي انصاره بعدم حرق الجسور مع فريق تهومي وحتى مع منظمة الهجناه ، وتخوف قادة جناحي المنظمة من ضبط تفاقم الخلافات بينهما وتحولها الى اشتباكات دموية ، اتفاق الطرفين على اجراء استفتاء في ٢٤ نيسان ١٩٣٧ حول الاندماج في منظمة الهجناه . ومن الجدير بالذكر ، ان اهمية الاستفتاء لا تكمن في مسألة تقرير مصير المنظمة فحسب وانما ايضاً في مسألة اقتسام اسلحتها . ولذا فقد نظر الطرفان ببالغ الاهمية الى نتائجه ، وربما كان هذا من اسباب عدم اجراء الاستفتاء في الوقت المقرر له . فقد تأجلت عملية الاستفتاء في بعض الفروع وتعطلت في فروع اخرى . وقد تباينت تقديرات المصادر الصهيونية حول تقدير نسبة المؤيدين والمعارضين للوحدة وحتى حول عدد المنضمين لمنظمة الهجناه ، ففي الوقت الذي اشارت فيه مصادر الحركة العمالية الى انضمام قرابة ١٨٠٠ عنصر الى المنظمة ، بعد الاستفتاء ، من مجموع ٣٠٠٠ عنصر ، اشارت اوساط الحركة التصحيحية الى ان الذين ايدوا تهومي يشكلون ٣٥٪ بينما يشكل المعارضون له نسبة ٦٥٪(١١١) . والامر الذي لا يختلف عليه الطرفان ، هو انضمام الاكثرية الساحقة من قيادة المنظمة ورؤساء فروعها ، الى فريق تهومي . ومع ان هذا الواقع يبدو وكأنه تعزيز لمكانة تهومي المستقبلية داخل

الهجناه ، الا انه كان يحمل ، بين ثناياه ، عوامل خلافات أثرت كثيراً على مستقبل تهومي نفسه ، فعند اقتراب فترة الشهور التسعة من نهايتها واسعداد فريق تهومي للاندماج بمنظمة الهجناه ، لم ينفذ المسؤولون عن المنظمة وعداً قطعوه على انفسهم بتعيين احد انصار تهومي قائداً لاحد الفروع ، تحت تأثير ضغوط واحتجاجات عدد كبير من ضباط الهجناه ضد مكافأة « المنشقين » بتعيينهم في مراكز حساسة[112] ، الامر الذي دفع ابراهام تهومي الى تقديم « استقالته » بعد ان ناشد جماعته ودعاهم للاندماج الكلي في منظمة الهجناه ، وتسليمها مستودعات الاسلحة . وبذلك غدت منظمة الهجناه ، مع دخول فريق تهومي اليها ، تضم قرابة ٢١ الف عضو من بينهم حوالى اربعة آلاف امرأة ، وتمتلك حوالى ٢٣٠ مدفعاً رشاشاً و ٤٥٠٠ بندقية وحوالى عشرة الاف مسدس[113] .

ومن الجدير بالذكر ، ان ابراهام تهومي اعتزل ، بعد « استقالته » ، العمل في المنظمات العسكرية الصهيونية ، وغادر بعد عام فلسطين الى الولايات المتحدة ليستقر فيها عند اهله .

اما انصار الحركة التصحيحية في « المنظمة ب » وعلى رأسهم موشي روزنبرغ ، ودافيد رزيئيل وابراهام شتيرن فقد نشطوا ، اثر صدور بيانهم بخصوص الانشقاق ، في مجال تشكيل قيادة جديدة[114] ، فتم تعيين روزنبرغ في منصب « رئيس القيادة » ، وانتخب كاعضاء قيادة ، شتيرن (سكرتير) ورزيئيل (قائد القدس) الى جانب عضوين آخرين . كما وعُينّ في منصب « القائد الرئيسي » روبيرت بيتكر الرئيسُ السابق لحركة « بيطار » في الصين .

اصدر هؤلاء في اواخر نيسان ١٩٣٧ « مبادىء » لتسترشد بها المنظمة الجديدة ، هي :

« أ ـ مصير الشعب اليهودي يحسم بقوة السلاح العبري فوق ارض الوطن .

« ب ـ تعتبر « اتسل » كل يهودي يؤيد هذا الهدف حليفاً لها .

«جـ ـ ترى « اتسل » في كل شخص ينتمي الى أمة اخرى ويعترف بحق الشعب اليهودي بالاستقلال في وطنه ، حليفاً لها » .[115]

ومن الجدير بالذكر ان فريق الجناح التصحيحي قرّر تسمية المنظمة الجديدة بـ«الارجون تسفائي لئومي » (المنظمة العسكرية القومية) كاسم وحيد لها ، ثم تبنى بعد ذلك ، بناء على توصية جبوتنسكي ، اسم « اتسل » لها ، وهو مجموعة الاحرف الاولى لـ « ارجون تسفائي لئومي » .

---

(١) تلمي مناحيم وآخرون ، « مقاتلو الحرية في اسرائيل » (لوحامي محوفيش بيسرائيل) ، تل ـ ابيب ، اصدار فريدمان ، ١٩٥٥ ، ص ١٩ .

(٢) المصدر نفسه ،ص ١٩ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٢ .

(٤) نيف دوف ، « تاريخ المنظمة العسكرية القومية اتسل ، » (معرخوت هارجون هتسفائي هليئومي) تل ـ ابيب ، اصدار كلاوزنر، ١٩٦٥، الجزء الاول ، ص ٤٥ .

(٥) تلمي مناحيم وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٦) بن ـ تسيون دينور وآخرون (تحرير) ، « كتاب تاريخ الهجناه » (سيفر تولدوت همجناه) ، تل ـ ابيب اصدار : معرخوت ، الطبعة

السادسة أ ـ الجزء الاول (المجلد الاول)، ١٩٧٣، ص ٤١٧ ـ ٤١٨ .

(٧) هديني عيفر ، « شعب في حربه » (عام بملحمتو) ، تل ـ ابيب ، اصدار يوسف شريرك ، الطبعة الثانية ، ١٩٤٩ ، ص ١٨ .

(٨) لوبوتسكي بنيامين ، « الحركة التصحيحية وبيطار » (مشاهر او فيتار) ، القدس ، اصدار معهد الثقافة الصهيونية ، ١٩٤٦ ، ص ٢ .

(٩) المصدر نفسه ، ص ٨ .

(١٠) المصدر نفسه ، ص ١٥ .

(١١) المصدر نفسه ، ص ١٦ . ورد في نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ان عدد افراد الكتيبة ٦٥٠ شخصاً

(١٢) هديني عيفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٥ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(١٤) بن ـ تسيون دينور وآخرون (تحرير) ، مصدر سبق ذكره . الطبعة الثالثة ١٩٧٣ ، الجزء الثاني (المجلد الثاني) ، ص ٤٥٤ .

(١٥) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٦٢

(١٦) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الاول ، ص ٤٦٢ .

(١٧) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٦٢ .

(١٨) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٦٥ .

(١٩) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢٠) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٦٦ .

(٢١) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٦٧ .

(٢٢) هديني عيفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٤٦ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .

(٢٤) لوبوتسكي بنيامين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤ .

(٢٥) المصدر نفسه ، ص ٤ .

(٢٦) ميلشتاين اوري ، « بالدم والنار يهودا » (بدام فأش يهودا) ، تل ـ أبيب ، اصدار لفين افشتاين ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٤ ، ص ٤٤ .

(٢٧) هديني عيفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ص ١٧٠ .

(٢٩) بن تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثاني ، ص ٦٦٧ .

(٣٠) بن ـ يهودا وآخرون (تحرير) ، « النضال من اجل الامن والاستقلال » (همأفاك لفيتحون اوليعتسمأوون) ، رمات جان ، اصدار مساده ، ١٩٧٤ ، ص ٥٨ .

(٣١) هديني عيفر ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٨٠

(٣٢) بن ـ يهودا وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٠ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ٦١ .

(٣٥) بن ـ تسيون دينور وآخرون (تحرير) ، مصدر سبق ذكره ، ب ـ الجزء الاول (المجلد الثالث) ، ص ٢٥٠ .

(٣٦) بن ـ يهودا وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦١ .

(٣٧) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٦٢١ .

(٣٨) تلمي افـرايم ، « حـروب اسـرائيل » (ملحموت يسرائيل) ، تل ـ ابيب ، اصدار دافار ، ١٩٧٥ ، ص ٨٦ .

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

(٤٠) ميلستاين أوري ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٨ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٤٨ .

(٤٢) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٦١٢ .

(٤٣) لوبوتسكي بنيامين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨ .

(٤٤) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٦٢٢ .

(٤٥) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٦١٣ .

(٤٦) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٦٢٢ .

(٤٧) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٦٢٢ .

(٤٨) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٣٠ .

(٤٩) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٢١٩ .

(٥٠) تلمي افرايم ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٤ . وكذلك ، بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٢١٩ .

(٥١) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٢٣ .

(٥٢) تلمي افرايم ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٢٦ .

(٥٣) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق

ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٢٢٣ .
(٥٤) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٤٩ .
(٥٥) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٤٧ .
(٥٦) للتوسع : بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٤٢٠ ـ ٤٢٦ .
(٥٧) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٤٢٥ .
(٥٨) ميلشتاين اوري ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٥ .
(٥٩) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٤٢٧ .
(٦٠) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٤٢٦ .
(٦١) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٦٠ .
(٦٢) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٣٠ .
(٦٣) انظر صورة زنكوغرافية لمذكرة للاستقالة «غير المؤرخة» ، نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٦١ .
(٦٤) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٦٣
(٦٥) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٦٣
(٦٦) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٦٣ .
(٦٧) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٥٧٥ .
(٦٨) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٥٧٥ .
(٦٩) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٦٣ .
(٧٠) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٥٧٧ .
(٧١) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٧٦ .
(٧٢) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٧٦ .
(٧٣) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٧٦ .
(٧٤) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٧٩ .
بينما جاء في بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٤٩٥ ان آبا ـ احيمئير اقام « عصبة الاشداء » عام ١٩٣١ . ويبدو أن العصبة كانت في ذلك الوقت في طور التكوين .
(٧٥) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٨٠ .
(٧٦) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٩٧ .
(٧٧) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ١٩٩ .
(٧٨) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٤٩٧ .
(٧٩) لويوتسكي بنيامين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٨٠) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٣
(٨١) بيلع موشيه (جمع واعداد) ، « عالم جبوتنسكي » (عولو شل جبوتنسكي) تل ـ ابيب ، اصدار : دبوسيم ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .
(٨٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .
(٨٣) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٩٣ .
(٨٤) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ١٩٤ .
(٨٥) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الثالث ، ص ٥٧٩ .
(٨٦) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٥٨١ .
(٨٧) المصدر نفسه ، المجلد الثالث ، ص ٥٨١ .
(٨٨) تلمي مناحيم وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٧١ .
(٨٩) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، الطبعة السادسة ١٩٧٣ ب ـ الجزء الثاني (المجلد الرابع) ص ٨٤٩ .
(٩٠) لويوتسكي بنيامين ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٤ .
(٩١) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .
(٩٢) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧٢٤ .
(٩٣) المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص ٧٢٥ .
(٩٤) المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص ٧٢٤
(٩٥) المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص ٧٢٦ .
(٩٦) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٨٩ .
(٩٧) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ٧٢٦ .
(٩٨) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٨٩ .
(٩٩) المصدر نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢٨٣ .
(١٠٠) انظر النص الكامل للاتفاق في المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

(١٠١) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٢٨٤ .
(١٠٢) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ٧٢٦ ـ ٧٢٨ .
(١٠٣) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٨٩ .
(١٠٤) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ٧٢٩ .
(١٠٥) انظر نص الرسالة في نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٩٢ .
(١٠٦) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٢٩٣ .
(١٠٧) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٢٩٧ .
(١٠٨) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ٧٢٦ . وكذلك نيف دوف، مصدر سبق ذكره، الجزء الاول، ص ٢٨٤
(١٠٩) انظر النص الكامل للبيان : نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٩٨
(١١٠) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ٧٣١ .
(١١١) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٩٩ .
(١١٢) بن ـ تسيون دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ٧٢٨ .
(١١٣) المصدر نفسه ، المجلد الرابع ، ص ٧٣٣ .
(١١٤) نيف دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٣٠١ .
(١١٥) المصدر نفسه ، الجزء الاول ، ص ٣٠١ .

د. حسني محمود حسين

بدايات شعر المقاومة الفلسطينية في مرحلة الانتداب

مدخل لدراسة شعر المقاومة الفلسطينية

كانت* منشورات الجيش البريطاني « الى الضباط والجنود العرب ، في الجيش التركي في فلسطين »التي تعلن ، لهم ، محالفة الشريف حسين ، وترجب بصداقتهم ، وكذلك كانت منشورات الشريف نفسه « الى جميع العرب وسواهم من الضباط والرجال الموجودين في الجيش العثماني » التي تدعوهم الى الالتحاق بجيش الثورة ، كان ذلك كله بمثابة مواقد نار تبعث الدفء في قلوب اهل البلاد ، والأمن والطمأنينة في نفوسهم خلال شتاء حكم الاتراك الزمهرير ، وخريف اضطهادهم الرهيب ؛ ولكم اصطلت قلوب المقرورين على دفء وعود تلك المنشورات وآمالهم فيها ، وهي تنفض عنهم برود الهلع والرهبة التي ظلوا يتدثرون بها في ظل الشعور المخيف الذي ظل يخيم على البلاد منذ حركة اعدام احرار العرب في ٦ أيار (مايو) عام ١٩١٥ ، « حتى لم يكن احد يجسر على التكلم او البحث في الشؤون السياسية ، أو اظهار الاسف على شهداء العربية »[١] . وامام انتعاش الناس بآمال الخلاص لم يكن يدور في خلد أحد من مناصري الثورة العربية[٢] ومؤازريها ، او من شباب العرب ، وهم يهربون من الجيش التركي ليلتحقوا بجيش الثورة العربية ، ان حلفاءهم سيغدرون بهم وسيتفقون على تقسيم بلادهم وتوزيعها غنائم حرب فيما بينهم ، دون ان يلقوا بالاً الى حلفائهم العرب ورفقة السلاح معهم في هذه الحرب ، والى آمالهم في الاستقلال والوحدة كما كانوا قد اتفقوا عليها معهم . وخلال الفترة الاخيرة من الحرب كانت بريطانيا قد اتفقت سراً مع فرنسا ، في معاهدة سايكس ـ بيكو عام ١٩١٦ ، على تقسيم بلاد الشام والعراق فيما بينهما . وكذلك كانت ، منذ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧ ، قد منحت الصهيونية العالمية حق انشاء وطن قومي لها في فلسطين بمقتضى تصريح بلفور ، وعدا ممن لا يملك لمن لا يستحق .

وهكذا انتهت الحرب العالمية الاولى ، بانتصار الحلفاء والعرب ، وفي مطمح الزعامة العربية ، تدغدغها آمال الاستقلال والوحدة من خلال المشاركة في معارك الحرب ، ان تشارك في افراح النصر والبهجة . اما عامة الناس ، في فلسطين ، فاننا نتعرف على موقفهم من خلال ما

* تتمة الدراسة المنشورة في العدد ١٠٤ من «شؤون فلسطينية» ، ص ١٢٠ .

يكتبه خليل السكاكيني ، في مذكراته المعاصرة للاحتلال حول الموقف « منذ اخذت الحكومة العثمانية تنسحب من القدس ، والجيش الانجليزي على الابواب ، فقد اختلفت اراء الناس حول مصير فلسطين ، فبعضهم يراها ستصير انجليزية ، وبعضهم يرى انها ستلتحق بمصر ، بينما يرى البعض الآخر انها ستصير حرة . وفي الوقت الذي يتأسف البعض على العهد العثماني ويتخوف من العهد الجديد ، وبخاصة بعض المسلمين الذين يرون ان ذهاب الدولة ضربة على الإسلام وان دخول الانجليز يعزز النصرانية ويعلي شأن الصليب ، يوجد فريق من المسيحيين « الصعاليك » ينتظرون مجيء الانجليز لتعتز النصرانية ، فيشمخوا بانوفهم وقد كانوا بالامس اذل من وتد »[٣] . ومهما يكن من شأن هذا الانقسام والشعور بالضياع في مثل هذه الفترة الانتقالية في حياة البلدان السياسية ، فان الموقف الارجح والمتمشي مع الاتجاه العام لتيار الحركة العربية ، كان ناقما على الاتراك ويرى ان البلاد كانت بالامس حائرة صاغرة ، ذلت للترك دهرا كما تذل فتاة قاصرة[٤] .

ولذلك فليس غريبا ان يتشفى البعض بهزيمة الاتراك ، ويستقبلوا ببراءة ، جيوش الفتح (الاحتلال) الانجليزية ، التي لقيت عون الاهالي ومساعداتهم وودهم ، بالترحيب والاستبشار . واذا عرفنا احوال البلاد السيئة التي آلت اليها إبان الحرب ، فانه يمكننا ان نتصور كيف كان الناس أيامها يحتفون في سائر المدن بدخول الحلفاء ، وبأية براءة كانوا يحتفلون (بالنصر والاختلال) معا ، حتى ان بعض شعرائهم نظموا القصائد ترحيباً (بالحلفاء) وتشفياً بالاتراك . فهذا الشاعر اسكندر الخوري البيتجالي ، كأنه يقف على رأس اجتماع شعبي يردد باسلوب بسيط ساذج متأثر باسلوب العامة في احتفالات الموالد والاجتماعات الدينية ، فيقول في تخميس مؤلف من ست وثلاثين تخميسة ويعنوان « رويدا ايها المدفع » ، بعد ان بين مظالم الاتراك وغدر حكامهم :

فتاة القدس طوباك   بشير الخير وافاك
لواء السعد والاك   وجيش العز باراك

فحيي الجيش والمدفع

أيا بنت الشآم كفى   دعي التنديد والأسفا
زمان الذلة انصرفا   وجاءات دولة الحلفا

لأخذ الثأر بالمدفع

بني التاميز قد فزتم   وبالانقاذ قد جئتم
بلاد القدس شرفتم   فاهلا اينما كنتم

وسهلا فيكُمُ اجمع

بلادي اليوم تستند   عليكم ايها العُمَدُ
على اخلاصها اعتمدوا   وفي استقلالها اجتهدوا

بذا نحيا بذا نقنع[٥]

ولا يظنن احد ان موقف شاعرنا نابع من كونه نصرانياً . فقد شارك ، بعد انكشاف امر الانكليز وافتضاح استعمارهم ، في مقاومة الانتداب وما جره من ويلات الصهيونية على فلسطين ، كما نرى في بعض نماذج شعره ، فيما بعد . ولكن كل ما في الامر ان غالبية العرب كانت قد نقمت على الاتراك لظلمهم ، فرحبوا باعدائهم بصفتهم منقذين ، وشجعهم على ذلك تحالف الشريف حسين معهم واعلانه الثورة الى جانبهم . وخدعتهم اعلانات الحلفاء ووعودهم ، ومبادىء ويلسون في الحرية والاستقلال ، فلم يكن الامر مقصورا على المسيحيين في هذه البلاد ، اذ ان غالبية الزعامات العربية التي انضمت الى الشريف كانت من المسلمين . وهذا الشيخ علي الريماوي[6] الذي كان احد اعضاء البَعثة التعليمية التي سيرها جمال باشا الى (فروق) عاصمة السلطنة في ايلول عام ١٩١٥ ، لتؤكد للترك عواطف العرب القديمة ، ولتكون داعية نصر ، وتنقل الاخبار الى الاقطار العربية ، له خلال هذه الرحلة شعر كثير في مدح رجالات السلطنة ، وجمعية الاتحاد والترقي[7] ، نسمعه يستجير بالملك جورج في عيد ميلاده يوم ٣ حزيران (يونيه) ، ١٩١٨ ، فيقول معبرا عن الموقف العام من بريطانيا :

العرب انت رجاؤها والعرب ليس لها سواك
حالفتها فرضاؤها فيما تشاء لها رضاك
فأعد لها تاريخها ذاك القديم ، فقد دعاك[8]

فنحن نحس ان شعور بعض الناس ازاء بريطانيا ، في هذه الفترة المبكرة من الاحتلال ، شبيه بشعور الاسير نحو من خلصه من اسره ، فكانوا ينظرون اليها كدولة عظمى ، تتظاهر بالحرية وتدعي انقاذ الشعوب وصداقتها ، فلم تدخل فلسطين غازية كما دخلت مصر مثلا ، بل دخلت متظاهرة بصداقة العرب والتحالف معهم ، مما خدع الناس وضللهم عن نواياها الحقيقية فترة من الزمن ظلت تستغل خلالها ، الثقة بها ، كأن الناس ظلوا يحسبون تصرفاتها ، بحكم طبيعة الفترة في اعقاب الحرب ، وانه يمكن مواجهتها بفيض الإحتجاجات لردها الى الطريق السوي ، مما جعل المقاومة العربية الحقيقية تتأخر بضع سنين بعد الاحتلال . وكانت بريطانيا بعد ان تيقنت من النصر ، وقبل اتمام احتلال فلسطين ، قد اصدرت تصريح بلفور في ٢/١١/١٩١٧ ، وعدا مخلصا بالعطف على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وبذلك لم تكن تسدل أستاراً على آخر الحروب الصليبية كما أعلن ابنها ، القائد اللنبي ، عند دخوله القدس في نهاية عام ١٩١٧ ، وانما كانت ترفع الستار عن فصل سيطول تمثيله على مسرح الاراضي المقدسة ، تدور احداثه حول غزوة صهيونية أُعِد لها ، بمشاركة بريطانيا ، بإحكام وتنسيق كاملين . ومن هنا كانت نظرتها الى حلفائها العرب وكأنهم اعداء ، في الوقت الذي تحولت فيه الحكومة الى آلة صماء في يد اليهود الذين اصبحوا يعتقدون ، في هذا الدور ، : « انهم اصحاب البلاد ، وان العرب ليسوا الا ضيوفا لا حقوق سياسية لهم فيها ؛ فاذا اختاروا البقاء في فلسطين ، ففي ذمام اليهود ... بل منَ اليهود مَنْ عَجِبَ كيف لم يقوِّض العربُ خيامهم ويرحلوا ، ومنهم من عتب على الحكومة انها تبذل شيئا من العناية بالصحة العامة ، وكان من رأيه ان يترك العرب وشأنهم الى ان ينقرضوا ...[9] . وعن مثل هذا نقرأ لوديع البستاني ، في مقطوعة قصيرة ساخرة بعنوان « جنة اليهود » ، على على اعتبار فلسطين « ارض الميعاد » حسب معتقداتهم

الدينية التي تخلو من النص عن حشر وقيامة او عن جنة او سماء ، قوله على لسان مناد بالنصارى والمسلمين ان :

لكُمْ جنــة فـهبـوا اليــهــا وسمــاء فشمــروا للصعــود
وفلسطـين لليهود اتـركـوهـا فهي دار الخلود عند اليهود(١٠)

وارجأت الحكومة البريطانية ، في حينه ، اعلان تصريح بلفور رسميا ، تجنبا لأي احتكاك يؤثر على الحركات العسكرية في البلاد المفتوحة حديثا ، وظل دون اعلان رسمي حتى ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٢٠ ، حين اذاعه الحاكم العسكري العام (بولز) فأحدث استياءً كبيرا ، وكان العرب قد علموا باخبار التصريح من خلال مصادر الدعاوة الالمانية والتركية التي نشرته وعممته في تشرين الثاني (نوفمبر) وكانون الاول (ديسمبر) عام ١٩١٧ .

في البداية لم يعره العرب ادنى اهتمام لانهم كانوا من الضعف والاعياء في حال لا يقدرون معها على الاهتمام بشيء ، فهم لا يزالون حتى ذلك الوقت محكومين بالتخلف الحياتي الذي ران على البلاد طوال حقبة الزمن الماضية ، وبالضعف العام الذي رافق الحرب وتلاها ، وبالنوايا الطيبة والأمل الساذج في بريطانيا الحليفة . ثم ان زعماءهم ، وعلى رأسهم الشريف حسين وابنه فيصل ، شغلوا بما شغل به المجتمع الدولي ، في ذلك الوقت ، بمؤتمر الصلح وبتسوية واقع ما بعد الحرب .

هذه الظروف ، مع ما اكتنفها من مناورات وسياسات الوعود والتسويف ، كانت بمثابة الضباب المؤمل أو الغشاء الخادع الذي حجب الرؤية الصحيحة عن الناس وخلق المناخ المناسب لانماء روح الخدر والتواكل في انفسهم . ومما يذكر في هذا الصدد ، انه في هذه الفترة قامت في بريطانيا جماعة من اللوردات وموظفي الحكومة ، محاولة خلق موازنة ضد ما جاء في وعد بلفور ، ولكن عبثا . وقد كان في نشاط هؤلاء ما جلب الضرر على عرب فلسطين ، اذ غرس فيهم الاوهام ، على امل ان هناك امكانية (كذا) لإلغاء الوعد المذكور(١١) ، الذي قدروا انه اشبه بالحلم والخيال منه بالحقيقة . ولكن عندما تبين لهم ، فيما بعد ، ارتباطه العملي باطماع الصهيونية وبدأوا يحسون آثار هذا الارتباط على البلاد ، اضحى التنديد به من البنود المهمة التي تدرج باستمرار ضمن مطالبهم ومقررات مؤتمراتهم ، فانعكست معارضته من خلال المظاهرات والاحتجاجات والمؤتمرات التي اعلنت كلها استنكاره ومعارضة الارتباطات البريطانيـة بالصهيونية ، ووقف الشعب موقفا صلبا انصفته تقارير المبعوثين البريطانيين الى حكومتهم ، الامر الذي جعلها تعزل فيما بعد عددا منهم .

ونحن اذا تصورنا اوضاع فلسطين كما وصفناها ، وعرفنا نفسية اهلها وموقفهم من (الحليف) الذي لم يتبينوا غدره بعد ، واذا عرفنا ان نشاطاتهم السياسية والوطنية اقتصرت في البداية على مساعدة قوات الثورة العربية والحلفاء . وانها كانت ، من قبل ، وما زالت حتى ذلك الوقت ، جزءا من الحركة العربية العامة ، التي تبنت الثورة وعقيدتها ، حيث كان لكثيرين من شبابهم ادوار بارزة فيها . اذا تصورنا ذلك كله ، ادركنا انه لم يكن سهلا تشكيل تنظيمات سياسية فعالة في بداية الاحتلال(١٢) ، وقد كان الصدام مع الصهيونية العامل الاهم في خلق الشخصية الفلسطينية منذ اواخر العقد الثاني من هذا القرن . فنمت هذه الشخصية على امل

واحد هو الحفاظ على عروبة فلسطين ضد الاطماع الصهيونية . وقد غلب الطابع السلمي على اساليب المقاومة في الفترة الاولى فلم تتعدَّ المظاهرات والاحتجاجات والمؤتمرات وايفاد الوفود ، وغير ذلك من الاساليب المشابهة ، الا ما كان ، في بعض الاحيان ، من اضطرابات كانت تنقلب عن مظاهرات تصطدم بعناصر الصهاينة ثم تمتد الاشتباكات فيها إلى الشرطة وجنود الانتداب ... ولربما اتسع بعض هذه الاصطدامات وامتد ساعات ، بل واياما ، احيانا ، ولكنها لم تكن على اية حال ، سياسة ثابتة لدى المقاومين . وظلت هذه النظرة تحكم الحركة الوطنية حتى قيام حركة الشيخ عز الدين القسام ، في منتصف الثلاثينات ، حيث تغيرت من بعدها الامور . وقد يكمن تفسير هذا الاتجاه ، اولا ، في كون قادة الحركة الوطنية من طبقة « الافندية » فعلا ، وهذا النمط من المقاومة اكثر ملاءمة لاستعداداتهم . وثانيا ، في اعتبار بريطانيا ، حتى ذلك الوقت ، وكأنها حكم ، حقيقة ، بين العنصرين المتصارعين .. وقد عملت هي من جانبها ، وبخبث ماكر ، على تثبيت هذا الاعتقاد محكومة بنظرتين : نظرتها الى ارتباطها الحقيقي بالصهيونية وما تراه من تلاحم مصالحها معها،فعقدت النية الصادقة على تنفيذ اتفاقاتها ، ونظرتها الى العرب بكل الاستهانة والاستخفاف ، فعقدت النية على خيانة وعودهم لاعتبارها إياهم « قوما صحراويين لا قيمة لهم ، وانهم سوف يقنعون ببعض التوكيدات والضمانات التي تعطيها لهم،فان لم يقتنعوا ، فقد يقومون في البداية ببعض الشغب ولكن سرعان ما يعودون الى صوابهم ويخلدون للسكينة بعد ان يروا رأس العصا على غرار قبائل الحدود الشمالية الغربية في الهند(١٣) » .

وفي هذه الفترة المبكرة من الاحتلال ، لم نظفر من شعرائنا المشايخ بما ينبيء عن ادراك احد منهم لحقيقة الموقف وخطورته ، ولدور الشاعر فيه ، ولكن من اللافت للنظر حقا ، ان نحس بالتجاوب السريع لهذا الواقع في نفس الشاعر العربي وديع البستاني ، اللبناني المولد والعشيرة ، الفلسطيني الاقامة والتوطن والذي قضى اكثر من ثلاثين عاما في فلسطين ، ووضع ديوانا كاملا في قضيتها اسماه (الفلسطينيات) .

وصل وديع يافا في آخر اسبوع من تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩١٧ ، وعمل مستشارا بمثابة كبير الموظفين بعد الكولونيل (بركر) فكان يرى غرفة ، في سراي يافا ، كتب على بابها « الجمعية اليهودية - الرئيس الملازم مكروري » فرأى في هذه الغرفة نواة الدولة اليهودية . وفي هذه الابيات التي سجلها في ١٩١٧/١١/٣٠ صورة لما ابداه ، في حينه ، من مشورة :

تـريـدونـهـا جـدا وجـدا اقـولـهـا ... من اليـوم سـرا ان أردتمُ أو جهـرا
فتحنـا لكم صـدرا مـددنـا لكم يـدا ... واني لاخشى ان تـديـروا لنـا ظهـرا
عـرفت طـريق الهنـد من بـاب طـارق ... الى عـدن عبـر القنـاة ولا نكـرا
فـان تحسبـونـا الجسـر يبنيـه عـابـر ... فـلا تهـدمـوه في الطـريق لكم جسـرا
ارى هـوة تـزداد عمقـا سحيقـة ... عـلى عـدوة انتم ونحن عـلى الاخـرى
ارى الـوطـن القـومـيَّ يـعلـو بنـاؤه ... ارى غـرفة في القصـر تحجبـه قصـرا
وذكـرهـم ذكـر ولسـت مسيطـرا ... مخـافة يـوم فيه لا تنفـع الذكـرى(١٤)

فالشاعر محام قانوني ، وضع كتابه « الانتداب الفلسطيني باطل ومحال » ، وهو من البداية ، بل من اول خطوة يقدر نهاية الطريق ، ويتحقق « ما وراء الاكمة » فيقدم استشارته خالصة ، وفي وقت مبكر ، محذرا ومذكرا قبل الا تنفع الذكرى . ونحن نستشف الاخلاص في دعوته كما نستشف قوة القانون وروحه في لغته ولهجته وهو في كليهما رصين صارم ، وقف بالمرصاد لكل حركات الصهاينة يكشفها ويفضح اطماع اصحابها ونواياهم الخبيثة المبيتة . ومنذ بداية الاحتلال برز غول الصهيونية وتجسدت اخطاره في عقر الدار ، وجاءت نذر هذه الاخطار مبكرة ، تمثلت في بعثة وايزمن في ابريل (نيسان) ١٩١٨ ، التي قدمت الى البلاد قبل اكمال احتلالها لدراسة اوضاعها وتهيئتها لحكمهم واطماعهم ولإسداء المشورة للحكم العسكري في ذلك ، وللعمل على تأليف بعض تشكيلات المسلحين لحماية مستعمراتهم ، الامر الذي استفز العرب وجعلهم يتبينون ما وراء تصريح بلفور . وكان وايزمن قد التقى في دار الحكومة بيافا مع اعيان العرب فيها وردد امامهم ، « على الناعم » ، اطماع الصهيونية في فلسطين كوطن قومي يعودون اليه بشوق عظيم . فقال البستاني قصيدته « الخطبة الخرساء » بتاريخ ١٩١٨/٥/٨ في وصف ذلك الاجتماع الرسمي ، وسميت بذلك « لأن الزعيم الصهيوني سكت ، واطرق ، ولم يفه بكلمة عندما سأله المؤلف : ما المراد باللفظتين الانكليزيتين ؟ (ترجمتهما الوطن القومي) تعريفا وتحديدا به ، وكان الزعيم قد اصر أن يكون المؤلف المترجم لبيانه ... » وفي ختام القصيدة يقول :

وخطبتـه الخـرسـاء عنـدي جـوابهـا	ومـا هال قـاضي المسلمـين غشـاشهـا
اذا هبـت الانــواء فـالـهطـل هطلنـا	وليس ليـروى الارض منكم رشـاشهـا
متى حـان لـلاقـوام يـوم حسـابهـا	يهولكمُ الهنـدي ان جـاش جأشها
وعـدوا النصارى مسلمـين او اعكسـوا	وخط النجـاشي مـا محتـه حبـاشهـا
الى النار نار البيـت والبيـت بيتنـا	تـريـدونـه عشواً وانتم فـراشهـا(١٥)

وبعد انتهاء الحرب التي ظل الصهيونيون يعملون خلالها كالمناجذ تحت وجه الارض ، دخلت الحركة الصهيونية فترة الانتداب البريطاني مجهزة بالجهاز الاداري وبالقاعدة التربوية ، اذ انشأت المنظمة الصهيونية الدائرة التربوية للاشراف على المدارس اليهودية وتولي شؤونها ، والتزمت كلها بطابع موحد يهدف الى هدفين هما : شيوع الروح اليهودية في جميع الموضوعات ، والتركيز على الناحية العملية وتقدير العمل اليدوي واحترامه . واعتمدت المنظمة الصهيونية التعليم وسيلة فعالة لترسيخ قواعد الوطن القومي من الناحية الفكرية والثقافية والعلمية ، فعملت مؤسساتها التعليمية على نشر اللغة العبرية والثقافة اليهودية . ولقيت هذه المؤسسات ، منذ البداية ، كل اهتمامها وعنايتها ، وكان للجامعة العبرية في القدس ومعهد الهندسة التطبيقية (التخنيون) في حيفا ، دور أساسي في توطيد دعائم هذا الوطن وبناء قواعد الدولة من الناحيتين الفكرية والعلمية والعملية الصناعية . وفي يوم ١٩١٨/٧/٢٤ وضع الصهيونيون ، في احتفال كبير ، اثني عشر حجرا (عدد الاسباط) اساسا للجامعة العبرية في القدس ووضع كل من مطران الانجليز (مكنس) ومفتي القدس (الشيخ كامل الحسيني) حجرا ، مما أغاظ البستاني وأثار حفيظته ، فوجه سؤالاً جارحاً الى المفتي فيه فطنة وذكاء بمقدار ما فيه من اثارة وتوعية على حقيقة الخطر الذي ستشتعل ناره يوما لتحدق بالوطن كله ، يقول في سؤاله :

افتني بالله بالكعبة بالحجر الاسود بالركن الاغر !
ان علت في عزّها شامخة فوق رأس الطور تلهو بالعبر
وغدت جامعة عبرية ونهى الحاخام فيها وأمر
ايقول الشيخ والقس اتئد ان للمطران والمفتي حجر (١٦)

ومن الغريب حقا ان يبدر مثل هذا التصرف من مفتي البلاد ، خصوصاً وان اخطار الصهيونية كانت قد ظهرت بوادرها منذ بدأت قوافل الرواد الصهاينة في العقدين الاخيرين من القرن التاسع عشر ، تغزو البلاد بأموالها وتقيم فيها المستعمرات والمستوطنات للمهاجرين اليهود(١٧) ، ثم اصبحت نواياهم اكثر افتضاحا ، وخاصة لرجل في مقام المفتي ، بعد تصريح بلفور وبعثة وايزمن . والأنكى من ذلك انه ، في هذه الفترة ، بدأت تتجسم اطماع الصهيونية في مكان المسجد الاقصى ، وروجوا لذلك بما راحوا ينشرونه من صور للمسجد يعلوه العلم الصهيوني والكتابات العبرية ومن صور لهيكل سليمان مكانه ، وكذلك بما يعرضون من اسعار مغرية لشراء الاراضي ، مما اثار هواجس الاهالي ومخاوفهم ، فنقرأ احتجاجاً مقدماً من عرب حيفا ضد سياسة الوطن القومي اليهودي مؤرخاً في كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ ، فيه اشارة الى ما نشرته جرائد الاتراك ، قبيل الاحتلال ، عن مستقبل فلسطين ووعد بريطانيا لليهود بتأسيس مملكة يهودية فيها ، غير أننا نتبين فيه ، كذلك ، حسن النية البلهاء ، اذ يقول : « ان الدول المتحالفة لم تخض غمار هذه الحرب الا لتحرير الشعوب والمحافظة على حقوق الضعيف ، ونحن نعترف ان لها اليد البيضاء بمساعدة العرب على انقاذهم من مظالم الاتراك ومنحهم الحرية والاستقلال ..... ولاعتقادنا ان الحلفاء الذين حررونا من رق الاتراك ، لا يمنحونا الحرية والاستقلال بيمينهم ويناولون بشمالهم السم الزعاف الذي يقضي على كياننا ويقتل قوميتنا وينزع منا بلادنا الموروثة بدماء الاجداد » (١٨).

وقد ظل هذا التفكير القصير النظر يسم فكر هذه الطبقة من الوجهاء ويوجه سياستها طوال فترة العشرينات تقريبا ؛ وقد برز ذلك في مقررات جميع المؤتمرات الوطنية التي عقدتها من ١٩١٩ حتى ١٩٢٨ التي ، وان ظلت تلح فيها على فكرة الاستقلال والوحدة العربية والحياة النيابية واستنكار تصريح بلفور ورفض الانتداب وفكرة الوطن القومي اليهودي ، فانها ظلت كذلك تقيم علاقاتها بسلطات الانتداب على اساس الاعتقاد بمبادىء بريطانيا السامية التي ترغب في تطبيقها في العراق وشرق الاردن ، وعلى اساس تأييد المودة المتأصلة بين بريطانيا والأمة العربية اللتين تربطهما مصالح عظيمة . وبذلك تحولت قضية الاستعمار البريطاني ، في نظر الحركة الوطنية ، الى قضية شرف » بدلا من ان تكون قضية مفهوم اقتصادي ـ سياسي تشكل الصهيونية أحدى « ظواهره » فالصهيونية هي توطين فئات أوروبية في الارض العربية ضماناً لمصالح الاستعمار في المنطقة وخوفا من نمو الوعي القومي الاجتماعي لدى الجماهير العربية الذي قد يطيح مستقبلا بمركزها(١٩) . ولربما كانت البرجوازية تتحاشى الموقف القائم على هذا المفهوم الثوري لاحساسها بانه يضر بمصالحها المرتبطة بمصالح الاستعمار ، والقائمة على تبادل المنفعة معها ، في اطار نظام اقتصاد الخدمات الذي خلقه الاستعمار في البلاد ، باحالتها الى سوق استهلاكية لمنتوجاته ومصنوعاته . ولم يكن اقدر من الفلاح الفلسطيني على ادراك هذا المفهوم بابسط اشكاله ، فقد ادرك في اعقاب الحرب انه الضحية الاولى للاستيطان الاستعماري

الصهيوني الذي رآه يطرده من ارضه التي تحمل جور العثمانيين ورضخ لمظالمهم في سبيل الاحتفاظ بها عن آبائه واجداده ، فهي عائله الوحيد ، ومن خلالها يرى مستقبله ومستقبل احفاده . ولذلك لم يكن غريبا ان يظهر تمسكه بها ، فيقاوم اعتداءات الصهيونية ومحاولات طرده من الارض التي باعها كبار الملاك والاقطاعيين ، فكان الفلاحون يرفضون اوامر الحكومة بطردهم من تلك الاراضي ، وقام بعضهم بتأليف بعض العصابات والحركات المسلحة وراحوا يهاجمون بعض المستعمرات الصهيونية وقدموا في سبيل ذلك مئـات الشهداء والضحايا .

وكان مما يثير الحماسة ، في هذه الفترة ، دخول الجيوش العربية دمشق سنة ١٩٢٠ ، واعلان الدولة العربية فيها لفترة قصيرة ، وفي ظل هذا التفكير اصبحت سنة ١٩٢٠ سنة اختناق بالنسبة للحركة الوطنية في فلسطين ، بعد انهيار الحكم العربي الفيصلي في دمشق وظهور المملكة العراقية وامارة شرق الاردن ، فبرزت سياسة فلسطين محددة ومنفصلة ، اذ بدأ الشعب العربي الفلسطيني ، بعد ذلك مكرهاً ، بالمطالبة بالحكم الذاتي في فلسطين وبتأسيس حكومة وطنية تكون مسؤولة امام مجلس نيابي . فقد كان عرب فلسطين يشعرون منذ ابتداء الحكم العسكري ، وبتهيب ، بخطر الانفصال عن الوطن الام ، سوريا ، وكان يؤلمهم شعورهم بمجابهة المصائب التي تبدو لهم في الافق ، وقد اختصوا بها ، وحدهم ، ثم بدأت نوايا الاستعمار البريطاني تتكشف ، اكثر فاكثر ، فنسمع وزير الخارجية البريطانية اللورد كيرزون يعلن في مجلس اللوردات « ان من الخطأ ان نفترض ان الانتداب تفويض من عصبة الامم لبعض الدول بادارة شؤون بعض المناطق لفترة محدودة ، اذ انه في الواقع أمر يدخل في نطاق اختصاص الدول التي غزت هذه البلاد والتي لها وحدها حق اقتسامها » .[٢٠] ثم اعلنت الحكومة في ٢٠ شباط (فبراير) ، من هذا العام ، قرار مجلس الحلفاء بانتداب بريطانيا ودمج تصريح بلفور الذي اعلنته آنئذ رسميا في معاهدة الصلح مع تركيا ، وفي صك الانتداب . وفي مطلع الصيف جولت الاحتلال العسكري المؤقت الى احتلال مدني دائم ، في سبيل اتخاذ التدابير لتأسيس وطن قومي للشعب اليهودي ، على مراحل ، وعُينَ يهودي صهيوني ، معروف بنشاطاته الواسعة في سبيل انشاء هذا الوطن هو : (هربرت صموئيل) ، اول مندوب سام في فلسطين . وكان اول تصريح له ، امام كبار موظفي الحكومة من الانجليز «ان سياسة حكومة جلالته التي جاء لتطبيقها هي تشجيع اليهود على ان تصبح السيطرة لهم على البلاد ، ويمكن انشاء حكومة يهودية »[٢١] .

وبدأت الادارة الجديدة فعلا بتقديم خدماتها للصهيونيين بتسهيل بيع الاراضي لهم والضغط على الفلاح العربي في سبيل ذلك ، وفتح ابواب الهجرة والتجنس امام اليهود ، وبتعيين كبار الموظفين منهم ، خصوصا ، في المناصب الحساسة ، وباعتبار اللغة العبرية لغة رسمية في البلاد وكتابتها على المسكوكات ، وبمنح اليهود الامتيازات الصناعية الضخمة ، وتشجيع صناعاتهم مع محاربة المصنوعات العربية . واعترفت الادارة كذلك باللجنة الصهيونية وبالوكالة اليهودية كمؤسستين رسميتين كأنهما حكومتان اضافيتان في دولة واحدة .

وعلى هذا النمط ، بدأت سلطات الانتداب تطبق سياسة حكومتها في لندن ، فكانت تحرم العرب من انشاء اية سلطة او جهاز اداري نيابي يمثل الشعب تمثيلا حقيقيا ، او يقوم بدور نافع

يدربهم على حكم انفسهم بانفسهم في المستقبل ، في الوقت الذي راحت فيه تعطي كل الصلاحيات الى السلطات الصهيونية واجهزتها المختلفة اعدادا لمستقبل الدولة المرتقبة . واقتصرت في تعاملها مع العرب على تلهيتهم بالمجالس البلدية ولعبة انتخاباتها ، واطلقت عليها وعلى المجالس المحلية تسمية (الحكم الذاتي) مبالغة في رفع قيمتها في اعين الناس . وليتها منحتها الحرية والعدالة ، فبينما نراها تعتني بالمجالس البلدية اليهودية وتهتم بشؤونها ، نراها تهمل المجالس البلدية العربية وتميل بثقلها مع اليهود في مجالس البلديات المشتركة دون ان تقيم وزنا للاكثرية العربية ولا للحقوق الانتخابية ، كما ففعلت بالمجلس البلدي بحيفا ويقول البستاني منبها الناس الى ذلك كأنه يحرك في انفسهم جذوة نار الحق وإرادة الفعل :

منـك الفعالُ ومنـا القـول والهـذرُ	فـافـعـل وفعلك لا يبقـي ولا يـذر
مـا ضـر قـومي وقـد مـاتت قلوبُهُمُ	وهـا القيـامـة قـد قـامت اذا قبـروا
اللـه اكبـر مـا اغنـت ولا درأت	شـرا ولا السمـع اغنـاهم ولا البصـر
ان رحـت تسلبهم حقاً وقـد قـدروا	ان يخسـروه فلـم تسلب ولا خسـروا
مـا الاكثـريـة الا فـعلـهـا واذا	مـا قـلَّ قلّت فـلا شـأن ولا خطـر(٢٢)

ولعله لا بأس في اعتمادنا على شعر البستاني في هذه الفترة التي عز فيها الحصول على شعر غيره ، وامامنا ديوانه ـ الفلسطينيات ـ يشبه ان يكون سجلا لكبريات الحوادث او لما له منها دلالة خاصة ، ولأهم التطورات الفكرية في فلسطين . فمن يتتبع التواريخ المثبتة تجاه العناوين في قصائده الفلسطينيات يتبين مدى التحام شعره بقضية فلسطين العربية الدامية ، منذ تشرين الثاني عام ١٩١٧ ، اذ كان انصرافه لها انصرافا تدل عليه هذه الفلسطينيات ماهية ومدى . والحق انه شاعر خصيب الوجدان ، يقظ العقل ، واعي الضمير ، اتصل بحياة فلسطين السياسية اتصالا وثيقا ، فجاء ديوانه سجلا واضحا يبدو فيه تجاوب الشعر في فلسطين مع احداثها القومية ، وقد خبر خفاياها فلم يبخل على اهلها بالتوعية والتحذير . ومن امثلة ذلك قصيدته في « الرد على الرصافي » ولها قصة نوجزها فيما يلي :

كان رئيس بلدية القدس قد دعا في أواخر كانون الاول (ديسمبر) عام ١٩٢٠ الى احتفال حضره المندوب السامي ، وقد القى أحد اليهود (الاستاذ يهودا) كلمة اتى فيها الى ذكر بعض مآثر العرب وافضالهم ، وثنّى المندوب السامي على ذلك « فصدق ما للعرب من تالد العلى ، وما لهم في العلم من خالد الذكر » . فقام معروف الرصافي ، على عادة الشعراء التقليديين ، يكيل المديح والاعجاب بالخطبتين ، فجعل من المندوب بدرا يحف به الحفل في ليلة محاق كادت تكون ، على علاتها ، ليلة القدر . وراح ، وقد اخطأ وضل ، ونسي او تناسى ظروف فلسطين السياسية يدفع عن العرب تهمة معاداة بني اسرائيل :

وكيـف وهـم اعمـامنـا واليهمُ	يمت بـاسمـاعيـل ، قـدمـا ، بنـوفهـر
وانـي ارى العـربـي للـعـرب ينتمـي	قـريبـا من العبـري ينمى الى العبـر

فتلقفت دار الحكومة قصيدة الشاعر واخذت موافقته على نشرها في الجرائد المحلية ووجهت نسخة من القصيدة مع خطاب مؤرخ في ١٩٢٠/١٢/٢٩ الى صاحب جريدة (الكرمل) بحيفا تطلب نشر القصيدة في جريدته . وابى السيد نجيب نصار ، صاحب الكرمل ، ان ينشر

قصيدة الرصافي ، إلا مردفة برد شاف . فكتب وديع قصيدته التي مطلعها :

خطاب « يهودا » ام عجاب من السحر وقول الرصافي ام كذاب من الشعر

فآثر صاحب الكرمل ان يلام على تخلفه عن نشر بلاغ الحكومة على ان يؤاخذ على نشر الرد . فظفر بالبلاغ وبالرد مراسل جريدة « الف باء » الدمشقية فارسلهما الى جريدته . ولما علم السيد هواري (ابن هراري باشا من كبار يهود مصر) بذلك ، رغب الى البستاني ان يحول دون نشره ، وكان هراري المستشار الاقتصادي لحكومة فلسطين ، وبينه وبين الشاعر (وهو يومذاك سكرتير لغرفة التجارة) شأن خطير . فابرق البستاني الى صاحب « الف باء » يرجو اليه عدم النشر ، ولكن صاحب الجريدة احترم الصداقة شهراً آثر بعده ان يحترم حرية الصحافة ، فنشر ... وكشف ما استتر . وكانت النتيجة ان فارق شاعر العراق وفلسطين مضطرا مختارا وذلك ان شبان فلسطين قاموا يهجونه على صفحات جرائد فلسطين ، ولم تكن ردودهم محدودة بحد . ويقول البستاني في رده على الرصافي :

اجل عابر الاردنّ كان ابن عمنا ولكننا نرتاب في عابر البحر
ايهجر اوربا ليبنيَ (بيته على قبة ما بين مهدي والقبر
اصليت في الاقصى صباحا وفي المسا عشوت مع العاشين للرسم والذكر

وبعد ان يأتي على ذكر بلاء العرب في الحرب وخيانة الحلفاء بتقسيم بلادهم وتقطيع اوصالها يقول :

وقِفْ بي على الاردن وقفة تائه فتهديك اقوال الضفادع في النهر
تنق : بغَرْبِ الماء مُلْكُ وشرقه ممالك ، بئس الكبر من ذلك الصغر
وقِفْ بي على الطور المقدس وقفة نجاوز فيها عالم البحر والبر
هنالك للقبر الكريم كنيسةٌ تذكرنا صلب المسيح مدى الدهر
هنالك للاسلام اول قبلة هنالك سر والحقيقة بالجهر
فهيكلكم يا للكرامة مسجد وفيه نصلي في العشية والفجر
فما بالكم تبكون خلف جداره وتذرون هاتيك الدموع على الصخر !

ثم يخاطب هربرت صموئيل :

انؤمن في بلفور بعد محمد وعيسى وموسى والوزير من الوزر
وريك : لا : فالوحي في الذكر صادق يكذب ما في الطرس من لوثة الحبر
فما بالهم تاهوا وضلوا وضللوا ولم يفقهوا ما جاء في حكمة السفر
« اورشليم » دار الحشر والنشر : حولها تقومون في يوم القيامة والحشر (٢٣)

وهكذا كان وديع يمثل بشعره تيارا وطنيا يقظا راح يغسل به ادران النفوس وينبت فيها بذور الوعي على احوال البلاد ومواقف الاستعمار من العرب وجلبه الخطر الصهيوني الى عقر دارهم . فهو في سخرية واعية هادفة ، يعلن ارتيابه من عابري البحر من المتاجرين الصهيونيين

القادمين ، ليبنوا وطنا قوميا على انقاض المسجد الاقصى وكنيستي المهد والقيامة بمعاونة الحكومة البريطانية اعتمادا على تصريحها بلسان بلفور ... وبذلك يجمع عرب البلاد مسلميهم ومسيحييهم للدفاع عن مقدساتهم وتراثهم في الاراضي المقدسة . وقد شارك الشاعر منذ سنة ١٩١٩ في اظهار احتفالات المولد النبوي بمظهر قومي في حيفا وسائر مدن فلسطين ، حتى اصبح العيد شعبيا ، تسير فيه المواكب عربية صرفا ، يحضرها الرؤساء الروحيون فضلا عن اعيان النصارى دون أن يحضرها احد من اليهود(٢٤) .

ولا بد لنا من ان نكبر الدور الذي قام به الشاعر بوعي واستنارة منذ وقت مبكر ، حتى لنراه مرفوعا على اكتاف المتظاهرين يوم ١٩٢١/٢/٢٨ احتجاجا على تصريح بلفور في وجه المستر تشرشل ، وزير المستعمرات آنئذ ، وكانت الجماهير تردد وراء شاعرنا نشيده الحماسي المثير الذي نحس فيه بأثر الروح الشعبية الصلبة ، وبالحماسة الوطنية ، وبالدعوة الدينية الموحدة الجامعة بين المسلمين والمسيحيين في الاراضي المقدسة . وقد خضع فيه لمعطيات الموقف فجاء نشيده الطويل مجزأً في وحدات صغيرة لكل منها قافية موحدة ، ليناسب مخاطبة الجماهير وترديدها له وراء الشاعر ، قائد المظاهرة ، ومنه :

يا للنصارى والمسلمين لمن تركتم فلسطين
نمتم فقوموا باسم الدين
هذي بلادي ام البلاد مثوى اجدادي والاحفاد
ما للاعادي فيها زاد
قدست ارضا روحي فداها ولست ارضى لي سواها
اموت فرضا في هواها
ربي موحد دين صحيح والارض معبد للتسبيح
يا قوم احمد والمسيح
الله الله الله الله الله الله الله الله (٢٥)

ونحن ندرك ان الناس بدأوا يتنبهون الى خطر الانتداب البريطاني ورعايته اهداف الصهيونية وحمايته لها ، وموقفه ضد العرب ، وان بدا في دور حامي الامن والسلام ، خصوصا ، بعد اضطرابات القدس في نيسان (ابريل) سنة ١٩٢٠ واضطرابات يافا في اول ايار (مايو) سنة ١٩٢١ .

ففي هذا الوقت ، نرى اسكندر الخوري البيتجالي يتملل فيه حس الوعي على الواقع الظالم الذي قام بقدوم بريطانيا وانتدابها ، فيبدو ، في هذه الفترة ، حائرا مرتبكا ، كانه لا يريد ان يصدق دور « الحليف » الذي بدأ يستشعره امام بصره وفي بصيرته من خلال مرارة الواقع المشاهد ، الامر الذي صدم فكره وآماله واحاسيسه ؛ فهو في قصيدة « عيد الزهور » التي نظمها اثر الاضطرابات ، وقد صادف وقوعها يوم عيد الزهور اول ايار (مايو) ، يقول ، مدفوعا بنية طيبة وبروح ساذجة :

في فلسطين كان عيدا ولكن عيد قتل وفتنة وشرور
واضطراب وضجة وعويل بدل الرقص والهنا والحبور

ألهذا عيد الزهور اقمتم ألهذا أقيم عيد الزهور ؟
نحن قبلا عشنا جميعا برغد واتفاق لم ندر معنى النفور
عاش حاخامهم وعاشت شيوخ بسلام كذاك عاش الخوري
فلماذا هذا النفور ؟ وليم لم يتأنّ في وعده (بلفوري)

فهو يحس بالتغيير الذي لف البلاد ، ولكنه يخشى أن يضع يده على موضع الالم ، فلا يقدر على التعمق في معرفة أسباب الأوجاع ، اذ يقصر حسه عن سبر اغوارها ، كأنه لا يزال يعتقد أن في الامكان أن تتراجع بريطانيا عن مخططاتها ، بمجرد مشاهدة بعض مظاهر الشرور وبقع الدماء تسيل على ارض الشارع ، فيقول مخاطبا أهل السلطة :

أيها السادة الألى يحكمونا وبأيديهم زمام الامور
حسبنا ما نرى وما سنراه في فلسطين من ضروب الشرور

وبطبيعة الحال ، فنحن لا نرى أن هذا الشعر، يرقى الى مستوى المقاومة ، سواء في مضمونه أم في بنائه وشكله الفني . ويكفينا أن نرى فيه تحركا من الشاعر ، في فترة نحس بتجمد الشعر وأصحابه خلالها ، فنستشف منه موقفا في هذه الفترة المبكرة من عهد الانتداب البريطاني التي هي أشبه ما تكون بفترة انتقال سياسي تتدرج معالمها في الاتضاح مع الأيام وتطور الأحداث . فالشاعر ، بالرغم من « تخوفه من الموت غما ان لم يبح بهذه النفثة » ، لا يجعلنا نحس بتجربة عميقة لديه في هذا الموقف ، وإنما كل ما يتبدى على السطح عواطف باردة واحساس عقلي متبلد حجر عليه صاحبه في اطار التفكير المجرد والمطلق في شرور الحرب العامة وويلاتها ، ثم في قفص الآمال التي لا تزال تراوده في دعوة الحلفاء الى الحرية وحقوق الغير ، دون أن يقف على خصوصية واحدة من خصوصيات الأحداث الدامية التي شهدتها يافاوقراهـا المسالمة ضمن الاراضي المقدسة ، وأثر مثل هذه الخصوصية في نفسه ووقعها في بيئته وعلى الناس من حوله ، بل على العكس فلربما بدا اهتمامه باحوال « سائر المعمور » ومآسيها أقوى من اهتمامه بأحوال يافا ومأساة أهلها :

أفبعد الحرب الكبيرة حرب وقتال أيا رجال النور ؟
أو لم يكف ما مضى من حروب لم يثرها سوى سبيل الغرور ؟
أو لم تشرعوا السيوف دفاعا عن حقوق المظلوم والمغدور ؟
أو لم تسمعوا انين الثكالى أو لم تنظروا دموع الفقير ؟
فلم المذبحات في كل يوم عندنا بل بسائر المعمور ؟

ثم هو ، وبدلا من أن يكون داعية في بني قومه الى الاهتمام بظروفهم والاشتغال في سياسة بلدهم والتنبه لما يحاك لها من دسائس ومخططات استعمارية ، نراه يتبنى دعوة الاستعمار والرجعية والزعامة التقليدية بالتفرغ للأعمال المعيشية والابتعاد عن الاهتمام بالسياسة ، هذه الدعوة التي قد تصلح في مجتمع راق متحضر ، ترسخت فيه جذور الحرية والديمقراطية ، ونمت اشجار الثقة بين الحاكم والمحكوم ، فهو يقول نافضا يده من تبعات (مغامرته) في الحديث عن موضوعه :

لست يا قوم للسياسة اهلا	إنما تلك نفثة المصدور
انا لو لم ابح بها مت غما	لا رعى الله يوم عيد الزهور(٢٦)

ولكن الشاعر لا يستطيع ، هو نفسه ، أن يطبق دعوته هذه في بلد المقدسات ، وقد اخذ الاستعمار يحرق اطرافها، وراح يحوك حوله حبائله التي جهد في أن يعطيها الشرعية في موتمر سان ريمو (١٩٢٠) وفي معاهدة سيفر (١٩٢٢)، بالموافقة على انتداب بريطانيا على فلسطين واقرار تصريح بلفور وتسهيل اقامة الوطن القومي اليهودي، وبذلك تقدمت فكرة العمل بإنشاء هذا الوطن، خطوة جديدة الى الامام باضفاء شرعية دولية عليه. فاثر توقيع المعاهدة، وجد شاعرنا نفسه في خضم احداث جديدة وضعته، وجهاً لوجه، امام مسؤوليات وطنية لا يمكنه التهرب من تحمل اعبائها، فنظم قصيدته «ذهب اللهو» دون ان يستطيع التخلص فيها من روح المحافظة الفنية، اذ سار على النمط التقليدي في تجريده (هنداً) يخاطبها،فيعيد على اسماعها اخبار ايام الصفو والهناء التي حل بدلاً منها تحكم الاجانب فبخسوا الشرق حقه، اذ رموه بدواهي السياسة وطغيان الزمان، ثم يطلب اليها التنبه الى الغرب وعهوده البالية، ويذكر بأيام عز العرب ايام كان الغربي غرا جهولا، ويتساءل مستغرباً:-

فعلام اليوم الغزاة استبدوا	او ما كنا دولة غازية

ويشير الى دور العرب في الحرب ضد سلطانهم ودول المحور ، ويرى أن الزمان قد أصبح خبيثاً ، اذ سادت فيه وحوشه الضارية ، ويدعو الى سياسة الدهاء والقوة والفداء التي لا بد للعرب من انتهاجها في سبيل حياة كريمة ، فيخاطب فتاته :

أبلغي العرب أنهم لن ينالوا	الحق الا ما بعزمة ماضيه
أبلغيهم أن لا احترام لقوم	ليس فيهم شبيبة فاديه(٢٧)

وينصرف شاعرنا في هذه الآونة الى وضع ثلاثة أناشيد(٢٨) وطنية لبعض أنديه القدس ، فيبث في هذه الأناشيد روح القوة وحب الوطن وافتداء الأرض ، أرض الديانات السماوية ، ويحث على الوحدة الوطنية ، بين المسلمين والمسيحيين ، ليقف الجميع أمام أطماع الأعداء ، وليعيدوا تاريخ العروبة وأمجادها في هذه البلاد . ويلاحظ أنه يركز في نشيدين منها على الاتحاد وعلى تعليم المرأة ، لترقية الوطن والشرق بعامة . ونشيد « بلادي ما احيلاها » أفضل هذه الأناشيد وأخفها على السمع ، فيه حركة وفيه انسجام وتسلسل وتناسق . وتتسم الأناشيد ، بمجموعها ، بروح وطنية صادقة اضفت عليها شيئا من عاطفة الشاعر التي نفتقدها كثيرا في قصائده .

وفي هذه السنة ، وبعد اعلان الانتداب البريطاني ، طفقت حكومة الانتداب تعمل على ترسيخ جذور « الوطن القومي » في البلاد . فأصدرت الكتاب الابيض مفسرا لتصريح بلفور ومتضمنا معنى ترقية الوطن القومي اليهودي وسياسة تطبيقه « زيادة في الطائفة اليهودية » بمساعدة اليهود الموجودين في جميع انحاء العالم حتى تصبح (فلسطين) مركزا يكون فيه

للشعب اليهودي برمته اهتمام وفخر من الوجهتين الدينية والقومية ، ولكن كي يكون للطائفة اليهودية امل وطيد في تقدمها الحر ، ويُفسح للشعب اليهودي مجال واف يظهرُ فيه مقدرته ، كان من الضروري ان يعلم أن وجوده في فلسطين هو « كحق وليس كمنة » . وذلك هو السبب الذي جعل من الضروري ضمان انشاء الوطن القومي اليهودي ضمانا دوليا والاعتراف رسميا بأنه يستند الى صلة تاريخية قديمة (٢٩) . وفي هذه السنة ايضا صدر عن البلاط الملكي في قصر بكنجهام في ١٤ آب (اغسطس) ، مرسوم دستور فلسطين ، فكان « قانونا قاسيا للعقوبات ، وكان لائحة ممتدة من صك الانتداب لتنظيم عملية التهويد ، وكان اطلاقا لليد الحمراء الرسمية تعمل كل ما يبدو لها من اجرام في سبيل التهويد دون رادع من دستور او خوف من قانون ، بل في حماية دستور لا يلتزم بالعدالة في معناها المتوارث » (٣٠) . وعلى هذا درجت حكومة جلالته ، فلم تعر مطالب العرب الدائمة ، بتشكيل مؤسسات الحكم الذاتي المنصوص عنها في الفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من صك عصبة الامم ، والمادة الثالثة من صك الانتداب ، أيَّ اهتمام ، فقد ادارت البلاد كاحدى مستعمراتها، اذ مارست السلطتين التشريعية والتنفيذية بوساطة المندوب السامي وضباط ادارته ، بعد ان فشلت كل مشروعاتها التي عرضتها في سبيل تطوير وهمي للحكم الذاتي ، وشغلت بها الحركة الوطنية في بداية العشرينات ؛ وكانت قد عرضت على العرب فكرة المجلس التشريعي عام ١٩٢٢ ، ثم فكرة المجلس الاستشاري واخيرا فكرة « الوكالة العربية » (٣١) في مقابل الوكالة اليهودية ، ولكن بفارق ، تجريد العرب من حقوق الأكثرية ومزاياها الطبيعية المشروعة ، ودون ان يكون لكل هذه المشروعات أية سلطة حقيقية ، ولذلك كانت محل معارضة العرب الذين زاد في نقمتهم احساسهم بتعاظم خطر الهجرة اليهودية وازدياد حجم الاراضي التي تتسرب الى اليهود بتسهيل الحكومة ، فسادت موجة من خيبة الامل غمرت مشاعر الناس وانفسهم حتى انهم راحوا يستعيدون ايام الاتراك ويتندمون عليها (٣٢) . وتحت تأثير هذه الحال نظم وديع البستاني في تشرين الثاني قصيدته « إنه اللّه - يحب العربا » ، ومطلعها :

وجب الحب وقلبي وجبا ... يا بلادي ، وقضى ما وجبا

ومنها :

يا بلادي انت لي كل المنى ... ويموتي فيك اقضي الاربا
يشتكي قوميَ من يوم اتى ... بعد امس طاب لما ذهبا
انكروا السيد فيهم حاكما ... فاتاهم حاكما منتدبا
فمتى يخرج فيهم مصطفى ... يرغم الدهر اذا الدهر ابى
ليس يستجدي الليالي حقه ... انما يسلبها ما سلبا

وهذه نبرة جديدة على الشعر في عهد الانتداب ، فيها دعوة الى القوة ، وفيها بيان للناس في حب الاوطان والفداء في سبيلها . ويبلغ عنايته في دعوته الجديدة المثيرة عندما يقول :

واذا ما غصب الدهر فلا ... تلتمس من كفه ما غضبا
قم الى سيفك واضربه ولَمْ ... ضعف يمناك اذا السيف نبا

وهو ، وان نحا في مطلع قصيدته منحى تقليديا ، حاكى فيه القدماء ، فلعب بالألفاظ ، وذكر ، كالمجنون ، ليلاه ، وختم القصيدة بذلك ، الا انه ظل واقعيا واعيا موقفه فلم يطغ التقليد على روح الشاعر وخصوصية الموقف ، بل على العكس ، اذ انه استخدم ، بوعي ، سمة التقليد هذه وسخرها لخدمة موقفه وفنه :

واذا غنيت ليلى في النوى بعدما غيرك ليلاك سبى
فعلى رسلك يا مجنونها انما انت تغني كذبا (٣٣)

والحق أن الحركة الوطنية في فلسطين ظلت ، منذ الاحتلال ، تتوجه مباشرة ، في صلب نضالها نحو الحركة الصهيونية ومقاومة تصريح بلفور وسياسة الوطن القومي اليهودي ، متخذة من مقاومة اخطار الصهيونية محور عملها وذلك بسبب ما احسه الاهالي من هذه الاخطار المباشرة ، وفي وقت مبكر ، منذ بدء عمليات الاستيطان وتملك الاراضي وغمر الهجرة اليهودية التي كانت ترد قوافلها على البلاد ؛ وبسبب اساليب الاستعمار البارعة في توجيه حركة هذا الاتجاه بتخويف الطرفين كل من الاخر ، والتظاهر بالقيام بدور المحامي العادل الذي لا يستغنى عنه في هذه المعادلة بين الشعبين على وطن واحد ، وساعد على ذلك رواسب المجتمع المتخلف وضعف الحركة الوطنية ، خصوصا ، بعد القضاء على الدولة العربية في دمشق واحتلال جيوش الحلفاء لكل من سوريا والعراق وانشغال كل منهما منفرداً بمقارعة الاستعمار وجيوشه المحتلة . وكان هذا صحيحا في عمومه ، ولكننا مع ذلك نرى بدايات تنبه الحركة الوطنية على موقف الاستعمار الحقيقي ، وبدايات التملل من تحت ضغوطه وتوجيهه ، فيخرج المؤتمر الوطني الفلسطيني السادس المنعقد في يافا عام ١٩٢٣ بقرارات ، من جملتها وجوب الامتناع عن دفع الضرائب ، مما كان له اثر كبير في شل حركة السلطة ، ورأى الانجليز في ذلك ، حتى من كان منهم يشجع العرب على مصاولة اليهود ، احتمالات بعيدة المدى ضد السياسة والمصالح الانجليزية مباشرة . وربما كان موقف الحركة الوطنية هذا بمثابة الجنين في هذه الفترة ، لكننا نرى الشعر سابقا على الحركة الوطنية فيه ، فمن خلال ما عرضنا من شعر نحس ببدايات لمس الشعراء فيها وتر الاستعمار والانتداب ونبهوا الى ضرورة الحذر من اخطارهما ودعوا الى مقاومة هذه الاخطار . ويمكننا ان نقع على هذا الموقف بشكل اكثر صراحة في قصيدة (لا وصاية ولا انتداب ولا انتخاب) لوديع البستاني ، وكانت البلاد قد قاطعت الانتخاب للمجلس التشريعي الابتر والاعرج الذي عرض فيما سمي الدستور (لسنة ١٩٢٢) ، وما هو الا « امر الملك بمجلسه الخاص » القائم على الانتداب ، القائم على الوطن القومي اليهودي . وهي القصيدة التي مطلعها :

ارى حربا ولست ارى جِرابا وحبل السلم يضطرب اضطرابا

ومنها في مجابهة اصحاب الانتداب وانكار وصايتهم واغتصابهم :

وقد قلبوا المجنّ لنا وباتوا وقد غلطوا فاغلظنا الجوابا
وانكرنا وصايتهم علينا وقد جعلوا بوادرها اغتصابا
ولم نتدبهم للامر فينا وقد حكموا وسموه انتدابا

ومنــوا انــهــم قــد حــررونــا اذا ملكــوا المــرافق والــرقــابــا
اتــونــا يحملــون لــهــم وطــابــا ولكن بئس مــا مــلأوا الــوطــابــا

وفي معارضة طبخة الدستور وما تقرر فيها من انتخابات شكلية ، وفي آثار الانتداب المدمرة يقول :

ودســوا السم في الدســتــور دســاً فمــا ذقنــا الطعــام ولا الشــرابــا
ارادوا الانتخــاب ولــم نــرده فقــاطــعنــاه وانقطــع انتخــابــا
وحسبــهــم مــن السنــوات خمس سلخنــاهــا بصحبتهم صــعــابــا
ولا سلــم ولا حــرب ولكــن عمــار قلوبنــا امسى خرابــا (٣٤)

ومن الطبيعي الا يسمح الاستعمار لهذا الجنين بالنمو ، وهو المتنبه لتطور الحركة الوطنية ، يرقبها بكل انتباه وحذر ، فسرعان ما أحاطه بجو مسمم فاسد يقتل فيه كل امل في الحياة والتطور ، اذ عمد الى بث روح التناحر والهاب نيران الشقاق والفتنة بين الزعامات العربية ، وهي مهيأة سلفا لمثل هذا الدور ، لتأصل العصبية القبلية التي تقوم في فلسطين على اساس النزاع العربي بين القيسية واليمنية (٣٥) ، وتعكس تقاليد هذا النزاع البالية حياة الوجاهة الاقطاعية في فلسطين ، التي وجدت في البلديات والمجلس الاسلامي الاعلى وفي الاحزاب مجال التناحر والتطاحن الذي لا طائل من ورائه للوطن ، حيث لا نكاد نرى شيئا يشغل اهل البلاد منذ عام ١٩٢٤ اكثر من خلافاتهم المحلية وتناحرهم الحزبي ، وكلاهما كان صراعا شخصيا وعائليا على كراسي الزعامة والوجاهة اكثر منه خلافا على وجهة نظر وطنية ، اذ يكاد العمل الوطني يكون نسياً منسيا في خضم الخلافات والتكتلات الأسرية ، مما اتاح الفرصة امام دعاة التعاون مع سلطات الانتداب الى الاعلان عن انفسهم وكشف وجوههم علنا حتى في بناء علاقات لهم مع الصهاينة ، وكان الانجليز قد فطنوا الى لعبة الكراسي ، لدى الزعامات العربية ، وخططوا لها منذ وقت مبكر ، فعند الاحتلال ، ابقى الجنرال اللنبي (موسى كاظم الحسيني) رئيسا لبلدية القدس ، ولكنه نحاه عن هذا المركز عام ١٩٢٠ بسبب اشتراكه في مظاهرات القدس ، في هذا العام ، وخطابته في الجماهير ، وعين بدلا منه (راغب النشا شيبي) ، مستغلا في ذلك التنافس العائلي القديم بين الأسرتين منذ ايام العثمانيين . وفي سبيل خلق وضع متوازن بين احلاس السلطة الذين اعمتهم منازعاتهم في لعبة الكراسي هذه ، عين المندوب السامي عام ١٩٢١ (الحاج امين الحسيني) مفتياً لفلسطين ، مراضاة لأسرته ، وصقلا لقيد الوظيفة ، وتنفيسا لغضب الشعب بعد اضطرابات يافا في أيار (مايو) من هذا العام .

ومنذ بداية العشرينات ، خرجت سلطات الانتداب ببعض صنائعها ، على شكل احزاب موالية لها ، عملا على تفتيت الوحدة الوطنية وضرب حركتها . ففي عام ١٩٢١ ، شكلت الجمعيات الاسلامية الوطنية ، في حيفا ويافا والقدس ، مقابل الجمعيات الاسلامية المسيحية ، واعلن القائمون عليها موافقتهم على الانتداب وكان لها صلة ببعض الصهاينة في فلسطين (٣٦) . وعام ١٩٢٣ تشكل الحزب الوطني ، وعقد اجتماعاته الاولى تحت حراسة سيارات الانتداب المصفحة ، وكان رئيسه الظاهر سليمان التاجي الفاروقي والمستتر راغب النشا شيبي ، وكان الحزب تجمعا عائلياً من طبقة اصحاب المصالح ، اكثر منه حزبا بالمعنى المفهوم ، وقد اعلن

سياسته على اساس (خذ وطالب) . ثم تشكلت عام ١٩٢٤ الاحزاب القروية او الاحزاب الزراعية التي سلكت سبيل التوجيه الاجتماعي ، في الوقت الذي ايدت فيه الانتداب ، ودعت الى التعاون العربي الصهيوني . ثم انشىء في اواخر نيسان (ابريل) عام ١٩٢٥ ، حزب الاهالي ، مظهرا جديدا من مظاهر العائلية في نابلس ، وكان هذا الحزب ، مثل غيره من الاحزاب ، مؤيداً لنفوذ القائمين عليه ولمصالحهم اكثر منه معضداً للحركة الوطنية (٣٧) . ونشط ، كذلك ، في هذه الفترة سماسرة بيع الاراضي ، فراحوا يعقدون الصفقات دونما خوف ، اذ خمدت الروح الوطنية . وتميز عام ١٩٢٤ عن سابقيه بالاستقرار الثابت والسلام العام ، الا ما كان من اصطراع الحركة الوطنية في داخلها ، حتى لم تعد قادرة على عقد مؤتمرها السابع الذي كان مفروضا ان يعقد في هذا العام ، وظل أمره معلقا حتى عام ١٩٢٨ . وكان طبيعيا ان يظهر بين الناس تيار الدعوة الى التصافي والتعاون بين الزعامات والقيادات ، تفانيا في سبيل القضية الوطنية . وكان هذا التيار قائما في معظمه على نوايا طيبة لدى المواطنين العاديين الذين لم يكونوا يدركون طبيعة زعاماتهم ونفسياتها ، وظنوا ان المسألة مجرد مسألة هداية ، وليست مسألة تكوين وبناء ثقافي ونفسي ، وان الوعظ والضغط قد يفيدان في رأب الصدع ، وتكتيل القيادات .
ولن نعدم صوت الشعر ، من على هذه المنابر الوعظية ، اذ نراه يأخذ دوره ، فيضع شاعرنا الشيـخ سليم ابو الاقبال اليعقوبي (٣٨) (حسان فلسطين) ، يده على موطن الداء ويشخص دور الانجليز في تأريث نار الفتنة وبناء « سياسة التفريق والتمزيق » ، وفي ابتلاء فلسطين بالصهيونية وغزوها بالبلشفيك من اليهود الروس :

عملت سيـاستهم عـلى التفـريق … عمـل ابن صهيـون ، عـلى التضييـق
هـم مـزقـوهـا اليـوم ، كـل ممـزق … والشـر كـل الشـر في التمـزيـق
لا يـريـأون بـامـة عـربيـة … كـانـت تمـدهـم بـألـف صـديـق
غـدروا بهـا غـدر الـزمـان بشـاعـر … حـر ، وغـدر البـؤس بـالمنطيـق
قـالـوا نحب العـرب من عهـد مضى … حـب الاديـب لشـعـره المنسـوق
كـذبوا ، فـدعـوى الحب فـريـة كـاذب … مـا للـعـدى في حبنـا مـن سـوق
لـو كـان بـين الـغـادريـن وبينـهـم … حـب ، وان الحـب خـير رحيـق
مـا حكّموا في الـعـرب اشقـى امـة … خلقـت ، ومـا خلقـت لـرتـق فتـوق
ففـرت فلسطـين البـغـاة ، بمـديـة … مـا كـان اجـدرهـا بفـري النـوق
والبـعض منـا غـير مكتـرث بمـا … يجـري ، كـأن الخطـب غـير حقيـق
أو أنـه ـ والمـال مـلء وفـاضـه … منـهـا ـ يـرى بلـفـور رب حقـوق
تـا للّـه ، مـا بلفـور ، والقـوم الألى … مـرقـوا مـن الانصـاف شـر مـروق
الا كـداء السـل لا يبقـى عـلى … مثـر ، اذا مـا جـاءه ، ورمـوق (٣٩)

ونلمس بوضوح ، في هذا النظم ، أثر روح الجمود الفني ، والتقليد الباهت الذي يعبر عن وهن الموقف السياسي الباهت . فهو ، وإن أثاره واقع الحال المرير فتناول بنظمه موضوع الساعة الوطني آنئذ ، فقد جال فيه بروح التقليد ، وبنظرة ابن العهد الماضي ، ولذلك جاءت افكاره الجزئية وكأنها اشلاء جامدة ولا حركة فيها ولا نفس ، وان جمعها اطار الموضوع الحي ،

وكذلك جاءت تشبيهاته وصوره باهتة لا حيوية فيها ولا ايحاء ، بل على العكس ، فهي تلحق بقارئها عدوى الفتور ، وان حسنت نوايا صاحبها ، فنظم قصيدة يحض فيها ، على نبذ الاحقاد والتنابذ والشقاق ويدعو الى الوحدة الوطنية ، حيث :

ان التحـاقـد والتنـا بذ والتشاقق لا يفيد (٤٠)

ويبدو ان الحال بلغت حدا من الهوان والضعف ابكت شاعرنا ، اسكندر الخوري ، فاستوحى من اوضاع عام ١٩٢٤ السيئة صورة حزينة باكية ، ولكنها مؤثرة وفاعلة في النفس من خلال عاطفة قوية تتبدى في انفعال فني صادق واحساس عميق بفداحة الخطب ، ومن خلال صحوة فكرية واعية ، وتنسيق فني موفق في تنظيم مقطوعات القصيدة وبث موسيقاها وتوزيعها على هذه المقطوعات واتساقها في سهولة مع الفاظ القصيدة البسيطة واساليبها التعبيرية المتنوعة الموزعة بين الإخبار والسؤال والخطاب ، الممزوج بينها كلها في فنية وبراعة ، قادت في النهاية الى باب الامل السعيد والغد المرجو . ولربما كانت هذه الدرجة من الفنية التي يبدو فيها شاعرنا غريبة عليه ، وقد خبرنا دواوين شعره . ولا يطول استغرابنا اذا عرفنا انه في قصيدته هذه (فعودي يا سما سلمى) انما يقلد ميخائيل نعيمة في قصيدته المؤثرة « اخي »(٤١) التي قالها في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، وقد جاراه وزناً وتشكيلاً وتنسيقاً ، واستغل ذلك كله استغلالا جيدا في موضوعه ، يقول :

بكيت ولم ازل ابكي على الدنيا ومن فيها
فهل تبكي هي سلمى على الدنيا واهليها
فقد بتنا كوحش الغا ب يأكل بعضنا بعضا
وضاع الحق في الدنيا وبات الغالب الاقوى .
نعم فلنبك يا سلمى
لقد جفت ينابيع الـ وفا واستفحل الشر
فكم جان على الاوطـ ان غر طبعه الغدر
وقد خلع العذار ولم يصن عهدا ولا عرضا
لقد صمت بنا الدنيا الا فلنبك يا سلمى
نعلم فلنبك يا سلمى
لقد نمنا فلا عجب اذا جعنا اذا متنا
اذا الغربي ارهقنا فلا عجب فقد نمنا
اذا بتنا بلا وطن فذاك لاننا مرضى
اذا لم تشف اخلاق لنا مرضى فوالهفي
على الاوطان يا سلمى (٤٢)

وهكذا تورط الناس في جو من المهاترات وانواع الصراع ، وجاءت انتخابات المجلس الاسلامي الاعلى في عام ١٩٢٥ لتحقق هذا الانقسام وتزيد في حدته ، وتقوي اندماج الناس فيه « بتأثير ما اعتادته فلسطين وما لم تنقطع صلتها به من حزبية القيسية واليمنية » ، وانقسموا الى مجلسية ومعارضة ، ونسوا او كادوا ينسون الحركة الوطنية .

«وهكذا كان في فلسطين عام ١٩٢٥ منظر كريه بائس ومحزن ومؤسف معا اختلط فيه الحابل بالنابل » ، وتساند فيه المخلص مع المغموز وفسدت فيه المقاييس وانحطت الاذواق والاخلاق وضاع المنطق والاذعان ، وتوطدت اكثر من اي وقت الحزبية الشخصية والمحلية العمياء حتى صارت هي الناظمة لصلات الناس ، ولم يظفر في هذه المعركة غير السلطات لانها حطمت الخطة الوطنية الثنائية او الخنثوية ، كما يسميها احد مؤرخي هذه الفترة ، اي فكرة التعاون مع الانجليز ، في الوظائف واللجان الرسمية وشبه الرسمية ، والمأجورة والفخرية . وعقد الصداقات والترويج لمطالبهم ومداراتهم مع معارضة الحركة الصهيونية (٤٣) . ولهذا كانت البلاد خلال عام ١٩٢٥ هادئة بدرجة غير عادية ، اذ تقوضت الحركة الوطنية اوكادت ، حتى ان سكرتير اللجنة التنفيذية (٤٤) تقدم بمذكرة الى المندوب السامي مؤرخة في ١٩٢٥/٨/٣ يطلب فيها وضع دائرة الهجرة في يد نزيهة ومحايدة ، وكف يد الصهيونية عنها، وبذلك يكون قد اعترف بمبدأ الهجرة اليهودية الى فلسطين . ولربما كان من اسباب هذا الهدوء ، هدوء احوال الاقطار العربية المجاورة في هذه الفترة باستثناء سوريا وثورتها عام ١٩٢٥ ، وان ادت الى تدعيم الادارة في فلسطين ، لمحاولات فرنسا كبح جماح الثورة بزيادة اليقظة على الحدود ومنع لجوء الوطنيين الى فلسطين وشرق الاردن . وكان من اسباب هذا الهدوء ايضا « هبوط حدة الخوف العربي من الوطن القومي اليهودي بسبب الازمة التي انتابته ... ففي هذه الفترة بالذات ، اجتاحت اوروبا الشرقية ازمة اقتصادية انعكست في وقف نمو الوطن القومي اليهودي فتضاءلت الهجرة وتضخمت البطالة وزاد عدد المهاجرين من البلاد على عدد المهاجرين اليها (٤٥) . وقد عبر اسكندر الخوري عن هذه الفترة القلقة من تاريخ البلاد ، وعن تلك السلبية التي انتابت الحركة الوطنية ، في منتصف العشرينات بقصيدته ، « او بعد هذا من خلاف » ، فصور الصراعات الشخصية في سبيل الجاه والثراء ، في الوقت الذي كان فيه الاجانب يتحكمون باقتصاديات البلاد والوظائف فيها ، وأبناء البلاد يعيشون في حال من العدم والفقر ، متنكرين في اوطانهم ... ومنها :

كـل يسـير الى الامـا ... م ونحـن نمشي القـهقـري
لا عيشنـا عيش ولا ... شبـه لنـا بـين الـورى
هُنّـا فـاصبحنـا كـأنـعـا ... م تبـاع وتشـتـرى
في ذمـة المـاضـي لنـا ... مجـد تـركنـاه ورا
نبـغـي اعـادتـه ونحـن ... مشتتـين* كمـا تـرى
فلـذاك لا عجـب اذا ... فينـا البـغـات تنسـرا
متحكمـا في ارضنـا ... متنفـذا مستكبـرا
بمـهـاجـريـن اخـالـهـم ... جـاؤا الينـا عسكـرا
وابـن البـلـد يسـير في ... اوطـانـه متنكـرا (٤٦)

وبعد ان كنا رأينا الشاعر في قصيدته (ذهب اللهو) ، يحاول التمرد على واقع الانتداب ويدعو الى بناء « الشبيبة الفادية » وتوفيرهم للوطن طلابا للعز ، وتصورنا انه ناهج منهج ابن

* « مشتتين » وردت هكذا .

حجر في وداعه اللهو ، فاننا نرى ان اوضاع البلاد التي آلت اليها من الضعف والهوان ، قد ارتدت به الى الوراء فنكص على عقبيه كأنه عاد الى سابق انتكاسته بثقته في الانجليز وانخداعه بهم ، ففي هذا الجو الاستسلامي الذي عاشته فلسطين في هذه الفترة نتيجة هوان الزعامة فيها وتناحرها ، نسمع صوت شاعرنا بمناسبة قدوم اللورد بلفور الى فلسطين عام ١٩٢٥ ، كأنه يخيل اليه ان الانجليز انما خدعوا اليهود في تصريح بلفور ، فهو لا يزال يحمل بين ضلوعه ثقة لهم في غير محلها ، يقول :

وعد وما هو كالوعود ... خدعوا به امم اليهود
ام تنوّم طفلها ... والطفل يخدع بالنشيد
كالمغرم المفتون يقنع بالتعلل بالوعود
والختل شرع في السياسة ... ليس بالامر الجديد(٤٧)

وفي هذا الجو ، الذي تمكنت الحكومة البريطانية من خلقه في البلاد توفيرا للظروف التي تبتغيها في سبيل اهدافها المشتركة مع الصهيونية ، لم يكن غريبا ان يقول مثلها في احدى مناقشات عصبة الامم بجنيف عام ١٩٢٥ ، حول تأسيس مجلس تشريعي بفلسطين ، « لا يمكن انشاء مجلس تشريعي في فلسطين يكون العرب فيه ممثلين بحسب عددهم ، لأن ذلك يحول بين الحكومة وتنفيذ الواجبات المفروضة عليها بانشاء الوطن القومي اليهودي (٤٨) . وكذلك لم يكن غريبا ان يصدر المندوب السامي ، في اواخر هذا العام ، بيانا رسميا يشكر فيه حسن التلبية لندائه باعتبار اليوم الحادي عشر من تشرين الاول (نوفمبر) تذكارا للهدنة وتكريما للسلام ، كما يطلب فيه من الشعب ، استهانة واستخفافا ، ان يؤموا المعابد في اليوم التاسع من كانون الاول (ديسمبر) ، شكرا وحمدا ، من اجل تحرير القدس ، ذلك والثورة السورية ، في الشمال ، في ابانها .... ولكننا مع ذلك لا نعدم صوت الشعر يأتي الى المندوب السامي ليسمعه صوت الشعب الحقيقي ، ويزيل الوقر من اذنيه . وكان ذلك الصوت من على قلم شاعرنا المناضل البستاني فقد نشر قصيدته « صوت الشعب » بهذه المناسبة في جريدة « صوت الشعب » التلحمية في ١٩٢٥/١٢/٩ ، وفيها يخاطب المندوب المارشال اللورد بلومر بقوله :

فديتك أيهذا المارشال ... اهذا القول اولى ما يقال
انحمد هدنة كذبا وزورا ... وتلك الحرب قائمة سجال
قتال في الشمال ونحن منه ... جنوبٌ والشمال لنا شمال
فما اهلوه الا الاهل انا ... - تقول عروقنا - عم : وخال

وحول دعوى المندوب في تحرير القدس ، يسائله الشاعر عمن حررها وما معنى تحريرها وسيف ارهابه مسلط فوق رقاب اهلها واهل باقي فلسطين ، ثم يتوعده بمبادأة النضال يوما ، كما يناضل اخوانه العرب في سوريا في الشمال ، يقول :

اتحرير وسيفك فوق رأسي ... لعمرك انه القول المحال
لئن سبق الشمال الى نضال ... ففي هذا الجنوب غدا نضال (٤٩)

ويأتي هذا الصوت ايضا من على قلم خليل السكاكيني (٥٠) ، في صورة انشودة نظمها ، عام ١٩٢٥ ، وفيها نحس شيخوخة العزة والأنفة العربيتين ، اذ بدا فيها لهاث الفترة ، لضعف الحركة الوطنية ، رغما عن الشاعر الذي لم يكن يرغب الا في ان يعكس روح الق وعزم الشباب . ولربما طغى عليه الشعور الحقيقي في اللا وعي حول اوضاع البلاد ، فانحس من خلال سماحة وبساطة النظم الذي ، وان حمل شعور المكابرة ، فقد نقل مشاعر الاسقاط الدال على الوهن في كلمات (العجز والتأني والتهوين والحلم والتوهين) :

نحن قوم ابيونا — لا نقر الاذى فينا
لا نبالي منايانا — في سبيل امانينا
يا بلاداً ورثناها — عن جدود ميامينا
ان يهاجمك زرزور — يلق منا شواهينا
يا بلاداً هويناها — واتخذنا الهوى دينا
ستظلين في عز — وامان بأيدينا
لا يغُرَّ العدى منا — مذ تمادوا تأنينا
ليس عجزاً تأنينا — انما كان تهوينا
نلزم الحلم ما دمنا — لا نرى الحلم توهينا
ان ظلمنا تجد انا — قد غدونا مجانينا(٥١) .

---

(١) انيس المقدسي ، « العوامل الفعالة في الادب الحديث » ، الحلقة الاولى ، ص ٨٥ .

(٢) انظر الى بعض نتائج الثورة العربية الكبرى : عبد الرحمن الشهبندر وآخرون ، « وجهات نظر في الثورة العربية » ، « دراسات عربية » ، بيروت ، العدد الثامن ، السنة الثانية ، حزيران ١٩٦٦ ، ص ١٣ + ناجي علوش ، « نماذج من معالجات الشيوعيين للقضايا العربية » ، المصدر نفسه ، العدد السادس ، ص ٦٠ .

(٣) خليل السكاكيني ، « كذا انا يا دنيا » ، القدس ، المطبعة التجارية، ١٩٥٥ ، مذكرات السبت في ١٧ /١١/ ١٩١٧ .

(٤) راجع في احوال البلاد تحت الحكم العثماني ، اسكندر الخوري البيتجالي ، « ديوان مشاهدة الحياة » ، القدس ، مطبعة بيت المقدس ، عام ١٩٢٧ ، الجزء الاول ، قصيدة « الجندي الفار » ، صفحة ٩٤ ، وقصيدة « فلسطين » و « المنقذون » ، ص ١٠٧ .

(٥) « الزفرات » ، بيت المقدس ، الطبعة الاولى ، عام ١٩١٩ ، ص ٩٢ ـ ١٠٠ (ووردت القصيدة في ديوانه « مشاهد الحياة » ، صفحة ١٠٠ ـ ١٠٦ وقد حذف بعض التخميسات في مدح القائد الانجليزي اللنبي ، واجرى تغييرا على بعضها الآخر ، فوردت التخميسة « بني التاميز ... » هكذا :

بني التاميز قد فزتم — وبالارواح قد جدتم
وبالانقاذ قد جئتم — فهل انتم كما كنتم
رجالا عدلهم يسطع ؟

فقد تأخر الشاعر المسكين حتى عرف ان (بني التاميز) كانوا قد اصبحوا (رجالا ظلمهم يسطع !) . وبافتضاح امرهم مع الزمن حذف ما حذف وغير ما غير من تخميسات قصيدته .

كذلك انظر قصيدته « اسعد الله مساكم » التي تليت في احد الاندية التمثيلية الادبية بالقدس على اثر انهزام الاتراك . وفيها يرحب بالانجليز الذين شملوا اهل القطر بنعمتهم وعدل دولتهم ، اذ اظفروهم بمناهم وخلصوهم من رجال تمادوا في إشقائهم .. « الزفرات » ص ١١٠ ـ ١١٢ ، و « مشاهد الحياة » ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ ، وفيه حذف بعض الابيات التي مدح فيها اللنبي والانجليز .

(٦) ولد في القدس عام ١٨٦٠ . درس في الازهر ، ثم عمل في تدريس الفقه والعربية في مدرسة المعارف

بالقدس . واشتغل بالصحافة فكان محررا للقسم العربي بجريدة القدس الشريف ،الرسمية ، وحرر جريدة « النجاح » مدة عامين . شاعر مجيد ، علت شهرته قبيل الحرب العالمية الاولى وفي خلالها . توفي في القدس عام ١٩١٩ .

خير الدين الزركلي ، « الاعلام » ، المجلد الخامس ، ص ١٧٢ .

د . ناصر الدين الاسد ، « الشعر العربي الحديث في فلسطين والاردن » ص ٢١ .

يعقوب العودات ، « من اعلام الفكر والادب في فلسطين » ، ص ٢٢١ .

(٧) في اخباره مع افراد البعثة الآخرين انظر : محمد كرد علي ورفاقه ، « البعثة التعليمية الى دار الخلافة الاسلامية » ، بيروت ، ١٩١٦ .

(٨) « جريدة فلسطين » ، العدد ١٠ ، السنة ١ (١٢ حزيران ١٩١٨) ، ص ٣ .

(٩) خليل السكاكيني ، « فلسطين بعد الحرب الكبرى » ، القدس ، عام ١٩٢٥ ، الجزء الأول ، ص ٦ ـ ٨ .

(١٠) وديع البستاني ، « الفلسطينيات » ص ٩٨ ، تاريخ ١٩٢٠/٧/٢٥ ،وليس المراد ترك فلسطين لليهود الا بقدر التشمير للصعود . وهو يعكس في ذلك شعور التهكم والامتعاض والنقمة البالغ حد الاشباع ، وفيه إثارة للقصد الذي هو عكس القول .

ولد الشاعر في الدبية بلبنان ، عام ١٨٨٦ ، وتخرج من الجامعة الاميريكية عام ١٩٠٧ ، ودرس فيها العربية والفرنسية لمدة عامين . ثم تولى امانة الترجمة للقنصلية البريطانية . وفي عام ١٩١٧ ، عين مساعدا مدنيا للكولونيل باركر . وكان اول واكبر موظف مدني في حكومة فلسطين ، وانتهت خدماته عام ١٩٣٠ بعد صراع طويل في مقاومة الصهيونية .

واكب وديع القضية الفلسطينية بعمله وشعره . ويشبه ديوانه ان يكون سجلا لكبريات الحوادث واهم التطورات الفكرية في فلسطين . وقد ارخ قصائده باليوم والشهر والسنة ، وأورد مناسبة كل قصيدة ، وذيَّل الأبيات باشارات توضح الاحداث السياسية والاجتماعية . وبقي في فلسطين بعد النكبة حتى عام ١٩٥٢ ، حيث غادرها الى لبنان حسب رغبة اهله . وتوفي عام ١٩٥٢ .

« حياة الادب الفلسطيني الحديث » ، ص ١٧٤ .

« الاديب » ، العدد ٢ ، شباط (فبراير) عام ١٩٥٢ ، ص ٧٧ .

يعقوب العودات ، « من اعلام الفكر والادب في فلسطين » ، ص ٤٤ .

(١١) يهوشع بوّرات ، الحركة العربية الفلسطينية في سنوات العشرين (رسالة دكتوراه) ، مجلة « المرصاد » ، تل ـ أبيب ، العدد ٩٨٥ ، السنة ١٩ ، ١٩٧٠/١/١ ، ٢٥ شوال ١٣٨٩ ، ص ١٢ .

(١٢) انظر خليل السكاكيني ، « كذا انا يا دنيا » ، مذكرات السبت ١٩١٩/٥/٣) ص ١٨٠ ، حيث يبين الروح الطائفية في تشكيل الجمعية الاسلامية المسيحية في القدس ، وفقدان النظام والفعالية في عملها . وانظر ايضا عادل غنيم « الحركة الوطنية في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩٣٦ » رسالة ماجستير مخطوطة في مكتبة جامعة القاهرة رقم ٨٥١ ، ص ٤٣ ـ ٤٤ . حيث يتحدث عن تصريح الادارة العسكرية في تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩١٨ بتأسيس ما يسمى « الحزب العربي » الموالي لبريطانيا . وهو يدعو الى تثقيف الناس وصرفهم عن السياسة . ثم انقلب بعد ثلاثة اشهر من تأسيسه الى فرع الجمعية الاسلامية ـ المسيحية في محاولة للسيطرة عليها وتوجيهها .

(١٣) د . عبد القادر يوسف ، « مستقبل التربية في العالم العربي في ضوء التجربة الفلسطينية » ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٩٨ . عن :وديع البستاني Bowman, H.E. Midle east Window, Longmans, 1942, 387

(١٤) « الفلسطينيات » ، بيروت ، ١٩٤٦ ، ص ٨٢ ـ قصيدة « الدولة الرضيع » .

(١٥) المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(١٦) المصدر نفسه ، قصيدة الفتوى ، ص٨٧ . انظر ايضا ما قاله في مفتي يافا الذي كان قد صحب المندوب السامي الى مصنع الخمور اليهودي الكبير في عيون قاره (ريشون لاسيون) حيث القى بعده سلة من العنب في المعصرة ديوانه ص ٩٩ .

(١٧) محمد رفيق بك وزميله ، « ولاية بيروت » ، قسم ١ ، ص ٣٠ وما بعدها و١٩٦ وما بعدها .

(١٨) عادل غنيم ، « الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٧ ـ ١٩٣٦ » ، الملاحق ص ٦ عن الكراسة الثانية في مكتب الهيئة العربية العليا ، صورة عن الاحتجاج الاصلي .

(١٩) نبيل ايوب بدران ، « التعليم والتحديث في المجتمع العربي الفلسطيني » ، مركز

الابحاث ، منظمة التحرير الفلسطينية ، سلسلة دراسات فلسطينية رقم ٦٢ ، آب ١٩٦٩ ، الجزء الأول ، عهد الانتداب ، ص ٣٣٦ .

(٢٠) د. عبد الرحمن ايوب (مُترجم) ، « الشرق الأدنى ـ مجتمعه وثقافته » ، القاهرة ، دار النشر المحدودة ، سلسلة الألف كتاب رقم ١١٦ ، ص ٣١٨ .

قسطنطين . ك. زريق ، العلاقات الداخلية والدولية للبلاد العربية (بحث) عن .

George E. Kirk A short history of the middle east, London, 1948, P. 130

(٢١) « الهجرة اليهودية الى فلسطين » ، الامانة العامة لجامعة الدول العربية ادارة فلسطين ، الشعبة السياسية ، ص ١٥ .

(٢٢) وديع البستاني ، « الفلسطينيات » ، مقطوعة الحكم الذاتي ١٩٢٠/٧/٢٥ ، ص ١٠٠ .

(٢٣) انظر قصيدة الرصافي والرد عليها ، وقصة النشر في ديوان « الفلسطينيات » ، ص ١٠٤ ـ ١١٠ . اظن ان العجز « وتذرون هاتيك الدموع على الصخر » ورد في الديوان وقد سقطت كلمة (الدموع) .

(٢٤) انظر مولدياته الخمس في ديوانه على الصفحات ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٢٣ ، ١٥٥ ، ١٦٠ .

(٢٥) انظر النشيد كاملا وضبط التحقيق الاداري الذي قام به النائب العام مع الشعر في ديوانه ص ١١٣ ـ ١١٤ .

(٢٦) « دقات القلب » ، القدس ، مطبعة بيت المقدس ، الطبعة الاولى ، حزيران ١٩٢٣، شوال ١٣٤١ ، ص ٣٢ ـ ٣٤ . والقصيدة في ديوان « مشاهد الحياة » ، ص ١٥٧ ـ ١٥٩ .

انظر كذلك قصيدته « حمى السياسة » في « دقات القلب » ، ص ٢٧ ـ ٢٩ .

(٢٧) « مشاهد الحياة » ، ص ١٦٢ ـ ١٦٤ . وردت في ديوانه « العنقود» ، مطبعة بيت المقدس ، دون تاريخ ، بعنوان « على اثر المعاهدة » ص ٩٠ ـ ٩١ .

(٢٨) انظر هذه الاناشيد في ديوانه « دقات القلب » : « نشيد الموت في حب الوطن » ص ٧٢ . ونشيد « بلادي ما احيلاها » ص ٧٥ . « ونشيد الإخاء » ص ٧٩

(٢٩) علي محمد علي ، « ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية » ، القاهرة ، مركز دراسات الشرق الأوسط ، الهيئة العامة للاستعلامات ، الجزء الاول ، موسوعة القضية الفلسطينية (مكتبة فلسطين) وثيقة ١١٠ ، ص ٤٢٦ ـ ٤٣١ .

(٣٠) صالح بويصير ، « جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن » ، ص ١١٨ .

(٣١) علي محمد علي ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٤٠ ، ٤٥٥ ، ٤٧٦ .

(٣٢) انظر في المصدر نفسه برقية الفلسطينيين لمصطفى كمال حول طلب الاستقلال التام لفلسطين تحت انتداب الحكومة التركية سنة ١٩٢٢ ، ص ٤٥٩ .

(٣٣) وديع البستاني « الفلسطينيات » ، ص ١٤٩ ـ ١٥٠ . نشرت هذه القصيدة في مجلة « الزهرة » بحيفا .

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ . كان عنوان القصيدة « طبخة الدستور » عندما نشرت ، في حينه ، في مجلة « الزهرة » العدد (٢٩ ، السنة الثالثة ، أيار ١٩٢٣ .

(٣٥) يسرى عرنيطة ، « الفنون الشعبية في فلسطين » ، مركز الابحاث ، سلسلة كتب فلسطينية ١٩٦٨/١/٤ ، ص ١٢٨ ، ١٥٢ ؛ خليل السكاكيني ، « كذا انا يا دنيا » مذكرات الاحد ١٩١٩/١/٢٦ ، ص ١٦٦ .

(٣٦) عادل غنيم ، « الحركة الوطنية الفلسطينية » ، ص ١٦٥ ـ ١٦٨ وص ٢٣٤ وما بعدها .

(٣٧) المصدر نفسه .

(٣٨) الشيخ سليم حسن اليعقوبي ، ولد في مدينة اللد عام ١٨٨٠ ودرس فيها ثم درس في الازهر وعاد الى يافا مدرسا للعلوم الشرعية فمفتيا لها . ولقب بحسان فلسطين . وتوفي في مكة حاجاً عام ١٩٤٦ . له بضعة كتب منها ديوان (حسنات اليراع) ويمتاز أغلب شعره فيه بقوة العبارة واحكام النسج ، وله كذلك موشح طويل « النظرات السبع » وشعره فيه مختلف . فقد جاء ضعيف النسج مفكك الاوصال ، هزيل المعاني . « الشعر الحديث في فلسطين والاردن » ، ص ٥٤ ؛ مقدمة « المجموعة من ادب ابناء العروبة » ، نابلس ، مطبعة النصر التجارية ، عام ١٩٦١ ؛ يعقوب العودات ، « من اعلام الفكر والادب في فلسطين » ، ص ٦٧٢ .

(٣٩) جريدة « الجزيرة » ، العدد ٤١ ، يافا ، ٢٢ حزيران ١٩٢٤ ، ٢٠ ذو القعدة عام ١٣٤٢ .

(٤٠) مجلة « الزهرة » ، « نظرة في فلسطين

اليوم » ، أو عظة وذكرى العدد ٤ ، السنة الرابعة ، آب ١٩٢٤ ، ص ٢٢٩ _ ٢٣٢ .

(٤١) انظر القصيدة في ، د. محمد مندور ، « في **الميزان الجديد** » ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، الطبعة الثالثة ، ص ٧٠ .

(٤٢) مجلة « **الزهرة** » ، العدد الاول، السنة الرابعة ، آذار ١٩٢٤ ، حيفا ، ص ٥٦ _ ٥٧ ؛ اسكندر الخوري ، « **مشاهد الحياة** » ص ٢١٠ _ ٢١٢ .

انظر له ايضا في الديوان نفسه ، قصائد : « أنَّه شاعر » ، ص ٢٣ ، « ما بين حانا ومانا » ص ٢٥٧ ، « على الحالين مركوب » ص ٢٥٥ . وفي هذه القصيدة ينعي التحزب لهذه الدولة او تلك ويحث على الوحدة الوطنية .

وانظر في هذا الموضوع قصيدة وديع البستاني « يا رب اصلح » ، وفيها صور احوال البلاد بانها « اهوال سبعة والذئب راعينا ، وان حاكمها الكالاسي الذي يرى ان (الموت اصدق طب) وقد نشرت في مجلة « **الزهرة** » عدد ٢ ، السنة الرابعة ، تموز ١٩٢٤ ، ص ١٥٨ـ ١٥٩، ديوانه ص ١٥٧ـ ١٥٩.

(٤٣) محمد عزة ، دروزة ، « **الحركة العربية الحديثة** » ، الجزء الثالث ، ص ٥٠ _ ٥٢ .

(٤٤) اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني السادس المنعقد عام ١٩٢٣ . وكان المؤتمر ينتخب لجنة تنفيذية في كل دورة من دورات انعقاده .

(٤٥) اميل توما ، دراسات في القضية الفلسطينية ، مجلة « **الجديد** » ، حيفا ، العددان ٩ و ١٠ ، ايلول وتشرين الاول عام ١٩٦٩ ، ص ٥ ، بحث عن هاري ساخر « **اسرائيل اقامة دولة** » ص ١٠ .

(٤٦) انظر القصيدة كاملة في ديوانه « **مشاهد الحياة** » ، الجزء الاول ، ص ٢٤٤ _ ٢٤٦ . وكانت قد نشرت في جريدة « **فلسطين** » العدد ٧٤٧ ، بتوقيع المجهول المعلوم، ٢٣ كانون الثاني عام ١٩٢٥ .

(٤٧) انظر القصيدة كاملة في ديوانه : « **مشاهد الحياة** » ، الجزء الاول ، ص ٢٤٦ _ ٢٤٨ .

(٤٨) صالح بويصير ، « **جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن** » ، ص ٤٩٧ .

(٤٩) وديع البستاني ، « **الديوان** » ، ص ١٦٨ _ ١٦٩ .

(٥٠) خليل السكاكيني : ولد في القدس سنة ١٨٧٨ ودرس في مدارسها وتخرج من الكلية الانجليزية . عمل في حقل التعليم في فلسطين وفي مصر ، وانتخب عضوا في المجمع اللغوي المصري . كان من حملة الفكرة العربية قبيل الحرب العالمية الاولى . عاش بعد النكبة في مصر ، وتوفي فيها عام ١٩٥٣ . له مجموعة من المؤلفات والآثار الادبية والتربوية .

(٥١) الزركلي ، « **الاعلام** » ، الجزء الثاني ، ص ٣٦٩ : عمر رضا كحالة ، « **معجم المؤلفين** » ، دمشق، مطبعة الترقي ، الجزء الرابع ؛ يوسف داغر ، « **مصادر الدراسة الادبية** » ، منشورات جمعية اهل القلم في لبنان، الجزء الثاني ص ٤٥٨؛ يعقوب العودات ، « **من اعلام الفكر والادب في فلسطين** » ، ص ٢٧٢ .

القدس أمام مجلس الأمن

عقد مجلس الامن الدولي يوم ٢٢ حزيران الماضي اجتماعا طارئا بحث فيه وضع القدس . وقد جرت المساعي لعقد هذه الجلسة بناء على طلب المؤتمر الاسلامي وتنفيذاً لقرار اتخذه بهذا الشأن في اجتماعه الاخير في ايار (مايو) الماضي في اسلام اباد .

وكانت منظمة التحرير الفلسطينية قد اثارت ، في ذلك المؤتمر ، قضية القدس والاجراءات الاسرائيلية الرامية الى ضمها . وصدر عن المؤتمر ، في ذلك الوقت ، قرار يتعلق بالقدس ، ينص على دعوة مجلس الامن للنظر في هذه الاجراءات ، ويحمِّل الولايات المتحدة الامريكية مسؤولية تشجيع اسرائيل على القيام بها ، ويطالب الدول الاسلامية باتخاذ اجراءات عملية تجاهها . وكانت اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قد بحثت في كيفية عرض القضية على مجلس الامن ، واتخذت قراراً بذلك واوفدت الاخ الدكتور احمد صدقي الدجاني عضو اللجنة التنفيذية ليرأس وفد المنظمة اثناء عرضها .

وقد تحرك وفد المنظمة في الامم المتحدة على عدة صعد ، منها صعيد المجموعة العربية وصعيد المجموعة الاسلامية وصعيد دول عدم الانحياز ، وخلال هذه التحركات ، عرض رئيس الوفد الفلسطيني رؤية المنظمة للاحداث الراهنة ، وأوضح ان احد اهداف انعقاد المجلس هو كشف مواقع جميع الاطراف المعنية وتحميل الدول مسؤولياتها تجاه ما يجري في القدس . كما اوضح ان المنظمة ، ومعها الدول الاسلامية ، لا تخشى الفيتو الامريكي وانها تتجه ، منذ شهر اذار الماضي، الى عدم اخذه بعين الاعتبار في عرضها لمشروع القرار على مجلس الامن ، وذلك بعد ان اتاحت الفرصة الكافية للولايات المتحدة كي تراجع موقفها .

افتتح المجلس اعماله بمشاورات غير رسمية يوم الاثنين ٢٢ حزيران ، كما اشرنا ، وباشر الاستماع الى الكلمات صباح يوم الثلاثاء ٢٤ حزيران وصوت بالموافقة على دعوة ممثل المنظمة لالقاء كلمته مع تحفظ الولايات المتحدة الامريكية وبعض الدول الاوروبية لاسباب شكلية على هذه الدعوة .

وكانت الكلمة الاولى للسيد آغا شاهي ، وزير الخارجية الباكستاني ، الذي رأس المؤتمر الاسلامي في اسلام اباد ، ومما جاء فيها انه ليس لدى المسلمين اي خيار سوى ان يطالبوا بفرض عقوبات اذا سارت اسرائيل قدماً بقرارها بنقل مكاتب رئيس وزرائها ، مناحيم بيغن ، الى القدس الشرقية وجعل المدينة عاصمة لها (« السفير » ، ٢٥ / ٦ / ١٩٨٠) .

وابلغ شاهي المجلس قوله ، على المجلس ان يتخذ جميع التدابير الضرورية لضمان المحافظة على وضع مدينة القدس المقدسة .

واضاف ان على المجلس ، في حال اصرار اسرائيل على مخططاتها الرامية لضم المدينة المقدسة واعلانها عاصمة لها ، ان يعمد فوراً الى فرض العقوبات المنصوص عليها في الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة .

واكد شاهي التزام جميع الدول الاسلامية ، وفق ما أُعلن في مؤتمر اسلام اباد ، بقطع علاقاتها مع اية دولة تؤيد قرار اسرائيل بضم القدس الشرقية ، او تعترف بها عاصمة لاسرائيل (**المصدر نفسه**) .

ثم تحدث مندوب المغرب السيد عز الدين العراقي فطلب بدوره من مجلس الامن ألّا يألو جهداً في سعيه من اجل ان تستعيد مدينة القدس المقدسة السلام ، وتحتفظ به كي يستعيد الشعب الفلسطيني وطنه ويقيم عليه دولة وطنية ذات سيادة ومكانة . وقال يجب انقاذ القدس ورفع يد المحتل الاسرائيلي المخربة ، وتحرير الاماكن المقدسة الاسلامية والمسيحية واليهودية من قبضة العنف المتعصبة ، ومن القمع الذي يسعى الى الاستيلاء عليها بشكل غير مشروع من اجل زيادة عزلتها وتغيير طابعها ، ومن المحتمل جداً تدميرها نهائياً . وذكر أنه امام التحدي الذي وجهته اسرائيل الى المجتمع العالمي منذ عشرات السنين فان مجلس الامن سيكون في مقدوره ، إن استلزم الامر ، اتخاذ الاجراءات الملائمة طبقاً للميثاق لوضع حد لهذا التهديد (« **اللواء** » ، ٢٦ / ٦ / ١٩٨٠) .

ثم تحدث د . احمد صدقي الدجاني ، رئيس وفد المنظمة ، وقال : ان الطبيعة المقدسة للقدس شُوِّهت نتيجة لانشاءات عسكرية مبنية بالاسمنت المسلح ، ودنست قدسيتها باساليب من الحياة بعيدة عن القيم الروحية ومخالفة للمقدسات (« **المصدر نفسه** ») . واضاف : ان معاناة القدس تحت الاحتلال الاسرائيلي هي نتيجة مباشرة للغزوة الصهيونية لوطننا فلسطين . لقد ارادت الحركة الصهيونية ان تكرر ما قام به الفرنجة ، الذين حملوا اسم الصليبيين ، قبل تسعة قرون ... ان المعاناة من الاحتلال الاسرائيلي للقدس والقلق من جراء الاجراءات الاسرائيلية على مصيرها يتجاوزان دائرة العالم الاسلامي ليشملا العالم المسيحي وقطاعات من التجمعات اليهودية في عالمنا والعالم اجمع .

ومضى قائلاً : ان مفهوم الصهيونية للأمن يقوم على احتلال مزيد من الاراضي واضطهاد اصحابها والتعدي على حقوقهم وافساد مواردهم الطبيعية ، اما مفهومنا المقابل للامن القومي ، فيقوم على العدل والسلام . وان ممارسة الارهاب تولد مقاومة الشعوب التي تناضل من اجل الحرية والكرامة . ان الامن لا يمكن ان يقام على حساب العدل وحقوق الاخرين ، والتاريخ مليء بالدروس لاولئك الذين يريدون ان يتعلموا (نص الخطاب من محفوظات الدائرة السياسية لـ م. ت. ف .) .

ومضى د. الدجاني يقول : « ان مقاومة الاحتلال حق كفلته المواثيق الدولية ، واننا نفخر بمقاومة شعبنا العظيمة للاحتلال الاسرائيلي وستصعد هذه المقاومة ونحن نسعى للسلام العادل . ان منظمة التحرير الفلسطينية ملتزمة بالسعي الى بلوغ السلام العادل الذي يلبي حقوقنا الوطنية الثابتة : حق تقرير المصير وحق العودة وحق اقامة دولتنا المستقلة . اننا نؤكد قبولنا بالشرعية الدولية، ونحن في الوقت الذي نرفض فيه اتفاق كامب ديفيد ، الذي يتنكر لحقوقنا ، نناضل في نطاق الامم المتحدة من اجل بلوغ السلام العادل الشامل (**المصدر نفسه**) .

اما مندوب لبنان الدائم لدى الامم المتحدة فقد قال امام المجلس : لقد سمعنا من يسمي القدس عاصمة ازلية لاسرائيل ، ومن يقول ان هذا انما هو حق الهي ؛ بالطبع ان مدينة الله هي العاصمة الازلية للجميع ، وليست عاصمة لواحد فقط ، وهي عاصمة ازلية بالايمان وليس : بالغزو . وتساءل : اذا كانت القدس تستحق ان يحارب من اجلها أفلا تستحق كغيرها من المدن سلام الرب بين الامم وبين الاديان ؟

ثم تحدث ، في الاجتماع ايضاً ، مندوبو جامايكا والاتحاد السوفياتي والنيجر وزامبيا والمانيا الديمقراطية ويوغسلافيا والسنغال والعراق فأيدوا جميعاً الموقف الاسلامي المطالب بان تظل القدس الشرقية عربية ، وبانه لا يجوز لاسرائيل ان تغير وضع المدينة من جانب واحد .

والقى المندوب السوفياتي ترديانوفسكي اللوم على الدعم الشامل من جانب الولايات المتحدة لاحتلال اسرائيل المستمر للاراضي العربية . وقال انه بعد إتفاقيتي كامب ديفيد بدأت اسرائيل سياسة خلق ما يسمى باسرائيل الكبرى (« **النهار** » ، ٢٧/٦/١٩٨٠) .

وقال ممثل النيجر ، عيدو جربا : ان مستقبل القدس لا يمكن فصله عن مستقبل الشعب الفلسطيني الشهيد الذي يناضل منذ ثلاثين عاماً لاستعادة حقوقه على ارض اجداده .

وانتهى الاجتماع بتلاسن حاد بين السفير الالماني الديمقراطي بيتر فلورين الذي عارض ضم اسرائيل للقدس الشرقية ، وبين السفير الاسرائيلي يهودا بلوم (« السفير » ، ٢٨ / ٦ / ١٩٨٠) .

بأكثرية ١٤ صوتاً وامتناع امريكا عن التصويت

وفي الثلاثين من شهر حزيران اختتم مجلس الامن مناقشته لموضوع القدس باتخاذ قرار جديد يحمل الرقم ٤٧٦ ، يؤكد معارضة المجموعة الدولية لاعمال اسرائيل في المدينة المقدسة . وتمت الموافقة على مشروع القرار الذي تقدمت به مجموعة الدول الاسلامية باكثرية ١٤ صوتاً وامتناع الولايات المتحدة عن التصويت ، وتميزت الجلسة الاخيرة للمجلس بمشاركة الدول الاوروبية في المناقشة، وتركيز المندوبين على ان القدس ليست عاصمة لديانة دون أخرى ومعارضتهم السياسة الاسرائيلية المنفردة ، ورفضهم الاعمال والتصرفات التي قامت بها اسرائيل لتغيير المعالم الجغرافية والسكانية للمدينة . كذلك تميزت الجلسة الختامية بالوثيقة التي وزعها الفاتيكان في الامم المتحدة وهي المقال الذي صدر في صحيفة « الأوبزر فاتوري رومانو » (« النهار » ، ١٠ / ٧ / ١٩٨٠) .

وجاء القرار الجديد الذي ندد باستمرار رفض اسرائيل التقيد بقرارات مجلس الامن والجمعية العمومية المتعلقة بالقدس ، في الوقت الذي وافقت فيه احدى لجان الكنيست على مشروع قانون يقضي بجعل القدس عاصمة ابدية ووحيدة لاسرائيل ، الامر الذي اثار مزيداً من القلق في الاوساط الدبلوماسية في الامم المتحدة التي رأت فيه تحدياً اسرائيلياً جديداً لسلطة المنظمة الدولية .

وقد حذف التهديد المباشر بفرض عقوبات على اسرائيل من المشروع الاسلامي الذي فاز ، وذلك في الفقرة السادسة ؛ وقد ترددت ادارة الرئيس كارتر بين استخدام الفيتو واغضاب الدول الاسلامية ومن بينها بعض كبار مصدري النفط في العالم ، وبين الامتناع عن التصويت مغضبة بذلك اسرائيل ومؤيديها الاميركيين في سنة الانتخابات الرئاسية . في ضوء هذا الموقف عمدت الدول الاسلامية الى تخفيف لهجة قرارها وحذف التهديد بالعقوبات ؛ وللتشديد على وحدتها فان الدول الـ ٢٩ ـ العاملة في المؤتمر الاسلامي قررت جميعاً ان تتبنى المشروع ، وكانت ٢٢ دولة فقط قد وقعت الوثيقة عندما قدمت وهي بنغلاديش والنيجر وتونس والبحرين واندونيسيا والعراق والاردن والكويت ولبنان وماليزيا وموريتانيا والمغرب والباكستان وقطر والسعودية والسنغال والصومال والسودان وسوريا وتركيا ودولة الامارات العربية والجزائر .

نص مشروع قرار مجموعة الدول الاسلامية حول القدس*

«ان مجلس الامن بعد ان بحث الخطاب المؤرخ في ٢٨ ايار (مايو) عام ١٩٨٠ والذي قدمه مندوب باكستان ، الرئيس الحالي لمنظمة المؤتمر الاسلامي ، كما جاء في الوثيقة رقم ١٣٩٦٦/ ا س بتاريخ ٢٨/ مايو عام ٨٠ ، يضع في اعتباره الوضع المحدد للقدس والحاجة الى حمايته والحفاظ على البعد الديني والروحي الفريد للاماكن المقدسة في المدينة على وجه الخصوص .

يؤكد قراراته المتعلقة بطابع ووضع مدينة القدس المقدسة ، وخاصة القرارات رقم ٢٥٢ بتاريخ ٢١ مايو عام ٦٨ م ، و٢٦٨ بتاريخ ٣ يوليو عام ٦٩ م ، ٢٧١ بتاريخ ١٥ سبتمبر عام ٦٩ م ، و٢٩٨ بتاريخ ٢٥ سبتمبر عام ٧١ م ، و٤٦٥ بتاريخ اول مارس عام ١٩٨٠ م .

ويؤكد من جديد عدم السماح بضم الاراضي نتيجة للغزو العسكري ويعيد الى الاذهان اتفاقية جنيف الرابعة في ١٢ اغسطس عام ١٩٤٩ الخاصة بحماية المدنيين في زمن الحرب .

---

* انظر « وفا » ، ١ / ٧ / ١٩٨٠ .

ويعرب عن اسفه لاصرار اسرائيل ، الدولة المحتلة ، على تغيير الطابع المادي والتكوين السكاني والوضع والهيكل القانوني لمدينة القدس المقدسة . وعن قلقه الخطير ازاء الخطوات التشريعية التي بادرت اسرائيل باتخاذها في الكنيست بهدف تغيير طابع ووضع مدينة القدس المقدسة .

اولاً : يدين استمرار اسرائيل ، الدولة المحتلة ، في رفض الانصياع للقرارات المذكورة الخاصة بمجلس الامن والجمعية العامة .

ثانياً: ويؤكد من جديد ان كافة الاجراءات التشريعية والادارية التي اتخذتها اسرائيل الدولة المحتلة ، والتي تستهدف تغيير طابع ووضع مدينة القدس المقدسة ، لا تتمتع باي شرعية قانونية ، وتمثل انتهاكاً صارخاً لاتفاقية جنيف الرابعة الخاصة بحماية المدنيين في زمن الحرب ، وتمثل كذلك عائقاً خطيراً في سبيل تحقيق السلام الشامل والعادل والدائم في الشرق الاوسط .

ثالثاً : يكرر من جديد ان كافة الاجراءات التي غيرت الطابع والوضع الجغرافي والسكاني والتاريخي لمدينة القدس المقدسة باطلة ، وينبغي التخلي عنها تمشياً مع القرارات الصادرة في هذا الشأن من مجلس الامن .

رابعاً : يدعو اسرائيل الدولة المحتلة بصورة عاجلة الى الالتزام بهذا القرار وغيره من قرارات مجلس الامن السابقة ، وانْ تمتنع من الآن فصاعداً عن الاصرار على اتباع سياسة ، واتخاذ اجراءات ، من شأنها التأثير على طابع ووضع مدينة القدس المقدسة .

خامساً : يؤكد من جديد الحاجة الملحة والماسة الى وضع حد لاحتلال اسرائيل للاراضي العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ . ومن بينها القدس .

سادساً : في حالة عدم التزام اسرائيل بهذا يجتمع المجلس من اجل استعراض الموقف لاتخاذ اجراءات فعالة بمقتضى الفصل السابع لميثاق الامم المتحدة».

فرنسا وبريطانيا ترفضان الموقف الاسرائيلي

حذرت فرنسا وبريطانيا اسرائيل ، في مجلس الامن ، من المضي قدماً في خططها لاعلان القدس عاصمة لها ، ووجه المندوب الفرنسي فيليب هوسون تحذيراً رسمياً الى الحكومة الاسرائيلية كما وجه اليها نداء كي « لا ترتكب اخطاء لا تغتفر من شأنها ان تثير ردود فعل عنيفة ، وتسيء الى نص فرص السلام ، لان اسم القدس في حد ذاته يحثنا على البحث عن طريق العدالة في مجتمع الابحاث (« السفير » ، ١ / ٧ / ١٩٨٠) .

وقال هوسون: « ان فرنسا لن توافق على المخطط الاسرائيلي وتأمل ان يطويه النسيان بسبب آثاره الجسيمة . واضاف : ان اسرائيل تمارس سياسة الامر الواقع وتتجاهل رغبة المجتمع الدولي .

اما المندوب البريطاني فأكد ان موقف بلاده واضح وهو ان القدس الشرقية جزء من الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ . وان بريطانيا تعارض اي خطوة منفردة لتغيير وضع القدس .

اما المندوب الامريكي فقد قال ان مشروع القرار يختار من القرار رقم ٢٤٢ لعام ١٩٦٧ بعضاً ويترك بعضاً ، وذكر بأن المشروع لا يشير الى حق اسرائيل في حدود آمنة ومعترف بها في اطار سلام عادل ودائم ، وهذا ما نص عليه القرار ٢٤٢ : في حين وصف المندوب الاسرائيلي مشروع القرار بانه عمل آخر من الحرب السياسية ضد « بلاده » (« النهار »٢٠ / ٧ / ١٩٨٠) .

ردود الفعل الاميركية والاسرائيلية

رفضت اسرائيل قرار مجلس الامن بالغاء اجراءات ضم القدس الشرقية فيما وصفته أمريكا بانه تهديد لجهودها السلمية في الشرق الاوسط (« اللواء » ، ٢ / ٧ / ١٩٨٠) .

وجاء التعليق الاسرائيلي على لسان رئيس الوزراء بالوكالة يغئال يادين الذي قال : « اننا مستاؤون من قرار مجلس الامن ، ولكن ليست هذه هي المرة الاولى التي يحدث فيها شيء من هذا القبيل، والحقيقة الثابتة هي ان القدس عاصمة اسرائيل الموحدة ، ولن يغير شيء من هذه الحقيقة » .

واضاف ، اننا غير راضين عن امتناع الولايات المتحدة عن التصويت ، وكنا نريد منها التصويت ضده ، لكن ذلك لن يغير شيئاً ، فمستقبل القدس سيقرره ما نفعله نحن هنا في القدس («السفير» ، ٢/٧/١٩٨٠) .

وشجب بيان شديد اللهجة صادر من وزارة الخارجية الاسرائيلية قرار مجلس الامن ووصفه بانه لطمة للسلام .

اما التعليق الامريكي على القرار فكان على لسان وزير الخارجية ادموند ماسكي الذي قال : « ان امتناع الولايات المتحدة عن التصويت كان الموقف الوحيد الممكن بالنسبة لها » واضاف « اننا نواجه دائماً قرارات في الامم المتحدة سواء عن قصد او غير قصد تهدد بتقويض المفاوضات التي بدأت او التي تكاد تبدأ في اطار كامب ديفيد » . وحول سؤال عما اذا كانت الاجراءات الاسرائيلية في القدس تُعقّد المفاوضات اجاب ماسكي: «كل عمل من جانب واحد يدخل في هذا الاطار ولا استثني اياً منها » (**المصدر نفسه**) .

اهمية القرار

لقد جاء قرار مجلس الامن حول القدس في اعقاب بيان البندقية الاوروبية الذي تضمن اشارة واضحة للقدس ، وجاء اضافة لقرارات المجلس التي صدرت هذا العام وادانت اسرائيل . هذا بالاضافة الى ان منظمة التحرير الفلسطينية بالتعاون مع المجموعة العربية والاصدقاء دللت على قدرتها على ممارسة النضال السياسي في الساحة الدولية .

سليمان ابراهيم

ندوة اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين الدولية حول الخطر العسكري الأميركي في الشرق الأوسط

بعد شهر ونصف الشهر من انعقاد المؤتمر العام الثالث للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين الذي انتهى في ٢٤ نيسان ١٩٨٠ ، والذي تم فيه انتخاب الأمانة العامة الجديدة للاتحاد ، وبعد مرور أقل من اسبوعين على انتهاء المؤتمر الرابع لحركة فتح الذي انتهى في أول حزيران ، افتتحت الأمانة العامة الجديدة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين نشاطاتها بعقد ندوة عالمية « حول الخطر العسكري الأميركي في الشرق الأوسط » استمرت طيلة الفترة الممتدة بين ١٢ و ١٥ حزيران ١٩٨٠ .

وجاء هذا النشاط في وقت مناسب؛ اذ يعاني العالم، عموماً، والمنطقة العربية، خصوصاً، من تصعيد في الاستعدادات الأميركية العسكرية الهجومية الموجهة ضد أي محاولة للاستقلال والتحرر من قبضة الولايات المتحدة الأميركية .

وحضر جلسة الافتتاح ، يوم الجمعة ١٢ حزيران ، الأخ ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية : والرفيق الدكتور جورج حبش الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين : والأخوان صلاح خلف « أبو إياد » ، وماجد أبوشرار، عضوا اللجنة المركزية لحركة فتح، اضافة إلى رئيس وأمين عام الاتحاد . كما حضرها عدد من القادة الوطنيين اللبنانيين ونقيب الصحافة اللبنانية . واكتسبت الندوة طابعها الدولي من خلال حضور عدد من الكتاب والصحفيين العالميين ، كمراسل وكالة أنباء « نوفوستي » فلاديمير فيليبوف ، الذي ناب عن الرفيق فيكتور فينوغرادوف مراقب صحيفة « النجم الأحمر » الناطقة بلسان وزارة الدفاع السوفياتية ، الذي لم يستطع الحضور شخصياً ، ومارتين مونو الصحفية الفرنسية ، ممثلة الحزب الشيوعي الفرنسي . ودونيس كريستافيتوس ، العضو المرشح للمكتب السياسي ورئيس الدائرة الدولية في اللجنة المركزية لحزب « أكيل » ، الحزب التقدمي للشعب الشغيل في قبرص ، والدكتور كارل هاينز فيرنر مسؤول الشرق الأوسط في « نويز دويتشلاند » الصحيفة المركزية للحزب الاشتراكي الالماني الموحد في جمهورية المانيا الديمقراطية . ولم يحضر الندوة سيبريانو دكاردو البرتغالي وإيفان دونيف ممثل بلغاريا ؛ وكان اسماهما واردين في القائمة الأولية لبرنامج الندوة .

أما على الصعيد العربي، فقد مثل جمهورية اليمن الديمقراطية عبد الله العون القائم بأعمال السفارة في بيروت ، ومثل جبهة التحرير الوطني البحرانية الدكتور عبد الله خالد ، ومثل الجبهة الشعبية في البحرين عيسى عبد الله ، ومثل سالم غريب الجبهة الشعبية لتحرير عمان ، ومثل سمير كرم الجبهة الوطنية المصرية ، وحضر الندوة عبد الرحمن الخميسي عضو الأمانة العامة لمؤتمر الشعب العربي . واستهل الأمين العام للاتحاد الأخ يحيى يخلف جلسة الافتتاح مرحباً بالمشتركين ومستعرضاً تاريخ الهجمات الامبريالية على المنطقة ، وكيف هدفت

إلى السيطرة على اقتصاد الوطن العربي وثرواته . وقد اختتم يخلف كلمته بالتأكيد على « أن هذا اللقاء سيساهم في فضح الامبريالية والكشف عن مخططاتها المستقبلية من عدوان ضد شعوب العالم » .

ثم ألقى الأخ ياسر عرفات، القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية كلمته ، مشدداً على أهمية الطابع العالمي للخطر الأميركي، قائلاً : « إن كامب ديفيد لا يستهدف الثورة الفلسطينية وأمتنا العربية فحسب ، وانما يستهدف كل ما هو حر وشريف وتقدمي في هذا العالم». وأضاف:« إن هناك قراراً أميركياً بتحويل ما اصطلح على تسميته بالحرب الباردة إلى حرب حقيقية ، ليس في منطقتنا فحسب وإنما في العالم أجمع». وأوضح الأخ أبو عمار كيف تهدف المخططات العسكرية الأميركية إلى اشعال الحروب في العالم « لتأمين احتكاراتها وللحفاظ على استغلال ثروات عدد كبير من مناطق العالم » .

إضافة إلى الجلسة الافتتاحية ، امتد عمل الندوة خمس جلسات عمل أخرى خلال الأيام الثلاثة المخصصة للندوة بين ١٣ و ١٥ حزيران ١٩٨٠، والقيت خلال أربع جلسات منها ١٦ مداخلة (من بينها ١١ مطبوعة) ، حول جوانب مختلفة من الخطر العسكري الأميركي، وخصصت آخر جلسة ، مساء الأحد ١٥ حزيران ، لعرض نص البيان الختامي .

وفي الجلسة الأولى قدم الرفيق دونيس كريستوفينس ممثل حزب « أكيل » القبرصي مداخلته عن « القواعد البريطانية في قبرص ودورها في خدمة المخططات الأميركية»، مبيناً كيف استخدمت القواعد البريطانية كنقطة انطلاق للعدوان الثلاثي ضد مصر عام ١٩٥٦ ، ثم عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣، من قبل الولايات المتحدة الأميركية لدعم عملائها الاسرائيليين في المنطقة . « واليوم تستعمل للتجسس على المنطقة في مسعى لفرض اتفاقات كامب ديفيد الغادرة». ولكنه أضاف : إن شعب قبرص وطليعته حزب « أكيل » يحارب عملية بناء قواعد أميركية وأطلسية جديدة في الجزيرة ويناضل من أجل تصفية القواعد القائمة ومحطات التنصت .

ثم القيت كلمة الرفيق فيكتور فينوغرادوف (الذي لم يحضر شخصياً) تحت عنوان: « قوات التدخل السريع وسيلة لتسلط الامبريالية الأميركية العسكري والسياسي » . وجاءت هذه المداخلة المكثفة بالمعلومات الدقيقة والأرقام، لتوضح المخططات الأميركية العسكرية الموجهة ، بشكل عام ، ضد أراضي الدول النامية في أميركا اللاتينية وافريقيا والشرق الأقصى وجنوب شرق آسيا، وبشكل خاص ضد الشرق الأوسط والخليج العربي . وعرض في بحثه تاريخ نشوء قوات التدخل السريع التي اعتبرت قوات عاملة رسمياً في أول آذار عام ١٩٨٠ . واستشهد فينوغرادوف بأقوال رئيس أركان الجيش الأميركي الجنرال ماير، الذي صرح ، في النصف الثاني من شهر آذار ١٩٨٠ : إن العدد الإجمالي لقوات التدخل سيبلغ حوالى ٢٠٠ ألف عسكري اضافة إلى وحدات الدعم البحري، وانه بذلك يتم تحطيم الرقم السابق والمعروف لقوات التدخل ، أي ١١٠ آلاف رجل .

ويمكن اعتبار هذه المداخلة وثيقـةً هامة حول طبيعة قوات التدخل الأميركية ومن أهم مداخلات الندوة بسبب أهمية الموضوع الذي تناولته . وقد أثارت المعلومات الواردة فيها بعض النقاش ، وبخاصة فيما يتعلق بفعالية قوات التدخل ا الأميركية؛ فرأى بعض المشاركين ، ان هناك عوائق تقنية وسياسية تحد من فعالية قوات التدخل ، بينما أوضح البعض الآخر ان الولايات المتحدة قد تخلصت من كل العوائق السياسية وانها تعمل بجدية من أجل إزالة كل العوائق التقنية التي تواجه هذه القوات خلال السنوات القادمة . أما في الجلسة المسائية من اليوم الأول ، التي ترأسها الأخ محمود درويش عضو الأمانة العامة للاتحاد ، فقد قدمت الرفيقة مارتين مونو، ممثلة الحزب الشيوعي الفرنسي، بحثاً بعنوان: « الآلة العسكرية الأميركية ضد نضال التحرر الوطني»، أوضحت فيه أن فرنسا تعيش الأخطار الموجهة ضد العالم نتيجة للسياسة الأميركية ، ليس على حدودها الشمالية والشرقية فقط ، « بل ان زرع الصواريخ الأميركية الجديدة عند جيراننا في المانيا الغربية عملية ذات نتائج وخيمة . ويحصل كل هذا كما لو أن الولايات المتحدة ، التي تستمر في خرق اتفاقيات «سالت» والتي تكرس التوازن الاستراتيجي بين الدولتين العظميين ، تريد أن تحول أوروبا الغربية إلى حقل قتال بجعلها، من جهة ، قاعدة للعدوان ومن جهة أخرى هدفاً للدفاع الحتمي » . وأضافت إن الوضع مقلق أيضاً من جهة البحر الأبيض المتوسط، ففرنسا «أمة متوسطية» و« الاسطول السادس الأميركي يتجول فيه باستمرار». ثم قدم المقدم الهيثم الأيوبي مداخلته بعنوان: « العملية العسكرية الفاشلة في إيران : دلالات وأبعاد»، فتحدث أولاً عن عودة الروح إلى المنطق العدواني في الولايات المتحدة

ثم تطرق الى دراسة العملية العسكرية الفاشلة ضد ايران « مخلب النسر » من الناحية العسكرية ، معتبراً أن فشلها يعبر عن « تدهور المصداقية العسكرية الأميركية». وقال المقدم الأيوبي انه « رغم هذا الاعداد الطويل والاختيار الدقيق لقوة من النخبة ، فقد تحولت العملية إلى كارثة ؛ الأمر الذي ألقى الكثير من الظلال حول جاهزية القوات المسلحة الأميركية ، ودفع إلى التساؤل عن وضع هذه القوات التي اثبتت العملية انها ضعيفة حتى في المجال التكنولوجي الذي تعتبره العقيدة العسكرية الأميركية من أهم المرتكزات الحقيقية لقوة الولايات المتحدة » .

واستأنفت الندوة أعمالها صباح يوم السبت ١٤ / ٦ / ١٩٨٠ ، وترأس الجلسة الصباحية رئيس الاتحاد الأخ عبد الكريم الكرمي « أبوسلمى »، وقدم عبد الرحمن الخميسي عضو الأمانة العامة لمؤتمر الشعب العربي مداخلة بعنوان: « العدو والصديق في النضال التحرري لشعوب الشرق » تناول فيها بعض التغيرات التي طرأت على الامبريالية بعد الحرب العالمية الثانية ، وأهمها ان قاعدة الاستعمار الجديد أصبحت اليوم « العمل على استعباد الدول المتحررة مالياً واقتصادياً وربط عجلتها بقطار الاحتكارات والشركات المتعددة الجنسية »، ولكن هذا الوضع لا يلغي « التدخلات المباشرة من قبل الاستعمار الحديث وعلى رأسه أميركا ، كلما كانت هناك فرصة أو ضرورة لذلك » . وبالنسبة للشرق الأوسط أوضح أن للامبريالية الأميركية قاعدتين رئيسيتين فيه وهما اسرائيل ومصر . وركزت مداخلة الخميسي على ان الاتحاد السوفياتي وقف دائماً إلى جانب الشعوب العربية ، وذلك في كل المجالات الاقتصادية والسياسية والعسكرية . ثم قدم عبد الله العون، القائم بأعمال سفارة اليمن الديمقراطية، مداخلة حول « الخطر العسكري الاميركي في المنطقة» ، جاء فيها « أن ما يسمى بأمن الخليج وأمن البحر الأحمر ... ان هذه التسميات ليست إلا أقنعة تحاول الامبريالية الأميركية استخدامها كتغطية لتدخلاتها السافرة ضد شعوب المنطقة في نهب ثرواتها النفطية والطبيعية الأخرى » .

ثم قدم الدكتور الياس شوفاني مداخلة شفهية ، يمكن اعتبارها أطول مداخلة في الندوة ، وقد عالج فيها بعض الجوانب النظرية المتعلقة بطبيعة الكيان الصهيوني ونشأته . ويرى الدكتور شوفاني أن هذا الكيان يفتقد كل مواصفات الدولة القومية كما يعرفها التاريخ ؛ فهو في وضعه الحالي عبارة عن جيش يكرس له الاسرائيليون وجودهم ولا يمكن له أن يستمر على قيد الحياة بدون مساعدات الشريك الامبريالي : الولايات المتحدة. وأوضح د . شوفاني أن على حركة المقاومة الفلسطينية بصفتها النقيض الأساسي للحركة الصهيونية ، أن تفرض تقييمها لطبيعة الكيان الصهيوني على العالم . وليس للآخرين أن يفرضوا وجهة نظرهم عليها .

وقد أبدى بعض المشاركين رغبتهم بتوجيه أسئلة الى د . شوفاني . فلاحظ رئيس الجلسة أن المداخلة كانت شفهية وطلب منه أن يقدمها مكتوبة حتى تتسنى مناقشتها وذلك بسبب أهمية النقاط التي تعرضت لها المداخلة . بعض المشاركين تذمر من منع النقاش وتأجيله إلى أن تكتب المداخلة تحريراً ، وقد حدث أن انتهت الندوة قبل أن يصوغ د . شوفاني مداخلته فلم يجر نقاش بشأنها . وتلقت الندوة ، خلال هذه الجلسة ، برقية تضامنية من الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس الجبهة الوطنية المصرية .

أما الجلسة المسائية المنعقدة يوم السبت ١٤/ ٦/ ١٩٨٠ ، وهي الرابعة في الندوة ، فقد عقدت بحضور الأخ نمر صالح « أبو صالح » ، عضو اللجنة المركزية لحركة فتح ، وقدم في مستهلها الدكتور عبد الله خالد ممثل جبهة التحرير الوطني البحرانية مداخلة « حول الإنفاق العسكري في بلدان الخليج العربية » . قد استند في تحليله على احصائيات تبين حجم الإنفاق العسكري المتزايد في منطقة الخليج والذي ، حسب قوله ، يبدو « انفاقاً اسطورياً غير قابل للتصديق » . وأعطى بعض الأمثلة ليوضح هذه الظاهرة « فقد بلغت قيمة مستوردات المملكة العربية السعودية من الولايات المتحدة ، في الأشهر التسعة الأولى من عام ١٩٧٦ ، خمسة بلايين ونصف بليون دولار » . وتضمنت تلك القائمة بنداً بقيمة ٥٢ مليون دولار لشراء « زي عسكري للقوات الجوية للمملكة السعودية » . أما دولة مثل عمان فقد بلغت ميزانيتها العسكرية ، عام ١٩٧٩ ، حوالى ٦٨٨ مليون دولار ، في حين لم تتعد ميزانية الخدمات التعليمية والصحية فيها عشرة ملايين دولار . وأوضح كيف أن الولايات المتحدة بصفتها مصدر السلاح الأول لمنطقة الخليج ، تغذي اتجاهات العسكرة فيها كي تستغل ثرواتها النفطية .

ثم ألقى الدكتور كارل هاينز ووِرنر مداخلته « حول تنسيق السياسة الأميركية مع حكام اسرائيل الصهيونيين ضد العرب». وقد جاء فيها : « إن الولايات المتحدة تستخدم اسرائيل كرأس جسر من أجل تنظيم

وتحقيق أعمال مشتركة ضد شعوب البلدان العربية وحركات التحرر الوطني فيها . ومن جهة أخرى ، فإن حكام اسرائيل يستغلون كل الاستغلال حاجة واشنطن لهم لبلوغ أهدافهم الخاصة ». واعتبر الدكتور وورنر ان كامب ديفيد « هو فصل من سلسلة طويلة من المؤامرات الاسرائيلية - الأميركية ضد الشعوب العربية ، وهو استمرار لسياسة امبريالية معروفة وجدت الآن ، بعكس الماضي ، قوى عربية تقبل الاشتراك في المؤامرة الامبريالية » .

ثم ألقى الأخ نمر صالح « أبو صالح » كلمة بعنوان: « قوة اميركا بضعف حركة التحرر العربية وضعف أميركا بقوة حركة التحرر العربية » . وأوضح الأخ أبو صالح أن الخطر الأميركي يزداد في المنطقة وفي مناطق أخرى من العالم . وصرح بأن مؤتمر فتح الأخير وجّه صفعة قوية للاستراتيجية الأميركية في المنطقة ، وأضاف: « إننا قادمون على الفرز الاستراتيجي : من مع فلسطين ومن ضدها » .

وتساءل الأخ أبو صالح: « تدخل أميركا لحماية النفط ممَّن ؟ ! أليست هي محتلة له ؟ » وطالب بوضع خطة عملية لمواجهة الولايات المتحدة التي يعتقد انها لن تستطيع حماية وجودها في العقد القادم .

ثم تحدث كريم مروة عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني « حول الدور الأميركي - الإسرائيلي في تفجير الحرب في لبنان » معتبراً ان الحرب اللبنانية هي شكل من أشكال « تجلي الهجمة الامبريالية - الصهيونية - الرجعية على حركة التحرر الوطني العربية » ، واختيار الساحة اللبنانية لتفجير الصراع كان واضح الهدف والغاية؛ فهو يستهدف أمرين : ١ - تصفية كل العقبات أمام الحل الاستسلامي الأميركي - الصهيوني الرجعي وبخاصة الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ومعارضة سوريا لهذا الحل ؛ ٢ - ترتيب أوضاع الساحة اللبنانية لتصبح الحلقة الثانية من حلقات الحل الامبريالي الذي يهدف إلى احاطة الكيان الصهيوني « بكيانات طائفية عنصرية على صورته ومثاله ، تتوافق معه وتشكل حدوداً آمنة له يستطيع الاستناد إليها ، وتعزز دوره كأداة ضاربة رئيسية في يد الامبريالية ضد حركة التحرر الوطني العربية » .

واختتمت الجلسة الرابعة بالقاء سمير كرم ، ممثل الجبهة الوطنية المصرية ، مداخلته وكانت بعنوان « اتفاقات كامب ديفيد قررت حلفا عسكرياً أميركياً صهيونياً مصرياً » . وقد أوضح ان هذا الحلف ذو طابع هجومي موجه أولاً ضد شعوب المنطقة ومصالحها، حيث يهدف إلى « حماية نظم وأوضاع سياسية - اقتصادية - اجتماعية تتطابق مع مصالح الامبريالية الأميركية » ، وثانياً « ضد الاتحاد السوفياتي ليس بصفته الدولة الكبرى فقط ... وانما بصفته الداعم الاساسي لشعوب المنطقة » ، وثالثاً « للسيطرة على منابع النفط العربية » . كما بين ان التنسيق بين أطراف هذا الحلف ليس الا تمهيداً لعمليات عسكرية حقيقية مشتركة أو منفردة . وقد وزع خلال الندوة بحث غني بالمعلومات صادر عن وكالة « نوفوستي » عنوانه: « مبدأ كارتر شكل جديد للسياسة الامبريالية التقليدية في الشرق الأوسط » .

يوم الأحد ١٥ / ٦ انعقدت الجلسة الخامسة وبدأت بمداخلة قدمها بسام ابو شريف عضو الامانة العامة للاتحاد ، عنوانها : « سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط » ، وقد ركز ابو شريف على الخطوط العامة للسياسة الخارجية الأميركية معتبراً ان السياسة الأميركية الشرق أوسطية جزء لا يتجزأ من هذه السياسة الخارجية العامة . وركز على العوامل الأساسية التي اثرت على السياسة الخارجية الأميركية ، خلال العقدين الأخيرين ، فرأى أنها :

أولاً : « تفاقم أزمة النظام الرأسمالي البنيوية الناتجة أساساً عن الركود الاقتصادي والبطالة والتضخم ، الذي وصلت نسبته في عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩ إلى أعلى معدلاتها منذ ٢٩ عاماً .

ثانياً : تنامي قوة المعسكر الاشتراكي .

ثالثاً : الانتصارات التي حققتها حركات التحرر في العالم . وقد شكلت هذه العوامل تحديات للولايات المتحدة التي قامت بخطوات عدة لمواجهتها كانشاء اللجنة الثلاثية . وبيَّن كيف انتقلت السياسة الأميركية من مبدأ نيكسون إلى مبدأ كارتر وانشاء قوات التدخل السريع، ثم تطرق إلى أهمية الشرق الأوسط في مخططات الولايات

المتحدة بسبب النفط ، وموقعه الجغرافي الاستراتيجي وكونه سوقاً لبضائع الدول الرأسمالية ، واعتبر معاهدة كامب ديفيد حلفاً طبقياً رجعياً يهدف إلى حماية المصالح الأميركية في المنطقة .

ثم قدم سالم غريب ممثل الجبهة الشعبية لتحرير عمان مداخلة شفهية حول « الوجود الأميركي في عمان » والتغيرات التي أحدثتها الثورة الإيرانية في المنطقة . وأشار إلى قاعدتي مصيرة وشمريت اللتين استخدمتا من قبل الشاه والسلطان قابوس لشن هجمات ضد جمهورية اليمن الديمقراطية .

وقدم الأخ أحمد عبد الرحمن،عضو الأمانة العامة للاتحاد ورئيس تحرير مجلة«فلسطين الثورة»، بحثاً حول « الدور الأميركي في التآمر على الثورة الفلسطينية » أوضح فيه كيف شكلت انطلاقة الثورة الفلسطينية خطراً جدياً على الاستراتيجية الأميركية وقاعدتها الأساسية اسرائيل ، لأنها تمثل النقيض القومي لاستراتيجية السيطرة الأميركية . وعلى هذا الأساس « كان الصدام والصراع القانون الوحيد الذي يحكم علاقة الاستراتيجيتين في ساحة الصراع المباشر كما في الساحات الأخرى » وبيّن« ان الترابط العضوي والموضوعي بين الثورة الفلسطينية والجماهير العربية هو الذي يخيف الامبريالية الأميركية » ، هذا في نفس الوقت الذي خلقت فيه الولايات المتحدة « فكراً عربياً توفيقياً قابلاً للتفاهم مع العدو الصهيوني » . وطالب جبهة الصمود باعتماد نهج عبد الناصر والتحالف مع الاتحاد السوفياتي « بغية الانتقال من مرحلة الصمود إلى مرحلة التصدي الصدامي » .

وكانت آخر مداخلة لمندوب الجبهة الشعبية البحرانية الأخ عيسى عبد الله الذي تحدث عن مرتكزات السياسة الأميركية في منطقة الخليج العربي ، وعن استغلال الولايات المتحدة الثروات النفطية والغاز للتخفيف من حدة أزمة الامبريالية : متبعة أساليب عدة منها: تكريس روح المذهبية في منطقة الخليج بغية استمرارها في الهيمنة عليه .

وهكذا جاءت معظم المداخلات يكمل بعضها البعض الآخر؛ حيث شدد بعضها على الجانب النظري وركز بعضها الآخر على عرض المعلومات العسكرية والاقتصادية في إطار تحليلي . وبينما شدد معظم المشاركين على استراتيجية الامبريالية على الصعيد المحلي (الثورة الفلسطينية ، الخليج ، اسرائيل) جاءت بعض المداخلات لتوضح الطابع العالمي لهذه الاستراتيجية والخطر الذي تشكله على العالم الثالث . واذا كان هناك نقص في معالجة الندوة للجانب العالمي من الخطر العسكري الاميركي ، فهذا ناجم أساساً عن عدم حضور ممثلي عدة مناطق من العالم الثالث . فالقارة الافريقية واميركا اللاتينية وجنوب شرق آسيا ، التي لها خبرة واسعة في محاربة الامبريالية الاميركية ، لم تمثل . ثم ان مقتضيات الوقت، كماهو الحال بالنسبة لأي ندوة ، ضيقت من فرص النقاش المثمر بين المشتركين خصوصاً في الجلسات المكثفة بالمداخلات .

من ناحية أخرى أظهرت هذه الندوة ، مجدداً ، اهتمام الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية الأخرى بمصير الشعوب العربية وأبرزت امكانية الاستفادة من الدراسات والابحاث العلمية التي يقوم بها علماء هذه البلدان خصوصاً في مجال دراسة المخططات العدوانية الاميركية .

واثبتت الجلسة الختامية للندوة وعي المشاركين لأهمية وضرورة المتابعة العلمية للتطورات الطارئة على طبيعة وشكل المخططات الأميركية التي تهدف إلى تكريس مكانة الامبريالية وقاعدتها اسرائيل .

وترأس الجلسة الختامية الأمين العام للاتحاد يحيى يخلف ، وعرض سكرتير الندوة وأمين سر الاتحاد الأخ غانم زريقات البيان الختامي على الحاضرين . وكانت لجنة مشكلة من المشاركين قد استغلت فترة الغداء لصياغة نص البيان الختامي الذي لخص معظم الأفكار والمعلومات الواردة في البحوث التي قدمت خلال الندوة؛ وتركز التلخيص حول النقاط التالية :

١ ـ الخطر الذي تشكله العسكرية الأميركية على أمن وسيادة الدول العربية ، من خلال تسليحها لحلفائها : اسرائيل والنظام المصري والرجعية العربية بغية ضرب الثورات التحررية وعلى رأسها الثورة الفلسطينية ، وتكريس سيطرتها على المنطقة لنهب ثرواتها واستنزافها لمنع أي تطور اقتصادي واجتماعي .

٢ ـ الخطوات التي اتخذتها الولايات المتحدة المتمثلة بانشاء قوات التدخل السريع لضرب الثورات على

صعيد العالم النامي ، عموماً، وعلى الصعيد العربي خصوصاً .

٣ ـ محاولة الامبريالية ضرب التحالف القائم بين حركة التحرر الوطني العربية وحليفها الثابت المتمثل ببلدان المنظومة الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي من « خلال بث سياسة تضليلية حول خطر سوفياتي مزعوم » ، كما تحاول الامبريالية جر أعضاء حلف شمال الأطلسي العدواني لتشديد سباق التسلح بمقاييس لم يسبقها مثيل ولحشد قواتها الحربية ، البحرية والجوية، في منطقة الشرق الأوسط .

وانطلاقاً من هذه المعطيات دعا المشاركون في الندوة :

١ ـ الجماهير العربية وكل قواها التقدمية لتصعيد النضال ضد الوجود الامبريالي بكافة أشكاله ، والعمل على تعرية واسقاط الأنظمة المتحالفة معه ، وتعزيز التحالف مع دول المنظومة الاشتراكية ، الحليف الاستراتيجي الثابت ، ومع فصائل حركات التحرر الوطني العالمية وحركة الطبقة العاملة في البلدان الرأسمالية .

٢ ـ كافة القوى التقدمية والوطنية في العالم للقيام بحملة احتجاج واسعة ضد الخطر العسكري الأميركي المتزايد ، الموجه لتقويض استقلال وأمن الدول العربية .

كما ناشد المشاركون جامعة الدول العربية ومنظمة دول عدم الانحياز أن تطردا كافة الدول التي تمنح الامبريالية الأميركية القواعد والتسهيلات التي تساعدها على ضرب الشعوب وحركاتها التحررية .

وانتهى البيان معلناً ثقة المشاركين « بأن الكفاح الوطني الفلسطيني، بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، سيتمكن ، مستنداً إلى عمقه العربي وإلى دعم القوى التقدمية والديمقراطية في العالم ، من تحقيق أهدافه ومن انتزاع حقوقه المشروعة .

نهى تادرس

رواية « النقيض » و « التركيب » النقدي عند الدكتور حسام الخطيب

بقلم : أفنان القاسم

لم أعرف ناقداً عربياً أو أجنبياً كرس من وقته وجهده واهتمامه ببحث عمل ابداعي والتعريف به ، مثلما فعل الدكتور حسام الخطيب ، مشكوراً ، مع روايتي « النقيض »* . فهو ، قبل دراسته المعنونة : « النقيض » الذي لم يصر « تركيباً » ، الصادرة في العدد ١٠١ ، نيسان ١٩٨٠ ، من مجلة « شؤون فلسطينية » ، قد كتب عن « النقيض » في جريدة « الثورة » الدمشقية ، العدد ٤٧٥٨ تاريخ ١٩٧٨/٨/٢٧ ، تحت عنوان : « القاتل الذي لا يقتل » ، وألقى حولها محاضرة في عدة مدن سورية الى جانب رواية « العشاق » لرشاد أبي شاور ورواية « البحث عن وليد مسعود » ، لجبرا ابراهيم جبرا ، نجد تلخيصها في جريدة الثورة ١٩٧٩/٤/٢٦ ، تحت عنوان : « الدكتور حسام الخطيب والموضوع الفلسطيني في ثلاث روايات فلسطينية » ، ليعود فيكتب عنها ، يوم ١٩٨٠/٢/١٦ ، في جريدة الثورة دوماً ، تحت عنوان : « الفلسطيني والعربي وما بينهما » ، وأخيراً ـ وعلى التأكيد ليس آخراً ـ ليكتب عن « النقيض » من خلال « الموضوع الفلسطيني » ، العزيز على قلم وفؤاد الدكتور حسام ، في العدد الأخير من مجلة « المعرفة » الدمشقية. كل هذا الوقت المكرس والجهد والاهتمام ، رغم أن الدكتور حسام « لم يحبب » الرواية مثلما يقول ، فكيف لو « أحبها » ؟!

الحكم التقييمي وتقييم التجربة الفنية

ولأبدأ ردي من هنا ، من هذه النقطة الهامة في العملية النقدية ، فأسأل : هل « الاعتراف » بشكل تقريري ـ كما فعل الدكتور حسام في فاتحة دراسته المنشورة في « شؤون فلسطينية » ـ « بحب » الناقد للعمل المنقود أو « بعدم حبه » « ضروري عند تقييم التجربة الفنية ؟ وللاجابة على هذا السؤال أقول إن « حب » الناقد لمنقوده أو « عدمه » سيان ، ولا فائدة ترجى منه عند العملية النقدية ، وسواء أعلن الناقد عن هذا أو ذاك بشكل مباشر أو غير مباشر : لأن الأساسي هو الكشف عن « ميكانيزم » العمل المنقود واكتشافه بوصفه عملاً له شخصيته المستقلة ، وأسارع الى الاضافة : وله امتداداته الخاصة في الواقع المعاش : لئلا يفهم من ذلك أنه نص منعزل كما يرى البنيويون البورجوازيون ، وعبر هذه الامتدادات الخاصة في الواقع المعاش يمكن تحديد الرؤية المصوغة فنياً ، والتي بإمكانها أن تكون تقدمية أو متخلفة أو بين هذه وتلك . وأبداً لن تشفع للدكتور حسام مقدمته « الشخصية » ـ حسبما يقول ـ لتبرير ما هو « شخصي » لديه . فهو قد حكم بشكل تقريري ، وبجرة قلم عاجلة ، على « الحد الأدنى » ـ على الأقل ـ من النواحي « الموفقة » في الرواية شكلاً ومضموناً ، والذي ـ بكل شجاعة وأمانة ـ لم يتنكر ، على طريقته ، لها . ومن ناحية

---

* رواية « النقيض » لأفنان القاسم ، اتحاد الكتّاب العرب ، دمشق ، ١٩٧٨ .

أخرى . فقد أذهل الدكتور حسام قارئه في صدمة الحكم التقييمي (أحببت أو لم أحبب) القارىء الواعي . فما بالك القارىء اللاواعي (؟ !) . وحكم على دراسته هو بالحذر عند قراءتها .

والانتقادات التي تبقى في مستوى الحكم التقييمي . الانفعالي . المزاجي* . والتي سواء في ذمها أو في مدحها تصب مباشرة في ذاتانية (Subjectivité) نقدية وليس في موضوعية (Objectivité) نقدية أساسها العمل الابداعي من خلال تشريح دقيق لبنيته الفنية (شكلاً ومضموناً على حد سواء) . لنصل . من خلال ذلك . الى تقييم التجربة لا الى « رفضها » أو « قبولها » . فلو رفضناها أو قبلناها .. لن يغير ذلك من أدبيتها « شيئاً » : ستبقى قائمة بمميزاتها الخاصة - حتى ولو كانت هذه المميزات سيئات - في واقع الانتاج الأدبي . وفي الواقع الحياتي الذي تمثله ؛ ومدى « فشلها » أو « نجاحها » متوقف على مدى موقعها وعلاقتها بهذين الواقعين فنياً واجتماعياً . ليس على « الكيفية » العاطفية لرفضها أو قبولها . على العنصر الذاتي بكل بساطة . كعنصر كلي لدى المستقبل (بكسر الباء) سواء أكان ناقداً أو قارئاً .

رؤية ذاتانية للعملية النقدية

يميز الدكتور حسام الخطيب بين نص يروق للناقد ونص لا يروق له . وهو يرى . فيما يخص التعامل الأول . أنه « كفيل بأن يحيل الناقد الى مدآحة غير نواحة . وبالتالي كفيل بأن يفقده مصداقيته . ومن ثم مسؤوليته . وأخيراً سيكون ذلك عاملاً من عوامل عرقلة تكوين المعيار التذوقي المشترك الذي بفضله استطاعت الروائع العظيمة . خلال عصور التاريخ . أن تنال الاعتراف العام . وأن تظفر بالخلود » - هذا ما يقوله الدكتور حسام - بمعنى أن التعامل الثاني بين الناقد والنص الذي لا يروق له سيسهل « تكوين ذاك المعيار التذوقي المشترك » الذي انطلق منه الدكتور حسام في نقده لـ « النقيض » كنص غير محبب الى نفسه . ولكن الملاحظ هنا . وبشكل بارز . هذا الانطلاق الذاتاني الذي يلح عليه الدكتور حسام في تعامل الناقد مع نصه : « مصداقيته . مسؤوليته . مداحة . نواحة » وكأن الناقد غصن مقطوع من شجرة . وليس جزءاً من كل فكري ينتمي اليه (وكذلك فيما يخص النص) ليصبح أمام نصه الذي يروق أو لا يروق له تلك الارادة المباشرة . وليس تلك المنهجية التي يهتدي بها الى استنتاجاته النصيّة . أي الاستنتاجات التي هي على علاقة بالنص المنقود عبر دلالاته الفنية والاجتماعية الحاسمة . ونتيجة حتمية للانطلاق الذاتاني في العملية النقدية . لا بد من أن يتحول الخاص كمصطلح « شخصي » . والمتمثل بقدرة الناقد المطلقة . الى العام الفضفاض (المعيار التذوقي المشترك . الروائع العظيمة . خلال عصور التاريخ . الاعتراف العام . الخلود) عبر استنتاجات شمولية لا تفعل إلا أن تبرر من تلك الذاتانية . ولكن في اطار العام . كمخرج سهل من « تهمة » الذاتاني الى التعميمي . فتحتضن العالم . وتمتطي فرس العصور . وتعبر الى الخلود (!) وهي في تعاملها مع النص لا بد من تعاملها الأفقي دوماً حتى لا تصطدم بحقيقة منهجية هامة . ألا وهي : أن النص سواء أكان « محبباً » الى قلب الناقد أو « مبغضاً » . فهو بإمكانه أن يكون مادة حية للتحليل العلمي . بعيداً كل البعد عن « متاعب العلاقة الشخصية مع صاحب النص » . مثلما يقول الدكتور حسام . وأن « الاحكام السلبية » التي لها ما يبررها موضوعياً في النص المعالج ليست من اختراع الناقد « لتستجر غضب صاحب النص وعداوته » . مثلما يضيف الدكتور حسام . وليجرنا . مرة أخرى . الى الرؤية الذاتانية . أو الشخصانية . والى الوعي الفردي . وكأن غضب صاحب النص أو فرحه سيغيران من طبيعة النص البعيد عن أن يكون نصاً منعزلاً . من حركته . ومن مميزاته الخاصة .

أزمة نقدية يساراً ويميناً

النقطة الثانية في هذه المسألة . وهي نقطة مكملة للنظرة النقدية الذاتانية للدكتور حسام . عندما يعتذر بدماثة أقدرها « لتحرشه » بـ « النقيض » . وأنه - مثلما يقول - : « بما يحاول اثارته من اهتمام بهذه الرواية التي مضت حتى الآن دون التفاتة من

---

* اضع خارج الدائرة الشاعر بُراق والأستاذ حسن الباش فقط اللذين حاولا . في مقالتين نقديتين . تدعيم موقفهما . بينما لم يتقدم واحد من الكتّاب والمستشرقين الآخرين بالكتابة تكريساً لانطباعاتهم . وعلى اعتبار أن الاكتفاء بالاحكام الشفوية فيه معنى من الهروب الى الأمام . فأنا أوجه للجميع عتاباً عميقاً حاراً .

النقاد ، قد أتيحت لها فرصة الانصاف الذي لم يستطعه ، وذلك من خلال ما قد يسلط عليها من أضواء نقدية في المستقبل . الخ ... » ؛ وكأن الامر متوقف على « فرصة انصاف » أو عدمها بكل هذه البساطة من الثنائية الاخلاقية في طرح المسألة النقدية العربية عامة ، وحول روايتي « النقيض » خاصة . فنحن ، نعاني من أزمة نقدية مستفحلة لها جذورها الفكرية والاجتماعية يساراً ويميناً . اليمين يعمل على تجيير كل شيء لحسابه من خلال القمع الايديولوجي السائد ، واليسار يلهث ، لقوة الضربة اليمينية ، ولعوامل أخرى ، بالطبع ، ذاتية وموضوعية ، ولا ينجح ألا نسبياً في جمع أنفاسه : فهو إما أن يهرب الى الأمام ، حاملاً على كتفيه مسألة « المعاصرة » ، وإما أن يهرب الى الوراء حاملاً على كتفيه مسألة « التراث » .

النقد النقضي

أعود الآن الى هذه النقطة التي أشرت اليها بسرعة في فقرة سابقة ، نقطة النقد النقضي ، لأعاينها من ثلاث نواح : الناحية « المنهجية » ، وأجدني أضع « منهجية » بين قوسين تجاوزاً ، لأنه لا توجد منهجية علمية حد أدنى لدى الدكتور حسام الخطيب ، وسنرى هذا بالتفصيل ، ثم الناحية الشكلية لنقده ، وفي الأخير ، الناحية الداخلية لبنية هذا النقد ، حيث سأقصر هذه الناحية ـ دونما حاجة الى تطويل ـ على المستوى الاستنتاجي لديه .

الناحية « المنهجية »

يبدأ الدكتور حسام مقدمته « الشخصية » بهذه العبارة ذات الدلالات « المنهجية » التناقضية الهامة :

« بتهيب أكتب عن « النقيض » لأنني لم أحبب هذه الرواية ، وأخشى أن يقودني [عدم] الهوى* الى غمطها بعض مزاياها ، على أنني ، في الوقت نفسه ، أخشى أن تقودني هذه الخشية الى التكفير عن مشاعري السلبية بتصيد الحسنات وتكبيرها ، على الأقل ، من أجل تفادي تهمة التحامل » .

اذن ، « لم يحبب » الدكتور حسام الرواية ، ومع هذا ، فهو « يكتب عنها » ، ولكنه يكتب عنها « بتهيب » .

لدينا هنا ثلاث حركات تنقض الواحدة منها الأخرى ، وهي لا تغادر المستوى « الشخصي » الذي حدده الدكتور حسام كمنطلق « منهجي » لعمليته النقدية إلا عن طريق الشعور الذاتي (أو الذاتانية) نحو النص : « أخشى أن يقودني [عدم] الهوى الى غمطها بعض مزاياها » . الشعور الذاتي هنا واضح : الخشية من عدم الهوى ، والذي لا يلبث الناقد أن ينقضه « بخشية » اخرى : « أخشى أن تقودني هذه الخشية الى التفكير عن مشاعري السلبية بتصيد الحسنات » ، وينقض « تصيد الحسنات » (في التصيد قلة) بـ « تكبيرها » ، وكل هذا لأجل نقض « تهمة الدكتور حسام بعد سطور قليلة بشكل غير مباشر ـ بينما صاحب النص ، (يعني أنا) ، وأقولها بكل صراحة اخلاصاً مني للدكتور حسام خاصة وللنقد التقدمي عامة ، ان « تهمة التحامل » هي آخر ما سيخطر على بالي ، وهمي الوحيد ، مثلما أنا فاعل الآن ، هو الرد الموضوعي العلمي النزيه حيث به تنتفي كل التهم في سبيل مصلحة نقدنا وأدبنا التقدميين فقط .

أعود فأقول إن في تفسير الدكتور حسام « لعدم حبه » « للنقيض » يتضح ويعمق ، أكثر فأكثر ، البعد المشاعري « لمنهجيته » في مستوييه الواعي واللاواعي ، وليس هذا فقط ، بل ويبدد فيها الحد الأدنى العلمي بعد أن تتحول الى أحكام نقدية مطلقة ، وفي الوقت نفسه متناقضة لتناقض مستويي الشعور السابقين طبعاً .

يقول الدكتور حسام : « ان هذه الرواية خلطت الدر بالآجر ، وهي مشروع لعمل جليل وجاد وخطير ، اجتمعت له عناصر ممتازة من سلامة التفكير ونفاذ النظرة وصدق التجربة ، ولكنه لم يستطع أن يكون « تركيباً » مصقولاً جذاباً ، لأنه ربما كتب تحت تأثير جو معين » .

طريقة النقد النقضي ـ على مستوى الاحكام التقييمية ـ واضحة هنا : « الآجر » ينقض « الدر » وعدم الاستطاعة بأن يكون العمل « تركيباً مصقولاً جذاباً » ينقض العمل كمشروع « جليل وجاد

---

* في النص الأصلي نقرأ : « وأخشى أن يقودني الهوى الى غمطها بعض مزاياها » ، والهوى في طبيعته لا « يغمط » بل على العكس « يغبط » ، ولهذا اضفت كلمة (عدم) الهوى .

وخطير ، الخ ... » ، وفي الأخير ، هناك الاستنتاج : « لأنه ربما كتب تحت تأثير جو معين » ، والذي يبرر وفي الوقت نفسه ينقض النقطتين السابقتين . والعملية هنا ـ حتى ولو سلمنا بهذه الاحكام التقييمية المطلقة كفرضيات يريد الناقد اثباتها ـ لا تجري على أساس الثالوث العلمي المنيع : طريحة ـ نقيضة ـ نتيجة ، ولكن على اساس ميكانيكي يبقى اعتماده أساسياً على الاستنتاجية المشاعرية وذبذباتها المتوقفة على حرارة تلك المشاعر في انفعالها أو برودة تلك المشاعر في انكماشها وانحسارها ، والدكتور حسام نفسه « يعترف » بذلك عندما يقول في خاتمته :

« أستطيع أن أخمن ان قراءة سريعة للدراسة الحالية يمكن أن تضع القارىء في حيرة من أمر موقف الناقد منها ، فهو تارة مادح وتارة قادح » .

وهو يهرب من « اعترافه » هذا ومن « قدحه » على الخصوص بنقضه في الحال عندما يثني على الرواية « كمحاولة جريئة ربما كانت الأولى من نوعها في ارتياد جوهر التناقض الذي شغل المنطقة العربية والعالم منذ مطلع هذا القرن » (الاتجاه المشاعري التهويلي دوماً) وسرعان ما ينقض النقض بنقض آخر (فليغفر لي القارىء !) عندما ينفي بشكل تقريري في الرواية ما يعكس كل « مواهبي التي أظهرتها أعمال فنية أخرى نشرتها قبل هذه المغامرة وبعدها » !

الاتجاه التركيبي

وأجدني ، قبل أن أذهب الى الناحية الشكلية لنقد الدكتور حسام الخطيب ، مضطراً لتوضيح الاتجاه « التركيبي » المهيمن على رؤيته . فهو ، حسب الاستشهادات السابقة ، يؤكد في « النقيض » على سلامة مضمونها ـ على الأقل بشكل مؤقت لأنه لا يلبث أن ينقض هذه « السلامة » بسبب « حشد » المادتين الاخبارية والتحليلية مثلما يقول ـ وفي الوقت نفسه يؤكد على عدم استطاعة « النقيض » أن تكون « تركيباً مصقولاً جذاباً » ، أي على « عدم سلامة » شكلها ـ على الأقل بشكل مؤقت أيضاً لأنه لا يلبث أن ينقض هذا الاستخلاص تحت فصل « الرواية فناً » ، ويعطي لذلك بعض التبرير ـ فالجمع التوفيقي بين الشكل والمضمون أو الفصل بينهما لا يجريان الا حسب ذاك الاساس التركيبي « النقضي » السابق : ضرب الشكل بالمضمون أو الشكل بالشكل أو المضمون بالمضمون ، واللجوء الى التبرير الشكلي ، كما في حالة ما أن يكون التركيب « خشناً ولا مصقولاً » : خشناً لأنه « لم يكن سهلاً ابراز طرفي النقيض دون تبني تقنية معقدة » مثلما يقول الدكتور حسام ، ولا مصقولاً ، « لأنه ربما كتبت [الرواية] تحت تأثير جو معين » . (وأنا أتساءل حالاً : أي عمل ابداعي لم يكتب تحت تأثير جو معين ؟) ثم لا يلبث أن ينقض التبرير الشكلي بالتبرير المضموني : « ما أكثر ما تقوله الرواية ، وما أشد خصبه وتنوعه وتعدده ، انها رواية الصراع بين العربي الفلسطيني والصهيوني اليهودي ، إنها لمحاولة جريئة لاستيعاب عناصر هذا الصراع شاقولياً وأفقياً ولم أطرافه المستعصية عن اللم ، ومن أية زاوية ؟ من زاوية المقارنة الدقيقة بين مفهومين للمشكلة ، وموقفين نفسيين منها ، ومسلكين عمليين لها ، الخ ... » .

هنا ، يمكنني القول : إن الرؤية « التركيبية » التي يتسلح بها الدكتور حسام منهجاً هي التي أوقعته في « مطب » الابتعاد عن الرؤية الجدلية : نعم أقول الرؤية الجدلية التي كتبت بها الرواية على كل مستوياتها ، سواء أكانت هذه المستويات ما بين الزمان والمكان أو ما بين الشكل والمضمون أو ما بين الشكل والشكل ـ اذا استطعت القول ـ وهذا ما غصنا في أعماق المصطلحات والاستعارات والفصول وعلاقاتها ، أو ما بين المضمون والمضمون ، وهذا ما غصنا في تعددية زوايا الرؤية الاجتماعية والانسانية والفكرية المتمثلة للصراعات الدائرة ما بين الابطال وما بين الابطال والواقع الاجتماعي . ان ميكانيكية الرؤية لدى الناقد تبقى **هي هي** : أي أنها تبقى ميكانيكية حتى لو وضعنا تحت عدستها عملاً جدلياً ، وهي لا تستطيع ، بل انها تعجز : لأن عجزها جزء من تكوينها ، على التأثر والتأثير في العمل الابداعي نقداً وتشريحاً ، حتى لو كان المقصود في التشريح تجريحاً .

وأنا ، في هذا المقام ، وبالنسبة لطاقتي الجمالية والرؤيوية ، في زمن كتابتي هذه الرواية ، وبسبب هذا الزمن أيضاً ذي الخصائص المحددة ، لا أدعي أنني قدمت عملاً ابداعياً جدلياً « كاملاً » . ولكني ، على العكس ، أدعي بوجود الحد الأدنى منه في « النقيض » . وحتى لو حاول الدكتور حسام وضع يده على هذا الحد الأدنى من جدل الرؤية والفن في روايتي ، فسوف ينقضه حالاً بنظرته « التركيبية »

التي ستتحول الى « مثل أعلى » يمكننا أن نرى ملامحه بوضوح في عنوان الدراسة : « النقيض الذي لم يصر تركيباً » وقد انعكست الآية ـ بقدرة قادر ـ حيث التركيب صار جدلاً والجدل صار تركيباً !

الناحية الشكلية

ألفت الانتباه الى أنني سأتعرض هنا لشكل نقد الدكتور حسام للنقيض ، وليس لملاحظاته عن شكل الرواية ، لأن هذه الملاحظات التي تدعي بإطلاقيتها هي ، موضوعياً ، غريبة عن النص .

بعد مقدمة الناقد ، « الشخصية » مباشرة لدينا فصل تحت عنوان : « ماذا تقول الرواية ؟ » ، وبعد سلسلة من الاحكام ، والتكهنات والاستنتاجات التبريرية للتجربة الروائية تارة وللكاتب تارة أخرى ، يصل الدكتور حسام الى أن الرواية عبارة عن « محاولة جريئة » وأن ما هو أشد جرأة منها اقدام قارىء « فدائي » على تلخيصها » .

اذن ، يسبغ الدكتور حسام طابع التعقيد على الرواية الذي لا أنفيه بدوري ، ولكنه يسبغه لتبرير عملية التلخيص المعقدة ، التي لا يمكن أن يقوم بها إلا قارىء « فدائي » : أي ، قارىء « مغامر » ، وفي الوقت نفسه ، أقوى من النص . وفي هذا يكمن الموقف « التسلطي » الذي يقود العملية النقدية ليس فقط في تلخيص الرواية حيث لا تلبث الملاحظات الموضوعة بين الاقواس* المرافقة للتلخيص أن تنقض « الحيادية » المتمثلة في العنوان : « ماذا تقول الرواية ؟ » ، ولكن أيضاً عندما يبدأ التحليل بالفصل « معنى النقيض » ، حيث نقرأ : « ولعل الخطوط العريضة التالية تشكل عناصر فهم النقيض لدى أفنان القاسم » ، والمفروض أن يقول الدكتور الخطيب : عناصر « فهمي » أنا لنقيض أفنان القاسم ، وهو بذلك يرد للكاتب ، صاحب النص ، أشياء رآها هو ، والتي ليست بالضرورة ما رآها الكاتب . انه يتسلط على النص من الخارج عند تلخيصه ومن الداخل عند تحليله ، ويحاول أن يبقى في كلتا الحالتين طرفاً محايداً ، ليوهم القارىء بأحكامه المطلقة ـ قدحاً ومدحاً ـ كأحكام نهائية ، وليوقع النص والقارىء معاً في مأزق العجز الذاتي :

« ان القارىء لا يستطيع أن يجزم تماماً بما يقصده [البطل] علي من فكرة ، الخ .. » . وفي مكان آخر نقرأ : « ان رواية النقيض الداخلية ـ شأنها شأن رواية النقيض الخارجية ـ تعاني من عدم الاستواء في الاجادة ، وما أكثر ما فيها من ارتفاعات وانخفاضات ، وما أكثر ما تفاجىء القارىء بما لا يسمح له بالاستمرار في التأثر ، وبالتالي التعلق بما يجري ، الخ .. » .

حقاً إن النقد العلمي الحديث لا يمنع القيام بعملية تلخيص للنص المنقود ، ولكن بناء على محاور يعمل الناقد على توسيعها نقداً لاثبات الموضوعة الاساسية . وعلى العكس اذا ما تعلق الأمر هنا بالتلخيص ، فهو تلخيص كلاسيكي ، وفي الوقت نفسه ، تفسيري . واذا ما تعلق الامر بالموضوعة الأساسية : « معنى النقيض » مثلما يحاول الدكتور حسام التوصل اليه ، فهو كلاسيكي ، ايضاً ، وفي الوقت نفسه تفسيري ، في محاولة دائمة لتحميل النص أو صاحبه أو القارىء عناء استنتاجات الناقد الذاتانية عن طريق تسلطه النقدوي ، وليس عن طريق بحثه النقدي ونبشه واستقصائه وجدلية نظرته للنص شكلاً ومضموناً ، ولجدل العلاقة القائمة بين النص كفن ورؤية والواقع كأساس مادي واجتماعي . وأحسن مثال نعطيه على الطريقة التسلطية النقدوية لدى الدكتور حسام الخطيب ، عندما يستعرض « بسرعة » ـ حسبما يقول ـ « طبيعة كل من الطرفين (المتصارعين) كما يبدو من الرواية » ـ لنلاحظ مرة أخرى أنه لا يقول كما يبدو لي أنا من الرواية ـ فهو يحدد هذه « الطبيعة » بالنسبة للطرف الفلسطيني ، وكذلك بالنسبة للطرف الصهيوني ، تحت تفرعات عديدة لمفهوم « الضحية » . ولكن كيف ظهر البطل الفلسطيني أو البطل الصهيوني كضحية ؟ أي كيف جرى تقديمهما فنياً ؟ فنحن لا نقف على شيء .

---

* يقول الدكتور حسام الخطيب في لحظة من لحظات تلخيصه : « وتعترضه عجوز معروقة ، ويتطور بينهما صراع مرير (ربما رمز الماضي التعيس جداً) » ، ويقول ايضاً : « لولا أن أخاه (وجهه الآخر) يـأتي فجأة (من اللامكان) لينقذه ، ولكن العجوز تصر على قتل علي ، وتظفر بذلك (لينتهي بمقتله مسلسل فوج معين من فلسطينيي التجربة الأولى) » ، وهناك أمثلة أخرى عديدة مشابهة .

ونتيجة لذلك أقول ، إن النص النقدي عند الدكتور حسام الخطيب هو نص مواز للنص المنقود ، لا يتحد أو يتفاعل معه أبداً ، بل ينقضه بشكل متواصل ، وعلى أساس تركيبي يحاول اثبات ما هو ذاتاني لدى الناقد ، وكأنه الحكم الأول والأخير .

الناحية الداخلية

سبق أن قلت ـ للاختصار وبعد التشكيك العلمي الذي زرعته في الدراسة المعنية ـ إنني سأقصر ردي ، فيما يخص الناحية الداخلية لنقد الدكتور حسام الخطيب ، على المستوى الاستنتاجي لديه ، وذلك في ثلاث نقاط تالية :

أولاً : يستنتج الدكتور أن « الطريق اذن ما يزال طويلاً محفوفاً بالمخاطر ، ومسلسل التضحيات لا بد له من أن يستمر ، ولكن تباشير الأمل موجودة دون أن يكون هناك شيء مؤكد أو غاية محددة . هناك أمل عريض غامض بالخلاص ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ، ولكن ما هو الخلاص ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ والى أية غاية ؟ هذه الأسئلة تتركها الرواية معلقة في الفراغ » .

وفي السطور اللاحقة مباشرة ، وبناء على منهجه النقضي ، ينقض بشكل ميكانيكي استنتاجه الأساسي السابق باستنتاج ثانوي عندما يقول : « وبالطبع ، ليس في هذه الملاحظة أي ايحاء بالنيل من الرواية ، انها مجرد تقدير واقع ، فالرواية سيدة نفسها ، تقول ما تشاء ... (الخ) ومن حق الرواية ألا تلزم نفسها بأية رؤية محددة » .

وأنا أتساءل ، بالطبع : كيف يمكن أن يكون من حق الرواية ألا تلزم نفسها بأية رؤية محددة ؟ وما المقصود من « رؤية محددة » في هذا السياق ؟ هل هي تصور العالم من طرف الكاتب أم « النهاية » التي من المفترض أن تصل اليها الرواية ؟

ثم ، وفي السطر نفسه ، ينقض الدكتور الخطيب « حق » الرواية السابق « بحق » لاحق : « ولكن من حقها أيضاً أن تفعل ذلك حين تستند الى تحليل ايديولوجي متماسك أو موقف ثوري صلب » .

وما يفهم من هذا ، أن الدكتور الناقد ينفي استناد الرواية الى تحليل ايديولوجي متماسك وموقف ثوري صلب ، ولكنه يعود بعجلة الى نقض الاستنتاج اللامباشر السابق عندما يؤكد ان « النقيض » المكتوبة سنة ١٩٧٢ قد اتكأت على « مفهومات الثورة الفلسطينية وتجربتها [وهذا ما] يؤلف الأساس لأحد جناحي الفكر النضالي الذي استندت اليه ، أما الجناح الثاني الذي يعادل الأول أهمية ان لم يفقه فهو الايديولوجية الطبقية » .

وعدا عن مطالبتي الشرعية بتفسير هذا المصطلح العجيب المميز بـ « الايديولوجية الطبقية » ، لا حاجة بي الى الرد على الاستنتاج الاساسي حول « الأمل العريض والغامض بالخلاص » الذي تتركه نهاية الرواية ، وقد قام به الدكتور حسام وبطريقته النقدية المنتقدة من طرفي خير قيام ، على اعتبار أن الأمل بالخلاص العريض واللاغامض ـ اذ لا أجد في حمل البندقية غموضاً ـ حلقة من حلقات أخرى ستتبع في فكر وزمن وواقع (سماها الدكتور الخطيب بمفهومات وتجربة) القضية الفلسطينية .

ثانياً: يستنتج الدكتور حسام الخطيب أن نصيب الطرف الصهيوني من عقدة المعاناة ـ مثلما ظن في الرواية ـ كان أكثر بروزاً من نصيب الطرف الفلسطيني . ويضيف أنه « من الصعب أن يجزم القارىء بأن مؤلف الرواية قصد قصداً الى معالجة هذه الناحية النوعية ، ولكن يظل حق القارىء ان يتوصل الى هذا الاستنتاج » .

وهنا لا بد لي من قول إن ما بدا أكثر بروزاً لمعاناة اليهودي عبر المراحل التي حولته الصهيونية فيها الى صهيوني ، وليس الصهيوني في وضعه الأخير ، تأخذ مداها التهويلي من هذا الهدف **المقصود** (تحويل اليهودي الى صهيوني) الذي أردت ابرازه . ولن يعجز القارىء ـ لي الحق في الدفاع عنه ـ عن تمييز هذا من ناحيتين : **الأولى شكلية** ، وقد جعلت فقرات التداعي النفسي لدى اليهودي المصهين تأتي على شكل مخاطبة فوقية ومباشرة من طرف دعاة الصهيونية ، مستعملين صيغة الأمر . وطبيعياً أن تبرز هذه الصيغة المباشرة والفوقية والآمرة على صيغة المناجاة الهامسة بين الفلسطيني وأمه . **والثانية مضمونية** ، وقد تعمدت أن أبرز ، وفي الوقت نفسه ، أن أرد بشكل غير مباشر على الادعاءات الصهيونية المهولة (بشد الواو) ، وبسبب هذا التهويل ـ من بين أسباب أخرى بالطبع ـ استطاعت أن تأخذ مداها في نفس اليهودي وفي الواقع العملي .

ان ما يصفه الدكتور حسام بعقدة المعاناة فيما يخص الصهيوني هي أكثر بروزاً من هذه الناحية

التهويلية المصطنعة لدى الصهيونية كأيديولوجيا ونظام هدّامين حاولت كل جهدها ـ ونجحت الى حد كبير ـ في قلب الأمور على أعقابها. بعد أن جعلت من « معاناتها » المهولة (بشد الواو) والمصطنعة معاناة « انسانية » و « طبيعية » وقد اثبتت روايتي العكس تماماً عن طريق ابراز انسانية وطبيعية معاناة الفلسطينيين ، على مستوى التطور التاريخي والاجتماعي للقضية ، وعلى مستوى تطور المصطلح اللغوي أيضاً الذي يصرّ عليه ، ومن هذه الناحية فقط ، الدكتور حسام .

ثالثاً : يستنتج الناقد أنه : « ما دامت هذه حال الطرفين ، فإن النقيض ليس مما يحل بسهولة لأنه يحمل كل ترسبات الماضي والحاضر للطرفين اللذين تزيدهما تجربة الصراع تعقيداً وعناداً وأصراراً وتوجساً . وههنا المعضلة التي تبرزها الرواية ابرازاً جريئاً ، ولكنها تخرج منها بحل مبسط جداً ربما لا يستند الى كل التحليلات القوية في صلب الرواية (امتشاق البندقية الى جانب الطبقة العاملة) » .

وهنا أجيب بتأن وصبر أن امتشاق البندقية ، هذا الفعل الثوري الهائل الذي لا يمكن لامرىء أن يتجاهل عظمته وأهميته كأعلى أشكال النضال ، والى جانب الطبقة العاملة ، أي الى جانب صاحب المصلحة الأولى في الحركة التحررية ، والكفيل الأوحد بالحفاظ على امتشاق البندقية ؛ هذا الفعل الثوري الهائل لا بد من رؤيته كحل ولكن أيضاً كوسيلة ـ بالنسبة لخصوصية القضية الفلسطينية ـ وليس كحل أحادي رومانطيقي . لا بد من رؤيته كحل مرتبط بجملة من العوامل والأهداف السياسية والاجتماعية والثقافية ، وليس كحل منعزل ومفرغ من مضمونه الشامل لكل أبعاد الصراع ما بين الفلسطيني والصهيوني ومعه الاستعمار والرجعية من جهة ، وما بين الماضي والحاضر من جهة أخرى ، وكمؤشر نحو المستقبل الذي فيه سيتحقق ـ بواسطة البندقية الآن أو بواسطة البندقية والصراع الطبقي في وقت لاحق ـ نزع اليهودي من صهيونيته واعادته الى انسانيته المفقودة .

صحيح انه لم « ترد تجربة الثورة الفلسطينية في الرواية إلا بشكل تلميحات » مثلما يقول الدكتور حسام ، ولكن هذا لا يمنع أن تكون البندقية ، وحسب منطق الرواية التطوري الداخلي والموازي للواقع ، أهم هذه التلميحات ، بل هي الأهم ، والتي ، على عكس ما يقوله الدكتور حسام ، الأكثر جوهرية .

لا ، ليس من حقك يا صديقي الدكتور حسام ، أن تعيد صياغة « النقيض » حسب مقاييسك الخاصة بك وبرؤيتك ، وليس من حقك أيضاً أن تقحم الرواية والتاريخ الذي تمثلته على طريقتها ، وتقحمني ، من خلال هذه المقاييس الخاصة وتلك الرؤية التي تقود خطواتك النقدية أنت ، ولكن ، من حق الرواية عليك ، وكل انتاج أدبي آخر ، والفن عموماً ، أن تتركه يتشكل حسب رؤيته هو ، وبالصيغة الفنية التي تناسبه ، والعلاقة الجدلية الهامة التي من العادة ان تربط الناقد بالمنقود لا تنقض المسافة القائمة بينهما ، ولا تنفي تمايز فكر الناقد وفكر المنقود ، ولكنها تنفي بشكل قاطع « التبني » الأخلاقي للنص ، وحصره في حالتي « الانصاف » أو « عدمه » ، حتى لو أتى الدكتور حسام ببيتي شعر جميلين لأبي تمام تدعيماً « منهجياً » لنقده .

شهريات

المقاومة الفلسطينية عسكرياً

النشاط الفدائي ومقاومة الاحتلال في الداخل والتحركات العسكرية الاسرائيلية والانعزالية في الجنوب اللبناني

لم يطرأ تبدل على الموقف العسكري في الجنوب فظل على حاله ، في حين واصل رجال المقاومة نشاطهم التقليدي في الداخل .

١ ـ نشاط رجال المقاومة داخل الارض المحتلة

في الوقت الذي كانت فيه الشرطة تحقق بحادث انفجار عبوتين ناسفتين ، في بتاح تكفا ، يوم ١٠/٦/١٩٨٠ ، جرت بعد الظهر محاولة لاغتيال احد افراد حرس الحدود في القدس ؛ وقد وقع الحادث في منطقة باب الساهره ، اذ أطلق مجهول النار من سور المدينة على دورية لحرس الحدود كانت تسير في شارع السلطان سليمان ، مما أدّى الى إصابة احد جنود الدورية . وعلى الفور وصلت الى مكان الحادث قوات كبيرة من الشرطة وحرس الحدود فأغلقت الشارع والمحال التجارية ، كما وصل مختبر متنقل للتحقيق الجنائي وبوشر بالتحقيق ؛ وتم اعتقال اكثر من مائة شخص كانوا موجودين في المنطقة ساعة وقوع الحادث . هذا وقد اعتبرت جهات امنية اسرائيلية الحادث حالةً استثنائية واسلوب عمل جديد يتم تنفيذه ، لاول مرة في وضح النهار في شارع رئيسي في القدس (« و إ . » ، ١٠ ـ ١١/٦/١٩٨٠) . ومن جهة أخرى ، واصلت قوات الامن البحث عن الفاعل ، وقد احتفظت شرطة القدس بمشبوهين وفرضت ستارا من السرية على سير التحقيق .

ومساء ٢٤/٦/١٩٨٠ ، ألقى مجهول زجاجةً حارقة على باص تابع لشركة « ايغد » الاسرائيلية كان متوجها من القدس الى مستوطنة كريات اربع .وقد وقع الحادث جنوبي مخيم « الدهيشة » في منطقة بيت لحم ، ولم تصب الزجاجة الباص كما لم تقع اية خسائر أو أضرار ؛ وعلى الاثر قامت قوات الشرطة بتمشيط المنطقة وعثر ، خلال ذلك ، على زجاجة ثانية ، وقد تم توقيف عدد من الأشخاص للاشتباه بهم (« و. إ. إ. » ، ٢٤ ـ ٢٥/٦/١٩٨٠) . وفي تل ـ ابيب ، أعلن ناطق باسم الشرطة الاسرائيلية ان ثلاثة اسرائيليين أصيبوا صباح ٢٤/٦/١٩٨٠ بجروح ، عندما انفجرت قنبلة موقوته أمام متجر في احدى ضواحي تل ـ ابيب .

وأضاف الناطق أن صاحب المتجر وزوجته واحد المارة نقلوا الى المستشفى بعد الانفجار ، وصرح بأن الفدائيين هم الذين نفذوا العملية ، وكان ناطق عسكري اسرائيلي قد ذكر ان شحنة ناسفة انفجرت صباح ٢٣/٦/١٩٨٠ بالقرب من موقف لسيارات الركاب في القدس الشرقية وأن أية اصابات أو خسائر لم تقع (« السفير » ، ٢٤/٦/١٩٨٠) . وفي تل ـ ابيب ، صرح ناطق باسم الجيش الاسرائيلي ان احد أفراد الاستخبارات الاسرائيلية ، موشي غولان ، (٣٤ عاماً) ، قتل يوم ٢٥/٦/١٩٨٠ ، أثناء الخدمة في اسرائيل ؛ وأكد المصدر أنه قتل على ايدي اشخاص عرب من قرية مجدل في شمال اسرائيل ؛ والقتيل ضابط احتياط في سلاح المدرعات يخدم في الاستخبارات . وبعد الظهر منع الجيش الاسرائيلي التجول في مخيم بلاطه للفلسطينيين القريب من

نابلس . وقال ناطق عسكري أن هذا الاجراء اتخذ تسهيلا للتحقيق (« النهار » ، ١٩٨٠/٦/٢٦)۰ وفي وقت لاحق ، صرح ناطق عسكري اسرائيلي بأن قوات الأمن استطاعت التعرف على الشاب العربي الذي قتل ضابط الاستخبارات الاسرائيلي ، موشي غولان ، وقال الناطق ان الشاب العربي يدعى بسام محمد حبش (٢١ عاما) من مخيم بلاطه وقد قتل هذا الشاب أثناء مقاومته قوة اسرائيلية حاولت القبض عليه (المصدر نفسه ١٩٨٠/٦/٢٩) . وفي تطور آخر ادعت مصادر عسكرية اسرائيلية أن قاتل ضابط الاستخبارات الاسرائيلي كان عميلا مزدوجا أمره الفدائيون الفلسطينيون بقتل الضابط (« السفير » ، ١٩٨٠/٦/٣٠) .

وفي تل-ابيب ، بثت الاذاعة الاسرائيلية ان منع التجول فرض يوم ١٩٨٠/٧/٤ على مخيمي نصيرات ودير البلح للاجئين في قطاع غزة اثر انفجار لغم في المنطقة تحت سيارة عسكرية اسرائيلية . وقالت الاذاعة ان احد العسكريين أصيب بجروح خطيرة في الانفجار ونقل الى مستشفى بئر السبع . ولاحظ المراقبون انها المرة الاولى ، منذ اشهر ، التي يشهد فيها القطاع مثل هذه العملية (« النهار » ، ١٩٨٠/٧/٥) . وفي القدس اكتشفت الشرطة الاسرائيلية عبوة موقوتة في مركز تجاري ، في أحد الاحياء اليهودية ؛ فعطلتها قبل الموعد المحدد لانفجارها (المصدر نفسه) . وفي دمشق صرح الناطق باسم المقاومة الفلسطينية بأن الثوار العاملين داخل الاراضي المحتلة تمكنوا من تفجير سيارة ضابط استخبارات اسرائيلي في بلدة دير البلح ، مما أدى الى اصابة الضابط بجروح خطيرة . وقال الناطق ان الفدائيين زرعوا عبوة موقوتة داخل احد اقسام السوق التجاري المركزي في حي النبي يعقوب في القدس ، لكنها اكتشفت قبل انفجارها (المصدر نفسه) . وفي تل-ابيب ، بثت الاذاعة الاسرائيلية ان محاولة لتفجير سيارة ركاب كبيرة فشلت امس في رامات غان قرب تل-ابيب ، وقالت الاذاعة أن عبوة ناسفة وضعت في السيارة اكتشفها السائق واستدعى خبراء المتفجرات لتعطيلها (« النهار » ، ١٩٨٠/٧/٨) .

٢ - النشاطات والتحركات العسكرية الاسرائيلية والانعزالية في الجنوب اللبناني

مساء ١٩٨٠/٦/١٣ قصفت مدفعية اسرائيل والمليشيات الحدودية ، قرى قضاءي النبطية وصور ، وقد شمل القصف قلعة الشقيف ومنطقتي كفررمان وحبوش ، وامتد حتى صور ليشمل بلدة يحمر . وقد واصلت المدفعية الاسرائيلية - الانعزالية قصفها المركز لهذه المناطق حتى منتصف الليل (« السفير » ، ١٩٨٠/٦/١٤) . وفي الساعة الخامسة من فجر ١٩٨٠/٦/١٦ اصطدمت سفينة تابعة لسلاح البحرية الاسرائيلية ، الى الغرب من الزيب ، بزورق للفدائيين كان في طريقه لتنفيذ عملية في داخل اسرائيل . وقد قتل نتيجة للحادث ثلاثة فدائيين واحرق الزورق في حين اعترف الناطق الاسرائيلي بأن القوات الاسرائيلية منيت بجريح واحد . وقد واصلت الزوارق الاسرائيلية المسلحة دورياتها بعد الحادث . وقد علق مسؤول عسكري اسرائيلي على الحادث بقوله ، ان الحادث ، بدون ادنى شك ، يثبت نجاح شبكة الرادارات المنتشرة على طول الساحل الاسرائيلي ؛ والتي تغطي مسافات بعيدة . كذلك تقوم سفن الدورية الاسرائيلية بعمليات دورية دائمة ، وتقوم نقاط المراقبة المثبتة على الشاطىء بعملها ، اضافة الى المساعدة التي تقدمها الطائرات ايضا . فسلاح البحرية والجيش الاسرائيلي يبذلان جهودا كبيرة من اجل تمشيط البحر وخاصة في القطاع الشمالي ، وهو القطاع الذي يعاني من الفوضى . (« ر. إ. إ » ، ١٥ - ١٩٨٠/٦/١٦) . ومساء ١٩٨٠/٦/١٦ اعلن مصدر اسرائيلي مسؤول عن اكتشاف محاولة تسلل من البحر قام بها فدائيون فلسطينيون . وقال المصدر الاسرائيلي ان هدفهم لم يكن احتجاز رهائن او المطالبة باطلاق سراح عدد من السجناء في اسرائيل ، بل القيام بمجزرة لايقاع أكبر عدد ممكن من الاصابات بين المستحمين على شاطىء البحر . وعند اكتشاف الزورق تظاهر الفدائيون بمظهر من يقوم بنزهة بحرية بريئة ، وما ان اقترب الزورق المسلح الاسرائيلي من زورق الفدائيين حتى أطلق احد الفدائيين قذيفة آر . بي . جي نحوه ، فرد الزورق الاسرائيلي على النار بالمثل فورا ، وأدى الحادث الى مقتل جميع الفدائيين الذين كانوا داخل الزورق الذي بدأ يغرق ، واعترف المصدر الاسرائيلي باصابة احد رجال الزورق الاسرائيلي .

وقد غرق جزء من عتاد الفدائيين ، وتم العثور على بندقية من طراز م - ١٦ وقاذف للقنابل ومسدس مزود بكاتم للصوت . كما وجدت بطاقات هوية صادرة

عن حركة فتح ، وهي الحركة التي أعلنت مسؤوليتها عن الحادث (« و. إ. إ. » ، ١٦ - ١٩٨٠/٦/١٧) . ومما يجدر الاشارة اليه ، طبقاً للرواية الاسرائيلية ، ان الزورق انطلق من قاعدة تقع قرب مخيم الرشيدية الذي يبعد ١٦ كلم عن رأس الناقورة ، وتقوم المنظمات بتدريب وحدات بحرية هدفها التسلل الى اسرائيل ، وعناصرها في الغالب من الفلسطينيين الذين يعملون كغطاسين وصيادي اسماك . وتجدر الاشارة ايضا الى ان مجندة شابة تعمل على جهاز رادار ساحلي هي التي اكتشفت اقتراب الزورق من الشاطىء الاسرائيلي (المصدر نفسه) . ومساء ١٩٨٠/٦/١٦ شوهدت زوارق حربية اسرائيلية قبالة مدينة صيدا وظلت تجوب الشاطىء اللبناني ، بين صيدا والحدود الجنوبية حتى ساعة متأخرة من الليل ، في حين حلق الطيران الاسرائيلي مساء في الساعة الثامنة فوق مدينة النبطية (« السفير » ، ١٩٨٠/٦/١٧) . وأعلن ناطق باسم المقاومة الفلسطينية في دمشق ، ان الفدائيين الفلسطينيين هاجموا مستوطنة الزيب الاسرائيلية الواقعة الى الشمال من عكا ، على بعد عشرة كيلومترات من الحدود اللبنانية وانهم فقدوا ثلاثة شهداء واوقعوا اصابات جسيمة في صفوف القوات الاسرائيلية . وذكر الناطق ان الفدائيين استخدموا في الاشتباك الذي استمر ساعتين ونصف الساعة ، مع القوات الاسرائيلية ، مدافع الهاون من عيار ٦٠ ملم وصواريخ محدودة المدى وقذائف اينيرغا وقنابل يدوية ومدافع رشاشة . (المصدر نفسه) . وقد ذكرت وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » ان الفدائيين هاجموا المستوطنة بعد تخطي جميع الكمائن البحرية الاسرائيلية ودوريات الحراسة المكثفة على امتداد الساحل ، وظلوا على اتصال لاسلكي مع مركزهم من الساعة الثالثة فجرا حتى الساعة الخامسة والدقيقة الثانية والعشرين صباحا (المصدر نفسه) . وفي تل-ابيب ، اعلن ناطق عسكري اسرائيلي ان زورقا مطاطيا يستقله ثلاثة فدائيين أغرق وقتل من فيه حوالى الخامسة صباحا في المياه الاقليمية الاسرائيلية بين نهاريا ورأس الناقورة . واعترف الناطق بأن تبادل اطلاق النار مع الفدائيين قد اسفر عن اصابة احد جنود خفر السواحل على متن زورق من طراز « دابور » (المصدر نفسه) . ومن جهة اخرى ، أعلن الناطق العسكري الاسرائيلي ان الفدائيين كانوا يستعدون للنزول الى الشاطىء لمهاجمة مستوطنة « اخزيف » ، التي شاهد سكانها المعركة (« النهار » ، ١٩٨٠/٦/١٧) . وفي اسرائيل افاد ناطق بلسان الشرطة الاسرائيلية يوم ١٩٨٠/٦/١٩ أنها ستعزز يقظتها وحملات تمشيطها في مراكز الاستحمام والشواطىء خوفا من حدوث عمليات فدائية ، وأصدرت الشرطة تعميما الى الجمهور في مراكز الاستحمام ، دعته فيه الى اليقظة والحذر (« و. إ. إ. » ، ١٩ - ١٩٨٠/٦/٢٠) .

وعلى صعيد آخر ، نقل المراسلون من الجنوب يوم ١٩٨٠/٦/٢٤ أن اسرائيل أحدثت وضعا عسكريا جديدا في بلدة كفرشوبا باقتطاعها اراضي لبنانية واقامة مراكز ثابتة لها في العمق . فقد اقيم موقعان في القطاع الشرقي : الاول في منطقة راجار المواجهة لمستوطنة المطلة الاسرائيلية على بعد ٥٠٠ متر داخل الاراضي اللبنانية والثاني في قرية حداثا (« السفير » ، ١٩٨٠/٦/٢٥) . وذكرت مصادر اخرى ان اسرائيل وضعت على مدخل بلدة كفرشوبا سيارات جيب مزودة بمدافع مباشرة غير مرتدة ورشاشات ثقيلة على مقربة من منطقة مراقبة تسيطر عليها الكتيبة النروجية ، وهددت بطرد السكان اذا لم يتعاونوا معها وبصورة خاصة اثناء الحراسة الليلية (المصدر نفسه) . ومساء ١٩٨٠/٦/٢٥ صرح ناطق عسكري باسم القيادة المشتركة الفلسطينية - اللبنانية انه منذ الساعة السابعة والدقيقة ٥٥ مساء تقوم الزوارق المعادية بقصف صاروخي ومدفعي على منطقتي البرغلية والقاسمية وبرماية من الرشاشات الثقيلة من البحر ، فيما يقوم الطيران المعادي بطلعات فوق المنطقة . وفي الساعة الثامنة والنصف وسع العدو من عدوانه وقامت زوارقه بالرماية من رشاشاتها الثقيلة على منطقة ابو الاسود والقاسمية والبرغلية وهناك ثلاثة زوارق تتجه نحو الشمال (المصدر نفسه ، ١٩٨٠/٦/٢٦) .

ومن جهة اخرى نفى ناطق عسكري اسرائيلي ، يوم ١٩٨٠/٦/٢٧ ، أن تكون اسرائيل قد اقامت ، قبل اسبوع ، ثلاثة مراكز محصنة في جنوب لبنان داخل الجيب الذي تسيطر عليه الميليشيات اليمينية . وكانت مصادر عسكرية لبنانية في بيروت قد افادت ، قبل ذلك ، بأن اسرائيل أقامت المراكز المذكورة وسوّرت ما يزيد على ١٠٠ فدان من الاراضي في

المنطقة ، وانها استخدمت بلدة الخيام التي هُجِّر أهلها لعمليات التدريب العسكري (« النهار » ، ٢٨/٦/١٩٨٠) . ومســاء ٣٠/٦/١٩٨٠ نفـذ الجيش الاسرائيلي عملية عسكرية ضد قـواعد الفدائيين في منطقة القاسمية ادت ، طبقاً للرواية الاسرائيلية ، الى مقتل ما بين ١٠ ـ ٥٠ فدائياً من اعضاء جبهة التحرير العربية . وفي تل ـ ابيب ، ذكر رئيس الأركان الاسرائيلي الجنرال ايتان ان هدف العملية عرقلة استعدادات الفدائيين ومنعهم من تنفيذ عمليات ضد اسرائيل . (« ر. إ.إ. » ، ٣٠/٦/ و ١/٧/١٩٨٠) .

وقد أوضح الناطق العسكري في القيادة المركزية للقوات المشتركة مجريات هذه العملية ، في تصريح له مسـاء اليـوم نفسـه (نصـه في « وفـا » ، ٣٠/٦/١٩٨٠) ، وبين انها ابتدأت بقصف من مدفعية الزوارق الاسرائيلية على منطقة القاسمية ترافق مع انزال قوة تقدر بفصيل مقابل بلـدة العيتانية ، عززتها نجدة اضافية محمولة بطائرات الهليكوبتر تقدر بفصيلين . وقد تصدت كمائن القوات المشتركة للهجوم الاسرائيلي واشتبكت مع قواته في معركة وصفها الناطق باسم القوات المشتركة بانها غير متكافئة . وقال الناطق ان العدو الاسرائيلي تمكن من اخلاء اصاباته من ارض المعركة بطـائرات الهيلوكبتر ، في حين استشهد خمسة من مقاتلي القوات المشتركة وجرح اثنان وفقد اثنان آخران .

ومن جهـة اخرى ، قـالت مصادر عسكـرية اسرائيلية ان الاشهر الستة الماضية ، من العام الحالي ، شهدت تصاعداً مهماً في النزاع العسكري بين اسرائيـل والفدائيـين الفلسطينيين ، الـذين يتخذون من لبنان مقرا لهم . وقالت أنه بينما يحاول الفدائيون التغلغـل بحرا وبـرا ، قامت القـوات الاسرائيلية بقصف قواعدهم على امتداد الساحل اللبنـاني في محاولـة للقضـاء عـلى مخططـاتهم وتنظيماتهم وابقائهم في حالة من عدم الاستقرار والتوتر الـدائمين . واعتـرف الناطق بـأن قدرة الفدائيين على التخطيط قد تحسنت بشكل بارز في السنـوات الاخيـرة («السفـير»، ٣/٧/١٩٨٠).

المقدم الطيار حسين عويضة

سياسة اليد القوية في التطبيق

من ابرز معالم احداث الفترة الاخيرة احتدام الصدام بين المواطنين العرب في الارض المحتلة ، وبين سلطات الاحتلال ، وسط اجراءات قمعية استهدفت السكان واخرى تعسفية استهدفت الارض ، واستدعت تواجد اعداد كبيرة من الجيش الاسرائيلي ، لدرجة ان احد المسؤولين الاسرائيليين اشاد باتفاقيات كمب ديفيد من زاوية منحها اسرائيل امكانية حشد قواتها امام الجبهة الوحيدة القائمة في المناطق الفلسطينية المحتلة .

وتذكرنا الاوضاع التي تعيشها الضفة الغربية بالاوضاع التي عاشها القطاع في بداية السبعينات ، عندما كان يشكل الجبهة الوحيدة امام العدو الصهيوني . وقدم الاهالي في هذه الفترة شهيدة فلسطينية اخرى هي الطالبة تغريد البطمة .

سياسة « اليد القوية »

مع ارتفاع وتيرة النضال الوطني الفلسطيني في الضفة الغربية ، وقبيل جريمة الاعتداء على رؤساء البلديات ومحاولة قتلهم ، اتخذت سلطات الاحتلال قراراً بانتهاج سياسة « اليد القوية » . واعطت هذه السياسة اولى ثمارها بابعاد رئيسي بلديتي الخليل وحلحول وقاضي الخليل ، وجريمة الاعتداء على عدد من رؤساء البلديات التي اسفرت عن قطع ارجل بسام الشكعة وكريم خلف . ويبدو ان سياسة « اليد القوية » كانت ستدشن ، في الاصل ، بابعاد جميع رؤساء البلديات في محاولة لحرمان الضفة الغربية زعامتها الوطنية المؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية . فقد كشف المعلق السياسي الاسرائيلي زئيف شيف (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٦/٨) النقاب عن ان قرار ابعاد القواسمة والتميمي وملحم كان معتدلاً بالمقارنة مع اقتراح اشد لم يتخذ ، يتعلق بطرد جميع رؤساء البلديات « ولو استجابوا لاقتراح آخر لانقذ الشكعة وخلف ـ ربما ـ من عملية اغتيال متأخرة » .

لقد عبرت سياسة « اليد القوية » عن نفسها بأشكال متعددة ، منها القتل ، واطلاق النار على المتظاهرين ، وهدم المنازل ، وغلق الحوانيت والعبث بمحتوياتها ، ونفي عائلات والتنكيل بافرادها ، وفرض نظام منع التجول ، واحكام الحصار الاقتصادي على بعض المناطق ، وتوجيه الاهانات الى المارة ، وزج العديد من المواطنين في المعتقلات .

وفيما يتعلق بجرائم القتل ، اطلق جندي اسرائيلي النار على الطالبة تغريد البطمة ، سكرتيرة نادي التراث الفلسطيني في بيت لحم ، اثناء توجهها الى الحرم الجامعي ، في التاسع عشر من حزيران الماضي ، وأصابت الطلقة عمودها الفقري . وكرد فعل على ذلك ، سارعت الاوساط الوطنية لعقد مؤتمر صحافي تحت ظلال العلم الفلسطيني الذي غمسه الوطنيون بدم تغريد ، وفق ما ذكرته بعض الصحف الاسرائيلية ، واصدرت بيانا استنكرت فيه الجريمة واعتبرتها « جزءاً من ممارسات سلطات الاحتلال المتمثلة بالابعاد والاغتيالات وغيرها ، بهدف تفريغ الارض الفلسطينية من اصحابها الشرعيين وتمرير

المخططات الامبريالية الرجعية » . واكد البيان على ان السياسة المسماة بـ « القبضة الحديدية لا تعبر الا عن وجه الاحتلال البشع وعن عجزه امام اصرار شعبنا على استمرارية النضال والالتحام بممثله الشرعي والوحيد منظمة التحرير الفلسطينية... » («الاتحاد » ، ٢٠/٦/١٩٨٠) . وفي الثالث والعشرين من الشهر نفسه توفيت الطالبة تغريد عن عمر يناهز ، التسعة عشر ربيعاً .

وكالعادة في مثل هذه الحالات ، اتسمت برقيات التعزية ، المنشورة في الصحف العربية في المناطق المحتلة ، بالاعتزاز الوطني بسقوط شهيدة في ساحة الشرف ؛ اذ لا تخلو برقية نعي من زف بشرى الاستشهاد « بمزيد من الفخر والاعتزاز ننعي ... » ، ومن بينها برقية والدها التي جاء فيها « عروس تزف ، تغريد اسماعيل البطمة . اسماعيل البطمة وعائلته يزفون ابنتهم تغريد الى الدار الآخرة بعد ان سقطت على الساحة وانضمت الى القافلة . طيب الله ثرى شهدائنا . والى جنات الخلد » (وفا ، ٢٥/٦/١٩٨٠) .

ومن الجدير بالذكر ان المعلقين الاسرائيليين درجوا على لفت الانظار الى ما اسموه بالظاهرة الفريدة للفلسطينيين في نعي شهدائهم ، في محاولة منهم دفع الرقابة العسكرية للتدخل في أمر اعلانات التأبين . وقد قامت ادارة الجامعة في بيت لحم ، كاسهام منها في النضال ، بمنح شهادة بكالوريوس فخرية للشهيدة تغريد ، تسلمها والدها اثناء حفل توزيع الشهادات وسط اجواء حماسية . كما نعت الثورة الفلسطينية للامة العربية الشهيدة تغريد .

والى جانب تغريد ، سقط شهيد في الثامن والعشرين من حزيران ، هو بسام محمد حبش (٢١ عاما) ، من مخيم بلاطة ، بعد حملة حصار ومداهمات واسعة للمخيم وجواره ، على اثر مصرع ضابط المخابرات الاسرائيلي موشي غولان في المنطقة ، وتحميل بسام مسؤولية مصرعه . واستكملت سلطات الاحتلال جريمة القتل بهدم منزل ذويه واخضاع المخيم فترة لعبث الجنود .

وفي غضون ذلك تعرض رئيس المجلس القروي في صوريف ، الواقعة الى الشمال الغربي من الخليل ، لمحاولة اغتيال ، حين اكتشفت قنبلة امام منزله ، كما تعرض مختار صور باهر لمحاولة شبيهة ، حين دمرت مواد ناسفة سيارته .

وبخصوص التعرض للطلبة باطلاق النار عليهم ، اعتدت قوات الاحتلال ، في الثالث والعشرين من حزيران ، على الطلبة في جامعة بيرزيت ، عقب ان قام هؤلاء بتظاهرة احتجاجية ضد الممارسات القمعية لسلطات الاحتلال ، رفعوا خلالها اعلام فلسطين وسط هتافات مؤيدة لمنظمة التحرير الفلسطينية . وتصدت قوات الاحتلال للمتظاهرين بالعيارات النارية التي اصابت خمسة من الطلبة بجراح ، هم : محمد عقيل وعودة شحادة وعاصم طحان وعنان خليل ورحاب مسيح . وقد اعترفت الاذاعة الاسرائيلية بأن قوات الجيش اطلقت النار نحو المتظاهرين بهدف اصابتهم ، بقولها ان المتظاهرين لم يستجيبوا لنداء الجيش بالتفرق « ولم يجد رجال القوة مناصاً من اطلاق النار على [اقدامهم] » «ر. إ. إ.» ٢٣/٦/١٩٨٠) .

وقد القت سياسة العقاب الجماعي ظلالها الثقيلة على الاهالي . ففي اعقاب العملية الفدائية الجريئة في قلب مدينة الخليل ، فرضت سلطات الاحتلال حصاراً محكما على المدينة وعلى عنبتا وعين بيرود وعلى مخيمي الدهيشة والجلزون وبعض القرى ، وحالت دون الدخول والخروج من المناطق المحاصرة ، وسط اجراءات قمعية شرسة اعتدت خلالها على عدد من المواطنين ، بينهم اطفال وشيوخ ، واقدمت كذلك على حرق كميات من الكتب وقطع خطوط الهاتف . ففي مخيم الدهيشة، على سبيل المثال ، كسر الجنود رجلي الطفل جهاد عبد الفتاح (١٢ سنة) ، وتعرض كل من عيسى غانم (عشر سنوات) وعمر عبد العزيز (١٧ سنة) لاعتداءات وحشية . وابعدت عائلة ابو سميح شاهين عن بيتها ، واعتدت قوات الاحتلال على « جميع افرادها بالضرب والركل » وتعرضت جميلة جابر البالغة من العمر مئة عام للتنكيل « وكسر جنود الاحتلال يديها ، وكذلك كان مصير وجيه الشيخ (٢٠ سنة) » (للاستزادة انظر : « الاتحاد » ، ٢٣/٥/١٩٨٠) .

ونال اهالي الخليل القسط الاوفر من عسف هذه السياسة : فقد تعرض الاهالي ، حتى بعد حظر التجول نهاراً عن المدينة ، لمضايقات جمة ، وشكل العمال العائدون من عملهم فريسة للجنود الذين اعتادوا تفريغ شحنات غضبهم عليهم . وكشفت « عل همشمار » (٢٠/٥/١٩٨٠) جانبا من

اعمال « الضرب والاهانة » التي يتعرض لها هؤلاء بقولها : « لقد ضرب الجنود السكان العائدين من عملهم ، بأيديهم وبأعقاب بنادقهم ، والقوا بالسكان على الزجاج المهشم ، واحد هؤلاء المضروبين داوود القواسمة ، قريب رئيس البلدية الذي أقيل » ولم ينقذ هؤلاء ، حسب قول الصحيفة ، الا مجيء قوات من حرس الحدود !

وفي مواجهة ظاهرة القاء الاطفال بالحجارة على السيارات العسكرية ، لجأت سلطات الاحتلال الى اسلوب النفي وتضييق سبل العيش امام العائلات التي ينتمي افرادها الى « ملقي الحجارة » ، وشكلت المعاملة التي واجهتها عائلة الشومالي ، المبعدة من بيت ساحور الى مخيم عين السلطان في منطقة اريحا ، نموذجاً لما جرى لعائلات اخرى . فقد واجه الفتى « ضرباً مبرحاً » على اعضاء جسده الحساسة ، بما في ذلك اعضاؤه التناسلية ، كان من نتيجته ان اخضع لعمليات عدة في المستشفي ، بينما أقيل الأب وابنتاه من وظائفهم كمعلمين (« عل همشمار »، ٢٠ / ٥ / ١٩٨٠ . وللاستزادة انظر « هعولام هزيه » ، ٢٠/٥/١٩٨٠) . ومن الجدير بالذكر ان قضية التنكيل بافراد العائلات المنفية تحولت الى سلاح بيد بيغن في صراعه مع وايزمن ، بصفته مسؤولاً عنها ، وغدت بفضل الصراع ، على حد قول بيغن ، بمثابة « عمل بربري ... مخجل » (« معاريف » ، ١٣/٦/١٩٨٠) .

الى جانب ذلك ، تعرض كثير من البيوت والحوانيت للغلق او النسف ، ولم تنج مدينة او بلدة فلسطينية من هذه العقوبة ، بحجة ان حجراً او زجاجة مولوتوف أُلقيا من هذا البيت او ذاك ، او ان اصحاب الحوانيت اغلقوا متاجرهم استجابة للدعوة الى اضراب . ففي مدينة غزة صدرت اوامر بغلق ١٧ حانوتا ، وفي بيت لحم صدرت اوامر مشابهة باغلاق ٧٢ حانوتاً بسبب القاء الحجارة او زجاجات المولوتوف بالقرب منها ، واتخذت اجراءات مشابهة في القدس ونابلس وجنين والخليل وبيت لحم ، وسط عبث الجنود بالمحتويات ، وبشكل استهتار هؤلاء بالمواطنين واستباحتهم للحوانيت لدرجة ان اقدم الجنود المرسلون لحماية رئيس بلدية بيت لحم الياس فريج على الاعتداء على متجره ، بعد ان اتسم سلوكهم تجاهه ، وفق قوله « بالاهانة الشخصية ... في الليل بعثوا الي بجنود لحراستي ، وفي الصباح ارسلوا جنوداً لتهشيم متجري » (« دافار » ، ٤/٦/١٩٨٠) . كما تعرض كثير من المنازل في عدد من المخيمات والمدن للهدم ، بحجة ان ابناءها من « ملقي الحجارة » . وقد احتلت الخليل المركز الاول في هذا المجال : فبالقرب من الدبوية (هداسا) هدمت سلطات الاحتلال ١٦ منزلاً ومتجراً على ما فيها من بضائع وأثاث . وشاءت الظروف ان يكون احد المنازل المنسوفة تابعاً لمحمد عمر الحرباوي الذي ما لبث ان احتل مكانة في الصحف الاسرائيلية لا بسبب الغبن اللاحق به اسوة بمواطنين عرب آخرين ، بل لاكتشاف وسائل الاعلام الاسرائيلية ان عائلة المذكور كانت قد انقذت عدداً من اليهود في احداث ١٩٢٩ في الخليل . وقد بادر افراد يهود بجمع تبرعات لصاحب البيت كتعويض و« مكافأة » له على الدور الذي قامت به عائلته في الماضي ، دون شجب عملية نسف البيت . ورفض الحرباوي هذه « المكافأة » ولم يشأ ربط هدم منزله باحداث عام ١٩٢٩ ، وطالب بازالة الضيم اللاحق به ، محملاً سلطات الاحتلال لوحدها مسؤولية الهدم والتعويض . ومن الجدير بالذكر ان الحكم العسكري اعلن عن استعداده لتقديم تعويضات لصاحب البيت المذكور دون اصحاب البيوت الاخرى (انظر « هآرتس »، ١٠/٦/١٩٨٠) .

ويبدو ان البعض من اليهود العاديين قد اجاز لنفسه ، تحت مظلة سياسة « اليد القوية » ، التدخل في شؤون القرويين العرب اعتباطاً : ففي بلدة الظاهرية حدث ان تعرضت سيارة مدنية ، اثناء سيرها مساء في البلدة ، لحجر اصاب بابها ، فعاد سائقها اليهودي صباح اليوم التالي مهدداً المجلس البلدي بالويل والثبور ان لم يعوض عليه « خسارته » ، طالباً مبلغ مئة الف ليرة اسرائيلية وتفقد المدارس في البلدة الى جانب الوجهاء بهدف « تثقيف » التلاميذ . ووافق المجلس على طلبه وفق ما ذكرته «يديعوت احرونوت» (٢٠ / ٥ / ١٩٨٠) ، التي اضافت ، بشيء من الاعتزاز ، ان اليهودي «تبرع» بالمبلغ الى مؤسسات خيرية اسلامية !

ولعل تعليمات جهاز الحكم العسكري الموجهة الى الجنود ، والتي كشف النقاب عنها مؤخراً في وثيقة قدمها عدد من الجنود الى عضو الكنيست اوري افنيري ؛ وكشفها هذا بدوره للرأي العام ، تشير

الى مدى ما وصل اليه جنود الاحتلال من همجية في معاملتهم للسكان العرب . فقد جاء فيها (انظر النص الكامل للوثيقة في « الاتحاد » ، ١٩٨٠/٥/٢٧) : « كل انسان تمسكون به خارج بيته تكيلون له ، قبل كل شيء ، الضرب بالعصي على كل انحاء جسمه ما عدا الرأس . لا ترحموا ، كسروا عظامهم ! لا تفسروا شيئاً . قبل كل شيء اضربوا وبعد الانتهاء فسروا لماذا ضربتم .

« اذا أمسكتم بطفل صغير اخرجوا كل عائلته الى الخارج واوقفوها في صف واضربوا الأب امام كل الاولاد ، لا تتوجهوا الى هذه الضربات كحق بل هي واجب . انهم لا يفهمون اسلوباً آخر .

« لا جدوى من اعتقال اولئك الذين يتجولون في الخارج . اضربوهم واعيدوهم الى البيوت . ولكن اذا فعل احدهم مشاكل او قذف بحجر ... فقبل كل شي حطموا عظامه ، ثم انقلوه بالسيارة الى مقر الحكم العسكري ... » .

توسيع دائرة الاستيطان واعمال المصادرة

الى جانب الاجراءات القمعية التي استهدفت السكان ، اتخذت سلطات الاحتلال اجراءات استهدفت الارض بغرض تهويدها . وقد عبرت عن نفسها بأعمال وضع اليد على مساحات واسعة من الاراضي وبمشاريع استيطانية كبيرة . فقد تم اغلاق ١٥٠٠ دونم من اراضي عرب التعامره بهدف توسيع مستعمرة تكواع المقامة على اراضيهم ، بحجة ان هذه الاراضي هي اراض حكومية ، كما تم غلق ٨٠٠ دونم تخص فلاحي مسحة العربية لصالح مستوطنة يهودية هناك (« الطليعة » ، ١٩٨٠/٦/١٩) . وتحت ذريعة الأمن الواهية تم وضع اليد على ١٧ الف دونم من اراضي قرية دير استيا ووادي قانا بالقرب من طولكرم ، وتم حتى الآن تسييج اربعة آلاف دونم واقتلاع اشجار زيتون . كما استولت سلطات الاحتلال على عشرات الدونمات التي تخص اهالي سلواد وعين يبرود بحجة الضرورة « لتنظيم مجاري مستوطنة عوفرا »(د. إ. إ.، ١٩٨٠/٧/١٥) . وكتمهيد للاستيلاء على مزيد من الاراضي ، قررت سلطات الاحتلال شق طريق الى مستوطنة ايلون موريه .

وعلى صعيد اقامة المستوطنات ، كشف بيغن النقاب ، في مقابلة مع الصحافيين الاجانب ، عن وجود عشر مستوطنات في طور البناء في المناطق المحتلة ، مركزاً على انها ستكون آخر المستوطنات الى جانب تأكيده على « حق » اسرائيل في اقامة مشاريع استيطانية اخرى . ومع ذلك فقد أميط اللثام عن خطة استيطانية كبيرة اعدتها الادارة الصهيونية تدعو الى اقامة ٨٥ مستوطنة جديدة في الضفة الغربية خلال الاعوام الخمسة القادمة ، تستوعب ١٥٠ الف مستوطن (« السفير » ، ١٩٨٠/٧/١٠) . وكتعزيز لهذه الاجراءات وتسريع عملية تهويد القدس وتنشيطها ، قرر رئيس الحكومة مناحيم بيغن ، في أواخر حزيران ، نقل مكتبه الى القدس العربية .

وترى اسرائيل أن هذه الاجراءات الاستيطانية لا تتعارض مع مشروع الادارة الذاتية وفق اتفاقية كامب ديفيد . فقد كشف مؤخراً عن خريطة التواجد الاسرائيلي عقب تطبيق الحكم الذاتي وفق تصور الحكومة الاسرائيلية لها (د. إ. إ. ١٩٨٠/٦/٢٧) ، وبموجب هذه الخريطة سينتشر الجيش الاسرائيلي على كافة المحاور في مناطق الحكم الذاتي ، وستقام القواعد العسكرية بالقرب من جميع المراكز السكنية ومفارق الطرق الرئيسية ، وسيحتفظ بالاراضي الواقعة بين المستوطنات اليهودية لصالح المنشآت العسكرية ، وستقام قواعد الانذار والمراقبة فوق قمم الجبال . كما ستحافظ قوات الجيش على مراكزها على امتداد نهر الاردن ، وستتحرك على جميع طرقات الضفة الغربية .

تفاقم اوضاع المعتقلين

مع اشتداد وطأة القمع التي يعاني منها المواطنون الفلسطينيون في المناطق المحتلة ، ازدادت ايضاً اوضاع الاف المعتقلين الفلسطينيين سوءاً . فالى جانب استقبال المعتقلات يومياً لوافدين جدد ، يعاني المعتقلون ، منذ سنوات ، من اكتظاظ الغرف ، وسوء التغذية ، والاحوال الصحيةالسيئة والمعاملة اللاإنسانية، ومنع الزيارات عن العديد منهم . وحدث اكثر من مرة ان لقي عدد من السجناء حتفهم بسبب تضافر هذه الاوضاع الى جانب ما يلاقون من صنوف التعذيب . وفي مواجهة هذه الظروف لجأ المعتقلون الى سلاح الاضراب عن الطعام ، على الرغم من انه يفاقم من وضعهم الصحي السيىء اصلاً ، والى تسريب البيانات ، لحمل الرأي العام على التدخل لصالحهم . ففي اوائل ايار الماضي ناشد المعتقلون في سجني

عسقلان وبئر السبع ، الرأي العام ، بتنظيم حملة تضامن جماهيرية ، في بيان نشرته « الاتحاد »(١٦/٥/١٩٨٠) جاء فيه : « ان مجمل الشروط التي تفرضها السلطات الاسرائيلية على المعتقلين الفلسطينيين في كافة معتقلاتها لا تحمل سوى معاني الاذلال والقهر والتحطيم . وهي تتجاوز في مدلولها الاعمق سحق القيم الوطنية للانسان الفلسطيني . انها تطارده حتى في وجوده الانساني وتعمل على تشويه وطمس هذا الوجود . وان هدر القيم الانسانية عبر صنوف العذاب والحرمان كان ولا يزال قلب هذه الشروط وقالبها » . وطالب البيان بتدخل الاوساط الدولية لتحسين ظروف اعتقالهم . ومؤخراً أعلن المعتقلون في سجن نفحه الصحراوي في النقب الاضراب عن الطعام احتجاجاً على صنوف التعذيب الهمجية التي يعاني منها هؤلاء ، الى جانب معاناتهم « الظروف غير الانسانية » . وجاء في رسالة بعثوا بها الى عائلاتهم لتوزيعها على الرأي العام ، ان « زنزانات السجن لا تزيد عن ٣ امتار عرضاً و ٦ امتار طولاً ، ويوضع عشرة سجناء في كل زنزانة . التهوئة غاية في السوء ويصل الهواء الى الزنزانة من فتحات في السقف لا تزيد مساحة الواحدة منها على نصف متر مربع . الابواب مقفلة اقفالاً محكماً بحيث لا يتسرب منها الهواء عملياً . نتنفس في صعوبة . النور لا يصل الى زنزاناتنا ، والمراحيض موجودة داخل الزنزانات . هناك حنفيات صغيرة ولكن لا وجود للمغاسل»(« الفهلو » ، ٤/٧/١٩٨٠) . وقد حدت هذه الظروف الصعبة بالجمعيات والهيئات النسائية وامهات المعتقلين السياسيين في المناطق المحتلة للاعراب عن الاحتجاج والسخط ضد هذه الاوضاع ، والمطالبة بالافراج عن المعتقلين ، سواء بارسال المذكرات الى الهيئات الدولية والعربية او عن طريق الاعتصام . وكانت هذه الجمعيات قد ارسلت اواخر حزيران الماضي مذكرة الى كل من السكرتير العام للامم المتحدة وامين عام جامعة الدول العربية ، والى قناصل عدد من الدول الاجنبية على اثر اعتصام قامت به الهيئات النسائية في مقر الصليب الاحمر الدولي في القدس تضمنت ستة بنود (انظر « وفا » ، ٣٠/٦/١٩٨٠) :

١ ـ « المبادرة لدعوة مجلس الأمن لمعالجة قضايا المعتقلين ...

٢ ـ « ايفاد لجنة دولية حيادية لتقصي الحقائق فيما يجري في تلك السجون والزنازين ، كما هو الحال في سجون نفحه الصحراوي وغزة والرملة ... وسائر المعتقلات .

٣ ـ « الكف عن عمليات الارهاب والاعتقالات الجماعية على القرى والمدن والمخيمات ، واغتيالات كالتي تعرض لها رؤساء البلديات في نابلس ورام الله والبيره ، بما فيها نفي رئيسي بلديتي الخليل وحلحول والقاضي الشرعي لمدينة الخليل ، وعن هدم واغلاق للبيوت ... واخيراً الاعتداء على حياة الطالبة الجامعية تغريد وجرح خمسة من طلاب جامعة بيرزيت ...

٤ـ « ادانة اميركا وتآمرها مع اسرائيل في تمويلها لاقامة المستوطنات لتهديد الوجود العربي ...

٥ـ « دعوة الامة العربية لمنع البترول عن اميركا ومقاطعتها مع كل من يدور في فلكها من الدول الاجنبية ، وسحب ودائع الأمة العربية من البنوك الاجنبية ، واقامة مصانع لحماية الارض والمقدسات العربية في فلسطين » واختتمت المذكرة بالدعوة لتأييد شرعية المطالب آنفة الذكر « لشعب اعزل فرضت عليه الاقدار ان يواجه القوى المسلحة وحيداً وبصدوره العارية الا من ايمانه بحقه وبأرضه ، فاننا نعلن للعالم ان كل ما يخطط لهذا الشعب ويمارس ضده من عقوبات واضطهادات في السجون ، لن يزيده الا صموداً وتمسكاً بارضه ومقدسات أمته ، والالتزام بممثله الشرعي م. ت. ف... وباقامة دولته الوطنية على سائر التراب الفلسطيني » .

ع . ح . م .

تحولات بارزة في مسيرة النضال وتضامن واسع مع سكان المناطق المحتلة

شهدت المناطق الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٤٨ مزيداً من التحولات في مسيرة النضال ، باتجاه تأكيد الارتباط المصيري مع النضال الوطني للشعب الفلسطيني. هذه التحولات عبرت عنها مختلف اشكال التضامن والتأييد للتطورات الجارية في المناطق المحتلة منذ عام ١٩٦٧ . وفي المقابل ، صعّدت السلطات الاسرائيلية من حملات التحريض ، والاضطهاد ضد الشخصيات الوطنية ، والطلاب العرب ، وكل فئات الشعب ، مستخدمةً العصابات اليمينية الفاشية ، وادوات قمعها الرسمية ، في محاولة لفك لحمة النضال الآخذة بالتبلور داخل مناطق التواجد الفلسطيني كافة ، سواء منها تلك التي احتلّت قبل عام ١٩٦٧ او تلك التي احتلّت بعده كما زادت تلك السلطات من عمليات القهر القوي عبر مصادرة الأراضي العربية في النقب ، وإنشاء مزيد من المستوطنات في الشمال ، ضمن مخطط تهويد الجليل ، وقلب الحقائق الديمغرافية القائمة .

التضامن مع سكان المناطق المحتلة

كان للتطورات الاخيرة التي حدثت في المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ردود فعل تضامنية واسعة عند العرب في اسرائيل . وجاءت محاولة اغتيال رئيسي بلديتي نابلس ورام الله : بسام الشكعة وكريم خلف لتكشف عن حقيقة الفاشية الصهيونية ومدى همجيتها ، وتورط الحكومة الاسرائيلية في هذا العمل الشنيع . وقد أثارت هذه المحاولة العدوانية شعور العرب في « اسرائيل » إزاء ما يجابهه ابناء المناطق المحتلة من أخطار . فنظموا عدداً من اعمال الاحتجاج والتضامن في كل القرى والبلدات العربية؛ ففي أم الفحم قامت مظاهرة حاشدة شارك فيها اكثر من خمسة آلاف رجل وامرأة سارت في شوارع القرية ، وانتهت باجتماع عقد في نادي الحزب الشيوعي ، واعلن طلاب المدارس في كفرمندا الاضراب ، ونظموا مظاهرات في الشوارع انضم اليها مئات من السكان ، واختتم الاضراب باجتماع شعبي تكلم فيه رئيس المجلس المحلي محمد زيدان . وفي طمره اضرب طلاب المدرسة الثانوية ، واقاموا مظاهرة كبيرة تكلم فيها رئيس المجلس المحلي عباس حجازي . وفي المساء نظمت مظاهرة جماهيرية أخرى ، انتهت بإقامة مهرجان تكلم فيه كل من عباس حجازي ، وفتحي الرومي عضو المجلس المحلي ومحمد فضل حسان سكرتير فرع الحزب الشيوعي والشاعر نزيه حسون . وجرت أيضاً مظاهرات واجتماعات شعبية في الرامة ، ومجد الكروم ، وباقة الغربية ، وبيركا ، وكفرياسيف ، وجديدة ، وأبو سنان ، وشعب ، رتابول ، وعكا وسخنين وعبلين ، تحدث فيها عدد من الشخصيات واعضاء المجالس المحلية العربية .

وكان مؤتمر الناصرة ، الذي عقد في مبنى المركز الثقافي يوم ٥/٦/١٩٨٠ تتويجاً لكل تلك المظاهرات والمهرجانات التي جرت في القطاع العربي . وقد جرى في البداية اعتصام في مبنى البلدية ، ثم تحول

الاعتصام الى مظاهرة ضخمة . واثر انتهاء المظاهرة ، توجه وفد يمثل المعتصمين الى نابلس ، ورام الله للاعلان عن التضامن . ووجه رؤساء المجالس المحلية نداء الى رئيسي بلديتي غزة وبيت لحم يطلبون فيه منهما التراجع عن استقالتيهما . وقد افتتح جمال طربيه رئيس مجلس سخنين المحلي ، مهرجان الناصرة ثم تكلم نائب رئيس اللجنة القطرية للمجالس المحلية ورئيس مجلس شفا عمرو ، ابراهيم غر فأكد ان جريمة محاولة الاغتيال هي «عمل أثيم لا يمكن السكوت عليه . بل ان السكوت عليه جريمة ومشاركة في الجريمة » ، وقال ابراهيم نمر : « ان ما اقترفه الفاشست هناك يمكن ان يحدث هنا ايضاً اذا لم نستأصل الشر من جذوره . ونطالب الحكومة بأن تكشف هوية المجرمين ، وتنزل العقاب بهم ، والا فلتعلن افلاسها وتقدم الاستقالة » («الاتحاد» ٦، ٦، ١٩٨٠) . وذكر محمد زيدان ، الناطق باسم اللجنة القطرية ، بحقيقة ان الشعب الفلسطيني الواقع تحت الاحتلال منذ ١٩٤٨ ، هو جزء من الشعب الفلسطيني ككل وقال : « نحن جزء من شعبنا ، ولا توجد قوة تمنعنا من المشاركة والتضامن معه في كل معاركه » (**المصدر نفسه**) . وتحدث الياس لويس رئيس المجلس المحلي لمعليا عن اعمال القمع والارهاب ، التي تتم معها مصادرة الاراضي واقامة المستوطنات وقال : « يحيطون قرانا بالعصابات المدججة بالسلاح ، ويستعرضون عضلاتهم » وربط بين « القمع هنا ، وتصعيد القمع في الضفة الغربية » ، واضاف « نحن شعب واحد » (**المصدر نفسه**) .

وكانت كلمة المهرجان الرئيسية للنائب توفيق زياد رئيس بلدية الناصرة ، الذي أكد ان الجريمة نمت على أرضية الاحتلال وأن « قطعان غوش ايمونيم وليفنغر وكهانا تربت ونمت بدعم كامل من سلطات الاحتلال » . وتطرق الى تصريحات بنيامين غوز - آربيه ، مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية ، التي تهجم فيها على لجنة رؤساء السلطات المحلية العربية ، بحجة تدخلها بالسياسة وقال : « من السخف والوقاحة ان يطلب مستشار رئيس الحكومة من الجماهير العربية في اسرائيل وقياداتها البلدية ألاّ تتدخل في السياسة ، لأن قطع الميزانيات عن مجالسنا سياسة ، والظلم ضد السلطات المحلية العربية سياسة ، واهانة عمالنا في أماكن عملهم سياسة ، ونهب الأراضي سياسة ، واقامة المناطر [نقاط المراقبة الاستيطانية] سياسة ، ومحاولة قتل الابطال ، القادة البارزين للبلديات في المناطق المحتلة ، كل هذا سياسة » (**المصدر نفسه**) . وأضاف زياد : « لا يمكن لأية قوة كانت أن تمنع هذا النصف مليون حيّ من شعبنا ، المنغرسين في وطنهم رغم كل العاتيات ، من أن يتدخل ويرمي بثقله ، ليس فقط ضد عصابات غوش ايمونيم والرابي المأفون كهانا ، بل وأيضاً ضد من يغذي ويوجه ويضع البرامج ، ويخلق الجو المسموم لتفشي العنصرية والفاشية ، الا وهو حكومة اسرائيل » (**المصدر نفسه**) .

وسخّف زياد ، محاولات السلطات المقارنة بين عمليات المقاومة الفلسطينية ، وجرائم الاحتلال في مدن وقرى الضفة الغربية وقال : « نحن نقول على رؤوس الأشهاد ، وأمام التلفزيون والاذاعة وأقوى ميكروفون ، ان الشعب الفلسطيني مثل كل شعب تحت الاحتلال ، من حقه ان يقاوم الاحتلال . ان عشرات الشعوب التي تحررت في اسيا وامريكا اللاتينية كنست الاحتلال بالكفاح الوطني . ومصير الاحتلال الاسرائيلي مثل مصير كل احتلال ، ان يكنس وأن تستقل الدولة الفلسطينية » (**المصدر نفسه**) . ووجه زياد نداء الى كل هيئات الشعب الفلسطيني ومنظماته ، ان تعمق عملها الشعبي النضالي ضد الاحتلال والفاشية . ونبه الى ضرورة الوحدة القصوى واليقظة والتصدي الجماهيري لجميع مظاهر العنصرية والفاشية ، والقمع والعداء والاحتلال .

ورد مراسل الاذاعة الاسرائيلية ، الذي شاهد مظاهرة الناصرة وهي تنشد نشيد « بلادي بلادي » ، على الآراء التي ظهرت في اسرائيل سابقاً ، وكانت تقول ان عرب اسرائيل هم جسر السلام قائلاً : « لكن الجسر الذي شوهد اليوم في الناصرة ، لم يكن الا امتداد لنابلس ورام الله ، حيث لم يأتوا على ذكر السلام اليوم في الاجتماع» (« ر. إ. إ » ، العدد ٢٠٧٤ ، ٥ و ٦ ٦/١٩٨٠ ، ص ٧) .

بيان تاريخي

واعتبر العرب في اسرائيل ، جريمة محاولة اغتيال الوطنيين في الضفة الغربية ، واتساع نطاق الأعمال الفاشية للعصابات المتطرفة ، ولحكومة

الليكود ، نقطة تحول ، يجب ان تقابل بنقلة نوعية من جانبهم لاحباط مظاهر الفاشية والاضطهاد القومي . وتداعت الشخصيات الوطنية العربية ، وممثلو الرأي العام العربي الى إصدار بيان تاريخي حمل عنوان : « في هذه الساعات المصيرية » ، اعتُبر ميثاق شرف ، وأساساً للنضال وتقرر أن يجريَ بذل أكبر جهد ممكن للموافقة عليه من قبل الرأي العام العربي واليهودي ، وأن يطلب من جميع المواطنين إرسال تواقيعهم تأييداً للبيان ، الذي جاء فيه : « نحن الموقعين أدناه ، ممثلي أوسع اوساط الرأي العام العربي في اسرائيل ، نرى لزاماً علينا ان نعلن ـ بهذا البيان ـ عن القلق الشديد الذي يسود المجتمع العربي في اسرائيل في هذه الايام ، من جراء التدهور الخطير في الوضع في المناطق المحتلة ، وانعكاساته على الوضع داخل اسرائيل .

« ان الدوائر الحاكمة في اسرائيل ، في سعيها المحموم لفرض الادارة الذاتية ، ولتخليد الاحتلال ، ولتوسيع الاستيطان ، ولدوس حقوق الشعب العربي الفلسطيني العادلة ، تلجأ الى تشديد وطأة اليد الحديدية في المناطق المحتلة ، حتى ارتكاب جرائم العقوبات الجماعية المحظورة دولياً وانسانياً . وهذا بدوره يقود الى المزيد من المقاومة المشروعة للاحتلال ، والى تعميق وتوسيع حلقة الدم المفرغة حتى لا تبقي ولا تذر » (« الاتحاد » ، ١٩٨٠/٦/٦ .

واستنكر البيان حوادث الاعتداء على رؤساء البلديات ، وطرد الشخصيات الوطنية ، وتشجيع جماعات التطرف الاستيطانية امثال جماعة غوش ايمونيم ومنظمة الرابي كهانا . ولاحظ البيان ان هذا التدهور يؤثر على المواطنين العرب في اسرائيل ، ضحية الاضطهاد القومي والقهر العنصري . وحمّل البيان الاوساط الحاكمة والرأي العام الاسرائيلي مسؤولية استمرار التصرفات العنصرية الدموية واضاف : « نحن اهل هذه البلاد . لا وطن لنا غير هذا الوطن ، ويكفي ان نذّكّر حكام اسرائيل ، انهم حين وافقوا على اقامة الدولة اليهودية في فلسطين بموجب قرارات الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ ، كانوا يعلمون أن عدد العرب في اطار هذه الدولة مساو تقريبا لعدد اليهود . وحتى حين نجحت المؤامرة الامبريالية ، فإن ما تبقى من العرب في حدود الدولة الجديدة يبلغ حوالي ١٦٠ ألف اي بنسبة ٢٠٪ من مجموع سكان الدولة آنذاك » (المصدر نفسه »).

وأعلن البيان ، اصرار الشعب الفلسطيني على الرسوخ في أرضه ، وعدم الاستجابة لضغوط السلطات بالنزوح أو الرحيل ، واضاف : « لم تنكر ولا يمكن ان تنكر حتى لو جوبهنا بالموت نفسه ، أصلنا العريق ، اننا جزء حي وواع ونشيط من الشعب العربي الفلسطيني . لم نتنازل ولا يمكن ان نتنازل عن حق هذا الشعب في تقرير مصيره ، وفي الحرية والاستقلال على ترابه الوطني » (المصدر نفسه) .

وأخيراً طالب البيان ، بالاعتراف بكيان الشعب الفلسطيني القومي ، وبانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في اقامة دولته بقيادة م .ت .ف . ودعا ممثلي الجماهير العربية في اسرائيل كافة ، الى عقد مؤتمر يشارك فيه ممثلو قوى السلام والديمقراطية اليهود « ليعبر عن ارادة شعبنا في التصدي الحازم ، جنبا الى جنب مع كل القوى الديمقراطية اليهودية ، لتصاعد خطر العنصريين والفاشيين في اسرائيل » .

ونشرت صحيفة الاتحاد البيان اكثر من مرة بناء على طلب الجمهور . كما أنها اخذت تنشر تباعاً مئات التواقيع الواردة المؤيدة لمضمونه .

اجراءات تعسفية

وفي مواجهة هذا النهوض الشعبي ، وفي محاولة لتخويف السكان العرب، قامت قوات البوليس الاسرائيلية بسلسلة من العمليات الاستفزازية ضدهم . حيث نظمت دوريات ارهابية في جميع المدن والقرى العربية ، صاحبتها عمليات اعتقال وتحقيق شملت العشرات من الأشخاص الوطنيين . ففي ام الفحم تم التحقيق مع محمود حسين اغبارية عضو المجلس المحلي ، ومحمود شريد ورشاد عبد الهادي . وفي باقة الغربية قامت الشرطة بتفجير اجتماع شعبي بحجة عقده دون ترخيص ، واجرت تحقيقاً استفزازيا مع ابراهيم بيادسي سكرتير فرع الحزب الشيوعي ، وفي سخنين اعتقل ثلاثة طلاب ثانويين هم : مازن ابو يونس ومحمد ابو ريا ومأمون ابو يونس . واعتقل تلميذان في عرابة بتهمةكتابةشعارات معادية . وفي كفر مندا حاولت الشرطة التصدي لمظاهرة نظمها الاهالي . وشملت الاعتقالات في دبورية ثمانية شبان . وقام

بوليس الناصرة بمداهمة قرية طرعان في منتصف ليلة ٦ / ٦ واجرى تفتيشاً في المنازل بحجة البحث عن شعارات معادية للدولة ، واحتجز ، رهن الاعتقال ، ثلاثة عشر شخصاً بتهمة رفع شعارات معادية . وحين تبين امام المحكمة « أن الشعارات قانونية » ادعى رجال المخابرات ، ان ثمة شعارات مفتقدة ومدد الاعتقال لمدة خمسة ايام » (« الاتحاد » ، ١٩٨٠/٦/١٠) .

وأصدر قائد المنطقة الشمالية الميجر جنرال افيغدور بن ـ غال اوامر تقضي بتحديد تنقل اربعة اشخاص (اعتقال بيتي) لمدة ستة أشهر . حيث ادعى ان هؤلاء « يشكلون خطراً على النظام العام » (« ر. إ. إ. » ، العدد ٢٠٧٦ ، ٨ و ١٩٨٠/٦/٩ ، ص ٧) . والاشخاص المشمولون بالقرارهم ، صليبا خميس عضو سكرتارية الحزب الشيوعي، وعضو سكرتارية اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي ، ورمزي خوري سكرتير لجنة المراقبة المركزية في الحزب الشيوعي ، والمحامي محمد ميعاري عضو سكرتارية اللجنة القطرية للدفاع عن الاراضي ، وصالح برانسي من الطيبة . ويذكر أن هذه الاوامر مبنية على احكام قوانين الطوارىء المعمول بها منذ ١٩٤٥ . ومع ان الحكم العسكري الغي منذ عام ١٩٦٦ ، الا ان قوانين الطوارىء هذه لا تزال قائمة .

وحملة تحريض ضد توفيق زياد

وبلغت الاجراءات التعسفية ذروتها ، بحملة التحريض ضد عضو الكنيست توفيق زياد رئيس بلدية الناصرة ، والتي قادتها واشرفت عليها أجهزة السلطة وكبار المسؤولين ، واعضاء في الكنيست الاسرائيلي . وفي نفس الوقت شن بنيامين غو ـ اربيه ، مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية ، هجوماً عنيفاً على اللجنة القطرية لرؤساء المجالس العربية ، واعلن عدم اعترافه بها لانها تحمل اخطار كثيرة . وفي سياق تلك الحملة جرى تحريف الاقوال التي ادلى بها زياد في مهرجان الناصرة يوم ٥/ ٦ ، حيث ادعت تلك الاوساط أن زيادة حرض على القتل ، ودعا الجماهير العربية الى الهتاف بشعارات متطرفة . وشهدت جلسة الكنيست الاسرائيلي يوم ٩/ ٦ نقاشاً صاخباً حول الموضوع إذ طلب شموئيل تمير وزير العدل من البروفسور يتسحاق زامير المستشار القضائي للحكومة ، « فحص » عبارات رئيس بلدية الناصرة ، لتقرير إن كان يمكن اعتبارها عملاً جنائياً يوجب تقديمه للمحاكمة ، والاجابة عما يلي : هل تسمح الحصانة البرلمانية لعضو الكنيست بأن يدلي بأقوال خطيرة الى هذا الحد ضد الحكومة ؟ وشدد الوزير تمير على « ان كلام عضو الكنيست زياد هو خطير ولا يوجد مثله » (« هآرتس » ، ١٠/ ٦/ ١٩٨٠ . وكان تمير يستجيب بطلبه ذاك ، الى اقتراح عضو الكنيست غئولا كوهين ، الداعي لالغاء الحصانة البرلمانية عن زياد وتقديمه للمحاكمة .

ووقف زياد أمام الكنيست ، يرد على حملة التحريض والتجني ، مستنكراً اجراءات القمع وقوانين الاقامة الجبرية وممارسات السلطة في اسرائيل . وحمل زياد حكومة بيغن مسؤولية الجرائم البشعة المرتكبة ضد ابناء الشعب الفلسطيني وقيادته الوطنية . واضاف : « لن تنجح حملة التحريض على الجماهير العربية في اسرائيل ، وعلى قياداتها في تحويل الانظار عن ممارسات الاحتلال وجرائمه في المناطق المحتلة ، وعن السياسة العنصرية ، وسياسة الاضطهاد القومي ضد المواطنين العرب في اسرائيل » (« الاتحاد» ، ١٢ ـ ٦ / ١٩٨٠) . وأكد زياد عدم تراجعه عن مواقفه المعروفة مهما بلغ مدى الحملة الموجهة ضده ، وقال : « يجب ان يكون واضحاً لكل المحرضين الهستيريين اننا في موقع الهجوم وليس في موقع الدفاع . اننا نعود ونكرر معارضتنا ، ومقاومتنا للسياسة العنصرية المجرمة ، وسياسة الاحتلال والقمع والاستيطان الكولونيالي ، والتمييز والاضطهاد القومي ضد الجماهير العربية في اسرائيل » (المصدر نفسه) .

على اي حال ، فقد تراجعت السلطة عن اتهام زياد ، حيث لم تجد المبرر القانوني ضده . واعلن المستشار القضائي للحكومة بهذا الصدد ، انه « ليس ثمة دافع لرفع الحصانة البرلمانية عن النائب توفيق زياد تمهيدا لمحاكمته ، جرار تصريحاته المتطرفة في اجتماع رؤساء السلطات المحلية العربية في الناصرة» («الاتحاد» ، ٢٠ / ٦ / ١٩٨٠) . ١٩٨٠) .

ردود الفعل

من جانبهم ، بدا الاسرائيليون يتحدثون عن مدى خطورة الهيئات التي يسيطر عليها العرب ، مثل المجالس المحلية ، واللجان الأخرى .

وطالبوا بفصل السياسة عن الاعمال البلدية لهذه المجالس ، كما أدرج على جدول اعمال الحكومة ، مشروع قانون لتعديل الاحكام المتخذة ضد « الارهاب » ويعتبر هذا المشروع أن « التحريض هو بمثابة تأييد للمنظمات الفدائية ، وسيكون جزاؤه السجن لغايةخمس سنوات مع دفع غرامة» (« ر. إ . إ » ، العدد ٢١٠٢ ، ٩ و ١٠ / ٧ / ١٩٨٠ ، ص ٨) . واوضحت المصادر الاسرائيلية ، ان هذا المشروع « يرمي الى مكافحة مظاهر التأييد لمنظمة التحرير الفلسطينية في الجامعات وفي القطاع العربي عموماً » (**المصدر نفسه**) .

وقد وضع عضو الكنيست امنون لين (الليكود) النقاط على الحروف عندما تحدث عن وجود تناقض بين اهداف العرب في اسرائيل واهداف الدولة اليهودية ، فهم (اي عرب اسرائيل) « ليسوا شركاء في أهداف دولة اسرائيل من ناحية ، بل انهم بالتأكيد شركاء لأهداف العالم العربي من ناحية ثانية . مما يتناقض واهداف دولة اسرائيل . وعادة من الصعب قيادة دولة فيها شعبان ، لكل شعب هدفه المختلف ، بل والمتناقض مع هدف الآخر » (« ر . إ . إ » ، العدد ٢٠٩٥ ، ٣٠ / ٦ و ١ / ٧ / ١٩٨٠ ، ص ١٤) . ويعترف لين بحقيقة عدم اعتراف عرب اسرائيل بالدولة اليهودية ، و دعو الى تنمية وعي عربي في الاوساط المثقفة مفادة : « التسليم بوجود اسرائيل » .

وربط لين قوة موقف عرب اسرائيل ، بقوة موقف العالم العربي أو ضعفه . فقوة العرب تخلق ظروفاً معينة ، وضعفهم يخلق ظروفاً مختلفة ، فبعد حرب الايام الستة « حيث كانت اسرائيل قوية والعرب ضعفاء ، كان اسهل على عرب اسرائيل تطوير ايديولوجية تقوم على قبول وجود الدولة اليهودية . اما بعد حرب يوم الغفران فقد تغيرت الظروف » (**المصدر نفسه**) ..وحذر من انه في ظل ظروف عدم وجود تسوية سياسية في المنطقة ، فإن عدم الاخذ باقتراحاته ، سيزيد من التطرف بين اليهود والعرب ، وسيزداد السير « نحو أزمة يستحيل معرفة عواقبها » .

أما ردود الفعل من جانب العرب في اسرائيل ،فقد كانت عند مستوى التحدي ؛ حيث اكدوا على وحدة موقفهم ازاء التصرفات التعسفية الفاشية . وبينوا ان الارهاب الصهيوني لن يجعلهم يتراجعون عن مواقفهم الوطنية المبدئية .

وفي هذا الاطار ، اصدرت اللجنة القطرية لرؤساء المجالس المحلية العربية بياناً ، شجبت فيه حملة التحريض الهوجاء الموجهة ضد اللجنة القطرية ، وضد مؤتمر الناصرة ، وضد الجماهير العربية في البلاد ، تلك الحملة التي شاركت فيها وسائل الاعلام الرسمية ، ومستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية . وهي حملة تستهدف « صرف الانظار عن الجريمة البشعة ضد رؤساء بلديات نابلس ورام الله والبيرة ، وعن فظاعة الاحتلال وسياسة التمييز القومي ضد المواطنين العرب في اسرائيل » (« **الاتحاد** » ، ١٣ / ٦ / ١٩٨٠) . واتهم بيان اللجنة الحكومة بأنها تريد احداث شرخ داخل وحدة اللجنة القطرية وتفسيخ صفوفها . وأكد البيان فشل هذا الهدف « لأن لجنتنا موحدة اكثر من اي وقت مضى ، وهي تقف وراء قراراتها التي اتخذتها بالاجماع في الرامة يوم ٣ / ٦ / ١٩٨٠ ، والتي أقرها مؤتمر الناصرة بحماس واصرار » (**المصدر نفسه**) . واستنكرت اللجنة اجراءات فرض الاقامة الجبرية على الوطنيين المعروفين ، والتهديدات باستخدام اليد الحديدية التي تذكر بالعودة الى أيام الحكم العسكري واضاف : « إننا نرفض كل تهديد كهذا ، ونرفض التحريض والتشويش ولن نخشى أي ارهاب . فحقوقنا واضحة وكفاحنا عادل ووحدتنا قوية وراء مطالبنا واهدافنا العادلة . نحن ننبه الى ان هذه الاعمال لا تخدم التفاهم السلمي بين ابناء الشعبين بل العكس تماماً » (**المصدر نفسه**) .

وفي تعليق لها ، شددت صحيفة الاتحاد ، على ضرورة النضال ضد استشراء الفاشية في اسرائيل ، التي لا تختلف في اسلوبها عن الاساليب الفاشية المعروفة في العالم . وتوجه التعليق بالنداء الى الديمقراطيين اليهود داعيا اياهم لعدم التردد في مجابهة الفاشية « لأن التردد مميت ، فلا تعجبوا ان رفضت الجماهير العربية ، كل الجماهير العربية بقادتها وقواعدها ، أن تتراجع أو أن تتردد في هذه الساعات المصيرية . يقيناً ان القمع يؤلم المقموعين ولا أحد يتبرع بالتضحية . ولكن تمادي القامعين في القمع انما يدل على افلاسهم السياسي ، وعلى تخبطهم وعلى خوفهم من المستقبل »

« الاتحاد » ، ١٠ / ٦ / ١٩٨٠) وأكد التعليق على وحدة الصف عند عرب اسرائيل ، وسخف محاولات السلطة وابواقها شق الصفوف والتفرقة بين « متطرف ومعتدل ، وشيوعي وغير شيوعي . كان هذا قبل ذاك ايها الموصوم تاريخهم كله بعار العنصرية وجرائمها . لقد « خيطتم بغير هذه المسلة » اكثر من ٢٥ عاماً حتى قذفتم شعباً بأسره الى ساحات يوم الارض . ان قضية الحياة التي تجابه الجماهير العربية الآن هي التصدي بأعظم وحدة صف للتطرف العنصري السلطوي المستشري » (المصدر نفسه) .

حملة واسعة ضد الطلاب العرب في الجامعات

شهدت الجامعات الاسرائيلية ، حلقة جديدة من حلقات استفزاز الطلاب العرب واضطهادهم تمهيداً لطردهم من الجامعات ، كما أوضح ذلك مؤخراً مناحيم بيغن نفسه . وتساهم في تسعير هذه الحملة منظمات يمينية متطرفة ، ولجان الانضباط في الجامعات ، اضافة الى اجهزة السلطة وادوات قمعها .

وحقيقة الأمر ، ان الطلاب العرب في الجامعات الاسرائيلية ، وانطلاقاً من شعورهم الوطني ، يشاركون في التضامن مع أبناء شعبهم في كل المناسبات الوطنية ؛ كما يعبرون عن سخطهم واستنكارهم ضد سياسات الاضطهاد والقمع العنصري الذي ترتكبه السلطات الاسرائيلية في المناطق المحتلة . وفي كل مرة يقيم فيها الطلبة العرب مهرجاناً تضامنياً أو ندوة سياسية تتحرك المجموعات اليمينية ، من الطلبة اليهود ، لتفجير الاجتماعات والاعتداء على الطلاب ، بحجة ان هؤلاء عملاء لـ م. ت. ف. يدعون الى تدمير اسرائيل . وبعد ذلك يأتي تدخل البوليس الاسرائيلي لصالح تلك المجموعات ، كما تتخذ لجان الانضباط في الجامعات قرارات طرد تعسفية بحق الطلاب العرب الوطنيين . وكشف الطلاب العرب في مؤتمر صحفي عقدوه في القدس عن التمييز في المعاملة داخل الجامعات « فالنشاطات السياسية للطلاب العرب تتعرض لقمع حقيقي . بينما النشاطات من جانب حركات اليمين في حرم الجامعة مسموح بها » (« علي همشمار » ، ٢٨ / ٥ / ١٩٨٠) . واكد الطلاب ، ان سلطات الجامعات « تخضع لإملاءات وتهديدات مجموعات الضغط الطلابية اليمينية . وفي القدس فإن مجموعة هتحيا ، وغوش ايمونيم هي الموجه لتصرفات سلطات الجامعة (المصدر نفسه) .

وتعترف المصادر الاسرائيلية ، بحقيقة التحول الذي طرأ على نضال الطلاب العرب داخل الجامعات الاسرائيلية فتقول : صحيح انه كانت تجري في السنوات السابقة مثل هذه المجابهات ، اما هذه السنة ، « فإن اعمال العداء عنيفة اكثر . يكفي ان نذكر حوادث بداية السنة ، والصدامات الحادة التي تجري في الحرم الجامعي ، وحوادث شهر أذار الماضي ؛ ويمكن ان نضيف لذلك الشعارات الكبيرة مثل « الموت للصهيونية » والتي كتبت بالعربية على جدران مباني الجامعة قبل اسابيع قليلة » (« معاريف » ، ٣٠/٥/١٩٨٠) . ومن جهة أخرى ، تتهم السلطات الاسرائيلية ، الطلاب العرب ، بأنهم يقيمون روابط اتصال لتنسيق المواقف مع طلاب الضفة الغربية ، وتورد مثالاً عن ذلك العلاقة القائمة بين الطلاب في اسرائيل « وابناء عمومتهم في بيرزيت وجامعات المناطق الاخرى الذين يرون الطلاب العرب في اسرائيل العنصر الاكثر تطرفاً ، والاكثر نشاطاً في اسرائيل نفسها » (المصدر نفسه) .

تهديدات بالطرد الجماعي للطلاب

إضافة الى قرارات وقف الطلاب العرب عن الدراسة في الجامعات ، والتي وصلت الى عشرات الحالات في مختلف الجامعات (يكفي ان نذكر ان ٢٥٪ من الطلاب العرب في جامعة بئر السبع مهددون بالطرد والمحاكمة) ، فإن الاوساط المعنية بدأت تهدد الطلاب العرب بالطرد الجماعي من الجامعات ، فقد دعا تسمي هانقبي ، رئيس اتحاد الطلاب في جامعة القدس ، الى حل واحد يمكن أن يمنع اراقة الدماء في الحرم الجامعي وهو « اصدار قانون من الكنيست ، يمنع بصورة قاطعة تعليم مؤيدي م . ت . ف في المؤسسات العامة في اسرائيل . حيث لا يحتمل ان يدفع الشعب الاسرائيلي ثمن التأهيل الاكاديمي للذين يحاولون إبادته » (« المعاريف » ، ٣٠/ ٥/ ١٩٨٠) . واثنى البروفسور روفائيل مشولام من جامعة القدس ، على مثل هذه الآراء ، واضاف : انه يمكن السماح بالنشاطات السياسية ، والتعبير عن

الرأي في الجامعات لكن « لن نسمح بتحويل الحرم الجامعي الى ساحة مظاهرات سياسية من المحتمل ان تجز العنف والتحريض . وفي اللحظة التي يرفع فيها الطلاب شعارات م . ت . ف ستوقف التسامح . وسوف تتخذ هذه المرة سياسة اليد الحديدية تجاه مثيري الشغب » (المصدر نفسه) .

وساهم مناحيم بيغن ، رئيس الوزراء في الحملة ضد الطلاب العرب بنفسه ، وحدد بشكل واضح طبيعة الخطوات القادمة التي ستتخذها حكومته بحق هؤلاء الطلاب . فقال : «لن اوافق بأي شكل من الاشكال على استضافة جامعاتنا لطلاب يحملون اللافتات التي تقول، ان ممثلنا الوحيد هو م . ت . ف ... ولن نوافق على رفع علم فلسطين في جامعاتنا » (ر. إ. .إ.)، وهدد بيغن بأنه عندما يجتمع مع رؤساء الجامعات سيطلب منهم ابعاد هؤلاء الطلاب ، « العملاء لمنظمة التحرير الفلسطينية . الذين يكرهون اسرائيل ويتعلمون في جامعاتها » (المصدر نفسه). وكشف بيغن عن نواياه في طرد الطلاب العرب عندما اشار الى ان من يريد متابعة دراسته «عليه الذهاب الى دمشق او القاهرة او بيروت او اي مكان في العالم» .

والواقع ان اتجاها يتبلور الآن ، ليس لطرد الطلاب فقط ، وانما لطرد كل عربي يبدي معارضته للدولة اليهودية . وقد عبر عضو الكنيست امنون لين عن هذا الاتجاه عندما قال : « ان اي مواطن اسرائيلي يؤيد ، علنا ، ويعمل من اجل منظمات تدعو الى تدمير دولة اسرائيل وتقوم بعمليات ارهاب وقتل ... ان مثل هذا المواطن لن يسمح له بالدراسة أو التدريس في الجامعات ولن يحصل على وظائف او رسمية في الدولة » (« ر. إ. إ. » ، العدد ٢٠٩٢ ، ٢٦ و ٢٧ / ٦ / ١٩٨٠ ، ص ٩) . ويبدو ان اجراءات اتخاذ مثل هذا القرار بدأت تظهر من خلال اقتراح يريد شموئيل تمير ، وزير العدل ، تقديمه للكنيست . وينص على ان « كل تضامن علني مع المنظمات الارهابية، ورفع اعلامها ، وترديد اناشيدها أو خطاب تضامني معها يعتبر مخالفة قانونية » (« ر. إ. إ. » ، العدد ٢١٠٤ ، ١١ / ٧ / ١٩٨٠ ، ص ٧) . واعترفت المصادر الاسرائيلية ، ان هذه الاجراءات جاءت « لان علامات استفهام ظهرت بعد الخطاب العنيف الذي القاه عضو الكنيست توفيق زياد في الناصرة . وبعد ارتداء الطلاب العرب في الجامعات قمصانا كتب عليها م . ت . ف » (المصدر نفسه) .

وفي جلسة الكنيست يوم ١١ / ٦ ، والتي خصص معظمها لمناقشة الاحداث الجارية في الجامعات الاسرائيلية ، حمل النائب توفيق طوبي على أصحاب عقلية أرض - اسرائيل الكبرى ، وجماعات حزب هتحيا والرابي كهانا وليفنغر الذين « يرفعون بوقاحة شعار طرد العرب من الجامعات » . واتهم طوبي ادارة الجامعات بأنها تمارس اجراءات ادارية تعسفية تمس حقوق الانسان وحرية التعبير ، وتتنكر للجان الطلاب العرب ، وتعتدي على قياداتها . اما الشرطة فتبرز حيال ذلك كقوة مشجعة ومغذية لعناصر اليمين المتطرف فلا تعمل على لجمها ، وتوجه سهام حقدها تجاه الطلبة العرب . وأكد طوبي ، ان الطلبة العرب في اسرائيل هم « جزء لا يتجزأ من الجماهير العربية في اسرائيل . وجزء لا يتجزأ من شعبهم ، الشعب العربي الفلسطيني ... وان الطلبة العرب لا يعانون فقط من التمييز ومظاهر قمع حقهم في النضال من أجل المساواة في الحقوق لهم وللجماهير العربية عامة ، انما يعانون من استشراء الممارسات العنصرية والمتطرفة ضدهم وضد القوى الديمقراطية ، [هذه الممارسات] التي تشكل جزءاً من حصيلة تطورات مقلقة حبلى بالكوارث تعصف اليوم بالمجتمع الاسرائيلي ، حيث تنمو الفاشية والعنصرية على أرضية سياسة نظام الحكم القائم حالياً » (الاتحاد » ، ١٧ / ٦ / ١٩٨٠) .

خطوات جديدة في اطار تهويد الجليل

رغم اعتراف يسرائيل كينغ ، حاكم لواء الجليل . « أن الجزء الاكبر من شعب اسرائيل ، لم يتولد لديه بعد ذلك الاحساس او الرابط الحقيقي مع الأرض التي يقيم فوقها ، كما يجب ، خاصة الشباب . اذ حتى تحب وترتبط بالوادي ، والصخرة ، والارض ، والجبل يجب أن تشعر انها أرضك » (ر . إ . إ . ، العدد ٢٠٦١ ، ٢١، ٢٢ / ٥ / ١٩٨٠ ، ص ١٢) . فإنه يصر على تهويد الجليل أو كما يسميه هو ، تطوير الجليل ، بجلب اكبر عدد ممكن من اليهود واسكانهم فيه على حساب مصادرة اراضي العرب ، بحجة حماية الجليل من اخطار النمو العربي .

وفي اطار الحملة لتهويد الجليل ، يفيد تقرير للوكالة اليهودية ان مديرية عقارات اسرائيل ، دائرة الاستيطان التابعة للوكالة ، تمكنت من « تسبيح ٧٥ الف دونم من الاراضي الاميرية التي بقيت تحت سيطرة العرب حتى الآن . وهذه المساحة جزء من مشروع للاستيلاء على ٢٥٠,٠٠٠ دونم من الجليل خلال ثلاث سنوات » (« ر. إ. إ. » ، العدد ٢٠٩٦ ، ٢,١ / ٧ / ١٩٨٠ ، ص ١٣) كما تبذل جهود حثيثة الآن ، من قبل الجهات المختصة بالاستيطان ، من أجل زيادة عدد المستوطنات في الجليل . وخلال هذا العام « اقيمت ٢١ نقطة استيطانية ، حتى الآن ، وسيتم اقامة ٦ نقاط استيطانية أخرى حتى نهاية العام » (المصدر نفسه) . وقد كشف متيتاهو درويلس ، رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية ، عن ان حكومة الليكود « عملت لاستيطان الجليل خلال ثلاث سنوات ، ما لم تعمله الحكومات السابقة خلال ثلاثين سنة » (المصدر نفسه) . وأوضح رعنان فايتس ، احد مسؤولي الاستيطان في الوكالة ، ان الهدف من تلك المشاريع هو أن يصبح اليهود اكثرية في الجليل . ويبدو ان كل هذه الجهود ، تسعى الى تأسيس حقائق في المنطقة ، كما عبر صراحة عنها عاموس هرباز مدير لواء الجليل التابع للوكالة اليهودية .

أما الحقائق التي يريد المسؤولون الاسرائيليون تغييرها في الجليل ، من خلال زيادة عدد المستوطنات وبالتالي عدد المستوطنين اليهود ، فهي ما أوضحها اريئيل شارون وزير الزراعة ، عندما كان يشارك في تدشين مستوطنة تل - آيل بالجليل الغربي حيث قال ، انه سيسعى حثيثا لاستيطان كل أراضي الدولة في الجليل « للاحتفاظ بتلك الاراضي للاجيال القادمة » ؛ وان دوافعه لهذا الاتجاه تتلخص بأمرين « الاول ، ان مناطق كاملة اصبحت خارج نطاق حركة اليهود ؛ والثاني ، رداً على مطالبة عرب الجليل بالحكم الذاتي » .(« ر. إ. إ. » ، العدد ٢١٠٠ ، ٧ و ٨ / ٧/ ١٩٨٠ ، ص ٦ .) .

ومع أن شارون يستبق الأحداث عندما يتحدث عن مطالبة عرب الجيل بالحكم الذاتي ، فإنه يعكس حقيقة القلق الاسرائيلي من التطورات المقبلة . وبالفعل فإن السلطات الاسرائيلية بدأت بتنفيذ مشاريع استيطانية ، بهدف الفصل بين مواقع السكان العرب ، وبخاصة بين مناطق ١٩٦٧ ومناطق ١٩٤٨ . وضمن هذا الاطار تقرر « اقامة خمس نقاط استيطانية في وادي عاره ، اضافة الى عشر مستوطنات داخل الخط الأخضر في المنطقة الواقعة بين بيت جبرين ويثير جنوب جبل الخليل » (« ر. إ. إ. » ، العدد ٢٠٩٨ / ٤ و ٥ /٧/ ١٩٨٠ ، ص ٦) . وكانت قد تقدمت بهذا الاقتراح لجنة خاصة شكلتها الحكومة برئاسة ابراهام يافه ، رئيس هيئة المحافظة على الطبيعة ، والمسؤول عن الدوريات الخضراء . وفي هذا المجال ايضاً ، أوضح شارون ، انه لمنع السكان العرب من استثمار اراضي الدولة الواقعة في جبل الخليل ، داخل الخط الاخضر ، وكي « نمنع خلق شريط سكاني متماسك ومتصل بين بدو النقب وسكان جبل الخليل ، بدأنا باعداد خطة استيطانية تبدأ من منطقة بيت - غوبرين [جبرين]لتمتد جنوباً حتى منطقة لاهط وشمالاً الى منطقة تكواع » (المصدر نفسه) .

قضية اراضي البدو في النقب

منذ توقيع اتفاق كامب ديفيد ، اشتد الصراع الذي كان قائماً بين بدو النقب والسلطات الاسرائيلية ممثلة بالدوريات الخضراء ، حول الاراضي التي يملكها العرب في النقب ، بسبب محاولة الحكومة الاسرائيلية مصادرتها لأهداف مختلفة . وقد اتبعت الدوريات الخضراء مؤخراً اسلوباً جديداً لاجبار البدو على التخلي عن أراضيهم ، وذلك عبر مصادرة قطعان الماشية التي يملكونها بحجة المحافظة على الطبيعة .

فقد وجه مراقب وحدة الاراضي المفتوحة ،وهو الاسم الرسمي للدوريات الخضراء ، كتُب انذار إلى ثلاث وعشرين عائلة بدوية من قبيلة العزازنة للتخلي عن قطعان الماشية التي تملكها ، خلال اسبوعين ، لأن وجود القطعان يتنافى وقانون المحافظة على الأشجار . علماً أن تربية المواشي هي المصدر الاساسي لرزق هذه العائلات . وحسب قانون حماية الاشجار فانه « يمكن تربية رأس ماعز واحد فوق مساحة ٤٠ دونم من الاراضي البعلية ، او ١٠ دونمات من الاراضي المفلوحة ، وذلك اذا كان صاحب الارض موافقاً ومرتاحاً » (« ر . إ . إ . » ، العدد ٢٠٩٠ ، ٢٤ و ٢٥ / ٦ / ١٩٨٠ ، ص ١٢) . وهدد البدو من جانبهم بعدم الرضوخ

لهذا القرار . وبأنهم سيلجأون الى محكمة العدل العليا . ومعارضة مصادرة مواشيهم . حتى بواسطة اللجوء للقوة .

على أية حال . فإن قرار مصادرة المواشي . ليس هو المقصود بذاته مباشرة . وانما هو وسيلة لفك ارتباط البدو بوسيلة العيش الوحيدة . وبالتالي لدفعهم الى التخلي عن الارض . لأن السلطات الاسرائيلية قررت نهائياً . تحويل اراضي النقب الى مطارات وقواعد عسكرية ومواقع لتدريب القوات المنسحبة من سيناء . وكان من المقرر أن يبدأ العمل في بناء مطار عسكري على أراض يملكها العرب في منطقة تل ملحاتا (تل الملح) مع بداية شهر أيار (مايو) الماضي . وبسبب خلافات حزبية . وتوزيع مقاعد الكنيست لم تتم المصادقة على قرار مصادرة الاراضي المطلوبة . التي تبلغ ٦٢ الف دونم . وفي يوم ٨ / ٧ / ١٩٨٠ . وبعد تسوية الخلافات بين احزاب الائتلاف من جهة . واحزاب المعارضة من جهة اخرى . حول الموضوع . طرح على الكنيست مشروع قانون شراء الاراضي من البدو في تل الملح . وتمت المصادقة عليه بالاغلبية المطلقة . وسيلحق هذا القانون الضرر بحوالى سبعة آلاف بدوي يقيمون في تل الملح . وتعرض الحكومة الاسرائيلية كتعويض عن الاراضي . تجميع البدو في مدينة نموذجية . يتحول البدو خلالها من مربي مواشي الى مزارعين . وسيمنح من يملك اوراق الطابو لأراضيه قطعة ارض تبلغ ٥ ٪ من المساحة التي كان يملكها . مع ٣٠ كوب ماء لكل دونم (الكوب يساوي متراً مكعباً) . بينما لا يحصل من لا يملك اوراق الطابو (وهم الاكثرية) الا على دونم واحد فقط بدلاً من أراضيه .

وقد أثار اصدار القانون هذا موجة استنكار ومعارضة من جانب أصحاب الاراضي العرب . واعلنوا انهم « سيعارضون اخلاء الارض بالقوة ... وانهم لن يخلوا الارض حتى لو أدى ذلك الى سفك الدماء » (« و . إ . إ . » . العدد ٢١٠١ . ٨ و ٩ / ٧ / ١٩٨٠ . ص ٧) . وشجبت لجنة الطلاب العرب في جامعة النقب هذا القانون . وقال مسؤلو اللجنة . انه سيؤدي الى مزيد من التدهور في « العلاقات بين اليهود والعرب . ووجهوا نداء للبدو . يدعونهم فيه الى معارضة الاخلاء » (« **المصدر نفسه**) . ويبدو ان السلطات الاسرائيلية ماضية في تنفيذ مخططاتها بطرد البدو من أراضيهم . غير عابئة بمصير هؤلاء السكان وحقوقهم . لان اسرائيل تضع مصلحتها الأمنية فوق اي اعتبار انساني مهما كان . وهو ما عبر عنه مردخاي تسيبوري نائب وزير الدفاع عندما قال : « ان المطار ضروري . ولا خيار إزاءه لدولة اسرائيل » .

إن شراسة الممارسات الفاشية والعنصرية . والاضطهاد القومي ضد العرب في اسرائيل من قبل أجهزة السلطة . والمنظمات اليمينية المتطرفة . تدفع بالعرب هناك . الى توحيد اساليب النضال . وتقليص التعارضات القائمة داخل الصف الوطني . من أجل مواجهة موحدة للعنصرية الصهيونية . ولتجسيد دور اكثر فعالية في مسيرة النضال الوطني للشعب الفلسطيني .

محمد عبد الرحمن

إسرائيليات

١ ـ موقف اسرائيل من مفاوضات الحكم الذاتي والمبادرة الاوروبية

بعد فترة انقطاع استمرت اكثر من شهرين ، وبعد دعوات واجتماعات ومذكرات متبادلة بين كل الاطراف ، تم استئناف مفاوضات الحكم الذاتي ، فعقدت اولى جولاتها مساء ١٣ تموز ١٩٨٠ ، وكان الرئيس المصري قد علق هذه المفاوضات ، قبيل الموعد المحدد لانتهائها بعشرات الايام .

واذا كانت اسباب تعليق المفاوضات لا تزال قائمة ، وفقاً للمواقف الاسرائيلية والمصرية المعلنة ، حيث لم يتزحزح ، حتى الآن ، اي طرف عن موقفه المعلن والمتعارض مع موقف الطرف الآخر ، فلابد من الافتراض ان استئناف المفاوضات ـ من جانب مصر ـ يمثل اسهاماً في حملة كارتر الانتخابية ، وهذا ما يفسر عودة مصر الى المفاوضات في هذه الفترة ، ويفسر ايضاً عدم حماسها للاندفاع فيها ، كما يريد الوفد الاسرائيلي : فقد صرح الرئيس السادات : « انه لا أمل الآن في توقيع اتفاقيات معينة مع اسرائيل ، ولكن ، بشكل عام ، أنا متفائل ، وإن اتفاقيتي كمب ديفيد هما حجر الاساس لاتفاق شامل في منطقة الشرق الاوسط » (« دافار » ، ١٩٨٠/٦/٢٢) . ويعني هذا ان السادات لا يرغب في التوصل الى اي اتفاق ، مهما كان نوعه ، مع اسرائيل قبل اجراء انتخابات الرئاسة الاميركية ، ويبدو ان لدى السادات سبباً آخر يشير اليه حين يقول : « قبل نهاية هذا العام ستحدث تغيرات في نظرة بعض الدول العربية الى اتفاقيتي السلام ، والمسألةمسألة وقت فقط » (المصدر نفسه) .

لقد اوضح السادات ، بما لا يدع مجالاً للشك ، ان استكمال المفاوضات حول مصير الضفة الغربية لا يجب ان يكون قبل انتخاب الرئيس الاميركي الجديد ، حيث يمكن للضغط الاميركي ـ ان كان هناك ضغط ـ ان يكون اكثر فاعلية وأشدّ تأثيراً .

الموقف الاسرائيلي الرسمي

لم تأت فترة تعليق مصر للمفاوضات ، لمدة شهرين ، بجديد في هذا المجال ، فقد بقي الموقف الاسرائيلي على ما هو عليه ، كذلك جمد الموقف المصري ، لاسباب ذكرناها ، وعلى الرغم من ثبات هذين الموقفين وافقت اسرائيل ومصر والولايات المتحدة على استئناف المفاوضات ، وقد قال بورغ ، رئيس الوفد الاسرائيلي المفاوض (وهو يستعد للسفر للقاء الوزير المصري حسن كمال علي) « انه سيسافر الى واشنطن ولديه شعور بعدم الارتياح ، بسبب الموقف المتصلب الذي تتخذه مصر من موضوع الحكم الذاتي » (« يديعوت احرونوت » ، ١٩٨٠/١/٣٠) .

والمعروف انه ، منذ الجولة الاولى من مفاوضات الحكم الذاتي في بئر السبع ، كان الموقف الاسرائيلي معلناً دون موارية ، وحتى دون مراعاة اعطاء السادات فرصة تحقيق مكاسب لفظية امام الشعب العربي بعامة ، وامام الشعب العربي في مصر بخاصة ؛ فقد أعلن الوزير بورغ : « ان اسرائيل لن تدفع اي ثمن من اجل ضمان تجديد المفاوضات ،

فمصر هي التي علّقت المفاوضات ، وواجبها العمل على تجديدها ، وهي بالتالي لا تستطيع ان تقول لنا ان القدس ليست عاصمة لاسرائيل » (« يديعوت احرونوت » ، ١٩٨٠/٧/٣).

ربما كان النقاش الذي دار امام لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست ، بين رئيس الحكومة مناحيم بيغن وبين يتسحاق رابين رئيس الحكومة السابقة ، خير ما يعبر عن الموقف الاسرائيلي تجاه مفاوضات الحكم الذاتي . فقد قال رابين : « ان الحكم الذاتي سينتهي باقامة دولة فلسطينية ، لذا فالحل الاقليمي الذي سيبقي الجيش الاسرائيلي ، بموجبه ، على ضفة نهر الاردن ، هو الحل الافضل والامثل » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٦/١٨) .

وردّ عليه بيغن : « اذا كان المقصود الحقوق المشروعة للفلسطينيين التي وردت في اتفاقيتي كمب ديفيد ، فإن هذه الحقوق وردت ضمن اطار تطبيق الحكم الذاتي ، وليس ضمن منحهم هذا الحق لإقامة دولة فلسطينية » (المصدر نفسه) . وخلال هذا النقاش قال رابين : « اننا متفقون ، معارضة وائتلافاً ، على اربع لاءات :

أ ـ لا لدولة فلسطينية .
ب ـ لا مفاوضات مع م . ت . ف .
ج ـ لا عودة الى حدود العام ١٩٦٧ .
د ـ لا تقسيم لمدينة القدس (المصدر نفسه) .

وعقب على هذا وزير الخارجية الاسرائيلي يتسحاق شامير بقوله : « ليس هدف الحكم الذاتي إقامة دولة ثانية ، لشعب ليس له وطن ، بل الهدف حل مشكلة سكان المناطق فقط » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٦/١٨) .

وفي هذا الوقت كانت الحكومة الاسرائيلية ، قد صادقت على اعتماد خارطة انتشار وتثبيت قوات الجيش الاسرائيلي ، بعد قيام الادارة الذاتية . وتقول المصادر الاسرائيلية ان اسرائيل لن توافق على تدخل مصري ـ اميركي في خطة انتشار جيشها ، لأن ذلك أساس امنها . « فسينتشر الجيش الاسرائيلي على كافة المحاور في [المناطق المحتلة] ، وستقام القواعد العسكرية بجوار جميع المراكز السكانية وبجوار مفارق الطرق الحيوية . وسيحتفظ بالأراضي الواقعة بين المستوطنات اليهودية لصالح المنشآت العسكرية . كما ستقام قواعد الانذار والمراقبة فوق قمم الجبال . كما ستبقى قوات الجيش الاسرائيلي متمركزة في المعسكرات المنتشرة على طول نهر الاردن . وستتحرك الوحدات على طرقات الضفة الغربية وقطاع غزة دون اذن سلطات الادارة الذاتية . وستقوم اسرائيل بسحب قواتها من المراكز المأهولة بالسكان وحشدها مقابل تلك المراكز . وتنوي اسرائيل نشر قواتها بطريقة تمكنها من مواجهة الاخطار الخارجية على الجبهة الشرقية . وسيمكنها هذا الانتشار العسكري من الرد الفوري على عمليات [الفدائيين] داخل اراضي الادارة الذاتية . كما ان هذا الانتشار سيضمن الترابط بين المستوطنات اليهودية والمنشآت العسكرية » (« ر . إ . إ . » . العدد ٢٠٩٢ ، ٢٦ ، ١٩٨٠/٦/٢٧ ، ص ٣ ـ ٤) .

وكانت احدى مؤسسات البحث الموثوقة في الولايات المتحدة قد قدمت بحثاً عن الاهمية الامنية للضفة الغربية في حالة السلام ، جاء فيه : « فالطائرات العمودية والقنابل الذكية ، يمكن ان تمنح اسرائيل وسائل امن مشابهة ، من حيث القيمة ، لاراضي الضفة الغربية . كذلك ليست هناك قيمة لوضع اجهزة رادار على قمم الجبال في منطقة نابلس لانه بالامكان الحصول على نتائج مشابهة بواسطة استعمال اجهزة انذار مبكر من داخل حدود اسرائيل ١٩٦٧ . كذلك ليست هناك قيمة امنية للمستوطنات الاسرائيلية في [الضفة الغربية] ، باستثناء مستوطنات غور الاردن ، التي تسيطر بالمراقبة على شبكة الخطوط على طول ضفة نهر الاردن . اما القيمة الامنية للطريق الذي يتوسط الضفة الغربية ، فإن اسرائيل مضطرة للتنازل عنها ان ارادت انجاز السلام مع الاردن ، مثلما سبق وتنازلت عن آبار النفط في سيناء . وفي حالة السلام يجب ان تسهم اسرائيل في عمليات الامن الداخلي في الضفة عن طريق عمليات تفتيش على جسور نهر الاردن فقط ، على ان تقوم بهذه العمليات عناصر دولية ـ اسرائيلية ـ اردنية مثلاً ـ من اجل تقليص مهمة اسرائيل في الاشراف على الامن الداخلي ، كذلك اعطاء الصلاحيات للمجلس الاداري الذاتي وفق تصاعد او تخفيض العمليات [الفدائية] » (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٥/١٨) .

غير ان هذا البحث لم يغير الموقف الاسرائيلي ، ولم يبدل من شروط اسرائيل بالنسبة لتطبيق الحكم الذاتي ، الذي لا تتعدى صلاحياته صلاحيات اية بلدية . ومما يثبت ذلك قانون اعتبار القدس عاصمة لاسرائيل الذي اقرته الحكومة كما اقرته اللجنة القانونية التابعة للكنيست ، ثم اقر بالقراءة الاولى في الكنيست . ورداً على قرار الكنيست بشأن ضم القدس ، عشية تجديد المفاوضات في واشنطن ، اتخذ مجلس الشعب المصري قراراً يعلن فيه « ان القدس الشرقية هي عاصمة الفلسطينيين » (« يديعوت احرونوت » ، ١٩٨٠/٧/٢) . والجدير بالذكر ان هذا القرار المصري سيرسل الى جميع برلمانات دول العالم ، وهو رد على قرار الكنيست . واعتبرت اوساط في القدس ، هذا القرار تحرشاً من جانب مصر ، ورأته مناقضاً لأقوال السادات ، في هذا الموضوع . وقد عُلم ان السادات وجه عدة مرات ، نقداً شديداً لتأييد الحكومة الاسرائيلية لقانون القدس .

فقد اعلن نائب رئيس الحكومة المصرية فؤاد محي الدين « ان اسرائيل تضع العراقيل في طريق المفاوضات بسبب سياسة الاستيطان ومشروع القدس ، وبسبب مطالبها الامنية المبالغ فيها ، واذا ما استمرت اسرائيل بهذه السياسة ، فإن الامر قد يلزم القاهرة بوقف المفاوضات مرة اخرى » (المصدر نفسه) .

وكان مساعد وزير الخارجية المصري ، اسامة الباز قد اعلن ان « على اسرائيل ان تغير ، كلياً ، نظرتها ، قبيل تجديد المفاوضات حول الحكم الذاتي ، وعليها الامتناع عن اتخاذ خطوات من شأنها جعل المفاوضات مستحيلة ، كقانون القدس ، وإقامة المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة » (« يديعوت احرونوت »، ١٩٨٠/٧/٣) .

تجدد مفاوضات الحكم الذاتي

بعد اجتماعات واشنطن بين بورغ وكمال علي وبعد وصول لينوفيتش في الاسبوع الاول من تموز وتدخل الرئيس كارتر لدى رؤساء الوفود ، تم الاتفاق على تجديد المفاوضات ، التي استؤنفت فعلاً مساء ١٩٨٠/٧/١٣ ، في فندق مينا هاوس بالقاهرة ؛ وذلك على مستوى اللجان بين مصر واسرائيل ، وقد عقد الاجتماع الاول ، كما وصفه المراقبون ، « وسط اجواء يسودها الاختلاف في وجهات النظر حول القضايا الاساسية ، وعلى رأسها قضية القدس » (« ا. ش. ا » ؛ « رويتر » ، ١٤ / ٧ / ١٩٨٠) : فعندما نوقش برنامج العمل الخاص بالمفاوضات « عارض الوفد الاسرائيلي طرح بعض البنود ، زاعماً أن فيها خطراً على أمن اسرائيل ، ووافق الطرفان على الاستمرار في بذل المحاولات في الغد ، وسيقوم ممثلو وفدي اسرائيل ومصر بمحاولة اضافية لاقرار برنامج وجدول الاعمال بعد ان فشلوا مساء امس في ترتيب ذلك » (« ر . إ . إ . » ؛ العدد ٢١،٠٥ ، ١٣ ، ١٤ / ٧ / ١٩٨٠ ، ص ٣) .

وكانت مصر قد طرحت في الجلسة الاولى مشكلة الأبعاد القانونية للعوامل التي ادت لتجميد المحادثات ، ومنها مشكلة القدس والمستوطنات في الضفة الغربية ، غير أن الوفد الاسرائيلي رفض ذلك بحجة أن اللجان غير مخولة ببحث هذه المسائل . والجدير بالذكر ، ان محادثات القاهرة لن تبحث سوى المشاكل الادارية ؛ حيث نظمت اصلاً لاعداد ارضية لمناقشات الوفود الاساسية التي ستلتقي في الشهر القادم ، في الاسكندرية .

وفي هذا الاجتماع التمهيدي ، ترأس الوفد الاسرائيلي وزير العدل شموئيل تامير ، اما وفد مصر فقد ترأسه وزير الخارجية بالوكالة ، الدكتور بطرس غالي ، في حين ترأس الوفد الاميركي ، المستشار القانوني لوزارة الخارجية ، روبرت هانزل ، (« ر . إ . إ . » ، العدد ٢١٠٠ ، ٧ ، ٨ /١٩٨٠/٧ ص ٤) .

لقد سبق وأشرنا إلى أن هذه الجولة فشلت في وضع برنامج عمل ، وعليه فقد طلب وزير الخارجية المصرية ، كمال حسن علي من الدكتور يوسف بورغ « تلطيف موقف اسرائيل في المفاوضات ، حيث ان السعودية اوشكت على تأييد اتفاقيتي كمب ديفيد ، واتخاذ مواقف معتدلة تسمح بانضمام السعودية الى مفاوضات السلام » (« ر . إ . إ » العدد ٢١٠٥ ، ١٣ ، ١٩٨٠/٧/١٤ ، ص ٤) .

وكان بطرس غالي قد استقبل وزير العدل الاسرائيلي بمطلب يقضي بضرورة اشراك

الفلسطينيين وإلا لن يكون هناك سلام . وقال غالي موجهاً حديثه الى شامير : « بما انك تتولى شؤون العدل ، اقول لك ، انه اذا لم يكن هناك عدل في الضفة الغربية وقطاع غزة فلن يكون هناك سلام » (« رويتر » ، ١٩٨٠/٧/١٤) .

وكان تامير قد قال ، قبل مغادرته مطار القاهرة ، ان هناك فجوة خطيرة بين وجهات نظر كل من مصر واسرائيل حول الحكم الذاتي ولا اتوقع ان يكون من السهل التغلب على هذه الفجوة .

من جهة ثانية ، ذكر راديو اسرائيل « ان مناحيم بيغن مصمم على نقل مكتبه الى القدس الشرقية وانه ابلغ مصر والولايات المتحدة بالامر » (المصدر نفسه) .

ردود الفعل الاسرائيلية
على بيان البندقية

انقسمت ردود الفعل الاسرائيلية ، بالنسبة لبيان قمة البندقية لدول أوروبا الغربية ، الذي صدر في ١٩٨٠/٦/١٤ ، الى قسمين : الاول رسمي صدر عن رئيس الحكومة والوزراء ؛ والثاني نيابي ، صدر عن اعضاء الكنيست من الائتلاف والمعارضة .

وقد تميزت ردود الفعل هذه برفض البيان الصادر عن قمة البندقية ؛ وقد قام رئيس الحكومة مناحيم بيغن بنفسه بقراءة قرار الحكومة الذي يشجب بيان الدول الاوروبية التسع ؛ ويعتقد انه فعل هذا تأكيداً منه على الخطورة التي توليها اسرائيل لهذا البيان . وكان بيغن قد حمل بشدة على البيان الخاص بالشرق الاوسط ووصفه بانه « ميونيخ » جديدة . (اشارة الى زيارة عدد من زعماء اوروبا لميونيخ عام ١٩٣٩ استرضاء لهتلر) - ووصف منظمة التحرير الفلسطينية بأنها « اس - اس » - (فرقة الصاعقة النازية) - عربية . ومما قاله بيغن في بيانه :

« ان المشتركين في القمة [الاوروبية] تدخلوا في قضية القدس ، عاصمتنا الابدية غير القابلة لأي تفاوض ، وادانوا ايضاً حقنا الشرعي في الاستيطان في اي جزء من ارض اسرائيل . هذا الحق الذي تمليه علينا اعتبارات الامن في مواجهة اعداء ومعتدين . وان كل انسان ذا نية حسنة وكل انسان حر في اوروبا ، يأخذ علماً بقرارات البندقية ، يرى فيها استسلام ميونيخ ، وهي الاستسلام الثاني في جيل واحد . ان وثيقة البندقية استسلام امام ابتزاز كل العناصر التي ترغب في تخريب اتفاقيتي كمب ديفيد ، واحباط فرص السلام في الشرق الاوسط ... وقد كررت منظمة القتلة فكرتها الاساسية في دمشق عشية قمة البندقية فقالت : « ان فتح حركة ثورية مستقلة هدفها تحرير كل فلسطين وتصفية الكيان الصهيوني سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وثقافياً وايديولوجياً » ؛ وانه لم يسبق قط ، منذ ظهور كتاب « كفاحي » لهتلر ، ان عبرت منظمة بتعابير اكثر وضوحاً وعلى مسمع من الجميع ، بما فيهم أوروبا ، عن الرغبة في تدمير الدولة والشعب اليهوديين : وان اسرائيل ليست بحاجة الى ضمانات أمنية من اية دولة اوروبية ، وانها تعرف كيف تدافع ، وستدافع عن نفسها بنفسها » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٦/١٦) .

واضاف بيغن : لن يبقى من قرار البندقية الا ذكراه المُرّة .

وفي تعليق آخر قال وزير الخارجية الاسرائيلية : « لن نستطيع الاشتراك في اية مفاوضات على اساس قرارات دول السوق الاوروبية في البندقية » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٦/١٩) .

وقد وجهت وزارة الخارجية دعوة الى سفراء دول السوق الاوروبية المشتركة ، من أجل سماع احتجاجات اسرائيل على القرارات التي صدرت عن قمة البندقية ، وطلبت من السفراء نقل قرار اسرائيل ، الذي يشجب بيان البندقية ، الى حكوماتهم .

اما عضو الكنيست يهودا بن مئير من المفدال ، المتحالف مع الحكومة ، فقد قال : « يجب ان نقول لاوروبا انه لا يمكن ان نبيع الضفة الغربية الى اشخاص لا يملكونها » (المصدر نفسه) .

اما زعماء المعارضة ، فقد عارضوا القرار الاوروبي بشكل لا يقل شدّةً عن رفض رئيس الحكومة له ، فقد قال يتسحاق رابين : « ان قرار المجلس الاوروبي قرار سيىء ، وهو يشتمل على عنصرين سلبيين ، الاول عدم تأييد اتفاقيتي كمب ديفيد ، والثاني زرع بذور لتغيير قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، الامر الذي سيلحق الضرر بمسيرة السلام ، وان هذا القرار دلالة على قرارات اشد خطورة ستصدر في المستقبل ، من جانب اوروبا » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٦/١٦) .

من ناحية أخرى ، ذكرت صحيفة « دافار » في افتتاحيتها ١٥/٦/١٩٨٠ ، « ان قرار المجلس الاوروبي يعتبر انجازاً آخر للفلسطينيين وللدول العربية النفطية ، ولم تترك الدول الاوروبية اي مجال للشك ، بالنسبة للاتجاه الذي تسعى اليه ، وهو انسحاب اسرائيل الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ ، وإقامة دولة فلسطينية » . واضافت الصحيفة تقول : « ليست هناك جدوى من الاستخفاف بالانعكاسات الخطيرة للقرار الاوروبي .

وكان عضو الكنيست اوري افنيري الوحيد الذي طالب بتبني قرارات مؤتمر البندقية ، فقد قال : « لقد رفضنا ، في الماضي ، مشاريع يارنغ وروجرز ، غير انها ، في النهاية ، فرضت علينا » . (« يديعوت احرونوت » ، ١٩/١/١٩٨٠) .

تأثير رد الفعل الاميركي

وفي واشنطن قال الرئيس كارتر معقباً على قرار الدول الاوروبية : « لقد حدث تقدم كبير ، وان واشنطن راضية تماماً عن بيان دول السوق الاوروبية » (يديعوت احرونوت » ، ١٥/ ٦/ ١٩٨٠) .

أما وزير الخارجية الاميركي ماسكي ، فقد قال : « اننا نرى في بيان الدول الاوروبية جهداً اوروبياً يساعد على ايجاد حل للمشكلة في الشرق الاوسط ، وانني مرتاح لتصريح الرئيس الايطالي ، الذي اوضح ان المجموعة الاوروبية لا تنوي العمل على تقويض مسيرة كامب ديفيد » (المصدر نفسه) .

ان ارتياح الولايات المتحدة لقرار مؤتمر البندقية ، على الرغم من المعارضة الاسرائيلية الشديدة ، له دلالات مختلفة ، من وجهة النظر الاسرائيلية ، ففي تحليل اسرائيلي للموقف الاميركي جاء : « ان المبادرة الاوروبية اعطت الولايات المتحدة سوطاً تستطيع به توجيه اسرائيل ، خلال مفاوضات الحكم الذاتي ، وان على اسرائيل ان تدرك ، ان الفاصل بين اعتراف اوروبا بمنظمة التحرير الفلسطينية ، اعترافاً دبلوماسياً كاملاً ، وبين عدم الاعتراف شعرة ، ولا يمكن لاسرائيل الاستمرار في عدم احراز تقدم في مفاوضات الحكم الذاتي ، لفترة طويلة ، والحؤول دون قيام الدول الاوروبية باتخاذ خطوتها النهائية ، اي الاعتراف بالمنظمة الفلسطينية » (المصدر نفسه) .

أما السبب الآخر لارتياح الولايات المتحدة، فهو، كما جاء على لسان احد كبار الموظفين في الادارة الاميركية : « اننا آسفون لأننا لم نحاول السير في خط واحد مع الاوروبيين ، منذ البداية ، وانه بسبب البيان الاوروبي ، سيكون من السهل على القادة الاوروبيين اجراء اتصالات مع قادة م . ت . ف ، الذين يمكن ان يقتنعوا ويباركوا انضمام رؤساء البلديات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، الى مفاوضات الحكم الذاتي » (المصدر نفسه) .

مكرم يونس

---

٢ ـ تنظيم عسكري سري في اسرائيل

تشير كافة الحقائق والأحداث المتتالية ، داخل اسرائيل والمناطق المحتلة ، الى وجود تنظيم عسكريّ سري داخل المستوطنات اليهودية في المناطق المحتلة وغيرها من المناطق الأخرى . ومن خلال عودتنا الى متابعة الأحداث يتضح لنا أن هذا التنظيم العسكري يكاد يكون علنياً ورسمياً ، وذلك لأن اصحابه لا يخفون واقعهم هذا ، إن من حيث ظهورهم العسكري المسلح داخل المستوطنات وخارجها ، أو ، كذلك ، من حيث تصريحاتهم المتطرفة جداً ، والتي تنادي كلها باستخدام العنف والقوة ، ضد العرب وضد اليهود المعتدلين أنفسهم . وقد أشارت بعض المصادر الاسرائيلية علانية ، الى تأييد وتبني بعض الجهات لهذا التنظيم ، وبخاصة رئيس الاركان الاسرائيلي ، رفائيل ايتان، ورئيس الوزراء مناحيم

بيغن ووزير الزراعة اريئيل شارون وغيرهم . وخير دليل على هذا ، ان الناطق الرسمي بلسان حركة الحاخام كهانا ، يوسي دايان ، لم يخف تأييده لعملية القتل التي تعرض لها رؤساء البلديات في الضفة الغربية عندما قال : « انه ورجاله لن يختبئوا لانهم غير متهمين . وان محاولات انهاء حياة رؤساء البلديات ، صباح اليوم ، يجب اعتبارها بداية لما قد يقع في [المناطق المحتلة] بعد اقامة الحكم الذاتي » (« ر. إ. إ. » ، ١ ، ٢/٦/١٩٨٠) .

المنظمة السرية

أشارت « هاعولام هازيه » (١٤/٥/١٩٨٠) ، الى الاشاعات التي تسود ، داخل الجيش الاسرائيلي ، حول وجود مستودعات كبيرة للاسلحة داخل مستوطنات « غوش ايمونيم » وكذلك في المدارس الدينية والبيوت الخاصة التابعة لها ، وكانت اولى دلائل ذلك ما حصل في المظاهرات الكبرى ضد هنري كيسنجر ، حيث لم يخف رؤساء « غوش ايمونيم » حنان بورات والحاخام موشي ليفنغر حقيقة « أنهم درسوا امكانية استخدام القوة ضد اي اتجاه لاخلاء المستوطنات من ارض ـ اسرائيل المتكاملة » . وكان واضحاً للجميع ، ان حنان بورات المذكور ، كان صادقاً في كلامه ، وأنه يملك كميات من الأسلحة والذخيرة ، تكفي لإثارة الرأي العام العالمي . وأشارت « هاعولام هازيه » ، في نفس العدد ، الى تجول الشبان ، من اعضاء « غوش ايمونيم » في الشوارع وهم يحملون الاسلحة . وأشارت الى وجود ثلاثة أنواع من الأسلحة بحوزتهم : الأول مرخص من قبل السلطات ، والثاني شبه رسمي ، حصلوا عليه من قبل القادة المقربين من « غوش ايمونيم » ، او من الضباط المتدينين : والثالث غير مرخص وكميته غير معروفة الا لرؤساء الكتلة . وهناك بعض الدلائل التي تشير الى ضخامة الأسلحة وحجمها . فقد اورد تقرير مراقب الدولة الذي نشر مؤخراً ، أنه تمت سرقة أسلحة من « اوغدا » [فرقة] مدرعة واحدة في الجيش الاسرائيلي بما قيمته ١٨ مليون ليرة ، وكانت قيمة الذخيرة لوحدها حوالي ٤ ملايين ليرة ، وهذا ما حدث داخل فرقة واحدة فقط ، فكيف يكون الوضع في الجيش بكامله ؟ . وقد حدث ، في احدى المرات ، اكتشاف مستودعات صغيرة للاسلحة في بعض المستوطنات ، وعندها طلب الجيش الاسرائيلي بصورة علنية من احدى المستوطنات ، اعادة الاسلحة غير المرخصة ، ولكن هذا الطلب لم يتحقق (المصدر نفسه) .

ومن جهته ، أشار النائب اوري افنيري الى حقيقة وجود منظمة سرية مسلحة في اسرائيل ، وأضاف : « انه لا توجد منظمة سرية واحدة وانما هناك عدة منظمات سرية ... وانه لا يوجد اي شك بالنسبة لهويتها السياسية ـ الشعبية . فهي تنتمي الى المعسكر اليميني ـ المتعصب الذي يبدأ من الوزير اريئيل شارون في اليمين ـ ويشمل الحركات المختلفه من اجل ارض ـ اسرائيل المتكاملة ، وحركة هتحيا [البعث] وغوش ايمونيم وعصابة الحاخام كهانا ، والأشخاص الهامشيين المهووسين التابعين للمفدال وحروت » (« هعولام هازيه » ، ١١/٦/١٩٨٠) . ولكن افنيري يؤكد من جهة أخرى : « وجود منظمة سرية تهدد نظام الحكم والقانون والديمقراطية ، في اسرائيل ومعسكر السلام وزعماءه ، وعلاقات الدولة الخارجية ، وربما ، ايضاً ، حكومة اسرائيل نفسها » .

ويشير افنيري في مقاله الى أنه عندما ظهر ممثل سلطات الأمن امام احد قضاة المحكمة العليا ، اقسم هذا الضابط بأنه يملك اثباتات تؤكد ان الحاخام كهانا ينوي القيام بجرائم خطيرة ، الى درجة أنها تعرض سلامة الدولة للخطر ، وهذا ، كما يرى افنيري ، دليل قاطع واثبات رسمي على وجود منظمة سرية واحدة . كما ان اكتشاف مخزن الأسلحة في احدى المدارس الدينية ، في القدس القديمة بشكل ، دليلاً ثانياً ، وكذلك تشكل محاولة القتل المُحكمة التي تعرض لها زعماء الضفة الغربية دليلاً ثالثاً ، وأخيراً ، وهو الدليل الرابع ، هناك التهديدات التي وجهت الى نشيطي السلام الاسرائيليين . واشار افنيري ، أيضاً ، الى انه لا يوجد اي عائق يمنع تلك المنظمات السرية من التطور بسرعة والوصول الى مرتبة منظمتي « إتسل » و « ليحي » عندما كانتا في فترة أوجهما . وان الأعمال التي قامت بها تلك المنظمات في المناطق المحتلة ، في رام الله ، ومحاولة قتل رؤساء البلديات ، لم تكن لتحدث لولا تغاضي قسم من رجال قوات الأمن والحكم العسكري عنها ، وانه لمن المستحيل ، عليها ، التجول في مدن الضفة ليلاً ، وتنفيذ عمليات داخلها ، دون ان يشعر بها أحد . حيث ان قوات الأمن مستنفرة دائماً في تلك المدن لمنع

العرب من القيام بالأعمال الارهابية » (المصدر نفسه)

عصبة الدفاع اليهودي

بدأت عصبة الدفاع اليهودي تتبلور وتتكون خلال عام ١٩٧١ في الولايات المتحدة الاميركية ، وبصورة خاصة في مدينة نيويورك . وقد بدأت نشاطها بتوجيه الشتائم والبصق على النساء السوفيتيات في المحلات العامة ، وكذلك بالتعرض للأطفال السوفييت ، وهم في طريقهم الى المدارس . ثم أخذ اعضاء العصبة يجمعون الاسلحة والمواد المتفجرة ويطلقون النيران على بيوت الدبلوماسيين السوفييت . وقد أعلن الحاخام كهانا في مقابلة مع صحيفة « يديعوت احرونوت » (١٩٧١/١٠/٢٢) : « أن هدف رابطته هو اعادة الشبيبة الى احضان اليهودية وتخليصهم من الضياع في صحراء العالم المعادي » . وفي تلك الفترة ايضاً ، تنظمت مجموعة داخل جامعة بار – ايلان ، بصورة سرية ، وأعلن اعضاؤها القيام بحملة اعلامية شاملة بين صفوف الشبيبة الاسرائيلية لشرح « حقوقنا التاريخية والقومية في ارض – اسرائيل المتكاملة ، بما فيها الضفة الشرقية من الاردن . واننا سنعمل بكل الوسائل للحيلولة دون خضوع الحكومة للضغوط الموجهة عليها » (« معاريف » ، ١٩٧١/٣/١) . وقد علم في حينه ان الطلبة الجامعيين من اعضاء عصبة الدفاع اليهودي ، طالبوا باستخدام الوسائل المتطرفة من اجل اثارة الرأي العام الاسرائيلي كما طلب هؤلاء من زعمائهم الاعلان عن : « أنه اذا ما قررت الحكومة الانسحاب ، فان منظمة سرية ستتشكل ، وتعارض بالقوة أعمال الحكومة » . (مجلة « اوت » ، ١٩٧١/١٢/١٦ .) .

كهانا مؤسس العصبة

يعتبر الحاخام كهانا ، المؤسس لعصبة الدفاع اليهودي ، وهو حاخام متعصب ، وكان حتى ظهوره عام ١٩٦٩ يعمل زعيماً روحياً لاحدى الكُنُس في احدى القرى الاميركية : وإضافة الى عمله هذا كان يكتب بصورة دائمة في احدى الصحف اليهودية المسماة « جويش برس » ، وكانت الصحيفة رجعية بكل ما يتعلق بالسياسة الداخلية الاميركية ، ودينية تقليدية بكل ما يتعلق بمشاكل اسرائيل . وقد تمحورت مقالاته الكثيرة حول موضوعين أساسيين : التهديد « الأسود » والخطر « الأحمر » على الاميركيين واليهود. وأعلن في حينه ان اي نشاط من قبل الاوساط الليبرالية من اجل منح السود حقوقاً متساوية ما هو الا مؤامرة لا سامية لمنح السود امتيازات على حساب اليهود ، وان كل من يناضل من اجل مساواة الأجناس ما هو الا « نازي أسود » يحاول السيطرة على المدن الاميركية واقامة « سلطة للسود » . (« نيكو – آدار ، حوتام » ، ١٩٨٠/٥/١٥ .) . وقام كهانا ، في تلك الفترة ، بفتح معسكرات تدريب للشبان ، حيث درسوا التاريخ اليهودي ثم تدربوا على الجودو والكاراتيه والقنص واستخدام الأسلحة . ثم أخذ هو وجماعة يبلورون ايديولوجية خاصة بهم ، ولكنها اعتمدت ، أساساً ، على ايديولوجية حركة « بيتار » و « الصهيونيين الاصلاحيين الموحدين في اميركا » وهي المرتبطة أساساً بالمنظمة العالمية لحركة « حيروت » في اسرائيل . وقد جاء في ايديولوجيته أن هناك خطراً كبيراً ينتظر يهود اميركا ، وان اللاسامية في تصاعد مستمر وان الدولة [الولايات المتحدة] ، اصبحت مستعدة للحكم الفاشي، وهي تمر الآن تماماً في المرحلة التي اجتازتها المانيا عشية تسلم هتلر للسلطة . وفي مثل هذه الحالة ، لا يوجد أي مستقبل لليهود في اميركا ، وأنهم اذا ما ارادوا الحيلولة دون وقوع عملية ابادة ضدهم ، فما عليهم الا الهجرة الى اسرائيل (المصدر نفسه) .

وعام ١٩٧١ ، افتتح الحاخام كهانا مكاتب « العصبة » في اسرائيل ، ثم انتقل للاستقرار هناك ، فاستقر في القدس ثم انتقل الى كريات ارباع . ومن جملة الأشخاص الذين اتصل بهم : يهوشع بن – تسيون ، المدير العام السابق لبنك اسرائيل – بريطانيا ، وهو من النشيطين الرئيسيين « لحركة مقاومة الانسحاب » . ومن المتبرعين والممولين لـ « غوش ايمونيم » ، ومن المعجبين جداً برئيس الحكومة مناحيم بيغن . وهو اول معتقل يقوم بيغن باطلاق سراحه من السجن قبل ان ينهي فترة عقوبته عن المخالفات الاقتصادية التي ارتكبها . وكان المليونير اليهودي الاميركي برني دوتيش ، المؤيد الثاني للحاخام كهانا ، وهو نفسه الذي قام بتمويل قسم من نشاطات « حركة ارض – اسرائيل المتكاملة » ونشاطات كتلة « غاحل » (حيروت والاحرار) من اجل يهود الاتحاد السوفيتي (المصدر نفسه) .

وتتألف العصبة من فئتين ، القيادة الفتية والقيادة المسنة (اشخاص تجاوزوا الـ ٢٥ عاماً) ويترأس العصبة قيادة مشتركة تضم ممثلين عن القيادتين ، وتتألف من خمسة عناصر هي : عظمة اسرائيل (جمال شعب اسرائيل وتكامله . احد اسس نظرية جابوتنسكي) ، حب اسرائيل (مسؤولية متبادلة لليهود حيثما كانوا) ، حديد اسرائيل (ضرورة استعمال القوة لتحقيق أهداف الرابطة) ، أمن اسرائيل (ضمانات للدفاع عن سلامة اليهود في كل مكان) ، والعنصر الأخير : الأنصياع الاعمى ، اي انصياع جميع اعضاء العصبة لقرارات مؤسساتها دون اعتراض وتمعن . (« هآرتس » ، ١٩٧١/١٢/٣ .) . ومن الجدير بالذكر ان السلطات الاسرائيليةاكتشفت صناديق من الاسلحة كانت مهربة الى الخارج ، واعتقلت يومها عميحاي بغلين ، الذي شغل مركز ضابط عمليات الأشل في حينه . وكانت الصناديق تحتوي على ذخيرة وقنابل يدوية من صنع الجيش الاسرائيلي . كما تم خلال عام ١٩٧٢ ، اعتقال كهانا بسبب نشاطاته المشبوهة ، وتم الكشف ، في حينه ، عن أنه عمل ، مدة سنتين ونصف السنة ، عميلاً لمكتب التحقيقات الجنائية الاميركي (F.B.I) . وفي مقابلة له مع مجلة « بلاي بوي » ، كشف الحاخام كهانا ، عن أنه انضم : عام ١٩٦٣ ، الى المنظمة الاميركية اليمينية ـ المتطرفة « جمعية جون بيرتس » بناء على طلب مكتب التحقيقات الجنائية الاميركي . وأشار الى أنه بقي في تلك المنظمة طيلة عامين ونصف باسم مايكل كينغ (« هآرتس » ، ١٩٧٢/١٠/٣) . هذا ، وقد اعتقل ، مؤخراً ، الحاخام مئير كهانا الذي اصبح يتزعم ، الآن ، الحركة اليمينيه المتطرفة « كاخ » نظراً لنشاطاته المتطرفة وعلاقاته بسرقات مخازن الاسلحة التي اكتشفت في المناطق المحتلة ؛ ولكن السبب المعلن الذي ادعت السلطات انه اعتقل من اجله ، كان الحادث الذي وقع قبل سنة واربعة أشهر ، عندما استدعاه يومها الطلبة المؤيدون له ، للتحدث في الجامعة التي منعته سلطاتها من الدخول خوفاً من الاخلال بالنظام . وبرغم هذا المنع ، خلع كهانا وجماعته المدخل ، وألقى خطابه عن العرب في اسرائيل ، بالرغم من تحذيرات ضباط الأمن . وقد صدر مؤخراً قرار الحكم بسجنه لمدة سبعة أشهر ، لارتكابه تلك المخالفه (« ر . إ . إ » ٢٩ و٣٠/٦/١٩٨٠) . وكانت صحيفة « هآرتس » (١٩٨٠/٥/١٤) ، قد كشفت الأسباب الحقيقية لاعتقال الحاخام كهانا وزميله يوسف غرين ، « وهي وصول معلومات الى دوائر الشرطة تفيد بأنهم ينوون تنفيذ مهمة معينة » ، ومن الجدير بالذكر هنا ، أن السلطات الأسرائيلية ووسائل الاعلام الاسرائيلية قد أشارت ، سلفاً ، الى نية تلك المجموعة القيام بعمليات انتقامية ضد المواطنين العرب ، غير انها لم تحدد هذه العمليات تماماً ، كما أنها حاولت نفيها ، في بعض الحالات ، ولكن بات من المؤكد ان العملية المذكورة التي تحدثت عنها الاوساط الأمنية ، التي كان ينوي كهانا وجماعته تنفيذها قد تحققت فعلاً ، وهي محاولة قتل رؤساء البلديات في الضفة الغربية مؤخراً .

وكان وزير الدفاع قد قرر اعتقال كهانا وزميله ، « في اعقاب تراكم المعلومات لدى اجهزة الأمن ، والتي أشارت جميعها الى وجود تنظيم سري من اجل القيام بأعمال ارهابية ضد العرب في الضفة » . وكشف مصدر أمني موثوق لصحيفة « هآرتس » أن رجال عصبة الدفاع اليهودي قد عقدوا عدة اجتماعات ، منذ عملية القتل في مدينة الخليل ، وأنهم اعدوا خططاً لتنفيذ عمليات عنف ، ستثير ، في حال تنفيذها ، الاضطرابات من جديد في الضفة الغربية . ومن جملة المعلومات التي وصلت الى اجهزة الأمن ، ان هناك خطة لقتل الزعماء الثلاثة المبعدين من منطقة الخليل ، اذا ما تقررت عودتهم الى بيوتهم . وقد نقلت تلك المعلومات الى وزير الدفاع ، الذي اصدر بدوره أمراً باعتقال كهانا وزميله ، وذلك في اعقاب التشاور مع رئيس الحكومة (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٥/١٥ .) . وأشارت مصادر أخرى الى أن سبب اعتقال الحاخام كهانا ، هو محاولة نسف المسجد الأقصى في القدس . وذكرت تلك المصادر ان ١٢٠ كيلو غراماً من المواد الناسفة ضبطت في المدرسة الدينية اليهودية في الحرم الابراهيمي كانت بتصرف جماعة كهانا من اجل نسف المسجد . وذكر ايضاً ، ان الشرطة اكتشفت مشاريع تفصيلية لمجموعة من منظمة كهانا ، الغاية منها الحاق الأضرار بعدد من الأماكن المقدسة للمسلمين (« ر . إ . إ » ، ٢و٣/٦/١٩٨٠ .) .

منظمة د . ب (سحق الخونه)

في بداية عام ١٩٧١ ، قامت تظاهرة يسارية أمام مبنى الكنيست احتجاجاً على تصرف جنود الجيش

الاسرائيلي إزاء سكان غزة . وكان مؤسسو « د . ب » بين الذين جاءوا يحتجون على هذا الاحتجاج ، وبين الذين تبادلوا الضرب مع المتظاهرين . وبعد التظاهرة اجتمع هؤلاء (مؤسسو « د . ب ») وقرروا تأسيس هيئة تتولى النضال ضد ما اسموه الانهزامية المنظمة . ويجمع الاسم د . ب بين اسم ضابط شاب - دب آدار - قتل في عملية ، وبين الحرفين الأولين من كلمتين عبريتين هما : « ديكوي بوغديم » اي سحق الخونة . وكما في حركة حيروت كذلك في « د . ب » يوجد افراد متدينون وآخرون علمانيون ضمن اطار واحد . وزعيم « د . ب » هو شمعون رحميم ، وهو ابن عائلة يهودية سورية - عراقية وخريج مدرسة حكومية - دينية . وكان شمعون رحميم أحد افراد الجماعات الكثيرة التي حاولت الاستيطان دون اذن . في اماكن مختلفة من الضفة الغربية قبل سنتين او ثلاث . خلافاً لموقف حكومة التكتل الوطني . ويقول الصحافي بارناع :

« ان اوساطاً معينة في الحكومة أيدت اقامة هذه المنظمة لخلق توازن بين التيارات المتطرفة من اليمين واليسار . وعلى اي حال . فقد تصرفت السلطات تجاه « د . ب » بتسامح اكثر من غيرها . وترتكز ايدلوجية « د . ب » على ثلاث دعائم : ارض - اسرائيل (بحدود الميعاد) للشعب اليهودي ، وشعب يهودي واحد (مقابل غير اليهود) وثقافة يهودية ، والوصول الى حد الميعاد من الفرات الى النيل » (« ملحق دافار » ، ١٦/٦/١٩٧٢) .

لقد بلغ عدد اعضاء جماعة « د . ب » ، عام ١٩٧١ ، نحو مائتي شخص ، غالبيتهم من الطوائف الشرقية . وهي جماعة اسرائيلية في معظمها ، تتراوح اعمار أعضائها بين ٢٠ - ٢٧ سنة . وقد قامت كرد فعل لنشاط « متسبين » واليسار الاسرائيلي الجديد في الجامعة العبرية . ونشطت في التظاهر ضد الدكتور ناحوم غولدمان ، وضد مسرحية ملكة الحمام ، [مسرحية تنتقد حكام اسرائيل بشدة عرضت ابان حرب الاستنزاف ثم منع عرضها ، بسبب الاعتراض على بعض الالفاظ التي تستعملها] وضد نشاطات جماعية للمنظمات اليسارية . وبمرور الوقت ، تغير طابعها ، فاصبحت اليوم تؤكد فكرة ارض - اسرائيل المتكاملة ، وتتخذ موقفا متشددا من العرب ومن الاستيطان اليهودي في المناطق وتدعو الى رفع العلم العبري حيثما عاش اليهود في الماضي . ويقع مركز المنظمة في القدس ، ومنظمها يوسف بن زنبق والحاخام العقائدي لها ، الدكتور يسرائيل الداد (ليحيى سابقا) . وقد تدرب اعضاؤها على القتال وجها لوجه ، كما انهم نشيطون في رسم الشعارات على الجدران ، والمظاهرات ضد زيارة ضيوف المان ، ومرورا بمحاولات رفع الاعلام والصلاة في الحرم الشريف والحرم الابراهيمي (« هآرتس » ، ٣/١٢/١٩٧١) .

حمدان بدر

مغزى « الخيار العسكري » الاميركي في الشرق الاوسط

لا يمكن أن يكون كل الصخب العسكري المسموع في ـ ومن ـ الولايات المتحدة ، في الآونة الأخيرة ، مجرد موسيقى تصويرية ، مصاحبة لاحتفالات انتخابات الرئاسة الأميركية .

فهذا الصخب الأميركي الشديد ليس ـ هذه المرة ـ كلامياً مصنوعاً من البيانات والتصريحات والخطب . بل هو صادر من مصدر مادي مباشر يتمثل في تحركات قوات برية وجوية وبحرية ، وفي تنقلات ومناورات فردية ومشتركة .

والشيء الذي يجعل هذا الصخب العسكري الأميركي مسموعاً بشدة ، هنا في المنطقة العربية ، هو أن معظم هذه التحركات والتنقلات والمناورات يتم داخل هذه المنطقة ، أو على الأقل ، على حدودها .

والدلائل كثيرة على أن الولايات المتحدة تستعد لتنفيذ « قرار ما » اتخذته فعلاً ؛ وهذا القرار ذو صبغة عسكرية (يمكن أن تتحول حربيةً في مرحلة لاحقة) . ويتعلق هذا القرار بالمنطقة العربية من حيث الأسباب ، ومن حيث النتائج على السواء . ويمكن أن نستنتج ، على وجه التحديد ، أن القرار يتعلق بمنطقة الخليج العربي ، ومن ثم فهو ذو صلة وثيقة بالنفط العربي ... وذو صلة وثيقة بالتالي بكل قضايا الاستقلال العربي والتحرر العربي والثورة العربية والوحدة العربية ولا شيء من هذا بعيد بأي حال عن شؤون الثورة الفلسطينية .

والجو العام المحيط بالولايات المتحدة ـ أو الذي تحيط نفسها به ـ منذ فترة ، وبخاصة منذ نهاية العام الماضي (١٩٧٩) ، ينطوي على مفارقة واضحة . فهي على خلاف حاد مع الاتحاد السوفياتي ـ الدولة العظمى المنافسة ـ بالنسبة لعدد كبير من المسائل . أهمها افغانستان ، وأفغانستان بالنسبة للولايات المتحدة لا تعني شيئاً سوى الخطر على « الخليج » ... أي ان الشرق الاوسط هو في صلب أهم الخلافات الحادة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ؛ وهي خلافات تنذر ، في تقدير كثيرين ـ داخل الولايات المتحدة أكثر من غيرها ـ بنهاية عصر الانفراج (الوفاق) ونشوب الحرب العالمية الباردة الثانية . وتنذر ، في تقديرات بعضهم ، بنشوب الحرب العالمية الثالثة .

والولايات المتحدة ، في الوقت نفسه ، على خلافات عميقة مع حلفائها (أوروبا الغربية وكندا واليابان) حول عدد من الأمور الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ، من بينها ما يتعلق بخلافاتها الحادة مع الاتحاد السوفياتي . وفي خلال الفترة نفسها ـ اي منذ اواخر العام الماضي ـ بلغت الخلافات بين واشنطن وحلفائها حداً تنذر معه ، في تقدير كثيرين ، داخل الولايات المتحدة أكثر من غيرها أيضاً ، بانفراط التحالف (العسكري في تصور البعض والسياسي ، فقط ، في تصور البعض الاخر) . ويعبر مراقبون آخرون عن المعنى نفسه للنتيجة نفسها باحتمال « تحييد أوروبا » . وهنا أيضاً فإن أبرز وأكبر الخلافات بين الولايات المتحدة وحلفائها ـ

وبخاصة الأوروبيين ـ تتعلق بالشرق الأوسط وبالسياسة الأميركية فيه ، وبمدى كفاءة الزعامة الأميركية في ممارسة زعامتها على التحالف الغربي في مناطق مثل منطقة القضية الفلسطينية ، ومنطقة السلم الكلي لاسرائيل ، ومنطقة النفط العربي الخليجي وأخطارها ... الخ .

وفي الوقت نفسه أيضاً ، اضافة الى خلافات الولايات المتحدة مع خصمها الرئيسي الاتحاد السوفياتي ومع حلفائها الرئيسيين ، تبدو الولايات المتحدة في حالة خلاف حاد مع النفس ، يتمحور ، بطبيعة الحال ، على الخلافات الحادة مع الغير ـ الخصوم والحلفاء على السواء ـ ويتمحور ـ من ثمّ ـ على المدى الذي ينبغي أن تذهب الولايات المتحدة إليه في السعي الى تحقيق تفوق عسكري استراتيجي على الاتحاد السوفياتي ، وعلى المدى الذي ينبغي أن تذهب إليه في طلب تحمل الحلفاء « نصيبهم » في الدفاع عن العالم الغربي ، والمدى الذي ينبغي أن يلتزم فيه هؤلاء الحلفاء بالمصلحة الأميركية معتبرين كل ما هو في مصلحة واشنطن هو في مصلحة أوروبا والأطلسيين واليابانيين ...

وللشرق الأوسط حضور كثيف في « الخلافات » الأميركية ، وهنا تبرز ، بشكل خاص ، علاقة « الأمن النفطي » الغربي بمصالح أميركا لدى العرب ، وبمصلحة أميركا الاستراتيجية في اسرائيل .

غير أنّ الخلاف مع الذات داخل الولايات المتحدة ينطوي على وجه آخر . انه عملية مراجعة ومحاسبة للنفس ، ولكنها معكوسة . فهي محاسبة بعكس محاسبة السبعينات ، فتلك أدت الى ادراك ضرورة الخروج من « ورطة فيتنام » ، وهذه تريد اثبات ضرورة الخروج من « عقدة فيتنام » ... مراجعة السبعينات ، إضافة إلى فضيحة «ووترغيت» ، أدت الى سقوط ريتشارد نيكسون ، ثم الى نجاح جيمي كارتر على أسس تحقيق السلام وتقليص تجارة السلاح والحد من الأسلحة الاستراتيجية والاهتمام بالقضايا الاجتماعية ... ومراجعة الثمانينات أدت الى تحول كارتر عن وعوده الانتخابية وقرب سقوطه لصالح مرشح « القوة » و« المواجهة » و« التفوق » (رونالد ريغان) .

وفي اطار هذه المراجعة للنفس فإن الولايات المتحدة بدأت بالفعل عهد ريغان قبل مجيئه ؛ وها هي تخرج ، عسكرياً ، الى العالم معلنة نهاية « عقدة فيتنام » . وتجد الوضع الأمثل لهذا الخروج العسكري ، الى العالم ، بالدخول الى منطقة الشرق الأوسط ، وتحديداً الى منطقة الخليج العربي ، ولكن على نطاق أوسع منه كثيراً بحيث يتجاوز كل « القوس » الذي كانت الولايات المتحدة قد زعمت من قبل أنه « قوس الأزمة » (بتعبير زبيغنيو بريجنسكي) الذي انتشرت عليه القوة (العسكرية أو السياسية) السوفياتية . و « قوس » الحضور العسكري ـ الاميركي الجديد يمتد من « دييغو غارسيا » (المحيط الهندي) الى بحر العرب الى الخليج العربي (بحراً وبراً) إلى القرن الأفريقي (قاعدة بربارة الصومالية) الى جنوب مصر (قاعدة قنا) إلى شمالها (الدلتا ـ والصحراء الغربية المصرية ، وموانىء مصر الأساسية في الاسكندرية وبورسعيد ومرسى مطروح) امتداداً إلى سفن الأسطول السادس في البحر الأبيض المتوسط والى قواعد هذا الأسطول في جنوب أوروبا (تركيا واليونان شرقاً ، واسبانيا غرباً) ويمتد طرف القوس من جنوب غرب أوروبا حتى المغرب التي تطل على البحر المتوسط وعلى المحيط الاطلسي وتربط ـ بالتالي ـ بينهما .

هناك ، إذن ، مفارقة ثلاثية ينطوي عليها هذا الخروج العسكري الأميركي على العالم من مداخل الشرق الأوسط . إنه يتم في وقت تتعقد فيه التناقضات مع الخصم الأساسي ، والخلافات مع الحلفاء الرئيسيين ، والانقسامات ، في الداخل . وهو وضع مركب وليس الأمثل لسياسة « هجومية » . ومع ذلك ، فإن الولايات المتحدة اتخذت ، وتستمر في اتخاذ وضع الهجوم عسكرياً في هذه المنطقة الشاسعة . وبخاصة في مركزها المتمثل في منطقة الخليج ؛ الأمر الذي يثير عدة تساؤلات :

● هل تعتقد الولايات المتحدة ، فعلياً ، أن الاتحاد السوفياتي بصدد التقدم لاحتلال منابع النفط العربي في ايران والخليج العربي ؟ أم أن المسألة لا تخرج عن اطار اعتبارات «السنة الانتخابية ؟ » .

● هل الولايات المتحدة مستعدة فعلياً للتصدي بالقوة العسكرية للاتحاد السوفياتي في هذه المنطقة ؟ أي هل هي مستعدة للمخاطرة باشعال حرب عالمية

انطلاقاً من هذه المنطقة ، وهل ترى ان المبررات كافية لهذه المخاطرة الرهيبة ؟ .

● هل تستطيع الولايات المتحدة ، اذا قدرت امكان حصر المواجهة مع السوفيات في هذه المنطقة في حرب محدودة وتقليدية (غير نووية) ، أن تخوض هذه الحرب ، وهي في وضع الخلاف مع الحلفاء ؟ أي بالاستغناء تماماً عن أي دور لهم ؟ .

● هل تُقَدِّر الولايات المتحدة امكان خوض حرب ضد السوفيات في هذه المنطقة ، إستناداً الى دعوة وتأييد من « نظم » المنطقة بصرف النظر عن مدى ثبات هذه النظم واستقرارها (في ضوء ما أثبتته تجربة نظام الشاه في ايران) ؟

● هل تعتقد الولايات المتحدة انها تخلصت تماماً من « عقدة فيتنام »بما يسمح بتدخل مباشر مماثل دون اثارة ردود فعل داخلية عنيفة ، خصوصاً في جو الخلافات الداخلية السائد ؟ .

كما نلاحظ فإن عدداً من هذه التساؤلات يتعلق بمواقف واستعدادات الولايات المتحدة نفسها ، بينما يتعلق بعضها الآخر بمواقف واستعدادات الخصم الرئيسي (الاتحاد السوفياتي) وبعضها الأخير يتعلق بمواقف واستعدادات الحلفاء ، وهم قسمان : حلفاء العالم الغربي ، وحلفاء في مسرح العمليات ، اي في الشرق الأوسط نفسه .

أما عن مواقف واستعدادات الولايات المتحدة فإنها واقعة بالضرورة تحت تأثير الانقسامات والخلافات الداخلية ، إضافة الى تأثيرات مواقف واستعدادات كل الأطراف الأخرى .

عن أميركا نفسها كتب المعلق الأميركي المحافظ المعروف جوزيف كرافت مقالاً على درجة عالية من الخطورة - لفرط صراحته - (« **انترناشيونال هيرالد تريبيون** » ٥/٧/١٩٨٠) . قال فيه :

« إن الولايات المتحدة احتفلت بعيدها القومي (٤ تموز) هذا العام ، وهي في حالة مزاجية مثيرة للفضول . فمعظم الأميركيين يشعرون بانحدار عن وضع التميز السابق الذي تمتعت الولايات المتحدة به طوال فترة ما بعد الحرب . غير أن هناك تسطحاً في اتفاق الرأي ، وانقساماً في الرأي العام حول ما ينبغي عمله ازاء الابتعاد عن المركز الأول . ان دليل الانحدار يكمن في كل مكان . ففي عام ١٩٧٢ ،فقدت الولايات المتحدة تفوقها ، فلم تعد ، البلد ذي المستوى الاعلى للمعيشة في العالم . وهبط معدل نموها بنسبة ٢٥ بالمائة ، في العقد الماضي . كما أنها لم تعد أفضل من المتوسط بين البلدان الصناعية . هذا عن التضخم ، أما عن الاستثمار ، وهو المعيار الأفضل لقياس المستقبل ، فهو أدنى كثيراً مما هو في المانيا الغربية ، واليابان » .

ويستعرض كرافت أوجه الانحدار الأميركي العسكرية والاقتصادية والاجتماعية بصورة يكاد المراقب ألّا يصدقها لفرط تشاؤمها وبعدها عن الصورة « المعتادة » للولايات المتحدة ، ويصل في النهاية الى القول : « ربما يكون بامكان قيادة أجسر أن تفعل شيئاً مختلفاً . ولكن ، ربما كان الأمر يحتاج الى شيء يضرب في العمق، أكثر ، شيء يؤثر على مجموع الرأي العام - هزة تحطم روح الانقسام ، والتردد التي هي دائماً العلامة المميزة لدولة عظمى على حافة الانهيار » .

وعلى الرغم من كل هذه الشحنة من التشاؤم والصراحة ، في تشخيص امراض الولايات المتحدة بأنها أمراض شيخوخة ، فان كرافت لا يفوته أن يؤكد « أن الأغلبية ، فيما يبدو ، تعتقد أن على الولايات المتحدة ان تنفق أكثر على الدفاع » ، وان كان ثمة خلاف على مقدار الزيادة وعلى أنواع الأسلحة اللازمة .

ولا يختلف،عن هذا الاستنتاج،ما يقرره **المسح الاستراتيجي ١٩٧٩** - الصادر عن المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في ربيع ١٩٨٠ - في فصل تحت عنوان : الولايات المتحدة : قلق على الأمن ، حيث يقول :

« ان الاتجاهات داخل الولايات المتحدة ، التي كانت ممكنة التمييز لعدة سنوات ، قد تركزت في عام ١٩٧٩ نحو اتفاق في الراي محبذ لزيادة الانفاق العسكري ولحضور أميركي أكثر تأكيداً في الخارج ... ان تعاقب أزمات العالم الثالث - إيران واليمن وأفغانستان - قد ركز الانتباه على مهمة اسقاط قوة عسكرية ، فيما وراء مناطق الانتشار التقليدية للولايات المتحدة ؛ وهي مهمة دعا اليها ، منذ وقت طويل ، بريجنسكي مستشار الأمن القومي . لقد زاد الوجود العسكري الأميركي في منطقة الشرق الأوسط والخليج (الفارسي) زيادة حادة في عام ١٩٧٩ » .

وننتقل من هذا التقدير العام الى تحديد اكثر دقة ، فنجد مجلة « **نيوزويك** » الأميركية تقرر في تحقيق موسع لها - عن « حشد أميركي ضخم في

الخليج » - « أن جيمي كارتر قد رسم خطاً استراتيجياً حازماً حول حقول نفط الخليج (الفارسي) ، في كانون الثاني (يناير) الماضي وحذر الكرملين من عبوره . ووقتها كان « يبلف » فقط : فموجودات اميركا العسكرية في المنطقة كانت لا تتجاوز شذرة من القوة السوفياتية المتاحة . ولكن منذ ذلك الوقت ، والبنتاغون (وزارة الدفاع الأميركية) تعمل بلا هوادة لحشد قوة ضاربة أميركية للدفاع عن موارد الغرب النفطية والآن فإن القوات ، والمعدات تبدأ في الاستعداد لأسرع حشد عسكري للأمة [الأميركية] منذ فيتنام » («نيوزويك»، ١٤ تموز (يوليو) ١٩٨٠) .

وتصف نيوزويك هذه الاستراتيجية الجديدة التي نشطت الولايات المتحدة في تنفيذها في الشرق الأوسط والخليج العربي ، بأنها « في الأساس وليدة ضعف اميركي في هذه المنطقة الحيوية » ... كما تصفها بانها « استراتيجية مواجهة جسورة لم يسبق اختبارها ابداً - هي ، في الحقيقة ، استراتيجية ، لنكُنْ أول من يصل ولكن في آخر وقت » .

نحن، إذن، أمام استراتيجية تتمثل في «قوة التدخل السريع » بعد ان تحولت من مجرد مشروع الى حضور عسكري فعلي قوامه ، في منطقة بحر العرب وحدها ، ٣٠ سفينة حربية بينها ثلاث حاملات طائرات و ١٥٠ طائرة حربية ، وقوة من مشاة البحرية مؤلفة من ٤٠ - ٤٥ ألف رجل ؛ ومن المقرر أن يبلغ عدد رجال قوة التدخل السريع مئة وعشرة آلاف رجل ، والعدد قابل للزيادة ، وفقاً لتقديرات العسكريين الأميركيين لاحتياجات « هذه المنطقة الحيوية » ، حتى يمكن أن تتعدى القوه ٢٠٠ ألف رجل . وفي سبيل دعم هذه القوة جهزت الولايات المتحدة قاعدة « دييغو غارسيا » في المحيط الهندي ، وأمنت لقواتها قواعد وتسهيلات في مصر وعمان وكينيا ، وتتفاوض للحصول على تسهيلات - على الأقل - في قاعدة بربارة في الصومال .

والامر الواضح هو أن الولايات المتحدة تمضي في خططها العسكرية الخاصة بالشرق الأوسط والخليج العربي غير عابئة بالانتقادات التي توجه الى هذه الاستراتيجية سواء داخل الولايات المتحدة أو خارجها ، من جانب الحلفاء الأوروبيين . فهناك في الداخل من يتهم الادارة الاميركية بانها تقوم باستعراضات تهدف إلى « الاستهلاك السياسي المحلي » لأن كل ما تفعله لا يقدر على مواجهة التحديات في الخليج العربي ، فضلاً عن أنه يهدد باندلاع مواجهة نووية ، ولا يرضي معظم « حلفاء » الولايات المتحدة في المنطقة . وثمة انتقادات خارجية تتساءل عن جدوى هذه الاستراتيجية في مواجهة انقلابات او ثورات خاطفة لا تجد الولايات المتحدة ازاءها إلا أن تقنع بموقف المتفرج ؛ وهذا ما حدث ، مؤخراً، في أفغانستان. وهو نفسه ما حدث في ليبيا، عام ١٩٦٩ ، وأفقد الولايات المتحدة احدى أهم قواعدها في ذلك الوقت (قاعدة هويلس) . ويذهب نقاد آخرون الى أن الاستراتيجية المبنية على « قوة التدخل السريع » انما تنطلق من مقدمة « أسوأ سيناريو ممكن » ، وهو السيناريو الذي يفترض أن الاتحاد السوفياتي سيتدخل عسكرياً وبصورة مباشرة في الخليج العربي لغزو حقول النفط . وهو افتراض يعتبره المحللون الغربيون (وفق رواية « نيوزويك » الاميركية) بعيد الاحتمال الى درجة عالية .

وفي هذا الصدد كان تعليق المعلق العسكري الاسرائيلي نيمرود توفيك القائل : « ان التهديد المباشر لشيوخ النفط ليس الجيش الأحمر ، انما هو عصبة من الثوريين الذين يرعاهم الروس ... » وحتى أصحاب استراتيجية قوة التدخل السريع ، أنفسهم يقولون ان القصد منها هو « ردع العدوان ، وليس التغلب عليه . فالغالب أن السوفيات يملكون تفوقاً في أية مواجهة بالاسلحة التقليدية على الأرض مع القوات الأميركية حول الخليج » . ويقول أحد مخططي « البنتاغون » ، بصراحة : « من الواضح أن لواءً واحداً اميركياً لن يضرب أي قوة مؤلفة من ست فرق سوفياتية تجتاح ايران » .

مع ذلك فقد خطت هذه الاستراتيجية ، على الصعيد التنفيذي ، خطوة كبيرة الى الأمام ، في بدء المناورات المشتركة بين سلاحي الجو الاميركي والمصري (١٠ تموز (يوليو) التي أجرتها طائرات السلاحين من طراز ف - ٤ فوق قاعدة « القاهرة - غرب » . وهي مناورات من المقرر أن تستمر ٩٠ يوماً ، وتتضمن ، الى جانب التحليقات المشتركة ، تدريبات بالذخيرة الحية . وقد وصف الرئيس المصري أنور السادات نفسه هذه المناورات بأنها « تدريب على تكتيكات المعركة والتكيف مع أجواء الشرق الأوسط » . لكن الأهم من هذا ما قاله الكولونيل ايد ريديكا - من السلاح الجوي الأميركي - ان « مستوى التنسيق بين البلدين [الولايات

المتحدة ومصر] ، في الأشهر الثلاثة المقبلة ، يفوق اي معدل وصل إليه التعاون بين سلاحي الجو الأميركي والاسرائيلي » («وكالات الأنباء » . ١٠ / ٧ / ١٩٨٠ .

والواقع ان استجابة النظام المصري للاستراتيجية الأميركية الجديدة في الشرق الأوسط ، تمثل أقصى الاستجابات المواتية من « حلفاء » الولايات المتحدة في المنطقة . بخاصة منذ أن أعلن الرئيس السادات انه مستعد لمنح كافة التسهيلات للولايات المتحدة للتصدي لأي خطر في الخليج . وكذلك اعلانه اللاحق ، في حديث مع صحيفة « واشنطن بوست » (١٩٨٠/٥/٢٥) انه طلب من الولايات المتحدة أن ترسل مقاتلاتها من طراز ف ـ ١٥ وغيرها من الاسلحة المتطورة لترابط بصورة دائمة في مصر ، كي تسلم فوراً الى القوات الأميركية في أوقات الأزمات في الشرق الأوسط . وقال السادات في هذا الحديث : « حالما تختارون المجيء ارسلوا قواتكم بدلاً من ان تضطروا لخطوط تموين واتصالات طويلة » .

ويصدد استجابة مصر ، التي تشكل الحد الاقصى من التعاون مع الاستراتيجية الأميركية الجديدة في المنطقة ، فقد نسب الى « مصادر دبلوماسية عليمة في القاهرة » ان الحكومة المصرية تلقت مؤخراً عدداً غير معروف من الصواريخ الأميركية من طراز « بيرشنغ » ، وذلك ضمن حمولة الجسرين الجوي والبحري الأميركيين اللذين حملا الى الموانىء المصرية الاسلحة والمعدات اللازمة للمناورات التدريبية المشتركة بين سلاحي الجو المصري والأميركي .

وان صح هذا النبأ فإنه يكسب الاستجابة المصرية دلالة خاصة ، حيث يؤكد على الأقل ، رغبة الولايات المتحدة في أن تقول لمعارضي وضع صواريخ « بيرشنغ » في أوروبا الغربية ـ حتى لا تكون هدفاً لضربات انتقامية سوفياتية ـ إن هناك « حلفاء بديلين » غير بعيدين ، بأي حال ، عن أوروبا ولا عن الأهداف السوفياتية . أما ، على الأكثر ، فان ارسال صواريخ « بيرشنغ » الى مصر يمكن أن يعني أن الولايات المتحدة قررت نهائياً العودة الى استراتيجية احاطة الاتحاد السوفياتي بسلسلة قواعد قريبة ، ومدّ نطاق مظلة حلف الأطلسي كي لا يقتصر على اوروبا الغربية ، وبخاصة بعد كل ما أبدته وتبديه أوروبا الغربية من معارضة لرأي الولايات المتحدة ، ومن رغبة في الاحتفاظ بعلاقات وثيقة مع الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية . وبصفة أخص ازاء اقتناع « الحلفاء » الأوروبيين بأن سبيل الاستقرار في الشرق الأوسط سياسي ... وأن هذا السبيل السياسي يحمل عنواناً رئيسياً هو : « ايجاد حل للمسألة الفلسطينية ضمن تسوية شاملة في الشرق الأوسط » .

لكن إن كانت مصر تشكل النقطة القصوى لتأييد الاستراتيجية الاميركية الجديدة في الشرق الأوسط ، فإن استجابات غيرها من « حلفاء » الولايات المتحدة في المنطقة ، في بعض الأحوال ، أدنى من ذلك ، بكثير . فالاسرائيليون لا يبدون ارتباطاً كاملاً ، فهم يعتبرون أنهم فقدوا تفردهم بالعلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة . كما أنهم يشاركون في الخوف من أن تكون الاستراتيجية الاميركية الجديدة مجرد مزايدة انتخابية ، أو مظاهرة استعراضية لتهدئة خواطر النظم والحكام الذين أفزعهم عجز الولايات المتحدة إزاء سقوط نظامها في ايران ، وازاء هزيمة الصومال على ايدي اثيوبيا (الماركسية) . ثم ازاء دخول السوفيات الى أفغانستان . ويشكو الأميركيون من أنهم لا يجدون استجابات مؤاتية ، بصورة كافية ، من كثير من أصدقائهم في المنطقة ، ممن يفضلون الحصول على امتيازات المظلة العسكرية الاميركية ، على ان تظل ركيزتها بعيدة حتى لا يسمح أي وجود عسكري أميركي مباشر في زيادة حالة عدم استقرار داخلي ، بدلاً من أن يساعد هذا الوجود على تحقيق مثل هذا الاستقرار . وليس بعيداً عن جو عدم الثقة بقُدرات الولايات المتحدة ، في نظر « حلفائها » في المنطقة ، شعورُهم بعجزها عن « البلوغ بعملية السلام الأميركية في المنطقة الى غاية نهائية » . سواء لضعفها أمام اسرائيل أم لعدم اهتمامها بازاحة الحرج الذي يتعرض له هؤلاء « الحلفاء » من وراء استمرار الولايات المتحدة في دعم اسرائيل على طول الخط .

ان الشك في قدرة « الخيار العسكري » لدى الولايات المتحدة يصل الى حد التحذير من أن هذا الخيار نفسه ـ مهما كانت عواقبه العسكرية ، نجاحاً أو فشلاً ، يمكن « ان يوحد الشرق الأوسط في نزعة عداء عنيف للغرب ... ما لم يظهر أن هذا الخيار لا يحمي المصالح الغربية وحدها ، بل يحمي أيضاً أمن الخليج نفسه » . (« المسح الاستراتيجي » ، المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ، ١٩٧٩)

أكثر من هذا ، إن لجوء الولايات المتحدة - متأخرة في نظر « حلفائها » الى الخيار العسكري إنما يؤكد شعورها بأنها لا تملك خيارات أخرى للتأثير على مجريات الأمور في المنطقة كتلك الخيارات التي يملكها الاتحاد السوفياتي ، والتي تملكها « القوى المعادية للمصالح الأميركية في المنطقة » على اختلاف الوانها وظلالها ، من الشيوعيين الى « الخمينيين » .

إذن فنحن أمام معادلة بسيطة بالفعل - على قدر تعقد الواقع الذي تعبر عنه - وهي أن الولايات المتحدة قد وجدت نفسها أمام « الخيار العسكري » بلا خيارات أخرى . فهي لم تستطع أن تفرض ، من خلال أي خيار آخر ، نظام كامب ديفيد القائم في أساسه على خيار « المفاوضات المباشرة » (أي الأسلوب السلمي) ، وهي أيضاً لم تستطع ان تنال ثقة وتصديق الاطراف الحليفة لها ، في المنطقة وخارجها ، في كيفية مواجهتها للتطورات الحادة . مثل ايران وأفغانستان ، وهي لم تستطع ، أصلاً ، وبواسطة خيارات غير « الخيار العسكري » أن تحافظ على النظم والأوضاع التي تضمن استمرار « مصالحها » ؛ وايران خير مثل على ذلك

ويصبح الطرف الآخر ، الخفي ، من المعادلة أن الولايات المتحدة تريد ، من خلال « الخيار العسكري » ، لا أن تواجه الاتحاد السوفياتي في منطقة الشرق الأوسط والخليج العربي ، انما تريد ان تفرض بالقوة العسكرية (ربما بمجرد وجود هذه القوة العسكرية دون استخدامها ، وربما باستخدام هذه القوة فعلياً) نظام كامب ديفيد للسلام على الاطراف التي تقبله سلمياً ، أو التي عجزت لأسباب داخلية عن قبوله .

يعني هذا ، بتعبير أكثر مباشرة ، أن « الخيار العسكري » الذي تمثله الاستراتيجية الاميركية الجديدة في الشرق الأوسط واداتها (قوة التدخل السريع) موجّه ، في الأساس ، ضد القوى الكامنة في المنطقة التي تعتبرها الولايات المتحدة قوى غير مؤاتية لمصالحها . وبهذا المعنى لا يكون « الخيار العسكري » سوى عودة إلى سياسة فرض النظم السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية التي تخدم المصالح الخارجية ، بمواجهة ، ضد القوى الداخلية التي لا تتطابق مصالحها مع تلك المصالح الخارجية . إذن فالمواجهة ليست مع الاتحاد السوفياتي ، انما هي مواجهة مع القوى المحلية التي يمكن ان« تهدد » المصالح الأميركية والمصالح المرتبطة بها... اي مع شعوب المنطقة وقواها الثورية والتحررية .

قد تتطلب هذه المواجهة اثارة حروب « ذرائعية » في المنطقة تتمكن خلالها « قوة التدخل السريع » من اداء دورها في تثبيت نظم ، وحماية حكومات ، أو العمل لاسقاط نظم والتآمر على حكومات ؛ ولكن هذا لا ينفي الطابع الأساسي للاستراتيجية الأميركية في توجهها الجديد في المنطقة ؛ وهو التوجه لمنع تكرار ثورة ايران، وبخاصة حيث تسود اوضاع شبيهة بتلك التي أدت الى ثورة ايران ، والى سقوط الشاه . ومن هنا المفهوم القائل ان قوة التدخل السريع هي « قوة رادعة » اكثر منها قوة للتغلب على الخطر بعد وقوعه . ومن هنا أيضاً القول بأن الأهداف الرئيسية لتقسيم العمل بين أطراف « كامب ديفيد الثلاثة - الولايات المتحدة واسرائيل ومصر - » هي الحيلولة دون انتشار الخمينية ، ودون تقدم الشيوعية في اعقابها » .

ولهذا فإن كل « حليف » للولايات المتحدة ، في المنطقة ، تقاس درجة تأييده للاستراتيجية الاميركية الجديدة وحماسه للاشتراك فيها بدرجة حاجته إلى وقف « الخطر الداخلي » (سواء سُمِّيَ هذا الخطر خمينية أو شيوعية) . ولهذا يبدو نظام السادات في المقدمة ، تليه اسرائيل التي تبدي حرصاً مطلقاً على ان تصور للرأي العام العالمي (الاميركي بخاصة) أن الثورة الفلسطينية وهدفها - اي الدولة الفلسطينية المستقلة - هما الخطر الخميني والشيوعي معاً . ويقل بعد ذلك - حماس (نظم) أخرى في المنطقة لأنها تشعر بأن الوجود العسكري الاميركي - بحجمه وحدوده - يقرب الخطر أكثر مما يبعده . ومع ذلك فإن ما يجمع بين المتحمسين للاستراتيجية الأميركية الجديدة والأقل حماساً لها ، في الشرق الاوسط من الخليج العربي ، هو التسليم بفرضية أساسية تقوم عليها هذه الاستراتيجية ، وهي ان الخطر الوشيك هو خطر الثورة ، وان الخطر الآجل هو خطر الصهيونية . وهي الفرضية نفسها التي تأسست عليها سياسة نظام أنور السادات بعد الانتفاضة الشعبية في مصر ، اوائل العام ١٩٧٩، ففتحت الطريق في أواخر العام نفسه امام زيارة القدس ، ثم اتفاقات « كامب ديفيد » فمعاهدة واشنطن المصرية - الاسرائيلية . وأخيراً « المناورات المشتركة » ضد الخطر المشترك . ضد الثورة .

سمير كرم

يصدر قريباً
عن مركز الابحاث

تاريخ الطبقة العاملة الفلسطينية
١٩١٨ - ١٩٤٨

تأليف
عبد القادر ياسين

صدر حديثاً
عن مركز الابحاث

القضية الفلسطينية في ايديولوجية
البورجوازية اللبنانية
مدخل الى نقض الفكر الطائفي

تأليف
مهدي عامل

٢٥٤ صفحة **الثمن ١٣ ل.ل.**

Palestine Affairs

No. 105, August 1980

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

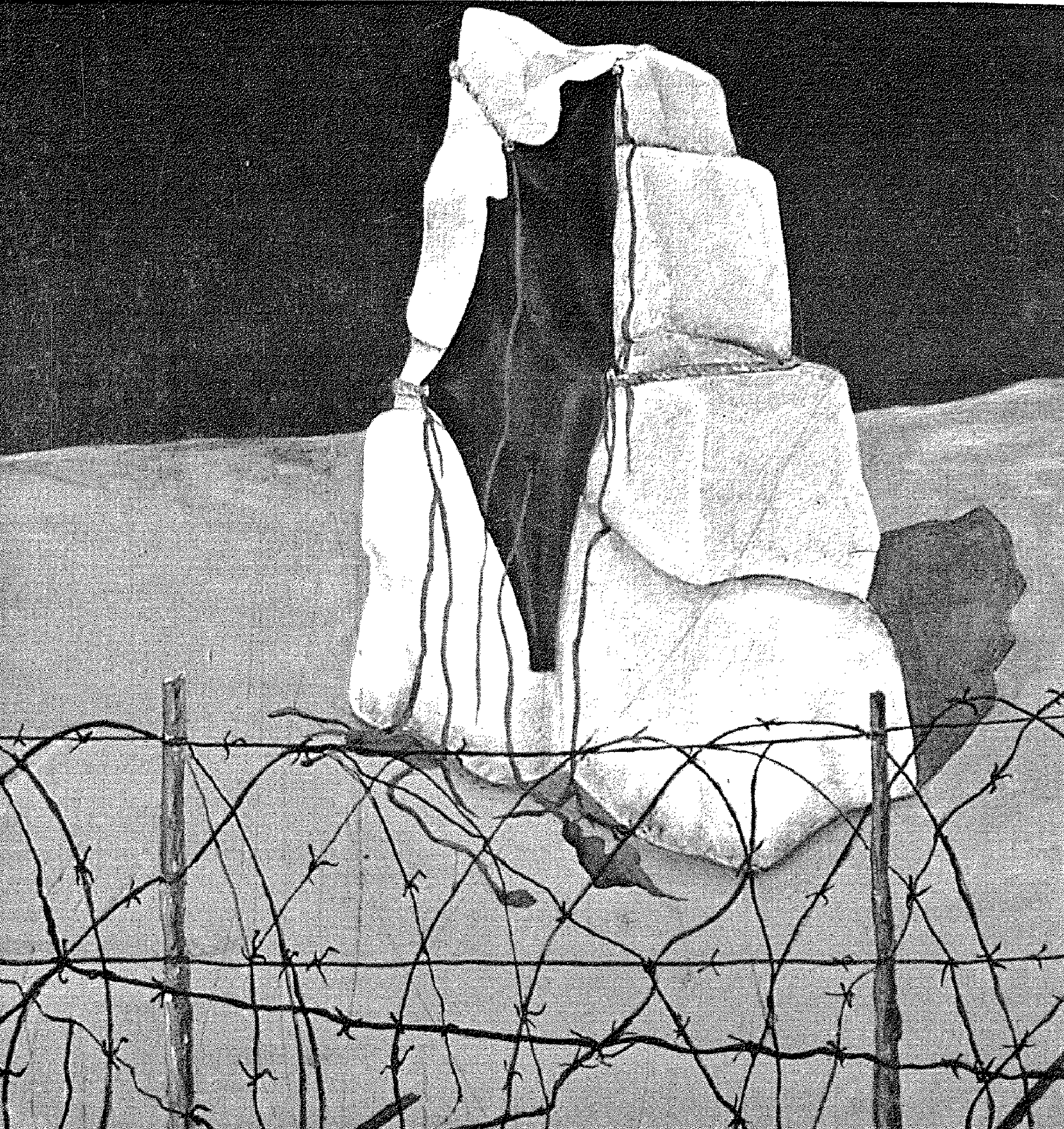
Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

الثمن : ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الإمارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهماً في ج.ع.ل
٧٥٠ درهماً في المغرب

شؤون فلسطينية

١٠٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٨٠



شؤون فلسطينية

١٠٦ | أيلول (سبتمبر) ١٩٨٠

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

المحتويات

لوحة الغلاف من اختيار الاتحاد العام للفنانين التشكيليين الفلسطينيين للفنان **ضاهر زيداني**

المدير العام : صبري جريس * **رئيس التحرير : محمود درويش**

سكرتير التحرير : فيصل حوراني

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر . شارع كولومباني (متفرع من السادات) رأس بيروت ـ لبنان ، ص . ب . ١٦٩١ . تلفون التحرير والتوزيع : ٢٥١٢٦٠ . برقيا : مرابحات . بيروت .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ل .ل . في لبنان وسوريا . ٧٥ل .ل . في سائر الاقطار العربية . ١٠٠ل .ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل .ل . في جميع الدول غير العربية .

د. أحمد صدقي الدجاني

أفكار

دخولنا في ثمانينات هذا القرن يفرض علينا تجاه قضايا أمتنا العربية ، وفي مقدمتها قضية الصراع العربي الإسرائيلي ، أن نقف وقفة تأمل ومحاسبة ، متفاعلين مع بُعد الزمان ـ أحد الأبعاد الأساسية في صنع الأحداث ـ نراجع فيها حصيلة عملنا ، ونتشوف فيها المستقبل الذي نناضل لصنعه ، لنصل ، من خلال ذلك ، إلى أفكار محددة ننطلق منها في نضالنا ، وتكون لنا هدى في مسيرتنا لبلوغ أهدافنا .

إن من أهم الحقائق التي تبدو لنا ، في مطلع الثمانينات ، بارزة على مسرح الأحداث ، في منطقتنا العربية ، هي حقيقة أن الصراع العربي الإسرائيلي لا يزال محتدماً بعد إبرام اتفاقيات كامب ديفيد أواخر السبعينات ، وأن النضال الفلسطيني ، كجزء من النضال العربي في مواجهة الأحتلال الإسرائيلي لفلسطين ، يتصاعد بقوة مع تزايد مقاومة شعبنا في الوطن المحتل ، وتزايد قوة الثورة الفلسطينية على جميع الصُعد ، وخصوصاً الصعيد الدولي . وستحكم هذه الحقيقة بشقيها مجرى الأحداث في ساحتنا وفي منطقتنا ، على مدى سنوات العقد القادم ، كما ستؤثر تأثيراً واضحاً على مجرى الأحداث في عالمنا .

يمكننا ، على ضوء هذه الحقيقة ، وضمن وقفة التأمل والمحاسبة المطلوبة ، ومن خلال إعمال الفكر في الصراع العربي الإسرائيلي وفي مسيرتنا الثورية ، أن نصل إلى مجموعة أفكار تستحق منا عناية فائقة ، وفهماً عميقاً : لأنه بقدر ما نتمثل هذه الأفكار ونسير على هداها في نضالنا ، بقدر ما نمكّن هذا النضال من الإنتصار وبلوغ أهدافه .

أولى هذه الأفكار فكرة تتعلق بمفهوم الثورة والعمل الثوري . ونلاحظ ، بداية ، أن هذا المفهوم يتصف بالغموض عند كثيرين ، ممن يعيشون الثورة ويرددون هذا اللفظ ومشتقاته؛ وذلك لأن هؤلاء لم يكوِّنوا مفهوماً واضحاً محدداً وشاملاً للثورة والعمل الثوري .

هل يمكننا القول ، في محاولة لتحديد هذا المفهوم ، ان الثورة هي رفض لأمر واقع مفروض وأن هذا الرفض يتجسد في عمل ثوري تنمو الثورة مع إستمرار وتتصاعد ، فتشق طريقها

لتغيير هذا الأمر الواقع؛ وتعبر، وهي تنمو، مرحلة تلو أخرى حتى تبلغ مداها وتحقق أهدافها وتستقر ببناء واقع جديد.

إن هذا التحديد يعنى أن أنطلاق الثورة يقتضي موقفاً رافضاً ، ولكن نموها لا يتحقق إلا بإرادة الفعل التي تتجسد في عمل يُغيرّ ويوجد حقائق جديدة فيوصف بأنه عمل ثوري . ولا يكتمل أنتصار الثورة إلا بتشوف المستقبل وبناء الواقع الجديد المطلوب .

والثورة ، بالنظرة الشاملة لها ، تعتمد الكفاح المسلح منطلقاً تنطلق منه إلى عمل ثوري شامل ، في شتى مجالات حياة المجتمع وحياة الفرد ، يعزز الكفاح المسلح ويتكامل معه . ويتضمن هذا العمل انشطة فكرية وإجتماعية وإقتصادية وثقافية وإعلامية وفنية ورياضية وصحية ؛ كما يتضمن عملاً سياسياً يحكم ذلك كله ويوظفه لبلوغ أهداف الثورة .

العمل الثوري إذن كل متكامل ، لا يقوم الكفاح المسلح فيه بدوره إلا إذا ساندته الانشطة الأخرى وحكمه العمل السياسي . ومن المعلوم أن الفرد المقاتل ، في الصف الأول ، يحتاج إلى عدد من الأفراد يتكاملون معه كي يقوم بواجب القتال . وهذا ما يفسر كيف أن بروز فكرة الكفاح المسلح سرعان ما توصل إلى الأعتقاد بضرورة بناء المؤسسات الأخرى اللازمة لإستمرار الكفاح المسلح صحية كانت أو إجتماعية أو ثقافية أو إقتصادية أو إعلامية أو فنية . وهكذا تتفجر الثورة حياة نابضة في جميع أطراف جسم المجتمع وتمثل الولادة الجديدة .

هذا التكامل في العمل الثوري يجب أن يقترن بتحقيق التوازن بين جوانب نشاطاته المختلفة كي يحقق هدفه . وهنا تبرز قدرة القيادة الثورية التي تحرص ، من خلال نظرتها الشاملة ،على تحقيق التكامل في العمل الثوري ، وتتقن ، من خلال ادراكها لمتطلبات العمل تحقيق التوازن المطلوب . ومن الواضح إن الأخلال بهذا التوازن يسيء إلى العمل ويعرقل نجاحه ؛ ومن الواضح أيضاً أن الكفاح المسلح يبقى محور العمل الثوري وواسطة العقد فيه ، وهناك علاقة جدلية تقوم بينه وبين النضال السياسي ينبغي ادراكها ، ومن ثم يجب الأنتباه إلى عنصر التوقيت ، في التحرك بينهما ، لكي يوصل التوازن إلى التناغم الذي يحقق وحدة العمل الثوري ، تماماً كما هو عليه الحال في التأليف الموسيقي .

إن النضال السياسي قادر على توظيف نتائج الكفاح المسلح ، كما أنه يمهد لتصعيده بتهيئة المناخ الصالح لذلك . ولن يثمر العمل السياسي ، مهما كثفنا الجهود فيه ، إذ لم ينطلق من قاعدة الكفاح المسلح الصلبة . ولن يكون مردود العمل السياسي متناسباً مع الجهد الذي بذل فيه ، إذا تم في وقت كان ثقل الثورة العسكري فيه ضعيفاً . وأن غياب الهدف السياسي عن أي عمل عسكري قد يوصل إلى نتائج سلبية . ولن يجدي النشاط الأعلامي مهما أتقنا فن الإعلام إذا لم يكن منطلقاً من قوة قائمة ، وهو ضروري للغاية لنمو هذه القوة ، حين تقوم .

آن علينا ، في وقفة التأمل والمحاسبة ، أن نعتمد النظرة الشاملة في رؤية الثورة والعمل الثوري ، كي نعمق مفهومنا لهما ، وننجو من أخطار إعتماد النظرة الجزئية ، ونمكن الثورة من الأنتصار من خلال عمل ثوري متكامل متناغم .

الفكرة الثانية تتعلق بمكان الفكر من الثورة ومن نشاطات الحياة الإنسانية عامة وهي تعبر عن قناعة مؤداها ، ان مكان الفكر بالنسبة للثورة هو كمكان الرأس من الجسم ، والفكر مطلوب في شتى مجالات العمل الثوري . وهناك فكر عسكري وفكر سياسي وفكر تنظيمي وفكر إعلامي . ولا بد للفكر من أن يحكم الثورة والحياة الإنسانية بصورة عامة كي يتحقق النجاح في العمل ويحقق الإنسان انسانيته . ذلك أن الله ميّز الإنسان بالقدرة على التفكير وأكرمه بالعلم . فكان أن شيّد الحضارات وصنع التقدم .

ولو تأملنا ، في كثير من ظواهر الحياة الإنسانية ، لرأينا أثر الفكر فيها . لنأخذ مثلاً ، ظاهرة الأستعمار ما دمنا نتحدث عن الثورة على الأستعمار ، فنجد أن المستعمر ـ بكسر الميم الثانية ـ وظف الفكر ليسيطر على المستعمر ـ بفتح الميم الثانية ـ فقام بدراسته ومعرفة كلّ ما يتعلق به. ثم ابتدع طرق التحكم فيه . وأنشأ المؤسسات اللازمة لهذه الدراسة ولهذا التحكم . ولقد كان يلفت انتباهنا دوماً ، ونحن ندرس تاريخ الاستعمار الأوروبي ، الدور الذي قامت به جمعيات الكشف الجغرافي والرحالة الذين تبنّتهم هذه الجمعيات في عملية الاستعمار . وكذلك الدور الذي قامت به مؤسسات إدارة المستعمرات . وكنا نقف أمام فكرة القابلية للإستعمار عند الشعوب المستعمرة ـ بفتح الميم الثانية ـ التي طرحها في الخمسينات الأستاذ مالك بن نبي ليشير إلى أن ضعف هذه الشعوب سبق تحكم الإستعمار فيها ، وان الاستعمار من ثم هو نتيجة لهذا الضعف وليس السبب كما يتردد في المجتمعات المغلوبة . وإن كان هذا الضعف يتفاقم ، بعد ذلك ، بسبب الاستعمار . وواضح أن القابلية للاستعمار هي نتيجة حتمية لتعطيل الفكر عن القيام بدوره والقعود عن التفكير . وهي تؤدي إلى أن ينقاد شعب إلى ارادة شعب آخر قد يكون أقل منه عدداً ولكن أقوى منه فكراً ومؤسسات ، تماماً كما تنقاد جمال القافلة لصبي صغير يمسك بزمامها ويمشي في مقدمتها . فالعبرة هنا ليست بالحجم وإنما بالفكر الذي يتحكم فيه . ولقد سبق إلى إبراز هذا المعنى شاعر عربي مخضرم هو العباس بن مرداس السلمي حين قال :

لقد عظُم البعيُر بغير لب ... فلم يستغن بالعظم البعير
يُصرّفه الصبي بكل وَجْه ... ويحبسه على الخسف الجرير
وتضربه الوليدة بالهراوي ... فلا غيُر لديه ولا نكير

ونتأمل في ظاهرة الثورة فنجد الأثر الواضح للفكر في صنعها . وكم وقفنا أمام المعنى القائل : إن الظلم وحده لم يكن كافياً لتفجير الثورة ، ولكن الشعور بالظلم ، الذي تبلور من خلال شرح أصحاب الرأي المفكرين ، هو الذي فجرّ بركانها . كذلك فإن إنتصار الثورة كان يتم ، دوماً ، بفضل قيادات وعت دور الفكر واتقنت الإستفادة منه في توظيف طاقات الثوار خير توظيف من خلال بناء مؤسسات تنظم عملية الإستفادة وتكفل إستمرارها .

إن غياب عملية التفكير ، في مجتمع ما ، توجد فراغا لا بد من ملئه ، إما بإجترار أفكار قديمة بالية لا تحسن التعامل مع ظروف الحاضر ، لأنها وليدة ظروف مختلفة عن ظروف الحاضر ، وإما بتبني أفكار صنعها له آخرون درسوه وفكروا في كيفية قيادته ، وتلك هي التبعية الفكرية . وهكذا يصبح المجتمع نهباً بين ظاهرتي الإنكماش والإنغماس .

وتلفت النظر العلاقة التي تقوم بين مجتمع يفكر من خلال مؤسساته ، ومجتمع ينتقد وجود هذه المؤسسات ويعاني من عجز عن التفكير . فالعلاقة التي تقوم تذكرنا بالعلاقة بين قطب موجب وآخر سالب : حيث لا بد أن يتدفق التيار من الأول إلى الآخر . **ونوجز القول : إن قوة مجتمع ما إنما تتجسد ، في النهاية ، بما لدى هذا المجتمع من قدرة على التفكير ، ومن مؤسسات تنظم صنع هذه القدرة وتمكنُ من حشد طاقات المجتمع وتوظيفها في عملية التعامل مع المجتمعات الأخرى** . وإن ما يصدق على المجتمعات ، في هذا الصدد ، يصدق على الأفراد . فالفرد الذي يفكر بطريقة علمية صحيحة هو فرد قوي قادر ، وهو في علاقته مع مثيله ند ، وفي علاقته مع آخر لا يفكر متفوق وقائد .

لا بد لنا ان نشير هنا إلى الصلة الوثيقة القائمة بين عملية التفكير ومناخ الحرية الفكرية الذي تترعرع فيه . فهذا المناخ يشجع على الابداع وعلى الخروج من أسر التقليد ، ويتيح للزهور أن تتفتح .

إن تعطيل الفكر عن القيام بدوره ، سواء على صعيد الفرد أو على صعيد المجتمع ، **يورث مصائب ورزايا ، من بينها انعدام الثقة بالنفس ، والعجز عن الفعل . والعيش في أوهام أخطار غامضة . والرزوح تحت نير عقدة الأضطهاد . وفقدان القدرة على التعليل وعلى الربط بين السبب والنتيجة . وربط الظواهر بعضها بالبعض الآخر . واللجوء إلى الاطلاق وإصدار الأحكام العامة** . ويمكننا أن نورد أمثلة كثيرة على كل ظاهرة من هذه الظواهر .

يلفت نظرنا عند الأفراد الذين عطلوا فكرهم خوفهم من الأتصال بالعالم الخارجي ، وتصورهم أن كل من تجاوز مجتمعه واتصل ، أو فرض عليه الأتصال ، فإنه واقع لا محالة في براثن اجهزة خفية . وعجزهم عن طرح أية أفكار ومبادرات . فإن طرحت عليهم فكرة أو مبادرة جابهوها برد فعل يبقى أسير الشك والانفعال ، وحديثهم المستمر عن مؤامرات تحاك دون تحديد لطبيعة هذه المؤامرات ولتفاصيلها ولكيفية مواجهتها ، واعتقادهم أنهم هدف لإضطهاد دائم هو السبب فيما يواجههم من فشل وما يعتريهم من عجز . وأعتمادهم الأحكام العامة والشعارات المطلقة دون بذل الجهد الفكري في تحليل الظواهر والوصول إلى نتائج محددة .

ما زالت الحياة السياسية ، في وطننا العربي ، تعاني ، إلى حد ليس بالقليل ، من غياب الفكر عنها : الأمر الذي يتيح لهذه العلل أن تظهر على سطحها . الناس فيها يصنفون تصنيفات عامة حسب المكان ، أو المعتقد ، أو الحرفة دون تعمق . والأحداث تنسب لقوة خارجية كانت وراء صنعها،هي ، دائماً ، قوة غامضة خارقة . والأفراد ينظر إليهم كضحايا سهلة الاقتناص سرعان ما تقع في احابيل القوى الخارجية ، أن كانوا من العرب ، وينظر إليهم كشياطين لهم قدرات الجن ، إن كانوا من أجناس أخرى . وحين نفكر في مسؤولية إستمرار وجود هذه العلل نجد أن السلطة ساهمت في خلقها : وذلك بحرمانها المجتمع من مناخ صحي تترعرع فيه حرية الفكر ، ونجد أن بعض رجال الفكر قد ساهموا كذلك بمسايرتهم للسلطة رغبة أو رهبة . **ولعل من أعظم ما أسهمت به الثورة الفلسطينية ، ضمن عطائها لأمتها العربية ، هو توفير هذا المناخ الصحي ، وإطلاق طاقات الثوار ليعبروا عن ذواتهم ويطلقوا العنان لأفكارهم**

ويثقوا ، من ثم ، بقدراتهم ويتعاملوا مع الأخطار ومع ما حولهم بطريقة عملية .

مطلوب ، إذن ، أن نؤكد على الدعوة إلى أن يحكم الفكر المواقف السياسية ، وأن يسهم في تحديد نظراتنا فيوجه عملية صنع المستقبل العربي كجزء من مستقبل عالمنا ، إنطلاقاً من إحساس قوي بمسؤولية الفكر ومسؤولية المفكرين في توضيح الرؤية وتحديد معالم الطريق لجماهير شعبنا المناضلة ، ومن إدراك أهمية الوضوح الفكري في دفع حركة الثورة ، ومن ثقة بما يمكن لهذا الفكر أن يقدمه من أجل خير الإنسان في الوطن العربي وفي العالم .

ولا بد من أن نذكّر بأن الإستمرار في شق هذا الطريق ، والالتزام بالسير فيه ليس بالأمر السهل ، في وقت لا تزال معالجة الأمور السياسية فيه تعاني من غلبة العاطفية عليها ، وفي وقت لا تزال الكتابة السياسية فيه تعاني من تأثير السلطة المباشر عليها : الأمر الذي جعل الكثير منها أسير المدح والهجاء ، فقلّت ثقة القارىء بها وزاد تجرؤ السلطة عليها .

إن مكان الفكر من السلطة هو مكان الرأس من الجسم ، ودوره الحقيقي أن يوجه السلطة الوجهة الصحيحة ، وأن يقف دوماً في القمة ليستشرف الصورة كاملة ، ويتغلغل بنظراته في الأعماق ليدقق في تفاصيلها فيوفر للسلطة وضوح الرؤية والعقل . وفي اللحظة التي يختل فيها موقع رجال الفكر من الدولة ، يختل سير الجسم . وفي اللحظة التي يتخلى رجل الفكر فيها عن دوره يخرج من دائرة العلماء الذين حفظنا لهم في تراثنا منزلة «ورثة الأنبياء » .

الفكرة الثالثة تتعلق بإرادة الفعل والقدرة عليه ومؤداها أن قيام الفكر بدوره ، في الحياة الإنسانية عموماً وفي الثورة خصوصاً يولد إرادة فعل تكون قادرة على تغيير الواقع وعلى إيجاد حقائق جديدة . ويُحكّم منطق الفعل .

إن إرادة الفعل هذه التي تنتقل بالثورة من الموقف الرافض إلى مباشرة عملية التغيير وأتباعها ومن ثم بعملية البناء . وهي تتفاعل مع الواقع بإستمرار في « عملية » متحركة ديناميكية . وبهذه الإرادة يتحرر الإنسان من أسار منطق رد الفعل ، رفضاً كان أو قبولاً .

نؤكد هنا ما أوردناه تعليقاً على بقاء البعض في دائرة الرفض والقبول ، من أن شعبنا دلل في مناسبات كثيرة اثباره تجاوز هذه الدائرة ليختار موقف الفعل المبادر ضمن دائرة الإرادة الفاعلة ليغير الواقع المر ويصنع المستقبل . وننبه إلى أن منطق الرفض ومنطق القبول يلتقيان ، من وجهة نظر مجردة ، في كونهما رد فعل على مبادرة من الغير . بينما يعتمد منطق الفعل المبادرة الذاتية والتأثير ، من ثم ، على مجرى الأحداث . والثورة تعتمد هذه المنطق تعبيراً عن إيجابيتها .

إن إرادة الفعل هذه هي التي دفعت عجلة التقدم الإنساني ، وهي التي تميز القادة القادرين العمليين عن الأفراد القاعدين المتحسبين ، ممن يجلسون في مجالس القادة . وإن القدرة على الفعل هي ، في النهاية ، مقياس أساسي لصلاحية القيادة . فإذا كانت النية الصادقة عند القائد أمراً مهماً ، وكذلك رفع الشعارات التي تعبر عن هذه النية ، فإن الأهم هو تحويل هذه الشعارات إلى واقع وإيجاد حقائق جديدة . ونضرب ، مثلاً على ذلك ، المواقف التي تتخذ من قضية حيوية هي قضية الوحدة العربية ، فما أكثر الحديث الذي يتردد حولها ، وما أقل الحقائق

الوحدوية التي وجدت لتجسد هذا الحديث. أفلا ينبغي أن نجعل إيجاد هذه الحقائق هو المقياس الذي نقيس به صدق القول بالوحدوية ونقيس به جهد كل الوحدويين العرب في نضالهم اليومي ؟

إن العجز عن الفعل عند القادة يعني فشلهم ، مهما صدقت نواياهم . وإن **إرادة الفعل تعني التفاعل مع الأحداث في عملية متصلة**. ولا بد من إدراك طبيعة الحركة في هذه العملية المتصلة . وأذكر أن مناقشة جرت في ندوة علمية حول هذه النقطة وحول الحكم على مواقف القادة ، عرضت لتاريخ الحاج أمين الحسيني ، وتطرقت إلى نعي بعض من كتبوا عن تلك المرحلة على الحاج أمين قبوله منصب الافتاء في ظل الانتداب البريطاني ، وقولهم إن هذا الموقف يسجل عليه . وقد جاء التعليق على هذا القول : دعونا نفترض أن الرجل لم يقبل هذا المنصب ونتصور ماذا كان سيحدث . اول ما يتداعى إلى الذهن أن الرجل لن يكون عند ذاك المفتي الذي تولى زمام قيادة شعبه من موقع الافتاء ، ونجح في شحذ الهمم وإحياء القوة الروحية ، وتوظيف المجلس الأعلى الذي يشرف على الأوقاف لصالح المقاومة . إننا . في ظل هذا الأفتراض ، سنجد أنفسنا أمام سيرة أخرى . وإن **الحكم على المواقف التاريخية يجب أن يأخذ في الأعتبار بعدي الزمان والمكان ، وحقيقة أن أفكار تنمو وتتطور ضمن عملية متحركة « ديناميكية » ، كذلك فإن الحكم على القيادة التاريخية يجب أن يأخذ في الأعتبار قدرتها على الفعل وعلى الرؤية المستقبلية** !!

الفكرة الرابعة تتعلق **بالذات المستقلة وبالأصالة في الأنتماء** . ومفادها **أن اعتماد النظرة الشاملة في النظر إلى الأمور، وقيام الفكر بدوره في معالجتها، و إرادة الفعل و القدرة عليه في التعامل معها تصنع الذات المستقلة وتوجد الانتماء لهذه الذات فتتجسد الأصالة**

إن الفرد صاحب الشأن هذا، هو **ذات قائمة بنفسها أصيلة** ، تتميز عن الغير تماماً ، كما تتميز « **الأنا** » عن « الهوَ » . **ولا يمكن لهذا الفرد أن يكون « تابعاً »** ، **ولا يمكن له . قبل ذلك ، أن يكون « قابلاً للتبعية** » ، ولا يمكن له أن ينسب إلا لذاته . فهو « هو » وليس تابع هذا ، أو تابع ذاك . وما يصدق على الفرد هنا يصدق بصورة أقوى على المجتمع .

العكس صحيح أيضاً ، فأولئك الذين ليس هذا شأنهم ، هم ذوات تابعة تفتقد الأصالة وتدور في فلك الآخرين ، ولا تنسب إلا مقترنة بهم . **ومن مظاهر تبعيتهم أنهم لا يستطيعون تصور الذات المستقلة والأصالة في الإنتماء** ؛ لذا نراهم ينظرون إلى الآخرين بمنظار « التبعية » . وهذا ما يفسر كثرة تردد نعوت التبعية في المجتمعات المتخلفة عند الحديث عن أشخاص ، أو أحزاب ، أو تجمعات . يجري الحديث عن فلان فيقال : هو غربي الميول أو شرقيها ، أو يستخدم لفظ أكثر حدة فيقال هو كذا (نسبة إلى دولة أجنبية معينة) . وأحياناً يستخدم نعت بالغ الحدة فيقال هو عميل لهذه الدولة أو تلك . **ونلاحظ أن الحديث في كل الأحوال ينطلق من فكرة التبعية** . ويجري الحديث عن حركة أو ثورة فيكون أول ما يتبادر إلى ذهن هؤلاء أن يتساءلوا عن هويتها أغربية أم شرقية ؟ أهي تابعة لدولة كذا أو لدولة كذا ؟ ويلفت النظر أن الأوساط الإستعمارية تشجع هذا التوجه لدى هؤلاء وتنفخ فيه لأنه يمكنها من النفاذ ولأنه يغذي « القابلية للإستعمار » عند أصحابه .

يجب الإقرار ، بأسف ، أن الحياة السياسية في وطننا العربي تعاني من هذه الظاهرة إلى

حد ليس بالقليل ، وأن أمام جيلنا أن يناضل بقوة كي تبرز ذات أمتنا المتمثلة وأصالة انتمائها، وينتهي الشعور بالتبعية عند قطاعات فيها ، وينتهي عند ذلك « استلاب الهوية » .

إن الذات المستقلة ، مهما صغر حجمها ، لا يمكن أن تتعامل مع الآخرين إلّا على مستوى الند . وهي تعرف نفسها منطلقة من نفسها . وما يصدر عنها من أفكار نابع منها . وحين تتعامل مع الآخرين تعبر عن ذاتها وتتواصل معهم من خلال هذه الذات . وهي في حصن منيع ، بسبب ما تتصف به ، من إمكانية فقدانها ذاتيتها . ولديها الإرادة والقدرة ، للسبب نفسه ، على التعامل مع الآخرين تعامل الأنداد ، وعلى تبادل التأثير معهم . وهي ، لذلك كله ، تعتبر أن أكبر سبّة تلحق بها هي أن تنسب للغير .

وتتميز الذات المستقلة بأنها تحدد إنتماءها تحديداً واضحاً ، وتدرك بعمق دوائر هذا الأنتماء المتعددة ، والعلاقة بين هذه الدوائر ، والعلاقة بينها كوحدة وبين الذوات الآخرى .

إن ذات الثائر الفلسطيني ، مثلاً تبدأ من انتمائه لأسرة فلسطينية عاشت في حي من مدينة او قرية أو نجع ، وهي من ثم تنتمي لفلسطين ككل ، وهذه **دائرة أولى** . كما أنها تنتمي من خلال فلسطينيتها إلى الوطن العربي ككل باعتبار أن فلسطين جزء منه وأن شعب فلسطين جزء من أمته العربية ، **وهذه دائرة ثانية** ،وهي كذلك تنتمي إلى الحضارة العربية الإسلامية التي يعيش في ظلها الوطن العربي ، مع أوطان أمم أخرى مجاورة ، وهذه **دائرة ثالثة** . وأخيراً هي تنتمي إلى الإنسانية جمعاء مع مختلف أمم العالم وشعوبها ، وهذه **دائرة رابعة . وليس هناك من تناقض بين الأنتماء لهذه الدوائر معاً ، ولا بين الأنتماء الجغرافي والانتماء الحضاري والإنتماء العقيدي في هذه الدوائر** . ومن خلال هذا التحديد الواضح للانتماء تتحدد العلاقة مع الآخرين . ولا تقع هذه الذات في محذور **اصطناع تناقض** بين هذه الدوائر التي تحكمها علاقة تكامل . وهي تتجه إلى البحث عن نقاط اللقاء بين بني البشر في الدائرة الإنسانية لأن الله جعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا . وهكذا تتمّيز هذه الذات المستقلة بالأصالة والمعاصرة ، وتتجسد فيها روح الأمة وتاريخها وأحلام مستقبلها .

الفكرة الخامسة تتعلق **بالمراحل التي تمر بها الثورة ومتطلبات كل مرحلة** : ومؤداها **أن الثورة ، مثل كل عمل يطمح لبلوغ غاية محددة ، تمر بين بدايتها وبلوغ غايتها ، بمراحل لكل منها سماتها ومتطلباتها . ولقد عبرت الثورة الفلسطينية مرحلتين لتصل إلى المرحلة الراهنة التي نعيشها** .

في المرحلة الأولى ، حققت الثورة هدف التحامها بشعبها ، شعب فلسطين ، وكان تركيزها على الكفاح المسلح وعلى بناء كيانها الفلسطيني . وفي المرحلة الثانية ، حققت هدف التحامها بأمتها العربية ، ووصلت ، على الصعيد الرسمي العربي ، إلى اعتراف الدول العربية بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد لشعب فلسطين . وكان تركيزها ، في المقام الأول ، على الكفاح المسلح ، وعلى النضال السياسي في الساحة انعربية . ودخلت الثورة المرحلة الثالثة بشكل واضح بعد حرب رمضان عام ١٩٧٣ **ووضعت نصب أعينها بلوغ هدف الأعتراف الدولي بها ، لتنال الشرعية الدولية وتتوج نضالها ببلوغ هدفها المنشود : تحرير**

الوطن . وأصبح تركيزها ، في هذه المرحلة على الكفاح المسلح في الوطن المحتل وعلى النضال السياسي في الساحة الدولية . وكان طبيعياً أن يتأثر أسلوب الكفاح المسلح بطبيعة المرحلة الجديدة التي دخلتها الثورة فتنتهي ، مثلاً ، عمليات خطف الطائرات في الساحة الدولية ، وتتزايد عمليات النفاذ إلى الوطن المحتل ، وعمليات مقاومة الاستيطان الصهيوني . كذلك ، كان طبيعياً أنْ يتصدى النضال السياسي لقضايا جديدة مطروحة على الصعيد الدولي تتطلب المعالجة . وأصبح ملحاً أن يتم التعبير ، عن ذلك كله ، بلغة عالمية معاصرة تتمثل روح العصر وتأخذ ، في الاعتبار ، مفاهيمه السائدة .

إن نظرة مقارنة على شعارات الثورة وأدبياتها في كل من هذه المراحل تكشف لنا عن هذا التطور الذي طرأ عليها . فعلى صعيد لغة التعبير ، نلاحظ أن النبرة الوطنية الفلسطينية كانت هي الغالبة في المرحلة الأولى ، ثم ما لبثت أن اقترنت بالنبرة القومية العربية في المرحلة الثانية ، ومن ثم اقترنت بالنبرة الثورية العالمية الانسانية في المرحلة الراهنة . وعلى صعيد معالجة القضية ، نلاحظ أن التركيز بدأ على حق الفلسطيني في الثورة ، وحقه في وطنه ، وعلى حقيقة وجود شعب فلسطين ، ثم ما لبث أن تجاوز ذلك إلى حق المنظمة في تمثيل الشعب الفلسطيني وإلى حقوقه الثابتة غير القابلة للتصرف وإعتماد مبادىء الشرعية الدولية ومضامينها .

إن وضوح هذه الفكرة ، في اذهاننا ، يصل بنا إلى إدراك أن الكلمة التي نعبر بها عن أفكارنا تقترن بزمان هذا التعبير ومكانه . وكذلك الأمر بالنسبة للموقف الذي تشرحه الكلمة . إننا نلاحظ ، مثلاً ، أن تعبير دولة فلسطينية لم يظهر في مرحلة ما قبل نكسة ١٩٦٧ وكان التعبير السائد هو تحرير فلسطين وإبراز الكيان الفلسطيني . ثم ظهر بعد النكسة ولقي معارضة شديدة . وما لبث أن استقطب التأييد في اعقاب حرب ١٩٧٣ ، وأصبح هو التعبير السائد منذ عام ١٩٧٧ . كذلك ، نلاحظ أن نضالنا الفلسطيني اتخذ من الأمم المتحدة ، بفعل عوامل موضوعية ، موقفاً عدائياً ، على الأغلب قبل عام ١٩٧٣ ، ثم طرأ عليه تحول واضح ، بفعل عوامل موضوعية أيضاً ، فأصبح ساعياً لدخولها ، وتجسدَ هذا ، الموقف الجديد في دخول منظمة التحرير عضواً مراقباً في الأمم المتحدة عام ١٩٧٤ ؛ الأمر الذي أوصل بدوره إلى تحول واضح في توجه الأمم المتحدة نحو تبني الحقوق الثابتة لشعب فلسطين .

لقد سبب عدم وضوح هذه الفكرة عند الكثيرين ، ممن يخوضون غمار السياسة في الوطن العربي ، معاناة شديدة لأمتنا ، وتعثراً في مسارهم السياسي . فبقي هؤلاء أسرى كلمات تنسب لمراحل مضت ، وتعبّر عن مواقف ولت وانتهت . وهذا ما يفسر بقاء لغتهم باردة ساكنة لا تتحرك ، وقديمة بالية لا تتصف بالمعاصرة ، وتفتقر إلى تمثل روح العصر . ولعل الخطأ المميت الذي وقعوا فيه أنهم لم يفرقوا بين الكلمات التي تعبر عن أفكار مجردة تصدق في كل زمان ومكان ، وبين الكلمات التي تعبر عن أفكار مرتبطة بمواقف يدخل في صنعها عاملا الزمان والمكان .

إن وضوح هذه الفكرة يبين لنا أن هذا التطور الذي يحدث في الثورة هو ظاهرة إيجابية تُعبِّر عن نموها وتقدمها في طريق بلوغها أهدافها ، وعن حيويتها وفعاليتها وكونها حية

تنمو وتؤثر . وبالمقابل ، فإن عدم إدراك البعض لهذه الفكرة يصور لهم هذا التطور ، وكأنه تراجع من الثورة عن أهدافها ، ونكوص منها عن متابعة المسار : **الأمر الذي يوصلهم إلى التحرق العبثي وإلى أتخاذ سبل أخرى « تتفرق بهم » عن سبيل الثورة الموصل إلى الهدف .**

الفكرة السادسة والأخيرة تتعلق **بالعموميات والتفاصيل** ، ومفادها أن العمل الثوري ، حين يقوم على النظرة الشاملة ، ويعتمد الفكر ، ويُحكم منطق الفعل ، وينطلق من الذات ، ويدرك المراحل ، فإنه **يخرج من أسار التعميم والأحكام العامة ، ويتقن التعامل مع التفاصيل والربط بينها في عمليات التركيب والتحليل والتعليل والترتيب فيتصف بالعمق ويبلغ قمة التأثير** . ويكون ذلك شأنه في معالجة مختلف الظواهر والقضايا .

حين يجري البحث في **تحديد توجه العدو الإسرائيلي ، مثلاً** ، يجري تحديد دائرة العدو ، وترسم العلاقة بين اليهودية والصهيونية ، والعلاقة بين الإسرائيليين واليهود الآخرين ، وبين فئات التجمع الإسرائيلي المختلفة من غربيين « اشكناز » وشرقيين « سفارديم » ، ويهود عرب وصابرا ، ويجري تصنيف هذه الفئات على أساس حزبي ، وعلى أساس إرتباطهم بالمؤسسة العسكرية ، وتتم دراسة مختلف المؤسسات الأخرى : كما تدرس مؤسسات وتنظيمات الحركة الصهيونية بين يهود العالم . ناهيك عن دراسة الأوضاع الاقتصادية والعسكرية والإجتماعية والفكرية ، وهكذا . وحين يجري البحث في **سياسة أوروبا الغربية تجاه الصراع العربي الإسرائيلي ، مثلاً** ، لا يكتفى بالقول « إنها تتبع سياسة الولايات المتحدة الإميركية لأن أوروبا الغربية تقف تحت المظلة النووية الاميركية » ولا يسلم بهذا القول ، في عموميته ، وإنما ترسم خريطة دول أوروبا الغربية وخطوط علاقاتها ، فيما بينها ، ومع الولايات المتحدة ومع الاتحاد السوفييتي ومع دول الوطن العربي ، وهكذا . ويتعرف على تطور هذه السياسة وخلفيتها وعلى العوامل التي تحددها . وتتحدد المرحلة التي يمر بها التوازن الدولي . وتدرس سياسة أوروبا الغربية تجاه إسرائيل ودور القوى اليهودية الأوروبية في رسمها ، وهكذا .

وحين يجري البحث عن **علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل ، مثلاً ، لا يكتفى بالقول إن الصهيونية تحكم الولايات المتحدة ، أو القول إن إسرائيل هي الولاية الأخيرة من الولايات الاميركية** ، وغير ذلك من اقوال عامة ، بل يعمد إلى إجراء دراسة متعمقة تبحث في تاريخ العلاقة ، وفي الاستراتيجية الاميركية تجاه منطقة الوطن العربي ، وفي الدور المسند إلى إسرائيل في هذه الاستراتيجية ، وتتعمق في بحث اوضاع يهود الولايات المتحدة ، وتأثيرهم في المجال السياسي والمجالات الأخرى ، وتعرض لكيفية اتخاذ القرار السياسي ، الخ .. من تحليل وتركيب وربط بين السبب والنتيجة وتعمق في التفاصيل .

الأمر نفسه يصدق عند الحديث على **الصعيد العربي عن العمل العربي الموحد والعمل العربي الثوري** ، فلا يكتفى ، في تفسير المواقف ، بتصنيف رجعي وتقدمي وإنما يحدد بدقة المقصود بكل من المصطلحين والمقياس المعتمد في التصنيف . ويجري البحث في معنى العمل العربي الموحد والعوامل التي تتطلبه وكذلك معنى العمل العربي الثوري ، ويتعمق البحث

في دراسة التركيب الإجتماعي لأقطار الوطن العربي والعوامل المؤثرة في سياسة كل قطر، وهكذا. كما يصدق الأمر نفسه عند بحث **علاقة الصداقة مع دول المنظومة الاشتراكية مثلاً**، فلا يعمد إلى الأنطلاق من الفاظ عامة مثل العون غير المشروط والعلاقة الاستراتيجية، ولا يكتفى بالنظر إلى موضوع معين واحد مثل التأييد على الصعيد الدولي أو هجرة اليهود، وإنما يعتمد منهج البحث العلمي في تحديد طبيعة العلاقة ومجالاتها وحدودها وعلاقات كل من طرفيها مع القوى الاخرى، وخريطة القوى الدولية، الخ .. وهكذا.

إن إعتماد العمل الثوري هذا المنهج العلمي يعبِّر عن بلوغه قمة النضج، وهو دليل واضح على قدرته على بلوغه أهدافه وتحقيق النصر.

في وقفة التأمل والمحاسبة، بمناسبة دخولنا الثمانينات، تبرز هذه الأفكار، من خلال التجربة الغنية التي صنعها نضال شعبنا ونضال أمتنا، وبلورتها الثورة الفلسطينية. وهي تستحق منا العناية الفائقة، والفهم العميق لنصل بالنضال إلى بلوغ أهدافه.

صبري جريس

القوانين الإسرائيلية لضم القدس

أقر الكنيست (البرلمان) الإسرائيلي ، في ٣١ تموز الماضي ، بشكل استثنائي مستعجل ، قانوناً جديداً عرف بإسم « قانون أساسي : القدس » . وقد تقدم بمشروع القانون هذا النائبة غيئولا كوهين ، التي كانت عضواً في المنظمة الإرهابية ليحي (عصابة شتيرن) قبل قيام إسرائيل ، ثم انضمت إلى حزب حيروت ، الذي يتزعمه بيغن ، بعد إنشائه أثر الإعلان عن قيام الدولة اليهودية ، وإنتقلت منه إلى الليكود ، الذي إنسحبت منه اخيراً ، إحتجاجاً على سياسة بيغن « الإستسلامية » التي تمثلت ، حسب رأيها ، في توقيع إتفاق السلم مع مصر والموافقة على الإنسحاب من سيناء . وغيئولا كوهين من كبار العاملين ضمن إطار حركة « أرض ـ إسرائيل الكاملة » ، التي كانت قد تشكلت في أعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ ، وركزت نشاطها على المطالبة بفرض القانون الإسرائيلي على معظم المناطق العربية التي احتلت آنذاك ، إن لم يكن عليها كلها ، وضمها نهائياً إلى إسرائيل . وبعد إنسحاب كوهين من الليكود ، أسست مع بعض غلاة التوسعيين الإسرائيليين ، الذين كان معظمهم قد إنسحب مثلها من الليكود ، حركة شبه فاشية جديدة ، أطلقوا عليها اسم هتحياه . وكان الهدف من « القانون الأساسي : القدس » « إحراج » الحكومة الإسرائيلية الحالية ، وحكومات إسرائيل المقبلة أيضاً ، وتكبيل أيديهم ، وذلك بمنعهم من التقدم بأقتراحات او التوصل إلى إتفاقات ، ضمن أية تسوية محتملة ، يمكن أن تمس بوضع القدس و « السيادة » الإسرائيلية عليها ، كما حدث بالنسبة لسيناء مثلاً ، دون العودة إلى الكنيست والحصول على موافقته المسبقة . وقد نجحت كوهين ومؤيدوها في مساعيهم تلك ، عندما حملوا الكنيست على إقرار ذلك القانون ، خلال وقت قصير نسبياً ، بأكثرية ٦٩ عضواً (من بين ١٢٠) ، يمثلون اكثرية مؤيدي كل من الحكومة والمعارضة على السواء . بينما اضطر بعض زعماء حزب العمل المعارض ، أمثال بيرس ورابين إلى التغيب عن الجلسة التي أقر القانون خلالها ، لكي يتجنبوا ، كما يبدو ، الإحراج الذي قد ينجم عن اضطرارهم للتصويت ضده .

وينص « قانون أساسي : القدس » على ما يلي :

« مادة ١ ـ أن القدس الكاملة والموحدة هي عاصمة إسرائيل .

« مادة ٢ ـ القدس هي مقر الرئيس والكنيست والحكومة والمحكمة العليا .

« مادة ٣ ـ تحمى الأماكن المقدسة من أي تدنيس أو أي مساس بها بأي شكل ، أو أي شيء من شأنه أن يمس بحرية وصول أبناء كافة الطوائف إلى الأماكن المقدسة أو بنظرتهم لها .

« مادة ٤ ـ ستحرص الحكومة على تنمية القدس وإزدهارها وتوفير الرخاء لسكانها ، بواسطة تخصيص موارد خاصة ، ولا سيما تقديم منحة سنوية خاصة لبلدية القدس ، بمصادقة لجنة الكنيست المالية » (١) .

ويفترض في هذا القانون ، بإعتباره « أساسياً » ، أن يصبح ، وفقاً للنظم الدستورية الإسرائيلية ، جزءاً من دستور إسرائيل ، عند وضعه (٢) .

ومع إقرار هذا القانون، تكون التوسعية الإسرائيلية قد أحرزت «إنجازاً» جديداً، وأن لم يكن « أبدياً » ـ إذا إستعملنا التعبير الإسرائيلي المألوف بالنسبة للأصرار على ضم القدس ـ لأن الكنيست الذي صادق على ذلك القانون ، يستطيع هو نفسه أيضاً إلغاءه ، بالطريقة ذاتها التي أقره بها ، فيما إذا نشأت ظروف جديدة توجب ذلك .

قوانين الضم

أثار القانون الأساسي : القدس ، مع إقراره ، عاصفةً من الإحتجاج لدى الفلسطينيين وفي العالمين العربي والإسلامي ، وهذه العاصفة ، وإن كانت مفهومة الدوافع ، جاءت متأخرة ، على كل حال ، كذلك يكاد يبدو أنها « غريبة » ومستجدة ، من حيث أن إجراءات الضم الإسرائيلي للقدس ، عملية كانت أم قانونية ، مستمرة منذ إحتلال المدينة دون انقطاع ، ولكنها ، لسبب ما ، لم تحظ بالإنتباه ولم تجابه بالإحتجاج ومحاولة إتخاذ الإجراءات المضادة ، كما حدث بعد المصادقة على القانون الأخير ، ثم أن هذا القانون ، بالمقارنة مع القوانين الإسرائيلية السابقة ، في هذا المضمار ، لا يقدم ولا يؤخر كثيراً : اذ ليس له « أسنان » ولا قوة تنفيذية محددة ، وكان أكثر من « عاقل » إسرائيلي قد وصفه بأنه لا لزوم له ، وأن ضرره أكثر من نفعه ، وفي أي حال ، لا يمكن إعتباره أكثر من تشريع إستعراضي إعلاني لإجراءات الضم الإسرائيلية ، القديمة منها والمستمرة .

وكانت إجراءات الضم الإسرائيلية للقدس قد بدأت ، عملياً ، بعد الحرب مباشرة ، أثر دخول الجيش الإسرائيلي إلى المدينة في حزيران ١٩٦٧ ، فمع إنتهاء القتال ، وضعت وإتبعت سياسة تهدف إلى إبتلاع المدينة العربية والمناطق المجاورة لها من قبل إسرائيل ، وذلك بضمها إلى الكيان الصهيوني وتهويدها تدريجياً ، ومحاولة تفريغها من سكانها العرب قدر الإمكان بواسطة التضييق عليهم ، ومصادرة الأراضي العربية وإقامة المساكن والمنشآت اليهودية عليها ، حول المدينة ، لفصلها عن الضفة الغربية ، وفرض الطابع الإسرائيلي عليها تدريجياً ، في كافة نواحي الحياة ، وليس هنا المجال لعرض الإجراءات والنشاط الإسرائيلي العملي في هذا الصدد، بل سنركز على القوانين التي كانت أساساً لذلك ، والتي أقرت خصيصاً لتسهيل تلك الإجراءات ، على ما توضحه من أهداف السياسة الإسرائيلية تجاه القدس .

كانت قوانين ضم القدس إلى إسرائيل قد سارت ، جنباً إلى جنب ، مع الإجراءات العملية في هذا الصدد ، وهي تسبقها تارة وتتأخر عنها طوراً ، في ضوء العقبات أو المستجدات التي كان الكيان الصهيوني يواجهها على هذا الصعيد . أما أول هذه القوانين فكان ذلك الذي مهّد لضم القدس العربية إلى إسرائيل ، وصدر قبل نهاية حزيران ١٩٦٧ ، أي بعد نحو اسبوعين من إنتهاء القتال . وقد كانت هذه الفترة القصيرة كافية لحكومة التكتل الوطني الإسرائيلية ، التي كانت قد شكلت قبيل إندلاع الحرب وضمت كافة القوى السياسية الرئيسية في إسرائيل ، من عمال ويمين ومتدينين وغيرهم ، لكي تقرر أنه لا بد من إتخاذ إجراءات قانونية فورية ، تضفي « الشرعية » على ما كانت السلطات العسكرية الإسرائيلية تتخذه من إجراءات ضم عملية [٣] . ولم يكن من السهل ، لأول وهلة ، إصدار تشريع في هذا الشأن ، لأنه ليس لإسرائيل – كما هو معروف – حدود دولية معترف بها : إذ أن حدودها ، رسمياً ، هي تلك التي كان قد تم الإتفاق عليها بين إسرائيل والدول العربية في إتفاقيات الهدنة الإسرائيلية – العربية لسنة ١٩٤٩ ، وهي حدود لم تكن ، مرة أخرى رسمياً ، نهائية . غير أن إسرائيل لم تعدم وسيلة للتغلب على هذه العقبة ، وبشكل لا يظهر معه أن القانون والعرف الدوليين اعتبرا عائقاً في سبيل تنفيذ ذلك الهدف . ففي ٢٧/٦/١٩٦٧ ، صادق الكنيست على مشروع قانون ، كانت الحكومة قد تقدمت به ، يقضي بتعديل قانون أنظمة السلطة والقضاء لسنة ٥٧٠٨ – ١٩٤٨ . وهذا القانون هو التشريع رقم ١ في إسرائيل ، وكان مجلس الدولة المؤقت ، الذي إعتبر في حينه بمثابة برلمان ، قد اقره بعد الإعلان عن إقامة إسرائيل مباشرة، ليلة ١٤ –١٥/٥/١٩٤٨، لضمان الإستمرارية القانونية في الأراضي التي إعتبرت آنذاك دولة إسرائيل ، او تلك التي قد تحتلها او تضم إليها ، ووضع الأسس القانونية والقضائية والإدارية الضرورية لتمكين سلطات الكيان الصهيوني من ممارسة مهامها .

أما القانون الجديد الذي تم إقراره ، وهو قانون بتعديل قانون أنظمة السلطة والقضاء (رقم ١٩) لسنة ٥٧٢٧ – ١٩٦٧ [٤] ، فقد عدل القانون الأصلي بإضافة مادة وحيدة إليه ، هي المادة ١١أ، تنص على أن « يسري قانون الدولة وقضاؤها وإدارتها على كل مساحة من أرض إسرائيل [وأرض – إسرائيل ، بالمفهوم الصهيوني ، تضم فلسطين وشرق الأردن وأجزاء من جنوب لبنان وجنوب غرب سوريا] حددتها الحكومة في مرسوم » . أي أن الحكومة الإسرائيلية ، بلغة أكثر وضوحاً ، منحت نفسها ، بموافقة برلمانها ، حق ضم أي جزء من « أرض – إسرائيل » إلى إسرائيل ، كما تراه مناسباً ، بمجرد إصدارها مرسوماً في هذا الصدد . كذلك نص القانون على أن يسري مفعوله إعتباراً من تاريخ إقراره في الكنيست ، لا اعتباراً من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية (الوقائع الإسرائيلية) كما هي العادة ، للدلالة على الأهمية التي تعطيها الحكومة له ، وضرورة الإسراع في تطبيقه . وفي اليوم التالي ، ٢٨/٦/١٩٦٧ ، أصدرت الحكومة مرسوماً بشأن سريان « قانون الدولة وقضائها وإدارتها » على مساحة تبلغ نحو ٧٠ ألف دونم ، تضم القدس القديمة بأكملها ومناطق واسعة محيطة بها ، تمتد من صور باهر في الجنوب إلى مطار قلندية في الشمال [٥] . وتضم معظم ضواحي القدس العربية .

وفي الجلسة نفسها التي أقر فيها تعديل قانون أنظمة السلطة والقضاء ، كما أشرنا ،

صادق الكنيست أيضاً على تعديل لقانون البلديات ، للتمهيد لإلحاق القدس القديمة بمنطقة صلاحية مجلس بلدية القدس اليهودية . وقانون البلديات ، البريطاني الأصل ينص ، بتطبيقه الإسرائيلي ، على ضرورة إجراء تحقيق من قبل وزير الداخلية لإستطلاع رأي السكان في منطقة ما ، قبل إتخاذ قرار بشأن الحاقها ببلدية معينة . ولم تكن السلطات الإسرائيلية على يقين من أن سكان القدس العربية ، فيما إذا استطلع رأيهم ، سيوافقون على الحاقهم ببلدية القدس اليهودية ، كما لم يكن لديها وقت لإجراء التحقيق المذكور . ولذلك جاء التعديل الجديد ، وهو القانون بتعديل قانون البلديات (رقم ٦) ، لسنة ٥٧٢٧ ـ ١٩٦٧ (٦) ليسمح للوزير « حسب تقديره ، ودون إجراء أي تحقيق ... أن يصدر إعلاناً يوسع فيه منطقة إختصاص بلدية ما بواسطة ضم مساحة تحددت في مرسوم صادر » بموجب قانون أنظمة السلطة والقضاء المذكور . وفي اليوم التالي على إقرار هذا التعديل لقانون البلديات ، أي في ١٩٦٧/٦/٢٨ ، نشر وزير الداخلية إعلاناً في الجريدة الرسمية بشأن « توسيع حدود بلدية القدس » (٧) ، ضمت بموجبه كامل المنطقة التي حددتها الحكومة سابقاً بمرسوم ، إلى منطقة بلدية القدس ، تحت إشراف مجلس البلدية الإسرائيلي . وبذلك تكون القدس العربية قد اصبحت ، من وجهة نظر القوانين الإسرائيلية ، جزءاً من إسرائيل ، تابعاً للقدس الكبرى الموحدة « إلى الأبد » . وفي اليوم التالي على هذا الإجراء ، أي في ١٩٦٧/٦/٢٩ ، كان الحاكم العسكري الإسرائيلي للضفة الغربية ومساعده لمنطقة القدس يسلمان روحي الخطيب ، رئيس بلدية القدس العربية ، أمراً بحل مجلس البلدية وحظر نشاطه (٨) (وفي مرحلة لاحقة ، طرد الخطيب إلى الاردن) .

وكان تعديل قانون البلديات هذا قد سمح لوزير الداخلية ، فيما إذا أعلن عن ضم مساحة ما إلى منطقة بلدية معينة ، « أن يعين بمرسوم من بين سكان المساحة أعضاء إضافيين في [المجلس البلدي] . ويعمل عضو المجلس المعين كما ذكر طيلة مدة خدمة المجلس ، غير أنه يجوز للوزير في مرسوم أن يعين آخر بدلاً منه » . وكان الهدف من هذه المادة تمكين وزير الداخلية الإسرائيلي من تعيين بعض العرب من بين سكان القدس القديمة في مجلس بلدية القدس الإسرائيلي . غير ان التطورات التي تلت إقرار هذا القانون ، والمعارضة التي جوبه بها من قبل السكان العرب ، جعلت السلطات الإسرائيلية تصرف النظر عن ذلك .

وتجدر الإشارة في هذا الصدد أيضاً إلى أن السم في قانوني الضم المشار إليهما قد غلف بدسم . ففي اليوم نفسه الذي تمت فيه المصادقة على هذين القانونين ، أقر الكنيست أيضاً تشريعاً ثالثاً ، إعتبرته السلطات الإسرائيلية مكملاً لهما ، وذلك كما يبدو في محاولة لصرف الأنظار عنهما . وهذا التشريع الثالث هو قانون المحافظة على الأماكن المقدسة لسنة ٥٧٢٧ ـ ١٩٦٧ (٩) . وقد نص هذا القانون (المادة ١) على أن « تحفظ الأماكن المقدسة من إنتهاك حرمتها ومن كل مساس آخر بها ومن أي شيء قد يمس بحرية وصول ابناء الأديان إلى الاماكن التي يقدسونها أو بمشاعرهم تجاه تلك الأماكن » . و« كل من إنتهك حرمة مكان مقدس أو مس به بأية طريقة أخرى يعاقب بالحبس لمدة سبع سنوات » (المادة ٢ [أ]) . أما « كل من أتى فعلاً قد يمس بحرية وصول أبناء الأديان إلى الأماكن التي يقدسونها أو بمشاعرهم تجاه تلك الأماكن ، [فـ] يعاقب بالحبس لمدة خمس سنوات » (المادة ٢ [ب]) . وهذا القانون « يرمي ... للإضافة إلى أي تشريع آخر لا للإنتقاص منه » (المادة ٣) . وكلف وزير الأديان

بتنفيذ هذا القانون ، وإصدار أنظمة في كل ما يتعلق بذلك ، شرط أن يتم هذا « بعد إستشارة ممثلي أبناء الأديان ذات الشأن أو بناء على إقتراحهم ، وبموافقة وزير العدل»(المادة ٤) .

قوانين الإستيعاب

كانت القوانين التي ذكرت كافية لحل مسألة السيطرة الإسرائيلية على القدس العربية وضمها إلى إسرائيل ، إلا أنها لم تستطع حل المشاكل القانونية ـ اليومية المعقدة ، على إختلاف أنواعها ، الناجمة بطبيعة الحال عن ضم منطقة كانت خاضعة لنظام وقانونين معينين إلى سلطة جديدة ، تختلف مفاهيمها ونظرتها ، في نواح عدة ، عن تلك التي كانت سائدة أيام النظام السابق . وفيما كان الإحتلال الجديد يعمق جذوره ، كانت تلك المشاكل تتفاقم تدريجياً ، وراح بعضها يهدد بوقوع إنفجارات قد تكون في غير صالح السلطة الإسرائيلية . ولذلك ما أن مرت سنة على الإعلان عن ضم القدس القديمة حتى صدر قانون جديد ، في صيف ١٩٦٨ ، هو قانون التنظيمات القانونية والإدارية لسنة ٥٧٢٨ ـ ١٩٦٨ (١٠) ، يهدف إلى حل المشكلات القانونية « العادية » التي واجهت عرب القدس القديمة . ويلاحظ أن هذا القانون ، بالمقارنة مع قانوني الضم اللذين سبقاه ، يمتاز بكونه « سلساً » و« ناعماً » ، بل وأحياناً « لطيفاً » . ولا غرابة في ذلك ، فالهدف من هذا القانون كان العمل على حل مشكلات المواطن العادي ، في محاولة لكسب وده وإستيعابه في الواقع الإسرائيلي ، أو ضمان سكوته على الأقل ، بعد أن تم تنفيذ عمليات الضم قانونياً وأصبح من الضروري حمل السكان العرب على التكيف معها والعيش في كنفها . ولذلك يلاحظ كأن هذا القانون لا يهدف إلا إلى تقديم إستثناء ات لعرب القدس الشرقية ، وبشكل لم يعهده سكان إسرائيل القدامى ، يهوداً كانوا أم عرباً .

وأولى تلك الاستثناءات كانت تلك المادة (رقم ٤) من القانون التي حظرت على المحاكم الاسرائيلية، نظامية كانت أم غير نظامية، الالتفات للحجة القائلة بأن أحد سكان القدس الشرقية هو عدو أو من رعايا العدو (لأن قوانين ضم المدينة إلى اسرائيل لم تمنح الجنسية الاسرائيلية لسكانها، الذين ظلوا معتبرين أردنيين)، مما قد يعرضه لفقدان حقوقه، «إلا إذا دفع بهذه الحجة مستشار الحكومة القانوني [الذي يقوم بدور المدعي العام] أو تم الدفع بها بموافقة خطية منه».

وبالطريقة نفسها، استثني سكان القدس أيضاً من سريان أحكام قانون أموال الغائبين لسنة ٥٧١٠ ـ ١٩٥٠(١١) عليهم. وكان هذا القانون، في حينه، أحد الأدوات الرئيسية التي تمت بواسطتها مصادرة كافة أملاك اللاجئين الفلسطينيين الذين اضطروا إلى ترك ديارهم، بالاضافة إلى أملاك العديد من السكان العرب الذين بقوا تحت الحكم الاسرائيلي، بناء على التعليمات الغريبة المختلفة التي تضمنها ذلك القانون، والتي صيغت بشكل كان الهدف منه تسهيل مصادرة أكبر مساحة ممكنة من الأراضي العربية(١٢). وكان بعض الاسرائيليين قد حاولوا، إثر الاحتلال مباشرة، الاستيلاء على بعض المساكن العربية، التي راقت لهم في القدس الشرقية أو بعض ضواحيها، بدعوى أنها أملاك غائبين، إلا أن السلطات أوقفت تلك المحاولات بحزم، إلى أن صدر القانون ونص على أن لا يعتبر ساكن في القدس الشرقية غائباً، «بالنسبة للحال الكائن في تلك المنطقة» فقط (المادة ٣). وجاء هذا التحديد بالنسبة لـ«تلك المنطقة» فقط، أي القدس الشرقية وضواحيها التي ضمت إلى اسرائيل، لمنع السكان من المطالبة باسترجاع أية أملاك قد

تكون عائدة لهم في القدس الغربية، أو في أي مكان آخر داخل اسرائيل، وهي أملاك كان القيم على أموال الغائبين قد استولى عليها بعد قيام اسرائيل وتصرف بها بالطريقة التي رآها مناسبة. كذلك لا يعتبر ذلك الشخص غائباً فيما اذا انتقل إلى مكان ما، كالأردن أو غيره من الدول العربية، يجعله انتقاله غائباً وفقاً لأحكام القانون الأصلي، شريطة أن يتم ذلك الانتقال «بموجب ترخيص قانوني» (المادة ٣ [ب]) . كما لا يعتبر غائباً الشخص الذي لم يكن متواجداً في القدس الشرقية عند احتلالها، ولكنه كان «موجوداً فيها بشكل مشروع بتاريخ بدء سريان... القانون» (المادة(٢١)[أ]). كذلك ألغى القانون (المادة ٢١ [ب]) أي إجراء كان القيم على أموال الغائبين قد اتخذه، قبل المصادقة على القانون، بالنسبة لسكان القدس الشرقية أو ممتلكاتهم.

وكان قانون أموال الغائبين الاساسي، لسنة ١٩٥٠، قد طبق في حينه على أملاك الوقف الاسلامي، بما فيها المساجد والاماكن المقدسة الموجودة داخل اسرائيل، والتي حولت ملكيتها إلى القيم على أموال الغائبين، الذي تصرف بمعظمها على الشكل الذي ارتآه، ثم قام، منذ منتصف الستينات، بـ«تحرير» بعضها، بناء على تعديل للقانون أقر آنذاك[١٣]. وبموجب هذه الممارسات، كان من المفروض أن يطبق القانون على الأملاك المماثلة الموجودة في القدس الشرقية، بحيث يصبح المسجد الأقصى، مثلا، ملكاً للقيم على أموال الغائبين الاسرائيلي. ولتجنب مثل هذا «الاحراج»، نص القانون الجديد (المادة ٢) على أن «لا يسري قانون أموال الغائبين... على الأماكن المقدسة» الواقعة في تلك المنطقة.

وفي المقابل، نص القانون أيضاً (المادة ٥) على تحويل الأملاك، التي كان يملكها أفراد أو مؤسسات يهودية، قبل حرب ١٩٤٨، والتي أناطت السلطات الأردنية ادارتها بالحارس على أملاك العدو، إلى القيم العام الاسرائيلي، الذي خوّل صلاحية إعادتها إلى أصحابها الأصليين، أو دفع تعويضات عنها، إذا استملكت للغايات العامة.

وفيما يتعلق بالشركات أو الجمعيات التعاونية، على اختلاف أنواعها، سمح القانون (المواد ٦ - ١٤) بإعادة تسجيلها كشركات أو جمعيات اسرائيلية، خصوصاً إذا كان مكتبها الرئيسي موجوداً في القدس الشرقية. أما تلك التي تحتفظ بمكتب فرعي في المدينة، فينبغي عليها، خلال فترة معينة، اتخاذ الاجراءات والترتيبات الضرورية، الكفيلة بـ«استقلالها» عن الشركة الأم وتحويلها الى شركة منفصلة تسجل في اسرائيل. والهدف من هذا الاجراء واضح، وهو قطع أية علاقة قانونية للمؤسسات الاقتصادية في القدس الشرقية مع المؤسسات المماثلة في الضفة الغربية أو خارجها، ومن ثم تحويل تلك العاملة في القدس إلى اسرائيلية.

كذلك احتوى قانون التنظيمات القانونية والادارية على تسهيلات واضحة للغاية بالنسبة للحرفيين والمهنيين، لتمكينهم من ممارسة أعمالهم بصورة طبيعية للغاية، ودون أية تعقيدات. و«إذا كان أي ساكن من سكان منطقة [القدس الشرقية] قد مارس [قبل ضم المنطقة] أية مهنة أو حرفة أو شغل آخر حسب التشريع الذي كان معمولاً به في تلك المنطقة، وكانت هذه الممارسة تفتقر إلى رخصة بموجب التشريع الاسرائيلي، فيجوز له ممارسة شغله لغاية ستة أشهر... إلى أن يبت في طلبه الحصول على رخصة بموجب التشريع الاسرائيلي...» (المادة ١٥). ويبت في هذا الطلب، وتمنح الرخصة المطلوبة لأي ساكن، «حتى وإن لم يتوفر فيه شرط من شروط المؤهلات

الشخصية المحددة في التشريع» الاسرائيلي. أما «إذا كان التشريع يشترط منح الرخصة بشروط تتعلق بمكان الاشغال، فيجوز للوزير المكلف بتنفيذ التشريع أن يصدر نظاماً يضمنه تسهيلات، لأجل معين أو بشكل آخر، بخصوص مكان الاشغال... وطالما لم يصدر النظام المذكور بعد يجوز للسلطة المختصة بمنح الرخصة أن تمنح هذه التسهيلات» (المادة نفسها).

غير أن التسهيلات المذكورة لا تسري بالنسبة لرخص حيازة الأسلحة النارية أو المواد المتفجرة التي ينبغي النظر فيها مجدداً في ضوء التشريعات والاعتبارات الاسرائيلية البحتة (المادة نفسها).

وتنطبق تسهيلات مماثلة للتي ذكرت على كل من له «حق مسجل في ملكية أي امتياز اختراع أو رسم أو علامة تجارية»، الذي سمح له أن يطلب إعادة تسجيل حقه بموجب التشريع الاسرائيلي (المادة ١٧).

وفيما يتعلق بالبناء، و«إذا تم تشييد أسس بناية في المنطقة» قبل ضمها، على صاحب الترخيص أن يشعر اللجنة اللوائية للتنظيم والبناء عن رغبته في مواصلة أعمال البناء، وعندئذٍ «يحق له الحصول على ترخيص بالبناء بموجب التشريع الاسرائيلي» (المادة ١٨).

كذلك تضمن القانون تعليمات بشأن استمرارية القضاء والدعاوى القضائية المختلفة، وخولت المحاكم الاسرائيلية صلاحية النظر والبت في القضايا الحقوقية أو الجزائية التي كانت معلقة لدى المحاكم الاردنية. كذلك أمر مكتب التنفيذ الاسرائيلي بتنفيذ القرارات النهائية الصادرة عن المحاكم الاردنية في القضايا الحقوقية (المادة ٢٠).

وإضافة إلى ذلك، وحيث أن الجنسية الاسرائيلية لم تمنح تلقائياً لسكان القدس الشرقية، رغم ضمها إلى اسرائيل، وبما أن هنالك وظائف عمومية تشترط أن يكون المرشح لها حائزاً على تلك الجنسية، فقد خول القانون رئيس الحكومة صلاحية إصدار أنظمة يعفى بموجبها، «لأجل معين أو بشكل آخر»، سكان القدس الشرقية، الذين قد يتقدمون لملء تلك الوظائف، من ضرورة حيازة الجنسية الاسرائيلية (المادة ١٩).

إلا أن أوسع التسهيلات، التي منحها قانون التنظيمات القانونية والادارية، كانت، دون شك، تلك التي تنطبق على المحامين. وكان المحامون في القدس الشرقية والضفة الغربية قد أعلنوا الاضراب، بعد الاحتلال، ورفضت أكثريتهم الساحقة الظهور أمام المحاكم الاسرائيلية، مما مس بالنظام العام ووضع العراقيل أمام بعض اجراءات الاحتلال. ولذا لم يكن بد من الالتفاف حول ذلك الاضراب، وذلك بواسطة التسهيل على أولئك الذين كانوا من بين المحامين على استعداد للعمل في المحاكم الاسرائيلية، مدنية كانت أم عسكرية، بواسطة اعتبارهم محامين اسرائيليين «رغماً عنهم»، ودون أن يربط ذلك بأي إجراء، أو عمل، من جهتهم. ولذلك نص القانون (في المادة ١٦) على أن كل من كان «يعمل في تلك المنطقة [التي ضمت لاسرائيل] قاضياً في محكمة حقوقية أو كان محامياً فيها، يعتبر عضواً في نقابة المحامين [الاسرائيلية]»، اعتباراً من تاريخ الضم أو تاريخ بدء سريان القانون الجديد، حسب التاريخ المتأخر. وينشر وزير العدل في الجريدة الرسمية اسماء الأشخاص الذين تنطبق عليهم تلك التعليمات. كذلك خول وزير العدل صلاحية وضع

أنظمة، تحدد كيفية الحصول على عضوية نقابة المحامين الاسرائيلية لكل من كان «أهلاً لأن يكون محامياً ولكنه لم يمارس مهنة المحاماة، أو تمرن في المحاماة في المنطقة المذكورة ولم يكمل بعد مدة تمرينه». وتوضع أيضاً أنظمة مماثلة بالنسبة لكل ساكن في المنطقة التي ضمت، كان قد «عمل بصفة قاض في محكمة حقوقية في أي جزء من أرض ـ اسرائيل».

وخلاصة القول هي أن قانون التنظيمات القانونية والادارية، بالتسهيلات المختلفة التي قدمها، هدف ألى تهيئة الأجواء لاستيعاب سكان القدس القديمة العرب في المجتمع الاسرائيلي وجعلهم جزءاً منه، بأقل مدى ممكن من التعقيد، لضمان الغاية السياسية الأساسية، وهي ضم القدس لاسرائيل «إلى الأبد».

وبعد إقرار هذا القانون، صدرت أنظمة لتنفيذه، هدفت أيضا إلى سد الثغرات التي ظهرت فيه خلال تطبيقه. وفي صيف ١٩٦٩، اعتمدت تلك الأنظمة من قبل الكنيست على شكل قانون خاص، هو قانون تمديد مفعول نظام الطوارىء (التنظيمات القانونية والادارية ـ أحكام إضافية) لسنة ٥٧٢٩ ـ ١٩٦٩(١٤).

وفي صيف السنة التالية، ١٩٧٠، دمج القانونان ببعضهما البعض وصدرا في «حلة» جديدة، باسم قانون التنظيمات القانونية والادارية (نص موحد) لسنة ٥٧٣٠ ـ ١٩٧٠(١٥).

وفي صيف سنة ١٩٧٣، تم تعديل «النص الموحد» المشار إليه، لتوضيح التعليمات المتعلقة بالاراضي، وكيفية تحديد ملكيتها أو نقلها، أو استعمالها، وصدر قانون خاص بهذا الصدد: قانون التنظيمات القانونية والادارية (تعديل) لسنة ٥٧٣٣ ـ ١٩٧٣(١٦).

وفي إطار الحديث عن «قوانين الاستيعاب» الاسرائيلية، المتعلقة بالقدس، تجدر الاشارة أيضاً إلى قانون السلطات المحلية (الانتخابات) (تعديل رقم ٦) لسنة ٥٧٣٣ ـ ١٩٧٣(١٧)، الذي أقر في منتصف حزيران ١٩٧٣، بهدف تشجيع سكان القدس على الاشتراك في الانتخابات لبلدية القدس «الموحدة». وبموجب هذا التعديل، سمح لوزير الداخلية بإعداد جدول للناخبين في القدس الشرقية يضم كل من أتم الثامنة عشرة من عمره، وكان ساكناً في تلك المنطقة عشية ضمها إلى اسرائيل. وحق الانتخاب للسلطات المحلية، في بلديات أو مجالس محلية، يمنح على أساس السكن ضمن حدود السلطة المحلية لفترة محددة، على عكس حق الانتخاب للكنيست، الذي يفترض فيه حصول الناخب على الجنسية الاسرائيلية.

وكانت السلطات الاسرائيلية قد أجبرت، في حينه، عدداً لا بأس به من سكان القدس الشرقية على الاشتراك في الانتخابات لبلدية القدس، بإيهامهم أن من لا يشارك في تلك الانتخابات، ولا تحمل بطاقة هويته الشخصية ختماً يثبت ذلك، قد يتعرض لاجراءات مختلفة تتخذ بحقه.

قوانين مصادرة الاراضي

إضافة إلى القوانين التي اشرنا إليها وفي محاولة لاستكمال اجراءات الضم، أصدرت السلطات الاسرائيلية أيضاً تشريعاً إضافياً، هو قانون أموال الغائبين (تعويضات)

لسنة ٥٧٣٣ ـ ١٩٧٣. ويلاحظ أن تعليمات هذا القانون تخلو من «الليونة» التي تميز بها قانون التنظيمات القانونية والادارية، وتكاد تشبه، من حيث تشددها وصرامتها، تلك التي تضمنتها قوانين الضم. ولا غرابة في ذلك، فالضم ومصادرة الاراضي أو ضمان السيطرة عليها هدفان اسرائيليان رئيسيان لا تقبل ضرورة تحقيقهما المناقشة، ومن هنا التشدد في كل ما يتعلق بهما من اجراءات.

كان الهدف من قانون أموال الغائبين لسنة ١٩٧٣ القيام بتصفية «قانونية» لحقوق سكان القدس الشرقية في أملاكهم داخل المنطقة المحتلة منذ ١٩٤٨، التي كانت اسرائيل قد استولت عليها باعتبار أنها أملاك غائبين، وذلك بواسطة دفع «تعويضات» عنها، لا تساوي إلا نزراً يسيراً من قيمتها. وقد مكّن القانون الجديد السلطات من اجراء «تسوية» بشأن تلك الاملاك، بشروط اسرائيلية أكثر إجحافاً عن تلك التي كان معمولا بها حتى ذلك الوقت، وفي ضوء الخبرة التي اكتسبتها السلطات الاسرائيلية، باستيلائها في الماضي على أملاك العرب الذين بقوا في اسرائيل ودفع «تعويضات» عنها. ويظهر هذا الاتجاه بوضوح، بمقابلة «التعويضات» التي دفعت بموجب قوانين سابقة، بتلك التي ينص عليها القانون الجديد.

وللوقوف على أبعاد هذا القانون، تجدر الاشارة أولا إلى قانون أموال الغائبين لسنة ١٩٥٠، وهو القانون الأصلي التي كانت السلطات الاسرائيلية قد نظمت بموجبه اجراءات استيلائها على الاملاك العربية في فلسطين. فقد احتوى هذا القانون على تعريف مطاط للفلسطيني «الغائب». فهو «الشخص الذي كان طوال المدة الواقعة بين... ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ [وهو يوم صدور قرار تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة] واليوم الذي نشر فيه تصريح... يعلن بأن حالة الطوارىء ... قد زالت [وحالة الطوارىء لا تزال قائمة حتى الآن في اسرائيل، ومنذ انشائها] ـ المالك الشرعي لمال في الاراضي الاسرائيلية... أو كانت له رعوية أو جنسية تابعة للبنان، أو مصر، أو سوريا، أو المملكة العربية السعودية، أو شرق الأردن، أو العراق، أو اليمن، أو... كان في أحد البلدان المذكورة أو في أي قسم من فلسطين خارج مساحة اسرائيل، أو... كان من رعايا فلسطين وترك محل إقامته العادي في فلسطين:... إلى مكان خارج فلسطين قبل يوم... ١ أيلول ١٩٤٨، أو... إلى مكان في فلسطين كانت تسيطر عليه في ذلك الوقت القوات التي قاومت إنشاء دولة اسرائيل أو حاربتها بعد إنشائها» (المادة ١ من القانون). ويستولي القيم على أموال الغائبين على أملاك كل من صنف غائباً بموجب ذلك القانون.

والواضح أن تعريف «الغائب» على هذا الشكل ينطبق على السكان العرب في القدس القديمة، بعد الاعلان عن ضمها إلى اسرائيل سنة ١٩٦٧. ولكن قانون التنظيمات القانونية والادارية لسنة ١٩٦٨ استثنى، كما أشرنا، أملاك أولئك السكان الموجودة في القدس القديمة من المصادرة، بينما لم يتعرض لتلك الموجودة في القدس الجديدة، التي بقيت مصنفة كأملاك غائبين. ولذلك جاء القانون الجديد «ليعوض» هؤلاء السكان عن حقوقهم في تلك الاملاك ويحوّل ملكيتها «قانونيا» إلى اسرائيل. فقد نصت المادة ٢ من القانون على أن «يمنح حق المطالبة بالتعويض عن مال... لمن كان مقيماً في اسرائيل بتاريخ بدء سريان هذا القانون أو أصبح مقيماً في اسرائيل بعد بدء سريانه». ولا يعطي القانون المالك فقط حق المطالبة بالتعويض، بل يمنح هذا الحق أيضاً للورثة، وللزوجة إذا كانت تسكن مع زوجها وللمستأجر أو لصاحب أية حقوق أخرى معترف بها

في الملك، خلافاً للوضع السابق ، وذلك لتصفية كل الحقوق المتعلقة بالملك بصورة نهائية (المادة نفسها). كذلك يتضح هذا الاتجاه من المادة ١٤ من القانون، التي يفهم منها وكأن الدولة تكون قد وفت بالتزامها بمجرد دفعها التعويضات، وحتى إذا اتضح أنها لم تدفع إلى الشخص الذي يستحقها. وفي مثل هذه الحالة، ما على صاحب الحق الفعلي في التعويضات إلا أن يطالب بها الشخص الذي دفعت له خطأ، دون أن تكون له، كما يبدو، أية حقوق تجاه الدولة.

وليست هذه الناحية الوحيدة التي يختلف فيها القانون الجديد عن الأصلي: إذ هناك أيضاً تحديد للمدة المعينة لتقديم طلبات التعويضات، خلافاً للوضع السابق. فقد نصت المادة ٤ من القانون الجديد على أن لا تتأخر المطالبة بالتعويض عن «ثلاث سنوات من تاريخ بدء سريان هذا القانون أو عن سنتين من تاريخ صيرورة [المطالب] مقيماً [في اسرائيل]» . والواضح أن الهدف من هذه المادة كان إجبار العرب على التقدم بطلبات التعويض خلال مدة محددة، وإلا فقدوا حقهم في التعويض بأكمله. ويبدو أن هذا النص جاء كرد فعل على التجربة التي مرت بها اسرائيل مع العرب داخلها، الذين لا يزال بينهم من يرفض، حتى الآن، استلام التعويضات عن أراضيه المصادرة، أو حتى تقديم طلب للحصول على تلك التعويضات.

وهناك تشديد من ناحية أخرى أيضاً. فقد جاء في قانون أموال الغائبين لسنة ١٩٥٠ أنه «يحق للقيم [على أموال الغائبين] وفقاً لما يرتئيه فقط... أن يحرر مالا مناطاً، وأن يرد إلى [المالك الأصلي] أو من حل محله جميع الحقوق التي كانت له لدى إناطته بالقيم» (المادة ٢٨). وذلك شرط أن ترد القيم «في كل حالة وحالة أو نوع معين من الحالات توصية من لجنة خاصة تعينها الحكومة» (المادة ٢٩). وكان القيم قد استغل صلاحياته هذه في بعض الحالات. وإن كانت قليلة للغاية، وقام بتحرير أملاك من قبضته وإرجاعها إلى أصحابها الأصليين. ولكن القانون الجديد ألغى هذا الوضع، ومنع القيم من إعادة أي جزء من الأرض لمالكه الأصلي. إذ نصت المادة ١٨ منه على أنه «إعتباراً من تاريخ بدء سريان هذا القانون [وهو، وفق المادة ٢١ منه: ١ تموز ١٩٧٣] لا تسمع مطالبة الغائب بحق في المال أو بتحرير المال بموجب المادة ٢٨» المشار إليها أعلاه.

كما أن «التعويضات» التي يقدمها القانون بخسة للغاية، ولا تستحق حتى هذا الاسم فالفصل الثاني من الذيل الملحق بالقانون يحدد أكبر مبلغ من التعويضات عن دونم (أي ١٠٠٠م^2) من الأنواع الثلاثة الأولى من الأراضي المزروعة بالحمضيات أو الموز بـ ٩٠٠ ليرة اسرائيلية فقط، بينما، يبلغ التعويض عن دونم من «أراضي السقي من الدرجة الأولى وأغراس الفواكه من الدرجة الأولى» ٦٠٠ ليرة. ويستمر هذا المبلغ في الانخفاض، ليصل إلى ٢٥ ليرة للدونم من «الأراضي الزراعية من الدرجة الثامنة»، وهي الدرجة قبل الأخيرة، و١٥ ليرة للدونم من «الغابات المغروسة والأراضي الشحيحة غير الصالحة للزراعة». أما بالنسبة لـ «الأراضي القروية المبنية أو الأراضي المخصصة للبناء»، فالتعويض هو «١٦٠٠ ليرة للبناية والأراضي المرتبطة بها إذا لم تزد مساحتها على دونم».

ويحدد القانون أيضاً، بموجب أسس مماثلة، التعويضات بالنسبة للأراضي المبنية أو الأملاك في المدن، التي تحدد قيمتها، وفقا للفصل الأول من الذيل الملحق بالقانون، بناء على تقديرات ضريبة الأملاك في المدن، للسنوات ١٩٤٤ ـ ١٩٤٨، مضافاً إليها نسبة ٧٥٪ لتعيين

قيمتها، بمفهوم القانون، كما كانت يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ ـ وهو «اليوم المحدّد» بالنسبة لقيمة التعويضات عن تلك الممتلكات. وهذه التعليمات تنم عن تشدد بالنسبة لتعليمات قانون أموال الغائبين الأصلي، إذ كانت التعويضات بموجبه تدفع على أساس قيمة الأرض في ١ كانون الثاني ١٩٥٠، وفقاً للمادة ٥ من قانون استملاك الأراضي (تصديق الأعمال والتعويض) لسنة ٥٧١٣ ـ ١٩٥٣(١٨). وكانت الأسعار عامة قد ارتفعت في اسرائيل، بين هذين التاريخين، بنسبة ملحوظة.

وتجدر الاشارة أيضاً إلى أن هذا القانون لا يعترف بأي حق في التعويض، عدا عن التعويض نقداً، ولا يتحدث أبداً عن أي تعويض عيني، بأراض ، جزئياً أو كلياً. وهنا أيضاً يغيّر القانون الوضع السابق الذي أمكن معه، في بعض الحالات، منح تعويض عيني: «إذا استعمل المال المستملك للزراعة، وكان مصدر ارتزاق أساسياً لصاحبه، وليست له أرض أخرى تكفي لمعيشته، فيترتب على سلطة الانشاء والتعمير [التي «اشترت» أملاك الغائبين من القيم] بناء على طلبه، أن تعرض عليه مالا آخر، سواء بالملكية أم بالإجارة، على سبيل التعويض كلياً أو جزئياً... ومدة الاجارة... لا تقل عن ٤٩ سنة» (المادة ٣ [ب] من قانون استملاك الأراضي). وكانت السلطات الاسرائيلية قد درجت، في الماضي، على التعويض على مزارعين عرب لم يبق لهم شيء من أملاكهم بتسليمهم بدل جزء، على الأقل، من أراضيهم المصادرة، أرضي من أملاك غائبين آخرين كانت قد استولت عليها.

وإضافة إلى هذا كله، يبدو أن القانون يفترض أن يقوم صاحب الأملاك العربي بـ«تمويل» استيلاء اسرائيل على أملاكه. فالتعويضات، حتى بعد الاعتراف بها وتعيين المبلغ المستحق بدلها، لا تدفع إلا يوم ١ تموز ١٩٧٥ أو بعد ذلك التاريخ (المادة ١١). ولا يدفع منها نقداً إلا مبلغ ١٠ آلاف ليرة اسرائيلية. أما ما يزيد على هذا المبلغ، في حال الزيادة، فيدفع على شكل سندات دين حكومية اسمية تسدد خلال ١٥ سنة، ابتداء من ١ تشرين الأول ١٩٧٥. ولا تتحول هذه السندات إلى سندات لحاملها، يمكن تداولها دون قيد، إلا بعد يوم ١ نيسان ١٩٨٠ (المادة ١٥). وهنا أيضاً يختلف الدفع عما كان عليه بموجب القانون الأصلي، حيث كانت تسلم التعويضات، بما في ذلك التعويض بأرض مقابل أرض، حال موافقة المطالب على ذلك.

وكان قد أدخل تعديل على هذا القانون فيما بعد، بموجب قانون أموال الغائبين (تعويضات) (تعديل) لسنة ٥٧٣٦ ـ ١٩٧٦(١٨)، مددت بموجبه الفترات المذكورة في القانون الأصلي، وذلك ـ كما يبدو ـ لعدم استجابة عرب القدس الشرقية لتعليماته، والتقدم بطلبات التعويض وفقاً له.

ومما يلفت النظر، أخيرا، في هذا القانون هو أنه على الرغم من أن هدفه المعلن كان تعويض عرب القدس عن أملاكهم فقط، يبدو أن الحكومة الاسرائيلية أعدته أيضاً لاستغلاله، عند الضرورة، لتصفية حقوق أي لاجىء فلسطيني في أملاكه، إذا سنحت الفرصة لذلك. فالمادة ٢٠ من القانون تنص على أنه «يجوز للحكومة أن تحدد بمرسوم تصدره بمصادقة لجنة الكنيست المالية، فئات من أصحاب الحقوق في العقارات المناطة بالقيم الذين يستحقون التعويض بموجب هذا القانون حتى وإن لم يكونوا بمنزلة المطالب بموجب هذا القانون؛ وتحدد الحكومة أصول تقديم المطالبات بموجب هذه المادة وموعد انتهاء حق تقديمها».

وعلى كل حال، وأياً كانت الأهداف التي تسعى الحكومة الاسرائيلية إلى تحقيقها بواسطة هذا القانون، فإن من الواضح أن إصداره ثم العمل على تطبيقه، كان المحاولة القانونية الأخيرة على طريق ضم القدس العربية إلى اسرائيل وتهويدها. وهذا القانون، إضافة إلى تلك التي سبقته، كما قدمناها، كانت كفيلة بتمهيد الطريق أمام إجراءات الضم الاسرائيلية المختلفة. ولم يكن القانون الأساسي: القدس، الذي أقر مؤخراً، إلا تتويجاً لتلك القوانين والاجراءات.

---

(١) «نص قانون أساسي: القدس»، نقلا عن «رصد إذاعة اسرائيل»، العدد ٢١١٩، ٢٩ و٣٠/٧/١٩٨٠، ص ٣ ـ ٤.

(٢) أمنون روبنشتاين، « هامشباط هاكونستيتوتسيوني شل مدينات يسرائيل» (القانون الدستوري لدولة اسرائيل)، القدس وتل ـ أبيب: شوكن، ١٩٧٤، ص ٢٧٤ ـ ٢٨٦ (بالعبرية).

(٣) انظر، للتفاصيل، عوزي بنجيمان، «يروشلايم ـ عير للو حوماه» (القدس ـ مدينة بلا أسوار)، القدس وتل ـ أبيب: شوكن، ١٩٧٣، ص٢٦ ـ ٦١ (بالعبرية).

(٤) «الوقائع الاسرائيلية، كتاب القوانين ٤٩٩، ٢٨/٦/١٩٦٧، ص ١٢٠ (بالعربية).

(٥) المصدر نفسه، مجموعة الأنظمة ٢٠٦٤، ٢٨/٦/١٩٦٧، ص ٢٦٩٠ ـ ٢٦٩١ (بالعبرية).

(٦) المصدر نفسه، كتاب القوانين ٤٩٩، ٢٨/٦/١٩٦٧، ص ١٢١ (بالعربية).

(٧) المصدر نفسه، مجموعة الانظمة ٢٠٦٥، ٢٨/٦/١٩٦٧، ص ٢٦٩٤ ـ ٢٦٩٥ (بالعبرية).

(٨) بنجيمان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦ ـ ٦١.

(٩) الوقائع الاسرائيلية، كتاب القوانين ٤٩٩، ٢٨/٦/١٩٦٧، ص ١٢٢ (بالعربية).

(١٠) المصدر نفسه، رقم ٥٤٢، ٢٣/٨/١٩٦٨، ص ٤٣٥.

(١١) المصدر نفسه، رقم ١١٢، ٣٠/٣/١٩٥٣، ص ٧٣.

(١٢) لشرح قانون أملاك الغائبين لسنة ٥٧١٠ ـ ١٩٥٠ وكيفية تطبيقه، راجع صبري جريس، «العرب في اسرائيل»، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣، الطبعة الثانية، ص ١٤٦ ـ ١٥٤.

(١٣) المصدر نفسه، ص ١٩٦ ـ ٢٠١.

(١٤) «الوقائع الاسرائيلية»، كتاب القوانين ٥٧٤، ٢٧/٧/١٩٦٩، ص ٤٧١.

(١٥) المصدر نفسه، رقم ٦٠٢، ١٢/٨/١٩٧٠، ص ٢٤٠.

(١٦) المصدر نفسه، رقم ٧٠٤، ١٢/٧/١٩٧٣، ص ٢١٤.

(١٧) المصدر نفسه، رقم ٦٩٩، ٢١/٦/١٩٧٣، ص ٢٨٠.

(١٨) المصدر نفسه، رقم ٨١٧، ١/٧/١٩٧٦، ص ٤٠٨.

محمود عباس (أبو مازن)

لماذا جاء الليكود الى الحكم ولماذا سيذهب؟

منذ عام ١٩٢٥ انشق جابوتنسكي عن المنظمة الصهيونية العالمية ، واعلن قيام الحركة التصحيحية الصهيونية التي اطلق عليها بعض خصومها اسم حركة التحريفيين . واتخذت هذه الحركة دور المعارضة المتطرفة الراديكالية في صفوف الحركة الصهيونية سواء خارج فلسطين ام داخلها ، وكانت لها صلات مشبوهة منذ نشأتها مع موسوليني والحركة الفاشية متخذة من هذه الحركة مثلها الاعلى في سياستها العنصرية والعرقية ، وقبل ذلك تعاون عدد من مؤسسي هذه الحركة مع البتلوريين الاوكرانيين المنحرفين الذين استهدفوا ، في جملة ما استهدفوا ، يهود روسيا واوكرانيا وامعنوا فيهم قتلاً حتى يضطروهم للرحيل الى فلسطين . واستمرت الحركة التصحيحية في موقفها المعارض لنهج الحركة الصهيونية ، فانفردت بتنظيمها العسكري « الارغون » الذي تميزت عملياته ضد العرب الفلسطينيين بمنتهى القسوة والوحشية ، الى ان اعلن قيام دولة اسرائيل ، وتحول زعماء هذه المنظمة وعلى رأسهم مناحيم بيغن الى حزب سياسي معارض اطلق عليه اسم حيروت . وبقي هذا الحزب في الظل يمارس المعارضة باسلوبه الخاص ، ويمثل اقلية ضئيلة في الكنيست الاسرائيلي ، ويعيش بالفعل على هامش السياسة الاسرائيلية الرسمية دون ان تتعدى مشاركته العمل البرلماني حتى عشية حرب حزيران ١٩٦٧ ، حيث اعلنت حكومة ائتلاف وطني شملت حزب العمل (مباي) والعمال (مبام) والاحرار المستقلين والمتدينين (مفدال) ثم جاحال .. الذي يضم مجموعة صغيرة من الاحزاب المعارضة الى جانب حيروت . وكان ابرز المشاركين في الحكومة الائتلافية من هذا التنظيم الجديد (جاحال) مناحيم بيغن وعيزر وايزمن .

وحدثت الازمة الوزارية المشهورة بقبول اسرائيل لمبادرة روجرز ، وانعكست هذه الازمة على وزراء جاحال : حيث رفض وايزمن الخروج من الوزارة بينما اصر بيغن على الخروج منها احتجاجاً على قبول وزارة غولدا مائير للمبادرة المذكورة . وكانت هذه الازمة سبب اعتكاف وايزمن وانسحابه من حيروت بعد ان خذله زملاؤه في الحزب وايدوا بيغن في موقفه .

وجاءت حرب تشرين الاول ١٩٧٣ لتعلن عن التقصير والفضيحة والزلزال وغيرها من

التعبيرات التي وصفت بها نتائج هذه الحرب . واصيب حزب العمل وشركاؤه في الحكم بنكسة كبيرة وبخيبة امل لا حدود لها ، بينما اعتبر بيغن وزمرته ان الفرصة قد لاحت للقفز الى السلطة ، وبمبادرة من اريئيل شارون تشكل التكتل مؤلفاً من حيروت جماعة ارض اسرائيل الكاملة القائمة الرسمية وحزب الاحرار . وبالرغم من احرازه نصراً لا بأس به في الانتخابات التي تلت حرب تشرين الا انه لم يتمكن من الحصول على الاغلبية التي تؤهله لتشكيل الوزارة، واستمر حزب العمل مع حلفائه مشكلين بالمقابل تجمع المعراخ . واعادوا تشكيل وزارة رابين التي تحملت كل النتائج التي ترتبت على حرب تشرين الاول ، الا انها لم تتمكن من التصدي والصمود بوجه الازمات الكثيرة التي تفجرت في طريقها ، ابتداء من الوضع الاقتصادي السيىء ، مروراً بالفضائح المالية والاخلاقية التي اصابت الوزارة والتي ادت احداها الى انتحار الوزير ابراهام عوفر ، وانتهاءاً بكشف تلاعب رابين نفسه بالقوانين الاسرائيلية الامر الذي ادى الى قوط الوزارة قبل انتهاء المدة القانونية للانتخابات . ولعلنا جميعا نذكر السبب التافه الذي كان بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير والذي ادى الى انسحاب المتدينين من الوزارة ، وهذا السبب هو استقبال الحكومة لبعض الطائرات الاميركية المهداة الى اسرائيل مساء يوم الجمعة ، حيث يعتبر العمل في هذا الوقت لدى المتدينين من المحرمات التي لا يجوز ارتكابها . وبانسحاب هؤلاء خسرت الوزارة اغلبيتها التي كانت تتمتع بها وسقطت ، واعلن عن انتخابات جديدة وذلك بعد ان وصل كارتر الى الحكم ببضعة اشهر .

لقد كان واضحاً ان قوة خفية تحاول ان تخرج حزب العمل والمؤتلفين معه من السلطة ، وكان واضحاً ان معظم الازمات ، وليس كلها ، التي واجهت رجالات هذا الحزب هي الى حد ما مفتعلة لانهاكه وتفكيكه . وكان واضحاً ايضاً ان جهة ما تريد ان تنصب المعارضة الاسرائيلية في مركز السلطة . ولكن لم يكن واضحاً بالضبط الهدف الذي تسعى اليه تلك الجهة من وراء وصول هذه المعارضة الى الحكم .

اما الجهة التي نعنيها فهي بالتأكيد الولايات المتحدة الأميركية ، التي تقبض على زمام الأمور في مصير اسرائيل والتي تسيرها حسب ارادتها ورغباتها والتي تعتبر صاحبة الرأي الأول والأخير في رسم السياسة الاسرائيلية الداخلية والخارجية . وقد يبدو هذا الكلام غريباً للكثيرين من الزعماء العرب الذين يرون العكس ويعتقدون ان تل - ابيب هي صاحبة الحظ الأوفر والنفوذ الاعظم في واشنطن وانها قادرة ، من خلال ما يسمى باللوبي الصهيوني ، على التأثير المباشر على السياسة الاميركية ، بل قادرة على ممارسة الضغط على رئيس الولايات المتحدة وشيوخها ونوابها وصحافتها ورجال اعلامها .

ومن المؤسف ان تصدر لنا اميركا مثل هذه الآراء ، ونحن نتقبلها دون تحليل ومن غير تمحيص ، لان تصديقنا لها يعني ان اميركا بلد مغلوب على امره ، وانه مستعمر من قبل اليهود ، وان رئيس الولايات المتحدة رجل يستحق الشفقة والمساعدة ، وكثيراً ما كنا نسمع من بعض الزعامات العربية ان من واجب العرب العمل على مساعدة الرئيس الاميركي حتى يتصدى للضغوط الصهيونية ، بل ان كثيرين منهم فكروا بمساعدة الرئيس فلان أو الرئيس علان بمده بالمال ، حتى يتمكن من النجاح في الانتخابات ، لان الضغط الصهيوني يلعب دوراً كبيراً في اسقاطه بسبب مواقفه التي يفكر في ان يتخذها الى جانب العرب . بهذه السذاجة حاول بعض

العرب ، رغم كل البينات ان يفهموا السياسة الاميركية في منطقتنا ، وبهذه السطحية النابعة من الايمان بحقيقة وجود بروتوكولات حكماء صهيون ودولة اسرائيل عملاقاً جباراً مارداً قادراً على صنع المعجزة ، ليس في المنطقة فحسب بل وفي العالم اجمع .

لم يخجل موشي دايان عندما سئل عن رأيه فيمن سينجح في الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة ان يقول : « سينجح صوت اميركا .. وحتى لو كنت اول الناجحين » .

وكانت مفاجأة للعديدين ان الليكود حصل على اربعة مقاعد زيادة على ما حصل عليه المعراخ . وظن الذين لا يعرفون دخائل السياسة الاسرائيلية ان بيغن وزمرته من قادة الليكود خارجون عن نطاق السياسة الاميركية ، بينما كانوا يتصورون ان احزاب المعراخ هي وحدها التابعة لاميركا . وكما هو معروف لدى المتتبعين فقد افرزت نتائج الانتخابات الاخيرة جملة امور اهمها :

١) ان الليكود لا يستطيع ان يشكل وزارة اسرائيلية بالعدد من المقاعد في الكنيست التي استطاع الحصول عليها وهي ٤٢مقعداً، بينما يحتاج الى ٦١ نائباً مؤيداً كحد ادنى لتشكيل الوزارة .

٢) ان حزب المتدينين الذي اعتاد ان يشارك حزب العمل الوزارة منذ قيام دولة اسرائيل لا يمكن ان يقبل مشاركة الليكود في وزارته الجديدة .

٣) لو افترضنا ان المفدال وافق على الدخول في الوزارة فإن الاصوات المتجمعة لدى الطرفين لا تكفي لتشكيل الوزارة والحصول على ثقة البرلمان .

٤) استبعاد مشاركة جماعة الحركة الديمقراطية للتغيير في الوزارة لان لونهم الاميركي كان واضحاً ، ولأن اصولهم العمالية تحول دون مشاطرتهم وزارة يحكمها ما يسمى باليمين الاسرائيلي .

لذلك فقد كانت المراهنة على ان التكتل لن يتمكن من تشكيل الوزارة الاسرائيلية ، ولا بد للكنيست من ان يبحث عن صيغة ائتلافية جديدة . ولكن بيغن خيب آمال وظنون الكثيرين ، وتمكن من تشكيل الوزارة باصوات ضئيلة ، عندما قبل المتدينون ان يشاركوا في الوزارة بفئاتهم الثلاث ثم انضم اليه فلاتو شارون واريئيل شارون .. ثم « صوت اميركا » موشي دايان . وما لبث بعد فترة ان انضم يادين زعيم الحركة الديمقراطية للتغيير بكتلته التي تضم خمسة عشر نائباً . وهكذا ولأول مرة في تاريخ الحركة الصهيونية يصل احفاد جابوتنسكي الى سدة المسؤولية في الحركة الصهيونية وفي دولة اسرائيل . ولم يأت بيغن الى الوزارة رغم انف اميركا وانما بإرادة منها وموافقتها بل وبترتيبها المسبق .. وكان السؤال المطروح في ذلك الوقت : لماذا جاءت اميركا بحكومة بيغن ؟ وكان لهذا السؤال جوابان متناقضان : وهما :

١) اذا أرادت اميركا ان تطبق تسوية ما في الشرق الاوسط فإننا نعرف لماذا جاءت الان بحكومة بيغن .

٢) واذا لم ترد اميركا تطبيق اية تسوية في الشرق الاوسط فاننا نعرف ايضاً لماذا جاءت بحكومة بيغن .

وتبدو كلا الاجابتين على السؤال وكأنهما لغزان او احجيتان تحتاجان الى توضيح وتفسير .

سنفترض ان اميركا تفكر بتسوية ما في الشرق الاوسط تضمن مصالحها في المنطقة ، وعلى رأس مصالحها بقاء دولة اسرائيل قوية عزيزة الجانب قادرة على ردع العرب جميعاً في اي وقت ، وهذه التسوية تتطلب بعض التنازلات الاقليمية لكل الاطراف العربية المعنية في هذه المشكلة . ولما كان بيغن هو الطرف الاكثر تطرفاً ومعارضة فانه سيتخذ موقفاً متصلباً من اية تسوية مهما كانت شروطها طالما كان خارج اطار الحكم وبعيداً عن المسؤولية ، ولكن حينما يصبح في قلب المسؤولية ويجري بعض التنازلات فانه لن يجد معارضة من احد ، لأن الطرف المعارض الان هو المعروف بمرونته .

واذا افترضنا ان اميركا لا ترى ان الوقت مناسب لاية تسوية ، فانها تتذرع لدى العرب بتصلب حكومة بيغن وتطرفها وعدم قدرتها ـ اي اميركا ـ على الضغط عليها ، وانها بحاجة الى وقت طويل حتى تتمكن من ترويض هذه الحكومة او الانتظار حتى سقوطها . ولا بد في هذه الحالة ان تشير الى اللوبي الصهيوني الذي يحكم اميركا وضعف رئيسها وخضوعه للسيطرة الصهيونية ، وما الى ذلك من المعزوفة التي نسمعها منذ زمن بعيد .

اذن فأياً كان السبب الذي جعل اميركا تأتي بحكومة بيغن الى السلطة ؛ فمجيؤه في مصلحتها ويحقق ما تريد .. كان هذا هو الحوار عشية الانتخابات الاسرائيلية الاخيرة وكانت تلك هي التكهنات والتحليلات للوضع السياسي الاسرائيلي . ترى لو عدنا للواقع ؛ للممارسات التي تمت منذ ذلك التاريخ حتى الان فماذا نرى ؟ .

بدأ التحرك الاميركي بتنقل سايروس فانس بين عواصم المنطقة ، يحمل ورقة عمل او اوراق عمل لعقد مؤتمر جنيف ، ونظراً لتباين الرأي بين سوريا ومصر في اسلوب وطبيعة هذا المؤتمر ،فقد تمكن فانس من وضع اول اسفين في العلاقة بين البلدين ، ثم صرف النظر كلياً عن هذه الاوراق .

ثم جاء البيان المشترك الاميركي ـ السوفياتي الذي ابرز التوازن بين القوتين العظميين ، ولكنه ما لبث ان نقض من قبل اميركا وانتهى امره ومفعوله .

وتلا ذلك زيارة القدس التي افرزت بالدرجة الاولى خروج مصر نهائياً من الصراع العربي الاسرائيلي وانفرادها في البحث عن حل مصري ـ اسرائيلي يحقق الانسحاب من سيناء بأي ثمن . وهكذا وضعت اسس التسوية في المنطقة على النحو التالي :

١) امكانية الانسحاب من سيناء مقابل علاقات طبيعية كاملة بين الدولتين وازالة كل مظاهر واسباب العداء .

٢) عدم الاعتراف بوجود مشكلة فلسطينية او بوجود الشعب الفلسطيني .

٣) الارضية التي ينطلق منها اي حل لمشكلة الضفة والقطاع او (يهودا والسامرة والقطاع) يجب ان تكون على اساس ان الارض اسرائيلية والناس سكان ، يمكن حل مشكلتهم

بارتباطهم بجنسيات عربية ، او خروجهم الى البلدان المجاورة . وهذا ما اطلق عليه اسم الحكم الاداري او الحكم الاداري الذاتي ، والذي اختلف الاطراف في تفسيره وتقديم معنى محدد له . ولكن العقدة لم تكن في اتفاق الاطراف المتفاوضة بمقدار ما كانت لدى اصحاب العلاقة ، الذين خيبوا آمال المتفاوضين ورفضوا بالاجماع الموافقة على تلك الطروحات . ولذلك كان على اميركا ان تبحث عن حل آخر ، حل شكلي آخر ، وهو تغيير الوجه الاسرائيلي المفاوض .

ومنذ ان وقعت اتفاقية كامب ديفيد انتشر المبعوثون الامريكيون في طول الوطن العربي وعرضه ، يبشرون ببداية نهاية حكومة بيغن ، سواء بالنهاية الشخصية (موته بمرض القلب) او النهاية السياسية بسقوط الحكومة واستبدالها بحكومة اكثر مرونة « واعتدالاً » واكثر قدرة على تفهم المطالب العربية واقل «تطرفا» من حكومة بيغن « المتحجرة » .

والواقع ان العد العكسي لهذه الحكومة قد بدأ بتفشي الازمات المتلاحقة والمستمرة ، والتي بدأت بفشل السياسة المالية للحكومة وخروج زعيم الاحرار سيمحا ايرليخ من وزارة المالية واستبداله بيغئال هوروفيتش، مما ادى الى هزة عنيفة ضمن صفوف الاحرار من جهة وضمن صفوف الليكود بشكل عام من جهة اخرى . وتبع ذلك خروج موشي دايان من الحكومة ، فكانت هزة اخرى ولم تكن الهزة بسبب خروجه بمقدار ما كانت بسبب التنازع على البديل ، مما جعل بيغن يتولى بنفسه مسؤولية وزارة الخارجية الى ان هدأت العاصفة ، ثم عمد الى تعيين اسحاق شامير رئيس الكنيست في هذا المنصب ، وانتهت الازمة او اجلت الى حين . ثم كانت الهزة الكبرى التي ادت الى استقالة عيزر وايزمن وزير الدفاع ، وهو الرجل القوي في حيروت احتجاجاً على سياسة الحكومة تجاه وزارته وتشاريعه العسكرية والامنية ، وفي نفس الوقت . حتجاجاً على اسلوب الحكومة في تسيير مفاوضات الحكم الذاتي وقناعته بعقم هذه السياسة التي لن تؤدي الى نتيجة ، بسبب التصلب وعدم المرونة حتى في الشكليات : الامر الذي اظهر وايزمن امام بعض زعماء العرب والعالم على انه الرجل القادر على تطبيق حل مقبول لكل الاطراف ، ولذلك فانه اعلن استعداده للمشاركة في حكومة يرأسها شمعون بيرس، او ان يترأس هو بنفسه حكومة جديدة لاسرائيل . على كل حال فقد اتخذ موقفاً متعارضاً مع بيغن وحكومته وربما يؤدي ذلك الى تمزيق الليكود في المستقبل او تمزيق حيروت بشكل خاص .

على صعيد آخر فقد استطاع المعراخ ان يلملم صفوفه وان يسترد كثيراً من سمعته المنهارة ، وان يستعيد شعبيته التي وصلت الى الحضيض عقب حرب تشرين وحتى بداية الانتخابات الاخيرة . فقد تمكن من المحافظة على وجوده كأغلبية في الهستدروت ، هذا التنظيم الذي يعتبر حكومة داخل حكومة لما له من النفوذ الاقتصادي والبشري والاجتماعي في المجتمع الصهيوني . كذلك استطاع المعراخ ان يصلب موقفه في معظم الاتحادات المهنية والشعبية وآخرها اتحاد المعلمين الاسرائيليين حيث حصل على ٥٢٪ من مجموع الاصوات ، في الوقت الذي لم تصل فيه نسبة ما حصل عليه الليكود الى ٧٪ .

كما عمدت مراكز الابحاث المهتمة بدراسة الرأي العام في اسرائيل الى قياس الاهتمامات السياسية لدى الاسرائيليين ، واجرت سلسلة من الدراسات والاستفتاءات حول مدى شعبية كل من المعراخ والليكود ، وكذلك حول شعبية زعماء معينين من كلا الكتلتين . وقد ثبت لكل هذه

المراكز والمعاهد ان شعبية المعراخ تفوق بكثير شعبية الليكود ، وان الاول سيحصل على ٦٢٪ من اصوات الناخبين الاسرائيليين . كذلك عندما تجري مقارنات بين بيغن-وبيريس او بين بيغن ووايزمن نجد ان بيغن دائماً في اسفل سلم الشعبيات ، مما يدل على أن سقوط وزارته بات وشيكاً وان مرحلته التي رسمت له باتقان قد انتهت .

ويلاحظ في الفترة الاخيرة كثرة طلبات طرح الثقة على الحكومة من قبل احزاب مختلفة ، ولاسباب قد لا تبدو وجيهة في بعض الاحيان . في نفس الوقت فان معظم الاحزاب المشاركة في الوزارة عمدت الى عقد مؤتمرات عامة واجتماعات مستمرة ، الغرض منها تقويم موقفها في الحكومة وتقويم موقف الحكومة نفسها ودراسة امكانية خروج هذه الاحزاب منها ، تمهيداً لتقديم موعد الانتخابات .

ومن جهة اخرى نرى الولايات المتحدة تستدعي تارة زعيم المعارضة شمعون بيريس للتشاور وعيزر وايزمن وزير دفاع حكومة بيغن تارة اخرى ، وكأنها تريد ان توحي للرأي العام الاسرائيلي ولبيغن نفسه ان هذين الزعيمين هما محط اهتمامها وثقتها ، وانها تعوّل عليهما كل الآمال في تسيير السياسة الاسرائيلية في المستقبل .

وتشير كل المصادر المقربة من البيت الابيض الى ان اميركا تبحث معهما فعلاً وبالتفصيل هذه السياسة التي ترى انهما (منفردين او مجتمعين) جديران بتنفيذها في الشكل والمضمون الذي تراه ، في الوقت الذي توعز فيه للصحافة واجهزة الاعلام بشن حملة ضد بيغن تنعته بالتصلب والتحجر وفقدان المرونة ، كما تتهمه بانه يعمل بشكل مباشر ضد مصلحة اليهود سواء كانوا في اسرائيل ام خارجها ، وعلى الخصوص يهود الولايات المتحدة ، هؤلاء الذين بدأوا يتحركون ايضاً ضد سياسة بيغن ويعلنون بصراحة انه غير قادر على المحافظة على مكاسب اليهودية العالمية وعلى كيان دولة اسرائيل .

ومن خلال هذا السيناريو يجد الرئيس السادات لنفسه دوراً يلعبه ومهمة يؤديها عندما يستضيف اكثر من مرة شمعون بيريس ، محاولاً ان يلقي عليه الاضواء لا كزعيم للمعارضة وانما كرئيس لحكومة مقبلة ، كذلك لا ينسى ان يحيط وايزمن باستمرار بمظاهر الحفاوةوالتكريم والاحترام ، مذكراً بموضوعيته وعقلانيته وواقعيته .

ولاستكمال الصورة وحتى تزداد وضوحاً ، لا بد ان نتعرف الى المبادرة الاوروبية التي ربما جاءت بجديد او كانت متممة للدور الاميركي في رسم السياسة الشرق اوسطية . ويغالي كثيراً من يدعي ان الموقف الاوروبي هو صورة طبق الاصل للموقف الاميركي .وهذا لا يعني اننا نرى فيه تناقضاً جذرياً او مغايرة كلية ، ولكننا نراه متبايناً عنه الى حد ما لتباين المصالح والاتجاهات والغايات ، وبالرغم من ان حلفاً يربط الجميع الا ان هامشاً ـ صغر او كبر ـ يبقى لكل طرف يعكس فيه خصوصيته ويضمن له حداً ادنى من الاستقلالية .

وسواء كانت المبادرة الاوروبية برغبة اميركا ام رغماً عنها ، فإن ملامحها التي اعلنها اكثر من مرة جيسكار ديستان تختلف عن ملامح الموقف الاميركي في مناح عدة ، مع العلم بأن اوروبا ، كما اسلفنا ، لا يمكن ان تتناقض مع اميركا . ولذلك جاءت الاعلانات الجدية عنها بعد

اعلان فشل مباحثات الحكم الذاتي ، حتى لا يغضب الاعلان اميركا او يحرجها . ومن المعتقد ان تكون هذه المبادرة مكملة للنقص الوارد في اتفاقية كامب ديفيد ،فهل ستقول اوروبا ما لم تستطع اميركا قوله ؟ ان كان الرد بالايجاب ، وهذا هو الارجح ، فهذا يعني ان الدور الاوروبي سيكون ذا اثر مباشر على حكومة بيغن ، وسبباً آخر من الاسباب التي تصب كلها في الوصول بهذه الحكومة الى النهاية المرسومة ، التي ستقع قبل النهاية الطبيعية . ان صح ما نقول فاننا نستطيع ان نفهم مغزى الجولة المكثفة والسريعة التي كلف بها اسحاق شامير وزير الخارجية الى دول اوروبا الغربية حاملاً معه وثيقتين اساسيتين : ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية ، الذي يدعي شامير بأنه يحمل في طياته المطالبة بتدمير كيان اسرائيل ، والبيان السياسي الختامي لمؤتمر حركة فتح الرابع ، الذي يتحدث بشكل مباشر عن نضال الشعب الفلسطيني لإقامة الدولة الديمقراطية الفلسطينية ، التي تعني بالضرورة ـ كما تفهمه اسرائيل ـ تدميراً لها . واعتبر شامير ان هاتين الوثيقتين من اهم ما يمكن ان يثبت ادانة منظمة التحرير الفلسطينية ، الامر الذي سيخفف حماس اوروبا تجاهها ويقلل من اندفاعها في الحديث عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وكذلك عن اشتراك المنظمة في اية مباحثات مقبلة تتعلق بالقضية . ولذلك فان مهمة شامير تحمل في طياتها هجوماً معاكساً مزدوج الهدف : الاول هو ابطال اي مفعول للمبادرة الاوروبية مهما كانت التغييرات والتعديلات التي ستحدثها على اتفاقية كامب ديفيد ، والثاني محاولة تعرية منظمة التحرير امام الرأي العام الرسمي الاوروبي ، وتحقيق كلا الهدفين يعني الدفاع غير المعلن عن حكومة بيغن والتأكيد على انها ما زالت قادرة على ممارسة مهامها ، وانها لم تستنفد اغراضها ، او ان بامكانها ان تستمر حتى نهاية مدتها الرسمية .

عندما اعلن بيغن عن موقفه وفهمه لموضوعة الحكم الذاتي،اعتبر ذلك لدى كثير من الصحفيين الاسرائيليين فشلاً ذريعاً للتكتيك السياسي الاسرائيلي ، وقد عبر عن ذلك احدهم بقوله : « لو قدمنا تحسينات لفظية على هذا المشروع لامكن قبوله من قبل المعتدلين الفلسطينيين ، ولكن طرحه بهذا الشكل وحّد جميع الفلسطينيين بكل اتجاهاتهم المتطرفة والمعتدلة ، ولو عملنا غير هذا لأمكن دق اسفين في المجتمع الفلسطيني » ترى ،هل تتبنى حكومة المعراخ المقبلة رأي الصحفي الاسرائيلي ؟ خصوصاً وان الادارة الاسرائيلية تعمل الآن بكل جهد من اجل تمهيد الارض لمشاريع المستقبل ، ويتمثل عملها هذا في عمليات القمع والارهاب التي تمارس على شعبنا وزعمائه ورجالاته القابضين على زمام اموره في الداخل ، وتعتبر محاولات اغتيال الشكعة وخلف والطويل حلقة في سلسلة الاجراءات التي ترى الادارة الاسرائيلية انها ضرورية لتمرير مشاريعها ، ولذلك فإن السياسة الاسرائيلية المقبلة ستكون على النحو التالي : تنازلات لفظية ، ولكنها تبدو جوهرية فيما يتعلق بطبيعة الحل وبما يتناسب مع سمعة المعراخ المرن ، وفي نفس الوقت تمارس مزيداً من الارهاب لتقطيع اوصال الفلسطينيين وفك الارتباط بين الداخل والخارج . ولا ننسى في معرض سرد الظروف المناسبة لمرحلة جديدة مقبلة في المنطقة ان نشير الى مأساة التضامن العربي وعدم فعالية الصمود والتصدي بما يتناسب مع ما توقعه المواطن العربي منه ، يضاف الى كل هذا الاشغال والانهاك المستمران لقوات الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ، بدءاً من المؤامرة الانعزالية وانتهاءاً بتصفية الحسابات العربية على الارض اللبنانية ، مروراً بالتجاوزات والمخالفات اللامسؤولة التي تمارس يومياً .

تلك هي الملامح والمؤشرات التي تدعونا الى القول بان حكومة بيغن راحلة قبل الاوان ، لتفسح المجال لحكومة اخرى تكمل المشوار مع من ترى انه راغب في ذلك . فهل تجد من يرغب ؟ . لا يكفي ان نقول لا ، يجب ان نعمل لتحقيق هذه الـ « لا » . ان الاحتجاج على محاولة اغتيال الشكعة وخلف والطويل لن يعيد ساقي الشكعة وقدم خلف ولن يحفظ ساقي الطويل ويديه وعينيه ، فهل سيبقى مكتوباً على شعبنا وحده ان يعمد صموده بدمه وان يزرع اوصاله في الوطن حتى لا يتمكن أحد من انتزاعه منه ؟ . لن ينفع الاحتجاج ولا يصلح الدعاء ، ولن تقبل الصلوات .

ابراهيم غنايم

المطامع الصهيونية في سوريا وشرق الأردن

يخلص الدارس للسياسة الصهيونية التوسعية في المنطقة العربية ، إلى نتيجة مفادها أن النوايا الاستيطانية ، وما تبعها من مخططات ومشاريع ، لم تتوقف ، كما أنها لم تقتصر على المنطقة المسماة فلسطين ، من الوطن العربي فحسب . بل سعت الصهيونية ، وهي لا تزال تسعى ، الآن ايضاً ، نظرياً وعملياً ، الى تنفيذ مخططاتها الأولى التي شملت ، الى جانب فلسطين ، أجزاء من مصر وشرقي الاردن وسوريا ولبنان . ويتيح تتبع تلك السياسة الصهيونية رؤية تيارين كانا يتصارعان داخل الحركة الصهيونية ، في بداية نشاطها في مجال الاستيطان ، يقول الأول منهما أنه يجب البدء بعملية الاستيطان من الشرق الى الغرب ، اي من أطراف الصحراء ومن ثم الاتجاه نحو البحر ؛ أما التيار الثاني ، وهو الذي يدعو الى عكس ذلك ، فينادي ببدء الاستيطان من الغرب الى الشرق ، اي انهما متفقان على الهدف النهائي ، وهو خلق اسرائيل الكبرى ، ولكنهما يختلفان حول الاسلوب والأولوية .

وفي إطار تنفيذ مخططات التيار الاول القائل بوجوب البدء بالاستيطان من الشرق الى الغرب ، جرت محاولات لشراء الاراضي في كل من سوريا وشرقي الاردن، بغية اقامة المستوطنات اليهودية عليها. وتم، في هذا الصدد بذل جهود مكثفة قام بها كل من البارون ادموند روتشيلد ، والوكالة اليهودية وغيرها من المنظمات اليهودية والصهيونية لشراء الاراضي في منطقة حوران وشرق الاردن ، وإقامة المستوطنات اليهودية عليها . وبعد دراسات مطولة وزيارات متكررة واتصالات مثمرة نجحوا في شراء مساحات لا يستهان بها ، وبخاصة في منطقة حوران وغور الاردن وغيرها من المناطق . غير ان تلك المشاريع فشلت في النهاية ؛ وذلك لاسباب كثيرة لا مجال لذكرها ، إذ سيتضح لنا بعضها خلال الصفحات التالية :

المطامع الصهيونية في سوريا

ان التصريحات المتكررة التي يطلقها الاسرائيليون ، على مختلف مستوياتهم ، بأنهم لن يتخلوا عن الجولان لانه جزء من اسرائيل ، وكل السياسة الاستيطانية التي تتبعها اسرائيل هناك ، لم يأت من العدم او بصورة مفاجئة ؛ وذلك لأن الأباء الاوائل للصهيونية كانوا قد

وضعوا ، منذ عشرات السنين ، المخططات للاستيلاء على تلك المنطقة ، والسياسة الاسرائيلية الحالية ، ليست الا التطبيق العملي والحرفي للسياسة المرسومة قديماً. وفي هذا السياق نرى ان الاهتمام بدأ ، لدى بعض الاوساط اليهودية المختلفة ، في كل من روسيا ورومانيا وبلغاريا والولايات المتحدة وكندا وانجلترا ، لاقامة مستوطنات زراعية جديدة في فلسطين ومن ثم توطين اعضائها عليها . وقد طلبت بعض تلك الاوساط والشركات من البارون ادموند روتشيلد ، الاستعانة بجهاز الموظفين التابعين له ، في فلسطين ، لاتمام عملية شراء الاراضي وكذلك عملية التوطين . ولكن روتشيلد ، خاف من ان يؤدي ذلك الى تحميله مسؤولية كبيرة : الأمر الذي جعله يبتعد عن اقامة اي علاقة رسمية مع تلك الشركات ، ولكنه الى جانب ذلك ، أسس « لجنة فلسطينية » ، تقوم بدعم الشركات المعنية بالاستيطان في فلسطين ، ومساعدتها على شراء الاراضي ، وحتى في تأمين الاموال المطلوبة لذلك . وفي هذه الاوضاع ، وافق البارون روتشيلد على ان تتم عملية شراء الأراضي بواسطة موظفيه في فلسطين . وقد استطاعت تلك اللجنة ، عام ١٨٩٤ ، شراء اراضي تقدر مساحتها بحوالى مائة ألف دونم في الجزء الجنوبي ـ الغربي من حوران ؛ وذلك في القرى الاربع التالية : سحم الجولان ، جبلين ، نبعه وبوسطاس * . وكانت تلك الاراضي تعود ، في قسم منها ، لشخص اسمه أحمد باشا ابو الهدى ، وهو رجل ملاك من دمشق ، أما القسم الآخر فكانت تملكه الحكومة العثمانية (١) .

وقد تمت عملية شراء الاراضي بواسطة عملاء يهود ، من بيروت هم : أميل فرانك ، وهردنشتاين وافشتاين **. وبالرغم من ان القانون العثماني يمنع بيع الاراضي التي تملكها الدولة (ميري) ، في سوريا وفلسطين ، لليهود الذين لا يحملون الجنسية العثمانية ، فقد نجح أميل فرانك الذي يحمل الجنسية الفرنسية ، في شراء الاراضي في حوران وتسجيلها باسمه الشخصي ؛ حيث كان له نفوذ لدى السلطة في كل من دمشق وبيروت . وبغية عدم اثارة غضب الحكومة المركزية في القسطنطينية ، طلبت السلطات المحلية من أميل فرانك ، التعهد بعدم احلال سكان أجانب ، بدلاً من السكان القاطنين على الارض التي سجلت باسمه . وقد أدى هذا التعهد، الذي اعتبره فرانك تعهداً لا قيمة له، الى صعوبات كبيرة امام خطة الاستيطان اليهودي في حوران ، حيث استغله الحكام الاتراك ضد المستوطنين اليهود (٢) .

وحدث ان انتشر خبر التعهد الذي التزم به فرانك المذكور وعلمت به الجمعيات في الولايات المتحدة وانجلترا ، التي استثمرت اموالها في ذلك المشروع ، وسلمتها « للجنة الفلسطينية » في باريس ، مما ادى الى إثارة وارباك اعضاء جمعيات « شفي ـ تسيون » في نيويورك ، والتي كانت اول من تجمع ، في الولايات المتحدة ، من اجل الهجرة الى فلسطين ، والاستيطان في حوران . وكان منظم هذه الجمعيات شخص يدعى آدم روزنبرغ ، وهو احد نشيطي حركة « أحباء صهيون » في الولايات المتحدة وقائد حملة الهجرة للاستيطان في حوران . وقد بذل هذا جهوداً مضنية في سبيل اقناع اعضاء الجمعية بعدم سحب اموالهم ، ولكنه لم ينجح الا مع

* يقع خط وقف إطلاق النار بين إسرائيل وسوريا ، بعد حرب ١٩٦٧ ، على بعد خمسة كيلو مترات تقريباً من اراضي نبعه وحوالي عشرة كيلو مترات تقريباً من سحم جولان .

** مؤلف كتاب « شيفات تسيون ميغراف » .

حوالي (١٥٠) شخصاً من بين اكثر من ألف عضو في الولايات المتحدة وكندا ، وقد حاول اقناعهم آملاً بأنه ، لدى هجرتهم الى فلسطين ، ومن ثم الاستيطان على ارضهم في حوران ، فان المسؤولين عنهم سيتغلبون على الصعوبات التي نجمت عن تعهد فرانك السابق . وكذلك في انجلترا ، التي لاقت فيها خطة الاستيطان في حوران ، تأييداً رسمياً من قبل لجنة « احباء صهيون » في لندن ، فقد كان رد الفعل ، لدى رؤساء الجمعية ، التوقف عن تأييدهم للمشروع ؛ وذلك بعد ان علموا بشروط شراء الاراضي في حوران . ولهذا السبب ، بدأ العدد يقل تدريجياً ، لدى المجموعات التي تنظمت من اجل الهجرة الى فلسطين ، ولدى تلك التي تنظمت من اجل الاستيطان في حوران . ويبدو أيضاً ان البارون روتشيلد نفسه ، لم يكن راضياً عن شروط شراء تلك الاراضي ؛ لهذا ، ومن اجل الحيلولة دون قيام السلطات المحلية بأعمال الابتزاز والتهور ، أرسل الى القسطنطينية ، في نهاية عام ١٨٩٤ ، الياهو شايد ، المدير الرئيسي لاعماله في فلسطين ، من اجل تأمين مستقبل ذلك المشروع ، خوفاً من أن تتعرض له الحكومة المركزية او السلطات المحلية . وفي القسطنطينية ، قام شايد المذكور ، باجراء محادثات مطولة مع مختلف المسؤولين في العاصمة العثمانية ، وتوصل للقاء السلطان العثماني نفسه . وإثر المحادثات هذه ، تسلم البارون روتشيلد رسالة من الوزير الأول العثماني ، أعلمه فيها أنه تمت الموافقة على السماح بدخول (٢٠٠ ـ ٣٠٠) عائلة يهودية الى حوران سنوياً ، وان لهؤلاء الحق في الاستيطان على الأراضي التي تم شراؤها لهم هناك . ولكن تلك الرسالة لم تسفر عن اي شيء ايجابي ، إذ اعترضت عليها السلطات المحلية بشدة . وبالرغم من ذلك ، فقد تشجعت « اللجنة الفلسطينية » ، بعد الغاء قرار المنع ، فقامت بتوزيع الاراضي على مختلف الجمعيات التي جاءت من بلدان مختلفة . وخلال عملية التقسيم الأول تم اعطاء اعضاء « شفي ـ تسيون » في نيويورك حوالى ٨ آلاف دونم ، والجمعية في شيكاغو ٦ آلاف دونم ، والجمعية في مونتريال ٤ آلاف دونم ، والجمعية في رومانيا ١٨ ألف دونم والجمعية في يكترنيسلوف ـ ١٨ ألف دونم ، واما الجمعيات في انجلترا فقد حصلت على ١٠ آلاف دونم (٣) .

واثر عملية مسح الاراضي التي بدأت في آب ١٨٩٥ ، جرت الاستعدادات لعملية الزراعة والغرس . وكان يهود رومانيا واعضاء « شفي ـ تسيون » من نيويورك ، وعددٌ من يهود بلغاريا اول من سيصل . وقد تسلمت جمعيات « شفي ـ تسيون » ٨ آلاف دونم من اراضي سحم الجولان ، حيث تم توزيعها على الاعضاء الذين بلغ عددهم ٧٠ شخصاً ، فحصل كل واحد منهم على ٥٠ دونماً . وقد تقرر ، خلال الاجتماع الذي عقدته جمعيات « شفي ـ تسيون » الموحدة في نيويورك ، تسمية المستوطنة الجديدة باسم « تفئيرت بنيامين » * ؛ وذلك عرفاناً لجميل البارون ادموند روتشيلد . وقد تم وضع نظام لتلك المستوطنة ، ولغيرها من المستوطنات ، يقضي بأن يقوم المستوطن بدفع ثمن حصته كاملاً ، وبأن يتمتع كل عضو بحق الاستيطان على ارضه وان يشغلها كيفما يشاء دون الارتباط بادارة المستوطنة ، التي حددت مهمتها بالاعتناء بالشؤون العامة للمستوطنة والوصاية على اراضي المستوطنين الذين لم يهاجروا بعد . كما جاء في النظام أن كل مستوطنتين، أو اكثر ، يجب ان يكون لهما ادارة عامة ، دون أن يحق لأي منهما التدخل في الشؤون الداخلية لجارتها . هذا ، وقامت جماعة يهود يكثر ينسلف ، التي اطلقت على نفسها

* اي فخر بنيامين ، باسم جدال روتشيلد .

اسم « اغودات أحيم » بتسلم حصتها من الاراضي في قرية نبعه ، اما المستوطنون من رومانيا وبلغاريا فقد كانت حصتهم في اراضي قرية جيلين . ومن ناحيتها ، استمرت « اللجنة الفلسطينية » في باريس باتصالاتها مع جهات يهودية في مختلف الدول ، بهدف تشجيع استمرار هجرة المستوطنين للاستيطان في اراضي حوران التي لم توزع بعد . وقد حدث ان زاد الاهتمام بهذا الاستيطان ، لدى بعض الجمعيات التي سبق وانسحبت من هذا المجال ، وذلك في اعقاب الاعلان عن بداية الاستيطان في حوران (٤) .

هذا وقد وصلت ، في نهاية صيف ١٨٩٥ ، الى حوران ، عشر عائلات من رومانيا وعائلتان من الولايات المتحدة وعائلتان أخريان من روسيا . ثم وصلت ، بعد ذلك ، مجموعة من العائلات الروسية والرومانية ، حيث بلغ عددها الاجمالي ٢٥ عائله ، ولم تكن أي عائلة من هذه العائلات قد أهّلت لممارسة الاعمال الزراعية ، وكذلك لم تكن اي منها مطلعة على طبيعة الحياة وظروفها الصعبة في حوران . ولم تتوقف مشاكل المستوطنين عند هذا الحد ، بل واجهوا ما هو أكثر صعوبة وخطورة : ذلك أنهم تعرضوا لمهاجمة البدو لهم من جهة ، ولمضايقات كاظم باشا ، حاكم دمشق، من جهة أخرى: فقد اتهمهم هذا بإقامة المخازن لتجميع السلاح، وبأنه كانت لهم علاقة بثورة الدروز التي اندلعت في تلك السنة في جبل الدروز المجاور، الخ. وقد اعتمد كاظم باشا ، على التعهد الذي اخذه اميل فرانك ، على نفسه ، بعدم ابدال السكان المحليين بسكان أجانب : فأمر ، بعد اتهامه اياهم بفترة قصيرة ، بطردهم من هناك ، ولكن موظفي البارون اجروا مفاوضات مع السلطات في دمشق وفي حوران وحاولوا بكل طاقتهم إعادة المطرودين الى ارضهم . وكذلك شغّل شايد ، مرة أخرى ، نفوذه في قسطنطينية . وفي النهاية ، سُمح لهم بالعودة الى بيوتهم ، ولكن السلطات منعت وصول اي مهاجرين جدد للاستيطان في حوران ، كما لم يتم السماح للذين عادوا الى حوران ببناء بيوت جديدة . وبناء على تلك الظروف المستجدة ، لم توافق اغلبية العائلات على العودة ، وحتى أن القلة التي عادت لم تترسخ هناك : إذ تم ، بعد فترة قصيرة ، ترك المكان من قبل المستوطنين اليهود بصورة نهائية ، خوفاً من العزلة وصعوبة الحياة ، وكذلك من تهديد البدو وتصرفات السلطات التركية (٥) .

هذا ، ومن الملفت للنظر ، أن طرد المستوطنين اليهود من حوران قد تم بعد فترة قصيرة من زيارة الدكتور تيودور هرتسل للقسطنطينية ، الذي سعى ، في تلك الزيارة ، للحصول على تأييد لمخططاته السياسية لدى السلطان . وقد وصل الى هرتسل خبر من الدكتور ماكس نورداو ، والذي حصل عليه بدوره ، من الحاخام تسادوك كوهين جاء فيه ، أن نشاط هرتسل ، في القسطنطينية ، هو الذي تسبب في صدور قرار الطرد . وعندها توجه هرتسل على الفور إلى السلطات العثمانية حيث حصل منها على نفي تحريري وشفهي بخصوص ذلك . وقد علم هرتسل ان مصدر السوء كان الياهو شايد ، الذي رأى في هرتسل منافساً لنشاطه واتصالاته الشخصية في العاصمة التركية ولدى بلاط السلطان (٦) .

ماذا حدث بعد طرد اليهود من حوران ؟

حدث بعد أن طُرد المستوطنون اليهود من حوران أن سلّمت ادارة البارون تلك الاراضي للمستأجرين العرب من أهالي القرى المجاورة . وتم في جيلين ، وحدها ، تأسيس مزرعة

مختلطة ، أديرت من قبل موظفي البارون وخبرائه . حيث تم زرع مختلف الاشجار ، كالزيتون والعنب وغيرها . وقد نجحت تلك المزرعة كثيراً بسبب وفرة المياه هناك . كما جرت محاولات للقضاء على الامراض في تلك المنطقة ، وبخاصة مرض الملاريا : ولهذا زرعت اشجار الكينا (يوكلبتوس) ، وكان معظم عمال المزرعة ، في البداية ، من اليهود ، حيث وصل عددهم ، خلال السنوات الأولى إلى (١٥ ـ ٢٠) رجلاً ، منهم حوالى (١٠ ـ ١٢) من دمشق ، ثم قل عددهم فيما بعد ، حتى أنه لم يبق ايّ منهم خلال السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، فتم تسليم المزرعة للعمال العرب (٧) . وقد حدث عام ١٨٩٩ ـ عندما قاربت عملية تسجيل اراضي حوران باسم البارون روتشيلد في الطابو ، على الانتهاء ـ أن وقع حادث كاد ان يتسبب في مصادرة الارض من اصحابها . فقد قام اميل فرانك ، الذي تسجلت الارض باسمه ، برهن الاراضي ، بسبب وضعه الصعب ، في بنك ابراهيم صباح في بيروت . وقد استمرت المفاوضات الصعبة والمعقدة ، طيلة اربع سنوات ، جرت خلالها جلسات في المحاكم ، وبذلت أثناءها نفقات مالية كبيرة ، تمكن بعدها ممثلو البارون من استرجاع الاراضي وضمان ملكية شركة « يكا » لها . وفي النهاية تم تسجيل الاراضي في مكاتب الطابو باسم شلومو دانياخ ، احد مدراء الشركة في باريس . وقد ادت تلك الفترة الطويلة من المحاكم والمفاوضات ، الى تغلغل العرب في تلك الاراضي والتوطن عليها بصورة دائمة . وعندما جاءت الشركة عام ١٩٠٥ للقيام بمسحها وجدت ، بدلاً من اراض مساحتها حوالى مائة الف دونم ، اراضي مساحتها حوالى ٨٠ ألف دونم ، اي بنقصان قدره ٢٠ ألف دونم (٨) .

وحدث ، لدى دخول تركيا الحرب الى جانب المانيا ، أن صادرت السلطات جميع الاراضي التابعة للشركة باعتبارها ملكاً للعدو ، وطردت مدير المزرعة في جيلين ، المدعو عبدو فرحي ، الى أنقره. ثم تم هدم كافة البيوت واقتلاع جميع الاشجار المزروعة هناك، على يد الجيش وهكذا خربت المزرعة نهائياً (٩) .

تجديد النشاط بعد الحرب العالمية الاولى

لم يتواجد اي يهودي، سواء كان موظفاً او عاملاً ، على ارض البارون في حوران طيلة سنوات الحرب . فقد شعر العرب من السكان المحليين بأنهم اصحاب الأرض والبيوت . وفقط ، بعد احتلال فلسطين وسوريا من قبل جيوش اللنبي ، ذهب في شهر أيار ١٩١٩ ممثلو شركة « يكا » في فلسطين الى حوران من اجل معرفة الوضع هناك . ومن ثم ، مع اقامة الحكم الفرنسي في سوريا تطور الأمر نحو الأحسن لصالح الشركة : إذ سمح لممثليها وللمرة الاولى منذ شراء الاراضي ، بالاهتمام بصورة منظمة باملاكها . وفي السنوات الأولى بعد الحرب ، لم يستجب المستأجرون العرب لطلبات ممثلي الشركة بتصفية الحساب بينهم عن السنوات الماضية ، وقد تم ايجاد نوع من العلاقات للفترة القادمة : إذ اعتبر المستأجرون أنفسهم ، اصحاباً للارض بكل ما تعنيه الكلمة ، ولهذا لم يروا اية ضرورة لاجراء مفاوضات مع شركة « يكا » . عند ذلك ، توجه احد مندوبي الشركة المدعو شبتاي ليفي ، الى الملك فيصل ، الذي كان لا يزال يحكم في دمشق ، والذي قبل بحجج « يكا » ، وأمر باعادة الاراضي التي صادرها الاتراك ، إليها . وبعد عدة منازعات مع الفلاحين ، تسلمت الشركة نظرياً وعملياً ، الاراضي التي كانت بحوزتها

قبل الحرب . وتم في تلك السنة عقد اتفاقيات تأجير ، بينها وبين المستأجرين العرب : حيث تم الاتفاق على أن تنال الشركة ربع المحصول . وبعد ذلك ، قامت إدارتها بتنظيم تسجيل الارض باسمها بصورة رسمية ، بدلاً من تسجيلها باسم ش . راينغ : واضطر المستأجرون العرب الى التوقيع على تعهد بعدم المطالبة بأي شيء يتعلق بالارض . وقد تسجلت الكواشين الجديدة باسم « يكا » ، واصبحت تلك الشركة تمتلك الاراضي في سحم الجولان ونبعة وبوسطاس . اما في جيلين فكان من الصعب عليها ترتيب الامور هناك ، حيث كانت الارض تحت سلطة الوقف ، الذي كان يتقاضى رسوم تأجير كل سنة من « يكا »، ورفض الوقف تسليمها بحجة ان الشركة لم تدفع رسوم التأجير خلال سنوات الحرب، وبعدمفاوضات طويلة تم التوقيع على اتفاقية بين « يكا » والوقف لمدة ٣٣ سنة ، على ان تدفع الشركة للوقف مبلغ ٩٠ ليرة تركية (ذهباً) سنوياً . وقد استمرت الشركة في دفع المبلغ سنوياً حتى الغاء ملكيتها للارض ، من قبل السلطات السورية ، بعد اقامة اسرائيل (١٠) .

خطط جديدة لاعادة الاستيطان اليهودي في حوران خلال العشرينات

تم ، خلال العشرينات والثلاثينات ، عرض عدة مشاريع لتجديد الاستيطان اليهودي في حوران على البارون روتشيلد . ففي عام ١٩٢٤ ، أثير موضوع تجديد الاستيطان اليهودي في حوران لدى حزب « هبوعيل هتسعير » . وقد شغلت تلك الفكرة ايضاً بعض اعضاء مستوطنة داغانيا ، بعد فترة قصيرة من تأسيسها عام ١٩١٠ ، وشموئيل دايان * وحاييم سورير، من اعضاء مستوطنة نهلال . وفي اللقاءات التي تمت بين هؤلاء وبين الدكتور حاييم وايزمن ويوسف شبرنتساك ، عضو الادارة الصهيونية ، والكولونيل ف . كيش ، مدير الدائرة السياسية التابعة للمنظمة الصهيونية في القدس في تلك الفترة ، تم الاتفاق على ان يسافر كل من دايان وسورير الى حوران ، للتجول في اراضي البارون والوقوف عن كثب على الاوضاع هناك ثم انضم اليهما المهندس ناحوم فاير . وبعد ان قاموا بالجولة أعدوا مذكرة طالبوا فيها بتجديد الاستيطان اليهودي على اراضي البارون ، من بين صفوف الاستيطان العامل في فلسطين (١١) . وقد ورد في المذكرة ضرورة الاسراع بذلك العمل لسببين:

١ ـ إن رسم الحدود سيقطع الارتباط الطبيعي بين فلسطين (ارض ـ اسرائيل) الكائنة غربي النهر ، وبين جزئها الشرقي ، وبخاصة فيما يتعلق بشرق الاردن ، الذي انتقل الى ايدي فرنسا . وهناك أساس للاعتقاد بان هذه المنطقة الهامة ستضيع الى الابد ودون عودة: ٢ ـ تفيد معلومات ان البارون ينوي « التخلص » من الصفقة المخزية في حوران ، وأنه مستعد لاستبدال تلك الاراضي ، بأراضٍ أخرى في فلسطين موجودة في ضواحي مسحه (جبل طابور) (١٢) .

كما عقد دايان وجماعته اجتماعاً مع بعض القادة الصهيونيين تقرر خلاله عدم ابدال الاراضي ، وكذلك عدم الذهاب للاستيطان في حوران على الفور .

ومن جهته ، أجرى حاييم وايزمن اتصالات مع كل من البارون روتشيلد واللورد بلفور ، واستفسر منهما عن امكانية الاستعانة بفرنسا للاستيطان داخل اراضي الانتداب الفرنسي ،

---

* والدموشي دايان .

وعن معارضة انكلترا لذلك ؟ وفي هذا الصدد ايضاً ، اجتمع الدكتور وايزمن مع البارون روتشيلد في بيته في باريس ، وقد وعده البارون بعدم الاسراع باستبدال اراضيه الكائنة في حوران بالقرى الاربع الموجودة بالقرب من جبل طابور . ومن اجل هذا الغرض زار وايزمن المندوب الفرنسي في بيروت وكذلك الجار من الجهة الجنوبية ، أي الملك عبد الله (١٣) .

ولا بد هنا من ايضاح موضوع مبادلة الاراضي الذي أشرنا اليه ؛ فقد كان البارون روتشيلد يملك حوالى ٧٠ ألف دونم في حوران ، وفي بداية العشرينات جرت مفاوضات بين شركة « بيكا » وبين الأمير سعيد ، الذي كان يملك اربع قرى قرب جبل طابور القريب من الناصره ، بشأن مبادلة تلك الاراضي (١٤) .

وفي النهاية توقف النشاط في هذا المجال ، فلم تستمر مبادرة اعضاء « هبوعيل هتسعير » من اجل توطين اليهود من جديد على ارض البارون في حوران ، وكذلك لم تتم عملية تبادل الاراضي التي ذكرناها سابقاً ، وتوقف البحث في هذا المجال الى ان تم طرحه عام ١٩٣١ من جديد ، من قبل مانيا شوحط ، التي زارت البارون روتشيلد في تلك السنة وتحدثت معه بهذا الشأن، ولم يسفر تدخلها عن أية نتائج. وكل ما تم في تلك الفترة، أن الصحف كانت تنشر، بين الفترة والأخرى، بعض الفقرات حول ذلك الموضوع، لتذكر القراء به.

ولكن تم بذل مجهود رئيسي وعملي ، في هذا المجال ، عشية الحرب العالمية الثانية . ففي تلك الفترة ، تبلورت خطة لتحويل قسم من اراضي البارون في حوران ، وبخاصة المزرعة الموجودة في سحم الجولان ، الى مكان لاعداد وتأهيل اعضاء حركة « هيحا لوتس » (الطلائعي) ، في سوريا قبل هجرتهم الى فلسطين . وكان هدف الخطة مزدوجاً : دق اسفين للعمل العبري هناك ، وفي الوقت نفسه ، دعم الاستيطان اليهودي شرقي بحيرة طبريا عن طريق انشاء مستوطنات يهودية هناك تحمل صفة استراتيجية . ومن اجل معرفة مدى امكانية نجاح تلك الخطة ، وقبل عرضها بصورة رسمية على ادارة « بيكا » ، زار وفد ، في حزيران ١٩٣٥ ، المنطقة ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل . وفي تلك الاثناء ، نشبت الحرب العالمية الثانية ، ولم تكن هناك فرصة للاهتمام بالخطة عن طريق عرضها من جديد امام جيمس روتشيلد رئيس « بيكا » الذي تسلم منصبه بعد وفاة والده عام ١٩٣٤ . وهكذا انتهت المحاولة الأخيرة لتجديد الاستيطان اليهودي على اراضي البارون في حوران (١٥) .

وفيما يلي وصف للاراضي التي امتلكتها شركة « بيكا » في حوران ، منذ بداية العشرينات وحتى قيام الدولة اليهودية :

جيلين :	١٣ الف دونم
سحم الجولان :	٣٣ ألف دونم
بوسطاس :	١٢ ألف دونم
نبعه :	٢٠ ألف دونم
المجموع	٧٨ ألف دونم (١٦)

أما عدد بيوت تلك القرى والتي كانت تعود ملكيتها لشركة « بيكا » فكانت كالتالي:(١٧)

جيلين :	٣٢ بيتاً
سحم الجولان :	٣١ بيتاً
نبعة :	٢٣ بيتاً
بوسطاس	١٥ بيتاً
المجموع	١٠١ بيت

بعد قيام الدولة اليهودية، اعلنت الحكومة السورية الغاء ملكية شركة «بيكا» لتلك الاراضي فانتقلت ملكيتها الى الحكومة السورية. ولكن ادارة الشركة لم تستسلم لهذا الحكم: فقد قدمت شكوى ضد الحكومة السورية، من جهة، وقامت، من جهة ثانية، بدفع المبلغ الذي كانت تدفعه للسلطات السورية بصورة ضريبة للوقف والحكومة عن الارض، الى احد البنوك في باريس . ولكن الحكومة السورية رفضت تسلم المبالغ المدفوعة باسمها في ذلك البنك ، كما ان الوسائل القانونية لم تنجح في منع سيطرة السوريين ، على تلك الاراضي (١٨) .

الاطماع الصهيونية في شرق الاردن

« ان الوطن القومي اليهودي الذي يشمل ضفتي الاردن يشكل وحدة تاريخية وجغرافية شاملة . وتقسيم الوطن هو عمل غير مشروع . وان أية موافقة على التقسيم لا تعتبر مشروعة او ملزمة للشعب اليهودي . ومن واجب هذا الجيل أن يعيد الاجزاء المقتطعة من الوطن الى حياض السيادة اليهودية » .

حزب حيروت

ركزت الحركة الصهيونية ، من خلال طروحاتها السياسية وكذلك عبر ادبياتها ، على ان شرق الاردن هو جزء لا يتجزأ من ارض - اسرائيل الكبرى ، ولهذا السبب ، قابلت قرار الحكومة البريطانية ، في بداية العشرينات ، بفصل شرقي الاردن عن فلسطين وإقامة إمارة مستقلة فيه ، بالاستنكار والاحتجاج العنيفين ، واعتبرت ذلك خيانة للمبادىء الصهيونية ، واقتطاعاً للنصف الثاني الحيوي من الدولة الصهيونية . وقد سعت الصهيونية بكل ثقلها لالغاء ذلك القرار ، ولكنها لم تنجح بسبب اصرار البريطانيين على ذلك ، حيث أنه في النهاية يخدم مصالح « الامبراطورية » البريطانية . وقبل ان نستعرض الجهود والمخططات الصهيونية في شرق الاردن ، لا بد لنا من الاشارة الى بعض المواقف الصهيونية منه ، والى بعض المخططات القديمة ، وربما المتجددة ، بهذا الشأن .

كان الزعيم الصهيوني اليميني ، زئيف جابوتنسكي واتباعه على خلاف عميق مع الجناح العمالي والقيادة الصهيونية الرسمية ، بالنسبة للموقف من العرب ؛ وذلك بسبب تشديده الدائم على ضرورة الاعلان عن أهداف الصهيونية النهائية التوسعية ، حتى وإن ادى ذلك الى استفزاز العرب وتصلب مواقفهم ؛ في الوقت نفسه الذي كان فيه الآخرون ينتهجون سياسة الحيطة

والحذر ، ويفضلون الامتناع عن افتعال المشاكل وخلق الصعوبات التي لا مبرر لها ، قبل أوانها على الأقل . وكان جابوتنسكي واضحاً للغاية في موقفه هذا ـ بل لعل هذا الموقف كان من اكثر مواقفه وضوحاً ـ فأعلن عن معارضته حصر النشاط الصهيوني ضمن سياسة إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين : اذ لم تكن تلك السياسة الا بمثابة « صهيونية صغيرة » (١٩) ، مصيرها الابقاء على اليهود اقلية في فلسطين : وهذا ـ برأيه ـ « شكل جديد من المهجر » (٢٠) . اما « الصهيونية الكبيرة » ، الحقيقية ، فتهدف الى اقامة دولة يهودية في « ارض ـ اسرائيل التاريخية » ، وعلى ضفتي الأردن ، فلسطين وشرق الاردن ؛ وذلك بعد أن يصبح اليهود اكثرية في تلك المناطق . وقد درج الصهيونيون اليمينيون على التشديد كثيراً على « حقوق » اليهود في شرق الاردن ، حتى اصبح الشعار الذي كتبه جابوتنسكي شعراً ، وهو : « ضفتان للاردن : هذه لنا ـ وهذه ايضاً » (٢١) ، على لسان معظم اليهود ، ثم صار هذا البيت شعار اكثر من منظمة صهيونية يمينية .

أما الياهو ايلات، وهو احد البارزين النشيطين في مجال الاستيطان في الاردن: والذي زاره عدة مرات وقام بدراسة الوضع هناك على الطبيعة (سنتحدث عن مهمته فيما بعد)، فقد علق على وضع الاردن بقوله: «ان شرق الاردن، الذي فُصل عن الجزء الغربي بصورة مصطنعة بعد مؤتمر القاهرة (عام ١٩٢١) الذي حدد سياسة جديدة لانجلترا في الشرق، هو جزء لا يتجزأ من أرض ـ اسرائيل كلها. وان الماضي التاريخي يربط بين الجزئين، وان تلك العملية التي جرت قديماً من الشرق الى الغرب، ستتم في ايامنا من الغرب الى الشرق. وان اليهود الذين احتلوا ارض يهودا عن طريق قواب، سيضطرون لاحتلال قواب عن طريق يهودا. وانه بدلاً من السيوف التي احتل موسى ويهوشع بها البلاد، ستكون اسلحة المحتلين الجدد الفأس والمقص [لتقليم الاشجار] » (٢٢) . واما شموئيل دايان ، فقد علق على نفس الموضوع بقوله : « لقد قامت دولة اسرائيل . وأما علاقاتها مع الدول العربية فهي غير مرضية . فأرضنا في شرق الاردن هي خارج الحدود ، ولكن من يعرف ماذا سيحدث في المستقبل ؟ وحيث ان أملنا الذي استمر الفي سنة ، يتحقق امام اعيننا ، فانه من المحتمل ، وبمرور الوقت ، أن ارض شرق الاردن ستعود ، وتصبح ملكاً لنا كما كانت في الايام الغابرة » (٢٣) .

مشروع الكولونيل غولد سميث للاستيطان اليهودي في شرق الاردن ١٨٨٢ ـ ١٨٩٢

في الفترة التي بدأ اليهود فيها يخرجون من القدس وصفد لتأسيس المستوطنات الاول في فلسطين ، مثل بيتح تكفا وروش ـ بينا . في ذلك الوقت ، خرج لورنس اوليفانت ، من بريطانيا باتجاه الشرق ، وقام بجولة في كل من فلسطين وشرق الاردن . وقد قام بجولته تلك في اعقاب مؤتمر برلين (١٨٧٨ م) ، وكانت تسيطر عليه فكرة إيجاد منطقة استيطان يهودي مستقلة في شرق الاردن . وقد حدد اوليفانت تلك المنطقة بين وادي يبوك شمالاً ووادي أرنون جنوبياً [الاول في منتصف المسافة بين بحيرة طبريا والبحر الميت ، وهو وادي الزرقاء ، والثاني يصب في وسط البحر الميت إي منطقة البلقاء وهو وادي الموجب] . وعندما عاد من جولته الى انجلترا، نشر مشروعه في كتاب « ارض الجلعاد » . وقد بحث اوليفانت ، خلال جولته ، عن ايجاد

قاعدة اقتصادية ، وكذلك عن ايجاد حل للمشاكل الأمنية التي ستنجم ، عندما يقوم عشرات الآلاف من اليهود بالاستيطان شرقي نهر الاردن . كما ربط اوليفانت مسألة تطوير شرق الاردن بمد خط للسكة الحديدية التي تربط البحر المتوسط بمنطقة الاستيطان اليهودي . وهناك تتفرع تلك السكة باتجاه دمشق والاسماعيلية . كما اعطى اهمية استيطانية كبرى للاراضي الموجودة في غور الاردن (٣٤) .

ومن جهة ثانية ، اقلقت المخاطر التي قُدِّر أن يواجهها المستوطنون هناك ، وبخاصة من قبل البدو ، كارل نيتر ، مؤسس المدينة الزراعية (مقفي يسرائيل) . ووجدت مخاوفه تلك ردود فعل لدى كثير من الاوساط ، فنشرت المجلة الاسبوعية « جويش كرونيكل » ، المؤرخة في ٨/٥/١٨٨٢ رسالة من غولد سميث من بلغاست طالب فيها الغرب بالسماح لليهود بالهجرة ، واظهرأنه يؤيد مشروع الاستيطان اليهودي المنظم في شرق الاردن. وقد رأى في منطقة الجلعاد وبشان [المقصود هنا المنطقة الشمالية من الاردن وكذلك حوران والجولان] ، مناطق ملائمة لذلك . واما بالنسبة لقضية الأمن فيشير غولد سميث ، الى أنها حيوية وبخاصة فيما يتعلق بأمن الافراد والاملاك . وان باستطاعته تدبر الامر مع البدو ، وهو سيكون سعيداً لتولي تلك المهمة . ولهذه الغاية اقترح تشكيل حرس من ابناء المنطقة « الشركس » ، واقترح نفسه قائداً لهذا الحرس (٣٥) .

هذا ، وقد تعرف غولد سميث على اوليفانت واعجب به وبمشروعه . وفي ربيع عام ١٨٨٢ ، اراد مرافقته الى فلسطين اثناء جولته فيها . وخلال سنتين (١٨٩٠ ـ ١٨٩١) ، ومع زيادة الهجرة من روسيا، رسم غولدسميث وآخرون معه ، خطة للاستيطان الموسع في شرق الاردن ؛ وذلك في منطقة تبلغ مساحتها حوالى ٢٥٠ ألف فدان تابعة للحكومة العثمانية . وتم ، خلال تلك الفترة ، التقدم بطلب الى السلطان العثماني لاصدار فرمان يسمح فيه بالاستيطان اليهودي هناك . وقد حاول زعماء « احباء ـ صهيون » الحصول على تأييد الحكومة البريطانية لمشروعهم هذا، والحصول على وضع تلك المنطقة تحت الوصاية البريطانية. وقد اعتمدت خطة غولد سميث على الافكار التي طرحها اوليفانت من قبله، ولكن تم خلال المناقشات توسيع رقعة الاستيطان، حيث شملت الجلعاد والبلقاء وعجلون، ومن ثم المنطقة المسماة غريفه، شمالي نهر اليرموك(٣٦).

ومن جهته اقتنع غولد سميث ، اثناء زيارته للمنطقة ، بأن باستطاعة المستوطنين الدفاع عن انفسهم . ومن جهة أخرى ، تعلم من دروس الاستيطان ، أنه ليس باستطاعتهم الاعتماد على الشركس في الدفاع عنهم ، حتى اذا ما ارادوا ذلك . وبالعكس ، فانه عندما يستوطن اليهود بالقرب من الشركس ، فانه لا توجد ضمانة بألّا تحدث احتكاكات معهم . وقد اعطى مثالاً على ذلك ، انه عندما ذهبت جماعة « بني يهودا » من رجال صفد في خريف ١٨٨٥ للاستيطان في اراضي الرمتانية في الجولان ، الواقعة جنوب غرب مدينة القنيطرة وبالقرب من القرية الشركسية جويزه ، فقد حذرهم اوليفانت نفسه من المواجهة مع الشركس ، الذين يصفهم بأنهم « سارقو الابقار » (٣٧) . ولكن الخطة المذكورة تم ايداعها المستودعات ، حيث رفضتها « اللجنة الروسية ـ اليهودية » في اذار ١٨٩٢ ؛ وذلك خوفاً من تعرض اليشوف اليهودي في

فلسطين لخطر الانتقام من قبل الاتراك ، ومن قبل كافة المسلمين الغيورين جداً على الاماكن المقدسة (٣٨) .

شراء الاراضي في الأردن

لم يستسلم القائمون على الصهيونية للقرار الذي اتخذته الحكومة البريطانية بفصل شرق الاردن عن فلسطين ، وقد جرت محاولات كثيرة ومتواصلة ، من قبل الحركة الصهيونية ، لشراء الاراضي في شرق الاردن ، وكذلك تم ارسال العمال اليهود للعمل في الطرقات وفي الزراعة تمهيداً لاعادة « توحيد » ضفتي الاردن ، وكذلك تم ارسال بعض الوفود للعيش فترة طويلة بين السكان هناك ، وبخاصة بين البدو ، من اجل دراسة الوضع على الطبيعة ، ودراسة امكانية دق اسفين للتوطين اليهودي هناك . وفي هذا الاطار ، قام ارتر روبين ، وهو احد البارزين اليهود في مجال شراء الاراضي والاستيطان ، بزيارة الى شرق الاردن ، وقام بجولة هناك ، تفقد خلالها المنطقة القريبة من وادي الزرقاء ، حيث سعى الى شرائها لحساب إحدى الشركات الصهيونية في بولونيا . ولكن العملية لم تتم بسبب عدم تحديد ملكية الاراضي ، وصعوبة نقل ملكيتها الى مشترين جدد (٣٩) .

قام اليهود ، خلال العشرينات ، بأخذ مقاولات بناء وتعبيد طرق في شرق الاردن ، وبخاصة في مدينة معان في الجنوب . وقد استغلّت الحركة الصهيونية هذا النشاط فأرسلت بعض اعضائها للعيش هناك ، والتواجد بصفة عمال : ولكن كانت تكمن ، وراء ذلك ، مهمة بعيدة المدى ، وهي دراسة امكانيات انشاء المستوطنات اليهودية ، وكذلك تواجد الايدي العاملة اليهودية ؛ الأمر الذي يحمل معنى كبيراً لدى قادة الصهيونية . وفي هذا الاطار ، أُرسل المدعو الياهو افشتاين (ايلاث) ، عام ١٩٢٧ ، للعمل في معان في صنع حجارة الطوب : وهناك بدأ ، على الفور ، بدراسة اللغة العربية على يد احد سكان معان الذي كان يعمل في مكتب مدير العمل ، ثم بدأ يقيم علاقات صداقة بغية دراسة اوضاع البدو ، وذلك فيما يتعلق بحياتهم وعاداتهم (٣٠) . ثم سنحت له الفرصة فوجد عملاً في عمان نفسها ؛ وبذلك يستطيع ان يكون قريباً من الزعامة هناك . ففي شهر تموز من عام ١٩٢٧ ، اصيبت الأردن بهزة أرضية ، تضررت ، من جرّائها ، المناطق الجبلية ، بصورة خاصة ، فتصدع عدد من البنايات وانهار عدد آخر ؛ مماأتاح الفرصة لبعض المقاولين اليهود كي يعملوا هناك . وهذا ما تم بالفعل ، فقد ذهب ايلاث ورفاقه الى عمان ، حيث تسلموا ورشتين ، كانت الاولى تخص هاشم بك الخير والثانية لسعيد باشا المفتي ، من زعماء الطائفة الشركسية ، الذي اصبح ، فيما بعد رئيساً للحكومة الاردنية ورئيساً للبرلمان ؛ الأمر الذي دعم موقف ومكانة المقاولين اليهود هناك (٣١) . وقد بلغ عدد الجالية اليهودية عام ١٩٢٨ ، في عمان ، حوالى ٦٠ شخصاً ، زارهم اسحاق بن تسفي ، الذي صار ، فيما بعد ، ثاني رئيس دولة لاسرائيل ، وكذلك الكاتب شالوم ايش : وقد خاطبهم بن تسفي بكلمة حماسية ، ذكرهم فيها ، بأنهم عادوا الى هنا بعد ألفي سنة ، وهنأهم على قيامهم بترسيخ الجذور اليهودية وتجديد اليشوف اليهودي في شرق الاردن . وقد قام هؤلاء ، بعد الانتهاء من العمل ، بجولات للتعرف على المنطقة ، ثم حاولوا الحصول على عمل في مدينة السلط التي تضررت هي ايضاً بسبب الهزة ، ونجحوا في ذلك بالفعل . وفي نيسان ١٩٢٨ ، توقف نشاط المجموعة في الاردن لسببين ، الاول يعود لمعارضة السلطات البريطانية

لنشاطها، والثاني يتعلق بعدم وجود عمل لتلك المجموعة التي حاولت شراء قطعة ارض في ضواحي عمان، من اجل بناء مزرعة يهودية هناك، كنقطة بداية(٣٢).

عاد النشاط الصهيوني مرة أخرى الى شرق الاردن في آذار ١٩٤١ ، عندما ذهب الياهو ايلات المذكور الى مضارب البدو في جنوب الاردن ، وأقام لدى بني صخر ،الذين يتزعمهم متقال الفايز مدة ثلاثة أشهر ، درس ، خلالها ،اوضاعهم . وقد ساعده على دراسة حياة البدو والمنطقة اهتمامه بهذا الموضوع خلال دراسته في الجامعة العبرية في القدس ، وصديق له اسمه جابر الزهير وهو الذي عرفه على شيخ بني صخر (٣٣) . وكان الياهو ايلات ، قد اجرى قبل سفره ، مشاورات مع اسحاق بن تسفي والكولونيل فردريك كيش ، رئيس الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية في تلك الفترة ، ومن جملة المواضيع التي ناقشوها ، الاوضاع الأمنية وعلاقة القبائل البدوية مع الحكومة المحلية وسلطة الانتداب ، وكذلك المشاكل الاقتصادية والتربوية للبدو ، وأخيراً نظرة متقال الفايز وغيره من الشيوخ لليشوف اليهودي في فلسطين . وقد قابلوا الشيخ الفايز في قرية ام العمد ، جنوبي عمان ، حيث قدم الزهير ايلات بصفة من يقوم بدراسة عن البدو ، وطلب مساعدته لتطوير منطقته وتحسين وضع معيشة قبيلته . وكان الفايز ، قبل ذلك ، قد اتصل بالشركة اليهودية لتطوير الاراضي بغرض الحصول على مساعدتها ، عبر اتصالات ، حوفظ على سريتها ، اجراها مع يهوشع خانقين . وقد تبين لألياهو ايلات ، فيما بعد ، ان الزهير الذي رافقه ، ما هو الا عميل لخانقين المذكور ، هذا ، وقد تباحث ايلات وغيره مع الشيخ الفايز نفسه ، بشأن شراء الاراضي ، وامكانية الاستيطان اليهودي فيها . ولكن خطة الاستيطان وشراء الاراضي في منطقة زيزيا ، وهي الارض التي عرضها الفايز للبيع لم يكتب لها النجاح ؛ وذلك ليس بسبب معارضة البيع او لعدم وجود اراض للبيع ، وانما بسبب عدم وجود قيمة زراعية لتلك الاراضي ، وبخاصة فيما يتعلق بنقص المياه الضرورية للزراعة ، وبسبب معارضة السلطات البريطانية لشراء الاراضي في شرق الاردن من قبل اليهود والاستيطان فيها (٣٤) .

رسم الحدود الشرقية لفلسطين

أجرت الادارة الصهيونية ، ابتداء من عام ١٩١٨ ، مشاورات حول حدود فلسطين ، وكذلك حول المطالب التي سيتم عرضها على مؤتمر السلام . وقد تم ، خلال المناقشات التي اجريت مع سياسيين بريطانيين وفرنسيين ، ابراز الأهمية التي توليها الادارة الصهيونية لمنطقة شرق الاردن ، وذلك بهدف تطوير البلاد بأسرها ، وكذلك نظراً للعلاقة التاريخية بين جزئي البلاد . ولكن أساس المطالب كان يتركز حول الحدود الشمالية والشمالية ـ الشرقية ، بهدف ضم مناطق مصادر المياه الى المنطقة اليهودية . وقد جاء في المذكرة التي صاغها هربرت صموئيل ، والتي رفعتها الادارة الصهيونية لمؤتمر السلام ، ان يمر خط الحدود في الشرق ، غربي خط سكة الحديد الحجازية وبالقرب منها ، وذلك حتى يكون الجلعاد وغور الاردن ضمن منطقة الأنتداب الانجليزي على فلسطين . وقد تمت مناقشة المذكرة امام اللجنة السياسية التابعة للمنظمة الصهيونية التي عقدت جلسة لها ، في لندن في آذار ١٩١٩ ، فأضافت اللجنة بعض التعديلات على الصيغة التي اقترحها صموئيل ، بهدف توسيع الحدود . وعلى سبيل المثال تم حذف الكلمات التالية : «Close to and west of the Hedjazrail way»

وتم ادخال الكلمات التالية : «Close to the desert» (٣٥).

ويقول الكولونيل ريتشارد مينرتسهاغن في مذكراته ، أنه بعد فترة قصيرة من انضمامه لمؤتمر السلام في باريس (كانون الثاني ١٩١٩) ، تقابل مع حاييم وايزمن ، وبعد ان استمع الى مقترحاته حول الحدود المقترحة (المارة بالقرب من سكة الحديد الحجازية وحتى خليج العقبة) كتب في مُذَكِّرته : « من الناحية العرقية فان الحدود الشرقية الصحيحة يجب ان تكون بحيرة طبريا ، ونهر الاردن والبحر الميت ؛ ومن الناحية الاقتصادية فانه من المستحسن توسيعها نحو الشرق » . ولكن ، بعد فترة قصيرة من ذلك اللقاء ، سجل مينرتسهاغن في يومياته ، أنه غير رأيه واقتنع بصحة مطالب وايزمن . كما ايد معظم السياسيين البريطانيين مطالب الادارة الصهيونية . فقد كتب اللورد بلفور في مُذَكِّرته يوم ١١/٨/١٩١٩ ، ، أنه يجب دعم فلسطين اقتصادياً حتى تستطيع ضمّ الاراضي الكائنة شرقي نهر الاردن . ومع هذا ، فقد طالب بعدم ضم سكة الحديد الحجازية ؛ وذلك لارتباطها الوثيق بالمصالح العربية (٣٦) . وقد جاء في الاصل الانجليزي : Palestin Should extend into the Lands Lying east of the Jordan. It should not, how ever, be allowed to include the Hedjaz Railway, which is too distinctly bound up with exclusively Arab interests.

كما قبل السياسيون البريطانيون بحجة اقتصادية أخرى ، وهي انه لا يوجد في فلسطين ارض ملائمة لزراعة القمح ، ما عدا منطقة غزة وبئر السبع ، ولهذا يجب ضم اراضي شرق الاردن إلى ارض ـ اسرائيل ، وفوق كل ذلك ، ابرزوا مدى اهمية مصادر المياه . وقد لخص مينرتسهاغن المطالب الاقليمية التي يجب الاصرار عليها في مؤتمر السلام ، وقام بتحديدها على الخريطة . وقد استخدم السياسيون البريطانيون في مذكراتهم الداخلية ، فيما بعد ، اصطلاح : « خط مينرتسهاغن » ، الذي يعني بالنسبة للحدود الشرقية : « خط يمر على بعد ٢٥ ـ ٣٠ كم غربي سكة الحديد الحجازية ... وشرقي البحر الميت حتى نقطة على خليج العقبة ؛ وذلك شرقي مدينة العقبة » .

The eastern boundary of Palestine should therefore pass some 25- 30 kilometers west of the Hedjaz railway, after crossing the yarmuk valley about half way between Deraa and Samakh (٣٧).

وقد انتهت المناقشات السياسية حول الحدود المرغوب فيها ، عندما انهار الحكم العربي* المستقل في سوريا ، وعندما اضطر فيصل في السادس والعشرين من تموز ١٩٢٠ إلى مغادرة دمشق ؛ وعندها ثارت ، على الفور ، مسألة مصير المنطقة الجنوبية من مملكة فيصل . وقد استغل هربرت صموئيل ، الذي وصل الى البلاد ، قبل اربعة أسابيع ، كمندوب سامي ، تلك الفرصة لتحقيق مشروعه : « ارض ـ اسرائيل بموجب خط مينرتسهاغن» . وبناء على طلبه ، أبرقت وزارة الخارجية البريطانية ، يوم السابع والعشرين من الشهر نفسه ، الى ممثلها في مؤتمر السلام في باريس . فاستفسر المندوب عما يطلبه الفرنسيون كحدود لمنطقة انتدابهم شرقي الأردن . فأجابه ، في اليوم التالي ، فانسيتارت : « في المنطقة الكائنة جنوبي خط سايكس ـ بيكو ، يحق لنا ان نرسم الحدود كما نريد » : إضافة إلى هذا فإن وزارتي الخارجية والحرب

البريطانيتين لم توافقا على مشروع صموئيل (٣٨) . وقد تم في ايلول ١٩٢٢ ، بصورة نهائية ، فصل شرق الاردن عن فلسطين . ويعلق بعض الصهاينة على ذلك ، بأن مصطلح : « ارض اسرائيل بحدودها التاريخية من دان وحتى بئر السبع » ، الذي استخدمه لويد جورج ، قد أثر كثيراً على رسم الحدود الشمالية . ومما يثير الغرابة ، إن السياسيين في مؤتمر السلام قد استخدموا ، خلال مناقشاتهم لرسم الحدود ، الأطلس التاريخي لجورج آدم سميث . وبالمقابل فقد كان هناك ، حسب رأيهم ، انحراف كبير عن تلك الخرائط في رسم الحدود الشرقية لفلسطين ، لأن جبال الجلعاد كانت ضمن منطقة فلسطين التاريخية . وكان مفهوم السياسيين البريطانيين ان تشمل ارض ـ اسرائيل المنطقة الواقعة على جانبي نهر الاردن . وحتى ان اللورد كارزون أشار في مذكرته الانتقادية لتصريح بلفور ، والتي رفعها يوم السادس والعشرين من تشرين الاول ١٩١٧ ، الى ان المنطقة المشار اليها تشمل أيضاً « ارض ـ اسرائيل الشرقية » (٣٩) . وقد تم رسم الحدود الشرقية لفلسطين ، بناء على حدود الإدارة العثمانية، وأخذت بعين الاعتبار ، التعهدات التي اعطتها بريطانيا لشريف مكة ايام الحرب العالمية الأولى (٤٠) .

تجدد النشاط الصهيوني لشراء الأراضي في شرق الاردن

وخلال أحداث عام ١٩٢٩ ، توقفت الاتصالات الصهيونية مع شرق الاردن بشأن التمهيد لشراء الاراضي هناك . وما ان انتهت تلك الاحداث ، حتى عاد النشاط الصهيوني الى سابق عهده . ففي شهر تموز من عام ١٩٣٠ ، سافر كل من اسحاق فيلكنسكي وناحوم فابر (مهندس مياه) الى الاردن من اجل دراسة اوضاع الاراضي والمياه هناك ، وبخاصة في المنطقة الكائنة شمال نهر الزرقاء . وقد جاء في التقرير الذي ارسله فابر المذكور الى الوكالة اليهودية في اليوم العاشر من آب ١٩٣٠ ، وصف للعداء الذي يكنه الشعب هناك لليهود ، وخاصة من قبل موظفي الحكومة في اربد ، وجرش وعمان (٤١) ، وبالرغم من هذا الوصف ، فقد عاد فابر ، وهو مقتنع بامكانية عمل شيء ما هناك ؛ ولهذا اقترح على المنظمة الصهيونية فتح مكتب فنّي في عمان بالاشتراك مع احد العرب هناك ، ومن ثم البدء باقامة علاقات مع مختلف الفئات ، وقد تم تحقيق ذلك فعلاً . وفي الفترة ما بين ٣ ـ ٥ تشرين الاول ١٩٣٠ ، سافر فابر ، مرة أخرى ، الى الاردن ، وقصد المنطقة الجنوبية هذه المرة ؛ حيث لمس ان معاملة الناس لليهود هناك افضل منها بكثير من المنطقة الشمالية . وفي الحادي عشر من كانون الاول عام ١٩٣٠ ، اقترح عليه احد سكان مأدبا ، المدعو يوسف حنا فرح ، شراء أرض مساحتها ٢٤ ألف دونم في منطقة اسمها جويزه ، بالقرب من مأدبا ، كما عرض عليه ايضاً شراء أرض أخرى محاذية لها تقدر مساحتها ما بين ٧٤ ـ ٧٩ ألف دونم بسعر ٧٠ ـ ٨٠ قرش للدونم الواحد . وقد اشار فرح المذكور الى أنه لا يوجد في شرق الاردن اي قانون يمنع بيع الاراضي لليهود ، ولكن نقل الاراضي الى ملكية الاجانب لا تتم إلا بموافقة حكومية . وحيث أنه يفترض عدم الحصول على تلك الموافقة ، فقد اقترح تجاوز هذا القانون عن طريق التوقيع على عقد تأجير لمدة ٩٩ سنة (٤٢) .

وفي النهاية ، أعطي يوسف حنا فرح ، جواباً سلبياً حول هذا الموضوع ، بُرّر بأن اليهود ليسوا مستعدين لمثل هذه الصفقة ، طالما أنه لا توجد امكانية للحصول على « كوشان » باسم المشتري . وعند ذلك ، اتضح أن المذكور يعمل وسيطاً من قبل متقال الفايز ، الذي تعهد ،

بدوره ، بإصدار « الكواشين : على اي اسم يطلب منه ، دون الأخذ بنظر الاعتبار المعارضة القائمة لبيع الأراضي لليهود ؛ وذلك بفضل علاقاته الوثيقة مع الأمير عبد الله . وقد وعد ، أيضاً ، بتقديم المساعدة والأمن وحسن الجوار للمستوطنين اليهود . كما اقترح متقال الفايز على فابر ، خلال محادثاتهما ، أن يقوم بشراء الاراضي الحكومية مقابل ١٥ قرشاً للدونم ، ومن ثم يقوم ببيعها لليهود (بسعر كامل طبعاً) . اي أنه سيكون عميلاً للوكالة اليهودية فيما يتعلق بشراء الاراضي في شرق الاردن . وقد تم الحديث صراحة،«بأن المقصود هو استيطان يهودي على تلك الاراضي » . ولكن الامكانيات المالية للحركة الصهيونية لم تسمح لها بذلك . وقد تمت تلك الزيارة وتلك المحادثات يوم ١٩ آذار ١٩٣١ (٤٣) وقد شجع موقف الفايز هذا ، الكثير من ملاكي الاراضي، فانهالت العروض على الوكالة اليهودية لبيعها الاراضي، او على الاقل، لعقد عقود شراكة، يقدم اليهود بموجبها القروض المالية للملاكين(٤٤).

شراء الاراضي في غور الكبد

كانت العلاقة بين الأمير عبد الله والحركة الصهيونية ، خلال العشرينات ، علاقة مجاملة فقط . فقد قام الكولونيل كيش ، بعدة زيارات لشرق الاردن ، فاستقبل بأدب وتكريم . ولكن العلاقة تلك ، توقفت خلال احداث ١٩٢٩ ، ثم تجددت ، بين الادارة الصهيونية وعبد الله ، في شباط ١٩٣١ : وذلك عندما ارسل كيش برقية تهنئة للامير عبد الله بمناسبة عودة والده الشريف حسين من منفاه في قبرص . وقد رد عبد الله على ذلك بدعوته الى زيارة الاردن . وتمت الزيارة يوم ١٩ شباط ١٩٣١ . ولكن بالرغم من تلك العلاقة فقد رفض الأمير مقابلة حاييم وايزمن . خلال زيارته للأردن التي تمت في شهر آذار ١٩٣١ (٤٥) .

وابتداء من منتصف عام ١٩٣٢ ، طرأ تحول في نظرة الامير عبد الله تجاه اليهود فبدلاً من لامبالاته بهم صار يوليهم اهتماماً كبيراً . وكانت بداية الامر ، كما يبدو ، تلك الاتصالات التي قام بها متقال الفايز ورفيفان المجالي وغيرهما مع الادارة الصهيونية . ويعود ذلك التحول إلى حاجته الملحة للاموال : فبدأ في ايلول بجس النبض باتجاه ايجاد ممولين يهود لتأجير اراضيه ، التي تبلغ مساحتها حوالى ٧٠ ألف دونم ، على ضفة النهر الشرقية ، والتي تبعد حوالى ٥٠ كلم شمالي البحر الميت، بالقرب من جسر داميه، والمسماة بغور الكبد . وفي تشرين الثاني ١٩٣٢ ، بدأت المفاوضات بين ممثلي الوكالة اليهودية وبين ممثل الأمير المخلص ، محمد الأنسي (٤٦) . وخلال المفاوضات ، اوضح مندوبو الوكالة اليهودية ، بل اشترطوا ، « أن تمكّن عملية الاستئجار الاستيطان اليهودي الكبير . ويجب ان تستمر لمدة ٩٩ سنة ، وان تكون قانونية » . وقد تم التوقيع على ذلك يوم ٧ كانون الثاني ١٩٣٣ ، بين الامير عبد الله (الذي مثله محمد الأنسي) وبين مندوبي الوكالة عمونئيل نيومان وفريشتاين . وقد جاء في احد بنود الاتفاقية ، أنه عندما تتم عملية التأجير ، فانه يحق للمستأجرين تشكيل شركة ، يتم تسجيلها في شرق الاردن ، وانه يحق لهذه الشركة ان تحضر الى هناك اي اشخاص ترغب فيهم ، دون تمييز من حيث الدين أو القومية ، بغرض الاستيطان وتطوير الاراضي (٤٧) .

وفي الفترة ما بين ١٥ ـ ٢٠ كانون الثاني من عام ١٩٣٣ نشرت أخبار حول تلك الاتفاقية في الصحف الفلسطينية والعربية ، كما نشرت الصحافة اليهودية الاميركية معلومات حول ذلك الموضوع : الأمر الذي ادى الى اثارة الرأي العام الفلسطيني ضدها . كما تظاهر الطلبة في

السلط ضدها أيضاً ، ومن ثم قام وفد من جماعة المفتي ، محمد امين الحسيني ، بزيارة للأمير ، وعرضوا عليه استئجار اراضي غور الكبد ، كما ارسل ملك العراق برقية للامير طالبه فيها بقطع علاقاته مع اليهود . ومن اجل تهدئة العاصفة التي ثارت من حوله ، نشر الامير مناقصة في الصحافة العربية تشابه عرض اراضيه للتأجير . وفي الوقت نفسه ، ارسل كتاباً الى مندوبي الوكالة ، نيومان وفريشتاين ، اعلمهما فيه ، بان الاعلان في الصحافة لن يؤثر على اتفاقية التأجير وملحقاتها ، وانه لم يكن « إلا للتغلب على الظروف الراهنة » (٤٨) . وكي يتغلب الأمير على المعارضة في الداخل، قام بتغيير رئيس الحكومة عبدالله السراج، وعين بدلاً منه إبراهيم هاشم ، المعروف بتأييده لتلك الصفقة ، وأوعز لرجاله فأرسلوا وفوداً مؤيدةً له ولسياسته ، وكان يتزعم هذه الوفود مثقال الفايز ، وسعيد المفتي وعلي طوقان وشمس الدين سامي (شركسي) ونظمي عبد الهادي . وفي نيسان ١٩٣٣ ، أفشل محاولة عادل العظمه ، باصدار قانون في المجلس التشريعي الاردني يمنع بيع الاراضي للاجانب .

وقد وصلت سياسة التقارب بين الشيوخ وادارة الوكالة اليهودية الى ذروتها في الاحتفال الرسمي والعلني في فندق الملك داود الذي اشترك فيه الشيوخ من جهة وحاييم وايزمن وحاييم ارلوزورف من جهة ثانية . وبدأت في اعقاب ذلك ، موجة جديدة من الاحتجاج ، حيث ارسلت العرائض الى الأمير ، مطالبه بايقاف التعاون مع اليهود (٤٩) .

وفي عام ١٩٣٣ ، تم تجديد اتفاقية التأجير لمدة نصف سنة أخرى ، حيث قام الأمير نفسه بالتوقيع عليها من جهة وشركة تطوير الاراضي من جهة ثانية . (وكانت هذه هي المرة الاولى التي توقع فيها على الاتفاقية مؤسسة صهيونية معروفة ، دون ان يتم ذلك بواسطة اشخاص غير معروفين) . وفي عام ١٩٣٥ ، اصطدمت عملية تمديد اتفاقية التأجير بعدة صعوبات : فقد حاول الأمير رفع رسوم التأجير فأعلم موشي شرتوك (شاريت) ، رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية آنذاك ، بأنه مهتم بتغيير الاتفاقية بأخرى جديدة تنص على دفع رسوم أعلى . وعندما اتضح للأمير ان البريطانيين يعارضون ذلك أعلم ممثل الدائرة السياسية آهرون حاييم كوهين، بأنه ينوي الغاء الاتفاقية، عندما تنتهي مدتها في أواخر١٩٣٤، وعندما أرادتأجير الاراضي الى البنك العربي ، ضغط عليه البريطانيون ، من جديد ، لعقد الاتفاقية مع ادارة الوكالة اليهودية (٥٠) . وقد نص أحد بنود الاتفاقية على ان يتعهد الامير بعدم اجراء اية مفاوضات ، خلال اربع سنوات ، مع اي شخص او اية جهة تشابه اراضي غور الكبد . وانه ، اذا ما خالف ذلك ، يدفع ١٠ آلاف جنيه فلسطيني . وقد حصل الوسيط محمد الأنسي على مبلغ ١٨٠٠ جنيه فلسطيني ، مقابل إتمام الصفقة . وتم التوقيع على الاتفاقية في الخامس من شباط ١٩٣٥ في القدس ، وبقيت صالحة لغاية ١٩٣٩ ، وبقي مضمونها سرياً ولم يجر اطلاع البريطانيين عليه (٥١) .

موقف الادارة الصهيونية من قضية غور الكبد

لم تُسلِّم الحركة الصهيونية ابداً بالفصل الاداري بين جزئي « ارض ـ اسرائيل » الانتدابية ـ الغربية والشرقية . فمن الناحية الايديولوجية ، اعتبرت شرق الاردن جزءاً من « ارض ـ اسرائيل » ؛ ولكنها من الناحية العملية ، لم تبذل اية جهود لالغاء هذا الفصل ، ما

عدا بعض الخطابات في المؤتمرات الصهيونية ، او اجتماعات الجباية . وحتى الاصلاحيين ، الذين جعلوا من قضية شرق الاردن ، علماً سياسياً ، فانهم لم يفعلوا ، ايضاً ، اي شيء . وقد كانت وجهة النظر الأساسية لزعماء المنظمة الصهيونية ، أنه يجب على الحركة الصهيونية ان تتحصن في البداية في الجزء الغربي من البلاد [فلسطين] ، وان المهمات التي تواجهها غربي نهر الاردن كبيرة جداً ، وحتى أنها تفوق قواها المحدودة . وقد جاءت مسألة شرق الاردن في درجة متأخرة من سلم الاولويات لدى الحركة الصهيونية ؛ وذلك في اعقاب مرتبة الاستيطان في الحولة وبيسان والنقب (٥٢) .

وبعد احداث عام ١٩٢٩، ومجيء لجنة شو واطلاعها على وضع الاراضي في فلسطين والاردن ، اختلف الوضع بالنسبة للحركة الصهيونية وموقفها من شرق الاردن . فقد رأت اللجنة المذكورة ان شرق الاردن خال من السكان (٣/٤ مساحته) وان هناك امكانية لتوطين اليهود فيه دون مواجهة المشاكل القائمة في فلسطين. كما ان هناك امكانية لشراء الاراضي فيه بشروط مريحة؛ وذلك من اجل توطين الفلاحين من فلسطين. وكان الوضع الاقتصادي السيء في الاردن هو الذي خلق تلك الفرصة، ولكن الوكالة اليهودية رفضتها بسبب عجزها المالي. وفي آب ١٩٣١، تسلم حاييم ارلوزورف منصبة كرئيس للدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية، فأخذ ينادي ويهتم بموضوع شرق الاردن، ولكنه ما لبث ان غير رأيه عام ١٩٣٢. وبعد الاتصالات التي أجراها مع الشيوخ في شرق الاردن، وضع ارلوزورف عدة شروط مسبقة للاتصال مع اصحاب الاراضي:

١) تأمين مساحة كبيرة من الارض تكفي للاستيطان اليهودي الكبير ؛ حيث ان الاستيطان المحدود في منطقة بعيدة كهذه، لن يصمد كثيراً وبخاصة من النواحي الامنية .

٢) تأمين موافقة حكومة شرق الاردن على ملكية اليهود لهذه الاراضي والموافقة على استيطان اليهود هناك .

٣) تأسيس صندوق خاص لشراء الاراضي وتأمين الاستيطان (٥٣) .

وفي بداية عام ١٩٣٢، التقى ارلوزورف مع متقال الفايز، وعرض عليه، خلال ذلك اللقاء موقف الادارة الصهيونية من قضية شرق الأردن، وكان موقفه يؤكد على وجود مجال للعمل هناك ، ولكن المصادر المالية للوكالة اليهودية محدودة وأن هذه غير متسرعة للعمل هناك . وأشار على الفايز قائلاً: إذا كنت ورفاقك ترغبون في مجيء اليهود لشرق الأردن فما عليكم إلا أن تفعلوا ثلاثة أمور:

اولاً ، تهيئة الجو السياسي من اجل الضغط على الأمير وحكومته ، للسماح بشراء الاراضي من قبل اليهود بواسطة « كواشين » رسمية ، وكذلك السماح لليهود بالاستيطان هناك .

ثانيا ، تهيئة الرأي العام في شرق الاردن ، وخلق جو مؤيد للاستيطان اليهودي فيه .

ثالثا ، الاهتمام بتأمين منطقة واسعة ؛ بحيث تكفي للاستيطان ، والاهتمام بأمن المستوطنين (٥٤) .

وفي نهاية عام ١٩٣٢ ، بدأت المعلومات تصل الى ادارة الوكالة اليهودية عن رغبة الأمير عبد الله بالاتصال مع اليهود بهدف تأجير اراضيه ، فقام ينومان وفريشتاين بالتفاوض معه . ولكن هذه المفاوضات تسببت في ازمة ، داخل الادارة الصهيونية ، حيث نشب جدل عنيف حول ماهية المفاوضات مع الأمير وشكلها ؛ وذلك بين جهتين ، الاولى تضم ارلوزورف والدائرة السياسية والثانية تضم نيومان وفريشتاين والدائرة الاقتصادية التابعة للوكالة اليهودية . وقد اجرى نيومان وزميله المفاوضات باسم الدائرة الاقتصادية ؛ حيث كان رأيهم ان هذه المسألة هي اقتصادية اولاً، ولهذا لم يطلعوا اعضاء الادارة الآخرين عليها . وإضافة الى هذا كانت تسود الاوساط الصهيونية فيما يتعلق بقضية شرق الاردن ، وجهتا نظر أساسيتان :

الأولى ، ترى أنه لا توجد أي امكانية للعمل هناك ، طالما ان الحركة الصهيونية لم تؤمن وجودها ، كما هو مطلوب ، في « ارض – اسرائيل » الغربية ، وكان هذا موقف ارلوزورف حتى منتصف عام ١٩٣٢ .

والثانية ترى أنه يجب الاسراع في التغلغل الى شرق الاردن ؛ وذلك لاسباب مختلفة (أمنية، شراء الاراضي، واعتبارات سياسية)، وتدعو الى استغلال كل نافذة من أجل تحقيق ذلك(٥٥).

هذا، وقد عقدت الادارت الصهيونية اجتماعين بشأن التفاوض مع الأمير، عُقِد الاول في الاول من شباط ١٩٣٢ ، وتقرر فيه السماح لنيومان وزميله بالاستمرار بالتفاوض مع الأمير ، شريطة التزامهم بتقديم تقرير عن ذلك للادارة بأسرها . واما الاجتماع الثاني ، فقد عقد في الثالث من كانون الثاني ١٩٣٣ ، وتم فيه اتخاذ ثلاثة قرارات (٥٦) :

اولاً ، المصادقة والتوقيع على اتفاقية الاستئجار مع الأمير . وقد صُوِّت عليه بالاجماع .

ثانياً ، تمت الموافقة على اقتراح مناحيم اوسيشكين الذي يقضي بان يوقع نيومان وفريشتاين على الاتفاقية كأفراد امام الأمير ؛ واما تجاه مؤسسات الادارة الصهيونية فهما ممثلا للصندوق القومي اليهودي (كيرن كييمت ليسرائيل) والادارة الصهيونية .

ثالثاً ، تقرر عدم اطلاع المندوب السامي على المفاوضات قبل التوقيع على الاتفاقية .

وقد طرأ اعتباراً من آب ١٩٣٣ تطور جديد؛ إذ اتضح عدم وجود قيمة اقتصادية لتلك الاراضي، كما تبين ان البريطانيين لا ينوون السماح، خلال المستقبل المرئي، بدخول اليهود الى شرق الاردن. «ومن هنا فقدت الاتفاقية قيمتها الصهيونية – الاستيطانية». وتبين لاعضاء الدائرة السياسية التابعة للوكالة اليهودية أن مشروعهم لن ينفذ. ولكن كان هناك من ازداد تمسكاً بذلك المشروع، داخل ادارة الوكالة ؛ حيث ان الغاء الاتفاقية معناه ، تراجع صهيوني عن شرق الاردن . وحدث في عام ١٩٣٥ ، ان طلب الأمير الانسحاب من اتفاقية مع الوكالة اليهودية فلم تمكّنه هذه من ذلك ابداً ؛ إذ انها كانت مستعدة لرفع الثمن ، شريطة الا تلغى الاتفاقية . وقد استفادت الحركة الصهيونية، من التفاوض مع الأمير حول الثمن بأن اتيحت لها الفرصة، لاجراء مفاوضات واتصالات معه اثناء احداث ١٩٣٦ ، وعند مجيء لجنة بيل وبعدها أيضاً . » وقد تحولت تلك

الاتفاقية اثناء الواقع السياسي لعام ١٩٣٩ الى خرضوات ، والى رمز للآمال الصهيونية الكبيرة التي لم تتحقق»(٥٧).

كشف عمونئيل نيومان ، عندما عاد في ربيع ١٩٣٢ الى البلاد ، عن اهتمام القاضي برانديس (يهودي اميركي) ، بشأن الاستيطان اليهودي في شرق الاردن . وقد لقيت خطة تطوير شرق الاردن ، التي كان من المفروض ان تتم على مستوى كبير ، وبصورة مستقلة عن الادارة الصهيونية ، استحساناً من قبل العديد من اليهود الاميركيين الصهيونيين وغير الصهيونيين . وفي شباط ١٩٣٣ ، أعد نيومان نفسه ، خطة لاقامة شركة لتطوير شرق الاردن ، واقترح اشراك عرب وبريطانيين فيها؛ بحيث تعمل الشركة بصورة تؤدي إلى استقالة السكان المحليين ، وتشغيل قسم بسيط منهم ، وتقوم ببناء البيوت للفلاحين . وكانت الفكرة الرئيسية ، ألّا تحمل تلك الشركة اي طابع سياسي ، كيلا تثير الشك « بان هناك نية لتطبيق اسس « الوطن القومي» على شرق الاردن». وفي الجلسة التي عقدتها الادارة الصهيونية في الثالث والعشرين من آذار ١٩٣٣، عرض نيومان خطته المذكورة، فووفق عليها مبدئياً. وكانت الفكرة تقضي بإقامة شركة مساهمة؛ بحيث تعطى صلاحية ودعماً للقيام بأي عمل او أية صفقة ضرورية لتطوير شرق الاردن ، اقتصادياً . وفيما يتعلق بالقضايا التي تحمل طابعاً سياسياً ، فان الشركة توجه من قبل ادارة الوكالة اليهودية (٥٨) .

وفي الخامس من آذار ١٩٣٣ ، نشرت احدى الصحف ، في وارسو ، مقالاً حول المفاوضات مع الأمير ، ابرزت فيه دور اعضاء الوكالة اليهودية في تلك المفاوضات ، وبخاصة مهمة نيومان وفريشتاين ؛ وأشارت ايضاً الى معارضة ارلوزورف للتفاوض مع الأمير ، والى أهمية دخول اليهود الى شرق الاردن . وقد وصفت الصحيفة الاحتفال باتمام الصفقة كأنه « وعد بلفور ثان » . كما تضمن المقال طلب الأمير ، ابقاء المفاوضات سراً ، وإجابة نيومان وزميله على ذلك : « باستطاعتك الاعتماد علينا». وفي الثالث والعشرين من آذار ١٩٣٣ ، نقلت الصحيفة العربية « الاسلامية » المقال ، وتبعتها في ذلك صحف عربية أخرى ، وقامت بالتحريض والدعاية ضد الاتفاقية (٥٩) .

النقاش داخل الحركة الصهيونية حول قضية غور الكبد

أثارت قضية غور الكبد جدلاً داخل الحركة الصهيونية ؛ وذلك بين الذين يريدون وضع سلم أولويات ، على اختلاف فئاتهم ، وبين المؤمنين باستغلال الفرص السانحة . وقد تم طرح عدة تبريرات لمعارضة الذهاب الى الاردن ، تُلخّص في الاعتبارات التالية: إن شرق الاردن « سوف ينتظر » ؛ حيث ان تلك البلاد لا تجذب المستثمرين ، ولهذا لا يوجد اي خوف من ان يسبق اي احد الحركة الصهيونية في الذهاب الى هناك ، وان الذهاب الى شرق الاردن يجب ان يكون على صورة « احتلال عاصف » [سريع كالعاصفة] : اي استيطان عدد كبير من الاشخاص جنباً الى جنب مع استثمارات كبيرة . وأشاروا الى أنه لا يمكن اجتياز نهر الاردن « بالعصا » وانما بالاموال ، ولكن الحركة الصهيونية تعاني من عجز دائم ؛ ولهذا يجب عدم طرح مثل هذه المشاريع الآن . وأشار اصحاب هذا الرأي ، الى ان الحركة الصهيونية عاجزة عن توطين فلسطين ؛ حيث هناك اراض يمكن ان تفقدها مثل : سهل بيسان والحولة والنقب ،

وذلك بسبب النقص في الاموال والطاقة البشرية (٦٠) . وبالمقابل ، طرح الطرف الآخر ، المؤيد للاستيطان ، تبريرات لا تقل اقناعاً عن سابقتها ؛ حيث أن مشكلة شراء الاراضي في فلسطين آخذة في التفاقم، وأنه عن طريق شرق الاردن يمكن إيجاد الحل لتوطين اليهود هناك، في حين أن توطينهم في فلسطين يمكن ان يثير عاصفة سياسية . وأن الاسعار الزهيدة للاراضي في شرق الاردن يمكن ان تتسبب في رخص اراضي فلسطينية . كما ستكون هناك امكانية لتوطين الفلاحين العرب ، من المناطق الجبلية المزدحمة في فلسطين ، هناك ؛ وهكذا يتم ايجاد امكانية لشراء الاراضي في فلسطين،هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان الاردن بوضعه الحالي يشكل خطراً أمنياً ـ تهديد البدو ـ وهكذا عن طريق الاستيطان هناك يمكن اقامة علاقات صداقة معهم قد تؤدي الى كبح العدوان (٦١) .

موقف البريطانيين من قضية اراضي الأمير

فيما يتعلق بمسألة شرق الاردن ، لا توجد معلومات عن قيام اتصالات بين الادارة الصهيونية والحكومة البريطانية ، خلال العشرينات ، وبالذات في اعقاب رسم حدود فلسطين في مؤتمر السلام . وفي بداية ١٩٢٩ ، أجرى بنحاس روتنبرغ مفاوضات مع المندوب السامي ، جوهان جانسلر ، حول امكانية توطين اليهود على اراضي شركة الكهرباء في ارام ـ نهرايم (في الغور الشمالي) . ولكن الحكومة الاردنية عارضت ذلك ، بحجة انه يؤدي الى توسيع حدود الوطن القومي اليهودي الى ما وراء حدود فلسطين ، كما رفضها المندوب السامي نفسه . وفي إطار انتقاد الوكالة اليهودية للكتاب الابيض، عام ١٩٣٠، اقترحت الوكالة، توطين العرب الفلسطينيين الموجودين في المناطق المزدحمة، في شرق الاردن، كما اشتكت من القيود التي وضعت على استيطان اليهود هناك. ولكن الحكومة البريطانية، قررت عدم ضم مشكلة شرق الاردن الى المشاكل التي شملتها مذكرة ماكدونالد ، وهكذا هدأت المسألة لمدة سنة كاملة (٦٢) .

وفي الثاني من كانون الثاني ١٩٣٢ ، طلب المندوب السامي آرثر ووكوب ، بمبادرته الشخصية ، من وزارة المستوطنات معرفة موقفها من الاستيطان اليهودي في شرق الاردن ومن استيطان العرب الفلسطينيين فيه . . وكان رد الوزارة ينص على عدم القيام بأية خطوة ، في شرق الاردن ، دون موافقة مسبقة من قبل الأمير وحكومته . واما بالنسبة لاستيطان العرب هناك، فإن وزارة المستعمرات لا تعارض ذلك ابداً. وفي الثاني من حزيران ١٩٣٢، التقى حاييم وايزمن مع وزير المستعمرات البريطاني ، وطلب منه معرفة ما اذا كان البريطانيون يعارضون ، من الناحية المبدئية ، فكرة استيطان اليهود في شرق الاردن . وكان جواب الوزير أنه لا يعارض هذه الفكرة ، حيث أنه يدرك ان الاوضاع الاقتصادية السائدة في شرق الاردن ستساعد على التسلل الى هناك . وأشار الى وجوب العمل بحذر وعدم محاولة الاستيطان قبل التأكد من انه سيتم بأمان وبحسن نية . وقد توافق هذا الرأي ، مع رأي المندوب السامي ، الذي أيد الاستيطان في شرق الاردن ، لان ذلك سيخفف من المشاكل التي يثيرها الاستيطان في فلسطين . وفي اطار هذا الجو الايجابي ، تجاه استيطان اليهود في شرق الاردن ، تم عقد اجتماع بين ارلوزوروف وووكوب في الرابع والعشرين من تشرين الثاني ١٩٣٢(٦٣).

بعد التوقيع على الصفقة مع الأمير ، اجتمع ارلوزوروف مع المندوب السامي الذي لم يطالب بالغائها ، بل أشار الى عدم القيام بخطوات مستقلة أخرى من قبل اليهود ، قد تؤدي الى افشال تلك الاتفاقية ، التي تعتبر نافذة للاستيطان اليهودي في شرق الاردن . وقد حدث تناحر ، داخل وزارة المستعمرات طيلة أسابيع معدودة بغية الوصول الى افضل الطرق وابسطها لمنع استيطان اليهود على اراضي الأمير . وفي تلك الفترة ، حاول مندوبو الإدارة الصهيونية ، في كل من لندن والقدس ، التأثير على الحكومة ، كي تتخذ موقفاً سلبياً من الاتفاقية ، وبالذات ان تمتنع عن اتخاذ خط سياسي يعارض ، مبدئياً ، فكرة الاستيطان اليهودي في شرق الاردن . وفي الثاني من شباط ١٩٣٣ ، تقابل ارلوزوروف ثانية مع المندوب السامي ، وقد حضر الى جانب ارلوزوروف ناحوم سوكولوف ، رئيس المنظمة الصهيونية ، وعمونيل نيومان . حيث كرر الزعماء اليهود تبريراتهم بشأن الاستيطان في شرق الاردن ، وعندها رد المندوب السامي بقوله : إن معارضة الاتفاقية لم تكن بسبب الصحافة العربية الصفراء فقط ، كما يدعي ارلوزوروف ، وانما من قبل اوساط لها نفوذها . وإنه يجب على الحكومة التأكد من أن ذهاب اليهود الى شرق الاردن لا يرافقه التورط الزائد [٦٤] .

وأخيراً تسلم المندوب السامي ، يوم ١٣ شباط ١٩٣٣ ، التعليمات من وزارة المستعمرات ، والتي تقضي بوجوب منع الاستيطان اليهودي في شرق الاردن . وفي اعقاب هذه التعليمات ، اوضح المندوب لكل من الأمير وارلوزوروف ، ان الحكومة البريطانيه لا تعارض تأجير الاراضي ، ولكن اذا ما اثيرت مشكلة الاستيطان اليهودي هناك ، فان الحكومة ستحدد الموعد الملائم لذلك ، بناء على الاعتبارات الأمنية . واذا ما طلب الأمير البدء بالاستيطان الفوري ، فان المندوب لن يتردد مطلقاً في الرفض . وهمس المندوب السامي في اذن ارلوزوروف قائلاً : أنه « لا يزال يعتقد بان الاستيطان اليهودي في شرق الاردن سيتم في يوم ما ، وهو ما سيكون حلاً لمشاكل كثيرة ، وان المسألة هي قضية الوقت الملائم » [٦٥] .

وتم في الثاني والعشرين من نيسان ١٩٣٣ ، عقد الاجتماع الحاسم بين وزير المستعمرات والمندوب السامي في القدس : حيث تقرر ، أنه لا توجد امكانية ، في الظروف الراهنة ، لتنفيذ الاستيطان خلال سنة على الاقل ، وان الحكومة لا تستطيع التعهد ، بهذا الشأن ، حتى بعد مرور سنة . وان المندوب السامي هو الذي سيحدد شروط العمل الاستيطاني ، عندما يحين الوقت الملائم لذلك . وأشار الى وجوب توفر الشروط التالية :

أولاً ، يجب ان يتم الاستيطان من قبل شركة يتم انشاؤها لهذا الغرض ، وليس من قبل الوكالة اليهودية او إحدى مؤسساتها الحالية .

ثانياً ، يجب ان تتحمل الشركة المذكورة النفقات السنوية لقوات الأمن التي ستجري اضافتها الى هناك بسبب الاستيطان اليهودي .

ثالثاً ، سيتم تعزيز قوات الأمن في إطار حرس الحدود الحالي ، اي دون اشراك اليهود .

رابعاً ، يجب أن يترك للعرب الذين يعيشون على الأرض التي ستشتريها الشركة حصة من الأرض تمكنهم من العيش .

خامساً ، يقوم المندوب السامي بتحديد المناطق التي يسمح فيها بالاستيطان [٦٦] .

وكان احد التبريرات التي استخدمها المندوب السامي ، لعدم السماح بالاستيطان اليهودي في شرق الاردن هو : ان الاتصال المباشر بين الأمير والوكالة اليهودية كان خطئاً ، لأنه خلط الاعتبارات السياسية مع صفقة اقتصادية . وقد اقتنع ارلوزوروف بهذا التبرير : الأمر الذي ادى الى جـدل صهيوني داخلي . وعندما كرر المندوب السامي ، على مسمع من موشي شرتوك ، بان الادارة الصهيونية اخطأت في معالجتها لقضية شرق الاردن ، عن طريق الاتصال المباشر مع الأمير ، استجاب شرتوك للتحدي واقترح ان تقوم الوكالة اليهودية بشراء الاراضي الكائنة شمالي غور الكبـد ، والعائدة لشخص انجليزي اسمه Hughes ، من سكان شرق الاردن ، والمعني ببيعها للوكالة اليهودية : وعند ذلك اضطر المندوب لأن يرفض ، صراحة ، الصفقة حتى مع فرد من شـرق الاردن . وعندما بدأت المفاوضات لتجديد الاتفاقية عام ١٩٣٥ ، واتضح للمندوب السامي ، في مرحلة ما ، ان الأمير عبد الله يريد الغاء الصفقة هنأه على ذلك ؛ لأن الأمر سيؤدي الى تعريض وضعه للخطر سواء كان في شرق الاردن ام في فلسطين . ومن الغريب ، ان المندوب السامي نفسه ، هو الذي أثر في نهاية الأمر ، على الأمير لتوقيع اتفاقية جديدة مع الوكالة اليهودية بدلاً من الاتفاقية مع شركة عربية [٦٧] .

المخططات الصهيونية ما بين ١٩٣٨ - ١٩٤٦

تم خلال عام ١٩٣٨ ، وضع خطة عشرية (لمدة عشر سنوات) ، من اجل تحويل « ارض ـ اسرائيل الكاملة ، اي ارض ـ اسرائيل من على جانبي النهر » ، الى دولة عبرية مع غالبية عبرية ، عن طريق خلق الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المؤاتية لتوطين مليون يهودي ونصف المليون ، خلال السنوات العشر القادمة . ونظراً لعدم وجود معطيات موضوعية كافية في ما يتعلق بشرق الاردن ، فان خطة الدكتور كلينغر ، تكتفي بذكر مراحل التنفيذ في فلسطين ، التي ستستوعب حوالى مليون يهودي . ويقول جابوتنسكي ، في هذا الصدد ، انه يجب تذكر ان توطين شرق الاردن أهم من توطين فلسطين بالنسبة للمستقبل اليهودي . لان شرق الاردن يفوق بمساحته مساحة « ارض ـ اسرائيل الغربية » بثلاثة اضعاف،ويبلغ عدد سكانه ربع سكان فلسطين [٦٨] . ويضيف جابوتنسكي ، ان حل المشكلة اليهودية ، التي ترتكز اساساً على العودة ، لا يكمن في عودة مليون يهودي ونصف المليون فقط ، وانما يرتكز على عودة ملايين اليهود ، وانه بالامكان تحقيق ذلك ، اذا ما اصبح شرق الاردن مفتوحاً امام الاستيطان اليهودي . وان الخطة العشرية مرتبطة بالخطوة الاولى فقط ـ خلق الدولة اليهودية : والدولة ، بعد قيامها ، ستضطر لتحقيق الهدف النهائي للصهيونية ـ وهو العودة الى صهيون [٦٩] .

ومن جهة أخرى ، قام بعض المسؤولين اليهود ، يوم ٢٦ نيسان ١٩٤٤ ، بزيارة الى شرق الاردن : حيث اجتمعوا ، مرة أخرى ، الى متقال الفايز : وكان من بينهم يوسف فايتس ، المسؤول عن شراء الاراضي في الوكالة اليهودية ، وتباحثوا معه في كافة الطرق القانونية التي تتيح لشراء الارض في شرق الاردن . ثم زاروا قرية ام العمد ، جنوبي عمان ، وذهبوا مع الفايز نفسه الى منطقة زيزيا : حيث عرض عليهم شراء مساحات كبيرة من الاراضي . واتضح ، بعد التجوال هناك ، ان المياه قليلة جداً ، وربما معدومة : ولهذا لم يتم تحقيق الصفقة . ثم قاموا بجولة أخرى في منطقة المفرق ، وعادوا الى ام العمد . حيث اجتمعوا ، يوم

٩ نيسان ١٩٤٤ ، مرة أخرى مع الفايز ، الذي اقترح ، عليهم ، أن يقوم بشراء الأرض لحسابهم وقال : إنه طالما ان القانون لا يسمح بتسجيلها على اسمهم (اليهود) ، فإنه سيسجلها على اسمه ، ويقوم بزراعتها « بواسطتنا » ؛ أي ، بإحضار مجموعات من اليهود مع ادواتهم وآلياتهم للعمل هناك ، ورويداً رويداً « يتسللون » الى « هناك » ويقيمون المستوطنات . وقد اشار الفايز بيده إلى التلال التي ستقوم عليها المستوطنات ؛ وعند ذلك اتجه الوفد شرقاً ، حتى وصل الى قصر حمامه ؛ حيث تفحص ارضاً مساحتها حوالى مليون دونم ، غير انها كانت صحراء خالية. وجاء في يوميات فايتس : « وفي الطريق أرشدنا الى اراضي الطنيب في المنطقة الغربية التي بيعت ، حسب اقواله قبل بضعة أشهر ، الى تاجر من معان بسعر اربعة جنيهات فلسطينية للدونم الواحد » . ولكن الجولة تلك . لم تسفر عن شيء في النهاية (٧٠) .

وثيقة بن ـ غوريون السرية حول شرق الاردن

نشرت صحيفة معاريف (١٨/٤/١٩٧٢) ، وثيقة سرية اعدها بن ـ غوريون ، في ١٧ تشرين الاول ١٩٤١ ، بعنوان : « خطوط هيكلية للسياسة الصهيونية » . وقد سرق عملاء بريطانيون الوثيقة من حقيبة بن ـ غوريون ، اثناء وجوده في لندن ، خلال تلك السنة ، ثم أعادتها السفارة البريطانية في اسرائيل الى وزارة الخارجية الاسرائيلية ، بعد مرور ٣٠ سنة على اخفائها .

اوضح بن ـ غوريون ، في هذه الوثيقة ، ان حدود الدولة اليهودية المزمع انشاؤها تشمل شرق الاردن ؛ لكنه نصح بعدم الاعلان عن ذلك ، في ذلك الوقت ، لاغراض تكتيكية. كما أعلن « ان اراضي النقب القاحلة ، وكذلك مياه نهر الاردن والليطاني يجب ان تكون مشمولة داخل حدودنا » . وأشار بن ـ غوريون الى مسألة الحدود فقال : « من المهم التمييز بين دولة يهودية كوسيلة ، وبين دولة يهودية كهدف نهائي ، خصوصاً في ما يتعلق بقضية الحدود . واذا كانت صيغة ارض ـ اسرائيل بحدودها التاريخية ، تشكل ضمانة ، من الناحية العاطفية ، فاننا لا نستطيع تبنيها للمقتضيات العملية الآنية . ولا يتوقف الأمر عند حد أن اصطلاح « الحدود التاريخية » غامض جداً وغير محدد ، لان حدود ارض ـ اسرائيل كانت معرضة للتغييرات الدائمة اكثر من حدود اي بلاد أخرى ، الا اذا نسبنا الى هذا الاصطلاح معنى ارض ـ اسرائيل بما في ذلك شرق الاردن . غير ان هذا المعنى يعتبر الآن غير عملي . ولذا فهو لا ينطوي الا على الضرر ، لأنه يسبب مزيداً من معارضة العرب ، ويضاعف صعوباتنا من جانب انجلترا . لا حاجة ، حتى الآن ، الى تعريف حدود الدولة اليهودية التي سنطالب باقامتها بعد انتهاء هذه الحرب . لم نصل بعد الى مرحلة المفاوضات الجادة ، لا مع الحكومة البريطانية ولا مع العرب ، ولم يطلب منا بعد تحديد مساحة الدولة اليهودية . لذا ، علينا الا نؤيد الصيغ التي قد تزيد من عدد معارضينا في الخارج دون حاجة ، او تثير نقاشات وصعاباً داخل الحركة نحن في غنى عنها ؛ اي ان علينا الامتناع ، من جهة ، عن الادلاء بمطاليب صريحة بشرق الاردن ، وعلينا من جهة أخرى ، الا نقترح باي حال من الاحوال ـ تلميحاً او تصريحاً ـ تقسيم ارض ـ اسرائيل ... علينا ان نتذكر أنه من اجل قدرة الدولة اليهودية على البقاء ، لا بد ان نكون من جهة جيراناً للبنان المسيحي ، ومن جهة أخرى ، يجب ان تكون اراضي النقب القاحلة ، وكذلك مياه الأردن والليطاني ، مشمولة داخل حدودنا » (٧١) .

(١) ايلات ،الياهو . « شيفات تسيون فيعراف » . (عودة صهيون والعرب). تل ابيب . دفير ١٩٧٤ ، ص ٨٨ .
(٢) المصدر نفسه . ص ٩٠ .
(٣) المصدر نفسه . ص ٩١ .
(٤) المصدر نفسه . ص ٩٢ .
(٥) المصدر نفسه . ص ٩٣ .
(٦) المصدر نفسه . ص ٩٤ .
(٧) المصدر نفسه . ص ٩٤ .
(٨) المصدر نفسه . ص ٩٥ .
(٩) المصدر نفسه . ص ٩٦ .
(١٠) المصدر نفسه . ص ٩٧ .
(١١) المصدر نفسه . ص ١٠٠ .
(١٢) دايان، شموئيل . « بيمي حازون فمتسور » . (في ايام الرؤيا والحصار) . تل ابيب . مادة وحركة الموشامنيم ١٩٥٢ ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .
(١٣) المصدر نفسه . ص ٣١ .
(١٤) المصدر نفسه . ص ٥٤ .
(١٥) ايلات، الياهو . مصدر سبق ذكره . ص ١٠٢ .
(١٦) المصدر نفسه . ص ١٠٣ .
(١٧) المصدر نفسه . ص ١٠٥ .
(١٨) المصدر نفسه . ص ١٠٧ .
(١٩) جابوتنسكي ,زئيف ، « كتانيم » . (مؤلفات جابوتنسكي) . تل ابيب ، عاري جابوتنسكي (دار نشر) ١٩٥٣ ، الجزء الحادي عشر . ص ٢٢٥
(٢٠) المصدر نفسه . ص ١٩٨ .
(٢١) بيلع، موشي . « عالم جابوتنسكي » . تل ابيب ، دفوسيم ١٩٧٥ ، ص ٤٣٦ .
(٢٢) كارفي . دنئيل . « هتسيونوت » . (الصهيونية) ، تل ابيب ، الكيبوتس الموحد ١٩٧٣ ، ص ٢٩٥ .
(٢٣) دايان ، شموئيل ، مصدر سبق ذكره ، ص ٥٦ .
(٢٤) كارفي. دنئيل ، مصدر سبق ذكره : اورن الحنان (مقال حول خطة الكولونيل سميث) ، ص ٤٣ .
(٢٥) المصدر نفسه . ص ٤٧ .
(٢٦) المصدر نفسه . ص ٥٠ .
(٢٧) المصدر نفسه . ص ٥٣ .
(٢٨) المصدر نفسه . ص ٥٣ .
(٢٩) روبين ، آرتر . « ريشيت عفورتي بآرتس » . (بداية عملي في البلاد) . تل ابيب . عام عوفيد ١٩٦٨ ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .
(٣٠) ايلات. الياهو . مصدر سبق ذكره ، ص ١١٦ .
(٣١) المصدر نفسه . ص ١١٨ .
(٣٢) المصدر نفسه . ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .
(٣٣) المصدر نفسه . ص ١٢٩ .
(٣٤) المصدر نفسه . ص ١٢٤ ـ ١٣٦ .
(٣٥) السبرغ . ابراهام . « كتاب هتسيونوت » ، مصدر سبق ذكره . ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .
(٣٦) المصدر نفسه . ص ٢٣٠ ، وهي مأخوذة عن . الوثائق البريطانية . ١٩١٩ ـ ١٩٢٩ ، المجلد التاسع . ص ٣٤٧
(٣٧) المصدر نفسه، ص ٢٣١، مأخوذة عن: Richard meinertzhagen, middle East diary. 1917- 1956, London, Pl 62.
(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.
(٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.
(٤١) «كتاب هتسيونوت» (الصهيونية)، مصدر سبق ذكره، ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.
(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٨.
(٤٣) المصدر نفسه، ص ٢٩٩.
(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.
(٤٥) المصدر نفسه، ص ٣٠٢.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٣٠٣ .
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٤ .
(٤٨) المصدر نفسه، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٣٠٥.
(٥٠) المصدر نفسه، ص ٣٠٧.
(٥١) المصدر نفسه، ص ٣٠٧.
(٥٢) «هتسيونوت» (الصهيونية)، مصدر سبق ذكره ،ص ٣١٩.
(٥٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.
(٥٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٤.
(٥٥) المصدر نفسه، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٥٦) المصدر نفسه، ص ٣٢٧.
(٥٧) المصدر نفسه، ص ٣٣٠ .
(٥٨) المصدر نفسه، ص ٣٣٥.

(٥٩) المصدر نفسه، ص ٣٢٨.
(٦٠) المصدر نفسه، ص ٣٤١.
(٦١) المصدر نفسه، ص ٣٤٢ .
(٦٢) المصدر نفسه، ص ٣٠١ .
(٦٣) المصدر نفسه، ص ٣١٠ ـ ٣١١.
(٦٤) المصدر نفسه، ص ٣١٢.
(٦٥) المصدر نفسه، ص ٣١٣.
(٦٦) المصدر نفسه، ص ٣١٦.
(٦٧) المصدر نفسه، ص ٣١٩.
(٦٨) جابوتنسكي،زئيف،مصدر سبق ذكره، المجلد الثاني عشر، ص ٢٢١.
(٦٩) المصدر نفسه، ص ٤٢١.
(٧٠) فايتس ،يوسف، «يومني»، (يومياتي) الجزء الثاني، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.
(٧١) «معاريف» ١٨/٤/١٩٧٢.

نهى تادرس

التواجد العسكري الأميركي في منطقة البحر الأبيض المتوسط

مدخل

تعتبر منطقة البحر الأبيض المتوسط ، بشكل عام ، وشرقها بشكل خاص ، حيث تلتقي القارات الثلاث : الأوروبية والإفريقية والآسيوية ، منطقة استراتيجية ، حيوية للولايات المتحدة وللدول الغربية الأخرى وبخاصة العاملة منها في إطار حلف شمال الاطلسي .

وقد ازداد نشاط الحلف الأطلسي ، في البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٧٩ ، بعد نجاح الثورة الإيرانية ، وذلك في نفس الفترة التي ازداد فيها التواجد العسكري الأميركي في المحيط الهندي ومنطقة الخليج حيث تنظر الولايات المتحدة إلى شرق البحر الأبيض المتوسط ، والشرق الأوسط كحلقة اتصال بين الحلف الأطلسي والقواعد الأميركية في المحيط الهندي وبخاصة قاعدة « دييغو غارسيا »[١] .

ويسبب نشوب عدة نزاعات سياسية وعسكرية في منطقة البحر الأبيض المتوسط ، أهمها النزاع العربي الاسرائيلي ، ومنها النزاع التركي اليوناني حول جزيرة قبرص ، تقوم الولايات المتحدة الأميركية بلعبة سياسية عسكرية معقدة في المنطقة ، هدفها الاستمرار في السيطرة على نفط الشرق الأوسط وعلى معظم النقاط الاستراتيجية في جنوب أوروبا وجزر البحر الأبيض المتوسط .

ومن الواضح ، خصوصاً بعد سقوط الحلف المركزي (CENTO) في آذار ١٩٧٩ والذي كان يضم ايران وباكستان وتركيا وبريطانيا ، أن وزارة الدفاع الأميركية واستراتيجيي الحلف الأطلسي يبحثون عن اساليب جديدة لإقامة تحالفات أخرى تضمن استمرار سيطرتهم ونفوذهم في المنطقة . ويعتبر التحالف الثلاثي بين الولايات المتحدة ومصر واسرائيل ، أحد الاساليب الجديدة للقيام بهذا الدور .

ويبدو أن الولايات المتحدة قد اتخذت في الشهور الأخيرة عدة خطوات ، في محاولة لربط الحلف الأطلسي الذي تهيمن عليه عسكرياً ، خصوصاً الجناح الجنوبي منه ، بمنطقة المحيط الهندي والخليج ، هذا مع ان اعمال الحلف الأطلسي لا تشمل ، رسميا ، منطقة الخليج . ومن خلال هذه

المحاولات ، تورط الولايات المتحدة بلدان الجناح الجنوبي للحلف (وبخاصة إيطاليا واليونان وتركيا وقبرص) في مشاريع عسكرية ، خارج منطقة عمل الحلف الأطلسي [٢] .

واستعدادا لتهيئة قوة التدخل السريع ، التي ستكون جاهزة للعمل في الفترة القادمة ، أبلغت الولايات المتحدة ، رسميا ، حلف شمال الأطلسي ، في منتصف شباط ١٩٨٠ ، نيتها تخزين معدات عسكرية ثقيلة في عدد من الدول الأوروبية العاملة في الحلف ، وذلك في إطار مشروع واسع لإعادة تنظيم عمليات الدعم اللوجيستي للقوات الأميركية في أوروبا . وكانت القوات الأميركية تملك ، في ذلك الحين ، وبخاصة في ألمانيا الغربية وهولندا معدات تكفي لتجهيز ثلاث فرق (٤٢ ألف رجل) . وكانت تعمل من أجل زيادة هذه المعدات كي تكفي ثماني فرق (١٠٨ الاف رجل) في عام ١٩٨٥ . وكانت الولايات المتحدة قد بدأت ، في نفس الوقت ، التفاوض مع النرويج والدانمارك لعقد اتفاق بهذا الشأن [٣] .

ماذا عن دور الحلفاء الأوروبيين خارج الحدود الاوروبية

والسؤال الذي يواجه المخططين العسكريين ، في الولايات المتحدة ، مُعدّي عملية التخطيط للتدخل العسكري في الخليج ، هو : ماذا سيكون موقف الحلفاء العسكري ، في حال تواجد الولايات المتحدة في منطقة الخليج على حافة الحرب مع القوات السوفياتية ؟ وقد تحدث أحد المحللين السياسيين عن هذا الوضع فقال : « يبدو هذا السؤال بسيطا ، لكن الاجابة عليه أكثر تعقيدا لأن المخططين الأميركيين لا يريدون إضعاف امكانيات الدفاع في أوروبا الغربية ، حيث تواجه معظم قوات الحلف الأطلسي الجزء الأكبر من قوات حلف وارسو بقيادة السوفيات ، عبر حدود المانيا الغربية » . لذلك ، يبدو أن الولايات المتحدة تفضل أن تقوّي قوات الحلف الأطلسي الأوروبية امكانياتها الذاتية فتسمح للقوات الأميركية الاحتياطية بتخصيص عملها لمنطقة الخليج ، ولكن يرى بعض الخبراء العسكريين أن الولايات المتحدة ستطلب مساعدة فعلية من حلفائها ، خصوصاً ، في مجال البحرية ، وقد أوضحت بعض المصادر المسؤولة في الولايات المتحدة ، في شباط ١٩٨٠ ، أن هذه قد تضغط على حلفائها لمساندتها في حروب خارج أوروبا ، ولكن المسألة حساسة لدرجة أن الولايات المتحدة متخوفة من طرح السؤال بشكل علني ؛ وكانت بعض المصادر غير الرسمية تشير إلى أن استراليا ، فقط ، قد أبدت استعدادها لمساندة القوات الأميركية في منطقة الخليج ، بينما اتخذت بريطانيا خطوة ايجابية ، في هذا الاتجاه ، في شهر كانون الثاني ١٩٨٠ عندما ارسلت بعض القطع الحربية إلى البحر الأبيض المتوسط كاشارة لعدم موافقتها على السياسة السوفياتية في أفغانستان [٤] .

ولكن ، هناك خلاف واضح في وجهات النظر الأوروبية ، بشكل عام ، والأميركية حول احتمال حدوث تدخل سوفياتي في منطقة الخليج ، فالأوروبيون يعتمدون ، أكثر من الأميركيين، على نفط الخليج وهذا يؤدي بهم إلى اتّباع سياسة حذرة في هذه المنطقة ، كما ان العلاقات الاقتصادية القائمة بينهم وبين أوروبا الشرقية تدفع بهم إلى محاولة الحفاظ على سياسة الانفراج مع الاتحاد السوفياتي ، وقد عبر أحد العلماء البريطانيين عن هذا الوضع قائلا « إن للانفراج الآن وجهين : انفراج أميركي سوفياتي غير موجود ، وانفراج أوروبي سوفياتي ما زال على قيد الحياة » [٥] .

وقد كتبت « النيويورك تايمز » في إحدى افتتاحياتها ، في أواخر أيار ١٩٨٠ « ان الخلافات في

إطار الحلف الأطلسي ليست جديدة ، غير أن الخلاف الحالي ليس مجرّد خلاف حول شكل السياسة التي يجب اتباعها؛ وهذه الخلافات تكشف ما كانت تخبئه القوة الاقتصادية المشتركة من ضعف للحلف ، خارج الحدود الأوروبية ، ولذلك فإن ما يبدو وكأنه صراعات سياسية هو بالأرجح تناقضات بنيويه ... وإن لم تُحتوَ فستؤدي إلى تغيير في التوازن العسكري الأساسي » [٦] .

وقد عبر عالم السياسة الأميركي في جامعة هارفارد ستانلي هوفمان عن نفس الرأي بقوله : « إن الأزمة الحالية [بين الولايات المتحدة والحلفاء] ذات مغزى سياسي يفوق مغزى أية أزمة سابقة . فامتداد نطاق عمل الحلف على القارة الأوروبية فقط وعدم وجود استراتيجية مشتركة للتعامل مع أزمات غير أوروبية ، كان محدود الأهمية في الماضي ، فلم تكن الولايات المتحدة على وشك المجابهة المباشرة مع الاتحاد السوفياتي في فيتنام ولا في كوريا ، ولم تكن أية هزيمة أميركية سابقة تهدد المصالح الغربية الحيوية من خلال اعطاء الاتحاد السوفياتي إمتيازات حاسمة ، ولكن الوضع مختلف في الشرق الأوسط » [٧] .

وفي الواقع ، إن مسألة الشرق الأوسط هي احدى المسائل التي أدت ، تقليديا ، إلى بروز خلاف في وجهات النظر الأوروبية الأميركية كما حدث بين حرب حزيران ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ . والمعروف ان الأوروبيين والاميركيين اختلفوا ، خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، حول معظم المسائل التكتيكية والاستراتيجية الخاصة بهذه الحرب ، وقد وصفت احدى الدراسات الصادرة عن الجامعة العبرية ، عام ١٩٧٤ ، العلاقة الأوروبية الأميركية في هذه الفترة على النحو التالي: « من وجهة النظر الأميركية كان ضروريا ان يساند الحلف الأطلسي بأكمله اسرائيل . أما بالنسبة للأوروبيين ، فمحاولة الولايات المتحدة استخدام الحلف كأداة للسياسة الأميركية واتخاذها لقرارات بدون مشاورتهم ، كانت قاضية بالأساس على أي عمل مشترك »[٨] .

ولأن الشرق الأوسط لم يكن من مجالات عمل الحلف الأطلسي ، قانونيا ، فقد استخدمت أوروبا هذا الوضع القانوني للاستمرار في سياسة مستقلة تجاه أزمة الشرق الأوسط . والأسباب الرئيسية لاختلاف وجهات النظر الأوروبية والأميركية في ذلك الحين ، هي :

أولاً : اعتبار أوروبا أن اسرائيل فشلت في اتخاذ خطوات نحو حل للقضية ، بعد حرب ١٩٦٧ ، واعتبار الولايات المتحدة أنّ اسرائيل هي الحليف الأساسي الذي يمكن الاعتماد عليه .

ثانياً : تخوف أوروبا من آثار سياسة حظر النفط العربي على اقتصادها الذي يعتمد على النفط [٩] .

وكان الجنرال ألكساندر هايغ ، قائد قوات الحلف الأطلسي السابق ، قد طالب عام ١٩٧٨ بتوسيع نطاق عمل الحلف الأطلسي إلى مناطق في العالم الثالث ، حيث « ان التركيز القصير النظر على الجبهة الأوروبية ، على حساب الاهتمام بما يحدث على الأطراف ، قد يكون تضليلاً ذاتياً » وحيث « ان هناك ضرورة تفرض على الدول الغربية مواجهة التغيير الطارىء على طبيعة الخطر ... من طابعه الأورو-آسيوي إلى طابعه العالمي ، مما يشمل كل الشبكات الحيوية الغربية ، سياسية واقتصادية وعسكرية » ثم يخلص الجنرال إلى القول : « ... إن على الغرب أن يأخذ قراراً سياسياً مشتركاً »[١٠] .

ثم عبّر عن نفس النظرة ، في تموز ١٩٧٩ ، وكان قد استقال من منصبه ، « انني لا أشجع تصريحات احادية الجانب بعرض العضلات ، من قبل الولايات المتحدة ، لمواجهة احتمالات من هذا النوع [التدخل في الخليج] خصوصاً عندما توتّر هذه التصريحات علاقاتنا مع الحكومات المحلية ، ومع حلفائنا الأوروبيين . إننا نُقيِّم بما نفعل وليس بما نقول . فأنا أفضل محاولات صامتة لتطوير اجماع ، بين القوى الغربية ، تجاه منطقة الخليج ، مثلا ، والتخطيط المشترك من أجل هذه الاحتمالات بعيدا عن أضواء الدعاية » (١١) .

وتتطابق وجهة نظر الجنرال هايغ مع وجهة نظر بعض الأوروبيين العاملين في الحلف الأطلسي الذين يطالبون بتوسيع رقعة عمل « الناتو » لمواجهة الخطر السوفياتي ، حول القارة الإفريقية وداخلها ؛ وقد عبر رئيس اللجنة العسكرية في الحلف الأطلسي ، السير بيتر نورتون ، عن هذا المنطق في كتاب نشر في ٢٥ أيار عام ١٩٧٨ بعنوان « الحقائق العسكرية للحلف الأطلسي : لا للخيارات السهلة » ، (Military Realities of Nato: No Soft Options) (١٢) .

وتتناقض وجهة نظر الجنرال هايغ مع وجهة نظر زبيغنيو بريجنسكي الذي يفضل ، في تصريحاته العلنية ، عدم تدخل الحلف الأطلسي في مشاكل غير أوروبية معتبرا أن الولايات المتحدة تحتلّ مكانة الزعامة في العالم وإذن لا بد لها أن تتحمل تلك الأعباء(١٣) .

وفي الواقع هناك وجهات نظر مختلفة داخل الإدارة الأميركية ، حول دور الحلفاء في المشاكل غير الأوروبية كما ان هناك وجهات نظر مختلفة داخل المجموعة الأوروبية ، حول الدور الذي يجب أن يلعبه الحلف الأطلسي خارج أوروبا . وهناك حلول مرحلية تتبعها الولايات المتحدة قبل حسم هذه الخلافات وهي :

اولاً : اعتبار كل أزمة حالة فردية (ففي بعض الأزمات ، كمشكلة زائير ، مثلا ، شاركت القوات الأميركية القوات الفرنسية في مواجهة الثوار) .

ثانياً : إبرام اتفاقيات ثنائية بين الولايات المتحدة وبعض الدول الأوروبية ، سواء كانت داخل الحلف الأطلسي أم خارجه ، تسمح للولايات المتحدة باستخدام بعض القواعد أو تعطيها بعض « التسهيلات » العسكرية في هذه الدول ، مما يؤدي إلى توريطها في مشاريع الولايات المتحدة العسكرية في الشرق الأوسط والخليج بدون توريط كل الحلفاء دفعة واحدة .

ولذلك ، من الصعب التنبؤ بما سيكون عليه دور الحلفاء الأوروبيين في حال قررت الولايات المتحدة استخدام قوتها العسكرية في منطقة الشرق الأوسط أو الخليج خصوصاً لأن الولايات المتحدة تضغط باستمرار على الدول الأوروبية بهدف اخضاعها إلى مشاريعها ، وذلك بسبب استمرار هيمنتها العسكرية على أوروبا ، مما يجعل مستقبل العلاقات بين الطرفين قابلاً للتقلبات (١٤) .

وهناك بعض المؤشرات على ان بعض وزارات الدفاع الأوروبية الداخلة في الحلف الأطلسي قد بدأت تعبر عن شكوكها بالزعامة الأميركية للحلف ، ولكن يبدو أن النقد الموجه للحليف الأميركي يقتصر على نقد عدم فعالية القوات الأميركية في مواجهة القوة السوفياتية العسكرية (١٥) .

أما من وجهة النظر الأميركية ، فقد صرح كارتر في أوائل نيسان « انهم يطالبون التفاهم ولكنهم

يرفضون أن يفهمونا بالمقابل ، فالبعض منهم يطلب منا الحماية ولكنه لا يخضع لالتزامات التحالف » (١٦) .

الا ان كارتر عاد مرة أخرى ، ليناقض تصريحه هذا بتصريح آخر ، عشية انعقاد مؤتمر قمة البندقية للدول المصنعة ، في ٢٢ و٢٣ حزيران ، قائلا « إن الحلف ، برأيي ، أقوى مما كان عليه في السنوات الماضية ، ربما حتى منذ نشوئه » هذا في نفس الوقت الذي كتب فيه محلل سياسي فرنسي « إن العلاقات العبرأطلسيه ، عشية انعقاد المؤتمر ، هي على أسوأ أحوالها منذ ثلاثين عاما » (١٧) .

وسنكتفي فيما يلي بعرض التواجد العسكري الأميركي في منطقة البحر الأبيض المتوسط .

تواجد الولايات المتحدة في منطقة البحر الأبيض المتوسط

منذ القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية ، كانت بريطانيا تسيطر على كل النقاط الاستراتيجية في البحر الأبيض المتوسط التي كانت تشكل منافذ حيوية لامبراطوريتها : فقد سيطرت بريطانيا على مضيق جبل طارق عام ١٧٠٤ ، ثم على جزيرة مالطا عام ١٨٠٠ ، ثم على عدن عام ١٨٣٩ ، ثم على قبرص عام ١٨٧٨ وعلى مصر عام ١٨٨٢ . وقد بدأت مرحلة جديدة من تاريخ البحر الأبيض المتوسط مع دخول الولايات المتحدة شمالي أفريقيا ، خلال الحرب العالمية الثانية ، عام ١٩٤٢ (١٨) .

وبدأت الرقابة على المضايق والقنوات تشغل مكانا هاما في استراتيجية الولايات المتحدة التي استخدمت هذه المضايق في الحرب العالمية الثانية .

ويمكن تحديد نقطة ابتداء التدخل الأميركي المباشر في شرق البحر الأبيض المتوسط مع دخول الباخرة الحربية ميسوري (Missouri) اسطامبول عام ١٩٤٦ (١٩) . وعام ١٩٤٨ ، دخلت حاملة الطائرات ميدواي (Midway) مع كتيبة بحرية برمائية منطقة البحر الأبيض المتوسط ، وفي نفس هذه الفترة كانت معظم القوات الأميركية المتواجدة في أوروبا قد انسحبت منها *(٢٠) . وفيما بعد عادت القوات الأميركية إلى إيطاليا في إطار الإلتزامات الأميركية تجاه الحلف الأطلسي ، وشملت هذه القوات عام ١٩٧٦ مجموعة الكتيبة الحربية الأولى المحمولة جوا (The 1st Airborne Battalion Combat Team) وكتيبة المشاة رقم ٥٠٩ (509th Infautry) والكتيبة الثانية من قوة المدفعية الثلاثين (30th Field Artillery Second Battalion) المتواجدة في فيسنزا (Vicenza) (٢١) .

واستمر التواجد الأميركي البحري الحربي في المنطقة وأصبح متمثلا ، فيما بعد ، بالاسطول السادس تحت شعار « مواجهة الخطر السوفياتي » ، في شرق البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط . وأصبح الاسطول السادس ، تدريجيا ، جزءا من مخطط استراتيجي شامل طُوِّر ، بعد

---

* كانت القوات الاميركية التي وصل حجمها الى ٢.٨ مليون ، عام ١٩٤٥ ، قد انخفضت الى حوالى المئة الف عنصر تواجد معظمهم في المانيا، أما الجزء الأخير من القوات الأميركية المتواجدة في ايطاليا (٢٠٠٠ عنصر) فقد تركها عام ١٩٤٧ .

الحرب العالمية الثانية تحت الهدف المعلن : « الدفاع عن الولايات المتحدة وأوروبا » . وكانت القاذفات المتوسطة المدى (Medium Bombers)هي التي تقوم بوظيفة الردع . في الخمسينات ، وكانت هذه القاذفات متمركزة . أساسا . في شمال افريقيا وجنوب أوروبا ، وعندما أصبحت الصواريخ القاذفة السوفياتية المتوسطة المدى (IRBMS) قادرة على مواجهة القاذفات الأميركية تحولت وظيفة الردع الأميركي إلى الأسلحة النووية المحمولة جوا (Nuclear Armed. Carrier Borne Aviation) ثم أصبح الوضع أكثر خطورة في منتصف الستينات مع انتشار غواصات « بولاريس » ذات الصواريخ الباليستية (Polaris Ballistic Missile Submarines) التي تعرف أيضا بـ (S.S.B.N.S) [٢٢] .

ويمكن ملاحظة أنه . حتى أوائل السبعينات . كانت معظم الأزمات التي تحدث في منطقة البحر الأبيض المتوسط تجد جذورها خارج المنطقة . وقد برزت فترة هدوء نسبي . في الستينات . كانت تبشر بامكانية الحد من النزاعات في هذه المنطقة (هذا بغض النظر عن الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧) . ولكن في اواخر عام ١٩٧٣ انقلب الوضع عندما كادت الحرب العربية الاسرائيلية تؤدي إلى أزمة نووية . وعندما اشتدت أزمة الطاقة التي انعكست على الأزمة الاقتصادية التي كانت الدول الغربية قد بدأت تعاني منها . في تلك الفترة [٢٣] .

وحتى طوال فترة « الهدوء النسبي » بقيت منطقة البحر الأبيض المتوسط منطقة حيوية للولايات المتحدة . فقد صرح نيكسون . خلال زيارة له . لايطاليا في أواخر عام ١٩٧٠ « إن أحد المبادىء الأساسية . التي لا يمكن الاستغناء عنها في السياسة الأميركية . هو استمرار تواجد قوة كافية في البحر الأبيض المتوسط »[٢٤] .

وكان واضحا . في ذلك الوقت . أن الولايات المتحدة تخطط لانشاء حلف جديد في منطقة البحر الأبيض المتوسط يضم اسبانيا واليونان والبرتغال بقيادة اسرائيل التي قررت الولايات المتحدة . منذ ذلك الحين . تحويلها إلى قوة ضاربة في المنطقة . وذلك في نفس الوقت الذي استمرت فيه الولايات المتحدة باستخدام قواعد سرية واعطاء دور ثانوي لاثيوبيا والمغرب وايران [٢٥] .

وتستمر الولايات المتحدة . في الوقت الحاضر . في محاولاتها لإنشاء احلاف جديدة في المنطقة خصوصاً بعد انهيار حلف « السنتو » (CENTO) . ويحاول « الناتو » في الآونة الأخيرة حل النزاع التركي اليوناني الذي نشب . عام ١٩٧٤ . بغية دعم الجناح الجنوبي الشرقي للحلف . مما يتطلب إعادة إدخال اليونان إلى الجهاز العسكري للحلف . وقد أجرى الجنرال الكساندر هايغ . القائد الأعلى السابق لقوات « الناتو » . مجموعة من اللقاءات مع القادة العسكريين الأتراك واليونانيين لانهاء الخلاف . كما اشارت . مؤخرا . بعض المصادر إلى محاولات أميركية لانشاء حلف ثلاثي يضم تركيا واليونان وقبرص [٢٦] . ويتركز التواجد الأميركي . في البحر الأبيض . على الاسطول السادس بإمكانياته النووية . وقدراته على الانزال .

وقد ازدادت درجة اعتماد الاسطول السادس على قواعد عسكرية لاسباب مالية وعملياتية (لوجيستيك) كما صار يعتمد . أكثر فأكثر . على فعالية الامكانيات الحربية جو / أرض . وعلى التنسيق العملياتي (لوجيستيك)لقيادة « الناتو » التي انشأت قوة بحرية خاصة بالبحر الأبيض المتوسط تسمى (Navoc Formed)(Naval On Call Force Mediterranean) تُدعى إلى

العمل عندما يقرر القائد العام لمنطقة « الناتو » الجنوبية ذلك [٢٧] .

وقد أعلن الأميرال الأميركي هولواى انه يفهم السيطرة على البحر كإمكان لاستخدام المياه الدولية من قبل القوات البحرية الأميركية استخداما حرا في كل نقطة من العالم حيث تتطلب ذلك « مصالح الولايات المتحدة الحيوية » مما يعني امكانية خوض « حرب من البحر ضد القارّة » [٢٨] .

قوة الاسطول السادس ، بين عامي ١٩٧١ ـ ١٩٧٦ [٢٩] :

	١٩٧١	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦
حاملات للطائرات (Aircraft Carriers)	٢	٢	٢	٢	٢	٢
طرادات حربية (Cruisers)	٢	٢	٢	٢	١	٢ـ١
مدمرات (Destroyers)	١٨	١٧	١٧	١٦	١٦	١٥ـ١٢
زوارق دورية مسلحة (Patrol Boats)	٢	٢	٤	٤	٤	٤
سفن حربية بر ـ ماء Aurpbibious Warfare تشمل حاملات للحوامات Ship (Including Helicopter Carriers)	٤	٤	٥	٥	٧	٥
قطع أخرى Auxiliaries	٦	٨	٧	١١	١٠	٢٦

أما إمكانيات الدفاع جو / أرض التي تساند الاسطول السادس ، وقوة الحلف الأطلسي البحرية التي تدعمه ، فهي عبارة عن شبكتي رادار : الأولى شبكة « نايج » (NADGE) (Nato Air Defence Ground Environment System) : وقد طوِّر نظام « نايج » بين عامي ١٩٦٥ و١٩٧٣ . والثانية شبكة لكشف الأهداف والتصويب نحوها منصوبة على طائرات « أفاكس » (Warning and Control System) (Awacs) [٣٠] . (Airborne)

وتمتد شبكة « نايج » من شمال النرويج حتى سيناء مرورا باوروبا ، ثم تلتقي هناك بشبكة « أفاكس » التي تشمل منطقة كبيرة من المحيط الهندي ، وتمتد من بحر العرب عبر جزيرة دييغو غارسيا حتى استراليا ونيوزيلاندا [٣١] .

وللحلف الأطلسي قيادة خاصة بالعمليات الجوية في البحر الأبيض المتوسط « مارايرميد » (Marairmed) تنسق بين القوات الأوروبية والقوات الأميركية في هذه المنطقة . كما توجد قيادة للغواصات ، في البحر الأبيض المتوسط ، تسمى « سابيميد » (SubmarineForce) (Submed) (Mediterranean) . وتعمل « مارايرميد » و « سابيميد » بقيادة اميرالين من الولايات المتحدة (Comsubmed) و (Comarairmed) وتعمل كل هذه القيادات في إطار قوات الحلف الأطلسي لجنوب اوروبا (Afsouth) (Auied Forces Southern Europe) التي يوجد مقرها الرئيسي في نابولي في إيطاليا ، تحت إمرة اميرال أميركي ، أيضا [٣٢]

ولا يخفي قادة الولايات المتحدة أنهم انشأوا « منظومة عالمية من القواعد ونقاط الارتكاز » لسلاحي البحر والجو الأميركيين . ولدى الولايات المتحدة حوالي ٢٥٠٠ قاعدة عسكرية ونقطة ارتكاز ، في ١١٤ بلدا ، خارج أراضيها . كما يتواجد ، حوالي ، نصف مليون جندي أميركي خارج حدود الولايات المتحدة يتوزعون كما يلي : ٣٣٠ ألفاً في أوروبا : وأكثر من ١٣٨ ألفا في منطقة المحيط الهادىء والشرق الأقصى ، و٥.١٥ ألف جندي في أميركا اللاتينية و١٠ آلاف جندي في مناطق أخرى (٣٣) .

وبالنسبة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط ، بشكل خاص ، يعتمد الاسطول السادس على قواعد وتسهيلات عسكرية في منطقة الجناح الجنوبي للحلف الأطلسي ، التي تشمل كلاً من إيطاليا واليونان وتركيا ، إضافة إلى مياه البحر الأبيض المتوسط وبحر مرمره ومنطقة المضايق والقسم الجنوبي من البحر الأسود (٣٤) . كما تستخدم الولايات المتحدة عدة قواعد عسكرية في اسبانيا وقبرص وتربطها بالبرتغال إتفاقية حول استخدام حقل لاجيس (Lagues) وقاعدة بيجا (Beja) في جزر الآزور كما تستخدم بعض القواعد العسكرية في المغرب وجزر كناري على المحيط ، مما يعطي الولايات المتحدة سيطرة على مدخل البحر الأبيض من الغرب أي المحيط الأطلسي ، كما تعمل بريطانيا التي تسيطر على مضيق جبل طارق في إطار الاستراتيجية الأميركية العامة .

وتعتبر اسرائيل قاعدة هامة للقوات الأميركية ، وقد أصبحت مصر ، منذ ابرام اتفاقيتي كامب دافيد ، مؤهلة للعب دور هام في المخططات الأميركية في منطقة الشرق الأوسط .

أ ـ اسرائيل

من المعروف أن قادة اسرائيل يرسمون ، منذ سنين عدة ، خططاً لضم قواتهم المسلحة إلى جهاز « الناتو » العسكري ، ووفقا لبعض المصادر ، أُسّس في مقر قيادة الحلف الأطلسي ، في نابولي ، مركز للتنسيق بين عمل الطيران الخاص بـ « الناتو » ، في البحر الأبيض المتوسط ، والقوات الجوية الإسرائيلية ؛ وقد اقترح موشي دايان ، وزير الدفاع السابق لاسرائيل ، عام ١٩٧١ ، على قادة « الناتو » استخدام مطارات شبه جزيرة سيناء ، وقامت اسرائيل ، في نفس الفترة ، ببناء منشآت مرتبطة بنظام الدفاع الجوي الخاص بـ « الناتو » (٣٥) .

وقد صرح الدكتور دونالدبرينان* ، في ١٢ آيار ١٩٧٧ ، : « لدينا معلومات تفيد ان اسرائيل متورطة في بعض عمليات الحلف الأطلسي ، ولدينا معلومات تؤكد ان إدارة الرئيس الأميركي كارتر تعمل على إقناع الحلفاء الأوروبيين بقبول « العضوية الكاملة » لإسرائيل في الحلف ... » . و « من الخطأ القول ان اسرائيل ليست عضوا في الحلف اليوم . انها تبني آلتها الحربية على الطراز الأطلسي تماما ، وتتعاون مع قوات هذا الحلف في عدد من مناطق العالم وبخاصة في المتوسط والمحيط الهندي والأطلسي الجنوبي » (٣٦) .

وقد أدخلت القوات المسلحة الاسرائيلية ضمن منطقة مفعول شبكة الرادار الموحدة للحلف الأطلسي ، أي شبكة « نايج ـ أفاكس » ، ورافق إدخالها ، في إطار هذه الشبكة ، استمرار تعزيز

---

* باحث في مؤسسة هدسون التي تقوم بأبحاث عسكرية في الولايات المتحدة .

الصلات بين قيادة « الناتو » للعمليات الجوية في البحر الأبيض المتوسط « مارايرميد » وقوات سلاح الطيران الإسرائيلي . وقد لعب التحالف بين اسرائيل و « الناتو » دورا هاما في مجرى الحرب اللبنانية ، حيث جرى تزويد القوات الانعزالية في لبنان بالسلاح بواسطة سفن « الناتو » عن طريق ميناء جونيه . كما استخدم عسكريو « الناتو » شبكة التجسس الراداري على مياه البحر الأبيض المتوسط لابلاغ سفن الحراسة البحرية الاسرائيلية بتحركات السفن المتوجهة نحو السواحل اللبنانية ، كي تستطيع القوات الاسرائيلية استقبالها وتفتيشها . كما تقوم الولايات المتحدة ، في الوقت الحاضر ، ببناء مطارات عسكرية في صحراء النقب [٣٧] .

ب ـ مصر

اضافة إلى ارسال طائرات (Awacs) إلى مصر وقيام الولايات المتحدة بتدريبات مشتركة بين القوات الجوية الأميركية والمصرية ، أعطى الرئيس كارتر موافقته على مشروع لوزارة الدفاع الأميركية يهدف إلى إقامة قوة عسكرية في مصر . وأوضحت بعض المصادر ، في أوائل أيار ١٩٨٠ ، ان هذه القوة ستتمكن من توزيع ٥٠,٠٠٠ جندي لعمليات التدخل السريع، وكان من المرجح ان يحصل المشروع على موافقة الأعضاء الآخرين في الحلف الأطلسي [٣٨] .

ج ـ إيطاليا

يوجد في نابولي مقر رئيسي لإحدى القيادات الأساسية للحلف الأطلسي ، وهي القيادة الخاصة بجنوب أوروبا (Afsouth) . كما تعتبر نابولي احدى القاعدتين * الأساسيتين لاستقبال ودعم الاسطول السادس ، ويوجد في إيطاليا حسب الميزان العسكري لعام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، ٤,٠٠٠ عنصر من الجيش الأميركي ، بينما تشير مصادر أخرى إلى وجود حوالى ١٠,٠٠٠ عسكري اميركي في إيطاليا . وتساند بعض الوحدات المتواجدة في إيطاليا القوة الجوية السادسة عشرة الأميركية (16th Air Force) التي يعتبر مقرها الرئيسي في اسبانيا [٣٩] .

ويوجد في القاعدة البحرية الإيطالية لاسبيزيا (LaSpezia) مركز للأبحاث الحربية المضادة للغواصات (Autisubmarine Walfare Research) الخاص بـ « الناتو » . ويستخدم الاسطول السادس قواعد بحرية إيطالية أخرى في غيتا (Gaeta) ولامادلينا (La Maddelena) [٤٠] . وقد اتخذ الناتو في دورته الأخيرة في بروكسيل ، في أواخر عام ١٩٧٩ ، قرارا يقضي بنصب سلاح نووي جديد أي : صواريخ مجنحة وصواريخ « برشينغ » (Pershing) في ثلاثة بلدان أوروبية هي ألمانيا الغربية وبريطانيا وإيطاليا . وسيبلغ عدد هذه الصواريخ حوالى ستمائة وحدة . وقد اشارت احدى الصحف الغربية الى « ان الساحل المقابل للبحر الأبيض المتوسط لن يشعر بالطمأنينة في حين تشغل الصواريخ الأميركية ميادين الإطلاق في إيطاليا » . وهذه الصواريخ المنصوبة في شمال إيطاليا تصل حتى جبال الأورال ، وتستطيع الوصول حتى الرياض والخرطوم ونيجيريا وموريتانيا ، وقد أكدت بعض المصادر عشية دورة مجلس « الناتو » في بروكسيل « ان أطراف « الناتو » في إفريقيا والشرق الأوسط لن تبقى هي الأخرى بمعزل عن مسؤولية نصب

* القاعدة الثانية هي قاعدة روتا (Rota) الاسبانية .

ـصواريخ في اوروبا أخذا بعين الإعتبار ان مدى تحليق هذه الصواريخ متكافئ تماما بالنسبة لجميع الجهات الأربع » (٤١) .

د ـ اليونان

يوجد في اليونان حوالى ٨٠٠ جندي أميركي ، كما توجد قاعدة جوية لمساندة القوة الجوية الأميركية السادسة عشرة .

ولقد عقدت اتفاقية ثنائية بين اليونان والولايات المتحدة ، في ٢٨ تموز من عام ١٩٧٧ ، حول وضع القواعد الأميركية في اليونان وبخاصة قاعدتي « سودا » (Souda) و « هيراكليون » (Heraklion) المتواجدتين في جزيرة كريت ، وقاعدتي « هيلينيكو » (Hellenikou) و « نيا ماكري » (Nea-Makri) الموجودتين في منطقة أثينا (٤٢) .

ويوجد في جزيرة كريت ، قاعدة لإطلاق الصواريخ تدعى « نامفي » (Namfi) ، وقد تم انشاء هذه القاعدة ، التي كلفت حوالى ٢٠ مليون دولار في شباط ١٩٦٨ ، وتعتبر القاعدة الوحيدة للتدريب على إطلاق الصواريخ لحلف « الناتو » في أوروبا ، وتغطي الولايات المتحدة وبريطانيا وبلجيكا واليونان وهولندا مصاريفها ، ومعظم العسكريين العاملين فيها يونانيون ، يعملون بإشراف ضباط ارتباط من الدول الأربعة الأخرى . ومن المعتقد أنه يوجد أسلحة نووية في كريت (٤٣) .

وازدادت أهمية دور اليونان ، في الاستراتيجية العسكرية لحلف « الناتو » مؤخرا ، فقد صرح الادميرال الأميركي ، قائد القوات البحرية للجناح الجنوبي من حلف الأطلسي ان « اليونان يجب أن تكون « جَبل طارق » الشرقي للحلف الأطلسي » ، وذلك على الرغم من انسحاب اليونان من اللجنة العسكرية للحلف ، عام ١٩٧٥ ، بعد التوتر التركي ـ اليوناني . كما أن الجنرال برنارد روجرز ، القائد الأعلى لقوات الحلف الأطلسي ، صرح في شباط ١٩٨٠ « ان الحلف الأطلسي واليونان يحتاج كل منهما الآخر » (٤٤) .

وقد قام الاميركيون بنشاطات عسكرية مكثفة في اليونان ، اتخذت شكل بناء قواعد عسكرية أهمها اثنتان : ا لاولى ، في « فاتيكا » بمنطقة لاكونيا في جنوب شبه جزيرة المورة ، وهي مهيأة لتخزين وإطلاق اسلحة نووية ، وقد قامت عدة تدريبات عسكرية لقوات حلف الناتو في هذه المنطقة ، أوائل عام ١٩٧٩ ، كما أجريت بعض التدريبات اليونانية الأميركية المشتركة ؛ وستكون احدى مهام قاعدة فاتيكا العمل كقاعدة للقوات المتحركة لمواجهة الطوارىء في منطقة الشرق الأوسط (٤٥) . والثانية في قرية « سباتا » على بعد ١٨ كيلومترا من العاصمة ، وكانت هذه القاعدة تعد لتصبح بديلا لقاعدة « هويلس » التي قامت الثورة الليبية بتصفيتها ، عام ١٩٦٩ . وتسبب موضوع بناء هذه القاعدة بحدوث ازمة سياسية حادة في اليونان بسبب رفض صغار فلاحي المنطقة ، الذين نزعت الحكومة منهم ملكية ٤٥٠ الف هكتار من الأراضي ، ببناء هذه القاعدة . وهذه القاعدة عبارة عن مطار عسكري ضخم ، تلحق به قاعدة نووية ، وتتمثل أهميتها في انها تقع على بعد ١٤ كيلومترا من قاعدة « نيا ـ ماكرى » المخصّصة للرصد الالكتروني . وتقول مصادر المعارضة اليونانية ان القاعدة ، التي تحاول الحكومة اعطاءها صفة مطار « مدني » هي جزء من مشروع كبير يتعلق بامن الشرق الأوسط من وجهة نظر أميركية (٤٦) . وتشير مصادر المعارضة اليونانية الى ان مشروع « سباتا » هو ضلع مثلث أمني أميركي متمركز في اليونان ، يتمثل ضلعه الثاني في قاعدة « فاتيكا » وضلعه الثالث

في جزيرة كريت التي تعتبر أيضا قاعدة للاسطول السادس الأميركي . وقد وصل عدد القواعد الأميركية في اليونان إلى ٧٠ قاعدة ، وفق مصادر الحكومة وإلى ١٥٤ قاعدة وفق مصادر المعارضة . وتعتقد بعض المصادر ان هذا التوسع في القواعد الأميركية ، يرتبط بمشروع أميركي لاعادة بناء الحلف المركزي (Cento) بعد انهياره اثر الثورة الإيرانية ، وان الدول المرشحة لعضوية الحلف الجديد هي مصر واسرائيل وتركيا واليونان (٤٧) .

وبين ٨ و١٤ آب ١٩٧٩ ، قامت وحدة من قناصة البحرية الأميركية بتجربة إنزال في خليج « ستريموكنيكوس » في بحر ايجه ، وقد اعلنت وزارة الدفاع الوطني اليونانية عن هذا الحدث ، في ٦ آب ١٩٧٩ ، وأضافت ان وحدات من القوات اليونانية ستشترك في هذه المناورة الحربية . وقد جاءت هذه المناورة العسكرية في نفس الوقت الذي أعلن فيه عن اخذ الإدارة الأميركية خطوات جديدة من أجل تعزيز وجودها الاستراتيجي في منطقة الشرق الأوسط (٤٨) .

ولكن يبدو ، في الوقت الحاضر ، أن اليونان تعيد النظر في قرار اعطاء الولايات المتحدة حق استخدام قواعد عسكرية في اراضيها ، وذلك حتى تحصل على معلومات كافية عن اتفاقية الدفاع المبرمة بين تركيا والولايات المتحدة ، في ٢٩ آذار ١٩٨٠ ، وكان الاتفاق المبرم بين الولايات المتحدة واليونان ، منذ عامين ، حول استخدام الولايات المتحدة ٤ قواعد في اليونان ، لم يحظ بموافقة البرلمان اليوناني (٤٩) .

هـ ـ تركيا

يوجد في تركيا ، حسب الميزان العسكري لعام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠ ، حوالى ١,٠٠٠ جندي أميركي ، وتساند هذه القوات القوة الجوية الأميركية السادسة عشرة المتمركزة ، أساسا ، في قاعدة « تورنجو » في اسبانيا (٥٠) .

أما العلاقات التركية الأميركية فقد مرَّت بفترة توتر ، بعد فرض الولايات المتحدة حظرا على بيع الأسلحة الأميركية لتركيا عام ١٩٧٥ ، عندما فضلت التعامل مع ايران مما أدى إلى اقفال بعض القواعد الأميركية في تركيا . وقد حدث هذا الخلاف ، بينهما ، بسبب النزاع التركي ـ اليوناني حول قبرص عام ١٩٧٤ ، ووقتها انسحبت اليونان من الجناح العسكري لحلف « الناتو » ؛ ولكن المحاولات الأميركية والغربية الاخرى نجحت في إعادة ادخال كل من تركيا واليونان في مناورات مشتركة للحلف الأطلسي ما بين ١٩ أيلول و١٧ تشرين الأول عام ١٩٧٧ . وقد شاركت في هذه المناورات أيضا وحدات بحرية وجوية وبرية من بريطانيا وإيطاليا والبرتغال والولايات المتحدة (٥١) .

وفي اوائل آب ١٩٧٨ ، بدأت محادثات بين مسؤولين أميركيين وأتراك لمناقشة إعادة العلاقات العسكرية بين البلدين . وفي ذلك الحين ، أعربت الولايات المتحدة عن أملها بفتح مبكر لـ ٢٦ قاعدة تنصت أميركية في تركيا ، وإعادة العمليات العسكرية ، بشكل كامل ، في قاعدتين أخريين (٥٢) .

ثم قررت تركيا ، بعد ذلك ، في تشرين الأول من عام ١٩٧٨ ، اعادة افتتاح اربع قواعد مراقبة الكترونية كانت قد أغلقت بعد حظر الاسلحة الأميركي المفروض على تركيا .

وأعلن مجلس الوزراء التركي عن ضرورة عقد اتفاقية دفاع جديدة مع واشنطن ، ولذا قرر

اعادة تنشيط المنشآت العسكرية في « سينوب » و « دياربكر » لفترة سنة يجري خلالها ، التفاوض حول الاتفاقية . كما اعيد تشغيل قاعدتين أخريين في « تلباس » « وكارغابورون » ، على الأساس نفسه ، وبعد الاتفاق مع الولايات المتحدة حول بعض الشروط مثل السماح للضباط الأتراك بالعمل على هذه القواعد (٥٣) . وفي ٨ شباط ١٩٧٩ ، زار وارن كريستوفر ، مساعد وزير الخارجية الأميركي ، تركيا مرة أخرى بهدف تمديد الاتفاق الثنائي الأميركي التركي الذي انتهى مفعوله في تشرين الأول ١٩٧٩ (٥٤) .

وإرضاء للأتراك سُلِّمت قيادة « الناتو » في أزمير ، إلى عسكريين أتراك بعد أن كانت ، تقليدياً ، تحت امرة القوات الأميركية ، ومن المتوقع تكوين قيادة من نفس النوع تحت قيادة اليونانيين في «لارسيا». وبعد الثورة الايرانية ازداد التواجد الأميركي ، بشكل واضح ، في تركيا وركزت قاعدة ديار بكر نشاطها على رصد النشاط السوفياتي في حقل الصواريخ وبخاصة في الجمهوريات السوفياتية الجنوبية . وترتبط هذه القاعدة بشكل مباشر مع قاعدة الرصد البحرية في « نيوجرزي » (New Jerzey) في الولايات المتحدة(٥٥) .

وقد وقع « اتفاق التعاون الدفاعي » الذي يسمح للولايات المتحدة بالاستمرار في استخدام قواعد عسكرية ومراكز لمراقبة التحركات السوفياتية في انقرة في ١٠ كانون الثاني ١٩٨٠ ، وصرح السفير الأميركي رونالد سبايرز « ان الاتفاق الذي يسري لمدة خمس سنوات على أن يصادق عليه سنويا هو وثيقـة مهمة تشكـل منعطفـاً في تطور العلاقات بين تركيا والولايات المتحدة » .

ويقضي الاتفاق بإعادة تنشيط ٢٦ قاعدة عسكرية لحلف الأطلسي ، مقابل معونة إقتصادية عسكرية اميركية لا تقل عن ملياري دولار ونصف المليار (٥٦) .

و ـ قبرص

تحاول قيادة « الناتو » والولايات المتحدة إدخال قبرص في مخططاتها لأنها تعتبرها رأس جسر استراتيجي على مداخل الشرق الأوسط .

ويستخدم « البنتاغون » ، منذ عدة سنوات ، القواعد الانجليزية الموجودة في جزيرة قبرص حيث بدأت طائرات التجسس الأميركية ممارسة عملها ، كما زاد نشاط محطات الإذاعة ومراكز التجسس الالكترونية التابعة لوكالة المخابرات الأميركية والموجودة في الجزيرة منذ زمن بعيد . وقد أشارت بعض المصادر إلى عملية نقل جزء من المعدات التي سحبت من قواعد التجسس الالكترونية الأميركية في إيران ، إلى قبرص . ويجري ، منذ العام الماضي ، توسيع قاعدة « اكروتيري » بغرض استقبال قوة اميركية كبيرة لتتمركز فيها . كما تم بناء ثكنة خاصة لهذه القوة ، وقدر عدد الجنود الذين وصلوا قبرص ، حتى نيسان ١٩٧٩ ، بحوالى ٤٠٠ رجل كما أجريت عملية توسيع للمطار العسكري في القاعدة ليكون صالحا لاستقبال طائرات حربية ثقيلة ، كالطائرات الأسرع من الصوت ، وتتم عملية التوسيع في ظل غطاء جوي توفره طائرات سلاح الجو البريطاني . وقد أكدت بعض المصادر وجود مستودع للاسلحة النووية في قاعدة « اكروتيري » يحتوي على قذائف نووية يمكن أن تحملها طائرات « فولكان » البريطانية (٥٧) .

ز ـ اسبانيا

بموجب اتفاقية عام ١٩٥٣ ، بين الولايات المتحدة واسبانيا ، التي جددت عام ١٩٧٦ والتي ينتهي مفعولها عام ١٩٨١ ، توجد أربع قواعد اميركية على الأراضي الاسبانية . كما أن قوات أميركية توجد في القاعدة البحرية الاسبانية « روتا » التي تعتبر القاعدة الاساسية لدعم الاسطول السادس من ناحية اللوجيستيك ، وتستقبل هذه القاعدة الغواصات النووية « بولاريس » : غير أن الميزان العسكري يشير إلى أن الغواصات النووية (SSBNS) قد سحبت من قاعدة « روتا » في أوائل عام ١٩٧٩ . وتعتبر القاعدة الجوية الكبيرة ، في « توريجون » ، (Torrejon) ، المتواجدة على بعد عشرين كيلو مترا من مدريد ، القاعدة الجوية الأساسية للقوة الجوية الأميركية السادسة عشرة (16th Air Force) المخصصة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط (٥٨) . ولكن الاتفاق الثنائي ، بين اسبانيا والولايات المتحدة ، يقضي بأن تستخدم القواعد الاسبانية في عمليات حول اوروبا فقط ، وليس في الشرق الاوسط ، وقد حدث نقاش ، بين الولايات المتحدة واسبانيا ، حول إمكانية استخدام هذه القواعد لشن هجوم أميركي على منطقة الخليج ، وتشير بعض المصادر الى أن اسبانيا لن توافق على استعمال هذه القواعد لشن مثل هذا الهجوم ، إلا اذا وافقت المملكة العربية السعودية على ذلك ، حرصا منها على علاقاتها الجيدة مع السعودية .

وقد وصفت « الأنترناشيونال هيرالد تريبيون » اسبانيا ، في آذار ١٩٧٩ بـ « الحلقة غير الاكيدة » في استراتيجية الولايات المتحدة الشرق أوسطية (٥٩) . غير أن وزير خارجية اسبانيا أعلن ، مؤخراً ، قرار بلده بتقديم طلب لدخول الحلف الأطلسي ، في عام ١٩٨١ ، شريطة أن تعيد بريطانيا جبل طارق إلى اسبانيا وأن تقبل هذه في السوق الأوروبية المشتركة ، كما صرح السيد أوريجا ان اسبانيا ستبدأ بمفاوضات مع الولايات المتحدة حول تجديد حق استخدامها للقواعد في اسبانيا التي تنتهي فترة الاتفاق بشأنها عام ١٩٨١ (٦٠) .

ح ـ جبل طارق

تسيطر بريطانيا ، في البحر الأبيض المتوسط ، على قاعدة جبل طارق وبعض القواعد في قبرص ، ويستمر الاسطول البريطاني في التواجد في البحر الأبيض المتوسط ويعتبر اسطولا قويا ، ولكن ليس لدرجة تسمح له بالقيام بأعمال مستقلة عن الاسطول السادس ، فقد أصبح مؤخرا مرتبطا ، أكثر فأكثر ، بعمليات الاسطول الاميركي .

وكان من المتوقع أن تزداد أهمية قاعدة جبل طارق في حال أخلت الولايات المتحدة الاسلحة النووية من قاعدة « روتا » الاسبانية ، وان يصبح جبل طارق « ميناء نووياً » لاستقبال الغواصات النووية والاسطول السادس (٦١) .

ط ـ البرتغال

بين الولايات المتحدة والبرتغال اتفاقية تنظمُ استخدام الاولى لجزر الآزور . ويعتبر حقل « لاجيس » (LajesField) في الجزر المذكورة نقطة ارتكاز أساسية للطائرات المتجهة من الولايات المتحدة إلى جنوب أوروبا والشرق الأوسط ؛ وقد استخدمت القواعد في جزر الآزور ، خلال الحرب العربية الاسرائيلية عام ١٩٧٣ ، اذ توقفت فيها كل الطائرات المتجهة من ألمانيا الغربية والولايات

المتحدة للتزود بالطاقة (٦٢) .

ويبدو ، مؤخراً ، أن الولايات المتحدة ستحصل على شروط أفضل من الشروط السابقة لاستخدام القواعد العسكرية في البرتغال ،وقد تسمح هذه الشروط بتواجد حاملة طائرات اميركية في المياه البرتغالية مما قد يزيد من القوة الضاربة الأميركية في منطقتي أوروبا والشرق الأوسط (٦٣) .

ي - المغرب وجزر الكناري

منذ الخمسينات كان جزء من قيادة الولايات المتحدة الجوية الاستراتيجية (SAC) (Strategic Air Command) ، المتمثلة في القوة الجوية السادسة عشرة ، متواجداً في المغرب واسبانيا ؛ وفي ذلك الوقت ،كانت معظم الطائرات العاملة ،من طراز ب ٤٧ ذات القاذفات النووية (B47) ؛ وقد أوقفت الولايات المتحدة العمل في هذه القواعد الجوية ، في المغرب ، عام ١٩٦٣ ، بعد إدخال الغواصات النووية (Ballistic Missile Firing Powerered) (SSBNS) Nuccear Submarines . وفي عام ١٩٦٣ ، استمرت بعض القواعد ، في المغرب في لعب دور مساند لهذه الغواصات (٦٤) .

وتستخدم الولايات المتحدة ثلاث قواعد عسكرية في المغرب مرتبطة مع القاعدة الأميركية في جزر الكناري .

وبالرغم من ان جزر الكناري تقع في المحيط الأطلسي غربي المغرب ، إلا أنها لعبت دورا هاما بالنسبة لمنطقة البحر الأبيض المتوسط وبخاصة في الفترة التي أغلقت خلالها قناة السويس ، حيث لعبت دور الممر الرئيسي للسفن الذاهبة والقادمة من اوروبا إلى الشرق الأوسط . وقد وُسِّع ميناءا « تنيفرا » و « لاس بالماس » (Tenfira and Las Palmas) كي يستقبلا ١,٧٠٠ باخرة في العام الواحد . وأصبح الميناءان من أكبر الموانىء في إفريقيا . كما توجد في جزر الكناري مطارات ضخمة تستطيع استقبال ١٥٠ طائرة في اليوم ، وتعمل القواعد الأميركية في هذه الجزر كمقر رئيسي لشبكة مواصلات تدمج بين شمال الأطلسي وجنوبه وتربط بين بلدان افريقيا الجنوبية والبرازيل (٦٥) .

وترتبط القاعدة الأميركية في « لاس بالماس » التابعة لشركة الفضاء الأميركية والمرتبطة بجنوب افريقيا ، مع قاعدة كاب كنيدي في الولايات المتحدة .

كما توجد قاعدة لاستقبال الغواصات الحربية في « بنتادي تورو » (Puntade Toro) في « تنريفا » . وقد أصبحت هذه الجزر جزءاً أساسيا من الاستراتيجية العسكرية الأميركية المبنية على أساس مبدأ مكنمارا الذي كان يتطلب بناء قواعد بحرية / جوية عسكرية على الجزر القريبة من القارات على شكل قاعدة « جوام » في المحيط الهادى (٦٦) .

خلاصة

هناك بعض المؤشرات التي توضح أن حلفاء الولايات المتحدة الأوروبيين قد اتخذوا قراراً ، خلال اجتماع ممثلي الحلف الأطلسي الأخير ، في بروكسل ، بزيادة مساهمتهم العسكرية في هذا الحلف كي تحل قواتهم العسكرية ، في حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا ، محل القوات الأميركية التي ستتجه إلى المحيط الهندي والشرقين الأدنى والأوسط . كما أبدى بعض أعضاء

الحلف ، بريطانيا والمانيا الغربية مثلاً ، استعدادهم لارسال سفنهم الحربية إلى منطقة الخليج والمحيط الهندي كدعم رمزي للقوات الأميركية(٦٧) .

كما قررت بريطانيا القيام بتدريبات عسكرية في أوروبا ، في شهر أيلول ١٩٨٠ ، وتعتبر هذه التدريبات أهم تدريبات ، من نوعها ، تقوم بها بريطانيا منذ أكثر من عقد ، وهدفها اختبار إمكاناتها العسكرية في دعم القوات الأرضية والجوية المتواجدة في ألمانيا الغربية(٦٨) .

وقد عبرت الدول المشاركة في مؤتمر دول عدم الانحياز لحوض البحر الأبيض المتوسط ، المنعقد في عاصمة مالطة في شباط ١٩٨٠ ، عن قلقها لـ « تحديث » حلف شمال الأطلسي وزيادة القدرة الحربية لـ « الناتو » وزرع الصواريخ النووية الجديدة في أوروبا الغربية وتوسيع نطاق عمل الحلف . ورفضت قيادة الحلف مقترحات تقدمت بها بعض دول البحر الأبيض المتوسط ، والاتحاد السوفياتي حول تحويل البحر المذكور إلى منطقة سلام وسحب الأساطيل الحربية منه(٦٩) .

هكذا يبدو واضحاً أن التواجد العسكري الأميركي في منطقة البحر الأبيض المتوسط جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية الأميركية العسكرية الشاملة التي تهدف إلى إخضاع مناطق الشرق الأوسط والخليج وجنوبي أوروبا وعدة مناطق أخرى من العالم لأهدافها السياسية والعسكرية والاقتصادية ، أما بالنسبة للحلفاء الأوروبيين ، فيبدو أن استراتيجيتهم العسكرية تلتزم ، حتى الآن ، بمعظم الخطط الأميركية ، ولكن من الصعب التنبؤ حول موقف هؤلاء في حال قررت الولايات المتحدة القيام بمغامرات عسكرية في الشرق الأوسط أو منطقة الخليج .

---

(١) نهى تادرس ، « مبدأ كارتر أو سياسة التدخل العسكري الأميركي في الخليج العربي » ، «شؤون فلسطينية» ، العدد ١٠٤ ، تموز ١٩٨٠ ، ص ٥٥ ـ ٧٠ .

(٢) ن . كوزمين ، « الجناح الجنوبي لحلف الأطلسي يشكل خطرا على السلم في الشرقين الأدنى والأوسط » ، « نوفوستي » ، ٢٢ آذار ١٩٨٠ .

(٣) « واشنطن تتفاوض مع دول أوروبية لتخزين أسلحة لقوات التدخل السريع » ، « النهار » ، ١٤ شباط ١٩٨٠ .

(٤) «U.S. Wants Allies to Focus on Europe», *International Herald Tribune,* 12 February 1980.

(٥) «Striking Out on their Own», Newsweek, 2 June 1980.

(٦) «The Alliance's Frailty Exposed», *International Herald Tribune,* 23 May 1980.

(٧) Stanley Hoffman, «Western Europe should not Hesitate to State its Own Position...», *The Guardian,* 12 May, 1980.

(٨) Linda B. Miller, *The Limits of Alliance: America, Europe and the Middle East,* Jerusalem papers on Peace Problemes, (The Leonard Davis Institute for International Relations: The Hebrew University of Jerusalem, December, 1974), p.p. 9 - 13.

(٩) *Ibid.*.

(١٠) «General Haig Urges Nato to Adjust Strategy for Third World Threats», *International Herald Tribune,* 3 January, 1973.

(١١) «-Haig Speaks his Mind», News*week,* 18 July, 1979.

(١٢) Bany Cohen, «L'enjeu Afri-

cain: l'e bauche d'une stratégie occidentale», *Le Monde dipiopatique* Juillet, 1978.

(١٣) انظر تصريحات زبيغنيو بريجنسكي كما وردت في شؤون فلسطينية ، مصدر سبق ذكره .

(١٤) «Western Europe in 80's: Uncertainty is Certain», *International Herald Tribune*, 7 January 1980.

(١٥) «Allies' Questioning U.S. lead in NATO», *International Herald Tribune*, 9 June, 1980.

(١٦) Jurek Martin, «The Tougher Line from Washington», *The Financial Times, 21 April, 1980.*

(١٧) Michel Tatu, «Les Protégés Insatisfaits», *Le Monde*, 22 - 23 Juin, 1980.

(١٨) *Encyclopedeia Britannica* (William Benton: London , 1964) Vol 15, P. 210.

(١٩) Abraham S. Becker, *The United States and The Soviet Union in the Mediterranean*, The Rand Paper Series, (The Rand Corporation: California, 1977) p. 11.

(٢٠) Bany Blechman and Stephen Kaplan, «The Political Use of Military Forces in the Mediterranean by the United States and The Soviet Union», *La Spettatore Internazionale*, January - March 1978 p. 33.

(٢١) *Ibid*

(٢٢) Becker *Op. Cit., p. 120*

(٢٣) Stephano Silvestri, «Military Power and Stability in the Mediterranean», *La Spettatore Internazionale, Op. cit; p. 7.*

(٢٤) Eqbal Ahmed, «La Nouvelle Strategie Americaine En Mediterranée: Le Retour à La Guerre Froide», *Africasia*, No 28. 7 Decembre 1970. p. 26.

(٢٥) *Ibid.*

(٢٦) ف . دروبوكوف . . أهداف الناتو في البحر الابيض المتوسط » ، « نوفوستي » ، ٢٠ تشرين الاول ١٩٧٩ .

(٢٧) *The Military Balance*, 1979 - 1980 (The International Institute for Strategie Studies: London) p.p. 17 - 19.

(٢٨) الكسي باسوف ، « القواعد والمضايق في استراتيجية الولايات المتحدة الأميركية في الأمس واليوم » ، « نوفوستي » ، ٢٢ كانون الاول ١٩٧٩

(٢٩) Blechman and Kaplan, *op. cit.* p. 34.

(٣٠) *The Military Balance, Op. cit.*

(٣١) غ سافين ، « افريقيا والشرق الأوسط وصواريخ ناتو الأوروبية » ، « نوفوستي » ، ٢٠ كانون الأول ١٩٧٩ .

(٣٢) *The Military Balance , op. cit.*

(٣٣) ن . كوزمين ، مصدر سبق ذكره .

(٣٤) المصدر نفسه .

(٣٥) غ سافين ، « تفاصيل مشاركة اسرائيل في مناورات حلف الأطلسي » ، « السفير » ، ١٣ أيار ١٩٧٧ .

(٣٦) « اسرائيل عضو سري في الحلف الأطلسي » ، « المستقبل » ، ٢٥ حزيران ١٩٧٧ .

(٣٧) غ . سافين ، « افريقيا والشرق الأوسط وصواريخ ناتو الأوروبية » ، مصدر سبق ذكره ، و« شؤون فلسطينية » ، مصدر سبق ذكره.

(٣٨) « الأويزرفر : مصر ستصبح قاعدة لقوات التدخل الأميركية » ، « السفير » ، ١١ أيار ١٩٨٠ .

انظر أيضاً المعلومات الواردة في « شؤون فلسطينية » ، مصدر سبق ذكره .

(٣٩) *The Military Balance, op.cit.*

(٤٠) غ . سافين ، « افريقيا والشرق الأوسط ... » ، مصدر سبق ذكره .

(٤٠) *Ibid.*

(٤١) غ . سافين ، « افريقيا والشرق الاوسط... » ، مصدر سبق ذكره.

(٤٢) «Un Accord est Conclu sur le Statut des Bases Grecques», *Le Monde*, 30 Juillet . 1977.

(٤٣) «War Games in the Eastern Mediterranean», *The Guardian*, 4 January ،1977.

(٤٤) « قائد الأطلسي عرض في انقرة أفكارا جديدة لاعادة اليونان » ، « النهار »، ٢٨ شباط ١٩٨٠ .

(٤٥) « قاعدة عمليات أميركية للشرق الأوسط وحلف بديل يضم مصر واسرائيل وتركيا واليونان » ، « السفير »، ٢٢ أيار ١٩٧٩ .

(٤٦) المصدر نفسه .

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) « مناورة انزال اميركية في اليونان » ، « السفير »، ٧ آب ١٩٧٩ .

(٤٩) «Decision on Bases Postponed» *International Herald Tribune*, 28 May 1980.

(٥٠) *The Military Balance*, *op. cit.*

(٥١) « تركيا واليونان تشتركان في مناورات حلف الأطلسي » ، « السفير »، ٩ أيلول ١٩٧٧ .

(٥٢) «U.S. and Turkey Meet for Talkes», *International Herald Tribune*, *10*, August 1978.

(٥٣) « تركيا تسمح باعادة تشغيل قواعد التجسس الأميركية فيها بانتظار توقيع معاهدة جديدة » ، « السفير »، ٦ تشرين الأول ١٩٧٩ .

(٥٤) « مسؤول أميركي زار تركيا لتمديد الإتفاق العسكري الثنائي »، « النهار »، ٨ شباط ١٩٧٩ .

(٥٥) « تركيا تعزز تواجدها الالكتروني في تركيا والخليج » ، « الوطن العربي »، ١٦ شباط ١٩٧٩ .

(٥٦) « إتفاق التعاون الدفاعي بين تركيا والولايات المتحدة أنهى مرحلة من العلاقات الصعبة » ، « النهار »، ١١ كانون الثاني ١٩٨٠ .

(٥٧) « أميركا تشارك بريطانيا قاعدتها في اكروتيري وتعدها للقاذفات وطائرات التجسس » ، « السفير »، ٢٢ نيسان ١٩٧٩ .

(٥٨) *The Military Balance, op. cit.*

(٥٩) «Spain is Uncertain Link in U.S. Mideast Strategy», *International Herald Tribune*, 14 March 1979.

(٦٠) «Spain Sets Conditions for Nato Membership », *International Herald Tribune*, 16 June ،1980.

(٦١) Silvestri, *op. cit.* , p. 15.

(٦٢) Blechman and Kaplan, *op. cit.*, p. 35.

(٦٣) Mr. Carter en Europe du Sud», *Le Monde*, 27 Juin, 1980.

(٦٤) Blechman and Kaplan, *op. cit.*

(٦٥) «Canary Islands Demand New Deal From Spain », New African Development, July 1977, P. 633.

(٦٦) *Ibid.*

(٦٧) غ . سافين ، « أوروبا الغربية الطريق الخطير لتشجيع المغامرات الأميركية » ، « نوفوستي »، ٢١ آيار ١٩٨٠ .

(٦٨) «British Military Planning Largest Drill in a Decade», *International Herald Tribune*, 17 June, 1980.

(٦٩) ف . شيمودين ، « تحديث الناتو ومنطقة البحر الأبيض المتوسط » ، « نوفوستي »، ٢٧ شباط ١٩٨٠ .

المقدم الطيار حسين عويضة

الطيران ودوره في حرب ١٩٦٧

الضربة الجوية الاجهاضية الخاطفة

في اعقاب سلسلة من الاشتباكات المسلحة على خطوط الهدنة السورية ـ الاسرائيلية والاردنية ـ الاسرائيلية على مدى الاعوام ١٩٦٦،٦٥،٦٤، وازدياد النشاط الفدائي عبر هذين الخطين ، وقيام اسرائيل بغارات عسكرية انتقامية عبرهما ، وقيام جراراتها بمحاولات متكررة لحرث الاراضي الواقعة في المناطق المنزوعة السلاح على الحدود مع سوريا ، ورد السوريين باطلاق النيران على هذه الجرارات وتوجيه نيران مدفعيتهم الثقيلة بعيدة المدى الى المستعمرات في المناطق الشمالية المحاذية ، وفي اعقاب فشل الدبابات وبطاريات المدفعية الاسرائيلية في ردع السوريين في الجبهة الشمالية واسكات مصادر نيرانهم واضطرار الفريقين الى حشد قواتهما على الحدود باعداد كبيرة ، وبلوغ التوتر على هذه الجبهة ذروته ، دفعت القيادة الجوية الاسرائيلية ، لاول مرة ، في ١٤/٧/١٩٦٦، سلاحها الجوي على الجبهة السورية ، للعمل ضد مواقع السوريين ، وهو الاجراء الاول الذي تتخذه هذه القيادة منذ ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٤ . فقد هاجمت طائرات اسرائيلية من طراز « فوتور » و « مستير » و « سوبر مستير » ، تحميها طائرات « الميراج ٣ سي »، مواقع المدفعية السورية في بانياس وتل الاحمر وتل العزيزات [1] تلك التي كانت توجه نيرانها الى مستعمرتي « دان » و « شعارياشوف » . ومن جهة اخرى ، هاجمت اربع طائرات اسرائيلية من طراز « مستير ـ ٤ أ » ، تحميها طائرات « الميراج ٣ سي » ، في صبيحة اليوم المذكور ايضا ، مواقع العمل السورية في المشروع العربي لاستثمار مياه نهر الاردن ، وقامت بضرب المعدات الهندسية المدنية التي تعمل في مشروع التحويل . وعلى الفور ، تصدت لها اربع طائرات سورية من طراز « ميغ ـ ٢١ » ، فدارت معركة جوية فوق بحيرة طبريا استمرت ٣ دقائق ، تم فيها اسقاط طائرة اسرائيلية من طراز « مستير ـ ٤ أ » ، وخسر السوريون طائرة واحدة [2] . وكانت المرة الاولى التي يصدر فيها الامر للطائرات الاسرائيلية ، منذ حرب عام ١٩٥٦ ، بعدم احترام الحدود ومهاجمة اهداف فيما وراء الحدود الدولية للدول المجاورة . وفي ٥ آب ١٩٦٦ ، قامت طائرات اسرائيلية من طراز « ميراج ٣ إي » بهجمات استهدفت مواقع المدفعية السورية في « مسعدة » . فتصدت لها طائرات « الميغ ٢١ » السورية ودارت فوق بحيرة طبريا معركة جوية اسفرت عن اسقاط طائرة سورية من طراز

«ميغ ـ١٧»[٣]. وقد تكررت الاشتباكات بين القوات السورية والاسرائيلية وتوسعت الى درجة دفعت الفريقين الى استخدام الطائرات على نطاق واسع . وفي ١٩٦٧/١/١٥ ، عقدت الحكومة الاسرائيلية اجتماعا طارئا بحثت فيه تطورات الوضع على الحدود الشمالية ، وعرض رئيسها ، ليفي اشكول ، الاجراءات التي قررت اسرائيل اتخاذها استعدادا لمواجهة الاحتمالات . وقد بدا وقتها انها كانت مصممة على اتخاذ اجراء انتقامي ضد سوريا [٤] .

وصباح ٧ ايار ١٩٦٧ ، بدأت القوات السورية والقوات الاسرائيلية التراشق بالمدفعية . وقد تطور الاشتباك فيما بعد الى اشتراك الطيران في القتال ، فجرت معركة جوية كبيرة دفع الاسرائيليون اثناءها الى سماء المعركة باعداد كبيرة من الطائرات ، بهدف توجيه ضربة قوية لسوريا ، للتأثير عليها وزعزعة موقفها . وقد نجم عن الاشتباك فقدان ٦ طائرات سورية من طراز « ميغ ٢١ » ، بينما فقد الجانب الاسرائيلي طائرة واحدة من طراز « مستير ٤ أ » [٥] . وقد برهن الاشتباك على قدرة سلاح الجو الاسرائيلي وتفوقه الظاهر . وبعد توقف الاشتباك التقى الجنرال اسحاق رابين ، رئيس هيئة اركان الجيش الاسرائيلي ، بمراسلي الصحف ، واعلن « ان معركة يوم الجمعة ٧ أيار ، كانت درسا مهما للسوريين بالنسبة لقدرتهم على الصمود امام الجيش الاسرائيلي في معركة جوية » . كما اعلن انه سمح لقائد الطيران الاسرائيلي بأن يدفع طائراته حتى مشارف دمشق ابان احتدام القتال [٦]. وكانت هذه المعركة اختبارا اكد تفوق الطيران الاسرائيلي على الطيران السوري ، وبين للقيادة الاسرائيلية الاسلوب القتالي الذي عليها اتباعه في اية مواجهة قادمة مع سوريا *[٧] .

اما على الجبهة الاردنية ، فقد نشط رجال العاصفة (الجناح العسكري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح ») في عملياتهم ضد الاهداف الاسرائيلية في داخل الارض المحتلة ، مما سبب قلقا وازعاجا للسلطات الاسرائيلية . لذلك شنت مجموعة لواء مدرع اسرائيلي هجوما انتقاميا ضد قرية السموع في قضاء الخليل في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٦ ، تساندها الطائرات الاسرائيلية ، وكان الهدف نسف وتدمير ٤٠ منزلاً في السموع وخربة المركز وبعض القرى المجاورة التي ظلت ، حسبما ادعته المصادر الاسرائيلية ، تستخدم مراكز لايواء الفدائيين الذين تمكنوا من القيام بـ ١٣ هجوما في داخل الارض المحتلة [٨] . وقد رد الاردن بارسال التعزيزات العسكرية الى المنطقة ، كما اشرك طيرانه فيها ، فوقع اشتباك جوي بين الطائرات الاردنية والطائرات الاسرائيلية التي كانت متفوقة عددياً ، لاول مرة في تاريخ السلاحين الجويين ، واسفر الاشتباك عن اسقاط طائرة اردنية من طراز « هوكر هنتر » ومقتل طيارها . وقد كشف الحادث عن ضعف الاجراءات العسكرية الاردنية في التصدي للقوات الاسرائيلية المعتدية ، وتفوق اسرائيل برا وجوا .

وعلى اثر هذا التصعيد الخطر للاوضاع على خطوط الهدنة الشرقية مع الاردن ،

---

* كانت سوريا ومصر قد وقعتا اتفاقا للدفاع المشترك في ٤ تشرين الثاني ١٩٦٦ . اصبح نافذ المفعول اعتبارا من ٩ آذار ١٩٦٧ . لذلك ، قصدت القيادة الاسرائيلية من الاشتباك الجوي اختبار قدرة سلاح الطيران السوري القتالية ونوعية طياريه ، ومن جهة اخرى اعتبر بمثابة خطوة تصعيدية قصد بها تسخين الجو العسكري في المنطقة واثارة الرئيس الراحل عبد الناصر لدفعه الى اتخاذ مزيد من الاجراءات الحربية المتطرفة .

والشمالية مع سوريا ، بات متوقعا قيام اسرائيل بعمل عسكري ضد سوريا يفوق ما اعتادت المنطقة عليه . فقد اعلن ابا ايبن ، وزير خارجية اسرائيل ، « ان اسرائيل لن تسكت » ، ووجه تحذيرا الى سوريا ، واصفا الموقف على خطوط الهدنة معها بأنه خطر جداً [٩] . ومن جهة اخرى ، هدد مصدر عسكري اسرائيلي باستعمال القوة ضد سوريا لوقف غارات الفدائيين المنطلقة من اراضيها ، وقال : « ان امام اسرائيل عددا من الاحتمالات يتراوح بين شن حرب العصابات وبين الغزو واحتلال دمشق واسقاط نظام الحكم فيها » [١٠] .

كان لهذه التهديدات ردود فعل عنيفة من جانب الجمهورية العربية المتحدة (مصر) ، التي اتخذت سلسلة تدابير عسكرية من جانبها التزاما باتفاقية الدفاع المشترك المصرية ـ السورية . ففي ١٠/٤/١٩٦٧ زار قائد سلاح الجو المصري دمشق ، واجرى مباحثات هامة مع قادة سلاح الجو السوري وكبار المسؤولين في رئاسة الاركان السورية . واعلن ، بعد انتهاء الزيارة ، ان الجانبين اتفقا على التصدي لاسرائيل بصورة مشتركة [١١] . وقد توالت الاحداث والاشتباكات ، مما دفع الدول المعنية للتحرك على الصعيدين العسكري والسياسي ، حيث ازداد الوضع تفاقما وتأزما ، وكان ابرزها التحركات التالية :

١ ـ بدء نقل القوات المصرية الى سيناء في ١٥/٥/١٩٦٧ ، لتعزيز الجبهة الجنوبية ، حتى بلغ المجموع ٨٠ ـ ٩٠ الف جندي مصري يرابطون في قواعدهم وعلى الحدود في مواجهة اسرائيل [١٢] .

٢ ـ الطلب الى قائد القوات الدولية سحب قواته من مواقعها في سيناء في ١٦ ايار ١٩٦٧ [١٣]

٣ ـ اغلاق ممرات تيران في شرم الشيخ في وجه الملاحة الاسرائيلية في ٢٢ ايار ١٩٦٧ [١٤] .

٤ ـ توقيع اتفاق التنسيق والتعاون بين الجيشين السوري والعراقي في ٢٨ ايار ١٩٦٧ ، والإعلان عن دخول القوات العراقية الى سوريا ومرابطتها في مواقعها المحددة [١٥] .

٥ ـ توقيع اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر والاردن في ٣٠ ايار ١٩٦٧ [١٦] .

٦ ـ تحرك القوات العراقية ودخولها الى الاردن في حزيران ١٩٦٧ [١٧] .

٧ ـ انضمام العراق الى اتفاقية الدفاع المشترك بين الاردن ومصر [١٨] .

٨ ـ تشكيل حكومة « اتحاد وطني » او « حكومة حرب » في اسرائيل في بداية شهر حزيران ١٩٦٧ برئاسة ليفي اشكول ، وضم كل من الجنرال ، موشي دايان ، وزيراً للدفاع ، ومناحيم بيغن وزيرا بلا وزارة ، وهما من الصقور ، الى الحكومة [١٩] .

كانت هذه اهم التحركات والتطورات التي حدثت والتي وضعت المنطقة على شفير الحرب ، التي خططت لها اسرائيل بدقة وعناية فائقتين ، بالتنسيق مع الولايات المتحدة . فلقد ادركت ، منذ بدأ التصعيد الخطر للاوضاع على الحدود مع جاراتها العربيات ، انه سيكون بمقدور الجيش الاسرائيلي ، مدعوما بالسلاح الجوي ، حسم القتال مع سوريا

بسرعة ، مستندة في تقديرها هذا الى نتائج المعركة الجوية التي وقعت بين المقاتلات السورية والاسرائيلية في ١٩٦٧/٤/٧ ، كما ان هذه المصادر قدرت اوضاع مصر العسكرية والاقتصادية وعلاقاتها السياسية السيئة بالدول العربية ، واهتزاز مكانتها الدولية ، وهي معطيات لمست القيادة الاسرائيلية انها ستحد ، الى درجة كبيرة ، من فعالية اي تحرك عسكري مصري لدعم سوريا . ويضاف الى ذلك تردي العلاقات السياسية والعسكرية بين الدول العربية ، وخصوصاً بين دول المواجهة (مصر والاردن وسوريا) الى اسوأ حالاتها قبل هذا التصعيد باشهر قليلة : لذلك استبعدت المصادر الاسرائيلية قيام اي تعاون فعال بين كل من الاردن وسوريا والعراق ومصر .

ان اكثر ما كانت تخشاه القيادة العسكرية في اسرائيل هو سلاح الطيران المصري الذي كان يضم حوالى ٤٢٠ طائرة حربية (طائرات قاذفة للقنابل متوسطة وخفيفة ، وقاذفات مقاتلة ، ومطاردات ، وطائرات هجوم ارضي) بالاضافة الى حوالى ٤٨ طائرة نقل خفيفة ومتوسطة و ٧٠ هليوكبتر ، عدا طائرات التدريب والاستخدام الخاص [٢٠] ، بالاضافة الى قيادة الدفاع الجوي التي كان لديها حوالى ٢٠ بطارية من الصواريخ الموجهة ارض ـ جو من طراز « سام ـ ٢ » وتتكون كل بطارية من ٦ صواريخ . وكان لدى قيادة الدفاع الجوي حوالى ١٥٠ صاروخا معدة لمقاومة الطائرات على ارتفاعات متوسطة وشاهقة تتراوح بين ٢٠ و٦٠ الف قدم [٢١] ، لكنها غير فعالة في مقاومة الطائرات على ارتفاعات منخفضة (وذلك عامل لم تدركه القيادة العربية المصرية الا بعد حرب عام ١٩٦٧) . كما ضمت قيادة الدفاع الجوي المصرية شبكة حديثة من اجهزة الرادار انحصرت مسؤوليتها في اربع مناطق دفاع جوي ، وعددا من الاسراب الجوية المجهزة بطائرات « ميغ ـ ٢١ ب ف » المحسنة التي كان سلاح الطيران المصري قد تسلمها من الاتحاد السوفياتي قبل الحرب بفترة قصيرة ، مع عدد من طائرات « سوخوي ـ ٧ » القاذفة المقاتلة ، وذلك لتعزيز امكاناته وقدراته ، نظرا لكونها طائرة للهجوم الارضي بالدرجة الاساسية .

ومن جهة اخرى ، كانت القيادة الجوية في اسرائيل قد توصلت الى قناعة تامة بأن امكانات سلاحي الجو السوري والعراقي كانت محدودة للغاية من الناحيتين التنظيمية والقتالية ، وقد مزقتهما المنازعات السياسية . اما سلاح الجو الاردني ، فلم تكن تحسب له حسابا ، وان كانت اوضاعه التنظيمية والقتالية افضل من اوضاع غيره، الا انه كان محدود الطاقات والامكانات ، ويمتلك اعدادا قليلة جدا من الطائرات القاذفة المقاتلة التي كانت تتشكل من حوالى ٢٤ طائرة قاذفة مقاتلة من طراز « هوكر هنتر ف جي أ ـ ٩ » ، يضاف الى ذلك عامل سياسي له علاقة بالسياسة العليا للحكومة الاردنية ومواقفها المنفردة ونظرتها الخاصة الى الصراع .

لذلك انصب اهتمام القيادة الجوية في اسرائيل على بناء وتطوير القوة الجوية القادرة على تحقيق السيطرة الجوية ، وتقديم الدعم الجوي للوحدات البرية والبحرية ؛ الأمر الذي دفع قيادة سلاح الجو الى المباشرة في اعداد طياريها وفنييها ، والحصول على احسن الطائرات والتجهيزات المتوفرة في الترسانة الحربية الفرنسية . وكانت فرنسا الدولة الوحيدة المنتجة للطائرات الحربية في المعسكر الغربي التي وافقت على تزويد سلاح الجو الاسرائيلي بالطائرات المقاتلة النفاثة وبالتجهيزات والمعدات الجوية الحديثة ، وهو العامل الذي شجع

اسرائيل على اقامة اوثق العلاقات معها ، والسعي باستمرار الى تعزيزها ، حيث نجم عنها ازدهار العلاقات بين الطرفين في اواخر الخمسينات وبداية الستينات ، وهي العلاقة التي استمرت قرابة اثني عشر عاما ، قدمت فرنسا خلالها كميات ضخمة من السلاح الحديث غير المشروط ، مما عزز قدرة سلاح الجو الاسرائيلي وجعله قادرا على تحمل مسؤولياته .

كانت المشكلة الاساسية التي واجهت القيادة العسكرية في اسرائيل تتمثل في كيفية تحييد الطيران المصري ، وبالتالي اخراجه من المعركة ، واذا لم يكن بالامكان تحقيق ذلك منعه من مهاجمة الاهداف الحيوية العسكرية والاقتصادية في اسرائيل . وكانت اسرائيل تدرك ان طائرة من طراز « تي يو ـ ١٦ » القاذفة للقنابل ، بحمولتها التي تبلغ تسعة اطنان من القنابل ، يمكن ان تحدث دمارا هائلا وتنزل افدح الخسائر بالارواح ، لو اتيح لها الافلات من المقاتلات الاسرائيلية والقاء حمولتها على هدف حيوي في اسرائيل . لذلك سعت اسرائيل لدى الولايات المتحدة ، في عام ١٩٦٢ ، للحصول على صواريخ « هوك » الموجهة ارض ـ جو من اجل مقاومة طائرات « تي يو ـ ١٦ » المصرية ، ذلك لانها اعتبرت هذه المسألة مشكلة امنية خطرة ؛ مما دفع القيادة الجوية في اسرائيل الى تركيز جهودها ، منذ مطلع الستينات ، باتجاه مصر ، في محاولة لايجاد مخرج لهذه المشكلة الامنية الخطرة . لهذا ، ظلت مهتمة بجمع المعلومات عن سلاح الجو المصري (طياريه وفنييه وطائراته ومطاراته واجهزة راداره وصواريخه الموجهة) لتظل مطلعة على التطورات الجارية في هذا السلاح . وذلك ما دفع اجهزة الاستخبارات والمخابرات الاسرائيلية الى التركيز على مصر دون غيرها من الدول العربية ، وتوجيه عملائها للعمل فيها بغية جمع المعلومات عن نشاطاتها العسكرية .

لقد ادركت القيادة العسكرية الاسرائيلية ان اية مواجهة مع العرب يجب ان يسبقها اعداد دقيق للمعركة ، بحيث يأخذ في حساباته دور الطيران في الحرب . فلقد تطور السلاحان الجويان المصري والاسرائيلي كثيرا عما كانا عليه في حرب عام ١٩٥٦ ، خصوصاً ان القيادة العسكرية في اسرائيل لمست خطورة سلاح الجو المصري في مرحلة القتال الاولى في حرب السويس ١٩٥٦ ، قبل دخول سلاحي الجو البريطاني والفرنسي الحرب . وكانت تدرك ان امكانات الطيران المصري وقدراته القتالية زادت اضعاف ما كانت عليه في السابق ، خصوصاً بعد ان تلقى طياروه وكافة عناصره الفنيين تدريبا متواصلا ، واصبحوا على مستوى عال من الكفاءة والروح المعنوية . لذلك وضعت القيادة الاسرائيلية كل هذه الاعتبارات في الحسبان عندما قررت توجيه الضربة الاولى لسلاح الجو المصري ، في صبيحة ٥ حزيران ١٩٦٧ . وعندما وضعت القيادة الاسرائيلية خططها ، راعت دور سلاح الجو الحاسم في الحرب . لذلك اتجهّت بجهودها لايجاد الوسائل التي تكفل لنفسها التفوق الجوي والقدرة على نقل الحرب الى الاراضي العربية ، لعلمها ان سلاح الجو هو الاداة القادرة على تحقيق ذلك اذا ما تم استخدامه بدقة ومهارة .

لقد اخذت اسرائيل في الحسبان الانقسامات داخل الصف العربي عند تقييمها لاوضاع المنطقة ، واخذت في حساباتها عمليات التسريح الجماعي التي كانت تحدث في صفوف سلاحي الجو العراقي والسوري ، والتي كان لها الاثر الكبير في تدني قدرتهما القتالية والفنية ، وكانت

تدرك وتعرف جيدا الاوضاع النفسية التي كانت منتشرة آنذاك في اوساط طياري السلاحين * ، على حين قامت القيادة الجوية الاسرائيلية ، من العام ١٩٥٦ ، ببناء قوة جوية عصرية استندت ، منذ بداية تطويرها وتحديثها ، على اسس علمية وموضوعية عملية ، تم فيها التركيز على زيادة قدرات الطيارين القتالية والنظرية ، وقدرات العناصر الارضيين والجويين الفنية . كما كان لسلاح الجو الاسرائيلي ميزة يتفوق بها على اسلحة الجو العربية : هي قدرته على اجراء التعديلات والاصلاحات الفنية الرئيسية التي تحتاجها كافة طائراته ليتناسب ذلك ومتطلبات المعركة ، وذلك عامل لم يكن متوفرا لاسلحة الجو العربية ؛ يضاف الى ذلك قدرته في النقل وامداد القوات في جبهات القتال بكل ما تحتاج اليه من مؤن وذخائر وعتاد وتجهيزات حربية اخرى . وهكذا ، عندما قررت اسرائيل دخول الحرب في عام ١٩٦٧ ، وجدت في متناول يدها سلاحا جويا منظما ومدربا ، قادرا على مواجهة سلاح الجو المصري وباقي اسلحة الجو العربية وجاهزا للمعركة .

الاستعدادات الاخيرة للحرب

في صبيحة ٥ حزيران ١٩٦٧ قدر مردخاي هود، قائد سلاح الجو الاسرائيلي آنذاك، قوته الجوية بـ ٨٠٠٠ رجل و ٣٥٠ طائرة حربية (خط أول) موزعة على ثلاثة اسراب معترضة - مقاتلة من طراز « ميراج ٣ سي » قوام كل سرب ٢٤ طائرة ، وسرب معترض - مقاتل رابع مجهز بطائرات « سوبر مستير ٢ » عددها ١٨ طائرة ، يضاف اليها سربان من القاذفات المقاتلة من طراز « مستير ٤أ » قوام كل سرب ٢٠ طائرة وسربان من القاذفات المقاتلة من طراز « اوريغان » تكون كل سرب من ٢٠ طائرة ، وسرب من القاذفات الخفيفة من طراز « فوتور ٢ أ » عددها ٢٤ طائرة ، وثلاثة اسراب من الطائرات الخفيفة من نوع « فوغا ماجستير » للهجوم الارضي عددها ٦٠ طائرة ، ثم سربان من طائرات النقل الخفيفة من نوع « داكوتا - سي - ٤٧ » (١٥ طائرة) و « نور اطلس » المخصصة للمظليين والنقل العسكري (١٨ طائرة) ، وجناح جوي من طائرات الهليوكبتر تكونت طائراته من ٥ طائرات متوسطة من نوع « سوبر فريلون » ، و ٨ طائرات خفيفة من نوع « الويت ٢ » و ٢٢ طائرة خفيفة من نوع « سيكورسكي - س - ٥٥ و س - ٥٨ » ، بالاضافة الى عدد آخر من الطائرات الخفيفة وطائرات التدريب . اما مسؤولية الدفاع الجوي ، فانيطت بكتيبتين من الصواريخ الموجهة ارض - جو من نوع « هوك » (كل كتيبة من ٧٢ صاروخاً) ، تعاونها وحدات من المدفعية المضادة للطائرات [٢٢] ، على حين قدر حجم القوات الجوية العربية المحيطة باسرائيل بـ ٩٢١ طائرة (مصر - سوريا - الاردن - العراق - لبنان) ؛ اخطرها على اسرائيل كان سلاح الجو المصري الذي ضم في صفوفه

---

* افاد هروب الملازم الاول الطيار (العراقي) « منير روفا » بطائرة من طراز « ميغ - ٢١ ف » في ١٦/آب/ ١٩٦٦ ، وهبوطه في احد المطارات الاسرائيلية ، سلاح الطيران الاسرائيلي كثيرا . فقد امكنه دراسة الطائرة ومعرفة خصائصها الفنية ومقدرتها القتالية ، وبالتالي مقارنة ذلك بطائرة « ميراج ٣ سي » . كما ان القيادة الجوية استفادت كثيرا من المعلومات القيمة ، التعبوية والتنظيمية ، وتلك التي لها علاقة بالامور الفنية والتدريب التي تقدم بها الضابط الخائن ، مما اعطاها معلومات قيمة لم تكن لتحلم بها قبل المعركة ، لا عن السلاح الجوي العراقي فحسب بل وعن الاسلحة الجوية لمصر وسوريا والاردن ، بحكم عمله كطيار في الاسراب العاملة في العراق .

١٥٠٠٠ رجل ، واحتياطياً قدر بـ ٣٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ رجل ، بينما بلغ مجموع الطائرات الحربية (خط اول) حوالى ٥٥٠ طائرة وزعت على ثلاثة ألوية جوية قوامها ١٣٠ طائرة من نوع « ميغ ـ ٢١ ف و ب ف » ولوائين جويين قوامهما ثلاثة اسراب من طراز ميغ ـ ١٧ف س (٢٣) * وثلاثة اسراب « ميغ ـ ١٩ س » وقاذفات مقاتلة اسرع من الصوت (٨٠ طائرة) ، وخمسة اسراب مشتركة قاذفة مقاتلة تضم « ميغ ١٥ » و « ميغ ـ ١٧ » ، يضاف اليها لواء جوي تكون من ثلاثة اسراب من قاذفات القنابل الخفيفة من نوع « اليوشن ـ ٢٨ » عددها ٤٠ طائرة ، وحوالى ٣٠ قاذفة للقنابل متوسطة ـ بعيدة المدى من طراز « تي يو ـ ١٦ » و٧٠ طائرة نقل خفيفة ومتوسطة من طراز « اليوشن ١٤ » و « انتونوف ١٢ » . اما قيادة الدفاع الجوي ، فكانت مجهزة بـ ٢٠ بطارية من الصواريخ الموجهة ارض ـ جو من نوع « سام ـ ٢ » (كل بطارية من ٦ صواريخ) وبخمسة اسراب من الطائرات المقاتلة ـ المعترضة ، وبوحدات مدفعية مضادة للطائرات مجهزة بمدافع من عيار ٣٧ ملم و٥٧ ملم و٨٥ ملم (٢٤) .

اما اسلحة الجو العربية التابعة لدولتي المواجهة سوريا والاردن ، بالاضافة الى العراق ولبنان ، فكانت قوة كل سلاح منها حسب الترتيب التالي :

سلاح الجو السوري

ضم هذا السلاح حوالى ٩٠٠٠ رجل و٤٠ مقاتلة ـ معترضة من طراز « ميغ ـ ٢١ ف و ب ف » و٦٠ قاذفة ـ مقاتلة من طراز « ميغ ـ ١٧ » وسرباً مختلطاً من طائرات النقل من نوع « اليوشن ـ ١٤ » و « داكوتا ـ سي ـ ٤٧ » ، وعدد من طائرات الهليوكبتر من نوع « مي ـ ١ » و « مي ـ ٤ » ومجموعة من طائرات التدريب الابتدائي والمتقدم (٢٥) .

سلاح الجو الاردني

ضم هذا السلاح في صفوفه حوالى ٢٠٠٠ رجل ، في حين تكونت طائراته الحربية من سرب مقاتل واحد تكون من ٢٣ طائرة قاذفة ـ مقاتلة من طراز « هوكر هنتر ف جي أ ـ ٩ » ، كما كان لديه سرب نقل مكون من ٦ طائرات نقل و٣ طائرات من نوع « دوف » و٣ من نوع « داكوتا سي ـ ٤٧ » بالاضافة الى ٣ طائرات هليوكبتر من نوع « اليويت ٣ » (٢٦) . وكان الاردن قبل الحرب قد طلب من الولايات المتحدة تزويده بـ ٣٦ طائرة معترضة من نوع « لوكهيد ف ـ ١٠٤ ستارفايتر » ، غير ان الولايات المتحدة سلمت الحكومة الاردنية منها، في بداية العام ١٩٦٧ ، ٦ طائرات فقط لتدريب الطيارين والفنيين تمهيدا لاستيعابها . الا انها قامت في ٤/٦/١٩٦٧ ، في اعقاب تأزم الوضع العسكري في المنطقة في شهري ايار وحزيران من العام نفسه ، وبناء على طلب من الحكومة الاردنية ، بنقلها الى قاعدة « سيغلي » (CIGLI) التركية التابعة لحلف شمال الاطلسي (٢٧) .

سلاح الجو العراقي

ضم سلاح الجو العراقي حوالى عشرة آلاف رجل ، وتكونت طائراته الحربية من ٢٢٠

---

* بلغ مجموع ما لدى مصر في تلك الفترة من طائرات قاذفة مقاتلة من طراز « ميغ ـ ١٧ ف س » و « ميغ ـ ١٥ » ١٥٠ طائرة .

طائرة اشتملت على الانواع التالية :

٦٠ طائرة مقاتلة ـ معترضة من نوع « ميغ ـ ٢١ ف و ب ف » سوفياتية .

١٠ طائرات قاذفات قنابل متوسطة من نوع « تي يو ـ ١٦ بادجر » سوفياتية .

٥٠ طائرة قاذفة ـ مقاتلة من نوع « هوكر هنتر ف ٦ و ف جي أ ـ ٩ » بريطانية .

٢٠ طائرة قاذفة ـ مقاتلة من نوع « ميغ ١٧ س » سوفياتية .

١٠ طائرات قاذفات قنابل خفيفة من نوع « اليوشن ـ ٢٨ » سوفياتية .

٤٠ ـ طائرة نقل متنوعة سوفياتية وبريطانية .

٢٠ طائرة تدريب متقدم / هجوم ارضي من نوع « جت بروفست ١٤٥ » بريطانية .

بالاضافة الى عدد من طائرات التدريب المتقدم المروحي والنفاث وانواع من طائرات الهليوكبتر ابرزها طائرات الهليوكبتر البريطانية من نوع « ويستلاند وسيكس » ، والسوفياتية من نوع « مي ـ ٤ » (٣٨) .

سلاح الجو اللبناني

تكون هذا السلاح من ١٢ طائرة مقاتلة ـ معترضة من نوع « ميراج ـ ٣ إي ل » ، لكنها لم تكن ، من الناحية العملية ، في وضع يسمح لها بالاشتراك في اية عمليات فعلية . كما ضم ٨ ـ ١٠ طائرات قاذفة ـ مقاتلة من نوع « هوكر هنتر ف ٦ » ونحو ٦ طائرات قاذفة ـ مقاتلة من طراز « نامبير » ، وعدد من طائرات النقل الخفيفة والهليوكبتر (٣٩) .

التحضيرات الاخيرة قبل الشروع في تنفيذ الخطة

تم التصديق على خطة عمليات سلاح الجو الاسرائيلي في الاسبوع الاخير من شهر ايار (مايو) . وقد شارك في وضعها البريغادير عيزر وايزمن مدير العمليات في رئاسة الاركان ، والبريغادير مردخاي هود قائد سلاح الجو الاسرائيلي (٣٠) . وكانت الخطة ، في اطارها العام ، تدعو الى شن هجوم جوي خاطف على ١٩ مطاراً مصريا ، وتدمير سلاح الجو المصري على الارض ، واخراجه نهائيا من المعركة (٣١) ؛ فقد تم الاتفاق على ان تقوم طائرات الميراج بالطلعة الاولى ، وان تبدأ الحرب بتوجيه ضربة مباغتة للمطارات المصرية الرئيسية التالية : غربي القاهرة ؛ المنصورة ؛ انشاص ؛ ابو صوير ، فايد ، كبريت ؛ حلوان ؛ بني سويف ؛ المنيا ؛ مع التركيز بصورة رئيسية على مطار غربي القاهرة الذي كانت ترابط فيه قاذفات القنابل الاستراتيجية من نوع « تي يو ـ ١٦ » (٣٢) . كما خصص للمطارات الجنوبية في مصر (الغردقة والاقصر وراس بناس) طائرات « الفوتور » القاذفات الخفيفة بعيدة المدى التي نقلت لترابط في قاعدة « حتسريم » القريبة من بئر السبع ، وهي الطائرات الوحيدة التي كان يملكها سلاح الجو الاسرائيلي والتي بامكانها ضرب المطارات الجنوبية في مصر ، حيث كان يرابط فيها حوالى ١٢ سربا من الطائرات المعترضة من طراز « ميغ ـ ٢١ » و « ميغ ـ ١٩ » ، التي كان من مهامها الرئيسية التصدي للطائرات الاسرائيلية في حال

مهاجمتها الاهداف المصرية في اتجاه شرم الشيخ (٣٣) . اما مطارا « الجميل » في بورسعيد و « الدفرسوار » في منطقة القناة ، فقد خصص لهما الطائرات القاذفة المقاتلة من نوع « مستير ٤ أ » ، التي حدد لها ان تطير الى المطارين بطريقة مباشرة (٣٤) ، على حين خصص للمطارات المصرية الاربعة في سيناء (العريش ؛ جبل لبنى ؛ بئر جفجافة ؛ بئر تمادا) طائرات قاذفة مقاتلة من نوع « اوريغان » و « مستير ٤ أ » ، لقصر مداها ومحدودية امكاناتها القتالية وتشكيلها هدفا سهلا للطائرات المقاتلة ووسائط الدفاع الجوي المصرية ، في حال اعطائها اهدافا في عمق الاراضي المصرية (٣٥) .

حددت لبدء تنفيذ الخطة الساعة ٨,٢٥ بتوقيت القاهرة (٧,٢٥ بتوقيت اسرائيل) ، وهو الوقت الذي تقرر فيه انطلاق طائرات الموجة الاولى من مطاراتها في اسرائيل . وقدر ان تستغرق رحلة الذهاب ٢٠ دقيقة ، على ان تكون الطائرات الاسرائيلية فوق اهدافها في قلب مصر في الساعة ٨,٤٥ ، وهو الوقت الذي اختارته القيادة الاسرائيلية موعدا لبدء هجومها الجوي على المطارات المصرية للاسباب التالية : (٣٦)

اولا : تمكنت اجهزة المخابرات والاستخبارات الاسرائيلية من الحصول على معلومات دقيقة عن موعد التحاق كبار الضباط المصريين في سلاح الجو ، بمراكز عملهم . وكان هذا الوقت هو الساعة ٩,٠٠ تقريباً من كل يوم بتوقيت القاهرة . لذلك رأت القيادة الاسرائيلية ان ساعة الصفر التي تحددت تناسبها لبدء الهجوم على المطارات المصرية : اذ سيكون شن الهجوم في هذا الوقت مفاجئا لهؤلاء القادة ، وسيحرمهم فرصة اعطاء تعليماتهم الى مرؤوسيهم . والى حين التحاقهم بمراكز عملهم وقياداتهم ، ستكون الطائرات الاسرائيلية قد انجزت مهامها الهجومية . ومن جهة اخرى ، اعتاد صغار الضباط المصريين عدم التصرف على مسؤوليتهم الخاصةدون تلقي التعليمات من كبار القادة،وكان هذا يعني ، حسب تقدير القيادة الاسرائيلية من الوجهة العملية ، شلل هذه القواعد وخلق جو من الفوضى والاضطراب فيها وفي صفوف صغار الضباط وضباط الصف والجنود . فقد قدرت القيادة الاسرائيلية ان هؤلاء سيحاولون الاتصال بقادتهم لتلقي الاوامر والتعليمات ، وهذا قد يتطلب وقتا ، وعندها ستكون الطائرات الاسرائيلية قد افرغت حمولتها من القنابل وانجزت مهامها بسهولة .

ثانيا : اعتاد المصريون ارسال دورياتهم الجوية لحراسة الاجواء المصرية في الصباح الباكر ما بين الساعة ٤,٠٠ والساعة ٨,٣٥ موعد هبوط آخر طائرة . كما اعتاد الطيارون المصريون تناول وجبة الافطار حوالى الساعة ٩,٠٠ ، وهو الوقت الذي تكون فيه كافة الطائرات المصرية على الارض لتزويدها بالوقود . يضاف الى ذلك ان الدورية الثانية من الطائرات المصرية لا تحلق في الجو الا بعد التاسعة بقليل . لذلك رأت القيادة الاسرائيلية ان هذه الفترة ستكون مثالية وتمنح الطائرات الاسرائيلية فرصة لتدمير اكبر عدد ممكن من الطائرات المصرية دون ازعاج أحد وهي جاثمة على الارض .

ثالثاً : دلت التقارير التي تصدرها اجهزة الرصد الجوي في منطقة الشرق الاوسط ان منطقة القناة يغطيها في الصباح الباكر ، عادة ، ضباب كثيف على ارتفاعات منخفضة ، ويستمر ذلك حتى الساعة ٨,٣٠ . لهذا رأت القيادة الاسرائيلية ان تؤخر ضربتها الى ما بعد انقشاع الضباب .

رابعاً : من الامور المتعارف عليها عسكريا ان تنفيذ الغارات وشن الهجمات يحدثان عادة في الفجر اول النهار ، او في الغسق وقت هبوط الليل : وهذا يعني ان الطيارين سيستيقظون باكراً قبل موعد الاقلاع بساعتين على الاقل : مما يسبب لهم ارهاقا ويؤثر على مقدرتهم على العمل الدقيق . اما اذا كانت الضربة في الساعة ٨.٤٥ ، فسيمنحهم ذلك وقتا اطول للنوم ، وهو عامل يساعدهم في طيرانهم . اما من الناحية التكتيكية ، فإن القيام بالهجوم في الفجر سيكون عملا روتينيا ربما يفقد الطيران الاسرائيلي عنصر المفاجئة ولا يحقق بالتالي اغراضه : ذلك لان نسبة كبيرة من الطائرات المصرية ستكون مستعدة لاستقبال المغيرين . اما اذا شن الهجوم في وقت لاحق ، وفي موعد لا يتوقعه المصريون فستكون المفاجأة وسيحقق الهجوم اهدافه .

لقد وضعت خطة الهجوم الجوي الاسرائيلي على الوجه التالي :

الساعة ٨.٢٥ · تقلع طائرات الموجة الاولى من قواعدها وتتوجه الى اهدافها .

الساعة ٨.٣٥ : تقلع طائرات الموجة الثانية ، وتدخل طائرات الموجة الاولى الاراضي المصرية .

الساعة ٨.٤٥ : تبدأ الموجة الاولى هجومها على المطارات المصرية ، وتدخل طائرات الموجة الثانية الاراضي المصرية ، وتقلع طائرات الموجة الثالثة من قواعدها .

الساعة ٨.٥٢ : تترك طائرات الموجة الاولى منطقة الهدف .

الساعة ٨.٥٥ : تبدأ طائرات الموجة الثانية هجومها . وتدخل طائرات الموجة الثالثة الاراضي المصرية .

الساعة ٩.٠٢ : تترك طائرات الموجة الثانية منطقة الهدف .

الساعة ٩.٠٥ : تبدا طائرات الموجة الثالثة هجومها .

الساعة ٩.١٢ : تترك طائرات الموجة الثالثة منطقة الهدف ، وتعود طائرات الموجة الاولى وتهبط في قواعدها .

الساعة ٩.٢٢ : تقلع طائرات الموجة الاولى (تصبح الان الموجة الرابعة) من قواعدها .

الساعة ٩.٤٢ : تبدأ طائرات الموجة الرابعة هجومها .

ثم تتبعها الموجتان الخامسة والسادسة في اوقاتها المحددة .

لقد قدر كل من وايزمن وهود انه بعد ان تتم هذه الموجات هجماتها ، ستكون نسبة ٧٠٪ من الطائرات المصرية قد دمرت تماما او اعطبت ، وستكون نسبة كبيرة من مهابط الطائرات في القواعد الجوية المصرية غير صالحة للاستعمال ، وعندها سيترك المجال للطائرات الاسرائيلية التفرغ لمهاجمة باقي المطارات المصرية وبالتالي القواعد الجوية السورية والاردنية ، والمطارات العراقية اذا تطلب الوضع ذلك [٣٧] ، لان طائرات هذه الدول لن تتمكن ، حسب تقدير وايزمن وهود ، من العمل الا بعد ثلاث ساعات على الاقل من بدء الهجوم الجوي على المطارات

المصرية [٣٨] . وعلى صعيد آخر شملت الخطة ، ايضا ، مهاجمة المطارات السورية التالية : الضمير : صيقل : مرج ريال : المزة : « ت ٤ » . بالاضافة الى المطار العراقي « هـ - ٣ » . اما « الحبانية » فتهاجم اذا ما تطلبت الاوضاع العسكرية ذلك . واما المطارات الاردنية ، فلن تهاجم الا اذا دخل الاردن الحرب الى جانب مصر وسوريا ، وعندها تهاجم الطائرات الاسرائيلية مطاري المفرق وعمان [٣٩] .

لقد استدعت الضرورة استخدام قنبلة سرية لتدمير مدارج المطارات المصرية ، من اجل تحقيق اكبر قدر من التدمير في هذه المدارج بسهولة ودقة : ذلك لأن استخدام هذه القنابل لا يتطلب جهدا كبيراً من قبل الطيار عند القائها فضلا ، عن انه بإمكانها احداث فجوة كبيرة في ارضية المدارج تكون كافية لتعطيلها لفترة طويلة . حيث ان الهدف الرئيسي في الخطة كان يتطلب منع سلاح الجو المصري من العمل ، لتبدأ بعد ذلك عملية تدمير طائراته على الارض . ولقد كثر الحديث عن هذه القنبلة والجهة الصانعة لها . فقد ادعت اسرائيل انها هي التي صنعتها،غير انها لم تثبت ذلك على الاطلاق،بدليل انها لم تستخدمها بعد ذلك.ففي شهر كانون الاول سنة ١٩٦٧ ، ظهر تحقيقان صحافيان في مجلتي الطيران « فلايت » البريطانية و « افياسيون » الفرنسية ، ذكر فيهما ان هذه القنبلة هي من صنع شركة « ماترا » الفرنسية لانتاج الصواريخ ، لكن اسرائيل اجرت عليها التحسينات بعد حصولها عليها لتعطي المردود المطلوب . فالقنبلة مجهزة بجهاز « ايقاف » يشتمل على مظلة وصاروخين : يعمل احدهما باتجاه معاكس لخط سير القنبلة من اجل ابطاء سرعتها وهي في طريقها الى الارض ، بعد القائها من الطائرة التي تكون في تلك اللحظة على ارتفاع ٥٠ قدماً وبسرعة ٥٠٠ عقدة (٩٢٠ كم) ، في حين تعمل المظلة على تصحيح وضع القنبلة بأن توجه مقدمتها باتجاه الارض . وفي تلك الاثناء يشتغل صاروخ آخر دافعا القنبلة بسرعة كبيرة وبقوة في اتجاه الطبقة الاسمنتية لارضية المدرج ، لتخرقها القنبلة وتستقر على عمق متر او متر ونصف في داخلها ، وبعد لحظات يحدث الانفجار محدثاً فجوة كبيرة .

لقد علم بعد الحرب ان اسرائيل لم تكن تملك الا اعدادا محدودة من هذه القنابل . لذلك اضطرت القيادة الاسرائيلية الى تسليح ٤٠٪ فقط من الطائرات المهاجمة ، في صبيحة ٦/٥ ، بها . اما باقي الطائرات المشتركة في الهجوم فقد جرى تسليحها بقنابل عادية زنة ٢٥٠ رطلاً (١١٢,٥ كلغ) و٥٠٠ رطل (٢٢٥ كلغ) و١٠٠٠ رطل (٤٥٠ كلغ)

وفي ٢١ ايار ١٩٦٧ ، بدأت القيادة الجوية الاسرائيلية سلسلة من التحركات والطلعات الجوية ، قصد بها تضليل المصريين وجعلهم يعتقدون بأن اسرائيل تنوي القيام بعمل ما في الجنوب باتجاه شرم الشيخ والغردقة . كما بدأت تلك القيادة ، في الوقت نفسه ، ارسال طائراتها في رحلات استطلاع وتصوير جوي على ارتفاعات شاهقة عميقا في الاجواء المصرية ، بقصد جمع ادق الصور والمعلومات عن قواعد المصريين الجوية . واستمرت هذه الرحلات حتى ١٩٦٧/٥/٢٧ حين توقفت . وقد قصدت القيادة الجوية الاسرائيلية من هذه الطلعات ، بالاضافة الى التضليل وجمع المعلومات ، جس نبض اجهزة الدفاع الجوي المصرية لمعرفة مدى استعدادها ، والمدة التي تحتاجها لتتصدى بنجاح للطائرات المعادية [٤٠] .

توقفت طلعات الطائرات الاسرائيلية بشكل نهائي بعد ٢٧ أيار ، حيث بدأت اجهزة الصيانة اجراء الكشوفات والفحوصات الدقيقة عليها ، استعدادا لساعة الصفر ، وقد بذلت اجهزة الصيانة الارضية جهودا جبارة لاعداد اكبر عدد ممكن من الطائرات المتوفرة في الاسراب للطيران في صبيحة ٥ حزيران . غير انه في ٣ و٤ من الشهر نفسه ، عادت طائرات « الميراج » للتحليق فوق منطقة شرم الشيخ بقصد التضليل . وقد افادت التقارير التي امكن الحصول عليها بعد الحرب ، ان هذه الرحلات الجوية ضللت المصريين فعلا ، بعد ان ثبت ان القيادة الجوية في القاهرة نقلت قسماً كبيراً من طائراتها المعترضة (١٢ سربا) الى مطاراتها في الجنوب : الغردقة ورأس بناس والاقصر ، مستبعدة قيام الطيران الاسرائيلي بمهاجمة مصر من ناحية البحر الابيض المتوسط .

ان ثمة عوامل عدة ، لا ينكرها أحد ، شجعت اسرائيل على القيام بمغامرتها ، واهمها :

١ ـ **الدعم الاميركي** غير المحدود والمطلق لاسرائيل ، وقد ظهرت مؤشراته من خلال تحمس الرئيس الاميركي « ليندون جونسون » واهتمامه الزائد بأمن اسرائيل وضمان حدودها ، وهو الذي سخر قدرات الولايات المتحدة وامكاناتها العسكرية والسياسية والاقتصادية ونفوذها في العالم ، لخدمة اسرائيل والصهيونية العالمية ، ويقابل ذلك تجاهله التام للاماني القومية العربية وحقوق الفلسطينيين في ارضهم ووطنهم ، واستخفافه وكرهه للعرب . ويضاف الى هذا العامل ، التطور الذي طرأ على الاستراتيجية الاميركية في المنطقة وقتها ، والذي أخذ يشجع الدول الحليفة والصديقة التي تستطيع ان تساهم في المسؤولية الدولية للمحافظة على السلام ، ان تبادر الى تحمل مسؤولياتها . ولا شك في أن موافقة واشنطن ، قبل الحرب ، على تزويد اسرائيل بكميات غير محدودة من السلاح ، يفوق احتياجاتها الدفاعية ، له ارتباط بهذا التحول . ثم تأتي التحركات البحرية ، لا سيما تحركات قطع الاسطول الاميركي السادس في البحرين الابيض والاحمر ، التي تمثلت بوضع حاملتي الطائرات « اميركا » و « ساراتوغا » في حالة الانتظار والترقب ، وارسال حاملة الطائرات « انتربيد » في ١٩٦٧/٥/١٠ للمرابطة في البحر الاحمر على مقربة من شرم الشيخ [٤١] .

٢ ـ **الدعم البريطاني** ، ورغبة بريطانيا التقليدية في الالتزام الجدي بمصير اسرائيل ، وتمسكها بالسياسة الغربية التقليدية تجاه المنطقة ، وتحمسها ، ابان الازمة ، بتشكيل القوة البحرية الدولية لفتح ممرات تيران بقوة السلاح . ويضاف الى ذلك ، ارسالها ، في ١٩٦٧/٥/٣٠ ، حاملة الطائرات « فكتوريوس » والمدمرة « ريل » للمرابطة في البحر الابيض المتوسط ، وارسالها حاملة الطائرات « هيرمس » لعبور القناة والمرابطة في البحر الاحمر على مقربة من شبه جزيرة سيناء [٤٢] .

٣ ـ **الدعم الفرنسي** ، على الرغم من التحول الذي بدأ يطرأ على السياسة الفرنسية ازاء دول منطقة الشرق الاوسط قبل الحرب ، والتحول المفاجىء والخطر الذي طرأ على العلاقات الفرنسية ـ الاسرائيلية ، في اعقاب صدور قرار الحكومة الفرنسية في ١٩٦٧/٦/٢ بفرض حظر على توريد السلاح الى الدول المعنية مباشرة في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، فقد لعبت فرنسا ، في السنوات الاثنتي عشرة الماضية ، دورا نشيطا ومميزا ورئيسيا في تزويد اسرائيل

بالسلاح دون قيد او شرط ، وكانت لسلاح الجو الاسرائيلي منها حصة الاسد : حيث شكلت الطائرات الفرنسية العمود الفقري للقوة الجوية الاسرائيلية الضاربة . وقد وصف شمعون بيريس ، هذه العلاقة بقوله : « ان علاقاتنا الجيدة بفرنسا زادتنا تفاؤلا وفتحت امامنا افاقاً جديدة » (٤٣) .

ولقد لعبت الصناعات الجوية الفرنسية دورا هاما في تزويد آلة الحرب الجوية الاسرائيلية بالطائرات والمعدات والتجهيزات الجوية المتقدمة التي لعبت دورا رئيسيا وحاسما في الحرب ، كان آخرها هبوط ثلاث طائرات من نوع « بوينغ ـ ٧٠٧ » ، تابعة لشركة « العال » الاسرائيلية ، في مطار بوردو جنوبي غربي فرنسا في الساعة ٢٢.٠٠ من ليل ٢٩/٥/١٩٦٧ (٤٤) . وفور وصولها ، جرى تحميلها بالصواريخ الموجهة جو ـ جو من نوع « ماترا ـ ٥٣٠ » وبقطع الغيار والمعدات العسكرية الاخرى التي كان سلاح الجو الاسرائيلي بحاجة ماسة اليها . وقد ظلت هذه الطائرات في رحلات مستمرة حتى يوم ٢/٦/١٩٦٧ ، بعدما انهت مهمتها (٤٥) .

وقائع الحرب

اليوم الاول : الاثنين ، الساعة ٨,٤٥ ، ٥ حزيران/ ١٩٦٧

الجبهة المصرية : اقلعت في الساعة ٨,٢٥ ، من المطارات الوسطى والجنوبية في اسرائيل ، دفعة واحدة ، اول موجة من الطائرات الاسرائيلية وعددها ٥٩ طائرة مقاتلة وقاذفة ـ مقاتلة ، فاتجهت ٢٨ طائرة منها من نوع « ميراج » لمهاجمة المطارات المصرية الرئيسية في منطقتي الدلتا والقناة ، وهي مطارات : **غربي القاهرة** ، **المنصورة** ، **بلبيس** ، **فايد** ، **انشاص**، **كبريت** ، **بني سويف** ، حيث ترابط فيها التشكيلات الرئيسية للطائرات المصرية المعترضة والقاذفة ـ المقاتلة والقاذفات المتوسطة والخفيفة ، بينما اتجهت ١٦ طائرة من نوع « مستير ٤ أ » لمهاجمة المطارات المصرية في سيناء : **العريش** ، **جبل لبني** ، **بئر جفجافة** ، **بئر تمادة** . وانـطلقت هذه الطائرات من قاعدة « حتسريم » لتهاجم هذه المطارات بشكل مباشر قادمة من الشرق . كما اقلعت ١٥ طائرة قاذفة خفيفة من طراز « فوتور » الى الجنوب ، لمهاجمة مطاري **الاقصر ورأس بناس** (٤٦) .

حلقت الطائرات في تشكيلات قتالية ، يتكون كل منها من أربع طائرات ، وخصص تشكيل واحد لكل مطار . فاتجهت الطائرات الى اهدافها بصمت لاسلكي وعلى ارتفاع ٢٠٠ قدم ، ما عدا طائرات « الفوتور » التي حلقت على ارتفاع ٢٤ الف قدم مستخدمة محركاً واحدا في طريقها الى الهدف ، الذي يبعد مسافة ٦٨٠ كم تقريبا عن قاعدة « حتسريم » القريبة من بئر السبع وهي القاعدة التي انطلقت منها الطائرات ، وذلك للاقتصاد في الوقود . وعند اقتراب الطائرات من اهدافها ، ادار الطيارون المحركات الاخرى ، واتم كل منهم هجومه بمحركين ، فهاجموا طائرات « الميغ ـ ١٧ » القاذفة ـ المقاتلة و « اليوشن ـ ٢٨ » القاذفة الخفيفة التي كانت مرابطة في هذه المطارات ، بقنابل زنة كل منها ٥٠٠ رطل ، وبرشاشات من عيار ٣٠ ملم ؛ اذ خصصت لكل طائرة قنبلتان فقط ليتاح للطائرات حمل وقود اكثر . وفي طريق العودة اضطر الطيارون مرة

اخرى للطيران بمحرك واحد ، الى ان هبطوا في قاعدتهم (٤٧) .
اما بقية الطائرات ، فاتجهت ايضا نحو اهدافها على ارتفاع ٢٠٠ قدم فوق سطح الارض وسطح الماء ، لتفادي شبكات الرادار المصرية والبريطانية في قبرص ، ورادارات الاسطولين الاميركي والسوفياتي في البحر الاحمر ، ومحطة الرادار الاردنية في عجلون التي بإمكانها ان تغطي دائرة نصف قطرها ٢٥٠ ـ ٢٥٠ ميلا .

وعند وصول الطائرات منطقة اعالي الدلتا ، اتجهت جنوبا في طريقها الى اهدافها : حيث بدأت ، عند وصولها ، بمهاجمة المدارج بقنابلها الخاصة ، ومن ثم اتجهت لمهاجمة عشرات الطائرات المصرية التي كانت جاثمة على الارض ، باستثناء مطار فايد الذي لم يهاجم بسبب كثافة الضباب الا بعد دقائق من بدء الهجوم على المطارات الاخرى (٤٨) . وقد وضع مطار غربي القاهرة في رأس القائمة ، وذلك لان ٣٠ من قاذفات القنابل المصرية من طراز « تي يو ـ ١٦ » القاذفة المتوسطة بعيدة المدى كانت ترابط فيه . وقد رأت القيادة الجوية في اسرائيل تحطيم هذه الطائرات حتى تجرد السلاح الجوي المصري من هذه القاذفات، فتحرمه من امكانية مهاجمة الاهداف الحيوية في اسرائيل .

وفي الوقت الذي اتجهت فيه طائرات الموجة الاولى الى اهدافها المحددة ، اقلعت طائرات الموجة الثانية بعد عشر دقائق : اي في تمام الساعة ٨,٢٥ ، وتألفت من ٧٢ طائرة : ٥٢ لمهاجمة قلب مصر ، و١٦ للمطارات الاربعة في سيناء ، و٤ لمهاجمة مطار الغردقة . وسلكت طائرات هذه الموجة الاتجاهات نفسها التي سلكتها طائرات الموجة الاولى ، وقد اضيفت ٦ مطارات هي : الغردقة ، الماظة ، ابو صوير ، المنصورة ، المنيا ، حلوان ، الى المطارات التي هوجمت بواسطة الموجة الأولى (٤٩) . وما أن وصلت الى اهدافها المحددة في الساعة ٨,٤٥ ، حتى بدأت بمهاجمة مدارج المطارات مرة اخرى لتعطلها تماماً ، وكررت مهاجمتها للطائرات المصرية الجاثمة على الأرض . وفي الساعة ٨,٥٢ ، انهت هذه الطائرات هجماتها وأفلت راجعة الى قواعدها ثم هبطت فيها في الساعة ٩,١٢ .

لم يهاجم مطار الغردقة الا في الموجة الثانية : اي بعد دقائق من بدء الهجوم الاول ، لذلك ، وعندما بدأت الطائرات الاسرائيلية مهاجمة المطارات المصرية في قلب مصر ، اقلعت من هذا المطار ٢٠ طائرة من نوع « ميغ ـ ٢١ » ، في محاولة للتصدي للطائرات الاسرائيلية المغيرة واشتبكت فوق منطقة القناة مع مجموعة من طائرات الـ « ميراج » ، ولكن هذه الطائرات اضطرت اثناء الاشتباكات الى ترك مسرح العمليات بسبب نفاذ وقودها . وقد حاول طياروها الهبوط في المطارات المصرية ، لكن دون جدوى : فقفز بعضهم بالمظلات ، على حين حاول البعض الآخر الهبوط بطائراتهم لكنهم لم يوفقوا ، فتحطمت طائراتهم وقتل بعضهم . وفي الوقت نفسه ، اقلعت ٨ طائرات « ميغ ـ ٢١ » اخرى من عدة مطارات ، وخاضت معارك جوية يائسة مع الطائرات الاسرائيلية ، وتمكنت من اسقاط طائرتي « مسيتر ٤ أ » في الاشتباكات الجوية التي دارت قبل ان تهبط اضطراريا في المطارات المدمرة (٥٠) . كما تمكنت ٤ طائرات « ميغ ـ ٢١ » من الاقلاع واشتبكت مع ٤ طائرات اسرائيلية من نوع « ميراج » ، وتمكنت من اسقاط اثنتين منها قبل ان تهبط اضطراريا بسبب نفاذ وقودها (٥١) . ومن جهة اخرى ، ذكرت المصادر

الاسرائيلية ، بعد انتهاء الهجوم ، انه تم على الاقل تدمير ٨ مجموعات من طائرات « الميغ » على المدارج عندما حاول طياروها الاقلاع بها (٥٢) .

ومن الجدير بالذكر انه في اثناء بدء الهجوم الاسرائيلي على المطارات المصرية ، كان المشير عبد الحكيم عامر النائب الاول لرئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية ، والفريق الجوي محمد محمود صدقي قائد سلاح الطيران ، ومعهما عدد من كبار ضباط هيئة الاركان المصرية محلقين في الجو بطائرة نقل من طراز « اليوشن ١٤ » . فقد اقلعت هذه الطائرة في الساعة ٨.١٠ ، وكانت وجهتها مطار « بئر جفجافة » في سيناء ، حيث كان مقررا عقد اجتماع يضم قادة الاسلحة والفرق والالوية المصرية في سيناء يتم فيه بحث آخر تطورات الوضع العسكري ، وكان الجميع بانتظار وصول طائرة المشير عندما بدأ الهجوم الجوي (٥٣) . وما ان حلقت الطائرة فوق « بئر جفجافة » حتى امرت بالعودة الى القاهرة ، حيث هبطت في مطار القاهرة الدولي بعد ساعتين من بدء الهجوم : اي في الساعة ١٠.٤٥ (٥٤) . وقد حدثت تطورات مذهلة وخطرة اثناء هذه الفترة ، وتم فيها تدمير نحو ٧٥٪ من مجموع طائرات السلاح الجوي المصري . وكانت هذه المدة كافية لاحداث الارباك والفوضى في صفوف القوات المسلحة المصرية ؛ حيث كان كبار القادة ، ومعهم كافة الاوامر والتعليمات ، بعيدين عن وحداتهم خلال هذه الفترة الثمينة ، بالاضافة الى صدور الاوامر الى بطاريات المدفعية المضادة للطائرات المصرية في منطقتي القناة وسيناء بعدم فتح النيران على الطائرات التي تظهر فوق مواقعها طوال مدة رحلة طيران طائرة المشير من مطار القاهرة الى « بئر جفجافة » ، والتي تستغرق قرابة ٧٥ دقيقة (٥٥) . اذاً ، وبالاضافة الى عنصر المباغتة ، يمكن اضافة عناصر الارباك والفوضى وغياب القادة عن مواقعهم الى العوامل التي كانت سببا في شل الطيارات والوحدات المصرية وجعلتها غير قادرة على القيام بواجباتها بالفاعلية المطلوبة .

ومن الامور التي ساعدت على نجاح الضربة الجوية الاجهاضية ، المعلومات الدقيقة التي كانت اجهزة المخابرات والاستخبارات الاسرائيلية قد تقدمت بها للقيادة الجوية في اسرائيل عن سلاح الطيران المصري، وشملت تلك التي لها علاقة بقادته وطياريه وفنييه وقواعده واسرابه العاملة : تحركاتها وعدد طائرات كل منها ، وقواعد اجهزة الرادار ، الخ .. ومعلومات تتعلق ببدء عمل كبار الضباط ، والتحاق الطيارين والفنيين وصغار الضباط بمراكز اعمالهم ، ومواعيد تناولهم وجبات الطعام . كما ان هذه الاجهزة اجادت في وضع تصورها وتقديرها للموقف العام في كافة الجبهات العسكرية ، لا سيما أوضاع الاسلحة الجوية العربية الاربعة (المصري - السوري - الاردني - العراقي) وجاءت حساباتها مطابقة تماما للواقع العام . فمثلا ، كانت هذه الاجهزة على علم بموعد رحلة المشير وبالامر الذي كان قد صدر لوسائط الدفاع الجوي الارضية ، كما انها كانت تعلم بتعليمات الفريق صدقي الاخيرة التي كان قد اصدرها في اليومين الاخيرين اللذين سبقا الضربة لسربين من الطائرات المقاتلة والمعترضة من طراز « ميغ - ١٧ » و « ميغ - ٢١ » للتحليق في الجو بدوريات مراقبة وحماية على طول الحدود بصورة متواصلة ، اعتبارا من الساعة ٤.٠٠ حتى الساعة ٨.٠٠ بتوقيت القاهرة . لهذا ، وضعت القيادة الجوية الاسرائيلية حساباتها على اساس ان تكون الطائرات الاسرائيلية فوق اهدافها في الوقت الذي تكون فيه كافة طائرات الدوريات المصرية المشار اليها قد هبطت في قواعدها (٥٦) .

وعلى صعيد الهجمات الجوية الاسرائيلية على المطارات المصرية ، شنت ٥ موجات من الطائرات الاسرائيلية هجماتها ، في المرحلة الاولى ، على ١٧ قاعدة جوية مصرية بصورة متواصلة لمدة ٨٠ دقيقة ، ابتداءً من الساعة ٨,٤٥ ، وهي موعد بدء هجوم الموجة الاولى ، حتى الساعة ١٠,٠٥ ، بفارق ١٠ دقائق بين كل موجة واخرى [٥٧] . وقد اعادت هذه الطائرات هجماتها في المرحلة الثانية الساعة ١٠,٠٥ ، ، متبعة الاسلوب نفسه ولمدة ٨٠ دقيقة اخرى انتهت في الساعة ١١,٢٥ ، حيث انهت هذه الطائرات مهمتها الرئيسية بتدمير اكثر من ٧٥٪ من الطائرات المصرية (اي اكثر من ٣٠٠ طائرة) وتعطيل معظم المدارج التابعة للقواعد الجوية الرئيسية المصرية (١٧ مطاراً) ووقفها عن العمل بصورة نهائية [٥٨] .

بين الساعة ١١,٢٥ والساعة ١٢,٠٠ ظهرا ، توقفت اكثر طائرات سلاح الجو الاسرائيلي عن العمل للتزود بالوقود واجراء الكشوفات الضرورية عليها . وفي الساعة ١٢,١٥ هاجمت الطائرات الاسرائيلية مطار **الغردقة** مرة اخرى ، وفي الساعة ١٢,٣٠ هاجمت مطار **الاقصر** . ومرة اخرى ، في الساعة ١٨,٠٠ ، هاجمت مطار **رأس بناس** في اقصى الجنوب . وفي الساعة ١٧,١٥ هاجمت مطار القاهرة الدولي [٥٩] . ومن الاسباب التي دفعت القيادة الجوية في اسرائيل الى مهاجمة المطارات المذكورة ، في هذه الاوقات المتأخرة ، توقعها ان تقوم القيادة المصرية بتهريب عدد من الطائرات المرابطة في الشمال وفي قلب مصر والقناة اليها ، بالاضافة الى الطائرات المقاتلة المصرية التي تم نقلها من المطارات اليمنية وتجميعها في الاقصر ورأس بـناس . ولما كانت القيادة الجوية الاسرائيلية تهدف الى القضاء على سلاح الجو المصري قضاء تاماً ، فقد ارسلت طائراتها الى هذه المطارات في محاولة منها لاصطياد ما تبقى سالما من الطائرات المصرية وتدميرها وهي جاثمة على الارض .

اما اجهزة الدفاع الجوي المصرية وصواريخ ارض ـ جو من نوع (سام ـ ٢) ، فقد اطلقت عدة صواريخ منها على الطائرات الاسرائيلية المغيرة ، لكنها جميعاً لم تصب اهدافها ، والسبب في ذلك يعود الى ان هذه الصواريخ معدة في الاساس للعمل ضد الطائرات التي تحلق على ارتفاعات تزيد عن ٢٠,٠٠٠ قدم وحتى ٦٠,٠٠٠ قدم . لقد اثبتت الاحداث ان هذه الصواريخ عديمة الفائدة عند استعمالها ضد الطائرات التي تطير على ارتفاعات منخفضة[٦٠] . فكان ذلك سببا من الاسباب التي ضمنت للطائرات الاسرائيلية حرية العمل طوال الساعات التي ظلت تهاجم فيها المدارج والطائرات الرابضة في المطارات الواقعة في قلب مصر ، دون ان تتكبد اية خسائر تذكر ، كما ضمن لها ذلك حرية العمل ضد هذه القواعد الصاروخية نفسها .

وعلى الرغم مما حدث ، قام الطيارون المصريون بما يشبه المعجزة ، وتمكنوا من التحليق في الجو بـ ١٣٢ طلعة جوية . وقد ذكر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، بعد الحرب ، ان ٤٠ طيارا استشهدوا في المعارك [٦١] ، وهذا دليل على شجاعة الطيارين المصريين والطواقم الارضية التي ساعدتهم على الانطلاق بطائراتهم الى الجو ، وهو دليل قاطع على ان مسؤولية ما حدث لسلاح الجو المصري تقع على كبار قادة السـلاح وحدهم .فقد قدم صغار الضباط ما عليهم وابلوا بلاء حسنا .

لقد تقرر مصير الحرب بعد ثلاث ساعات من اندلاعها ، واصبح واضحا ان القوات

المصرية البرية والبحرية ستقاتل في سيناء وفي عرض البحر تحت اقصى الظروف ، وفي غياب اي دعم من قبل سلاح الجو . وبعد ثلاث ساعات تقدم الجنرال مردخاي هود بتقريره الاول الى رئاسة الاركان العامة واعطى الصورة التي لا تكاد تصدق الى كبار القادة العسكريين الذين نقلوا بدورهم ما جاء في التقرير الى وزير الدفاع ورئيس مجلس الوزراء الاسرائيلي . وكان التقرير دقيقا فقد ذكر فيه انه تم تدمير ثلثي سلاح الجو المصري ، (اي حوالى ٣٠٠ طائرة ، تابعة لخط القتال الاول من ضمنها ٣٠ قاذفة قنابل متوسطة بعيدة المدى من طراز « تي يو ـ ١٦ ») . كما تمت مهاجمة ١٧ قاعدة جوية مصرية (٦٢) . وكانت قيادة سلاح الجو الاسرائيلي قد اصدرت تعليماتها الى الطيارين الذين اوكل اليهم مهاجمة المطارات المصرية في سيناء بعدم مهاجمة مدارج مطار العريش والابقاء على ٣٥٠٠ قدم صالحة للهبوط من اصل ٧٠٠٠ قدم هي طول المدرج الرئيسي في قاعدة « جبل لبنى » . وكان الهدف من ذلك هو منع الطائرات المصرية النفاثة من استخدام هذه المدارج وابقائها صالحة لاستقبال طائرات النقل الاسرائيلية من طراز « داكوتا » و« نور اطلس» التي تتطلب ٢٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ قدم فحسب . وقد قدرت هذه القيادة انه اذا ما سارت الخطة الموضوعة كما هو مخطط لها ، فإنها (القيادة العسكرية الاسرائيلية) ستكون بحاجة الى مدارج مطاري « العريش » و « جبل لبنى » لنقل التعزيزات والامدادات جواً الى القوات الاسرائيلية العاملة في جبهات القتال في سيناء (٦٣) .

ومما يجدر ذكره ، ان القيادة الاسرائيلية كانت قد ابقت ١٢ طائرة من طراز « ميراج » لحماية الاجواء الاسرائيلية طوال مدة مهاجمة طائراتها للمطارات المصرية ، حيث استمرت ٨ طائرات منها محلقة في الجو بصورة مستمرة ، في حين ظلت ٤ طائرات على المدارج في حالة استعداد قصوى (٦٤) . اما طائرات « فوغا ماجستير » الستين التي لم تشترك في الهجوم الجوي على مصر ، فقد ظلت على اهبة الاستعداد للمشاركة في الاسناد الجوي القريب للقطاعات البرية . واذا نحن استثنيناها يكون مجموع الطائرات التي شاركت في الهجوم الجوي الخاطف على المطارات المصرية حوالى ٢٤٠ طائرة (٦٥) .

وقد فقدت اسرائيل ، في اليوم الاول ، ٢٦ طائرة مقاتلة تم اسقاطها اما بواسطة طائرات « الميغ » المصرية ، اثناء الاشتباكات الجوية ، او بواسطة وسائط الدفاع الجوي المضادة للطائرات . وكانت القيادة الاسرائيلية قد ذكرت ان معظم الطائرات تقريبا ، وعلى الاخص « المستير » و« الاريغان» التي شاركت في الهجوم الجوي ، قد تعرضت للاصابة ، كل منها اما بطلقة او بعدة طلقات ، لكنها عادت جميعها سالمة الى قواعدها(٦٦) . وقد ذكرت المصادر نفسها ان اصلاح كل من هذه الطائرات واعادتها الى خط القتال الاول كان لا يستغرق اكثر من ساعة واحدة . كما روت هذه المصادر ان كافة الطائرات المصرية التي جرى تدميرها على الارض قد دمرت بواسطة المدافع الرشاشة للطائرات(٦٧) . ومن جهة ثانية ، اعلن الجنرال هود ، قائد سلاح الجو الاسرائيلي ، بعد الحرب ، ان نسبة الطائرات الاسرائيلية الصالحة وصلت في الساعة ٧,٤٥ من صبيحة ١٩٦٧/٦/٥ ، الى ٩٩٪ ، وان اعادة تسليح الطائرات وتزويدها بالوقود واجراء الكشوفات الضرورية عليها بعد كل رحلة جوية قبل انطلاقها مرة ثانية الى الجو ، كانت تستغرق ٧ ـ ١٠ دقائق . كما ذكر ان بعض طياريه قاموا بما مجموعه ٨ طلعات جوية في اليومين الاول والثاني ، وان مجموع الطلعات الجوية التي سجلت في اليومين المذكورين بلغت

حوالى ٥٠٠ طلعة في كل منهما(٦٨) .

الجبهة الاردنية : ٥ حزيران ١٩٦٧ : ظل كل شيء هادئا في هذه الجبهة . وفي الساعة ٩,٠٠ من يوم ٥ حزيران ١٩٦٧ تسلم الملك حسين برقية مستعجلة من المشير عبد الحكيم عامر ، يعلمه فيها بنشوب القتال على نطاق واسع بين القوات المصرية والقوات الاسرائيلية . وفي نهايتها حث المشير عامر الملك حسين على أن يبدأ الاردن عملياته العسكرية فورا ضد اسرائيل ، كما نصت الخطة الموضوعة (٦٩) . وفي الساعة ٩,٣٠ وجه الملك حسين كلمة الى الشعب الاردني عبر الاذاعة الاردنية ، اعلن فيها ان الاردن اصبح في حالة حرب مع اسرائيل ، وانه ، تبعا للاتفاقات الموقعة مع الدول العربية ، سيفي بالتزاماته ، وان القوات الاردنية اصبحت ، منذ تلك اللحظة ، بأمرة الفريق عبد المنعم رياض (٧٠) . وفي وقت لاحق ، وافق الملك حسين على ان يقوم الفريق رياض باتخاذ ما يراه مناسبا لقيام تنسيق فعال مع كل من سوريا والعراق .

وفي الساعة ١٠,٢٠ ، دخل جنود الجيش الاردني المنطقة الحرام من جبل المكبر ، وسيطروا على المقر العام للامم المتحدة فيه (٧١) . وبعد الساعة ١١,٠٠ ، اقلعت الطائرات الاردنية من طراز « هوكر هنتر » من قاعدتها في المفرق ، وهاجمت عدة اهداف عسكرية في قلب اسرائيل . ومن هذه الاهداف اربعة مطارات عسكرية هي : **عين شيمر ـ هيرتزليا ، كفار سيركن ومجدو** ، ثم اعادت مهاجمتها لهذه الاهداف ثلاث مرات . وقد تمكن الطيارون الاردنيون ، في هجومهم على مطار كفار سيركن ، من تدمير طائرتين من نوع « بايبر كاب » وطائرة نقل من نوع « نور اطلس » (٧٢) .

وكان الاردن قد اجرى اتصالا مع القيادتين السورية والعراقية في الساعة ٩,٠٠ ، طالبا القيام بهجمات جوية مشتركة ضد اسرائيل . فأجاب السوريون طالبين منحهم وقتا كافيا لاعداد طائراتهم للعمل . اما العراقيون ، فوافقوا وقالوا أن طائراتهم في طريقها الى قواعدهم المتقدمة . ومرة اخرى ، جرى الاتصال بالسوريين فافادوا بأنهم لا زالوا يعدون الطائرات . لذلك ، وفي الساعة ١١,٠٠ ، امرت الطائرات الاردنية بالتحرك نحو اهدافها المحدده (٧٣) .

والجدير بالذكر ان الملك حسين قدر ، في صبيحة ١٩٦٧/٦/٥ ، انه لو تمكن السوريون من اعداد طائراتهم للعمل في وقت مبكر ، ولو تمكن العراقيون من اعداد طائراتهم المعترضة والقاذفة المقاتلة والقاذفات الخفيفة والمتوسطة بعيدة المدى ايضا في وقت مبكر ، ولو وصلت انباء الهجوم على مصر في اللحظة نفسها التي كانت فيها الطائرات الاسرائيلية تهاجم المطارات المصرية ، لكان بالامكان اعتراضها في طريق عودتها الى مطاراتها او منعها من الهبوط في المطارات المحددة لها ، وذلك عن طريق مهاجمة الطائرات العربية لمدارج مطاراتها . وقد يكون الملك حسين محقا في تصوره ، ولكن غاب عن باله ان مثل هذه الضربة تحتاج الى ما لا يقل عن ٤ اسراب جوية (كل سرب من عشرين طائرة) ، من الانواع القاذفة ـ المقاتلة القادرة على حمل العدد الكافي من القنابل والصواريخ ، والتي بمقدورها الوصول الى المطارات في قلب اسرائيل ، والبقاء محلقة فوقها على الاقل مدة ١٥ دقيقة لاصطياد الطائرات الاسرائيلية ومنعها من الهبوط وهي في طريق عودتها من مصر ، على ان يتم استبدالها بشكل متواصل بغيرها من الطائرات ، حتى لا يترك اي مجال للطائرات الاسرائيلية بالهبوط في مطاراتها . وهنا يجب ان نملك الجرأة

لنقول انه لا سلاح الطيران السوري وقتها كان في وضع يسمح له بالمشاركة في مثل هذه الضربة ، لقصر مدى طائراته القاذفة المقاتلة من نوع « ميغ ـ ١٧ » ولمحدودية حمولتها الخارجية من القنابل ، ولعدم قدرة طياريه على القيام بمثل هذه المهام ، ولا سلاح الطيران العراقي ايضا كان في وضع يؤهله للقيام بهذه الضربة ، وان كانت طائراته من طراز « هوكر هنتر » و « اليوشن ٢٨ » و « تي يو ـ ١٦ » قادرة على ذلك ، فقد كان يفتقر وقتها الى القيادة الجوية الواعية القادرة على تحمل مثل هذه المسؤولية والى العدد الكافي من الطيارين الجاهزين . كما ان الاردن نفسه لم يكن في وضع يسمح له بالنهوض بمثل هذه المسؤولية لمحدودية عدد الطائرات القاذفة ـ المقاتلة التي كان يمتلكها . ولكن ، من ناحية اخرى ، يمكن القول ، استنادا الى المفاهيم الاستراتيجية والتكتيكية ، ان هذه الفكرة تعتبر السلاح المضاد الوحيد والفعال الذي كان بمقدور القيادات العربية ان تنفذها لافشال خطة الحرب الاسرائيلية التي نفذت في تلك الحرب .

وعلى صعيد عمليات سلاح الجو العراقي ، قامت الطائرات العراقية القاذفة المقاتلة بمهاجمة مطار اللد (٧٤) .

وقد ردت اسرائيل على هذه الهجمات الاردنية ـ العراقية ، بهجوم جوي خاطف على مطاري عمان والمفرق . ففي الساعة ١٢,٣٠ ، هاجم تشكيلان من الطائرات الاسرائيلية ، من طراز « ميراج » و « سوبر مستير » ، **قاعدة المفرق الجوية** وتمكنا من مفاجئة الطائرات الاردنية وهي جاثمة على الارض ، بعد ان عادت لتوها الى قاعدتها اثر مهاجمتها عدة اهداف عسكرية اسرائيلية ؛ فهاجم التشكيل الاول مدرج الطائرات ، ثم تلاه التشكيل الاخر فوراً فهاجم الطائرات على الارض ، ونجح في تدمير ٢٢ طائرة اردنية وهي جاثمة على الارض ، هي كل ما يملكه سلاح الجو الاردني من قاذفات مقاتلة . كما استشهد في الهجوم الطيار الاردني الوحيد الذي قتل في الحرب الرائد الطيار فراس العجلوني * . ومن جهة اخرى ، هاجم تشكيل اسرائيلي آخر **قاعدة عمان الجوية والمطار المدني** ، فركز هجماته على المنشآت والابنية وطائرات النقل العسكري وطائرات الخطوط التي كانت جاثمة على ارض المطار الدولي ، كما

---

* فراس العجلوني هو من الطيارين المعروفين شخصياً من الكاتب ، وكان احد طياري دورته ، وكانت تربطه به صلاة اخوية وثيقة وله معه ومع بقية افراد الدورة ذكريات جميلة . فقد امضيا مع بقية افراد الدورة وعددهم ٣ ، معظم اوقات التدريب أكان ذلك في حلب في الكلية الجوية السورية في عام ١٩٥٦ ، او في عمان او في بريطانيا . ان فراس كان يعتبر طيارا ناجحا ذو كفاءة قتالية عالية . اما بقية افراد الدورة فهم :

١ ـ الملازم الطيار مروان زكريا : استشهد في عام ١٩٥٩ في حادث سقوط طائرته وهي من طراز « هوكر هنتر » في خو قرب الزرقاء .

٢ ـ الرائد الطيار نصري حجيوان : طيار ذو كفاءة قتالية عالية ، شارك في معارك حزيران ١٩٦٧ ، وابلى بلاء حسنا ، وتمكن من اسقاط عدة طائرات اسرائيلية . ترك الخدمة مع سلاح الطيران الاردني بعد حرب عام ١٩٦٧ وهو يعمل الآن طياراً مدنيا مع شركات الطيران العربية .

٣ ـ الرائد غازي حامد : احد افراد الأسرة الهاشمية الحاكمة في الأردن . ترك العمل مع سلاح الجو لاسباب صحية وانتقل للعمل في الجيش الأردني قائداً لاحد كتائب المشاة . توفي نتيجة اصابته بمرض السرطان في حوالي العام ١٩٧٥ .

هاجمت طائرتان من التشكيل القصر الملكي في عمان والحقت به بعض الاضرار . وقد نجم عن هذا الهجوم تدمير طائرتي « الويت ٣ » وست طائرات نقل من نوع « داكوتا » وطائرة نقل صغيرة من نوع « دوف » . وفي اثناء الهجمات الجوية التي شنتها الطائرات الاسرائيلية على مطاري عمان والمفرق ، والتي نفذت على دفعتين ، تمت الطلعة الاولى منهما في الساعة ١٢,٣٠ والثانية في الساعة ١٣,١٠ وانتهت في الساعة ١٤,٣٠ ، تم اسقاط ٦ طائرات اسرائيلية ، اربع منها اسقطت في الاشتباك الجوي الذي دار فوق القاعدة بين الطائرات الاسرائيلية ، وثلاث طائرات اردنية كانت عائدة من مهمتها فوق اسرائيل ، واسقطت اثنتان بواسطة المقاومات الارضية [٧٥] . وفي الطلعة الجوية الثانية هاجم تشكيل اسـرائـيلي قاعدة الرادار في عجلون والحق بها اضرارا جسيمة ادت الى تعطيل كافة معداتها وتجهيزاتها [٧٦] .

بعد ان تم تدمير كافة طائرات سلاح الجو الاردني ، طلب من الطيارين الاردنيين الباقين وعددهم ١٤ ، التوجه الى قاعدة « هـ ٣ » العراقية ، حيث تم الحاقهم بسرب عراقي قوامه طائرات من نوع « هوكر هنتر » . وكانت قيادة سلاح الجو العراقي قد نقلت الى قاعدة « هـ ـ ٣ » سربان من طائرات « هنتر » وآخر من طراز « ميغ ٢١ » مع عدد من طائرات النقل [٧٧] .

وعلى صعيد آخر ، ركزت التشكيلات الجوية الاسرائيلية هجماتها على اللواء ٤٠ المدرع الذي تحرك بأمر من القيادة الاردنية في عمان ، للعمل في منطقة جنين ، ليقوم بواجب دفاعي في هذا القطاع الشمالي . كما ركزت تلك التشكيلات هجماتها على اللواء المدرع ٦٠ الذي تحرك ايضا الى منطقة الخليل ليتحمل مسؤولية الدفاع عن هذا القطاع الجنوبي الهام . واتجهت تشكيلات جوية اسرائيلية اخرى لتهاجم اللواء الثامن العراقي وكتيبة تابعة لجيش التحرير الفلسطيني كانت برفقته على الطريق الصحراوي (هـ ـ ٤ ـ المفرق ـ عمان) وكانا في طريقهما الى ارض المعركة في الضفة الغربية . وفي جنين واصلت الطائرات الاسرائيلية مهاجمتها للدبابات الاردنية طوال بعد ظهر اليوم الاول ، فتكبد اللواء ٤٠ خسائر فادحة في معداته واسلحته [٧٨] . ومن جهة اخرى تكبد كل من اللواء ٦٠ واللواء العراقي والكتيبة الفلسطينية خسائر جسيمة في المعدات والتجهيزات والاسلحة ، نتيجة الغارات الجوية المتلاحقة التي ظلت الطائرات الاسرائيلية تشنها طوال بعد ظهر ذلك اليوم وليلة ٥ ـ ٦ حزيران ١٩٦٧ دون توقف [٧٩]

الجبهة السورية : ٥ حزيران ١٩٦٧ : في الساعة ٩,٠٠ من يوم ١٩٦٧/٦/٥ ، طلب الفريق عبد المنعم رياض ، بوصفه قائدا للقوات الاردنية المسلحة ، من القيادة السورية القيام بهجمات جوية اردنية ـ سورية ـ عراقية مشتركة ضد اسرائيل . فردت القيادة السورية بالايجاب ، لكنها طلبت امهالها بعض الوقت لاعداد الطائرات للعمل . وفي الساعة ١١,٤٥ تم تجهيز الطائرات ، فاقلعت ١٢ طائرة من طراز « ميغ ٢١ » من القواعد السورية واتجهت نحو الارض المحتلة ، وبوصولها انقسمت الى عدة مجموعات تولت كل منها مهاجمة الاهداف المحددة لها ؛ فهاجم قسم منها مصفاة النفط في حيفا ، وهاجم قسم آخر قاعدة رمات دافيد ، وقسم ثالث مطار روش بيذا ورابع مطار مجدو ؛ حيث الُحقت بعض الاضرار بالتجهيزات والمنشآت الاسرائيلية [٨٠] . وفي الساعة ١٢,١٥ ، ردت اسرائيل على هذه الهجمات بمهاجمة قواعد جوية

في سوريا هي : المزة ، الضمير ؛ مرج ريال ، صيقل ، ت ـ ٤ ، واستمرت الهجمات مدة ٢٠ دقيقة ، الحقت خلالها خسائر كبيرة ببعض المنشآت العسكرية في المطارات التي هوجمت ، كما جرى تدمير العدد التالي من الطائرات : ٣٢ طائرة « ميغ ـ ٢١ » و٢٣ طائرة « ميغ ـ ١٧ » و « ميغ ـ ١٥ » وطائرتين من نوع « اليوشن ـ ٢٨ » و٣ طائرات هليوكبتر من نوع « مي ـ ٤ » . وفي اثناء هجماتها الجوية المتلاحقة واجهت الطائرات الاسرائيلية المغيرة مقاومة ارضية عنيفة تم خلالها اسقاط ٤ طائرات اسرائيلية من نوع « مستير ٤ أ » (٨١) .

وعندما انهى السلاح الجوي الاسرائيلي جولاته ضد الاسلحة الجوية الثلاثة (المصري ـ الاردني ـ السوري) بنجاح كبير ، واتم تدمير القسم الاكبر من طائراتها القاذفة ـ المقاتلة والقاذفة الخفيفة والمتوسطة ، ركز اهتمامه طوال بعد ظهر اليوم الاول على مهاجمة المطارات المصرية مرة اخرى ، بقصد تعطيلها بصورة نهائية ، وجعلها عديمة الفائدة من الناحية العسكرية (٨٢) . كما اتجهت تشكيلات جوية اخرى من طائراته القاذفة المقاتلة لمهاجمة ١٦ محطة رادار مصرية في شبه جزيرة سيناء ومنطقتي الدلتا والقناة ، بقصد تدميرها وتعطيلها، والحاق افدح الخسائر بأجهزتها الدقيقة (٨٣) ، على حين نشطت طائراته المعترضة من طراز « ميراج ٣ سي » ، التي انتظمت في دوريات قتال جوية ، مواصلة تحليقها في الاجواء الاسرائيلية لتأمين الحماية الجوية اللازمة ولمنع ما تبقى من طائرات عربية ، لا سيما العراقية منها ، وما تبقى من سلاح الجو المصري ، من التسلل الى اجوائها (٨٤) .

ومع انتهاء اليوم الاول ، تمكن سلاح الجو الاسرائيلي من تحقيق نصر معنوي كبير لا يقل اهمية عن النصر الحربي الذي حققه في جبهات القتال الثلاث : فقد تمكن ، بفضل هجماته الجوية الكثيفة المتواصلة ، من التأثير على المعنويات بين الجنود والمدنيين العرب ، حيث كان اول المتأثرين بذلك جنود بطاريات المقاومات الارضية ، الذين خفت نيرانهم ومقاومتهم للطائرات الاسرائيلية المغيرة بشكل ملحوظ ؛ مما منح الطائرات الاسرائيلية حرية اكبر في العمل ضد القوات البرية العربية في الجبهات الثلاث ، لا سيما الجبهتين المصرية والاردنية ، بشكل لم تكن القيادة الجوية في اسرائيل تتوقعه . وهكذا حقق سلاح الجو الاسرائيلي ، في مدة لا تزيد من ١٢ ساعة السيطرة الجوية المطلقة على سماء منطقة الشرق الاوسط .

اليوم الثاني : الثلاثاء ٦ حزيران ١٩٦٧

الجبهة المصرية : واصلت الطائرات الاسرائيلية مهاجمتها للمطارات وقواعد الرادار المصرية في محاولة لتدمير ما تبقى من طائرات واجهزة فيها ، خصوصاً بعد ورود انباء عن وصول عدد من الطائرات الجزائرية الى مصر . كما بدأت الطائرات الاسرائيلية شن الهجمات المكثفة المتواصلة ضد القوات البرية المصرية التي كانت لا تزال قوية وصامدة في جبهات القتال في قطاعات رفح وابو عجيلة والكونتيلا ، على حين اتجهت تشكيلات اخرى من الطائرات المعترضة وطائرات الاستطلاع والتصوير الجوي الاسرائيلية للتحليق عميقا في اجواء بعض الدول العربية وعلى طول الحدود معها ، بقصد جمع المعلومات المطلوبة عن تحركات قواتها العسكرية (٨٥) .

وعلى صعيد آخر ، شنت طائرتان مصريتان من طراز « ميغ ـ ١٧ » في فجر يوم الثلاثاء ١٩٦٧/٦/٦ ، هجوما على القوات الاسرائيلية في قطاع العريش ، وامطرتها بنيران مدافعها

الرشاشة ، ملحقة بصفوفها عدداً من الخسائر البشرية [٨٦] . كما شنت الطائرات المصرية ٣ او ٤ هجمات جوية اخرى على القوات الاسرائيلية في اماكن مختلفة من سيناء [٨٧] .

الجبهة الاردنية : في فجر ٦/٦/١٩٦٧ ، انطلقت طائرة عراقية من القاذفات المتوسطة بعيدة المدى من نوع « تي يو ـ ١٦ » من قاعدة الحبانية في العراق ، واتجهت الى قلب اسرائيل ، حيث نجحت في الوصول الى هدفها في مدينة ناتانيا ، وتمكنت من القاء قنابلها ، فاصابت مصنعا والحقت به اضراراً جسيمة ، والحقت بعماله عدداً من الاصابات . غير ان المقاومات الارضية الاسرائيلية تمكنت من اسقاطها في وادي جزريل [٨٨] . وفي الساعة ٥,٠٠ من اليوم نفسه ، اتجهت اربع مجموعات من الطائرات الاسرائيلية لمهاجمة قاعدة « هـ ـ ٣ » العراقية ، التي بدأ سلاح الجو العراقي يستخدمها في عملياته ضد اسرائيل . وقد اقتصرت هجمات الطائرات الاسرائيلية على هذا المطار لان سائر المطارات العراقية كانت خارج مدى عملها . فتصدت الطائرات العراقية (بطياريها العراقيين والاردنيين) لهذه الطائرات ، ودارت فوق القاعدة معارك جوية حامية ، تمكنت الطائرات العراقية خلالها من اسقاط تسع طائرات اسرائيلية في يوم ٦/٦/١٩٦٧ [٨٩] .

وعلى صعيد الدعم الجوي القريب للقطعات البرية الاسرائيلية ، التي كانت تقاتل في قطاعات جنين وقلقيلية والقدس والخليل ، واصلت طائرات « الفوغا ماجستير » الاسرائيلية مهاجمتها لمواقع الدبابات والمدفعية الاردنية المشتبكة في القتال ولارتال الآليات والدبابات الاردنية المنسحبة والمتقدمة من والى ساحات القتال في الضفة الغربية . وقد ركزت هجماتها بصورة رئيسية على محاور القدس اريحا ـ السلط ، والقدس جسر سويمة ـ ناعور ، ونابلس وادي الباذان ـ جسر دامية ـ السلط ، وجنين ـ نابلس ، وطولكرم ـ نابلس رام الله . كما واصلت هذه الطائرات شن الهجمات المتواصلة على اللواء العراقي الميكانيكي الثامن المتقدم الى الضفة الغربية ويرفقته الكتيبة الفلسطينية على محور عمان ـ السلط ـ جسر دامية [٩٠] ، بينما شنت الطائرات الاسرائيلية من طراز « مستير ٤ أ » و « اوريغان » هجمات بشكل متواصل على القوافل العراقية المتقدمة من العراق الى الاردن على محور « هـ/٣ ـ هـ ـ/٤ ـ المفرق » التابعة للواء المشاة العراقي رقم ٢٧ واللواء المدرع العراقي السادس ، وكان العراق قد حرك هذه القوات لنجدة الجبهة الاردنية بناء على طلب من الفريق عبد المنعم رياض منذ اول يوم من ايام القتال [٩١] .

الجبهة اللبنانية : لم يتحرك سلاح الجو اللبناني في اليوم الاول ، نظرا لصغر حجمه ولعدم تلقيه امراً بالحركة من القيادة العربية المشتركة ، حيث كان لبنان عضوا في هذه القيادة العسكرية . وكان هذا السلاح يتكون ، في صبيحة ٥/٦/١٩٦٧ من ١٢ طائرة مقاتلة معترضة من طراز « ميراج ٣ إي » و٨ ـ ١٠ طائرات « هوكر هنتر » و٦ طائرات قاذفة ـ مقاتلة من طراز « فامبير » و١٠ طائرات هليوكبتر من نوع « الويت » . غير انه في الساعة ٩,٠٠ من يوم ٦/٦/١٩٦٧ ، تحركت طائرتان قاذفتان مقاتلتان من طراز « هوكر هنتر » في دورية حراسة على الحدود الجنوبية ، ودخلتا المجال الجوي الاسرائيلي في الشمال . وعلى الفور تصدت لهما الطائرات المقاتلة الاسرائيلية فحدث اشتباك جوي صغير اسقطت فيه طائرة لبنانية من طراز

« هوكر هنتر » (٩٢) وكان هذا الاشتباك الاول والاخير الذي حدث بين الطائرات الاسرائيلية والطائرات اللبنانية طوال الحرب .

سير الحرب الجوية منذ صبيحة ٧/٦/١٩٦٧ وحتى توقف القتال .

منذ انهت الطائرات الاسرائيلية تدمير كافة المطارات العربية المحيطة باسرائيل والقريبة من ساحات القتال ، والتي كانت تشكل مصدر خطر عليها وعلى قواتها العاملة في ارض المعركة ، حددت مهامها القتالية منذ صبيحة ٧/٦/١٩٦٧ باربع رئيسية هي :

١ ـ تقديم الدعم الجوي للوحدات المدرعة الاسرائيلية العاملة في جبهتي القتال الاردنية والمصرية .

٢ ـ مطاردة وتدمير الطائرات العربية التي تظهر في الجو ، والتي نجت من الضربة الاولى .

٣ ـ قصف خطوط الدفاع والمواقع السورية في مرتفعات الجولان ، تمهيدا للهجوم المرتقب . فتعرضت هذه الخطوط الدفاعية لأعنف الهجمات واشدها في يومي ٧ و٨/٦/١٩٦٧ .

٤ ـ مطاردة فلول القوات المصرية المنسحبة غربا في سيناء، ومنعها من العبور للضفة الغربية لغرض تدمير دروعها ووحدات مدفعيتها واسلحتها الثقيلة الاخرى لاعطاء التشكيلات البرية الاسرائيلية فرصة لأسر اكبر عدد ممكن من القوات المصرية وما ينجو من هذه الاسلحة . ومطاردة فلول القوات الاردنية المنسحبة شرقا والاجهاز على وحداتها المدرعة وبطاريات مدفعيتها قبل تمكنها من عبور نهر الاردن الى الضفة الشرقية .

وهكذا ، ومع طلوع فجر ٧/٦/١٩٦٧ ، انقسم سلاح الجو الاسرائيلي الى ثلاث مجموعات :

المجموعة الاولى : وجهت لتهاجم الجبهة المصرية .

المجموعة الثانية : وجهت باتجاه الجبهة الاردنية .

المجموعة الثالثة : وجهت شطر مرتفعات الجولان لتليين الدفاعات السورية .

وفيما تبقى من ايام في هذه الحرب القصيرة اي منذ ٧/٦/١٩٦٧ ، تمكنت الطائرات المصرية من التحليق في الجو بما مجموعه ٨٠ طلعة جوية ، كان اكثرها في محاولة لتقديم الدعم الجوي للقوات المصرية المنسحبة غربا في سيناء (٩٣) .

اما في الجبهة الاردنية فقد حاولت ٦ طائرات اسرائيلية يوم ٧/٦/١٩٦٧ ، من طراز « فوتور » و« ميراج » ، الاغارة على قاعدة « هـ ـ ٣ » مرة ثانية ، الا ان الطيارين الاردنيين والعراقيين تصدوا لها بطائرات « هوكر هنتر » و« ميغ ـ ٢١ » ، فدارت فوق المنطقة معركة جوية اسقطت فيها ٤ طائرات اسرائيلية ، قتل اثنائها طياران واسر اثنان . غير ان اسرائيل ادعت انها فقدت ٣ طائرات : اثنتين من طراز « فوتور » وطائرة واحدة من طراز « ميراج ٣ سي » (٩٤) . وهكذا ، اوقفت القيادة الجوية في اسرائيل نشاطاتها الجوية ضد قاعدة «هـ ـ ٣ »

ولم تحاول طائراتها الاقتراب منها حتى نهاية الحرب .

الجبهة السورية : ١٩٦٧/٦/٩ : لم تبدأ الهجمات البرية الاسرائيلية على الجبهة السورية الا في صبيحة يوم الجمعة ١٩٦٧/٦/٩ ، بعد ان انهارت جبهتا القتال المصرية والاردنية ، وتمكنت القوات البرية الاسرائيلية من الوصول الى مشارف القناة واحتلال شرم الشيخ وكافة الاراضي المصرية في شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة ، واحتلال الضفة الغربية بكاملها ، وبعد سيطرتها الكاملة على كامل التراب الفلسطيني ، وعلى الرغم من اعلان سوريا موافقتها على وقف اطلاق النار في الساعة ٤,٣٠ من صباح ١٩٦٧/٦/٩ . ففي الساعة ٩,١٥ من اليوم نفسه ، بدأت اعداد كبيرة من الطائرات الاسرائيلية مهاجمة المدن والمواقع العسكرية والقيادات وخطوط الدفاع السورية بقنابلها من عيار ٢٥٠ و٥٠٠ و١٠٠٠ رطل ، وبقنابل النابالم ، لتمهيد الطريق لجنود المشاة والمظليين الاسرائيليين الذين بدأوا اقتحام الهضبة من ثلاث نقاط عبر المحاور التالية :

المحور الاول في القطاع الشمالي من الجبهة : حيث خرقت القوات الاسرائيلية خطوط الدفاع السورية في مواجهة تل ابو خنزير في سهل الحولة ، وتقدمت باتجاه بانياس ومسعدة والقنيطرة .

المحور الثاني في القطاع الاوسط من الجبهة : حيث تقدمت القوات الاسرائيلية عبر جسر بنات يعقوب باتجاه كفر تفاح ثم القنيطرة .

المحور الثالث في القطاع الجنوبي من الجبهة : حيث تمكنت القوات الاسرائيلية من التقدم على محور فيق ـ العال ـ تل الفرس والقنيطرة .

ولم توقف القوات الاسرائيلية هجماتها الا في مساء يوم ١٩٦٧/٦/١٠ ، بعد صدور عدة قرارات عن مجلس الامن .

لقد استخدمت اسرائيل سلاحها الجوي على نطاق واسع ، في ايام ٧ و٨ و٩ و١٩٦٧/٦/١٠ ، ضد المدن والقواعد الجوية والاهداف الحيوية الاقتصادية والعسكرية السورية . وقالت التقارير الاسرائيلية ، بعد الحرب ، ان القتال في الجبهة السورية كان الاكثر دموية .

وهكذا تقرر مصير هذه الحرب التي بدأها سلاح الجو الاسرائيلي يوم الاثنين ١٩٦٧/٦/٥ في الساعة ٨,٤٥ بتوقيت القاهرة عمليا ، بعد اقل من ثلاث ساعات من بدئها ، وتمكن في ساعات معدودة من حسمها لصالح اسرائيل، فظل هذا السلاح خلالها نشيطاً وفعالاً حتى اوقف نشاطه تماما يوم السبت ١٩٦٧/٦/١٠ (الساعة ١٩,٣٠) . ويجدر بنا ذكر ما اورده عيزر وايزمن في مذكراته ، من انه ابلغ زوجته هاتفيا في الساعة ١٠,٠٠ من صبيحة ١٩٦٧/٦/٥ بتوقيت اسرائيل بقوله لها : « استطيع ان ابلغك اننا ربحنا الحرب »(٩٥) .

وهنا نود ان نشير الى انه ليس صحيحا ما شاع وقتها من ان طائرات تابعة لدول اجنبية قد شاركت في القتال ؛ ان هذه الضربة الجوية الاجهاضية كانت حصيلة جهد متواصل استمر

١٦عاما .وكما قال عنها الجنرال مردخاي هود ،قائد سلاح الجو الاسرائيلي آنذاك، بعد توقف القتال : « امضينا ١٦ عاما نعمل بصمت وجد .لقد عشنا واكلنا ونمنا مع الخطة ، وكنا نعمل على اكمالها دون انقطاع » (٩٦) لقد تضافرت جهود كافة القيادات والاسراب والاقسام لتنفيذ الخطة ، التي كان من أسباب نجاحها :

١ ـ تحضير جيد للهجوم وانتقاء بارع للاسلحة التي ساهمت فيه .

٢ ـ القيادة الكفوءة والتخطيط الجيد .

٣ ـ اجهزة استخبارية ناجحة قدمت ادق المعلومات عن الاسلحة الجوية والجيوش العربية ، بالاضافة الى تقييم دقيق للوضع (اشرنا الى ذلك فيما مضى) .

٤ ـ طيارون بمستوى قتالي جيد نفذوا الخطة الموضوعة بنجاح .

٥ ـ تفوق نوعي في اعداد الاسلحة والمعدات والاجهزة الالكترونية الحديثة في الجانب الاسرائيلي ، يقابله عجز وتقصير واهمال في الجانب العربي .

٦ ـ انهيار تام للقيادات العربية العسكرية والسياسية في الساعات الاولى لاندلاع القتال .

٧ ـ ظروف واوضاع عربية مؤاتية ، اجادت اسرائيل في استغلالها .

٨ ـ ظروف واوضاع دولية مؤاتية بالاضافة الى الدعم الاميركي المادي والمعنوي .

وعلى الرغم من الانتصار الساحق الذي حققته القوات المسلحة الاسرائيلية ، فقد بالغت اسرائيل في استخدام اجهزة التشويش الالكترونية ، ان كان ذلك ضد اجهزة الرادار او كان ضد الصواريخ الموجهة او ضد الاجهزة السلكية واللاسلكية . ولم يعد سرا انها استخدمت في هذه الحرب ثلاث طائرات من نوع « داكوتا » مجهزة بأجهزة التشويش الالكتروني ، وتمكنت بواسطتها من التشويش على بعض اجهزة الرادار المصرية ، وذلك عن طريق القاء كميات كبيرة من القطع المعدنة في الجو (٩٧) .

ان التشويش على اجهزة الرادار لم يعد شيئا خارقا ومستغربا في حروبنا المعاصرة ، في ظل التقدم التقني والعلمي الذي حققته البشرية . الا انه ليس صحيحا ان ما اصاب القيادات والجيوش العربية من فوضى وعجز وارباك كان حصيلة تدخل اجهزتها . لان هذا الارتباك نجم عن انهيار القيادات العسكرية العربية وتقصير القادة الكبار ، حيث لعبت الصدفة دورها بعد ذلك ولا شيء غيره .

وهناك عامل آخر نود التطرق اليه ، هو سفينة التجسس الاميركية « ليبرتي » (Liberty) المجهزة بأدق الاجهزة الالكترونية التي اكتشفتها الطائرات الاسرائيلية ابان احتدام القتال في سيناء في المياه الاقليمية لسيناء بعد ظهر يوم الخميس ١٩٦٧/٦/٨ ، معتقدة انها سفينة حربية مصرية ، مما دفع طائرتين اسرائيليتين من طراز « ميراج » الى مهاجمتها بأمر شخصي من الجنرال دايان (٩٨) . فالحقت بها خسائر مادية وبشرية كبيرة . فبالاضافة الى الاضرار التي

الحقت بالسفينة بلغت الخسائر في طاقمها ٣٤ قتيلا و٧٥ جريحا (٩٩). فهذه السفينة تابعة للمخابرات المركزية الاميركية ، واغلب الظن انها ارسلت الى المنطقة لتراقب تطورات الحرب عن كثب. وربما تواجدت في المياه الاقليمية لسيناء وعلى مسافة ١٤ كم من العريش، لاطلاع المسؤولين في واشنطن ، اولاً بأول ، على تطورات المعارك الدائرة ، بالاضافة الى قيامها ببعض التجارب والاختبارات الفعلية على اجهزتها ومعداتها . ولا يستبعد ان تكون مهمتها ايضا قد اشتملت على جمع المعلومات الدقيقة ، عن عمل ودور الاسلحة السوفياتية في الحرب . ومهما يقل عن السفينة «ليبرتي »، فإن دورها في الحرب سيظل لغزا محيرا ، وستظل كافة التفسيرات التي صدرت عن دورها في الحرب مجرد تكهنات واستنتاجات لا تستند الى اية حقيقة . وربما يجيء الوقت لاماطة اللثام عن ذلك في المستقبل .

على اية حال ، فقد نقل الانتصار الذي حققته الطائرات الاسرائيلية ، سلاح الجو الاسرائيلي من واقــع الى واقع . فقد تمكن في خلال الساعـات الاولى من صبيحـة ١٩٦٧/٦/٥ ، وفي خلال ٣ ساعات ، من توجيه ضربة قاضية لسلاح الجو المصري وفي اقل من ساعة واحدة ، اتمت طائراته القضاء على سلاح الجو الاردني واخراج سلاح الجو السوري من المعركة بعد الحاق افدح الخسائر بصفوفه .

وفي صبيحة ١٩٦٧/٦/١١ كان مجمل الخسائر على النحو التالي :

مصر	: ٣٣٨ طائرة + ٢٣ محطة رادار	(٦١ في المعارك الجوية)
سوريا	: ٦٠ طائرة	١٦ طائرة هو مجموع
الاردن	: ٢٩ طائرة	ما اسقط لهذه الاسلحة
العراق	: ١٧ طائرة	الجوية العربية الاربعة
لبنان	: طائرة واحدة	(مجتمعة) في الاشتباكات الجوية .

اسرائيل : ٥٠ طائرة (اكثر من ١٢ طائرة اسقطت في الاشتباكات الجوية)*(١٠٠)

وعلى الرغم من هذه الخسائر الضخمة ، فقد احتفظ سلاح الجو المصري بحوالى ٢٠٠ طائرة صالحة للاستعمال من انواع مختلفة . فكانت هذه الطائرات اما في اليمن ، او من تلك التي جرى تهريبها الى مطارات الدول العربية المجاورة . كما ان سلاح الجو السوري تمكن من تهريب حوالى ٦٠ طائرة معترضة وقاذفة ـ مقاتلة الى مطاراته الشرقية البعيدة عن مدى الطائرات الاسرائيلية . على حين ظل سلاح الجو العراقي سليما ويتكون من ٢٠٠ طائرة حربية . اما سلاح الجو الاسرائيلي ، فكان يمتلك ، في ١٩٦٧/٦/١١ ، حوالى ٣٠٠ طائرة حربية ، بينما تم تدمير سلاح الجو الاردني والقضاء على كافة طائراته وهي جاثمة على الارض .

وخلاصة القول ان اسرائيل خرجت من الحرب مزهوة بانتصارها العسكري . فبعد ان

---

* تقدر المصادر الاجنبية ان الرقم الحقيقي لخسارة اسرائيل من الطائرات في حرب حزيران يفوق الرقم الذي اعلنته المصادر الاسرائيلية . وهو : ٤٠ طائرة + ١٠ طائرات اخرى جرى شطبها لاسباب غير معروفة (١٠١) .

كانت محاصرة بين ثلاثة جيوش عربية (مصر ـ الاردن ـ سوريا) وتفتقر الى العمق الاستراتيجي ، ومهددة من قبل الطائرات والمدفعية العربية ، اصبحت ، بعد توقف القتال في مساء ١٠/٦/١٩٦٧ ، في وضع استراتيجي جيد جدا ، حيث شكلت الاراضي العربية التي ضمتها حاجزاً يقيها تهديدات تلك الجيوش ، كما امنت لها عمقا استراتيجيا مثاليا واصبحت هي التي تهدد بعدما كانت مهددة ، تقف طائراتها ومدفعيتها على بعد اميال ودقائق معدودات عن المدن الرئيسية والعواصم العربية .

---

(١) Robert Jackson, «*The Israeli Airforce Story*», London, Tom Stacey LTD, 1970, pp. 158- 164.

(٢) *Ibid.*, pp. 160- 161.

(٣) «الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧»، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٩، ص ٥٨٦ ـ ٥٨٨.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 163.

(٦) «الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧»، مصدر سبق ذكره، ص ٥٨٨.

(٧) Edgar O'Ballance, «*The Third Arab Israeli War*», Faber + Faber, London, 1972, pp. 19 - 22.

(٨) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 161- 162.

(٩) «الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧»، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩٢.

(١٠) المصدر نفسه ص ٢٣١.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٥٣.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(١٣) Edgar O'Ballance, op. *Cit.*, p. 24.

(١٤) «الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٣.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٦٦.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٢٨٧.

(٢٠) «*The Military Ballance*», The International Institute For Stratigic Studies, London, 1967, p. 41.

(٢١) Robert Jackson, *Op. Cit*; p. 158.

(٢٢) «The Military Ballance», *Op. Cit., pp. 37- 38.*

(٢٣) *Ibid.*

(٢٤) *Ibid.*, p. 41.

(٢٥) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 62. + Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 168.

(٢٦) Edgar O'Ballance, *op. cit.*, pp. 60- 61.

(٢٧) Edgar O'Ballance, *op. cit.*, p. 61 Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 193

(٢٨) Robert Jackson, *Op. Cit.*, pp. 61- 62 + Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, pp. 171

(٢٩) *Ibid.*, p. 169.

(٣٠) *Ibid.*, p. 176.

(٣١) *Ibid.*

(٣٢) *Ibid.*, pp 176- 177.

(٣٣) *Ibid.*, p. 177.

(٣٤) *Ibid.*

(٣٥) *Ibid.*

(٣٦) *Ibid.*, p. 179.

(٣٧) *Ibid.*, pp. 180- 181.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ١٨١ .

(٣٩) المصدر نفسه.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ١٧٦.

(٤١) « الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧» مصدر سبق ذكره، ص ٢٦٩، ٦٩١، ٦٩٢، ٧٠١، ٧٠٢، ٧٢٥، ٧٤٧، ٧٧٥.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٩، ٧٧٥.

(٤٣) Shimon Peres, «*David's Sling*», Weidenfield and Nicolson, Grest Britain, 1970, p. 64.

(٤٤) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 182.

(٤٥) *Ibid.*, pp. 182- 183.

(٤٦) *Ibid.*, pp. 188- 191.

(٤٧) *Ibid.*, pp. 188- 189.

٤٨) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 64.

(٤٩) *Ibid.*, pp. 65- 66.

(٥٠) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 192.

(٥١) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 65.

(٥٢) *Ibid.*

(٥٣) *Ibid.*, p. 63.

(٥٤) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 187.

(٥٥) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 63.

(٥٦) Robert Jackson, *Op. Cit.*, pp. 187- 188.

(٥٧) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, pp. 65- 66.

(٥٨) يشعياهو بن- بورات وآخرون، «انشاء وتطوير سلاح الطيران الاسرائيلي»، بيروت، دار العودة، ١٩٧٢، ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٥٩) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 66.

(٦٠) *Ibid.*, p. 67.

(٦١) «الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧»، مصدر سبق ذكره، ص ٦٠٧.

(٦٢) يشعياهو بن ـ بورات وآخرون، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٦٣) Robert Jack 50 , *Op. Cit.*, pp. 190- 191

(٦٤) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 66.

(٦٥) *Ibid.*, pp. 66- 67.

(٦٦) *Ibid.*, p. 67: + Randolph S. Winston S. Churchill, «*The Six Day War*», London, Heinemann, 1967, p. 88.

(٦٧) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 67.

(٦٨) R.W. Churchill, *Op. Cit.*, pp. 88- 92- 93.

(٦٩) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, pp. 68- 69.

(٧٠) *Ibid.*, P. 69.

(٧١) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 192.

(٧٢) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 70 + Hussein of Jordan, «*My War With Israel*», London, Peter Ovven L.T.D., 1967, pp. 63- 65.

(٧٣) Hussein of Jordan, *Op. Cit.*, pp. 63- 64.

(٧٤) *Ibid.*

(٧٥) *Ibid.*

(٧٦) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 70

(٧٧) *Ibid* .p.71

(٧٨) Hussein of Jordan., *Op. Cit.*, pp. 70- 79.

(٧٩) *Ibid.*

(٨٠) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, pp. 71- 72.

(٨١) Robert Jackson, *Op. Cit.*, pp. 194- 195.

(٨٢) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, pp. 72- 73.

(٨٣) *Ibid.*

(٨٤) *Ibid* .

(٨٥) *Ibid.*, p. 77.

(٨٦) *Ibid.*

(٨٧) *Ibid.*

(٨٨) *Ibid.*, p. 76.

(٨٩) Hussein of Jordan, *Op. Cit.*, pp. 74- 75.

(٩٠) *Ibid.*, p. 105.

(٩١) *Ibid.*

(٩٢) انظر: (أ) «الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٦٧»، ص ٣١٣؛ب O'Ballance, *op. cit., p. 76, 77.*

(٩٣) *Ibid.*, pp. 77, 81- 82.

(٩٤) *Ibid.*, p. 82.

(٩٥) عيزر وايزمن ودوف غولدشتاين، «لك السماء لك الارض»، تل ـ ابيب، مكتبة معاريف، ١٩٧٥، ص ٢٦٩.

(٩٦) R. W. Churchill, *Op. Cit.*, p. 91.

(٩٧) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 195.

(٩٨) «النهار»، بيروت، ١٩٧٧/٩/١٩.

(٩٩) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 217.

(١٠٠) Edgar O'Ballance, *Op. Cit.*, p. 82.

(١٠١) Robert Jackson, *Op. Cit.*, p. 218.

عبد الحفيظ محارب

العلاقات بين الهجناه واتسل حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية

تعتبر فترة الاعوام الثلاثة الاولى لقيام اتسل * ، فضلا عن كونها مرحلة اختبار صعب مرت بها المنظمة الوليدة لتثبيت اقدامها داخل اليشوف اليهودي ، مرحلة جديدة بالنسبة لعلاقاتها مع منظمة الهجناه ، تختلف من حيث درجة تفاقم الخلافات بينهما ، وطرق معالجتها والنظر اليها . ففي هذه الفترة ، اصبح اليشوف اليهودي يحتضن منظمتين ، تتجانس وتتماثل كل منهما ، بهذا المقدار او ذاك ، مع الحركة السياسية المسيِّرة لها اكثر من السابق ، وتتنافسان لبسط نفوذهما على اليشوف اليهودي والسيطرة عليه .

كان للتطور الداخلي لمنظمة اتسل ، وتبنيها سياسة كسر الهفلجاه ، كما كان لتباين النظرة بين التيارين المسيرين لكلا المنظمتين تجاه القضايا السياسية ، ومساعي قيادة الهجناه والحركة العمالية الرامية الى وضع حد لوجود منظمة عسكرية ثانية ، او على الاقل تحجيمها ، الفضل في ايصال العلاقات ، بين المنظمتين ، الى درجة من الشدة والتوتر وضعت اليشوف اليهودي على شفا الحرب الاهلية . وعلى الرغم من نجاته ، في هذه الفترة ، من هذه الحرب التي اقتصرت على اعمال الاختطاف المتبادل ، الا ان هذه الفترة كانت بمثابة تمهيد لاقتتال اعنف واخطر في الاربعينات .

تطور اتسل

واجهت اتسل جملة من القضايا الداخلية من بينها موضوع العلاقة مع الحركة التصحيحية وزعيمها ، اثرت بشكل كبير على مسار تطورها ، ومن ثمَّ على علاقاتها مع الهجناه . وعلى الرغم من ان المنظمة غدت ، عقب انشقاق المنظمة « ب » على ذاتها ، اكثر تجانساً وتماثلاً مع قيادتها السياسية؛ الا ان علاقاتها، مع هذه القيادة، كانت بحاجة الى ضوابط واضحة وثابتة . ولم يكن ذلك بالامر الهين ، فزعيمها السياسي والعسكري (القائد الاعلى) جبوتنسكي

* فصل من كتاب للمؤلف، سيصدر عن مركز الابحاث.

يعيش خارج فلسطين، وليس بوسعه احكام سيطرته عليها، كما ان العلاقات بين القيادة العسكرية لاتسل وقيادة الحزب التصحيحي ، في فلسطين ، التي شكلت ، من بين صفوفها ، لجنة سياسية للاشراف على المنظمة لم تكن ، دائماً ، مرضيةً للطرفين؛ وذلك لاعتقاد القيادة العسكرية بان قيادة الحزب التصحيحي تميل نحو « الاعتدال » . وقد بذل جبوتنسكي جهوداً لايجاد حلول تحكم العلاقات بين التنظيمات المنضوية تحت لواء الحركة التصحيحية ، غير انه لم ينجح كثيراً في هذا المجال لبعده عن فلسطين وبهوت صورته ، في اواخر الثلاثينات ، وحتى بعد موته ، في نظر عدد من انصاره ، ومن بينهم الزعامة العسكرية لا تسل التي اخذت تجنح ، اكثر فأكثر ، نحو الاستقلالية ، وتحاول توجيه الحزب التصحيحي بدل ان يقوم هو بتوجيهها .

وربما كان النجاح الذي احرزه جبوتنسكي في جهوده هذه ، يتمثل في ارساء علاقة متينة بين اتسل وحركة بيطار التي تحتضن شبيبةالحركة التصحيحية، وقد ساعده في ذلك واقع التوجه العسكري لكلا المنظمتين ، فأسس العلاقة بينهما في احدى رسائله ، اواخر العام ١٩٣٨ ، التي يقول فيها : «... في المنفى، تسخر جميع فروع الحركة لمبدأ التثقيف العسكري . وفي البلاد تسخر جميعها لمبدأ الدور العسكري . وبكلمات اخرى .... في المنفى تسيطر حركة بيطار ، وفي البلاد تسيطر اتسل . وهذا يعني ان اتسل تسيطر في البلاد ، وبكل المسؤولية ، على جميع فروع الحركة ، وايضاً على الاقتصاد ، وسرايا التجنيد ، وأيضاً على تثقيف الاطفال»[1].

ولعل في واقع هيمنة اتسل على حركة بيطار في فلسطين ، ما دفع قيادتها العسكرية الى الجنوح نحو مزيد من الاستقلالية عن قيادة الحزب التصحيحي .

الى جانب ذلك ، لم تكن القيادة العسكرية ، في المراحل الاولى من قيام اتسل ، من طينة متجانسة ؛ الامر الذي اثر على تطور التنظيم وساعد على توسيع الهوة مع الهجناه . فقد تزعم اتسل عند قيامها شخص يدعى روبيرت بيتكر [2] ، قدم الى فلسطين حديثاً من شنغهاي في الصين ، بعد ان شغل هناك منصب مندوب حركة بيطار . وكان بيتكر ، وهو من مواليد روسيا ، قد انضم الى جنود « الجيش الابيض » الذين قاوموا الثورة البلشفية التي قادها لينين . ثم توجه ، بعد فشل « الجيش الابيض » ، الى الصين واقام في المنطقة الخاضعة للنفوذ البريطاني حيث انضم الى القوات البريطانية فوصل الى رتبة كولونيل ، ثم اصبح مندوباً لحركة بيطار في الصين . وعند وصوله الى فلسطين في فترة انشقاق « المنظمة ب » على نفسها ، اصبح من الشخصيات العسكرية الاوفر حظاً لقيادة المنظمة الجديدة على الرغم من انه لا يتقن اللغة العبرية وغير محيط بالواقع الفلسطيني وتطور اليشوف اليهودي . وقد استنّ ، خلال فترة قيادته ، رتباً عسكرية لعناصر وقادة اتسل [3] لاضفاء مزيد من الروح العسكرية على المنظمة ، واستن ، الى جانب ذلك ايضاً ، ودشّن بنفسه ، اعمال السطو والسلب ، حين نظم مجموعة من خريجي « عصبة الاشداء » للسطو على « بنك العمال » التابع للهستدروت العمالية والواقع وسط تل - ابيب . وتمكن افراد المجموعة من الاستيلاء على حقيبة تحتوي على مبلغ ٤٥٠٠ جنيه ، إلا أنهم اصطدموا مع المارة الذين قبضوا عليهم وسلموهم الى الشرطة . وكانت هذه العملية فاتحة لعمليات سطو اخرى كثيرة قامت بها اتسل ضد البنوك والمؤسسات في فلسطين ، وتركت ، في حينه ، اثراً سيئاً ، بين صفوف اليشوف اليهودي ، تجاه افراد المنظمة ، واثارت غضب قادة الهجناه الذين اعتبروا ان عملية السطو جرت ضد مؤسسة خاضعة لهم ويغرض

خدمة الأهداف السياسية لاتسل ، كما اثارت انفعال اوساط كثيرة وبخاصة لأن اسماء المقبوض عليهم كانت لا تزال عالقة في اذهان الكثيرين ، منذ محاكمة المتهمين باغتيال ارلوزوروف (٤) .

ومن الجدير بالذكر ، ان محاولة السلب هذه لم تكن أولى عمليات المنظمات الصهيونية المسلحة : فقد سبقتها عملية سلب « يتيمة » قامت بها منظمة الهجناه في اواخر عام ١٩٢٧ ، عرفت باسم عملية « اكس » (٥) ضد عصابة يهودية كانت تقوم بتهريب الذهب من بيروت الى فلسطين ، واستولت على ١٥ الف ليرة ذهبية ، مبررة عملها بالحاجة لشراء الاسلحة . و قد برر بيتكر عمله ، الذي لم يستشر به مجموعة القيادة المنافسة له ، بالحاجة الماسة للاموال، خصوصاً وان خزينة منظمته كانت شبه خاوية على اثر انشقاق « المنظمة ب » .

في الوقت نفسه ، تعرضت اتسل ، وكذلك قيادة بيتكر لهزة اخرى ، اساءت الى سمعة المنظمة الوليدة، والى قائدها بالذات بين جمهرة اليشوف؛ وتمثلت هذه الهزة بقضية «تسفي فرنكل » الشبيهة ، الى حد ما ، من حيث تبعاتها وبعض جوانبها ، بقضية الشاب الذي حكم عليه يوسف هخت باعدام نفسه . وتتلخص القضية في ان المدعو فرنكل ، احد عناصر اتسل ، اطلق ، بحكم ايمانه بضرورة كسر « ضبط النفس » ، النار من مسدسه على احد المواطنين العرب، من بلدة صمويل العربية ، فارداه قتيلاً ، ولاذ بالفرار . وتمكنت الشرطة من العثور على مسدسه في بيته ، في الوقت الذي تسترت فيه اتسل على المكان الذي يختبىء فيه . ويبدو ان بيتكر تخوف من اكتشاف امر فرنكل او من ان يقوم هو بتسليم نفسه للسلطات البريطانية ، ويقدم معلومات عن المنظمة ، فقرر التخلص منه بطريقة فريدة إذ القاه في نهر العوجا مربوطا بالحديد ، في محاولة منه لطمس معالم الجريمة . و لسوء حظه ، عادت الجثة ، بعد فترة ، وطفت على وجه الماء ، وعثر عليها ، في الثامن من ايلول ١٩٣٧ ، حيث تم التعرف على هوية صاحبها (٦) . ولم يتمكن بيتكر من تبرير عمله ازاء سخط اليشوف اليهودي من جهة ، واستغلال مجموعة القيادة المنافسة له للحادث من جهة اخرى ، ففضل الهرب من فلسطين ... (٧) وانتقلت القيادة الى موشيه روز نبيرغ الذي وجد نفسه ، بعد مدة ، ينتهج خطاً ، تجاه الهفلجاه ، مغايراً بعض الشيء لخط مجموعة القيادة المنافسة له .

كسر سياسة « ضبط النفس »

مثلما تعتبر معارضة الهفلجاه والتصدي لها من الاسباب الرئيسية لانشقاق « المنظمة ب » وولادة اتسل ، فانها تعتبر ايضاً المبرر الاساسي لوجود المنظمة الاخيرة . ولذا فإن التنظيم الوليد انهمك ، منذ تأسيسه ، في العمل لكسر سياسة الهفلجاه ، وساعده ، في ذلك ، تجانس نظرة اعضائه ومعظم قيادته تجاه تحقيق هذا الهدف ، فضلا عن تثقيف العناصر ، في بداية بلورة التنظيم ، على الفكرة القائلة ان « كمية الدم المسفوك هي الاختبار الوحيد للفعل التاريخي ... وليس مهماً جوهر هذا الدم » (٨) . وقد تعزز توجه التنظيم الوليد ، ايضاً ، بأشعار الكاتب اليهودي جرينبيرج الذي اصدر ديوان شعر ، صيف عام ١٩٣٧ (٩) ، يعكس التطرف الصهيوني باجلى صوره .

اتخذت الاعمال « الانتقامية » او عمليات كسر « ضبط النفس » اشكالاً عدة ، من بينها اقتناص اي عربي ، بغض النظر عن السن والجنس ، في الامكنة التي يمكن فيها للجاني

القرار ، ومن بينها ايضاً القاء قنبلة على مقهى عربي ، او وضع مواد ناسفة في اسواق الخضار واماكن التجمع ، في المدن العربية الرئيسية مثل يافا وحيفا والقدس ، او نصب كمين لباص عربي . ونجم ، عن بعض هذه العمليات ، ازهاق ارواح العشرات من المدنيين العرب ، وكانت فاتحة هذه العمليات ، عملية نفذتها اتسل في تل ـ ابيب في شهر حزيران عام ١٩٣٧ حين اطلق افرادها الرصاص على بائع خضار عربي ، واصابوه بجراح بليغة (١٠) .

اعتبرت الهجناه عمليات اتسل هذه بمثابة ارهاب ، وجرائم من شأنها الحاق الضرر بالمشروع الصهيوني ؛ وذلك لانها تتيح للبريطانيين ان يتدخلوا في شؤون اليشوف اليهودي . اما جبوتنسكي ، القائد الاعلى لاتسل ، فيبدو انه كان على خلاف مع مجموعة قيادة اتسل تجاه هذا الموضوع ولم يكن مستقراً على راي واضح تجاهه ؛ اذ يجد المرء تناقضاً ، بين مواقفه المعلنة وبين رسائله المتعلقة بقضية « ضبط النفس » . ففي خطاب له في وارسو ، سخر من سياسة « ضبط النفس » التي تنتهجها الهجناه ، مشبها الدور الذي يلعبه اليهودي ، بموجبها ، بدور الفأر « تعلمون ، ان مجموعات من الاشخاص في البلاد ، بضعة آلاف ، مسؤولون عن كسر الهفلجاه ، تلك الهفلجاه التي قام فيها اليهودي بدور الفار ، في حين كان العربي سيد البيت في المدينة. لقد كان اليهود منهمكين في اشعال الشموع تخليداً لذكرى الشهداء فقط»(١١) اما في رسائله الى قادة اتسل، او في احاديثه اثناء اجتماعاته معهم، فقد كان يتخذ موقفاً مغايراً: ففي اعقاب ارتكاب جماعته عملا فظيعاً ضد العرب، وجه تحذيراً لدافيد رزيئيل، القائد الثالث لاتسل، يقول فيه: «يجب ان لا يتكرر ذلك ثانية». واوصى بتحذير السكان العرب، ودعوتهم لاخلاء المنطقة المعرضة لعمل انتقامي. ولم يكترث رزيئيل المؤيد للهفلجاه بأمر «القائد الاعلى» مما يدل على مدى استقلالية اتسل عن الحركة التصحيحية، ويتضح ذلك من تعليقه على تحذير قائده: «من الواضح ان جبوتنسكي لا يوضح لنفسه الشيء الذي يريد منا القيام به. ربما ينصحنابإبلاغ العرب سلفاً متى واين بالضبط نعتزم الهجوم، او بتقديم اسماء وعناوين المهاجمين اليهم!»(١٢). وفي اجتماع له، عقده، في شهر حزيران ١٩٣٧، مع مسؤولين عن منظمته، لم يبد جبوتنسكي حماساً تجاه كسر الهفلجاه، وفق طريقة اتسل، فقد قال: «لا اعرف ما هي البطولة في اطلاق الرصاص نحو ظهر فلاح يجلب الخضار على حمار، ليبيعها في تل ـ ابيب ،كما انني لا اعرف ما هي الفائدة العامة من ذلك الامر»(١٣). ويمكن القول ان جبوتنسكي لم يكن متحمساً كثيراً لكسر سياسة الهفلجاه، بفعل عاملين(١٤):

١ ـ التخوف من ان يؤدي تعاظم الاعمال الارهابية الى تصفية اتسل على يد البريطانيين .

٢ ـ التخوف من تبعات النشاط الارهابي على مساعيه السياسية الرامية لاقناع بريطانيا باعادة بناء الفرقة اليهودية ، على يد الجيش البريطاني .

ومن الجدير بالذكر ، ان البعض من قادة اتسل العسكريين كان يشارك جبوتنسكي تخوفه من العامل الاول ، وبخاصة عندما كانت السلطات البريطانية تتخذ تدابير للحد من النشاط الارهابي لاتسل ، مثل ابراهام شتيرن الذي دعا ، في وقت حرج بالنسبة للمنظمة ، الى الكف عن معارضة « ضبط النفس » واعتناق ما اسماه بـ « الهفلجاه القومية » (١٥) .

مع تزايد نشاط اتسل الارهابي الموجه ضد العرب ، تحركت سلطات الانتداب

البريطانية ، واخذت تحاكم من تلقي القبض عليه وتصدر احكاماً مختلفة ، كان من بينها حكم الاعدام . ومن الملاحظ ، ان الوكالة اليهودية وقيادة الهجناه كانتا تبذلان جهوداً كبيرة ، وتقدمان مساعيهما« الحميدة » عند البريطانيين لتخفيف الاحكام الصادرة على الرغم من معارضتهما الشديدة لنشاط اتسل ، كما حدث مع احد عناصر المنظمة عندما كمن لسيارة عربية واطلق النار عليها ، في مطلع عام ١٩٣٨ ، وكانت نتيجة حصاده مقتل طفل عربي يناهز السادسة من عمره . فقد حكمت عليه المحكمة ، بعد القاء القبض عليه ، بالاعدام ، الا ان الحكم خُفِّف الى السجن المؤيد بفضل تدخل الوكالة اليهودية (١٦) .

ومع ذلك ، لم تفلح الوكالة اليهودية ، دائماً ، في مساعيها ؛ ففي شهر نيسان ١٩٣٨ اطلق عضو اتسل « بن ـ يوسف » مع عنصرين آخرين ، النار على باص عربي في الجليل بالقرب من مستوطنة « روش بينا » . ولم يتمكن افراد المجموعة من الفرار ، فقد القى القبض عليهم شرطي يهودي ، وسلمهم الى السلطات البريطانية التي اخضعتهم الى محاكمة صدر بنتيجتها حكم الاعدام على « بن ـ يوسف » . وفي التاسع والعشرين من حزيران ١٩٣٨ ، نفذ الحكم به شنقاً ، بعد ان ترك وصيته على حائط زنزانته : « أومن بانهم لن يضبطوا انفسهم عقب موتي » (١٧) . ولم تشفع لـ « بن ـ يوسف »* المساعي الحميدة التي بذلتها قيادة الحركة العمالية ، وكذلك وساطة جبوتنسكي ووايزمان عند الزعماء البريطانيين . وعلى الرغم من هذه المساعي ، فقد اتهمت اتسل الهجناه بتسهيل تنفيذ اعدام اول يهودي في فلسطين على يد السلطات البريطانية ، عن طريق سخريتها من عملية الاعتداء على باص عربي وانتقادها لها . وحملّت الهجناه ، بدورها اتسل مسؤولية نسف المحاولات المبذولة لتخفيف الحكم ، بتصديها لها بالتظاهرات ، ورفع شعار : « الخزي والعار للهفلجاه » (١٨) .

ومن الجدير بالذكر ، ان اتسل لم تغفر للهجناه موقفها من اعتداء « بن ـ يوسف » وجماعته على الباص العربي ، وسخريتها منه ، ولم تنس ذلك حتى في الاوقات الحرجة ، فبعد مضي حوالى عشر سنوات ، اي في عام ١٩٤٨ ، حدث ان اعتدت مجموعة من الهجناه على باص عربي في طريق بيسان ، فتلقفت اتسل الاعتداء لتسديد الحساب القديم مع الهجناه ولتطالب اولئك الذين انتقدوا « بن ـ يوسف » وسخروا من عمله ، باستجماع قواهم و « ... السجود على القبر [بن ـ يوسف] وطلب المغفرة عما قالوه بحق منتهك الهفلجاه الاول ، وعن مهاجم الباص الذي صعد الى حبل المشنقة»(١٩).

القت قضية الاعدام ظلالاً ثقيلة على المنظمة ، وانعكست تبعاتها بسرعة على قيادتها ، بشكل شبيه ، الى حد ما ، بتبعات قضية فرنكل . ففي اليوم السابق لتنفيذ حكم الاعدام ، قام قائد المنظمة روزنبيرغ بزيارة وداع لـ بن يوسف ابحر بعدها الى قبرص ، ومن ثم الى وارسو ؛ تاركاً وراءه خلافات شديدة مع مجموعة القيادة حول موضوع الهفلجاه . وقد اعتبر منافسوه ، في القيادة ، مغادرته فلسطين بمثابة هروب من الجبهة وقت احتدام المعركة (٢٠) وانتقلت القيادة ، بناء على تعليمات جبوتنسكي ، الى دافيد رزيئيل (٢١) ، ابن لعائلة دينية ، من مواليد بولونيا،١٩١٠،وهاجر الى فلسطين١٩١٢،وتختلف شخصية القائد الجديد،التي وضعت بصمات عميقة على تطور المنظمة ، عن شخصيتي بيتكر وروزنبيرغ اختلافاً كبيراً ، لدرجة ان البعض يعتبره اول قائد حقيقي لاتسل . وبتعيينه رئيسا للقيادة ، اصبحت قيادة اتسل منسجمة مع

نفسها اكثر من السابق ، على الرغم من ان ابراهام شتيرن ، سكرتير القيادة والرجل الثاني في اتسل ، اخذ يستقطب حوله مجموعة من الانصار .

الاستمرار في كسر الهفلجاه ، والرد على اعدام «بن- يوسف»، كانا الموضوعين الأساسيين المطروحين على جدول اعمال القيادة الجديدة : وقد دارت نقاشات ، داخل المنظمة ، حول وسائل الرد ، واقترح البعض توجيه ردة الفعل ضد الشرطة البريطانية ، بيد ان الاكثرية تخوفت من تبعات ذلك على المنظمة ، وابدت تخوفها من احتمال تصفية اتسل على يد البريطانيين ، وتقرر بأكثرية الاصوات توجيه الاعمال الانتقامية ضد العرب(٢٢)، انسجاماً مع رأي جبوتنسكي الذي بعث برسالة الى قيادة منظمته يطالب فيها بالرد بقوة(٢٣)، في حال تنفيذ حكم الاعدام.

وجاء الرد ، على امتداد الشهرين التاليين ، على شكل عشرات العمليات الارهابية الموجهة ضد المدنيين العرب ، كان من ابرزها عمليات وضع كميات من المواد المتفجرة الموقوتة وسط التجمعات العربية ، في المدن الفلسطينية الرئيسية ، ذهب ضحيتها نحو مئة وسبعين شهيداً ومئات آخرين اصيبوا بجراح (٢٤) : الامر الذي زاد من رقعة الخلافات ، بين اتسل والهجناه التي كانت تقوم هي الاخرى بشن هجمات ضد الثوار الفلسطينيين ، جنباً الى جنب ، مع القوات البريطانية ، وبناء على اتفاق تام معها ، لاخماد الثورة الفلسطينية : وذلك لاعتقاد الهجناه بأن عمليات اتسل تسيء ، قبل كل شي ء الى العلاقة مع السلطات البريطانية ، وتؤثر من ثم على تحقيق المشروع الصهيوني .

ظلال الحرب الاهلية ومحاولات الوحدة

خيمت على اليشوف اليهودي ، في فلسطين خلال النصف الثاني من العام ١٩٣٨ ، ظلال حرب اهلية مشفوعة بتهديدات من قبل قادة الحركة العمالية بتصفية اتسل ، وبأعمال خطف متبادلة بين المنظمتين العسكريتين ، ومترافقة بمحاولات للوحدة بينهما .

ومن بين الاسباب التي ساعدت في وصول العلاقات، بين اتسل والهجناه ، الى درجة عالية من التوتر:

- رغبة الهجناه في وضع حد لنشاط اتسل اعتقاداً منها بأنه يؤثر سلباً على العلاقة مع بريطانيا : واستعدادها ، في الوقت نفسه ، لقبول الضغوط البريطانية الداعية « اليشوف المنظم » الى الحد من تفشي الارهاب ، وسط التجمع اليهودي .

- استمرار اتسل في انتهاج سياسة كسر « ضبط النفس » ، وسط احتدام تنافس المنظمتين على النفوذ في الوسط اليهودي .

وفي غمرة هذه الاجواء المشحونة ، وقعت حادثتان كانتا بمثابة صب الزيت على موقدة العلاقات المتأججة .

١ - تصدي اتسل لـ « فدية اليشوف » : في الرابع والعشرين من تموز ١٩٣٨ ، اعلنت « اللجنة القومية » التي تعتبر احدى المؤسسات الرئيسية للحركة الصهيونية في فلسطين والمؤسسة الثانية بعد الوكالة اليهودية المسؤولة عن توجيه الهجناه ، عن جباية قطرية لمتطلبات الامن باسم « فدية اليشوف » ، انيطت بها مهام تخصيص ٧٥٪ من دخلها لحاجيات الامن في

المستوطنات و٢٥٪ للمدن (٢٥) ، عقب جبايتها من الافراد والمؤسسات والشركات اليهودية سواء بشكل مباشراو غير مباشر. ومن الطبيعي ، ان تنصب جميع اموال التبرعات في صندوق الهجناه باعتبارها الهيئة اليهودية الوحيدة ، في نظر المسؤولين عن الجباية ، المسؤولة عن أمن اليشوف . ومن هنا ، جاءت معارضة اتسل لـ « فدية اليشوف » ، وتصديها لها منذ اليوم الاول لتأسيسها ، حيث امتنع اعضاؤها ومناصروها عن دفع الضريبة المضافة على تذاكر الباصات التابعة للهستدروت ، مما تسبب بخلق مشاكل اخذت اشكال الاشتباكات بالايدي (٢٦) ، في البداية ، ثم ما لبثت ، مع مرور الوقت ، ان اخذت اشكالاً اخطر (٢٧) ، مثل اقدام عناصر اتسل على حرق سيارات المسؤولين عن « فدية اليشوف » وقادة الهجناه ، في القدس ، وتل ابيب ، وحيفا .

٢ ـ **تبادل اعمال الخطف** : زامنت الصدامات الناجمة عن « فدية اليشوف » تبادل اعمال الخطف بين المنظمتين العسكريتين ، نتيجة لامتداد ارهاب اتسل الى الشارع اليهودي بدون قصد .

ففي الخامس والعشرين من تموز ١٩٣٨ ، وعقب مضي يوم واحد على عملية اتسل في سوق حيفا التي ذهب ضحيتها ٣٥ شهيداً عربياً ، واكثر من ٧٠ جريحاً ، اطلق عنصران ، من المنظمة ذاتها وفي حيفا ، النار على أحد المارة في الشارع وكان يعتمر طربوشاً ، ظناً منهما أنه عربي ، وارداياه قتيلاً . وقد تمكن احدهما من الفرار ، بينما ألقي القبض على العنصر الثاني ، وتسلمته عناصر الهجناه ، من ايدي الجمهور اليهودي الذي اعتقد ، تحت وطأة الغضب ، انه من الثوار العرب فكاد يفتك به . واتضح ، بعد ذلك ، ان صاحب الطربوش ليس عربياً ، وانما هو يهودي سفارادي وقع ضحية الاعتقاد الخاطىء لرجلي اتسل . وقد اخضعت الهجناه عنصر اتسل لتحقيق شامل وسلمته ، بعد مدة ، لسلطات الامن البريطانية (٢٨) .

وكرد على حادث احتفاظ الهجناه بالعنصر ورفضها اطلاق سراحه ، قررت قيادة اتسل اختطاف احد قادة الهجناه ، ونفذت قرارها ، بعد مضي حوالى اسبوع ، حين قامت مجموعة من عناصرها في تل ـ ابيب باختطاف المدعو زخاريا ققيون ، واحتفظت به في مكان سري خارج المدينة ، ولم تطلق سراحه الا بعد ان اتضح لها ان رجلها قد اصبح بيد سلطات الامن البريطانية (٢٩) .

عكست الصدامات الناجمة عن « فدية اليشوف » ، واعمال الخطف المتبادلة الناجمة عن امتداد ارهاب اتسل الى الشارع اليهودي ، مدى التوتر الذي وصلت اليه العلاقات بين المنظمتين والذي اوصل اليشوف اليهودي الى شفا الحرب الاهلية ، والتهديد بها ، وهذا ما فعله رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ، موشيه شاريت ، عندما شهر سلاح التهديد بالحرب الاهلية (٣٠) ، خلال المراحل الاولى ، من نشاط اتسل الرامي لكسر الهفلجاه.

وقد حاول الياهو جولب ، عقب اعدام « بن ـ يوسف » بفترة قصيرة ، اثناء اجتماعه بجبوتنسكي في اوروبا ، وضعه في الصورة التي آلت إليها العلاقات بين المنظمتين ، طالباً منه كبح جماح رجاله الذين خرجوا ، حسب قوله ، « عن طورهم» ، طارحاً عليه فكرة الوحدة ، شريطة

الانصياع لتعليمات « اليشوف المنظم » ، محذراً من امكانية « اضطرار اليشوف لحماية نفسه من اعتداءات المنشقين » (٣١) .

لم يكتف جبوتنسكي برفض التهديد ، بل وجه تحذيراً نشرته الصحافة اليهودية في اوروبا ، اعلن فيه أن الهجناه تعد العدة للقيام بمذبحة ضد رجاله ، وسيرد التصحيحيون عليها ضد انصار الحركة العمالية خارج فلسطين (٣٢) .

تصدى بن - غوريون ، زعيم الحركة العمالية ، هو الآخر ، بعنف لنشاط اتسل ، مركزاً حملته على الضرر الذي يلحقه بالعلاقات الصهيونية البريطانية بقوله : « هذه الاعمال الجنونية تلحق الضرر بنا . ان الانجليز لن يفعلوا شيئاً لصالح المجانين » (٣٣) . وقد نجم عن هذه الرؤية تعاون وثيق بين « اليشوف المنظم » والسلطات البريطانية للحد من نشاط اتسل ، اخذ اشكالاً عدة ، اخطر بكثير من اعمال الخطف المتبادلة او الاشتباكات بالايدي ، من بينها تقديم معلومات عن افراد المنظمة المنافسة ، والمساعدة في القاء القبض عليهم ، كما وعد بذلك كل من يتسحاق بن - تسفي ، عضو « اللجنة القومية » وموشيه شاريت ، مدير الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية . فقد وعد بن - تسفي ، عقب اجتماعه بمسؤول بريطاني بانه سيحاول « ... تلقي معلومات عن طريق مصادر يعرفها بخصوص قيام الجماعات السرية المذكورة » (٣٤) ، ووعد شاريت هو الاخر بتلبية طلب السلطات البريطانية ضد اتسل. وقد انعكس التوجه الجديد لقادة «اليشوف المنظم» في مقال لصحيفة «اومر» الناطقة باسم الهستدروت، جاء فيه «تعم الكارثة، الان، الجميع عرباً ويهوداً... فلنبدأ اذن في عمل شامل ومشترك ضد جميع المسؤولين عن اعمال القتل والدمار في البلاد»(٣٥).

ادى التعاون بين الهجناه والسلطات البريطانية ، الى اعتقال المزيد من افراد وقادة اتسل ووضعهم في السجون . ويبدو ان قيادة اتسل كانت تدرك ، في ذلك الحين ، ان موجة الاعتقالات الكبيرة ، بين صفوف منظمتها ، ناجمة عن التعاون القائم بين الهجناه وجهازها الاستخباري بالذات ، وبين المخابرات البريطانية . ومما يشير الى ذلك ، فقرة وردت في بيان للمنظمة تنص على التالي : « المطلوب من جميع اعضاء المنظمة التحلي بالحذر والامتناع عن الثرثرة . ويجب ان نتذكر دائما ان هنالك كثيراً من الآذان تسترق السمع ، وكثيراً من اشرار الحلف بين صفوف اليشوف » (٣٦) .

ويؤكد الدكتور لويوتسكي ، احد زعماء الحركة التصحيحية ، بعد اعتقاله في سجن عكا ، في شهادته ، قيام تعاون ، في تلك الفترة ، بين الهجناه والمخابرات البريطانية ضد اتسل ، بقوله : « يهمس رجال مباي في آذان الحكام : هذا الرجل خطر للغاية ... انني لا اعبّر ، هنا ، عن ظنون عامة . ذلك انني اعرف ، وبدقة ، اسم ذاك الموظف في الوكالة اليهودية الذي كان يقدم الى مركز المخابرات باسم الوكالة اليهودية ، قائمة باسماء التصحيحيين واعضاء حركة بيطار الذين يعرّضون سلامة الجمهور للخطر». ويكشف الدكتور النقاب أكثر عندما يقول«احاط بي وبالكثيرين من امثالي مئات من المخبرين ، من بين صفوف اليسار ، الذين تعقبوا آثار شبابنا لمساعدة المخابرات في القاء القبض علينا وايداعنا السجن... وخطف رجال مباي العديد من الشباب اليهودي، وسلموهم بأيديهم الى المخابرات للتحقيق معهم»(٣٧).

ويبدو ان الوشايات قد انتعشت كثيراً في ظل التعاون بين الهجناه والمخابرات البريطانية ، وقطعت شوطاً بعيداً مما حدا برئيس بلدية تل ـ ابيب ي . روكيح (من الكتلة المدنية) لاثارة الموضوع مع قادة الحركة العمالية ، واستنكار ما اسماه بفساد الحياة العامة في المدينة حيث حوادث الاعتقال الناجمة عن الوشايات ، ومما قاله : « كمواطن في تل ـ ابيب خجلت مما جرى فيها » (٣٨) . وجرت ، وسط هذه الاجواء المشحونة بالتوتر والحقد والخجل ، مساع ومحاولات عدة للوحدة بين الطرفين ، أو على الاقل للتوصل الى اتفاق ينظم العلاقة بينهما . بيد ان تباين المواقف السياسية ، والتنافس على قيادة اليشوف ، كان لهذه المحاولات بالمرصاد .

بدأت الاتصالات عقب اعدام بن ـ يوسف بحوالى اسبوعين ، بين الياهو جولب وجبوتنسكي ، عرض جولب ، خلالها ، تسوية يتم بموجبها اشراك وحدات اتسل في سلاح الحراسة شريطة الانصياع لتعليمات مؤسسات « اليشوف المنظم » : وفيما يتعلق بالهفلجاه فقد اقترح عدم قيام اتسل باية عملية انتقامية الا بموافقة الطرفين (٣٩) ومن الجدير بالذكر ، ان هذا الاقتراح كان مشفوعاً بالتهديد والوعيد كما مر معنا . وباءت هذه المحاولة بالفشل بسبب رفض جبوتنسكي فكرة خضوع اتسل لمؤسسات اليشوف ، ورفضه ، ايضاً ، الاستمرار في الحوار تحت ظلال التهديدات .

بعد مدة بسيطة ، جرت سلسلة اتصالات بين المنظمتين بمبادرة من جانب قادة الحزب التصحيحي ، ولم تسفر ، في بداية الامر ، عن شيء يذكر بسبب الهوة الواسعة بين موقفي الطرفين من قضية الهفلجاه : فقد ابلغ لوفينسكي ، احد قادة الحزب التصحيحي ، الياهو جولب : « إننا على استعداد للمشاركة في جميع وسائل الحرب ضد الجبهة العربية » ولكن « لا مكان لاتفاق على اساس خط الهفلجاه » . بينما اوضح جولب ، من جانبه ، ان « الاتفاق يمكن ان يكون على اساس منع عمليات الرد التي تقومون بها فقط ، وبهذا الخصوص لا مكان لاية تنازلات او اية حلول وسط » (٤٠) ومع ذلك ، فقد حرص الطرفان على استمرار المفاوضات في محاولة منهما لايجاد قواسم مشتركة ، وقطعت المفاوضات شوطاً بعيداً وبخاصة بعد ان وافقت اتسل على وقف عملياتها خلالها . ويبدو ان هذه الخطوة ، نجمت عن تخوف اتسل من ترجمة الهجناه لتهديداتها ، فتقدم على تصفيتها وهي لا تزال في طور التبلور والتكوين (٤١) .

وقد توصل المتفاوضون ، بعد لأي ، الى صيغة اتفاق بين الهجناه واتسل (ورد الاسم في الاتفاق المنظمة « ب ») ، في التاسع عشر من ايلول ١٩٣٨ ، تتضمن ١٢ بندا (٤٢) :

ومما جاء فيها :

« ١ ـ يستهدف الاتفاق وضع خطة عمل مشتركة للتنظيمين اللذين يستمر كل منهما في الحفاظ على كيانه المستقل وغير المرتبط ، دون المسّ بالبنية التنظيمية لكل منهما .

« ٢ ـ تلتزم « المنظمة ب » بوقف العمليات الخارجة عن اطار الدفاع العـادي.... » .

....

« ٤ ـ تأخذ « المنظمة ب » نصيبها المناسب في الدفاع الشرعي ، وتشارك في جميع

اشكاله (الشرطة الاضافية ، مجموعات الكمائن ، والمجموعات المتحركة) وفي الوحدات التي قد تتشكل في المستقبل » .

......

« ٧ ـ .. تخضع كل وحدة لتعليمات قائد المنطقة الذي يصدر تعليماته لقائد الوحدة ، ويتلقى رجال الوحدة الامر عن طريق قائدهم المباشر فقط » .

ونص الاتفاق على ضرورة تشكيل لجنة مشتركة توجه وتقود المنظمتين ، ودعا منظمة الهجناه لمساعدة افراد اتسل في مجال التدريب العسكري . وقد جرى التوقيع عليه بالاحرف الاولى في بيت رئيس بلدية تل ابيب ، بحضور قادة المنظمتين . ولم يبق امام تنفيذ الاتفاق الذي يسري مفعوله لمدة عام ، سوى التصديق عليه من جانب قيادة الحركة العمالية وجبوتنسكي الموجود في وارسو والذي هرع الى مباركته ، ودعا اعضاء منظمته ، في نفس الوقت ، للحفاظ بعناد على استقلاليتهم (٤٣) .

قوبل الاتفاق بالترحاب من جانب زعامة الحزب التصحيحي وبتأييد نصف قيادة اتسل له ، وتحفظ للنصف الآخر عليه : كما قوبل بموافقة اكثرية قيادة الحركة العمالية مع تحفظ اقلية ضئيلة تجاهه . وبدا وكأنه يملك حظاً وفيراً من النجاح . وعلى الرغم من ذلك ، فقد مات في مهده ، وذلك لتصدي بن ـ غوريون له بكل صلابة وشدة . والحقيقة ان بن ـ غوريون الذي اعتبر الاتفاق بمثابة نصر لاتسل ومن ثمَّ لخصومه السياسيين، لم يعارضه ، من زاوية المكاسب التي حصلت عليها اتسل ، فحسب ، وانما عارض المفاوضات وتصدى لها منذ اللحظة التي وصلت اخبارها الى اسماعه . ويتضح ذلك من رسائله ، بهذا الخصوص ، الى المسؤولين عن الهجناه والحركة العمالية ، اثناء المفاوضات التي زامنت وجوده في اوروبا . فقد بعث برسالة الى الياهو جولب ينفي فيها امكانية اللقاء بين الهجناه واتسل، ومما جاء فيها : « طالما ان الحزب التصحيحي بزعامة جبوتنسكي لا يقبل سلطة الهستدروت الصهيونية في القضايا السياسية ، فلا يوجد أي اساس للمفاوضات مع الارهابيين في قضايا الدفاع » (٤٤) . ومن الملفت للنظر ان بن ـ غوريون حرص ، في رسائله التحذيرية المعارضة لمبدأ التفاوض على استخدام عبارات واوصاف شنيعة ضد اتسل وعناصرها ، مثل « العصابة » و « الزعران » وحتى « الجواسيس » . وقد عاشت هذه الاوصاف وترددت على لسانه ، طوال وجود اتسل ، وحتى بعد حلها في عام ١٩٤٨ . ففي الرسالة التي تصدى فيها لجوهر اجراء المفاوضات ، حذر من مغبة « ... دخولهم في صفوف الهجناه . انني ارى في ذلك فتح الباب امام العملاء والجواسيس لدخول خنادق دفاعنا » . وعارض ايضاً دخول عناصر اتسل ، بعد ان اطلق عليهم كنية « الزعران » سلاح الحراسة قائلاً : « يجب عدم قبولهم كافراد في الوحدات ، حتى ولو زعموا انهم سيخضعون لتعليمات القادة : هذا الامر شبيه تماماً بالشرطة العربية التي يعتمد ساوندرس عليها كثيراً. كل ازعر يدخل صفوف الحراس هو عضو في عصابة جبوتنسكي ... » موضحاً ان « منظمة الهجناه ليست قضية امنية ، انها مشروع سياسي ... » (٤٥) . وفي رسالة اخرى حرص بن غوريون على تنبيه المسؤولين عن الهجناه الى انهم يجرون مفاوضات ليس مع خصم سياسي وانما مع « عدو » « ... هؤلاء الارهابيون يقلدون النازيين في جميع مناوراتهم . انهم اعداؤنا في

الصميم ... عند الحديث معهم يجب الّا يغيب ابداً عن الاذهان ان الحديث يجري مع عدو نذل يفتقر الى اي وازع من ضمير. هذا لا يعني ضرورة الامتناع عن اجراء اي حديث معهم ـ فأنا على استعداد لاجراء حديث مع المفتي ايضاً ـ ولكنني اعرف مع من اتحدث » (٤٦) .

ومن هنا ، ليس من المستغرب ان يتصدى بن ـ غوريون بعنف للاتفاق ، بعد التوقيع عليه بالاحرف الاولى ، ويهدد بتقديم استقالته في برقية بعث بها الى جولب بعد مرور يوم واحد على التوقيع «انني ارى في ذلك انتهاكاً خطيرا للانضباط، وسأستنتج جميع الاستنتاجات»(٤٧). ونتيجة لذلك تأجل التصديق على الاتفاق من اسبوع الى آخر. وعند نهاية تشرين الثاني ١٩٣٨، عيل صبر التصحيحيين واصبحت يد الجناح المعارض او المتحفظ تجاه الاتفاق هي العليا، واعلنت قيادة المنظمة ان«قادة اليسار والمدنيين السائرين في فلكه يسلبون، من آلاف الشباب العبري، الحق في الحراسة والدفاع»(٤٨).

وضع الهجناه واتسل عشية صدور الكتاب الابيض

اخذ تطور اتسل ، عقب فشل الاتفاق ، يتسم بالتوجه نحو مزيد من الاستقلالية عن الحركة التصحيحية ، وتعززت قوة ونفوذ الجناح المتطرف في قيادتها . ففي هذه الفترة ، نشطت قيادة اتسل بلا كلل ، في مجال البحث عن حليف لها ، في أوروبا ، وفي بولونيا بالذات ، حيث المركز الرئيسي لليهود . وكان ابراهام شتيرن ، سكرتير القيادة والرجل الثاني في المنظمة ، قد رئس ، عشية اجراء المفاوضات وفداً من منظمته ، وقام بزيارة لبولونيا استغرقت عدة شهور ، تمكن خلالها من خلق خلايا سرية لمنظمة اتسل بين صفوف حركة بيطار ، دون علم أو موافقة جبوتنسكي ، كما تمكن من اقامة علاقات وطيدة مع المسؤولين البولونيين اعطت ثمارها في ثلاثة مجالات هي : التدريب العسكري ، والتزود بالاسلحة ، وفتح ابواب بولونيا لهجرة اليهود . وارسى شتيرن علاقات طيبة مع الاجنحة « الفاعلة » في الحركة التصحيحية التي ترى في جبوتنسكي شخصاً « معتدلا » ؛ الامر الذي ادخل اتسل في صراع مع زعيم الحركة التصحيحية الذي اعتبر التحرك الجديد للمنظمة لا يشكل نقداً وحتى نقيضاً لسياسته، فقط ، وانما يشكل كذلك تحدياً لزعامته (٤٩) .

وجد شتيرن آذاناً صاغية لدى المسؤولين البولونيين الذين لبوا على الفور مطالب اتسل ، واخذوا يدعمونها بالاسلحة ويقيمون دورات عسكرية خاصة لعناصرها ، مدفوعين الى ذلك بهدف التخلص من التجمع اليهودي في بولونيا وخلق اعوان لهم في الشرق الاوسط . ويستشم ذلك من شرح احد قادة اتسل ، لمسؤولين بولونيين ، تماثل المصالح بين المشروع الصهيوني وبولونيا ، على الطريقة الهرتسلية ، بقوله لهم : « اذا تعاظم الضغط على العرب بقوة ردود فعل اتسل ، ستضعف مكانتهم السياسية ؛ وبذلك تصبح هجرة اليهود من بولونيا ، المعنية بهجرتهم ، ممكنة » (٥٠) . وبفعل تماثل المصالح بين الطرفين ، تمكنت اتسل ، من اعداد وتخريج اعداد من عناصرها ، في فلسطين ، في دورات مكثفة جرت في بولونيا ، ومن تدريب عناصر اخرى ، هناك ، من اوساط شبيبة حركة بيطار ؛ وذلك في الوقت الذي كانت فيه الهجناه تعيش عصرها الذهبي ؛ إذ شهدت نمواً سريعاً ابتدأ ، منذ اندلاع الثورة الفلسطينية ، وتنظيماً له على شكل وحدات عسكرية مختلفة ، يربو تعداد افرادها على العشرين الفاً ، كانت تحظى

بدورات عسكرية على يد الضباط البريطانيين ، بفعل تماثل المصالح الصهيونية البريطانية ، بشكل حاد في تلك الفترة ، وفق رؤوية الحركة العمالية ، التي لم تغفل ، هي الاخرى ، مسألة تماثل المصالح مع بولونيا ، في الوقت نفسه ؛ حيث حظيت هناك بدورات عسكرية على استخدام الاسلحة خصصت لاعداد من عناصرها (٥١) .

ويبدو ان قيادة اتسل والحركة التصحيحية كانتا مرتاحتين للغاية من توطد العلاقة مع الحكومة البولونية ، والمراهنة عليها ، لدرجة بلغ التفاؤل، فيهما حداً ، حدا بهما الى وضع خطة طموحة عام ١٩٣٨ ، تتمثل في تدريب قرابة ٤٠ الف شاب خلال فترة لا تزيد عن العامين ، وتزويدهم بالاسلحة لنقلهم ، مع اسلحتهم ، بواسطة السفن الى شواطئ فلسطين ، وذلك بهدف « الاستيلاء على البلاد واعلان الدولة العبرية » (٥٢) .

ومن الجدير بالذكر ، ان الخلافات بين الهجناه واتسل ، قد نقلت الى الساحة البولونية واماكن اخرى في اوروبا واميركا إثر توطد العلاقات مع بولونيا ؛ ففي هذه الفترة عززت اتسل ، من خلال الصحف الناطقة باسمها في بولونيا وبلدان اوروبية اخرى ، نشاطها الاعلامي ضد الهجناه والوكالة اليهودية : وذلك بالتهويل بقوتها داخل فلسطين وعملياتها الارهابية ضد العرب ، وبالانتقاص من قوة وحجم الهجناه ، فضلا عن اتهامها هذه الاخيرة بالاستسلام ، وحتى بـ « الخيانة » (٥٣) .

نتيجة لنمو نفوذ اتسل في بولونيا ، المصاحب بميول واضحة نحو مزيد من الاستقلالية عن الحركة التصحيحية ، دخلت العلاقات بين الطرفين في فترة تأزم ما لبثت أن وجدت مُسكّنا لها في شباط ١٩٣٩ ، إذ عُقد في باريس اجتماع خاص حضره ، الى جانب قادة الحركة التصحيحية ، قائد اتسل دافيد رزيئيل . ووسط اتهامات قادة الحركة التصحيحية لاتسل بالجنوح ، طالب مندوبوها بالحفاظ على منظمتهم كجسم مستقل غير حزبي ، وقد توصل الطرفان الى حل يعرف بـ « اتفاق باريس » (٥٤) تم بموجبه دمج اتسل وبيطار ، خارج فلسطين ، تحت اسم حركة بيطار ، واخضاع حركة بيطار ، في فلسطين ، لسلطة اتسل ، بحيث يصبح قائد اتسل قائداً ايضاًلبيطار. وبذلك، قطعت المنظمة شوطاًبعيداً في نموهاداخل الحركة التصحيحية، وفي توجهها نحو مزيد من الاستقلالية عنها ، كما أصبحت تعتمد على حليف بولوني ، اعتماد الهجناه على الحليف البريطاني. وكان ممكناًأن تسير الامور لصالح التنظيمين الصهيونيين لولا تَلَبدُ أجواء اوروبا بغيوم الحرب العالمية الثانية : الامر الذي دفع البريطانيين لتغيير سياستهم تجاه العرب ، في محاولة لكسبهم ، او على الاقل ، منع احتمال انبعاث الثورة الفلسطينية ، في حال اندلاع الحرب . وبدا ذلك واضحاً في مؤتمر المائدة المستديرة في لندن الذي حضرته وفود عن الدول العربية وعن الفلسطينيين (وفدان احدهما يمثل المعارضة) ، ووفد واحد عن « اليشوف المنظم » لا تتمثل فيه الحركة التصحيحية . ومن مؤشرات التبدل في السياسة البريطانية تصريح وزير المستعمرات البريطاني مالكوم مكدونالد ، اثناء انعقاد المؤتمر الذي اعتبرته الحركة الصهيونية بمثابة نكسة حلت بها ، والقائل بضرورة الغاء الانتداب واقامة دولة فلسطينية متحالفة مع بريطانيا ، تضمن فيها « حقوق خاصة » للأقلية اليهودية (٥٥) .

وحددت كل من الوكالة اليهودية و « اللجنة القومية » موقفها منه فوراً في بيانين

متتاليين . قالت الاولى في بيانها : ان البريطانيين « يتآمرون لتصفية الوطن القومي وتسليمه لسلطة قادة العصابات » واستصرخت الثانية الجمهور كي « لا يقام منفى عبري في ارض العبريين » (٥٦) .

اما اتسل ، فلم تكتف بادانة التوجه البريطاني الجديد وشجبه ، بل حرصت ايضاً على تسعير حملتها الاعلامية ضد الهجناه والحركة العمالية محملة اياها مسؤولية ما اسمته بـ « خيانة » بريطانيا ، واشفعت حملتها هذه باعمال ارهابية موجهة ضد التجمعات السكانية العربية إثر عودة دافيد رزيئيل ، الى فلسطين ، وتمكنه من الافلات من قبضة رجال الشرطة في مطار اللد . وقررت قيادة المنظمة اعتبار يوم السابع والعشرين من شباط ١٩٣٩ « يوماً اسود » الهدف منه « وضع حد لتصريح ماكدونالد المعروف ، وانتهاك فرحة العدو » (٥٧) . وقد جرى خلال هذا اليوم وضع متفجرات في محطة القطار في القدس ، وفي سوق الخضار في حيفا ، ذهب ضحيتها ٢٧ شهيداً و٢٩ جريحاً (٥٨) . وقد حرصت اتسل في هذه الفترة ، حتى صدور « الكتاب الابيض » ، على عدم توجيه سلاحها ضد البريطانيين ، على الرغم من مطاردة هؤلاء لعناصرها واعتقالهم العديد منهم .

انعكاس الكتاب الابيض على اليشوف اليهودي

في السابع عشر من ايار ١٩٣٩ ، نشرت الحكومة البريطانية وثيقة صادرة عن البرلمان البريطاني اطلقت عليها اسم « الكتاب الابيض » . وقد اثار الكتاب الابيض سخط مختلف اوساط الحركة الصهيونية التي اجمعت على معارضتة والتصدي له، مع الاختلاف في الطرق والوسائل . كما واحتل ، حتى زوال الانتداب البريطاني عن فلسطين . وعلى الرغم من غياب عامل الجدية لدى البريطانيين في مجال تطبيقه . مكانا بارزاً في العلاقات بين التنظيمات الصهيونية المسلحة ، حيث درج البعض على تلقفه كتهمة فظيعة يلقيها في وجه الفريق الاخر . الامر الذي يدعونا للوقوف على بعض بنوده .

انصب السخط الصهيوني على ثلاثة بنود تمس موضوعات ثلاثة هي انهاء الانتداب البريطاني واقامة دولة فلسطينية ، وتحديد الهجرة اليهودية ، وتحديد بيع الاراضي في فلسطين .

نص البند المتعلق بانهاء الانتداب البريطاني على التالي : « ان الهدف الذي ترمي اليه حكومة جلالته هو ان تشكل ، خلال عشر سنوات ، حكومة فلسطينية ترتبط مع المملكة المتحدة بمعاهدة تضمن للبلدين متطلباتهما التجارية والحربية ، في المستقبل ، ضمانا مرضياً . وهذا الاقتراح بتشكيل دولة مستقلة ، من شأنه ان ينطوي على التشاور مع مجلس الامم بقصد انهاء الانتداب » .

وفيما يتعلق بموضوع الهجرة نص على « ان تكون الهجرة ، خلال السنوات الخمس التالية ، بمقدار من شأنه ان يزيد عدد السكان اليهود في فلسطين الى ما يقرب من ثلث مجموع سكان البلاد بشرط أن تسمح قدرة الإستيعاب الاقتصادية بذلك . فإذا أخذت بعين الاعتبار الزيادة الطبيعية المتوقع حصولها في عدد السكان العرب واليهود،وحسب حساب عدد المهاجرين

اليهود غير الشرعيين الموجودين الآن في البلاد ، فإن ذلك يسمح بادخال نحو (٧٥.٠٠٠) مهاجر يهودي ، خلال السنوات الخمس التالية ، اعتباراً من اول نيسان من السنة الحالية » . وورد في بند آخر : « أن تسمح بزيادة الوطن القومي اليهودي عن طريق الهجرة اذا كان العرب على استعداد للقبول بتلك الهجرة ، ولكن ليس بدون ذلك » وجاء ايضاً : « ان حكومة جلالته مصممة على قمع الهجرة غير المشروعة ، وتتخذ الآن اجراءات اخرى للحيلولة دونها ، واذا افلح عدد من المهاجرين اليهود غير الشرعيين في دخول البلاد على الرغم من تلك الاجراءات ، وكان هؤلاء ممن لا يمكن ابعادهم ، ينزل عددهم من الحصص السنوية » . وفيما يتعلق بملكية الاراضي نص الكتاب الابيض على انه « لا بد من وضع القيود على انتقال الاراضي من العرب الى اليهود ... من خلال منح المندوب السامي سلطات عامة حول هذا الموضوع » [٥٩] .

وفي ١٦ كانون الثاني ١٩٤٠ ، صادقت الحكومة البريطانية على وثيقة جديدة تحمل اسم « قوانين انتقال الاراضي ١٩٤٠ » لتنظيم تطبيق القيود على انتقال ملكية الاراضي لليهود وفق روحية الكتاب الابيض ، قسمت فلسطين بموجبها الى ثلاث مناطق : المنطقة الاولى ، يسمح لليهود باستملاك الاراضي فيها وتشكل نسبة ٥٪ من مساحة فلسطين ، وتبلغ مساحتها ١.٢٤٣.٠٠٠ دونم وكان اليهود يمتلكون فيها ٦٨٨.٠٠٠ دونم . والمنطقة الثانية وتشكل نسبة ٣١٪ من فلسطين يحظر على اليهود استملاك الاراضي فيها الا باذن خاص من المندوب السامي . والمنطقة الثالثة تشكل نسبة ٦٤٪ من مساحة فلسطين ، لا يحق لغير العرب الفلسطينيين استملاك الاراضي فيها ، وسمحت القوانين لليهود الذين يستملكون اراضي في المنطقة ، وهم قلة ضئيلة ، ببيع اراضيهم او تأجيرها للفلسطينيين فقط [٦٠] .

تحكمت طبيعة العلاقات القائمة بين كل من التيارين الصهيونيين وبريطانيا باشكال الردود ضد الكتاب الابيض والقانون الخاص بانتقال الاراضي ودرجة عنفها . ويبدو ذلك واضحاً تماماً في ردود الفعل التي اعقبت صدور الوثيقتين . فقد اتسمت هذه الرّدود بتزعم التيار التصحيحي ، وعلى رأسه اتسل ، لموجة الغضب التي اخذت شكل تظاهرات صاخبة واعمال عنف ، في الوقت الذي حافظت فيه الهجناه والحركة العمالية على التظاهر بالنظام والهدوء ، والتستر على اعمال العنف التي قامت بها . بينما اتسمت ردود الفعل على الوثيقة الثانية بتزعم التيار العمالي ، بما في ذلك الهجناه ، لموجة السخط التي اخذت شكل تظاهرات صاخبة تخللتها اشتباكات مع قوات الامن ، في الوقت الذي حرصت فيه اتسل على عدم الاشتراك فيها ، مكتفية بالتنديد فقط [٦١] ، بحكم الانقلاب الذي طرأ على علاقاتها مع السلطة البريطانية عند اندلاع الحرب العالمية الثانية .

اعتمدت الوكالة اليهودية ، في مجال ردها على سياسة الكتاب الابيض ، السلاح الاساسي للحركة الصهيونية المتمثل في الهجرة والاستيطان : إذ اخذت تنشط في ميدان الهجرة «غير الشرعية»، وفي استكمال المشروع الاستيطاني المعروف باسم «سور وبرج»، فأقامت ، في ذلك العام ، ١٥ مستوطنة . وكان رد سلطات الانتداب ، على ذلك ، متساهلا ولينا جداً ، احدث نوعاً من الارتباك وسط « اليشوف المنظم » : اذ لم تقم بارجاع المهاجرين « غير الشرعيين » ، واكتفت ، بالنسبة للمستوطنات الجديدة ، برفض تزويدها بالاعتدة والاسلحة ، كما كانت تفعل سابقاً ، « الى ان تتلقى رسالة اعتذار عن قيامها بدون تصريح » [٦٢] . الى

جانب ذلك ، وفي سياق خدمة المرتكزين المذكورين للمشروع الصهيوني ، نشطت الوكالة اليهودية ، بزعامة الحركة العمالية ، فنظمت مسيرات احتجاجية وسط التجمعات اليهودية ضد سياسة الكتاب الابيض . وفي الوقت نفسه قامت الهجناه بعملية تخريبية ضد محطة الاذاعة التابعة لسلطات الانتداب ، قبيل ساعات من نشر الخبر الخاص عن الكتاب الابيض ، إذ قام افرادها بقطع الكابل بين قاعة البث في القدس وبين محطة الاذاعة في رام الله . وكذلك قامت بعمليات ارهابية ضد العرب ، وفق اسلوب اتسل ، حيث وجهت سلاحها ضد قريتي لوبيا وبلد الشيخ وقتلت عدداً من سكانهما الآمنين ، وحرصت على عدم نسب هذه العمليات اليها ، كيلا تتأذى علاقاتها مع السلطات البريطانية(٦٣).

لم تكن قيادة كل من « اليشوف المنظم » والهجناه ، تجمع على رأي موحد تجاه موضوع التصدي للكتاب الابيض ، لتعدد التيارات وتباين الاجتهادات.وقد انعكس ذلك في المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرين الذي انعقد في جنيف في ١٦ آب ١٩٣٩ دون حضور التصحيحيين ، اذ برزت فيه وجهتا نظر اساسيتان تتعلقان بالتصدي لسياسة الكتاب الابيض ، مثل وجهة النظر الاولى « المعتدلة » الدكتور حاييم وايزمان الذي رأى ان طريق النضال الاساسي يتمثل في استمرار المشروع الاستيطاني في فلسطين . « هذا المشروع الذي ينحني له اصدقاؤنا واعداؤنا ، هو القلعة الوحيدة التي نجد فيها القوة والسند . في هذا الاطار ، فرض علينا الكتاب الابيض ، هذا الكتاب الذي لن نعترف به ابداً .... وحتى في هذا الاطار تكمن امكانيات اخرى للعمل . ويجب علينا استغلالها الى آخر نقطة من الدم ، وربما حينذاك يبرز شي ء ما جديد » (٦٤) .

اما وجهة النظر الثانية فمثلها بن غوريون بطرحه امام المؤتمر خطة تتشكل من نقاط ثلاث (٦٥) : ١ ـ النضال من اجل الهجرة ؛ ٢ ـ النضال من اجل الاستيطان ؛ ٣ ـ النضال بالسلاح ضد السلطة البريطانية في حال تصديها للهجرة والاستيطان .

لم يتمكن المؤتمر من اتخاذ قرار واضح تجاه مسألة النضال ضد سياسة الكتاب الابيض كما طالب الفريق الذي تزعمه بن غوريون ، لتخوف العديد من اعضائه من مغبة ذلك على مستقبل العلاقة مع بريطانيا ، وأوضح هذا الامر ، صراحة ، الدكتور سيلفر بدعوته الى « الامتناع عن القيام بأعمال مقاومة يائسة ، وعن العصيان المدني ، وعن عدم التعاون ... » ، وتنديده بالهجرة « غير الشرعية » واعمال التحرش خشية ان تقوم « ... الحكومة بالرد بحرب على امتداد الجبهة ... التحرش يؤدي الى عمل انتقامي ، يجر في اعقابه تحرشاً عنيفاً اكثر يأساً ، يجر في اعقابه رد فعل اخطر ، لنجد انفسنا بعد مدة متورطين في اعمال لم نرغب فيها ، ولم نكن حتى على استعداد لمواجهتها » (٦٦) .

نتيجة لانقسام قيادة « اليشوف المنظم » تجاه مسألة التصدي للكتاب الابيض ، وعدم تمكنها من تنظيم وبلورة ضغط صهيوني فاعل ومتواصل ، فشلت حملة التصدي للكتاب الابيض خلال الشهور الاولى من صدوره ، وتعثرت مع اندلاع الحرب العالمية الثانية .

اما الحركة التصحيحية واتسل ، فقد واجهتا سياسة الكتاب الابيض بوضوح اكثر ،

بحكم كونهما تشكلان الجناح المعارض في الحركة الصهيونية ، فضلاً عن التناغم الفكري والايديولوجي القائم بينهما . ومما لا شك فيه ان الكتاب الابيض كان بمثابة فرصة ثمينة امام اتسل لاثبات نفسها كتنظيم منافس للهجناه ، وترسيخ اقدامها بشكل قوي في اليشوف اليهودي . وقد استغلت بالفعل هذه الفرصة . ولم ترسخ اقدامها ، كتنظيم وليد ، فقط ، بل عززت نفوذها في الوسط اليهودي بشكل لم يسبق له مثيل .

واجهت اتسل والحركة التصحيحية اليوم الذي نشر فيه الكتاب الابيض بتظاهرات صاخبة قامت في وسط تل ابيب ، احتل خلالها المتظاهرون مباني حاكمية القضاء ، ورفعوا عليها العلم العبري ، وقاموا بحرق سجلات مكتب تسجيل الاراضي ، بعد ان القوها على قارعة الطريق ، وهم يرددون شعارات تندد بـ « خيانة بريطانيا » و « خيانة » وايزمان « فايتسمان الخائن، انصرف»(٦٧). واصدرت منظمة اتسل وسط هيجان التجمع اليهودي في فلسطين، منشوراً موجهاً الى العمال العبريين والشبيبة العبرية في «ارض اسرائيل» اتهمت فيه الوكالة اليهودية بانها « ... تسكت غضبكم ، وتكبل ايديكم . وبدل ان تقودكم في انتفاضة بطولية ضد العدو ، تقودكم في مسيرات كرنفالية جرت بموافقة الحكم الجزار ... » (٦٨) وعززت من حملتها الاعلامية عبر اذاعتها السرية التي كانت قد اقيمت ، قبل مدة ، لخدمة اغراضها الدعاوية .

الى جانب النشاط التحريضي المحموم ، انتهجت اتسل ، هذه المرة ، خطين في نشاطها العسكري . اذ لم يعد المواطنون العرب هم المقصودون وحدهم بعملياتها الارهابية بل اصبحت « الممتلكات العامة » ايضاً تشارك التجمعات العربية الآمنة في تلقي الضربات ولو بشكل اخف . فقد قررت قيادة المنظمة ، غداة نشر الكتاب الابيض ، توجيه ضرباتها ضد المنشآت البريطانية ، وتصعيد عملياتها ضد العرب ، مما اكسبها مزيداً من الانصار ، بين صفوف اليشوف الذي كان يتقد غضباً ، في ذلك الحين ، مما اسماه بـ « خيانة البريطانيين » للتعهد الذي قطعوه على انفسهم عام ١٩١٧ .

ومن الجدير بالذكر والتأكيد معاً ، ان النقلة الجديدة في موقف اتسل لجهة رفع السلاح في وجه البريطانيين والذي تمثل بضرب الممتلكات البريطانية ، وفيما بعد ، بضرب الرموز البريطانية ، لم تستهدف اخراج القوات البريطانية من فلسطين ، وانما كان يراد منها ، توجيه ضغوطات سياسية مصاحبة أحيانا باعمال عنف بغية دفع بريطانيا للتحالف مع الحركة الصهيونية ، والارتقاء بالعلاقات بينهما الى اقصى حد ممكن ، بحيث يصبح اليشوف اليهودي في فلسطين ، بمؤسساته المختلفة ، شريكاً وحليفاً لبريطانيا في المشرق العربي بحكم تماثل المصالح بينهما . وكان جبوتنسكي أول من روج لهذه النظرية وغرسها في وجدان قادة اتسل والتصحيحيين ، وبقي مؤمناً بها ، متحمساً لها ، حتى مماته . ومن هنا ، تبلورت لدى اتسل قناعة ترى النضال ضد بريطانيا بمثابة حوار بين شريكين ، وليس ، على الاطلاق ، حرباً بين عدوين ، وقد عبر عن ذلك بوضوح ، المدعو « شخطمان » احد مسؤولي الحركة التصحيحية عندما قال : « بريطانيا والشعب اليهودي ، من الناحية الموضوعية ... شريكان في بناء الرسمية اليهودية في أرض اسرائيل ... يمكن ان يكونا متعارضين لفترة معينة ، ولكن ليسا عدوين ، وعلى الأقل ليسا عدوين ابديين . ولنبرهن له [الشريك البريطاني] ان خيانته وخداعه لنا ليسا

كريهين فقط بل غير مريحين وخطرين » (٦٩) .

في إطار هذه النظرة ، وجهت اتسل ضربات ضد بعض المؤسسات الحكومية ، مثل محطة الاذاعة وخطوط الهاتف وقضبان السكك الحديدية ، مع الحرص على اقتصار الاضرار على الممتلكات العامة فقط ، كما استأنفت نشاطها الارهابي ضد التجمعات السكانية العربية ، وفق اسلوبها السابق . ومن الملفت للنظر ، في هذه الفترة ، تنظيرها للاعمال « الانتقامية » الموجهة ضد العرب ، فقد رأت فيها ما يساعد على الارتقاء بالعلاقات مع « الشريك » البريطاني إلى درجة التحالف ، ويستشم ذلك من تعميم داخلي كانت القيادة قد عممته على عناصرها جاء فيه : « عشية اندلاع حرب عالمية ، تبحث بريطانيا عن حلفاء . وفي الحرب هنالك حاجة للمقاتلين ، ولا فائدة من اولئك الذين يضبطون النفس . ولن يكون مستغرباً ، ان يتم في يوم الاختيار ، اختيار الطرف العربي المقاتل ، وليس الطرف اليهودي الحريص على ضبط النفس » (٧٠) .

ويبدو ان اتسل قد شعرت ، في هذه الفترة ، بتعاظم قوتها ، ويظهر ذلك من الخطط الطموحة لقائدها رزيئيل الذي دعا ، عند صدور الكتاب الابيض ، الى ضرورة « توسيع العمل ضد العرب على الصعيد العسكري ايضاً . اي يتوجب تدريب الشباب على دخول قرية عربية ، والسيطرة عليها ، وطرد سكانها وما شابه » (٧١) .

مع بداية استئناف اتسل عملياتها الارهابية ضد العرب ، القت سلطات الأمن البريطانية ، في مطار اللد ، القبض على دافيد رزيئيل في ١٩ أيار ١٩٣٩ ، ولم يتمكن هذه المرة من الافلات ، فأودع السجن . وعلى الفور ، عين جبوتنسكي مكانه ، كرئيس للقيادة ، حانوخ قلعي ، المسؤول عن فرع القدس (٧٢) . لم تؤثر عملية اعتقال القائد وحملة الاعتقالات الأخرى ، على النشاط الموجه ضد العرب ، فقد استمرت المنظمة في نهجها القديم ، الذي لم يخرج عن اطار قتل المارة الابرياء ، والحاق اكبر عدد من الخسائر وسط التجمعات العربية في الاسواق ، او اقتناص اي عربي يصادف وجوده في المستوطنات والتجمعات اليهودية . ومن ابرز عملياتها ، في هذه الفترة التي استمرت حوالى ثلاثة شهور ، عملية سينما « ركس » في القدس ، وعملية تفجير الحمار المحمل بالمواد الناسفة ، في سوق الخضار في حيفا : وقد اسفرت هاتان العمليتان عن استشهاد العشرات واصابة الكثيرين بجراح ؛ ومن ابرزها ايضاً عملية ثالثة جرت ضد قرية « بير عدس » العربية (٧٣) ، حين هاجمت مجموعة من عناصر المنظمة القرية ، في محاولة لتحقيق خطة رزيئيل للاستلاء على قرية عربية ، ولم تتمكن المجموعة من دخول القرية ، فاكتفت بمهاجمة منزل عربي تحت جناح الظلام ، قتلت فيه اربع نساء واصابت طفلا بجراح . وقد استمرت اتسل في القيام بهذا النوع من العمليات على الرغم من توصية جبوتنسكي ، الذي تخوف من الرأي العام في بريطانيا ، بالكف عن ضرب الشيوخ والنساء والاطفال (٧٤) .

وسط النشاط المتعاظم ضد الممتلكات العامة والمواطنين العرب ، فتحت المنظمة ، للمرة الاولى ، جبهة جديدة داخل اليشوف اليهودي ، ضد « المخبرين » اليهود ، عقب تزايد عدد المعتقلين من بين صفوفها . وقامت ، في فترات مختلفة ، بتصفية ثلاثة يهود يعملون في جهاز الشرطة التابع لحكومة الانتداب . ومن بينهم الشرطي اريه فولونسكي الذي اتهمته المنظمة

بالتعاون مع المخابرات البريطانية ضد افرادها ، في الوقت الذي اعتبرته الوكالة اليهودية بمثابة جندي يعمل لصالحها ، ودلّلت على ذلك بحضور قادتها جنازة فولونسكي وامتداحهم تفانيه واخلاصه (٧٥) .

لم تقف الهجناه مكتوفة اليدين ازاء النشاط الاعلامي والارهابي لاتسل ، فقد شددت هي الاخرى على التنديد بـ « العصابات » في مناشيرها التي وزع احدها في الوسط اليهودي بتاريخ ٢١ حزيران حاملاً توقيع « المهاجرين غير الشرعيين » ؛ وكان ينضح بالتنديد برجال اتسل الذين « يرعون القائمين على الكتاب الابيض في مصادرة صلاحية الوكالة ... الممثل الوطني الوحيد ... عصابة الارهابيين لا تتوجه نحو مقاتلة الحكومة الخائنة ، انهم يعمدون في اعمالهم الى تسعير الاضطراب في اليشوف واضعاف الاستعداد للسيطرة عليه » (٧٦) .

ونشطت المؤسسات المسيطرة على الهجناه ، ولا سيما بعد ان طالت الاعمال الارهابية أعناق اليهود ايضاً ، فعممت منشوراً مذيلاً بتواقيع عدد من الشخصيات اليهودية من الوسطين السياسي والفكري ، في الوسط اليهودي ، ثم نشرته ، بعد ترجمته الى اللغة العربية ، في الدول العربية ، تحت عنوان « لا تقتل » ، ركز على ان « قتل عرب ابرياء يسعرّ ، بين صفوف الشعب الجار ، العداء ضد اليهود ويوحده حول فئة الارهابيين ، كما وأن قتل انجليزي ينسف نضالنا السياسي بين صفوف الشعب البريطاني ، وقتل يهودي على يد يهودي يعد بمثابة مؤشر لحرب مسلحة بين اليهودمن شأنها تدمير اليشوف بواسطة مدمّريه من الداخل » وتوجه بعد ذلك بالتحذير والمطالبة : « ليوقف اليشوف الشر في مهده ! ليعزل اليشوف المحرضين والمحرضين ! ليتوحد اليشوف لحماية الوطن القومي بقوة من الارهاب الداخلي ، واعدائه من الخارج » (٧٧) .

واستغل القائمون على الهجناه منصة المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرين للتنديد بنشاط اتسل ، والرد على حملاتها الاعلامية في الخارج . فقد ركز موشيه شاريت في كلمته ، امام المؤتمر ، على تأكيد « ... الاجرام والحماقة والعار في طريق الارهاب . هذه الاعمال التي جرت ، خلال الاشهر الاخيرة ، والتي يحاول القائمون عليها تزيينها بشعارات رنانه ، اعمال سخيفة : من الناحية العملية لا تؤدي الى اهدافها ، ومن الناحية السياسية تلحق الضرر بنا فقط ، ومن الناحية الاخلاقية مقززة ، ومن الناحية العسكرية ـ ونحن نتحلى ايضاً بالخلق العسكري والكبرياء العسكرية ـ ، مهينة »(٧٨) . هذا ، فضلا عن النعوت التي كان بن ـ غوريون يطلقها على اعضاء المنظمة واعمالها مثل نعته اياهم بـ « المجرمين الاخساء » ووصفه اعمالهم بـ « الاعمال الجنونية البغيضة ... » (٧٩) .

فشل المساعي الوحدوية وتعذر الاتفاق

منذ بوادر التبدل في السياسة البريطانية التي برزت ملامحها خلال فترة مفاوضات المائدة المستديرة في لندن والتي انعكست ، بشكل واضح ، في « الكتاب الابيض » ، وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية ، واتسل تشهد تعاظما في صفوفها بفعل التربة الخصبة التي وفرتها لها هذه الفترة ، خلافاً للهجناه التي وجدت نفسها ، بحكم طبيعة علاقاتها مع بريطانيا ، تقف على

اعتاب مرحلة جديدة تتسم بتوقف زخم نموها وتطورها اللذين كانا قد وجدا تربة صالحة لهما إبان اشتعال الثورة الفلسطينية .

ولعل في العمليات العسكرية القليلة التي نفذتها الهجناه ، عقب صدور الكتاب الابيض ، ما يشير الى مدى حراجة وضعها من جهة ، وإلى الوضع المريح لنمو اتسل من جهة اخرى . فقد ارتأت الهجناه ، عند صدور الكتاب الابيض ، ضرورة الرد عسكرياً ضد « المنشآت » البريطانية في فلسطين ، كتعبير عن السخط الصهيوني ضد السياسة البريطانية الجديدة . وفي هذا الاطار، نفذت عملية تخريبية ضد اجهزة بث الاذاعة، الا انها وجدت نفسها، ليست عاجزة عن اصدار بيان بالعملية فحسب، بل عاجزة ايضاً عن تكذيب بيان اتسل الذي نسب فيه العملية الى عناصرها.

وفي العملية الثانية التي ارادت بها التشبه باتسل في ردها على العرب، حدث نفس الشيء. فقد نفذت عناصر الهجناه، بناء على تعليمات المنطقة الشمالية، عملية ارهابية ضد السكان الامنين في قرية بلد الشيخ بخطفها خمسة اشخاص من اهالي القرية وقتلهم ، واشفعت ذلك بعملية اخرى شبيهة الى حدكبير بعملية « بير عدس » : حيث استفردت مفرزة من الهجناه بمنزل عربي يقع على اطراف قرية لوبيا العربية ، والقت قنابلها اليدوية داخل المنزل عن طريق النافذة ، الامر الذي تسبب في مقتل عدد من العرب ، بما في ذلك نساء وطفل ، وهم نيام ، ولم يكن بوسع الهجناه نسب العملية اليها ، وبخاصة لأن صحيفة دافارالناطقة باسم الحركة العمالية شنت بسرعة ، وقبل معرفة هوية الفاعلين ، حملة شعواء ضد المسؤولين عنها وضد « سفالة الارهاب » وشجبت الجريمة ومنفذيها الذين يفتقرون الى اية « احاسيس انسانية »،وانتهت الى القول : « ان ذكرى عملية لوبيا كذكرى العمليات التي سبقتها ، ستحكم بالعارعلى منفذيها المجرمين أياً كانوا » (٨٠) وقد نسبت اتسل هاتين العمليتين الى عناصرها في بداية الامر ، ودرجت ، فيما بعد ، على اشهارهما كسلاح في وجه الهجناه ، ولا سيما عندما كانت تقوم الاخيرة بادانة اعمال مشابهة تنفذها اتسل .

وسط الوضع الذي تميّز بحالة من الارتباك المُت بالهجناه ونشاطاتها ، وبحالة من المد المتنامي لاتسل ، عقب تثبيتها اقدامها كتنظيم وليد داخل اليشوف ، لم تعد هذه الأخير متحمسة لعقد اتفاق وحدوي مع الهجناه ، يحد من نشاطها ونموها ومنافستها لها للهيمنة على اليشوف اليهودي . ويبدو ان قادتها قد ذهبوا بعيداً ، في هذه الفترة ، في تفاؤلهم في تقدير قوتهم وامكانية « ابتلاع » الهجناه ؛ ويستشم ذلك من رسالة دافيد رزيئيل ، قائد اتسل، الى جبوتنسكي ، حول مسألة التفاوض مع الهجناه إذ يقول فيها : « لقد انتهت تلك الايام التي كان فيها من المجدي لنا ، في ظروف معينة ، التفاوض مع الطرف الثاني . وآمل ان تكون قد ذهبت دون رجعة . لن نوافق على نسبة الخمسين بالمئة ولا على مرحلة الانتقال . سنوافق فقط على ابتلاعهم كلياً ، إذا كانت عملية الابتلاع لا تؤثر على امعائنا . إن ابتلاعاً كهذا لا يبدو ، في هذه الأيام ، بعيداً عن الواقع » (٨١) .

بيد أن الواقع لم يكن بهذا الشكل ، فقد جرت سلسلة من اللقاءات والاتصالات بين

المنظمتين العسكريتين ، في فترات مختلفة ، في محاولة للتوصل الى صيغة اتفاق لتنظيم العلاقات بينهما . فخلال انعقاد مؤتمر « المائدة المستديرة » في لندن ، ومع بوادر التبدل في السياسة البريطانية ، جرت اتصالات عدة بين جبوتنسكي وبنحاس روتنبيرغ ، رئيس « اللجنة القومية»، واشترك في بعضها بن ـ تسفي، لم يتوصل الطرفان فيها الى شيء ملزم، وكان اهم ما اتفقا عليه هو اجراء مفاوضات ، بين الهجناه واتسل داخل فلسطين ، بيد ان قيادة اتسل رفضت ذلك (٨٢) . وتجددت الاتصالات ثانية عن طريق اليهودي الفرنسي الثري « شمعون قاليا » الذي طالب ، مثل « ملشت » بوحدة المنظمتين ، واعرب عن استعداده لاقامة صندوق خاص ، يكون تابعاً للحركة التصحيحية والحركة العمالية ، لدعم نشاط المنظمتين عسكرياً ، ودفعهما نحو الوحدة (٨٣) . ولم يتمكن الثري الفرنسي ، على الرغم من اغراءاته المادية من الجمع بين جبوتنسكي ووايزمان بعد لقاءاته بهما ، على قاسم مشترك ، وواجه فشلا ذريعاً يفوق الفشل الذي واجهه زميله « ملشت » في السابق .

وجرت محاولة اخرى لتنسيق العلاقة بين الطرفين حول موضوع محدد هو : تنظيم الهجرة « غير الشرعية » . ففي هذه الفترة ، بذل كل من التيارين نشاطاً محموماً في مجال تهجير اليهود الى فلسطين وادخالهم خلسة اليها ، تمكن خلالها كل فريق من جلب قرابة ستة آلاف مهاجر ، دون ان يكون هنالك اي تنسيق او تعاون فيما بينهما . وقد نشطت اجهزة مخابراتهما في هذا الميدان ، حيث اقامت الهجناه مؤسسة « الهجرة ب » لتنشيط الهجرة « غير الشرعية » التي احرزت فيها اتسل انجازات كبيرة ، نافست فيها الهجناه على الرغم من حداثة ولادتها . وجاءت مبادرة التعاون من قبل البارون روبير دي روتشيلد حين عرض مساعيه « الحميدة » للجمع بين التيارين المتصارعين على كل مهاجر ، بيد ان هذه المساعي اصطدمت برفض مؤسسة الهجرة التابعة للحركة العمالية ، اعتقاداً منها ، كما جاء على لسان جولب ، في حديث له مع جبوتنسكي بهذا الخصوص، انه لا يمكن حدوث ذلك ما دام التصحيحيون خارج سلطة « اليشوف المنظم » ، وانه « لا يجوز لنا ان نكون مسؤولين عن اية عملية تجلب الى البلاد أشخاصاً يعززون من الفوضى ، ويرتكبون اعمالاً خطرة ، حسب اعتقادنا » (٨٤) .

مع تنامي قوة ونفوذ اتسل داخل اليشوف اليهودي ، وامتداد عملياتها لتشمل « الممتلكات الحكومية » وبعض من اسمتهم بـ « المخبرين » من بين اليهود ، وسط تفاقم العلاقة بينها وبين الهجناه ، عقد في اوائل تموز ١٩٣٩ اجتماع بين جولب وجبوتنسكي ، في لندن ، بناء على طلب الاخير بغرض بناء صيغة جديدة للعلاقات بين الطرفين . وقد عرض جولب موقف الهجناه ، شاهراً السلاح التقليدي المتمثل بالتهديد بالحرب الاهلية في حال عدم التوصل الى صيغة اتفاق ، مركزاً على ان نشاط اتسل الارهابي ضد السكان العرب فيه ما يسيء الى المشروع الصهيوني : إذ يدفع العرب نحو موقف موحد صلب ، يحرج البريطانيين الذين يدعمون المشروع الصهيوني ، ويدفع بالبعض منهم للوقوف الى جانب العرب ، محذراً من امتداد النشاط الارهابي ، وسط اليهود ، خشية ادخال اليشوف اليهودي في حرب اهلية . وقدم مشروع اتفاق يستهدف حشد الطاقات اليهودية في فلسطين لخوض « حرب سياسية » موحدة يرتكز على اربعة بنود (٥) :

١ ـ يسري مفعول الاتفاق لمدة ثلاثة شهور على الاقل .

٢ ـ تجري خلال فترة الاتفاق اتصالات بين ممثلي الادارتين لتحديد نشاطات المنظمتين بموافقة الطرفين .

٣ـ التوصل الى صيغ حول حماية الهجرة اليهودية وحماية احتلال الاراضي الجديدة، والنضال ضد تجريد السكان اليهود من السلاح، ومقاومة، ما اسماه الاتفاق بـ «الارهاب العربي».

٤ ـ مشاركة ومساهمة المنظمتين في العمليات المتفق عليها خلال فترة الاتفاق .

لم يعارض جبوتنسكي مشروع الاتفاق وبخاصة لأن الهجناه تخلت هذه المرة عن مطلبها المألوف الخاص باخضاع اتسل الى السلطة المطلقة « لليشوف المنظم » ، الا انه لم يوافق عليه ايضاً . واتفق الطرفان على عقد لقاءات اخرى لبلورة المشروع (٨٦) .

بسبب تتابع الاحداث ، وانشغال تفكير جبوتنسكي في شيء آخر مغاير تماماً هو « الثورة المسلحة » ، وانهماك قادة اتسل في التصدي لجهاز المخابرات البريطاني ، لم تجر لقاءات بين الطرفين ، وآل مصير مشروع الاتفاق الى الفشل اسوة بالمحاولات السابقة .

شددت السلطات البريطانية ، في هذه الفترة ، على ملاحقة ومطاردة عناصر اتسل وزجها في المعتقلات : الأمر الذي أثر بشكل ملحوظ على المنظمة ، وكاد ان يشلها . فقد اصبح هم القيادة ، التستر عن اعين اجهزة المخابرات . ونتيجة لذلك اندفعت قيادة المنظمة نحو توسيع نطاق عملياتها لمحاربة السلطات البريطانية والذي كان يقتصر ، حتى ذلك الحين ، على تخريب المنشآت العامة فقط ، ليشمل بعض الرموز البريطانية ، وخصوصاً من بين المسؤولين عن جهاز المخابرات . وكان اول ضحية لهذا التوجه ، الذي تعمق في الاربعينات ، ضابط المخابرات البريطاني « رالف كرنسكي » الذي لقي مصرعه مع زميل له في ٢٦ آب ١٩٣٩ نتيجة تفجير مجموعة من اتسل لغماً كهربائياً بالقرب من حديقة منزله (٨٧) ؛ الامر الذي دفع سلطات الأمن البريطانية لتعزيز حملتها ضد اتسل بشكل لم يسبق له مثيل ، حيث اخذت المعتقلات تستقبل مزيداً من المعتقلين ، مما اثر على وضع المنظمة ، وجعلها تعيش في اسوأ ظرف مرت فيه ، منذ ولادتها .

« الثورة المسلحة » واندلاع الحرب العالمية الثانية :

اثناء تضييق الخناق على منظمة اتسل ، وانهماك السلطات البريطانية في البحث عن مجموعة القيادة ، وانشغال الاخيرة في قضية اساسية واحدة هي التستر عن اعين جهاز المخابرات ، عقب مصرع كرنسكي ، برز امامها موضوع، او بالآحرى مغامرة « الثورة المسلحة » ، كما تبلورت في ذهن جبوتنسكي الذي بعث ، في تلك الفترة بالذات ، بثلاث رسائل الى قيادة منظمته بهذا الخصوص .

لم تكن فكرة الثورة المسلحة جديدة بالنسبة لقيادة اتسل ، او حتى بالنسبة لليشوف اليهودي في فلسطين ، فقد سبق الزعيم العمالي حاييم ارلوزوروف ، المدير السابق للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ، قادة الحركة التصحيحية بالتفكير في هذا الموضوع عندما طرح فكرة احتلال فلسطين دفعة واحدة عن طريق الاستيلاء على السلطة بالقوة (٨٨) عام ١٩٣٢،

ووقتها كان عدد التجمع اليهودي يناهز الـ ١٧٪ من مجموع السكان . وقد تبلورت الفكرة بين صفوف قيادة الحركة التصحيحية ومنظمة اتسل ، في اواخر عام ١٩٣٨ ، مع توطد العلاقات بين بولونيا ، المركز الرئيسي للتجمع اليهودي في اوروبا ، وبين زعامة الحركة التصحيحية وانهماك التصحيحيين في مجال الهجرة « غير الشرعية » واكساب عناصرهم تدريبات عسكرية في بولونيا. وعرفت الخطة باسماء مختلفة من اهمهااسم «خطة الـ ٤٠ الف»[٨٩] وتضمنت، في ذلك الحين ، نقل قرابة ٤٠ الف يهودي من بولونيا مع اسلحتهم بواسطة السفن الى الشواطىء الفلسطينية ، بهدف الاستيلاء على فلسطين ، او على الاقل ، غرس هؤلاء المهاجرين المدربين فيها ، والضغط على السلطات البريطانية لفتح الباب على مصراعيه امام الهجرة اليهودية .

لم تفاجأ قيادة اتسل بالفكرة ، بحد ذاتها ، وانما فوجئت بتوقيت تنفيذها . فقد شرح جبوتنسكي ، في رسائله السرية لقيادة المنظمة ، بالتفصيل خطة « الثورة المسلحة » التي ستبدأ ، وفق خطته ، في شهر تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٣٩،بوصول سفينة تحمل مهاجرين يهود مع اسلحتهم ، بقيادة جبوتنسكي نفسه ، الى المياه الاقليمية لفلسطين بالقرب من تل ابيب ، وتقوم اتسل بضمان انزالهم الى الشاطىء بقوة السلاح اذا اقتضى الامر . وفي الوقت نفسه تقوم جماعات من المنظمة بثورة مسلحة علنية تتم السيطرة ، خلالها، على مباني الحكومة في القدس ، ويرفع فوقها العلم العبري . وتوصي الخطة باستمرار السيطرة على المباني لمدة ٢٤ ساعة على الاقل ، بغض النظر عن الخسائر ، ويجري خلال ذلك ، في عواصم اوروبا الغربية واميركا ، الاعلان عن اقامة حكومة يهودية مؤقتة » [٩٠] .

بيد ان حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر ، ففي الوقت الذي تلقت فيه مجموعة القيادة الرسائل المذكورة ، كانت المنظمة تعيش اسوأ ايامها ، اذ اصيبت بشلل تام تقريباً ، في حين كانت قيادتها تشعر بالحلقة تضيق حول عنقها اثر اتساع حملة الاعتقالات . في هذه الاجواء ، عقدت القيادة (شتيرن ، حايخمان ، قلعي ، لوفنسكي ، الياف)اجتماعاً في تل - ابيب ، في ٣١ آب ١٩٣٩ ، للتداول في خطة جبوتنسكي لاتخاذ قرار بشأنها ، واثناء تداولها في احد بيوت تل ابيب ، سيطرت على جو الجلسة شكوك حول امكانية نجاح الخطة ، ومع ذلك ، فقد وافقت اكثرية القيادة ، من حيث المبدأ ، على « الثورة المسلحة » كما اقترحها جبوتنسكي ، ورأت فيها انسجاماً مع خط اتسل والحركة التصحيحية . ولم يعارض الخطة سوى ابراهام شتيرن الذي اعتبرها بمثابة تظاهرة تفتقر الى الفائدة ، فضلا عن اعتقاده بان جبوتنسكي يريد ، منها ، التخلص من خصومه السياسيين داخل اتسل [٩١] . وبينما كانت القيادة تحاول اجمال ردها على جبوتنسكي ، فوجئت بقوات الأمن تقتحم الباب ، لتسوقها الى المعتقلات وتضعها الى جانب دافيد رزيئيل الذي كان قد سبق زملاؤه .

وبذلك ، اصبحت المنظمة بمثابة جسد بلا رأس ، ولم يعد موضوع « الثورة المسلحة » ذا قيمة ، وانما اصبح الموضوع الاساسي اعادة الرأس الى الجسد . وقد يبدو للوهلة الاولى ان هذه العملية صعبة للغاية ، بيد ان الأمر ليس كذلك ، بحكم فهم اتسل المستمد من فهم جبوتنسكي لتماثل المصالح بين الصهيونية والاستعمار البريطاني ، والمعتمد على توجيه ضغوطات سياسية ضد السياسة البريطانية تجاه القضية الفلسطينية ، مصاحبة احياناً

بمظاهر العنف ، للازتقاء بالعلاقات بين الطرفين « الشريكين » الى أعلى درجة من التحالف . ومن هنا ، لم تجد قيادة اتسل والحركة التصحيحية ، عيباً اوحرجاً في احداث انقلاب جذري في موقفها السابق تجاه بريطانيا ، لتنافس الحركة العمالية والهجناه ، من خلال الموقف الجديد ؛ على كسب ود الاستعمار البريطاني عن طريق اقامة اوثق العلاقات مع اجهزته المختلفة ، وعلى رأسها جهاز المخابرات ؛ الامر الذي تأتت عنه تبعات خطيرة انعكست على تطور منظمة اتسل نفسها ، وعلى العلاقات بين المنظمات العسكرية الصهيونية .

من بين العوامل التي ساعدت على حدوث النقلة الحادة في موقف اتسل ، وما استتبع ذلك من رفع الحلقة التي اخذت تضيق حول عنقها ، وانتشالها من حالة الشلل ، اندلاع الحرب العالمية الثانية ، في ايلول ١٩٣٩ .

مع اندلاع الحرب ، اتخذت الحركة الصهيونية والتنظيمات المتفرعة عنها ، خلافاً لما كان عليه الوضع في الحرب العالمية الاولى ، موقفاً موحداً الى جانب بريطانيا . ففي اليوم الذي نشبت فيه الحرب بين بريطانيا والمانيا ، هرعت الوكالة اليهودية وأصدرت بياناً اعلنت فيه عن تأييدها اللامحدود لبريطانيا ، وذلك بهدف « الدفاع عن الوطن ، وسلامة الامة العبرية ، وانتصار الامبراطورية البريطانية » . ولم يغفل البيان الكتاب الابيض الذي « الحق بنا اذى كبيراً ، وكما فعلنا في السابق سنبذل قصاري جهدنا للدفاع عن حق الشعب اليهودي في وطنه . ان معارضتنا للكتاب الابيض لم تكن موجهة ضد انكلترا والامبراطورية البريطانية » (٩٢) . كما اعلن رئيس الادارة الصهيونية دافيد بن ـ غوريون عن دعم الصهيونية لبريطانيا من خلال مقولته التي لم تبرح لسانه طيلة أيام الحرب «سنقاتل الى جانب بريطانيا ضد هتلر وكأن الكتاب الابيض غير قائم، وسنناضل ضد الكتاب الابيض وكأن الحرب غير قائمة»(٩٣) كما اعلن ايضاً زعيم الحركة التصحيحية زئيف جبوتنسكي عن وقوفه الى جانب بريطانيا، واتخذت اتسل هي الاخرى موقفاً الى جانب بريطانيا باصدارها، في اواسط ايلول، منشوراً اعلنت فيه عن وقف عملياتها ضد السلطة المنتدبة، جاء فيه «من اجل عدم عرقلة سير الحرب ضد المانيا، ومن اجل تكريس اكبر قدر ممكن من القوى لمساعدة بريطانيا وحلفائها تقرر المنظمة العسكرية القومية وقف عملياتها العدائية في ارض اسرائيل، هذه الاعمال التي من شأنها الحاق الاذى بالحكومة البريطانية، وتعزيز، بشكل او بآخر، ساعد العدو الاكبر لشعب اسرائيل ـ النازية الالمانية ...». وأعرب البيان عن الاعتقاد بأن الحرب العالمية الجديدة ستمنح «الشعب المعذب التعويض الواحد والوحيد الذي يستحقه: اقامة الاستقلال الرسمي في الحدود التاريخية للوطن المحرر»(٩٤)، وطالب باطلاق سراح معتقلي اتسل.

وتجدر الاشارة هنا ، الى ان الرجل الثاني في اتسل وهو ابراهام شتيرن كان ، عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية ، يخالف الاجماع الصهيوني المؤيِّد للتحالف مع بريطانيا ، وينتقد بشدة مقولة زعيمه جبوتنسكي حول موضوعة التحالف ، وقد عبر عن ذلك في مقال له (٩٥) نشره في صحيفة «اومر لعام»، الناطقة باسم اتسل، تطرق فيه الى احتمال نشوب الحرب والدور الذي يتوجب على التنظيم اليهودي العسكري القيام به . وبعد ان طرح مفهومه لحدود « ارض اسرائيل » التي تتجاوز ، حسب اعتقاده ، « ضفتي نهر الاردن » وتشمل اجزاء كبيرة من العالم العربي ، وبعد ان اكدّ ثقته بقدرة « الشعب » الاسرائيلي على تثبيتها بقوة السلاح

بواسطة تنظيم عسكري يهودي مسلح يضم ضباطاً وجنوداً ، قال : « سيأتي يوم لن يتوجه فيه الى جيوش اجنبية ، ولن يكون لحمه غذاء للمدافع لاية امة ولسان ... وليس ، اننا لن نقاتل من اجل شعوب اجنبية فقط ، بل ، ايضاً ، لن نقاتل من اجل انفسنا في كتيبة اجنبية ، لأن تاريخ الكتائب الاجنبية في جميع الجيوش قد كرّر نفسه : جيش مرتزقة (حتى ولو كان هؤلاء مرتزقة فكرة الحرية) يسفك دمه ليعود كما جاء عند انتهاء الحرب مجرداً من سلاحه . كان هذا ايضاً تاريخ الكتائب العبرية ، ولذا فإننا لن نتجند في كتيبة اجنبية ، ولن نتلقى سلاحاً ، ولن نأتمر باوامر الضباط الاجانب ... » وفي نهاية مقاله الذي يشكل حالة نشازاً في الفكر الصهيوني اكد على رفض الخدمة في جيوش اجنبية ، وذلك لتحقيق « ملكوت اسرائيل » ، اعتقاداً منه بقدرة ما اسماه بالجيش القومي اليهودي على تحقيقها بالقوة وفرض سلطته على الاغيار واحتلال بلدان جديدة ، وهذا يتطلب من اليهود ، حسب اعتقاده ، تعلم مهنة الحرب واتقانها ، ايمانا منه بان « ... الملكوت العبرية ستكون على مدى اجيال كثيرة ، كمعسكر جيش في صحراء المشرق العربي » .

---

(١) بيلع، موشيه (جمع واعداد) ، « عالم جبوتنسكي » (عولوشل جبوتنسكي) ، تل ابيب، اصدار : دبوسيم ١٩٧٢ ، ص ٩٥ ـ ٩٦

(٢) نيف، دوف ، « تاريخ المنظمة العسكرية القومية ـ اتسل » (موخوت هارجون هتسفائي هليئومي) ، تل ـ ابيب ، اصدار : كلاوزنر ١٩٦٥ ، الجزء الثاني ، ص ١٧ .

(٣) ليف عامي شلومو ، « في النضال والثورة » (بمأفاك اوفميرد) تل ـ ابيب ، اصدار : وزارة الدفاع ، بدون تاريخ ، ص ٧٩ .

(٤) بن ـ تسيون ،دينور وآخرون (تحرير) ، « كتاب تاريخ الهجناه » (سيفرتولدوت هجناه) ، تل أبيب ، إصدار : معرخوت ، الطبعة السادسة ١٩٧١ ، المجلد الرابع ، ص ١٠٥٥

(٥) نيف، دوف ، مصدر سبق ذكره، الجزء الأول ، ص ١٣٣ .

(٦) المصدر نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٢٠ .

(٧) بن تسيون،دينور وآخرون ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ١٠٥٦ .

(٨) المصدر نفسه، المجلد الرابع، ص ١٠٦١.

(٩) ليف عامي شلومو ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨٥ .

(١٠) تلمي،مناحيم وآخرون ، « مقاتلو الحرية في اسرائيل » (لوحامي هموفيش اسرائيل) ،تل ـ ابيب ، اصدار فريدمان ١٩٥٥ ، ص ١٧٣ .

(١١) بيلع،موشيه ، مصدر سبق ذكره ، ص ٩٧

(١٢) بن ـ تسيون ،دينور ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ١٠٦٢ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٥٥ .

(١٤) نيف، دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الاول ، ص ٢٧٠ ـ ٢٧١ .

(١٥) بن ـ تسيون ، دينور ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع، ص ١٠٥٧ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٥٩.

(١٧) نيف، دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ٩٧ .

(١٨) بن ـتسيون،دينور ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الرابع ، ص ١٠٥٩ .

(١٩) بيجن،مناحيم ، « في العمل السري كتابات » (بمحتيرت ـ كتافيم) ، تل-ابيب ، اصدار : هدار ، ١٩٦١ ، الجزء الرابع ، ص ١٢٨ .

(٢٠) بن تسيون،دينور ، مصدر سبق ذكره ، المجلد، الرابع ، ص ١٠٦٠ .

(٢١) نيف ، دوف ، مصدر سبق ذكره،الجزء الثاني ، ص٧٥ .

(٢٢) بن ـ تسيون ،دينور ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ٧٤ .

(٢٣) نيف، دوف، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ٧٤ .

(٢٤) ليف عامي، شلومو . مصدر سبق ذكره . ص ٨٦ .

(٢٥) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص ١٠٨ .

(٢٦) المصدر نفسه . ص ١٠٨ .

(٢٧) بن - تسيون ، دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الرابع ، ص ١٠٦٥ .

(٢٨) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص ٨٤ .

(٢٩) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ٨٥ .

(٣٠) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ٢٥ .

(٣١) بن - تسيون، دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الرابع ، ص ١٠٦٢ .

(٣٢) المصدر نفسه . المجلد الرابع ، ص ١٠٦٢ .

(٣٣) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص١٨٢ .

(٣٤) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ٢٨ .

(٣٥) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ٨٣ .

(٣٦) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ٩١ .

(٣٧) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ٨٣ .

(٣٨) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ٢٧ .

(٣٩) ليف عامي شلومو . مصدر سبق ذكره . ص ٨٧ .

(٤٠) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص ١١١ .

(٤١) بن - تسيون ، دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الرابع ، ص ١٠٦٣ .

(٤٢) انظر النص الكامل للاتفاق : نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني . ص ١١٢ - ١١٣ .

(٤٣) بن - تسيون دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الرابع ، ص ١٠٦٤ .

(٤٤) المصدر نفسه . المجلد الرابع ، ص ١٠٦٤ .

(٤٥) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني ، ص ١١٥

(٤٦) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ١١٦ .

(٤٧) المصدر نفسه . الجزء الثاني ، ص ١١٥ .

(٤٨) بن - تسيون دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الرابع ، ص ١٠٦٥ .

(٤٩) بن - تسيون دينور وآخرون (تحرير) مصدر سبق ذكره . الجزء الاول . المجلد الخامس الطبعة الثالثة ١٩٧٣ ، ص ٦٣ .

(٥٠) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص ١٩٢ .

(٥١) ليف عامي شلومو . مصدر سبق ذكره . ص ١٠٢ .

(٥٢) بناي، يعقوب . جنود مجهولون (حياليم ألمونيم) . تل - ابيب (بدون تاريخ) . اصدار : مجموعة اصدقاء . ص ٢٨ .

(٥٣) بن - تسيون دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الخامس . ص ٦٤ .

(٥٤) ليف عامي شلومو . مصدر سبق ذكره . ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٥٥) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص ٢٢٧ .

(٥٦) ليف عامي شلومو . مصدر سبق ذكره . ص ١١٤ .

(٥٧) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص ٢٢٨ .

(٥٨) ليف عامي. شلومو . مصدر سبق ذكره . ص ١١٤ .

(٥٩) اسود، عبد الرزاق . . الموسوعة الفلسطينية . . بيروت . اصدار : الدار العربية للموسوعات . ص ٢٧٠ - ٢٧٥ .

(٦٠) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثالث ١٩٦٧ . ص ٣٠ - ٣٢ ؛ افيدار، يوسف . . في الطريق للجيش الاسرائيلي . (بـاديـرخ لتساهل) . تل - ابيب اصدار : موخوت ١٩٧٠ . ص ١٦٢ .

(٦١) ليف عامي شلومو . مصدر سبق ذكره . ص ١٣٤ .

(٦٢) بن - تسيون دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الخامس . ص ٣٢ .

(٦٣) المصدر نفسه . ص ٦١ .

(٦٤) المصدر نفسه . ص ٣٤.

(٦٥) المصدر نفسه . ص ٣٦ .

(٦٦) المصدر نفسه . ص ٢٥ .

(٦٧) المصدر نفسه . ص ٥٧ .

(٦٨)) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص ٢٣٢ .

(٦٩) بن - تسيون دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الرابع ، ص ١٠٦٨ .

(٧٠) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني ، ص ٢٣٣ .

(٧١) المصدر نفسه . الجزء الثاني . ص ٢٢٣ .

(٧٢) المصدر نفسه . الجزء الثاني . ص ٢٢٧ .

(٧٣) بن-تسيون دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الخامس ، ص ٥٩ .

(٧٤) نيف، دوف، مصدر سبق ذكره، الجزء الثاني، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

(٧٥) بن - تسيون دينور، مصدر سبق ذكره . المجلد الخامس ، ص ٦٠ .

(٧٦) نيف، دوف ، مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني . ص ٢٥٠ .

(٧٧) المصدر نفسه، ص ٢٥٠؛ بن - تسيون دينور، مصدر سبق ذكره، المجلد الخامس، ص ٦٠.

(٧٨) بن - تسيون دينور . مصدر سبق ذكره . المجلد الخامس ، ص ٥٩ - ٦٠ .

(٧٩) ليف عامي شلومو ، مصدر سبق ذكره ، ص ١١٩ .

(٨٠) نيف، دوف ، مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني . ص ٢٤٦ .

(٨١) بن - تسيون. دينور . مصدر سبق ذكره ، المجلد الخامس ، ص ٥٦ .

(٨٢) نيف، دوف ، مصدر سبق ذكره . الجزء الثاني . ص ٢٥٣ .

(٨٣) المصدر نفسه، ص ٢٥٢ .

(٨٤) بن - تسيون، دينور ، مصدر سبق ذكره ، المجلد الخامس ، ص ٦٤ .

(٨٥) المصدر نفسه ، ص ٦٥ .

(٨٦) ليف عامي شلومو . مصدر سبق ذكره . ص ١٢٠ .

(٨٧) المصدر نفسه ، ص ١٢٨ .

(٨٨) نيف، دوف . مصدر سبق ذكره ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٨ .

(٨٩) المصدر نفسه . ص ١٥٢ .

(٩٠) بن - تسيون دينور . مصدر سبق ذكره ، المجلد الخامس، ص ٦٦؛ وللتوسع: نيف، دوف مصدر سبق ذكره، ص ٢٧٩ - ٢٨٢.

(٩١) ليف عامي شلومو، مصدر سبق ذكره . ص ١٢٩ .

(٩٢) نيف، دوف ، مصدر سبق ذكره . الجزء الثالث ، ص ١٧.

(٩٣) بن - غوريون، دافيد، «دولة اسرائيل المجددة» (ميدينات يسرائيل ممحوديشت)، تل - ابيب، اصدار: عام عوفيد، الطبعة الرابعة ١٩٦٩. المجلد الاول، ص ٦٤.

(٩٤) نيف، دوف ، مصدر سبق ذكره ، الجزء الثالث ، ص ١٩ .

(٩٥) ميلشتاين، أوري . « بالدم والنار يهودا » (بدام فأش يهودا) ، تل - أبيب . إصدار لفين افشتاين . الطبعة الثانية ١٩٧٤ ، ص ٧٣ .

د. حسني محمود حسين

مدخل لدراسة شعر المقاومة

الخلفيات والجذور منذ مطلع القرن العشرين حتى مطلع الثلاثينات

وفي هذه الفترة الحرجة من تاريخ النضال العربي في فلسطين* يطل علينا شاعر فلسطين الوطني ابراهيم طوقان**(1) وكان لا يزال فتى يانعاً، حينئذٍ، سواء في عمره الزمني ام في عمره الفني. فقد ضايقته احوال البلاد والحقائق المؤلمة والمحن التي تعيشها الحركة الوطنية بسبب التناحر الشخصي والعائلي الذي يزيد، بفعل الاهل، في كارثات الوطن، فنظم احدى محاولاته الفنية المبكرة بعنوان « نحن .. حقائق مؤلمة »(2). وليس اصدق، في الحكم على هذه القصيدة، من رأي صاحبها بها: إذ لم تحظ بقبوله فيما بعد. وكان يولي العاطفة في الشعر النصيب الاوفر من العناية فقال فيها: « انها باردة العاطفة مفككة الاوصال رخوة المعنى والمبنى. وهل ادل من هذا العنوان عليها؟ »(3). واعتبرها مع بعض قصائده التي لم يرض عنها فيما بعد حذلقة، فلم تنشر في ديوانه الذي بدأ في تنظيم قصائده وترتيبها اعداداً لنشره اثناء حياته.

ولم يكن الشعر قادراً، في هذه الفترة، على وقف التدهور في الروح والحركة الوطنية الذي استمر في النصف الثاني من العشرينات: فالشعب، وغالبيته من الفلاحين والعمال، كان يفتقر الى الوعي الاجتماعي حتى ذلك الوقت، وكذلك فانه لم يكن لهذه الجموع تنظيمات تحمي لها مصالحها ومصالح الوطن الحقيقية، بل على العكس كانت لا تزال ترتبط بطبقة الوجهاء والزعماء ارتباطها التقليدي القائم على الروح الاقطاعية والاستغلالية. وبالرغم من فشل طبقة الزعماء

---

* تتمة الدراسة المنشورة في العددين ١٠٤ و ١٠٥ من « شؤون فلسطينية ».

** ابراهيم طوقان: ولد في نابلس عام ١٩٠٥ ودرس فيها على بعض الاساتذة الأزهريين الذين تأثروا بالنهضة الادبية في مصر، ثم التحق بمدرسة المطران في القدس، وتأثر فيها كثيراً بنخلة زريق.

التحق بالجامعة الاميركية في بيروت، ونال شهادتها في الآداب عام ١٩٢٩. عمل في التعليم وفي الاذاعة الفلسطينية، وتوفي عام ١٩٤١ متأثراً بعلة في معدته رافقته منذ حداثته. وهو يعتبر من المجددين في الشعر .. وله شعر وطني كثير.

وعجزها اللذين اثبتتهما طوال فترة الاحتلال ، فإن نفوذها المادي والمعنوي ، كان دائماً الدرع الذي يحميها من أثر أية نقمة على هذا العجز وذلك الفشل . وظهرت آثار التهافت والتفكك على اللجنة التنفيذية التي الغت الاحتفالات التقليدية بذكرى تصريح بلفور عامي ١٩٢٦ و ١٩٢٧ وفشلت حتى منتصف ١٩٢٨ في عقد المؤتمر الوطني السابع . وبهذا طغت على الحركة الوطنية روح الوهن والتشاؤم وراج في هذه الاثناء سوق الدجالين من محترفي الوطنية الزائفة ، حتى لقد تكون المؤتمر السابع بطريقة عشائرية خالصة ، فجاء اعضاؤه عن طريق التعيين بالمضابط والاستدعاءات من قبل المخاتير والوجهاء ، بحيث مثلت فيه كل العناصر المتعاونة مع السلطة والمتعاملة مع الصهيونية بالسمسرة وبيع الاراضي .

ولذلك كانت روح المؤتمر حكومية اكثر منها وطنية ، فجاءت قراراته خلواً من التأكيد على رفض تصريح بلفور ، وانصبت في معظمها على المطالبة باقامة مؤسسات برلمانية على اساس الاغلبية الديمقراطية ،وكاد يسفر عن المطالبة بحكومة وطنية في نظام الانتداب القائم .

وسيطرت الروح الاستسلامية تماماً على تفكير الزعماء ، فظلوا يتمسكون بان تكون مطالبهم وعملهم الوطني دائماً محصورين ضمن الوسائل المشروعة ، دون ان يتطرق الى اذهانهم ان يتمذهبوا أو يتمبدأوا بأية فكرة او عمل يزعج السلطات ، مما اخمد الانفاس في الحياة السياسية والوطنية وجعلها راكدة كالمستنقع الآسن ، وشغل الزعماء بالتلهي والاقتتال على الوظائف وعلى الدنيا ، وتفضيل مخاصمة الانداد على خدمة الوطن . ويبدو ان هذا الوهن الذي لحق بفلسطين قد اثار اشجان احد ابنائها وافاض عاطفته ، وكان قد هجرها في وقت مبكر ليعيش في ارض الكنانة ، وقد شغله هذا البعد وحياته في مصر ، التي كانت وقتها لا تلقي بالاً الى ما يحدث في فلسطين لانشغالها هي الاخرى بحركة استقلالها الداخلي ، فجاشت نفسه بقصيدة يناجي فيها وطنه الاول ، ويقدر ما يحيق به من اخطار الانتداب والصهيونية التي تهدد ارض الشرق كلها ، ولذلك يدعو مصر ان تفتح عينيها على الخطر ، وان تطلق لسان التحذير الى فلسطين وتعلي فيها كلمة الوعي . يقول في قصيدته « يا وطني الاول » وقد نظمها عام ١٩٢٦ :

يا ويح ارض الشرق من عاصفة ... تحمل من ويل سحابا ممطراً
يا وطني الاول لست وطناً ... الا لتلفيق الحديث المفتري
انجلترا شيدت استقلاله ... ودكت استقلاله انجلترا
غادرها الترك الى امثالهم ... بطشاً ، لتبك العين منه الاثرا

ومنها :

اطلت صمتاً يا ابا الهول فمر ... عينيك من طرف اللسان ان ترى
... يا ابن اباة الضيم من هذا الحمى ... من مصر ، وقد اذلوا مضرا
قل لفلسطين وما جاورها ... من اذرع الشام الى وادي حرا
الوطن القومي في اعناقنا ... حبل به نقاد مثل الاسرا
مشرد جاء لحرث ارضنا ... يوشك ان نرعى لديه البقرا
عودوا لجمع الشمل بعد فرقة ... طويلة ، حبا بتوثيق العرا

لا انـام اهلـوهـا ولا كـل ابنـهـا سعيـاً ، وان سعيـه سـوف يـرى(٤)

والشيخ ابراهيم الدباغ*(٥) شاعر من كبار الشعراء المعاصرين لمطران وحافظ وشوقي . وثقافته دينية محضة . ونحن نحس بأثر هذه الثقافة في قصيدته ، وكذلك نحس بقوة شاعريته من خلال جزالة الفاظه ومتانة سبكه لتعبيراته ، ومن خلال صوره وتشبيهاته الموحية . فالعاصفة تحمل من الويل سحاباً ممطراً ليشمل تهديده ارض الشرق ، والوطن القومي اليهودي في فلسطين يلتف على عنق الامة ليخنقها او ليعيش بنوها اسرى اصحابه الذين لا يريدونهم الا خدماً او رعاء لديهم . ويمثل هذه القوة ، طفق الدباغ يدعو لقضية وطنه الام في مصر ، فراح يفضح فكرة الوطن القومي وتصريح بلفور ويعلن على الملأ المظالم والشرور التي جاء بها الانتداب البريطاني على ابناء فلسطين واغتصابه حقهم في بلدهم . ففي قصيدة « احرار مصر وقضية فلسطين »(٦) يذكر بعض من اهتموا بمسألة فلسطين من اقطاب مصر عندما احاطت بها الويلات وانهالت الحوادث والكوارث على اهلها ابتداءً من عام ١٩٢٣ حتى عام ١٩٢٧ . ويبدو ان مصر في ظروفها آنئذ ، وتحكم الاستعمار والاقطاع فيها لم تكن لتسمع صوت هذا المهاجر اليها ، فقد شاركت حكومتها في احتفالات الجامعة العبرية في القدس عام ١٩٢٥ ، وانتدبت احمد لطفي السيد لحضور هذه الاحتفالات الى جانب اللورد بلفور صاحب التصريح المشؤوم ، دون ان تعي اهداف هذه الجامعة وما تمثله من مطامع الحركة الصهيونية واخطارها . وقد اثارت هذه الفعلة شاعرنا البيتجالي فلام مصر ومندوبها اشد لوم وقرعهما اقوى تقريع ، فهو يقدر عن كثب اهداف الجامعة العبرية ومدى الاهتمام بانشائها ، فيقول** محذراً بني امته من اخطارها على مستقبلهم :

اللـه اكبـر كـل هـ	ذا في سبيـل الجـامـعـة ؟
مـا تلـك جـامـعـة العلـو	م بـل المطـامـع جـامـعـة
ان السيـاسـة اوجـدتـ	ـهـا والسيـاسـة خـادعـة
مـن لنـدن هـرولـت تضـ	رم نـار هـذي الـواقـعـة
يـا لـورد مـا لـومـي عليـ	ك فـانـت اصـل الفـاجـعـة
لـومـي على مصـر تمـد	لنـا أكفّـاً صـافـعـة
وتجـيء تشـهـد حفلـة	فيـهـا السمـوم الناقـعـة
يـا (سيـد) قـد جئتنـا	وقلـوب قـومـك هـالـعـة
وشـهـدت جـامـعـة المطـا	مـع لا الـعلـوم النـافـعـة

* ابراهيم الدباغ : ولد في يافا عام ١٨٨٠ ودرس في كتاتيبها ، ولقي عبد الله النديم عندما نفي اليها ، ثم درس في الازهر على كثير من الشيوخ المعروفين ومنهم محمد عبده . استوطن مصر حتى وفاته عام ١٩٤٦ . كتب كثيراً في الصحف المصرية كما اصدر بعض الصحف ايضاً . له ديوان (الطليعة) في جزئين ، ويحتل الشعر الوطني والاجتماعي مكاناً بارزاً في شعره . وجمع ابن اخيه مصطفى درويش الدباغ ، بعض تراثه بعد وفاته .

** نظمت القصيدة بمناسبة افتتاح الجامعة العبرية في القدس ، وقد اسقط الشاعر منها بعض الابيات حول موقف مصر ومندوبها ، وذكر ان تاريخ القصيدة سنة ١٩٢٧ . والمحقق ان افتتاح الجامعة العبرية كان عام ١٩٢٥ .

ارأيـت كيـف تحيط بـالـ عـرب الـذئـاب الجـائـعـة
انظـرت مصـرعنـا وعيـ ـنـك لا تـرفـرف دامـعـة
لـو جـاء هـذي الارض احمـ د قبـل يـوم الجـامـعـة
لـرأى فلسطينـا تقيـم لـه المحـافـل سـاطـعـة
نشكـو لكـم منكـم بنـي مصـر ظـروف الـواقـعـة
اوهمتـم الاعـداء انـا امـة متقـاطـعـة
لا تشمتـوا امـأ غـدت فينـا وفيكـم طـامـعـة(٧)

ومهما يكن مستوى القصيدة الفني ، فان دلالتها عظيمة على نضج وعي الشاعر لتفهمه دور الجامعة العبرية في الاعداد لإنشاء الوطن القومي اليهودي ، ولشعوره العام بالكيان العربي والوحدة العربية امام الاخطار التي تتهددهما نتيجة أطماع الصهيونية .

ويبدو شاعرنا غريب الاطوار في تفكيره وآرائه وان كان محكوماً ، في كل اطواره ، بوطنية صادقة واخلاص شديد ، وغيرة غير متناهية على المصالح العامة والوطنية . وقد رأيناه في بعض آرائه وافكاره فيما مثلنا له من شعره ، ولا بأس ان نعتبره فيها مجتهداً في فهم ظروف الوطن واوضاعه ، دون ان نسيء فيه النية . وفي مواقف اخرى نراه واعياً تمام الوعي يحمل فكراً اصلاحياً احياناً ، وثورياً احياناً اخرى . ومن خلال اتجاهه الى الموضوعات الاجتماعية ، واهتمامه بالاصلاح الاجتماعي ، يلفت انتباهه ، من آثار الهجرة الصهيونية الى فلسطين ، أثر الازياء والتفنن في الملابس وما يتبعهما من تصرفات مقصودة كانت تقوم بها فتيات بني صهيون ويكون لها اثر على روح الشباب العربي من ناحية جره الى المفاسد ، وعلى مكانة الفتاة العربية بجرها الى تقليد الفتاة الصهيونية في أخلاقها وفي أزيائها ، مما كان يعد آنذاك ، وفي كلتا الحالين تدميراً لبعض جوانب بناء المجتمع العربي الراسخة في مثل مدينة القدس ، فيحذر الفتاة العربية من هذه الاعراض ويحثها على الاهتمام بتربية النشء وتنشئة الرجال الصالحين للوطن(٨) . ونراه أحياناً يدعو قومه الى التسلح بالعلم للارتقاء بالوطن ويضرب بعض الامثال على ارتقاء الامم ، باليابان واميركا وازدهار الحياة فيهما وبذّهما اوروبا بالتهذيب والعلم(٩) . ويرقى مرقى متقدماً وفعالاً في حياة الامم والشعوب في دعوته الحضارية من خلال قصيدته « لو كان لي من يصلح الامرا » ، ففيها يدعو الى الأخذ بسبل الاختراع والاكتشاف . ويربط بين التقدم الصناعي لدى الامم وبين حريتها ، ويرى ان مجرد القول والشعر لا يسعف الاوطان ولا يسعدها ولا ينقذها من الفقر ، فقد ولى زمان الابل وايام زيد ضارب عمرا ، واصبح العصر عصر النور والكهرباء ، لا ينفع فيه الا العمل والجد ، لا البكاء ولا العويل . ويتنبه الى حاجة الامة العربية الى القائد ذي الكفاءات العصرية ليلعب دور البطولة في انقاذها من وهدة التخلف التي تغط فيها ، وليعيد اليها عزتها ومكانتها بين الامم . ويسوءه ان يسود داء الخلاف في أمته وفي بلدانها فيرهقها ، ويأسرها الى اوتاد الويل والتخلف والوبال(١٠) .

وفي هذه الاثناء كان ابراهيم طوقان قد انهى دراسته في الجامعة الاميركية وترك بيئة بيروت التي صقلت قلمه في شعر الحب والغزل ، وعاد ليعمل في نابلس ، فيطل على مستنقع السياسة الراكد ليوقظ زعماء بلاده الغارقين فيه ، كأنه يصب على وجوههم الماء البارده، ولربما كانت الظروف تعده ليكون شاعر فئة من الفئات المتطاحنة ، ولكنه تمرد وابى الا ان يكون شاعر

الوطن كله ، فكسبت به الحركة الوطنية شاعراً شاباً متحمساً لقضية بلاده ، وقد تثقف ثقافة عصرية عالية ربما كانت ، مع ما اتسم به من حساسية وعاطفية ، اهم العوامل التي انقذته من عفن الاقطاعية والبرجوازية الذي كان يسيطر على تفكير ابنائها ، وجهاء البلاد في ذلك الوقت ، فجاء مستعيناً بسلاح العلم ليتمرد على بيئة اهله بجمودها الاجتماعي وتعصبها العائلي ، وليفتح فكره وعقله على مصالح الوطن وواقعه الذي غلب عليه الوهن والتشاؤم ، فهب يدعو الى التفاؤل والأمل ، ويحض الشباب على القوة والنهوض بالوطن ونبل المقاصد والنظر الواقعي في احواله . ففي قصيدته « تفاؤل وأمل » التي مطلعها :

كفكف دموعك ليس ينفـــ ـــعك البكاء ولا العويل

وكان قد القاها في حفلة كلية النجاح بنابلس في نهاية العام الدراسي ١٩٢٨ : راح يبشر بهذه الروح ، ويلمس في الناس مكامكن الامل والهمم ، ويرسم لهم طريق الخلاص من واقع الوطن المريض الذي لم يكن الا بسبب الزعماء ويقصدهم ، وهم يخادعون البلاد والعباد . وبالرغم من حداثة سن الشاعر ، فقد كان موفقاً في اثارة موضوع خمود الحركة الوطنية ، وهمود همم الوطنيين ، كأنه ذو باع طويل وتجربة واسعة في الحياة والنضال ، وقد عرف معاناة القوم فراح يحسس مواضع اوجاعهم :

افنيت يا مسكين عمرك بالتأوه والحزن
وقعدت مكتوف اليدين تقول : حاربني الزمن
ما لم تقم بالعبء انت ، فمن يقوم به اذن ؟
كم قلت : « امراض البلاد » وانت من امراضها
والشؤم علتها : فهل فتشت عن اعراضها
وطن يباع ويشترى وتصيح : « فليحيى الوطن » ؟
لو كنت تبغي خيره لبذلت من دمك الثمن
ولقمت تضمد جرحه لو كنت من اهل الفطن

ويبدو ان الشاعر قد انخدع بالوفاق الظاهري الذي تم في ذلك الوقت بين اطراف الصراع في البلاد ، حيث اتفقوا على عقد المؤتمر الوطني السابع في القدس ، فراح يمدح تضامنهم ووفاقهم ، ويبارك مؤتمرهم ويتمنى تحقيق آمال الوطن فيه . ثم افرد عنصر الشباب بتحية خاصة ، فهم امل الغد ، فزفهم الى الوطن كأنهم الزهر الندي الذي لا بد ان يؤتي اكله يوماً[11]

وقد كان لشعر ابراهيم طوقان اثر كبير في فلسطين وعلى بعض شعرائها منذ صباه الفني فنقرأ للشاعر محمد علي الصالح*[12] الذي كانت تربطه به صداقة عميقة الجذور . قصيدة له

---

* محمد علي الصالح . ولد في طولكرم سنة ١٩١٢ . درس في الفاضلية في بلدته ، ثم دخل الكلية الاسلامية بالقدس وامضى فيها خمسة اعوام . ثم بدأ بنشر بعض نفثاته في الصحف الفلسطينية بتوقيع (بدوي الوادي) .
عمل في التعليم في شرقي الاردن . ثم في صحيفة (صدى العرب) المعارضة لحكومة شرق الاردن ، ولذلك ابعد الى فلسطين ليؤدي فيها خدماته في ميدان التعليم وفي ميدان الصحافة بحيفا . اعتقل في ثورة عام ١٩٣٦ وظل معتقلاً حتى اعلان الحرب الثانية . وبعد النكبة عمل معلماً في طولكرم .

القاها في مؤتمر الطلبة العرب الاول المنعقد في يافا في نيسان عام ١٩٢٩ ، وفيها يبدو تأثره الواضح بقصيدة طوقان السابقة ، وكأنها رد بلسان شباب الوطن ، وفيها :

حـي الشبـاب لـموطـن — اضحى من الفـوضى يبـابـا
اضحى عـلى مضض سـاس — ولا يـرى في الحيـف عـابـا
سلبـوه كـل صفـاتـه — لـمـا حبـوه الانتـدابـا
يـا مـوطنـي هـاك الشبا — ب اذا اردت بـه انقـلابـا
وطنـي ازف اليـك الشبـا — ب فـدع بحـرمتـك العتـابـا
قـد ضـج ممـا تشتكي — فـاتـاك مـعتـذراً وتـابـا
هـاك الشبـاب لـغـاصـب — حتـى ينـاقشـه الحسـابـا
والحـق يـؤخـذ عنـوة — ويكـون عـذبـاً مستطـابـا(١٣)

وبتداعي الاحداث ، كانت الحركة الصهيونية قد بدأت تستعيد قوتها ونشاطها بعد منتصف ١٩٢٨ ، فتوقف انحدار الهجرة واصبح عدد اليهود ثلاثة اضعاف ما كان عليه عند نهاية الحرب . وكذلك تضاعفت مساحة الاراضي والملكيات التي وضعوا ايديهم عليها فاصبحت نحو مليون دونم . ومع استعادتها دماء القوة راحت قيادة الحركة الصهيونية تتشدد في ممارسة سياستها العنصرية الانعزالية والعدوانية في آن واحد ، سياسة احتلال الاراضي واحتلال العمل ، فسنت انظمة تبيح تشغيل اليهود وتمنع اصحاب الاعمال اليهود من تشغيل العرب والا تعرضوا للعقوبات . وقد ادت هذه السياسة ، مع ما كان يعضدها من سياسة الادارة البريطانية في تفضيل العمال اليهود على العمال العرب ، الى زيادة البطالة بين العمال العرب من ناحية ، ومن ناحية أخرى الى ازدياد عدد الفلاحين العرب المعدمين الذين كانوا يقتلعون من الاراضي التي عاشوا عليها واجدادهم منذ مئات السنين بعد ان كان اصحابها الاقطاعيون يبيعونها وهم غائبون في لبنان او في سواه من البلدان الأخرى . وقد ادت هذه السياسة الى شحن عواطف هاتين الطبقتين وانتشار النقمة بينهما ، وزاد في هذه النقمة ، بين جماهير الشعب ، توسيع الوكالة اليهودية عام ١٩٢٩ ، لاستنفار يهود العالم لمدّ يد المعونة لاقامة الوطن القومي ، مما استفز مشاعر العرب وزاد في مخاوفهم . ومما يذكر ان شعور النقمة قد تولد ايضاً لدى الطبقة البرجوازية العربية الضعيفة خوفاً على مصالحها من نشاطات الصهيونية وشركات الاحتكار الاجنبية التي فازت باكبر الامتيازات الاقتصادية في البلاد ، مثل امتياز مشروع البحر الميت وامتياز مشروع روتنبرغ لتوليد الطاقة الكهربائية .

في هذا الجو المشحون اغترّ الصهيونيون بما رأوه من وهن العرب وفتور حركتهم الوطنية وتفكك قياداتهم ، فأخذوا يتداعون الى المطالبة بتملك ما زعموه من مكانهم الديني في مكان البراق او ما يسمونه (حائط المبكى) ، وبحريتهم في اجراء طقوسهم الدينية فيه على غير المعتاد . ورافق هذه الظروف بعض الاحداث التي قادت الى المظاهرات من كلا الطرفين ثم الاصطدامات التي وقعت بينهما وبخاصة في مدن القدس والخليل وطبريا وصفد، وراح ضحيتها اكثر من تسعمائة شخص بين قتيل وجريح من كلا الطرفين . وقد عرفت هذه الثورة بثورة البراق او احداث البراق(١٤) . ولم تكن حوادثها مجرد اصطدامات بين العرب واليهود ، « بل كانت جوهرياً هبة جماهيرية في وجه الادارة البريطانية الامبريالية ... وهذا ما جسمته المظاهرات

الشعبية لا في المدن المختلطة فحسب ، بل في المدن العربية الخالصة مثل نابلس ، ولم تكن هذه المظاهرات عنصرية بالمعنى المعاصر ، بل كانت معادية للامبريالية البريطانية... واضطرابات فلسطين السابقة والحالية انما هي ناشئة مباشرة عن السياسة البريطانية والصهيونية التي ترمي الى اخفاء القومية العربية في وطنها الطبيعي لكي تحل محلها قومية يهودية لا وجود لها » (١٥) .

وبهذا كانت ثورة ١٩٢٩ ثورة الكادحين من العمال والفلاحين الذين ادركوا منذ البدء ، علاقة الصهيونية بالاستعمار من خلال تأييده الفعلي لها ومحاربته لأي نشاط عربي سياسي او اقتصادي مما ظهر تأثيره في حياة هذه الطبقة اليومية ؛ ولم تنتظر حتى عام ١٩٣١ لتدرك كالبرجوازية ، ان عدوها الاساسي هو الاستعمار الانجليزي* .

وجاء في تقرير لجنة شو للتحقيق في هذه الاحداث ، « ان عداء العرب ناشىء عن احباط امانيهم السياسية والقومية وقلقهم على مستقبلهم الاقتصادي وذلك هو السبب الاساسي في أنفجار آب ١٩٢٩ » (١٧) . ولهذا لم تأت احداث هذه الثورة فجأة وانما استغرقت بعض الوقت بين مد وجزر ، وقد شملت معظم انحاء فلسطين وان كانت في بعض المدن التي فيها يهود اشد مما في سواها . وقبل ان تندلع نيرانها بأيام ، كانت الابيات التالية سائرة على كل لسان :

للمـوا الـعـزم واصلـوهـا زيـوتـاً	تجـرف الاعـداء والـداء الـدفينـا
واسيلـوه تجيـعـاً قـانيـاً	يجـعـل الـريبـة في الحـرب يقينـا
فـاذا مـا زدت للصلـب اللظـى	زاد عنـد الطـرق اذعـانـاً ولينـا
لـن يبيـت الـعـرب قـوتـاً للـعـدى	فـاستميتـوا تقتضـوا الحـق المبينـا

وفي اثناء الثورة قال صاحب هذه الابيات أيضاً :

عبثـا تحـاول ان تـعـمـر دولـة	قـامـت دعـائمـهـا عـلى البـهتـان
لا تحسبـوا لـمـع البـروق تبسمـاً	تتلـو البـروق صـواعـق النيـران
واذا فم البـركـان قهقـه ، فـاصمـدوا	لجـهنـم تلقـى مـن البـركـان
فـالـدهـر يقبـل تـارة فيـغشكـم	وهـواه كـالـدولاب في الـدوران
والحـق يظفـر بـالضـلال وجنـده	هيهـات تقـوى للضـلال يـدان**(١٨)

---

* كان حمدي الحسيني احد الشخصيات السياسية في فلسطين قد كتب مقالة في منتصف عام ١٩٢٧ ، قال فيها : « ... فلم يبق لفلسطين الا ان تعكس خطة جهادها . فتتخذ رفض الانتداب وطلب الاستقلال خطة سياسية لقضيتها . وتقـاوم الصهيونية بمقـاومة الانتداب ؛ اذ لا انتداب بـلا صهيـونية ، ولا صهيـونية الا اذا زال الانتداب » (١٦).

** محمد العدناني : ولد في جنين عام ١٩٠٣ وتلقى علومه في مدارس جنين وطولكرم وغزة ودوما ، ثم في مدرسة الفنون الاميركية بصيدا ثم في الجامعة الاميركية ببيروت ، حيث تحول الى دراسة الآداب بعد ان امضى اربع سنوات في كلية الطب ، نزولاً على رغبة احمد شوقي الذي سمعه ينشد قصيدته في معارضته قصيدة ابن زريق البغدادي ، ووعده له ان يكون اباه الروحي . تخرج عام ١٩٢٧ وعمل في التعليم في بغداد وفي نابلس والقدس ، كان له نشاطات وطنية واسعة تسببت في اعتقاله عدة مرات . عاش بعد النكبة في الزرقاء بالاردن ، ثم في حلب بسوريا حيث عمل في ميدان التعليم ، واستقر اخيراً في صيدا بلبنان . له شعر قومي واجتماعي كثير .. وله عدة دواوين مطبوعة ، ولديه كثير من الشعر والدراسات المخطوطة التي تستحق الدراسة (١٩) .

وتناست الادارة البريطانية كل الظروف التي خلقتها في فلسطين ، بالتعاون مع شريكتها الصهيونية ، وادانت العرب في هذه الاحداث ، وكان المندوب السامي يومها « جون تشانسلور » غائباً في بلاده ، فعاد مسرعاً على اثر الاحداث واصدر بياناً مجحفاً اتهم فيه عرب فلسطين بـ « الجريمة » ووصفهم بانهم « شربة دماء » . واستخدمت السلطات هذه الاحداث لضرب مطالب العرب في فلسطين ، فاعتقلت مئات الشباب واصدرت الاحكام المتنوعة عليهم بالجملة وكان منها عشرون حكماً بالاعدام نفذ الحكم في ثلاثة من اصحابها يوم الثلاثاء ١٧ حزيران ١٩٣٠ ، اصبحوا مكان تقدير الشعب ، فاتخذهم مثلاً للبطولة الحقة .

وتعتبر ثورة البراق هذه اكبر ثورة تحدث في فلسطين حتى ١٩٢٩، وقد عمقت حدة الصراع وزادت في عنف العداء بين العرب واليهود ، وكشفت ، اكثر من اي وقت مضى ، عن موقف الحكومة البريطانية والاستعمار المؤيد للصهيونية ووحدتهما معاً . وبدأت ، بعدها ، تتضح اكثر فاكثر ضرورة فهم العرب لهذا الموقف على حقيقته ، لا سيما بعد ان طوت الحكومة تقرير (لجنة شو) التي ارسلتها للتحقيق في تلك الاحداث لانه كان في مصلحتهم . فتجدد نضال العرب بعدها وانتعشت الحركة الوطنية بعد الجمود الذي كان قد اصابها ، وبدأت تظهر التنظيمات الشعبية بصورة لم يشهدها المجتمع الفلسطيني من قبل ، فظهر تنظيم نسائي ، وآخر طلابي ، وآخر عمالي ، وقوي صوت التنظيمات المهنية الجامعية من محامين واطباء وصيادلة ، فقويت حركة الاحتجاجات الجماعية ، وتفجرت يقظة جماهيرية سياسية واجتماعية . وكان من آثار هذه الثورة قصيدة « فتنة المبكى » لوديع البستاني ، وفيها يستعظم ما وصل اليه اليهود من قوة لا تكاد تصدق وما اصبح لهم من اثر في حياة فلسطين بعد هذا الذي اثاروه في البلاد . ويقدر الشاعر المساندة التي يلقاها اليهود في دهر اهله من عبدة الذهب ، ويعي مساندة بريطانيا للصهيونية وينبه على تلك المساندة ، ولكنه يرى في اتحاد العرب ، مسلميهم ومسيحييهم ، خير البلاد وعزتها ، ويفخر باقتداء مقدساتها ، ويبشر فيما بعد بحتمية الخلاص من افعى الصهيونية . ومطلع قصيدته :

عجب الدهر يريني العجبا ويواري في الليالي الحقبا

ومنها :

يا اخا الايمان ايماني وهى افجدا ما نرى ام لعبا
... ويشاء الله ان يجتمعوا بعدما فرقهم ايدي سبا
ليس دهر الله هذا : انه دهر جيل يعبدون الذهبا
دول الارض علينا انتدبت ورأينا السيد المنتدبا
« حامي الايمان » اجلالاً وما همه الايمان الا لقبا
... امس كنا والنصارى بعضنا ومضى الليل فقمنا عربا
أإذا أم غريب دارنا خالنا في الدار بعض الغربا
رب شر بات منا دانياً قرب الخير لنا فاقتربا
واذا ما آلم الأقصى البكا ورثى القبر له واكتأبا
فلقد سرهما من دمنا يا فلسطينهما ما شربا
... ان في وحدتنا قوتنا ومن الضعف بنا سيف نبا

نحن للاقصى وللقبر الفدى كلما صاحا بنا واحربا
يا ملوك الأرض يا اقوامها اذكرها الله وتلك الكتبا
واعذروا المغدور في ثورته ان قضى بعض الذي قد وجبا
جردوا السيف فكانوا جزراً اوقدوا النار فكانوا الحطبا
ان قطعنا ذنب الافعى فمن في غد يلحق رأسا ذنبا* (٢٠)

وكان من نتائج هذه الحوادث بروز عنصر الشباب وطبقة العمال على سطح العمل الوطني ، وقد ادركوا ان فشل سياسة الوجاهة التقليدية انما كان بسبب تفكيرها الرجعي وقصرها العمل ضد الصهيونية فقط دون الاستعمار البريطاني الذي هو اساسها وحاميها ، بل ان هذه الزعامة كانت تتقرب خطأ من بريطانيا طمعاً في عطفها ومنحها الاستقلال الذاتي للبلاد ، فعقد مؤتمر الطلاب في ايلول ١٩٢٩ ، وطالب بالضرب على ايدي فئة السماسرة الخبيثة وكان بعضهم اعضاء في اللجنة التنفيذية ، وعلت اصوات المحامين في احتجاجاتهم على منشور المندوب السامي بشأن الاحداث ،تنتقد سياسة الحكومة بحرارة(٢١) . كما جاء مثل هذا الانتقاد في تقرير الجمعية الاسلامية بيافا الى لجنة التحقيق البريطانية(٢٢) .

وهكذا بدأنا نسمع الاصوات تعلو ضد السياسة البريطانية مباشرة ، وان انحصرت هذه الاصوات في مجرد الاحتجاج والانتقاد ، ولكن سيكون لها تأثير واضح في انتهاج السياسة العملية المعادية ، بصوت السلاح للانجليز فيما بعد . اما صوت الشعر فلعل مما له دلالة خاصة في هذه المرحلة ، ان يجعل ابراهيم طوقان اللازمة في نشيده « وطني انت لي » نداءه لشباب الوطن :

يا شبابنا انهضوا آن أن تنهضا
ولنعــلِّ الوطـن فلنعْمَ الوطـن(٢٣)

ووضع ابراهيم ، عام ١٩٣٠ ، ثلاثة اناشيد وطنية ، اثنان منها « نشيد بطل الريف » و« نشيد فتية المغرب » حول ثورة المغرب وبطل الريف المراكشي عبد الكريم الخطابي ، وهما نشيدان حماسيان ، كأنه اراد بهما ان ينقل ثورة المغرب الى بلاده ، فتنتشر عدواها في نفوس الناس . اما النشيد الثالث فهو « نشيد موطني »(٢٤) ، ويعتبر من افضل الاناشيد الوطنية العربية ، ولكم رددته حناجر الآلاف من شباب فلسطين والوطن العربي . وفيه يسمو بالوطن الى اعلى درجات الجلال والعلا :

موطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك
والحياة والنجاة والهناء والرجاء في هواك

---

* نظمت القصيدة يوم ١٩/١٠/١٩٢٩ ، عشية يوم اضراب صامت . حامي الايمان : من صلب اللقب الرسمي لملوك انجلترا .

يبدو تأثر الشاعر في البيتين الاخيرين بقول الشاعر العربي القديم :

هم جردوا السيف : فاجعلهم له جزرا هم اوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا
لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها ان كنت شهماً فالحق رأسها الذنبا

ويجعل هم الشباب الدائم استقلال الوطن والموت في سبيله :

موطني الشباب لن يكل همه ان تستقل او يبيد
نستقي من الردى ولن نكون للعدى كالعبيد

والنشيد ، وان كان ناجحاً في خفته ورشاقته وتوزيع موسيقاه ، الا ان صاحبه لم يستطع ان يتخلص من هم تسلط عليه ، هو هم ضعف البلاد وتفتت قواها .. فمما له دلالته ، قوله :

هل اراك ،
سالما منعماً وغانماً مكرماً
... لا نريد
ذلّنا المؤبدا وعيشنا المنكدا

ولقد خضع لخصومات الحزبية وصراعات قادتها ، فاضطر الى القول :

موطني الحسام واليراع لا الكلام والنزاع رمزنا

وكأن النشيد يصور حياة البلاد في تلك الفترة ، ويظل صالحاً لفلسطين طوال الوقت . أما الخاتمة فتعتمد الوعي التاريخي بأمجاد العرب في سبيل اعزاز الوطن وقهر اعدائه .

مجدنا وعهدنا وواجب الى الوفا يهزنا
عزنا
غاية تشرف وراية ترفرف
يا هناك في علاك
قاهراً عداك
موطني

وصباح يوم الثلاثاء ١٧ حزيران عام ١٩٣٠ ، اجتاحت فلسطين كلها موجة من الغضب والاستنكار بسبب تصميم السلطات على تنفيذ حكم الاعدام في ثلاثة من الشبان من ابطال ثورة البراق في آب ١٩٢٩ . وكانت ساعات رهيبة حقاً ، تلك الساعات التي حددتها السلطات لتنفيذ الحكم فيهم على التوالي . فكان اعدام الشهداء الشباب ، فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم ، مظهراً من مظاهر سياسة تصريح بلفور ، الهب حماسة الجماهير وشدها الى التفكير في دور الاستعمار في البلاد واحتضانه للصهيونية التي تهدد بخطرها مستقبل الحياة فيها . وكان الشهداء الثلاثة مثال الرجولة والتفاني في سبيل الوطن وهم من آحاد الناس العاديين ، راحوا يتسابقون ، في ساعات الموت ، على حبال المشانق تسابقهم على خدمة فلسطين وللتضحية من أجلها ، وقد كانوا صباح اعدامهم ، في ثلاث ساعات متتاليات ، ينشدون في حماسة المؤمنين واستبشار المتفائلين بخير الوطن :

يا ظلام السجن خيم اننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل الا فجر مجد يتسامى

وانبرى شعراء فلسطين الشباب يمجدون روح البذل والعطاء لدى الشهداء ، ويرفعون منهم منارات للاخلاص الوطني ويشعلون من اسمائهم اقباساً نورانية للحق والبطولة . وكانت قصيدة ابراهيم طوقان « الثلاثاء الحمراء » خير سجل لتخليد ذكرى الشهداء في سفر الشعر الخالد ، فقد صور فيها مصارعهم وروعة استشهادهم ، كما صور ذلك اليوم المخضب بالدماء ، ولم يكن قد مضى اكثر من عشرة ايام على استشهادهم ، وكانت النفوس لا تزال ثائرة ، والعواطف لا تزال مضطرمة ، وفي حفل مدرسة النجاح الثانوية في نابلس ، القى الشاعر قصيدته وذهل عن الجمهور ، وشعر كأنما خرج من لحمه ودمه . فكان يلقي بروحه واعصابه ، فما انتهى حتى كان بكاء الناس يعلو نشيجه ثم تدفقوا خارج القاعة في هياج عظيم ، حتى لقد قال بعضهم يومئذٍ : لو ان ابراهيم القى قصيدته في بلد فيه يهود لوقع ما لا تحمد عقباه[٢٥] . وتحمل القصيدة ، حقاً ، روح القوة ، وتمجد البذل والفداء ، وتشحن النفوس بروح المقاومة والعداء للمستعمر اقتداء بالشهداء ، الذين سلكوا درب الشرف والخلود . وتعتبر القصيدة درة لامعة في ديوان الشعر العربي الحديث في عصر النهضة . وقد جاءت اشبه ما تكون بصورة مصغرة لملحمة عظيمة بروحها الحماسية وسردها الفني ، فتتوهج فيها عروق عظمة الانسان ونبله ، وتفانيه من اجل المثل الوطنية الحقة والجود في سبيلها ، بالنفس ، اقصى غاية الجود . وجعلها الشاعر في ثلاثة مشاهد : مقدمة وخاتمة وبينهما صورة الساعات الثلاث الواحاً فنية ناطقة ، انطق كل ساعة منها في لوحة من هذه اللوحات ، فقدمت صاحبها البطل من خلالها مثلا على الإباء والحمية وصلابة النضال والاستبشار في موقف الشهادة وتفدية الوطن ، ليكون نموذجاً للشباب يقدح في مهجهم شرارة العزم والايمان والوعي . فالساعة الثانية تقول :

انا ســاعة الرجل العنيد — انا ساعة اليأس الشديـد
انا ساعة الموت المشـرف — كل ذي فعــل مجيـد
بطالــي يحطــم قيـــده — رمــزاً لتحطيم القيــود
زاحمت من قبلي لأسبقها الى شرف الخلود*
وقدحت في مهج الشباب شرارة العزم الوطيد
هيهــات يخدع بالوعــود — وان يخــدر بالعهــود
قسمـاً بــروح (محمد) — تلقى الردى حلو الورود
قسمــاً بأمك عند موتــك وهــي تهتف بــالنشيـد**[٢٦]
وترى العـزاء عــن ابنهــا في صيتــه الحســن البعيــد
ما نــال من خـدم البـــلاد أجــلَّ من أجــر الشهـــيد

---

* كان من المقرر رسمياً أن يكون الشهيد عطا ثانيهم ، ولكن جمجوماً حطم قيده وزاحم رفيقه على الدور حتى فاز ببغيته .

** كانت أم الشهيد قد غنت لابنها موالا على طريقة اهل الخليل :

السجن لك قفص من ذهب — والقيد لك خلخال
وحبل المشنقــة كردانــك — يا زينة الرجـال
والكردان قلادة من فضة

وفي المقدمة ، جاء مطلع القصيدة ليقدم صورة بانورامية من على افق فلسطين كلها ، يوم « الثلاثاء الحمراء » ، حيث كان التكبير من على المآذن ، وقرع النواقيس في الكنائس تتجاوب اصداؤهما في ارجاء البلاد قاطبة مع بداية كل ساعة من الساعات الثلاث التي تقرر عندها اعدام واحد من الابطال . وفي هذه الصورة فاضت عاطفة الشاعر الصادقة في عفوية وعمق احساس ، فلونت الصورة كما السماء بغيومها المدلهمة ، وكما الليل والنهار وقد اعتراهما غمر من كدر الشاعر وعبوسه ، في ذلك اليوم الذي اختلطت فيه عواصف الغضب الانساني بمزيج من العواطف البشرية الناقمة والحزينة والباسلة في آن واحد ؛ اذ الموت يطيف طائره حول سجن عكا يتخطف ، على ادوار ، من كل قلب ، من هو اقرب الى ان يكون فلذة كبد صاحبه او فلذة كبد فلسطين ذاتها :

لما تعرض نجمك المنحوس	وترنحت بعرى الحبال رؤوس
ناح الاذان واعول الناقوس	فالليل اكدر ، والنهار عبوس
طفقت تثور عواصف	وعواطف
والموت حينا طائف	او خاطف
والمعول الابدي يمعن في الثرى	ليردهم في قلبها المتحجر

ويوم الثلاثاء هذا ، كما انطوى ، مثلاً لشعب فلسطين ولشهدائها ، على عظمة التضحية ، ونبل الفداء ، تقديساً لفلسطين الغالية ، كذلك احتوى مثلاً لشعب بريطانيا وحكامها ، على اعجب المصائب واغرب النوائب ، تمثيلاً للاستعمار ومظالمه ، ففاق فيهما من هذه الناحية ايام محاكم التفتيش في العصور الوسطى فلم يجد له بينها شبهاً في جوره . وكذلك فقد فاق في بشاعته وشناعة ظلمه ايام عهود النخاسة ، اذ مشى فيه الزمان القهقرى ،

فسمعت من منع الرقيق وبيعه	نادى على الاحرار يا من يشتري

وهكذا يمضي الشاعر فيوازن بين ثلاثائه الحمراء وبين يوم جمال السفاح في « عاليه » حيث كان قد شنق فيه بعض احرار العرب وعلى لسانه يقول مخاطباً يوم الثلاثاء :

وشهدت للسفاح ما	ابكى دما
ويل له ما اظلما	لكنما ....
لم الق مثلك طالعاً في روعة	فاذهب لعلك انت يوم المحشر

وهكذا يصل بهذا اليوم الى ان يكون فريداً بين الايام المشهورة ببشاعتها وبظلم احكامها ، فهذا :

« اليوم » تنكره الليالي الغابرة	وتظل ترمقه بعين حائرة

ويمضي بعد ذلك يتخذ من مهابة هذا اليوم وروعة الفداء فيه ، نموذجاً للوطنية والتضحية يشحن بهما روح الشعب ، ويمنح رصيده من القوة والامل ما يملأ نفس المرء اباء وعنف مقاومة واحتمال .

وطن يسير الى الفناء	بلا رجاء
والداء ليس له دواء	الا الإباء

ان الإباء مناعة ، ان تشتمل نفس عليه تمت ولما تقهر

ويصب نقمته على اولئك الذين الحوا على المندوب السامي ، ورفعوا اليه الاسترحامات ليصدر العفو عن المحكومين ، دون ان يقدروا النتيجة تقديراً سليماً بأنه من قوم « لهم قلوب كالقبور بلا شعور » ففيهم يقول :

هيهات ، فالنفس الذليلة لو غدت مخلوقة من اعين لم تبصر

وفي الخاتمة نحس بشعور الإباء والإذعان لقضاء الله ، اذ يجمع الشاعر الشهداء الابطال معاً ، حيث :

اجسادهم في تربة الاوطان ارواحهم في جنة الرضوان

فلا يرجى العفو الا من الإله الذي

جبروته فوق الذين يغرهم جبروتهم في برهم والابحر(٢٧)

والقصيدة حقاً من أفضل قصائد ابراهيم الوطنية ، نحس فيها وطنيته الصادقة وألمه الكامن وقد تفجرا من اعمق احاسيسه فنظمها في « مواكب نفسية ثائرة ، طوفت فيها مشاعره بأداء موسيقي حزين وان كان حزناً باسلاً جعلها وكأنها انشودة من اناشيد الالياذة والاوذيسة » . فجاءت وقد وشاها في ثوب شعري جديد « من ذوب الفن وتلاوين العاطفة ، وانسكاب النغم الموسيقي المتسلسل في نسق متماوج ... وتنظيم محكم سائغ من متذوق لترانيم الالفاظ وروعة المعاني والخيال »(٢٨) . فكان لهذا ذلك التأثير العميق في اثارة النفس وبعث نقمتها وقوتها* .

ولا يعني تسرب انفاس الشباب الى العمل الوطني ان الحركة الوطنية قد استعادت عافيتها ، فقد كان وهنها وتخلف قادتها وجمودهم الفكري ، ارسخ من ان يؤثر فيه وعي الشباب الجديد وافكاره المستنيرة ؛ اذ ظلوا محكومين لـ « حميديتهم » ، وتنابذهم ، يفرق كلمتهم اقل الامور تفاهة ولا تجمع رأيهم أخطر الاحداث واكبرها تأثيراً في مستقبل الوطن. فقد استعرت نار

---

* انظر قصيدة للشاعر محيي الدين الحاج عيسى الصفدي في تخليد ابطال حوادث البراق - **الشعر الحديث في فلسطين والاردن** ، للدكتور الاسد ، ص ١٠٠ . وكذلك مقطوعة للشاعر البستاني على لسان الشهيد فؤاد حجازي عملاً بوصيته - « ديوان » ص ١٩٢ . وكانت قد نشرت في العدد ٧٨ من جريدة - **الحياة** - بتاريخ ٧ تموز ١٩٣٠ .

محيي الدين الحاج عيسى الصفدي - ولد في صفد عام ١٨٩٧ تقريبا . وقد اكمل تحصيله الابتدائي في مدرستها ، والاعدادي في مدرسة عكا ، والثانوي في (سلطاني بيروت) . ثم انتقل الى الكلية الصلاحية بالقدس ليقضي ثلاث سنوات في صفوفها العليا . عمل في ميدان التعليم في صفد ونابلس حتى كانت النكبة فنزح مع اسرته الى حلب ، وعمل في سلك التعليم فيها ، ولا يزال مقيماً هناك . تأثر في نشأته بجو الاسرة العلمي وبقراءته القرآن ومطالعاته في دواوين الشعر الحديث والقديم . وقد نشر كثيراً من شعره في المجلات العربية . وله مسرحيتان - مصرع كليب ، وأسرة شهيد . عن رسالة شخصية من الشاعر في حلب مؤرخة في ١٩٧٠/٦/٣٠ . انظر في ترجمته - **اعلام الفكر والادب في فلسطين** - ص ٣٥٧ .

الخلاف بينهم بشأن سفر الوفد الرابع الى لندن في ٣١ مارس (آذار) عام ١٩٣٠ ، حتى ادى الامر ببعض اعضاء اللجنة التنفيذية الى الاستقالة ، وترامى الجميع على التعاون مع الحكومة ، وبلغت الزعامة حداً من الضعف انست به الحكومة البريطانية ، فالغت تحت ضغط الصهيونية الكتاب الابيض لعام ١٩٣٠ ، الذي كانت قد حددت فيه الهجرة اليهودية وبيع الارض دون ان تهتم باحتجاجات اللجنة وصراخها .

ولأمد شارك الشيخ ابو الاقبال اليعقوبي في النعي على رجال الحركة الوطنية نومة طويلة ناموها ، فراح يوجه عتابه الى من احسن فيهم ظنه ؛ فنشر قصيدة يُخاطب فيها وديع البستاني ، ومنها في بيان حال فلسطين تحت حكم الفاتحين الانجليز :

فالفاتحون وما بهم من رحمة   لم يعملوا الا على اذلالها
هم زلزلوها حينما نزلوا بها   وكفى الخطوب تزيد في زلزالها

وقد رد عليه البستاني بقصيدة مطلعها :

(ابا الاقبال) ناد (ابا فؤاد)   وانت (انا) وننفخ في رماد

وفيها ينعي على البلاد تمزقها وفرقة ابنائها مما اودى بها ، اذ لم تستمع الى صوت الحق والقوة ، مما قادها الى الضعف وبوار المقاصد حتى لم تعد تجني لجهادها أية ثمار :

وقتلانا بعقر الدار هدر   دماؤهم تصير الى سماد
فان زرع الشقاق وراح ينمو   فيا ويلاه من يوم الحصاد(٣٩)

بهذا نرى الدور الذي حاول الشعراء ان يؤدوه في هذه الفترة ، فهل كان لشعرهم الاثر المتوخى في مقاومة المخططات والاطماع الاستعمارية والصهيونية ؟ . وهل نحس فيه مقاومة التحدي الذي فرض على الوطن ؟ وهل كان في مستوى هذا التحدي ؟ وللاجابة عن هذه التساؤلات ، لا بد من ان نأخذ في الاعتبار احوال المجتمع وحياة الشعب في مناحيها المختلفة ، وكذلك لا بد من ان نشير الى اوضاع الاعداء الذين فرضوا انفسهم على هذا المجتمع . وقد اشرنا الى شيء مما كان يعتور حياة هذا المجتمع ويتحكم فيها دون ان يكون لليقظة القريبة العهد التي احسسنا بها في نهاية العهد التركي أثر كبير ، فهي ، على اهميتها ، لا تعدو ان تكون لمه ، لم يتح لها ان تأخذ مداها الطبيعي لتغمر باشراقها الجوانب المظلمة في الحياة الجماهيرية ، بسبب ما لاقته من تسلط الاعداء ومن قصور القوامين على شؤونها ، وهي بالتالي جزء من اليقظة العربية في هذه المرحلة من حياة المنطقة ، دهمتها اخطار اعتى واشد من تلك التي اختصت بها بقية اقطار الوطن الكبير ، فاجهضت فيها عنصر القوة ، واخبت انوارها . ولم يكن هؤلاء الشعراء ، على اية حال ، سوى ابناء هذا المجتمع ونبت ثقافته ، ومع ذلك فإننا نرى انهم قد حاولوا التصدي للاخطار التي دهمت وطنهم ، وان تأخر ذلك قليلاً عن بدء الاحتلال ، كما تثبت النصوص الشعرية التي بين ايدينا ، فيما عدا شعر وديع البستاني الذي ارتفع صوته مبكراً ليفضح هذه المخططات والاطماع ، وذلك لاسباب متعددة ربما كان من اهمها الظروف الخاصة التي دخلت فيها بريطانيا فلسطين حليفاً ومنقذاً . وهذا على الاغلب هو ما جعل شعر هذه الفترة

يتجه الى مقاومة تحدّي الخطر الصهيوني الذي احسه الناس اكثر مما احسوا الخطر الاستعماري ، ورأوه كأنه منفصل عنه . ومهما يكن من امر ، فلم تكن مهمة هؤلاء الشعراء ، في ظروفهم تلك ، سهلة او بسيطة ، فعدم وضوح الفكر والاهداف ، وتخلخل الحياة في المراحل الانتقالية من حياة الشعوب يخلق كثيراً من الصعوبات في وجه الفنان او الشاعر ، خصوصاً في مجتمع يعتوره كثير من امراض الحياة المزمنة . ولذلك نرى ان بعض الشعراء قد انصرف همهم الى معالجة اوضاع المجتمع وما يسوده من تنابذ واحقاد ، وصراع وعصبيات ، كان خيراً انهم هم لم يغرقوا في مستنقعاتها . ومع ما نلمسه من التماعات فكرية لدى بعضهم احياناً ، فلربما لم يرق شعرهم الى مستوى التحديات التي فرضت على الوطن ، وما كان له ان يرقى ، لا شكلاً ولا مضموناً ، في مجتمعه وظروفه . وامام الاصرار البريطاني والصهيوني بكل ما لديهما من قوة وسلطة ومال سخرت كلها في خدمة اغراض سياسية ومخططات استعمارية مرتبطة باهداف واستراتيجيات دولية ، تحس ان الشعراء تمكنوا من استشفاف اخطارها . فانطبع شعرهم لذلك بطابع الالم والاسى والمرارة . وعلى الرغم من اننا نقدر ان هذا الشعر لم يكن في مقدوره ان يوجه الاحداث ، فاقتصر على متابعتها الى حد كبير . فانه كان اسبق من زعماء البلاد وسياسييها في بلورة المقاومة وتحديد اتجاهها الصحيح ، كما كان اسبق منهم في كشف مخططات الاعداء واطماعهم ، ولم يقصر الزعماء في اعانته وتعضيده لأداء مهماته وحسب ، وانما ظلوا عبئاً ثقيلاً عليه وعلى الوطن ، مما افقده كثيراً من اثره ، واحبط كثيراً من جهد الحركة الوطنية الشعبية نفسها ، وعطل بالتالي ، الجزء الاعظم من طاقاتها .

ومنذ مطلع الثلاثينات بدأ زعماء الحركة الوطنية يدركون اهمية الاستعانة بجهود الشعوب العربية الاخرى والشعوب الاسلامية ، في درء الخطر الاستعماري والصهيوني عن الاراضي المقدسة في فلسطين العربية ، وبخاصة بعد رحلة التيه التي عاشها وفد اللجنة التنفيذية الرابع الى لندن في آذار (مارس) ١٩٢٠ . فبعد ان كانت الحركة الوطنية تعتمد في عملها على ذاتها طوال العشرينات ، باستثناء محاولات يسيرة او فردية كانت تبذل بين حين وآخر ، نشأ لديها احساس بضرورة التضامن العربي والاعتماد على سائر الشعوب العربية والاسلامية لأنها شريكة لهم في الارض المقدسة التي بات يهددها خطر الصهيونية والاستعمار(٣٠) . ولربما كان هذا الاتجاه الجديد لدى بعضهم مجرد مخرج للزعامة الهزيلة تشغل نفسها والشعب معها في طريقه . ويمكننا ان نلاحظ ان الحركة الوطنية في بداية الثلاثينات بدأت تتشعب بها الطرق ، فنرى فيها اتجاهاً اسلامياً ، وآخر عربياً ، ثم نرى فيها عنصراً جديداً يتمثل في عناصر الطبقة الكادحة : الطلاب والعمال والشباب . ولقد حاولت الوجاهة التقليدية ان تستغل كل هذه التشعبات ، فاشرفت على توجيه الدعوة وعقد المؤتمر الاسلامي العام في القدس في ٧ كانون الأول ١٩٣١ ، وحضره ممثلون عن اكثر من عشرين قطراً دون ان يحقق ما يعود على القضية بأدنى فائدة عملية . وكذلك عقد المؤتمر العربي القومي في ١٣/١٢/١٩٣١ في القدس في اعقاب المؤتمر الاسلامي العام، وراجت فيه فكرة عقد مؤتمر عربي عام في بغداد ، ولكن الانجليز تمكنوا ، عن طريق ضغطهم على بغداد ، من منع انعقاده فيها . وكان قد عقد في فلسطين في بداية الثلاثينات عدة مؤتمرات وطنية للعمال وللطلاب وللشباب تردد في ارجائها نقد الحركة الوطنية وزعمائها ، والسخط على اللجنة التنفيذية ، وكذلك فضح اساليب الانجليز وتعرية مواقفهم في مؤازرة الصهيونيين والتستر على تسليحهم واعدادهم لمقاومة اهل

البلاد الاصليين بقوة السلاح ، وقطع كل أمل للعرب في الحكومة ، وترك سياسة التعاون معها بعد ان ثبت فشلها طوال ثلاثة عشر عاماً ، ومقاطعة الصناعات والبضائع الاجنبية . وراجت فكرة تسليح العرب وتسلحهم في بعض هذه المؤتمرات ، وكانت قبل ذلك قد اكتشفت بعض شحنات الاسلحة المهربة لليهود في خلايا النحل ، مما اثار ذعر العرب وسخطهم معا ، فطلب السكرتير العام للحكومة الى الصحف في فلسطين الامتناع عن ذكر ما يتعلق بالسلاح وتسليح المستعمرات اليهودية ، وهدد بتحميلها المسؤولية في حال اعلانها ذلك ، فاحتجت الصحف واضربت عن الصدور لمدة اسبوع من مساء الاثنين في ١٠ آب (أغسطس) ١٩٣١[٣١] .

وهكذا كانت البلاد في هذه الفترة من تاريخ القضية تتفاعل على ارضها وفي باطنها عوامل متعددة تتداخل وتتمازج مرة ، وتتصارع معاً مرة اخرى ، وكان ذلك بشيراً بمرحلة جديدة من مراحل الحركة الوطنية ، سنحاول استكمال البحث فيها فيما بعد .

---

(١) أنظر: إبراهيم طوقان، «ديوان إبراهيم» ، «مقدمة الديوان: أخي إبراهيم» بقلم فدوى طوقان، بيروت، دار الشرق الجديد، الطبعة الأولى، ١٩٥٥؛ د. عمر فروخ، «شاعران معاصران»؛ بيروت، المكتبة العلمية، الطبعة الأولى ١٩٥٤، ص ٨٢؛ زكي المحاسني، «إبراهيم طوقان: شاعر الوطن المغصوب»؛
يعقوب العودات (البدوي الملثم)، «إبراهيم طوقان في وطنياته ووجدانياته»؛
د. ناصر الدين الأسد، «الشعر الحديث في فلسطين والأردن»، معهد الدراسات العربية العالية، ١٩٦٠/١٩٦١، ص ٣٩.

(٢) جريدة «الاتحاد العربي»، العدد ٢٠، السنة الأولى، ١٩٢٥/٩/١٢ (٢٤ صفر ١٣٤٤).

(٣) د. عمر فروخ، مصدر سبق ذكره، ص ٨٢.

(٤) الشيخ ابراهيم الدّباغ، «في ظلال الحرية»، نشر لجنة البيان العربي، مطبعة مخيمر، ص ٦٢ ـ ٦٣.

(٥) أنظر: د. ناصر الدين الأسد، مصدر سبق ذكره، ص ٥٩؛ يعقوب العودات، «حياة الأدب الفلسطيني الحديث»، ص ١٨٥، (ذكرى سنة ولادته ١٨٥١)؛ وللمؤلف نفسه، «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين»، ص ١٩٢؛ «الأديب»، ٧ تموز (يوليو) عام ١٩٦٧، ص ٢٠.

(٦) الشيخ إبراهيم الدبّاغ، «الطليعة»، القاهرة، مطبعة حجازي، الطبعة الأولى، ١٩٣٧م (١٣٥٦ هـ) الجزء الثاني، ص ١٣١ ـ ١٣٤؛ وكذلك أنظر قصيدته: «فلسطين الدامية»، المصدر نفسه، ص ٨٣.

(٧) اسكندر الخوري البيتجالي، «مشاهد الحياة»، القدس، مطبعة بيت المقدس، ١٩٢٧، ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠، وعنوان القصيدة: «الله أكبر»: وللمؤلف نفسه، «العنقود»، القدس، مطبعة بيت المقدس، دون تاريخ، وعنوان القصيدة: «الجامعة العبرية»، ص ١٠٦.

(٨) البيتجالي، «العنقود»، قصيدة: «غانيات القدس»، ص ٩ ـ ٧٠؛ انظر كذلك للمؤلف نفسه، «مشاهد الحياة»، قصيدة: «حديثنا عن الهوى»، الجزء الأول ص ١٥٢ ـ ١٥٣. مصدران سبق ذكرهما.

(٩) البيتجالي، «مشاهد الحياة»، قصيدة: «إلى العلم»، مصدر سبق ذكره، ص ٢١٨ ـ ٢٢١.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

(١١) إبراهيم طوقان، مصدر سبق ذكره، ص ٤٦ ـ ٥٠؛ بيروت، دار الآداب، الطبعة الثانية، آذار ١٩٦٦، ص ٢٠ ـ ٢٥.

(١٢) «الأديب» ، السنة ٢٨ ، ١٩٦٩/٧/٨ . السنة ٢٨ ، ص ٢٩ .

(١٣) يعقوب القودات ، مقال عن الشاعر نفسه . المصدر نفسه، ص ٣١.

(١٤) لمعرفة تفاصيل الأحداث والثورة أنظر: عادل غنيم، «الحركة الوطنية الفلسطينية»، (١٩١٧ ـ ١٩٣٦)، رسالة ماجستير مخطوطة في مكتبة جامعة القاهرة، رقم ٨٥١، ص ٣٦٨ ـ ٤١٩.

(١٥) إميل توما، «من دراسات في القضية الفلسطينية»، «الجديد»، حيفا، العددان ٩ و١٠-٩/١٠ ـ ١٩٦٩، ص ٨.

(١٦) «الشوري»، العدد ١٢٤، ٩/٦/١٩٢٧، ص ٤.

(١٧) وديع البستاني، «الانتداب الفلسطيني باطل ومحال»، ص ١٠٥.

(١٨) محمد العدناني، «محاضرات الموسم الثقافي»، سوريا، ١٩٦٣ ـ ١٩٦٤؛ من محاضرات للشاعر نفسه حول شعره في فلسطين، ص ٢٩١.

(١٩) «الأديب»، ٥/٥/١٩٦٨، ص ١٥؛ عن حديث شخصي مع الشاعر في صيدا، نيسان (ابريل) ١٩٧٠: يعقوب العودات، «من أعلام الفكر والأدب في فلسطين»، ص ٤٣١.

(٢٠) وديع البستاني، «الديوان»، بيروت ١٩٤٦، ص ١٨٢ ـ ١٨٤.

(٢١) علي محمد علي، «ملف وثائق وأوراق القضية الفلسطينية»، القاهرة، مركز دراسات الشرق الأوسط، الهيئة العامة للاستعلامات، الجزء الثاني، ص ١١٨ ـ ١٢١.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ١٢٥ ـ ١٢٧.

(٢٣) إبراهيم طوقان، مصدر سبق ذكره، الطبعة الأولى، ص ١٩٧ ـ ١٩٨؛ الطبعة الثانية، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

(٢٤) المصدر نفسه، الطبعة الأولى، ص ١٩١؛ الطبعة الثانية، ص ٢٤٥.

(٢٥) المصدر نفسه، الطبعة الأولى، ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢٦) مجلة «الفتح»، السنة الخامسة، العدد ٢٠٥، الخميس ٢٩ محرم ١٣٤٩ هـ، ص ١٢ المصدر نفسه، «وصية الشهداء»، العدد ٢٠٧، الخميس ١٤ صفر ١٣٤٩ هـ، ص ١٢.

(٢٧) إبراهيم طوقان، مصدر سبق ذكره، الطبعة الأولى، ص ٣٨ ـ ٤٥؛ الطبعة الثانية، ص ٨ ـ ٩.

(٢٨) د. زكي المحاسني، «طوقان شاعر فلسطين في حياته وشعره»، دار الفكر العربي ١٩٥٥، ص ١٩٥.

(٢٩) وديع البستاني، «الفلسطينيات»، بيروت ١٩٤٦، ص ١٨٩ ـ ١٩٠؛ صحيفة «الصراط المستقيم»، ٢٢/١/١٩٣٠.

(٣٠) أمين سعيد، «الثورة العربية الكبرى»، مطبعة عيسى البابي الحلبي، المجلد الثالث، ص ١١٦.

(٣١) مجلة «الفتح»، السنة السادسة، العدد ٢٦٠، ٨ ربيع أول ١٣٥٠ هـ، ص ٨؛ والعدد ٢٦٣، ٢٩ ربيع أول ١٣٥٠ هـ، ص ٤ ـ ٥.

تقارير

فلسطين
أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة

بدأت في الأمم المتحدة ، يوم ١٩٨٠/٧/٢٢ ، دورة خاصة للجمعية العامة لبحث قضية فلسطين وحقوق الشعب الفلسطيني ومستقبل القدس . وقد عُقدت هذه الجلسة بناء على طلب تقدم به في ١٩٨٠/٧/٢ ، فاليلوكان ، مندوب السنغال ، رئيس لجنة الأمم المتحدة لممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني .

وكان الاعداد لهذه الدورة قد جرى ، منذ وقت طويل ؛ وذلك عندما دعا المؤتمر الوزاري لدول عدم الانحياز الذي عقد في بلغراد في تموز ١٩٧٨ الى عقدها ، ثم اوصى بذلك ، مرة آخرى ، مؤتمر قمة دول عدم الإنحياز الذي عُقد في أيلول عام ١٩٧٩ بهافانا . وقد انعقدت الجلسة إستناداً إلى بند « شعار الإتحاد من أجل السلام » الذي تمت الموافقة عليه عام ١٩٥٠ ، لتفادي الفيتو السوفياتي على عدد من قرارات مجلس الأمن التي تهم اميركا . وينص هذا الشعار على أن الجمعية العامة قد تتولى بعض سلطات حفظ السلام الخاصة بمجلس الأمن المشلول ، بما في ذلك إستخدام القوة المسلحة إذا لزم الأمر ، في حالة وجود خرق للسلام أو عمل عدواني ؛ وذلك بهدف المحافظة على السلام العالمي .

وقد افتتح الجلسة الاولى للدورة الرئيس الحالي للجمعية العامة ، مندوب تانزانيا لدى المنظمة ، السيد سليم سليم فقال : « إن على الدول الأعضاء أن يناضلوا من أجل التطبيق المشكوك فيه للمبدأ القائل أنه من غير المسموح لدولة أن تستولي على أراضي الغير بالقوة» . وأكد « أن على الجمعية العامة أن تسعى إلى إنسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها منذ عام ١٩٦٧ وخلق أوضاع تضمن لكل دول المنطقة استقلالها » ، وهاجم سليم الولايات المتحدة وإسرائيل ، الأولى لدعمها الرئيسي والمستمر لإسرائيل ، والثانية لتجاهلها وتحديها للإرادة الدولية وللقرارات التي اتخذت من الهيئات الدولية المختلفة والتي تدعو إسرائيل إلى إنهاء احتلالها للأراضي العربية .

وقد بدأت الجلسة الأولى بتأبين رئيس بوتسوانا الذي توفي قبل أسبوع من موعد إنعقاد الدورة . ثم تحدث في الجلسة الأخ فاروق القدومي ، رئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ورئيس الوفد الفلسطيني ، فوصف الدورة الحالية الطارئة بأنها دورة الفرصة الأخيرة للحيلولة دون تفجير خطير للموقف في الشرق الأوسط . وأكد ، من فوق منصة الجمعية العامة ، ان الدعوة لعقد إجتماع طارىء لهي إشارة إنذار لكي يتحمل المجتمع الدولي مسؤولياته قبيل الوصول إلى نقطة اللا عودة . واردف قائلاً : « يتعين على الأمم المتحدة أن تظهر قدرتها على إيجاد حل لحرب ساخنة ناجمة عن غطرسة إسرائيل وسياستها العدوانية » .

وأكد الأخ القدومي استمرار منظمة التحرير في حمل غصن الزيتون مع التمسك ببندقية الثورة ، ووجه الشكر إلى كافة الدول التي بذلت جهوداً لإستعادة حقوق الشعب الفلسطيني .

وقال : إن أساس عمل الجمعية هو قرار ٢٢ تشرين الثاني عام ١٩٧٤ الذي أقرته الجمعية العامة وليس مجلس الأمن نظراً للفيتو الأمريكي ، وهو القرار الذي يؤكد الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني في العودة وتقرير المصير ، وإقامة دولته في فلسطين .

وذكر أن على الأمم المتحدة أن تضطلع بمسؤولية تحقيق الانسحاب الكامل لإسرائيل من الأراضي المحتلة ، وضمان السيادة الفلسطينية بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية .

وقد وجه انتقادات عنيفة للسياسة الحالية للرئيس كارتر الذي خطا بضع خطوات إلى الأمام بتحدثه عن وطن فلسطيني ، وعن دور تقوم به منظمة التحرير الفلسطينية ، والذي تراجع عن ذلك ، منذ ذلك الوقت،والذي لم يعد لديه ما يأمله بالنسبة للشرق الأوسط طالما أن إهتمامه الوحيد هو البقاء في البيت الأبيض .

وأضاف قائلاً انه يجب على الدول العربية أن تلبي مطالب شعوبها التي تتعرض للعدوان الإسرائيلي . وأكد على أن حدوث مواجهة بين الولايات المتحدة وحليفاتها إسرائيل والدول العربية امرٌ لا يتمشى مع منطق الأشياء .

وأدان إتفاقيتي كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية وإتهم السادات بأنه قبل المفهوم الصهيوني الذي يؤدي إلى الإحتلال الكامل لفلسطين بوصفها إسرائيل الكبرى . وتساءل : أين هو السلام الذي وعد به الموقعون على إتفاقيتي كامب ديفيد ؛وهذه الولايات المتحدة مستمرة في إرسال أسلحة إلى إسرائيل ومصر ، وفي السعي إلى تقسيم الدول العربية ؟

وتطرق إلى مسألة القدس فقال : « إن أي حكومة إسرائيلية لم تتجرأ ولم تستهتر ، ولم تتحدَّ قضية القدس كما فعلت حكومة مناحيم بيغن بعد مؤامرة كامب ديفيد » .

وتحدث عن التغيير السكاني والجغرافي في القدس ، والتخطيط المكشوف الذي يستهدف تهويد المدينة المقدسة والقضاء على معالمها الأصيلة ، مشيراً إلى « أن كل ذلك جرى بعد كامب ديفيد » .

ثم تحدث عن الإرهاب الإسرائيلي المنظم ، خصوصاً، ضد رؤساء البلديات في الضفة الغربية. وعن لبنان قال :

« إن إسرائيل لم تكتف بملاحقة شعبنا داخل فلسطين ، بل إنها تلاحقه في كل مكان وهي تشن حرب استنزاف وإبادة عليه في لبنان... إن إسرائيل لم تكتف بحربها المكشوفة وباختراقها حدود لبنان وشواطئه وأجواءه ، يومياً ، وإنما أشعلت الفتن والحروب بهدف احتلال الجنوب اللبناني وسرقة مياه الليطاني وضرب شعب فلسطين وثورته الصامدة » .

إنعكاسات القضية

وقال إن « من ينظر إلى الوضع في الشرق الأوسط يلاحظ ، من دون عناء ، انعكاسات قضية فلسطين على المنطقة ... إن السياسة التي إنبثقت من كمب ديفيد باتت تشكل تهديداً خطيراً للمنطقة ، فالحرب النفسية مستمرة على الدول العربية كذلك إثارة عوامل التفرقة والإنقسام في الوطن العربي وأخيراً تأليب الدول المجاورة على الدول العربية ، كل ذلك من شأنه أن يؤدي إلى إنهيار كل إمكانات تفادي الإنفجار في هذه المنطقة ذات الأهمية الإستراتيجية عسكرياً ونفطياً » .

وحمل على الإدارة الاميركية قائلاً : انها « تراجعت عن كل ما أعلنته عن الموضوع الفلسطيني » وان سجل الإدارة الأميركية حافل بالعداء للشعب الفلسطيني والاستسلام للإرادة الصهيونية . ورفض فكرة الانتظار إلى ما بعد الانتخابات الأميركية وهاجم المرشح الجمهوري رونالد ريغان الذي « باع نفسه ، مقدماً ، للصهيونية وارتهن لإسرائيل » .

وأكد أن « لا فرق بين مناحيم بيغن وشمعون بيرس . وإذا جاء بيرس إلى الحكم فلن يغير شيئاً في واقع الحال سوى غياب وجه توراتي متعصب ومجيء وجه تقدمي إشتراكي زائف » .

هذا ، وقد قاطع الجلسة الإفتتاحية مندوبا الكيان الصهيوني والولايات المتحدة الأمريكية .

ثم تحدث السيد فاليلوكان مفتتحاً المناقشة ، فقال إنه إذا إستمر الوضع في المنطقة بالتدهور فهناك خطر حرب عالمية . وقال إن الأمم المتحدة مشلولة بسبب سوء إستخدام حق النقض الفيتو من قبل عضو دائم يرفض الإعتراف بحقوق الفلسطينيين والسماح للأمم المتحدة بالتوصل إلى تسوية . وكان يشير بذلك إلى الولايات المتحدة . وقال : إن العمل الأميركي يبعث على الأسى إلى حد كبير لأنه كان هناك اجماع واسع لدى الأسرة الدولية لكي تؤخذ تلك الحقوق في الحسبان في أية تسوية .

وقال إن موقف إسرائيل كان يميل دائماً إلى الإستهزاء بالقرارات الدولية بعبارات مشينة ومتغطرسة ولا يمكن إلا للإكراه أن يحقق أهداف الأسرة الدولية (« السفير » ، ٢٢/٧/١٩٨٠) .

وحمل المندوب السنغالي مجدداً على موقف الولايات المتحدة المنحاز إلى جانب إسرائيل وقال : إن الإدارة الاميركية تعرقل كل ما يتعلق بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني .

وأشار كان ، الذي يرى أنه يتعين الموافقة على قرار جديد لتكملة القرار رقم ٢٤٢ ، إلى أن مثل هذا الموقف يعد موقفاً خطيراً على السلام والأمن الدوليين في الوقت الذي تتعثر فيه المباحثات الإسرائيلية ـ المصرية . وأكد مندوب السنغال أنه يتعين أن توافق منظمة الأمم المتحدة على إتخاذ إجراءات قمع ضد اسرائيل طالما أن الدولة اليهودية مستمرة في إحتلال الأراضي العربية وعدم الإعتراف بحقوق الفلسطينيين (**المصدر نفسه**) .

وأضاف المندوب السنغالي قائلاً : يتعين أن تُصرح الجمعية العامة للسكرتير العام بإتخاذ الإجراءات اللازمة لمراقبة إنسحاب إسرائيل من الأراضي المشار إليها ، ومن بينها القدس ، وأن تعمل بمعاونة الهيئات المتخصصة والصليب الأحمر الدولي على إعادة اللاجئين الفلسطينيين الذين يرغبون في العودة إلى وطنهم .

ثم تبنت الجمعية العامة ، بعد ذلك ، جدول أعمال الدورة رسمياً .

مندوبو الدول يؤكدون الحق الفلسطيني

وتحدث في الجلسة الثانية ، مندوب اليابان الذي كان بين ستة مندوبين لم يتسع الوقت لهم لالقاء كلماتهم في الجلسة الأولى ، وقد شرح المندوب الياباني موقف حكومته الذي يدعو إلى الحل العادل الدائم الشامل ، والإعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما في ذلك حقه في تقرير المصير وإقامة دولة مستقلة . وطالب المندوب الياباني بانسحاب اسرائيل من جميع الأراضي العربية التي تحتلها بما فيها القدس .

وقد حمل مندوبا سيري لانكا واندونيسيا بشدة على سياسة إسرائيل وأكدا على « أن أي حل لا يكفل للشعب الفلسطيني حقه في وطن مستقل بزعامة منظمة التحرير الفلسطينية هو حل غير مقبول أبداً » .

أما مندوب المجر فقد أشار إلى أنه يؤيد مسودة مشروع القرار الذي يحدد منتصف شهر تشرين الثاني القادم موعداً لبدء إنسحاب إسرائيل من جميع الأراضي الفلسطينية والعربية الأخرى التي احتلت عام ١٩٦٧ .

وقال مندوب النمسا أن بلاده لا تقلل من أهمية إتفاقيات كامب ديفيد ولكن العدل والإنصاف يقتضيان الإعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني التي يكاد العالم يجمع الآن ، على الإعتراف بها .

وأشار مندوب السويد إلى أهمية تسوية قضية فلسطين من جميع جوانبها وقال : إن من مآسي التاريخ « أن الشعب اليهودي الذي كافح طويلاً من أجل حقوقه يحرم الآن شعباً آخر من حقوقه » .

وقال : « إن اتفاقيات كامب ديفيد خطوة مهمة إلى الأمام ولكن مفاوضات الحكم الذاتي لم تحقق حتى الآن أية نتائج » .

وحثت الهند الأمم المتحدة على إجبار إسرائيل على إتخاذ خطوات محددة من أجل الإعتراف بالحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني وإنهاء تصرفاتها العدوانية ضده . فقد خاطب وزير خارجية الهند نارسيمها راو الجلسة

الطارئة للجمعية العامة مطالباً بإرغام إسرائيل على التوقف فوراً عن سياستها الإستيطانية في المناطق العربية المحتلة والإعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني في تشكيل دولة مستقلة وذات سيادة .

وقال أن على إسرائيل أن تنسحب من جميع المناطق العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ بما في ذلك المدينة المقدسة .

وأكد وزير الخارجية الهندي عدم إستطاعة اتفاقات كامب ديفيد الإدعاء بأنها حلت القضايا المتعلقة بالأطراف ذات العلاقة . وقال أن الشرط الأساسي لأي حل سلمي يتمثل في إشتراك منظمة التحرير الفلسطينية ، بشكل كامل وعلى قدم المساواة في أية مفاوضات للسلام (**النهار** ١٩٨٠/٧/٢٤) .

وطالب مندوب بنغلاديش سيد باري أن تصر الجمعية العامة على أن تبدأ إسرائيل في الإنسحاب من جميع الأراضي المحتلة قبل ١٥ تشرين الثاني القادم وأن تكف عن جميع الإجراءات التي تغير طابع القدس وبقية المناطق المحتلة .

وقال وزير خارجية كوبا ايزيد وروماميركا : أن مصر خانت القضية العربية لإستعادة صحراء جرداء وبعض آبار البترول التي استغلها المحتلون الإسرائيليون حتى النهاية . أن « الموقف في الشرق الأوسط متأزم أكثر منه في أي وقت مضى وهناك خطر كبير على السلام العالمي » .

والقى مسؤولية الوضع الناشيء على عاتق السلطات الصهيونية والمناورات الإمبريالية للحكومة الاميركية التي تعرقل التوصل إلى إيجاد تسوية شاملة وعادلة ووطيدة للنزاع في الشرق الأوسط .

وقال أن « تواطؤ كامب ديفيد ، الذي إعترف بفشله حتى أقرب الحلفاء لواشنطن ، كان يهدف إلى تغطية التسليح السريع للقاهرة وتل - أبيب والحكم على الشعب العربي الفلسطيني بالتشرد الدائم » .

وأوضح أن « السياسة الإمبريالية الأمريكية تكرس العدوان في الشرق الأوسط ، وأن المناورات الرامية إلى جر شعوب الشرق الأوسط إلى سياسة « الحرب الباردة » التي بعثتها حكومة الولايات المتحدة التي توسع من تواجدها العسكري في هذه المنطقة ،تثير قلقاً خاصاً .

وأضاف وزير الخارجية الكوبي يقول : « أنه في الوقت الذي تجري فيه اميركا ومصر وإسرائيل مباحثات حول ما يسمى بالحكم الذاتي من وراء ظهر الشعب العربي الفلسطيني وممثله الحقيقي المعترف به من قبل الجميع ، منظمة التحرير الفلسطينية ، تنشط السلطات الصهيونية من سياستها الاستيطانية في الأراضي المحتلة » ، وأكد على أنه من الواضح تماماً أن الدعم العسكري والإقتصادي والسياسي والدبلوماسي الاميركي لإسرائيل ، ومعاونة النظام المصري ، يحددان الموقف العدواني والتوسعي لسلطات تل ـ أبيب (« **السفير** » ، ١٩٨٠/٧/١٤) .

وقال مندوب العراق ، في خطابه أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، أن عناد الكيان الصهيوني إلى جانب الدعم الذي يتلقاه من الولايات المتحدة منعا مجلس الأمن من إقامة سلام دائم ، ولذا يجب إصدار قرار من مجلس الأمن يطالب إسرائيل بالإنسحاب من الأراضي المحتلة ، وعلى الجمعية العمومية أن تتخذ قرارات عملية تلتزم بها جميع الأطراف .

وأضاف أن الكيان الصهيوني هو أول من يزدري بالأمم المتحدة وبقراراتها .

وشجب مندوب العراق مساعدة اميركا للكيان الصهيوني وقال : « أن هذه المساعدة خلقت تهديداً مباشراً للدول العربية » وحذر من أن الشعب الاميركي سيضطر لدفع ثمن دعم حكومته للكيان الصهيوني .

وقال أن بلاده تؤمن بأن من الواجب بذل جهود تضمن عدم بقاء قرارات الأمم المتحدة مجرد قرارات نظرية وجعلها تأخذ طريقها إلى التنفيذ وبخاصة قرار (٣٢٣٦) .

وأشار إلى أن من واجب الأمم المتحدة إجبار الكيان الصهيوني على التجاوب مع قراراتها .

وحث على وجوب فرض عقوبات على إسرائيل ، بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة .

وقال مندوب المانيا الشرقية : إن إقامة دولة فلسطينية هو حق للفلسطينيين . وندد بالولايات المتحدة واتفاقيات كامب ديفيد ، وأدان الإجراءات القمعية التي تتخذها إسرائيل في الأراضي العربية المحتلة . وحث المجتمع الدولي على الإمتناع عن التعامل مع إسرائيل .

وتحدث نائب وزير خارجية الصين الشعبية فندد بسياسة إسرائيل العدوانية التوسعية ، وندد بالتناحر بين الدولتين العظميين على مسرح الشرق الأوسط على حساب مصالح العرب . وإتهم الولايات المتحدة بالعمل على تفريق الصف العربي ولامها لرفضها الإعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ولدعمها المتواصل لإسرائيل الذي قال أنه يزيد إسرائيل تصلباً في موقفها .

وأعرب عن تقديره للمساعي التي تبذلها دول السوق الأوروبية المشتركة لتسوية نزاع الشرق الأوسط ،وحث هذه الدول على التعاون ، في مساعيها ، مع دول العالم الثالث .

وطالب مندوب اوكرانيا الجمعية العامة في دورتها الطارئة بأن تتخذ قراراً حازماً بإرغام إسرائيل على الإنسحاب من جميع الأراضي الفلسطينية والعربية التي احتلتها عام ١٩٦٧ . وبأن تطلب من مجلس الأمن إتخاذ إجراءات ضد إسرائيل إن هي رفضت تنفيذ القرار .

وقال مندوب يوغوسلافيا أن الدورة الطارئة يجب أن تكون نقطة تحول حاسمة في مساعي التسوية .

وقال : إن الحقوق الفلسطينية ليست منحة أو عملاً إنسانياً بل هي حقوق أصيلة معترف بها وقد ضحى الفلسطينيون في سبيلها .

واقتبس كلمة من أقوال الرئيس الراحل تيتـو أيد فيها بقوة إقامة دولة فلسطينية عربية .

وتحدث وزير خارجية اللكسمبورغ ، بإسم دول السوق الأوروبية التسع ، فشرح المبادىء التي تبني عليها تلك الدول موقفها قائلاً : إن دول السوق تؤمن بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره وبحق إسرائيل في العيش ضمن حدود آمنة ومعترف بها . وذكر أنه سيسترشد بهذه المبادىء في الإتصالات التي سيجريها مع دول الشرق الأوسط .

وقال ممثل دول السوق الأوروبية المشتركة أن الدول التسع تؤيد قرار مجلس الأمن الدولي (٢٤٢) مع اعترافها بأنه ليس كافياً ، فيما يتصل بحقوق الشعب الفلسطيني ، لذلك ترى هذه الدول أن أي قرار تتخذه الجمعية العامة يجب أن يتضمن إشارة إلى القرار (٢٤٢) .

وعلى هذا الأساس ستقرر الدول التسع موقفها عند التصويت علماً بأنها مصممة على تشجيع كل مبادرة إيجابية مهما كان مصدرها .

وأكد السيد ناصر قدور ، نائب وزير خارجية سوريا ، أنه لن يسود السلام في الشرق الأوسط ما لم تنسحب إسرائيل إنسحاباً كاملاً من جميع الأراضي المحتلة وما لم يمنح الشعب الفلسطيني حقوقه القومية .

وقال المندوب السوري أن عقدة القضية الفلسطينية كانت ولا تزال مصير شعب ووطن ، وكسائر شعوب الأرض فإن للفلسطينيين حقوقاً تكفلها الإتفاقات الدولية ، ومن جملة هذه الحقوق حقهم في التحرر الوطني والنضال بكل الوسائل لتحرير وطنهم والتمتع بالحقوق المدنية والسياسية والإقتصادية .

وقال ممثل سوريا لقد بين تاريخ فلسطين أن السعي الذي لا يأخذ هذه العوامل بنظر الإعتبار محكوم عليه بالفشل ولهذا فإن إتفاقات كامب ديفيد مرفوضة من قبل الشعب الفلسطيني . لأن الأطراف الموقعة عليها رغبت في إبقاء الشعب الفلسطيني تحت نير الإحتلال .

وأكد أن الثورة الفلسطينية لن تتوقف قبل أن تحقق الانتصار النهائي وما لم تنتصر إرادة المجتمع الدولي فإن الدعم الذي ناله هذا الكيان العنصري الصهيوني العدواني من القوى الإمبريالية يأتي علامة تؤكد أن إسرائيل قد تركت بصماتها على المجتمع الدولي (« الأخبار »، ١٩٨٠/٧/٢٥) .

وأشار إلى أن الولايات المتحدة تخلت عن مسؤولياتها كعضو في مجلس الأمن وشجعت إسرائيل على انتهاج سياستها العنصرية التوسعية الساعية إلى إفراغ المناطق العربية من سكانها . وقد جرى تصميم هذه السياسة بمساعدة من الولايات المتحدة بحيث تحرم الشعب الفلسطيني من وطنه .

اما علي شمس اردكاني ، مندوب إيران ، فناشد الجمعية العامة عدم الإكتفاء بإعادة تأكيد حقوق الفلسطينيين وطالبها بممارسة ضغوط على الولايات المتحدة عن طريق فرض مقاطعة اقتصادية وحظر على تصدير المواد الخام الاستراتيجية إلى الولايات المتحدة .

وقال أردكاني ، أن إسرائيل دولة طفيلية تعيش على حساب أميركا ولايتسنى لها ، بدون المساعدات الأميركية ، مواصلة عدوانها على فلسطين .

وقال أردكاني ، أن الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني أمر واقع مسلم به وليست بحاجة إلى أن تؤكدها الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة من جديد وكذلك الوضع بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية ممثل الشعب الفلسطيني .

وقال الدبلوماسي الإيراني أن المشكلة الحقيقية هي أولئك الذين خلقوا ذلك الطفيلي المسمى إسرائيل وأعانوه وقاموا بتغذيته وأتاحوا له أن يصبح قلعة حصينة في الشرق الأوسط .

واستطرد الدبلوماسي الإيراني قائلاً : وفضلاً عن الإعتراف بحقوق الفلسطينيين ، يتعين على الجمعية العامة ممارسة ضغوط إقتصادية وسياسية ضد الولايات المتحدة .

واقترح فرض حظر على المواد الخام الإستراتيجية ووقف الإستثمارات التي تتيح للولايات المتحدة إستمرار استغلالها ومساعدتها للمعتدي .

ورفض كلوفيس مقصود ، ممثل جامعة الدول العربية ، إتفاقيتي كامب ديفيد . وقال أن اتفاقيتي كامب ديفيد لم تؤديا إلا إلى تدعيم تصميم إسرائيل على التوسع تحت أبصار جميع دول العالم وإلى زيادة صلفها .

وقال مقصود أن الأمم المتحدة في مفترق طرق . وأضاف أن هذه الدورة تتيح لها فرصة إستدراك الموقف وإنتهاج موقف أقل تسامحاً تجاه إسرائيل .

وطالب الولايات المتحدة بتغيير سياستها إذا أرادت تجنب صدام عالمي .

وقال كلوفيس مقصود ، في كلمته ، نرجو من الأمم المتحدة أن تضع حداً للإغتصاب الإسرائيلي . وأضاف : ولم يعد كافياً مجرد التنديد ، بل أصبح من الملح البحث عن طرق وأساليب لردعها وإجبارها على النظر في خيارين لا ثالث لهما فإما أن تخضع للإرادة الدولية أو أن تعلق عضويتها في المجتمع الدولي .

ومضى يقول ، أن على الأمم المتحدة أن تطبق الخيار السياسي فيما يتعلق بأزمة الشرق الأوسط وتفرضه على من إختار طريق العدوان كقاعدة لسلوكه وإختار الصلافة والعنصرية كعلامة مميزة (« النهار » ، ١٩٨٠/٧/٢٦) .

أما الشيخ راشد بن عبد الله ، وزير خارجية دولة الإمارات ، فقد اكد ، في كلمة بلاده أن الحد الأدنى الذي يمكن توقعه من الإجتماع هو اصدار قرار يتضمن الخطوات العملية بتسوية المشكلة الفلسطينية . كما أكد عزم بلاده على قطع علاقتها الدبلوماسية مع أي حكومة تؤيد قرار إسرائيل بإتخاذ القدس عاصمة لها .

وجدد رفض بلاده لاتفاقيات كامب ديفيد موكداً أن الطرف الوحيد الذي له حق التفاوض حول حق تقرير

المصير للشعب الفلسطيني هو الشعب الفلسطيني .

أما مندوب لبنان غسان تويني فقد أشار في كلمته الى فشل اتفاقات كامب ديفيد وقال : يجب إعادة أرض الفلسطينيين إلى الفلسطينيين في المفاوضات التي تعنيهم وأن يوضع حد نهائي للسياسة الرامية إلى تشجيع الشعب الفلسطيني بمختلف الوسائل للهجرة نحو الأوطان الأخرى (المصدر نفسه) .

هذا وقد غادرت الوفود العربية وعدد كبير من ممثلي الدول غير المنحازة قاعة الجمعية العامة عندما توجه يهودا بلوم مندوب الكيان الصهيوني إلى المنصة لإلقاء خطابه . ووصف بلوم هذه الدورة بأنها غير قانونية وقال ، مجدداً ، أن إسرائيل تعتبر أي قرار قد تتخذه دورة الجمعية العامة قراراً غير قانوني وحمل المندوب الإسرائيلي على الأمم المتحدة ووصفها بأنها عالم بعيد عن الواقع .

في هذه الأثناء ، كان مندوبو مجموعة دول عدم الإنحياز قد وزعوا في الأمم المتحدة ورقة عمل تتضمن مشروعاً يقضي بتشكيل قوة دولية تتولى ترتيب ومراقبة إنسحاب القوات الصهيونية من الأراضي العربية المحتلة قبل ١٥ تشرين الثاني المقبل . ويتضمن مشروع القرار (« السفير ١٩٨٠/٧/١٩.) ثلاث عشرة نقطة تؤكد حقوق الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم وإسترداد ممتلكاتهم ، وحقهم في تقرير مصيرهم من دون أي تدخل خارجي ، ويؤكد المشروع على حق منظمة التحرير الفلسطينية في الإشتراك في جميع الجهود والمناقشات والمؤتمرات التي تعقد حول القضية الفلسطينية والشرق الأوسط .

تحرك أوروبي في الجمعية للإهتمام ببيان البندقية

هذا ، وقد حدد وزير خارجية لوكسمبورغ غاستون ثورن ، بصفته رئيس المجلس الأوروبي ، موقف دول السوق الأوروبية المشتركة من المسألة الفلسطينية في كلمة ألقاها أمام الجمعية العامة ، يوم ١٩٨٠/٧/٢٥ حيث قال : « إن الدول التسع ترى ضرورة الإستناد إلى القرار رقم (٢٤٢) ، وإن كانت تعترف بأنه غير كاف لا سيما فيما يتعلق بالشعب الفلسطيني ، لأن المبادىء الأساسية التي تحددت في هذا القرار تحتفظ بقيمة أساسية لأية تسوية للنزاع القائم » .

وأضاف أن الدول التسع ترى أنه من غير المقبول إصدار قرار جديد يتعارض مع القرار (٢٤٢) ، وسيكون الحال على هذا النحو ، إذا اكتفينا بإصدار أوامر لإسرائيل ودعوناها إلى التفاوض دون أن نقدم لها ضمانات ضرورية لوجودها .

رفض اميركي

المندوب الأمريكي ويليام فاندن أعلن رفضه لمشروع قرار دول عدم الإنحياز وقال : إن هذه الاقتراحات مرفوضة تماماً من قبل واشنطن . ودافع عن اتفاقات كامب ديفيد .

في غضون ذلك ، دعا الأمين العام للأمم المتحدة كورت فالدهايم لإقامة دولة فلسطينية حيث قال : « ليعلم العالم كله أن حل القضية الفلسطينية سوف لن يتم إلا بعد انسحاب القوات الأجنبية من جميع الأراضي العربية المحتلة وتأمين الحقوق المشروعة للفلسطينيين بما فيها حق تقرير المصير ، وحق إقامة دولة فلسطينية مستقلة .

وأكد الأمين العام في خطابه ، في حفل العشاء الذي أقامه مكتب الجامعة العربية بنيويورك تكريماً لرؤساء الوفود المشاركة في الدورة ، أن حل المشكلة الفلسطينية ، سيتطلب أيضاً بالضرورة مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، في جميع الجهود والمفاوضات التي ترمي إلى إحلال سلام عادل وشامل في منطقة الشرق الأوسط .

ورداً على هذا التصريح شنت السلطات الصهيونية حملة هستيرية ضد الدكتور فالدهايم فدعا افراهام شارير زعيم المجموعة البرلمانية لكتلة « الليكود » الدكتور فالدهايم إلى الإستقالة ، وأصدر المندوب الإسرائيلي لدى الأمم المتحدة بياناً انتقد فيه تصريح فالدهايم وقال « إنه من الواضح أن الدكتور فالدهايم بدأ حملته الإنتخابية للترشيح لمنصب الأمين العام للمرة الثالثة » .

بموافقة ١١٢ دولة ومعارضة ٧ ، بينها إسرائيل واميركا .
الجمعية العامة تؤكد حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره

في التاسع والعشرين من شهر تموز ، وبعد أسبوع من المناقشات والخطب ، وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، في جلستها الخاصة حول قضية فلسطين ، على قرار بأغلبية ١١٢ صوتاً ضد سبعة أصوات هي أصوات إسرائيل والولايات المتحدة وكندا واستراليا والنرويج وغواتيمالا وجمهورية الدومنيكان وإمتناع ٢٤ دولة عن التصويت من بينها : الدول الأعضاء التسع في السوق الأوروبية المشتركة . والدول التي امتنعت عن التصويت هي : النمسا ، بهاما ، بلجيكا ، بورما ، الدنمارك ، فيجي ، فنلندا ، فرنسا ، المانيا الإتحادية ، هاييتي ، هندوراس ، إيرلندا ، إيطاليا ، اليابان ، ليبيريا ، لوكسمبورغ ، هولندا ، نيوزلندا ، بارغواي ، البرتغال ، السويد ، المملكة المتحدة .

وقد حاولت الولايات المتحدة إقناع دول السوق الأوروبية بمعارضة القرار . ووافقت الجمعية العامة كذلك على قرار آخر يدعو لتوسيع عضوية لجنة فلسطين التي تتكون حالياً من ٢٣ دولة . وجرى تبني هذا القرار بموافقة ١١٢ صوتاً مقابل خمسة أصوات معارضة وامتناع ٢٦ دولة عن التصويت .

وقد خول هذا القرار الرئيس سليم احمد سليم تعيين أعضاء إضافيين بحلول ٣١ آب . في لجنة ممارسة الحقوق الثابتة للفلسطينيين التي عقدت الدورة الطارئة بمبادرة منها . وكانت اللجنة التي تضم ٢٣ دولة قد تقدمت بمقترحات من أجل الفلسطينيين بما في ذلك حق إقامة الدولة ولكنها تعرضت للرفض في مجلس الأمن عندما استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو في ٣٠ نيسان الماضي .

نص قرار الجمعية العامة

« إن الجمعية العامة ببحثها مسألة فلسطين في دورة طارئة وعاجلة ، تعرب عن اقتناعها بأن هذه المسألة ستظل بدون حل وستهدد بصورة خطيرة السلام والأمن الدوليين . وتعرب عن أسفها وبالغ إهتمامها بأن مجلس الأمن لم يستطع التوصل في ٣٠ نيسان الماضي إلى قرار أثر اقتراع الولايات المتحدة الاميركية السلبي حيال توصيات اللجنة ، الخاصة بممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني والتي تبنت توصياتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٤ تشرين اول عام ١٩٧٦ ، وفي ٢ كانون الأول عام ١٩٧٧ ، وفي ٧ كانون الأول عام ١٩٧٨ ، وفي ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٧٩ . وبعد بحثها الرسالة المؤرخة ١ تموز عام ١٩٨٠ والصادرة عن الممثل الدائم للسنغال ورئيس لجنة ممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني وسماعها بيان مراقب منظمة تحرير فلسطين وممثل شعب فلسطين .

« - تؤكد الجمعية العامة من جديد قراريها رقمي ٣٣٦ و ٢٣٧ الصادرين في ٢٢ تشرين الأول عام ١٩٧٤ وجميع قرارات الأمم المتحدة الأخرى المتعلقة بمسألة فلسطين .

« - تؤكد بصفة خاصة أنه لن يكون هناك سلام شامل وعادل ودائم في الشرق الأوسط وفقاً لميثاق الأمم المتحدة وقرارات الأمم المتحدة طالما لم تنسحب إسرائيل من كافة الأراضي الفلسطينية والأراضي العربية المحتلة الأخرى ومنها القدس ، وطالما لم يتم التوصل إلى حل عادل لمشكلة فلسطين يقوم على أساس الوفاء بالحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني في فلسطين .

« - تؤكد الجمعية العامة الحق الثابت للفلسطينيين الذين شردوا واخرجوا من ديارهم في العودة إلى ديارهم وإستعادة ممتلكاتهم في فلسطين وتطالب بعودتهم .

- تؤكد الجمعية العامة كذلك الحقوق الثابتة في فلسطين للشعب الفلسطيني ومنها حق تقرير المصير دون تدخل خارجي وفي الاستقلال والسيادة الوطنية والحق في إقامة وطن مستقل وذي سيادة خاص به .

- ويؤكد القرار مرة أخرى أنه يجب إشتراك منظمة التحرير الفلسطينية التي تمثل الشعب الفلسطيني ، على قدم المساواة ، في جميع الجهود والمناقشات والمؤتمرات التي تتناول المشكلة الفلسطينية ، والموقف في الشرق

الاوسط في نطاق منظمة الأمم المتحدة .

ويؤكد مرة أخرى المبدأ الجوهري بعدم قبول الإستيلاء على الأراضي بالقوة .

- يطالب إسرائيل بالإنسحاب الكامل وبدون شرط عن كافة الأراضي الفلسطينية والأراضي العربية الأخرى المحتلة منذ حزيران ١٩٦٧ ، بما فيها القدس ، مع عدم المساس بالممتلكات والمرافق ويؤكد على ان يبدأ هذا الإنسحاب من جميع الأراضي المحتلة قبل يوم ١٥ تشرين الثاني ١٩٨٠ .

- يطالب إسرائيل أن تلتزم تماماً ببنود القرار رقم (٤٦٥) عام ١٩٨٠ ، الذي وافق عليه مجلس الأمن ١٩٨٠ .

- ويطالب أيضاً إسرائيل بأن تلتزم تماماً بكافة قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بالطابع التاريخي لمدينة القدس وبصفة خاصة القرار رقم (٤٧٦) عام ١٩٨٠ .

- ويعارض جميع المخططات والسياسات الرامية إلى إعادة توطين الفلسطينيين خارج وطنهم .

- تدعو الجمعية العامة وتصرح للسكرتير العام ان يعمل بالتشاور ، حسبما يرى ، مع اللجنة الخاصة بممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني من أجل إتخاذ الإجراءات الضرورية لتطبيق التوصيات الواردة في الفقرات من ٥٩ إلى ٧٢ من تقرير اللجنة إلى الجمعية العامة إبان دورتها الحادية والثلاثين كأساس لحل المشكلة الفلسطينية .

- تناشد السكرتير العام بتقديم تقرير للجمعية العامة خلال دورة انعقادها الخامسة والثلاثين التي تبدأ في شهر أيلول القادم حول تطبيق القرار الحالي .

- تناشد الجمعية العامة مجلس الأمن، في حالة عدم امتثال إسرائيل لهذا القرار ، أن ينعقد لبحث الموقف والنظر في امكانية إتخاذ إجراءات فعالة وفقاً للفصل السابع من الميثاق .

- تأجيل الدورة السابعة غير العادية الطارئة مؤقتاً وأن يصرح لرئيس آخر جلسة عادية للجمعية العامة للأمم المتحدة أن يستأنف هذه الجلسة بناء على طلب الدول الأعضاء » (« السفير » ، ١٩٨٠/٧/٣٠) .

ردود الفعل على قرار الجمعية العامة

فلسطينياً :

أشادت منظمة التحرير الفلسطينية بقرار الجمعية العامة الداعي إلى إنسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة ووصفته بأنه نصر للقضية الفلسطينية . وجاء في تعليق لوكالة الأنباء الفلسطينية أن القرار يلبي طموح الشعب الفلسطيني ، ويؤكد على أن هذه الحقوق أصبحت حقوقاً مقرّرة تحظى باحترام واعتراف الأغلبية الساحقة من دول العالم وأن القرار فضح الدور المعادي للولايات المتحدة الاميركية في مواجهة الأمة العربية والمجموعة الأوروبية وكشف خداع المبادرة الأوروبية العقيدة التي حاولت بعض دول هذه المجموعة تقديمها كطعم يؤدي إلى تمييع المواقف العربية العادلة والمصادمة لكامب ديفيد ولتمزيق جبهة الصمود والتصدي (« وفا » ، ١٩٨٠/٧/٣٠) .

اسرائيلياً :

هاجم وزير الخارجية الإسرائيلي أسحق شامير قرار الجمعية وقال أنه لا يلزم إسرائيل . كما هاجم الدول الأوروبية التي امتنعت عن التصويت . وكان شامير يتحدث في جلسة وافق فيها البرلمان الإسرائيلي (« السفير » ، ١٩٨٠/٧/٣١) على إدانة القرار بأغلبية ٤٩ صوتاً ضد ٤٣ وقال أنه لا يمكن لأحد ، ولا حتى لعدد كبير من الدول ، أن يفرض علينا حلولاً تلغي رغبتنا في البقاء والوجود .

وأدان شمعون بيرس ، من جهته ، قرار الأمم المتحدة وقال أنه قرار لصالح الحرب وضد السلام ؛ وتساءل

في الوقت نفسه ، عما إذا كانت الحكومة الإسرائيلية تعلم إلى أين تقود الأمة .

وقال أنها تقودها إلى التفكك والصراعات الداخلية وبخاصة بإعلانها أن حزب العمل يؤيد قيام دول فلسطينية ، وهو ما لا يتفق مع الحقيقة اطلاقاً .

أميركياً :

دن ماسكي ، في معرض مناقشة قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة : ان هذه القرارات تكتيكات انحرافية كما أن من شأنها أن تؤدي إلى أضرار . وأعلن أن القرارات لن تؤدي إلى تسوية أي شيء . وذهب إلى القول : أن هذا القرار يتعارض مع قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٢٤٢) ولا يعترف بكيان إسرائيل .

من هنا ، نرى أن هذا القرار ماهو إلا تعبير عن المشيئة الدولية التي اتفقت غالبيتها العظمى على أن الإنسحاب الاسرائيلي من الأراضي العربية المحتلة والإعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، هما الركيزتان الأساسيتان لحل المشكلة الفلسطينية وإقرار السلام في المنطقة .

اهمية القرار

لقد استطاع القرار الذي تقدمت به مجموعة دول عدم الانحياز ان يضع إسرائيل والولايات المتحدة الإمريكية في زاوية ضيقة ، فإسرائيل لا تستطيع الهروب من تنفيذ هذه القرارات حيث أنها ستبقى مطالبة بتنفيذها أو مواجهة العقوبات التي ستتخذها الدول المؤيدة لها .. إن الجمعية العامة والشعوب الممثلة بها قد خطت خطوة واسعة إلى الأمام في اتخاذ مثل هذه القرارات التي تعبر عن تقدير متزايد لأهمية النضال الفلسطيني بالنسبة للرأى العام العالمي الذي أصبح على قناعة تامة من أن الوصول إلى التسوية السلمية العادلة في منطقة الشرق الأوسط لا يمكن أن يتم إلا من خلال الممر الفلسطيني والإعتراف بحقوق شعبه ودعمه وتأييده في سبيل إقامة دولته الفلسطينيـة على كامل تراب وطنه فلسطين .

سليمان إبراهيم

لبــــنان : الأزمــــة الحكوميّــة والـــدويـلة الكتائبية

التطورات التي حصلت على الساحة اللبنانية منذ ما سمي بـ « حركة السابع من تموز » ، جعلت الأنظار تتجه نحو لبنان ، على الصعيدين العربي والعالمي . وثمة شعور لدى المراقبين ، في أكثر من عاصمة أوروبية ، بأن الأحداث الجارية في لبنان تنبيء بتحولات معينة تتعدى إطار لبنان وحدوده .

وإذا تركنا جانباً الترابط القائم بين أحداث لبنان والقضية الفلسطينية : هذا الترابط الذي يشتد ، أكثر فأكثر ، رغم المحاولات الساذجة الرامية لإيجاد « فصل » مصطنع بين القضيتين ، يمكن القول أننا نشهد ، في مناطق لبنان المختلفة ، بداية لتحول نوعي في المشروع الصهيوني الذي تنفذه « الجبهة اللبنانية » ؛ هذه الجبهة التي لم يبق منها حالياً ، على الصعيد العسكري ، سوى حزب الكتائب . وهذا الاستئثار بالسيطرة على « الشارع المسيحي » هو أحد جوانب التحول الذي نقصده .

وقبل الدخول في المعلومات المتوفرة عن آفاق تطور المشروع الانعزالي بعد القضاء على مواقع السيد كميل شمعون العسكرية ، لا بد من إلقاء نظرة على الأزمة الحكومية التي أعقبت قبول استقالة الرئيس سليم الحص وحكومته وبدء الإستشارات الرامية لتأليف حكومة جديدة . والأزمة المذكورة تمثل أهمية كبيرة ، بالضبط لأن فترة الفراغ الحكومي التي كادت تتحول إلى أزمة حكم شاملة ، هي الفترة التي إنتقل فيها مشروع التقسيم إلى المرحلة التي يمكن تسميتها بما قبل النهائية .

ويستفاد من تحليل عدد من الخبراء في السياسة اللبنانية ، ان مسارعة الرئيس سركيس الى قبول إستقالة الحص التي كانت قد قدّمت منذ شهر حزيران ، إثر « عملية ٧ تموز » التي جرت في المنطقة الشرقية والسواحل الشمالية ضد « الوطنيين الأحرار » بأيام قليلة ، إنما تدخل في إطار لعبة متكاملة ، كان الحكم يظن أنها اللعبة « الديمقراطية » التي تتيح لرئيس الجمهورية أن يكمل ولايته ، بأقل قدر من التضحية . وإذا بالواقع يبين أن المستفيد الأساسي من هذه الأزمة التي فتحها الحكم هو حزب الكتائب ، على الصعيدين السياسي والميداني .

لقد جاءت الأزمة الوزارية في اللحظة التي كان يتكون فيها شبه إجماع وطني وشعبي على ضرورة مواجهة خطر الهيمنة الكتائبية المدعومة من العدو الإسرائيلي ؛ وهي اللحظة التي كانت فيها أوسع الهيئات والشخصيات والتيارات السياسية والدينية والحزبية والإجتماعية تعقد اللقاءات ، وتقيم الإجتماعات داعية إلى إنقاذ الوطن من التقسيم وإنقاذ السلطة الشرعية من « شرعية » الدولة الكتائبية « العتيدة » .

والذي حصل هو أن المراجع العليا في السلطة إعتبرت أن ما حدث في المنطقة الشرقية من عمليات ومجازر ، إنما هو دافع جديد للإنطلاق نحو تغيير الحكومة والمجيء بحكومة تضم القوى السياسية والعسكرية المتصارعة في

البلاد . في ما درج على تسميته بحكومه الفعاليات السياسية ، أو حكومة الإتحاد الوطني .

وكان الرئيس سركيس قد استشار بعض الأطراف،كما استشار المسؤولين السوريين بإرساله العميد جوني عبدو إلى دمشق . فكان جواب معظم الأشخاص الذين تمت استشارتهم، أن الموضوع يجب ألّا يبحث على هذا النحو المتسرع ، وتساءلوا : لماذا تم اختيار هذا الوقت بالذات لقبول إستقالة الحكومة؟ وكان جواب المسؤولين السوريين انهم مستعدون لتسهيل الأمور مع تأكيد أنهم يعتبرونها شأناً لبنانياً داخلياً .

وقد اعتبر الرئيس سركيس أن هذا الجو من التساهل ، ومن عدم المعارضة ، إنما هو عنصر كاف للانطلاق الى فتح باب التغيير الحكومي . وقبل ساعة واحدة من إجتماع مجلس الوزراء الذي عقد في ١٦ تموز ، فاجأ رئيس الجمهورية رئيس الحكومة بأنه سوف يقبل الإستقالة المقدمة في السابق ، وانه سوف يبدأ بالاستشارات .

ثم بدأت سلسلة من الإجتماعات والإتصالات على مختلف الصُعُد داخلياً وعربياً ودولياً ، وسرعان ما تبين أن الأمور عادت فتداخلت ، وأن العديد من القضايا لا بد من أن يبحث بروية ، على هامش البحث في تشكيل الحكومة ، لا بل في أساس الأبحاث المتعلقة بهذا التشكيل .

وعندما بدأت الإتصالات مع العاصمة السورية تبين أن هناك أموراً كثيرة كان الحكم اللبناني يراهن عليها. وقد سارع أحد المطلعين إلى التعبير عن حقيقة المشكلة بالقول : إن هناك أكواماً من المشاكل المتراكمة ، وأن هذه المشاكل لم يطرأ أي جديد حتى يمكن حلها ، والجديد الوحيد الذي طرأ ، لبنانياً ، هو قيام الهجوم الكتائبي الشامل على مواقع كميل شمعون ، وأنه إذا كانت السلطة تعتقد أن السيطرة الكتائبية هي عامل مساعد في الوصول إلى حل للأزمة ، فإن ذلك يتناقض مع الواقع . كما اعتبر العديد من السياسيين والأحزاب اللبنانية أن توقيت قبول إستقالة الحص هو ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، نوع من المكافأة للكتائب بالنظر إلى أن رئيس الحكومة المستقيل كانت له مواقف صريحة في رفض التقسيم . كما أن هذا التوقيت يغطي على ما حدث في المنطقة الشرقية والذي كانت الأوساط السياسية تعتقد أنه سوف يحتل الصدارة في وسائل الاعلام وفي أذهان الناس لعدة أشهر .

وبالفعل ، إتجهت الأنظار كلها نحو تشكيل الحكومة الجديدة ، ونحو إختيار الشخصية المؤهلة لهذا التشكيل . وكانت الاجواء في المنطقة العربية تشير إلى أن العدو الإسرائيلي يستعد للقيام بخطوة تصعيدية لتكريس إحتلاله للقدس والضفة الغربية ، كما كانت الأزمة العنيفة بين الولايات المتحدة الأميركية وإيران تنذر بتفاعلات قوية في المنطقة . كما كان الدور الأوروبي قد برز من جديد في قضية الشرق الأوسط وراح البعض ينتظر ما سيكون عليه دور لبنان في الحلول التي قد تقترحها أوروبا الغربية في المنطقة العربية .

وهكذا ، جرت الإستشارات لتأليف الحكومة ، في أجواء غلب عليها طابع التشابك بين أوضاع لبنان وأوضاع المنطقة : وهو التشابك الذي إزداد حدة مع عودة التهديدات الإسرائيلية بالإنتقام من لبنان ، أو بضرب المواقع والمناطق الخاضعة لإشراف قوات الطوارىء الدولية في الجنوب اللبناني .

وقد أبدى مختلف الفرقاء ، خلال الإستشارات، إيجابية تجاه ضرورات الوفاق الوطني التي طرحها رئيس الجمهورية ، غير أن وجهات نظر القوى الوطنية والتقدمية والرئيسين سليمان فرنجية ورشيد كرامي ، والعديد من الهيئات الإسلامية ، فضلاً عن المسيحيين المعادين للهيمنة الفاشية ، كانت تتركز في إطار الإتجاهات الرئيسية الآتية : الوفاق الوطني ضرورة حيوية ، ولكنه لن يتحقق دون مواجهة فعلية للمشروع الكتائبي : القوى المؤهلة للمشاركة في الحكومة يجب أن تكون مؤمنة بوحدة لبنان : لا يجوز القفز فوق بعض القوى الأساسية على الساحة اللبنانية ؛ يجب تنفيذ قانون الدفاع الوطني الجديد ومنع محاولات فرض الإستئثار من جانب قائد الجيش وبعض الأشخاص ؛ على رئيس الجمهورية أن يعطي ، في الحكومة الجديدة ، مواقع أساسية للحركة الوطنية اللبنانية بوصفها القوة المؤهلة لتحقيق التوازن الوطني : وأخيراً فقد كان رأي الأوساط الوطنية متفقاً على تنفيذ المقررات العربية والدولية بشأن الأزمة اللبنانية ، ومنع التعامل مع العدو الإسرائيلي .

وعندما كثرت الاقتراحات والافكار المتعلقة بالأشخاص المؤهلين لتأليف الحكومة ، تبين أن هناك مسعىً لترك القضايا السياسية الكبرى التي يتوقف عليها مصير البلاد ، وترك أو تأجيل الأسس المطلوبة لتشكيل الحكومة ،

والإكتفاء بالبحث في الأشخاص . وكرّت سلسلة من الترجيحات والتوقعات ، وقام « بازار » من الصيغ والتركيبات المحتملة والمتوقعة ، وكان هذا من العوامل التي أحدثت أزمة صامتة في العلاقة مع المسؤولين السوريين بشكل خاص : فقد اعتبرت القيادة السورية أن السلطة اللبنانية لم تطرح عليها أي موضوع جدي من المواضيع الكبرى المطروحة ، وإنما اكتفي بالبحث في الأسماء ، وكأنما هناك لوائح كاملة لتشكيلات وزارية يراد فرضها .

وفي مطلق الأحوال ، استمرت العقد والصعوبات ، في أكثر من مجال ، والأفكار التي كانت مطروحة ، في البداية ، بشأن تشكيل حكومة « فعاليات سياسية » ، كانت تبدو غير قابلة للتنفيذ . فلم يحدث ، على الصعيد السياسي ، ما يجعل من الممكن قيام حكومة فاعلة يشارك فيها السيد وليد جنبلاط والشيخ أمين الجميل وممثلون عن سائر القوى المتصارعة . ولم يحدث ، في نشاط الحكم ، ما يشير إلى أنه سيأخذ فعلاً بعين الإعتبار التوازن في نسبة القوى ، وإلى أنه سيواجه المشروع التقسيمي بما يلزم من التصدي العسكري والسياسي . وعندما طرحت ، في احدى جلسات القصر الجمهوري ، بعد « عملية ٧ تموز » فكرة قيام الجيش الرسمي بمهماته في التصدي للدويلة الكتائبية ، أجاب مسؤول كبير معني بقضايا الدفاع الوطني ، بأن كل ما في حيازة السلطة الشرعية ، في المناطق الخاضعة للميليشيا الكتائبية ، هو حوالى الألف والخمسمئة جندي ، وأن هؤلاء الجنود قد تلقّوا انذاراً من القيادة الكتائبية ألا يأتوا بما يعكّر صفو « الدويلة » ، وبالتالي فالجيش لا يستطيع أن يفعل أي شيء والمسألة تتخطى امكانياته .. وصلاحيّاته .

وهذا المثال البسيط كان كافياً ، لو توفرت الرؤية السياسية المتكاملة ، لحثّ الحكم على التفكير في جدوى المراهنة على « حكومة الفعاليات » ، في هذا الوقت الذي لم تتوفّر فيه أية معالجة في العمق لأية قضية من القضايا الكبرى المطروحة ، وفي وقت لم يعد فيه للسلطة الشرعية أي علاقة مباشرة بالمناطق الخاضعة لسلطة الشيخ بشير الجميل .

غير أن الحكم أصر ، بالرغم من الأجوبة الرافضة والمتحفظة وبالرغم من التساؤلات والمخاوف الكثيرة ، على الخوض في تجربة إشراك الفعاليات السياسية في الحكم . بل إن الحماسة للفكرة وصلت إلى الحد الذي جعل بعض مندوبي رئيس الجمهورية يقولون للجهات المعنيّة أن هناك تشكيلة أو تشكيلات حكومية جاهزة ، ومن لا يقبل بالإشتراك يكون قد إستبعد نفسه !

وعلى أساس هذه الفكرة تمّ تكليف الرئيس تقي الدين الصلح بتأليف الحكومة الجديدة ، وبدأت المشاورات بهدف حل العقد التي تعترض هذا التأليف والتي كان من المعتقد أنها عقد شكلية وغير مهمة . ومرة أخرى ، برزت القضايا الكبرى المطروحة ، وبرزت حدة الصراع السياسي . وفي ظروف يستحيل معها حل أية مشكلة صغيرة دون إشراك ممثلي دول كبرى وهيئات عالمية . فإن المشاكل التي إعترضت مهمة الرئيس المكلف ، والتي هي نفسها مشاكل ما قبل التكليف ، لم تكن مفاجئة للمطّلعين . ولم يكن مفاجئاً ، أيضاً ، وصول الرئيس الصلح إلى حائط مسدود بعد تلقيه أجوبة سلبية من أكثر من طرف ، وبعد أن تقدّم المشروع التقسيمي إلى الأمام خطوات جديدة ، وبعد أن دخل العدو الإسرائيلي على الخط ، بصورة مباشرة ، من خلال أعمال القصف المتواصلة ، وتهديدات العميل سعد حداد للقرى والمواقع التابعة لقوات الطوارىء الدولية .

وقد جاء إعتذار الرئيس المكلّف ، بعد الفشل في تأليف « حكومة الأمر الواقع » ، ليضع على بساط البحث مجمل النظرة إلى الأزمة الحكومية ، وليضع تساؤلات كبيرة حول مدى قدرة الحُكم ، ومدى رغبته ، في مواجهة القضايا الأساسية ، وأبرزها قضية الدفاع عن جنوب الوطن ، وعن وحدته في مواجهة المشروع الصهيوني ـ الإنعزالي الذي إستفاد كثيراً من حالة المراوحة ، كما إستفاد من إصرار بعض أوساط الحكم على منع عملية إعادة بناء الجيش ، وعلى مقاومة الدعوة شبه الإجماعية إلى تحسين العلاقات مع سوريا ، والتنسيق مع المقاومة الفلسطينية .

وفي هذا الوقت كانت وقائع من نوع آخر تقوم وتترسخ في قسم من الأراضي اللبنانية ، إلى درجة تتحوّل فيها الإجراءات المتخذة إلى أمر واقع « لا مردّ له » بحسب تقدير القائمين فيه .

وبالفعل ، ان الذي يتابع ما حصل في المنطقة الشرقية ، خلال الأشهر الأخيرة ، خصوصاً منذ تقديم

الحكومة استقالتها في ٧ حزيران الماضي ، مروراً بقبول الإستقالة في ١٦ تموز ، وتكليف الصلح في ٢٠ منه ، وصولاً إلى إعتذاره في ٩ آب ؛ الذي يتابع ما حصل في المنطقة الشرقية ، في ظل تطورات الأزمة الحكومية والسياسية ، يصل إلى حصيلة غنيّة للغاية .

إن أبرز ما يمكن تناوله في هذا المجال هو : الإجراءات المالية والإدارية والعسكرية الجاري تنفيذها على أرض الواقع ، من جهة ، والحرب النفسية ضد الفلسطينيين والعرب من جهة ثانية ، ومسألة علاقة الدويلة الكتائبية ببلدان المنطقة العربية او « الداخل العربي » كما كان يقال في أيام الإنتداب الفرنسي عندما يقصد كل من سوريا والدول القريبة من الشاطىء اللبناني ، من جهة ثانية .

أولاً : الإجراءات العسكرية :

إن فكرة توحيد القوات في ما يسمى « الشارع المسيحي » ، راودت حزب الكتائب منذ ما قبل حرب ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ . ومنذ المعارك التي حصلت بين الجيش اللبناني والمقاومة الفلسطينية والحركة الشعبية اللبنانية ، في عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٣ . كانت بعض الآراء تبرز في حزب الكتائب مفادها أنه يجب توحيد القيادة السياسية والعسكرية للعمل الهادف إلى طرد « الوجود الفلسطيني المسلح » . وكان الصراع بين الكتائب والسيد كميل شمعون من جهة ، والشرذمة الناتجة عن عوامل اقليمية وسياسية من جهة ثانية ، يدفعان البعض إلى القول بعدم جدوى المراهنة على هذه الجبهة الواسعة والمشتتة التي كانت تتكون وتتخذ أسماء متعددة ، كان آخرها إسم « الجبهة اللبنانية » في العام ١٩٧٦ .

وقد تبين أن حزب الكتائب إستطاع ، بفضل مستوى كادراته العسكرية ودقة التنسيق مع الأوساط الصهيونية ، وبفضل بعض الجهود الفكرية والتنظيمية التي بذلتها قوى وأوساط حليفة ذات تجربة اكاديمية وسياسية واسعة (الكسليك ، الرهبان ، التنظيمات الفاشية المستقاة من التجربة الأوروبية) ، إستطاع أن يبني بنفسه جهازاً عسكرياً وتنظيمياً متكاملاً إلى هذه الدرجة أو تلك ، وذلك بمعزل عن تطور او تقهقر علاقات الحزب مع حلفائه او بعضهم ، إلى أن تطور المشروع التقسيمي وبرزت فكرة تكريس السيطرة ، قانونياً وامنياً وإقتصادياً ، على المنطقة التي سيطرت عليها « الجبهة اللبنانية » ، فكان أن وضعت الكتائب ، دون أي خوف أو تردد ، خطة للإنقضاض على آخر حلفائها ، كميل شمعون ، تحت شعار توحيد « الجبهة الداخلية » وبناء دويلة بقيادة واحدة وروحية واحدة ، تكون هي المنطلق «لتحرير» كل لبنان من الفلسطينيين وسائر الغرباء .

وقد فوجىء بعض المراقبين بالسرعة التي حصل فيها الهجوم الكتائبي على مواقع كميل شمعون في ٧ تموز ، كما فوجئوا بالشراسة التي نفذ فيها هذا الهجوم الشامل الصاعق . غير أن العودة إلى ما قامت به الكتائب ضد مجموع منافسيها وحلفائها ، من شأنها تبديد هذه التساؤلات ، خصوصاً إذا أعدنا إلى الأذهان المجازر التي نظمت ضد الرئيس السابق سليمان فرنجية والمناطق الشمالية ، والعمليات الإنتقامية والعدوانية ضد الأرمن وأحزابهم ، والحرب على التنظيمات الصغيرة التي كانت الكتائب تسميها « الدكاكين » ، والصراع الخفي بين الكتائب وأوساط معينة من الرهبانيات المارونية والذي ادى ، في ما أدى إليه ، إلى سحب ثقة الكتائب من حليفها الأباتي شربل قسيس ، رئيس الرهبنة المارونية الذي استبدل ، في تموز الماضي ، بالاب بولس نعمان في رئاسة الرهبنة المذكورة . وقبل ذلك . كان صراع سياسي وفكري قد أدى إلى إنسحاب المثقفين اليمينيين المستقلين الأعضاء في قيادة « الجبهة اللبنانية » (سعيد عقل ، جواد بولس ، فؤاد افرام البستاني ، الخ ..) . وعلى هذا النحو بقي على الكتائب أن تتخلص من آخر المنافسين وهو كميل شمعون : فكانت « حركة السابع من تموز » وما رافقها من عمليات إبادة جماعية راح ضحيتها مئات الأبرياء . والذين يعرفون حقيقة ما يجري إعداده في القيادة الكتائبية ، يقولون أن العمليات ضد مواقع « الوطنيين الأحرار » قد تمت ، بالضبط ، على النحو الذي يوقع أكبر عدد من الضحايا الأبرياء ، حتى يكونوا عبرة لسواهم ، وحتى يكون الرعب الجماعي والخوف من البطش الكتائبي هما الرابط الدائم الذي يشدّ المواطنين المسيحيين إلى الدويلة وأجهزتها .

وعندما تم القضاء على الوجود العسكري « للوطنيين الأحرار » شرع بشير الجميل بعقد إجتماعات يقصد منها « توحيد القوات اللبنانية » . وأعلن قائد المجلس الحربي الكتائبي أنه يجب القتال داخل « جهاز واحد غير

حزبي » ، وأنه يجب الترفع عن الصغائر والإرتفاع إلى مستوى القضية . وأضاف ، في خطاب ألقاه في ثكنة كتائبية في ١٥ تموز ، أن حزبه أجبر على تنفيذ العملية الهجومية على مواقع « الأحرار » لأجل المحافظة على القضية وعلى وحدة الصف ، وأنه إذا كان الإقتحام الكتائبي للمسبح والفندق في طبرجا قد تسبّب في وقوع « ستين قتيلاً فقط » (العدد الحقيقي لضحايا المجزرة ٥٣٠ قتيلاً ومئات الجرحى والمشوّهين) ، فإن هذا العدد « يبدو ضئيلاً حيال ما كان حدث لو لم نقم بالعملية الأمنية » .

وتوضحت العلاقة المطلوبة بين القيادة (الكتائبية) للقوات الموحدة ، وبين المقاتلين الشماعنة المقبول إشتراكهم في هذه القوات ، بوصفها علاقة بين القوة الفاشية المهيمنة وبين مقاتلين أعداء ممن جرى أسرهم « وتشغيلهم » في الحرب الكتائبية . ووجه بشير الجميل إنذاراً إلى سائر التنظيمات السياسية والعسكرية القائمة لتسليم سلاحها إلى الميليشيات الكتائبية ، ونفذ ذلك كل من « حراس الأرز » و« التنظيم » ، وجماعة مارون خوري في الدكوانة ، وبعض القوات التابعة للرهبانية المارونية ، وأصبحت القيادة الكتائبية هي المسؤولة ، بصورة « شرعية » ، عن المنطقة وعن المصالح العامة وأمن المواطنين ومصيرهم . وقامت الميليشيا بعمليات مركزة لتطويق الأحياء الأرمنية وأحكمت حصاراً فعلياً على مراكز التنظيمات الأرمنية ، وأبلغتها أن كل « حراك » وكل نشاط ملحوظ من جانب الأرمن من شأنه ان يتسبّب في تدمير الأحياء وإبادة السكان .

وطرحت مسألة العلاقة مع قوات الجيش الرسمي الموجودة في المنطقة ، ووجه بشير الجميل إنذاراً إلى الجيش مفاده أن الذي يقرر ، والذي يقوم بمهمات الأمن هو القوات الكتائبية ، وأن على الجيش ألاّ يقوم بأي تصرف يسيء إلى علاقة المواطنين بالقيادة الشرعية المسؤولة عن مصير المناطق الحرة ، وعن مصير المواطنين . وقد بحثت المسألة في مجلس الوزراء : وبالرغم من المطالبة الشعبية والسياسية بأن تتدخل السلطة لمواجهة المجازر والتدابير التقسيمية فقد اعتبر الحكم ان الوضع خارج عن إمكاناته ، وأن قوة الجيش المتواجدة في بعض أنحاء أو أطراف المنطقة الشرقية لا يمكنها القيام بأي دور ، بل أن حياة الجنود ومصيرهم هما في يد « الميليشيا » .

والمعروف أن مسألة إعادة بناء الجيش كانت مطروحة ، بشكل حاد ، قبيل حصول مجازر ٧ تموز ، وكان قانون الدفاع الوطني الجديد قد تعرّض لسلسلة من العقبات والعراقيل المقصودة من جانب قيادة الجيش الحريصة على أن تبقى الصلاحيات الأساسية كلها في يد قائد الجيش وقائد المخابرات . والمعروف أيضاً ، أن الإمتناع عن تنفيذ القانون الجديد والإمتناع ، بالتالي ، عن تنفيذ الخطة الدفاعية التي أقرها مجلس الوزراء والقاضية بمواجهة الإحتلال الإسرائيلي ومشاريع التقسيم ، كانا من أبرز العوامل التي عرقلت عمل حكومة الدكتور الحص ، وكانا أيضاً من أبرز المشاكل التي أطالت الأزمة الوزارية الراهنة . وقد إستفادت ميليشيا الكتائب ، بصورة خاصة ، من النظرة المتردّدة إلى مسألة الجيش والدفاع الوطني ومقاومة التقسيم ، إلى أن قامت هذه الميليشيا بملء الفراغ وبإنشاء الأجهزة الأمنيّة والقمعية وبممارسة مهمات السلطة . وهو ما تكرّس بعد عمليات السابع من تموز والتي أعقبها إعلان من بشير الجميل بأن مقاتلي الكتائب هم الجيش اللبناني الحر وهم حماة القسم المحرر من الوطن ، وهم الذين سيخوضون معركة التحرير في الجنوب والشمال والبقاع والجبل وبيروت ، وإن كل حكومة لا تشارك في هذا التحرير لن يُكتب لها النجاح ولن تبقى في الحكم يوماً واحداً .

وفضلاً عن إقامة أجهزة القمع العسكري ، أقامت الكتائب شرطة خاصة بها ، ومخافر ومحاكم ولجان تحقيق وما إلى ذلك من الأجهزة الأمنية والقضائية التي تتيح الإستغناء عن « خدمات » الدولة في هذا المجال .

ثانياً : الإجراءات المالية والاقتصادية :

لجأت الكتائب إلى أحداث تغيير في علاقتها مع المرافق والمؤسسات الإقتصادية ومع مصالح الدولة ، في المناطق الخاضعة لسيطرتها . ففي المرحلة الماضية ، كانت لجان مشتركة من الكتائب « والوطنيين الأحرار » ، وأحياناً لجان كتائبية دون سواها ، تتولّ فرض نسب معينة من التبرعات القسرية على جميع العاملين في المناطق المذكورة ، وكانت تتقاضى جانباً من الرسوم التي تحصل عليها المرافق الرسمية (المرفأ ، الكهرباء والمياه ، الهاتف ، الدوائر العقارية والمعاملات المصرفية ، الإستيراد ، الخ ..) . أما في المرحلة الجديدة ، فلم تعد إدارة الدويلة تكتفي بأن تأخذ حصة معينة أو « ضريبة » أو رسماً معيناً على المصالح وعلى المعاملات ، وإنما ثمة إتجاه

للطلب من الحكومة ومن مجلس النواب بأن يقوما بالتخلي الكامل عن قسم من الموازنة العامة للدولة ، وهو المتعلق بالمناطق والمؤسسات ومجالات الحياة الإقتصادية والإجتماعية الواقعة تحت سيطرة « القوات اللبنانية » . وهذا النهج من شأنه أن يتسبّب في تغيير جذري في طبيعة الحكم ومهماته ؛ إذ أن صلاحية مؤسسات الحكم ومنها رئاسة الجمهورية تصبح محصورة بالمناطق الخارجة عن « الغيتو » . ولا شك في أن مثل هذا التطور سيدفع مسألة المصير الوطني كله إلى الواجهة .

وفي كل حال ، بدأت لجان مختصة في حزب الكتائب بأحكام السيطرة ، بصورة مباشرة ، على العديد من المؤسسات الرسمية ومرافق الحياة الإقتصادية .

ثالثاً : البلديات والإدارات المحلية :

وفي المدة الأخيرة أخذت قيادة « الميليشيا » تستدعي ، تدريجياً ، رؤساء البلديات في ضواحي بيروت وفي المتن الشمالي وكسروان وجبيل وتطلب منهم الإستقالة فوراً ووضع أنفسهم في تصرف القيادة الكتائبية . وعندما كان رئيس البلدية يحضر إلى أقرب مركز عسكري ، كان يقال له ، بصورة واضحة ، ان الحزب هو المسؤول عن البلدية وأن أموالها والمصالح المرتبطة بها يجب أن توضع في تصرّف القيادة ، وهذه تقرّر كيفية العلاقة بين البلدية وبين الهيئات الرسمية التي هي مرتبطة بها ولا سيّما بوزارة الداخلية . وقد تفاقم الوضع في العديد من المدن والقرى نتيجة لاصطدام المبعوثين الكتائبيين برفض من جانب رؤساء البلديات ، قبل أن تتدخل قوات من الميليشيا لحسم الأمر .

الكتائب تعترف بالدويلة

وسرعان ما أعلنت الكتائب بصراحة ، في سلسلة مقالات في صحيفة « العمل » في زاوية « من حصاد الأيام » ، المبادىء العامة للمشروع التقسيمي دون أية مواربة . فوسط ضجة إعلامية قوية ضد المقاومة الفلسطينية و « الإحتلال » وخطر التوطين (وهذه الضجة شاركت فيها أوساط رسمية لبنانية) أوردت المقالات الخمسة التي حملت عنوان « الدويلة الكتائبية » جملة من الأمور التي يجري الإفصاح عنها للمرة الأولى ، والتي تشكل تصعيداً خطراً لمسلسل التحركات الإسرائيلية والإنعزالية منذ بداية الحرب الأهلية ، بل منذ معارك ١٩٦٩ و ١٩٧٣ ضد المقاومة الفلسطينية والحركة الشعبية .

وقد استهل المقال الأول (تاريخ ١٩٨٠/٨/٦) بما يلي :

« بصراحة :

« إما أن تكون هناك دولة تحمينا وتؤمن لنا اقلّ شروط العيش والحياة ، وإما أن نتولى بأنفسنا ما لا غنى عنه لأي مجتمع لكي يبقى .

« القضية عندنا تختصر بهذه المعادلة البسيطة والصريحة . إننا جماعة تريد أن تحيا » .

ويمضي المعلق إلى تبرير مجمل المشروع التقسيمي والإجراءات التي حصلت ، واضعاً التبعة على الفلسطينيين مرحّباً بالتقسيم بإعتبار أن وحدة لبنان ليست صنماً للعبادة . فيقول ، بالحرف الواحد :

« من حقنا أن نمنع الفوضى . وقد منعناها .

« من حقنا أن نمنع حمل السلاح . وقد منعناه

« من حقنا أن نبعث الحياة في كل مرافقها . وسنبعثها ، وسنجعل مناطقنا كلها تضج بالحياة

« من حقنا أن نمنع أي تقدم للإنفلاش الفلسطيني . وسنمنعه بكل الوسائل والإمكانات .

« فإذا كان كل هذا وغيره يعني تقسيماً ، فمرحباً بمثل هذا « التقسيم » . إن وحدة لبنان ليست صنماً نعبده .

« وإذا كان هذا يؤدي إلى قيام « الدويلة الكتائبية » ، فدلالة على أنها تشكل ، فعلاً ، نواة الدولة اللبنانية التي يحلم بها كل اللبنانيين . .

« فلتحي هذه الدولة !

« ولتسقط كل الدويلات الأخرى !! » .

ونقتطع من المقال الثاني (١٩٨٠/٨/٧) هذه الفكرة البالغة الدلالة :

« إذا صحّ أن « دويلة كتائبية » يجري بناؤها على الأرض ، يكون الفلسطينيون وحلفاؤهم من بناتها الأول ، وواضعي اسسها وحدودها ومقومات وجودها

« ... ومن بناتها أيضاً ، كل الذين يربطون بين أزمة لبنان وأزمة الشرق الأوسط . أما نحن فلسنا اكثر من جماعة تريد ان تعيش وتحيا ، فتحاول ، بشتى الطرق ، أن تؤمن لنفسها ابسط شروط العيش والحياة .

« تلك هي الحقيقة التي يجري تزويرها بوقاحة مذهلة » .

« فهل ثمة شك أن الوجود الفلسطيني المسلح هو الذي قسم لبنان وقد كان لا بد من أن يقسمه ، ويجعل منه قطاعين ، بصرف النظر عن المقاصد والنيات ، والمرامي والأغراض ؟ » .

ويمضي المعلّق معطياً مقارنات يستفاد منها أن هذا « التقسيم » يحصل في « أفضل العائلات » وفي جميع الدول التي تتعرض « لعدوان » مثل العدوان الفلسطيني . يقول :

« أجل إن الكيان الفلسطيني القائم على أرض لبنان . يتسبب . حكما . في قيام كيان آخر مستقل عنه ومنفصل . ولا مفر من ذلك أبداً . وهي حال أي بلد لسقوط جزء من أرضه وسيادته في أيدي شعب آخر حتى ولو كان من « الشعوب الشقيقة » .

« وإذا كانت سوريا . مثلاً . لتسلم من الإنقسام . لو اتيح للمقاومة الفلسطينية ان تتصرف بجزء من أراضيها وشعبها ؟ لو تم ذلك لكان من المحتم قيام « دويلة » أخرى على غرار « الدويلة الكتائبية » التي يلعنونها الآن .

« والصحيح أننا لا نسلم بمثل هذه النهاية المحزنة للبنان .

« ... ولن نسلم بذلك أبداً .

فقط نحاول إنقاذ الحياة في مناطقنا المتروكة للزمن . شأننا شأن أي بلد نصفه واقع تحت الإحتلال . ونصفه الآخر يقاوم ، وينتظر التحرير الكامل » .

وكان لا بدّ لمقالات « العمل » اللاحقة أن تطرح مهمات عاجلة ومرحلية وطويلة الأجل ، يمكن ان نلخّص الأساسي منها بما يلي :

- كل وفاق لبناني لا يبدأ بالتصدي للدويلة الفلسطينية مرفوض ومردود .

- كل حكومة لا تملك العزم على هذا التصدي ، لن تكون حكومة ولن تعيش .

- « سنجعل « من » الرقعة التي نتنفّس عليها » نموذجاً « للبنان الغد ودولة الغد » . ومنطلقاً لتحرير كل لبنان . ويجب على المسلمين أن يساعدونا في ذلك ، وأن ينبذوا الحركة الوطنية المزعومة ويخوضوا غمار تحرير إرادتهم .

- الثورة اللبنانية يجب أن تكون سيدة نفسها ومتحررة من أية وصاية من جانب الأنظمة العربية بشكل خاص . فالثوّار هم الذين يعرفون ما يلائمهم ويلائم كفاحهم ولن يسمحوا بإستغلالهم لأجل المصالح الذاتية .

- إذا تعذّر إزاحة « الدويلة الفلسطينية » القائمة على جزء من بلادنا ، يصبح الجزء الآخر ، حتماً ، وخلافاً لإرادته بل لكل إرادة ، كياناً آخر قد يكون قائماً فيه ، أو دويلة ، أو دولة حقيقية ، لا فرق إن كانت مؤقتة أو دائمة . فمثل هذه العلّة تؤدي إلى مثل هذه النتيجة .

ولا شك في أن هذه الأفكار ، التي إقتطفناها بصورة تفصيلية من إفتتاحيات « العمل » ، بالنظر لأهمية المنطق الذي يسودها ، إنما تشكل اعلاناً شبه رسمي للإنفصال عن الدولة اللبنانية ، وتشكل في الوقت نفسه إعلاناً بأن الدويلة الإنفصالية ستكون لها مهمات لبنانية عامة ، ومهمات تتعلق بالوضع العربي وبالنشاط الصهيوني . وسواء كان بعض هذا الكلام بمثابة تهويل يهدف إلى إحراز مكاسب آنيّة ، أم إذا كانت الحملة المكثفة ضد خطر التوطين « الداهم » ستاراً لتكريس إجراءات ملموسة ومشاريع تقسيمية قائمة على أرض الواقع من متحف بيروت إلى حاجز البربارة الكتائبي عند مداخل البترون (والذي هو بمثابة جمارك و « أمن عام » وشرطة حدود ، في قلب الدولة اللبنانية) ، فإن هناك شعوراً لدى المراقبين بأنها ، في ضوء التطورات الأخيرة ، ومنها التفجيرات العنيفة وعمليات الإغتيال السياسي والشائعات والإثارة والبلبلة ، إنما تدخل ضمن سياق مخطط متكامل ، وقد يكون لبنان على مفارق إختيارات حاسمة يتوقف عليها ، إلى حد بعيد ، الوضع في المنطقة كلها .

ولا شك في أن الخوف من أن يؤدي التفجير الكتائبي والإسرائيلي الجديد إلى انفجار يتعدى نطاق لبنان ، هو الذي دفع بالحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية إلى اجراء إتصالات عربية مكثّفة ، وإلى عقد مؤتمرات عالمية لكشف خطورة ما يجري ، ولوضع الجميع أمام مسؤولياتهم . كما أن المشاورات المستمرة بين القيادتين الوطنيتين اللبنانية والفلسطينية وبين المسؤولين السوريين أثبتت أن هناك شعوراً مشتركاً بالحاجة الملحّة إلى تعبئة القوى لوقف التصعيد السياسي والعسكري الذي تشهده الساحة اللبنانية ، والذي ليست الاعتداءات الصهيونية وعمليات الإنزال المتلاحقة سوى جزء منه .

وقد طرحت القوى الوطنية اللبنانية مؤخراً ضرورة حشد طاقات جميع القوى المعادية لمشروع الصهينة والتقسيم ، والتركيز بصورة خاصة على القوى المسيحية المتضررة من الإجراءات الإنتحارية أو المعادية للفاشية ولهيمنة الحزب الواحد ، وذلك بهدف الوصول إلى لقاء وطني شامل يطرح المهمات الضرورية لإنقاذ البلاد ويضع السلطة الشرعية اللبنانية أمام مسؤولياتها في مجال مواجهة الدويلة الكتائبية والدفاع عن أرض لبنان وسيادته وجنوبه .

وفي هذه الأجواء المشحونة بالتحرك الأميركي - الإسرائيلي الهادف لتطويق النهوض الفلسطيني والغضبة العربية والعالمية على العدوان الصهيوني على عروبة القدس ، فإن إحتمالات التفجير على الساحة اللبنانية تطرح ، على الصعيد العربي ، مهمات بالغة الأهمية ، أبرزها مهمة التصدي للدويلة الكتائبية التي قد تشكل اهم ثمار مؤامرة « كامب ديفيد » .

والملاحظة الأخيرة التي يعطيها المطلعون على حقائق الوضع اللبناني هي أن الدويلة الكتائبية ستكون ، بطبيعتها ، دويلة توسعية وعدوانية ، وأن الحاجات الإقتصادية والحياتيّة بالذات تدفعها إلى التوسع . ذلك أن من الصعب جداً أن تتمكن الدويلة من العيش إذا كانت حدودها محصورة بين بيروت وجبيل ! لذا تصبح الأعمال العدوانية والمجازر ، في إتجاه لبنان الشمالي وفي إتجاه منطقة المتن الشمالي في قلب الجبل ، حاجة ملحّة من حاجات المشروع الكتائبي - الإسرائيلي .

نبيل هادي

مؤتمر المرأة العالمي في كوبنهاغن
تظاهرة لصالح الشعب الفلسطيني

مقدمة

عاشت المرأة عبر عصور طويلة تعاني القمع والاضطهاد بمختلف أشكاله ، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً . وبالرغم من كل المشاكل التي تواجهها تابعت ، وبشكل دؤوب ، مطالبة بحقوقها الشرعية حتى استطاعت ، عام ١٩٧٥ ، أن تطرح مشكلتها من خلال هيئة الأمم المتحدة : حيث أتت الاتحادات النسائية من جميع أنحاء العالم لطرح وضع المرأة في المؤتمر العالمي للسنة العالمية في المكسيك عام ١٩٧٥ . إنه نقطة لانطلاقة جديدة لإدراك دور المرأة في بناء مجتمع إنساني يقوم على المساواة والتنمية والسلام . وقد كانت خطة العمل العالمية التي أصدرها المؤتمر ، وما تبعها من خطط اقليمية ، حافزا للحكومات والشعوب على التفكير المخطط لتوفير المستلزمات التي تقتضيها جهود دمج المرأة في التنمية الوطنية وفي إقرار مزيد من المساواة بين المرأة والرجل . وفي السعي إلى تمكين المرأة من المشاركة في إرساء قواعد العدل والسلام في البناء الإجتماعي .

ومن أجل هذا ، دعت اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا ، بالتعاون مع مركز الأمم المتحدة للتنمية الاجتماعية والشؤون الإنسانية ، إلى اجتماع أعضاء اللجنة في عمان في الفترة ما بين ٢٩ أيار و٤ حزيران عام ١٩٧٨ ، لاعتماد خطة العمل الإقليمية لإدماج المرأة في التنمية في منطقة غربي آسيا ، والتي أقرتها اللجنة في دورتها السنوية الخاصة في عمان في شهر تشرين الأول عام ١٩٧٨ . وقد تضمنت هذه الخطة مقترحات عمل رئيسية في مختلف مجالات التنمية ، على الناطقين الوطني والإقليمي ، ليسترشد بها أعضاء اللجنة والمنظمات الإقليمية والدولية في وضع البرنامج المناسب لتحقيق أهداف هذه الخطة .

ففي المكسيك اتخذت الجمعية العمومية قرارها رقم ٣٠ / ٢٥٢٠ ، بتاريخ ١٥ كانون الأول ١٩٧٥ ، بعقد مؤتمر عالمي للمرأة في عام ١٩٨٠ . كما أكد قرارها رقم ٣٣ / ١٨٩ ، بتاريخ ٢٩ كانون الثاني ١٩٧٩ ، ضرورة التركيز في المؤتمر العالمي العام ١٩٨٠ ، على الصحة والتعليم . وقد طالب القرار نفسه ، السكرتير العام للأمم المتحدة ، بدعوة اللجان الاقليمية للأمم المتحدة إلى عقد اجتماعات لرفع برامج عمل إقليمية . بناء على ذلك ، انعقد الإجتماع الإقليمي التحضيري للمؤتمر العالمي لعقد الأمم المتحدة للمرأة / ١٩٨٠ ، وفي الفترة ما بين ١٠ و١٣ كانون الأول عام ١٩٧٩ ، انعقد اجتماع في دمشق ، بناء على دعوة من اللجنة الإقتصادية لغربي آسيا وسكرتارية المؤتمر العالمي.وقد حضر الإجتماع ممثلون عن اغلب البلدان العربية في آسيا وممثلون عن الهيئات والمنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة . وكان أهم نقاط الإجتماع :

١ ـ إستعراض وتقييم التقدم الذي احرز ، وتحديد الصعوبات في مجال دمج المرأة في التنمية في منطقة غربي آسيا .

٢ ـ إستعراض أهم أعمال اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا في مجال إشراك المرأة في التنمية في المنطقة .

٣ ـ مناقشة أهم القضايا التي سترفع إلى المؤتمر العالمي لعقد الأمم المتحدة للمرأة ١٩٨٠ .

٤ ـ إدخال موضوع المرأة الفلسطينية في جدول أعمال المؤتمر العالمي لعام ١٩٨٠ ، ومناقشة وثيقة وبرنامج عمل المرأة الفلسطينية .

وبعد المناقشة ، انتهى الاجتماع بورقة عمل ركز على واقع المرأة في المنطقة . وتقديراً لظروف كل قطر من أقطار المنطقة ، فإن ثمة أولويات استراتيجية مشتركة تبرز أهميتها في أحداث التطوير المطلوب للإسراع في زيادة مشاركة المرأة في التنمية ؛ وتلك الأولويات الاستراتيجية هي :

أولاً : الالتفات إلى موقع المرأة ومقتضيات مشاركتها كمعيار من معايير التخطيط الوطني وأهدافه ومستلزماته .

ثانياً : التركيز ، في إعداد المرأة وتدريبها ، على المهارات والمعارض المنتجة والمولدة للمداخيل .

ثالثاً : تنظيم الأجهزة الحكومية والأهلية ، القادرة على العمل المتكامل والمنسق ، في وضع وتنفيذ برامج المرأة .

رابعاً : توسيع قاعدة مشاركة المرأة في مختلف التنظيمات السياسية والحكومية والنقابية والأهلية ، على مختلف المستويات الوطنية والمحلية .

خامساً : الوصول إلى المرأة في البيئات الريفية والمناطق المنعزلة ، لتطوير مهاراتها وعاداتها واتجاهاتها وتمكينها من الاستفادة مما يتاح لها من فرص النمو الاجتماعي ومن وسائل الخدمات .

سادساً : خلق المناخ الفكري والثقافي والروحي ، وتطوير ذهنية الرجل والمرأة مما يمهد الطريق للانطلاق وعدم التعثر في الجهود المبذولة لمشاركة المرأة في التنمية .

وقد رفعت هذه المقررات إلى المؤتمر العالمي للمرأة لعقد الأمم المتحدة ، الذي افتتح في ١٤ تموز وشاركت فيه ١٤٠ دولة .

مؤتمر كوبنهاغن

بعد أن ألقينا نظرة سريعة على قرارات المؤتمرات السابقة ، والتي أدت إلى انعقاد المؤتمر الذي نحن بصدده ، انعقد المؤتمر العالمي لعقد الأمم المتحدة للمرأة في كوبنهاغن في الفترة ما بين ١٤ و٣٠ تموز وشاركت فيه « ١٥٠٠ » سيدة من ١٤٠ دولة . وقد افتتح الأمين العام للأمم المتحدة المؤتمر بكلمة قال فيها : « إن المشاكل العالمية بلغت درجة من التشابك تقتضي بذل جهود على عدة جبهات في آن واحد لحلها . فالأهداف الثلاثة لعقد مؤتمر المرأة إلى المساواة والتنمية والسلم هي أهداف الأمم المتحدة ذاتها ، ولا بد لتحقيقها من زيادة التعاون الدولي . فبدون السلم لا يمكن أن تكون هناك مساواة حقيقية أو تنمية حقيقية » .

وأضاف أن هذه قضايا تهم المرأة بقدر ما تهم الرجل ، ولا يمكن فصل القضايا المقتصرة ظاهرياً على المرأة عن المسائل الأوسع نطاقاً والمتعلقة بالتنمية والسلم .

وأشار ، مستطرداً ، إلى ازدياد اعتراف الحكومات والمؤسسات الدولية بأن مشاركة المرأة أمر حاسم لتحقيق أهداف التقدم التي تسعى إليها .

واختتم الأمين العام كلمته بالقول : إن الإنسانية قد وصلت إلى مرحلة من الضروري فيها استخدام قوة وطاقة المرأة في المجالات الجماعية إذا اريد بلوغ الأهداف المتفق عليها عالمياً (المصدر : وثائق المؤتمر الأصلية) .

ثم تحدثت ملكة الدانمارك ، مرغريت الثانية ، فقالت : « إن المؤتمر ليس حدثاً هاماً للمشتركين فحسب ، بل وللدانمارك بوصفها البلد المضيف » .

وأضافت : إن المؤتمر ينعقد في وقت تتطور فيه المجتمعات الوطنية والمجتمع الدولي بسرعة ، بما في ذلك من نتائج بعيدة الأثر على هيكل المجتمعات وتوازنها ، « ان المرأة أصبحت تشعر الآن بضرورة وضع تصوراتها الخاصة بها من أجل الاضطلاع بمساهمة إيجابية في تنمية المجتمع ، وان لكل امرأة أو رجل شخصية مستقلة لها آمالها ومخاوفها وأفراحها وأتراحها ، وان لكل فرد خصائصه المميزة » (**المصدر نفسه**) .

ثم القى رئيس وزراء الدانمارك كلمة قال فيها : « ان المؤتمر أتاح فرصة للتقريب بين الاراء المتباينة التي توجد في مختلف أنحاء العالم بشأن مفاهيم المساواة والتنمية والسلم . وأعرب عن إيمانه بأن الديمقراطية هي النظام الذي يفضي بدرجة أكبر إلى بلوغ هذه الأهداف الثلاثة .

واستدرك قائلاً : إنه يجب ، في ظل هذا النظام أيضاً ، العمل بإصرار وعزم على تحقيق أهداف المساواة والتنمية والسلم .

وأضاف : « ان النساء في البلدان النامية يجابهن صعوبات أعظم بكثير . ومن هنا كان من الطبيعي تماماً أن يركز المؤتمر أولاً وقبل كل شيء على الامكانيات المتاحة للمرأة للتأثير في التنمية الاجتماعية والاقتصادية لهذه البلدان » .

وقد انتخب المؤتمر بالتزكية وزيرة الشؤون الثقافية ورئيسة وفد الدانمارك رئيسة للمؤتمر . وقد وجهت الرئيسة الشكر للمؤتمر لانتخابها ، وقالت : « إن الاسهام في تقديم المرأة كان من الأهداف الأولى للأمم المتحدة منذ تكوينها ... وكان العمل البارز في تاريخ جهودها في هذا السبيل هو إقرار خطة العمل العالمية في مؤتمر مكسيكو عام ١٩٧٥ . ومهمة مؤتمر كوبنهاغن هي القيام بأعمال تستهدف تحسين ظروف الفقر التي تعيش في ظلها ملايين النساء ، والتي كانت نتائجها هي الأمية وسوء الصحة والافتقار إلى فرص الحصول على عمل بأجر » .

وقد قدمت إلى الدكتور كورت فالدهايم نداء على شكل عريضة وقعها أكثر من نصف مليون امرأة من البلدان النوردية ، تحث على القيام بعمل عاجل لتحقيق نزع السلاح والسلم ولإنهاء كل عدوان . وقال أمين عام الأمم المتحدة في رده إنه تأثر تأثراً عميقاً بالنداء ، وانه يشعر بالمشاعر نفسها التي أشارت إليها العريضة .

وفي جلسته الأولى في ١٤ تموز أقر المؤتمر النظام الداخلي المؤقت الذي اوصت به اللجنة التحضيرية ، كما أقر في الجلسة نفسها جدول الأعمال المؤقت الذي أوصت به اللجنة بوصفه جدول أعماله .

وفي الجلسة العامة الثانية ، بتاريخ ١٥ تموز ، انتخب المؤتمر السيدة « هلغا هيرتس » من الجمهوريه الديمقراطية الألمانية ، نائبة للرئيسة المكلفة بالتنسيق ، كما انتخب المؤتمر ممثلات عن ٢٣ دولة لمناصب نائبات الرئيسة .

وانتخب المؤتمر أيضاً السيدة ميمونه كان (السنغال) رئيسة اللجنة الأولى والسيدة شيلا كيول (الهند) رئيسة اللجنة الثانية .

الوفد الفلسطيني المشارك في المؤتمر

ضم الوفد الفلسطيني المشارك في المؤتمر ، ٢٠ عضواً . وقد قام بدور فعال ونشيط ، وكان دائم الاتصال بكافة الوفود من أجل توضيح مطالب المرأة الفلسطينية في المؤتمر . وقد قام باتصالات عديدة مع باقي الوفود من أجل توفير أكبر قدر ممكن من الأصوات بشأن قرار الصهيونية ، الأمر الذي أصبح مدار اهتمام الصحف المحلية حول نشاط وتحرك هذا الوفد ، مما دعا السفير الإسرائيلي نفسه إلى القول « بأن وفد منظمة التحرير الفلسطينية قد اختطف المؤتمر » .

عقد الوفد مؤتمراً صحافياً ناجحاً ، كما وزع في المؤتمر بيانات حول أوضاع المرأة الفلسطينية وحول الإرهاب الصهيوني ، كما وزع نص قرار الأمم المتحدة الذي اتخذ يوم ٢٩ تموز ، حول انسحاب القوات الإسرائيلية من الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ ، كما وزع بحثاً عن العلاقة بين الصهيونية والنظام العنصري في جنوب افريقيا ثم تابع لقاءاته مع الوفود العربية .

وقالت ليلى خالد ، في تصريح لها عقب وصولها : « إن إسرائيل هي عدونا ، وقد احتل الإسرائيليون وطننا بالقوة ، ولذلك سيستخدم السلاح في مخاطبتهم وسوف نستخدم الكلمة في مخاطبة بقية العالم » (« القبس » ، ١٤ / ٧ / ١٩٨٠) .

ثم تحدثت في اليوم الثاني من المؤتمر ، « سهى » إحدى اعضاء وفد منظمة التحرير الفلسطينية باسم الوفد قائلة : « أريد أن استهل كلمتي بتوجيه تحية عربية فلسطينية إلى كل الوفود المجتمعة هنا ، وأريد في الوقت نفسه أن أسأل كل الموجودين : ماذا يكون رد فعلكم لو طردتم من بيوتكم ودياركم... هذا الشعور هو شعور أبناء الشعب الفلسطيني... واتساءل أيضاً كيف تتكلم مندوبة إسرائيل عن خطط التنمية،والأرض التي يقيمون عليها ليست أرضهم بل أرضنا التي سرقوها بالقوة والمذابح بدعم من الولايات المتحدة ؟ » .

ومضت قائلة : « انني متأكدة من أن الشعوب ، بما فيها الشعب الامريكي ، لا يعرف هذه الحقيقة ، وعندما ستدرك ذلك ستمارس حتماً الضغط على حكوماتها من أجل تمكين الشعب الفلسطيني من استعادة حقوقه كاملة » .

وعندما انتهت عضو الوفد الفلسطيني من القاء كلمتها ، ضجت القاعة بالتصفيق الحار ، مما أثار ضيق الوفد الإسرائيلي الذي راحت عضواته يصرخن : أخرجي من هنا يا إرهابية .. ارهابيات .. ارهابيات (المصدر نفسه ، ٢١/ ٧ / ١٩٨٠) .

لقد كانت المشكلة الفلسطينية الموضوع الرئيسي الذي غلب على مناقشات المؤتمر . وتركزت هذه المناقشات حول مشروع قرار يدين إسرائيل ، والحركة الصهيونية باعتبارها شكلاً من أشكال العنصرية (« النهار » ، ٢٤ / ٧ / ١٩٨٠) .

وقد دارت في أوساط المؤتمر مشاورات بين العديد من وفود الدول المشاركة ، حول إجراء تعديلات في الوثيقة التي طرحتها الهند ، بشكل إدانة للصهيونية بصفة خاصة وحول وسائل المساعدة الإنسانية للنساء الفلسطينيات في الأراضي العربية المحتلة .

وقد عقدت رئيسة وفد إسرائيل مؤتمراً صحافياً في إطار حملة دعائية قام بها الوفد ، في محاولة لإحباط مشروع القرار الذي يعتبر الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية ، وادعت رئيسة الوفد الإسرائيلي أن أوضاع الفلسطينيات في الأراضي المحتلة قد تحسنت بعد الاحتلال (المصدر نفسه) .

أما الوفد الأميركي فقام بجهد مضن يرتكز على إدعاء آخر هو أن المشكلة الفلسطينية « قد نوقشت في المؤتمر أكثر مما تستحق » . وبالرغم من كل المحاولات من قبل الأطراف الأخرى لمنع الأقتراح الذي تقدمت به الهند من المناقشة ، إلا أن وفد منظمة التحرير الفلسطينية احرز نصراً جديداً عندما أيد المؤتمر الأقتراح باغلبية ٨٥ صوتاً في مقابل ٣ أصوات وإمتناع ٢٢ عن التصويت . ووافق على الأقتراح الذي أثار جدلاً عنيفاً في المؤتمر وفود معظم دول العالم الثالث ومنظومة الدول الاشتراكية والصين ، وعارضته الولايات المتحدة وكندا وإسرائيل ، وإمتنعت عن التصويت عليه دول السوق الأوروبية المشتركة وبعض الدول الافريقية ودول امريكا اللاتينية .

وبعد الموافقة على الاقتراح الهندي تحدثت رئيسة الوفد الفلسطيني قائلة : « إنه يجب أن ينظر للمرأة الفلسطينية من خلال خصائص الشعب الفلسطيني ككل ، وهو شعب سلبت أرضه ، وجرد من حق تقرير المصير . إنها حالة لها عواقبها الإجتماعية والإقتصادية والسياسية »(« السفير » ، ٢٧ / ٧ / ١٩٨٠) . هذا وقد بعث كل من رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والرئيس الأسد والرئيس القذافي ، برقيات إلى المؤتمر تضمنت مساندة المؤتمر في إعطاء المرأة حقوقها المسلوبة وإعادة إعتبارها .

قرارات وتوصيات

أقر المؤتمر العام جملة من المشاريع التي رفعتها اللجنة الأولى تضمنت قرارات بخصوص تنظيم الأسرة وتحسين حالة النساء المعوقات والمهاجرات والمسنات ، ومشروع قرار حول الامتناع عن ضرب النساء واستخدام العنف في الأسرة . وقد تم الاتفاق عليها بالإجماع . فكانت الموافقة على مشروع قرار لصالح النساء الشابات

والاتفاقية بشأن القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة وتشجيع المساواة في التعليم والتدريب .

ووافق المؤتمر العام على مشروع قرار مقدم من النيجر ، يقضي بفضح النظام العنصري في جنوب افريقيا ويعرب عن تضامنه مع الشعب الأنغولي وحكومته ، وقد حاز على تأييد مئة دولة .

كما ناقشت اللجنة الأولى الفقرة المعنونة : « آثار الأحتلال الإسرائيلي على المرأة الفلسطينية داخل الأراضي المحتلة وخارجها واستعراض الأحتياجات الإجتماعية والإقتصادية للمرأة الفلسطينية » . وقد شددت معظم الوفود ، أثناء مناقشة هذا البند على أنه لا يمكن مناقشة الأحتياجات الإجتماعية والإقتصادية للمرأة الفلسطينية بمعزل عن غيرها من القضايا ، وإنما في نطاق السياق الأعم لكفاح الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره .

وقد ادانت وفود كثيرة الولايات المتحدة لمؤازرتها إسرائيل ، وانتقدت اتفاقيات كامب ديفيد التي ترفضها باعتبارها إنكاراً للحقوق الشرعية للفلسطينيين .

وقد قالت الأخت جيهان الحلو (من وفد منظمة التحرير الفلسطينية) أن من العيب أن تناقش حقوق المرأة الفلسطينية بينما تنكر على الشعب الفلسطيني بأسره حقوق الإنسان الاساسية . واضافت إن كفاح المرأة الفلسطينية من أجل تحررها مرتبط إرتباطاً لا فكاك منه بالكفاح من اجل تحرير وطنها . وأوضحت الآثار الضارة للإحتلال الإسرائيلي على المرأة الفلسطينية : تفريق شمل آلاف الاسر ، والقتل والسجن والتعذيب ومصادرة الأراضي والتمييز في العمل وفي الرعاية الصحية والتعليم . وقد حاولت مندوبة الكيان الصهيوني تكذيب هذه الحقائق ، واصفة ما قالته الأخت جيهان الحلو بمحاولة لتحويل المؤتمر عن هدفه الأساسي والدخول في نقاش سياسي ، وقالت أن وضع المرأة الفلسطينية تحسن كثيراً في ظل الإحتلال . كما حاولت ممثلة الولايات المتحدة الامريكية الخروج من هذه المناقشة بقولها : « إن هذا الموضوع تجري مناقشته الآن في الأمم المتحدة ومجلس الأمن ولا يجب إغراق مؤتمرنا بالمسائل السياسية » .

إلا أن الوفود ، في معظمها ، أعربت عن تضامنها مع المرأة الفلسطينية والشعب الفلسطيني وأدانت الممارسات الصهيونية في الأراضي المحتلة .

كما أقر المؤتمر عدداً من المشاريع الهامة المقدمة من قبل اللجنة الثانية ، ومن ضمنها مشروع تقديم المساعدة للمرأة اللبنانية ، بموافقة ١١٢ دولة وأعتراض إسرائيل وكندا واميركا ، ومشروع لتعزيز مشاركة المرأة في السلام والنضال ضد الاستعمار والتمييز العنصري ، وآخر عن حالة النساء اللاجئات ، ومشروع لصالح المرأة التشيلية ، وآخر لصالح المرأة في السلفادور وإقرار مشروع لمؤتمر دولي معني بفرض عقوبات على جنوب افريقيا ، بتأييد ٧٥ وفداً وإعتراض سبعة وفود وإمتناع ٢٢ عن التصويت .

وقد تم التصويت على مشروع قرار اللجنة الثانية القاضي بمساندة المرأة الفلسطينية داخل وخارج الأرض المحتلة بالتشاور والتعاون مع منظمة التحرير في الميادين التالية : القانون ، التعليم ، التدريب ، حماية التراث الفلسطيني ، العمل ، الصحة ، تقديم المساعدة المادية والتعبئة ودعم الأتحاد العام للمرأة الفلسطينية ، وجمع ونشر المعلومات عن آثار الإحتلال الاسرائيلي . وحاز هذا القرار على ٨٥ صوتاً مؤيداً وإمتناع ٢١ عن التصويت وإعتراض كندا والولايات المتحدة وإسرائيل .

الصهيونية شكل من أشكال العنصرية

وفي المؤتمر العام ، دارت مناقشات واسعة حول فقرة إدانة الصهيونية التي تنص على التالي : لا يمكن أن تتحقق أي تنمية بدون السلم والإستقرار ، وبذلك يكون السلم شرطاً مسبقاً للتنمية . وعلاوة على ذلك ، فلن يدوم السلم بدون التنمية وبدون القضاء على إنعدام المساواة والتمييز على جميع المستويات ، وسيساهم في الإشتراك على قدم المساواة في تنمية العلاقات الودية والتعاون فيما بين الدول في تنمية المرأة لنفسها ، وفي تحقيق المساواة في الحقوق على جميع المستويات وفي جميع مجالات الحياة ، وسيسهم كذلك في الكفاح الرامي إلى القضاء على الإمبريالية والإستعمار والإستعمار الجديد والصهيونية والعنصرية والتمييز العنصري والهيمنة والإحتلال

الأجنبي والسيطرة والقهر ، وسيسهم كذلك في تحقيق الإحترام الكامل لكرامة الشعوب وحقها في تقرير المصير والإستقلال بدون تدخل أجنبي ، وتعزيز ضمانات الحريات الأساسية وحقوق الإنسان .

وقد جرى التصويت على هذا النص ، ونال تأييد ٦٩ دولة ، ويعتبر هذا التصويت انتصاراً حقيقياً لنضالنا داخل المؤتمر لتثبيته رغم العقبات والصعوبات الجمة التي وقفت لتحول دون إقراره .

الجلسة الختامية

قدمت الهند ، باسم مجموعة دول الـ ٧٧ ، عدداً من التعديلات على برنامج العمل ، جرت بشأنها مداولات عديدة عبر إجتماعات اللجان ، وبقيت هناك فقرتان لم يحسم فيهما إلا في الجلسة الختامية التي أمتدت إلى ما بعد منتصف ليل ٣٠/٧/١٩٨٠ ؛ تتعلق الفقرة الأولى بالتأكيد على قرارات مؤتمر المكسيك ، وهي القرارات التي ثبتت في عدد من الإجتماعات الإقليمية والقطاعية والدولية بما في ذلك مؤتمر البلدان غير المنحازة والبلدان النامية ، وحسمت المسألة بالتصويت ؛ فصوتت ٨٩ دولة مع الفقرة المعدلة وسبع ضدها وامتنعت ٢٣ دولة عن التصويت .

أما الفقرة الثانية ، التي بقي الخلاف بشأنها حتى الجلسة الختامية ، فقد أثارت التهديدات بتفجير المؤتمر وإنسحاب وفد الدانمارك إذا تم تثبيتها ، وعدم موافقة اميركا على برنامج العمل ككل (كما جاء على لسان الصحف اليمينية في الدانمارك) ، وهذا بالطبع من أجل الضغط على الدول الافريقية ودول اميركا اللاتينية التي تتطلع إلى برنامج العمل والتدابير الخاصة بحل مشاكل المرأة عندها . إلا أن جميع المحاولات المعادية باءت بالفشل ؛ مما أضطر سفير الكيان الصهيوني إلى التصريح بأن وفد منظمة التحرير الفلسطينية اختطف المؤتمر .

وفيما يلي نص الفقرة المذكورة .

« لا يمكن أن تتحقق أية تنمية بدون السلم والإستقرار ، وبذلك يكون السلم شرطاً مسبقاً للتنمية . وعلاوة على ذلك ، فلن يدوم السلم بدون تنمية وبدون القضاء على إنعدام المساواة والتمييز على جميع المستويات وفي جميع مجالات الحياة . وسيسهم كذلك في الكفاح الرامي إلى القضاء على الإمبريالية والإستعمار والإستعمار الجديد والصهيونية والعنصرية والتمييز العنصري والفصل العنصري والهيمنة والإحتلال الاجنبي والسيطرة والقهر ، وسيسهم كذلك في تحقيق الإحترام الكامل لكرامة الشعوب وحقها في تقرير المصير والاستقلال بدون تدخل أجنبي ، وتعزيز ضمانات الحرية الاساسية وحقوق الإنسان » .

وقد جرت عملية التصويت على هذه الفقرة : فقدم مندوب السنغال إقتراحاً بأن يكون التصويت عليها وعلى كلمـة « الصهيونية » خصوصاً بالأغلبية البسيطة ، باعتبارها قضية إجرائية كما تم إعتمادها في مؤتمرات سابقة : « المكسيك والجمعية العمومية للأمم المتحدة » . وقد جرى جدل حول هذا الاقتراح حسم بالتصويت لصالحه . ونجح القرار باغلبية ٦٩ صوتاً ضد ٢٤ وإمتناع ٢٥ عن التصويت . وقبل ذلك طلب مندوب إسرائيل التصويت على كلمة الصهيونية أولاً ثم على الفقرة ثانياً ، فوافقت الرئيسة وعندها تدخل مندوب الإتحاد السوفياتي معتبراً أن الرئيسة صادرت حقوق المرأة ، طالباً منها أن تكون أكثر عقلانية وأن تترك الفرصة للمؤتمر كي يقرر بنفسه ، فسقط إقتراح مندوبة إسرائيل .

وبعد إعلان نتائج التصويت مباشرة عقد وفد الولايات المتحدة مؤتمراً صحافياً عبر عن استيائه تجاه قرارات المؤتمر .

وقد تم التصويت على البند المتعلق بالتدابير الخاصة بمساعدة المرأة الفلسطينية بالتنسيق والتشاور مع منظمة التحرير الفلسطينية ، بناء على الوثيقتين المقدمتين من « الاكوا » : فصوتت ٦٧ دولة مع البند ضد ٤ وامتناع ٢٤ عن التصويت .

أما بشأن التصويت على برنامج العمل ككل ، فصوتت ٩٢ دولة لصالحه وأربعة ضده وأمتناع ٢٢ دولة عن التصويت .

وتوج المؤتمر بمجموعة من مشاريع القرارات لصالح حركات التحرر ، خصوصاً ما يتعلق منها باوضاع المرأة

في جنوب أفريقيا ولبنان ، الخ .. ومما جاء في نص القرار المتخذ بشأن المرأة في لبنان :

• إدراكاً لما عاناه لبنان في السنوات الخمس الماضية من مشكلات التدمير والتهجير والركود الإقتصادي والتشتت الإجتماعي والأسري ، وتذكيراً بقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة وخاصة قرار مجلس الأمن ٤٢٥ الخاص بما يتعرض له جنوب لبنان من الأعتداءات الإسرائيلية المتكررة ، وتأكيداً على أثر هذه المعاناة في تدهور الظروف المعيشية بما في ذلك فرص العمل والخدمات الصحية والأحوال التعليمية الذي كان وما يزال أشد وطأة على المرأة اللبنانية عامة ، والمرأة في جنوب لبنان خاصة ، فإنه يقرر حث الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة على إيلاء احتياجات المرأة اللبنانية عامة والمرأة في جنوب لبنان خاصة ، الاهتمام اللازم ودراسة الوسائل الكفيلة بمواجهة هذه الاحتياجات وتوفير المساعدات المالية والمادية والتقنية من مختلف المصادر الدولية.

ندوة شعبية

وفي ختام المؤتمر عقدت ندوة شعبية في مقر جامعة كوبنهاغن ، شاركت فيها بشكل أساسي المنظمات غير الحكومية وحركات التحرر . وهذه الندوة عبارة عن منبر إعلامي لكثير من القضايا ، وكانت مجالاً واسعاً لعرض جذور القضية الفلسطينية وأوضاع المرأة بمساعدة من القوى التقدمية .

وأقيم معرض للتراث الفلسطيني والصور والملصقات ، وعرض فيلم عن الطفل الفلسطيني . وحاول الصهاينة تقديم معلومات مزورة وإستخدام أساليب مرفوضة كانت تجابه بالسخرية . وكانت مختلف الوفود تتدخل مقاطعة هذه الاكاذيب ومؤكدة معلوماتها عن قهر الشعب الفلسطيني في الداخل ومصادرة الأراضي ومسائل الاعتقالات . وبلغت درجة أحساس أعضاء الوفد الإسرائيلي بالحصار أن اضطروا إلى رفع وثيقة إلى رئيسة الندوة (اليزابيت بارلر) تفيد بأن وفد منظمة التحرير واصدقاءه يمنعون وفدهم من التحدث وطرح أوضاع المرأة الإسرائيلية ، وطلبوا السماح لهم بالحديث . وهكذا لجأ اعضاء وفد الكيان الصهيوني إلى مختلف الحيل من أجل لفت الانظار اليهم وعرقلة نشاط وفد منظمة التحرير الفلسطينية ومنها حادث القنبلة التي أدعوا وجودها في اخبارية ملفقة إلى البوليس في ذات القاعة التي تقام فيها الندوة . إلا أن الوفد الفلسطيني أعلن بثبات وهدوء إلى الجمهور الكبير الذي يحضر الندوة ، بأن الجميع سيمتثل لتفتيش القاعة من قبل البوليس وإنه سيتم متابعة الندوة بعد دقائق . وهكذا كان ، فقد مرت الحادثة دون أن تخلف اضطراباً أو إرتباكاً ودون أن تسبب ذعراً يدعو لارفضاض الندوة أو الإخلال بسيرها الطبيعي الناجح .

تعليقات الصحف على المؤتمر

تركزت تعليقات الصحف والمجلات ووكالات الأنباء على المؤتمر وجلساته أكثر ما تركزت على الوفد الفلسطيني ؛ حيث كتبت الغارديان (٢٩ / ٧ / ١٩٨٠) تحت عنوان « في مؤتمر المرأة العالمي في الدانمارك » : ظهرت ليلى خالد فجأة مثل كوكب عائد حيث سلطت عليها الأضواء كعضو من أعضاء وفد منظمة التحرير الفلسطينية إلى مؤتمر المرأة والتفت النساء الآخريات من أعضاء المؤتمر حول ليلى خالد وكن جميعاً يرتدين الكوفية الفلسطينية المنقطة. ورغم كل المحاولات إلا أنهن رفضن أن يتركن ليلى خالد وحدها . وكان على كل من يريد ان يجري لقاء مع الوفد الفلسطيني أن يقدم أسئلة مكتوبة سلفاً ، وكان على المراسلين ورجال الصحافة أن يكتفوا بما يقال في المؤتمر . الشيء المهم في كوبنهاغن أن كل دولة ستفاخر بما حققه لنسائها من مكتسبات ضد مؤتمر المكسيك ، ويذكر أن ٩٢٪ من المشاركين في المؤتمر السابق كانوا من الرجال ، ومن بين القرارات التي بلغ عددها ٢٥٠ قراراً لم تنل المرأة إلا أربع فقرات فقط . وقد استطاعت المرأة الفلسطينية ان تغزو دول العالم من خلال مؤتمر كوبنهاغن لتحرز نصراً جديداً بعد مناقشات طويلة ودؤوبة دامت طوال أسبوعين متتاليين .

س . إ .

مراجعات

MARION WOOLFSON
PROPHETS IN BOSTON
jews In The Arab World
Faber and Faber, London, Boston, 1980

(ماريان ولفسن انبياء بابل : اليهود في العالم العربي)

مراجعة عباس شبلاق

تتناول الصحافية البريطانية ماريان ولفسن ، في كتابها الاخير عن يهود البلاد العربية ، موضوعاً خضع الى كثير من التشويه في الغرب ، على يد الدارسين الصهيونيين الذين سجلوا تاريخ هذه الطوائف بقراءة عكسية تبدأ من اسقاط اجواء العداء ، التي ولدها قيام الدولة الصهيونية ، على التاريخ القريب والبعيد لهذه الطوائف .

وتشير ولفسن باستعراضها التاريخي ، في الفصول الاولى من الكتاب ، الى جملة من الحقائق التي تدحض بقوة المقولات الصهيونية المألوفة ، في تناولها لتاريخ اليهود . فهي تبين على سبيل المثال ، ظروف التسامح التي عاش فيها اليهود في المجتمعات العربية والاسلامية مقارنة مع يهود اوروبا المسيحية، وذلك إذا ما اخذنا بالأعتبار السمات العامة لتلك المجتمعات عبر مختلف الحقب التاريخية والخصائص التي تحكم وضع الاقليات الدينية في أي مجتمع من المجتمعات .

ويوضح الكتاب أن اللاسامية هي بدعة اوروبية ظهرت في ظروف تاريخية معينة ، وهي غير معروفة في الشرق ؛ ولذلك لم يكن مستغرباً ألا تجد الصهيونية السياسية تربة صالحة لها بين الطوائف اليهودية الشرقية . ويمكن القول من حيث المبدأ ، أن هذه الطوائف امتزجت بالمجتمعات التي عاشت بها ، ولعب يهود الشرق دوراً فعالاً في الحياة العامة ، الثقافية والاجتماعية والاقتصادية فيها . ولم تكن فلسطين تشكل، في نظر هذه الطوائف ، اكثر من مركز روحي شبيه بموقع مكة أو القدس بالنسبة للمسلمين .

وثمة نقطة هامة يثيرها استعراض ولفسن التاريخي أيضاً ، في مواقع مختلفة من الكتاب ، تتعلق بالتحولات الاجتماعية التي طرأت على الطوائف اليهودية في المنطقة العربية مع بداية عهد الامتيازات الاجنبية وبسط السيطرة الاستعمارية في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي . ان انفتاح المنطقة أمام المصالح والشركات الغربية ، من جهة ، وقدوم عدد من اليهود الاوروبيين الى المنطقة ضمن الموجات الاستعمارية ، من جهة اخرى ، واعتماد الاستعمار في تكريس نفوذه في المنطقة على اثارة النعرات الطائفية ؛ كل ذلك ادى الى تحولات لا يمكن تجاهلها على صعيد الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للاقليات ومنها اليهود في المنطقة العربية .

والملاحظ أن تأثير هذا العامل كان متفاوتاً ، فهو واضح في البلدان التي ازداد فيها عدد الوافدين من اليهود الاوروبيين ، كما في مصر وبلدان شمال افريقيا ، حيث ارتبط شعور العداء لهؤلاء بنضال شعوب هذه البلدان للحصول على استقلالها وانهاء السيطرة الاستعمارية، بينما كان هذا العامل اقل تأثيراً على أوضاع المجموعات المحلية من السكان الاصليين من اليهود كما في مصر واليمن .

يبقى أن على المهتمين بتسجيل تاريخ اليهود العرب في هذا القرن ، أن يأخذوا هذا العامل الذي جرى تجاهله في الماضي، في اعتبارهم ، وذلك بالتمييز بين

امرين : سعي حركة التحرر العربي الى التخلص من الاستعمار والفئات المستفيدة والمرتبطة به من جهة ، وبين العداء الطائفي لليهود واضطهادهم كأقلية دينية من جهة أخرى ، وهو أمر غير صحيح تاريخياً .

وفي الفصول التالية من الكتاب ، تفسح ولفسن المجال لتسجيل العديد من الوقائع التي توضح سعي المنظمات الصهيونية الى الضغط على الطوائف اليهودية في البلاد العربية ، لحملها على الهجرة الى دولة اسرائيل غداة قيامها . وتورد الكاتبة عدداً من الحوادث الارهابية التي نظمتها المجموعات الصهيونية السرية في البلدان العربية لافتعال اجواء الكراهية والعداء .

وبينما تشير ولفسن بأصبع الاتهام الصريح الى الحركة الصهيونية استناداً الى مصادر اسرائيلية ، في الوقوف وراء تلك الحوادث ، فإنها تلقي بالشك حول الدور الذي يمكن أن تكون القوى الاستعمارية والدوائر الرجعية العربية الحاكمة قد لعبته ، بالتواطؤ مع الحركة الصهيونية العالمية ، لحمل يهود العراق واليمن على الهجرة الجماعية الى دولة اسرائيل في الفترة الممتدة بين عام ١٩٤٩ وعام ١٩٥١ . وتشير ولفسن هنا الى أن الحكومة البريطانية آثرت تأجيل الافراج عن بعض الوثائق ذات العلاقة بالموضوع والمحفوظة في مركز حفظ الوثائق في لندن ، وذلك على الرغم من انقضاء الاجل اللازم للسماح للجمهور بالاطلاع عليها .

لقد جاء كتاب ولفسن مزيجاً من العمل الصحافي والعمل الاكاديمي ، وهو يعد بلا شك ، عملاً رائداً القى الضوء بأمانة على جوانب مجهولة للقارىء الغربي حول تاريخ اليهود في البلاد العربية ، وفند الكثير من الحجج والمغالطات الصهيونية المألوفة حول هذا الموضوع .

يبقى انه لابد من الاشارة الى ما طرحته ولفسن في مقدمة كتابها بالسؤال : لماذا يهود البلاد العربية ؟ وما العلاقة بينهم وبين الفلسطينيين العرب ؟ السبب مفهوم هنا وهو أن الدراسين الصهيونيين في عرضهم المليء بالتزوير والمغالطات لتاريخ يهود البلاد العربية ، يتوصلون الى استنتاج سياسي مفاده الدعوة الى «المقاصة» بين مأساة الفلسطينيين العرب وبين «مأساة» اليهود العرب ، الذين غادروا بلدانهم الاصلية للعيش في اسرائيل نتيجة لاضطهاد العرب !

وتسقط الحركة الصهيونية منطق «المقاصة» القسرية هذا على منظورها لحل المسألة الفلسطينية ، بالقول : لماذا يصر اللاجئون الفلسطينيون على العودة الى فلسطين ؟ لقد استوعبت اسرائيل عدداً مقارباً من اللاجئين اليهود القادمين من البلاد العربية ، وبمقدور الفلسطينيين العرب ، في المقابل ، الذوبان في مجتمعاتهم العربية المحيطة بفلسطين ، باعتبارهم جزءاً من هذه المجتمعات !

ولو نحينا جانباً المغالطات التاريخية الفاضحة التي يستند اليها هذا الرأي ، وتمسكنا باستخلاصاته السياسية ، لاهميتها وصلتها المباشرة بالمواجهة العربية لاسرائيل ولمستقبل حل القضية الفلسطينية ، لبرزت أمامنا ملاحظتان اساسيتان :

أولاً : انه مع أهمية القرارات التي اتخذتها كثير من الدول العربية وتبنتها جامعة الدول العربية في السماح ليهود البلاد العربية في العودة الى بلادهم الاصلية ، فإن الحاجة لا زالت قائمة الى بذل كثير من الجهود لخلق الظروف المناسبة لترجمة هذا المبدأ على صعيد العمل ، انطلاقاً من الادراك الواعي لقضية أساسية هي أن ضرب مبدأ التعايش المشترك بين اليهود كطائفة دينية ، وبين المجتمعات العربية والاسلامية ، هو بمثابة الانتصار الفعلي للمنطق الصهيوني وهذا ما يفسر المحاولات المحمومة التي تبذلها اسرائيل اليوم لتصفية اكبر الجاليات اليهودية في الشرق والموجودة في ايران ، وباقي الجاليات الموجودة في بلاد آخرى .

ثانياً: ان الاتجاهات المتلبسة بغطاء قومي على الساحة العربية ، والتي لا ترى المغزى السياسي للكيان الوطني للشعب الفلسطيني في مسار النضال العام ضد الحركة الصهيونية ، كحركة استعمارية استيطانية ، انما تخدم ، عن جهالة أو عن سبق تصور ، المشروع الصهيوني وتوظف شعاراتها في خدمة منطقه القائم على الذوبان » والمقاصة » .

اضراب المعتقلين في السجون الاسرائيلية وتزايد النشاط الاستيطاني الاسرائيلي

كان الإضراب عن الطعام الذي أعلنه المعتقلون الفلسطينيون في السجون الإسرائيلية ، أهم تطورات الأحداث داخل الأراضي المحتلة ، خلال الشهر الماضي . وجاء ذلك الإضراب ، وما رافقه من تحركات تضامنية واسعة ، ليوجه صفعة للإدعاءات الإسرائيلية التي بدأت تتحدث عن فترة الهدوء التي تشهدها المناطق المحتلة ، بعد [نجاح] سياسة « اليد القوية » التي اتبعها الحكم العسكري ضد المواطنين الفلسطينيين ، بشكل عام ، وضد القيادات الوطنية ، بشكل خاص .

وتابعت السلطات الإسرائيلية ممارساتها في التضييق على نشاطات رؤساء البلديات السياسية ، وفرض الإقامة الجبرية على عدد منهم ، إضافة إلى مصادرة الأراضي العربية ، وإقامة المستوطنات اليهودية عليها في إطار تثبيت الأمر الواقع ، وتمهيداً لضم « المناطق » إليها ، رغم كل الإدعاءات عن الحكم الذاتي الفلسطيني ، ضمن تسوية أزمة المنطقة ، سواء عبر إتفاقيات كامب ديفيد ، أو عبر أي صيغ أو حلول مشابهة أخرى .

١ ـ إضراب المعتقلين في السجون الإسرائيلية

إذا كانت المعتقلات هي أداة لإخضاع المناضلين ، وإضعاف روحهم المعنوية ، فقد حوّل المناضلون الفلسطينيون معتقلات العدو الصهيوني إلى قواعد اخرى للنضال ، للمحافظة على الروح النضالية للمعتقل ، ولربطه دائماً بتطورات النضال في الخارج ؛ وهو الأمر الذي إعترف به حاييم ليفي ، مفوض السجون الإسرائيلية ، في مقابلة معه ، حيث توقع حصول تمرد في تلك السجون خلال عامين ، يشابه التمرد الذي أسفر عن مصرع ثلاثة وثلاثين شخصاً في سجن سانتا في الولايات المتحدة . وأضاف ليفي ، ان المعتقلين الفلسطينيين « يواصلون نضالهم ضد اسرائيل من داخل السجون ، ويتعين علينا أن نكون مستعدين دائماً لمواجهة حالات تمرد ومحاولات هروب جماعية » (« السفير » ، ١٩٨٠/٧/١٢) .

ومن هذا المنطلق ، المتمثل بهدف المحافظة على الذات بالنسبة للمعتقلين كمهمة نضالية في فترة الاعتقال ، يخوض المناضلون المحتجزون في المعتقلات الإسرائيلية ، وإنسجاماً مع تطور النضال الفلسطيني ، نضالاً متعدد الأشكال والإتجاهات ، منها ما يتعلق بتحسين ظروف الإعتقال ، حيث يتم عبر ذلك فضح فاشية العدو ووحشيته أمام الهيئات والمنظمات الدولية ، ومنها ما يرتبط بظروفهم الداخلية حسب ما تقرره قيادة المجموعة التنظيمية داخل السجن . وبذلك يكون الإضراب عن الطعام إحدى أهم الوسائل النضالية لتحقيق تلك الأهداف .

الأوضاع العامة للمعتقلين الفلسطينيين : يحتجز حوالى ٤٠٠٠ معتقل فلسطيني في ١٧ سجناً موزعة في مختلف أنحاء فلسطين المحتلة : منها ما هو موجود منذ أيام الإنتداب ، مثل سجون رام الله

ونابلس والخليل وغزة ، ومنها ما انشىء في عهد الإحتلال الإسرائيلي مثل سجون كفار يونه وعسقلان وبئر السبع ونفحه الذي أقيم حديثاً ، وهو مخصص للعقوبات الجماعية والأحكام العالية ، إضافة إلى المعتقلين الذين يظهرون نشاطاً ملموساً داخل السجون .

ورغم أن معظم المعتقلين ينفذون أحكاماً صدرت ضدهم بعد محاكمتهم ، فإن السلطات الصهيونية تعاملهم داخل السجون ، وكأنهم لا يزالون في فترة التحقيق التي تسبق المحاكمة .

وتتشابه السجون الإسرائيلية في معظمها ، فهي عبارة عن مجموعة من « الزنزانات » الصغيرة ، بحيث لا تتعدى مساحة الواحدة منها الـ ٣ × ٥ م ، ويقيم داخلها حوالي ١٠ أفراد . والزنزانة هي ، في حد ذاتها ، غرفة للطعام ، وغرفة للنوم ، ودورة للمياه . وتقتصر نوافذ الهواء على بعض ثقوب تفتح في أعلى جدرانها ، بحيث لا يدخل نور الشمس إليها ، وحتى لا يستطيع المعتقلون رؤية ما يجري في الخارج . وتغلق الزنزانة بباب من الحديد ، مع وجود فتحة صغيرة في منتصفه لإدخال الطعام ، وهي لا تفتح إلا لمثل هذا الغرض . وعادة يوجد في وسط السجن ساحة صغيرة لا تتعدى ضعف حجم الزنزانة الواحدة يتم إخراج المعتقلين إليها لمدة ساعة واحدة يومياً . وغالباً ما يعاقب المعتقلون بمنعهم من التمتع بهذه الفترة .

نفحة هو الأقسى : في شهر أيار (مايو) الماضي ، كان سجن نفحه ، الواقع في وسط صحراء النقب ، جاهزاً لإستقبال المعتقلين . وقد شيد هذا السجن لإستقبال نوع معين من « النزلاء » (ذوي الأحكام المرتفعة ، والقادة ، الخ ..) . وتم تصميم بنائه بما يتلائم مع الهدف المخصص له : « قتل الإنسان جسدياً ومعنوياً » حسب وصف المعتقلين المقيمين فيه . وهو يتكون من بناءين ، في كل منهما عدد من الزنزانات ، يحشر داخل كل منها بين ٨ و ١٠ معتقلين ، ويجري تهويتها بواسطة ستة ثقوب موجودة في اعلى جدرانها ، ولا تزيد مساحتها مجتمعة عن نصف متر مربع ، وهي بذلك لا تسمح بدخول النور الطبيعي خلال النهار ، مما يستلزم الإنارة بالكهرباء طوال ساعات النهار والليل . كما أن باب الزنزانة الحديدي مغلق تماماً ، ما عدا فتحة بقياس ٢٠ × ٢٠ سم تستخدم لإدخال الطعام ، وهي تغلق أثناء الليل رغم الحر الخانق داخل الزنزانة التي تتحول الى أتون ملتهب .

وإزاء هذا الوضع ، قرر معتقلو سجن نفحه إعلان الإضراب المفتوح عن الطعام ، إعتباراً من يوم ١٩٨٠/٧/١١ ، لوقف « اسلوب القتل الجماعي » الذي يمارس من خلال ظروف الاعتقال ، كما جاء في بيان ارسله المعتقلون إلى خارج السجن . وجاء في البيان ، أيضاً ، أنهم قرروا الإضراب « بعد أن خضنا كل السبل ، وطرقنا كل الأبواب مباشرة أو بواسطة لجنة دولية لكن بدون طائل . فلا مساواة مع السجين اليهودي ولا من يحزنون . قررنا أن نموت واقفين ولن نركع بهذه الشروط . قررنا أن نعلن إضراباً مفتوحاً عن الطعام حتى مساواتنا بشروط سكن وحياة السجين اليهودي » (« وفا » ، ١٩٨٠/٧/١٦) .

وفي إطار تحركهم ، أرسل المعتقلون من داخل السجن ، نداءات ورسائل إلى قيادة الثورة الفلسطينية ، والى مختلف الهيئات والمنظمات الدولية ، شرحوا فيها أساليب التعذيب المستخدمة ضدهم ، وأحوال وظروف الإعتقال التي تتضمن ممارسات ارهابية جسدية ومعنوية ، وأوضحوا الفارق الشاسع بين معاملتهم ومعاملة السجناء اليهود الذين يتمتعون بامتيازات كثيرة . وأكد المعتقلون ، في رسالة وجهوها إلى الأخ ياسر عرفات ، القائد العام لقوات الثورة الفلسطينية ، أنهم سيحولون نفحه من معتقل سياسي إلى رافد ثوري ، وأضافوا : « قسماً أننا سنعمل للإستشهاد في هذه الساحة ، ساحة نفحه لكي نسقط مخطط نفحة في القتل الجسدي والمعنوي . ليسمع العالم بأسره أننا هنا رافد ثوري ، ونحن هنا لسنا خندقاً خلفياً بل الخندق الصدامي الأول ، والحربة الأولى في صدر العدو الفاشي الصهيوني العنصري » (المصدر نفسه ، ١٩٨٠/٧/٢٦) .

وأعلن المعتقلون تصميمهم على طرح تغيير شكل زنزانات الإعتقال الجماعية « المسماة غرف - انها قبور - » وأنهم سيقومون بعمل جماعي « ولو أدى الأمر إلى مزيد من الشهادة ... فلا تراجع » .

استشهاد معتقلين وردود الفعل : وكان من نتيجة الإضراب المستمر عن الطعام ، أن تدهورت

صحة كثير من المعتقلين ، نقلوا إلى مستشفى سجن رام الله لتلقي العلاج هناك . وإتبعت السلطات الإسرائيلية طريقة همجية في اطعام المعتقلين عن طريق حقنهم بالماء المالح من الفم والأنف . وأوضحت المحامية ليئة تسيمل « أن الحقن عن طريق الأنف يؤدي إلى تأزيم الحالة الصحية لدى مرضى التهاب الرئتين » (ر .إ .إ ، العدد ٢١١٢ ، ٢٢ و ١٩٨٠/٧/٢٣ ، ص ١٢) . وكان ثلاثة من المعتقلين قد اصيبوا بالتهاب الرئة ، ثم ما لبثا أن استشهدا ، وهما المناضلان علي محمد شحادة الجعفري ، وقاسم محمد حلاوة .ويبدو أن سلطات مصلحة السجون تمهد للإعلان عن إستشهاد مناضلين آخرين ؛ إذ أعلنت أن هناك معتقلاً مصاباً بمرض القلب ، وأن الإضراب يلحق الأذى بصحته .

وأثار إعلان نبأ إستشهاد المناضلين حلاوة والجعفري ، ردود فعل واسعة ، بدأت بإضراب كافة المعتقلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية ، تضامناً مع زملائهم في سجن نفحه . وقام أهالي المعتقلين وجماهير الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة بتحركات واسعة تضامناً مع أبنائهم المعتقلين المضربين عن الطعام . فقد شهدت مدن وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة مظاهرات وإضرابات عامة ، واجهتها القوات الإسرائيلية بمزيد من القمع والعسف ، كما تم إعتقال عشرات من المواطنين العرب . وذكرت الإذاعة الإسرائيلية ، أن الشرطة أقامت « غرفة عمليات في القدس القديمة ، وجرى توزيع قوات رجال الشرطة وحرس الحدود في شوارع القدس والمدينة القديمة » (المصدر نفسه ، العدد ٢١١٥ ، ١٩٨٠/٧/٢٥/٢٤ ، ص ٥) . وفي مقر الصليب الأحمر بالقدس الشرقية اعتصمت عشرات من امهات المعتقلين « وذكرت انهن سيصمن حتى تحقيق كافة المطالب التي تقدم بها ابناؤهن » (المصدر نفسه) .

وفي يوم ١٩٨٠/٧/٢٥ ، جرت في القدس ، وأثر صلاة يوم الجمعة ، مظاهرات حاشدة ، شارك فيها أكثر من عشرين ألف مواطن فلسطيني ، تلبية لنداء وجهته المؤسسات والهيئات الوطنية ، دعت فيه إلى الإضراب والتظاهر ضد السياسات الفاشية المنافية للأعراف والمواثيق الدولية . وأضاف النداء أن « الشعب الفلسطيني الذي عانى الأمرين من الإحتلال وممارساته ، يقدم الشهداء لتأكيد حقوقه الوطنية المشروعة » (« وفا » ، ١٩٨٠/٧/٢٤) . وناشد النداء الهيئات الدولية ، وفي مقدمتها الجمعية العامة للأمم المتحدة ، الوقوف بحزم مع « مطالبنا لوطنية ، وضد الإجراءات التعسفية، التي يواجهها شعبنا في الأراضي المحتلة » (المصدر نفسه) .

وأرسلت بلدية غزة ثلاث برقيات إلى كل من « رئيس الدولة ووزير الدفاع والحاكم العسكري لقطاع غزة ، إحتجاجاً على إستشهاد المناضلين الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية »(« ر .إ .إ » العدد ٢١١٥ ، ١٩٨٠/٧/٢٥،٢٤ ، ص ٦) . وقال رئيس بلدية غزة ، رشاد الشوا ، لمراسل إذاعة إسرائيل ، أنه يطالب السلطات الإسرائيلية ، بـ « إغلاق سجن نفحه فوراً ، وتشكيل لجنة تحقيق في أسباب موت المعتقلين الأمنيين » (المصدر نفسه) . وأضاف الشوا ، أن بلدية غزة سترسل برقية إحتجاج مماثلة للسكرتير العام للأمم المتحدة ورئيس الولايات المتحدة جيمي كارتر .

المعتقل مدرسة للنضال : وكشفت الأوساط الإسرائيلية ، للمرة الاولى ، الحقيقة التي تقف وراء حقدها وتصرفاتها اللاإنسانية تجاه المعتقلين الفلسطينيين ، والأسباب الفعلية التي دفعتها لبناء سجن جديد على غرار سجن نفحه . لوضع قادة الفدائيين فيه . فقد اجرى مراسل الإذاعة الإسرائيلية مقابلة مع المفوض تسفي تمير ، ضابط الأمن في مصلحة السجون ، أوضح فيها كيفية مواصلة المعتقلين مهامهم النضالية داخل السجون ، وفق أصول تنظيمية واضحة ، وتشابه توزيع المهمات بين المنظمات الفدائية خارج السجون ، وأن التنظيم داخل السجون مرتبط بالمنظمة الأم في الخارج .حيث يتبنى تنظيم المعتقلين الخط الفكري للمنظمة الام « ويلتزم بالمواقف نفسها ويدافع عن آرائها ، ويعمل على نشرها من خلال البناء التنظيمي الذي يحافظون على سلامته . ويقود التنظيم داخل السجون كوادر من المنظمة ذوو قدرات وكفاءات حصلوا عليها وفق تسلسل السلم التنظيمي للمنظمات الثورية » (المصدر نفسه ، العدد ٢١٢٢ ، ١٩٨٠/٨/٢.١ ، ص ٨ و ٩ و ١٠) .

التعليم والثقافة : وحسب قول تمير ، فإن بعض المعتقلين يصلون إلى السجن وهم اميون ، فيجري تعليمهم القراءة والكتابة أولاً ، من قبل المعتقلين ،

الأقدم . ثم يعلمونهم الرياضيات واللغات ، ويجري بعد ذلك تزويدهم بسلسلة كاملة من المحاضرات حول الحركات الثورية في جميع أنحاء العالم . وإذا تعذر وجود مادة ثقافية حول أي مسألة ، يقوم المعتقلون بإعداد المواد بأنفسهم و « بينهم من يستطيع إعداد مواد جيدة . وهم يتعلمون كل ما له علاقة بالحركات التنظيمية ، بما في ذلك تاريخ منظمات اتسل وليحي والهاغاناه . والحركة الصهيونية » (المصدر نفسه) .

ويقول تمير ، بشأن الوضع التنظيمي للمعتقلين ، أن هناك مجلساً أعلى تتمثل فيه جميع المنظمات الفدائية ، وهذا المجلس هو الذي يقرر نشاطات المعتقلين في كل سجن . فإذا ما برزت خلافات بين « الجبهة الشعبية ، والجبهة الديمقراطية ورجال فتح والمتدينين ، فهم لا يستطيعون القيام باضراب شامل إلا إذا جرت المصادقة على القرار في المجلس الأعلى للسجن ، وينبغي أن يكون القرار بالإجماع » (المصدر نفسه) .

الأمن الداخلي للمعتقلين : ويعترف ضابط الأمن في السجون الإسرائيلية ، بعدم وجود ظاهرة الوشاية أو التعاون مع السجانين ، ومع ذلك ، هناك لجنة الأمن الداخلي للمعتقلين ، ووظيفتها ، « تعقب خطوات وأعمال كل معتقل ، ومراقبة اقواله وتحديد لقاءاته ، سواء كانت مع السجانين أو بين المنظمات نفسها . ولديهم أيضاً لجنة مخابرات داخلية مكلفة بمراقبة المعتقلين ، وتعقب السجانين والضباط وكل نشاط في السجن » (المصدر نفسه) . كما ينظم المعتقلون محاكمات عادلة للعملاء الذين قد يجندهم العدو لمصلحته ، وتتخذ عقوبات بحق هؤلاء قد تصل الى عقوبة الإعدام . حيث يقوم احد المعتقلين المحكومين بالسجن المؤبد بتنفيذ قرارات المحكمة ، لأنه لا يملك ما يخسره .

٢ - إجراءات تعسفية إستمراراً لسياسة « اليد القوية »

تطبيقاً لسياسة اليد القوية ، التي اتبعتها حكومة بيغن في المناطق المحتلة ، اتخذت سلطات الحكم العسكري عدداً من الإجراءات ضد المواطنين الفلسطينيين تمثلت بالخطوات التالية :

أ - إجراءات ضد لجنة التوجيه الوطني ، والشخصيات الوطنية : ففي محاولة للإستفادة من غياب بعض الشخصيات الوطنية عن المناطق المحتلة نتيجة الإبعاد أو نتيجة محاولة الإغتيال التي تعرض لها كريم خلف وبسام الشكعة ، تعتقد السلطات الإسرائيلية أن الفرصة مؤاتية لها الآن لوقف نشاط لجنة التوجيه الوطني ، وبالتالي تهدئة الأوضاع في المناطق المحتلة بما يخدم مخططاتها التآمرية . وذكرت الإذاعة الإسرائيلية في هذا الصدد أن الحكم العسكري مقتنع « بأن الخطوات الحازمة التي إتبعها عشية محاولات الإغتيال ، وفي أعقاب عملية القتل في بيت هداسا ، وطرد رئيسي بلديتي الخليل وحلحول وقاضي الخليل أدت جميعها إلى تهدئة الوضع » (و.إ.إ. ، العدد ٢١١٢ ، ٢٢،٢١/٧/١٩٨٠ ، ص ٩) . وتنفيذاً لهذا الهدف ، استدعى بعض الحكام العسكريين للضفة الغربية رؤساء البلديات ، كلاً في منطقته ، لتحذيرهم من متابعة النشاطات السياسية « التي قد تعمل على إلهاب المشاعر مجدداً » . وقد جاء هذا التحذير مع مناسبة عودة بسام الشكعة إلى نابلس ، حيث منعت السلطات رؤساء البلديات من الإلتقاء به أو زيارته .

وفي إطار هذه السياسة أيضاً ، فرض الحكم العسكري في الضفة الغربية ، يوم ٧/٨/١٩٨٠ ، الإقامة الجبرية على سبع شخصيات وطنية ، وبناء على تلك الأوامر لا يسمح لهؤلاء الشخصيات بمغادرة أماكن سكناهم ، دون مصادقة قائد المنطقة العسكري . والأشخاص الذين حددت إقامتهم هم : ابراهيم سليمان الطويل رئيس بلدية البيرة ، مأمون السيد رئيس تحرير صحيفة الفجر ، اكرم هنية سكرتير تحرير صحيفة الشعب ، بشير البرغوثي رئيس تحرير صحيفة الطليعة ، سميحة خليل رئيسة جمعية انعاش الأسرة في مدينة البيرة . ورغم أن أي تبرير لم يعط للأسباب التي دعت الحكم العسكري لإتخاذ هذا الإجراء ، فإن مراسل الإذاعة الإسرائيلية عرض بعضاً من هذه الأسباب ، وقال أنه بعد الهدوء الذي ساد المناطق المحتلة في الفترة الأخيرة ، ظهرت محاولات لإعادة إحياء نشاط لجنة التوجيه الوطني ، وأن الحكم العسكري ينوي بذل كل جهد « للحفاظ على الهدوء » . ووفقاً لهذه السياسة جرى فرض الإقامة الجبرية ، وحسب المرتبة السياسية ، على شخصيات لها علاقة بلجنة الإرشاد الوطني » (المصدر نفسه ، العدد ٢١٢٧ ، ٨،٧/٨/١٩٨٠ ، ص ٤) .

ويذكر في هذا المجال ، أن مبنى مكاتب صحيفة « الفجر » المقدسية تعرض للتفجير يوم ١٩٨٠/٨/٣ ، وكانت الصحيفة قد تلقت عدة مكالمات هاتفية من أشخاص إسرائيليين هددوا بنسفها إذا لم تتوقف عن إنتهاج خط مؤيد لمنظمة التحرير الفلسطينية . كما أن سلطات الإحتلال هددت أكثر من مرة بوقف الصحيفة عن الصدور ، ولجأت إلى مضايقة العاملين فيها . وقد أوضح مأمون السيد ، رئيس تحرير الصحيفة ، في مؤتمر صحافي عقده في القدس ، أن هذا الإعتداء « الآثم هو محاولة يائسة لإسكات الأصوات الوطنية المعارضة لمؤامرة الحكم الذاتي داخل الأراضي المحتلة » (« فلسطين الثورة » ، ١٩٨٠/٨/٥) .

وكشف السيد عن رسالة تهديد تلقاها من العصابات الصهيونية تطالبه بإغلاق الصحيفة في الثاني والعشرين من الشهر الماضي .

ب ـ تعديلات في قوانين التربية والتعليم :

كان من نتيجة الإحتلال ، وما رافقه من صعوبات بالنسبة لإستكمال التأهيل العالي لطلاب المناطق المحتلة ، أن لجأت بعض الهيئات إلى توسيع المؤسسات التعليمية القائمة في بعض المناطق لتشمل الدراسة الجامعية ، وهكذا انشأت كليات للتعليم الجامعي في كل من بيرزيت ونابلس وغزة . ومع بداية العام الحالي إفتتحت كلية للعلوم في منطقة أبو ديس في ضواحي القدس ، وقد أصدرت السلطات الإسرائيلية في حينه قراراً يقضي بإغلاقها . وبدأت تلك السلطات في التفكير عملياً بوقف ظاهرة إنشاء كليات للتعليم العالي في المناطق المحتلة . وأخيراً أصدرت الحاكمية العسكرية في الضفة الغربية قراراً يحمل الرقم ٨٥٤ بتاريخ ١٩٨٠/٧/٦ ، وضعت بموجبه قيوداً كثيرة لمنع قيام مثل تلك الكليات الجامعية . وذكرت المصادر الإسرائيلية أن القرار أدخل تعديلات على قانون التعليم الاردني والإنتدابي : وعلى أساس تلك التعديلات لن تفتح مؤسسات تعليمية في المناطق دون الحصول على موافقة خاصة . وتدعي سلطات الحكم العسكري أن الأمر جاء لمصلحة السكان وتنظيم فتح مؤسسات التعليم العالية وفق القانون من أجل الإعداد المسبق وتوفير الظروف الملائمة . وتقول المصادر الصحفية الإسرائيلية ، أن هذا هو « التفسير الرسمي. لكن الواضح أن هذا العامل ليس هو الوحيد بين مجموع العوامل التي أدت لإصدار هذا القانون ، والمقصود هو السيطرة الكاملة ، على مؤسسات التعليم العالي في قطاع غزة والضفة الغربية . وهي التي تشكل ، كما هو معروف ، مراكز للنشاط الوطني ، ومنها تنطلق معظم المظاهرات التي تحصل في المناطق » (« هآرتس » ، ١٩٨٠/٧/٦) .

وينص التعديل أيضاً على ربط هذه المؤسسات إدارياً بالسلطات الإسرائيلية ، بحيث تستطيع إغلاقها لأسباب مختلفة ، مثل عدم جدوى التعليم فيها ، أو مستواها المنخفض . وقد أعطى الآمر موافقة لمدة عام دراسي واحد للكليات القائمة الآن (كلية بيرزيت ، الكلية الإسلامية في الخليل ، كلية النجاح في نابلس، كلية الفرير في بيت لحم ، الكلية الإسلامية في غزة) ولكن عليها ان تجدد الترخيص في العام التالي ، مما يعني أن السلطات تخطط لإغلاق هذه الكليات جميعها بالمستقبل .

وقد رفض مجلس امناء جامعة بيرزيت القرار الإسرائيلي وأصدر بيان إستنكار جاء فيه « ان تعديل قانون التربية والتعليم رقم ١٦ لسنة ١٩٦٤ ، يتنافى والقوانين الدولية ، وبالأخص إتفاقية جنيف الرابعة لسنة ١٩٤٩ ، والتي تنص على أنه لا يحق للسلطات المحتلة أن تغير الأنظمة التي كانت سائرة عليها البلاد المحتلة . وأن إشتراط الحصول على تصريح من الحكم العسكري للعمل كاستاذ أو الإلتحاق كطالب في الجامعة هو أمر غير مقبول ، لأنه يتعدى على صلاحيات الجامعة ويتجاهل تماماً الأسس الإكاديمية السليمة المتبعة لتعيين الأساتذة وقبول الطلبة . وفي المقابل فإن الصلاحيات التي منحت للحاكم العسكري بموجب هذا الأمر لا تحدد الأسس التي يمكنه الإستناد عليها » (« وفا » ، ١٩٨٠/٨/٦) . وأكد البيان أن كافة قطاعات جامعة بيرزيت تعلن رفضها أية اوامر تتعارض مع كيان الجامعة ، وإستقلاليتها ، وإستمرارها في تأدية واجباتها ، وحريتها الاكاديمية . وناشد كافة الهيئات المحلية المعنية والدولية التربوية العمل لـ « الحفاظ على الحرية الاكاديمية التي تقرها جميع الأعراف الدولية » .

٣ ـ النشاط الإستيطاني

وفق مفاهيم حق الإستيطان في « أرض ـ إسرائيل التاريخية » ، تتابع السلطات الإسرائيلية مصادرة وإستيطان الأراضي العربية المحتلة منذ العام

١٩٦٧ . **وفي الجولان** ، حيث صادق الكنيست الإسرائيلي على قانون لمنح الجنسية الإسرائيلية لسكانه العرب ، تخطط السلطات الإسرائيلية لمشاريع إستيطانية واسعة هناك ، تشمل ٤ مستوطنات ، احداها مرصد على سفوح جبل الشيخ . وبإقامة هذه المستوطنات يصبح مجموع عدد مستوطنات الجولان ٣٠ مستوطنة . وتشمل مشاريع الإستيطان القادمة « إسكان ٣٠ الف يهودي حتى عام ٢٠٠٠ . أما التقدير السائد ، فهو أن هذا الهدف لن يتحقق ، حيث لم يزد عدد المستوطنين في الهضبة عن ٦٥٠٠ يهودي حتى الآن »(« و.إ.إ. » ، العدد ٢١٠٤ ، ١٢,١١/٧/١٩٨٠ ، ص ٣) . ويبدو أن نقص عامل القوى البشرية هو السبب الرئيسي الذي يعرقل إكمال المشاريع الإستيطانية في الهضبة ، حيث توجد بعض الشكوك من قبل بعض الأشخاص حول مستقبل الجولان السياسي ، مما لا يشجعهم على إستثمار أموالهم وجهودهم في الجولان ، لذلك جرى تقديم مشروع ضم هضبة الجولان إلى إسرائيل ، عبر لوبي شكّله أعضاء من الكنيست برأسه ابراهام كاتس عوز وشلومو هيلل من المعراخ ، ويحدد هذا اللوبي طلباته كما يلي : « ١ ـ فرض السيادة الإسرائيلية على الجولان فوراً ؛ ٢ ـ إعطاء هويات وجنسيات إسرائيلية لسكان الهضبة الدروز ؛ ٣ ـ تجسيد مشروع الوصول إلى إسكان عشرة آلاف يهودي في الهضبة حتى نهاية العام المقبل » (**المصدر نفسه** . ص ٥) .

وفي **منطقة القدس** ، اقيمت ، يوم ٢٨/٧/١٩٨٠ ، مستوطنة حداشا بالقرب من مستوطنة غبعون في منطقة النبي صموئيل . وقد حضر حفل إقامة المستوطنة وزير الزراعة اريئيل شارون ووزير المالية يغئال هوروفيتس.وصرح شارون أن مستوطنة حداشا « جزء من مشروع أمني وسياسي شامل ... وأن البديل الأردني ، الذي يتحدث عنه المعراخ ، يعني إقامة دولة فلسطينية ، كما أن في مشروع الحكم الذاتي بعض المخاطر ، كإحتمال إقامة دولة فلسطينية . والجواب عن مثل هذا الخطر كنتيجة للحكم الذاتي ، هو الإستيطان اليهودي ، وما من شيء أهم من هذا » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢١١٨ ، ٢٩,٢٨/٧/١٩٨٠ ، ص ١٠) .

أما في **مناطق الضفة الغربية وغور الاردن** ، فقد صادقت شعبة الإستيطان ، المؤلفة من الحكومة والمنظمة الصهيونية ، يوم ١٧/٧/١٩٨٠ ، على إقامة ثماني نقاط حراسة إستيطانية جديدة . وستقام ثلاث منها جنوبي غربي الجليل ، وثلاث اخرى في منطقة ناحال عيرون ، وإثنتان ضمن سلسلة جديدة من نقاط الحراسة الإستيطانية ، التي تقام على طول الخط الأخضر على الحدود مع « السامرة » . وذكر أيضاً أن الحكم العسكري « يسعى الآن لربط كافة المستوطنات اليهودية في « السامرة » بشبكة الكهرباء الإسرائيلية . كما سيربط الحكم العسكري بالشبكة ، أيضاً ، القرى العربية التي ترغب في ذلك » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢١٠٩ ، ١٨,١٧/٧/١٩٨٠ ، ص ٧) . وأشار كل من رئيس شعبة الإستيطان ووزير الزراعة ، إلى أنه في السنوات الثلاث الماضية (فترة حكم الليكود) اقيم داخل الخط الأخضر ١١٦ مستوطنة جديدة . ويعتقدان « أن هذا رقم قياسي ، لم يسبق له مثيل في تاريخ الإستيطان اليهودي » (**المصدر نفسه**) .

ويوم ١٨/٧ اقيمت مستوطنة في جنوبي غربي « السامرة » « بدون موافقة السلطة والحكم العسكري بإسم الكناه ب » (**المصدر نفسه** ، العدد ٢١١٠ ، ١٩,١٨/٧/١٩٨٠ ، ص ٥) . وتقع المستوطنة على تلة مرتفعة بين مستوطنتي الكناه واريئيل . وقد سيج المستوطنون المنطقة ، وأقاموا خمس خيم وكوخاً واحداً ، وينتمي اعضاؤها إلى مهاجرين من الإتحاد السوفياتي . ويضيف مراسل إذاعة إسرائيل : أن « لجان الإستيطان كانت قد حددت هذا المكان للإستيطان ، لكنها لم تقم أية مستوطنة في المنطقة لأسباب مادية ، وليس لأسباب قانونية » (**المصدر نفسه**) .

وضمن مخطط تعزيز الإستيطان في الضفة الغربية ، قررت اللجنة الوزارية المشتركة من الحكومة والوكالة اليهودية بتاريخ ١٤/٨/١٩٨٠ ، إقامة مستوطنتين للناحال في منطقة صحراء « يهودا » إلى الشرق من مدينة الخليل . وستقام شمالي « السامرة » مستوطنة « ريحان هـ » ؛ وهذه المستوطنات هي من أصل عشر ستقام من أجل تعزيز الإستيطان اليهودي في الضفة الغربية . ووُصف النشاط الإستيطاني في الضفة الغربية « بأنه يدخل في وتيرة السرعة . والأمثلة على ذلك كثيرة . ففي شمال « السامرة » يقترب الإنتهاء من أعمال البنية التحتية

لمستوطنة دوتان ، وبالقرب من نابلس تم الإنتهاء من شق طريق جديدة إلى ايلون موريه . وفي غوش عتسيون إستوعبت المدينة الجديدة افرات ، العشرات الأولى من سكانها ، وهم طلاب المدرسة الدينية تيروت يسرائيل . وعلى قمة الجبل المحاذي لغور الأردن ، سيجري بعد أيام معدودة تحويل مستوطنة الناحال ريمونيم إلى مستوطنة مدنية . وإلى الشرق من أريحا ، أقيمت مستوطنة الناحال معراقا . واليوم جرى التصديق على إقامة مستوطنتين للناحال جنوبي الضفة الغربية ، هما : معون وكرميل على الحدود بين الخليل وصحراء يهودا . وفي المستقبل ستتحول هاتين المستوطنتين إلى مستوطنتين مدنيتين وأصبحتا تشكلان منذ الآن ، كتلة جديدة من المستوطنات الإسرائيلية . وصادقت اللجنة اليوم أيضاً على إقامة المستوطنة ريحان هـ ، شمالي « السامرة » وبتيرب ، جنوبي جبل الخليل بالقرب من الخط الأخضر » (المصدر نفسه ، العدد ٢١٣٠ ، ١٤ ، ١٥/٨/١٩٨٠ ، ص ١٠) .

ومن جهة أخرى ، رفضت محكمة العدل العليا ، يوم ١٥/٧/١٩٨٠ ، الإلتماس الذي قدمه ٢٦ ملاكاً عربياً من منطقة الخليل ، طالبوا فيه بإلغاء قرار مصادرة أراضيهم ، التي اقيمت عليها مستوطنة مفدال عوز . وكشفت المحامية فيليتسيا لانغر أن هذا العمل ، أي رفض طلب الإلتماس رمى إلى « خدمة السياسة الإستيطانية الخاصة بغوش إيمونيم ، وليس بمتطلبات الدولة الأمنية » (المصدر نفسه ، العدد ٢١٠٧ ، ١٥و ١٦/٧/١٩٨٠ ، ص ١٠) . وجاء قرار المحكمة الصهيونية ، إستجابة لمطالبات أعضاء المجالس الإقليمية اليهودية في الضفة الغربية ، الذين أعلنوا الإضراب عن الطعام منذ أكثر من شهرين ، حيث أنهم يدعون أن المبرر الأمني لا يمكن إعتباره موثوقاً لتجسيد الإستيطان ، ولا بد من إيجاد الشروط القانونية ، التي تتيح الإستيطان ، حتى دون مبررات كهذه .

محمد عبد الرحمن

تعليق مفاوضات الحكم الذاتي
للمرة الثالثة وقانون القدس

مفاوضات الحكم الذاتي

مرت مفاوضات الحكم الذاتي للفلسطينيين ، في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بسلسلة من الأزمات ، كانت كل منها كفيلة ، لا بتعليق المفاوضات فحسب ، بل بقطع العلاقات نهائياً بين الدولتين : مصر وإسرائيل ، وربما إسقاط اتفاقيتي كامب ديفيد . إلا أن هذه الأزمات المتتالية ، التي تواكب مسار المفاوضات منذ بدايتها ، كانت ، ولا تزال ، مفتعلة ، الغاية منها - على الأقل من وجهة نظر الجانب المصري - الالتفاف حول الموقف العربي بعامة ، والموقف الفلسطيني بخاصة . أما الجانب الإسرائيلي ، فهو يفضل عملية المد والجزر ، حتى تبدو المفاوضات غير ذات تأثير على مشاعر الجماهير العربية . فالموقف المصري المتذبذب هو بعينه الذي يخلق الأزمات ويعلق المفاوضات ، وذلك لكسب مزيد من التأييد العربي الذي افتقر إليه منذ بداية المفاوضات ، بل منذ بداية مسيرة السلام ، المزعوم .

فالموقف الإسرائيلي كان ، منذ البداية ، واضحاً دون اية مواربة ، ويتلخص بالتالي :

١ - لا لحكم ذاتي للأرض ، ولا لحكم ذاتي تتعدى صلاحياته صلاحيات البلديات بعامة .

٢ - لا لحكم ذاتي يؤدي بالنهاية إلى حق تقرير المصير للفلسطينيين ، وبالتالي إلى قيام دولة فلسطينية .

٣ - القدس عاصمة موحدة لإسرائيل وإلى الأبد . وهي غير قابلة للتفاوض .

٤ - لا لسيادة عربية من اي نوع وشكل على أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة .

هذه هي الخطوط العريضة للموقف الإسرائيلي : اي لا تنازل عن أي شبر من هذه الاراضي : لا انسحاب للقوات الإسرائيلية منها ، ولا حتى علم عربياً يرفع على المقدسات في القدس .

أما الموقف المصري ، فقد اتخذ اشكالاً وألواناً عدة ، منذ بدء المفاوضات : فهو تارة يرى ضرورة إزالة المستوطنات الإسرائيلية ، وتارة تجميدها فقط ، وتارة يرى أن القدس عاصمة للفلسطينيين ، وأخرى لا يمانع في أن تبقى القدس موحدة ، ثم يعود فينقلب على موقفه ، فتصبح القدس مثل القاهرة : لا يمكن التخلي عنها .

وهنا ، لا بد لنا من أن نشير إلى أن اتفاقيتي كامب ديفيد لم تأتيا على ذكر القدس نهائياً ، بإستثناء رسائل التوضيح من بيغن إلى كارتر ومن السادات إلى كارتر ، ومن الأخير إلى السادات وبيغن . ففي الرسالة السادسة من رسائل بيغن لكارتر ، جاء ما يلي :

« ١٧ أيلول ١٩٧٨ .

سيدي الرئيس ، لي الشرف أن إبلغكم ، سيدي الرئيس ، إنه في ٢٨ حزيران ١٩٦٧ أعلن البرلمان الإسرائيلي [الكنيست] موافقته على قانون ينص على الآتي : إن الحكومة مخولة بمرسوم أن تطبق

القانون والتشريع والترتيبات الإدارية للدولة على اي جزء من [أرض إسرائيل] كما ورد في المرسوم . وعلى أساس هذا القانون أصدرت الحكومة الإسرائيلية مرسوماً ، في تموز ١٩٦٧ ، ينص على أن القدس هي مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم ، وهي عاصمة دولة إسرائيل .

باخلاص

التوقيع : مناحيم بيغن »

لذا فإن الموقف الإسرائيلي غير جديد على النظام المصري ووفوده المفاوضة . فبعد تعليق المفاوضات في أيار من هذا العام ، وبعد المصالحة التي قامت بها واشنطن ، أعلن الطرفان - مصر وإسرائيل - عن إستئناف المفاوضات وقد توجه إلى مصر فعلا « وفد من رجال القانون ، برئاسة المستشار القانوني للحكومة ، من أجل إستئناف محادثات الحكم الذاتي يوم ١٩٨٠/٧/٢٧ » (ر . إ . إ ، ٢٧ و٢٨/ ١٩٨٠ ، العدد ٢١١٧ ، ص ٧) .

في ذلك الوقت كان الخلاف حول موضوع الأمن في مناطق الحكم الذاتي في أوجه بين مصر وإسرائيل التي كانت تطالب بأن يكون الأمن الداخلي والخارجي تحت مسؤوليتها فقط ، في حين كانت مصر تطالب بأن يكون الأمن الداخلي في يد الفلسطينيين إنفسهم . وما أن بدأ رجال القانون الإسرائيليون والمصريون عقد جلساتهم في القاهرة ، للتمهيد لعقد جلسات المفاوضات بين الوفود الرسمية ، حتى أنتشر خبر قانون القدس ، الذي قدمته عضو الكنيست غيئولا كوهين ، الأمر الذي دعا بعض المسؤولين السياسيين في مصر إلى التهديد بوقف مفاوضات الحكم الذاتي ، فقد صرح الرئيس السادات « أن المصادقة على قانون القدس في الكنيست ، يناقض نص وروح اتفاقيات كامب ديفيد ، وأن الخلاف بين إسرائيل ومصر في موضوع القدس بالغ الخطورة» (ر . إ . إ ، ٣٠ و٣١/ ٧ / ١٩٨٠ ، العدد ٢١٢٠ ، ص ٤) .

وعقب وزير خارجية مصر كمال حسن علي بقوله « إن مصر تدرس إمكانية تعليق المفاوضات وإستدعاء سفيرها من تل - أبيب إذا صادق الكنيست على قانون القدس» (المصدر نفسه) .

وقد حدد السادات الهدف المصري من إقامة الحكم الذاتي الكامل للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة ، فقال : « إن معنى الحكم الذاتي إنهاء الإحتلال الإسرائيلي ، وإنهاء الحكم العسكري الإسرائيلي والمدني ، وذلك بعد ثلاث سنوات ، كفترة إنتقالية ، حيث يجب على الفلسطينيين أن ينضموا إلى المفاوضات ، وأن يقرروا مصيرهم بأنفسهم » (« معاريف » ، ١٩٨٠/٧/٢٣) . ففي تعليق الصحيفة نفسها على خطاب السادات ، جاء : « اتخذ السادات موقفاً واضحاً ، مطالباً بإزالة المستوطنات الإسرائيلية في « المناطق » ، ووصفها بأنها غير شرعية ، وهذا ينطبق أيضاً على المستوطنات التي ستقام لاحقاً وليس هناك مفر من إزالتها » .

وقد اعترف السادات بأن المفاوضات تواجه صعوبات ، « وأن الهوة بين الموقفين عميقة ، وأعتبر القدس الشرقية جزءاً لا يتجزأ من الضفة الغربية ، وإن إي تغيير في وضعها باطل وملغى.(المصدر نفسه) .

والجدير بالذكر إن مصر لم تجمد المفاوضات بقرار رسمي ؛ حيث أن تجميدها كان منذ شهر إيار ولم تجدد رسمياً . وقد كان هدف رجال القانون من أعضاء الوفود إعداد أرضية لبدء المفاوضات ، « وبسبب إتجاه الكنيست لإعلان القدس الموحدة عاصمة لإسرائيل ، وبسبب سياسة الحكومة الإسرائيلية الإستيطانية في الضفة ، أوقفت المفاوضات ، وإن الجلسات التي عقدت في القاهرة لا تتعدى بحث المسائل الإدارية تمهيداً للقاء الوفود في الشهر القادم في الإسكندرية » (ر . إ . إ ، ١٣ و١٤ / ٧ / ١٩٨٠ ، العدد ٢١٠٥ ، ص ٣) .

بعد ذلك ، أرسلت مصر مذكرة من السادات إلى بيغن بواسطة السفير الإسرائيلي في القاهرة ، الياهو بن اليسار ، تتضمن الموقف المصري كما حدده السادات في خطابه في ١٩٨٠/٧/٢٣ بمناسبة عيد الثورة المصرية .

الرسائل المتبادلة

بعد رسالة السادات إلى بيغن بصدد قضية القدس ، والتي ضمنها رأيه في إقرار الكنيست قانون ضم القطاع الشرقي من المدينة إلى إسرائيل ، بعث بيغن برسالة إلى السادات ، رافضاً حججه جملة وتفصيلاً . وفيما يلي تلخيصاً لرسالة بيغن : « أخذ بيغن على الرئيس المصري تأييد بلاده قرارات الأمم المتحدة المناهضة لإسرائيل ، والبيانات غير الودية

التي صدرت عن مسؤولين مصريين أو عن صحف مصرية ... أما بالنسبة للقدس ، فإن سيادتين في مدينة واحدة أمر يصل إلى التقسيم ، وهذا ليس ممكناً ... إن القدس كانت ، وهي الآن ، وستكون واحدة تحت السيادة الإسرائيلية وهي العاصمة غير القابلة للتقسيم ... وأيا يكن من يعلن إن الأعمال المتعلقة بالسيادة التي يقوم بها برلمان ديمقراطي لاغية وباطلة ، فإن بيانه هو يكون لاغياً وباطلاً في ذاته ، وينطبق الشيء نفسه على مستوطناتنا في يهودا والسامرة (الضفة الغربية) وقطاع غزة ومرتفعات الجولان ، وهي قانونية ومشروعة ، وهي جزء أساسي من أمننا الوطني ولن تفكك أي منها أبداً » (« النهار » ، ١٤ / ٨ / ١٩٨٠) .
وقد الحق بيغن برسالته ثلاثة نصوص أخرى : الأول نص رسالته حول القدس إلى الرئيس جيمي كارتر بعد توقيع أتفاقيتي كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ؛ والثاني : القانون الإسرائيلي الصادر عام ١٩١٧ حول حماية الأماكن المقدسة في القدس ؛ والثالث نص القانون الإسرائيلي الجديد بشأن القدس .

وعلى أثر نشر نص الرد الإسرائيلي ، سارعت مصر إلى نشر نص رسالة السادات التي تلخصت بالتالي : التزام مصر بنصوص اتفاقيات كامب ديفيد ؛ رفض مصر الإجراءات الإسرائيلية من جانب واحد تحدياً للإجماع العالمي فيما يتعلق بالقدس وبالمستوطنات ، وركزت على حقوق العرب والمسلمين التاريخية في القدس ، مع إبقاء مختلف وظائف المدينة موحدة ؛ كذلك يجب أن توقف إسرائيل جميع النشاطات الخاصة بالمستوطنات وإزالة كل ما اقيم منها في الضفة الغربية وغزة ، إضافة إلى إزالة كل المستوطنات في الأراضي المحتلة الأخرى (المصدر نفسه) .

وكان رئيس الوفد الإسرائيلي المفاوض ، يوسف بورغ ، قد أعلن « أنه يتوقع إن يصل المبعوث الاميركي صول لينوفيتش إلى الشرق الأوسط ، للقيام بما يشبه مهمة المكوك بين مصر وإسرائيل ، في أواسط آب ، رغم تبادل الرسائل في الفترة الأخيرة » (« السفير » ، ٦/٨/١٩٨٠) .

وعلى الرغم من الهوة الشاسعة بين الموقفين المصري والإسرائيلي ، وإستحالة الوصول إلى إتفاق بشأن الحكم الذاتي حالياً ، فإن المتتبع للاحداث يدرك أن الرئيس المصري يستغل ، مؤقتاً ، الخطوات الإسرائيلية ، مثل قانون القدس ، ونقل مقر رئيس الحكومة إلى القطاع الشرقي منها ، وإقامة المستوطنات ، لرفض مفاوضات الحكم الذاتي ، ليس بشكل كامل و الى الأبد ، بل لفترة يمكن أن تحدد بانتخابات الرئاسة الأميركية ، وتبدل النظام الحالي في إسرائيل . وهذا يعني ، بحسب تقدير الجانب المصري ، أن الضغط الذي سيمارس ضد إسرائيل ، سيكون أكثر فاعلية . فالرئيس الاميركي القادم لن يقع تحت تهديد الاصوات اليهودية في الولايات المتحدة ؛ كما أن النظام في مصر يعتقد أن التعامل مع سلطة جديدة في إسرائيل ، بقيادة حزب العمل الذي يؤمن بتسوية إقليمية ، سيكون أسهل . ولكن الهدف المصري من تعليق المفاوضات ، ومن التصلب في موقفه ، هو الألتفاف حول الموقف العربي . فهناك عدة أنظمة عربية تريد إعطاء السادات مبرر الإستمرار ، وتريد منه إعطاءها مبرر الدخول في معاهدة السلام أو مباركتها . ومن هنا ، فإن موقف النظام المصري سيضطر بعض الأنظمة العربية إلى إعادة تقيم الموقف ، ومنحه الدعم السياسي والمادي ، كل حسب تقديراته ومبرراته وغاياته ؛ فمثل هذه الأنظمة لا يمكن أن تعيد السادات إلى الصف العربي بتأيدها له ، بل ستكسبه مزيداً من الوقت ومزيداً من الدعم السياسي والمادي العربي الذي افتقر إليه ، وبعد ذلك سيعود السادات ، بعد الانتخابات الأميركية والإسرائيلية ، إلى مساره ذاته منذ زيارته للقدس ، وسيعود مسلسل التنازلات من جديد . فهو يعلم إن السيادة الإسرائيلية والقانون طبقا ، منذ عام ١٩٦٧ ، على القطاع الشرقي من مدينة القدس ، وكان الأجدر به ألا يوقع اتفاقية لا تتضمن نصاً مباشراً حول القدس . فالصعوبات التي يشير إليها النظام المصري موجودة وقائمة منذ عام الهزيمة سنة ١٩٦٧ .

قانون القدس

بينما كان مجلس الأمن يبحث موضوع القدس ومكانتها ، وينشر الفاتيكان وثيقة بهذا الشأن ، « قررت اللجنة القانونية التابعة للكنيست ، تحويل مشروع القانون الخاص الذي تقدمت به غيئولا كوهين بشأن القدس ، إلى الكنيست للقراءة الأولى » (و . إ . إ . ، ٣٠/٦/ و١/٧/١٩٨٠ ، العدد ٢٠٩٥ ، ص٣) . وكان مشروع القرار هذا قد قدم

للكنيست منذ شهر ، وأقرت اللجنة تحويله إلى الكنيست باغلبية الأصوات .

وفيما يلي نص مشروع قانون القدس كما قدمته عضو الكنيست غيئولا كوهين : « القدس الكاملة والموحدة عاصمة لإسرائيل ، ومكان الإقامة الدائم لرئيس الدولة ورئيس الكنيست ورئيس الحكومة ، ومقر محكمة العدل العليا » (ر . إ . إ . ، ٢٩ و١٩٨٠/٧/٣٠ ، العدد ٢١١٩ ، ص ٣) . هذا نص مشروع القانون قبل إدخال تعديلات عليه . أما صيغته النهائية بعد إقراره في القراءة الأولى ، فهو كما يلي :

« ١ ـ القدس الكاملة والموحدة هي عاصمة لإسرائيل .

« ٢ ـ مقر رئيس الدولة ومقر رئيس الكنيست ورئيس الحكومة ومحكمة العدل العليا .

« ٣ ـ حماية الأماكن المقدسة من أي تدنيس أو أي مساس آخر ، ومن أي شيء من شأنه المساس بحرية وصول أبناء كافة الطوائف إلى الأماكن المقدسة .

« ٤ ـ تحرص الحكومة على تنمية وإزدهار القدس ، وتوفير الرخاء لسكانها ، عن طريق تخصيص موارد خاصة ، ولا سيما تقديم منحة سنوية خاصة لبلدية القدس ، تصادق عليها اللجنة المالية التابعة للكنيست » (**المصدر نفسه**) .

وقد أقر القانون في الكنيست في جلسة ١٩٨٠/٧/٣٠ ، بعد اتفاق تم سلفاً بين المعراخ والليكود حول صيغته النهائية . وكانت نتيجة التصويت على مشروع القانون ، في القراءة الأولى في الكنيست : ٦٥ ضده و١٢ معه ، وتغيب ٤٣ عضواً عن التصويت . وقد عارضه اعضاء حزب مبام ، وعضو الكنيست يوسي سريد من حزب العمل ، (« **معاريف** » ، ١٩٨٠/٧/٢٤) .

والجدير بالذكر أن زعيم المعارضة بيرس قد صوت لصالح القانون « مع أن رابين وحاييم بار ـ ليف ، وأبا ايبن وأوره نمير من المعراخ ، تغيبوا ، ومن المفدال تغيب ابراهام ملاميد ، ومن ليكود تغيب بعض اعضاء حزب الأحرار ، مثل إبرهام كاتس وابرهام شرير ، كما تغيب عيزر وايزمن » ، (**المصدر نفسه**) .

وخلال النقاش في الكنيست ، حذر اوري افنيري « من قلة مصابة بجنون التعصب ، قد تقود إلى تدمير الهيكل الثالث ، مثل الذين قادوا في حينه إلى تدمير الهيكل الثاني ، وأن الكنيست يعلن الحرب على العالم الإسلامي » . (« **هارتس** » ، ١٩٨٠/٧/٢٤) . هذا ، إضافة إلى معارضة جميع أعضاء الحزب الشيوعي وأعضاء حركة « السلام الآن » .

لقد وقعت عملية إقرار مشروع قانون القدس ، بينما كانت الجمعية العامة تناقش ، في جلستها الطارئة ، المشكلة الفلسطينية . وقد ساد اعضاء الكنيست اعتقاد مفاده « أن ليس أمام إسرائيل سوى التكتل والألتفاف حول هذا الاقتراح ، وذلك لعدم ترك مجال للشك بالنسبة لمدى الاتفاق القومي بشأن وحدة القدس ومكانتها التي لا تتزعزع كعاصمة لدولة إسرائيل » (« **معاريف** » ، ١٩٨٠/٧/٢٣) .

ردود الفعل على قانون القدس

أحدث قانون القدس ، الذي اقره الكنيست ، موجة عنيفة من ردود الفعل في الدول العربية والإسلامية ودول العالم ، ولا زالت ردود الفعل هذه تتوالى ضده .

فقد بعث وزير خارجية الولايات المتحدة ، أدموند ماسكي ، بمذكرة إلى رئيس الحكومة مناحيم بيغن ، أبدى فيها « احتجاجه الشديد على نية رئيس الحكومة نقل مقر رئاسة الحكومة إلى القدس الشرقية بعد إقرار قانون القدس » وقد صادق على هذه المذكرة الرئيس كارتر » (« **المصدر نفسه** » ، ١٩٨٠/٧/٢٤) . وتعتبر هذه المذكرة تجسيداً لغضب الإدارة الاميركية بالنسبة لقانون القدس وباقي الإجراءات المترتبة عليه .

وفي حديث آخر للوزير ماسكي مع بعض أعضاء الكونغرس ، قال : « أن قرار إسرائيل بضم القدس قد أثاره . وحذر من أن يلحق القرار ضرراً بعلاقات إسرائيل مع دول العالم التي قد تحذو حذو فنزويلا ، وتنقل سفاراتها من القدس » (ر . إ . إ . ، ٢٨ و١٩٨٠/٧/٢٩ العدد ٢١١٨ ، ص ٤) .

وكان سفير فنزويلا قد ابلغ وزارة الخارجية الإسرائيلية قرار بلاده نقل سفارتها من القدس إلى تل ـ أبيب ، وذلك بعد إقامتها ١٢ سنة في القدس . وثمة مخاوف في إسرائيل ، « من أن تشكل خطوة فنزويلا هذه كرة ثلجية ، تؤدي إلى تراجع دول أميركا

اللاتينية عن تأييد إسرائيل » (المصدر نفسه)

وقد أعرب زعيم الأكثرية في مجلس الشيوخ الاميركي ، رويرت بيرد ، « عن شكوكه فيما إذا كان على الموظفين الاميركيين زيارة رئيس الحكومة في ديوانه في القدس الشرقية ... وأن الولايات المتحدة لا تعترف بضم القدس الشرقية ، كما أن معظم الدول لا تعترف بهذا الضم » (ر . إ . إ . ، ٦ و٧/٨/١٩٨٠ ، العدد ٢١٢٦ ، ص ١٢) . وقد وصف بيرد أعمال إسرائيل بالنسبة لما يتعلق بوضع القدس بإنها ضيقة النظر وتتنافى ومصالح السلام في المنطقة .

من جهة ثانية ، « صادق مجلس الأمن الدولي على مشروع قرار دان إسرائيل للأعمال التي تقوم بها لتغيير وضع القدس ، ودعا إلى وقف الاحتلال المستمر للأراضي العربية منذ عام ١٩٦٧ ، بما في ذلك القدس الشرقية . وصوتت إلى جانب هذا القرار ١٤ دولة عضو في مجلس الأمن ، بينما أمتنعت الولايات المتحدة » (المصدر نفسه ، ٣٠/٦/ و ١/٧/١٩٨٠ ، العدد ٢٠٩٥ ، ص ٥) . ولم تستعمل الولايات المتحدة حق النقض كما كانت تأمل إسرائيل .

المعارضة الإسرائيلية

تلخصت المعارضة الإسرائيلية لقانون القدس ونقل مقر رئيس الحكومة إلى القطاع الشرقي من المدينة ، بعدة أصوات . فقد عارض هذا القانون رئيس بلدية القدس ، تيدي كوليك ، حيث قال : « انني آسف لهذا القانون برمته ، وأعتقد أننا ، بوجه الإجمال ، لن نجني الخير من قانون كهذا ... » (المصدر نفسه ، ٢٩ و٣٠/٧/١٩٨٠ ، العدد ٢١١٩ ، ص ٤) .

وفي مقابلة مع محطة إذاعة المانيا الغربية الرسمية ، قال رئيس بلدية القدس تيدي كوليك : « أن قانون القدس عمل سخيف وعاطفي و [أنه] سيسبب صعوبات لإسرائيل ، وأن نقل مقر رئيس الحكومة إلى القدس الشرقية ، خطوة تفتقر للتفكير الجدي والكافي » (المصدر نفسه ، ٨ و٩/٨/١٩٨٠ ، العدد ٢١٢٨ ، ص ٦) .

وقد أبدى رئيس مجلس كبار حكماء التوراة ، الحاخام العيزر شاخ ، معارضته لقانون القدس « وحذر اعضاء الكنيست من كتلة « اغودات يسرائيل » من التصويت الى جانب القانون » (المصدر نفسه) .

الدول الإسلامية

اعدت الدول الإسلامية ، بإستثناء الاحتجاجات الرسمية وغير الرسمية والشكليات والخطب والمقالات ، أعدت في الأمم المتحدة « مشروع قرار جديد ، يدعو لفرض عقوبات على إسرائيل ، إذا لم تنفذ قرار مجلس الأمن ، بخصوص القدس حتى ١٥ تشرين الثاني ١٩٨٠ » (المصدر نفسه ، ١٢ و١٣/٨/١٩٨٠، العدد ٢١٢٩، ص٣) . والجدير بالذكر إن الدول العربية تحاول تحديد تاريخ ١٥ تشرين الثاني كموعد إنذار لقبول إسرائيل قرارات مجلس الأمن ، وكانت الجمعية العامة قد أقرت بأن على إسرائيل تنفيذ القرارات في هذا الموعد . والمعروف أن الولايات المتحدة قررت إستعمال حق النقض في حالة إتخاذ قرار يفرض عقوبات على إسرائيل .

مكرم يونس

Palestine Affairs

No. 106, September 1980

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

الثمن : ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الإمارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهماً في ج.ع.ل
٧٥٠ درهماً في المغرب

